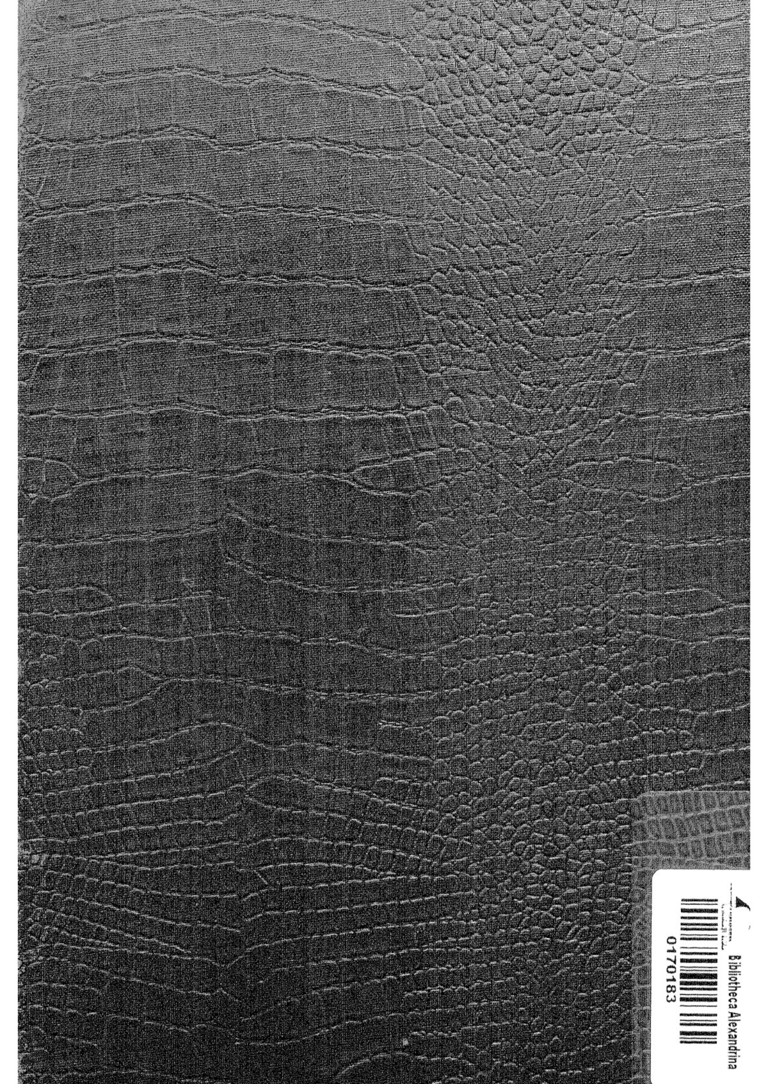
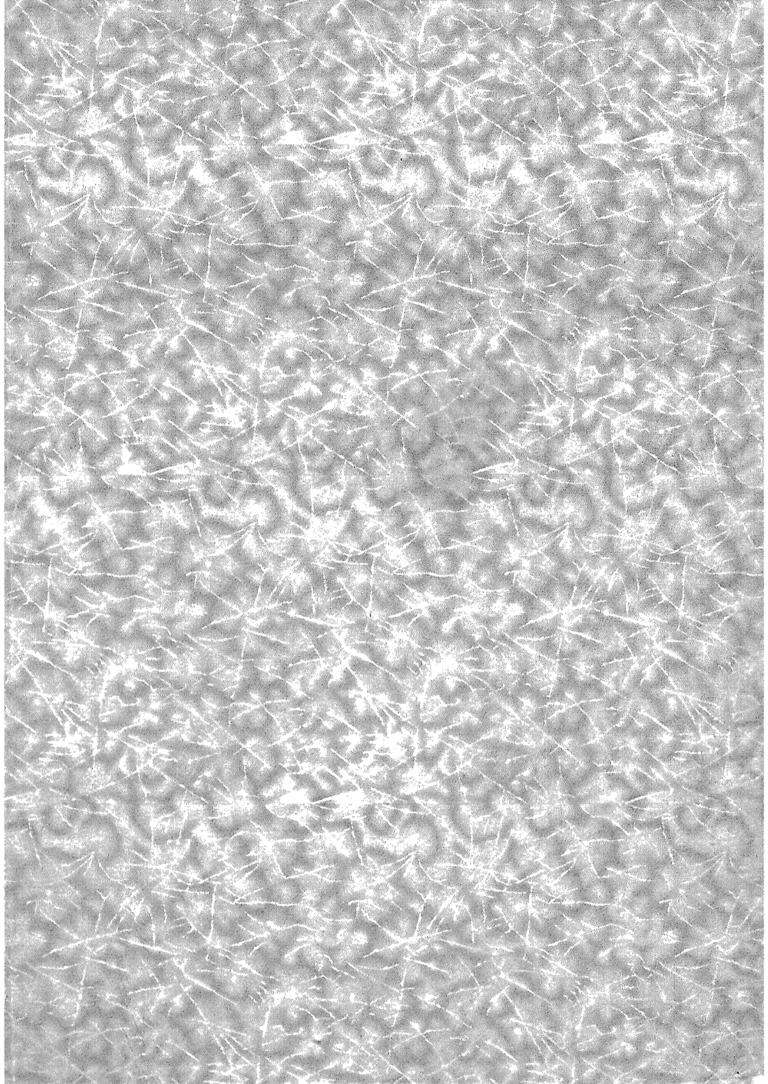
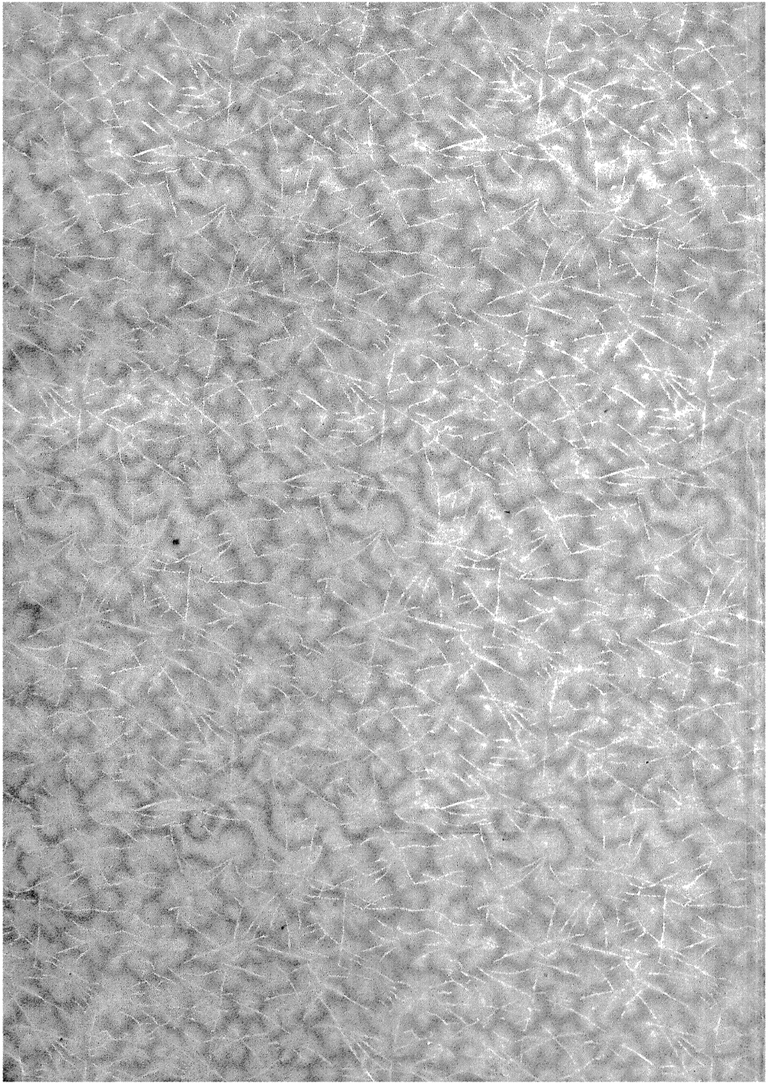

Bibliotheca Alexandrina
0170183













القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م

الطبعة الثانية بمطبعة دار الكتب المصرية

فهرس الجزء السابع

تفسير سورة الأنعام

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

سورة الأعراف

*

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

سورة الأنفال

اســـتدراك

تقدّم فى الجزء الرابع ص ٥٣ عند الكلام على قوله تعالى : « قل اللّهمّ » بيت الأعشى :

كدعوة من أبى رَباح * يسمعها لاهُمَ الكُبارُ

وصوابه كما أورده صاحب الخزانة :

كَحَلْفَة من أبى رِياح * يسمعها اللّهُمَ الكُبارُ

قال : « وإنشاد العامة : * يسمعها لاهه الكبار *

وأورده جماعة من النحويين منهم المرادى : * يسمعها لاهم الكبار *

وأبو رياح (بياء تحتها نقطتان) : رجل من ضبيعة ، وهو حصن بن عمرو بن بدر ، وكان قتل رجلا من بنى سعد بن ثعلبة ؛ فسألوه أن يحلف أو يعطى الدّية فحلف ، ثم قُتل بعد حَلْفته ، فضربته العرب مثلا لما لا يُغنى من الحَلف » . (راجع خزانة الأدب للبغدادى فى الشاهد الخامس والعشرين بعد المائة) .

وورد فى الصفحة المذكورة : * فإننا من خيره أن نَعدما *

وصوابه : * فإننا من خيره لن نُعدما * (راجع الشاهد الحادى والثلاثين بعد المائة).

وتقدّم فيه عند الكلام على قوله تعالى : «قال رب اجعل لى آية ...» ص ٨٠ فى المسألة الرابعة : « لا صُمْتُ يوما الى الليل » بضم الصاد والتاء . وصوابه كما فى اللسان مادة صمت : « لا رَضاع بعد فِصال ، ولا يُتْمَ بعد الحُلُم ، ولا صَمْتَ يوما الى الليل . والصمت السكوت » .

أحمد عبد العليم البردونى

المصحح بالقسم الأدبى بدار الكتب المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (٥٩)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — جاء فى الخبر أن هذه الآية لما نزلت نزل معها اثنا عشر ألف ملك . وروى البخاريّ عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ولا يعلم ما فى غد إلا الله ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله ولا تدرى نفس بأىّ أرض تموت إلا الله ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله" . وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت : من زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر بما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفِرْية ؛ والله تعالى يقول : « قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ »(1) . ومفاتح جمع مَفْتح، هذه اللغة الفصيحة . ويقال : مفتاح ويجمع مفاتيح . وهذه قراءة ابن السَّمَيْقَع « مفاتيح » . والمِفتح عبارة عن كل ما يُحَلّ غَلَقا ، محسوسا كان كالقُفْل على البيت أو معقولا كالنظر . وروى ابن ماجه فى سننه وأبو حاتم البُسْتيّ فى صحيحه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ من الناس مفاتيحَ للخير مَغاليقَ للشرّ وإن من الناس مفاتيحَ للشرّ مغاليقَ للخير فطُوبَى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه ووَيْلٌ لمن جعل الله مفاتيح الشرّ على يديه" . وهو فى الآية استعارة عن التوصُّل إلى الغيوب كما يتوصّل فى الشاهد بالمفتاح إلى الغيب عن الإنسان ؛

---

(1) آية ٦٥ سورة النمل .

ولذلك قال بعضهـم : هو مأخوذ من قول الناس افتـح علىّ كذا ؛ أى أعطنى أو علّمنى ما أتوصل إليه به . فالله تعالى عنـده علم الغيب، و بيـده الطرق الموصّلة إليه ، لا يملكها إلا هو، فمن شاء أطلاعه عليها أطلعه ، ومن شاء حجبه عنها حجبه. ولا يكون ذلك من إفاضة إلا على رسـله ؛ بدليل قوله تعالى : « وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِى مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ»(١) وقال : «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَى مِنْ رَسُولٍ»(٢) . وقيل : المراد بالمفاتح خزائن الرزق ؛ عن السـدّى والحسن . مُقاتِل والضحّاك : خزائن الأرض. وهذا مجاز، عبّر عنها بما يتوصّل إليها به . وقيل غير هذا مما يتضمنه معنى الحديث، أى عنده الآجال و وقت انقضائها . وقيل : عواقب الأعمار وخواتم الأعمال ؛ إلى غير هذا من الأقوال . والأوّل المختار . والله أعلم .

الثانيـــة — قال علماؤنا : أضاف سبحانه علم الغيب إلى نفسه فى غير ما آية من كتابه إلا من ٱصطفى من عباده . فمن قال : إنه ينزّل الْغَيْث غدًا وجزم فهو كافر، أخبر عنه بأمارة ٱدّعاها أم لا . وكذلك من قال : إنه يعلم ما فى الرّحِم فهو كافر؛ فإن لم يجزم وقال : إن النّوْء(٣) ينزل الله به المـاء عادة، وأنه سبب المـاءَ عادةً، وأنه سبب المـاء على ما قدّره وسبق فى علمه لم يكفر؛ إلا أنه يستحب له ألا يتكلم به، فإن فيه تشبيها بكلمة أهل الكفر، وجهلا بلطيف حكمته؛ لأنه ينزل متى شاء، مرّة بنَوْء كذا ، ومرّة دون النّوْء ؛ قال الله تعالى(٤) : ”أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر [بالكواكب]“ على ما يأتى بيانه فى « الواقعـة »(٥) إن شاء الله . قال ابن العربىّ : وكذلك قول الطبيب : إذا كان الثّدْى الأيمن مسودّ الحَلَمة فهو ذكر، وإن كان فى الثـدى الأيسر فهو أنثى ، وإن كانت المرأة تجد الجنب الأيمن أثقل فالولد أنثى؛ وٱدّعى ذلك عادة لا واجبا فى الخلقة لم يكفر ولم يفسق . وأما من ٱدّعى الكسب فى مستقبل العمر فهو كافر . أو أخبر عن الكوائن المجملة أو المفصلة فى أن تكون قبل أن تكون فلا ريبة

---

(١) آية ١٧٩ سورة آل عمران . (٢) آية ٢٦ سورة الجن . (٣) النوء : سقوط نجم من المنازل فى المغرب مع الفجـر وطلوع آخر من المشرق يقابله من ساعته ؛ وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد الى الساقط منها . (٤) أى فى الحديث القدسى . (٥) فى قوله تعالى : « وتجعلون رزقكم ...» آية ٨٢ .

فى كفره أيضا . فأمّا من أخبر عن كسوف الشمس والقمر فقد قال علماؤنا : يؤدّب ولا يسجن . أمّا عدم كفره فلأن جماعة قالوا : إنه أمر يُدرَك بالحساب وتقدير المنازل حسب ما أخبر الله عنه من قوله : «وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ» (١) . وأما أدبهم فلأنهم يُدخلون الشك على العامّة ، إذ لا يدرون الفرق بين هذا وغيره ؛ فيشوّشون عقائدهم ويتركون قواعدهم فى اليقين فأدّبوا حتى يستروا ذلك إذا عرفوه ولا يعلنوا به .

قلت : ومن هذا الباب ما جاء فى صحيح مسلم عن بعض أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من أتى عَرّافا [فسأله عن شيء] (٢) لم تقبل له صلاة أربعين ليلة". والعرّاف هو الحازِى والمنجم الذى يدّعى علم الغيب . وهى العِرافة وصاحبها عَرّاف ، وهو الذى يستدل على الأمور بأسباب ومقدّمات يدّعى معرفتها . وقد يعتضِد بعض أهل هذا الفن فى ذلك بالزّجر والطّرْق والنجوم ، وأسباب معتادة فى ذلك . وهذا الفنّ هو العِيَافة (بالياء) . وكلّها ينطلق عليها ٱسم الكهانة ؛ قاله القاضى عِيَاض . والكهانة : ٱدعاء علم الغيب . قال أبو عمر بن عبد البر فى (الكافى) : من المكاسب المجتمَع على تحريمها الربا ومهور البغايا والسُّحْت والرّشا وأخذ الأجرة على النياحة والغناء ، وعلى الكهانة وٱدعاء الغيب وأخبار السماء ، وعلى الزَّمْر واللّعِب والباطل كله . قال علماؤنا : وقد ٱنقلبت الأحوال فى هذه الأزمان بإتيان المنجّمين والكُهّان ، لا سيّما بالديار المصرية ؛ فقد شاع فى رؤسائهم وأتباعهم وأمرائهم ٱتخاذ المنجّمين ، بل ولقد ٱنخدع كثير من المنتسبين للفقه والدّين فجاءوا إلى هؤلاء الكهنة والعرّافين فبهرَجوا عليهم بالمحال ، وٱستخرجوا منهم الأموال ، فحصلوا من أقوالهم على السراب والآل (٣) ، ومن أديانهم على الفساد والضلال . وكل ذلك من الكبائر ؛ لقوله عليه السلام : "لم تقبل له صلاة أربعين ليلة". فكيف بمن ٱتخذهم وأنفق عليهم معتمدا على أقوالهم . روى مسلم عن عائشة قالت : سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أناس عن الكُهّان فقال :

(١) آية ٣٩ سورة يس . (٢) زيادة عن صحيح مسلم . (٣) السراب : الذى يكون نصف النهار لاطئا بالأرض لاصقا بها كأنه ماء جار . والآل : الذى يكون بالضحى يرفع الشخوص ويزها كالملا بين السماء والأرض .

"ليس بشيء" فقالوا : يا رسول الله، إنهم يحدّثون أحيانا الشيء فيكون حقًّا ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنيّ فيَقُرُّها(١) في أذن وليّه [قَرّ الدجاجة](٢) فيخلطون معها مائة كذبة". قال الحُمَيديّ(٣) : ليس ليحيي بن عروة عن أبيه عن عائشة في الصحيح غير هذا . وأخرجه البخاريّ من حديث أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن عن عروة عن عائشة أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الملائكة تنزل في العَنَان وهو السحاب فتذكر الأمر قُضِى في السماء فتَسْتَرِق الشياطينُ السمع فتسمعه فتوحيه الى الكُهّان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم" . وسيأتي هذا المعنى في « سبأ » إن شاء الله تعالى(٤) .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ خصّهما بالذّكر لأنهما أعظم المخلوقات المجاورة للبشر، أي يعلم ما يهلك في البر والبحر . ويقال : يعلم ما في البر من النبات والحبّ والنّوى، وما في البحر من الدواب ورزق ما فيها، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها . روى يزيد بن هارون عن محمد بن إسحاق عن نافع عن ٱبن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "ما من زرع على الأرض ولا ثمار على الأشجار ولا حبة في ظلمات الأرض إلا عليها مكتوب بسم الله الرحمن الرحيم رِزق فلان بن فلان وذلك قوله في مُحكم كتابه « وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ »". وحكى النقّاش عن جعفر بن محمد أن الورقة يراد بها السّقط من أولاد بني آدم، والحبة يراد بها الذي ليس بسقط، والرطب يراد به الحيّ، واليابس يراد به الميت . قال ابن عطية : وهذا قول جارٍ على طريقة الرموز، ولا يصح عن جعفر بن محمد ولا ينبغي أن يلتفت إليه . وقيل : المعنى «وما تسقط من ورقة» أي من ورق الشجر إلا يعلم متى تسقط وأين تسقط وكم تدور في الهواء، ولا حبة إلا يعلم متى تنبت وكم تنبت ومن يأكلها . ﴿ فِي ظُلُمَاتِ ٱلْأَرْضِ ﴾ بطونها . وهذا أصح؛ فإنه موافق للحديث وهو مقتضى الآية . والله أعلم . وقيل : «في ظلمات الأرض»

(١) القر : ترديدك الكلام في أذن المخاطب حتى يفهمه . (٢) الزيادة عن صحيح مسلم .
(٣) هو أحد رواة سند هذا الحديث . (٤) في قوله تعالى : « ولا تنفع الشفاعة عنده ... » آية ٢٣

يعنى الصخرة التى هى أسفل الأرضين السابعة . « ولا رَطْبٍ ولا يابِسٍ » بالخفض عطفا على اللفظ . وقرأ ابن السَّمَيْقَع والحسن وغيرهما بالرفع فيهما عطفا على موضع « من ورقة »؛ فـ«ـمن» على هذا للتوكيد. ﴿ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ أى فى اللوح المحفوظ لتعتبر الملائكة بذلك، لا أنه سبحانه كتب ذلك لنسيان يلحقه، تعالى عن ذلك. وقيل: كتبه وهو يعلمه لتعظيم الأمر، أى اعلموا أن هذا الذى ليس فيه ثواب ولا عقاب مكتوب، فكيف بما فيه ثواب وعقاب.

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ﴾ أى ينيمكم فيقبض نفوسكم التى بها تميزون، وليس ذلك موتا حقيقة بل هو قبض الأرواح عن التصرف بالنوم كما يقبضها بالموت . والتَّوَفِّى استيفاء الشيء . وتُوُفِّىَ الميت آستوفى عدد أيام عمره ، والذى ينام كأنه استوفى حركاته فى اليقظة . والوفاة الموت . وأوفيتك المال ، وتوفّيته ، وآستوفيته إذا أخذته أجمع . وقال الشاعر :

إنّ بَنِى الأَدْرَدِ ليسوا من أحَدْ * ولا توفّاهم قريشٌ فى العَدَدْ

ويقال : إن الروح إذا خرج من البدن فى المنام تبقى فيه الحياة؛ ولهذا تكون فيه الحركة والنفس ، فإذا انقضى عمره خرج روحه وتنقطع حياته ، وصار ميتا لا يتحرك ولا يتنفس . وقال بعضهم . لا تخرج منه الروح ، ولكن يخرج منه الذهن . ويقال : هذا أمر لا يعرف حقيقته إلا الله تعالى . وهذا أصح الأقاويل، والله أعلم . ﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ أى فى النهار؛ ويعنى اليقظة . ﴿ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ أى ليستوفى كل إنسان أجلا ضرب له . وقرأ أبو رجاء وطلحة بن مُصَرِّف « ثم يبعثكم فيه ليقضى أجلا مسمى » أى عنده . و « جرحتم » كسبتم . وقد تقدّم فى « المائدة » . وفى الآية تقديم وتأخير ، والتقدير وهو الذى يتوفاكم بالليل ثم يبعثكم بالنهار ويعلم ما جرحتم فيه؛ فقدّم الأهم الذى من أجله وقع البعث فى النهار .

وقال ابن جُريج : « ثم يبعثكم فيه » أى فى المنـام . ومعنى الآية : ان إمهاله تعالى للكفار ليس لغفلة عن كفرهم فإنه أحصى كل شىء عددا وعلمه وأثبته ، ولكن ليقضى أجلا مسمى من رزق وحياة، ثم يرجعون إليه فيجازيهـم . وقد دلّ على الحشر والنشر بالبعث لأن النشأة الثانية منزلتهـا بعـد الأولى كمنزلة اليقظة بعـد النوم فى أنّ من قدر على أحدهمـا فهو قادر على الآخر .

قوله تعـالى : وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ يعنى فوقية المكانة والرتبة لا فوقية المكان والجهة، على ما تقدّم بيانه أوّل السورة . ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ أى من الملائكة . والإرسال حقيقته إطلاق الشىء بمـا حمل من الرسالة؛ فإرسال الملائكة بمـا حملوا من الحفظ الذى أمروا به؛ كما قال : « وإنّ عليكم لحافِظِين »(1) أى ملائكة تحفظ أعمال العباد وتحفظهم من الآفات . والحَفَظة جمع حافظ، مثل الكَتَبة والكاتب . ويقال : إنهما مَلَكان بالليل ومَلَكان بالنهار، يكتب أحدهما الخير والآخر الشر، وإذا مشى الإنسان يكون أحدهما بين يديه والآخر وراءه، وإذا جلس يكون أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله؛ لقوله تعالى: « عَنِ الْيَمِينِ وعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ »(2) . ويقال : لكل إنسان خمسة من الملائكة : اثنان بالليل، واثنان بالنهار، والخامس لا يفارقه ليلا ولا نهارا . والله أعلم . وقال عمر بن الخطاب :

ومن النـاس مَن يعيش شقيًّا * جاهلَ القلب غافلَ اليقظَـهْ
فإذا كان ذا وفاء ورأيٍ * حذِر الموتَ واتّقى الحفظـه
إنمـا الناس راحل ومقـيم * فالذى بَانَ للمقـيم عِظـه

(1) آية ١٠ سورة الانفطار . (2) آية ١٧ سورة ق .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ يريد أسبابه ؛ كما تقدّم فى « البقرة »[1] . ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ على تأنيث الجماعة ؛ كما قال : « وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ » و « كَذَّبَتْ رُسُلٌ » . وقرأ حمزة « تَوفّاه رسُلنا » على تذكير الجمع . وقرأ الأعمش « تَتوفاه رسلنا » بزيادة تاء والتذكير . والمراد أعوان مَلَك الموت ؛ قاله ابن عباس وغيره . ويروى أنهم يَسُلُّون الروح من الجسد حتى إذا كان عند قبضها قبضها ملك الموت . وقال الكلْبىّ : يقبِض ملك الموت الروح من الجسد ثم يسلمها الى ملائكة الرحمة إن كان مؤمنا أو إلى ملائكة العذاب إن كان كافرا . ويقال : معه سبعة من ملائكة الرحمة وسبعة من ملائكة العذاب ؛ فإذا قبض نفسا مؤمنة دفعها إلى ملائكة الرحمة فيبشرونها بالثواب ويصعدون بها إلى السماء ، وإذا قبض نفسا كافرة دفعها إلى ملائكة العذاب فيبشرونها بالعذاب ويفزعونها ، ثم يصعدون بها الى السماء ثم تردّ إلى سِجّين ، وروح المؤمن إلى علِّيّين . والتوفّى تارة يضاف الى ملك الموت ؛ كما قال : « قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ »[2] . وتارة إلى الملائكة لأنهم يتولّون ذلك ؛ كما فى هذه الآية وغيرها . وتارة إلى الله وهو المُتَوَفِّى على الحقيقة ؛ كما قال : « اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا »[3] « قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ »[4] « الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ »[5] . فكل مأمور من الملائكة فإنما يفعل ما أمر به . ﴿ وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ أى لا يضيّعون ولا يقصّرون ، أى يطيعون أمر الله . وأصله من التقدّم ؛ كما تقدّم . فمعنى فرّط قدّم العَجز . وقال أبو عبيدة : لا يتوانون . وقرأ عبيد بن عمير « لا يُفْرِطون » بالتخفيف ، أى لا يجاوزون الحدّ فيما أمروا به من الإكرام والإهانة . ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ ﴾ أى ردّهم الله بالبعث للحساب . ﴿ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ أى خالقهم ورازقهم وباعثهم ومالكهم . « الحقِّ » بالخفض قراءة الجمهور ، على النعت والصفة لاسم الله تعالى . وقرأ الحسن « الحقَّ » بالنصب على إضمار أعنى ، أو على المصدر ، أى حقاً . ﴿ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ ﴾ أى اعلموا وقولوا له الحكم وحده يوم القيامة ، أى القضاء والفصل . ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾[6] أى لا يحتاج إلى فكرة وروية ولا عَقْد يَد . وقد تقدّم .

(١) راجع جـ ٢ ص ١٣٧ طبعة ثانية . (٢) آية ١١ سورة السجدة . (٣) آية ٤٢ سورة الزمر . (٤) آية ٢٦ سورة الجاثية . (٥) آية ٢ سورة الملك . (٦) راجع جـ ٢ ص ٤٣٥ طبعة ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾

قوله تعـالى : ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أى شدائدهما ؛ يقال : يوم مظلم أى شديد . قال النحاس : والعرب تقول : يومٌ مظلِم إذا كان شديدا ، فإن عظّمت ذلك قالت : يوم ذو كواكب؛ وأنشد سيبويه :

بَنِي أسـدٍ هل تعلمـون بلاءنا * إذا كان يومٌ ذو كواكب أشْنَعَا

وجمع « الظلمات » على أنه يعنى ظلمة البرّ وظلمة البحر وظلمة الليـل وظلمة الغَيْم ؛ أى إذا أخطأتم الطريق وخفتم الهلاك دعوتموه ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ﴾ أى من هـذه الشدائد ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أى من الطائعين . فوبّخهم الله فى دعائهم إياه عند الشدائد ، وهم يدعون معـه فى حالة الرخاء غيره بقوله ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ . وقرأ الأعمش « وخِيفَة » من الخـوف ، وأبو بكر عن عاصم « خِفْيـة » بكسر الخاء ، والباقون بضـمها ، لغتـان . و زاد الفرّاء خُفْوة وخِفْوة . قال : ونظيره حُبْيَة وحِبْيَة وحُبْوة وحِبْوة . وقراءة الأعمش بعيدة؛ لأن معنى « تضرُّعاً » أن تظهروا التذلل و « خفية » أن تُبطِنوا مثل ذلك . وقرأ الكوفيون لئن « أنجانا » وٱتساق المعنى بالتاء ؛ كما قرأ أهل المدينة وأهل الشأم .

قوله تعالى : ﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ وقرأ الكوفيون « ينجّيكم » بالتشديد، الباقون بالتخفيف . قيل : معناهما واحد مثل نجا وأنجيته ونجّيته . وقيل : التشـديد للتكثير . والكرب : الغمّ يأخذ بالنفس؛ يقال منه : رجل مكروب . قال عنترة :

ومكروب كشفت الكرب عنه * بطعنـةِ فَيْصَـلٍ لمـا دعانِى

والكُرْبة مشتقة من ذلك .

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ تقـريع وتوبيـخ ؛ مثـل قوله فى أوّل السـورة « ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ » . لأن الحجة إذا قامت بعـد المعرفة وجب الإخلاص، وهم قد جعـلوا

بدلا منـه وهو الإشراك ؛ فحسُن أن يُقرَّعوا و يوَبَّخُوا على هـذه الجهة و إن كانوا مشركين قبل النجاة .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

أي القادر على إنجائكم من الكرب، قادر على تعذيبكم . ومعنى ﴿ مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ الرجم بالحجارة والطوفان والصيحة والريح ؛ كما فعل بعادٍ وثمودَ وقومِ شعيبٍ وقومِ لوطٍ وقـومِ نوحٍ ؛ عن مجاهد وابن جُبـير وغيرِهمـا . ﴿ ومِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ الخسْف والرجفـة؛ كما فعل بقارون وأصحابِ مَدْين . وقيل : « من فوقكم » يعني الأمراء الظلمة ، « ومن تحت أرجلكم » يعني السِّفلة وعَبيد السّـوء ؛ عن ابن عباس ومجاهد أيضا . ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ﴾ وروى عن أبي عبيد الله المدنيّ « أو يُلبسكم » بضم الياء ، أي يجلِّلكم العذاب و يعمّكم به ، وهـذا من اللُّبس بضم الأوّل ، وقراءة الفتـح من اللَّبْس . وهو مُوضـع مشكِل والأعراب يبيّنـه . أي يَلْبس عليكم أمركم ، فحذف أحد المفعولين وحرف الجر؛ كما قال : « وإذا كالُوهم أَوْ وَزَنُوهم »[1] وهذا اللَّبس بأن يخلط أمرهم فيجعلهم مختلِفي الأهواء ؛ عن ابن عباس . وقيل : معنى « يلبسكم شيعا » يقوّي عدوّكم حتى يخالطكم و إذا خالطكم فقد لبسكم . ﴿ شِيَعًا ﴾ معناه فِرَقًا . وقيل : يجعلكم فرقا يقاتل بعضكم بعضا ؛ وذلك بتخليط أمرهم وافتراق أمرائهـم على طلب الدنيا . وهو معنى « ويُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بعضٍ » أي بالحرب والقتل في الفتنة؛ عن مجاهد . والآية عامّة في المسلمين والكفار . وقيـل : هي في الكفار خاصّـةً . وقال الحسن : هي في أهل الصلاة .

قلت : وهو الصحيح؛ فإنه المشاهد في الوجود، فقد لبسنا العدوّ في ديارنا واستولى على أنفسنا وأموالنا، مع الفتنة المستوليـة علينا بقتل بعضنا بعضا واستباحة بعضنا اموال بعض .

(١) آية ٣ سورة المطففين .

نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن . وعن الحسن أيضا أنه تأوّل ذلك فيما جرى بين الصحابة رضي الله عنهـم . روى مسـلم عن ثَوْبَانَ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله زَوَى(١) لِيَ الأرض فرأيت مشارقها ومغاربهـا وإنّ أمتي سـيبلغ مُلْكها ما زُوِىَ لِي منهـا وأعطيت الكنزين الأحمـر والأبيض وإني سألت ربي لأمّتي ألا يهلكها بسـنة عامّة وألا يسـلّط عليهم عدوًّا مِن سِوَى أنفسِهم فيستبيحَ بَيْضَتَهم(٢) وإنّ ربّي قال يا محمد : إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يُرَدّ وإني أعطيتك لأمتك ألاّ أهلكهم بسنة عامّة وألا أسلط عليهم عدوّا من سِوَى أنفسهـم يستبيح بيضـتهم ولو اجتمع عليهـم مَن بإقطارها — أو قال من بين أقطارها — حتى يكون بعضهـم يُهلك بعضاً ويَسْبِي بعضهم بعضا " . وروى النسائيّ عن خَبّاب بن الأَرَتّ، وكان قد شهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه راقب رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلةَ كلّها حتى كان مع الفجر، فلما سلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم من صـلاته جاءه خَبّاب فقال : يارسول الله ، بأبي أنت وأمّي ! لقـد صليتَ الليـلة صـلاة ما رأيتـك صلّيتَ نحوها ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أجَلْ إنهـا صلاة رَغَب ورَهَب سألتُ الله عز وجل فيهـا ثلاث خصال فأعطاني ثنتـين ومنعني واحدة سألت ربي عز وجل ألا يُهلكنا بما أهلك به الأمم فأعطانيها وسألت ربي عز وجل ألا يُظهر علينا عدوًّا مِن غيرنا فأعطانيها وسألت ربي عز وجل ألا يُلبسنا شِيَعًا فمنعنيها " . وقـد أتينا على هـذه الأخبار في كتاب (التذكرة) والحمد لله . وروى أنه لمـا نزلت هذه الآية قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لجبريل : " ياجبريل ما بقاء أمتي على ذلك " ؟ فقال له جبريل : " إنما أنا عبدٌ مثلك فادع ربك وسَلْه لأمتك " فقام رسـول الله صلى الله عليه وسلم فتوضأ وأسـبغ الوضوء وصلى وأحسن الصـلاة ، ثم دعا فنزل جبريل وقال : " يا محمد إن الله تعالى سمع مقالتك وأجارهم من خصلتين وهو العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم " . فقال : " يا جبريل ما بقاء أمتي إذا كان فيهم أهواء مختلفة ويذيق بعضهم بأس بعض " ؟ فنزل جبريل بهـذه الآية :

---

(١) زوى : جمع . (٢) أي مجتمعهم وموضع سلطانهم ومستقرّ دعوتهم .

« الٓمٓ . أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا »[1] الآية . وروى عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية « قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ » . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أعوذ بوجه الله " فلما نزلت « أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ » قال : " هاتان أهون " . وفى سنن ابن ماجه عن ابن عمر قال : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدع هؤلاء الكلمات حين يمسي وحين يصبح : اللّهُمّ إنى أسئلك العافية فى الدنيا والآخرة . اللّهُمّ إنى أسئلك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى . اللّهُم استر عوراتى وآمن رَوْعاتى واحفظنى من بين يدىّ ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى وأعوذ بك أن أغتال من تحتى " . قال وَكِيع : يعنى الخَسْف .

قوله تعالى : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ أى نبين لهم الحجج والدلالات . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ يريد بطلان ما هم عليه من الشِّرْك والمعاصى .

قوله تعالى : وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ ﴾ أى بالقرآن . وقرأ ابن أبى عَبْلَة « وكذبت » بالتاء . ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ أى القصص الحق . ﴿ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ قال الحسن : لست بحافظ أعمالكم حتى أجازيكم عليها ، إنما أنا مُنذِر وقد بلّغت ؛ نظيره « وما أنا عليكم بحفيظ » أى أحفظ عليكم أعمالكم . ثم قيل : هذا منسوخ بآية القتال . وقيل : ليس بمنسوخ ، إذ لم يكن فى وُسعه إيمانهم . ﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ ﴾ لكل خبرٍ حقيقة ، أى لكلّ شىء وقتٌ يقع فيه من غير تقدّم وتأخر . وقيل : أى لكل عمل جزاء . قال الحسن : هذا وعيد من الله تعالى للكفار ؛ لأنهم كانوا لا يُقِرّون بالبعث . الزجّاج : يجوز أن يكون وعيدا بما ينزل بهم فى الدنيا . السُّدّى : استقر يوم بدر ما كان يَعِدُهم به من العذاب . وذكر الثَّعْلَبىّ أنه رأى فى بعض التفاسير أن هذه الآية نافعة من وجع الضرس إذا كتبت على كاغد ووضع على السِّنّ .

(١) أوّل سورة العنكبوت .

قوله تعالى : وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِى آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِى آيَاتِنَا ﴾ بالتكذيب والرّدّ والاستهزاء ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ والخطاب مجرّد للنبيّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : إن المؤمنين داخلون فى الخطاب معه . وهو صحيح؛ فإن العلة سماع الخوض فى آيات الله، وذلك يشملهم وإياه . وقيل : المراد به النبيّ صلى الله عليه وسلم وحده؛ لأن قيامه عن المشركين كان يشق عليهم، ولم يكن المؤمنون عندهم كذلك ؛ فأمر أن ينابذهم بالقيام عنهم إذا استهزءوا وخاضوا ليتأدّبوا بذلك ويدعُوا الخوض والاستهزاء . والخَوْض أصله فى الماء ، ثم استعمل بعدُ فى غَمَرات الأشياء التى هى مجاهل، تشبيها بغَمَرات الماء فاستعير من المحسوس للمعقول . وقيل : هو مأخوذ من الخلط . وكل شيء خُضْتَه فقد خلطته ؛ ومنه خاض الماءَ بالعسل خلطه . فأدّب الله عز وجل نبيّه بهذه الآية . كان يقعد إلى قوم من المشركين يَعِظهم ويدعوهم فيستهزءون بالقرآن؛ فأمره الله أن يُعرض عنهم إعراضَ مُنْكِر . ودلّ بهذا على ان الرجل إذا علم من الآخر منكراً وعلم أنه لا يقبل منه فعليه أن يُعرض عنه إعراض منكر ولا يُقبل عليه . وروى شِبْل عن ابن أبى نَجِيح عن مجاهد فى قوله « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا » قال : هم الذين يستهزءون بكتاب الله ، نهاه الله عن أن يجلس معهم إلا أن ينسى فإذا ذَكَر قام . وروى وَرْقاء عن ابن أبى نَجيح عن مجاهد قال : هم الذين يقولون فى القرآن غير الحق .

الثانيـــة ــ فى هــذه الاية ردٌّ من كتاب الله عز وجل على من زعم أن الأئمة الذين هم حُجَجٌ وأتباعَهم لهم أن يخالطوا الفاسقين ويصوّبوا آراءهم تَقِيّة[1] . وذكر الطبرىّ عن أبى جعفر

(١) التقية والتقاة بمعنى واحد . يريد أنهم يتقون بعضهم بعضا ويظهرون الصلح والاتفاق، وباطنهم بخلاف ذلك .

محمد بن علي أنه قال : لا تجالسوا أهل الخصومات، فإنهم الذين يخوضون في آيات الله . قال ابن العربي : وهـذا دليل على أن مجالسة أهل الكبائر لا تحِلّ . قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : من خاض في آيات الله تُركت مجالسـته وهُجِر، مؤمنا كان أو كافرا . قال : وكذلك منع أصحابنا الدخولَ إلى أرض العدوّ ودخولَ كنائسهم والبِيَع، ومجالسةَ الكفار وأهلِ البِدَع، وألاّ تُعتقد مودّتهم ولا يُسمع كلامهم ولا مناظرتهم . وقد قال بعض أهل البِدع لأبي عِمران النَّخَعِيّ : اسمع مني كلمة ؛ فأعرض عنه وقال : ولا نصف كلمة . ومثله عن أيّوب السَّخْتِيانيّ . وقال الفُضيل بن عِيَاض : من أحبّ صاحبَ بدعة أحبط الله عمله وأخرج نور الإسلام من قلبه، ومن زوّج كريمته من مُبْتَدِع فقد قطع رَحِمَها، ومن جلس مع صاحب بِدْعة لم يُعطَ الحكمة، وإذا علم الله من رجل أنه مُبغِض لصاحب بِدْعة رَجَوْتُ أن يغفر الله له . وروى أبو عبد الله الحاكم عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن وَقَّر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام" . فبطل بهذا كلّه قولُ مَن زعم أن مجالستهم جائزة إذا صانوا أسماعهـم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ ﴾ «إما» شرط، فيلزمها النون الثقيلة في الأغلب وقد لا تلزم؛ كما قال :

إمّا يصبْك عدوّ في مناوأة * يوما فقد كنت تَسْتَعْلِي وتنتصر

وقرأ ابن عباس وابن عامر « يُنَسِّينك » بتشـديد السين على التكثير؛ يقـال : نَسَّى وأنسى بمعنى واحد؛ قال الشاعر :

قالت سُليمى أتَسْرِي اليوم أم تقل[1] * وقد يُنَسِّيك بعضَ الحاجةِ الكسلُ

وقال امرؤ القيس :

* ... تُنَسِّيني إذا قمت سِرْبالي[2] *

(١) كذا في الأصول، ولم نهتد لوجه الصواب فيه . (٢) والبيت بتمامه كما في اللسان :

ومثلك بيضاء العوارض طفـلة * لعـوب تنسيني إذا قمت سربالي

ورواية اللسان «تناساني» بدل «تنسيني» .

المعنى : يا محمد إن أنساك الشـيطان أن تقوم عنهم بمجالستهم بعـد النّهى . ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْـدَ الذِّكْرَى ﴾ أى إذا ذكرت فلا تقعد مع القوم الظالمين ، يعنى المشركين . والذّكرى آسم للتذكير .

الثانيـــة — قيل : هذا خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ؛ ذهبوا إلى تبرئته عليه السلام من النسيان . وقيل : هو خاص به ، والنسيان جائز عليه . قال ابن العربيّ : وإن عذَرْنا أصحابَنا فى [قولهم إن](1) قولَه تعـالى : « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ »(2) خطابٌ للأمة بآسم النبيّ صلى الله عليه وسلم لآستحالة الشِّرْك عليه ، فلا عُذْر لهم فى هذا لجواز النسيان عليه . قال عليه السلام : "نَسِيَ آدمُ فنَسِيت ذرِّيّتُه" خرّجه الترمذيّ وصحّحه . وقال مخبرا عن نفسه : "إنما أنا بشر مثلكم أَنْسَى كما تَنسَوْن فاذا نسيت فذكّرونى" . خرّجه فى الصحيح ، وأضاف النسيان إليه . وقال وقد سمع قراءة رجل : "لقد أذكرنى آيةَ كذا وكذا كنتُ أُنسيتها" .

واختلفوا بعد جواز النسيان عليه ؛ هل يكون فيما طريقه البلاغ من الأفعال وأحكام الشرع أم لا . فذهب إلى الأوّل — فيما ذكره القاضى عياض — عامّةُ العلماء والأئمةُ النُّظّار ؛ كما هو ظاهر القرآن والأحاديث ، لكن شرط الأئمة أن الله تعالى ينبّهه على ذلك ولا يُقرّه عليه . ثم اختلفوا هل من شرط التنبيه آتصالُه بالحادثة على الفَوْر ، وهو مذهب القاضى أبى بكر والأكثر من العلماء ، أو يجوز فى ذلك التّراخى ما لم يَنخرِم عمـره و ينقطع تبليغه ، و إليه نحا أبو المَعـالى . ومنعت طائفة من العلماء السَّهوَ عليه فى الأفعال البلاغية والعبادات الشرعيّة ؛ كما منعوه آتفاقا فى الأقوال البلاغية ، واعتذروا عن الظواهر الواردة فى ذلك ؛ و إليه مال الأستاذ أبو إسحاق . وشذّت الباطِنيّة وطائفةٌ من أرباب علم القلوب فقالوا : لا يجوز النسيان عليه ، و إنمـا يَنْسَى قصدًا ويتعمّد صـورةَ النسيان لِيَسُنّ . ونَحَا إلى هـذا عظيم مِن أئمة التحقيق وهو أبو المظفر الإسفَرَايِنى فى كتابه (الأوسط) وهو منحًى غيرُ سديد ، وجمعُ الضدّ مع الضدّ مستحيل بعيد .

قوله تعـالى : وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِـم مِّن شَىْءٍ وَلَـٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾

---

(1) الزيادة عن ابن العربى . (2) آية ٦٥ سورة الزمر .

قال ابن عباس : لما نزل لا تقعدوا مع المشركين وهو المراد بقوله : « فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ » قال المسلمون : لا يمكننا دخول المسجد والطّواف ؛ فنزلت هذه الآية . ﴿ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ ﴾ أى فإن قعدوا يعنى المؤمنين فليذكّروهم . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الله فى ترك ما هم فيه . ثم قيل : نُسخ هذا بقوله : « وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ »(١) . وإنما كانت الرُّخصة قبل الفتح وكان الوقت وقت تَقِيّة . وأشار بقوله : « وقد نزّل عليكم فى الكتاب » الى قوله : « وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا » . قال القُشَيْرِىّ : والأظهر أن الآية ليست منسوخة . والمعنى : ما عليكم شىء من حساب المشركين، فعليكم بتذكيرهم وزجرهم فإن أبوا فحسابهم على الله . و«ذِكْرَىٰ» فى موضع نصب على المصدر ، ويجوز أن تكون فى موضع رفع ؛ أى ولكن الذى يفعلونه ذكرى، أى ولكن عليهم ذكرى . قال الكِسائِىّ : المعنى ولكن هذه ذكرى .

قوله تعالى : وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)

أى لا تعلّق قلبك بهم فإنهم أهل تعنّت وإن كنت مأمورا بوعظهم . قال قَتادة : هذا منسوخ، نسخه « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ »(٢) . ومعنى ﴿ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾ أى استهزاءً بالدّين الذى دعوتهم إليه . وقيل : استهزءوا بالدين الذى هم عليه فلم يعملوا به . والاستهزاء ليس مُسَوَّغًا فى دين . وقيل : « لعبا ولهوا » باطلا وفرحا، وقد تقدّم هذا(٣) . وجاء اللّعب مقدّما فى أربعة مواضع، وقد نُظمت :

(١) آية ١٤٠ سورة النساء .	(٢) آية ٥ سورة التوبة .

(٣) فى قوله تعالى : « وما الحياة الدنيا ... » آية ٣٢ من هذه السورة .

إذا أتى لعب ولهـــو * وكم من موضع هو فى القُرَان
لحرف فى الحديد وفى القتال * وفى الأنعام منهـا موضـعان

وقيــل : المراد بالدِّين هنـا العيد . قال الكَلْبِىّ : إن الله تعـالى جعل لكل قوم عيدا يعظمونه و يصلّون فيه لله تعالى ، وكلّ قوم اتخذوا عيدهم لعبا ولهوا إلا امة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنهم اتخذوه صلاة وذكرا وحضورا بالصدقة ، مثل الجمعة والفطر والنحر .

قوله تعالى : ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أى لم يعلموا إلا ظاهرا من الحياة الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ ﴾ أى بالقرآن أو بالحساب . ﴿ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أى تُرْتَهن وتُسـلم للهَلَكة ؛ عن مجاهد وقتادة والحسن وعِكْرمة والسُّــدّى . والإبسال : تسليم المرء للهلاك ؛ هـــذا المعروف فى اللغة . أبْسلتُ ولدى أرهنته ؛ قال عَوْف بن الأحوص ابن جعفر :

وإبسالِى بَنِىَّ بغـــيرجُرْمٍ * بَعَوْناه ولا بِـــدَمٍ مُرَاقِ

« بَعَوْناه » بالعين المهملة معناه جنيناه . والبَعْوُ الجناية . وكان حَمَل عن غَنِىّ لبنى قُشـــير دَمَ ابنى السَّجَفِيَّة (١) فقالوا : لا نرضى بك ؛ فرهنهم بنيه طلبا للصلح . وأنشد النابغة :

ونحن رَهنَّا بالأُفَاقــــة (٢) عامِرًا * بما كان فى الدَّرْدَاء رَهْنًا فأُبْسِلَا

الدرداء : كتيبة كانت لهم . ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ (٣) وَلَا شَفِيعٌ (٤) ﴾ تقدّم معناه .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا ﴾ الآية . العدل الفِدْية ، وقدتقدّم فى « البقرة » (٥) . والحَمِيم المـاء الحارّ ؛ وفى التنزيل « يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (٦) » . « يَطُوفُونَ

(١) كذا فى اللسان وشرح القاموس . والذى فى صحاح الجوهرى ونسخ الأصل : « السحفية » بالحاء المهملة بدل الجيم .

(٢) الأفاقة (كثمامة) : موضع بالبحرين قرب الكوفة . أو هو ماء لبنى يربوع .

(٣) راجع جـ ٣ ص ٢٨٢ ، جـ ٤ ص ١٠٩ طبعة أولى أو ثانية .

(٤) راجع جـ ١ ص ٣٧٨ طبعة ثانية أو ثالثة . وجـ ٣ ص ٢٧٣ طبعة أولى أو ثانية .

(٥) راجع جـ ١ ص ٣٨٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٦) آية ١٩ سورة الحج .

بينها وبين حميم آن[1] » . والآية منسوخة بآية القتال . وقيل : ليست بمنسوخة؛ لأن قوله : « وذر الذين اتخذوا دينهم » تهديد ؛ كقوله : « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا[2] » . ومعناه لا تحزن عليهم ؛ فإنما عليك التبليغ والتذكير بإبسال النفوس . فمن أبسل فقد أسلم وارتهن . وقيل : أصله التحريم ، من قولهم : هذا بَسْلٌ عليك أي حرام ؛ فكأنهم حُرموا الجنة وحُرمت عليهم الجنة . قال الشاعر[3] :

أجارتكم بَسْلٌ علينا مُحَرَّمٌ * وجارتنا حِلٌّ لكم وحَليلُها

والإبسال : التحريم .

قوله تعالى : قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ الْحَقُّ ۚ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣)

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا ﴾ أي ما لا ينفعنا إن دعوناه . ﴿ وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ إن تركناه ؛ يريد الأصنام . ﴿ وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ أي نرجع إلى الضلالة بعد الهدى . وواحد الأعقاب عَقِب وهي مؤنثة ، تصغر عُقَيبة . يقال : رجع فلان على عَقِبيه إذا أدبر . قال أبو عبيدة : يقال لمن رُدّ عن حاجته ولم يظفر بها قد رُدّ على عَقِبيه . وقال المبرد : معناه تُعقِّب بالشر بعد الخير . وأصله من العاقبة والعُقبى وهما ما كان تاليا

(١) آية ٤٤ سورة الرحمن . (٢) آية ٣ سورة الحجر . (٣) هو الأعشى كما في اللسان .

للشيء واجبا أن يتبعه؛ ومنه « والعاقبة للتقين » . ومنه عَقِب الرِّجل . ومنه العقوبة لأنها تالية للذنب، وعنه تكون .

قوله تعـالى : ﴿ كَالَّذِى ﴾ الكاف فى موضع نصب نعت لمصدر محذوف . ﴿ ٱسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾ أى استغوته وزيّنت له هواه ودعته إليه . يقال : هَوَى يَهْوِى إلى الشيء أسرع إليه . وقال الزجاج : هو من هَوِىَ يَهْوَى، مِن هَوَى النفس؛ أى زيّن له الشيطان هواه . وقراءة الجماعة « استهوته » أى هوت به، على تأنيث الجماعة . وقـرأ حمزة « استهواه الشـياطين » على تذكير الجمع . وروى عن ابن مسعود « استهواه الشيطان » ، وروى عن الحسن، وهو كذلك فى حرف أُبَىّ . ومعنى « آئتنا » تابعنا . وفى قراءة عبد الله أيضا « يَدعُونه إلى الهُدَى بَيِّنًا » . وعن الحسن أيضا « استهوته الشياطون » . ﴿ حَيْرَانَ ﴾ نصب على الحـال ، ولم ينصرف لأن أنثـاه حَيْرَى كسكران وسكرى وغضبان وغضبى . والحَيْرانُ هو الذى لا يَهتـدى لجهة أمره . وقد حار يَحار حَيْرًا وحَيْرَة وحَيْرورة[(١)]، أى تردّد . وبه سُمّى المـاء المستنقَع الذى لا منفـذ له حائرا ، والجمع حُورَان . والحائر الموضع يتحيّر فيه المـاء . قال الشاعر :

تَخْطُو على بَرْدِيّتَين غذاهما * غَدِقٌ بساحة حائرٍ يَعْبُوبُ[(٢)]

قال ابن عباس : أى مَثَـل عابد الصنم مَثَـل من دعاه الغُول فيتبعه فيُصبح وقـد ألقته فى مَضَلّة ومَهْلَكة؛ فهو حائر فى تلك المَهامه . وقال فى رواية أبى صالح : نزلتْ فى عبدالرحمن آبن أبى بكر الصدّيق ، كان يدعو أباه الى الكفر وأبواه يدعوانه إلى الإســلام والمسلمون ؛ وهو معنى قوله : ﴿ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُـدَى ﴾ فيأبَى . قال أبو عمر : أمّه أمّ رُومانَ بنت الحارث بن غَنْم الكنانيّة؛ فهو شقيق عائشة . وشَهِد عبدُ الرحمن بن أبى بكر بَدْرًا وأُحُدًا مع قومه كافرا ، ودَعَا إلى البراز فقام إليه أبوه ليبارزه فذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) لم نجد هذا المصدر فى كتب اللغة . وفى تفسير الفخر الرازى : « ... وزاد الفــراء حيرانا وحيرورة » .
(٢) اليعبوب : الطويل .

قال : "مَتِّعْني بنفسك" . ثم أسلم وحسُن إسلامه ، وصحب النبيّ صلى الله عليه وسلم في هُدْنة الحُدَيْبِيَة . هذا قول أهل السِّيَر . قالوا : كان ٱسْمُه عبدَ الكعبة فغيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم اسْمَه عبد الرحمن ، وكان أسنَّ ولد أبي بكر . ويقال : إنه لم يدرك النبيَّ صلى الله عليه وسلم أربعةٌ وِلاءً : أبٌ وبنوه إلا أبا قُحافة وابنَه أبا بكر وٱبنَه عبد الرحمن بن أبي بكر وابنَه أبا عتيق محمد بن عبد الرحمن . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ اللام لام كي ، أي أمرنا كي نسلم وبأن أقيموا الصلاة ؛ لأن حروف الإضافة يعطف بعضها على بعض . قال الفَرّاء : المعنى أمرنا بأن نسلم ؛ لأن العرب تقول : أمرتك لتذهب، وبأن تذهب بمعنًى . قال النحاس : سمعت أبا الحسن بن كَيْسان يقول هي لام الخفض ، واللامات كلها ثلاث : لامُ خفضٍ ولامُ أمرٍ ولامُ توكيد، لا يخرج شيء عنها . والإسلام الإخلاص . وإقامة الصلاة الإتيان بها والدّوام عليها . ويجوز أن يكون « وأن أقيموا الصلاة » عطفًا على المعنى ، أي يدعونه إلى الهدى ويدعونه أن أقيموا الصلاة ؛ لأن معنى ٱئتنا أنِ ٱئتنا .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ابتداء وخبر وكذا ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ أي فهو الذي يجب أن يُعبد لا الأصنام . ومعنى ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي بكلمة الحق . يعني قوله « كُنْ » .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أي وٱذكر يوم يقول كن . أو ٱتقوا يوم يقول كن . أو قدِّر يوم يقول كن . وقيل: هو عطف على الهاء في قوله « وٱتقوه » . قال الفراء : « كن فيكون » يقال : إنه للصُّور خاصّة ؛ أي ويوم يقول للصُّور كن فيكون . وقيل : المعنى فيكون جميع ما أراد من موت الناس وحياتهم . وعلى هذين التأويلين يكون ﴿ قَوْلُهُ الْحَقُّ ﴾ ابتداء وخبر . وقيل : إن قوله تعالى : « قَوْلُه » رفعا بيكون ؛ أي فيكون ما يأمر به . و « الحَقُّ » من نعته . ويكون التمام على هذا « فيكون قوله الحق » . وقرأ ٱبن عامر

« فنكون » بالنون ، وهو إشارة إلى سرعة الحساب والبعث . وقد تقدّم فى « البقرة » القول فيه مستوفى[١] .

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ أى وله المُلْك يومَ ينفخ فى الصُّور . أو وله الحق يوم ينفخ فى الصور . وقيل : هو بدل من « يوم يقول » . والصُّور قَرْن من نُور يُنفخ فيه ، النفخة الأولى للفَناء والثانية للإنشاء . وليس جمع صُورة كما زعم بعضهم ؛ أى ينفخ فى صُوَر الموتى على ما نبيّنه . روى مُسْلم من حديث عبد الله بن عمرو " يوم يُنفخ فى الصُّـور فلا يسمعه أحد إلا أصغى[٢] لِيتًا ورَفع لِيتًا[٣] — قال — وأوّل من يسمعه رجل يَلُوط[٤] حَوْض إبله — قال — فيَصْعَق ويَصْعَق الناسُ ثم يرسل الله — أو قال ينزل الله — مطرا كأنه الطَّلّ فتَنْبُت منه أجسادُ الناس ثم يُنفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون " وذكر الحديث . وكذا فى التنزيل « ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى »[٥] ولم يقل فيها ؛ فعُلم أنه ليس جمع الصُّورة . والأمم مُجْمِعة على أن الذى يَنفخ فى الصُّور إسرافيلُ عليـه السلام . قال أبو الهَيْثَم : من أنكر أن يكون الصُّور قَرْنا فهو كمن يُنكر العرش والميزان والصراط ، وطلب لها تأويلات . قال ابن فارس : الصُّور الذى فى الحديث كالقَرْن يُنفَخ فيـه . والصُّور جمع صُـورة . وقال الجوهرى : الصُّور القَرْن . قال الراجز :

لقـــد نَطحناهم غَداةَ الجَمْعَيْنِ * نَطْحًا شديدًا لا كنطح الصُّوَرَيْنِ

ومنه قوله : « وَيومَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ »[٦] . قال الكَلْبِيّ : لا أدرى ما هو الصُّور . ويقال : هو جمع صُورة مثل بُسْرَة وبُسْر ؛ أى يُنفخ فى صُوَر الموتى الأرواح . وقرأ الحسن « يومَ يُنفَخُ

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٩ طبعة ثانية .
(٢) أصغى : أمال .
(٣) الليت (بكسر اللام) : صفحة العنق .
(٤) أى يطينه و يصلحه .
(٥) آية ٦٨ سورة الزمر .
(٦) آية ٨٧ سورة النمل .

فى الصُّوَر » . والصِّور (بكسر الصاد) لغة فى الصُّوَر جمع صُورة والجمع صِوار، وصِيار (بالياء) لغةٌ فيه[1] . وقال عمرو بن عبيد : قرأ عِياض « يَوْمَ يُنْفَخُ فى الصُّوَر » فهذا يعنى به الخلق . والله أعلم .

قلت : وممن قال إن المراد بالصُّور فى هذه الآية جمع صُورة أبو عبيدة . وهذا و إن كان محتملا فهو مردود بما ذكرناه من الكتاب والسُّنّة . وأيضا لا ينفخ فى الصور للبعث مرتين؛ بل ينفخ فيه مرة واحدة؛ فإسرافيل عليه السلام يَنفخ فى الصُّور الذى هو القَرْن والله عز وجل يُحيي الصُّوَر .

قوله تعالى : ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ برفع « عالم » صفة للذى؛ أى وهو الذى خلق السموات والأرض عالم الغيب . و يجوز أن يرتفع على إضمار المبتدأ . وقد رُوى عن بعضهم أنه قرأ « يَنْفُخ » فيجوز أن يكون الفاعل « عالِمُ الغَيْبِ » ؛ لأنه إذا كان النفخ فيه بأمر الله عز وجل كان منسوبا إلى الله تعالى . و يجوز أن يكون ارتفع ﴿عَٰلِمُ﴾ حملا على المعنى ؛ كما أنشد سيبويه :

* لِيُبْكَ يَزِيدُ ضارِعٌ لخصُومةٍ[2] *

وقرأ الحسن والأعمش « عالمِ » بالخفض على البدل من الهاء فى « له » .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾

---

(١) نقل المؤلف هنا ما فى الصحاح، وقد حذف منه ما جعل المراد غير واضح . وعبارة الصحاح : «... وقرأ الحسن (يوم ينفخ فى الصور) والصور بكسر الصاد لغة فى الصور جمع صورة . و ينشد هذا البيت على هذه اللغة يصف الجوارى : أشبهن من بقر الخلصاء أعينها * وهن أحسن من صِيرانها صِورا

والصيران جمع صوار وهو القطيع من البقر . والصوار أيضا وعاء المسك ؛ وقد جمعهما الشاعر بقوله :

إذا لاح الصوار ذكرت ليلى * وأذكرها إذا نفخ الصوار

والصيار لغة فيه» .

(٢) هذا صدر بيت للحارث بن نهيك، وتمامه كما فى كتاب سيبويه :

* ومختبط مما تطيح الطوائح *

وصف أنه كان مقيا لحجة المظلوم ناصرا له . والمختبط : الطالب المعروف . وتطيح : تذهب وتهلك .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ﴾ تكلّم العلماء فى هـذا ؛ فقال أبو بكر محمد ابن محمد بن الحسن الجُوَيْنِي الشافعيّ الأشعريّ فى النكت من التفسير له : وليس بين الناس اختلاف فى أن اسم والد إبراهيم تارَح . والذى فى القرآن يدلّ على أن اسمه آزر . وقيـل : آزر عندهم ذَمٌّ فى لغتهم؛ كأنه قال : وإذ قال لأبيه يامخطئ ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾ وإذا كان كذلك فالاختيار الرفع . وقيل : آزر اسم صنم . وإذا كان كذلك فموضعه نصب على إضمار الفعل؛ كأنه قال : وإذ قال إبراهيم لأبيه أتتخذ آزر إلها، أتتخذ أصناما آلهة .

قلت : ما ادّعاه من الاتفاق ليس عليه وفاق؛ فقد قال محمد بن إسحاق والكَلْبيّ والضحاك : إن آزر أبو إبراهيم عليه السلام وهو تارَخ، مثل إسرائيل ويعقوب؛ فيكون له اسمان كما تقدّم . وقال مقاتل : آزر لقب، وتارَخ اسم، وحكاه الثعلبيّ عن ابن إسحاق القُشَيْرِيّ . ويجوز أن يكون على العكس . قال الحسن : كان اسم أبيه آزر . وقال سليمان التَّيْميّ : هو سَبٌّ وعَيْب، ومعناه فى كلامهم : المعْوَجّ . وروى المُعْتَمِر بن سليمان عن أبيه قال : بلغنى أنها أعوج، وهى أشدّ كلمة قالها إبراهيم لأبيه . وقال الضحّاك : معنى آزر الشيخ الهِمّ (1) بالفارسية . وقال الفرّاء : هى صفة ذَمٍّ بلغتهم؛ كأنه قال يامخطئ؛ فيمن رفعه . أو كأنه قال : وإذ قال إبراهيم لأبيه المخطئ؛ فيمن خفض . ولا ينصرف لأنه على أفعل؛ قاله النحاس . وقال الجوهرى : آزر اسم أعجمى، وهو مشتق من آزر فلان فلانا إذا عاونه؛ فهو مُؤازِرٌ قومَه على عبادة الأصنام . وقيل : هو مشتق من القوّة، والأزر القوّة؛ عن ابن فارس . وقال مجاهد ويمان : آزر اسم صنم . وهو فى هـذا التأويل فى موضع نصب، التقدير : أتتخذ آزر إلهـا، أتتخذ أصناما . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير، التقدير : أتتخذ آزر أصناما .

قلت : فعلى هذا آزر اسم جنس . والله أعلم . وقال الثعلبيّ فى كتاب العرائس : إن اسم أبى إبراهيم الذى سمّاه به أبوه تارَح ، فلما صار مع النُّمْرود قَيِّمًا على خزانة آلهته سمّاه آزر . وقال مجاهد : إن آزر ليس باسم أبيه وإنما هو اسم صنم . وهو إبراهيم بن تارَخ بن ناخور بن ساروع

---

(1) الهم (بكسر الهاء) : الشيخ الفانى .

ابن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرنخشد بن سام بن نوح عليه السلام . و « آزر » فيه قراءات : « أإزرًا » بهمزتين، الأولى مفتوحة والثانية مكسورة ؛ عن ابن عباس . وعنه « أأزرا » بهمزتين مفتوحتين . وقرئ بالرفع، وروى ذلك عن ابن عباس . وعلى القراءتين الأولتين عنه «تتخذ» بغير همزة . قال المَهْدَوِيّ: أإزرا . فقيل : إنه اسم صنم؛ فهو منصوب على تقدير أتتخذ إزرا ، وكذلك أأزرًا . ويجوز أن يجعل أإزرًا على أنه مشتق من الأزر وهو الظهر فيكون مفعولا من أجله ؛ كأنه قال : أللقوة تتخذ أصناما . ويجوز أن يكون إزر بمعنى وِزر، أبدلت الواو همزة . قال القُشيرِيّ: ذكر في الاحتجاج على المشركين قصة إبراهيم وردّه على أبيه فى عبادة الأصنام . وأَوْلَى الناس باتباع إبراهيم العرب؛ فإنهم ذريّته ؛ أى واذكر إذ قال إبراهيم . أو ذكّر به أن تُبسل نفس بما كسبت ، وذكّر إذ قال إبراهيم . وقرئ « آزرُ » أى يا آزرُ، على النداء المفرد، وهي قراءة أُبَيّ ويعقوب وغيرهما . وهو يقوّى قول من يقول : إن آزر اسم أب إبراهيم . ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾ مفعولان ، وفيه معنى الإنكار .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى مُلك، وزيدت الواو والتاء للبالغة فى الصفة . ومثله الرَّغَبُوت والرَّهَبُوت والجَبَرُوت . وقرأ أبو السَّمَّال العَدَوِيّ « مَلْكوت » بإسكان اللام . ولا يجوز عند سيبويه حذف الفتحة لخفّتها ، ولعلها لغة . و﴿ نُرِي ﴾ بمعنى أرينا ؛ بمعنى المُضِيّ . فقيل : أراد به ما فى السموات من عبادة الملائكة والعجائب وما فى الأرض من عصيان بنى آدم ؛ فكان يدعو على من يراه يعصى فيُهلكه الله ، فأوحى الله إليه يا إبراهيم أمسك عن عبادى، أما علمت أن من أسمائى الصَّبور . روى معناه علىّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : كشف الله له عن السموات والأرض حتى العرش وأسفل الأرضين . وروى ابن جُرَيج عن القاسم عن إبراهيم النَّخَعِيّ قال : فُرِجت له

السموات السبع فنظر إليهنّ حتى انتهى إلى العرش ، وفُرجت له الأرَضون فنظر إليهنّ ، ورأى مكانه فى الجنة ؛ فذلك قوله : « وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا »(1) ؛ عن السُّدّى . وقال الضحّاك : أراه من مَلكوت السماء ما قصّه من الكواكب ، ومن ملكوت الأرض البحارَ والجبالَ والأشجارَ، ونحو ذلك مما استدلّ به . وقال بنحوه ابن عباس . وقال : جُعل حين وُلد فى سَرَب(2) وجُعل رزقه فى أطراف أصابعه فكان يَمَصّها، وكان نُمْرود اللّعين رأى رؤيا فعُبِّرت له أنه يذهب ملكه على يدَىْ مولود يُولد ؛ فأمر بعزل الرجال عن النساء . وقيل : أمر بقتل كل مولود ذَكَر . وكان آزر من المقرَّبين عند نُمْرود فأرسله يوما فى بعض حوائجه فواقع آمرأته فحملت بإبراهيم . وقيل : بل واقعها فى بيت الأصنام فحملت وخرّت الأصنام على وجوهها حينئذ ؛ فحملها إلى بعض الشِّعاب حتى وَلدت إبراهيم ، وحفر لإبراهيم سَرَباً فى الأرض ووَضع على بابه صخرة لئلا تفترسه السباع ؛ وكانت أمّه تختلف إليه فتُرضعه ، وكانت تجده يمَصّ أصابعه ، من أحدها عسل ومن الآخر ماء ومن الآخر لبن ، وشَبّ وكان على سَنة مثلَ ابن ثلاث سنين . فلما أخرجه من السَّرَب توهّمه الناس أنه وُلد منذ سنين ؛ فقال لأمّه : مَن ربّى ؟ فقالت أنا . فقال : ومَن ربّك ؟ قالت أبوك . قال : ومَن ربّه ؟ قالت نُمْرود . قال : ومَن ربه ؟ فلطَمَته ، وعلمت أنه الذى يَذهب مُلْكهم على يديه . والقَصص فى هذا تامٌّ فى قِصص الأنبياء للكسائى ، وهو كتاب مما يُقتدى به . قال بعضهم : كان مولده بحرَان ولكن أبوه نقله إلى أرض بابل . وقال عامّة السَّلَف من أهل العلم : وُلد إبراهيم فى زمن النّمرود بن كنعان بن سنجاريب بن كوش بن سام بن نوح . وقد مضى ذكره فى « البقرة »(3) . وكان بين الطوفان و بين مولد إبراهيم ألف ومائتا سنة وثلاث وستون سنة؛ وذلك بعد خلق آدم بثلاث آلاف سنة وثلاثمائة سنة وثلاثين سنة .

قوله تعالى : ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ أى وليكون من الموقنين أريناه ذلك؛ أى المَلكوت .

---

(1) آية ٢٧ سورة العنكبوت . (2) السرب (بالتحريك) : حفير أو بيت تحت الأرض .

(3) راجع جـ ٣ ص ٢٨٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱللَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴾ (٧٦)

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ﴾ أى ستره بظلمته ، ومنه الجَنَّة والجِنَّـة والجُنَّة والجَنين والمِجَنّ والجِنّ كلُّه بمعنى السّتر . وجَنان الليل آدلهامُه وستره . قال الشاعر[1] :

ولولا جَنانُ الليــلِ أدركَ رَكْضُنا * بذى الرِّمْثِ والأَرْطَى[2] عِياضَ بنَ ناشبِ

ويقال : جُنون الليل أيضا . ويقال : جَنّ الليل وأجَنّه الليلُ، لغتان . ﴿ رَأَى كَوْكَبًا ﴾ هذه قصّة أخرى غيرُ قصّة عرض المَلَكوت عليه . فقيل : رأى ذلك من شَقّ الصخرة الموضوعة على رأس السَّرَب . وقيل : لمـا أخرجه أبوه من السَّرَب وكان وقت غيبوبة الشمس فرأى الإبلَ والخيلَ والغَنَم فقال : لابدّ لها من رَبّ. ورأى المُشْتَرِى أو الزُّهَرة ثم القمرَ ثم الشمس، وكان هذا فى آخر الشهر . قال محمد بن إسحاق : وكان آبنَ خمسَ عشرة سنة . وقيـل : آبن سبع سنين . وقيل : لمـا حاجّ نمرودا كان آبن سبع عشرة سنة .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ﴾ اختُلف فى معناه على أقوال؛ فقيل : كان هـذا منه فى مُهْلة النظر وحال الطُفوليّة وقبل قيام الحجـة؛ وفى تلك الحال لا يكون كفر ولا إيمـان . استدلّ قائلو هذه المقالة بمـا روى علىّ بن أبى طلحة عن آبن عباس قال : « فلما جَنّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى» فعبده حتى غاب عنه، وكذلك الشمس والقمر؛ فلما تمّ نظره قال: « إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ » . واستدلّ بالأفول؛ لأنه أظهرُ الآيات على الحدوث . وقال قوم : هذا لا يصحّ؛ وقالوا : غير جائز أن يكون لله تعالى رسولٌ يأتى عليه وقت من الأوقات إلا وهو لله مُوَحّد وبه عارف، ومن كل معبود سـواه برىء . قالوا : وكيف يصحّ أن يتوهّم هذا على مَن عصمه الله وأتاه رُشده من قبل، وأراه مَلكوته ليكون من المُوقنين ، ولا يجوز

(١) هو دريد بن الصمة؛ وقيـل : هو خفاف بن ندبة (عن اللسان) . (٢) الرمث (بالكسر) : مرعى من مراعى الإبل ، واسم وادٍ لبنى أسد . والأرطى (جمع أرطاة) : شجر ينبت بالرمل .

أن يُوصف بالخُلُوّ عن المعرفة ، بل عرف الربَّ أوّلَ النظر . قال الزجاج : هذا الجواب عندى خطأ وغلط ممن قاله ؛ وقد أخبر الله تعالى عن إبراهيم أنه قال : «وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ»(١) وقال جل وعز : « بِقَلْبٍ سَلِيمٍ »(٢) أى لم يُشرك قَطّ . قال : والجواب عندى أنه قال « هَٰذَا رَبِّى » على قولكم ؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام والشمس والقمر ؛ ونظير هذا قوله تعالى : « أَيْنَ شُرَكَائِى »(٣) وهو جل وعلا واحدٌ لا شريك له . والمعنى : أين شركائى على قولكم . وقيل : لما خرج إبراهيم من السَّرَب رأى ضوء الكوكب وهو طالب لربّه ؛ فظن أنه ضوءه قال «هذا ربّى» أى بأنه يتراءى لى نوره. ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ علم أنه ليس بربّه . « فلما رأى القمر بازغا » ونظر إلى ضوئه « قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى » وليس هذا شركا . إنما نَسب ذلك الضوءَ إلى ربّه فلما رآه زائلا دَلّه العلم على أنه غير مستحقّ لذلك ؛ فنفاه بقلبه وعلم أنه مَرْبُوب وليس بربّ . وقيل : إنما قال « هذا ربّى » لتقرير الحجّة على قومه فأظهر موافقتهم ؛ فلما أفَلَ النّجم قرّر الحجة وقال : ما تغيّر لا يجوز أن يكون رَبًّا . وكانوا يعظّمون النجوم ويعبدونها ويحكمون بها . وقال النحاس : ومن أحسن ما قيل فى هذا ما صحّ عن ابن عباس أنه قال فى قول الله عز وجل : « نُورٌ عَلَى نُورٍ »(٤) قال : كذلك قلب المؤمن يعرف الله عز وجل ويستدلّ عليه بقلبه، فإذا عرفه ٱزداد نورا على نور ؛ وكذا إبراهيم عليه السلام عرف الله عز وجل بقلبه واستدلّ عليه بدلائله ، فعلم أن له رَبًّا وخالقا . فلما عرّفه الله عز وجل بنفسه ٱزداد معرفة فقال : « أَتُحَاجُّونِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ » . وقيل : هو على معنى الاستفهام والتوبيخ، مُنكِرا لفعلهم . والمعنى : أهذا ربّى، ومثل هذا يكون رَبًّا ! فحذف الهمزة . وفى التنزيل «أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ»(٥) أى أفهم . وقال الهُذَلِىّ(٦) :

رَفَوْنِى وقالوا يا خُوَيْلِدُ لَا تُرَعْ * فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ

---

(١) آية ٣٥ سورة ابراهيم . (٢) آية ٨٤ سورة الصافات . (٣) آية ٢٧ سورة النحل .
(٤) آية ٣٥ سورة النور . (٥) آية ٣٤ سورة الأنبياء . (٦) هو أبو خراش .

آخــر :[1]

لَعَمْرُكَ ما أدرى وإنْ كنتُ داريًا * بسبع رَمَيْنَ الجَمْرَ أمْ بثَمانِ

وقيل: المعنى هذا ربي على زعمكم؛ كما قال تعالى: «أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ»[2]. وقال: «ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ»[3] أي عند نفسك. وقيل: المعنى أي وأنتم تقولون هذا ربي؛ فأضمر القول، وإضماره في القرآن كثير. وقيل: المعنى هذا ربي؛ أي أهذا دليل على ربي.

قوله تعالى: فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا ﴾ أي طالعا. يقال: بَزَغ القمر إذا ابتدأ في الطلوع، والبَزْغ الشق؛ كأنه يشق بنوره الظلمة؛ ومنه بَزَغ البَيْطار الدابة إذا أسال دمها. ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي ﴾ أي لئن لم يُثَبِّتني على الهداية. وقد كان مهتديا؛ فيكون جرى هذا في مُهلة النظر، أو سأل التثبيت لمكان الجواز العقلي؛ كما قال شعيب: «وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ»[4]. وفي التنزيل «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» أي ثبّتنا على الهداية. وقد تقدّم.

قوله تعالى: فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً ﴾ نصب على الحال؛ لأن هذا من رؤية العين. بَزَغ يَبْزُغ بزوغا إذا طلع. وأَفَل يأفِل أفولا إذا غاب. وقال: «هذا» والشمس مؤنثة؛ لقوله: ﴿ فَلَمَّا أَفَلَتْ ﴾. فقيل: إن تأنيث الشمس لتفخيمها وعظمها؛ فهو كقولهم: رجل نَسّابة وعلّامة. وإنما قال: «هَذَا رَبِّي» على معنى: هذا الطالعُ رَبِّي؛ قاله الكسائي

---

(١) هو عمر بن أبي ربيعة. (٢) آية ٦٢ سورة القصص. (٣) آية ٤٩ سورة الدخان.

(٤) آية ٨٩ سورة الأعراف.

والأخفش . وقال غيرهما : أى هـذا الضوء . قال أبو الحسن علىّ بن سليمان : أى هـذا الشخص؛ كما قال الأعشى :

قامت تبكيـه على قـبره * مَن لِيَ مِن بعدك يا عامرُ
تركتَنِي فى الدار ذا غُرْبةٍ (١) * قد ذَلّ من ليس له ناصرُ

قوله تعـالى : إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)

قوله تعـالى : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ﴾ أى قصدت بعبادتى وتوحيـدى لله عز وجل وحده . وذَكَر الوجه لأنه أظهـر ما يُعـرف به صاحبه . ﴿ حَنِيفًـا ﴾ مائلا إلى الحـق . ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ اسم «ما» وخبرها . و إذا وقفت قلت : «أنا» زدت الألف لبيان الحركة، وهى اللغـة الفصيحة . وقال الأخفش : ومن العرب من يقول : « أنَ » . وقال الكسائى : ومن العرب من يقول : «أنه» . ثلاث لغات . وفى الوصل أيضا ثلاث لغات: أن تحذف الألف فى الإدراج ؛ لأنها زائدة لبيان الحركة فى الوقف . ومن العرب من يثبت الألف فى الوصل؛ كما قال الشاعر :

* أنا سَيْفُ العشيرة فاعرفونى (٢) *

وهى لغة بعض بنى قيس و ربيعة؛ عن الفراء . ومن العرب من يقول فى الوصل : آن فعلت، مثل عان فعلت؛ حكاه الكسائى عن بعض قُضَاعة .

قوله تعـالى : وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ۚ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠)

(١) الشاهد فيه قوله : « ذا غربة » أى ذات غربة .

(٢) هذا صدر بيت ، وعجزه كما فى اللسان مادة أنن : * جميعا قد تذريت السناما *

قوله تعالى : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ﴾ دليلٌ على الحِجَاج والجدال ؛ حاجُّوه فى توحيد الله . ﴿ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِ ﴾ قرأ نافع بتخفيف النون، وشدّد النونَ الباقون . وفيه عن ابن عامر من رواية هشام عنه خلاف؛ فمن شدّد قال : الأصل فيه نونان، الأولى علامة الرفع والثانية فاصلة بين الفعل والياء ؛ فلما اجتمع مِثلان فى فعل وذلك ثقيل أدغم النون فى الأخرى فوقع التشديد، ولابدّ من مدّ الواو لئلا يلتقِىَ الساكنان، الواو وأوّلُ المشدّد؛ فصارت المدّةُ فاصلةً بين الساكنين . ومن خفّف حذف النون الثانية استخفافا لاجتماع المِثْلين، ولم تُحذف الأولى لأنها علامةُ الرفع؛ فلو حُذفت لأشتبه المرفوع بالمجزوم والمنصوب . وحُكى عن أبى عمرو ابن العَلاء أن هذه القراءة لَحْنٌ . وأجاز سيبويه ذلك فقال : استثقلوا التضعيف؛ وأنشد :

تراه كالثَّغَامِ يُعَلُّ مِسْكًا * يَسوء الفالياتِ إذا فَلَيْنِى[(١)]

قوله تعالى : ﴿ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ﴾ أى لأنه لا ينفع ولا يضر — وكانوا خوّفوه بكثرة آلهتهم — إلا أن يُحيِيَه و يقدّره فيخاف ضرره حينئذ؛ وهو معنى قوله : ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّى شَيْئًا ﴾ أى إلا أن يشاء أن يلحقنى شيء من المكروه بذنب عمِلتُه فتتمّ مشيئته . وهذا استثناء ليس من الأوّل . والهاء فى « بِهِ » يجوز أن تكون لله عز وجل ، ويجوز أن تكون للمعبود . وقال : « إلّا أن يشاء ربّى » يعنى أن الله تعالى لا يشاء أن أخافهم . ثم قال : ﴿ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أى وسع علمه كل شيء . وقد تقدّم[(٢)] .

قوله تعالى : وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾

---

(١) البيت لعمرو بن معد يكرب ، وصف شعره وأن الشيب قد شمله . والثغام : نبت له نور أبيض يشبه به الشيب . و يعل : يطيب شيئا بعد شيء؛ والعلل : الشرب بعد الشرب .

(٢) راجع ج ٢ ص ٨٤ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ﴾ ففى « كيف » معنى الإنكار؛ أنكر عليهم تخويفهم إيّاه بالأصنام وهم لايخافون الله عزوجل؛ أى كيف أخاف مواتا وأنتم لاتخافون الله القادر على كل شيء. ﴿ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴾ أى حُجّة؛ وقد تقدم.(١) ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ﴾ أى من عذاب الله : الموحِّد أم المشرك ؛ فقال الله قاضيًا بينهم : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ أى بشرك؛ قاله أبو بكر الصدّيق وعليّ وسَلْمان وحُذيفة، رضى الله عنهم. وقال ابن عباس : هو من قول إبراهيم؛ كما يسأل العالِمُ ويجيب نفسه. وقيل : هو من قول إبراهيم؛ أى أجابوا بما هو حجة عليهم؛ قاله ابن جُريج . وفى الصحيح عن ابن مسعود لما نزلت « الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانَهُمْ بِظُلْمٍ» شقّ ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : أيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه « يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بالله إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » .﴿ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ أى فى الدنيا.

قوله تعالى : وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ ﴾ إشارة إلى جميع احتجاجاته حتى خاصمهم وغلبهم بالحجة . وقال مجاهد : هى قوله «الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانَهم بظُلْمٍ» . وقيل : حجته عليهم أنهم لما قالوا له : أما تخاف أن تَخْبِلك آلهتُنا لسبِّك إياها؛ قال لهم : أفلا تخافون أنتم منها إذ سوّيتم بين الصغير والكبير فى العبادة والتعظيم ؛ فيغضب الكبير فيخْبِلكم . ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ﴾ أى بالعلم والفهم والإمامة والملك . وقرأ الكوفيون « درجاتٍ » بالتنوين . ومثله فى «يوسف» أوقعوا الفعل على «مَن» لأنه المرفوع فى الحقيقة، التقدير: ونرفع من نشاء إلى درجات . ثم حذفت إلى . وقرأ أهل الحَرَمين وأبو عمرو بغير تنوين على الإضافة، والفعل واقع على الدرجات ، وإذا رُفعت فقد رُفع صاحبها . يقوّى هذه القراءة قوله تعالى :

(١) راجع ج ٤ ص ٢٣٣ طبعة أولى أو ثانية .

«رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ» وقوله عليه السلام "اللَّهُمَّ ٱرفع درجته" . فأضاف الرفع إلى الدرجات . وهو لا إله إلا هو الرفيع المتعال فى شرفه وفضله . فالقراءتان متقاربتان؛ لأن من رُفعت درجاته فقد رُفع، ومن رُفع فقد رُفعت درجاته ، فاعلم . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ يضع كل شئ موضعه .

قوله تعـالى : وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـــ قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أى جزاءً له على الاحتجاج فى الدِّين وبذل النفس فيه . ﴿ كُلًّا هَدَيْنَا ﴾ أى كل واحد منهم مهتد . ﴿ وَكُلًّا ﴾ نصب بهَدَيْنَا ﴿ونوحًا﴾ نصب بهدينا الثانى . ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ ﴾ أى من ذرّية إبراهيم . وقيل : من ذرية نوح؛ قاله الفرّاء وٱختاره الطَّبَرِىّ وغيرُ واحد من المفسرين كالقُشيرِىّ وابن عطية وغيرهما. والأول قاله الزجاج، واعترض بأنه عدّ من الذرّيّة يونس ولوطا وما كان من ذرّية إبراهيم . وكان لوط ٱبن أخيه . وقيـل : ابن أخته . وقال ابن عباس : هؤلاء الأنبيـاء جميعا مضافون إلى ذرّية إبراهيم ، وإن كان فيهم مَن لم يلحقه ولادة من جهته من جهة أب ولا أمّ؛ لأن لوطا ٱبن أخى إبراهيم . والعرب تجعل العَمَّ أبًا كما أخبر الله عن ولد يعقوب أنهم قالوا : « نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَإِلٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ» . وإسماعيل عمُّ يعقوب . وعدّ عيسى من ذرّية إبراهيم وإنما هو ٱبن البنت . فأولاد فاطمة رضى الله عنهـا ذرّيّة النبىّ صلى الله عليه وسـلم . وبهذا تمسّك من رأى أن ولد البنات يدخلون فى اسم الولد وهى : ـــ

الثانيـــة ــ قال أبو حنيفة والشافعيّ : من وقف وقفًا على ولده وولد ولده أنه يدخل فيه ولد ولده وولد بنـاته ما تناسلوا . وكذلك إذا أوصى لقرابتـه يدخل فيـه ولد البنت . والقرابة عنـد أبى حنيفة كلّ ذى رَحِم مَحْرَم . ويسقط عنـده ٱبن العمّ والعَمّـة وابن الخال والخالة؛ لأنهم ليسوا بمَحْرَمين . وقال الشافعيّ : القرابة كلّ ذى رَحِم مَحْرَم وغيره . فلم يسقط عنـده ابن العمّ ولا غيره . وقال مالك : لا يدخل فى ذلك ولد البنات . وقوله : لقرابتى وعقبى كقوله لولدى وولد ولدى . يدخل فى ذلك ولد البنين ومن يرجع إلى عَصَبـة الأب وصُلْبه، ولا يدخل فى ذلك ولد البنات . وقد تقدّم نحو هذا عن الشافعيّ فى «آل عمران»[1] . والحجة لهما قوله سبحانه : «يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ»[2] فلم يَعقِل المسلمون من ظاهر الآية إلا ولدَ الصُّلْب وولد الٱبن خاصّـةً . وقال تعالى : «وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ»[3] فأعطى عليه السلام القرابة منهم من أعمامه دون بنى أخواله . فكذلك ولد البنات لا ينتمون إليه بالنسب، ولا يلتقون معـه فى أب . قال ابن القصّار : وحجة من أدخل البنات فى الأقارب قولُه عليـه السلام للحسن بن علىّ "إن ٱبنى هذا سيّد" . ولا نعلم أحدا يمتنع أن يقول فى ولد البنات إنهم ولد لأبى أمّهم . والمعنى يقتضى ذلك؛ لأن الولد مشتق من التولد وهم متولدون عن أبى أمّهم لا محالة ؛ والتولّد من جهة الأمّ كالتولّد من جهة الأب . وقد دلّ القرآن على ذلك ، قال الله تعـالى : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ إلى قوله ﴿ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ ﴾ فجعل عيسى من ذرّيته وهو ٱبن ٱبنته .

الثالثـــة ــ قد تقدّم فى « النساء»[4] بيان ما لا ينصرف من هذه الأسماء . ولم ينصرف داود لأنه ٱسم أعجمىّ، ولـمّـا كان على فاعول لا يحسُن فيه الألف واللام لم ينصرف. وإلياس أعجمىّ . قال الضحاك : كان إلياس من ولد إسماعيل . وذكر القُتَبِىّ قال : كان من سِـبط يُوشـع بن نون . وقرأ الأعرج والحسن وقتـادة « وَٱلياس » بوصـل الألف . وقرأ أهل

---

(١) راجع جـ ٤ ص ١٠٤ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ١١ سورة النساء .
(٣) آية ٤١ سورة الأنفال . (٤) فى قوله تعالى : « إنا أوحينا اليك ... » آية ١٦٣ .

الحرمين وأبو عمرو وعاصم «واليَسع» بلام مخففة . وقرأ الكوفيون إلا عاصما « واللّيْسع » .
وكذا قرأ الكسائيّ ، وردّ قراءة من قرأ «واليَسع» . قال : لأنه لا يقال اليَفْعَل مثل اليَحْيَى .
قال النحاس : وهذا الردّ لا يلزم، والعرب تقول : اليَعْمَل واليَحْمَد، ولو نكّرت يحي لقلت
اليحي . وردّ أبو حاتم على من قرأ «اللّيْسع » وقال : لا يوجد لَيْسع . وقال النحاس :
وهذا الردّ لا يلزم، فقد جاء في كلام العرب حَيْدَر وزَيْنب ، والحقّ في هذا أنه اسم أعجميّ ،
والعجمة لا تؤخذ بالقياس إنما تؤخذ سماعا والعرب تغيّرها كثيرا ، فلا ينكر أن يأتي الاسم
بلغتين . قال مكّيّ : من قرأ بلامين فأصل الاسم لَيْسَع ، ثم دخلت الألف واللام للتعريف .
ولو كان أصله يسع ما دخلته الألف واللام؛ إذ لا يدخلان على يزيد ويشكر ، اسمين لرجلين؛
لأنهما معرفتان علمان . فأما « ليسع » نكرة فتدخله الألف واللام للتعريف ، والقراءة بلام
واحدة أحبّ إليّ ؛ لأن أكثر القراء عليه . وقال المَهْدَوِيّ : من قرأ « ليسع » بلام واحدة
فالاسم يسع ، ودخلت الألف واللام زائدتين ، كزيادتهما في نحو الخمسة عشر، وفي نحو قوله :

وجدنا اليَزِيدَ بنَ الوليد مباركًا * شديدا بأعباء الخلافة كاهلُهْ (١)

وقد زادوها في الفعل المضارع نحو قوله :

فيستخرج اليَرْبُوع من نافقائه * ومن بيته ذو الشِّيخة اليَتقصعُ (٢)

يريد الذي يتقصّع . قال القُشيريّ : قرئ بتخفيف اللام والتشديد . والمعنى واحد في أنه اسم
لنبيّ معروف؛ مثل إسماعيل وإبراهيم، ولكن خرج عما عليه الأسماء الأعجمية بإدخال الألف
واللام . وتوهّم قوم أن اليسع إلياس، وليس كذلك؛ لأن الله أفرد كل واحد بالذِّكر . وقال
وهب : اليسع صاحب إلياس، وكانا قبل زكريا ويحيي وعيسى . وقيل : إلياس هو إدريس
جدّ نوح وإلياس من ذرّيته . وقيل : إلياس هو الخضر . وقيل : لا ، بل اليَسع هو الخضر.
« ولوطا » أعجميّ انصرف لخفّته . وسيأتي اشتقاقه في « الأعراف » (٣) .

---

(١) البيت لابن ميادة . (٢) البيت لذي الخرق الطهوي؛ كما في شرح القاموس . النفقة والنافقاء : جحر الضب واليربوع . وقيل موضع يرققه اليربوع من جحره ، فاذا أتى من قبل القاصعاء (وهو جحره) ضرب النافقاء برأسه فخرج .
(٣) آية ٨٠ .

قوله تعـالى : وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ «من» للتبعيض؛ أى هدينا بعض آبائهم وذرّياتهم وإخوانهم. ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ قال مجاهد: خلّصناهم، وهو عند أهل اللغة بمعنى اخترناهم؛ مشتق من جبيت المـاء فى الحوض جمعته. فالاجتباء ضم الذى تجتبيه إلى خاصتك. قال الكسائى: جبيت المـاء فى الحوض جبا، مقصور. والجابية الحوض. قال :

* كجابيـة الشّـيخ العراقى تفْـهق * [1]

وقد تقدّم معنى الاصطفاء والهداية [2] .

قوله تعـالى : ذَٰلِكَ هُـدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا ﴾ أى لو عبدوا غيرى لحبطت أعمالهم، ولكنى عصمتهم . والحبوط البطلان . وقد تقدّم فى « البقرة [3] » .

قوله تعـالى : أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ ابتداء وخبر. ﴿ والحكم ﴾ العلم والفقه . ﴿ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا ﴾ أى بآياتنا . ﴿ هَؤُلَاءِ ﴾ أى كفار عصرك يا محمـد . ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا ﴾ جواب الشرط ؛ أى وكّلنا بالإيمان بها ﴿ قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ يريد

---

(١) هـذا عجز بيت للأعشى، وصـدره كما فى اللسان : * تروح على آل المحلق جفنة * الجفنـة : القصعة . والفهق : الامتلاء .

(٢) راجع جـ ١ ص ١٤٦ طبعة ثانية أو ثالثة . وجـ ٢ ص ١٣٣ طبعة ثانية . ولم يتقدّم للاصطفاء ذكر فى هذه الآية، غير أنه ورد فى آية ١٣٠ سورة البقرة جـ ٢ ص ١٣٢

(٣) راجع جـ ٣ ص ٤٦ طبعة أولى أو ثانية .

الأنصار من أهل المدينة والمهاجرين من أهل مكة . وقال قتادة : يعنى النبيين الذين قصّ الله عز وجل . قال النحاس : وهذا القول أشبه بالمعنى؛ لأنه قال بعدُ : « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ » . وقال أبو رجاء : هم الملائكة . وقيل : هو عام فى كل مؤمن من الجن والإنس والملائكة . والباء فى « بكافرين » زائدة للتأكيد .

قوله تعـالى : أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى قوله تعـالى : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ الاقتداء طلب موافقة الغير فى فعله . فقيل : المعنى اصبر كما صبروا . وقيل : معنى ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ التوحيد والشرائع مختلفة . وقد احتجّ بعض العلماء بهـذه الآية على وجوب اتبـاع شرائع الأنبياء فيما عدم فيه النص ؛ كما فى صحيح مُسْلم وغيره : أن أخت الرُّبَيِّع[1] أم حارثة جرحت إنسانا فاختصموا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " القصاصَ القصاصَ " فقالت أم الرَّبيع : يارسول الله ، أيقتصّ من فلانة ! والله لا يقتص منها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " سبحان الله يا أم الرَّبيع القصاصُ كتاب الله " . قالت : والله لا يقتص منها أبدا . قال : فما زالت حتى قَبلوا الدِّية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن من عباد الله مَن لو أقسم على الله لأَبَرّه " . فأحال رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوله : « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ »[2] الآية . وليس فى كتاب الله تعالى نصّ على القصاص فى السنّ إلا فى هذه الآية ؛ وهى خبر عن شرع التوراة ومع ذلك فحكم بها وأحال عليها . وإلى هذا ذهب مُعْظَم أصحاب مالك وأصحاب الشافعيّ ، وأنه يجب العمل بما وجد منها . قال ابن بكير : وهو الذى تقتضيه أصول مالك ،

(١) الربيع : بضم الراء وفتح الموحدة وتشديد التحتية المكسورة بعدها عين مهملة . أما أم الربيع فهى بفتح الراء وكسر الموحدة وتخفيف الياء . راجع شرح النووى على صحيح مسلم باب « اثبات القصاص فى الأسنان وما فى معناها » ففيه كلام طويل عن هذه القصة .

(٢) آية ٤٥ سورة المائدة .

وخالف فى ذلك كثير من أصحاب مالك وأصحاب الشافعىّ والمعتزلة ؛ لقوله تعالى : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا »[1] . وهــذا لا حجّة فيه؛ لأنه يحتمل التقييد إلا فيما قصّ عليكم من الأخبار عنهم مما لم يأت فى كتابكم . وفى صحيح البخارىّ عن العوّام قال : سألت مجاهدا عن سجدة « ص » فقال : سألت ٱبن عباس عن سجدة « ص » فقال : أوَ تقرأ « وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ » إلى قوله « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ » وكان داود عليه السلام ممن أمر نبيّكم عليه السلام بالاقتداء به .

الثانيــــة ـــ قرأ حمزة والكسائىّ «اقتد قل» بغير هاء فى الوصل . وقرأ ابن عامر « ٱقْتَدِهِ قُلْ » . قال النحاس : وهــذا لَحْنٌ؛ لأن الهاء لبيان الحركة فى الوقف وليست بهاء إضمار ولا بعدها واو ولا ياء، وكذلك أيضا لا يجوز «فبهداهم اقتد قل» . ومن اجتنب اللّحن وٱتبع السواد قرأ « فبهداهم ٱقتدهْ » فوقف ولم يصل ؛ لأنه إن وصل بالهاء لحن وإن حذفها خالف السّواد . وقرأ الجمهور بالهاء فى الوصل على نية الوقف وعلى نية الإدراج ٱتباعا لثباتهــا فى الخطّ . وقرأ ابن عيّاش وهشام « ٱقْتَــدِهِ قُلْ » بكسر الهــاء، وهو غلط لا يجوز فى العربيـــة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أى جُعْلًا على القرآن . ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أى القرآن . ﴿ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾ أى هو موعظة للخلق . وأضاف الهداية اليهم فقال : «فبهداهم ٱقتده» لوقوع الهداية بهم . وقال : ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ ﴾ لأنه الخالق للهداية .

قوله تعــالى : وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾

(١) آية ٤٨ سورة المائدة .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أى فيما وجب له وٱستحال عليه وجاز . قال ٱبن عبـاس : ما آمنوا أنه على كل شيء قدير . وقال الحسن : ما عظّموه حقّ عظمته ، وهذا يكون من قولهم : لفلان قَدر . وشرحُ هذا أنهم لمـا قالوا : « مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ » نسَبُوا الله عز وجل إلى أنه لا يقيم الحجة على عباده، ولا يأمرهم بما لهم فيه الصلاح؛ فلم يعظّموه حقّ عظمته ولا عرفوه حقّ معرفته . وقال أبو عبيـدة : أى ما عرفوا الله حقّ معرفته . قال النحاس: وهذا معنى حسن؛لأن معنى قدَرت الشيء وقدّرته عرفت مقداره. و يدلّ عليه قوله تعالى: « إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ » أى لم يعرفوه حق معرفته؛ إذا أنكروا أن يرســل رسولا . والمعنيـان متقاربان . وقـد قيل : وما قدروا نِعَمَ الله حق تقديرها . وقرأ أبو حَيْوَة « وما قدروا الله حق قدَره » بفتح الدال، وهى لغة .

﴿ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ قال ابن عباس وغيره : يعنى مشركى قريش . وقال الحسن وسعيد بن جبـير : الذى قاله أحد اليهود ، قال : لم يُنزل الله كتابا من السماء . قال السُّدِّى : اسمه فنحاص . وعن سـعيد بن جُبير أيضا قال : هو مالك بن الصَّيف، جاء يخاصم النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم: "أَنْشُدُك بالذى أنزل التوراة على موسى أما تجـد فى التوراة أن الله يبغض الحَبْر السّمين" ؟ وكان حبرا سمينا . فغضب وقال : والله ما أنزل الله على بشر من شيء . فقال له أصحابه الذين معه : ويحك ! ولا على موسى؟ فقال : والله ما أنزل الله على بَشَرٍ من شيء ؛ فنزلت الاية . ثم قال نقضا لقولهم وردًّا عليهم : ﴿ قُـلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُـدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ – أى فى قراطيس – يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيراً ﴾ هذا لليهود الذين أخفَوْا صفة النبيّ صلى الله عليــه وسلم وغيرها من الأحكام . وقال مجاهد : قوله « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى » خطاب للمشركين، وقوله « يجعلونه قراطيس » لليهود « وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ » للسلمين . وهــذا يصحّ على قراءة من قرأ « يجعلونه قراطيس يبدونها و يخفون » باليـاء . والوجه على قراءة التـاء أن يكون كله لليهود، و يكون معنى « وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا »

أى وعلّمتم ما لم تكونوا تعلمونه أنتم ولا آباؤكم، على وجه المنّ عليهم بإنزال التوراة . وجعلت التوراة صُحُفًا فلذلك قال « قراطيس يبدونها » أى القراطيس . وهـذا ذمّ لهم ، ولذلك كره العلماء كَتْب القرآن أجزاء . ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ أى قـل يا محمد الله أنزل ذلك الكتاب على موسى وهذا الكتاب علىّ . أو قل الله علمكم الكتاب . ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أى لاعبين ، ولو كان جوابا للأمر لقال يلعبوا . ومعنى الكلام التهديد . وقيل : هو من المنسوخ بالقتال؛ ثم قيل : « يجعلونه » فى موضع الصفة لقوله « نُورًا وَهُـدًى » فيكون فى الصلة . ويحتمل أن يكون مستأنفا ، والتقدير : يجعلونه ذا قراطيس . وقوله « يُبْدُونَهَا ويُخْفُون كثيرا » يحتمل أن يكون صـفة لقراطيس ؛ لأن النكرة توصف بالجمل . ويحتمل أن يكون مستأنفا حسب ما تقـدّم .

قوله تعـالى : وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَـدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَـا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَـافِظُونَ ﴿٩٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ ﴾ يعنى القرآن ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ صفة . ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ أى بُورك فيه ، والبركة الزيادة . ويجوز نصبه فى غير القرآن على الحال . وكذا ﴿ مُصَـدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى من الكتب المنزلة قبله ، فإنه يوافقها فى نفى الشرك وإثبات التوحيد . ﴿ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى ﴾ يريد مكة — وقد تقدّم معنى تسميتها بذلك [1] — والمراد أهلها ، فحذف المضاف؛ أى أنزلناه للبركة والإنذار . ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ يعنى جميع الآفاق . ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ يريد أتباع محمد عليه السلام ، بدليل قوله : ﴿ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ وإيمـان من آمن بالآخرة ولم يؤمن بالنبيّ عليه السلام ولا بكتابه غير معتدّ به .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ١٣٨ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ ابتداء وخبر، أى لا أحد أظلم . ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ أى ٱختلق . ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ فزعم أنه نبيّ ﴿ولم يُوحَ إليه شيء﴾ . نزلت فى رحمان اليمامة والأسود العَنْسِيّ وسَجَاح زوج مسيْلِمَة ؛ كلّهم تنبأ وزعم أن الله قد أوحى إليه . قال قتادة : بلغنا أن الله أنزل هذا فى مسيْلمة؛ وقاله ابن عباس .

قلت : ومن هـذا النَّمَط من أعرض عن الفقه والسُّنَن وما كان عليه السلف من السنن فيقول : وقع فى خاطرى كذا، أو أخبرنى قلبى بكذا ؛ فيحكمون بمـا يقع فى قلوبهم ويغلب عليهم من خواطرهم، ويزعمون أن ذلك لصفائهـا من الأكدار وخلوّها عن الأغيار ، فتتجلى لهم العلوم الإلٰهية والحقائق الرّبانية ، فيقفون على أسرار الكلّيات ويعلمون أحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات ، ويقولون : هذه الأحكام الشرعية العامة ، إنمـا يحكم بها على الأغبياء والعامة ، وأما الأولياء وأهل الخصوص ، فلا يحتاجون لتلك النصوص . وقد جاء فيا ينقلون : استفت قلبك وإن أفتاك المُفْتُون؛ ويستدلّون على هذا بالخَضِر، وأنه استغنى بمـا تجلّى له من تلك العلوم، عما كان عند موسى من تلك الفهوم. وهذا القول زندقة وكفر، يقتل قائله ولا يستتاب ، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب ؛ فإنه يلزم منه هـدّ الأحكام وإثبات أنبياء بعـد نبيّنا عليه السلام . وسيأتى لهذا المعنى فى «الكهف» مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ﴾ « مَن » فى موضع خفض؛ أى ومن أظلم ممن قال سأنزل ، والمراد عبد الله بن أبى سَرْح الذى كان يكتب الوَحْىَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ٱرتدّ ولَحِق بالمشركين . وسبب ذلك فيما ذكر المفسرون أنه لمـا نزلت الآية التى فى « المؤمنين » : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ »[1] دعاه النبىّ صلى الله عليه وسلم فأملاها عليه؛ فلمـا انتهى إلى قوله « ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ » عَجِب عبد الله فى تفصيل خلق الإنسان فقال : « تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هكذا أنزلت علىّ" فشك عبـد الله حينئذ وقال : لئن كان محمد صادقا لقد أُوحىَ إلىّ كما أُوحِىَ إليه ، ولئن كان كاذبا لقد قلتُ كما قال . فٱرتدّ عن الإسلام ولحِق بالمشركين ؛ فذلك قوله « وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْـلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ » رواه الكلبى عن ابن عباس . وذكره محمـد بن إسحاق قال حدثنى شَرَحْبِيل قال : نزلت فى عبد الله بن سعد بن أبى سرح « وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ » ٱرتدّ عن الاسلام، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة أمر بقتله وقتلِ عبد الله بن خَطَل ومِقْيَس بن صُبابة ولو وُجدوا تحت أستار الكعبة ؛ ففرّ عبد الله بن أبى سرح إلى عثمان رضى الله عنه، وكان أخاه من الرّضاعة، أرضعت أمُّه عثمانَ، فغيّبه عثمان حتى أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما ٱطمأن أهل مكة وٱستأمنه له ؛ فصمَت رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا ثم قال : "نعم" . فلما انصرف عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ماصَمَتُّ إلا ليقوم إليه بعضُكم فيضربَ عُنُقَه" . فقال رجل من الأنصار : فهلّا أومأتَ إلىّ يارسول الله ؟ فقال : "إن النبىّ لا ينبغى أن تكون له خائنةُ الأعين"[2] . قال أبو عمر: وأسلم عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح أيامَ الفتح فحَسُن إسلامه، ولم يظهر منه ما يُنكر عليه بعد ذلك . وهو أحد النُّجَباء العقلاء الكرماء من قريش، وفارسُ بنى عامر بن لُؤَىّ المعدودُ فيهم، ثم ولّاه عثمان بعد ذلك مصر سنة خمس وعشرين . وفُتح على يديه إفرِيقيّة سنة سبع وعشرين ، وغزا منها الأساود من أرض النُّوبَة سنة إحدى وثلاثين، وهو هادنهم الهُدْنة الباقية إلى اليوم .

---

(١) آية ١٢ (٢) أى يضمر فى نفسه غير ما يظهره ؛ فاذا كف لسانه وأومأ بعينه فقد خان .

وغزا الصّوارِى[1] من أرض الرُّوم سنة أربع وثلاثين، فلما رجع من وِفاداته منعه ابن أبى حُذيفة من دخول الفُسْطاط، فمضى إلى عَسْقلان، فأقام فيها حتى قُتل عثمان رضى الله عنه. وقيل: بل أقام بالرَّمْلة حتى مات فارًّا من الفتنة. ودعا ربّه فقال: اللّهُمّ اجعل خاتمة عملى صلاة الصبح، فتوضأ ثم صلّى فقرأ فى الركعة الأولى بأم القرآن والعاديات، وفى الثانية بأم القرآن وسورة، ثم سلّم عن يمينه، ثم ذهب يسلّم عن يساره فقبض الله رُوحه. ذكر ذلك كلّه يزيدُ بن أبى حبيب وغيرُه. ولم يُبايع لعلىّ ولا لمعاوية. وكانت وفاته قبل اجتماع الناس على معاوية. وقيل: إنه تُوُفِّى بإفريقيّة. والصحيح أنه تُوُفِّى بعَسْقلان سنة ست أو سبع وثلاثين. وقيل: سنة ست وثلاثين. وروى حفص بن عمر عن الحَكَم بن أَبَان عن عكرمة أن هذه الاية نزلت فى النّضر بن الحارث؛ لأنه عارض القرآن فقال: والطاحنات طحنا. والعاجنات عجنا. فالخابزات خبزا. فاللاقمات لقما.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴾ أى شدائده وسكراته. والغَمْرة الشدّة؛ وأصلها الشىء الذى يغمُر الأشياء فيُغطّيها. ومنه غَمَره الماء. ثم وُضعت فى معنى الشدائد والمكاره. ومنه غَمَرات الحرب. قال الجوهرى: والغَمْرة الشدة، والجمع غُمَر مثل نَوْبة ونُوَب. قال القُطَامىّ يصف سفينة نوح عليه السلام:

* وَحانَ لِتالِكَ الغُمَرِ انْحِسارُ *

وغَمَرات الموت شدائده. ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ ﴾ ابتداء وخبر. والأصل باسطون. قيل: بالعذاب ومَطارق الحديد؛ عن الحسن والضحاك. وقيل: لقبض أرواحهم؛ وفى التنزيل: «وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ»[2] فجمعت

---

(١) قال ابن الأثير فى كتابه (الكامل): «... وأما سبب هذه الغزوة فإن المسلمين لما أصابوا من أهل إفريقية وقتلوهم وسبوهم خرج قسطنطين بن هرقل فى جمع له لم تجمع الروم مثله مذ كان الإسلام، فخرجوا فى خمسمائة مركب أو ستمائة وخرج المسلمون ...» الخ. وانما سميت غزوة الصوارى لكثرة صوارى المراكب واجتماعها. راجع تاريخ ابن الأثير جـ ٣ ص ٩٠ طبع أوربا. والطبرى قسم أول ص ٢٨٦٥ طبع أوربا.

(٢) آية ٥٠ سورة الأنفال.

هذه الاية القولين . يقال : بسط إليه يده بالمكروه . ﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أى خلّصوها من العذاب إن أمكنكم، وهو توبيخ . وقيل : أخرجوها كرها؛ لأن روح المؤمن تَنْشَط للخروج للقاء ربّه، وروح الكافر تُنتزَع انتزاعا شديدا، ويقال : أيتها النفس الخبيثة اخرجى ساخطة مسخوطا عليك إلى عذاب الله وهَوَانه؛ كذا جاء فى حديث أبى هريرة وغيره . وقد أتينا عليه فى كتاب «التذكرة» والحمد لله . وقيل : هو بمنزلة قول القائل لمن يعذّبه : لأذيقنّك العذاب ولأُخرجنّ نفسك؛ وذلك لأنهم لا يخرجون أنفسهم بل يقبضها مَلَك الموت وأعوانه . وقيل : يقال هـذا للكفار وهم فى النـار . والجواب محذوف لعظم الأمر؛ أى ولو رأيت الظالمين فى هذا الحال لرأيت عذابا عظيما . والهُون والهَوان سواء . و ﴿ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى تتعظّمون وتأنفون عن قبول آياته .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى ﴾ هذا عبارة عن الحشر . و « فُرَادَى » فى موضع نصب على الحال، ولم ينصرف لأن فيـه ألفَ تأنيث . وقرأ أبو حَيْوة « فرادًى » بالتنوين وهى لغة تميم ، ولا يقولون فى موضع الرفع فُرادٌ . وحكى أحمد بن يحيى « فراد » بلا تنوين، قال : مثل ثلاثَ ورباعَ . و «فُرادى» جمع فَرْدان كسُكارى جمع سكران، وكُسالى جمع كسلان . وقيل : واحده «فَرْد» بجزم الراء، و«فرِد» بكسرها، و«فرَد» بفتحها، و«فريد» . والمعنى : جئتمونا واحدا واحدا ، كل واحد منكم منفردا بلا أهل ولا مال ولا ولد ولا ناصر ممن كان يصاحبكم فى الغَىّ، ولم ينفعكم ما عبدتم من دون الله . وقرأ الأعرج « فَرْدَى » مثل سكرى وكسلى بغير ألف . ﴿ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أى منفردين كما خُلقتم . وقيل : عُراة كما خرجتم

من بطون أمهاتكم حُفاة غُرْلًا بُهْمًا(١) ليس معهم شيء . وقال العلماء : يُحشر العبدُ غدًا وله من الأعضاء ما كان له في يوم وُلد؛ فمن قُطع منه عضو يردّ في القيامة عليه . وهذا معنى قوله « غُرْلا » اى غير مختونين، أي يردّ عليهم ما قُطع عنه عند الختان .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ ﴾ أي أعطينا كم وملّكنا كم . والخَوَل : ما أعطاه الله للإنسان من العبيد والنِّعم . ﴿ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ أي خلفكم . ﴿ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ ﴾ أي الذين عبدتموهم وجعلتموهم شركاء — يريد الأصنام — أي شركائي . وكان المشركون يقولون : الأصنام شركاء الله وشفعاؤنا عنده . ﴿ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ قرأ نافع والكسائيّ وحفص بالنصب على الظرف، على معنى لقد تقطع وصلُكم بينكم . ودلّ على حذف الوصل قوله « وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ » . فدلّ هذا على التقاطع والتهاجر بينهم و بين شركائهم ؛ إذ تبرءوا منهم ولم يكونوا معهم . وتقاطعهم لهم هو تركهم وصلهم لهم؛ فحسُن إضمار الوصل بعد « تقطّع » لدلالة الكلام عليه . وفي حرف ابن مسعود ما يدلّ على النصب فيه « لقد تقطّع ما بينكم » وهذا لا يجوز فيه إلا النصب ، لأنك ذكرت المتقطّع وهو « ما » . كأنه قال : لقد تقطّع الوصل بينكم . وقيل : المعنى لقد تقطّع الأمر بينكم . والمعنى متقارب . وقرأ الباقون « بَيْنُكُمْ » بالرفع على أنه اسم غير ظرف ، فأسند الفعلُ إليه فرُفع . ويقوّى جعل « بين » اسماً من جهة دخول حرف الجر عليه في قوله تعالى : « وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ »(٢) و « هَـذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ »(٣) . ويجوز أن تكون قراءة النصب على معنى الرفع، وإنما نصب لكثرة استعماله ظرفا منصوبا وهو في موضع رفع، وهو مذهب الأخفش ؛ فالقراءتان على هذا بمعنى واحد، فاقرأ بأيهما شئت . ﴿ وَضَلَّ عَنْكُمْ ﴾ أي ذهب . ﴿ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أي تكذّبون به في الدنيا . رُوي أن الآية نزلت في النضر بن الحارث . ورُوي أن عائشة رضي الله عنها قرأت قول الله تعالى : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » فقالت : يارسول الله ، وَاسَوْءَتاه ! إن

---

(١) الغرل (جمع الأغرل) وهو الأقلف الذي لم يختن . والبهم (جمع بهيم) وهو في الأصل الذي لا يخالط لونه لون سواه . يعني ليس فيهم شيء من العاهات والأعراض التي تكون في الدنيا كالعمى والعور والعرج، وغير ذلك .

(٢) آية ٥ سورة فصلت . (٣) آية ٧٨ سورة الكهف

الرجال والنساء يحشرون جميعا، ينظر بعضهم إلى سَوْءة بعض؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لكل امرئ منهم يومئذ شأنٌ يُغْنيه لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال شُغل بعضهم عن بعض". وهذا حديث ثابت فى الصحيح أخرجه مسلم بمعناه.

قوله تعـالى : إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ والنَّوَى ﴾ عدّ من عجائب صنعه ما يعجز عن أدنى شيء منه آلهتهم. والفَلْق: الشق؛ أى يَشق النواة الميتة فيُخرج منها و رقا أخضر، وكذلك الحبة. ويُخرج من الورق الأخضر نواة ميتة وحبّة؛ وهذا معنى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى؛ عن الحسن وقتادة. وقال ابن عباس والضحاك: معنى فالق خالق. وقال مجاهد: عُنى بالفلق الشقّ الذى فى الحبّ وفى النّوى. والنّوى جمع نواة، ويجرى فى كل ماله عجم كالمشمش[1] والخوخ. ﴿ يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ ﴾ يُخرج البشر الحىّ من النُّطْفة الميتة، والنطفةَ الميتةَ من البشر الحىّ؛ عن ابن عباس. وقد تقدّم قول قتادة والحسن. وقد مضى ذلك فى «آل عمران»[2]. وفى صحيح مسلم عن علىّ: والذى فلق الحبة وبَرأ النَّسَمة إنه لَعَهد النبىّ الأمىّ صلى الله عليه وسلم إلىّ أنه لا يحبنى إلا مؤمن ولا يبغضنى إلا منافق. ﴿ ذَلِكُمُ اللهُ ﴾ ابتداء وخبر. ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ فمن أين تصرفون عن الحق مع ما ترون من قدرة الله جل وعز.

قوله تعـالى : فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾

قوله تعالى: ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ ﴾ نعتٌ لاسم الله تعالى، أى ذلكم الله ربكم فالق الإصباح. وقيل: المعنى أن الله فالق الإصباح. والصُّبح والصباح أوّلُ النهار، وكذلك الإصباح؛ أى فالق

(١) كزِبْرِج وجعفر. (٢) راجع جـ ٤ ص ٥٦ طبعة أولى وثانية.

الصبح كلّ يوم، يريد الفجر . والإصباح مصدر أصبح . والمعنى : شاقّ الضياء عن الظلام وكاشفُه . وقال الضحاك : فالق الإصباح خالقُ النهار . وهو معرفة لا يجوز فيه التنوين عند احد من النحويين . وقرأ الحسن وعيسى بن عمر « فالق الأَصباح » بفتح الهمزة، وهو جمع صبح . وروى الأعمش عن إبراهيم النَّخَعِيّ أنه قرأ « فلق الإصباحَ » على فَعَل، والهمزة مكسورة والحاء منصوبة . وقرأ الحسن وعيسى بن عمر وحمزة والكسائيّ « وجعل الليل سكنا » بغير ألف . ونصب «الليل» حملا على معنى فالق فى الموضعين؛ لأنه بمعنى فلق، لأنه أمْرٌ قد كان فحُمِل على المعنى . وأيضا فإن بعده أفعالا ماضية وهو قوله «جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ» . « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً » . فحمل أول الكلام على آخره . يقوّى ذلك إجماعُهم على نصب الشمس والقمر على إضمار فعل، ولم يحملوه على فاعل فيخفضوه؛ قاله مكيّ رحمه الله . وقال النحاس : وقد قرأ يزيد بن قطيب السَّكونى « وجاعِلُ الليلِ سكنا والشمسِ والقمرِ حُسبانا » بالخفض عطفا على اللفظ .

قلت : فيريد مكيّ والمَهْدَوىّ وغيرهما إجماع القراء السبع . والله أعلم . وقرأ يعقوب فى رواية رُويس عنه « وجاعِلُ الليلِ ساكِنا » . وأهل المدينة «وجاعِلُ الليلِ سَكَنًا» أى محلا للسكون . وفى الموطأ عن يحيى بن سعيد أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو فيقول : "اللّهُمّ فالقَ الإصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حُسبانا اقضِ عنى الدَّين واغْنِنِى من الفقر وأمْتعنى بسمعى وبصرى وقوّتى فى سبيلك" . فإن قيل : كيف قال "وأمتعنى بسمعى وبصرى" وفى كتاب النّسائىّ والترمذىّ وغيرهما "واجعله الوارث منّى" وذلك يفنى مع البدن ؟ قيل له : فى الكلام تجوّز؛ والمعنى : اللّهم لا تعدمه قبلى . وقد قيل : إن المراد بالسمع والبصر هنا أبو بكر وعمر؛ لقوله عليه السلام فيهما : "هما السمع والبصر" . وهذا تأويل بعيد، إنما المراد بهما الجارحتان . ومعنى ﴿حُسْبَانًا﴾ أى بحساب يتعلّق به مصالح العباد . وقال ابن عباس فى قوله جل وعز : « وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ حُسْبَانًا » أى بحساب . الأخفش : حُسْبان جمع حساب؛ مثل شِهاب وشُهبان . وقال يعقوب : حُسبان مصدر

حَسَبْت الشيء أحْسُبه حُسبانا وحِسابا وحِسْبة، والحساب الآسم . وقال غيره : جعل الله تعالى سير الشمس والقمر بحساب لا يزيد ولا ينقص ؛ فدلّهم الله عز وجل بذلك على قدرته ووحدانيته . وقيل : حُسْبانا أى ضياء . والحسبان : النار فى لغة ؛ وقد قال الله تعالى : « وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ »[1] . قال ابن عباس : نارا . والحُسْبانة : الوسادة الصغيرة .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ ﴾ بيّن كمال قدرته ، وفى النجوم منافع جمّة . ذكر فى هذه الآية بعض منافعها ، وهى التى ندب الشرعُ إلى معرفتها ؛ وفى التنزيل : « وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ »[2] . « وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ »[3] . و « جعل » هنا بمعنى خلق . ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ ﴾ أى بيّناها مفصّلة لتكون أبلغ فى الآعتبار . ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ خصهم لأنهم المنتفعون بها .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقِرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ يريد آدم عليه السلام . وقد تقدّم أوّل السوّرة . ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ ﴾ قرأ ابن عباس وسعيد بن جُبير والحسن وأبو عمرو وعيسى والأعرج وشَيْبة والنَّخَعِىّ بكسر القاف، والباقون بفتحها . وهى فى موضع رفع بالابتداء ، إلا أن التقدير فيمن كسر القاف « فمنها مستقِر » والفتح بمعنى لها «مستقَر» . قال عبد الله بن مسعود : فلها مستقر فى الرّحِم ومستودَع فى الأرض التى تموت فيها ؛ وهذا التفسير يدلّ على الفتح . وقال الحسن : فمستقِر فى القبر . وأكثر أهلِ التفسير يقولون : المستقَر ما كان فى الرحم ، والمستودَع

(١) آية ٤٠ « سورة الكهف » .
(٢) آية ٧ « سورة الصافات » . (٣) آية ٥ « سورة الملك » .

ما كان في الصُلْب؛ رواه سعيد بن جُبير عن ابن عباس، وقاله النخعي. وعن ابن عباس أيضا: مستقر في الأرض، ومستودع في الأصلاب. قال سعيد بن جُبير: قال لي ابن عباس هل تزوّجت؟ قلت لا؛ فقال: إن الله عز وجل يستخرج من ظهرك ما استودعه فيه. وروى عن ابن عباس أيضا أن المستقر مَن خُلق، والمستودَع من لم يُخلق؛ ذكره المَاوَرْدي. وعن ابن عباس أيضا: ومستودع عند الله.

قلت: وفي التنزيل «وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ» والاستيداع إشارة إلى كونهم في القبر إلى أن يُبعثوا للحساب؛ وقد تقدم في البقرة[1]. ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ قال قتادة: فصّلنا بيّنا.

قوله تعالى: وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أي المطر. ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي كل صنف من النبات. وقيل: رزق كل حيوان. ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ﴾ قال الأخفش: أي أخضر؛ كما تقول العرب: أَرِنيها نَمِرة أُرِكْها مَطِرة[2]. والخضر رطب

(١) راجع جـ ١ ص ٣٢١ طبعة ثانية أو ثالثة.

(٢) الهاء في «أرنيها» للسحابة. والنمر من السحاب الذي فيه آثار كآثار النمر. وقيل: هي قطع صغار متدان بعضها من بعض. وواحدتها نمرة. ومطرة: جمع ماطرة. أي إذا رأيت دليل الشيء علمت ما يتبعه. يضرب لأمر يتيقن وقوعه إذا لاحت مخايله وتباشيره. (عن فرائد اللآل جـ ١ ص ٢٥٢ طبع بيروت).

البقول . وقال ابن عباس : يريد القمح والشـعير والسُّلت(١) والذّرة والأرز وسائر الحبوب .
﴿ نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ﴾ أى يُركّب بعضه على بعض كالسنبلة .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ ابتداء وخبر . أجاز الفرّاء فى غير القرآن «قِنْوانًا دانيةً» على العطف على ما قبله . قال سيبويه : ومن العرب من يقول : قُنوان . قال الفرّاء : هذه لغة قيس، وأهل الحجاز يقولون : قِنوان، وتميم يقولون : قُنيان؛ ثم يجتمعون فى الواحد فيقولون : قِنْوٌ وقُنْوٌ . والطّلع الكُفُرَّى قبـل أن ينشق عن الإغريض. والإغريض يسمى طلعا أيضا . والطلع : ما يُرى من عِذْق النخلة . والقِنوان : جمع قِنو، وتثنيته قِنْوان كصنو وصِنوانِ (بكسر النون) . وجاء الجمع على لفظ الاثنين . قال الجوهرى وغيره : الاثنان صِنوانِ والجمع صـنوانُ (برفع النون) . والقِنْو : العِـذْق والجمع القِنوان والأقناء؛ قال :

* طويلة الأَقْناء والأثا كِلِ(٢) *

غيره « أقناء » جمع القِـلة . قال المهدوىّ : قرأ ابن هُرْمز « قَنوان » بفتح القاف، وروى عنه ضمها . فعلى الفتح هو اسم للجمع غيرُ مُكَسّر، بمنزلة ركب عنـد سيبويه، وبمنزلة الباقر والجامل؛ لأن فعلان ليس من أمثـلة الجمع، وضمّ القـاف على أنه جمع قِنْو وهو العِـذق (بكسر العين) وهى الكِباسة، وهى عنقود النخلة . والعَذْق (بفتح العين) النخلة نفسُها . وقيل: القِنوان الجُمّار . ﴿دَانِيَةٌ﴾ قريبة، ينالها القائم والقاعد. عن ابن عباس والبَرَاء بن عازب وغيرهما . قال الزجاج : منها دانية ومنها بعيدة؛ فحذف . ومثله «سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ»(٣) . وخصّ الدانية بالذكر، لأن من الغرض فى الآية ذكر القـدرة والامتنان بالنعمة، والامتنـانُ فيما يقربُ متناولُه أكثر .

---

(١) السلت (بوزن القفل) : ضرب من الشعير أبيض لا قشر له .

(٢) الأثاكل : جمع الإثكال والأثكول (لغـة فى العثكال والعثكول) وهو العذق الذى تكون فيه الشماريخ . وهذا عجز بيت، وصدره كما فى اللسان : * قد أبصرت سعدى بها كمائلى * والكمائل جمع كَنيلة وهى النخلة الطويلة .

(٣) آية ٨١ سورة النحل .

الثالثـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ أى وأخرجنا جنّات . وقرأ محمد ابن عبد الرحمن بن أبي لَيْلى والأعمش، وهو الصحيح من قراءة عاصم «وجناتٌ» بالرفع . وأنكر هـذه القراءَة أبو عبيد وأبو حاتم ، حتى قال أبو حاتم : هى محال؛ لأن الجنات لاتكون من النخل . قال النحاس : والقراءة جائزة، وليس التأويل على هذا، ولكنه رفع بالابتداء والخبرُ محذوف؛ أى ولهم جنات . كما قرأ جماعة من القرّاء «وَحُورٌ عِينٌ»[1] . وأجاز مثل هذا سيبويه والكِسائيّ والفرّاء ؛ ومثله كثير . وعلى هذا أيضا «وحُورًا عِينًا» حكاه سيبويه، وأنشد :

جِئْنِى بمثلِ بَنِى بَدْرٍ لقومهم * أَوْ مثلَ أُسْرةِ مَنْظُورِ بن سَيّارِ[2]

وقيل : التقدير « وجنات من أعناب » أخرجناها ؛ كقولك : أكرمت عبد الله وأخاه، أى وأخاه أكرمتُ أيضا . فأمّا الزيتون والرمّان فليس فيه إلا النصب للإجماع على ذلك . وقيل : «وجناتٌ» بالرفع عطف على «قِنوان» لفظا، وإن لم تكن فى المعنى من جنسها . ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ أى متشابها فى الأوراق؛ أى ورق الزيتون يُشْـبه ورق الرمان فى اشتماله على جميع الغُصْن وفى حجم الورق ، وغير متشابه فى الذَّواق ؛ عن قَتادة وغيره . قال ابن جُريج : « متشابها » فى النظر « وغير متشابه » فى الطعم ؛ مثـل الرمّانتين لونهما واحد وطعمهما مختلف . وخصّ الرمان والزيتون بالذِّكر لقربهما منهم ومكانهما عندهم . وهو كقوله : « أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ »[3] . ردّهم إلى الإبل لأنها أغلب ما يعرفونه .

الرابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿ ٱنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ أى نَظَرَ اعتبار لا نظر الإبصار المجرّد عن التفكّر . والثمر فى اللغة جَنَى الشجر . وقرأ حمزة والكسائيّ «ثُمُره» بضم الثاء والميم . والباقون بالفتح فيهما جمع ثمرة ، مثـل بقرة وبقر وشجرة وشجر . قال مجاهد : الثمر أصنـاف المـال، والتمر ثمر النخل . وكأن المعنى على قول مجاهد : اُنظروا إلى الأموال التى يتحصل منه

---

(١) آية ٢٢ سورة الواقعة . (٢) البيت لجرير، يخاطب الفرزدق فيفخر عليه بسادات قيس؛ لأنهم أخواله، وبنو بدر من فزارة وفيهم شرف قيس عيلان، وبنو سيار من فزارة أيضا، وفزارة من ذبيان من قيس . (عن شرح الشواهد للشنتمرى) . (٣) آية ١٧ سورة الغاشية .

الثمر ؛ فالثُّمُر بضمتين جمع ثمار وهو المـال المُثَمَّر . وروى عن الأعمش «ثُمْره» بضم الثاء وسكون الميم ؛ حذف الضمة لثقلها طلبا للخفة . ويجوز أن يكون ثُمْر جمع ثَمَرة مثل بدنة وبُدْن . ويجوز أن يكون ثُمُر جمع جمع ، فتقول : ثمرة وثمار وثمر مثل حمار وحمر . ويجوز أن يكون جمع ثمرة كخشبة وخُشُب لا جمع جمع .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ وَيَنْعِهِ ﴾ قـرأ محمـد بن السَّمَيْقَع «ويانعه» . وآبن مُحَيْصِن وآبن أبي إسحاق «ويُنْعِه» بضم الياء . قال الفرّاء : هي لغة بعض أهل نجد ؛ يقال : يَنَع الثمر يَيْنِـع ، والثمر يانع . وأينع يونع . والمعنى : ونُضْجِه . يَنَع وأينع إذا نَضِج وأدرك . وقال الحجاج في خطبته : أرى رءوسا قد أَيْنَعَتْ وحان قِطافها . قال ابن الأنباريّ : اليَنْع جمع يانع ، كراكب ورَكْب ، وتاجر وتَجْر ، وهو المدرك البالغ . وقال الفرّاء : أينع أكثرُ من يَنَع ، ومعناه أحمر ؛ ومنه ما روى في حديث المُلاَعنة "إن ولدته أحمر مثل اليَنَعة" وهي خرزة حمراء ، يقال : إنه العقيق أو نوع منه . فدلّت الآية لمن تدبّر ونظر ببصره وقلبه ، نَظَرَ مَن تفكّر ، أن المتغيّرات لا بدّ لها من مغيّر ؛ وذلك أنه تعالى قال : «أُنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِه إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ» . فتراه أوّلا طَلْعًا ثم إغْرِيضا إذا انشق عنـه الطَّلْع . والإغريض يُسَمَّى ضَحْكًا أيضا ، ثم بلحا ، ثم سَـيَابًا ، ثم جَدَالًا إذ آخضرّ واستدار قبـل أن يشتدّ ، ثم بُسْرًا إذا عظم ، ثم زَهْوًا إذا آحمرّ ؛ يقال : أَزْهَى يُزْهِي ، ثم مُوَكِّتًا إذا بدت فيه نقط من الإرطاب . فإن كان ذلك من قِبَل الذَّنَب فهي مُذَنِّبة ، وهو التَّذْنُوب ، فإذا لانت فهي ثَعْدة ، فإذا بلغ الإرطاب نصفها فهي مُجَزَّعَة ، فإذا بلغ ثلثيها فهي حُلْقانة ، فإذا عمّها الإرطاب فهي مُنْسبِتة ؛ يقال : رطب مُنْسَبِت ، ثم ييبس فيصير تمرا . فنبّه تعالى بانتقالها من حال إلى حال وتغيّرها ووجودها بعد أن لم تكن على وحدانيته وكمال قدرته ، وأن لها صانعا قادرا عالمـا . ودلّ على جواز البعث ؛ لإيجاد النبات بعد الجفاف . قال الجَوْهريّ : يَنَع الثمر يَيْنَع و يَيْنِـع يَنْعًا و يُنْعًا و يُنوعًا ، أي نَضِج .

السادســـة — قال ابن العربيّ قال مالك : الإيناع الطِّيب بغير فساد ولا نقش . قال مالك : والنّقش أن يَنْقُش أهلُ البصرة الثمرَ حتى يُرْطب ؛ يريد يُثقب فيه بحيث يُسرع دخولُ

الهواء إليه فيرطب معجّلا . فليس ذلك اليَنْع المراد فى القرآن ، ولا هو الذى ربط به رسول الله صلى الله عليه وسلم اليَنْع ، وإنما ما يكون من ذاته بغير محاولة . وفى بعض بلاد التّين ، وهى البلاد الباردة ، لا يَنْضُج حتى يُدخَل فى فمه عُود قد دُهن زيتا ، فإذا طاب حلّ بيعه ؛ لأن ذلك ضرورة الهواء وعادةُ البلاد ، ولولا ذلك ما طاب فى وقت الطِّيب .

قلت : وهذا اليَنْع الذى يقف عليه جواز بيع الثمرة وبه يطيب أكلها وتأمن من العاهة هو عند طلوع الثُّرَيّا بما أجرى الله سبحانه من العادة وأحكمه من العلم والقدرة . ذكر المُعَلَّى ابن أسد عن وهيب عن عِسْل بن سفيان عن عطاء عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا طلعت الثُّرَيّا صباحا رُفعت العاهة عن أهل البلد " . والثريا النجم ، لا خلاف فى ذلك . وطلوعها صباحا لاثنتى عشرة ليلة تمضى من شهر أيّار ، وهو شهر مايه . وفى البخارىّ : وأخبرنى خارجة بن زيد بن ثابت أن زيد بن ثابت لم يكن يبيع ثمار أرضه حتى تطلع الثُّرَيّا فيتبيّن الأصفرُ من الأحمر .

السابعـة — وقد استدلّ من أسقط الجوائح فى الثمار بهذه الآثار ، وما كان مثلها من نهيه عليه السلام عن بيع الثمرة حتى يبدُوَ صلاحها ، وعن بيع الثمار حتى تذهب العاهة . قال عثمان بن سُراقة : فسألت ابن عمر متى هذا ؟ فقال طلوع الثريا . قال الشافعىّ : لم يثبت عندى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بوضع الجوائح ، ولو ثبت عندى لم أعْدُه . والأصل المجتمع عليه أن كل من ابتاع ما يجوز بيعه وقبضه كانت المصيبة منه . قال : ولو كنت قائلا بوضع الجوائح لوضعتها فى القليل والكثير ؛ وهو قول الثَّوْرِىّ والكوفيين . وذهب مالك وأكثر أهل المدينة إلى وضعها ؛ لحديث جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بوضع الجوائح . أخرجه مسلم . وبه كان يقضى عمر بن عبد العزيز ، وهو قول أحمد بن حنبل وسائر أصحاب الحديث . وأهل الظاهر وضعوها عن المبتاع فى القليل والكثير على عموم الحديث ، إلا أن مالكا وأصحابه اعتبروا أن تبلغ الجائحة ثلث الثمرة فصاعدًا ، وما كان دون الثلث ألغوه وجعلوه تَبَعًا ، إذ لا تخلو ثمرة من أن يتعذّر القليل من طِيبها وأن يلحقها فى اليسير منها

فساد . وكان أصْبَغ وأشهب لا ينظران إلى الثمرة ولكن إلى القيمة، فإذا كانت القيمة الثلث فصاعدًا وضـع عنه . والجـائحة مالا يمكن دفعـه عنـد ابن القاسم . وعليه فلا تكون السرقة جائحة، وكذا فى كتاب محمد . وفى الكتاب أنه جائحة، وروى عن ابن القاسم، وخالفه أصحابه والنـاس . وقال مُطَـرِّف وابن المـاجِشون : ما أصاب الثمـرة من السماء من عَفَن أو برد، أو عطش أو حَرّ أو كسر الشـجر بمـا ليس بصنع آدمى فهو جائحة . واختُلف فى العسكر؛ ففى رواية ابن القاسم هو جائحة . والصحيح فى البقول أنها الثمرة . ومن باع ثمرا قبل بَدْو صلاحه بشرط التبقية فُسخ بيعه ورُدّ للنهى عنه، ولأنه من أكل المـال بالباطل؛ لقوله عليه السلام: "أرأيت إن منع الله الثمرة فبم يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق". هذا قول الجمهور، وصححه أبو حنيفة وأصحـابه وحملوا النهى على الكراهة . وذهب الجمهـور إلى جواز بيعها قبـل بَدْو الصلاح بشرط القطع . ومنعه الثَّورِىّ وابن أبى لَيْلَى تمسّكا بالنهى الوارد فى ذلك . وخصّصه الجمهور بالقياس الجلىّ؛ لأنه مبيع معلوم يصحّ قبضه حالة العقد فصحّ بيعه كسائر المبيعات .

قوله تعـالى : وَجَعَـلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُـمْ وَخَرَقُوا لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾ هذا ذِكر نوع آخر من جهالاتهم ، أى فيهم مَن اعتقد لله شركاء من الجن . قال النحاس : « الجن » مفعول أوّل، و « شركاء » مفعول ثان؛ مثل « وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا »[1] . « وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا »[2] . وهو فى القرآن كثير . والتقدير : وجعلوا لله الجن شركاء . ويجوز أن يكون « الجن » بدل من شركاء، والمفعول الثانى «لله» . وأجاز الكسائىّ رفع « الجن » بمعـنى هم الجن . ﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾ كذا قراءة الجماعة ، أى خلق الجاعلين له شركاء . وقيل : خلق الجن الشركاء . وقرأ ابن مسعود « وهو خلقهم » بزيادة هو . وقرأ يحيى بن يَعْمَر « وخلْقهم » بسكون اللام، وقال : أى وجعلوا خلقهم لله شركاء؛ لأنهم كانوا يخلقون الشىء ثم يعبدونه . والآية نزلت فى مشركى العـرب . ومعنى إشراكهم

(١) آية ٢٠ سورة المـائدة . (٢) آية ١٢ سورة المدثر .

بالجن أنهم أطاعوهم كطاعة الله عزوجل؛ رُوى ذلك عن الحسن وغيره. قال قَتادة والسُّدّي: هم الذين قالوا الملائكةُ بناتُ الله . وقال الكلبي : نزلت في الزنادقة، قالوا : إن الله وإبليس أخوان؛ فالله خالق النـاس والدواب، وإبليس خالق الجان والسباع والعقارب . ويقرب من هذا قول المجوس، فإنهم قالوا : للعـالَم صانعان : إله قديم، والثانى شيطان حادث من فكرة الإله القديم؛ وزعموا أن صانع الشر حادث . وكذا الحائطية من المعتزلة من أصحاب أحمد ابن حائط، زعموا أن للعالَم صانعين : الإله القديم، والآخر محدث، خلقه الله عزوجل أوّلا ثم فوّض إليه تدبير العالم؛ وهو الذى يحاسب الخلق فى الآخرة . تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون عُلُوًّا كبيرا . ﴿ وخَرَّقُوا ﴾ قراءة نافع بالتشديد على التكثير؛ لأن المشركين ادعوا أن لله بناتٍ وهم الملائكة، وسَمَّوهم جِنًّا لاجتنانهم . والنصارى ادعت المسيح ابنَ الله . واليهود قالت : عزير ابن الله، فكثُر ذلك من كفرهم؛ فشُدّد الفعل لمطابقة المعنى . تعالى الله عما يقولون . وقرأ الباقون بالتخفيف على التقليل . وسئل الحسن البصرى عن معنى «وخرّقوا له» بالتشـديد فقال : إنمـا هو « وخَرَقوا » بالتخفيف، كلمة عربيـة، كان الرجل إذا كذب فى النادى قيل : خَرَقها وربِّ الكعبة . وقال أهل اللغة : معنى « خرقوا » اختلقوا وافتعلوا . « وخرّقوا » على التكثير . قال مجاهد وقَتادة وابن زيد وابن جُريج : « خرقوا » كذبوا . ويقال : إن معنى خرق واخترق واختلق سواء؛ أى أحدث .

قوله تعـالى : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١٠١)

قوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى مبدعهما؛ فكيف يجوز أن يكون له ولد . « وبديع » خبر ابتداء مضمر أى هو بديع . وأجاز الكسائىّ خفضه على النعت لله عز وجل، ونصبه بمعنى بديعا للسموات والأرض . وذا خطأ عند البصريين[1] لأنه لمـا مضى .

(١) اسم الفاعل يعمل عمل فعله إن كان صلة لأل مطلقا ؛ فان لم يكن صلة لأل عمل بشرطين عند البصريين : أن يكون بمعنى الحال أو الاستقبال . وأجاز الكسائى عمله إذا كان للماضى .

﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴾ أى من أين يكون له ولد . وولد كل شيء شبيهه ، ولا شبيــه له .
﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ﴾ أى زوجة . ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ عموم معناه الخصوص؛ أى خلق العالم.
ولا يدخل فى ذلك كلامه ولا غيره من صفات ذاته . ومثله « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ »(١)
ولم تسع إبليس ولا من مات كافرا . ومثله «تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ»(٢) ولم تدمر السموات والأرض .

قوله تعالى : ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ « ذلكم » فى موضع رفع بالابتـداء .
﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ على البـدل . ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ خبر الابتداء . ويجوز أن يكون « ربكم »
الخبر، و « خالق » خبرا ثانيا، أو على إضمار مبتدأ، أى هو خالق . وأجاز الكسائى والفراء
فيه النصب .

قوله تعالى : لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ بيّن سبحانه أنه منزّه عن سمات الحدوث ، ومنها
الإدراك بمعنى الإحاطة والتحديد ، كما تدرك سائر المخلوقات ، والرؤية ثابتة . وقال الزجاج :
اى لا يبلغ كُنْه حقيقته؛ كما تقول: أدركت كذا وكذا؛ لأنه قد صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم
الأحاديث فى الرؤية يوم القيامة . وقال ابن عباس : « لا تدركه الأبصار » فى الدنيا ،
ويراه المؤمنون فى الآخرة؛ لإخبار الله بها فى قوله : «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ»(٣) .
وقاله السُّدّى . وهو أحسن ما قيـل لدلالة التنزيل والأخبار الواردة برؤية الله فى الجنـة .
وسيأتى بيانه فى « يونس »(٤) . وقيل : « لا تدركه الأبصار » لا تحيط به وهو يحيط بهـا ؛

(١) آية ١٥٦ سورة الأعراف . (٢) آية ٢٥ سورة الأحقاف . (٣) آية ٢٢ سورة القيامة .
(٤) فى قوله : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » آية ٢٦ .

عن ابن عباس أيضا . وقيل : المعنى لا تدركه أبصار القلوب ، أى لا تدركه العقول فتتوهّمه ؛ إذ ليس كمثله شيء . وقيل : المعنى لا تدركه الأبصار المخلوقة فى الدنيا ، لكنه يخلق لمن يريد كرامتــه بصرا وإدراكا يراه به كمحمد عليــه السلام ؛ إذ رؤيته تعالى فى الدنيا جائزةٌ عقلا ، إذ لولم تكن جائزةً لكان سؤال موسى عليه السلام مستحيلا ، ومحالٌ أن يجهل نبىّ ما يجوز على الله وما لا يجوز ، بل لم يسأل إلا جائزا غير مستحيل . واختلف السلف فى رؤية نبينّا عليه السلام ربّه ، ففى صحيح مسلم عن مسروق قال : كنت متكئا عند عائشة ، فقالت : يا أبا عائشة [1] ، ثلاثٌ مَن تكلّم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفِرْية . قلت : ما هن ؟ قالت : مَن زعم أن محمدا رأى ربّه فقــد أعظم على الله الفِرْية . قال : وكنت متكئا فجلست فقلت : يا أمّ المؤمنين ، أنظرينى ولا تُعْجِلينى ، ألم يَقُلِ الله عز وجل « وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ » [2] . « وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى » [3] ؟ فقالت : أنا أوّل هذه الأمة سأل عن ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : "إنما هو جبريل لم أره على صورته التى خلق عليها غير هاتين المرتين رأيتُه منهبطا من السماء سَادًّا عِظَم خلقِه ما بين السماء والأرض" . فقالت : أوَ لم تسمع أن الله عز وجل يقول : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » ! أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول : « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا — إلى قوله — عَلِيٌّ حَكِيمٌ » [4] ! قالت : ومن زعم أن رســول الله صلى الله عليه وسلم كتم شيئا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفِرْية ، والله تعالى يقول : « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ » قالت : ومَن زعَم أنه يُخبر بمـا يكون فى غدٍ فقد أعظم على الله الفرية ، والله تعالى يقول : « قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ » [5] .

وإلى ما ذهبت إليــه عائشة رضى الله عنها من عدم الرؤية ، وأنه إنمـا رأى جبريل : ابن مسعود ، ومثله عن أبى هريرة رضى الله عنــه ، وأنه إنمـا رأى جبريل ، واختلف

(١) أبو عائشة : كنية الإمام مسروق . (٢) آية ٢٣ سورة التكوير . (٣) آية ١٣ سورة النجم .
(٤) آية ٥١ سورة الشورى . (٥) آية ٦٥ سورة النمل .

عنهما . وقال بإنكار هذا وآمتناع رؤيتــه جماعةٌ من المحدّثين والفقهاء والمتكلّمين . وعن ابن عباس أنه رآه بعينيه؛ هذا هو المشهور عنه . وحجته قوله تعالى: «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى»(١) . وقال عبــد الله بن الحارث : اجتمع ابن عباس وأُبَيّ بن كعب، فقال ابن عباس : أمّا نحن بنو هاشم فنقول إن محمدا رأى ربّه مرتين. ثم قال ابن عباس: أتعجبون أن الخُلّة تكون لإبراهيم والكلامَ لموسى، والرؤيةَ لمحمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين . قال : فكبّر كعب حتى جاوبته الجبال، ثم قال : إن الله قسّم رؤيتــه وكلامَه بين محمد وموسى عليهما السلام ، فكلّم موسى ورآه محمد صلى الله عليه وسلم. وحكى عبد الرزّاق أن الحسن كان يحلف بالله لقد رأى محمد ربّه . وحكاه أبو عمر الطَّلَمَنْكيّ عن عِكرمة، وحكاه بعض المتكلمين عن ابن مسعود، والأوّل عنــه أشهر . وحكى ابن إسحاق أن مروان سأل أبا هريرة : هل رأى محمد ربّه ؟ فقال نعم . وحكى النقاش عن أحمد بن حنبل أنه قال : أنا أقول بحديث ابن عباس : بعينــه رآه رآه ! حتى آنقطع نفسه ، يعني نفس أحمد . وإلى هذا ذهب الشيخ أبو الحسن الأشعريّ وجماعة من أصحابه أنه رأى الله ببصره وعيني رأسه . وقاله أنس وابن عباس وعكرمة والربيع والحسن . وكان الحسن يحلف بالله الذي لا إله إلا هو لقد رأى محمد ربّه . وقال جماعة منهم أبو العالية والقُرَظيّ والربيع بن أنس : إنه إنمــا رأى ربّه بقلبــه وفؤاده ؛ وحكى عن ابن عباس أيضا وعكرمة . وقال أبو عمر : قال أحمــد بن حنبل رآه بقلبه ، وجَبُن عن القول برؤيته في الدنيا بالأبصار . وعن مالك بن أنس قال : لم يُرَ في الدنيا ؛ لأنه باقٍ ولا يُرى الباقي بالفاني ، فإذا كان في الآخرة ورُزقوا أبصارا باقيــة رأوا البــاقي بالباقي . قال القاضي عِيــاض : وهذا كلام حسن مليح، وليس فيــه دليل على الآستحالة إلا من حيث ضعف القدرة؛ فإذا قوّى الله تعــالى من شاء من عباده وأقدره على حمل أعباء الرؤية لم يمتنع في حقّــه . وسيأتي شيء من هذا في حق موسى عليه السلام في «الأعراف»(٢) إن شاء الله .

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ أي لا يخفى عليه شيء إلا يراه ويعلمه . وإنما خصّ « الأبصار » لتجنيس الكلام . قال الزجاج : وفي هذا الكلام دليل على أن الخلق لا يُدركون

(١) آية ١١ سورة النجم . (٢) في قوله تعالى : « ولما جاء موسى لميقاتنا » آية ١٤٣ .

الأبصار، أى لا يعرفون كيفية حقيقة البصر، وما الشيء الذى صار به الإنسان يُبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه . ثم قال : ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ ﴾ أى الرفيق بعباده ؛ يقال : لَطَفَ فلان بفلان يَلْطُف، أى رَفَق به . واللطف فى الفعل الرِّفقُ فيه . واللُّطْف من الله التوفيق والعِصمة . وألطفه بكذا ، أى برّه به . والاسم اللَّطَف بالتحريك . يقال : جاءتنا من فلان لَطَفة ؛ أى هَدِيّة . والملاطفة المبارّة ؛ عن الجوهرى وابن فارس . قال أبو العالية : المعنى لطيف باستخراج الأشياء خبيرٌ بمكانها . وقال الجُنَيد : اللّطيف من نوّر قلبك بالهدى ، وربّى جسمك بالغذى ، وجعل لك الولاية فى البَلْوى ، ويحرُسك وأنت فى لظى، ويدخلك جنة المأوى . وقيل غير هذا ، مما معناه راجع إلى معنى الرفق وغيره . وسيأتى ما للعلماء من الأقوال فى ذلك فى « الشُّورى »[1] إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أى آيات وبراهين يُبْصَر بها ويُستدَلّ ؛ جمع بصيرة وهى الدّلالة . قال الشاعر :

جاءوا بصائرهم على أكتافهم * وبصيرتى يَعْدُو بها عَتَدٌ وَأَى[2]

يعنى بالبصيرة الحجة البيّنة الظاهرة . ووصف الدلالة بالمجيء لتفخيم شأنها ؛ إذ كانت بمنزلة الغائب المتوقّع حضوره للنفس، كما يقال : جاءت العافية وقد انصرف المرض، وأقبل السعود وأدبر النحوس . ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ﴾ الإبصار : هو الإدراك بحاسّة البصر؛ أى فمن استدلّ وتعرّف فنفسَه نفع . ﴿ وَمَنْ عَمِىَ ﴾ لم يستدل ، وصار بمنزلة الأعمى ؛ فعلى نفسه يعود ضرر

---

(١) فى قوله تعالى : «الله لطيف بعباده ...» آية ١٩ . (٢) الذى فى كتب اللغة : «راحوا ... الخ» وأن هذا البيت للأسعر الجعفى . يقول : إنهم تركوا دم أبيهم وجعلوه خلفهم ؛ أى لم يثأروا به وأنا طلبت ثأرى . والعتد (بفتح التاء وكسرها) : الفرس التام الخلق السريع الوثبة معدّ للجرى ليس فيه اضطراب ولا رخاوة . والوآى (بفتح الواو والمد) : الفرس السريع المقتدر الخلق .

عماه . ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ أى لم أومر بحفظكم على أن تهلكوا أنفسكم . وقيل : أى لا أحفظكم من عذاب الله . وقيل : « بِحَفِيظٍ » برقيب؛ أحصى عليكم أعمالكم ، وإنما أنا رسول أبلّغكم رسالات ربّى ،وهو الحفيظ عليكم لايخفى عليه شىء من أفعالكم . قال الزجاج : نزل هذا قبل فرض القتال، ثم أمر أن يمنعهم بالسيف من عبادة الأوثان .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَاتِ ﴾ الكاف فى موضع نصب؛ أى نصرف الآيات مثل ما تلونا عليك . أى كما صرفنا الآيات فى الوعد والوعيد والوعظ والتّنبيه فى هذه السورة نصرف فى غيرها . ﴿ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ ﴾ الواو للعطف على مضمر؛ أى نصرف الآيات لتقوم الحجة وليقولوا درست . وقيل : أى « وليقولوا درست » صرفناها؛ فهى لام الصيرورة . وقال الزجاج : هذا كما تقول كتب فلان هذا الكتاب لحتفه ؛ أى آل أمره إلى ذا . وكذا لما صرفت الآيات آل أمرهم إلى أن قالوا : درست وتعلمت من جبر و يسار ، وكانا غلامين نصرانيين بمكة ، فقال أهل مكة : إنما يتعلم منهما . قال النحاس : وفى المعنى قول آخر حسن، وهو أن يكون معنى « نصرف الآيات » نأتى بها آية بعد آية ليقولوا درست علينا ؛ فيذكرون الأوّل بالآخر . فهذا حقيقة، والذى قاله أبو إسحاق مجاز .

وفى «درست» سبع قراءات . قرأ أبو عمرو وابن كثير «دارست» بالألف بين الدال والراء، كفاعلت . وهى قراءة علىّ وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وأهل مكة . قال ابن عباس : معنى «دارست» تاليت . وقرأ بن عامر «دَرَسْتْ» بفتح السين و إسكان التاء من غير ألف؛ كخَرَجتْ . وهى قراءة الحسن . وقرأ الباقون « دَرَسْتَ » كخرجتَ . فعلى الأولى : دارست أهلَ الكتاب ودارسوك؛ أى ذاكرتهم وذاكروك؛ قاله سعيد بن جبير. ودلّ على هذا المعنى قولُه تعالى إخبارا عنهم : «وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ»[1] أى أعان اليهودُ النبىّ

(١) آية ٤ سورة الفرقان .

صلى الله عليه وسلم على القرآن وذاكروه فيه . وهذا كلّه قولُ المشركين . ومثله قولهم : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » (١) . « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » (٢) . وقيل : المعنى دارستنا؛ فيكون معناه كمعنى درست؛ ذكره النحاس واختاره ، والأوّل ذكره مكيّ . وزعم النحاس أنه مجاز؛ كما قال :

* فللموتِ ما تَلِد الوالده * (٣)

ومن قرأ «دَرستْ» فأحسن ما قيل في قراءته أن المعنى : ولئلا يقولوا انقطعت وٱمّحتْ ، وليس يأتي محمد صلى الله عليه وسلم بغيرها . وقرأ قتادة «دُرِست» أي قرئت . وروى سفيان ابن عُيينة عن عمرو بن عبيد عن الحسن أنه قرأ «دارستْ» . وكان أبو حاتم يذهب إلى أن هذه القراءة لا تجوز؛ قال : لأن الآيات لا تدارس . وقال غيره : القراءة بهذا تجوز، وليس المعنى على ما ذهب إليه أبو حاتم ،ولكن معناه دارستْ أمّتُك؛ أي دارستك أمّتك ،وإن كان لم يتقدّم لها ذكر؛ مثل قوله : «حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ» (٤) . وحكى الأخفش «وليقولوا دَرُسَتْ» وهو بمعنى «دَرستْ» إلا أنه أبلغ . وحكى أبو العباس أنه قرئ «ولْيقولوا درست» بإسكان اللام على الأمر . وفيه معنى التهدّد؛ أي فليقولوا بما شاءوا فإن الحق بيّن؛ كما قال عز وجل : «فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا» . فأمّا من كسر اللام فإنها عنده لام كَيْ . وهذه القراءات كلها يرجع اشتقاقها إلى شيء واحد ، إلى التليين والتذليل . و «دَرَسْتَ» من دَرَس يدرُس دِراسة ، وهي القراءة على الغير . وقيل : درسته أي ذللته بكثرة القراءة؛ وأصله درَس الطعامَ أي داسه . والدِّياس الدّراس بلغة أهل الشام . وقيل : أصله من درسْتُ الثوبَ أدْرُسه درسا أي أخلقته . وقد دَرَس الثوبُ دَرْسا أي أخلق . ويرجع هذا إلى التذلل أيضا . ويقال : سُمِّيَ إدريس لكثرة دراسته لكتاب الله . ودارست الكتب وتدارستها وٱدّارستها أي درستها . ودَرستُ الكتاب دَرْسا ودِراسة . ودَرستِ المرأة درسا أي حاضت . ويقال :

(١) آية ٥ سورة الفرقان . (٢) آية ٢٤ سورة النحل .
(٣) هذا عجز بيت ، وصدره كما في المغنى (حرف اللام) : * فإن يكن الموت أفناهم *
(٤) آية ٣٢ سورة ص .

إن فرج المرأة يُكْنَى أبا أَدْراس؛ وهو من الحيض . والدَّرْسُ أيضـا : الطريق الخَفِيّ . وحكى الأصمعيّ : بَعير لم يُدَرَّس أى لم يركب ، ودَرَست من درس المنزلُ إذا عفَا . وقرأ ابن مسعود وأصحابه وأبَيّ وطلحة والأعمش «وليقولوا درس» أى درس محمد الآيات . ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ﴾ يعنى القول والتصريف ، أو القرآن ﴿ لِقوم يعلمون ﴾ .

قوله تعـالى : ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾

قوله تعالى ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ يعنى القرآن؛ أى لا تَشغل قلبك وخاطرك بهم؛ بل اشتغل بعبادة الله . ﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ منسوخ .

قوله تعـالى : وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا ﴾ نصّ على أنّ الشرك بمشيئته ، وهو إبطال لمذهب القدرية كما تقـدّم . ﴿ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أى لا يمكنك حفظهم من عذاب الله . ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أى قَيِّم بأمورهم فى مصالحهم لدينهم أو دنياهم ، حتى تلطف لهم فى تناول ما يجب لهم؛ فلست بحفيظ فى ذلك ولا وكيل فى هذا ، إنما أنت مُبَلِّغ . وهذا قبل أن يؤمر بالقتال .

قوله تعـالى : وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ نَهْيٌ . ﴿ فَيَسُبُّوا ﴾ جواب النهي . نهى سبحانه المؤمنين أن يَسُبُّوا أوثانهم ؛ لأنه علم إذا سبّوها نفر الكفار وٱزدادوا كُفرا . قال ابن عباس : قالت كفار قريش لأبي طالب إمّا أن تنهى محمدا وأصحابَه عن سَبّ آلهتنا والغض منها وإما أن نَسُبّ إلٰهه ونهجوه ؛ فنزلت الآية .

الثانيـــة — قال العلماء : حكمها باقٍ في هذه الأمة على كل حال ؛ فمتى كان الكافر في مَنَعة وخِيف أن يَسُبَّ الإسلامَ أو النبيّ عليه السلام أو الله عز وجل ، فلا يحلّ لمسلم أن يَسُبّ صلبانهم ولا دينهم ولا كنائسهم ، ولا يتعرض إلى ما يؤدّي إلى ذلك ؛ لأنه بمنزلة البعث على المعصية . وعبّر عن الأصنام وهي لا تعقل بـ«الذين» على معتقد الكفرة فيها .

الثالثـــة — في هـذه الآية أيضا ضَرْبٌ من الموادعة ، ودليلٌ على وجوب الحكم بسدّ الذرائع ؛ حسب ما تقدّم . في «البقرة» وفيها دليل على أن المحقّ قد يكفّ عن حق له إذا أدّى إلى ضرر يكون في الدِّين . ومن هـذا المعنى ما رُوي عن عمـر بن الخطاب رضي الله عنـه أنه قال : لا تبتّوا الحكم بين ذوي القرابات مخافة القطيعة . قال ابن العربيّ : إن كان الحق واجبا فيأخذه بكل حال ، وإن كان جائزا ففيه يكون هذا القول .

الرابعـــة — قوله تعالى : «عَدْوًا» أي جهلا وٱعتداء . ورُوي عن أهل مكة أنهم قرءوا «عُدُوًّا» بضم العين والدال وتشديد الواو ، وهي قراءة الحسن وأبي رجاء وقتَادة ، وهي راجعة إلى القراءة الأولى ، وهما جميعا بمعنى الظلم . وقرأ أهـل مكة أيضا «عَدُوًّا» بفتح العين وضم الدال بمعنى عدوّ . وهو واحد يؤدّي عن جمع ؛ كما قال : « فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ »(1) . وقال : «هُمُ الْعَدُوُّ»(2) . وهو منصوب على المصدر أو المفعول من أجله .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ أي كما زيّنّا لهؤلاء أعمالهم كذلك زينا لكل أمة عملهم . قال ابن عباس . زيّنّا لأهل الطاعةِ الطاعةَ ، ولأهل الكفرِ

(1) آية ٧٧ سورة الشعراء .　　(2) آية ٤ سورة المنافقون .

الكفر؛ وهو كقوله : « يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ »[1] . وفى هـذا ردٌّ على القــدرية .

قوله تعالى : وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا ﴾ أى حلفوا . وجَهْدُ اليمين أشدّها ، وهو بالله . فقوله « جهد أيمانهم » أى غاية أيمانهم التى بلغها علمهم، وانتهت إليها قدرتهم . وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن الله هو الإله الأعظم، وأن هذه الآلهة إنما يعبدونها ظنًّا منهـم أنها تقربهم إلى الله زلفى؛ كما أخبر عنهم بقوله تعالى: «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى»[2] . وكانوا يحلفون بآبائهم وبالأصنام وبغير ذلك . وكانوا يحلفون بالله تعالى وكانوا يُسمّونه جَهْد اليَمين إذا كانت اليمين بالله . «جَهْدَ» منصوب على المصدر والعامل فيه «اقسموا» على مذهب سيبويه؛ لأنه فى معناه. والجَهْد (بفتح الجيم) : المشقّة؛ يقال : فعلت ذلك بجَهْد. والجُهْد (بضمها): الطاقة يقال : هذا جُهْدِى، أى طاقتى. ومنهم من يجعلهما واحدا، ويحتج بقوله «وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ»[3] . وقرئ «جَهْدهم» بالفتح؛ عن ابن قتيبة . وسبب الآية فيما ذكر المفسرون : القُرَظِيّ والكَلْبي وغيرهما، أن قريشا قالت : يا محمد، تُخبرنا بأن موسى ضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عَيْنًا، وأن عيسى كان يُحيي الموتى، وأن ثمود كانت لهم ناقة؛ فأتنا ببعض هذه الآيات حتى نصدّقك . فقال : "أيّ شيء تحبّون"؟ قالوا : اجعل لنا الصَّفَا ذهبا؛ فوالله إن فعلته لنتبعنّك أجمعون. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو؛ فجاءه جبريل فقال : "إن شئت أصبح ذهبا، ولئن أرسل الله آية ولم يصدّقوا عندها ليعذبنّهم فاتركهـم حتى يتوب تائبهم" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بل يتوب تائبهم" فنزلت هذه

(١) آية ٩٣ سورة النحل . (٢) آية ٣ سورة الزمر . (٣) آية ٧٩ سورة التوبة .

الآية . وبيّن الربّ بأن من سبق العلم الأزليّ بأنه لا يؤمن فإنه لا يؤمن وإن أقسم ليؤمننّ .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ قيل : معناه بأغلظ الأيمان عندهم . وتعرِض هنا مسألةٌ من الأحكام عُظْمَى ، وهى قول الرجل : الأيمان تلزمه إن كان كذا وكذا . قال ابن العربيّ : وقد كانت هذه اليمين فى صدر الإسلام معروفةً بغير هذه الصورة ، كانوا يقولون : علىّ أشدّ ما أخذه أحد على أحد ؛ فقال مالك : تَطْلُق نساؤه . ثم تكاثرت الصُّوَر حتى آلت بين الناس إلى صورةٍ هذه أُمُّها . وكان شيخنا الفِهْرِيّ الطَّرَسُوسِيّ يقول : يلزمه إطعام ثلاثين مسكينا إذا حنِث فيها ؛ لأن قوله « الأيمان » جمع يمين ، وهو لو قال علىّ يمين وحنِث ألزمناه كفارةً . ولو قال : علىّ يمينان للزمته كفارتان إذا حنِث . والأيمان جمع يمين فيلزمه فيها ثلاث كفارات .

قلت : وذكر أحمد بن محمد بن مغيث فى وثائقه : اختلف شيوخ القَيْرَوان فيها ؛ فقال أبو محمد بن أبى يزيد : يلزمه فى زوجته ثلاث تطليقات ، والمَشْىُ إلى مكة ، وتفريقُ ثلث ماله ، وكفارةُ يمين ، وعِتق رقبة . قال ابن مغيث : وبه قال ابن أرفع رأسه وابن بدر من فقهاء طُلَيْطُلة . وقال الشيخ أبو عمران الفاسى وأبو الحسن القابِسىّ وأبو بكر بن عبد الرحمن القَرَوِىّ : تلزمه طلقة واحدة إذا لم تكن له نيّة . ومن حجتهم فى ذلك رواية ابن الحسن فى سماعه من ابن وهب فى قوله «وأشدّ ما أخذه أحد على أحد أن عليه فى ذلك كفارةَ يمين» . قال ابن مغيث : فجعل مَن سمّيناه على القائل : « الأيمان تلزمه » طلقةً واحدة ؛ لأنه لا يكون أسوأ حالا من قوله : أشدّ ما أخذه أحد على أحد أن عليه كفارةَ يمين ، وبه نقول . قال : واحتجّ الأوّلون بقول ابن القاسم فيمن قال : علىّ عهد الله وغليظُ ميثاقه وكفالته وأشدّ ما أخذ أحد على أحد على أمر ألّا يفعله ثم فعله ؛ فقال : إن لم يُرِد الطلاق ولا العتاق وعزلهما عن ذلك فلتكن ثلاث كفارات . فإن لم تكن له نيّة حين حلف فليكفّر كفارتين فى قوله : علىّ عهد الله وغليظ ميثاقه . ويعتق رقبة وتَطْلُق نساؤه ، ويمشى إلى مكة ويتصدّق بثلث ماله

فى قوله : واشـدّ ما أخذه أحد على أحد . قال ابن العربىّ : أمّا طريق الأدلّة فإن الألف واللام فى الأيمان لا تخلو أن يراد بها الجنس أو العهد؛ فإن دخلت للعهد فالمعهود قولك «بالله» فيكون ما قاله الفِهْرِىّ . فإن دخلت للجنس فالطلاق جنس فيدخل فيهـا ولا يُستوفَى عدده ، فإن الذى يكفى أن يدخل فى كل جنس معنى واحد؛ فإنه لو دخل فى الجنس المعنى كلُّه للزمه أن يتصدّق بجميع ماله؛ إذ قد تكون الصدقة بالمـال يَمِيناً . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ﴾ أى قل يامحمد: الله القادر على الإتيان بها، وإنما يأتى بها إذا شاء. ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ أى وما يُدريكم أيمانهم؛ فحذف المفعول. ثم آستأنف فقال: ﴿إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بكسر إن، وهى قراءة مجاهد وأبى عمرو وابن كَثير. ويشهد لهذا قراءة آبنِ مسعود «وما يشعركم إذا جاءت لا يؤمنون» . وقال مجاهد وابن زيد : المخاطَب بهذا المشركون، وتمّ الكلام . حكم عليهم بأنهم لا يؤمنون ، وقد أعلمنا فى الآية بعد هذه أنهم لا يؤمنون . وهـذا التأويل يشبه قراءة من قرأ «تؤمنون» بالتاء . وقال الفَرّاء وغيره : الخطاب للؤمنين؛ لأن المؤمنين قالوا للنبىّ صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله، لو نزلت الآية لعلهم يؤمنون؛ فقال الله تعالى : «وما يشعركم» أى يعلمكم ويدريكم أيهـا المؤمنون . «أنها» بالفتح، وهى قراءة أهل المدينة والأعمش وحمزة، أى لعلّها إذا جاءت لا يؤمنون . قال الخليل : «أنها» بمعنى لعلّها؛ حكاه عنه سيبويه . وفى التنزيل : «وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى»(1) أى أنه يزّكّى. وحُكى عن العرب: إِيت السوق أنّك تشترى لنا شيئا، أى لعلّك. وقال أبو النَّجْم:

قلت لشَيْبَان آدْنُ من لقائِهْ * أنّ تُغَدّى القومَ من شِوَائِهْ

وقال عَدِىّ بن زيد :

أعاذِل ما يُدريك أنّ منيّتِى * إلى ساعةٍ فى اليوم أو فى ضُحَى الغَدِ

أى لعلّ . وقال دُرَيد بن الصِّمّة(2) :

أَرِينِى جوادًا مات هَزْلًا لأنّنِى * أرى ما تَرَيْنَ أو بخيلا مُخَلَّدَا

(1) آية ٣ سورة عبس . (2) الصحيح أنه حاتم طى . كما فى الصحاح للجوهرى، وديوانه .

أى لعلّى . وهو فى كلام العرب كثير « أنّ » بمعنى لعل . وحكى الكسائي أنه كذلك فى مصحف أُبَىّ بن كعب « وما أدراكم لعلها » . وقال الكسائى والفَرّاء : أن « لا » زائدة ، والمعنى : وما يشعركم أنها — أى الآيات — إذا جاءت المشركين يؤمنون ، فزيدت « لا » ؛ كما زيدت « لا » فى قوله تعـالى : « وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ »[(1)] . لأن المعنى : وحرام على قرية مُهْلَكة رجوعُهم . وفى قوله : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ » . والمعنى : ما منعك أن تسجد . وضعّف الزجاج والنحاس وغيرهما زيادة « لا » وقالوا : هو غلط وخطأ ؛ لأنهـا إنمـا تزاد فيما لا يُشْكِل . وقيل : فى الكلام حذف ، والمعنى : وما يشـعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون أو يؤمنون ، ثم حذف هذا لعلم السامع ؛ ذكره النحاس وغيره .

قوله تعـالى : وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

هذه آية مُشْكِلة ، ولا سيّما وفيها « وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » . قيل : المعنى ونقلب أفئدتهم وأنظارهم يوم القيامة على لهب النـار وحرّ الجمر ؛ كما لم يؤمنوا فى الدنيا . ﴿ وَنَذَرُهُمْ ﴾ فى الدنيا ، أى نمهلهم ولا نعاقبهـم ؛ فبعض الآية فى الآخرة ، وبعضها فى الدنيـا . ونظيرها « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ »[(2)] فهذا فى الآخرة . « عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ » فى الدنيا . وقيل : ونقلب فى الدنيا ؛ أى نحول بينهم و بين الإيمان لو جاءتهم تلك الآية ، كما حُلنـا بينهم و بين الإيمـان أوّل مرة ؛ لمّـا دعوتَهم وأظهرتَ المعجزة . وفى التنزيل : « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ »[(3)] . والمعنى : كان ينبغى أن يؤمنوا إذا جاءتهـم الآية فرأوها بأبصارهم وعرفوها بقلوبهم ؛ فإذا لم يؤمنوا كان ذلك بتقليب الله قلوبهـم وأبصارهم . ﴿ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ودخلت الكاف على محذوف ، أى فلا يؤمنون كما لم يؤمنوا به أوّل مرة ؛ أى أوّل مرة أتتهم الآيات التى عجزوا عن معارضتها مثل القرآن وغيره . وقيل : ونقلّب أفئدة هؤلاء كيلا يؤمنوا ؛ كما لم تؤمن كفار

---

(١) آية ٩٥ سورة الأنبياء . (٢) آية ٢ سورة الغاشية . (٣) آية ٢٤ سورة الأنفال .

الأمم السالفة لمـا رأوا ما ٱقترحوا من الآيات . وقيل : فى الكلام تقـديم وتأخير؛ أى أنها إذا جاءت لا يؤمنون كما لم يؤمنوا أوّل مرة ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم . ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يتحيرون . وقد مضى فى «البقرة»[1] .

قوله تعـالى : وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١)

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ ﴾ فرأوهم عِياناً . ﴿ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى ﴾ بإحيائنا إيّاهم . ﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ سألوه من الآيات . ﴿ قِبَلًا ﴾ مُقابلة؛ عن ٱبن عباس وقتادة وابن زيد . وهى قراءة نافع وٱبن عامر . وقيل : معاينة ، لمـا آمنوا . وقال محمد بن يزيد : يكون « قِبلا » بمعنى ناحية؛ كما تقول : لى قِبَل فلان مالٌ؛ فقِبَلا نصب على الظرف . وقرأ الباقون «قُبُلًا» بضم القاف والباء، ومعناه ضُمَناء؛ فيكون جمع قَبِيل بمعنى كفيل ، نحو رغيف ورُغُف؛ كما قال : «أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا»[2]؛ أى يضمنون؛ ذلك عن الفرّاء . وقال الأخفش : هو بمعنى قَبِيل قَبِيل؛ أى جماعة جماعة ، وقاله مجاهد ، وهو نصب على الحال على القولين . وقال محمد بن يزيد « قُبُلا » أى مقابلة ؛ ومنه « وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ » . ومنه قُبُل الرَّجل ودُبُره لمـا كان من بين يديه ومن ورائه . ومنه قُبُل الحيض . حكى أبو زيد : لقيت فلانا قُبُلًا ومقابلة وقَبَلا وقُبَلا ، كله بمعنى المواجهة؛ فيكون الضم كالكسر فى المعنى وتستوى القراءتان؛ قاله مكّى . وقرأ الحسن « قُبْلًا » حذف الضمة من الباء لثقلها . وعلى قول الفرّاء يكون فيـه نطق ما لا ينطق ، وفى كفالة ما لا يعقل آية عظيمـة لهم . وعلى قول الأخفش يكون فيه اجتماع الأجناس الذى ليس بمعهود . والحشر الجمـع . ﴿ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ﴾ « أن » فى موضع استثناء ليس من الأوّل؛ أى لكن إن شاء ذلك لهم . وقيل :

(١) راجع جـ ١ ص ٢٠٩ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٩٢ سورة الإسراء .

الاستثناء لأهل السعادة الذين سبق لهم فى علم الله الإيمان . وفى هذا تسلية للنبىّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ أى يجهلون الحق . وقيــل : يجهلون أنه لا يجوز اقتراح الايات بعد أن رأوا آية واحدة .

قوله تعــالى : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢)

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ ﴾ يُعَزِّى نبيّه ويُسلّيه ، أى كما ابتليناك بهؤلاء القوم فكذلك جعلنا لكل نبى قَبْلك « عَدُوًّا » أى أعداء . ثم نعتهم فقال ﴿ شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ حكى سيبويه جعل بمعنى وصف . « عَدُوًّا » مفعول أوّل . « لِكُلِّ نَبِيٍّ » فى موضع المفعول الثانى . « شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ » بدل من عدوّ . ويجوز أن يكون « شياطين » مفعولا أوّلَ ، « عدوّا » مفعولا ثانيا ؛ كأنه قال : جعلنا شياطيـــن الإنس والجن عدوّا . وقرأ الأعمش « شياطين الجن والإنس » بتقديم الجن . والمعنى واحد . ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ عبارة عما يوسوس به شياطين الجن إلى شياطين الإنس . وسُمِّىَ وَحْيًا لأنه إنمــا يكون خُفية ، وجعل تمويههم زُخْرفا لتزيينهم إياه ؛ ومنه سُمِّىَ الذهب زخرفا . وكل شىء حسَن مُمَــوّه فهو زُخْرُف . والمزخرَف المزيّن . وزخارف المــاء طرائقه . « غرورا » نصب على الحال ، لأن معنى « يُوحِى بعضُهم إلى بعض » يغرونهم بذلك غرورا . ويجوز أن يكون فى موضع الحال . والغرور الباطل . قال النحاس : وروى عن ابن عباس بإسناد ضعيف أنه قال فى قول الله عز وجل « يُوحِى بعضُهم إلى بعض » قال : مع كل جنىّ شيطان ، ومع كل إنسىّ شــيطان ، فيلقَى أحدهما الآخر فيقول : إنى قد أضللتُ صاحبى بكذا فأضلّ صاحبَك بمثله . ويقول الآخر مثــلَ ذلك ؛ فهــذا وَحْىُ بعضهم إلى بعض . وقاله عكرمة والضــحاك

والسُّـــدّى والكَلْبى . قال النحاس : والقول الأوّل يدل عليــه « وإنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ »[1]؛ فهذا يبيّن معنى ذلك .

قلت : ويدلّ عليه من صحيح السُّنَّة قولُه عليه السلام : "ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قَرِينُــه من الجن" قيل : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : "ولا أنا إلا أنّ الله أعاننى عليه فأسْلَمَ فلا يأمرنى إلا بخير". روى "فأسلم" برفع الميم ونصبها . فالرفع على معنى فأسلم من شره . والنصب على معنى فأســلم هو . فقال : "ما منكم من أحد" ولم يقل ولا من الشياطين؛ إلا أنه يحتمل أن يكون نبّه على أحد الجنسين بالآخر؛ فيكون من باب «سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ»[2] وفيه بُعْـدٌ، والله أعلم . وروى عَوف بن مالك عن أبى ذَرٍّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وســلم : "يا أبا ذَرّ هل تعوّذت بالله من شرّ شياطين الإنس والجن"؟ قال قلت : يا رسول الله، وهل للإنس من شياطين؟ قال : "نعم هم شَرٌّ من شياطين الجن". وقال مالك بن دِينار : إن شيطان الإنس أشدّ علىّ من شيطان الجن، وذلك أنى إذا تعوّذت بالله ذهب عنى شيطان الجن، وشيطان الإنس يجيئنى فيجرّنى إلى المعاصى عِيانا . وسَمِع عمر بن الخطاب آمرأة تُنشد :

إن النساء رَياحينٌ خلقن لكم * وكلُّكم يشتهى شمّ الرياحين

فأجابها عمر رضى الله عنه :

إن النساء شياطينٌ خُلقن لنا * نعـوذ بالله من شرّ الشياطين

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ أى ما فعلوا إيحاء القول بالغرور . ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ أمْرٌ فيه معنى التهديد . قال سيبويه : ولا يقال وذر ولا ودع، استغنَوْا عنه بترك .

قلت : هذا إنما خرّج على الأكثر . وفى التنزيل «وذَرِ الذين»[3] و «ذَرْهم» و «ما ودَعك» . وفى السنة "لينتهَينّ أقوام عن وَدْعِهم الجُمُعات" . وقوله : "إذا فعلوا — يريد المعاصى —

---

(١) آية ١٢١ من هذه السورة . (٢) آية ٨١ سورة النحل . (٣) يلاحظ أن الفعــل فى « وذر الذين » و « ذرهم » أمر، ولا يتجه بهما ما ذكره قول المؤلف . فلعل فى الكلام سهوا؛ والعصمة لله .

فقد تُودِّع منهم". قال الزجاج: الواو ثقيلة؛ فلما كان «ترك» ليس فيه واو بمعنى ما فيه الواو تُرِك ما فيه الواو. وهذا معنى قوله وليس بنصّه.

قوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ﴾ تصغى تميل؛ يقال: صغوت أصْغُو صَغْوًا وصُغُوًّا، وصَغَيت أصغى، وصَغِيت بالكسر أيضا. يقال منه: صغِى يَصْغَى صغًى وصُغِيًّا، وأصغيت إليه أصغى بمعنًى. قال الشاعر:

تَرَى السّفيه به عن كلّ مَكْرُمة　＊　زَيْغٌ وفيه إلى التشبيه إصغاء

ويقال: أصغيت الإناء إذا أملته ليجتمع ما فيه. وأصله الميل إلى الشيء لغرض من الأغراض. ومنه صَغَت النجوم: مالت للغروب. وفي التنزيل «فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا»(١). قال أبو زيد: صَغْوُه معك وصِغْوُه، وصَغاه معك، أي مَيْله. وفي الحديث "فأصْغَى لها الإناء" يعني للهرة. وأكرموا فلانا في صاغيته، أي في قرابته الذين يميلون إليه ويطلبون ما عنده. وأصغت الناقة إذا أمالت رأسها إلى الرجل كأنها تستمع شيئا حين يَشُدّ عليها الرَّحْل. قال ذو الرُّمّة:

تُصْغِي إذا شدّها بالكُور جانحةً(٢)　＊　حتى إذا ما آستوى في غَرْزها تَثِبُ

واللام في «ولِتَصْغَى» لام كَيْ، والعامل فيها «يوحي» تقديره: يُوحِي بعضهم إلى بعض ليغروهم ولتصغى. وزعم بعضهم أنها لام الأمر، وهو غلط؛ لأنه كان يجب «ولْتصغ إليه» بحذف الألف، وإنما هي لام كَيْ. وكذلك «ولِيَرْضَوه وليقترفوا» إلا أن الحسن قرأ «ولْيرضوه

(١) آية ٤ سورة التحريم.　(٢) الكور (بالضم): رحل الناقة بأداته؛ وهو كالسرج وآلته للفرس. قال ابن سيده: وكثير من الناس يفتح الكاف وهو خطأ. وجانحة: مائلة لاصقة. والغرز: سير كالركاب توضع فيه الرجل عند الركوب. وصف ناقته بالفطانة وسرعة الحركة.

وليقترفوا» بإسكان اللام، جعلها لام أمر فيه معنى التهديد؛ كما يقال : ما شئت ٱفعل . ومعنى «ولِيقترفوا ماهم مقترِفون» أى وليكتسبوا؛ عن ابن عباس والسُّدِّى وابن زيد . يقال : خرج يقترف أهلَه أى يكتسب لهم . وقارف فلان هذا الأمرَ إذا واقعه وعمِله . وقَرَفَنى بمـا ٱدّعيت علىّ، أى رميتنى بالرِّيبة . وقَرف القُرْحة إذا قشَر منها . وٱقترف كَذِبًا . قال رُؤْبَة :

أعيا ٱقتراف الكذب المقروف * تقـوى التّقِىّ وعفّـة الضعيف

وأصله اقتطاع قطعة من الشيء .

قوله تعـالى : أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾

قوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا ﴾ «غير» نصب بـ«ـأبتغى» . «حَكَمًا» نصب على البيان، وإن شئت على الحال . والمعنى : أفغير الله أطلب لكم حاكما وهو الذى كفاكم مئونة المسألة فى الآيات بما أنزله إليكم من الكتاب المفصّل، أى المبين . ثم قيل : الحَكَم أبلغ من الحاكم؛ إذ لا يستحق التسمية بحَكَم إلا من يحكم بالحق، لأنهـا صفة تعظيم فى مدح . والحاكم صفة جارية على الفعل، فقد يُسمَّى بها من يحكم بغير الحق . ﴿ وَٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ ﴾ يريد اليهود والنصارى . وقيل: من أسلم منهم كسَلْمان وصُهيب وعبدِ الله بن سَلام . ﴿ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ ﴾ أى القرآن . ﴿ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّك بِالْحَقِّ ﴾ أى أنّ كلّ ما فيه من الوعد والوعيد لَحَقّ ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ أى من الشاكّين فى أنهم يعلمون أنه منزّل من عند الله . وقال عطاء: الذين آتيناهم الكتاب هم رؤساء أصحاب محمد عليه السلام: أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ رضى الله عنهم .

قوله تعـالى : وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ ﴾ قرأه أهل الكوفة بالتوحيـد، والباقون بالجمع . قال ابن عباس : مواعيد ربك، فلا مغيّر لها . والكلمات ترجع إلى العبارات أو إلى المتعلقات من الوعد والوعيد وغيرهما . قال قتادة : الكلمات هى القرآن لا مبدل له ، لا يزيد فيه المفترون ولا ينقصون . ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ أى فيما وعد وحكم، لا رادّ لقضائه ولا خُلْف فى وعده . وحكى الرّمانى عن قَتادة : لا مبدّل لها فيما حكم به، أى أنه وإن أمكنه التغيير والتبديل فى الألفاظ كما غيّر أهل الكتاب التوراةَ والإنجيل فإنه لا يعتدّ بذلك . ودلّت الآية على وجوب اتباع دلالات القرآن؛ لأنه حق لا يمكن تبديله بما يناقضه، لأنه من عند حكيم لا يخفى عليه شىء من الأمور .

قوله تعـالى : وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى الكفار . ﴿ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ أى عن الطريق التى تؤدّى إلى ثواب الله . ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ « إنْ » بمعنى ما، وكذلك ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أى يَحْدُسون ويقدرون؛ ومنه الخَرْص، وأصله القطع . قال الشاعر :

تَرَى قِصَـد المُرّان فينا كأنه * تَذَرُّعُ خِرصان بأيدى الشّواطب[(1)]

يعنى جريدا يُقطع طولا ويُتّخذ منه الحصر . وهو جمع الخِرص ؛ ومنـه خَرَص يَخْرُص النخل خَرْصا إذا حزره ليأخذ الخَرَاج منه . فالخارص يقطع بما لا يجوز القطع به؛ إذ لا يقين معه .

(١) البيت لقيس بن الخطيم . والقصد (بكسر القاف وفتح الصـاد جمع قصدة) : القطعة مما يكسر . والمران : نبات الرماح . او الرماح الصلبة اللدنة . والتذرع : تقدير الشىء بذراع اليـد . والخرصان : القضبان من الجريد . والشواطب (جمع الشاطبة) وهى المرأة التى تقشر العسيب ثم تلقيه إلى المنقية فتأخذ كل ما عليـه بسكينها حتى تتركه رقيقا ثم تلقيه المنقية إلى الشاطبة ثانية فتشطبه على ذراعها وتتذرعه . وقوله « فينا كأنه » عبارة الأصول . والذى فى اللسان « تاق كأنه » وفى ديوانه « تهوى كأنها » .

وسيأتى لهذا مزيد بيان فى «الذاريات»[1] إن شاء الله تعالى. ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ ﴾ قال بعض الناس : إن « أعلم » هنا بمعنى يعلم؛ وأنشد قول حاتم الطائى :

تحالفَتْ طيٌّ من دوننا حَلِفًا * والله أعلم ما كنا لهم خُذُلًا[2]

وقول الخنساء :

الله أعلم أنّ جَفْنَته * تَغْدُو غداةَ الريح أو تَسْرِى

وهذا لا حجة فيه؛ لأنه لا يطابق «وهو أعلم بالمهتدين» . ولأنه يحتمل أن يكون على أصله . ﴿ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ «من» بمعنى أىّ؛ فهو فى محل رفع والرافع له «يضل» . وقيل : فى محل نصب بأعلم، أى إن ربّك أعلم أىّ الناس يضل عن سبيله . وقيل : فى محل نصب بنزع الخافض؛ أى بمن يضل . قال بعض البصريين : وهو حَسَن؛ لقوله : «وهو أعلم بالمهتدين» وقوله فى آخر النّحل « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » . وقرئ « يُضِلّ » وهذا على حذف المفعول ، والأوّل أحسن ؛ لأنه قال « وهو أعلم بالمهتدين » . فلو كان من الإضلال لقال وهو أعلم بالهادين .

قوله تعالى : فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ نزلت بسبب أناس أَتَوُا النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله، إنا نأكل ما نقتل ولا نأكل ما قتل الله؟ فنزلت «فكلوا – إلى قوله – وإنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ» خرجه الترمذىّ وغيره. قال عطاء: هذه الآية أمرٌ بذكر آسم الله على الشّراب والذبح وكلّ مطعوم . وقوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى بأحكامه وأوامره آخذين؛ فإن الإيمان بها يتضمّن ويقتضى الأخذ بها والآنقياد لها .

---

(١) فى قوله تعالى : « قتل الخراصون » آية ١٠ .

(٢) فى الأصول : «خولا» بالواو بدل الذال . والتصويب عن تفسير الطبرى . والخذل : جمع خذول .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ (١١٩)

قوله تعالى : ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ المعنى : ما المانع لكم من أكل ما سمّيتم عليه ربّكم وإن قتلتموه بأيديكم . ﴿وَقَدْ فَصَّلَ﴾ أى بيّن لكم الحلال من الحرام، وأزيل عنكم اللبس والشك . فـ«ما» استفهام يتضمن التقرير . وتقدير الكلام : وأى شئ لكم فى ألا تأكلوا . فـ«أنْ» فى موضع خفض بتقدير حرف الجر . ويصحّ أن تكون فى موضع نصب على ألا يقدّر حرف جر، ويكون الناصب معنى الفعل الذى فى قوله «مَالَكُمْ» تقديره أى ما يمنعكم . ثم استثنى فقال ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ يريد من جميع ما حرّم كالميتة وغيرها كما تقدّم فى «البقرة»[1] . وهو استثناء منقطع . وقرأ نافع ويعقوب «وقد فَصّل لكم ما حَرّم» بفتح الفعلين . وقرأ أبو عمرو وابن عامر وابن كثير بالضم فيهما، والكوفيون «فَصّل» بالفتح «حُرِّم» بالضم . وقرأ عطية العَوْفى «فَصَل» بالتخفيف . ومعناه أبان وظهر، كما قرئ «الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَلَتْ»[2] أى استبانت . واختار أبو عبيدة قراءة أهل المدينة . وقيل : «فصل» أى بيّن، وهو ما ذكره فى سورة «المائدة» من قوله : «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ»[3] الآية .

قلت : هذا فيه نظر؛ فإن «الأنعام» مكية والمائدة مدنية فكيف يحيل بالبيان على مالم ينزل بعد، إلا أن يكون فصّل بمعنى يفصّل . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيَضِلُّونَ﴾ وقرأ الكوفيون «يُضلون» من أضل . ﴿بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعنى المشركين حيث قالوا : ما ذبح الله بسكّينه خير مما ذبحتم بسكاكينكم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أى بغير علم يعلمونه فى أمر الذبح؛ إذ الحكمة فيه إخراج ما حرّم الله علينا من الدم بخلاف ما مات حتف أنفه؛ ولذلك شرع الذكاة فى محل مخصوص ليكون الذبح فيه سببا لجذب كل دم فى الحيوان بخلاف غيره من الأعضاء . والله أعلم .

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٢٤ طبعة ثانية . (٢) أول سورة هود . (٣) آية ٣ .

قوله تعـالى : وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ للعلماء فيه أقوال كثيرة . وحاصلها راجع إلى أن الظاهر ما كان عملا بالبدن مما نهى الله عنـه ، وباطنه ما عُقد بالقلب من مخالَفة أمر الله فيما أمر ونهى؛ وهذه المرتبة لا يبلغها إلا من ٱتقى وأحسن؛ كما قال : «ثُمَّ ٱتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا» . وهى المرتبة الثالثة حسب ما تقدّم بيانه فى « المائدة »(١) . وقيل : هو ما كان عليه الجاهلية من الزنا الظاهر وٱتخاذ الحلائل فى الباطن . وما قدّمنا جامع لكل إثم .

قوله تعـالى : وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — روى أبو داود قال: جاءت اليهود إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله ؟ فأنزل الله عز وجل «وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ» إلى آخر الاية . وروى النّسائى عن ابن عباس فى قوله تعـالى : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه» قال . خاصمهم(٢) المشركون فقالوا : ماذبح الله فلا تأكلوه وما ذبحتم أنتم أكلتموه؛ فقال الله سبحانه لهم: لا تأكلوا؛فإنكم لم تذكروا ٱسم الله عليها . وتنشأ هنا مسألة أصولية ،وهى:

الثانيـــة — وذلك أن اللفظ الوارد على سبب هل يُقصر عليـه أم لا ؛ فقال علماؤنا : لا إشكال فى صحة دعوى العموم فيما يذكره الشارع ابتداء من صِيَغ ألفاظ العموم . أما ماذكره

(١) فى قوله تعالى : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... » آية ٩٣ .
(٢) أى خاصم المؤمنين المشركون .

جوابا لسؤال ففيه تفصيل، على ما هو معروف فى أصول الفقه؛ إلا أنه إن أتى بلفظ مستقل دون السؤال لَحِق بالأوّل فى صحة القصد إلى التعميم . فقوله : « لا تأكلوا » ظاهر فى تناول الميتة، ويدخل فيه ما ذُكِر عليه غير ٱسم الله بعمومِ أنه لم يذكر عليه ٱسم الله، وبزيادة ذكر غير اسم الله سبحانه عليه الذى يقتضى تحريمه نصًّا بقوله : «وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ»[1]. وهل يدخل فيه ما ترك المسلم التسمية عمدا عليه من الذبح، وعند إرسال الصيد . اختلف العلماء فى ذلك على أقوال خمسة ، وهى : —

الثالثة — الأول — إن تركها سهوًا أُكِلا جميعا؛ وهو قول إسحاق ورواية عن أحمد ابن حنبل . فإن تركها عمدا لم يؤكلا ؛ وقاله فى الكتاب مالكٌ وابن القاسم ، وهو قول أبى حنيفة وأصحابِه والثّورِىّ والحسن بن حىّ وعيسى وأَصْبَغ ، وقاله سعيد بن جُبير وعطاء، وٱختاره النحاس وقال : هذا حَسَن؛ لأنه لا يُسَمَّى فاسقا إذا كان ناسيا .

الثانى — إن تركها عامدا أو ناسيا يأكلهما . وهو قول الشافعى والحسن، وروى ذلك عن ابن عباس وأبى هريرة وعطاء وسعيد بن المسيِّب والحسن وجابر بن زيد وعِكرمة وأبى عِياض وأبى رافع وطاوس وإبراهيم النَّخَعِىّ وعبد الرحمن بن أبى لَيْلى وقَتادة . وحكى الزَّهْرَاوِىّ عن مالك بن أنس أنه قال : تؤكل الذبيحة التى تركت التسمية عليها عمدا ونسيانا . وعن ربيعة أيضا . قال عبد الوهاب : التسمية سنة؛ فإذا تركها الذابح ناسيا أكلت الذبيحة فى قول مالك وأصحابه .

الثالث — إن تركها عامدا أو ساهيا حَرُمَ أكلها؛ قاله محمد بن سِيرين وعبد الله بن عياش ابن أبى ربيعة وعبد الله بن عمر ونافع وعبد الله بن يزيد الخَطْمِىّ والشعبىّ؛ وبه قال أبو ثور وداود بن علىّ وأحمد فى رواية .

الرابع — إن تركها عامدًا كُره أكلها ؛ قاله القاضى أبو الحسن والشيخ أبو بكر من علمائنا .

(١) آية ١٧٣ سورة البقرة .

الخـامس — قال أشهب : تؤكل ذبيحة تارك التسمية عمدًا إلا ان يكون مســتخفًا ، وقال نحوه الطبرى، قال الله تعالى : «فَكُلُوا مِمَّـا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللهِ عَلَيْهِ» . وقال « وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّـا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ اللهِ عَلَيْـهِ » فبيّن الحـالين وأوضح الحكمين . فقوله « لا تأكلوا » نهيٌ على التحريم لا يجـوز حمله على الكراهة ؛ لتناوله فى بعض مقتضياته ا لحـرام المحض ، ولا يجـوز أن يتبعّض ، أى يراد به التحريم والكراهة معًا ؛ وهـذا من نفيس الأصـول . وأما النّاسى فلا خطاب توجّه إليـه إذ يسـتحيل خطابه؛ فالشرط ليس بواجب عليـه . واما التـارك للتسمية عمـدا فلا يخلو من ثلاثة أحوال : إما أن يتركها إذا أضجع الذبيحـة و يقول : قلبى مملوء من أسماء الله تعالى وتوحيده فلا أفتقر إلى ذكرٍ بلسان ؛ فذلك يجزئه لأنه ذكر الله جَلّ جلاله وعظّمه . أو يقول : إن هذا ليس بموضع تسْمية صريحة، إذ ليست بقُرْبة ؛ فهذا أيضا يجزئه . أو يقول : لا أسمى، وأىّ قدر للتسمية؛ فهذا متهاون فاسق لا تؤكل ذبيحته . قال ابن العربىّ . وأعجب لرأس المحققـين إمامِ الحرمين حيث قال : ذِكر الله تعـالى إنمـا شُرع فى القُرَب، والذّبح ليس بقُرْبة . وهـذا يعارض القرآن والسنة؛ قال صلى الله عليه وسلم فى الصحيح : " ما أنهر الدّمَ وذُكر ٱسم الله عليه فَكُلْ " . فان قيـل : المراد بذكر ٱسم الله بالقلب؛ لأن الذكر يضادّ النسيان ومحل النسيان القلب فمحل الذكر القلب، وقد روى البَرَاء ابن عازب : اسم الله على قلب كل مؤمن سَمّى أو لم يسمّ . قلنا : الذكر باللسان و بالقلب ، والذى كانت العرب تفعله تسمية الأصنام والنُّصُب باللسان،فنسخ الله ذلك بذكره فى الالسنة، وٱشتهر ذلك فى الشريعة حتى قيل لمـالك : هل يُسَمّى الله تعـالى إذا توضأ فقال : أيريد أن يذبح . وأما الحديث الذى تعلّقوا به من قوله : « ٱسم الله على قلب كل مؤمن » فحديث ضعيف . وقد استدلّ جماعة من أهل العلم على أن التسمية على الذبيحة ليست بواجبة؛ لقوله عليه السلام لأناس سألوه، قالوا : يارسول الله، إنّ قومًا يأتوننا باللّحم لاندرى أذَكروا ٱسم الله عليه أم لا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سَمّوا الله عليه وكُلُوا" . أخرجه الدّارَقُطْنِىّ عن عائشة ومالك مرسلا عن هشام بن عروة عن أبيـه ، لم يُختلف عليـه فى إرساله .

وتأوله بأن قال فى آخره : وذلك فى اول الإسلام . يريد قبل أن يترل عليه « وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسمُ اللهِ عليهِ » . قال أبو عمر : وهذا ضعيف ، وفى الحديث نفسه ما يردّه ، وذلك أنه أمرهم فيه بتسمية الله على الأكل ؛ فدلّ على أن الآية قد كانت نزلت عليه . ومما يدلّ على صحة ما قلناه أن هذا الحديث كان بالمدينة ، ولا يختلف العلماء أن قوله تعالى : «ولا تأكلوا مما لم يُذْكَرِ آسم الله عليه» نزل فى سورة «الأنعام» بمكة . ومعنى ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ أى لمعصية؛ عن ابن عباس . والفِسْق : الخروج؛ وقد تقدّم (١) .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ أى يُوَسْوِسون فيُلقون فى قلوبهم الجدال بالباطل . روى أبو داود عن ابن عباس فى قوله « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم » يقولون ما ذبح الله فلا تأكلوه ، وما ذبحتم أنتم فكُلُوه ، فأنزل الله « ولا تأكلوا مما لم يُذكَرِ آسمُ اللهِ عليهِ » قال عِكرمة : عنى بالشياطين فى هذه الآية مَرَدة الإنس من مَجُوس فارس . وقال ابن عباس وعبد الله بن كثير : بل الشياطين الجنُّ، وكفرة الجن أولياء قريش . ورُوى عن عبد الله بن الزبير أنه قيل له : إن المختار يقول : يُوحَى إلىّ؛ فقال : صدق ، إن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم . يريد ما قتل الله لم تأكلوه وما قتلتموه أكلتموه . والمجادلة : دفع القول على طريق الحجة بالقوّة ؛ مأخوذ من الأجدل ، طائر قوىّ . وقيل : هو مأخوذ من الجَدالة ، وهى الأرض؛ فكأنه يغلبه بالحجة ويُقهره حتى يصير كالمجدول بالأرض . وقيل : هو مأخوذ من الجَدْل، وهو شدة القَتْل؛ فكأن كلّ واحد منهما يفتِل حجة صاحبه حتى يقطعها ، وتكون حقا فى نصرة الحق وباطلا فى نصرة الباطل .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾ أى فى تحليل الميتة ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ . فدلّت الآية على أن من آستحلّ شيئا مما حرّم الله تعالى صار به مُشرِكا . وقد حرّم الله سبحانه الميتة نَصًّا؛ فإذا قَبِل تحليلها من غيره فقد أشرك . قال ابن العربىّ : إنما يكون المؤمن بطاعة

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٤٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

المشرك مشركا إذا أطاعه فى الاعتقاد ؛ فإن أطاعه فى الفعل وعقده سليم مستمر على التوحيد والتصديق فهو عاص؛ فافهموه . وقد مضى فى « المــائدة » [١] .

قوله تعــالى : أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ قرأ الجمهور بفتح الواو ، دخلت عليهــا همزة الاستفهام . وروى المُسَيَّبى عن نافع بن أبى نعيم « أَوْ مَنْ كَانَ » بإسكان الواو . قال النحاس : يجــوز أن يكون محمــولا على المعــنى ، أى آنظروا وتدبروا أغير الله أبتغى حكما . ﴿ أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ قيل : معناه كان ميتا حين كان نطفة فأحييناه بنفخ الروح فيه ؛ حكاه ابن بحر . وقال ابن عباس : أو من كان كافرا فهديناه . نزلت فى حمزة بن عبد المطلب وأبى جهــل . وقال زيد بن أسْلم والسُّدِّى : « فأحييناه » عمر . « كَمَنْ مَثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ » أبو جهــل . والصحيح أنها عامّة فى كل مؤمن وكافر . وقيــل : كان ميتا بالجهل فأحييناه بالعلم . وأنشد بعض أهل العلم ما يدّل على صحة هــذا التأويل لبعض شعراء العرب :

وفى الجهل قبل الموت موتٌ لأهله * فأجسامهــم قبــل القبور قبــور
وإنّ آمرأ لم يَحْىَ بالعــلم ميّت * فليس له حتى النشــور نشــور

والنُّور عبارة عن الهُدَى والإيمان . وقال الحسن : القرآن . وقيل : الحكمة . وقيل : هو النور المذكور فى قوله : « يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ » [٢] ، وقوله : « انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ » [٣] . ﴿ يَمْشِى بِهِ ﴾ أى بالنور . ﴿ فِى النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ ﴾ أى كمن هو ؛ فمثل زائدة . تقول : أنا أكرم مثلك ؛ أى أكرم منك . ومِثْلُه « بِجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ » [٤] ،

---

(١) راجع آية ٨١ . (٢) آية ١٢ سورة الحديد . (٣) آية ١٣ سورة الحديد .
(٤) آية ٩٥ سورة المائدة .

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »[1] . وقيل : المعنى كمن مثله مَثَل من هو فى الظلمات . والمَثَل والمِثْل واحد . ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى زيّن لهم الشيطان عبادةَ الأصنام، وأوهمهم أنهم أفضل من المسلمين .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾ المعنى : وكما زينا للكافرين ما كانوا يعملون كذلك جعلنا فى كل قرية . ﴿ مُجْرِمِيهَا ﴾ مفعول أوّل لجعل ﴿ أَكَابِرَ ﴾ الثانى على التقديم والتأخير . وجعل بمعنى صير . والأكابر جمع الأكبر . قال مجاهد : يريد العلماء . وقيل : الرؤساء والعظماء . وخصهم بالذكر لأنهم أقدر على الفساد والمكر والحيلة فى مخالفة الاستقامة . وأصله الفتل؛ فالماكر يَفْتِل عن الاستقامة أى يصرف عنها . قال مجاهد : كانوا أجلسوا على كل عقبة أربعةً ينفّرون الناس عن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم؛ كما فعل من قبلهم من الأمم السالفة بأنبيائهم . ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ أى وبالُ مكرهم راجعٌ إليهم . وهو من الله عز وجل الجزاء على مكر الماكرين بالعذاب الأليم . ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ فى الحال؛ لفرط جهلهم أن وبال مكرهم عائد إليهم .

قوله تعالى : وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ ﴾ بيّن شيئا آخر من جهلهم، وهو أنهم قالوا لن نؤمن حتى نكون أنبياء، فنؤتَى مثل ما أوتى موسى وعيسى من الآيات؛ ونظيره « بَلْ يُرِيدُ

(١) آية ١١ سورة الشورى .

كُلُّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً(١) » . والكناية فى « جاءتهم » ترجع إلى الأكابر الذين جرى ذكرهم . قال الوليد بن المغيرة : لو كانت النبوّة حقًّا لكنت أولَى بها منك؛ لأنى أكبر منك سنًّا، وأكثر منك مالا . وقال ابو جهل : والله لا نرضى به ولا نتبعه أبدا، إلا أن يأتينا وَحْىٌ كما يأتيه؛ فنزلت الآية . وقيل : لم يطلبوا النبوّة ولكن قالوا لا نصدّقك حتى يأتينا جبريل والملائكة يخبروننا بصدقك . والأوّل أصح؛ لأن الله تعالى قال : «اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِه» أى بمن هو مأمون عليها وموضع لها . و «حيث» ليس ظرفا هنا؛ بل هو آسم نُصب نَصب المفعول به على الآتساع؛ أى الله أعلم أهل الرسالة . وكان الأصل الله أعلم بمواضع رسالته، ثم حذف الحرف، ولا يجوز أن يعمل «أعلم» فى «حيث» ويكون ظرفا، لأن المعنى يكون على ذلك الله أعلم فى هذا الموضع، وذلك لا يجوز أن يوصف به البارى تعالى، وإنما موضعها نصب بفعل مضمر دلّ عليه «أعلم» . وهى اسم كما ذكرنا . والصَّغار : الضَّيْم والذل والهوان، وكذا الصُّغر (بالضم) . والمصدر الصَّغَر (بالتحريك) . وأصله من الصِّغَر دون الكبر؛ فكأن الذل يصغر إلى المرء نفسه، وقيل : أصله من الصَّغَر وهو الرضا بالذل؛ يقال منه : صَغَر يَصْغُر بفتح العين فى الماضى وضمها فى المستقبل . وصَغِر بالكسر يَصْغَر بالفتح لغتان، صَغَرًا وصَغارا، واسم الفاعل صاغِر وصغير . والصاغر: الراضى بالضيم . والمَصْغُوراء الصَّغار . وأرض مُصْغِرة : نبتها لم يَطُل؛ عن آبن السِّكِّيت . ﴿ عِنْدَ اللهِ ﴾ أى من عند الله، فحذف . وقيل : فيه تقديم وتأخير، أى سيصيب الذين أجرموا عند الله صغار . الفراء : سيصيب الذين أجرموا صغار من الله . وقيل : المعنى سيصيب الذين أجرموا صغار ثابت عند الله . قال النحاس : وهذا أحسن الأقوال؛ لأن « عند » فى موضعها .

قوله تعالى : فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾

(١) آية ٥٢ سورة المدثر .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ أى يوسعه له ، و يوفّقه و يزيّن عنده ثوابه . و يقال : شرح شقّ ، وأصله التّوسعة . وشرح الله صدره وسّعه بالبيان لذلك . وشرحتُ الأمر : بيّنته وأوضحته . وكانت قريش تَشْرَح النساء شَرْحا ، وهو مما تقدّم من التّوسعة والبَسْط ، وهـو وطء المرأة مستلقيةً على قفاها . فالشّرح : الكشف ؛ تقول : شرحت الغامض ؛ ومنه تشريح اللحم . قال الراجز :

كم قد أكلتُ كَبِدًا و إنْفَحهْ * ثم آدّخرت إلْيَـةً مُشَرّحَهْ

والقطعة منه شريحة . وكل سمين من اللحم ممتد فهو شريحة . ﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ ﴾ يُغوِيه ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ وهـذا ردّ على القدرية . ونظير هذه الآية من السُّـنّة قوله عليه السلام : "من يُرِدِ الله به خيرا يفقّهه فى الدِّين" أخرجه الصحيحان . ولا يكون ذلك إلا بشرح الصدر وتنو يره . والدِّينُ العبادات ؛ كما قال : «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ» . ودليل خطابه أنّ مَن لم يُرد الله به خيرا ضيّق صدره ، وأبعد فهمه فلم يفقهه . والله أعلم . وروى أن عبد الله بن مسعود قال : يا رسول الله ، وهل ينشرح الصـدر؟ فقال : " نعم يدخل القلبَ نور " فقال : وهل لذلك من علامة ؟ فقال صـلى الله عليه وسـلم : "التّجافِى عن دار الغرور والإنابةُ إلى دار الخلود والاسـتعدادُ للموت قبـل نزول الموت " . وقرأ ابن كثير « ضَيْقًا » بالتخفيف ؛ مثل هَيْن ولَيْن لغتان . ونافـع وأبو بكر « حَرِجًا » بالكسر ، ومعناه الضّيق . كرر المعنى ، وحَسُن ذلك لآختلاف اللفظ . والباقون بالفتح . جمـع حرجة ؛ وهو شـدّة الضِّيق أيضا . والحَـرَجة الغَيْضَة ؛ والجمع حَرَج وحَرَجات . ومنه فلان يتحرَّج أى يضيّق على نفسه فى تركه هواه للعاصى ؛ قاله الهَرَوِى . وقال آبن عباس : الحَرَج موضع الشجر الملتفّ ؛ فكأنّ قلب الكافر لا تصل إليه الحكمة كما لا تصل الراعية إلى الموضـع الذى آلتفّ شجره . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه هذا المعنى ؛ ذكره مَكِّىّ والثّعلبى وغيرهما . وكل ضيّق حَرِجٌ وحَرَج . قال الجوهرى : مكان حَرِج وحَرَج أى ضـيق كثير الشجر لا تصل إليه الراعية . وقرئ «يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا» و «حَرِجًا» . وهو بمنزلة الوَحَد والوَحِد و الفَرَد والفَرِد

والدَّنَف والدَّنِف، فى معنًى واحد، وحكاه غيره عن الفراء . وقد حَرِج صدره يَحْرَج حَرَجًا . والحَرَج الإثم . والحرج أيضا : الناقـة الضامرة . ويقال : الطويلة على وجه الأرض ؛ عن أبى زيد، فهو لفظ مشترك . والحَرَج : خشب يُشدّ بعضه إلى بعض يُحمل فيه الموتى؛ عن الأصمعىّ . وهو قول آمرئ القيس :

فإمّا تَرَيْــنِى فى رِحالة جابرٍ * على حَرَج كالقَرِّ تَخْفق أكفانِى (١)

وربمـا وضع فوق نعش النساء؛ قال عنترة يصف ظليما :

يَتْبعْن قُـلّةَ رأسِـــه وكأنه * حَرَج على نَعْش لهُنّ مُخَـــيِّم (٢)

وقال الزجاج : الحَرَج : أضْيق الضِّيق . فإذا قيل . فلان حَرَج الصدر ، فالمعنى ذو حَرَج فى صدره . فإذا قيل : حرِج فهو فاعل . قال النحاس : حرِج آسم الفاعل، وحرَج مصدر وُصف به ؛ كما يقال : رجل عَدْلٌ ورضًا .

قوله تعـالى : ﴿ كأنَّمَـا يَصَّـعَّدُ فِى السَّمَاءِ ﴾ قرأه آبن كثير بإسـكان الصاد مخفّفًا، من الصعود وهو الطلوع . شـبه الله الكافر فى نفوره من الإيمـان وثِقله عليه بمنزلة من تكلف ما لا يُطيقه ؛ كما أن صعود السماء لا يُطاق . وكذلك يصّاعد وأصله يتصاعد، أدغمت التاء فى الصاد، وهى قراءة أبى بكر والنَّخَعِى؛ إلا أن فيه معنى فعلِ شيء بعد شىء، وذلك أثقل على فاعله . وقرأ الباقون بالتشديد من غير ألف ، وهو كالذى قبله . معناه يتكلف ما لا يطيق شيئا بعد شيء، كقولك : يَتجرّع ويتفوّق (٣) . ورُوى عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ « كأنما يتصَعّد » . قال النحاس : ومعنى هذه القراءة وقراءةِ من قرأ يَصْعَد ويصّاعد واحد . والمعنى فيهما أن الكافر من ضيق صدره كأنه يريد أن يصعد إلى السماء وهو لايقدر على ذلك ؛فكأنه

---

(١) أراد بالرحالة الخشب الذى يحمل عليه فى مرضه . وأراد بالأكفان ثيابه التى عليه ؛ لأنه قدر أنها ثيابه التى يدفن فيها . وخفقها ضرب الريح لهـا . وأراد بجابر جابر بن حنى التغلبى ، وكان معه فى بلاد الروم ، فلما آشـتدت علته صنع له من الخشب شيئا كالقرّ يحمل فيـه ، والقر : مركب من مراكب الرجال بين الرحل والسرج . (عن اللسان مادة حرج) . (٢) وصف نعامة يتبعها رئالها وهو يبسط جناحيه ويجعلها تحته .

(٣) تفوق شرابه : شربه شيئا بعد شىء .

يستدعى ذلك . وقيل : المعنى كاد قلبه يصعد إلى السماء نَبْوًا عن الإسلام . ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ﴾ عليهم ؛ بجعله ضيق الصدر فى أجسادهم . وأصل الرِّجس فى اللغة النّتن . قال ابن زيد : هو العذاب . وقال ابن عباس : الشيطان ؛ أى يسلّطه عليهم . وقال مجاهد : الرّجس ما لا خير فيه . وكذلك الرجس عند أهل اللغة هو النتن . فمعنى الآية والله أعلم : ويجعل اللّعنة فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ﴿على الذين لا يؤمنون﴾ .

قوله تعالى : وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ أى هذا الذى أنت عليه يا محمد والمؤمنون دين ربّك لا اعوجاج فيه . ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ﴾ أى بيّناها ﴿لقوم يذكرون﴾ .

قوله تعالى : لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿لَهُمْ﴾ أى للتذكرين . ﴿دَارُ السَّلَامِ﴾ أى الجنة ، فالجنة دار الله ؛ كما يقال : الكعبة بيت الله . ويجوز أن يكون المعنى دار السلامة ، أى التى يسلم فيها من الآفات . ومعنى ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أى مضمونة لهم عنده يوصلهم إليها بفضله . ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ أى ناصرهم ومُعينهم .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ نصب على الفعل المحذوف، أى ويوم يحشرهم يقول . ﴿ جَمِيعًا ﴾ نصب على الحال . والمراد حشر جميع الخلق فى موقف القيامة . ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ ﴾ نداء مضاف . ﴿ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ﴾ أى من الاستمتاع بالإنس؛ فحذف المصدر المضاف إلى المفعول، وحرف الجر؛ يدلّ على ذلك قوله : ﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ وهذا يردّ قول من قال : إن الجن هم الذين استمتعوا من الإنس؛ لأن الإنس قَبِلوا منهم . والصحيح أن كل واحد مستمتع بصاحبه . والتقدير فى العربية : استمتع بعضنا بعضا؛ فاستمتاع الجن من الإنس انهم تلذّذوا بطاعة الإنس إياهم، وتلذّذ الإنس بقبولهم من الجن حتى زَنَوْا وشربوا الخمور بإغواءِ الجن إيّاهم . وقيـل : كان الرجل إذا مرّ بوادٍ فى سفره وخاف على نفسه قال : أعوذ بربّ هذا الوادى من جميع ما أحذر . وفى التـنزيل « وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا » (١) . فهـذا استمتاع الإنس بالجنّ . وأما استمتاع الجنّ بالإنس فيما كانوا يُلقون إليهم من الأراجيف والكَهانة والسِّحر . وقيل : استمتاع الجن بالإنس أنهـم يعترفون أن الجنّ يقدرون أن يدفعوا عنهم ما يحذرون . ومعنى الآية تقريع الضّالين والمضلين وتوبيخهم فى الآخرة على أعين العالمين. ﴿ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ يعنى الموت والقبر، ووافينا نادمين. ﴿ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ ﴾ أى موضـع مُقامكم . والمَثْوَى المُقام . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَـا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ استثناء ليس من الأوّل . قال الزجاج : يرجع إلى يوم القيامة، أى خالدين فى النار إلا ماشاء الله من مقدار حشرهم من قبورهم ومقدار مدتهم فى الحساب؛ فالاستثناء منقطع . وقيل : يرجع الاستثناء إلى النار، أى إلا ما شاء الله من تعذيبكم بغير النار فى بعض الأوقات . وقال ابن عباس : الاستثناء لأهل الإيمـان . فـ«ـما» على هذا بمعنى مَن . وعنه أيضا أنه قال : هذه الآية توجب الوقف فى جميع الكفار . ومعنى ذلك أنها توجب الوقف فيمن لم يمت، إذ قد يُسلم . وقيل : «إلّا ما شاء الله» من كونهم فى الدنيا بغير عذاب . ومعنى هذه الاية معنى الآية التى فى «هود» (٢). قوله : «فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِى النَّارِ» وهناك يأتى مستوفًى إن شاء الله . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ ﴾ أى فى عقوبتهم وفى جميع أفعاله ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمقدار مجازاتهم .

(١) آية ٦ سورة الجن . (٢) الآية ١٠٦

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ .

قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ المعنى وكما فعلنا بهؤلاء مما وصفته لكم من ٱستمتاع بعضهم ببعض أجعل بعض الظالمين أولياء بعض، ثم يتبرّأ بعضهم من بعض غدًا . ومعنى «نُوَلِّي» على هذا نجعل ولِيًّا . قال ابن زيد : نسلّط ظلمة الجنّ على ظلمة الإنس . وعنه أيضا : نسلّط بعض الظلمة على بعض فيهلكه ويذلّه . وهذا تهديد للظالم إن لم يمتنع من ظلمه سلّط الله عليه ظالما آخر . ويدخل في الآية جميعُ مَن يظلم أو يظلم الرعية، أو التاجر يظلم الناس في تجارته أو السارق وغيرهم . وقال فُضيل بن عِياض : إذا رأيت ظالما ينتقم من ظالم فقِف، وٱنظر فيه متعجّبًا . وقال ٱبن عباس : إذا رضي الله عن قوم وَلَّى أمرَهم خيارَهم، وإذا سخِط الله على قوم وَلّى أمرهم شرارهم . وفي الخبر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من أعان ظالما سلّطه الله عليه" . وقيل : المعنى نَكِل بعضهم إلى بعض فيما يختارونه من الكفر، كما نَكِلهم غدًا إلى رؤسائهم الذين لا يقدرون على تخليصهم من العذاب . أي كما نفعل بهم ذلك في الآخرة كذلك نفعل بهم في الدنيا . وقد قيل في قوله تعالى « نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى » : نَكِله إلى ما وَكَل إليه نفسه . قال ابن عباس : تفسيرها هو أن الله إذا أراد بقوم شرًّا وَلّى أمرَهم شرارَهم . يدلّ عليه قوله تعالى : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ »[1] .

قوله تعالى : يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أي يوم نحشرهم نقول ألم يأتكم رسل، فحذف ؛ فيعترفون بما فيه افتضاحهم . ومعنى « منكم » في الخلق والتكليف والمخاطبة . ولما

(١) آية ٣٠ سورة الشورى .

كانت الجن ممن يُخاطب و يعقل قال « منكم » و إن كانت الرســل من الإنس وغلّب الإنس في الخطاب كما يُغلّب المذكر على المؤنث . وقال ابن عباس : رسل الجن هم الذين بلّغوا قومَهم ماسمعوه من الوحى ؛ كما قال : « وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ » (١) . وقال مُقاتِل والضحّاك : أرسل الله رسلا من الجن كما أرسل من الإنس . وقال مجاهد : الرسل من الإنس، والنُّذُر من الجن ؛ ثم قرأ « إلى قومِهم منذِرين » . وهو معنى قولِ ابن عباس، وهو الصحيح على ما يأتى بيانه فى « الأحقاف » (٢) . وقال الكلبيّ : كانت الرسل قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم يُبعثون إلى الإنس والجن جميعا .

قلت : وهذا لا يصحّ ، بل فى صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله الأنصاريّ قال قال رسول الله صــلى الله عليــه وســلم : " أعطيتُ خمسا لم يُعطهُنّ نبيّ قبلى كان كلّ نبيّ يُبعث إلى قومه خاصّــةً و بُعثتُ إلى كلّ أحمــرَ وأســودَ " الحــديث . على ما يأتى بيــانه فى «الأحقاف» . وقال ابن عباس : كانت الرسل تُبعث إلى الإنس و إن محمدا صلى الله عليه وسـلم بُعث إلى الجن والإنس؛ ذكره أبو الليث السَّمَرْقَنْدِيّ . وقيل : كان قوم من الجن آستمعوا إلى الأنبياء ثم عادوا إلى قومهم وأخبروهم ؛ كالحال مع نبينا عليه السلام . فيقال لهم رسل الله، و إن لم يُنَصّ على إرسالهم . وفى التنزيل « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ » (٣) أى من أحدهما، و إنمــا يخرج من المِلح دون العَذْب ، فكذلك الرسل من الإنس دون الجن ؛ فمعنى «منكم» أى من أحدكم . وكان هذا جائزا؛ لأن ذكرهما سبق . وقيل : إنما صيّر الرسل فى مخرج اللفظ من الجميع لأن الثَّقلين قد ضمتهما عَرْصة القيامة ، والحساب عليهم دون الخلق ؛ فلما صاروا فى تلك العَرْصــة فى حساب واحد فى شأن الثواب والعقاب خوطبوا يومئــذ بمخاطبة واحدة كأنهم جماعة واحدة؛ لأن بدء خلقهم للعبودية، والثوابُ والعِقاب على العبودية، ولأن الجن أصلهم من مارج من نار، وأصلنا من تراب، وخلقهم غير خلقنا ؛ فمنهم مؤمن وكافر .

---

(١) فى قوله تعالى : « وإذا صرفنا إليك نفرا من الجن ... » الخ آية ٢٩ سورة الأحقاف

(٢) فى قوله تعالى : « قالوا يا قومنا إنا سمعنا ... » آية ٣٠ .

(٣) آية ٢٢ سورة الرحمن .

وعدوّنا إبليس عدوّ لهم، يعادى مؤمنهم ويُوالِي كافرهم. وفيهم أهواء : شِيعةٌ وقدريّة ومُرْجِئة يتلون كتابنا . وقـد وصف الله عنهم فى سـورة « الجن » من قوله : « وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ » . « وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدا »[1] على ما يأتى بيانه هناك . «يَقُصُّونَ» فى موضع رفع نعت لرسل . ﴿ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا ﴾ أى شهدنا أنهم بلّغوا . ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ قيل : هذا خطاب من الله للؤمنين؛ أى أن هؤلاء قد غرّتهم الحياة الدنيا، أى خدعتهم وظنّوا أنها تدوم، وخافوا زوالها عنهم إن آمنوا . ﴿ وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ أى آعترفوا بكفرهم . قال مُقاتل : هذا حين شهدت عليهم الجوارح بالشرك .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ ﴾ فى موضع رفع عند سيبويه؛ أى الأمر ذلك . و « أنْ » مخفّفة من الثقيلة ؛ أى إنما فعلنا هـذا بهم لأنى لم أكن أهلك القرى بظلمهم ؛ أى بشركهم قبل إرسال الرسل إليهم فيقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير . وقيل : لم أكن أهلك القرى بشرك من أشرك منهم ؛ فهو مثل «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» . ولو أهلكهم قبل بعثه الرسل فله أن يفعل ما يريد . وقد قال عيسى : «إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ»[2] وقد تقدم . وأجاز الفراء أن يكون « ذلك » فى موضع نصب، المعنى : فعل ذلك بهم ؛ لأنه لم يكن يهلك القرى بظلم .

قوله تعالى : وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ أى من الجن والإنس ؛ كما قال فى آية أخرى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ »[3] ثم قال : « وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » . وفى هذا ما يدل عن أن المطيع من الجن فى الجنة ، والعاصى منهم فى النار ؛ كالإنس سواء . وهو أصح

---

(١) آية ١١ ، ١٤ (٢) آية ١١٨ سورة المائدة . (٣) آية ١٨ ، ١٩ سورة الأحقاف .

ما قيـل فى ذلك فاعلمـه . ومعـنى « ولِكلٍّ درجاتٌ » أى ولكل عامل بطـاعةٍ درجاتٌ فى الثـواب . ولكلّ عاملٍ بمعصية دركاتٌ فى العقاب . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ ﴾ أى ليس بلَاهٍ ولا سَاهٍ . والغفلة أن يذهب الشيء عنك لأشتغالك بغيره . ﴿ عَمَّـا يَعْمَلُونَ ﴾ قرأه آبن عامر بالتاء ، الباقون بالياء .

قوله تعـالى : وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ج إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ﴾ أى عن خلقه وعن أعمالهم . ﴿ ذُوالرَّحْمَةِ ﴾ أى بأوليائه وأهل طاعته . ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ بالإماتة والآستئصال بالعذاب. ﴿ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ ﴾ أى خلقا آخر أَمْثَل منكم واطوع . ﴿ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَـوْمٍ آخَرِينَ ﴾ والكاف فى موضـع نصب ، أى يستخلف من بعـدكم ما يشاء استخلافا مثل ما أنشـأكم ، ونظيره « إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ » (١) . « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ » (٢). فالمعنى يبدّل غيركم مكانكم، كما تقول : أعطيتك من دينارك ثوبا .

قوله تعـالى : إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَاتٍ صلى وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ﴾ يحتمل أن يكون من «أوعدت» فى الشرّ، والمصدر الإيعاد . والمراد عذاب الآخرة . ويحتمل أن يكون من « وعدت » على أن يكون المـراد الساعة التى فى مجيئها الخير والشر فغلّب الخير . روى معناه عن الحسن . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى فائتين؛ يقال : أعجزنى فلان ، أى فاتنى وغلبنى .

قوله تعـالى : قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ صلى فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ قلى إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

---

(١) آية ١٣٣ سورة النساء . (٢) آية ٣٨ سورة محمد .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ وقرأ أبو بكر بالجمع «مكاناتكم» . والمكانة الطريقة . والمعنى : أثبتوا على ما أنتم عليه فأنا أثبت على ما أنا عليه . فإن قيل : كيف يجوز أن يؤمروا بالثبات على ما هم عليه وهم كفار . فالجواب أن هذا تهديد ؛ كما قال عز وجل : « فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا »(١) . ودلّ عليه « فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ » أى العاقبة المحمودة التى يحمد صاحبها عليها، أى من له النصر فى دار الإسلام، ومن له وراثة الأرض، ومن له الدار الآخرة، أى الجنة . قال الزجاج : «مكانتكم» تمكّنكم فى الدنيا . ابن عباس والحسن والنخعيّ : على ناحيتكم . القُتَبِيّ : على موضعكم . ﴿ إِنِّى عَامِلٌ ﴾ على مكانتى، فحذف لدلالة الحال عليه . «ومن» من قوله «مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ» فى موضع نصب بمعنى الذى؛ لوقوع العلم عليه . ويجوز أن تكون فى موضع رفع؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله فيكون الفعل معلقا . أى تعلمون أيّنا تكون له عاقبة الدار؛ كقوله : « لِنَعْلَمَ أَىُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى »(٢) وقرأ حمزة والكسائى «من يكون» بالياء .

قوله تعالى : وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ﴾ فيه مسئلة واحدة :

ويقال : ذرأ يذرأ ذرءا، أى خلق . وفى الكلام حذف واختصار، وهو وجعلوا لأصنامهم نصيبا؛ دلّ عليه ما بعده . وكان هذا مما زيّنه الشيطان وسوّله لهم، صرفوا من مالهم طائفة إلى الله بزعمهم وطائفة إلى أصنامهم؛ قاله ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة . والمعنى متقارب . جعلوا لله جزءا ولشركائهم جزءا ، فإذا ذهب ما لشركائهم بالإنفاق عليها وعلى سدنتها عوّضوا منه ما لله، وإذا ذهب ما لله بالإنفاق على الضِّيفان والمساكين لم يُعوّضوا منه شيئا، وقالوا :

(١) آية ٨٢ سورة التوبة . (٢) آية ١٢ سورة الكهف .

اللهُ مستغن عنه وشركاؤنا فقراء . وكان هذا من جهالاتهم وبزعمهم . والزعم الكذب . قال شُريح القاضي : إن لكل شيء كُنْية وكُنْيةُ الكذب زعموا . وكانوا يكذبون فى هذه الأشياء لأنه لم يتزل بذلك شرع . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : من أراد أن يعلم جهل العرب فليقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام إلى قوله : « قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ » . قال ابن العربى : وهذا الذى قاله كلام صحيح، فإنها تصرفت بعقولها العاجزة فى تنويع الحلال والحرام سفاهةً بغير معرفة ولا عدل، والذى تصرّفت بالجهل فيه من اتخاذ الآلهة أعظمُ جهلا وأكبرُ جُرْما؛ فإن الاعتداء على الله تعالى أعظمُ من الاعتداء على المخلوقات . والدليـل فى أن الله واحد فى ذاته واحد فى صفاته واحد فى مخلوقاته أبْين وأوضح من الدليل على أن هذا حلال وهذا حرام . وقد رُوى أن رجلا قال لعمرو بن العاصى : إنكم على كمال عقولكم ووفور أحلامكم عبدتم الحجر ! فقال عمرو : تلك عقول كادها باريها . فهذا الذى أخبر الله سبحانه من سخافة العرب وجهلها أمر أذهبه الإسلام، وأبطله الله ببعثه الرسول عليـه السلام . فكان من الظاهر لنا أن نميته حتى لا يَظهر، وننساه حتى لا يُذكر؛ إلا أن ربّنا تبارك وتعالى ذكره بنصه وأورده بشرحه، كما ذكر كفر الكافرين به . وكانت الحكمة فى ذلك ــ والله أعلم ــ أن قضاءه قد سبق، وحكمه قد نفذ بأن الكفر والتخليط لا ينقطعان إلى يوم القيامة . وقرأ يحيى بن وثّاب والسُّلَمِىّ والأعمش والكسائىّ « بزُعمهم » بضمه الزاى . والباقون بفتحها، وهما لغتان . ﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أى إلى المساكين . ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أى ساء الحُكْم حكمهم . قال ابن زيد : كانوا إذا ذبحوا ما لله ذكروا عليه اسم الأوثان، وإذا ذبحوا ما لأوثانهم لم يذكروا عليه اسم الله، فهذا معنى « فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ » . فكان تركهم لذكر الله مذموما منهم وكان داخلا فى ترك أكل ما لم يذكر اسمُ الله عليه .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ المعنى : فكما زَيّن لهؤلاء أن جعلوا لله نصيبا ولأصنامهم نصيبا كذلك زَيّن لكثير من المشركين قَتل أولادِهم شركاؤهم . قال مجاهد وغيره : زيّنت لهم قتل البنات مخافة العَيْلَة . قال الفرّاء والزجاج : شركاؤهم ها هنا هم الذين كانوا يخدُمون الأوثان . وقيل : هم الغُوَاة من الناس . وقيل : هم الشياطين . وأشار بهذا إلى الوَأد الخفِيّ وهو دفن البنت حية مخافة السِّباء والحاجة، وعدمِ ما حُرِمْن من النصرة . وسمّى الشياطين شركاء لأنهم أطاعوهم فى معصية الله فأشركوهم مع الله فى وجوب طاعتهم . وقيل : كان الرجل فى الجاهلية يحلف بالله لئن وُلد له كذا وكذا غلاما لينحرَنّ أحدَهم؛ كما فعله عبد المطلب حين نذر ذبح ولده عبد الله . ثم قيل : فى الاية أربع قراءات ، أصحها قراءة الجمهور : «وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أولادِهِم شُرَكَاؤُهُمْ» وهذه قراءة أهل الحرمين وأهلِ الكوفة وأهل البصرة . «شركاؤهم» رفع بزين؛ لأنهم زَيّنوا ولم يقتلوا . « قَتْلَ» نصب بزين . «وأولادِهم» مضاف إلى المفعول، والأصل فى المصدر أن يضاف إلى الفاعل لأنه أحدثه ولأنه لا يستغنى عنه ويستغنى عن المفعول ؛ فهو هنا مضاف إلى المفعول لفظا مضافٌ إلى الفاعل معنًى؛ لأن التقدير زَيّن لكثير من المشركين قتلهم أولادهم شركاؤهم ، ثم حذف المضاف وهو الفاعل كما حذُف من قوله تعالى : « لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ» [1] أى من دعائه الخير. فالهاء فاعلة الدعاء، أى لا يسأم الإنسان من أن يدعو بالخير . وكذا قوله : زيّن لكثير من المشركين فى أن يقتلوا أولادهم شركاؤهم . قال مكيّ : وهذه القراءة هى الاختيار لصحة الإعراب فيها ولأن عليها الجماعة . القراءة الثانية «زُيّن» (بضم الزاى) . «لكثير من المشركين قتلُ» (بالرفع) . «أولادِهم» بالخفض . «شركاؤهم» (بالرفع) قراءة الحسن . ابنُ عامر وأهل الشام « زُيِّنَ » بضم الزاى « لكثير من المشركين قتلُ أولادَهم » برفع «قتل» ونصب «أولادهم» . «شركائِهم» بالخفض فيما حكى أبو عبيد ؛ وحكى غيره عن أهل الشام أنهم قرءوا « وكذلك زُيّنَ » بضم الزاى « لكثير من المشركين قتلُ »

---

(١) آية ٤٩ سورة فصلت.

بالرفع « أولادِهم » بالخفض « شركائهـم » بالخفض أيضا . فالقراءة الثانيـة قراءة الحسن جائزة، يكون «قتل» آسم ما لم يُسم فاعله، «شركاؤهم » ؛ رفع بإضمار فعل يدلّ عليه « زُيّنَ » ، أى زيّنه شركاؤهم . ويجوز على هذا ضُرِب زيدٌ عمرٌو، بمعنى ضربه عمرو، وأنشد سيبويه :

* لِيُبْكَ يزيدُ ضارِعٌ لخصومةٍ *

أى يبكيه ضارع . وقرأ ابن عامر وعاصم من رواية أبى بكر «يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ» (١) التقدير يسبحه رجال . وقرأ إبراهيم بن أبى عَبْلة « قُتِل أصحابُ الأُخْدُودِ النَّارُ ذَاتُ الوَقُودِ» (٢) بمعنى قتلهم النار . قال النحاس : وأما ما حكاه أبو عبيد عن ابن عامر وأهل الشام فلا يجوز فى كلام ولا فى شـعر، وإنّمـا أجاز النحويون التفريق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف لأنه لا يَفصل ، فأما بالأسماء غير الظروف فلحن . قال مَكِّىٌّ : وهـذه القراءة فيها ضعف للتفريق بين المضاف والمضاف إليه ؛ لأنه إنمـا يجوز مثل هذا التفريق فى الشـعر مع الظروف لآتساعهم فيهـا وهو فى المفعول به فى الشـعر بعيد، فإجازته فى القراءة أبعد . وقال المهدوىّ : قراءة ابن عامر هـذه على التفرقة بين المضاف والمضاف اليه، ومثله قول الشـاعر :

فـزَجَجْتُهـا بمِزَجّـة * زَجَّ القَلوصَ أبِى مَزادَه (٣)

يريد : زجّ أبى مزادة القَلوصَ . وأنشد :

تَمُـرّ على ما تستمرّ وقـد شفت * غلائلَ عبدُ القيس منها صُدُورِها

يريد شفت عبدُ القيس غلائلَ صـدورها . وقال أبو غانم أحمد بن حمدان النحوى : قراءة آبن عامر لا تجوز فى العربيـة ؛ وهى زلّة عالم، وإذا زل العالم لم يجز آتباعه، ورُدّ قوله إلى الإجماع ، وكذلك يجب أن يُرَدّ من زلّ منهـم أو سها إلى الإجماع ؛ فهو أولى من الإصرار

---

(١) آية ٣٦ سورة النور . (٢) آية ٤ سورة البروج .

(٣) ذكر الأخفش هذا البيت ولم يعزه إلى أحد . والزج هاهنا الطعن، والمزجة بكسر الميم : رمح قصير كالمزارق . والقلوص بفتح القاف : الفتية من النوق . يخبر أنه زج امرأته بالمزجة كما زج أبو مزادة القلوص . وأبو مزادة كنية رجل . راجع شرح الشـواهد الكبرى للعينى فى باب الإضافة .

على غير الصواب . وإنما أجازوا فى الضرورة للشاعر أن يفرق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف ؛ لأنه لا يفصل . كما قال :

كما خُطّ الكتاب بكفِّ يومًا * يهودىٍّ يُقارِبُ أو يُزِيلُ (١)

وقال آخر :

كأنّ أصواتَ مِن إيغالهن بنا * أواخرِ المَيْسِ أصواتُ الفَرارِيجِ (٢)

وقال آخر :

لمّا رأت سَاتيدَما ٱستعبرَتْ * للهِ درُّ اليومَ مَن لامها (٣)

وقال القشيرى : وقال قوم هذا قبيح ، وهذا محال، لأنه إذا ثبت بالتواتر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فهو الفصيح لا القبيح . وقد ورد ذلك فى كلام العرب وفى مصحف عثمان « شركائهم » بالياء وهذا يدلّ على قراءة ابن عامر . وأضيف القتل فى هذه القراءة إلى الشركاء؛ لأن الشركاء هم الذين زيّنوا ذلك ودَعَوْا إليه؛ فالفعل مضاف إلى فاعله على ما يجب فى الأصل، لكنه فرق بين المضاف والمضاف إليه، وقدّم المفعول وتركه منصوبا على حاله ؛ إذا كان متأخرا فى المعنى، وأخر المضاف وتركه مخفوضا على حاله ؛ إذا كان متقدّما بعد القتل . والتقدير : وكذلك زُيّن لكثير من المشركين قَتْلُ شركائهم أولادَهم . أى أَنْ قتلَ شركاؤهم أولادَهم . قال النحاس : فأما ما حكاه غير أبى عبيد (وهى القراءة الرابعة) فهو جائز . على أن تبدل شركاءهم من أولادهم؛ لأنهم شركاؤهم فى النسب والميراث . ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ اللام لام كىْ .

(١) البيت لأبى حية النميرى . والشاهد فيه إضافة الكف إلى اليهودى مع الفصل بالظرف . وصف رسوم الدار فشبهها بالكتاب فى دقتها والاستدلال بها ، وخص اليهود لأنهم أهل كتاب . وجعل كتابته بعضها متقارب وبعضها مفترق متباين لاقتضاء آثار الديار تلك الصفة والحال . (عن شرح الشواهد) .

(٢) البيت لذى الرمة . والشاهد فيه إضافة الأصوات إلى أواخر الميس مع فصله بالمجرور ضرورة . والميس : شجر تعمل منه الرحال . والإيغال : سرعة السير . يقول : كأن أصوات أواخر الميس من شدة سير الإبل بنا واضطراب رحالها عليها أصوات الفراريج (عن شرح الشواهد) .

(٣) البيت لعمرو بن قميئة . والشاهد فيه إضافة الدر إلى من مع جواز الفصل بالظرف ضرورة إذ لم يمكنه إضافة الدر إليه . وصف امرأة نظرت إلى «ساتيدما» وهو جبل بعينه بعيد من ديارها ؛ فذكرت به بلادها فاستعبرت شوقا إليها (عن شرح الشواهد للشنتمرى) .

والإرداء : الإهلاك . ﴿ وليَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دينهم ﴾ الذى آرتضى لهم . أى يأمرونهم بالباطل ويشككونهم فى دينهم . وكانوا على دين إسماعيل، وما كان فيه قتل الولد ؛ فيصير الحق مغطّى عليــه ؛ فبهذا يلبسون . ﴿ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ بيّن أن كفرهم بمشيئة الله . وهو ردّ على القدرية . ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ يريد قولهم إن لله شركاء .

قوله تعـالى : وَقَالُوا هَـٰذِهِۦٓ أَنْعَـٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْـرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَـٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَـٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾

ذكر نوعا آخر من جهالتهم . وقرأ أبان بن عثمان «حُجُر» بضم الحاء والجيم . وقرأ الحسن وقتادة «حَجْر» بفتح الحاء وإسكان الجيم ، لغات بمعنًى . وعن الحسن أيضا « حُجر » بضم الحاء . قال أبو عبيد عن هارون قال : كان الحسن يضم الحـاء فى « حِجر » من جميع القرآن إلا فى قوله : «بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا»[1] فإنه كان يكسرها هاهنا . ورُوى عن آبن عباس وآبن الزبير « وَحَرْثٌ حِرْجٌ » الراء قبـل الجيم ؛ وكذا فى مصحف أُبَىّ ؛ وفيه قولان : أحدهما أنه مثل جبَذ وجذب . والقول الآخر ـــ وهو أصح ـــ أنه من الحرج ؛ فإن الحِرْج (بكسر الحاء) لغة فى الحَرَج (بفتح الحاء) وهو الضيق والإثم ؛ فيكون معناه الحرام . ومنه فلان يتحرّج أى يضيق على نفسه الدخولَ فيما يشتبه عليه من الحرام . والحِجر : لفظ مشترك . وهو هنا بمعنى الحرام ، وأصله المنع . وسُمّى العقل حجرا لمنعه عن القبائح . وفلان فى حَجْر القاضى أى منعه . حجرت على الصبىّ حَجْرًا . والحِجر العقــل ؛ قال الله تعالى : « هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ » والحِجر الفرس الأنثى . والحِجر القرابة . قال :

يريدون أن يُقصُــوه عنّى وإنه * لَذُو حَسَبٍ دانٍ إلىّ وذو حِجْــرِ

وحِجــر الإنسان وحَجره لغتان ، والفتح أكثر . أى حرّموا أنعاما وحَرْثا وجعلوها لأصــنامهم وقالوا : ﴿ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ ﴾ وهم خدّام الأصــنام . ثم بيّن أن هــذا تحكّم لم يَرِد به

(١) آية ٥٣ سورة الفرقان .

شرع ؛ ولهذا قال : « بِزَعْمِهِمْ » . ﴿ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾ يريد ما يسيّبونه لآلهتهم على ما تقدّم من النصيب . وقال مجاهد : المراد البَحِيرة والوصيلة والحام (١) . ﴿ وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ يعنى ما ذبحوه لآلهتهم . قال أبو وائل : لا يحجّون عليها . ﴿ ٱفْتِرَاءً ﴾ أى للافتراء ﴿ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ لأنهم كانوا يقولون : الله أمرنا بهذا . فهو نصبٌ على المفعول به . وقيل : أى يفترون افتراء، وانتصابه لكونه مصدرا .

قوله تعالى : وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩)

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا ﴾ هذا نوع آخر من جهلهم . قال ابن عباس : هو اللبن، جعلوه حلالا للذكور وحراما على الإناث . وقيل : الأجِنّة، قالوا : إنها لذكورنا . ثم إن مات منها شيء أكله الرجال والنساء . والهاء فى «خالِصة» للبالغة فى الخلوص، ومثله رجل علامة ونسابة، عن الكسائىّ والأخفش . و «خالِصةٌ» بالرفع خبر المبتدأ الذى هو «ما» . وقال الفراء : تأنيثها لتأنيث الأنعام . وهذا القول عند قوم خطأ، لأن ما فى بطونها ليس منها، فلا يشبه «يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ» لأن بعض السيارة سيّارة، وذا لا يلزم الفراء، فإن ما فى بطون الأنعام أنعام مثلها، فأنّث لتأنيثها، أى الأنعام التى فى بطون الأنعام خالصة لذكورنا . وقيل : أى جماعة ما فى البطون . وقيل : إن

(١) البحيرة : الناقة التى نتجت خمسة أبطن ، وكان آخرها ذكرا بحروا أذنها (أى شقوها) وأعفوا ظهرها من الركوب والحمل والذبح ، ولا تحلأ (تطرد) عن ماء ترده ، ولا تمنع من مرعى ، وإذا لقيها المعيى المنقطع به لم يركبها .

والوصيلة : الناقة التى وصلت بين عشرة أبطن . ومن الشاء التى وصلت سبعة أبطن ، عناقين ؛ فان ولدت فى السابعة عناقا وجديا قيل : وصلت أخاها ؛ فلا يشرب لبن الأم الا الرجال دون النساء .

والحامى : الفحل من الإبل يضرب الضراب المعدود ؛ قيل عشرة أبطن ؛ فإذا بلغ ذلك قالوا : هذا حام . أى حمى ظهره فيترك ، فلا ينتفع منه بشىء ولا يمنع من ماء ولا مرعى .

راجع تفسير قوله تعالى : «ما جعل الله من بحيرة ...» آية ١٠٣ سورة المائدة .

«ما» يرجع إلى الألبان أو الأجنّة؛ فجاء التأنيث على المعنى والتذكير على اللفظ . ولهذا قال: «وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا» على اللفظ . ولو راعى المعنى لقال ومحرّمة. ويَعْضُد هذا قراءةُ الأعمش «خالِص» بغير هاء . قال الكسائيّ : معنى خالص وخالصة واحد، إلا أن الهاء للمبالغة ؛ كما يقال : رجل داهية وعلامة؛ كما تقدّم . وقرأ قَتادة «خالِصةً» بالنصب على الحال من الضمير في الظرف الذي هو صلة لـ«ما» . وخبر المبتدأ محذوف؛ كقولك : الذي في الدار قائما زيد. هذا مذهب البصريين . وانتصب عند الفرّاء على القطع . وكذا القول في قراءة سعيد بن جبير«خالِصًا» . وقرأ ابن عباس «خالِصةُ» على الإضافة يكون ابتداء ثانيا؛ والخبر «لذكورنا» والجملة خبر « ما » . ويجوز أن يكون « خالِصه » بدلا من « ما » . فهذه خمس قراءات . ﴿ وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا ﴾ اى بناتنا؛ عن ابن زيد. وغيره: نساؤهم. ﴿ وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً ﴾ قرئ بالياء والتاء؛ أي إن يكن ما في البطون ميتة ﴿ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ﴾ أي الرجال والنساء . وقال «فيه» لأن المراد بالميتة الحيوان، وهي تقوّي قراءة الياء، ولم يقل فيها . « مَيْتَةٌ » بالرفع بمعنى تقع أوتحدث. « ميتةً » بالنصب؛ أي وإن تكن النَّسمة ميتة. ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ أي كذبهم وافتراءهم؛ أي يعذبهم على ذلك . وانتصب «وَصْفَهُمْ» بنزع الخافض ؛ أي بوصفهم . وفي الآية دليل على أن العالم ينبغي له أن يتعلّم قول من خالفه وإن لم يأخذ به، حتى يعرف فساد قوله ، ويعلم كيف يردّ عليه ؛ لأن الله تعالى أعلم النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه قول من خالفهم من زمانهم؛ ليعرفوا فساد قولهم .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

أخبر بخسرانهم لِوَأْدِهم البنات وتحريمهم البَحِيرة وغيرها بعقولهم؛ فقتلوا أولادهم سَفَهًا خوف الإملاق، وحجروا على أنفسهم في أموالهم ولم يخشَوُا الإملاق؛ فأبان ذلك عن تناقض رأيهم .

قلت : إنه كان من العرب من يقتل ولده خَشْية الإملاق؛ كما ذكر الله في غير هذا الموضع. وكان منهم من يقتله سَفَهًا بغير حجة منهم في قتلهم؛ وهم ربيعة ومُضَر، كانوا يقتلون بناتهم

لأجل الحَمِيّة . ومنهم من يقول : الملائكة بنات الله؛ فألحقوا البنات بالبنات . رُوِى أن رجلا من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم كان لا يزال مُغْتَمًّا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مالك تكون محزونا"؟ فقال : يارسول الله، إنى أذنبت ذنبا فى الجاهلية فأخاف ألا يغفره الله وإن أسلمتُ ! فقال له : "أخبرنى عن ذنبك" . فقال: يارسول الله، إنى كنت من الذين يقتلون بناتهم، فوُلدت لى بنت فتشفّعت إلىّ امرأتى أن أتركها فتركتها حتى كبِرت وأدركتْ، وصارت من أجمل النساء فخطبوها؛ فدخلتنى الحَمِيّة ولم يحتمل قلبى أن أزوجها أو أتركها فى البيت بغير زوج، فقلت للمرأة : إنى أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا وكذا فى زيارة أقربائى فابعثيها معى، فسُرّت بذلك وزيّنتها بالثياب والحُلِىّ، وأخذتْ علىّ المواثيق بألا أخونها، فذهبتُ بها إلى رأس بئر فنظرتُ فى البئر ففطِنت الجارية أنى أريد أن ألقيها فى البئر، فالتزمتنى وجعلت تبكى وتقول : ياأبت! أيْش تريد أن تفعل بى! فرحمتها، ثم نظرتُ فى البئر فدخلتْ علىّ الحَمِيّة، ثم التزمتنى وجعلت تقول: ياأبت! لا تُضيّع أمانة أمّى؛ فجعلتُ مرّةً أنظر فى البئر ومرّة إليها وأرحمها، حتى غلبنى الشيطان فأخذتها وألقيتها فى البئر منكوسةً، وهى تنادى فى البئر : ياأبت، قتلتنى . فمكثتُ هناك حتى انقطع صوتها فرجعت . فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقال : "لو أُمرتُ أن أعاقب أحدا بما فعل فى الجاهلية لعاقبتك" .

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٤١)﴾

فيه ثلاث وعشرون مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَنْشَأَ ﴾ أى خلق . ﴿جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ﴾ أى بساتين ممسوكات مرفوعات . ﴿ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ غير مرفوعات . قال ابن عباس : «معروشات» ما انبسط على الأرض مما يُعَرَّش مثل الكروم والزروع والبطيخ . ﴿ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ ما قام على ساق مثل النخل وسائر الأشجار . وقيـل : المعروشات ما ارتفعت أشجـارها . وأصل التعريش الرفع . وعن ابن عباس أيضا : المعروشات ما أثبته و رفعه الناس . وغير المعروشات ما خرج فى البرارى والجبال من الثمار . يدلّ عليـه قراءة علىّ رضى الله عنه « مَغْرُوسَاتٍ وَغَيْرَ مَغْرُوسات » بالغين المعجمة والسين المهملة .

الثانيـة — قوله تعـالى : ﴿ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ ﴾ أفردهما بالذكر وهما داخلان فى الجنات لمـا فيهما من الفضيلة ؛ على ما تقدم بيانه فى «البقرة» عند قوله «مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلّهِ»(1) الآية . ﴿مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾ يعنى طعمه من الجيّد والدُّون . وسمّاه أكلا لأنه يؤكل . وَ «أُكُلُهُ» مرفوع بالابتداء . و «مختلفا» نعته ؛ ولكنه لمـا تقدم عليه وولِى منصوبا نُصب . كما تقول : عندى طباخا غلام . قال :

الشَّرُّ مُنْتَشِر يلقاك عن عُرُض * والصالحات عليهـا مُغلقًا بابُ

وقيل : «مختلفا» نصب على الحال . قال أبو إسحاق الزجاج : وهذه مسألة مُشْكِلة من النحو ؛ لأنه يقال : قد أنشأها ولم يختلف أكلها وهو ثمرها ؛ فالجواب أن الله سبحانه أنشأها بقوله : «خالق كلّ شىء» فأعلم أنه أنشأها مختلفا أكلها ؛ أى أنه أنشأها مقدرا فيه الاختلاف . وقد بيّن هذا سيبويه بقوله : مررت برجل معه صَقْرٌ صائدا به غدا ، على الحال ؛ كما تقول : لتدخلن الدار آكلين شاربين ؛ أى مقـدّرين ذلك . جواب ثالث — أى لمـا أنشأه كان مختلفا أكله ، على معنى أنه لو كان له أكُل لكان مختلفا أكله . ولم يقل أكلهما ؛ لأنه اكتفى بإعادة الذكر على أحدهما ؛ كقوله : «وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا»(2) أى إليهما . وقد تقدم هذا المعنى .

---

(1) راجع جـ ٢ ص ٣٦ طبعة ثانية . (2) آخر سورة الجمعة .

الثالثة — قوله تعالى: ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ ﴾ عطف ﴿ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ نصب على الحال، وقد تقدم القول فيه. وفى هذه أدلة ثلاثة؛ أحدها ما تقدم من قيام الدليل على أن المتغيرات لابدّ لها من مغيّر. الثانى على المِنّة منه سبحانه علينا؛ فلو شاء إذ خلقنا لا يخلق لنا غذاء، وإذا خلقه ألا يكون جميل المَنْظَر طيب الطعم، وإذ خلقه كذلك ألّا يكون سهل الجَنَى؛ فلم يكن عليه أن يفعل ذلك ابتداء؛ لأنه لا يجب عليه شيء. الثالث على القدرة فى أن يكون الماء الذى من شأنه الرسوب يصعَد بقدرة الواحدِ علّامِ الغيوب من أسافل الشجرة إلى أعاليها، حتى إذا انتهى إلى آخرها نشأ فيها أوراق ليست من جنسها، وثمرٌ خارج من صفته الجِرْم الوافر، واللون الزاهر، والجَنَى الجديد، والطعم اللذيذ؛ فأين الطبائع وأجناسها، وأين الفلاسفة وأناسها، هل فى قدرة الطبيعة أن تتقن هذا الإتقان، أو ترتّب هذا الترتيب العجيب! كلا! لا يتم ذلك فى العقول إلا لحىّ عالم قديرٍ مُريدٍ. فسبحان من له فى كل شيء آية ونهاية!

ووجه اتصال هذا بما قبله أن الكفار لما افتروْا على الله الكذب وأشركوا معه وحلّلوا وحرّموا دلّهم على وحدانيته بأنه خالق الأشياء، وأنه جعل هذه الأشياء أرزاقا لهم.

الرابعة — قوله تعالى: ﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ فهذان بناءان جاءا بصيغة افعل؛ أحدهما مباح كقوله: « فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ » والثانى واجب. وليس يمتنع فى الشريعة اقتران المباح والواجب، وبدأ بذكر نعمة الأكل قبل الأمر بإيتاء الحق ليبيّن أن الابتداء بالنعمة كان من فضله قبل التكليف.

الخامسة — قوله تعالى: ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ اختلف الناس فى تفسير هذا الحق ما هو؛ فقال أنس بن مالك وابن عباس وطاوس والحسن وابن زيد وابن الحنفية والضحاك وسعيد بن المسيِّب: هى الزكاة المفروضة، العُشْر ونصف العُشْر. ورواه ابن وهب وابن القاسم عن مالك فى تفسير الآية، وبه قال بعض أصحاب الشافعىّ. وحكى الزجاج أن هذه الآيةَ قيل فيها أنها نزلت بالمدينة. وقال علىّ بن الحسين وعطاء والحكم وحماد وسعيد بن جُبير ومجاهد: هو حقٌّ فى المال سوى الزكاة، أمر الله به ندْبًا. وروى عن

ابن عمر ومحمد بن الحنفية أيضا، و رواه أبو سعيد الخُدْرِيّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. قال مجاهد : إذا حَصَدت فحضرك المساكين فاطرح لهم من السُّنْبُل، وإذا جَذَذت فألق لهم من الشماريخ، و إذا درسته وذَرّيته فاطرح لهم منه، و إذا عرفت كيله فأخرج منه زكاته. وقول ثالث وهو منسوخ بالزكاة؛ لأن هــذه السورة مكية وآية الزكاة لم تنزل إلا بالمدينة «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً»[(١)]، «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ»[(٢)]. روى عن ابن عباس وابن الحنفية والحسن وعطية العَوْفِي والنَّخَعِيّ وسعيد بن جُبير. وقال سفيان : سألت السُّدِّى عن هذه الآية فقال. نسخها العُشْر ونصف العُشر. فقلت : عن من ؟ فقال عن العلماء.

السادســـة — وقد تعلّق أبو حنيفة بهذه الآية وبعموم ما فى قوله عليه السلام : "فيما سقت السماء العُشر وفيما سُقِىَ بنَضْح[(٣)] أو دَالِية نصفُ العُشْر" فى إيجاب الزكاة فى كل ما تنبت الأرض طعاما كان أو غيره. وقال أبو يوسف عنه : إلا الحطب والحشيش والقصب والتِّبن والسعف وقصب الذريرة[(٤)] وقصب السكر. وأباه الجمهور، معولين على أن المقصود من الحديث بيان ما يؤخذ منه العشر ومايؤخذ منه نصف العشر. قال أبو عمر : لا آختلاف بين العلماء فيما علمتُ أن الزكاة واجبة فى الحنطة والشعير والتمر والزبيب. وقالت طائفة : لازكاة فى غيرها. روى ذلك عن الحسن وآبن سيرين والشَّعْبِيّ. وقال به من الكوفيين آبن أبى لَيْلَى والثورِىّ والحسن آبن صالح وآبن المبارك ويحيى بن آدم، وإليه ذهب أبو عبيد. ورُوى ذلك عن أبى موسى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهــو مذهب أبى موسى، فإنه كان لا يأخذ الزكاة إلا من الحنطة والشعير والتمر والزبيب؛ ذكره وَكيع عن طلحة بن يحيى عن أبى بُرْدة عن أبيــه. وقال مالك وأصحابه : الزكاة واجبة فى كل مُقتات مُدّخَر؛ وبه قال الشافعيّ. وقال الشافعيّ. إنما تجب الزكاة فيما ييبس ويُدَّخر ويقتات مأكولا. ولا شيء فى الزيتــون لأنه إدام. وقال أبو ثور مثله. وقال أحمــد أقوالا أظهرها أن الزكاة إنمــا تجب فى كل ما قاله أبو حنيفة إذا كان

---

(١) آية ١٠٣ سورة التوبة. (٢) آية ٤٣ سورة البقرة. (٣) النضح : سق الزرع وغيره بالسانية، وهى الناقة يستق عليها. (٤) الذريرة : قصب يجاء به من الهند، كقصب النشاب أحمر يتداوى به.

يُوسق؛ فأوجبها فى اللّوز لأنه مكيل دون الجَوْز لأنه معدود . وآحتج بقوله عليه السلام : "ليس فيما دون خمسةِ أوْسُق من تمر أوحب صدقة" قال : فبيّن النبيّ صلى الله عليه وسلم أن محل الواجب هو الوَسْق، وبيّن المقدار الذى يجب إخراج الحق منه . وذهب النَّخَعِيّ إلى أن الزكاة واجبة فى كل ما أخرجته الأرض، حتى فى عشر دساتج[1] من بقل دستجةُ بقلٍ . وقد آختلف عنه فى ذلك، وهو قول عمر بن عبد العزيز فإنه كتب أن يؤخذ مما تنبت الأرض من قليل أو كثير العُشْر ؛ ذكره عبد الرزاق عن مَعْمر عن سِمَاك بن الفضل ، قال : كتب ... ؛ فذكره . وهو قول حماد بن أبى سليمان وتلميذه أبى حنيفة . وإلى هذا مال آبن العربىّ فى أحكامه فقال : وأما أبو حنيفة فجعل الآية مرآته فأبصر الحق ، وأخذ يَعْضُد مذهب الحنفىّ ويقويه . وقال فى كتاب (القبس بما عليه الإمام مالك بن أنس) فقال : قال الله تعالى : « وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ » . وآختلف الناس فى وجوب الزكاة فى جميع ما تضمنته أو بعضه، وقد بيّنا ذلك، فى (الأحكام) لُبَابُه، أن الزكاة إنما تتعلق بالمُقْتات كما بيّنا دون الخضراوات ؛ وقد كان بالطائف الرمان والفِرِسك[2] والأُتْرُجّ فما آعترضه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ذكره ولا أحد من خلفائه .

قلت : هذا وإن لم يذكره فى الأحكام هو الصحيح فى المسألة، وأن الخضراوات ليس فيها شىء . وأما الآية فقد آختلف فيها، هل هى مُحْكَمة أو منسوخة أو محمولة على النّدب . ولا قاطعَ يبيّن أحد محامِلها ، بل القاطع المعلوم ما ذكره ابن بكير فى أحكامه : أن الكوفة آفتتحت بعد موت النبىّ صلى الله عليه وسلم وبعد آستقرار الأحكام فى المدينة ، أفيجوز أن يتوهّم متوهّم أو مَن له أدنى بصيرة أن يكوّن شريعة مثل هذه عُطّلت فلم يُعمل بها فى دار الهجرة ومستقَر الوَحْى ولا خلافة أبى بكر، حتى عَمِل بذلك الكوفيون . إن هذه لمصيبة فيمن ظنّ هذا وقال به !

قلت : ومما يدلّ على هذا من معنى التنزيل قوله تعالى : « يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ[3] » أتراه يكتم شيئا أمر بتبليغه أو ببيانه، حاشاه عن ذلك!

(١) الدستجة : الحزمة . (٢) الفِرِسك (كزبرج) : الخوخ أو ضرب منه أجرد أحمر، أو ما ينفلق عن نواه .
(٣) آية ٦٧ سورة المائدة .

وقال تعالى : « ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ »(١) ومن كمال الدّين كونه لم يأخذ من الخضراوات شيئا . وقال جابر بن عبدالله فيما رواه الدَّارَقُطْنِيّ : إن المقاثئ(٢) كانت تكون عندنا تُخرج عشرة آلاف فلا يكون فيها شئ . وقال الزُّهْرِىّ والحسن : تُزَكى أثمان الخضر إذا أينعت وبلغ الثمن مائتى درهم ؛ وقاله الأوزاعِىّ فى ثمن الفواكه . ولا حجة فى قولها لمـا ذكرنا . وقد روى الترمذىّ عن معاذ أنه كتب إلى النبىّ صلى الله عليه وسـلم يسأله عن الخضراوات وهى البقول فقال : "ليس فيها شىء" . وقد رُوى هذا المعنى عن جابر وأنس وعلىّ ومحمد بن عبد الله بن جَحْش وأبى موسى وعائشـة . ذكر أحاديثهم الدَّارَقُطْنِىّ رحمه الله . قال الترمذىّ : ليس يصـح فى هذا البـاب عن النبىّ صلى الله عليه وسلم شىء . واحتج بعض أصحاب أبى حنيفة بحديث صالح بن موسى عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عائشـة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فيما أنبتت الأرض من الخضر زكاة" . قال أبو عمر : وهـذا حديث لم يروه فى ثقات أصحاب منصور أحد هكذا ، وإنما هو من قول إبراهيم .

قلت : وإذا سقط الاستدلال من جهة السُّنّة لضعف أسانيدها فلم يبق إلا ما ذكرناه من تخصيص عموم الآية ، وعمومِ قوله عليه السلام : "فيما سقت السماء العُشْر" بما ذكرنا . وقال أبو يوسف ومحمـد : ليس فى شىء من الخضر زكاة إلا ما كانت له ثمرة باقية سـوى الزعفران ونحوه ممـا يوزن ففيـه الزكاة . وكان محمد يعتبر فى العُصْفر والكَتّان البزر ، فإذا بلغ بزرهما من القرطم والكتّان خمسـة أوسق كان العُصْفر والكَتّان تبعًا للبزر ، وأخذ منـه العشر أو نصف العشر . وأما القطن فليس عنـده دون خمسة أحمـال شىء ؛ والحمـل ثلثمائة مَنّ بالعراقىّ . والوَرْس والزعفران ليس فيما دون خمسـة أمنان منها شىء . فإذا بلغ أحدهما خمسـة أمنان كانت فيه الصدقة ، عُشْرا أو نصف العشر . قال أبو يوسف : وكذلك قصب السكر الذى يكون منه السكر ، ويكون فى أرض العشر دون أرض الخَراج ، فيه ما فى الزعفران . وأوجب عبـد الملك بن المـاجِشُون الزكاة فى أصول الثمار دون البقول . وهذا خلاف

---

(١) آية ٣ سورة المـائدة . (٢) المقاثئ (جمع مقثأة بفتح الثاء وضمها) : موضع القثاء .

ما عليه مالك وأصحابه ، لا زكاة عندهم لا فى اللوز ولا فى الجوز ولا فى الجلوز[1] وما كان مثلها ، وإن كان ذلك يدّخر . كما أنه لا زكاة عندهم فى الإجّاص[2] ولا فى التفاح ولا فى الكُمَّثْرَى ، ولا ما كان مثل ذلك كله مما لا ييبس ولا يُدّخر . واختلفوا فى التين ؛ والأشهر عند أهل المغرب ممن يذهب مذهب مالك أنه لا زكاة عندهم فى التّين . إلا عبد الملك بن حبيب فإنه كان يرى فيه الزكاة على مذهب مالك ، قياسًا على التمر والزبيب . وإلى هذا ذهب جماعة من أهل العلم البغداديين المالكيين ، إسماعيل بن إسحاق ومن اتبعه . قال مالك فى الموطأ : السنة التى لا اختلاف فيها عندنا ، والذى سمعته من أهل العلم ، أنه ليس فى شىء من الفواكه كلها صدقة : الرمان والفِرْسِك والتّين وما أشبه ذلك . وما لم يشبهه إذا كان من الفواكه . قال أبو عمر : فأدخل التين فى هذا الباب ، وأظنه (والله أعلم) لم يعلم بأنه يَيْبس ويُدّخر ويُقتات ، ولو علم ذلك ما أدخله فى هذا الباب ؛ لأنه أشبه بالتمر والزبيب منه بالرمان . وقد بلغنى عن الأبْهَرِىّ وجماعة من أصحابه أنهم كانوا يُفتون بالزكاة فيه ، ويرونه مذهب مالك على أصوله عندهم . والتين مكيل يراعى فيه الخمسة الأوْسُق وما كان مثلها وَزْنًا ، ويُحكم فى التين عندهم بحكم التمر والزبيب المجتمع عليهما . وقال الشافعىّ : لا زكاة فى شىء من الثمار غير التمر والعنب ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ الصدقة منهما وكانا قوتا بالحجاز يُدَّخر . قال : وقد يدخر الجوز واللوز ولا زكاة فيهما ؛ لأنهما لم يكونا بالحجاز قوتا فيما علمت ، وإنما كانا فاكهة . ولا زكاة فى الزيتون لقوله تعالى : «والزيتون والرمّان» . فقرنه مع الرمّان ، ولا زكاة فيه . وأيضا فإن التين أنفع منه فى القوت ولا زكاة فيه . وللشافعىّ قول بزكاة الزيتون قاله بالعراق ، والأوّل قاله بمصر ؛ فاضطرب قوله فى الزيتون ، ولم يختلف فيه قول مالك . فدلّ على أن الاية مُحْكَمة عندهما غيرُ منسوخة . واتفقا جميعا على أن لا زكاة فى الرمّان ، وكان يلزمهما إيجاب الزكاة فيه . قال أبو عمر : فإن كان الرمّان خرج باتفاق فقد بان بذلك المراد بأن الاية ليست على عمومها ، وكان الضمير عائدا على بعض المذكور دون بعض . والله أعلم .

---

(١) الجلوز : البندق .	(٢) الإجاص : شجر معروف ، واحدته إجاصة . ثمره حلو لذيذ .

قلت : بهذا آستدل من أوجب العشر فى الخضراوات فإنه تعالى قال : « وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ » والمذكور قبله الزيتون والرمّان ، والمذكور عقيب جملة ينصرف إلى الأخير بلا خلاف؛ قاله الكِيَا الطبرىّ . ورُوى عن ابن عباس أنه قال ما لَقِحت رمّانة قط إلا بقطرة من ماء الجنة . وروى عن علىّ كرّم الله وجهه أنه قال : إذا أكلتم الرمّانة فكلوها بشحمها فإنه دباغ المعدة . وذكر ابن عساكر فى تاريخ دمشق عن ابن عباس قال: لا تكسروا الرمّانة من رأسها فإن فيها دُودةً يعترى منها الجُذام . وسيأتى منافع زيت الزيتون فى سورة «المؤمنين»(١) إن شاء الله تعالى . وممن قال بوجوب زكاة زيت الزيتون الزُّهْرِىّ والأوزاعىّ والليث والثورىّ وأبو حنيفة وأصحابُه وأبو ثور . قال الزهرىّ والأوزاعىّ والليث : يُخْرَص(٢) زيتونا و يؤخذ زيتا صافيا . وقال مالك لا يخرص ، ولكن يؤخذ العُشر بعد ان يُعصر و يبلُغ كيله خمسة أوْسق . وقال أبو حنيفة والثورىّ : يؤخذ من حبه .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ قرأ أبو عمرو وابن عامر وعاصم «حصاده» بفتح الحاء ، والباقون بكسرها ، وهما لغتان مشهورتان ؛ ومثله الصَّرام والصِّرام والجَذاذ والجِذاذ والقَطَاف والقِطاف . واختلف العلماء فى وقت الوجوب على ثلاثة أقوال :

الأوّل — أنه وقت الجذاذ ؛ قاله محمد بن مَسْلمة ؛ لقوله تعالى : « يوم حصاده » .

الثانى — يوم الطِّيب ؛ لأن ما قبل الطيب يكون عَلَفا لا قُوتا ولا طعاما ؛ فإذا طاب وحان الأكل الذى أنعم الله به وجب الحقّ الذى أمر الله به ، إذ بتمام النعمة يجب شكر النعمة ، ويكون الإيتاء وقت الحصاد لما قد وجب يوم الطِّيب .

الثالث — أنه يكون بعد تمام الخَرْص ؛ لأنه حينئذ يتحقق الواجب فيه من الزكاة فيكون شرطا لوجوبها . أصله مجىء الساعى فى الغنم ؛ وبه قال المُغيرة . والصحيح الأوّل لنص التنزيل . والمشهور من المذهب الثانى ، و به قال الشافعى . وفائدة الخلاف إذا مات بعد الطِّيب

(١) فى قوله تعالى : « وشجرة تخرج من طور سيناء ... » آية ٢٠

(٢) سيأتى معانى الخرص فى المسئلة التاسعة .

زكّيت على ملكه ، وقبل الخَرْص على ورثته . وقال محمد بن مسلمة : إنما قدّم الخرص توسعةً على أرباب الثمار ، ولو قدّم رجل زكاته بعد الخَرْص وقبل الجذاذ لم يُجْزه ؛ لأنه أخرجها قبل وجوبها . وقد اختلف العلماء في القول بالخرص وهي : —

الثامنة — فكرهه الثوريّ ولم يُجِزْه بحال، وقال : الخرص غير مستعمل . قال : وإنما على ربّ الحائط أن يؤدّىَ عشر ما يصير في يده للمساكين إذا بلغ خمسة أوْسُق . وروى الشيبانيّ عن الشعبيّ أنه قال : الخرص اليومَ بدعةٌ . والجمهور على خلاف هذا ، ثم اختلفوا فالمعظم على جوازه في النخل والعنب ؛ لحديث عتّاب بن أَسِيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه وأمره أن يَخْرُص العنب كما يَخْرُص النخل وتؤخذ زكاته زبيبا كما تؤخذ زكاة النخل تمرا . رواه أبو داود . وقال داود بن عليّ : الخرص للزكاة جائز في النخل، وغير جائز في العنب ؛ ودفع حديث عتّاب بن أَسِيد لأنه منقطع ولا يتّصل من طريق صحيح ، قاله أبو محمد عبد الحق .

التاسعة — وصفة الخرص أن يُقَدّر ما على نخله رطبا ويقدّر ما ينقص لو يُتْمِر، ثم يعتدّ بما بقي بعد النقص ويضيف بعض ذلك إلى بعض حتى تكمل الحائط[1] وكذلك في العنب .

العاشرة — ويكفي في الخرص الواحدُ كالحاكم . فإذا كان في التمر زيادة على ما خرص لم يلزم ربَّ الحائط الإخراجُ عنه ، لأنه حكم قد نفذ؛ قاله عبد الوهاب . وكذلك إذا نقص لم تنقص الزكاة . قال الحسن : كان المسلمون يُخْرَص عليهم ثم يؤخذ منهم على ذلك الخرص .

الحادية عشرة — فإن استكثر ربّ الحائط الخرص خيّره الخارص في أن يعطيَه ما خَرَص وأخذ خرصه؛ ذكره عبد الرزاق أخبرنا ابن جُريج عن أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : خَرَص ابن رواحة أربعين ألف وَسْق، وزعم أن اليهود لما خيّرهم أخذوا التمر وأعطوا عشرين ألف وَسْق . قال ابن جريج فقلت لعطاء : فحقّ على الخارص إذا استكثر سيّدُ المال

(١) الحائط : البستان .

الخَرْص ان يخيّره كما خيّر ابنُ رواحة اليهودَ ؟ قال : أيْ لعمرى ! وأىّ سُـنّة خيرٌ من سُنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الثانية عشرة — ولا يكون الخرص إلا بعد الطِّيب؛ لحديث عائشة قالت : كان رسول صلى الله عليه وسلم يبعث ابن رواحة إلى اليهود فيَخْرُص عليهم النخلَ حين تطيب أوّل الثمرة قبل أن يؤكل منها، ثم يخيّر يهودًا يأخذونها بذلك الخرص أو يدفعونها إليه . و إنما كان أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخرص لكى تحصى الزكاة قبل أن تؤكل الثمار وتُفرّق . أخرجه الدّارَقُطْنىّ من حديث ابن جريج عن الزهرىّ عن عروة عن عائشة . قال: ورواه صالح بن أبى الأخضر عن الزهرىّ عن ابن المسيِّب عن أبى هريرة ، وأرسله مالك ومَعْمر وعقيل عن الزهرىّ عن سعيد عن النبىّ صلى الله عليه وسلم .

الثالثة عشرة — فإذا خَرص الخارص فحكمه أن يُسقط من خرصه مقدارًا ما ؛ لما رواه أبو داود والترمذىّ والبُسْتىّ فى صحيحه عن سهل بن أبى حَثْمة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يقول : " إذا خرصتم فخذوا ودَعُوا الثلث فإن لم تدعوا الثلث فدعوا الرّبع ". لفظ الترمذى . قال أبو داود : الخارص يدع الثلث للخُرْفة . وكذا قال يحيى القطّان . وقال أبو حاتم البُسْتىّ : لهذا الخبر صفتان : أحدهما أن يترك الثلث أو الربع من العشر، والثانى أن يترك ذلك من نفس التمر قبل أن يُعشر، إذا كان ذلك حائطا كبيرا يحتمله . الخُرْفة بضم الخاء: ما يُخْتَرَف من النخل حين يُدرك ثمره، أى يُجْتَنَى . يقال: التمر خرفةُ الصائم؛ عن الجوهرىّ والهروىّ . والمشهور من مذهب مالك أنه لا يَترك الخارصُ شيئا فى حين خَرصه من تمر النخل والعنب إلا خَرصه . وقد روى بعض المدنيين أنه يخفف فى الخرص و يترك للعرايا (1) والصِّلة ونحوها .

الرابعة عشرة — فإن لحقت الثمرة جائحةٌ بعد الخرص وقبل الجذاذ سقطت الزكاة عنه بإجماع من أهل العلم، إلا أن يكون فيما بقى منه خمسة أوسق فصاعدًا .

---

(1) العرايا (واحدتها عرية) وهى النخلة يعريها صاحبها رجلا محتاجا . والإعراء : أن يجعل له ثمرة عامها .

الخامسة عشرة — ولا زكاة فى اقل من خمسة أوْسُق ، كذا جاء مبيّنًا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وهو فى الكتاب مُجْمَل ، قال الله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ »(١) . وقال تعالى : « وَآتُوا حَقَّهُ » . ثم وقع البيان بالعُشر ونصف العُشر . ثم لما كان المقدار الذى إذا بلغه المال أخذ منه الحق مُجملا بيّنه أيضا فقال : "ليس فيما دون خمسة أوْسق من تمر أو حب صدقة" وهو ينفى الصدقة فى الخضراوات ، إذ ليست مما يُوسق ؛ فمن حصل له خمسة أوْسق فى نصيبه من تمر أو حب وجبت عليه الزكاة ، وكذلك من زبيب ؛ وهو المسمّى بالنصاب عند العلماء . يقال : وِسْق ووَسْق (بكسر الواو وفتحها) وهو ستون صاعا ، والصاع أربعة أمداد ، والمد رطل وثلث بالبغدادىّ . ومبلغ الخمسة أوْسق من الأمداد ألف مدّ ومائتا مدّ ، وهى بالوزن ألف رِطل وستمائة رِطل .

السادسة عشرة — ومن حصل له من تمر وزبيب معًا خمسةُ أوْسُق لم تلزمه الزكاة ؛ لأنهما صنفان مختلفان . وكذلك أجمعوا على أنه لا يضاف التمر إلى البُر ولا البر الى الزبيب ؛ ولا الإبل إلى البقر ، ولا البقر إلى الغنم . ويضاف الضأن إلى المَعْز بإجماع . واختلفوا فى ضم البُرّ إلى الشعير والسُّلت وهى : —

السابعة عشرة — فأجازه مالك فى هذه الثلاثة خاصّةً فقط ؛ لأنها فى معنى الصِّنف الواحد لتقاربها فى المنفعة واجتماعها فى المنبت والمحصد ، وافتراقها فى الاسم لا يوجب افتراقها فى الحكم كالجواميس والبقر والمعز والغنم . وقال الشافعىّ وغيره : لا يجمع بينها ؛ لأنها أصناف مختلفة ، وصفاتها متباينة ، وأسماؤها متغايرة ، وطعمها مختلف ؛ وذلك يوجب افتراقها . والله أعلم . قال مالك : والقَطَانىّ كلها صِنف واحد ، يُضَمّ بعضها إلى بعض . وقال الشافعىّ : لا تُضم حبة عُرفت باسم منفرد دون صاحبتها ، وهى خلافها مباينة فى الخلقة والطعم إلى غيرها . ويُضَمّ كل صنف بعضه إلى بعض ، رَديئُه إلى جيّده ؛ كالتمر وأنواعه ، والزبيب أسوده وأحمره ، والحنطة وأنواعها من السمراء وغيرها . وهو قول الثّورىّ

---

(١) آية ٢٦٧ سورة البقرة .

وأبي حنيفــة وصاحبيه أبي يوسف ومحمد وأبي ثور . وقال اللّيث : تُضم الحبـوب كلها : القُطنية(١) وغيرها بعضها إلى بعض في الزكاة . وكان أحمد بن حنبل يَجْبُن عن ضم الذهب إلى الوَرِق، وضم الحبوب بعضها إلى بعض . ثم كان في آخر أمره يقول فيها بقول الشافعيّ .

الثامنة عشرة — قال مالك: وما استهلكه منه ربُّه بعد بَدْو صلاحه أو بعد ما أَفْرك حُسِب عليه، وما أعطاه ربُّه منه في حصاده وجذاذه، ومن الزيتون في التقاطه، تَحَرَّى ذلك وحُسِب عليه. وأكثر الفقهاء يخالفونه في ذلك، ولا يوجبون الزكاة إلا فيما حصل في يده بعد الدّرْس. قال الليث في زكاة الحبوب : يُبدأ بها قبل النفقة، وما أكل من فريك هو وأهله فلا يحسب عليــه، بمنزلة الرطب الذي يترك لأهل الحائط يأكلونه فلا يُخْرَص عليهم . وقال الشافعيّ : يترك الخارص لربّ الحائط ما يأكله هو وأهله رطبا، لا يَخْرصه عليهم . وما أكله وهو رطب لم يُحسب عليــه . قال أبو عمر : ٱحتج الشافعيّ ومن وافقه بقــول الله تعالى : « كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ » . وٱستدلّوا على أنه لا يُحتسب بالمأكول قبل الحصاد بهذه الآية . وٱحتجّوا بقوله عليــه السلام : " إذا خرصتم فدعوا الثلث فإن لم تدعوا الثلث فدعوا الربع " . وما أكلت الدواب والبقر منه عند الدّرس لم يُحسب منه شيء على صاحبه عند مالك وغيره .

التاسعة عشرة — وما بيع من الفول والحِمّص والجُلبان أخضر، تَحَرّى مقدار ذلك يابسا وأخرجت زكاته حَبًّا. وكذا ما بيع من الثمر أخضر ٱعتبر وتُوُخّي وخُرِص يابسا وأخرجت زكاته على ذلك الخرص زبيبا وتمرا . وقيل : يخرج من ثمنه .

الموفية عشرين — وأما ما لا يتتمّر من ثمر النخل ولا يتزبّب من العنب كعنب مصر ونخيلها، وكذلك زيتونها الذي لا يُعصر، فقــال مالك : تخرج زكاته من ثمنه، لا يكلَّف غير ذلك صاحبــه، ولا يراعَى فيه بلوغ ثمنه عشرين مثقالا أو مائتي درهم، وإنمــا ينظر إلى ما يرى أنه يبلغه خمســة أوسق فأكثر . وقال الشافعيّ : عشره أو نصف عشره من وسطه تمرا إذا أكله أهله رطبا أو أطعموه .

---

(١) القطنية (بضم القاف وكسرها) : ما كان سوى الحنطة والشعير والزبيب والتمر .

الحادية والعشرون — روى أبو داود عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فيما سقت السماء والأنهار والعيون أو كان بَعْلًا العُشْر[١] . وفيما سُقِيَ بالسَّواني[٢] أو النَّضْح نصف العشر . وكذلك إن كان يشرب سَيْحا فيه العشر" وهو الماء الجاري على وجه الأرض؛ قاله ابن السِّكِّيت . ولفظ السَّيْح مذكور في الحديث ، خرّجه النَّسائيّ . فإن كان يشرب بالسَّيح لكن ربّ الأرض لا يملك ماء وإنما يكتريه له فهو كالسماء؛ على المشهور من المذهب . ورأى أبو الحسن اللخميّ أنه كالنضح ؛ فلو سُقِيَ مَرّة بماء السماء ومَرّة بدالية ؛ فقال مالك : يُنظر إلى ما تمّ به الزرع وحيي وكان أكثر؛ فيتعلّق الحكم عليه . هذه رواية ابن القاسم عنه . وروى عنه ابن وهب : إذا سُقِيَ نصف سنة بالعيون ثم انقطع فسُقِيَ بقيّة السنة بالناضح فإنّ عليه نصف زكاته عشرا ، والنصف الآخر نصف العشر . وقال مَرّة : زكاته بالذى تمت به حياته . وقال الشافعيّ : يُزَكّى كلُّ واحد منهما بحسابه . مثاله أن يشرب شهرين بالنضح وأربعة بالسماء؛ فيكون فيه ثلثا العشر لماء السماء وسدس العشر للنضح؛ وهكذا ما زاد ونقص بحسابه . وبهذا كان يُفْتِي بكّار بن قتيبة . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف : يُنظر إلى الأغلب فيزكّى ، ولا يلتفت إلى ما سوى ذلك . وروى عن الشافعيّ . قال الطحاويّ : قد اتفق الجميع على أنه لو سقاه بماء المطر يوما أو يومين أنه لا اعتبار به ، ولا يجعل لذلك حصّة ؛ فدلّ على أن الاعتبار بالأغلب ، والله أعلم .

قلت : فهذه جملة من أحكام هذه الآية ، ولعلّ غيرنا يأتى بأكثر منها على ما يفتح الله له . وقد مضى في «البقرة»[٣] جملة من معنى هذه الآية ، والحمد لله .

الثانية والعشرون — وأمّا قوله صلى الله عليه وسلم : "ليس في حب ولا تمر صدقة" فخرّجه النَّسائيّ . قال حمزة الكِنانِيّ : لم يذكر في هذا الحديث "في حب" غير إسماعيل بن أُمَيّة ، وهو ثقة قرشيّ من ولد سعيد بن العاصي . قال : وهذه السنة لم يروها أحد عن

---

(١) البعل : هو ما ينبت من النخيل في أرض يقرب ماؤها ، فرسخت عروقها في الماء واستغنت عن ماء السماء والأنهار . (٢) السواني : جمع سانية ، وهي الناقة التي يستقى عليها . (٣) راجع المسئلة الرابعة جـ ٣ ص ٣٢١ طبعة أولى أو ثانية .

النبيّ صلى الله عليه وسلم من أصحابه غير أبي سعيد الخُدْرِيّ . قال أبو عمر : هو كما قال حمزة، وهــذه سنة جليلة تلقّاها الجميع بالقبول ، ولم يروها أحد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من وجه ثابت محفوظٍ غيرُ أبي سـعيد . وقد روى جابر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم مثل ذلك ، ولكنه غريب، وقد وجدناه من حديث أبي هريرة بإسناد حسن .

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ الإسراف في اللغة الخطأ . وقال أعرابي أراد قوما : طلبتكم فَسَرَفتكم ؛ أي أخطأت موضعكم . وقال الشاعر :

وقال قائلهم والخيل تَخبِطهم * أسرفـتم فأجبنا أننـا سرف

والإسراف في النفقة : التبذير . ومُسرف لقب مسلم بن عقبة المُرِّي صاحب وقعة الحرّة ؛ لأنه قد أسرف فيها . قال عليّ بن عبد الله بن العباس :

هُمُ منعوا ذِمارِي يوم جاءت * كتائب مُسْرِفٍ وبني اللَّكِيعهْ

والمعنى المقصود من الآية : لا تأخذوا الشيء بغــير حقه وتضعوه في غير حقه ؛ قاله أَصْبَغ ابن الفرج . ونحوه قول إياس بن معــاوية : ما جاوزتَ به أمرَ الله فهو سَرَف و إسراف . وقال ابن زيد : هو خطاب للولاة ، يقول : لا تأخذوا فوق حقكم وما لا يجب على الناس . والمعنيان يحتملان قوله عليه السلام : "المُعْتَدِي في الصدقة كمانعها" . وقال مجاهد : لو كان أبو قُبيس ذهبا لرجل فأنفقه في طاعة الله لم يكن مُسْرفا ، ولو أنفق درهما أو مُدًّا في معصية الله كان مسرفا . وفي هذا المعنى قيل لحاتم : لا خير في السّرف ؛ فقال : لا سَرَف في الخير .

قلت : وهــذا ضعيف ؛ يردّه ما رَوى ابن عباس أن ثابت بن قَيس بن شَمّاس عَمَد إلى خمسمائة نخلة فجذّها ثم قسّمها في يوم واحد ولم يترك لأهله شيئا ؛ فنزلت « وَلَا تسرفوا » أي لا تعطوا كلّه . وروى عبد الرزاق عن ابن جريج قال : جَذّ معاذ بن جبل نخلة فلم يزل يتصدّق حتى لم يبق منه شيء ؛ فنزل « ولا تسرفوا » . قال السدّي : « ولا تسرفوا » أي لا تعطوا أموالكم فتقعدوا فقراء . ورُوي عن معاوية بن أبي سفيان أنه سئل عن قوله تعالى «ولا تسرفوا» قال : الإسراف ما قصّرتَ عن حقّ الله تعالى .

قلت : فعلى هذا تكون الصدقة بجميع المـال ومنع إخراج حق المساكين داخلين فى حكم السّرف . والعدل خلاف هذا ؛ فيتصدق ويُبقِى كما قال عليه السلام : "خير الصدقة ما كان عن ظَهْرِ غِنًى"[1] إلا أن يكون قوِىّ النفس غنيًّـا بالله متوكّلا عليـه منفردا لا عيال له ؛ فله أن يتصدّق بجميع ماله ، وكذلك يخرج الحق الواجب عليه من زكاة وما يَعُنّ فى بعض الأحوال من الحقوق المتعيّنة فى المـال . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الإسراف ما لم يقدر على ردّه إلى الصـلاح . والسَّرَف ما يقدر على ردّه إلى الصلاح . وقال النّضْر بن شُمَيْل : الإسراف التبذير والإفراط ، والسرف الغفلة والجهل . قال جرير :

أعْطَوْا هُنيــدةَ يحدُوها ثمانيـــةٌ * ما فى عطائِهــمُ مَنٌّ ولا سَرَفُ

أى إغفال . ويقال خطأ . ورجلٌ سَرِف الفؤاد ، أى مخطئ الفـؤاد غافله . قال طَرَفة :

إنّ آمــرأ سَرِفَ الفــؤاد يرى * عَسَـلاً بمـاء سحابــة شَتْمِى

قوله تعـالى : ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾

قوله تعـالى : ﴿وَمِنَ الأنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ عطف . أى وأنشأ حمولة وفرشا من الأنعام . وللعلماء فى الأنعام ثلاثة أقوال : أحدها — أن الأنعام الإبل خاصّة ؛ وسيأتى فى « النّحل » بيانه . الثانى — أن الأنعام الإبل وحدها ، وإذا كان معها بقر وغنم فهى أنعام أيضـا . الثـالث — وهو أصحها قاله أحمـد بن يحيى : الأنعـام كل ما أحله الله عز وجل من الحيوان . ويدلّ على صحة هـذا قوله تعالى : « أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ »[2] وقد تقـدّم . والحَمُولة ما أطاق الحَمْل والعمـل ؛ عن آبن مسعود وغيره . ثم قيل : يختص اللفظ بالإبل . وقيل : كل ما آحتمل عليه الحىّ من حمار أو بغل أو بعير ؛ عن أبى زيد ، سواء كانت عليه الأحمال أو لم تكن .

(١) أى ما كان عفوا قد فضل عن غنى . وقيل : أراد ما فضل عن العيال . والظهر قـد يزاد فى مثل هذا إشباعا للكلام وتمكينا ؛ كأن صدقته مستندة إلى ظهر قوى من المـال (عن ابن الأثير) .

(٢) أول سورة المـائدة .

قال عنـــترة :

ما رَاعـنِي إلا حَمــولةُ أهلِهـا * وسْـط الدّيار تَسَفُّ حَبَّ الخِمْخِمِ[(١)]

وفعولة بفتح الفاء إذا كانت بمعنى الفاعل آستوى فيهـا المؤنّث والمذكر ؛ نحو قولك : رجل فَروقة وآمرأة فَروقة للجبان والخائف . ورجل صرورة وآمرأة صرورة إذا لم يَحُجّا ؛ ولا جمع له . فإذا كانت بمعنى المفعول فرق بين المذكر والمؤنث بالهـاء كالحَلوبة والرّكوبة . والحُمولة (بضم الحاء) : الأحمال . وأما الحُمول (بالضم بلا هاء) فهى الإبل التى عليها الهوادج، كان فيها نساء أو لم يكن ؛ عن أبى زيد . و « فَرْشًا » قال الضحاك : الحمولة من الإبل والبقر . والفرش : الغنم . النحاس : وآستشهد لصاحب هذا القول بقوله « ثمانيـةَ أزواج » قال : فثمانية بدل من قوله « حمولة وفرشا » . وقال الحسن : الحمولة الإبل . والفـرش : الغنم . وقال آبن عباس : الحمولة كل ما حَمـل من الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير . والفَرْش : الغنم . وقال آبن زيد : الحمـولة ما يركب ، والفـرش ما يؤكل لحمه ويحلب ؛ مثـل الغنم والفِصلان والعجاجيل ؛ سُمِّيت فَرْشا للطافة أجسامها وقربهـا من الفرش ، وهى الأرض المستوية التى يتوطأها الناس . قال الراجز :

أورثـنى حمــولة وفــرشا * أَمُشُّهـا فى كلّ يـــوم مَشّـا[(٢)]

وقال آخر :

وحَوَيْنَا الفَرْش من أنعامكم * والحَمُــولات ورَبّاتِ الحَجَل

قال الأصمعى : لم أسمع له بجمـع . قال : ويحتمل أن يكون مصـدرا سُمِّىَ به ؛ من قولهم : فرشها الله فرشا ، أى بَثّها بَثًّا . والفَرْش : المفروش من متاع البيت . والفَرْش : الزرع إذا فرش . والفرش : الفضاء الواسع . والفَرْش فى رجل البعير : اتّساع قليـل ، وهو محمود . وآفترش الشيءُ آنبسط ؛ فهو لفظ مشترك . وقد يرجع قوله تعالى : « وَفَرْشًا » إلى هـذا . قال النحاس : ومن أحسن ما قيل فيهما أن الحمولة المسخرة المذلّلة للحمل . والفَرْش ما خلقه الله عز وجل من الجلود والصّوف مما يُجلس عليه ويُتَمَهّد . وباقى الآية قد تقدّم .

(١) الخمخم (بكسر الخاء المهملة ويقال بالخاء) : نبات تعلف حبه الإبل. (٢) مش الناقة يمشها مشا : حلبها .

قوله تعالى : ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٤) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ « ثمانيةَ » منصوب بفعل مضمر، أى وأنشأ ثمانيــة أزواج ؛ عن الكسائيّ . وقال الأخفش سعيد : هو منصوب على البدل من حمولة وفرش . وقال الأخفش علىّ بن سليمان : يكون منصوبا بـ«كلوا» ؛ أى كلوا لحمّ ثمانية أزواج . ويجوز أن يكون منصوبا على البدل من « ما » على الموضع . ويجوز أن يكون منصوبا بمعنى كلوا المباح ثمانية أزواج من الضأن آثنين . ونزلت الآية فى مالك بن عَوْف وأصحابه حيث قالوا : « مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنعامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا » فنبّه الله عز وجل نبيّه والمؤمنين بهذه الآية على ما أحلّه لهم ؛ لئلا يكونوا بمنزلة من حرّم ما أحله الله تعالى . والزوج خلاف الفَرْد ؛ يقال : زَوْج أو فَرْد . كما يقال : خَسًا أو زَكًا ، شَفْع أو وتر . فقــوله « ثمانية ازواج » يعنى ثمانية أفراد، وكل فَرْد عند العرب يحتاج إلى آخر يُسَمَّى زوجا، فيقال للذكر زوج وللأنثى زوج . ويقع لفظ الزوج للواحد وللاثنين ؛ يقال : هما زوجان، وهما زوج؛ كما يقال . هما سِيّان وهما سواء . وتقول : آشتريت زَوْجى حمام . وأنت تعنى ذكرا وأنثى .

الثانيــة ـــ قوله تعالى : ﴿ مِنَ الضَّأْنِ آثْنَيْنِ ﴾ أى الذكر والأنثى . والضأن : ذوات الصّوف من الغنم ، وهى جمع ضائن . والأنثى ضائنــة ، والجمع ضوائن . وقيل : هو جمعٌ لا واحد له . وقيل فى جمعه : ضَئين ؛ كعبد وعبيد . ويقال فيه : ضِئين ؛ كما يقال فى شَعير شِعير،

كسرت الضاد آتباعا . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « من الضأَن آثنين » بفتح الهمزة ، وهي لغة مسموعة عنـد البصريين . وهو مطّرد عند الكوفيين في كل ما ثانيـه حرفُ حلق . وكذلك الفتح والإسكان في المعـز . وقرأ أبَان بن عثمان « منَ الضَّأن آثْنَانِ ومن المعز آثنـان » رفعا بالآبتـداء . وفي حرف أُبَيٍّ . « وَمنَ الْمَعْز آثنـان » وهي قراءة الأكثر . وقرأ آبن عامر وأبو عمرو بالفتح . قال النحاس : الأكثر في كلام العرب المعْز والضّأن بالإسكان . ويدل على هذا قولهم في الجمع : مَعيز ؛ فهذا جمع مَعْز . كما يقال عبد وعبيد . قال آمرؤ القيس :

ويَمْنَحُهَا بنو شَمَجَى بن جَرْم * مَعِـيزَهُمُ حَنانَك ذا الحَنان

ومثـله ضَأن وضَئِين . والمَعْـز من الغـنم خلاف الضأن ، وهي ذوات الأشـعار والأذناب القِصار ، وهو آسم جنس ، وكذلك المَعَز والمِعيز والأُمْعُوز والمِعزى . وواحد المَعْز ماعز ؛ مثل صاحب وصَحْب وتاجر وتَجْر . والأنثى ماعزة وهي العنز ، والجمع مواعز . وأمعز القومُ كثرت معزاهم . والمَعّاز صاحب المِعزى . قال أبو محمـد الفَقْعَسِيّ يصف إبلا بكثرة اللّبن و يفضّلها على الغنم في شـدة الزمان :

يكُلْنَ كَيْلًا ليس بالمَمْحُـوقِ * إذ رَضِيَ المَعَّـاز باللعُـــوقِ

والمَعَز الصـلابة من الأرض . والأمْعَـز : المكان الصُّلب الكثير الحصى ؛ والمَعْزَاء أيضا . وآستمعز الرّجل في أمره : جَدّ . ﴿ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ ﴾ منصوب بـ « حَرّم » . ﴿ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ ﴾ عطف عليه . وكذا ﴿ أَمَّا آشْتَمَلَتْ ﴾ . ووردت مع ألف الوصـل مدّة للفرق بين الآسـتفهام والخبر . ويجوز حذف الهمزة لأن « أم » تدل على الآستفهام . كما قال :

* تَرُوحُ مِن الحَيِّ أم تَبْتَكِرْ *

الثالثـــة — قال العلمـاء : الآية آحتجاج على المشركين في أمر البَحِيرة وما ذُكر معها . وقولهم : « ما في بطونِ هذه الأنعامِ خالصة لِذكورنا ومُحَرَّمٌ على أزواجنا » . فدلّت على إثبات المناظرة في العلم ؛ لأن الله تعالى أمر نبيّه عليه السلام بأن يناظرهم ، و يبيّن لهم فساد قولهم . وفيها إثبات القول بالنظر والقياس . وفيها دليل بأن القياس إذا ورد عليه النص بطل القول به .

ويروى « إذا ورد عليه النقض » ؛ لأن الله تعالى أمرهم بالمقايسة الصحيحة ، وأمرهم بطرد علتهم . والمعنى : قل لهم إن كان حرّم الذكور فكل ذكر حرام . وإن كان حرّم الإناث فكل أنثى حرام . وإن كان حرّم ما ٱشتملت عليه أرحام الأنثيين ، يعني من الضأن والمعز ، فكل مولود حرام ، ذكرا كان أو أنثى . وكلها مولود فكلها إذًا حرام لوجود العلة فيها ، فبيّن ٱنتقاض علّتهم وفساد قولهم ؛ فأعلم الله سبحانه أن ما فعلوه من ذلك ٱفتراء عليه . ﴿ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ ﴾ أي بعلم إن كان عندكم ، من أين هـذا التحريمُ الذي ٱفتعلتموه ؟ ولا علم عندهم ؛ لأنهم لا يقرءون الكتب . والقول في : ﴿ وَمِنَ الْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ ﴾ وما بعده كما سبق . ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ ﴾ أي شاهدتم الله قد حرّم هذا . ولمّا لزمتهم الحجة أخذوا في الٱفتراء فقالوا : كذا أمر الله . فقال الله تعـالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ بيّن أنهم كذبوا ؛ إذ قالوا بما لم يدل عليه دليل .

قوله تعـالى : قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ قُل لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ﴾ أعلم الله عز وجل في هذه الآية بما حرّم . والمعنى : قل يامحمد لا أجد فيما أوحي إليّ محرما إلا هذه الأشياء ، لا ماتحرّمونه بشهوتكم . والآية مكية . ولم يكن في الشريعة في ذلك الوقت محرّم غير هذه الأشياء ، ثم نزلت سورة «المـائدة» بالمدينة . وزيد في المحرّمات كالمُنْخَنِقة والمَوْقُوذة[1] والمُتَرَدِّيَة والنَّطِيحة والخمر وغير ذلك . وحرّم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة أكلَ كلِّ ذي ناب من السباع وكلِّ ذي مِخْلب من الطير .

(١) الموقوذة : الشاة المضروبة حتى تموت ولم تُذَكّ . والمتردية : التي تقع من جبل ، أو تطيح في بئر ، أو تسقط من موضع مشرف فتموت .

وقـد اختلف العلمـاء فى حكم هذه الاية وتأويلها على أقوال : الأول — ما أشرنا إليه من أن هـذه الآية مكية ، وكلّ محرّم حرّمه رسـول الله صلى الله عليه وسلم أوجاء فى الكتاب مضموم إليها؛ فهو زيادة حكم من الله عز وجل على لسان نبيّه عليه السلام . على هذا أكثر أهل العلم من النظر، وأهل الفقه والأثر . ونظيره نكاح المرأة على عمتها وعلى خالتها مع قوله : «وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ»(١) وكحكمه باليمين مع الشاهد مع قوله : «فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وامرأتان»(٢) وقد تقدّم . وقد قيل : إنها منسوخة بقوله عليه السلام : "أكْلُ كُلِّ ذى ناب من السباع حرام" أخرجه مالك ، وهو حديث صحيح . وقيل: الآية مُحْكَمَة ولا يحرم إلا مافيها. وهـو قول يُرْوَى عن ابن عباس وابن عمر وعائشـة، ورُوِى عنهم خلافـه . قال مالك : لا حرام بيّنٌ إلا ما ذُكر فى هذه الآية . وقال ابن خُوَيْزِمَنْداد : تضمّنت هـذه الآية تحليلَ كلِّ شيء من الحيوان وغيره إلا ما استثنى فى الآية من الميتة والدّم المسفوح ولحم الخنزير . ولهذا قلنـا : إن لحوم السباع وسائر الحيوان ما سـوى الإنسان والخنزير مباح . وقال الكِيَا الطبرىّ : وعليها بنى الشافعىّ تحليلَ كلّ مسكوت عنه؛ أخْذًا من هـذه الآية ، إلا مادلّ عليه الدليل . وقيل : إن الآية جواب لمن سأل عن شيء بعينه فوقع الجواب مخصوصا . وهـذا مذهب الشافعىّ . وقد روى الشافعىّ عن سـعيد بن جُبير أنه قال : فى هـذه الآية أشياء سألوا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجابهم عن المحرّمات من تلك الأشياء . وقيـل : أى لا أجد فيما أوحى إلىّ أى فى هذه الحـال حال الوحى ووقت نزوله ، ثم لا يمتنع حدوث وَحْيٍ بعدذلك بتحريم أشياء أخر . وزعم ابن العربى أنهذه الآية مدنية، مَكِّية فى قول الأكثر، نزلت على النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم نزل عليه «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»(٣) ولم ينزل بعدها ناسخ فهى مُحْكَمة، فلا مُحَرَّم إلا ما فيها، وإليه أميل .

قلت : وهذا ما رأيته قاله غيره . وقد ذكر أبو عمر بن عبـد البر الإجماعَ فى أن سورة «الأنعام» مكية إلا قوله تعالى : «قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ»(٤) الثلاث الآيات، وقد

(١) آية ٢٤ سورة النساء . (٢) آية ٢٨٢ سورة البقرة . (٣) آية ٣ سورة المائدة .
(٤) آية ١٥١ وما بعدها .

نزل بعدها قرآن كثير وسُنن جَمّة . فنزل تحريم الخمر بالمدينة فى « المـائدة » . وأجمعوا على أن نهيه عليه السلام عن أكل كل ذى ناب من السباع إنما كان منـه بالمدينة . قال إسماعيل ابن إسحاق : وهذا كله يدل على أنه أمرٌ كان بالمدينة بعد نزول قوله : «قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ » لأن ذلك مكيّ .

قلت : وهـذا هو مَثار الخلاف بين العلماء . فعدل جماعة عن ظاهر الأحاديث الواردة بالنهى عن أكل كل ذى ناب من السباع؛ لأنها متأخرة عنها والحصر فيها ظاهر فالأخذ بهـا أولى؛ لأنها إما ناسخة لمـا تقدّمها أو راجحة على تلك الأحاديث . وأما القائلون بالتحريم فظهر لهم وثبت عندهم أن سورة « الأنعام » مكية؛ نزلت قبـل الهجرة ، وأن هذه الآية قصد بها الرّد على الجـاهلية فى تحريم البحيرة والسائبة والوَصيلة والحامى، ثم بعد ذلك حرّم أمورا كثيرة كالحُمُر الإنسية ولحوم البغال وغيرهما ، وكل ذى ناب من السباع وكلّ ذى مِخلب من الطير . قال أبو عمر : ويلزم على قول من قال « لا محرم إلا ما فيها » ألا يحرّم مالم يذكر اسم الله عليه عمدا ، وتُستحلّ الخمر المحرّمة عند جماعة المسلمين . وفى إجماع المسلمين على تحريم خمر العنب دليل واضح على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وجد فيما أُوحىَ إليه محرما غيرما فى سورة « الأنعام » ممـا قد نزل بعدها من القرآن . وقد اختلفت الرواية عن مالك فى لحوم السـباع والحمر والبغال فقال : هى محرّمة؛ لمـا ورد من نهيه عليه السـلام عن ذلك ، وهو الصحيح من قوله على مافى الموطأ . وقال مَرّة : هى مكروهة ، وهـو ظاهر المَدَوَّنة ؛ لظاهر الآية؛ ولمـا روى عن ابن عباس وابن عمر وعائشة من إباحة أكلها ، وهو قول الأوزاعىّ . روى البخارىّ من رواية عمرو بن دِينار قال : قلت لجابر بن زيد إنهم يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الأهلية ؟ فقال : قد كان يقول ذلك الحَكَم بن عمرو الغِفارِىّ عندنا بالبصرة؛ ولكن أَبَى ذلك البحرُ ابن عباس، وقرأ «قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا» . وروى عن ابن عمر أنه سئل عن لحوم السباع فقال : لابأس بها . فقيل له : حديث أبى ثعلبة الخُشَنِىّ[1] .

(١) حديث أبى ثعلبـة : أنه روى أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : « أكل كل ذى ناب من السباع حـرام » .

فقال : لاندَع كتابَ الله ربِّنا لحديث أعرابىّ يبول على ساقيه . وسئل الشَّعبىّ عن لحم الفيل والأسد فتلا هــذه الآية . وقال القاسم : كانت عائشة تقول لمـا سمعت الناس يقولون حَرُم كل ذى ناب من السباع : ذلك حلال، وتتلو هذه الآية «قل لا أجد فيما أوحِىَ إلىّ محرّما» ثم قالت : أنْ كانت البُرْمة ليكون ماؤها أصفر من الدم ثم يراها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يحرّمها . والصحيح فى هــذا الباب ما بدأنا بذكره ، وأن ما ورد من المحرّمات بعد الآية مضموم إليها معطوف عليها . وقد أشار القاضى أبو بكر بن العربىّ إلى هذا فى قبسه خلاف ما ذكر فى أحكامه قال : روى عن ابن عباس أن هذه الآية من آخر ما نزل ؛ فقال البغداديون من أصحابنا : إنّ كل ما عداها حلال ، لكنه يكره أكل السباع . وعند فقهاء الأمصار منهم مالك والشافعىّ وأبو حنيفة وعبد الملك أن أكل كل ذى ناب من السباع حرام ، وليس يمتنع أن تقع الزيادة بعد قوله «قل لا أجد فيما أوحِىَ إلىّ محرما » بما يَرِد من الدليل فيها ؛ كما قال النبىّ صلى الله عليــه وسلم : "لا يحلّ دم آمرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث" فذكر الكفر والزنا والقتل . ثم قال علمــاؤنا : إن أسـباب القتل عشرة بمـا ورد من الأدلة ، إذ النبىّ صلى الله عليه وسلم إنمـا يخبر بما وصل إليه من العلم عن البارى تعالى ؛ وهو يَمْحُو ما يشاء ويُثبِت ويَنْسَخ ويقدّر . وقد ثبت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أكل كل ذى ناب من السباع حرام" وقد رُوِى أنه نهى عن أكل كل ذى ناب من السباع وذى مخلب من الطير. وروى مسلم عن مَعْن عن مالك «نُهِىَ عن أكل كل ذى مخلب من الطير» . والأوّل أصح . وتحريم كل ذى ناب من السباع هو صريح المذهب . وبه ترجم مالك فى الموطأ حين قال : تحــريم أكل كل ذى ناب من السـباع . ثم ذكر الحديث وعقبه بعــد ذلك بأن قال : وهو الأمر عندنا . فأخبر أن العمل آطرد مع الأثر . قال القشيرىّ : فقول مالك « هــذه الآية من أواخر ما نزل» لا يمنعنا من أن نقول : ثبت تحريم بعض هذه الأشياء بعد هذه الآية، وقد أحل الله الطيبات وحرم الخبائث ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذى ناب من السباع ،وعن أكل كل ذى مِخْلب من الطير، ونهى عن لحوم الحمر الأهلية

عامَ خَيْبر . والذى يدّل على صحة هــذا التأويل الإجماعُ على تحريم العَذِرة والبَوْل والحشرات المستقْذرة والحُمر ممــا ليس مذكورا فى هذه الاية .

الثانيـــة ـــ قوله تعالى : ﴿مُحَرَّمًا﴾ قال ٱبن عطية : لفظة التحريم إذا وردت على لسان رسول الله صلى الله عليــه وسلم فإنها صالحــة أن تنتهى بالشيء المذكور غاية الحَظْر والمنع ، وصالحةٌ بحسب اللغة أن تقف دون الغاية فى حيّز الكراهة ونحوها ؛ فما اقترنت به قرينة التسليم من الصحابة المتأولين وأجمع الكل منهم ولم تضطرب فيه ألفاظ الأحاديث وجب بالشرع أن يكون تحريمه قد وصل الغاية من الحظر والمنع ، ولحِق بالخنزير والميتة والدّم ، وهذه صفة تحريم الخمر . وما اقترنت به قرينة اضطراب ألفــاظ الأحاديث واختلفت الأئمــة فيه مع علمهم بالأحاديث كقوله عليه السلام : "أكلُ كل ذى ناب من السباع حرام". وقد ورد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذى ناب من السباع ، ثم اختلفت الصحابة ومن بعدهم فى تحريم ذلك . فجاز لهذه الوجوه لمن ينظر أن يحمل لفظ التحريم على المنع الذى هو الكراهة ونحوها . وما ٱقترنت به قرينة التأويل كتحريمه عليه السلام لحوم الحمر الإنسيّة فتأوّل بعض الصحابة الحاضرين ذلك لأنها نَجَسٌ . وتأوّل بعضهم ذلك لئــلا تفنى حَمولة الناس . وتأوّل بعضهم التحريم المحض . وثبت فى الأمة الاختلاف فى تحريم لحمها ؛ فجائز لمن ينظر من العلماء أن يحمل لفظ التحريم بحسب اجتهاده وقياسه على كراهته أو نحوها .

قلت : وهــذا عقد حسَن فى الباب وفى سبب الخلاف على ما تقدم . وقد قيل : إن الحمار لا يؤكل ، لأنه أبدى جوهره الخبيث حيث نَزَا على ذكر وتلوّط ؛ فسـمّى رجسا . قال محمد بن سِـيرين : ليس شيء من الدواب يعمل عمــل قوم لوط إلا الخـنزير والحمار ؛ ذكره الترمذيّ فى نوادر الأصول .

الثالثـــة ـــ روى عمرو بن دِينار عن أبى الشَّعثاء عن ٱبن عباس قال : كان اهل الجاهلية يأكلون أشياء و يتركون أشياء ؛ فبعث الله نبيّه عليه السلام وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرّم حرامه ؛ فما أحلّ فهو حلال وما حرّم فهو حرام وما سكت عنه فهو عَفْوٌ ، وتلا هذه الاية «قُلْ لَا أَجِدُ»

الآية . يعنى ما لم يبيّن تحريمه فهو مباح بظاهر هذه الآية . وروى الزُّهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن عبد الله بن عباس أنه قرأ «قل لا أجد فيما أوحى إلى محرّما» قال : إنما حرّم من الميتة أكلها، ما يؤكل منها وهو اللحم؛ فأما الجلد والعظم والصوف والشعر فحلال . وروى أبو داود عن مِلْقام بن تَلِب عن أبيه قال : صحبت النبيّ صلى الله عليه وسلم فلم أسمع لحشرة الأرض تحريما . الحشرة : صغار دوابّ الأرض؛ كاليرابيع والضِّباب والقنافذ ونحوها؛ قال الشاعر :

أكلنا الرُّبَى يا أمّ عمرو ومن يكن * غريبا لديكم يأكل الحشرات

أى ما دبّ ودَرج . والرُّبَى جمع رُبْيَة وهى الفأرة . قال الخطّابى : وليس فى قوله «لم أسمع لها تحريما» دليلٌ على أنها مباحة ؛ لجواز أن يكون غيره قد سمعه . وقد اختلف الناس فى اليَرْبوع والوَبْر[1] والجمع وِبار ونحوهما من الحشرات؛ فرخّص فى اليربوع عروةُ وعطاء والشافعىّ وأبو ثور . قال الشافعىّ : لا بأس بالوَبْر . وكرهه ابن سيرين والحَكَم وحمّاد وأصحابُ الرأى . وكره أصحاب الرأى القنفذ . وسئل عنه مالك بن أنس فقال : لا أدرى . وحكى أبو عمر : وقال مالك لا بأس بأكل القنفذ . وكان أبو ثَوْر لا يرى به بأسا؛ وحكاه عن الشافعىّ . وسئل عنه ابن عمر فتلا « قُلْ لا أَجِدُ فيما أُوحِىَ إلىّ مُحرّمًا » الاية؛ فقال شيخ عنده : سمعت أبا هريرة يقول : ذُكر عند النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : "خبيثةٌ من الخبائث" . فقال ابن عمر : إن كان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا فهو كما قال . ذكره أبو داود . وقال مالك : لا بأس بأكل الضّب واليربوع والوَرَل[2] . وجائز عنده أكل الحيات إذا ذُكّيت؛ وهو قول ابن أبى لَيْلى والأوزاعىّ . وكذلك الأفاعى والعقارب والفأر والعظاية[3] والقنفذ والضفدع . وقال ابن القاسم : ولا بأس بأكل خِشاش الأرض وعقاربها ودودها فى قول مالك؛ لأنه قال : موته فى الماء لا يفسده . وقال مالك : لا بأس بأكل فراخ النحل ودود الجبن والتمر ونحوه .

---

(١) الوبر (بالتسكين) : دويبة على قدر السنور غبراء أو بيضاء من دواب الصحراء حسنة العينين شديدة الحياء تكون بالغور . (٢) الورل : دابة على خلقة الضب إلا أنه أعظم منه ، يكون فى الرمال والصحارى .

(٣) العظاية : دويبة كسامّ أبرص .

والحجـة له حديث مِلْقام بن تَلِب، وقول ابن عبـاس وأبى الدرداء : ما أحلّ الله فهو حلال وما حرّم فهو حرام وما سكت عنه فهو عَفْوٌ . وقالت عائشة فى الفأرة : ما هى بحرام، وقرأت « قل لا أجد فيما أوحِىَ إلىّ محرما » . ومن علماء أهل المدينة جماعةٌ لايجيزون أكل شىء من خِشاش الأرض وهَوَامِّها ؛ مثل الحيات والأوزاغ والفأر وما أشبهه . وكل ما يجوز قتله فلا يجوز عند هؤلاء أكله، ولا تعمَل الذكاة عندهم فيه . وهو قول ابن شِهاب وعُروة والشافعىّ وأبى حنيفة وأصحابه وغيرهم . ولا يؤكل عند مالك وأصحابه شىء من سباع الوحش كلّها، ولا الهِرّ الأهـلى ولا الوحشى لأنه سَبُع . وقال : ولا يؤكل الضبع ولا الثعلب، ولا بأس بأكل سباع الطير كلها : الرَّخم والنُّسور والعِقبان وغيرها، ما أكل الجِيَف منها وما لم يأكل . وقال الأوزاعىّ الطير كله حلال، إلا أنهم يكرهون الرَّخَم . وحجة مالك أنه لم يجد أحدا من أهل العلم يكره أكل سباع الطير، وأنكر الحديث عن النبىّ صلى الله عليه وسلم "أنه نهى عن أكل كل ذى مِخْلَب من الطير" . وروى عن أشهب أنه قال : لابأس بأكل الفِيل إذا ذُكِّى، وهو قول الشَّعْبىّ، ومنع منه الشافعىّ . وكره النعمان وأصحابُه أكل الضَّبُع والثعلب . ورخّص فى ذلك الشافعىّ، وروى عن سـعد بن أبى وَقّاص أنه كان يأكل الضِّباع . وحجة مالكٍ عُموم النّهى عن أكل كل ذى ناب من السباع ، ولم يخص سَبُعا من سَبُع . وليس حديث الضّبع الذى خرّجه النّسائىّ فى إباحة أكلها مما يعارض به حديث النهى ؛ لأنه حديث انفرد به عبـد الرحمن بن أبى عمّار، وليس مشهورا بنقل العلم، ولا ممن يحتج به إذا خالفه من هو أثبت منه . قال أبو عمر : وقد رُوى النهى عن أكل كل ذى ناب من السباع من طرق متواترة . روى ذلك جماعةٌ من الأئمة الثقات الأثبات ، ومُحالٌ أن يعارَضوا بمثل حديث ابن أبى عمار . قال أبو عمر : اجمع المسلمون على أنه لا يجوز أكل القِرد لنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكله، ولا يجوز بيعه لأنه لامنفعة فيه . قال : وما علمت أحدا رخّص فى أكله إلا ما ذكره عبد الرزاق عن مَعمر عن أيوب . سئل مجاهد عن أكل القرد فقال : ليس من بهيمة الأنعام .

قلت : ذكر ابن المنذر أنه قال : رَوينا عن عطاء أنه سئل عن القرد يُقتـل فى الحَرَم فقال : يحكم به ذوا عَدْل . قال : فعلى مذهب عطاء يجوز أكل لحمه ؛ لأن الجزاء لا يجب على

من قتل غير الصّيد . وفى (بحر المذهب) للرّويانيّ على مذهب الإمام الشافعيّ: وقال الشافعيّ يجوز بيع القرد لأنه يُعلَّم و ينتفع به لحفظ المتاع . وحكى الكَشْفَلِيّ عن ابن شريح يجوز بيعه لأنه ينتفع به . فقيل : وما وجه الانتفاع به ؟ قال : تفرح به الصِّبيـان . قال أبو عمر : والكلب والفيل وذو الناب كلّه عندى مثلُ القِرْد . والحجة فى قول رسول الله صلى الله عليـه وسلم لا فى قول غيره . وقـد زعم ناس أنه لم يكن فى العرب من يأكل لحم الكلب إلا قوم من فَقْعَس . و روى أبو داود عن ابن عمر قال : نهى رسول الله صلى الله عليـه وسلم عن أكل الجَلّالة وألبانها . فى رواية عن الجَلّالة فى الإبل أن يُركب عليها أو يُشرب من ألبانها . قال الحَلِيمِىّ أبو عبد الله : فأما الجَلّالة فهى التى تأكل العَذِرة من الدواب والدَّجاج المُخَلّاة . ونهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن لحومها . وقال العلماء : كلّ ما ظهر منها ريح العَذِرة فى لحمه أو طعمه فهو حرام، وما لم يظهر فهو حلال . وقال الخطّابِىّ : هذا نَهْىُ تَنَزُّه وتَنَظُّف، وذلك أنها إذا اغتذت الجِلّة وهى العذرة وُجد نتن رائحتها فى لحومها، وهذا إذا كان غالب علفها منها؛ فأما إذا رعت الكلأ واعتلفت الحَب وكانت تنال مع ذلك شيئا من الجلة فليست بجلّالة ، وإنما هى كالدّجاج المُخَلّاة، ونحوها من الحيوان الذى ربما نال الشىء منها وغالب غذائه وعلفه من غيره فلا يكره أكلها . وقال أصحاب الرأى والشافعىّ وأحمد : لا تؤكل حتى تُحبس أياما وتعلف عَلَفًا غيرها ؛ فإذا طاب لحمها أكلت . وقد روى فى حديث أن البقر تُعلف أربعين يوما ثم يؤكل لحمها . وكان ابن عمـر يحبس الدّجاج ثلاثا ثم يذبح . وقال إسحاق : لا بأس بأكلها بعد أن يغسل لحمها غسلا جيـدا . وكان الحسن لا يرى بأسا بأكل لحم الجَلّالة؛ وكذلك مالك بن أنس . ومن هذا الباب نُهى ان تلقى فى الأرض العذرة . روى عن بعضهم قال : كنا نُكْرِى أرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ونشترط على من يكريها ألا يُلقى فيها العذرة . وعن ابن عمر أنه كان يكرى أرضـه ويشترط ألا تُدْمَن[1] بالعذرة . وروى أن رجلا كان يزرع أرضه بالعذرة فقال له عمر : أنت الذى تطعم الناس ما يخرج منهم . واختلفوا فى أكل

(١) دمن الأرض (من باب نصر) : أصلحها بالسرجين .

الخيل ؛ فأباحها الشافعيّ ، وهو الصحيح ، وكرهها مالك . وأما البغل فهو متولّد من بين الحمار والفرس، وأحدهما مأكول أو مكروه وهو الفرس، والآخر محرّم وهو الحمار؛ فغلّب حكم التحريم؛ لأن التحليل والتحريم إذا اجتمعا فى عين واحدة غُلّب حكم التحريم . وسيأتى بيان هذه المسألة فى «النحل»(١) إن شاء الله بأوْعَبَ من هذا. وسيأتى حكم الجراد فى «الأعراف»(٢). والجمهور من الخَلَف والسَّلَف على جواز أكل الأرنب . وقد حكى عن عبد الله بن عمرو بن العاص تحريمه . وعن ابن أبى ليلى كراهته . قال عبد الله بن عمرو : جئ بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا جالس فلم يأكلها ولم ينْه عن أكلها، وزعم أنها تحيض. ذكره أبو داود. وروى النسائى مُرْسلا عن موسى بن طلحة قال : أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم بأرنب قد شواها رجل وقال : يا رسول الله ، إنى رأيت بها دما ؛ فتركها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يأكلها، وقال لمن عنده : "كُلُوا فإنى لو آشتهيتها أكلتها" .

قلت : وليس فى هذا ما يدل على تحريمه، وإنما هو نحوٌ من قوله عليه السلام : " إنه لم يكن بأرض قومى فأجدنى أعافه " . وقد روى مسلم فى صحيحه عن أنس بن مالك قال : مررنا فاسْتَنْفَجْنَا(٣) أرْنباً بمرّ الظهران فَسَعَوْا عليه فلَغَبُوا(٤). قال: فسعيت حتى أدركتها، فأتيت بها أبا طلحة فذبحها، فبعث بوركها وفَخِذَيها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتيت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقَبِله .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ أى آكِلٍ يأكله . وروى عن ابن عامر أنه قرأ «أَوْحى» بفتح الهمزة . وقرأ علىّ بن أبى طالب «يطعِمه» مثقل الطاء، أراد يتطعمه فأدغم . وقرأت عائشة ومحمد بن الحنفية «على طاعم طعمه» بفعل ماض . ﴿ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ قرئ بالياء والتاء ؛ أى إلا أن تكون العين أو الجثة أو النفس ميتةً . وقرئ « يكون » بالياء « ميتة » بالرفع بمعنى تقع وتحدث ميتةٌ . والمسفوح : الجارى الذى يسيل

(١) فى قوله تعالى : «والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ...» آية ٨ (٢) آية ١٣٣
(٣) قال النووى : معنى استنفجنا : أثرنا ونفرنا . ومر الظهران (بفتح الميم والظاء) : موضع قريب من مكة .
(٤) فلغبوا : أى أعيوا وعجزوا عن أخذها .

وهو المحرّم . وغيره مَعْفُوٌّ عنه . وحكى المـاوردىّ أن الدم غير المسفوح أنه إن كان ذا عروق يجمد عليها كالكبد والطحال فهو حلال ؛ لقوله عليه السلام : " أُحِلّت لنـا ميتتان ودمان " الحديث . وإن كان غير ذى عروق يجمد عليها، وإنما هو مع اللحم ففى تحريمه قولان: أحدهما أنه حرام؛ لأنه من جملة المسفوح أو بعضه . وإنمـا ذكر المسفوح لاستثناء الكبد والطحال منه . والثانى أنه لا يحرم؛ لتخصيص التحريم بالمسفوح .

قلت : وهو الصحيح . قال عمران بن حُدير : سألت أبا مِجْلز عما يتلطخ من اللحم بالدم، وعن القِدر تعلوها الحمرة من الدّم فقال : لا بأس به ، إنما حرّم الله المسفوح . وقالت نحوه عائشة وغيرُها، وعليه إجماع العلماء . وقال عكرمة : لولا هذه الآية لأتبع المسلمون من العروق ما تتبع اليهود . وقال إبراهيم النَّخَعِىّ : لا بأس بالدم فى عرق أو مخ . وقد تقدّم هذا وحكم المضطر فى «البقرة»(١) .

قوله تعـالى : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَا أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ (١٤٦)

فيه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ لمـا ذكر الله عز وجل ما حرّم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم عقّب ذلك بذكر ما حرّم على اليهود؛ لمـا فى ذلك من تكذيبهم فى قولهم : إن الله لم يحرّم علينا شيئا، وإنما نحن حرّمنا على أنفسنا ما حرّمه إسرائيل على نفسه . وقد تقدّم فى « البقرة » معنى « هادوا »(٢) . وهذا التحريم على الذين هادوا إنمـا هو تكليف بَلْوَى وعقوبة . فأوّل ما ذكر من المحرّمات عليهـم كلّ ذى ظُفر . وقرأ الحسن «ظُفْر» بإسكان الفاء. وقرأ أبو السَّمّال «ظِفْر» بكسر الظاء وإسكان الفاء. وأنكر أبو حاتم كسر

(١) راجع جـ ٢ ص ٢١٦ وما بعدها . طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ٤٣٢ طبعة ثانية أو ثالثة .

الظاء وإسكان الفاء، ولم يذكر هـذه القراءة وهى لغة . « وِظِفِر » بكسرهما . والجمع اظفار وأظفور وأظافـير؛ قاله الجوهرى . وزاد النحاس عن الفـرّاء[1] أظافر وأظافرة؛ قال ٱبن السِّكِّيت : يقـال رجل أظفر بين الظَّفَر إذا كان طـويل الأظفار؛ كما يقـال : رجل أشْـعر للطويل الشّعر . قال مجاهد وقَتادة : « ذى ظفـر » ما ليس بمنفرج الأصابع من البهائم والطير؛ مثل الإبل والنعام والإوَزّ والبّط . وقال ٱبن زيد: الإبل فقطّ . وقال ٱبن عباس : «ذى ظفر» البعير والنعامة ؛ لأن النعامة ذات ظفر كالإبل . وقيل : يعنى كل ذى مِخْلَب من الطير وذى حافر من الدواب . ويُسَـمَّى الحـافر ظفرا ٱستعارة . وقال الترمذى الحكيم : الحافر ظفر، والمِخْلب ظفر؛ إلا أن هـذا على قدره وذاك على قـدره، وليس ههنا ٱستعارة؛ ألا ترى أن كليهما يُقَص و يؤخذ منهما وكلاهما جنس واحد، عَظْمٌ لَيّن رِخْوٌ. أصله من غذاء ينبت فيُقَصّ مثل ظفر الإنسان ، وإنما سُمِّيَ حافرا لأنه يحفر الأرض بوقعه عليها . وسُمِّيَ مِخْلَبا لأنه يخلب الطير برءوس تلك الإبر منها . وسُمِّى ظفرا لأنه يأخذ الأشياء بظفره، أى يظفر به الآدمى والطير .

الثانيـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا ﴾ قال قتادة : يعنى الثُّرُوب وشحم الكُلْيتين؛ قاله السُّدّى . والثُّرُوب جمع الثَّرْب، وهو الشحم الرقيق الذى يكون على الكَرِش . قال ٱبن جُرَيج : حرّم عليهـم كلّ شحم غير مختلط بعظم أو على عظم، وأحلّ لهم شحم الجنب والألْية؛ لأنه على العُصْعُص .

الثالثـــة ـــ قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ «ما» فى موضع نصب على الاستثناء. «ظُهُورُهُمَا» رفع بـ«حملت» . ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَا﴾ فى موضع رفع عطفٌ على الظهور؛ أى أو حملت حواياهما ، والألف واللام بدل من الإضافة . وعلى هـذا تكون الحوايا من جملة ما أحلّ . ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ «ما» فى موضع نصب عطف على «ما حملت» أيضا . هذا أصح ما قيل فيه . وهو قول الكسائى والفَرّاء وأحمد بن يحيى . والنظر يوجب أن يعطف الشىء على

(١) فى نسخ الأصل : « ... أظافير وأظافرة ؛ مثل ضاربة وضوارب ... » . فقوله : مثل ضاربة وضوارب زيادة من النساخ .

ما يليه، إلا ألّا يصح معنــاه أو يدل دليل على غير ذلك . وقيل : إن الاستثنــاء فى التحليل إنما هو ما حملت الظهور خاصّةً، وقوله «أو الحوايا أو ما اختلط بعظم» معطوف على المحرم . والمعنى : حرمت عليهم شحومهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم؛ إلا ما حملت الظهور فإنه غير محرّم . وقد آحتج الشافعىّ بهـذه الآية فى أن من حلف ألا يأكل الشحم حنِث بأكل شحم الظهور؛ لآستثناء الله عز وجل ما على ظهورهما من جملة الشحم .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ أَوِ الْحَوَايَا ﴾ الحوايا : المباعر؛ عن آبن عباس وغيره . وهو جمع مَبْعَر؛ سمى بذلك لاجتماع البَعْر فيه . وهو الزبل . وواحد الحوايا حاوياء؛ مثل قاصعاء وقواصـع . وقيل : حاوية مثـل ضاربة وضوارب . وقيل : حَوِيّة مثلُ سـفينة وسفائن . قال أبو عبيدة : الحوايا ما تَحَوّى من البطن أى اسـتدار . وهى مُنْحَوِية أى مستديرة . وقيل : الحوايا خزائن اللبن ، وتصل بالمباعر وهى المصارين . وقيـل : الحوايا الأمعاء التى عليها الشحوم . والحوايا فى غير هـذا الموضع : كساء يُحَوَّى حول سَنام البعير . قال آمرؤ القيس :

جعلْنَ حَوَايَا واقْتَعَدْنَ قعائدًا * وخفّفن من حَوْك العِراق المُنَمَّقِ

فأخبر الله سبحانه أنه كتب عليهم تحريم هذا فى التوراة ردًّا لكذبهم . ونصُّه فيها «حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وكلّ دابة ليست مشقوقة الحافر وكلّ حوت ليس فيه سفاسق» أى بياض . ثم نسخ الله ذلك كلّه بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم . وأباح لهم ما كان محرما عليهم من الحيوان، وأزال الحرج بمحمد عليه السلام، وألزم الخليقة دين الإسلام بحلّه وحِرْمه وأمره ونَهْيه .

الخامســـة — لو ذَبحوا أنعامهم فأكلوا ما أحلّ الله لهم فى التوراة وتركوا ما حَرّم فهل يحلّ لنا؛ قال مالك فى كتاب محمد : هى محرّمة . وقال فى سماع المبسوط : هى محللة، وبه قال آبن نافع . وقال آبن القاسم : أكرهه . وجه الأوّل أنهم يدينون بتحريمها ولا يقصدونها عند الذكاة؛ فكانت محرّمة كالدّم . ووجه الثانى وهو الصحيح أن الله عز وجل رفع ذلك التحريم بالإسلام، وآعتقادُهم فيه لا يؤثّر؛ لأنه آعتقاد فاسد؛ قاله آبن العربى .

قلت : و يدلّ على صحته ما رواه الصحيحان عن عبـد الله بن مُغَفَّل قال : كنا محاصرين قصر خَيْبَر، فرمى إنسان بجراب فيه شحم فَنَزَوْتُ[1] لآخذه فالتفتُّ فإذا النبيّ صلى الله عليه وسـلم فاستحيَيْتُ منه . لفظ البخاريّ . ولفظ مسلم : قال عبد الله بن مُغَفَّل : أصبت جرابا من شحم يومَ خَيْبر، قال : فالتزمته وقلت : لا أعطي اليوم أحدا من هـذا شيئا، قال : فالتفتُّ فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متبسما . قال علماؤنا : تبسّمه عليه السلام إنمـا كان لمـا رأى من شدّة حرص ٱبن مُغَفَّل على أخذ الجراب ومن ضنته به، ولم يأمره بطرحه ولا نهاه . وعلى جواز الأكل مذهب أبي حنيفة والشافعيّ وعامّة العلماء؛ غير أن مالكا كرهه للخـلاف فيه . وحكى ٱبن المنذر عن مالك تحريمها؛ وإليه ذهب كبراء أصحاب مالك . ومُتَمَسَّكهم ما تقدم، والحديثُ حجةٌ عليهـم؛ فلو ذبحوا كلّ ذى ظفر قال أَصْبَغ : ما كان محرّما في كتاب الله من ذبائحهم فلا يحلّ أكله؛ لأنهم يدينون بتحريمها . وقاله أشهب وٱبن القاسم، وأجازه ٱبن وهب . وقال ابن حبيب : ما كان محرّما عليهم، وعلمنا ذلك من كتابنا فلا يحلّ لنا من ذبائحهم، وما لم نعلم تحريمه إلا من أقوالهم واجتهادهم فهو غير محرّم علينا من ذبائحهم .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ ﴾ أى ذلك التحريم . فذلك في موضع رفع، أى الأمر ذلك . ﴿ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ ﴾ أى بظلمهم، عقوبة لهم لقتلهم الأنبياء وصدّهم عن سبيل الله، وأخذهم الربا واستحلالهم أموال الناس بالباطل . وفي هـذا دليل على أن التحريم إنمـا يكون بذنب لأنه ضيق فلا يُعْدَل عن السّعة إليه إلا عند المؤاخذة . ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ في أخبارنا عن هؤلاء اليهود عما حرّمنا عليهم من اللحوم والشحوم .

قوله تعـالى : فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

---

(١) النزو : الوثب .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ ﴾ شرط، والجواب « فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ » أى من سعة رحمته حَلُم عنكم فلم يعاقبكم فى الدنيا . ثم أخبر بما أعدّه لهم فى الآخرة من العذاب فقال: ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ وقيل : المعنى ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين إذا أراد حلوله فى الدنيا .

قوله تعالى : سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ قال مجاهد: يعنى كفار قريش . ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ يريد البَحِيرة والسّائبة والوصيلة . أخبر الله عز وجل بالغيب عما سيقولون؛ وظنوا أن هذا متمسَّكٌ لهم لما لزمتهم الحجة و تيقّنوا باطل ما كانوا عليه . والمعنى : لو شاء الله لأرسل إلى آبائنا رسولا فنهاهم عن الشِّرْك وعن تحريم ما أحلّ فينتهوا فأتبعناهم على ذلك . فردّ الله عليهم ذلك فقال : ﴿ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ أى أعندكم دليل على أن هذا كذا . ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ فى هــذا القول . ﴿ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ لتُوهِموا ضعفتكم أن لكم حجّة . « ولا آباؤنا » عطف على النون فى «أشركنا» . ولم يقل نحن ولا آباؤنا؛ لأن قوله «ولا » قام مقام توكيد المضمر؛ ولهذا حسن أن يقال : ماقمت ولا زيد .

قوله تعالى : قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَـةُ ﴾ أى التى تقطع عذر المحجوج ، وتزيل الشك عن من نظر فيها . فحجّته البالغة على هــذا تبيينه أنه الواحد، و إرسالُه الرسل والأنبياء؛ فبيّن التوحيد بالنظر فى المخلوقات، وأيد الرسل بالمعجزات، ولزم أمره كلّ مكلف . فأما علمه و إرادته

وكلامه فغيب لا يطّلع عليه العبد، إلا من ارتضى من رسول . و يكفى فى التكليف أن يكون العبد بحيث لو أراد أن يفعل ما أمر به لأمكنه . وقد لبّست المعتزلة بقوله «لو شاء الله ما أشركنا» فقالوا : قد ذم الله هؤلاء الذين جعلوا شركهم عن مشيئته . وتعلّقهم بذلك باطل؛ لأن الله تعالى إنما ذمّهم على ترك آجتهادهم فى طلب الحق . و إنما قالوا ذلك على جهة الهزء واللّعب . نظيره « وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ (١) » . ولو قالوه على جهة التعظيم والإجلال والمعرفة به لما عابهم ؛ لأن الله تعالى يقول : « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا » . و « مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ (٢) » . « وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٣) » . ومثله كثير . والمؤمنون يقولونه لعلم منهم بالله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠) ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ ﴾ أى قل لهؤلاء المشركين أحضروا شهداءكم على أن الله حرّم ما حرمتم . و « هلم » كلمة دعوة إلى شيء، و يستوى فيه الواحد والجماعة والذكر والأنثى عند أهل الحجاز، إلا فى لغة نجد فإنهم يقولون : هَلُمَّا هَلُمُّوا هَلُمِّى، يأتون بالعلامة كما تكون فى سائر الأفعال . وعلى لغة الحجاز جاء القرآن ، قال الله تعالى : « وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا (٤) » يقول : هلمّ أى أحضر وآدن . وهلّم الطعام، أى هاتِ الطعام . والمعنى ها هنا : هاتوا شهداءكم، وفتحت الميم لآلتقاء الساكنين ؛ كما تقول : رُدّ ياهذا، ولا يجوز ضمها ولا كسرها . والأصل عند الخليل « ها » ضُمّت إليها « لُمّ » ثم حذفت الألف لكثرة الاستعمال . وقال غيره : الأصل « هل » زيدت عليها « لُمّ » . وقيل : هى على لفظها تدل على معنى هات . وفى كتاب العيْن للخليل : أصلها هلْ أؤمّ ، أى هل أقصدك، ثم كثُر استعمالهم

(١) آية ٢٠ سورة الزخرف . (٢) آية ١٠٧، ١١١ من هذه السورة . (٣) آية ٩ سورة النحل .
(٤) آية ١٨ سورة الأحزاب .

إياها حتى صار المقصود يقولها ؛ كما أن يقال : أصلها أن يقولها المتعالى للتسافل ؛ فكثر استعمالهم إياها حتى صار المتسافل يقول للتعالى تعال .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ شَهِدُوا ﴾ أى شهد بعضهم لبعض ﴿فلا تَشْهَدْ معهم﴾ أى فلا تصدق أداء الشهادة إلا من كتاب أو على لسان نبيّ، وليس معهم شئ من ذلك .

قوله تعالى : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

فيه أربع عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ ﴾ أى تقدّموا وآقرءوا حقًّا يقينا كما أوحى إلىّ ربى، لا ظنًّا ولا كذبا كما زعمتم . ثم بيّن ذلك فقال : « أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » يقال للرجل : تعالَ ، أى تقدّم، وللرأة تعالَىْ ، وللاثنين والاثنتين تعاليا ، ولجماعة الرجال تعالَوْا ، ولجماعة النساء تعالَيْن ؛ قال الله تعالى : « فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ »[1] . وجعلوا التقدّم ضربا من التعالى

(١) آية ٢٨ سورة الأحزاب .

والارتفاع ، لأن المأمور بالتقدّم فى أصل وضع هــذا الفعل كأنه كان قاعدا فقيل له تعال ، أى ارفع شخصك بالقيام وتقدّم ، واتّسعوا فيه حتى جعلوه للواقف والماشى ؛ قاله ابن الشَّجَرِىّ .

الثانيــــة — قوله تعـالى : ﴿ مَا حَرَّم ﴾ الوجه فى « ما » أن تكون خبرية فى موضع نصب بأتل . والمعنى : تعالوا أتل الذى حرّمه ربكم عليكم ؛ فإن علّقت « عليكم » بـ « حرّم » فهو الوجه ؛ لأنه الأقرب وهو اختيار البصريين . وإن علقته بـ « أتل » فجيّد لأنه الأسبق ، وهو اختيار الكوفيين ؛ فالتقدير فى هــذا القول أتل عليكم الذى حرم ربكم . ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا ﴾ فى موضع نصب بتقدير فعل من لفظ الأوّل ، أى أتل عليكم ألا تشركوا ؛ أى أتل عليكم تحريم الإشراك . ويحتمل أن يكون منصــوبا بمــا فى « عليكم » من الإغراء ، وتكون « عليكم » منقطعة ممــا قبلها ؛ أى عليكم ترك الإشراك ، وعليكم إحسانا بالوالدين ، وألّا تقتلوا أولادكم وألّا تَقْرَبوا الفواحش . كما تقول : عليك شأنَك ؛ أى آلزم شأنك . وكما قال « عليكم أَنْفُسَكُم » قال جميعَه ٱبْنُ الشَّجَرِىّ . وقال النحاس : يجوز أن تكون « أن » فى موضع نصب بدلا من « ما » ؛ أى أتل عليكم تحريم الإشراك . وآختار الفَــرّاء أن تكون « لا » للنهى ؛ لأن بعده « ولا » .

الثالثــــة — هذه الآية أمر من الله تعالى لنبيّه عليه السلام بأن يَدْعُوَ جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرّم الله . وهكذا يجب على مَن بعده من العلماء أن يبلّغوا الناس ويبيّنوا لهم ما حرّم عليهم مما حلّ . قال الله تعالى : « لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ »[1] . وذكر ٱبن المبارك أخبرنا عيسى ابن عمر عن عمرو بن مرّة أنه حدّثهم قال : قال ربيع بن خُثَيْم[2] لجليس له : أيسرّك أن تؤتى بصحيفة من النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يُفَكّ خاتمها ؟ قال نعم . قال فآقرأ « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ » فقرأ إلى آخر الثلاث الآيات . وقال كعب الأحبار : هذه الآية مفتتح التوراة : "بسم الله الرحمن الرحيم قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم" الآية . وقال ابن عباس : هذه

(١) آية ١٨٧ سورة آل عمران . جـ ٤ ص ٣٠٥ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) قال صاحب تهذيب التهذيب : « فى التقريب (الربيع بن خثيم) بضم المعجمة وفتح المثلثة ، ولكن فى الخلاصة : بفتح المعجمة والمثلثة بينهما تحتانية ساكنة » .

الآيات المحكمات التى ذكرها الله فى سورة «آل عمران» أجمعت عليها شرائع الخلق، ولم تنسخ قط فى مِلّة . وقد قيل : إنها العشر كلمات المنزّلة على موسى .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ الإحسان إلى الوالدين برُّهما وحفظهما وصيانتهما وامتثال أمرهما وإزالة الرِّق عنهما وترك السّلطنة عليهما . و« إحسانا » نصب على المصدر، وناصبه فعل مضمر من لفظه؛ تقديره وأحسنوا بالوالدين إحسانا .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ الإملاق الفقر؛ أى لا تئِـدوا — من الموءودة — بناتِكم خشية العَيْلة ، فإنى رازقكم وإيّاهم . وقد كان منهـم من يفعل ذلك بالإناث والذكور خشية الفقر ، كما هو ظاهر الآية . أملق أى افتقر . وأملقه أى أفقره؛ فهو لازم ومتعد . وحكى النقاش عن مُؤَرِّج أنه قال : الإملاق الجوع بلغة لَخْم . وذكر منـذر بن سعيد أن الإملاق الإنفاق ؛ يقال : أملق ماله بمعنى أنفقه . وذُكر أن عليًّا قال لامرأته : أَمْلِقِي من مالك ماشئت . ورجل مَلِق يُعطِى بلسانه ما ليس فى قلبه . فالمَلَق لفظ مشترك بيانه فى موضعه .

السادســـة — وقد يستدلّ بهذا من يمنع العَزْل؛لأن الوَأْد يرفع الموجود والنَّسْل،والعزل منع أصل النسل فتشابها؛ إلا أن قتل النفس أعظم وِزْرا وأقبح فعلا؛ولذلك قال بعض علمائنا : إنه يفهم من قوله عليه السلام فى العزل : "ذلك الوأد الخفى" الكراهة لا التحريم . وقال به جماعة من الصحابة وغيرهم . وقال بإباحته أيضا جماعةٌ من الصحابة والتابعين والفقهاء؛ لقوله عليه السلام : "لا عليكم ألّا تفعلوا فإنما هو القَدَر" أى ليس عليكم جناح فى ألّا تفعلوا . وقد فَهِم منه الحسن ومحمـد بن مُثَنّى النَّهىَ والزَّجْرَ عن العزل . والتأويل الأول أَوْلى ؛ لقوله عليه السـلام : "وإذا أراد الله خلق شىء لم يمنعه شىء". قال مالك والشـافعىّ : لا يجوز العزل عن الحرّة إلا بإذنها . وكأنهم رأوا الإنزال من تمـام لذتها،ومن حقها فى الولد، ولم يروا ذلك فى الموطوءة بملك اليمين، إذ له أن يعزل عنها بغير إذنها؛ إذ لا حق لها فى شىء مما ذُكر.

السابعــة — قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ نظيره « وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ »(١) . فقوله : « ما ظهر » نهى عن جميع أنواع الفواحش وهى المعاصى . « وما بطن » ما عقد عليه القلب من المخالفة . وظَهر وبَطن حالتان تستوفيان أقسام ما جعلت له من الأشياء . و « ما ظهر » نصب على البدل من « الفواحش » . « وما بطن » عطف عليه .

الثامنــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ الألف واللام فى « النفس » لتعريف الجنس ؛ كقولهم : أهلك الناس حُبّ الدرهم والدينار . ومثله « إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا »(٢) ألا ترى قوله سبحانه « إِلَّا الْمُصَلِّينَ » وكذلك قوله : « وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ » لأنه قال : « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا » . وهذه الاية نهىٌ عن قتل النفس المحرّمة ، مؤمنةً كانت أو معاهدة إلا بالحق الذى يوجب قتلها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أمرت أن أقاتل النـاس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقـد عَصَمَ مالَه ونفسَه إلا بحقّه وحسابُهم على الله" . وهذا الحق أمور : منها منع الزكاة وترك الصلاة ؛ وقد قاتل الصـدّيق ما نعى الزكاة . وفى التنزيل « فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ »(٣) وهذا بيّن . وقال صلى الله عليه وسلم: "لا يحلّ دمُ آمرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة" . وقال عليه السلام : "إذا بُويع لخليفتين فآقتلوا الآخرَ منهما"(٤) . أخرجه مسلم . وروى أبو داود عن آبن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فآقتلوا الفاعل والمفعول به" . وسيأتى بيان هذا فى « الأعراف »(٥) . وفى التنزيل : « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا »(٦) . وقال : « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا »(٧) الآية . وكذلك من شقّ عصا المسلمين وخالف إمامَ جماعتهم وفرّق كلمتهم وسعى فى الأرض فسادا بانتهاب الأهل والمـال والبَغْى على السلطان والامتناع من حكمه يُقتَل . فهذا معنى قوله « إلا بالحق » .

(١) آية ١٢٠ من هذه السورة . (٢) آية ١٩ سورة المعارج . (٣) آية ٥ سورة التوبة .
(٤) أى فادفعوا الآخر بالقتل اذا لم يمكن دفعه بدونه . (٥) راجع المسألة الثانية فى قوله تعالى : « ولوطا اذ قال لقومه ...» آية ٨٠ (٦) آية ٣٣ سورة المائدة . (٧) آية ٩ سورة الحجرات .

وقال عليه السلام : "المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمّتهم أدناهم لا يُقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد فى عهده ولا يتوارث أهل ملّتين". وروى أبو داود والنَّسائى عن أبى بَكْرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من قتل مُعاهَدا فى غير كُنْهِه[1] حرّم الله عليه الجنة" . وفى رواية أخرى لأبى داود قال : " مَن قتل رجلا من أهـل الذمة لم يجد ريح الجنة وإنّ ريحها ليوجد من مسيرة سبعين عاما" . فى البخارى فى هذا الحديث "وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما" . خرّجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاصى .

التاســـعة — قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى هذه المحرّمات. والكاف والميم للخطاب، ولا حظّ لها من الإعراب . ﴿وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ الوصِيّة الأمر المؤكد المقدور . والكاف والميم محله النصب؛ لأنه ضمير موضوع للمخاطبة. وفى وصّى ضمير فاعل يعود على الله. روى مطر الوراق عن نافع عن ٱبن عمر أن عثمان بن عفان رضى الله عنه أشرف على أصحابه فقال : عَلَامَ تقتلونى! فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لا يحلّ دَمُ رجل مسلم إلا بإحدى ثلاث رجل زنى بعد حصانة فعليه الرجم أو قتل عمدا فعليه القَوَد أو ٱرتدّ بعد إسلامه فعليه القتل" فوالله ما زنيتُ فى جاهلية ولا إســلام ، ولا قتلتُ أحدا فأقيد نفسى به ، ولا ٱرتددت منذ أسلمت ، إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمــدا عبده ورســوله ، ذلكم الذى ذكرت لكم وصاكم به لعلكم تعقلون !

العاشــــرة — قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أى بما فيه صلاحه وتثميره، وذلك بحفظ أصوله وتثمير فروعه. وهذا أحسن الأقوال فى هذا؛ فإنه جامع. قال مجاهد : « وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ اليتيم إِلَّا بالتى هى أَحْسَنُ » بالتجارة فيه، ولا تشترى منه ولا تستقرض .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ يعنى قوّته ، وقد تكون فى البدن ، وقد تكون فى المعرفة بالتجربة ، ولا بُدّ من حصول الوجهين؛ فإن الأَشُدّ وقعت هنا مطلقة .

(١) كنه الأمر : حقيقته . وقيل : وقته وقدره . وقيل : غايته ؛ يعنى من قتله فى غير وقته أو غاية أمره الذى يجوز فيه قتله . (عن ابن الأثير) .

وقد جاء بيان حال اليتيم فى سورة « النساء » مقيدة، فقال : « وَٱبْتَلُوا ٱلْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا[(١)] » فجمع بين قوة البدن وهو بلوغ النكاح وبين قوة المعرفة وهو إيناس الرشد ؛ فلو مُكِّن اليتيم من ماله قبل حصول المعرفة وبعدَ حصول القوة لأذهبه فى شهواته وبقِيَ صُعْلوكا لا مال له . وخصّ اليتيم بهذا الشرط لغفلة الناس عنه وٱفتقادِ الآباء لأبنائهم فكان الٱهتبال[(٢)] بفقيد الأب أوْلى . وليس بلوغ الأَشُدّ مما يبيح قُرْب ماله بغير الأحسن؛ لأن الحرمة فى حق البالغ ثابتة . وخصّ اليتيم بالذكر لأن خصمه الله . والمعنى : ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن على الأبد حتى يبلغ أشده . وفى الكلام حذف؛ فإذا بلغ أشدّه واونس منه الرشد فٱدفعوا إليه ماله . وٱختلف العلماء فى أَشُدّ اليتيم؛ فقال ابن زيد : بلوغه . وقال أهل المدينة . بلوغه وإيناس رشده . وعند أبى حنيفة : خمس وعشرون سنة . قال ابن العربىّ : وعجبا من أبى حنيفة، فإنه يرى المقدّرات لا تثبت قياسا ولا نظرا وإنما تثبت نقلا، وهو يثبتها بالأحاديث الضعيفة، ولكنه سكن دار الضَّرْب فكثر عنده المُدَلَّس، ولو سكن المعدن كما قيض الله لمالك لما صدر عنه إلا إبريز الدِّين[(٣)] . وقد قيل : إن ٱنتهاء الكهولة فيها مُجْتَمع الأَشُدّ، كما قال سُحيم بن وَثيل :

أخُو خمسين مُجْتَمِـع أَشُدِّى * ونَجّـذَنِى مداورة الشئون[(٤)]

يروى « نجذنى » بالدال والذال . والأَشُدّ واحد لا جمع له ؛ بمنزلة الآنُك وهو الرَّصاص . وقد قيل : واحده شَدّ؛ كفَلْس وأفْلُس . وأصله من شدّ النهار أى ٱرتفع؛ يقال : أتيته شدّ النهار ومدّ النهار . وكان محمد بن محمد الضَّبىّ يُنشد بيت عنترة :

عَهْـدِى به شَـدّ النهار كأنما * خُضِبَ اللَّبانُ ورأسُـه بالعِظْلِمِ[(٥)]

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٣ طبعة أولى أو ثانية . (٢) كذا فى الأصول . ولعلها : « الاهتمام » .
(٣) يريد بدار الضرب : بغداد . والمعدن : معدن الشريعة ومنجمها وهى المدينة المنورة . (٤) رجل منجذ (بالدال والذال) : جرب الأمور وعرفها وأحكمها . ومداورة الشئون : مداولة الأمور ومعالجتها .
(٥) اللبان (بفتح اللام) : الصدر . ويروى : « البنان » والعظلم (بكسر العين واللام وسكون الظاء) : صبغ أحمر، وقيل هو الوسمة ، شجر له ورق يختضب به .

آخـــر :

تُطيف شَـــدّ النهـار ظَعينةٌ * طويلةُ أنقـاءِ اليدَيْن سَحُوقُ[1]

وكان سيبويه يقول : واحده شِـدّة . قال الجوهرى : وهو حَسَن فى المعنى ؛ لأنه يقال : بلغ الغلام شِدّته ، ولكن لا تجمع فِعْلة على أفعُل ، وأما أنعُم فإنما هو جمع نُعْم ؛ من قولهم : يوم بُؤْس و يوم نُعْم . وأما قول من قال : واحده شَدّ ؛ مثل كَلْب وأكلب ، وشِدّ مثل ذِئب وأذؤب فإنمـا هو قياس ، كما يقولون فى واحد الأبابيل : إبّوْل ، قياسا على عِجَّوْل ، وليس هو شـيئا سُمِع من العرب . قال أبو زيد : أصابتنى شُـدّى على فُعْلى ؛ أى شِدّة . وأشَـدّ الرجل إذا كانت معه دابة شديدة .

الثانية عشرة ـــ قوله تعالى : ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أى بالاعتدال فى الأخذ والعطاء عند البيع والشراء . والقِسط : العدل . ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أى طاقتها فى إيفاء الكيل والوزن . وهذا يقتضى أن هذه الأوامر إنمـا هى فيما يقع تحت قُدرة البشر من التحفظ والتحرّز . وما لا يمكن الاحتراز عنه من تفاوت ما بين الكيْلين ، ولا يدخل تحت قُدرة البشر فمعفوٌّ عنه . وقيـل : الكيل بمعنى المِكْيَال . يقال : هـذا كذا وكذا كَيْلا ؛ ولهـذا عطف عليه بالميزان . وقال بعض العلماء : لمّـا علم الله سبحانه من عباده أن كثيرا منهم تَضيق نفسُه عن أن تَطيب للغير بمـا لا يجب عليهـا له أمر المعطى بإيفاء ربّ الحق حقّه الذى هو له ، ولم يكلفه الزيادةَ ؛ لمـا فى الزيادة عليه من ضيق نفسه بها . وأمر صاحبَ الحقّ بأخذ حقه ولم يكلفه الرضا بأقلّ منه ؛ لمـا فى النقصان من ضيق نفسه . وفى موطأ مالك عن يحيى بن سعيد أنه بلغه عن عبد الله بن عباس أنه قال : ما ظهر الغلول فى قوم قطّ إلا ألقى الله فى قلوبهم الرّعب ، ولا فشا الزنى فى قوم إلا كَثُر فيهم الموت ، ولا نقص قوم المِكيال والميزان إلا قطع عنهم الرزق ، ولا حَكم قوم بغير الحق إلا فشا فيهم الدّم ، ولا خَتَر قوم بالعهد إلا سلّط عليهـم الله العـدّو . وقال ٱبن عباس أيضا : إنكم معشرَ الأعاجم قـد وُليتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم .

(١) السحوق : المرأة الطويلة .

الثالثة عشرة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾ يتضمن الأحكام والشهادات .
﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ أى ولو كان الحق على مثل قرابتكم ؛ كما تقدّم فى «النساء»(١) . ﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا ﴾ عامّ فى جميع ما عهد الله إلى عباده . ويحتمل أن يراد به جميع ما عقد بين إنسانين .
وأضيف ذلك العهد إلى الله من حيث أمر بحفظه والوفاء به . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ تتّعظون .

الرابعة عشرة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ هذه آية عظيمة عطفها على ما تقدّم ؛ فإنه لما نهى وأمر حذّر هنا عن ٱتباع غير سبيله ، فأمر فيها بٱتباع طريقه على ما نبينه بالأحاديث الصحيحة وأقاويل السلف . « وأنّ » فى موضع نصب ، أى وأتل أن هذا صراطى ؛ عن الفرّاء والكسائى . قال الفرّاء : ويجوز أن يكون خفضا ، أى وصّاكم به وبأن هذا صراطى . وتقديرها عند الخليل وسيبويه : ولأن هذا صراطى ؛ كما قال : « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ »(٢) وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى « وإنّ هذا » بكسر الهمزة على الاستئناف ؛ أى الذى ذكر فى هذه الآية صراطى مستقيما . وقرأ ٱبن أبى إسحاق ويعقوب «وأنْ هذا» بالتخفيف . والمخفّفة مثل المشدّدة ، إلا أن فيه ضمير القصة والشأن ؛ أى وأنه هذا . فهى فى موضع رفع . ويجوز النصب . ويجوز أن تكون زائدة للتوكيد ؛ كما قال عز وجل : « فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ »(٣) . والصراط : الطريق الذى هو دين الإسلام .
﴿ مُسْتَقِيمًا ﴾ نصب على الحال ، ومعناه مستويًا قويما لا ٱعوجاج فيه . فأمر بٱتباع طريقه الذى طرقه على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وشرعه ونهايتُه الجنة . وتشعّبت منه طرق فمن سلك الجادّة نجا ، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أى تميل . روى الدّارمىّ أبو محمد فى مسنده بإسناد صحيح : أخبرنا عفان حدّثنا حماد بن زيد حدّثنا عاصم بن بَهْدَلة عن أبى وائل عن عبد الله ابن مسعود قال : خطّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما خطا ، ثم قال : " هذا سبيل

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٤١٠ طبعة أولى أو ثانية .　　(٢) آية ١٨ سورة الجن .
(٣) آية ٩٦ سورة يوسف .

الله" ثم خطّ خطوطا عن يمينه وخطوطا عن يساره ثم قال " هذه سُبُلٌ على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها" ثم قرأ هذه الآية . وأخرجه ابن ماجه فى سننه عن جابر عن عبد الله قال: كنا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فخطّ خطًّا، وخطّ خطّين عن يمينه، وخط خطين عن يساره، ثم وضع يده فى الخط الأوسط فقال: "وهذا سبيل الله — ثم تلا هذه الاية — وأن هـذا صِراطِى مستقيما فاتبعوه ولا تَتّبعوا السُّبُلَ فتفرّق بكم عن سبيله ". وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر أهل الملـل وأهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ فى الفروع، وغير ذلك من أهـل التعمُّق فى الجدل والخوض فى الكلام . هذه كلّها عرضة للزلل، ومظِنة لسوء المعتقد؛ قاله ابن عطية .

قلت : وهو صحيح . ذكر الطبرى فى كتاب أدب النفوس : حدّثنا محمد بن عبد الأعلى الصّنعانى قال حدّثنا محمد بن ثَور عن معمر عن أبَان أن رجلا قال لابن مسعود : ما الصراط المستقيم ؟ قال : تَركَنا محمد صـلى الله عليه وسـلم فى أدناه وطرفُه فى الجنة ، وعن يمينه جَوَادّ[1] وعن يساره جوادّ، وثَمّ رجال يدعون من مَرّ بهم فمن أخذ فى تلك الجوادّ انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط آنتهى به إلى الجنة، ثم قرأ ابن مسعود : «وأن هذا صراطى مستقيما» الآية . وقال عبد الله بن مسعود : تعلّموا العـلم قبل أن يُقبض، وقبضه أن يذهب أهله . ألا وإياكم والتّنطّع والتعمّق والبدع، وعليكم بالعتيق[2] . أخرجه الدّارمىّ . وقال مجاهد فى قوله «ولا تَتّبعوا السُّبُلَ» قال: البدع . قال ابن شهاب: وهذا كقوله تعالى: «إنّ الّذين فرّقوا دِينَهم وكانُوا شِيَعًا»[3] الا ية . فالهَرَبَ الهربَ، والنّجاءَ النجاءَ ! والتمسُّك بالطريق المستقيم والسّنن القويم، الذى سلكه السلف الصالح، وفيه المتجر الرابح . روى الأئمة عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أمرتكم به فخذوه وما نهيتكم عنه فانتهوا " . وروى ابن ماجه وغيره عن العِرْباض بن سَارِية قال : وَعَظَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظةً ذَرَفت

---

(١) الجوادّ (بتشديد الدال) : الطرق، واحدها جادّة، وهى سواء الطريق . وقيل معظمه . وقيل وسطه .

(٢) العتيق : القديم . (٣) آية ١٥٩ من هذه السورة .

منها العيون، ووَجِلَت منها القلوب؛ فقلنا : يا رسول الله، إن هذه لموعظةُ مودّع، فما تَعْهَد إلينـا ؟ فقال : "قد تركتم على البيضاء[(1)] ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بمـا عرفتم من سنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين بعدى عَضُّوا عليهـا بالنواجذ وإياكم والأمورَ المحدَثات فإن كلّ بدعة ضـلالة وعليكم بالطاعة وإنْ عبـدًا حبشيًّا فإنمـا المؤمن كالجَمَل الأَنِف[(2)] حيثما قِيد آنقاد" أخرجه الترمذى بمعناه وصححه .

وروى أبو داود قال حدّثنا ابن كَثير قال أخبرنا سفيان قال : كتب رجل إلى عمر بن عبد العزيز يسأله عن القدر؛ فكتب : أما بعـد ، فإنى أوصيك بتقوى الله والاقتصاد فى أمره واتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وترك ما أحدث المحدِثون بعد ما جرت به سنّتُه ، وكُفُوا مؤونتـه . فعليك بلزوم الجماعة فإنها لك بإذن الله عصمة . ثم اعلم أنه لم يبتدع الناسُ بدعةً إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها أو عبرةٌ فيها ؛ فإن السنة إنما سنّها من قد علم ما فى خلافها من الخطأ والزلل، والحمق والتعمق؛ فارض لنفسك ما رضى به القوم لأنفسهم؛ فإنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، وإنهم على كشف الأمور كانوا أقوى، وبفضل ما كانوا فيه أولى. فإن كان الهُدَى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه. ولئن قلتم إنما حدث بعدَهم فما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم ورَغِب بنفسه عنهم ؛ فإنهم هم السابقون، قد تكلّموا فيه بما يكْفِى ووصفوا ما يَشْفِى؛ فما دونَهم من مقصر، وما فوقهم من مجسر. وقد قصر قوم دونهم فجَفَوْا، وطمَح عنهم أقوام فغَلَوْا وإنهم مع ذلك لَعَلَى هُدًى مستقيم . وذكر الحديث . وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِىّ : عليكم بالاقتداء بالأثر والسنة ، فإنى أخاف أنه سـيأتى عن قليل زمانٌ إذا ذَكر إنسانٌ النبىّ صلى الله عليه وسلم والاقتداءَ به فى جميع أحواله ذَمّوه ونفروا عنه وتبرءوا منه وأذلّوه وأهانوه . قال سهل : إنما ظهرت البدعة على يدى أهل السنة لأنهم ظاهروهم وقاولوهم؛ فظهرت أقاويلهم وفَشَت فى العـامّة فَسمِعه من لم يكن يسـمعه؛ فلو تركوهم ولم يكلموهم

---

(١) البيضاء . يريد صلى الله عليه وسلم الملة والحجة الواضحة التى لا تقبل الشبه أصلا .

(٢) الأنف (ككتف) : المأنوف ، وهو الذى عقر الخشاش أنفه ؛ فهو لا يمتنع على قائده للوجع الذى به . وقيل : الأنف الذلول .

لمـات كل واحد منهم على ما فى صدره ولم يظهر منه شيء وحمله معه إلى قبره . وقال سهل : لا يُحدث أحدكم بدعةً حتى يحدث له إبليس عبادة فيتعبد بها ثم يُحدث له بدعة ، فإذا نطق بالبدعة ودعا الناس إليها نزع منه تلك الخـدمة . قال سهل : لا أعلم حديثا جاء فى المبتدعة أشدّ من هذا الحديث: "حجب الله الجنة عن صاحب البدعة". قال : فاليهوديّ والنّصرانيّ أرجى منهم. قال سهل: من أراد أن يكرم دينه فلا يدخل على السلطان، ولا يخْلُوَنّ بالنسوان، ولا يخاصِمنّ أهـل الأهواء . وقال أيضا : اتبِعوا ولا تبتدعوا ، فقـد كُفيتم . وفى مسـند الدّارِميّ: إن ابا موسى الأشعرى جاء إلى عبد الله بن مسعود فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إنى رأيت فى المسجد آنفا شيئا أنكرته ولم أر والحمد لله إلا خيرا ! قال : فما هو ؟ قال: إن عشتَ فستراه، قال : رأيتُ فى المسجد قوما حِلَقًا حِلَقًا جلوسا ينتظرون الصلاة ؛ فى كل حَلْقة رجل وفى أيديهم حَصًى فيقول لهم: كَبِّروا مائة؛ فيكبرون مائة . فيقول: هَلِّلوا مائة فيهلّلون مائة . ويقول : سبّحوا مائة فيسبحون مائة . قال : فمـاذا قلتَ لهم ؟ قال : ما قلتُ لهم شيئا ؛ انتظارَ رأيك وانتظار أمرك . قال : أفلا أمرتهم أن يَعُـدّوا سيئاتهم وضَمِنت لهم ألّا يضيع من حسناتهم . ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حَلْقة من تلك الحِلَق ؛ فوقف عليهم فقال : ما هذا الذى تصنعون ؟ قالوا : يا أبا عبد الرحمن، حَصًى نَعُدّ به التكبير والتهليل . قال : فعُدّوا سيئاتكم وأنا ضامن لكم ألّا يضيع من حسناتكم شيء . ويحكم يا أمّة محمد ! ما أسرعَ هلَكَتكم . أوَ مُفْتَتِحِي باب ضلالة (١) ! قالوا : والله يا أبا عبـد الرحمن ، ما أردنا إلا الخير . فقال : وكم من مريد للخير لن يصيبه . وعن عمر بن عبـد العزيز وسأله رجل عن شيء من أهْـل الأهواء والبدع ؛ فقال : عليك بدين الأعراب والغلام فى الكُتّاب ، واْلْه عمّا سِوَى ذلك . وقال الأوزاعى قال إبليس لأوليائه : مِن أيّ شيء تأتون بنى آدم؟ فقالوا : من كل شيء . قال : فهل تأتونهم من قبل الاستغفار ؟ قالوا : هيهات! ذلك شيء قُرِن بالتوحيد .

(١) كذا فى الأصول . والذى فى سنن الدرامى المطبوعة والمخطوطة : « ... ما أسرع هلكتكم . هؤلاء صحابة نبيكم صلى الله عليه وسلم متوافرون ، وهذه ثيابه لم تبل ، وآنيته لم تكسر . والذى نفسى بيده إنكم لعلى ملة هى أهدى من ملة محمد . أو مفتتحي باب ... » الخ . وقد كتب على هامش المطبوع : « أو مفتتح » بغير ياء .

قال : لأبثّن فيهم شيئا لا يستغفرون الله منـه . قال : فبَثّ فيهم الأهواء . وقال مجاهـد : ولا أدرى أىّ النعمتين علىّ أعظم إن هـدانى للإسلام ، أو عافانى من هـذه الأهواء . وقال الشعبى : إنمـا سُمُّوا أصحاب الأهواء لأنهم يهوون فى النار . كله عن الدارمىّ . وسئل سهل بن عبـد الله عن الصـلاة خلف المعـتزلة والنكاح منهم وتزويجهم . فقـال : لا ، ولا كرامة ! هم كفار ، كيف يؤمن من يقـول : القرآن مخلوق ، ولا جنـة مخلوقة ولا نار مخلوقة ، ولا لله صراط ولا شـفاعة ، ولا أحد من المؤمنين يدخل النـار ولا يخرج من النار من مذنبى أمة محمد صـلى الله عليه وسـلم ، ولا عذاب القـبر ولا منكر ولا نكير ، ولا رؤية لربنا فى الآخرة ولا زيادة ، وأنّ علم الله مخلوق ، ولا يَرون السلطان ولا جمعة ، ويكفّرون من يؤمن بهـذا . وقال الفُضيل بن عِياض : من أحبّ صاحب بدعة أحبط الله عمله ، وأخرج نور الإسلام من قلبه . وقد تقدّم هـذا من كلامه وزيادة . وقال سفيان الثَّوْرىّ : البدعة أحبّ إلى إبليس من المعصية ؛ المعصية يتاب منها ، والبدعة لا يتاب منها . وقال ابن عباس : النظر إلى الرجل من أهل السنة يدعو إلى السُّنّة وينهى عن البدعة ، عبادةٌ . وقال أبو العالية : عليكم بالأمر الأوّل الذى كانوا عليـه قبل أن يفترقوا . قال عاصم الأَحْوَل : فحدّثت به الحسن فقال : قـد نصحك والله وصـدَقك . وقد مضى فى «آل عمران» معنى قوله عليـه السلام : "تفرقت بنو إسرائيل على ثنتين وسبعين ملّة وأن هـذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين" . الحديثَ[1] . وقد قال بعض العلماء العارفين : هذه الفرقة التى زادت فى فرق أمة محمد صلى الله عليه وسلم هم قوم يعادون العلماء ويبغضون الفقهاء ، ولم يكن ذلك قَطّ فى الأمم السالفة . وقـد روى رافع بن خَديج أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "يكون فى أمتى قوم يكفرون بالله وبالقـرآن وهم لا يشـعرون كما كفرت اليهود والنصارى" . قال فقلت : جُعلت فداك يا رسول الله ! كيف ذاك ؟ قال : "يُقرّون ببعض ويكفرون ببعض" . قال قلت : جُعلت فداك يارسول الله ! وكيف يقولون ؟ قال : "يجعلون إبليس عدلًا لله فى خلقه

---

(١) راجع جـ ٤ ص ١٥٩ طبعة أولى أو ثانية .

وقوته ورزقه ويقولون الخير من الله والشر لإبليس " . قال : فيكفرون بالله ثم يقرءون على ذلك كتاب الله، فيكفرون بالقرآن بعد الإيمان والمعرفة ؟ قال : " فما تلقى أمتى منهم من العداوة والبغضاء والجدال أولئك زنادقة هذه الأمة " . وذكر الحديث . ومضى فى «النساء» وهذه السورة النَّهْىُ عن مجالسة أهل البدع والأهواء، وأن من جالسهم حكمه حكمهم فقال : « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا » (١) الآية . ثم بيّن فى سورة «النساء» وهى مدنية عقوبة من فعل ذلك وخالف ما أمر الله به فقال : « وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ » (٢) الآية . فألحق من جالسهم بهم . وقد ذهب إلى هذا جماعة من أئمة هذه الأمة وحكم بموجب هذه الآيات فى مجالس أهل البدع على المعاشرة والمخالطة منهم أحمد بن حنبل والأوزاعى وابن المبارك فإنهم قالوا فى رجل شأنه مجالسة أهل البدع قالوا : يُنْهى عن مجالستهم، فإن انتهى وإلا ألحق بهم. يعنون فى الحكم . وقد حمل عمر بن عبد العزيز الحدّ على مجالسة شَرَبة الخمر، وتلا « إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ » . قيل لهم : فإنه يقول إنى أجالسهم لأباينهم وأردّ عليهم . قالوا : يُنْهى عن مجالستهم، فإن لم ينته ألحق بهم .

قوله تعالى : ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ مفعولان . ﴿تَمَامًا﴾ مفعول من أجله أو مصدر . ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ قرئ بالنصب والرفع. فمن رفع — وهى قراءة يحيى بن يَعْمَر وابن أبى إسحاق — فعلى تقدير : تماما على الذى هو أحسنُ . قال المَهْدَوِىّ : وفيه بعدٌ من أجل حذف المبتدأ العائد على الذى. وحكى سيبويه عن الخليل أنه سمع « ما أنا بالذى قائل لك شيئا » . ومن نصب فعلى أنه فعل ماض داخل فى الصِّلة؛ هذا قول البصريين . وأجازا الكسائى والفرّاء

(١) آية ٦٨ من هذه السورة . (٢) آية ١٤٠ راجع جـ ٥ ص ٤١٧ طبعة أولى أو ثانية .

أن يكون اسما نعتا للذى . وأجازا « مررت بالذى أخيك » ينعتان الذى بالمعرفة وما قاربها. قال النحاس : وهذا محال عند البصريين ؛ لأنه نعت للاسم قبل أن يتم ، والمعنى عندهم : على المحسنين. قال مجاهد : تماما على المحسن المؤمن . وقال الحسن فى معنى قوله « تماما على الذى أحسن » كان فيهم محسن وغير محسن ؛ فأنزل الله الكتاب تماما على المحسنين. والدليل على صحة هذا القول أن ابن مسعود قرأ « تماما على الذين أحسنوا » . وقيل : المعنى أعطينا موسى التوراة زيادة على ما كان يُحسنه موسى مما كان علّمه الله قبل نزول التوراة عليه . قال محمد بن يزيد : فالمعنى « تماما على الذى أحسن » أى تماما على الذى أحسنه الله عز وجل إلى موسى عليه السلام من الرسالة وغيرها . وقال عبد الله بن زيد : معناه على إحسان الله تعالى إلى أنبيائه عليهم السلام . وقال الربيع بن أنس : تماما على إحسان موسى من طاعته لله عز وجل ؛ وقاله الفراء . ثم قيل : « ثُمّ » يدلّ على أن الثانى بعد الأول ، وقصة موسى صلى الله عليه وسلم وإتيانه الكتاب قبل هذا ؛ فقيل : « ثم » بمعنى الواو ؛ أى وآتينا موسى الكتاب ، لأنهما حرفا عطف . وقيل : تقدير الكلام ثم كنا قد آتينا موسى الكتاب قبل إنزالنا القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : المعنى قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ، ثم أتل ما آتينا موسى تماما . ﴿ وَتَفْصِيلًا ﴾ عطف عليه . وكذا «وَهُدًى وَرَحْمَةً» . ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ﴾ إبتداء وخبر . ﴿أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ نعت ؛ أى كثير الخيرات . ويجوز فى غير القرآن «مباركًا» على الحال . ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ أى اعملوا بما فيه . ﴿ وَاتَّقُوا ﴾ أى اتقوا تحريفه . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أى لتكونوا راجين للرحمة فلا تُعذّبون .

قوله تعالى : أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَنْ تَقُولُوا ﴾ فى موضع نصب . قال الكوفيون . لئلا تقـولوا . وقال البصريون : أنزلناه كراهية أن تقولوا . وقال الفراء والكسائى : المعنى فاتقوا أن تقولوا يأهل مكة . ﴿ إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ ﴾ اى التوراة والإنجيل . ﴿ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ أى على اليهـود والنصارى ، ولم ينزل علينا كتاب . ﴿ وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴾ أى عن تلاوة كتبهم وعن لغاتهم . ولم يقل عن دراستهما ؛ لأن كل طائفة جماعة . ﴿ أَوْ تَقُولُوا ﴾ عطف على « أَنْ تَقُولُوا » . ﴿ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ ﴾ أى قـد زال العذر بمجىء محمد صلى الله عليه وسلم . والبينة والبيان واحد ؛ والمراد محمد صلى الله عليه وسلم، سماه سبحانه بينة . ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ أى لمن آتبعــه . ثم قال : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أى فإن كذبتم فلا أحد أظلم منكم . ﴿ صَـدَفَ ﴾ أعرض، و ﴿ يَصْدِفُونَ ﴾ يعرضون . وقد تقدّم [1] .

قوله تعـالى : هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ معناه أقمت عليهم الحجة وأنزلت عليهم الكتاب فلم يؤمنوا، فماذا ينتظرون . ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ أى عند الموت لقبض أرواحهم . ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ قال ابن عباس والضحاك : أمْرُ ربّك فيهـم بالقتل أو غيره ، وقد يذكر المضاف إليــه والمراد به المضاف ؛ كقوله تعالى : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ » [2] يعنى أهـل القرية . وقوله « وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ » [3] أى حُبّ العجل . كذلك هنا : يأتى أمر ربك، أى عقوبة ربّك وعذاب ربّك . ويقال : هذا من المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله . وقد تقدّم القول

(١) راجع آية ٤٦ من هذه السورة فى الجزء السابق . (٢) آية ٨٢ سورة يوسف .
(٣) راجع جـ ٢ ص ٣١ طبعة ثانية .

فى مثله فى « البقرة » وغيرها . ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ قيل : هو طلوع الشمس من مغربها . بيّن بهذا أنهم يُمْهَلون فى الدنيا فإذا ظهرت الساعة فلا إمهال . وقيل : إتيانُ الله تعالى مجيئُه لفصل القضاء بين خلقه فى موقف القيامة؛ كما قال تعالى: «وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا»[(1)]. وليس مجيئه تعالى حركة ولا انتقالا ولا زوالا ؛ لأن ذلك إنما يكون إذا كان الجائى جسما أو جوهرا . والذى عليه جمهور أئمة أهل السنة أنهم يقولون : يجيء و ينزل و يأتى . ولا يُكَيِّفون ؛ لأنه « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»[(2)] . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاث إذا خرجْنَ لا ينفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا : طلوعُ الشمس من مغربها والدّجالُ ودابّةُ الأرض " . وعن صَفْوان بن عَسّال المُرَادِىّ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن بالمغرب بابا مفتوحًا للتوبة مسيرة سبعين سنة لا يُغْلَق حتى تطلع الشمس من نحوه" . أخرجه الدّارَقُطْنِىّ والتِّرمذىّ وقال : هذا حديث حسن صحيح . وقال سفيانُ[(3)] : قِبل الشام، خلقه الله يوم خلق السموات والأرض . " مفتوحا " يعنى للتوبة لا يُغلق حتى تطلع الشمس منه . قال : حديث حسن صحيح .

قلت : وكذّب بهذا كله الخوارجُ والمعتزلة كما تقدّم . وروى ابن عباس قال : سمعت عمر بن الخطاب فقال[(4)] : أيها الناس، إن الرَّجْم حق فلا تُخْدَعُنّ عنه، وإن آية ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رَجَم، وأن أبا بكر قد رَجَم، وأنّا قد رجمنا بعدهما ، وسيكون قوم من هذه الأمة يكذّبون بالرَّجْم ، ويكذّبون بالدّجال، ويكذّبون بطلوع الشمس من مغربها، ويكذبون بعذاب القبر، ويكذبون بالشفاعة ، ويكذبون بقوم يخرجون من النار بعد ما آمْتَحَشُوا[(5)] . ذكره أبو عمر . وذكر الثعلبىّ فى حديث فيه طول عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله

---

(1) آية ٢٢ سورة الفجر . (2) آية ١١ سورة الشورى .
(3) سفيان : أحد رجال سند هذا الحديث . (4) كذا فى الأصول . والذى فى الدر المنثور : « ... خطبنا عمر فقال ... » . (5) امتحشوا : احترقوا . والمحش : احتراق الجلد وظهور العظم . ويروى : « آمتُحشوا » على ما لم يسم فاعله .

عليه وسلم ما معناه : أن الشمس تُحبس عن الناس — حين تكثر المعاصى فى الأرض، و يذهب المعروف فلا يأمر به أحد، و يفشو المنكر فلا يُنْهَى عنه — مقدار ليلة تحت العرش ، كلما سجدتْ وآستأذنت ربّها تعالى من أين تطلع لم يجئ لها جواب حتى يوافيها القمرُ فيسجد معها ، و يستأذن من أين يطلع فلا يُجاء إليهما جواب حتى يُحبسا مقدارَ ثلاث ليال للشمس وليلتين للقمر ، فلا يعرف طول تلك الليلة إلا المتهجّدون فى الأرض ، وهم يومئذ عصابة قليلة فى كل بلدة من بلاد المسلمين . فإذا تمّ لهما مقدار ثلاث ليال أرسل الله تعالى إليهما جبريلَ عليه السلام فيقول : "إن الربّ سبحانه وتعالى يأمركما أن ترجعا إلى مغاربكما فتطلعا منه ، وأنه لا ضوء لكما عندنا ولا نور" فيطلعان من مغاربهما أسودين ، لا ضوء للشمس ولا نور للقمر ، مثلهما فى كسوفهما قبل ذلك . فذلك قوله «وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ»[1] وقوله «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ»[2] فيرتفعان كذلك مثل البعيرين المقرونين ؛ فإذا ما بلغ الشمس والقمر سُرّة السماء وهى منصفها جاءهما جبريل فأخذ بقرونهما وردّهما إلى المغرب ، فلا يغربهما من مغاربهما ولكن يغربهما من باب التوبة ثم يردّ المصراعين ، ثم يلتئم ما بينهما فيصير كأنه لم يكن بينهما صَدْع . فإذا أغلق باب التوبة لم تقبل لعبْد بعد ذلك توبة ، ولم تنفعه بعد ذلك حسنة يعملها ؛ إلا من كان قبل ذلك محسنا فإنه يجرى عليه ما كان عليه قبل ذلك اليوم ؛ فذلك قوله تعالى : « يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا » . ثم إن الشمس والقمر يُكسيان بعد ذلك الضوء والنور ، ثم يطلعان على الناس و يغربان كما كانا قبل ذلك يطلعان و يغربان . قال العلماء : و إنما لا ينفع نفسا إيمانُها عند طلوعها من مغربها ؛ لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تُخْمَدُ معه كلّ شهوة من شهوات النفس ، وتَفْتُر كلّ قوّة من قوى البدن ؛ فيصير الناس كلهم لإيقانهم بدُنُوّ القيامة فى حال من حضره الموت فى آنقطاع الدّواعى إلى أنواع المعاصى عنهم ، و بطلانها من أبدانهم ؛ فمن تاب فى مثل هذه الحال لم تُقبل توبته ، كما لا تُقبل توبة من حضره الموت . قال صلى الله عليه وسلم : "إن الله

---

(١) آية ٩ سورة القيامة . (٢) أول سورة التكوير .

يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغِر " أى تبلغ روحه رأس حلقه، وذلك وقت المعاينة الذى يرى فيه مقعده من الجنة أو مقعده من النار؛ فالمشاهد لطلوع الشمس من مغربها مثله . وعلى هذا ينبغى أن تكون توبة كل من شاهد ذلك أو كان كالمشاهد له مردودة ما عاش؛ لأن علمه بالله تعالى و بنبيه صلى الله عليه وسلم و بوعده قد صار ضرورة . فإن آمتدّت أيام الدنيا إلى أن ينسى الناس من هذا الأمر العظيم ما كان ، ولا يتحدّثوا عنه إلا قليلا، فيصير الخبر عنه خاصًّا وينقطع التواتر عنه ؛ فمن أسلم فى ذلك الوقت أو تاب قُبل منه . والله أعلم . وفى صحيح مسلم عن عبد الله قال : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا لم أَنْسَه بعدُ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أول الايات خروجًا طلوعُ الشمس من مغربها وخروجُ الدابة على الناس ضُحًا وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبا " . وفيه عن حذيفة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غرفة ونحن أسفلَ منه ، فاطلع إلينا فقال : "ما تذكرون"؟ قلنا : الساعة . قال : " إن الساعةَ لا تكون حتى تكون عشر آيات . خَسْفٌ بالمشرق وخَسْفٌ بالمغرب وخَسْفٌ فى جزيرة العرب والدّخَان والدّجّال ودابّةُ الأرض ويأجوجُ ومأجوج وطلوعُ الشمس من مغربها ونارٌ تخرج من قعر عَدَنٍ تُرَحِّل الناسَ " . قال شعبة : وحدّثنى عبد العزيز بن رُفَيع عن أبى الطّفيل عن أبى سريحة مثلَ ذلك، لا يذكر النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال أحدهما فى العاشرة : ونزول عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم . وقال الآخر : وريحٌ تُلْقِى الناسَ فى البحر .

قلت : وهذا حديث متقن[1] فى ترتيب العلامات . وقد وقع بعضها وهى الخسوفات على ماذكر أبو الفرج الجَوْزِى من وقوعها بعراق العجم والمغرب، وهلك بسببها خلق كثير؛ ذكره فى كتاب فهوم الآثار وغيره . ويأتى ذكر الدابة فى « النمل[2] » . ويأجوج ومأجوج فى « الكهف[3] » . ويقال : إن الآيات تتتابع كالنّظم فى الخيط عامًا فعامًا . وقيل : إن الحكمة فى طلوع الشمس من مغربها أن إبراهيم عليه السلام قال لنمرود : « فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا

(١) فى بعض نسخ الأصل : « متفق » . (٢) آية ٨٢ (٣) آية ٩٤

من الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَر(١) » وأن المُلْحدة والمُنَجِّمة عن آخرهم ينكرون ذلك ويقولون : هو غير كائن؛ فيُطْلِعها الله تعالى يوما من المغرب ليُرِىَ المنكرين قدرته أن الشمس فى مُلْكه، إن شاء أطلعها من المشرق وإن شاء أطلعها من المغرب. وعلى هذا يحتمل أن يكون ردّ التوبة والإيمانِ على من آمن وتاب من المنكرين لذلك، المكذبين لخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم بطلوعها؛ فأما المصدّقون لذلك فإنه تُقبل توبتهم وينفعهم إيمانهم قبل ذلك . رُوِى عن عبد الله ابن عباس أنه قال : لا يُقبل من كافر عملٌ ولا توبةٌ إذا أسلم حين يراها، إلا من كان صغيرا يومئذ؛ فإنه لو أسلم بعد ذلك قُبل ذلك منه. ومن كان مؤمنا مذنبا فتاب من الذنب قُبل منه. ورُوِى عن عِمران بن حُصين أنه قال: إنما لم يقبل وقت الطلوع حين(٢) يكون صيحة فيهلك فيها كثير من الناس؛ فمن أسلم أو تاب فى ذلك الوقت وهلك لم تقبل توبته، ومن تاب بعد ذلك قبلت توبته؛ ذكره أبو الليث السَّمَرْقَنْدِىّ فى تفسيره . وقال عبد الله بن عمر : يبقى الناس بعد طلوع الشمس من مغربها مائة وعشرين سنة حتى يغْرِسوا النخل . والله بغيبه أعلم . وقرأ ابن عمر وآبن الزبير « يوم تأتى » بالتاء؛ مثل « تَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ » . وذهبت بعض أصابعه . وقال جرير :

لمّـا أتى خبر الزّبير تواضعتْ * سُورُ المدينة والجبالُ الخُشّعُ(٣)

قال المبرد : التأنيث على المجاورة لمؤنث لا على الأصل . وقرأ ابن سِيرين « لا تنفع » بالتاء. قال أبو حاتم : يذكرون أن هـذا غلط من آبن سِيرين . قال النحاس : فى هذا شىء دقيق من النحو ذكره سيبويه، وذلك أن الإيمان والنفس كلّ واحد منهما مشتمل على الآخر فأنّث الإيمان إذ هو من النفس وبها؛ وأنشد سيبويه :

مَشَيْنَ كما آهتزّتْ رماحٌ تَسفّهتْ * أعاليَهـا مَرُّ الرياح النّـواسِمِ(٤)

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٨٣ طبعة أولى أو ثانية . (٢) فى الأصول : «حتى» والتصويب عن تفسير السمرقندى . (٣) وصف مقتل الزبير بن العوام صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انصرف يوم الجمل وقتل فى الطريق غيلة . (٤) البيت لذى الرمة . وصف نساء؛ فيقول : إذا مشين اهتززن فى مشيهن وتثنين فكأنهن رماح نصبت فمرت عليها الرياح فاهتزت وتثنت .

قال المَهْدوىّ : وكثيرا ما يؤنّثون فعـل المضاف المذكر إذا كانت إضافته إلى مؤنّث ، وكان المضاف بعض المضاف إليه أو منه أو به ؛ وعليه قول ذى الرُّمّة :

* مشين ... * البيت

فأنّث المَرّ لإضافته إلى الرياح وهى مؤنثة ، إذ كان المَرّ من الرياح. قال النحاس : وفيه قول آخر وهو أن يؤنّث الإيمان لأنه مصدر كما يذكّر المصدر المؤنث؛ مثل « فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ »[1] وكما قال :

* فقد عذرتنا فى صحابته العذر *

ففى أحد الأقوال أنّث العذر لأنه بمعنى المعذرة . ﴿ قُلِ ٱنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ بكم العذاب.

قوله تعـالى : إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾

قوله تعـالى . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ﴾ قرأه حمزة والكسائى بالألف ، وهى قراءة علىّ ابن أبى طالب كرّم الله وجهه ؛ من المفارقة والفراق ، على معنى أنهم تركوا دينهم وخرجوا عنه . وكان علىّ يقـول : والله ما فرّقـوه ولكن فارقوه . وقرأ البـاقون بالتشديد ؛ إلا النَّخَعىّ فإنه قرأ « فَرَقـوا » مُخَفَّفًا ؛ أى آمنوا ببعض وكفروا ببعض . والمراد اليهـود والنصارى فى قول مجاهد وقتادة والسُّدّى والضحاك . وقد وُصفوا بالتفرق؛ قال الله تعالى: « وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْـدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ »[2] . وقال : « وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُـلِهِ »[3] . وقيل : عنى المشركين ، عَبَـد بعضهم الصنم وبعضهم الملائكة . وقيـل : الآية عامّة فى جميع الكفار . وكل من ابتدع وجاء بمـا لم يأمر الله عز وجل به فقـد فرّق دينـه . وروى أبو هريرة عن النبىّ صـلى الله عليه وسلم فى هـذه الآية « إن الذين فرقوا دينهم » هم أهل البدع والشبهات، وأهل الضلالة من هذه الأمة . وروى بَقِيّة بن الوليـد

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٥٩ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) آية ٤ سورة البينة . (٣) راجع جـ ٦ ص ٥ طبعة أولى أو ثانية .

حدّثنا شعبة بن الحجاج حدّثنا مُجالد عن الشَّعْبِيّ عن شُرَيح عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة : " إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شِيعا إنمـا هم أصحابُ البِدَع وأصحابُ الأهواء وأصحـاب الضلالة من هـذه الأمة . يا عائشة : إن لكل صاحب ذنب توبة غير أصحاب البـدع وأصحاب الأهواء ليس لهم توبة وأنا برىء منهم وهم منا برآء " . وروى ليث بن أبى سليم عن طاوس عن أبى هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ « إِنَّ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ » . ومعنى ﴿ شِيَعاً ﴾ فِرقاً وأحزابا . وكل قوم أمْرُهم واحد يتبع بعضهم رأى بعض فهم شِيع . ﴿ لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ فأوجب براءته منهم ؛ وهـو كقوله عليه السلام : " مَن غَشّنا فليس منا " أى نحن برآء منه . وقال الشاعر :

إذا حاولتَ فى أَسَـد فُجُوراً * فإنى لستُ منك ولستَ مِنّى (١)

أى أنا أبرأ منك . وموضع « فى شىء » نصب على الحال من المضمر الذى فى الخبر ؛ قاله أبو علىّ . وقال الفراء : هو على حذف مضاف، المعنى لست من عقابهم فى شىء، وإنما عليك الإنذار . ﴿ إِنَّمَـا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ﴾ تعزية للنبيّ صلى الله عليه وسلم .

قوله تعـالى : ﴿ مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَـا وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ ﴾ ابتداء، وهو شرط، والجواب ﴿ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَـا ﴾ أى فله عشر حسنات أمثالهـا ؛ فحذفت الحسنات وأقيمت الأمثال التى هى صفته مقامها؛ جمع مِثْل . وحكى سيبويه : عنـدى عشرة نسابات، أى عنـدى عشرة رجال نسّابات . وقال أبو علىّ : حَسُن التأنيث فى « عشر أمثالهـا » لمـا كان الأمثال مضافا إلى مؤنّث ، والإضافة إلى المؤنث إذا كان إياه فى المعنى يحسن فيه ذلك؛ نحو « تَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ » .

(١) البيت للنابغة الذبيانى . يقول هـذا لعيينة بن حصن الفزارى . وكان قد دعاه وقومه الى مقاطعة بنى أسد ونقض حلفهم فأبى عليه وتوعده بهم . وأراد بالفجور نقض الحلف (عن شرح الشواهد) .

وذهبت بعض أصابعه . وقرأ الحسن وسعيد بن جُبير والأعمش « فله عَشْرٌ أمثالها » . والتقدير : فله عشر حسنات أمثالها ؛ أى له من الجزاء عشرة أضعاف مما يجب له . ويجوز أن يكون له مثل ، و يضاعف المِثل فيصير عشرة . والحسنة هنا : الإيمان . أى من جاء بشهادة أن لا إله إلا الله فله بكل عمل عمله فى الدنيا من الخير عشرة أمثاله من الثواب . ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ يعنى الشرك . ﴿ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ وهو الخلود فى النار ؛ لأن الشرك أعظم الذنوب ، والنار أعظم العقوبة ؛ فذلك قوله تعالى : « جَزَاءً وِفَاقًا »(١) يعنى جزاء وافق العمل . وأما الحسنة فبخلاف ذلك ؛ لنص الله تعالى على ذلك . وفى الخبر " الحسنة بعشر أمثالها وأَزيد والسيئة واحدة وأغفر ". فالويل لمن غلبت آحادُه أعشارَه . وروى الأعمش عن أبى صالح قال : الحسنة لا إله إلا الله والسيئة الشرك . ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أى لا ينقص ثواب أعمالهم . وقد مضى فى « البقرة »(٢) بيان هذه الآية ، وأنها مخالفة للإنفاق فى سبيل الله ؛ ولهذا قال بعض العلماء : العشر لسائر الحسنات ؛ والسبعمائة للنفقة فى سبيل الله ، والخاصّ والعام فيه سواء . وقال بعضهم : يكون للعوامّ عشرة وللخواص سبعمائة وأكثر إلى ما لا يحصى ؛ وهذا يحتاج إلى توقيف . والأوّل أصح ؛ لحديث خُريم بن فاتك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وفيه : " وأما حسنة بعشر فمن عَمِل حسنة فله عشر أمثالها وأما حسنة بسبعمائة فالنفقة فى سبيل الله " .

قوله تعالى : قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾

(١) آية ٢٦ سورة النبأ .

(٢) راجع جـ ٣ ص ٣٠٥ طبعة أولى أو ثانية .

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ لما بيّن أن الكفار تفرقوا بيّن أن الله هداه إلى الدّين المستقيم وهو دين إبراهيم . ﴿ دِينًا ﴾ نصب على الحال ؛ عن قُطْرُب . وقيل : نصب بهداني؛ عن الأخفش . غيره : انتصب حملا على المعنى؛ لأن معنى هداني عرّفني دينا . ويجوز أن يكون بدلا عن الصراط، أي هداني صراطا مستقيما دينا . وقيل : منصوب بإضمار فعل؛ فكأنه قال : آتبعوا دينا، وآعرفوا دينا . ﴿ قِيَمًا ﴾ قرأه الكوفيون وابن عامر بكسر القاف والتخفيف وفتح الياء، مصدر كالشبع فوصف به . والباقون بفتح القاف وكسر الياء وشدّها، وهما لغتان . وأصل الياء الواو « قَيْوِم » ثم أدغمت الواو في الياء كميت . ومعناه : دينا مستقيما لا عِوج فيه . ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ بدل ﴿ حَنِيفًا ﴾ قال الزجاج : هو حال من إبراهيم . وقال عليّ بن سليمان : هو نصب بإضمار أعني .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾ قد تقدّم اشتقاق لفظ الصلاة.(1) وقيل : المراد بها هنا صلاة الليل . وقيل : صلاة العيد . والنّسك جمع نَسيكة، وهي الذّبيحة، وكذلك قال مجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وغيرهم . المعنى : ذَبْحِي في الحج والعمرة . وقال الحسن : نسكي دِيني . وقال الزجاج : عبادتي؛ ومنه الناسك الذي يتقرب إلى الله بالعبادة . وقال قوم : النسك في هذه الآية جميع أعمال الطاعات ؛ من قولك : نسك فلان فهو ناسك، إذا تعبّد . ﴿ وَمَحْيَايَ ﴾ أي ما أعمله في حياتي ﴿ وَمَمَاتِي ﴾ أي ما أوصي به بعد وفاتي . ﴿ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي أفرده بالتقرّب بها إليه . وقيل : « مَحْيَاي ومماتي لله » أي حياتي وموتي له . وقرأ الحسن « نُسْكِي » بإسكان السين. وأهل المدينة « ومحياى » بسكون الياء في الإدراج . والعامة بفتحها ؛ لأنه يجتمع ساكنان . قال النحاس : لم يُجزه أحد من النحويين إلا يونس، وإنما أجازه لأن قبله ألفا، والألف المدّة التي فيها تقوم مقام الحركة . وأجاز يونس اضربانْ زيدا ، وإنما منع النحويون هذا لأنه جمع بين ساكنين وليس في الثاني

(1) راجع جـ ١ ص ١٦٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

إدغام، ومن قرأ بقراءة أهل المدينة وأراد أن يَسْلَم من اللحن وقف على « محيای » فيكون غير لاحِنٍ عنـد جميع النحويين . وقرأ آبن أبی إسحـاق وعيسى بن عمر وعاصم الجَحْدرِیّ « ومَحْیّ » بتشديد الياء الثانية من غير ألف، وهی لغة عُلْيَا . مُضَر يقولون : قَفَیّ وعَصَیّ . وأنشد أهل اللغة :

* سَبَقُوا هَوَیّ وأَعْنَقُوا لهواهُمُ * (١)

وقد تقدّم .

الثالثـــة — قال الكيا الطبریّ : قوله تعالى « قُلْ إِنَّنِی هَدَانِی رَبِّی إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » إلى قوله « قُلْ إِنَّ صَلَاتِی وَنُسُكِی وَمَحْيَایَ وَمَمَـاتِی لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » آستدل به الشافعیّ على افتتاح الصــلاة بهذا الذكر ؛ فإن الله أمر نبيه صلى الله عليــه وسلم وأنزله فی كتابه ، ثم ذكر حديث علیّ رضی الله عنــه : أنّ النبیّ صلى الله عليه وسلم كان إذا افتتح الصــلاة قال : "وَجَّهتُ وَجْهِیَ للذی فَطَر السـموات والأرض حَنيفًا وما أنا من المشركين . إنّ صلاتی ونُسُكِی ومَحْيایَ ومَمـاتی لله ربِّ العالمين — إلى قوله — وأنا من المسلمين" .

قلت : روى مسلم فی صحيحه عن علیّ بن أبی طالب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال : "وجّهت وجهِیَ للذی فطـر السموات والأرضَ حَنيفاً وما أنا من المشركين . إنّ صلاتی ونسكی ومحيای ومماتی لله رب العالمين. لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين . اللّهُمّ أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربّی وأنا عبدُك ظلمتُ نفسی وآعترفتُ بذنبی فآغفر لی ذنوبی جميعـا إنه لايغفر الذّنوب إلا أنت وآهـدنی لأحسنِ الأخلاق لا يَهْدِی لأحسنها إلا أنت وآصرف عنّی سيئَها لا يصرف عنی سيئَها إلا أنت لَبَّيْـكَ وسَعْدَيْكَ والخيرُ كلُّه فی يديك والشر ليس إليك . تباركت وتعاليت . أستغفرك وأتوب إليك" . الحديث . وأخرجه الدّارَقُطْنِیّ وقال فی آخره : بَلَغَنا عن النَّضْر بن شُمَيل وكان من العلماء باللغة وغيرها قال : معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "والشر ليس إليك" الشر ليس مما

(١) هذا صدر بيت لأبی ذؤيب . وعجزه كما فی جـ ١ ص ٣٢٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

* فتخرموا ولكل جنب مصرع *

يُتقرب به إليك . قال مالك : ليس التوجيه فى الصلاة بواجب على الناس ، والواجب عليهم التكبير ثم القراءة . قال ابن القاسم : لم ير مالك هذا الذى يقوله الناس قبل القراءة : سبحانك اللّهم و بحمدك . وفى مختصر ما ليس فى المختصر : أن مالكا كان يقوله فى خاصّة نفسه؛ لصحة الحديث به ، وكان لا يراه للناس مخافة أن يعتقدوا وجوبه . قال أبو الفرج الجَوْزِىّ : وكنت أصلى وراء شيخنا أبى بكر الدِّينَوَرِىّ الفقيه فى زمان الصِّبا ، فرآنى مرّة أفعل هـذا فقال : يا بنىّ ، إن الفقهاء قد اختلفوا فى وجوب قراءة الفاتحة خلف الإمام ، ولم يختلفوا أن الافتتاح سُنّة ، فاشتغل بالواجب ودَع السُّنَن . والحجة لمالكٍ قولُه صلى الله عليه وسلم للأعرابىّ الذى علّمه الصلاة : " إذا قمت إلى الصلاة فكَبِّر ثم ٱقرأ " ولم يقل له سبح كما يقول أبو حنيفة ، ولا قل وجهت وجهى ؛ كما يقول الشافعىّ . وقال لأبَىّ : " كيف تقرأ إذا ٱفتتحت الصلاة " ؟ قال : قلت الله أكبر ، الحمد لله ربّ العالمين . فلم يذكر تَوْجيهًا ولا تسبيحا . فإن قيل : فإن عليا قد أخبر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يقوله . قلنا : يحتمل أن يكون قاله قبـل التكبير ثم كَبّر ، وذلك حَسَن عنـدنا . فإن قيل : فقد روى النَّسائِىّ والدّارَقُطنىّ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا ٱفتتح الصلاة كبر ثم يقول : "إن صلاتى ونُسُكى" الحديث . قلنا : هـذا نحمله على النافلة فى صلاة الليل ؛ كما جاء فى كتاب النَّسائىّ عن أبى سعيد قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ٱفتتح الصلاة بالليل قال : " سبحانك اللّهُمّ و بحمدك . تبارك ٱسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك" . أو فى النافلة مطلقا ؛ فإن النافلة أخفّ من الفرض ، لأنه يجوز أن يُصلّيها قائما وقاعدا وراكبا ، وإلى القبلة وغيرها فى السفر ؛ فأمْرُها أيْسر . وقد روى النَّسائِىّ عن محمد بن مَسْلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام يصلّى تطوُّعًا قال : " الله أكبر . وجّهتُ وَجْهِىَ للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . إن صلاتى ونُسُكى ومَحْيَاىَ ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين . اللّهُمّ أنت الملك لا إله إلا أنت سبحانك و بحمدك " . ثم يقرأ . وهذا نَصٌّ فى التطوّع لا فى الواجب . وإن صح أن ذلك كان فى الفريضة بعـد التكبير ، فيحمل

على الجواز والاستحباب ، وأما المسنون فالقراءة بعد التكبير ، والله بحقائق الأمور عليم . ثم إذا قاله فلا يقل « وأنا أوّل المسلمين » . وهي :

الرابعـة — إذ ليس أحدهم بأوّلهم إلا محمد صلى الله عليه وسلم . فإن قيل : أو ليس إبراهيم والنبيُّون قبله ؟ قلنا عنه ثلاثة أجوبة : الأول — أنه أوّل الخلق أجمع معنًى ، كما في حديث أبي هريرة من قوله عليه السلام : "نحن الآخرون الأوّلون يوم القيامة ونحن أوّل من يدخل الجنة" . وفي حديث حُذيفة "نحن الآخرون من أهل الدنيا والأوّلون يوم القيامة المَقْضِيّ لهم قبل الخلائق" . الثاني — أنه أوّلهم لكونه مقدّما في الخلق عليهم ؛ قال الله تعالى : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ »(1) . قال قتادة : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "كنت أوّلَ الأنبياء في الخلق وآخرَهم في البعث" . فلذلك وقع ذكره هنا مقدّما قبل نوح وغيره . الثالث — أوّل المسلمين من أهل مِلّته ؛ قاله ابن العربيّ ، وهو قول قتادة وغيره . وقد اختلفت الروايات في « أوّل » ففي بعضها ثبوتُها وفي بعضها لا ، على ما ذكرنا .
وروى عِمران بن حُصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا فاطمة قومي فاشهدي أُضحِيّتَكِ فإنه يغفرلك في أوّل قَطْرة من دمها كلَّ ذنب عملتيه ثم قولي « إنّ صلاتي ونُسُكي ومَحْيايَ ومماتي لله ربِّ العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين »" . قال عمران : يا رسول الله ، هذا لك ولأهل بيتك خاصة أم للمسلمين عامّةً ؟ قال : "بل للمسلمين عامّة" .

قوله تعالى : قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي مالكه . روى أن الكفار قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ارجع يا محمد إلى ديننا ، واعبد آلهتنا ، واترك ما أنت

(1) آية ٧ سورة الأحزاب .

عليه، ونحن نتكفّل لك بكل تِباعة تتوقعها فى دنياك وآخرتك ؛ فنزلت الآية . وهى استفهام يقتضى التقرير والتوبيخ . و « غير » نصب بـ « أَبْغِى » و « رَبًّا » تمييز .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾ أى لا ينفعنى فى ابتغاء ربٍّ غير الله كونكم على ذلك؛ إذ لا تكسب كل نفسٍ إلا عليها ؛ أى لا تؤخذ بما أتت من المعصية، وركبت من الخطيئة سواها .

الثانيــة — وقد استدلّ بعض العلماء من المخالفين بهذه الآية على أن بيع الفُضُولىّ لا يصح ؛ وهو قول الشافعىّ . وقال علماؤنا : المراد من الآية تحمّل الثواب والعقاب دون أحكام الدنيا ؛ بدليل قوله تعالى : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » على ما يأتى . وبيع الفُضُولِىّ عندنا موقوف على إجازة المالك ، فإن أجازه جاز . هذا عُرْوة البارِقىّ قد باع للنبىّ صلى الله عليه وسلم واشترى وتصرّف بغير أمره ، وأجازه النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ وبه قال أبو حنيفة . روى البُخارِىّ والدَّارَقُطْنِىّ عن عُروة بن أبى الجَعْد قال : عرض للنبىّ صلى الله عليه وسلم جَلَب[1] فأعطانى دينارا وقال : " أىْ عُرْوة ايتِ الجَلَب فاشترِ لنا شاة بهذا الدينار " فأتيتُ الجَلَب فساومتُ فاشتريت شاتين بدينار ، فجئت أسوقهما — أو قال أقودهما — فلقِينى رجل فى الطريق فساومنى فبعته إحدى الشاتين بدينار ، وجئت بالشاة الأخرى وبدينار ، فقلت : يا رسول الله ، هذه الشاة وهذا دينارکم . قال : " كيف صنعت " ؟ فحدثته الحديث . قال : " اللّهمّ بارك له فى صفقة يمينه " . قال : فلقد رأيتُنى أقف فى كُناسة الكوفة فأربح أربعين ألفا قبل أن أصل إلى أهلى . لفظ الدّارَقُطْنِىّ . قال أبو عمر : وهو حديث جيّد ، وفيه صحة ثبوت النبىّ صلى الله عليه وسلم للشاتين ، ولولا ذلك ما أخذ منه الدينار ولا أمضى له البيع .

وفيه دليل على جواز الوكالة ، ولا خلاف فيها بين العلماء . فإذا قال الموكل لوكيله : اشترِ كذا ؛ فاشترى زيادةً على ما وُكّل به فهل يلزم ذلك الأمر أم لا . كرجل قال لرجل : اشترِ بهذا

(١) الجلب (بالتحريك) : ما جلب القوم من غنم وغيره .

الدرهم رِطل لحم، صفته كذا؛ فاشترى له أربعة أرطال من تلك الصفة بذلك الدرهم. فالذى عليه مالك وأصحابه أن الجميع يلزمه إذا وافق الصفة ومن جنسها؛ لأنه مُحْسِن . وهو قول أبى يوسف ومحمد بن الحسن . وقال أبو حنيفة : الزيادة للشترى . وهذا الحديث حُجّة عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أى لا تحمل حاملةٌ ثِقْل أخرى، أى لا تؤخذ نفس بذنب غيرها، بل كل نفس مأخوذة بجُرْمها ومعاقبة بإثمها . وأصل الوِزْر الثِّقْل؛ ومنه قوله تعالى : « وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ »(١) . وهو هنا الذنب؛ كما قال تعالى : « وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ » . وقد تقدم(٢) . قال الأخفش : يقال وَزِر يوزَر ، وَوَزَرَ يَزِر، ووُزِرَ يُوزَر وِزرا . ويجوز إِزْرًا ، كما يقال : إسادة(٣) . والآية نزلت فى الوليد بن المغيرة ، كان يقول : اتبعوا سبيلى أحمل أوزاركم ؛ ذكره ابن عباس . وقيل : إنها نزلت ردًّا على العرب فى الجاهلية من مؤاخذة الرجل بأبيه وبابنه وبجَرِيرة حَليفه .

قلت : ويحتمل أن يكون المراد بهذه الآية فى الآخرة ، وكذلك التى قبلها ؛ فأما فى الدنيا فقد يؤاخذ فيها بعضهم بجُرْم بعض، لا سِيَّما إذا لم ينْه الطائعون العاصين ، كما تقدم فى حديث أبى بكر فى قوله : « عليكم أنفسكم »(٤) . وقال تعالى « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً »(٥) . « إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ »(٦) . وقالت زينب بنت جَحْش : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : "نعم إذا كثر الخَبَث" . قال العلماء : معناه أولاد الزنى . والخَبَث (بفتح الباء) اسم للزنى . فأوجب الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم دِيَة الخطأ على العاقلة حتى لا يُطَلّ(٧) دم الحُرّ المسلم تعظيما للدّماء . وأجمع أهل العلم على ذلك من غير خلاف بينهم فى ذلك ؛ فدلّ على ما قلناه . وقد يحتمل أن يكون هذا فى الدنيا ، فى ألا يؤاخذ زيد بفعل عمرو، وأن كل مباشر لجريمة فعليه مَغَبّتها . وروى أبو داود عن أبى رِمْثة قال : انطلقت مع أبى نحو النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ثم إن النبىّ

---

(١) آية ٢ سورة الانشراح . (٢) آية ٣١ من هذه السورة . (٣) فى قولهم : وسادة .
(٤) آية ١٠٥ سورة المائدة . (٥) آية ٢٥ سورة الأنفال . (٦) آية ١١ سورة الرعد .
(٧) طل دمه : ذهب هدرا .

صلى الله عليه وسلم قال لأبى: "ابنك هذا"؟ قال: إى ورَبِّ الكعبة. قال: "حقا". قال: أَشْهَدُ به. قال: فتبسّم النبيّ صلى الله عليه وسلم ضاحكا من بَيِّنِ شَبَهِى فى أبى، ومن حَلِف أبى علىّ. ثم قال: "أما إنه لا يَجْنِى عليك ولا تَجْنِى عليه". وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى». ولا يُعارض ما قلناه أوّلا بقوله: «وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ»[(١)](٢)؛ فإن هذا مبيّن فى الاية الأخرى قوله: «لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ»(٣). فمن كان إماما فى الضلالة ودعا إليها واتُّبع عليها فإنه يحمل وزْر من أضلّه من غير أن ينقص من وزر المُضَل شىء، على ما يأتى بيانه إن شاء الله.

قوله تعالى: وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾ «خلائف» جمع خليفة، ككرائم جمع كريمة. وكل من جاء بعد من مضى فهو خليفة. أى جعلكم خَلَفا للأمم الماضية والقرون السالفة. قال الشّماخ:

تصيبهمُ وتخطئنى المنايا * وأَخلُف فى رُبوعٍ عن رُبوعِ

﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ فى الخلق والرزق والقوة والبَسْطة والفضل والعلم. ﴿ دَرَجَاتٍ ﴾ نصب بإسقاط الخافض، أى إلى درجات. ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ نصب بلام كَىْ. والابتلاء: الاختبار؛ أى ليظهر منكم ما يكون غايته الثواب والعقاب. ولم يزل بعلمه غنيًّا؛ فابتلى الموسر بالغنى وطلب منه الشكر، وابتلى المعسر بالفقر وطلب منه الصبر. ويقال: «ليبلوكم» أى بعضكم ببعض. كما قال: «وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً»(٤) على ما يأتى بيانه. ثم خوّفهم

---

(١) فى نسخ الأصل: «ثبت» والتصويب عن سنن أبى داود. (٢) آية ١٣ سورة العنكبوت.
(٣) آية ٢٥ سورة النحل. (٤) آية ٢٠ سورة الفرقان.

فقال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ ﴾ لمن عصاه . ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ لمن أطاعه . وقال : « سَرِيعُ الْعِقَابِ » مع وصفه سبحانه بالإمهال ، ومع أنّ عقاب النار فى الآخرة ؛ لأن كل آت قريب؛ فهو سريع على هذا . كما قال تعالى : « وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ »[1] . وقال : « يَرَوْنَهُ بَعِيدًا . وَنَرَاهُ قَرِيبًا »[2] . ويكون أيضا سريع العقاب لمن استحقه فى دار الدنيا؛ فيكون تحذيرا لمواقع الخطيئة على هذه الجهة . والله أعلم .

---

(١) آية ٧٧ سورة النحل . (٢) آية ٦ ، ٧ سورة المعارج .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسـير سـورة الأعراف

وهى مكية ، إلا ثمـانَ آيات ، وهى قوله تعالى : « وَٱسْأَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ » إلى قوله : « وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ »(١) . وروى النَّسائىّ عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ فى صلاة المغرب بسورة الأعراف ، فرّقها فى ركعتين . صححه أبو محمد عبد الحق .

قوله تعـالى : الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ تقدّم فى أوّل « البقرة »(٢) وموضعه رفع بالابتداء . و﴿ كِتَابٌ ﴾ خـبره . كأنه قال : « المص » حروف كتاب ﴿ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ . وقال الكسائى : أى هذا كتاب .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا يَكُنْ فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ حَرَجٌ ﴾ أى ضيق ؛ أى لا يضيق صدرك بالإبلاغ ؛ لأنه رُوى عنه عليه السـلام أنه قال : " إنى أخاف أن يَثْلغُوا(٣) رأسى فيـدعوه خبزة " الحديث . خرّجه مسـلم . قال الكِيَا : « فظاهره النهى ، ومعنـاه نفى الحرج عنـه ؛ أى لا يضـيق صدرك ألا يؤمنوا به ، فإنما عليك البلاغ ، وليس عليك سوى الإنذار به من شىء من إيمانهم

---

(١) من آية ١٦٣ — ١٧٠ . (٢) راجع جـ ١ ص ١٥٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٣) كذا فى الأصول . والذى فى صحيح مسلم : « اذًا يثلغوا رأسى » . راجع صحيح مسلم . كتاب الجنة ، باب الصفات التى يعرف بها أهل الجنـة وأهل النار . والثلغ : الشدخ . وقيـل : هو ضربك الشىء الرطب بالشىء اليابس حتى ينشدخ .

أو كفرهم ؛ ومثله قوله : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ »[1] الآية . وقال : « لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ »[2] . ومذهب مجاهد وقتادة أن الحرج هنا الشك، وليس هذا شك الكفر، إنما هو شك الضيق . وكذلك قوله تعالى : « وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ »[3] . وقيل : الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمّته . وفيه بُعْدٌ . والهاء في « منه » للقرآن . وقيل للإنذار ؛ أي أنزل إليك الكتاب لتنذر به فلا يكن في صدرك حرج منه . فالكلام فيه تقديم وتأخير . وقيل للتكذيب الذي يعطيه قوّة الكلام . أي فلا يكن في صدرك ضيق من تكذيب المكذبين له .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَذِكْرَى ﴾ يجوز أن يكون في موضع رفع ونصب وخفض . فالرفع من وجهين ؛ قال البصريون : هي رفع على إضمار مبتدأ . وقال الكسائيّ : عطف على « كتاب » . والنصب من وجهين ؛ على المصدر، أي وذَكّر به ذكرى ؛ قاله البصريون . وقال الكسائي : عطف على الهاء في « أنزلناه » . والخفض حملا على موضع « لتنذر به » . والإنذار للكافرين، والذكرى للمؤمنين ؛ لأنهم المنتفعون به .

قوله تعالى : ٱتَّبِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يعني الكتاب والسُّنّة . قال الله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا »[4] . وقالت فرقة : هذا أمر يَعُمّ النبيّ صلى الله عليه وسلم وأمّته . والظاهر أنه أمرٌ لجميع الناس دونه . أي ٱتبعوا ملة الإسلام والقرآن ، وأحِلّوا حلاله وحَرّموا حرامه ، وٱمتثلوا أمره، وٱجتنبوا نهيه . ودلّت الآية على ترك ٱتباع الآراء مع وجود النص .

(١) آية ٦ سورة الكهف . (٢) آية ٣ سورة الشعراء . (٣) آية ٩٧ سورة الحجر .
(٤) آية ٧ سورة الحشر .

الثانيــــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياء ﴾ «من دونه» من غيره . والهاء تعود على الربّ سبحانه ، والمعنى : لا تعبدوا معه غيره ، ولا تتّخذوا مَن عدل عن دين الله وليًّا . وكلّ من رضي مذهباً فأهـل ذلك المذهب أوليـاؤه . ورُوِى عن مالك بن دِينار أنه قرأ « ولا تبتغوا من دونه أولياء » أى ولا تطلبوا . ولم ينصرف « أولياء » لأن فيه ألف التأنيث . وقيل : تعود على « ما » من قوله « آتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم » . ﴿ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ « ما » زائدة . وقيل : تكون مع الفعل مصدرا .

قوله تعـالى : وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُـنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُـمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَـا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُـنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ « كم » للتكثير، كما أن « رُبَّ » للتقليل. وهى فى موضع رفع بالابتداء ، و « أهلكنا » الخبر . أى وكثير من القرى — وهى مواضع اجتماع الناس — أهلكناها . ويجوز النصب بإضمار فعل بعدها ، ولا يقدّر قبلها ؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ماقبله . ويقوّى الأول قوله : « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ »[1] . ولولا اشتغال « أهلكنا » بالضمير لانتصب به موضع « كم » . ويجوز أن يكون « أهلكنا » صفةً للقرية ، و « كم » فى المعنى هى القرية ؛ فإذا وصفت القرية فكأنك قد وصفت كم . يدلّ على ذلك قوله تعـالى : « وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا »[2] فعاد الضمير على « كم » على المعنى ؛ إذ كانت الملائكة فى المعنى . فلا يصح على هـذا التقدير أن يكون « كم » فى موضع نصب بإضمار فعل بعدها . ﴿ فَجَاءَها بَأْسُنا ﴾ فيه إشكال للعطف بالفاء . فقال الفَرّاء : الفاء بمعنى الواو، فلا يلزم الترتيب . وقيل : أى وكم من قرية أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا، كقوله : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ »[3] . وقيل : إن

(١) آية ١٧ سورة الإسراء . (٢) آية ٢٦ سورة النجم . (٣) آية ٩٨ سورة النحل .

الهلاك واقع ببعض القوم؛ فيكون التقدير : وكم من قرية أهلكنا بعضها فجاءها بأسنا فأهلكنا الجميع . وقيل : المعنى وكم من قرية أهلكناها في حكمنا فجاءها بأسنا . وقيل : أهلكناها بإرسالنا ملائكة العذاب إليها ، فجاءها بأسنا وهو الاستئصال . والبأس : العذاب الآتي على النفس . وقيل : المعنى أهلكناها فكان إهلاكنا إياهم في وقت كذا ؛ فمجيء البأس على هذا هو الإهلاك . وقيل : البأس غير الإهلاك ؛ كما ذكرنا . وحكى الفرّاء أيضا أنه إذا كان معنى الفعلين واحدا أو كالواحد قدّمت أيّهما شئت ؛ فيكون المعنى وكم من قرية جاءها بأسنا فأهلكناها ؛ مثل دنا فقَرُب ، وقَرُب فدنا ، وشتمني فأساء ، وأساء فشتمني ؛ لأن الإساءة والشتم شيء واحد . وكذلك قوله : « ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ ٱلْقَمَرُ »(١) . المعنى — والله أعلم — انشق القمر فاقتربت الساعة . والمعنى واحد . ﴿ بَيَاتًا ﴾ أي ليلا ؛ ومنه البيت ، لأنه يُبات فيه . يقال : بات يَبِيت بَيْتًا وبَيَاتا . ﴿ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ أي أو وهم قائلون ، فاستثقلوا فحذفوا الواو ؛ قاله الفرّاء . قال الزجاج : وهذا خطأ ، إذا عاد الذكر استغنى عن الواو ؛ تقول : جاءني زيد راكبا أو هو ماش ، ولا يحتاج إلى الواو . قال المَهْدوي : ولم يقل بياتا أو وهم قائلون لأن في الجملة ضميرا يرجع إلى الأول فاستغنى عن الواو . وهو معنى قول الزجاج سواء ، وليس أو للشك بل للتفصيل ؛ كقولك : لأُكْرِمنّك منصفا لي أو ظالما . وهذه الواو تسمى عند النحويين واو الوقت . و﴿ قائلون ﴾ من القائلة وهي القيلولة ؛ وهي نوم نصف النهار . وقيل : الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحرّ وإن لم يكن معها نوم . والمعنى : جاءهم عذابنا وهم غافلون إمّا ليلا وإمّا نهارا . والدعوى الدعاء ؛ ومنه قوله : « وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ »(٢) . وحكى النحويون اللّهمّ أشركنا في صالح دعوى من دعاك . وقد تكون الدّعوى بمعنى الادّعاء . والمعنى : أنهم لم يخلصوا عند الإهلاك إلا على الإقرار بأنهم كانوا ظالمين . و﴿ دعواهم ﴾ في موضع نصب خبر كان ، واسمها « إِلَّا أَنْ قَالُوا » . نظيره « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا »(٣) ويجوز

(١) أول سورة القمر . (٢) آية ١٠ سورة يونس . (٣) آية ٥٦ سورة النمل .

أن تكون الدعوى رفعا ، و « أن قالوا » نصبا ؛ كقوله تعالى : « لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا »(١) برفع « البر » . وقوله : « ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا »(٢) برفع « عاقبة » .

قوله تعالى : فَلَنَسْأَلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ دليل على أن الكفار يحاسبون . وفى التنزيل « ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ »(٣) . وفى سورة القصص « وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ »(٤) يعنى إذا استقروا فى العذاب . والآخرة مواطن : موطن يسألون فيه للحساب . وموطن لا يسألون فيه . وسؤالهم سؤال تقرير وتوبيخ و إفضاح . وسؤالُ الرسل سؤالُ استشهاد بهم و إفصاح ؛ أى عن جواب القوم لهم . وهو معنى قوله : « لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عن صِدْقِهِمْ »(٥) على ما يأتى . وقيل : المعنى « فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ » أى الأنبياء « وَلَنَسْأَلَنَّ المرسلين » أى الملائكة الذين أرسلوا إليهم . واللام فى « فلنسألن » لام قسم وحقيقتها التوكيد . وكذا ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ ﴾ . قال ابن عباس : ينطق عليهم(٦) . ﴿ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ أى كنا شاهدين لأعمالهم . ودلت الآية على أن الله عالم بعلم .

قوله تعالى : وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾ ابتداء وخبر . ويجوز أن يكون « الحق » نعته ، والخبر « يومئذ » . ويجوز نصب « الحق » على المصدر . والمراد بالوزن وزن أعمال العباد

---

(١) آية ١٧٧ سورة البقرة . راجع جـ ٢ ص ٢٣٧ طبعة ثانية . (٢) آية ١٠ سورة الروم .
(٣) آية ٢٦ سورة الغاشية . (٤) آية ٧٨ (٥) آية ٨ سورة الأحزاب .
(٦) عبارة الطبرى : « ينطق لهم كتاب عملهم عليهم بأعمالهم » .

بالميزان. قال ابن عمر : توزن صحائف أعمال العباد . وهذا هو الصحيح، وهو الذى ورد به الخبر على ما يأتى . وقيل : الميزان الكتاب الذى فيـه أعمال الخلق . وقال مجاهـد : الميزان الحسنات والسيئات بأعيانها . وعنه أيضا والضحّاك والأعمش : الوزن والميزان بمعنى العدل والقضـاء . وذِكر الوزن ضَرْبُ مثلٍ ؛ كما تقول : هـذا الكلام فى وزن هـذا وفى وزانه، أى يعادله ويساويه وإن لم يكن هناك وزن . قال الزجاج : هـذا سائغ من جهة اللسان، والأَوْلى أن يُتّبع ما جاء فى الأسانيد الصحاح من ذكر الميزان . قال القُشيْرِىّ : وقد أحسن فيما قال، إذ لو حمل الميزان على هذا فلْيُحْمل الصراطُ على الدِّين الحق، والجنةُ والنارُ على ما يرد على الأرواح دون الأجساد ، والشياطينُ والجنُّ على الأخلاق المذمومة، والملائكةُ على القُوَى المحمودة . وقـد أجمعت الأمة فى الصدر الأوّل على الأخذ بهذه الظواهر من غير تأويل . وإذا أجمعوا على منع التأويل وجب الأخذ بالظـاهر، وصارت هـذه الظواهر نصوصا . قال ابن فُورَك : وقـد أنكرت المعتزلة الميزان بناءً منهم على أن الأعراض يستحيل وزنها، إذ لا تقـوم بأنفسها . ومن المتكلمين من يقول : إن الله تعـالى يقلِب الأعراض أجساما فيزنها يوم القيامة. وهذا ليس بصحيح عندنا، والصحيح أن الموازين تثقل بالكتب التى فيها الأعمال مكتوبة، وبها تخف . وقد رُوى فى الخبر ما يحقّق ذلك، وهو أنه رُوى أن ميزان بعضِ بنى آدم كاد يخف بالحسنات فيوضع فيـه رِقّ مكتوبٌ فيه « لا إله إلا الله » فيثقل. فقـد عُلم أن ذلك يرجع إلى وزن ما كتب فيـه الأعمال لا نفس الأعمال، وأن الله سبحانه يخفف الميزان إذا أراد، ويثقله إذا أراد بما يوضع فى كِفتيه من الصحف التى فيها الأعمال.

وفى صحيح مسلم عن صـفْوان بن مُحْرِز قال قال رجل لابن عمر : كيف سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى النَّجْوَى[(1)] ؟ قال سمعته يقول : "يُدْنَى المؤمنُ من ربّه يوم القيامة حتى يضع عليـه كَنَفَه فيُقرِّره بذنوبه فيقول هـل تعرف فيقـول أىْ ربّ أعرف قال فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا وإنى أغفرها لك اليوم فيُعْطَى صحيفة حسناته وأما الكفار والمنافقون فينادَى بهم على رءوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله" . فقوله "فيُعْطَى صحيفة حسناته"

(1) يريد مناجاة الله تعالى للعبد يوم القيامة .

دليل على أن الأعمال تُكتب فى الصحف وتُوزن . وروى ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يُصاح برجل من أمتى يوم القيامة على رءوس الخلائق فيُنْشر عليه تسعة وتسعون سِجِلًّا كلّ سِجِلٍّ مَدّ البصر ثم يقول الله تبارك وتعالى هل تنكر من هــذا شيئا فيقول لا يارب فيقول أظلمتْك كَتَبَتِى الحافظون فيقول لا ثم يقــول ألك عذر ألك حسنة فيهاب الرجل فيقول لا فيقول بلى إن لك عندنا حسنات وإنه لا ظُلم عليك اليوم فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبــده ورسوله فيقول يا رب ما هــذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول إنك لا تُظلم فتوضع السجلات فى كِفّة والبطاقة فى كِفّــة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة" . زاد الترمذىّ "فلا يثقل مع اسم الله شىء" وقال : حديث حسن غريب . وسيأتى لهــذا الباب مزيد بيــان فى « الكهف[1] والأنبياء[2] » إن شاء الله تعــالى .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَـا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ « موازينه » جمع ميزان ، وأصله مِوْزان، قلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها . وقيل : يجوز أن يكون هناك موازين للعامل الواحد يُوزن بكل ميزان منها صِنف من أعماله . ويمكن أن يكون ذلك ميزانا واحدا عُبِّر عنه بلفظ الجمع ؛ كما تقــول : خرج فلان الى مكة على البغال ، وخرج إلى البصرة فى السفن . وفى التنزيل : « كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ » . « كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ[3] » . وإنمـا هو رسول واحد فى أحد التأويلين . وقيل : الموازين جمع موزون، لا جمع ميزان . أراد بالموازين الأعمال الموزونة . ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ مثـله . وقال ابن عباس : توزن الحسنات والسيئات فى ميزان له لسان وكِفّتان؛ فأما المؤمن فيؤتى بعمله فى أحسن صورة فيوضع فى كفة الميزان فتثقل حسناته على سيئاته ؛ فذلك قوله « فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » ويؤتى بعمــل الكافر فى أقبح صورة فيُوضــع فى كِفّة الميزان فيخفّ وزنه حتى يقــع فى النار . وما أشار إليه ابن

(١) آية ١٠٥ . (٢) آية ٤٧ . (٣) آية ١٠٥ ، ١٢٣ سورة الشعراء .

عباس قريبٌ مما قيل : يخلق الله تعالى كلّ جزء من أعمال العباد جوهرا فيقع الوزن على تلك الجواهر . وردّه ٱبن فُورَك وغيره . وفى الخبر "إذا خفّت حسنات المؤمن أخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بطاقة كالأنملة فيُلقيها فى كفّة الميزان اليمنى التى فيها حسناته فترجح الحسنات فيقول ذلك العبد المؤمن للنبيّ عليه السلام بأبى أنت وأمّى! ما أحسنَ وجهك وما أحسن خُلُقك فمن أنت فيقول أنا محمد نبيّك وهذه صلواتك التى كنت تصلّى علىّ قد وفّيتك أحوج ما تكون إليها" . ذكره القشيرىّ فى تفسيره . وذكر أن البطاقة (بكسر الباء) رقعة فيها رقم المتاع بلغة أهل مصر . وقال ابن ماجه : قال محمد بن يحيى : البطاقة الرقعة ، وأهل مصر يقولون للرقعة بطاقة . وقال حذيفة : صاحب الموازين يوم القيامة جبريل عليه السلام، يقول الله تعالى : "يا جبريل زِنْ بينهم فَرُدّ من بعض على بعض" . قال : وليس ثمّ ذهب ولا فضة؛ فإن كان للظالم حسناتٌ أُخذ من حسناته فرُدّ على المظلوم، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم فتحمل على الظالم ؛ فيرجع الرجل وعليه مثل الجبال . ورُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى يقول يوم القيامة : "يا آدم ٱبرز إلى جانب الكرسى عند الميزان وٱنظر ما يُرفع إليك من أعمال بَنيك فمن رجح خيرُه على شره مثقالَ حبّة فله الجنة ومن رَجح شرّه على خيره مثقالَ حبّة فله النار حتى تعلم أنى لا أعذّب إلا ظالما" .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠﴾

أى جعلناها لكم قرارا ومِهادا، وهيّأنا لكم فيها أسباب المعيشة . والمعايش جمع معيشة، أى ما يتعيّش به من المطعم والمشرب وما تكون به الحياة . يقال : عاش يَعيش عَيْشًا ومَعاشًا ومَعيشا ومَعيشة وعِيشَة . وقال الزجاج : المَعيشة ما يُتوصّل به إلى العيش . ومعيشة فى قول الأخفش وكثيرٍ من النحويين مَفْعِلة . وقرأ الأعرج « معائش » بالهمز، وكذا روى خارجة ابن مُصْعَب عن نافع . قال النحاس : والهمز لحن لا يجوز ؛ لأن الواحدة مَعيشة ، أصلها مَعْيِشة، فزيدت ألف الوصل وهى ساكنة والياء ساكنة، فلا بُدّ من تحريك إذ لا سبيل

إلى الحذف، والألف لا تحترك فحرّكت الياء بما كان يجب لهـا فى الواحد . ونظيره من الواو منارة ومناوِر، ومَقام ومَقاوِم؛ كما قال الشاعر :

وإنى لقَــوّامٌ مَقاوِمَ لم يكن * جرير ولا مَوْلَى جريرٍ يقومها

وكذا مصيبه ومَصاوِب . هذا الجيّد، ولغة شاذة مصائب . قال الأخفش : إنما جاز مصائب لأن الواحدة معتلة . قال الزجاج : هذا خطأ يلزمه عليه أن يقول مقائم . ولكن القول أنه مثلُ وِسادة وإسادة . وقيل : لم يجز الهمز فى معايش لأن المعيشة مَفْعِــلة؛ فالياء أصليــة، وإنمــا يهمز إذا كانت الياء زائدة مثل مدينة ومدائن ، وصحيفة وصحائف ، وكريمة وكرائم ، ووظيفة ووظائف، وشبهه .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ (١١)

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ لمـا ذَكر نِعمه ذكر ابتداء خلقه. وقد تقدّم معنى الخلق[1] فى غير موضع . ﴿ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ أى خلقناكم نطفا ثم صوّرناكم ، ثم إنا نخــبركم أنا قلنا للملائكة ٱسجدوا لآدم. وعن ابن عباس والضحّاك وغيرهما: المعنى خلقنا آدم ثم صوّرناكم فى ظهره . وقال الأخفش: «ثم» بمعنى الواو . وقيل : المعنى «ولقد خلقناكم» يعنى آدم عليــه السلام، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، ثم صورناكم ؛ على التقــديم والتأخير . وقيل : «ولقد خلقناكم» يعنى آدم ؛ ذُكر بلفظ الجمع لأنه أبو البشر . «ثم صوّرناكم» راجع إليه أيضا . كما يقال : نحن قتلناكم ؛ أى قتلنا سيِّدكم . ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُــدُوا لِآدَمَ ﴾ وعلى هــذا لا تقديم ولا تأخير؛ عن ابن عبــاس أيضا . وقيل : المعنى ولقــد خلقناكم ، يريد آدم وحوّاء ؛ فآدم من التراب وحوّاء من ضلع من أضلاعه، ثم وقع التصوير بعد ذلك. فالمعنى : ولقد خلقنا أبوَيْكم ثم صوّرناهما؛ قاله الحسن . وقيل : المعنى خلقناكم فى ظهر آدم

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٢٦ ، ٢٥١ طبعة ثانية أو ثالثة .

ثم صوّرنا كم حين أخذنا عليكم الميثاق . هذا قول مجاهد ، رواه عنه ابن جُريج وابن أبي نَجيح .
قال النحاس : وهذا أحسن الأقوال . يذهب مجاهد إلى أنه خلقهم في ظهر آدم ، ثم صوّرهم حين أخذ عليهم الميثاق ، ثم كان السجود بعدُ . ويقوّى هـذا « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ »[1] . والحديثُ " أنه أخرجهم أمثال الذّرّ فأخذ عليهم الميثاق " . وقيل : « ثم » للإخبار ، أي ولقـد خلقناكم يعني في ظهر آدم صـلى الله عليه وسلم ، ثم صـورناكم أي في الأرحام . قال النحاس : هذا صحيح عن ابن عباس .

قلت : كل هذه الأقوال محتمل ، والصحيح منها ما يَعْضُده التنزيل ؛ قال الله تعالى : « وَلَقَـدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ »[2] يعني آدم . وقال : « وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا »[3] . ثم قال : « جَعَلْنَاهُ » أي جعلنا نسله وذريته « نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ »[2] الآية . فآدم خُلِق من طين ثم صُوّر وأكرم بالسجود ، وذريته صُوِّروا في أرحام الأمهات بعـد أن خُلقوا فيها وفي أصلاب الآباء . وقـد تقدّم في أوّل سورة « الأنعام » أن كل إنسان مخلوق من نطفة وتُرْبة ؛ فتأمله . وقال هنا : « خلقناكم ثم صوّرناكم » وقال في آخر الحشر : « هو الله الخالق البارئ المُصَوِّر » فذكر التصوير بعد البَرء . وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى . وقيل : معنى « ولقد خلقناكم » أي خلقنا الأرواح أوّلا ثم صوّرنا الأشباح آخرا .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ استثناء من غير الجنس . وقيـل من الجنس . وقـد اختلف العلماء : هـل كان من الملائكة أم لا ؛ كما سـبق بيانه في « البقرة »[4] .

قوله تعـالى : قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾

---

(١) آية ١٧٢ من هذه السورة . (٢) آية ١٢ وما بعدها سورة المؤمنون .
(٣) راجع جـ ٥ ص ١ طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع جـ ١ ص ٢٩٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعــالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ ﴾ « ما » فى موضع رفع بالابتداء ؛ أى أىّ شىء منعك . وهـذا سؤال توبيخ . ﴿ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ فى موضع نصب، أى من أن تسجد . و « لا » زائدة . وفى ص « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ »[1] وقال الشاعر :

أَبَى جُودُه لا البخلَ فآستعجلت به * نَعَمْ من فَتًى لا يمنـع الجودَ نائـلُه

أراد أبى جودُه البخلَ ، فزاد « لا » . وقيـل : ليست بزائدة ؛ فإن المنع فيـه طرف من القول والدعاء، فكأنه قال : من قال لك ألّا تسجد، أومن دعاك إلى ألّا تسجد . كما تقول : قـد قلت لك ألّا تفعل كذا . وقيل : فى الكلام حذف، والتقـدير : ما منعك من الطاعة وأحوجك إلى ألّا تسجد . قال العلماء : الذى أحوجه إلى ترك السجود هو الكبر والحسد؛ وكان أضمر ذلك فى نفسه إذا أُمر بذلك . وكان أمره من قبل خلق آدم؛ يقول الله تعالى : « إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ . فَإِذَا سَـوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُـوا لَهُ سَاجِدِينَ »[2] . فكأنه دخله أمر عظيم من قوله « فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » . فإن فى الوقوع توضـيع الواقع وتشريفًا لمن وُقع له ؛ فأضمر فى نفسه ألا يسجد إذا أمره فى ذلك الوقت . فلمـا نفخ فيـه الروح وقعت الملائكة سُجَّـدًا ، وبَقِىَ هو قائمـا بين أظهرهم ؛ فأظهر بقيامه وترك السجود ما فى الضمير . فقال الله تعالى : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ » أى ما منعك من الانقياد لأمرى؛ فأخرج سِرّ ضميره فقال : « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ » .

الثانيـــة — قوله تعــالى : ﴿ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ يدلّ على ما يقوله الفقهـاء من أن الأمر يقتضى الوجوب بمطلقه من غير قَرِينة ؛ لأن الذم عُلّق على ترك الأمر المطلق الذى هو قوله عز وجل للملائكة : « اسْجُدُوا لِآدَمَ » وهذا بيّن .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْـهُ ﴾ أى منعنى من السجود فَضْلِى عليـه؛ فهذا من إبليس جواب على المعنى . كما تقول : لمن هـذه الدار ؛ فيقول المخاطب : مالكها

---

(١) آية ٧٥ (٢) آية ٧١ سورة ص .

زيد . فليس هـذا عين الجواب ، بل هو كلام يرجع إلى معنى الجـواب . ﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ فرأى أن النار أشرف من الطين ؛ لعلوّها وصعودها وخفتها ، ولأنها جوهر مضيء . قال ابن عباس والحسن وابن سيرين : أوّل من قاس إبليسُ فأخطأ القياس . فمن قاس الدِّين برأيه قرنه الله مع إبليس . قال ابن سيرين : وما عُبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس . وقالت الحكماء : أخطأ عدوّ الله من حيث فضّل النار على الطين ، وإن كانا فى درجة واحدة من حيث هى جماد مخلوق . فإن الطين أفضل من النار من وجوه أربعة :

أحدها — أن من جوهر الطين الرزانة والسكون ، والوقار والأناة ، والحلم ، والحياء ، والصبر . وذلك هو الداعى لآدم عليه السلام بعد السعادة التى سبقت له إلى التوبة والتواضع والتضرع ، فأورثه المغفرة والاجتباء والهداية . ومن جوهر النار الخفة ، والطيش ، والحدّة ، والارتفاع ، والاضطراب . وذلك هو الداعى لإبليس بعد الشقاوة التى سبقت له إلى الاستكبار والإصرار ؛ فأورثه الهلاك والعذاب واللّعنة والشقاء ؛ قاله القَفَّال .

الثانى — أن الخبر ناطق بأن تراب الجنة مسك أَذْفَر ، ولم ينطق الخبر بأن فى الجنة نارا وأن فى النار ترابا .

الثالث — أن النار سبب العذاب ، وهى عذاب الله لأعدائه ؛ وليس التراب سببا للعذاب .

الرابع — أن الطين مستغنٍ عن النار ، والنار محتاجة إلى المكان ومكانُها التراب .

قلت — ويحتمل قولا خامسا وهو أن التراب مسجد وطهور ؛ كما جاء فى صحيح الحديث . والنار تخويف وعذاب ؛ كما قال تعالى : « ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ »[(1)] . وقال ابن عباس : كانت الطاعة أولى بإبليس من القياس فعصى ربّه ، وهو أوّل من قاس برأيه . والقياس فى مخالفة النصّ مردود .

الرابعة — واختلف الناس فى القياس إلى قائل به ، ورادٍّ له ؛ فأمّا القائلون به فهم الصحابة والتابعون ، وجمهور من بعدهم . وأن التَّعبّد به جائز عقلا واقع شرعا ، وهو الصحيح .

(١) آية ١٦ سورة الزمر .

وذهب القفّال من الشافعيّة وأبو الحسين البصريّ إلى وجوب التعبّد به عقلا. وذهب النظّام إلى أنه يستحيل التعبّد به عقلا وشرعا؛ وردّه بعض أهل الظاهر. والأول الصحيح. قال البخاري في (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة): المعنى لا عصمة لأحد إلا في كتاب الله أو سنة نبيّه أو في إجماع العلماء إذا وُجد فيها الحكمُ فإن لم يوجد فالقياس. وقد ترجم على هذا (باب مَن شَبّه أصلا معلوما بأصل مبيَّن قد بيّن الله حكمها ليفهَم السائلُ). وترجم بعد هذا (باب الأحكام التي تُعرف بالدلائل وكيف معنى الدلالة وتفسيرها). وقال الطبريّ: الاجتهاد والاستنباط من كتاب الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم وإجماعُ الأمة هو الحق الواجب، والفرضُ اللازم لأهل العلم. وبذلك جاءت الأخبار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، وعن جماعة الصحابة والتابعين. وقال أبو تمام المالكيّ: أجمعت الأمة على القياس؛ فمن ذلك أنهم أجمعوا على قياس الذهب والوَرِق في الزكاة. وقال أبو بكر: أَقيلوني بيعتي. فقال عليّ: واللهِ لا نُقيلك ولا نستقيلك، رضيك رسول الله صلى الله عليه وسلم لِدِيننا فلا نرضاك لدنيانا. فقاس الإمامة على الصلاة. وقاس الصدّيق الزكاة على الصلاةِ وقال: والله لا أفرق بين ما جمع الله. وصرح عليّ بالقياس في شارب الخمر بمحضر الصحابة وقال: إنه إذا سَكِر هذَى، وإذا هذَى افترى؛ فحدّه حدّ القاذف. وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري كتابا فيه: الفَهْمَ الفَهْمَ فيما يختلج في صدرك مما لم يبلغك في الكتاب والسنة، اعرف الأمثال والأشباه، ثم قِسِ الأمور عند ذلك، فاعمد إلى أحبّها إلى الله تعالى وأشبهها بالحق فيما ترى. الحديث بطوله ذكره الدارقطنيّ. وقد قال أبو عبيدة لعمر في حديث الوباء، حين رجع عمر من سَرْغ: نَفِرّ من قَدَر الله! فقال عمر: نَعَمْ! نفِرّ من قَدَر الله إلى قدر الله. ثم قال له عمر: أرأيت ...[1] فقايسه وناظره بما يشبه من مسألته بمحضر المهاجرين والأنصار، وحَسْبُك. وأما الآثار وآي القرآن في هذا المعنى فكثير. وهو يدلّ على أن القياس أصل من أصول الدّين، وعِصمة من عِصَم المسلمين، يرجع إليه المجتهدون، ويفزع إليه العلماء العاملون؛ فيستنبطون

(١) راجع الحديث في الموطأ «باب ما جاء في الطاعون».

به الأحكام . وهو قول الجماعة الذين هم الحجة ، ولا يلتفت إلى من شذ عنها . وأما الرأى المذموم والقياس المتكلّف المنهىُّ عنه فهو ما لم يكن على هذه الأصول المذكورة ؛ لأن ذلك ظن ونزغ من الشيطان ؛ قال الله تعالى : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ »[1] . وكلُّ ما يورده المخالف من الأحاديث الضعيفة والأخبار الواهية فى ذمّ القياس فهى محمولة على هذا النوع من القياس المذموم، والذى ليس له فى الشرع أصل معلوم. وتتميم هذا الباب فى كتب الأصول.

قوله تعالى : قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا ﴾ أى من السماء. ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ لأن أهلها الملائكة المتواضعون. ﴿ فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ أى من الأذلّين. ودلّ هذا أن من عصى مولاه فهو ذليل . وقال أبو رَوْق والبَجَلِيّ : « فاهبط منها » أى من صورتك التى أنت فيها ؛ لأنه افتخر بأنه من النار فشُوهت صورته بالإظلام وزوال إشراقه . وقيل : « فاهبط منها » أى انتقل من الأرض إلى جزائر البحار ؛ كما يقال : هبطنا أرض كذا أى انتقلنا إليها من مكان آخر ، فكأنه أخرج من الأرض الى جزائر البحار فسلطانه فيها ، فلا يدخل الأرض إلا كهيئة السارق[2] يخاف فيها حتى يخرج منها . والقول الأوّل أظهر . وقد تقدم فى « البقرة »[3] .

قوله تعالى : قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾

سأل النظرة والإمهال إلى يوم البعث والحساب . طلب ألّا يموت لأن يوم البعث لا موت بعده؛ فقال الله تعالى: « إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ » . قال ابن عباس والسُّدّى وغيرهما :

(١) آية ٣٦ سورة الإسراء .		(٢) فى بعض الأصول : « السارى » بالياء .
(٣) راجع جـ ١ ص ٣٢٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

أنظره إلى النفخة الأولى حيث يموت الخلق كلهم . وكان طلبَ الإنظار إلى النفخة الثانيـة حيث يقوم الناس لرب العالمين؛ فأبى الله ذلك عليه . وقال : « إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ » ولم يتقدّم ذِكْرُ مَن يبعث ؛ لأن القصة فى آدم وذريّته ، فدلّت القرينة على أنهم هم المبعوثون .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي ﴾ الإغواء إيقاع الغيّ فى القلب؛ أى فبما أوقعت فى قلبى من الغَيّ والعِناد والاستكبار . وهــذا لأن كفر إبليس ليس كفرَ جهل؛ بل هو كفر عناد واستكبار . وقد تقدّم فى « البقرة »[1] . قيل : معنى الكلام القَسَم؛ أى فبإغوائك إياى لأقعدنّ لهم على صراطك ، أو فى صراطك ؛ فحذف . دليل هــذا القول قولُه فى (ص) : « فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ »[2] فكأن إبليس أعظم قدر إغواء الله إياه لمـا فيــه من التسليط على العباد، فأقسم به إعظاما لقدره عنده . وقيل : الباء بمعنى اللام، كأنه قال : فلإغوائك إياى . وقيل : هى بمعنى مع، والمعنى فمع إغوائك إياى . وقيل : هو استفهام، كأنه سأل بأىّ شىء أغواه . وكان ينبغى على هذا أن يكون : فبم أغويتنى . وقيل : المعنى فبما أهلكتنى بلعنك إيّاى . والإغواء الإهلاك، قال الله تعالى : « فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا »[3] أى هلاكا . وقيل : فبما أضللتنى . والإغواء : الإضلال والإبعاد؛ قاله ابن عباس . وقيل : خيّبتنى من رحمتك؛ ومنه قول الشاعر :

* ومَنْ يَغْوَ لا يَعْدَم على الغَيّ لائما *[4]

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩٥ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٨٢ (٣) آية ٥٩ سورة مريم .
(٤) هذا عجز بيت للمرقش ، وصدره كما فى اللسان مادة غوى :
* فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره *

أى من يخب . وقال ابن الأعرابى : يقال غَوَى الرجل غَيًّا إذا فسد عليه أمره ، أو فسد هو فى نفسه . وهو أحد معانى قوله تعالى : « وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى » أى فسد عيشه فى الجنة . ويقال : غَوِىَ الفصيلُ إذا لم يُدِرّ لبنَ أمّه .

الثانيـــة — مذهب أهل السنة أن الله تعالى أضلّه وخلق فيه الكفر؛ ولذلك نسب الإغواء فى هذا إلى الله تعالى . وهو الحقيقة، فلا شىء فى الوجود إلا وهو مخلوق له، صادر عن إرادته تعالى . وخالف الإماميّة والقدريّة وغيرهما شيخهم إبليس الذى طاوعوه فى كل ما زَيّنه لهم، ولم يطاوعوه فى هـذه المسألة ويقولون : أخطأ إبليس، وهو أهل للخطأ حيث نسب الغَواية إلى ربّه ، تعالى الله عن ذلك . فيقال لهم : وإبليس وإن كان أهلا للخطأ فما تصنعون فى نبىّ مُكَرَّم معصوم، وهو نوح عليه السلام حيث قال لقومه : « وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِى إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »[1] وقد روى أن طاوسا جاءه رجل فى المسجد الحرام، وكان متّهَما بالقدر، وكان من الفقهاء الكبار؛ فجلس إليه فقال له طاوس : تقوم أو تقام؟ فقيل لطاوس : تقول هذا لرجل فقيه ! فقال : إبليس أفقه منه، يقول إبليس : رب بما أغويتنى . ويقول هذا : أنا أغوى نفسى .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أى بالصّدّ عنه، وتزيين الباطل حتى يهلكوا كما هلك، أو يضلّوا كما ضلّ ، أو يخيّبوا كما خُيّب؛ حسب ما تقدّم من المعانى الثلاثة فى «أغويتنى» . والصراط المستقيم هو الطريق الموصّل إلى الجنة . و «صِراطَك» منصـوب على حذف « على » أو « فى » من قوله « صراطك المستقيم » ؛ كما حكى سيبويه « ضرب زيد الظهر والبطن » . وأنشد :

لَدْنٌ بِهَزِّ الكَفِّ يَعْسِلُ مَتْنُه * فيه كما عَسَل الطريقَ الثّعلبُ[2]

---

(١) آية ٣٤ سورة هود .	(٢) البيت لساعدة بن جؤية . يريد فى الطريق . وصف فى البيت رُمْحًا لين الهز؛ فشبه اضطرابه فى نفسه أو فى حال هزه بعسلان الثعلب فى سيره . والعسل العسلان (بالتحريك) : سير سريع فى اضطراب . واللدن : الناعم اللين . (عن شرح الشواهد) .

ومن أحسن ما قيـل فى تأويل ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُـمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِـمْ وَعَنْ أَيْمَـانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾ أى لأصدّنّهم عن الحق، وأرغّبهم فى الدنيا، وأشككهم فى الآخرة . وهذا غاية فى الضلالة . كما قال : « وَلَأُضِلَّنَّهُم »(١) حسب ما تقدّم . وروى سفيان عن منصور عن الحكم بن عُيينة قال : « مِن بينِ أيديهم » من دنياهم . « ومِن خلفِهم » من آخرتهم . « وعن أيمانِهم » يعنى حسناتهم . « وعن شمـائِلهم » يعنى سيئاتهم . قال النحاس : وهذا قول حَسَن . وشرحه : أن معنى « ثم لآتِينهـم مِن بينِ أيديهِم » من دنياهم، حتى يكذبوا بما فيها من الآيات وأخبار الأمم السالفة « ومِن خلفِهم » من آخرتهم حتى يكذّبوا بها . « وعن أيمانِهم » من حسناتهم وأمور دينهم . ويدلّ على هذا قوله : « إنّكم كُنتُم تأتُونَنَا عَنِ اليَمِينِ »(٢) . « وعَن شَمَائِلِهِم » يعنى سيئاتهم؛ أى يتبعون الشهوات؛ لأنه يزيّنها لهم . ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ أى موحّدين طائعين مظهرين الشكر .

قوله تعـالى : قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَـا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُـمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا ﴾ أى من الجنّة . ﴿ مَذْءُومًا مَدْحُورًا ﴾ « مَذْءُومًا » أى مذموما . والذَّأْمُ(٣) : العيب ، بتخفيف المـيم . قال ابن زيد : مذءوما ومذموما سواء ؛ يقال : ذَأَمْته وذَمَمْته وذِمْته بمعنًى واحد . وقرأ الأعمش « مَذوما » . والمعنى واحد؛ إلا أنه خفّف الهمزة . وقال مجاهـد : المذءوم المنفيّ . والمعنيان متقاربان . والمدحور : المبعـد المطرود؛ عن مجاهد وغيره . وأصله الدفع . ﴿ لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُم لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ اللام لام القَسَم ، والجواب « لأملان جهنم » . وقيـل : « لَمَنْ تَبِعك » لام توكيـد . « لأملان » لام قَسَم . والدليل على هذا أنه يجوز فى غير القراءة حذفُ اللام الأولى، ولا يجوز

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٨٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٣٨ سورة الصافات .

(٣) لا حاجة لهذا القيد ؛ فان الهمز كاف للفرق بينه وبين الذم .

حذف الثانية . وفى الكلام معنى الشرط والمجازاة ؛ أى من تبعك عذّبته . ولو قلت : من تبعك أعذبه لم يجز؛ إلا أن تريد لأعذبه . وقرأ عاصم من رواية أبى بكر بن عيّاش « لِمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ » بكسر اللام . وأنكره بعض النحويين . قال النحاس : وتقديره — والله أعلم — من أجل من تبعك . كما يقال : أكرمت فلانا لك . وقد يكون المعنى : الدَّحر لمن تبعك . ومعنى ﴿ مِنكُم أجمعين ﴾ أى منكم ومن بنى آدم ؛ لأن ذكرهم قد جرى إذ قال : « ولقد خلقناكم » خاطب ولد آدم .

قوله تعالى : ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

قال لآدم بعد إخراج إبليس من موضعه من السماء : اسكن أنت وحوّاء الجنة . وقد تقدّم فى البقرة[1] معنى الإسكان، فأغنى عن إعادته . وقد تقدّم معنى « ولا تقربا هذه الشجرة »[2] هناك . والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ أى إليهما . قيل : داخل الجنة بإدخال الحية إياه . وقيل : من خارج، بالسّلْطنة التى جعلت له . وقد مضى هذا فى « البقرة » . والوسوسة : الصوت الخفىّ . والوسوسة : حديث النفس ؛ يقال : وَسْوست إليه نفسُه وَسوسة ووِسواسا (بكسر الواو) . والوَسواس (بالفتح) : اسم، مثل الزَّلزال . ويقال لهمس الصائد والكلاب وأصوات الحلى وَسْواس . قال الأعشى :

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩٨ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) جـ ١ ص ٣٠٤ طبعة ثانية أو ثالثة

تَسْمع للحَلْى وَسْواسًا إذا ٱنْصرفت * كما ٱستعان بريحٍ عِشْرِقٌ زَجِل (١)

والوَسواس: اسم الشيطان؛ قال الله تعالى: «مِنْ شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ». ﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا ﴾ أى ليظهر لهما. واللام لام العاقبة؛ كما قال: «لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا» (٢). وقيل: لامُ كَيْ. و﴿ وُورِيَ ﴾ أى سُتر وغطِّى عنهما. ويجوز فى غير القرآن أُورِى، مثل أُقِّتت. ﴿ مِنْ سَوْءَاتِهِمَا ﴾ وسُمِّى الفرج عورة لأن إظهاره يسوء صاحبه. ودلّ هذا على قبح كشفها فقيل: إنما بدت سوءاتهما لهما لا لغيرهما؛ كان عليهما نور لا ترى عوراتهما فزال النّوْر (٣). وقيل: ثوب؛ فتهافت (٤)، والله أعلم. ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ «أن» فى موضع نصب، بمعنى إلا كراهية أن؛ فحذف المضاف. هذا قول البصريين. والكوفيون يقولون: لئلا تكونا. وقيل: أى إلّا ألّا تكونا ملكين تعلمان الخير والشر. وقيل: طمع آدم فى الخلود؛ لأنه علم أن الملائكة لا يموتون إلى يوم القيامة. قال النحاس: وبيّن الله عز وجل فضل الملائكة على جميع الخلق فى غير موضع من القرآن؛ فمنها هذا، وهو «إلّا أن تكونا ملكين». ومنه «وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ» (٥). ومنه «وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ» (٦). وقال الحسن: فضل الله الملائكة بالصور والأجنحة والكرامة. وقال غيره: فضلهم جل وعز بالطاعة وترك المعصية؛ فلهذا يقع التفضيل فى كل شيء. وقال ٱبن فُورَك. لا حجة فى هذه الآية؛ لأنه يحتمل أن يريد ملكين فى ألا يكون لهما شهوة فى طعام. وٱختيار ابن عباس والزجاج وكثير من العلماء تفضيل المؤمنين على الملائكة؛ وقد مضى فى «البقرة» (٧). وقال الكَلْبيّ: فُضِّلوا على الخلائق كلهم، غير طائفة من الملائكة: جبريل وميكائيل وإسرافيل ومَلَك الموت؛ لأنهم من جملة رسل الله. وتمسك كل فريق بظواهر من الشريعة، والفضل بيد الله. وقرأ ابن عباس «مَلِكين» بكسر اللام، وهى قراءة يحيى بن كثير والضحاك. وأنكر أبو عمرو

---

(١) العشرق (كزبرج): شجر قدر ذراع له حب صغار إذا جف صوت بمرّ الريح.
(٢) آية ٨ سورة القصص. (٣) النور (بفتح النون): الزهر. (٤) تهافت: تساقط.
(٥) آية ٣١ سورة هود. (٦) آية ١٧٢ سورة النساء. (٧) راجع جـ ١ ص ٢٨٩ طبعة ثانية أو ثالثة.

ابن العــلاء كسر اللام وقال : لم يكن قبل آدم صلى الله عليـه وسلم مَلِك فيصيرا مَلِكين . قال النحاس : ويجوز على هذه القراءة إسكان اللام، ولا يجوز على القراءة الأولى لخفة الفتحة . قال ابن عباس : أتاهما الملعون من جهة المُلْك ؛ ولهــذا قال « هَـلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى »[1] . وزعم ابو عبيد أن احتجاج يحيى بن كَثير بقوله « وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى » حجة بيّنة، ولكن الناس على تركها فلهذا تركناها . قال النحاس : «إلّا أن تكونا مَلِكين» قراءة شاذة . وقد أنكر على أبي عبيد هــذا الكلام، وجعل من الخطأ الفاحش . وهل يجوز أن يتوهم آدم عليه السلام أنه يصل إلى أكثر من ملك الجنة ؛ وهي غاية الطالبين . وإنمـا معنى « وملك لا يبلى » المقام في ملك الجنة، والخلود فيه .

قوله تعـالى : وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا ﴾ أي حلف لها . يقـال : أقسم إقساما ؛ أي حلف . قال الشاعر :

وقاسمها بالله جَهْـدًا لأنتم * ألذُّ من السَّلْوَى إذا ما نَشُورُها[2]

وجاء « فاعلت » من واحد . وهو ردّ على من قال : إن المفـاعلة لا تكون إلا من آثنين . وقــد تقدّم في « المـائدة » . ﴿ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ ليس « لكما » داخلا في الصــلة . والتقدير: إني ناصح لكما لمن الناصحين؛ قاله هشام النّحوي . وقد تقدّم مثله في « البقرة » . ومعنى الكلام : آتبعاني أرشدكما ؛ ذكره قتادة .

قوله تعـالى : فَدَلَّـٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا

(١) آية ١٢٠ سورة طه . (٢) السلوى : العسل . وشار العسل : اجتناه وأخذه من موضعه .

ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ أوقعهما فى الهلاك . قال ابن عباس : غرهما باليمين . وكان يظن آدمُ أنه لا يحلف أحد بالله كاذبا، فغرّهمـا بوسوسته وقسَمه لهما . وقال قَتادة : حلف بالله لهما حتى خدعهما . وقد يُخْدَع المؤمن بالله . كان بعض العلماء يقول : من خادعنا بالله خَدَعنا . وفى الحديث عنـه عليه السـلام : "المؤمن غِرٌّ كريم والفاجر خَبٌّ لئيم"(1) . وأنشد نَفْطَويه :

إن الكريم إذا تشاء خدعتَه * وترى اللئيم مُجَرِّبا لا يُخْـدَعُ

﴿ فَدَلَّاهُمَا ﴾ يقال : أدْلَى دَلْوه أرسلها . ودَلّاها: أخرجها . وقيل « دَلّاهما » أى دَلّلهما ؛ من الدّالة وهى الجُرأة . أى جرأهما على المعصية فخرجا من الجنة .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ ﴾ أى أكلا منها . وقد مضى فى « البقرة »(2) الخلاف فى هذه الشجرة، وكيف أكل آدم منها . ﴿ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ أكلت حوّاء أوّلا فلم يصبها شيء، فلما أكل آدم حلّت العقوبة ؛ لأن النّهىَ ورد عليهما كما تقدم فى «البقرة»(2) . قال ابن عباس : تقلّص النُّور الذى كان لباسهما فصار أظفارا فى الأيدى والأرجل .

الثانيـــة ــ ﴿ وَطَفِقَا ﴾ ويجوز إسكان الفاء . وحكى الأخفش طَفَق يطفِق ؛ مثلُ ضرب يضرب . يقال : طفِق، أى أخذ فى الفعل . ﴿ يَخْصِفَانِ ﴾ قرأ الحسن بكسر الخاء

(1) الغر : الذى لا يفطن للشر . والخب (بكسر الخاء وفتحها) : ضد الغر، وهو الخداع المفسد .

(2) راجع جـ ١ ص ٣٠٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

وشدّ الصاد . والأصل « يختصفان » فأدغم، وكسر الخاء لالتقاء الساكنين . وقرأ ابن بريدة ويعقوب بفتح الخاء ، ألقيا حركة التاء عليها . ويجوز « يُخَصِّفَانِ » بضم الياء، من خصّف يخصف . وقرأ الزُّهريّ « يُخْصِفانِ » من أخصف . وكلاهما منقول بالهمزة أو التضعيف . والمعنى : يقطعان الورق ويُلزقانه ليستترا به ، ومنه خَصَف النعل . والخَصّاف الذي يرقّعها . والمِخْصف المِثقب . قال ابن عباس : هو ورق التين . ويروى أن آدم عليه السلام لما بدت سوأته وظهرت عورته طاف على أشجار الجنة يَسُلّ منها ورقة يغطّى بها عورته ؛ فزجرته أشجار الجنة حتى رَحِمته شجرة التّين فأعطته ورقة . فـ«طفقا» يعنى آدم وحواء « يخصفان عليهما من ورق الجنة » فكافأ الله التين بأن سوّى ظاهره وباطنه فى الحلاوة والمنفعة ، وأعطاه ثمرتين فى عام واحد مرتين .

الثالثة — وفى الآية دليل على قبح كشف العورة ، وأنّ الله أوجب عليهما الستر ؛ ولذلك ابتدرا إلى سترها ، ولا يمتنع أن يؤمرا بذلك فى الجنة ؛ كما قيل لهما : « وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ » . وقد حكى صاحب البيان عن الشافعيّ أن من لم يجد ما يستر به عورته إلا ورق الشجر لزمه أن يستتر بذلك ؛ لأنه سترة ظاهرة يمكنه الستر بها ؛ كما فعل آدم فى الجنة . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ . قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أى قال لهما ألم أنهكما . ﴿ قَالَا رَبَّنَا ﴾ نداء مضاف . والأصل يا ربنا . وقيل إن فى حذف « يا » معنى التعظيم . فاعترفا بالخطيئة وتابا . وقد مضى فى « البقرة »(1) . ومعنى قوله : ﴿ قَالَ اهْبِطُوا ﴾ تقدّم أيضا(2) إلى آخر الآية .

قوله تعالى : قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

الضمائر كلها للأرض . ولم يذكر الواو فى « قال » ، ولو ذكرها لجاز أيضا . وهو كقولك : قال زيد لعمرو ، وكذا قال له كذا .

---

(1) راجع جـ ١ ص ٣٢٤ طبعة ثانية أو ثالثة . (2) راجع جـ ١ ص ٣١٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوارِي سَوْءَاتِكُمْ ﴾ قال كثير من العلماء : هذه الآية دليل على وجوب ستر العورة ؛ لأنه قال : « يُوارِي سوءاتِكم » . وقال قوم : إنه ليس فيها دليل على ما ذكروه ، بل فيها دلالة على الإنعام فقط .

قلت : القول الأول أصح . ومن جملة الإنعام سَتْرُ العورة ؛ فبيّن أنه جعل لذرّيته ما يسترون به عوراتهم ، ودلّ على الأمر بالتستر . ولا خلاف بين العلماء في وجوب ستر العورة عن أعين الناس . واختلفوا في العورة ما هي ؟ فقال ابن أبي ذئب : هي من الرجل الفرج نفسه ، القُبُلُ والدُّبر دون غيرهما . وهو قول داود وأهل الظاهر وابن أبي عبلة[1] والطبري ؛ لقوله تعالى : « لِبَاسًا يُوارِي سوءاتِكم » ، « بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا » ، « لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِما » . وفي البخاريّ عن أنس : « فأجرى[2] رسول الله صلى الله عليه وسلم في زِقاق خَيْبَر — وفيه — ثم حَسَر الإزار عن فَخِذه[3] حتى إني أنظر إلى بياض فَخِذ نبيّ الله صلى الله عليه وسلم » . وقال مالك : السُّرة ليست بعورة ، وأكره للرجل أن يكشف فَخِذه بحضرة زوجته . وقال أبو حنيفة : الركبة عورة . وهو قول عطاء . وقال الشافعيّ : ليست السُّرة ولا الركبتان من العورة على الصحيح . وحكى أبو حامد الترمذي أن للشافعيّ في السّرة قولين . وحجة مالك قولُه عليه السلام لجَرْهَد : " غَطّ فخذك فإن الفَخذ عورة " . خرّجه البخاريّ تعليقا وقال : حديث أنس أَسْنَدُ[4] ، وحديث جَرْهَد أحوطُ حتى يُخْرَجَ من اختلافهم . وحديث جَرْهَد هذا

(١) في بعض نسخ الأصل : « وابن علية » . (٢) أي أجرى دابته .
(٣) أي عند سوق مركوبه ليتمكن من ذلك . راجع شرح القسطلاني (كتاب الصلاة — باب ما يذكر في الفخذ) .
(٤) أي أقوى وأحسن سندا من الحديث السابق .

يدل على خلاف ما قال أبو حنيفة . ورُوى أن أبا هريرة قَبَّلَ سُرَّة الحسن بن علىّ وقال : أُقَبِّل منك ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقَبِّل منك . فلو كانت السُّرَّةُ عورة ما قَبَّلها أبو هريرة، ولا مَكَّنه الحسن منها. وأما المرأة الحرة فعورة كلّها إلا الوجه والكفين. على هذا أكثر أهل العلم . وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من أراد أن يتزوّج آمرأة فلْينظر إلى وجهها وكَفّيها " . ولأن ذلك واجب كَشْفُه فى الإحرام . وقال أبو بكر بن عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام : كلّ شيء من المرأة عورة حتى ظُفرها. وروى عن أحمد بن حنبل نحوُه . وأما أمُّ الولد فقال الأثرم : سمعته — يعنى أحمد بن حنبل — يُسأل عن أم الولد كيف تصلّى ؟ فقال : تُغَطِّى رأسها وقدميها ؛ لأنها لا تُبَاع ، وتُصلّى كما تصلى الحرة . وأما الأَمَة فالعورة منها ما تحت ثديها، ولها أن تُبدى رأسها ومِعْصَمَيها . وقيل : حكمها حكم الرجل . وقيل : يُكره لها كشف رأسها وصدرها . وكان عمر رضى الله عنه يضرب الإماء على تغطيتهن رءوسهن ويقول: لاتشبهن بالحرائر. وقال أَصْبَغ: إن انكشف فخذها أعادت الصلاة فى الوقت . وقال أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: كل شىء من الأمة عورة حتى ظفرها. وهذا خارج عن أقوال الفقهاء؛ لأجماعهم على أن المرأة الحرة لها أن تصلى المكتوبة ويداها ووجهها مكشوف ذلك كله ، تباشر الأرض به . فالأَمَة أَوْلَى ، وأُمُّ الولد أغلظ حالا من الأمة . والصبيُّ الصغير لا حُرمة لعورته . فإذا بلغت الجارية إلى حَدٍّ تأخذها العين وتُشْتَهَى سترت عورتها . وحجة أبى بكر بن عبد الرحمن قوله تعالى : « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ »[1] . وحديثُ أم سلمة أنها سئلت : ما ذا تصلى فيه المرأة من الثياب؟ فقالت : تصلى فى الدِّرع والخمار السابغ الذى يُغَيِّب ظهور قدميها . وقد روى مرفوعا . والذين أوقفوه على أم سلمة أكثر وأحفظ ؛ منهم مالك وابن إسحاق وغيرهما . قال أبو داود : ورفعه عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن محمد بن زيد عن أمّه عن أم سلمة أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) آية ٥٩ سورة الأحزاب .

قال أبو عمر : عبد الرحمن هـذا ضعيف عندهم ؛ إلا أنه قد خرّج البخارى بعض حديثه . والإجماع فى هذا الباب أقوى من الخبر .

الثانيـــة ـــ قوله تعالى: ﴿ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا ﴾ يعنى المطر الذى ينبت القطن والكتّان، ويقيم البهائم الذى منها الأصواف والأوبار والأشعار؛ فهو مجاز مثل « وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ »(١) على ما يأتى . وقيل : هذا الإنزال إنزالُ شىء من اللباس مع آدم وحوّاء، ليكون مثالا لغـيره . وقال سعيد بن جُبير . « أنزلنا عليكم » خلقنا لكم ؛ كقوله : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانيةَ أزواج » أى خلق . على ما يأتى . وقيل : ألهمناكم كيفية صنعته .

الثالثـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَرِيشًا ﴾ قرأ أبو عبـد الرحمن والحسن وعاصم من رواية المفضّـل الضّبى ، وأبو عمرو من رواية الحســين بن على الجُعْفِىّ « ورياشا » . ولم يحـكه أبو عبيد إلا عن الحسن ، ولم يفسر معناه . وهو جمع ريش . وهو ما كان من المـال واللباس . وقال الفرّاء : ريش ورياش، كما يقال : لِبْس ولِباس . وريش الطائر ما ستره الله به . وقيل : هو الخصب ورَفاهيةُ العيش . والذى عليه أكثر أهل اللغة أن الريش ما ستر من لباس أو معيشة . وأنشد سيبويه :

فَرِيشِى منكمُ وهَواىَ معكم * وإن كانت زيارتكم لِمـاما

وحكى أبو حاتم عن أبى عبيدة : وهبْت له دابة بريشها؛ أى بكسوتها وما عليها من اللباس .

الرابعـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ بيّن أن التقوى خير لباس ؛ كما قال :

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التُّقَى * تقلب عُرياناً وإن كان كاسيا

وخيرُ لبـاس المرء طاعةُ ربِّه * ولا خيرَ فيمن كان لله عاصيا

وروى قاسم بن مالك عن عوف عن معبـد الجُهَنِىّ قال : « لباس التقـوى » الحيـاء . وقال ابن عباس : « لبـاس التقوى » هـو العمل الصالح . وعنـه أيضا السَّمْت الحَسَن

---

(١) آية ٦ سورة الزمر .

في الوجه . وقيل ما علمه عز وجل وهدى به . وقيل : « لباس التقوى » لبس الصوف والخشن من الثياب، مما يتواضع به لله تعالى ويتعبّد له خيرٌ من غيره. وقال زيد بن علىّ : « لباس التقوى » الدّرع والمِغفر، والساعدان، والساقان، يُتّقى بهما في الحرب . وقال عروة بن الزبير : هو الخشية لله . وقيل : هو استشعار تقوى الله تعالى فيما أمر به ونهى عنه .

قلت : وهو الصحيح، وإليه يرجع قول ابن عباس وعروة . وقول زيد بن علىّ حَسَنٌ، فإنه حضٌّ على الجهاد . وقال ابن زيد : هو ستر العورة . وهذا فيه تكرار؛ إذ قال أوّلا : « قد أنزلنا عليكم لباسا يُوارى سوءاتكم » . ومن قال إنه لبس الخشن من الثياب فإنه أقرب إلى التواضع وترك الرعونات فدَعْوَى؛ فقد كان الفضلاء من العلماء يلبَسون الرفيع من الثياب مع حصول التقوى، على ما يأتي مبيّنا إن شاء الله تعالى . وقرأ أهل المدينة والكسائىّ « ولباسَ » بالنصب عطفا على « لباسا » الأول . وقيل : انتصب بفعل مضمر؛ أي وأنزلنا لباس التقوى . والباقون بالرفع على الابتداء . و «ذلك» نعته و «خير» خبر الابتداء . والمعنى : ولباس التقوى المشار إليه، الذى علمتموه، خيرٌ لكم من لبس الثياب التى تُوارى سوءاتكم، ومن الرِّياش الذى أنزلنا إليكم؛ فالبَسوه . وقيل: ارتفع بإضمار هو؛ أى وهو لباس التقوى؛ أى وهو ستر العورة . وعليه يُخرَّج قول ابن زيد . وقيل : المعنى ولباس التقوى هو خير؛ فـ « ذلك » بمعنى هو . والإعراب الأوّل أحسنُ ما قيل فيه . وقرأ الأعمش « ولباس التقوى خير » ولم يقرأ « ذلك » . وهو خلاف المصحف . ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ ٱللَّهِ ﴾ أى مما يدلّ على أن له خالقا . و « ذلك » رفع على الصفة، أو على البدل، أو عطف بيان .

قوله تعالى : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢٧)

فيـــه مسألتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ ﴾ أى لا يصرفنّكم الشيطان عن الدِّين ؛ كما فتن أبويكم بالإخراج من الجنة . « أب » للذكر، و « أبة » للؤنث . فعلى هذا قيل : أبوان . ﴿ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا ﴾ فى موضع نصب على الحال . ويكون مستأنفا فيوقف على « من الجنة » . ﴿ لِيُرِيَهُمَا ﴾ نصب بلام كىّ . ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾ الأصل « يرءاكم » ثم خففت الهمزة . « وقبيله » عطف على المضمر وهو توكيـد ليحسُن العطف ؛ كقوله : « اُسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ » . وهـذا يدلّ على أنه يقبُح رأيتك وعمرو ، وأن المضمر كالمظهر . وفى هذا أيضا دليل على وجوب ستر العورة؛ لقوله : « يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا » . قال الآخرون: إنما فيه التحذير من زوال النعمة؛ كما نزل بآدم عليه السلام . هذا أن لو ثبت أن شرع آدم يلزمنا، والأمر بخلاف ذلك .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾ « قبيله » جنوده . قال مجاهد : يعنى الجن والشياطين. ابن زيد : «قبيله» نسله . وقيل : جيله . ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ قال بعض العلماء : فى هـذا دليل على أن الجن لا يُرَون؛ لقوله : « من حيث لاترونهم » . وقيـل : جائز أن يُرَوْا ؛ لأن الله تعـالى إذا أراد أن يريهم كشف أجسامهم حتى ترى . قال النحاس : « من حيث لا ترونهم » يدلّ على أن الجن لا يُرَون إلا فى وقت نبىّ ؛ ليكون ذلك دلالة على نبوّته ؛ لأن الله جل وعز خلقهم خلقا لا يُرَون فيه ، وإنما يرون إذا نُقلوا عن صورهم . وذلك من المعجزات التى لا تكون إلا فى وقت الأنبيـاء صلوات الله عليهم . قال القُشَيرىّ : أجرى الله العادة بأن بنى آدم لا يَرون الشياطين اليوم . وفى الخبر " إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم " . وقال تعالى : « الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ » . وقال عليه السلام : " إن للملَك لَمّة وللشيطان لَمّة — أى بالقلب — فأما لَمّة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق وأما لَمّة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق " . وقد تقـدم

فى « البقرة »[(١)] . وقد جاء فى رؤيتهم أخبار صحيحة . وقد خرّج البخاريّ عن أبى هريرة قال: وكّلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان ، وذكر قصة طويلة ، ذكر فيها أنه أخذ الجنّىّ الذى كان يأخذ التمر ، وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال له : " ما فعل أسيرك البارحة " . وقد تقدّم فى « البقرة »[(٢)] . وفى صحيح مسلم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " والله لولا دعوة أخى سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدينة " — فى العفريت الذى تفلّت[(٣)] عليه . وسيأتى فى « ص »[(٤)] إن شاء الله تعالى . ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى زيادة فى عقوبتهم وسوّينا بينهم فى الذهاب عن الحق .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

الفاحشة هنا فى قول أكثر المفسرين طوافهم بالبيت عراة . وقال الحسن : هى الشرك والكفر . واحتجّوا على ذلك بتقليدهم أسلافهم، وبأن الله أمرهم بها . قال الحسن : « وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا » قالوا : لو كره الله ما نحن عليه لنقلنا عنه . ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ بيّن أنهم متحكّمون، ولا دليل لهم على أن الله أمرهم بما ادّعوا . وقد مضى ذمّ التقليد وذمّ كثير من جهالاتهم . وهذا منها .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٢٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢٦٩ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) أى تعرض بغتة . (٤) فى قوله تعالى : « قال رب اغفرلى وهب لى ... » آية ٣٥

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ ﴾ قال ابن عبـاس : لا إله إلّا الله . وقيل : القسط العـدل ؛ أى أمر بالعـدل فأطيعوه . ففى الكلام حذف . ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ أى توجّهوا إليه فى كل صـلاة إلى القِبْلة . ﴿ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ أى فى أى مسجد كنتم . ﴿ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أى وحدّوه ولا تشركوا به . ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ نظيره « ولقد جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ »[1] وقد تقدم . والكاف فى موضع نصب؛ أى تعودون كما بدأكم؛ أى كما خلقكم أوّل مرّة يعيدكم . وقال الزجاج : هو متعلّق بما قبله . أى ومنها تخرجون كما بدأكم تعودون . ﴿ فَرِيقًا هَـدَى ﴾ « فريقاً » نصب على الحال من المضمر فى « تعودون » أى تعودون فريقين : سعداء، وأشقياء . يقوّى هذا قراءةُ أُبَيّ « تعودون فريقَين فريقًـا هدى وفريقًا حقّ عليهِمُ الضـلالة » ؛ عن الكسائى . وقال كعب القُرَظِىّ فى قوله تعالى : « فَرِيقًا هَدَى وفريقًا حقّ عليهمُ الضلالةُ » قال : من ابتدأ الله خلقه للضلالة صَيّره إلى الضلالة، و إن عمِل عمل أهـل السعادة . ومن ابتدأ الله خلقه على الهـدى صَيّره إلى الهدى ، و إن عمِل بأعمال الضلالة . ابتدأ الله خلق إبليس على الضلالة ، وعمِل بعمل السعادة مع الملائكة، ثم ردّه الله إلى ما ابتدأ عليه خلقه . قال : « وكان مِن الكافِرين » .

وفى هذا ردٌّ واضح على القدرية ومَن تابعهم . وقيل : « فريقًا » نصب بـ « هَدَى » ، « وفريقا » الثانى نصب بإضمار فعل؛ أى وأضلّ فريقا . وأنشد سيبويه :

أصبحتُ لا أحمل السلاحَ ولا * أملِك رأسَ البعــير إنْ نَفَـرا
والذئبُ أخشاه إن مررتُ به * وَحْدِى وأخشى الرياحَ والمطرا[2]

قال الفَرّاء : ولو كان مرفوعا لجاز . ﴿ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ وقرأ عيسى ابن عمر « أنهم » بفتح الهمزة، بمعنى لأنهم .

قوله تعـالى : ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوٓا إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

(١) آية ٩٤ سورة الأنعام ص ٤٢ من هذا الجزء .

(٢) البيتان للربيع بن ضبع الفزارى . وصف فيهما انتهاء شبيبته وذهاب قوته .

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَابَنِي آدَمَ ﴾ هو خطاب لجميع العالم ، وإن كان المقصود بها من كان يطوف من العرب بالبيت عُريانا ؛ فإنه عامٌّ في كل مسجد للصلاة . لأن العبرة للعموم لا للسّبب . ومن العلماء من أنكر أن يكون المراد به الطواف ؛ لأن الطواف لا يكون إلا في مسجد واحد . والذي يعم كلّ مسجد هو الصلاة . وهذا قول مَن خفي عليه مقاصد الشريعة . وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال : كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عُريانة وتقول : من يُعيرُني تِطْوَافًا ؟ تجعله على فرجها . وتقول :

اليوم يَبْدُو بعضُه أو كلّه * وما بدا منه فلا أُحِلُّه

فنزلت هذه الآية « خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ » . التّطواف (بكسر التاء) . وهذه المرأة هي ضُباعة بنت عامر بن قُرْط ؛ قاله القاضي عياض . وفي صحيح مسلم أيضا عن هشام بن عروة عن أبيه قال : كانت العرب تطوف بالبيت عُراةً إلا الحُمْس ، والحُمْسُ قريش وما ولدت ، كانوا يطوفون بالبيت عُراةً إلا أن تُعطيهم الحُمْسُ ثيابا فيُعْطِي الرجالُ الرجالَ والنساءُ النساءَ . وكانت الحمس لا يخرجون من المُزْدَلِفة ، وكان الناس كلّهم يقفون بعرفات[1] . في غير مسلم ويقولون : نحن أهل الحَرَم ، فلا ينبغي لأحد من العرب أن يطوف إلا في ثيابنا ، ولا يأكل إذا دخل أرضنا إلا من طعامنا . فمن لم يكن له من العرب صديق بمكة يُعيره ثوبا ولا يَسارٌ يستأجره به كان بين أحد أمرين : إما أن يطوف بالبيت عُريانا ، وإما أن يطوف في ثيابه ؛ فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه عنه فلم يمسه أحد . وكان ذلك الثوب يُسَمَّى اللَّقَى ؛ قال قائل من العرب :

كَفَى حَزَنًا كَرِّي عليه كأنه * لَقًى بين أيدي الطائفين حَرِيمُ

فكانوا على تلك الجهالة والبدعة والضلالة حتى بعث الله نبيه محمدا عليه السلام ؛ فأنزل الله تعالى : « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ » . وأذّن مؤذّن رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألَا لا يطوف بالبيت عُريانٌ .

(١) في صحيح مسلم : « يبلغون عرفات » .

قلت : ومن قال بأن المراد الصلاة فزينتها النعال؛ لمـا رواه كُرْز بن وَبْرَة عن عطاء عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال ذات يوم : " خذوا زينة الصلاة " قيل : وما زينة الصلاة ؟ قال : " البسوا نعالكم فصَلّوا فيها " .

الثانيــة — دلّت الآية على وجوب ستر العورة كما تقـدّم . وذهب جمهور أهل العلم إلى أنهـا فرض من فروض الصلاة . وقال الأَبْهَرِيّ هي فرض في الجملة ، وعلى الإنسان أن يسترها عن أعين الناس في الصلاة وغيرها . وهو الصحيح ؛ لقوله عليه السلام للمِسْـوَر بن مَخْرَمة : " ارجع إلى ثو بك نخذه ولا تمشوا عراة " . أخرجه مسلم. وذهب إسماعيل القاضي إلى أن ســتر العورة من سنن الصلاة ، وآحتج بأنه لو كان فرضا في الصــلاة لكان العريان لا يجوز له أن يصلي ؛ لأن كل شيء من فروض الصــلاة يجب الإتيان به مع القدرة عليه ، أو بدله مع عدمه، أو تسقط الصلاة جملةً ، وليس كذلك . قال ابن العربيّ : وإذا قلنا أن ستر العورة فرض في الصلاة فسقط ثوبُ إمامٍ فانكشف دُبُره وهو راكع فرفع رأســه فغطّاه اجزأه ؛ قاله ابن القــاسم . وقال سُحْنون : وكلّ من نظر إليه من المأمومين أعاد . ورُوى عن سُحنون أيضا أنه يعيد ويعيدون؛ لأن ستر العورة شرط من شروط الصلاة ، فإذا ظهرت بطلت الصلاة . أصله الطهارة . قال القاضي آبن العربيّ : أما من قال إن صلاتهم لاتبطل فإنهم لم يفقدوا شرطا . وأما من قال إن أخذه مكانه صحت صلاته وتبطل صــلاة من نظر إليه فصحيفة يجب مَحْوها ولا يجوز الاشتغال بها . وفي البخاريّ والنّسائيّ عن عمرو بن سَلَمة قال : لمـا رجع قومي من عند النبيّ صلى الله عليه وسلم قالوا قال : " ليؤمّكم أكثركم قراءة للقرآن " . قال : فدعوني فعلّموني الركوع والسجود ؛ فكنت أصـلّي بهم وكانت عليّ بردة مفتوقة، وكانوا يقولون لأبي : ألَا تُغَطِّي عنا آسْتَ آبنك . لفظ النّسائيّ . وثبت عن سهل ابن سعد قال: لقد كانت الرجال عاقدي أُزُرهم في أعناقهم من ضيق الأُزُر خلف رسول الله صـلى الله عليه وسلم في الصــلاة كأمثال الصبيان ؛ فقال قائل : يا معشر النساء ، لا ترفعن رءوسكن حتى ترفع الرجال . أخرجه البُخاريّ والنّسائيّ وأبو داود .

الثالثة — واختلفوا إذا رأى عورة نفسه؛ فقال الشافعيّ: إذا كان الثوب ضيقا يَزُرّه أو يخلّله بشيء لئلا يتجافى القميص فتُرى من الجيب العورة، فإن لم يفعل ورأى عورة نفسه أعاد الصلاة . وهو قول أحمد . ورخّص مالك في الصلاة في القميص محلول الأزرار ليس عليه سراويل . وهو قول أبي حنيفة وأبي ثَوْر . وكان سالم يُصلّي محلولَ الأزرار . وقال داود الطائي : إذا كان عظيم اللحية فلا بأس به . وحكى معناه الأثْرم عن أحمد . فإن كان إمامًا فلا يصلّي إلا بردائه؛ لأنه من الزينة . وقيل : من الزينة الصلاة في النعلين؛ رواه أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ولم يصحّ . وقيل : زينة الصلاة رفع الأيدي في الركوع وفي الرفع منه . قال أبو عمر : لكل شيء زينة وزينةُ الصلاة التكبير ورفع الأيدي . وقال عمر رضي الله عنه : إذا وَسّع الله عليكم فأوسعوا على أنفسكم، جَمَع رجل عليه ثيابه، صلّى في إزار[1] ورِداء، في إزار وقميص، في إزار وقَباء، في سراويلَ ورداء، في سراويلَ وقميص، في سراويلَ وقَباء[2] — وأحسبه قال : في تُبّان[3] وقميص — في تُبّان ورداء، في تُبّان وقَباء . رواه البُخاريّ والدّارَقُطْنِيّ .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ قال ابن عباس : أحل الله في هذه الآية الأكلَ والشربَ ما لم يكن سَرَفًا أو مَخِيلة[4] . فأمّا ما تدعو الحاجة إليه، وهو ماسدّ الجَوْعة وسكّن الظمأ، فمندوب إليه عقلا وشرعا، لما فيه من حفظ النفس وحراسة الحواس؛ ولذلك ورد الشرع بالنّهي عن الوصال، لأنه يُضعف الجسد ويُميت النفس، ويضعف عن العبادة، وذلك يمنع منه الشرعُ ويدفعه العقل . وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة حظ من بر ولا نصيب من زهد؛ لأن ماحَرَمها من فعل الطاعة بالعجز والضعف أكثرُ ثوابا وأعظمُ أجرا . وقد ٱختُلف في الزائد على قدر الحاجة على قولين : فقيل حرام، وقيل مكروه . قال ابن العربيّ : وهو الصحيح؛ فإن قَدْر الشبع يختلف باختلاف البلدان والأزمان

(١) الإزار : ما يؤتزر به في النصف الأسفل . والرداء للنصف الأعلى . (٢) القباء (بالفتح) : ثوب يلبس فوق الثياب . وقيل : يلبس فوق القميص ويتمنطق عليه . (٣) التبان (بضم المثناة وتشديد الموحدة) سراويل صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة فقط . (٤) المخيلة : الكبر .

والأسنان والطّحال . ثم قيـل : فى قلة الأكل منافع كثيرة؛ منها أن يكون الرجل أصحّ جسما وأجود حفظا وأزكى فهما وأقـل نوما وأخفّ نفسا . وفى كثرة الأكل كَظّ المعـدة ونتن التّخمة، ويتولد منه الأمراض المختلفة، فيحتاج من العلاج أكثر ممـا يحتاج إليه القليل الأكل . وقال بعض الحكماء : أكبر الدواء تقدير الغذاء . وقد بيّن النبيّ صلى الله عليه وسلم هذا المعنى بيانا شافيا يُغنِي عن كلام الأطباء فقال: "ما ملأ آدميٌّ وعاء شرا من بطن بحسْب ابن آدم لُقيمات يقِمن صُلْبه فإن كان لا محالة فثلثٌ لطعامه وثلثٌ لشرابه وثلثٌ لنفسه" . خرّجه الترمذيّ من حديث المِقْدام بن مَعْدِي كَرِب. قال علماؤنا: لو سمع بُقراط هذه القسمة لعجب من هذه الحكمة . ويذكر أن الرشيد كان له طبيب نَصْرانِيّ حاذق فقال لعليّ بن الحسين: ليس فى كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان. فقال له علىّ: قد جمع الله الطب كله فى نصف آية من كتابنا . فقال له : ما هى؟ قال قوله عز وجل « وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ». فقال النّصرانِيّ : ولا يُؤثر عن رسولكم شيء من الطب . فقال علىّ : جمع رسول الله صـلى الله عليه وسلم الطبّ فى ألفاظ يسيرة . قال: ما هى؟ قال: "المَعدة بيت الأدواء والحِمْيةُ رأسُ كلّ دواء وأعط كلّ جسد ما عوّدته" . فقال النّصرانِيّ : ما ترك كتابكم ولا نبيّكم لجالينوس طِبّاً .

قلت : ويقال إن معالجة المريض نصفان : نصفٌ دواء، ونصفٌ حِمْية . فإن اجتمعا فكأنك بالمريض قد برأ وصحّ، وإلّا فالحِمية به أوْلى؛ إذ لا ينفع دواء مع ترك الحِمية . ولقد تنفع الحِمْيةُ مع ترك الدواء . ولقد قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم : "أصل كلّ دواء الحِمية" . والمعنِيّ بهـا ــ والله اعلم ــ أنهـا تغنى عن كلّ دواء، ولذلك يقال : إن الهند جُلّ معالجتهم الحِمية، يمتنع المريض عن الأكل والشرب والكلام عدّة أيام فيبرأ ويصحّ .

الخامســـة ــ روى مسلم عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صـلى الله عليه وسلم يقول : "الكافر يأكل فى سبعة أمعاء والمؤمن يأكل فى مِعًى واحد" . وهذا منه صلى الله

عليه وسلم حضّ على التقلّل من الدنيا والزهد فيها والقناعة بالبُلْغة . وقـد كانت العرب تُمتدح بقلة الأكل وتُذَم بكثرته . كما قال قائلهم :

تكفيه فِلذة كِبْد إن ألَمّ بها * من الشِّواء ويُرْوِى شُرْبَه الغُمَر (١)

وقالت أم زرع فى ابن أبى زرع : ويُشبعه ذراعُ الجَفْرة (٢) . وقال حاتم الطائى يذم بكثرة الأكل :

فإنك إن أعطيتَ بطنك سؤْلَه * وفرجَك نالا منتهى الذّم أجمعا (٣)

وقال الخَطّابىّ : معنى قوله : " المؤمنُ يأكل فى مِعًى واحد " أنه يتناول دون شبعه ، ويؤثِر على نفسه ويُبقى من زاده لغـيره ؛ فيقنعه ما أكل . والتأويل الأول أَوْلى والله أعلم . وقيل فى قوله عليـه السلام : " الكافر يأكل فى سبعة أمعاء " ليس على عمومه ؛ لأن المشاهـدة تدفعـه ، فإنه قد يوجد كافر أقلّ أكلًا من مؤمن ، ويُسلم الكافرُ فلا يَقِلّ أكله ولا يزيد . وقيل : هو إشارة إلى معيّن . ضاف النبىّ صلى الله عليه وسلم ضيفٌ كافر يقال : إنه الجَهْجَاه الغِفارِىّ . وقيل : ثُمَـامة بن أثَال . وقيــل : نَضْلة بن عمرو الغِفارِىّ . وقيــل بَصْرة بن أبى بصرة الغِفارىّ . فشرب حِلابَ سبع شياهٍ ، ثم إنه أصبح فأسـلم فشرب حِلاب شاةٍ فلم يَستتِمّه ؛ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " ذلك " . فكأنه قال : هذا الكافر . والله أعلم . وقيل : إن القلب لمـا تنوّر بنور التوحيد نظر إلى الطعام بعين التقوّى على الطاعة ، فأخذ منه قدر الحاجة ، وحين كان مُظلِما بالكفر كان أكله كالبهيمة ترتع حتى تَثْلِط (٤) .

واختلف فى هذه الأمعاء ، هل هى حقيقة أم لا ؟ فقيل : حقيقة ، ولهـا أسماء معروفة عند أهل العلم بالطب والتشريح . وقيل : هى كنايات عن أسباب سبعة يأكل بها النَّهِم : يأكل للحاجة والخبر (٥) والشم والنظر واللس والذوق ويزيد استغناما (٦) . قيــل : المعنى أن يأكل أكل من له سبعة أمعاء . والمؤمن بخفة أكله يأكل أكل من ليس له إلا مِعًى واحد ؛

(١) البيت لأعشى باهلة ، يرثى أخاه المنتشر بن وهب الباهلى . ورواية اللسان : يكفيه حزة فلذ ... والمعنى واحد . والغمر (بضم الأول وفتح الثانى) : القدح الصغير . (٢) الجفرة : الصغيرة من ولد المعزى إذا بلغ أربعـة أشهر . (٣) الذى فى ديوانه : * وانك مهما تعط ... * الخ .

(٤) الثلط : الرقيق من الروث . (٥) يريد شهوة الأذن . (٦) كذا فى الأصول . ولعلها : «استمتاعا» .

فيشارك الكافر بجزء من أجزاء أكله، ويزيد الكافر عليه بسبعة أمثاله. والمِعَى في هذا الحديث هو المعدة.

السادســـة — وإذا تقرّر هــذا فآعلم أنه يُستحب للإنسان غسلُ اليــد قبل الطعام وبعده؛ لقوله عليه السلام: "الوضوء قبل الطعام وبعده بركة". وكذا في التوراة. رواه زاذان عن سلمان. وكان مالك يكره غسل اليد النظيفة. والاقتداء بالحديث أَوْلى. ولا يأكل طعاما حتى يعرف أحارا هو أم باردا؛ فإنه إن كان حارًّا فقد يتأذى. وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أَبْرِدُوا بالطعام فإن الحارّ غيرُ ذي بركة" حديث صحيح. وقد تقدم في «البقرة». ولا يشمّه فإن ذلك من عمل البهائم، بل إن آشتهاه أكله، وإن كرهه تركه، ويصغّر اللقمة ويكثر مضغها لئلا يُعَـدّ شَرِهًا. ويُسمّي الله تعـالى في أوّله ويحمَـده في آخره. ولا ينبغي أن يرفع صوته بالحمد إلا أن يكون جلساؤه قد فرغوا من الأكل؛ لأن في رفع الصــوت مَنْعاً لهم من الأكل. وآداب الأكل كثيرة، هــذه جملة منهــا. وسيأتي بعضها في سورة «هود»[1] إن شاء الله تعـالى. وللشراب أيضا آداب معروفة، تركنا ذكرها لشهرتها. وفي صحيح مسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وإذا شرب فليشرب بيمينه فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله".

السابعــــة — قوله تعـالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أي في كثرة الأكل. وعنه يكون كثرة الشُّرب. وذلك يثقل المعدة، ويثبّط الإنسان عن خدمة ربّه، والأخذِ بحظه من نوافل الخير. فإن تعدّى ذلك إلى ما فوقه مما يمنعه القيام بالواجب عليه حُرِم عليه، وكان قد أسرف في مطعمه ومشربه. روى أســد بن موسى من حديث عون بن أبي جحيفة عن أبيــه قال: أكلت ثريدا بلحم سمين، فأتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم وأنا أتجشّى[2]؛ فقال: "آكفف عليك من جُشائك أبا جحيفة فإن أكثر الناس شِبَعًا في الدنيا أطولهم جوعا يوم القيامة". فمــا أكل أبو جحيفة بملء بطنه حتى فارق الدنيا، وكان إذا تغدّى لا يتعشّى، وإذا تعشّى لا يتغدّى.

(١) في قوله تعالى: «ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ...» آية ٦٩

(٢) التجشؤ: تنفس المعدة عند الامتلاء.

قلت : وقد يكون هــذا معنى قوله عليــه السلام : " المؤمن يأكل فى مِعًى واحد " أى التام الإيمان؛ لأن من حَسُن إسلامُه وكَمُل إيمانه كأبى جُحيفة تفكّر فيما يصير إليه من أمر الموت وما بعده؛ فيمنعه الخوف والإشفاق من تلك الأهوال من استيفاء شهواته . والله أعلم . وقال ابن زيد : معنى « ولا تسرفوا » لا تأكلوا حراما . وقيل : " من السَّرَف أن تأكل كل ما ٱشتهيت " . رواه أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليــه وسلم ، خرّجه ابن ماجه فى سننه . وقيل : من الإسراف الأكل بعد الشبع . وكل ذلك محظور . وقال لقمان لٱبنه : يا بُنَيّ لا تأكل شبعا فوق شبع ، فإنك إن تنبذه للكلب خير من أن تأكله . وسأل سَمُرَةُ بن جُنْدب عن ٱبنــه ما فعل؟ قالوا : بَشِم البارحة . قال : بَشِم! فقــالوا نعم . قال : أمَا إنه لو مات ما صليتُ عليه . وقيل : إن العرب فى الجاهلية كانوا لا يأكلون دَسَمًا فى أيام حجّهم، ويكتفون باليسير من الطعام، ويطوفون عُراة . فقيل لهم : « خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » أى لا تسرفوا فى تحريم ما لم يحرّم عليكم .

قوله تعـالى : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ﴾ بيّن أنهم حرّموا من تلقاء أنفسهم ما لم يُحرّمه الله عليهم . والزينة هنا الملبس الحسن، إذا قدر عليه صاحبه . وقيل : جمع الثياب؛ كما روى عن عمر : إذا وسّع الله عليكم فأوسعوا . وقد تقدّم . وروى عن علىّ بن الحسين ابن علىّ بن أبى طالب شيخ مالك رضى الله عنهــم أنه كان يلبس كساء خَزٍّ بخمسين دينارا ، يلبَسه فى الشتاء، فإذا كان الصيف تصدّق به، أو باعه فتصدّق بثمنه، وكان يلبَس فى الصيف

ثوبين من مَتاع مِصْر مُمَشَّقَيْن[١] ويقول : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » .

الثانيـــة — وإذا كان هذا فقد دلّت الآية على لباس الرفيع من الثياب، والتجمّل بها في الجُمَع والأعياد، وعند لقاء الناس ومزاورة الإخوان . قال أبو العاليـة : كان المسلمون إذا تزاوروا تجمّلوا . وفي صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب أنه رأى حُلّة سِيَرَاء[٢] تباع عند باب المسجد ، فقال : يارسول الله، لو اشتريتَها ليوم الجمعة وللوفود إذا قدموا عليك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما يلبس هذا من لا خلاق له في الآخرة " . فما أنكر عليه ذِكْرَ التجمّل ، وإنما أنكر عليه كونها سِيَرَاء . وقـد اشترى تميم الدّارِي حلّة بألف درهم كان يصلّي فيهـا . وكان مالك بن دِينار يلبس الثياب العدنيةَ الجياد . وكان ثوب أحمد بن حنبل يُشتَرى بنحو الدينار . أين هذا ممن يرغب عنه ويؤثر لباس الخشن من الكَتّان والصوف من الثياب . ويقول : ولباس التّقوى ذلك خير، هيهات! أترى من ذكرنا تركوا لباس التقوى، لا والله ! بل هم أهل التقوى وأولو المعرفة والنُّهَى، وغيرهم أهل دعوى، وقلوبُهم خالية من التقوى . قال خالد بن شَوْذب : شهدت الحسن وأتاه فرقد، فأخذ الحسن بكسائه فمدّه إليه وقال : يافريقد، يابن أمّ فريقد، إن البِرّ ليس في هـذا الكساء، إنمـا البِرّ ما وَقَر في الصدر وصدّقه العمل . ودخل أبو محمد ابن أخي معروف الكَرْخيّ على أبي الحسن بن يَسار[٣] وعليه جُبّة صوف ، فقال له أبو الحسن : ياأبا محمد ، صوّفت قلبك أو جسمك ؟ صَوّف قلبك والبَس القُوهِيّ على القُوهِيّ[٤] . وقال رجل للشّبليّ : قد ورد جماعة من أصحابك وهم في الجامع ، فمضى فرأى عليهم المرقّعات والفُوَط ، فأنشأ يقول :

أمّا الخيـام فإنهـا كخيامهـم * وأرى نساء الحيّ غير نسائه

(١) ثوب ممشق وممشوق : مصبوغ بالمشق ، وهو صبغ أحمر . (٢) سيراء (بسين مهملة مكسورة ثم ياء مثناة مفتوحة ثم ألف ممدودة) : نوع من البرود فيه خطوط صفر، أو يخالطه حرير. وضبطوا « الحلة » هنا بالتنوين، على أن سيراء صفة . وبغير تنوين على الاضافة . وهما وجهان مشهوران .

(٣) في بعض نسخ الأصل : « بشار » . (٤) القوهي : ضرب من الثياب بيض فارسي .

قال أبو الفرج الجوزىّ رحمه الله : وأنا أكره لُبس الفُوَط والمرقّعات لأربعة أوجه : أحدها — أنه ليس من لبس السلف، وإنما كانوا يرقّعون ضرورةً. والثانى — أنه يتضمن ٱدعاء الفقر، وقد أمر الإنسان أن يُظهر أثر نعم الله عليه . والثالث — إظهار التزهد، وقد أمرنا بستره . والرابع — أنه تشبه بهؤلاء المتزحزحين عن الشريعة، ومن تشبّه بقوم فهو منهم . وقال الطبرىّ : ولقد أخطأ من آثر لباس الشَّعر والصُّوف على لباس القطن والكَتَّان مع وجود السبيل إليه من حلّه . ومَن أكل البقول والعدس وٱختاره على خبز البر . ومَن ترك أكل اللحم خوفًا من عارض شهوة النساء . وسئل بشر بن الحارث عن لبس الصوف، فشقّ عليه وتبيّنت الكراهة فى وجهه ثم قال : لبس الخَزّ والمُعَصْفَر أحبّ إلىّ من لبس الصوف فى الأمصار . وقال أبو الفرج : وقد كان السلف يلبَسون الثياب المتوسطة، لا المترفّعة ولا الدُّون، ويتخيرون أجودها للجمعة والعيد وللقاء الإخوان، ولم يكن تخيّر الأجود عندهم قبيحا . وأما اللباس الذى يُزْرِى بصاحبه فإنه يتضمنّ إظهار الزهد وإظهار الفقر، وكأنه لسان شكوى من الله تعالى، ويوجب احتقار اللابس؛ وكل ذلك مكروه مَنْهِىّ عنه . فإن قال قائل : تجويد اللباس هوى النفس وقد أمرنا بمجاهدتها، وتزيّن للخَلْق وقد أمرنا أن تكون أفعالنا لله لا للخَلْق . فالجواب أنه ليس كل ماتهواه النفس يذَم، ولا كلّ ما يُتزيّن به للناس يُكره، وإنما يُنْهَى عن ذلك إذا كان الشرع قد نهى عنه أو على وجه الرياء فى باب الدِّين . فإن الإنسان يحب أن يُرَى جميلا، وذلك حظٌّ للنفس لا يلام فيه . ولهذا يسرّح شعره وينظر فى المرآة ويسوّى عمامته ويلبس بطانة الثوب الخشنة إلى داخل وظهارته الحسنة إلى خارج . وليس فى شىء من هذا ما يكره ولا يُذَم . وقد روى مَكْحول عن عائشة قالت : كان نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه على الباب، فخرج يريدهم، وفى الدار رَكْوة فيها ماء؛ فجعل ينظر فى الماء ويسوّى لحيته وشعره . فقلت : يارسول الله، وأنت تفعل هذا؟ قال : " نعم إذا خرج الرجل إلى إخوانه فلْيُهيِّئْ من نفسه فإن الله جميل يحبّ الجمال " . وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقالُ ذَرّة من كِبر " .

فقــال رجل : إن الرجل يحبّ أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسَنة . قال : "إن الله جميل يحب الجمال الكِبْرُ بَطَرُ الحق وغَمْط الناس" . والأحاديث فى هـذا المعنى كثيرة، تدلّ كلها على النظافة وحسن الهيئة . وقد روى محمد بن سعد أخبرنا الفضل بن دُكين قال حدّثنا مَنْدَل عن ثَور عن خالد بن مَعْدان قال : كان رســول الله صلى الله عليه وســلم يسافر بالمشط والمرآة والدّهن والسّواك والكحل، وعن ابن جُريج : مشط عاج يمتشط به . قال ابن سعد : وأخبرنا قَبيصة بن عقبــة قال حدّثنا سفيان عن ربيع بن صَبيح عن يزيد الرّقاشيّ عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر دهن رأسه ويسرّح لحيته بالمـاء . أخبرنا يزيد ابن هارون حدّثنا عباد بن منصور عن عكرمة عن ابن عباس قال: كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم مُكْحُلَة يكتحل بها عند النوم ثلاثا فى كل عين .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ الطيبات آسم عامٌّ لمـا طاب كَسْبًا وطَعْمًا . قال ابن عباس وقتادة : يعنى بالطيبات من الرزق ما حَرّم أهل الجاهلية من البحائر والسوائب والوصائل والحوامى . وقيل : هى كل مستلَذّ من الطعام . وقـد آختلف فى ترك الطيبات والإعراض عن اللذات؛ فقال قوم: ليس ذلك من القُربات، والفعل والترك يستوى فى المباحات . وقال آخرون : ليس قُرْبة فى ذاته، وإنما هو سبيل إلى الزهد فى الدنيا، وقصر الأمل فيها ، وترك التكلّف لأجلها؛ وذلك مندوب إليه، والمندوب قُرْبة . وقال آخرون : ونقل عن عمر بن الخطاب رضى الله عنـه قوله : لو شئنا لآتخذنا صِـلاءً وصَلائق وصِنابًا، ولكنى سمعت الله تعـالى يذمّ أقواما فقـال : « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا »[1] . ويروى « صرائق» بالراء، وهما جميعا الجرادق[2] . والصلائق (باللام) : ما يصلق من اللحوم والبقول . والصِّلاء (بكسر الصاد والمد) : الشواء . والصِّناب : الخردل بالزبيب . وفرق آخرون بين حضور ذلك كلّه بكُلْفة وبغير كلفة . قال أبو الحسن على بن المفضل المقدسى شيخ أشياخنا : وهو الصحيح إن شاء الله عز وجل ؛ فإنه لم ينقل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه آمتنع من

---

(١) آية ٢٠ سورة الأحقاف . (٢) الجرادق : جمع جردقة ، وهى الرغيف .

طعام لأجل طيبه قطُّ ، بل كان يأكل الحلوى والعسل والبِطّيخ والرّطب ، وإنما يكره التكلف لمـا فيه من التشاغل بشهوات الدنيا عن مهمات الآخرة . والله تعالى أعلم .

قلت : وقد كره بعض الصوفية أكلَ الطيبات ، واحتج بقول عمر رضى الله عنه : إيا كم واللّحمَ فإن له ضراوة كضَراوة الخمر (١) . والجواب أن هذا من عمر قولٌ خرج على من خشى منـه إيثار التنعم فى الدنيا ، والمداومة على الشهوات ، وشفـاء النفس من اللذات ، ونسيان الآخرة والإقبال على الدنيا ؛ ولذلك كان يكتب عمر إلى عماله : إيا كم والتّنَعُّمَ و زِىّ أهـل العجم ، وٱخْشَوْشِنُوا . ولم يُرد رضى الله عنه تحريمَ شىءٍ أحلّه الله ، ولا تحظير ما أباحه الله تبارك ٱسمه . وقولُ الله عز وجل أَوْلى ما ٱمتُثل وٱعتُمد عليـه . قال الله تعالى : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » . وقال عليه السلام : " سـيّد إدامِ الدنيا والآخرة اللّحمُ " . وقد روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يأكل الطِّبِّيخ بالرطب ويقول : " يكسر حَرُّ هـذا بَرْدَ هـذا و بَرْدُ هذا حَرَّ هـذا " . والطِّبِّيخ لغة فى البِطّيخ ، وهو من المقلوب . وقد مضى فى « المـائدة (٢) » الرّدُّ على من آثر أكل الخشن من الطعام . وهذه الآية تردّ عليه وغيرها . والحمد لله .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يعنى بحقها من توحيد الله تعـالى والتصديق له ؛ فإن الله يُنعم و يرزق ، فإن وحّده المنعَم عليه وصدّقه فقد قام بحق النعمة ، وإن كفر فقد أمكن الشيطان من نفسه . وفى صحيح الحديث " لا أحدَ أصبرُ على أذًى من الله يعافيهم و يرزقهم وهم يدعون له الصاحبة والولد " . وتَمّ الكلام على « الحياة الدنيا » . ثم قال « خالصةٌ » بالرفع ، وهى قراءة ابن عباس ونافع . ﴿ خالِصةً يومَ القِيامةِ ﴾ أى يُخلِص الله الطيبات فى الآخرة للذين آمنوا ، وليس للشركين فيهـا شىء كما كانـ لهم فى الدنيـا من الاشتراك فيها . ومجاز الآية : قل هى للذين آمنوا مشتركة فى الدنيا مع غيرهم ، وهى للؤمنين

---

(١) أى أن له عادة ينزع إليها كعادة الخمر .

(٢) فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تحرموا ... » آية ٨٧

خالصة يوم القيامة. فخالصة مستأنف على خبر مبتدأ مضمر. وهذا قول ابن عباس والضحاك والحسن وقَتادة والسُّدِّى وابن جُريج وابن زيد . وقيل : المعنى أن هذه الطيبات الموجودات فى الدنيا هى خالصة يوم القيامة للؤمنين فى الدنيا؛ وخلوصها أنهم لا يعاقبون عليها ولا يعذبون. فقوله « فى الحياة الدنيا » متعلق « بآمنوا » . وإلى هذا يشير تفسير سعيد بن جُبير . وقرأ الباقون بالنصب على الحال والقطع؛ لأن الكلام قد تمّ دونه . ولا يجوز الوقف على هذه القراءة على « الدنيا » ؛ لأن ما بعده متعلق بقوله « للذين آمنوا » حالا منه؛ بتقدير قل هى ثابتة للذين آمنوا فى الحياة الدنيا فى حال خلوصها لهم يوم القيامة؛ قاله أبو علىّ . وخبر الابتداء « للذين آمنوا » . والعامل فى الحال ما فى اللام من معنى الفعل فى قوله « للذين » . واختار سيبويه النّصب لتقدم الظرف . ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ أى كالذى فصّلت لكم الحلال والحرام أفصل لكم ما تحتاجون إليه .

قوله تعالى : قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)

فيـه مسألة واحدة :

قال الكلبى : لمـا لبس المسلمون الثيـاب وطافوا بالبيت عيّرهم المشركون؛ فنزلت هذه الآية . والفواحش: الأعمال المُفْرِطة فى القبح، ما ظهر منها وما بطن . روى رَوح بن عُبادة عن زكريا بن إسحاق عن ابن أبى نَجيح عن مجاهـد قال : « ما ظهر منهـا » نكاح الأمهات فى الجاهلية . « وما بطن » الزنى . وقال قَتادة : سرّها وعلانيتها . وهذا فيه نظر؛ فإنه ذكر الإثم والبغى فدلّ أن المراد بالفواحش بعضهـا ، وإذا كان كذلك فالظـاهر من الفواحش الزنى . والله أعلم . ﴿ والإثمَ ﴾ قال الحسن : الخمر . قال الشاعر :

شربتُ الإثمَ حتى ضلّ عقلى * كذاك الإثم تذهب بالعقول

وقال آخر :

نشرب الإثم بالصُّواع جهارًا * وترى المسك بيننا مُستعارا (١)

﴿ وَٱلْبَغْىَ ﴾ الظلم وتجاوز الحدّ فيه . وقد تقدّم . وقال ثعلب : البغى أن يقع الرجل فى الرجل فيتكلّم فيه ، ويبغى عليه بغير الحق ؛ إلا أن ينتصر منه بحقّ . وأخرج الإثم والبغى من الفواحش وهما منه لعظمهما وفحشهما ؛ فنصّ على ذكرهما تأكيدا لأمرهما وقصدًا للزجر عنهما . وكذا « وأن تشركوا » « وأن تقولوا » وهما فى موضع نصب عطفا على ما قبلُ . وقد أنكر جماعة أن يكون الإثم بمعنى الخمر . قال الفَـرّاء : الإثم ما دون الحدّ والاستطالة على النـاس . قال النحاس : فأما أن يكون الإثم الخمـر فلا يعـرف ذلك ، وحقيقة الإثم أنه جميع المعـاصى ؛ كما قال الشاعر :

إنى وجدتُ الأمرَ أرْشَدُه * تقـوَى الإله وشَرُّه الإثمُ

قلت : وأنكره ٱبن العربى أيضا وقال : « ولا حجة فى البيت (٢) ؛ لأنه لو قال : شربت الذنب أو شربت الوزر لكان كذلك ، ولم يوجب قوله أن يكون الذنب والوزر ٱسمـا من أسماء الخمر كذلك الإثم . والذى أوجب التكلم بمثل هذا الجهلُ باللغة وبطريق الأدلة فى المعانى » .

قلت : وقـد ذكرناه عن الحسن . وقال الجوهرى فى الصّحاح : وقـد يسمّى الخمر إثمـا ، وأنشد :

* شربت الإثم ... ... * البيت

وأنشده الهَروى فى غريبيه ، على أن الخمر الإثم . فلا يبعد أن يكون الإثم يقع على جميع المعاصى وعلى الخمر أيضا لغة ، فلا تناقض . والبغى : التجاوز فى الظلم ، وقيل الفساد .

قوله تعـالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

فيـه مسألة واحدة :

(١) الصواع : إناء يشرب فيه . ومستعار : متداول . أى نتعاوره بأيدينا نشمه .

(٢) يريد به البيت الأول .

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أى وقت مؤقت . ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ﴾ أى الوقت المعلوم عند الله عز وجل . وقرأ ابن سيرين « جاء آجالهم » بالجمع . ﴿ لَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ عنه ساعة ولا أقلّ من ساعة؛ إلا أن الساعة خُصّت بالذكر لأنها أقلّ أسماء الأوقات، وهى ظرف زمان . ﴿ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ فدلّ بهذا على أن المقتول إنما يُقتل بأجله . وأجل الموت هو وقت الموت ؛ كما أن أجل الدّين هو وقت حلوله . وكلّ شيء وُقّت به شيء فهو أجل له . وأجل الإنسان هو الوقت الذى يعلم الله أنه يموت الحيّ فيـه لا محالة . وهو وقت لا يجوز تأخير موته عنه، لا من حيث إنه ليس مقدوراً تأخيره . وقال كثير من المعتزلة إلا من شذّ منهم : إن المقتول مات بغير أجله الذى ضُرب له ، وأنه لو لم يقتل لحيَ . وهذا غلط، لأن المقتول لم يمت من أجل قتل غيره له، بل من أجل ما فعله الله من إزهاق نفسه عنـد الضرب له . فإن قيل : فإن مات بأجله فلِمَ تقتلون ضاربه وتقتصّون منه . قيل له : نقتله لتعدّيه وتصرّفه فيما ليس له أن يتصرف فيه، لا لموته وخروج الروح إذ ليس ذلك من فعله . ولو تُرك الناس والتعدّى من غير قصاص لأدّى ذلك إلى الفساد ودمار العباد . وهذا واضح .

قوله تعـالى : يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُـلٌ مِنْكُمْ ﴾ شرط . ودخلت النـون توكيدا لدخول « ما » . وقيل : ما صلة، أى إن يأتكم . أخبر أنه يرسل إليهم الرسل منهم لتكون إجابتهم أقرب . والقصص إتباع الحديث بعضه بعضا . ﴿ آياتِي ﴾ أى فرائضى وأحكامى .

﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ ﴾ شرط ، وما بعده جوابه ، وهو جواب الأول . أى وأصلح منكم ما بينى و بينه . ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ دليل على أن المؤمنين يوم القيامة لا يخافون ولا يحزنون ، ولا يلحقهم رُعْب ولا فزع . وقيل : قد يلحقهم أهوال يوم القيامة، ولكن

مآلهم الأمن . وقيل : جواب « إمّا يأتينكم » ما دلّ عليه الكلام ، أي فأطيعوهم فمن اتقى وأصلح . والقولُ الأوّل قول الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ المعنى أيّ ظلم أشنع من الافتراء على الله تعالى والتكذيب بآياته . ثم قال : ﴿ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ أي ما كُتب لهم من رزق وعمر وعمل ؛ عن ابن زيد . ابن جُبير : من شقاء وسعادة . ابن عباس : من خير وشر . الحسن وأبو صالح : من العذاب بقدر كفرهم . واختيار الطبري أن يكون المعنى : ما كُتب لهم ، أي ما قُدِّر لهم من خير وشر ورزق وعمل وأجل ؛ على ماتقدّم عن ابن زيد وابن عباس وابن جبير . قال : ألا ترى أنه أتبع ذلك بقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾ يعني رسل ملك الموت . وقيل : «الكتاب» هنا القرآن ؛ لأن عذاب الكفار مذكور فيه . وقيل : «الكتاب» اللوح المحفوظ . ذكر الحسن بن عليّ الحُلْوانيّ قال : أملى عليّ عليُّ بن المَدِيني قال : سألت عبد الرحمن بن مَهْديّ عن القَدَر فقال لي : كل شيء بقَدر ، والطاعة والمعصية بقَدر ، وقد أعظم الفِرية من قال : إن المعاصي ليست بقَدَر . قال عليّ وقال لي عبد الرحمن بن مَهدي : العلم والقدر والكتاب سواء . ثم عَرضت كلام عبد الرحمن بن مَهديّ على يحيى بن سعيد فقال : لم يبق بعد هذا قليل ولا كثير . وروى يحيى ابن مَعين حدّثنا مَرْوان الفَزاريّ حدّثنا إسماعيل بن سميع عن بُكير الطّويل عن مجاهد عن ابن عباس «أولئك ينالُهم نَصيبُهم من الكتاب» قال : قوم يعملون أعمالا لا بدّ لهم من أن يعملوها . و« حتى » ليست غاية ، بل هي ابتداء خبر عنهم . قال الخليل وسيبويه : حتى وإمّا وألّا

لا يُمَلْنَ لأنهن حروف ففرق بينها و بين الأسماء نحو حُبْلَى وسَكْرَى . قال الزجاج : تكتب حتى بالياء لأنها أشبهت سكرى، ولو كتبت ألّا بالياء لأشبهت إلى . ولم تكتب إمّا باليـاء لأنها «إن» ضُمّت إليها ما . ﴿ قَالُوا أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ سؤالُ توبيخ . ومعنى « تدعون » تعبدون . ﴿ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ أى بطلوا وذهبوا . قيل : يكون هذا فى الآخرة . ﴿ وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ أى أقروا بالكفر على أنفسهم .

قوله تعـالى : قَالَ ٱدْخُلُوا فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ ٱدْخُلُوا فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِى النَّـارِ ﴾ أى مع أمم؛ ف«فى» بمعنى مع . وهذا لا يمتنع؛ لأن قولك : زيد فى القوم، أى مع القوم. وقيل: هى على بابها، أى ادخلوا فى جملتهم . والقائل قيل : هو الله عز وجل، أى قال الله ٱدخلوا . وقيل : هو مالك خازنُ النـار . ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ أى التى سبقتها إلى النار، وهى أختها فى الدِّين والمِلّة . ﴿ حَتَّى إِذَا ٱدَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا ﴾ أى اجتمعوا . وقــرأ الأعمش «تداركوا» وهو الأصــل، ثم وقع الإدغام فاْحتيج إلى ألف الوصل . وحكاها المَهْدِوى عن ابن مســعود . النحاس : وقرأ ابن مســعود «حتى إذا ٱدّركوا» أى أدرك بعضهم بعضا . وعِصْمةُ عن ابى عمرو «حتى إذا اداركوا» بإثبات الألف على الجمع بين الساكنين . وحُكِى : هذان عبدا الله . وله ثلثـا المـال . وعن أبى عمــرو أيضا : «إذا إدّاركوا» بقطع ألف

الوصل؛ فكأنه سكت على «إذا» للتذكر، فلما طال سكوته قطع ألف الوصل كالمبتدئ بها .
وقد جاء فى الشعر قطع ألف الوصل نحو قوله :

يا نفسُ صبرًا كلُّ حىّ لاقِى * وكل إثنين إلى آفتراق

وعن مجاهد وحُميد بن قيس «حتى إذ آدركوا» بحذف ألف «إذا» لالتقاء الساكنين، وحذف الألف التى بعد الدال . «جميعا» نصب على الحال . ﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ ﴾ أى آخرهم دخولا وهم الأتباع لأولاهم وهم القادة . ﴿ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ ﴾ فاللام فى «لأُولَاهم» لام أجل؛ لأنهم لم يخاطبوا أولاهم ولكن قالوا فى حق أُولاهم ربَّنا هؤلاء أضلونا . والضِّعف المثل الزائد على مثله مرة أو مرات . وعن ابن مسعود أن الضعف هاهنا الأفاعى والحيات . ونظير هذه الآية «رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا»(1) .
وهناك يأتى ذكر الضِّعف بأشبعَ من هذا وما يترتب عليه من الأحكام، إن شاء الله تعالى .
﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾ أى للتابع والمتبوع . ﴿ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ على قراءة من قرأ بالياء؛ أى لا يعلم كلّ فريق ما بالفريق الآخر، إذ لو علم بعض من فى النار أن عذاب أحد فوق عذابه لكان نوعَ سلوة له . وقيل : المعنى « ولكن لا تعلمون » بالتاء ، أى ولكن لا تعلمون أيها المخاطبون ما يجدون من العذاب . ويجوز أن يكون المعنى ولكن لا تعلمون يأهل الدنيا مقدار ما هم فيه من العذاب . ﴿ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾ أى قد كفرتم وفعلتم كما فعلنا، فليس تستحقون تخفيفا من العذاب ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ (٤١)

(1) آية ٦٨ سورة الأحزاب .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ﴾ أى لأرواحهـم . جاءت بذلك أخبار صحاح ذكرناها فى كتاب (التـذكرة) . منهـا حديث البراء بن عازب ، وفيـه فى قبض روح الكافر قال : و يخرج منها ريح كأنتن جيفة وجدت على وجه الأرض، فيَصْعدون بها فلا يمرّون على ملا من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة . فيقولون فلان بن فلان ، بأقبح أسمائه التى كان يُسَمَّى بها فى الدنيا ، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتِحون فلا يفتح لهم، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ » الآية . وقيل : لا تفتح لهم أبواب السماء إذا دعوا ؛ قاله مجاهد والنَّخَعِىّ . وقيل: المعنى لا تفتح لهم أبواب الجنة؛ لأن الجنة فى السماء.ودلّ على ذلك قولُه « وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ » والجمل لا يَلِج فلا يدخلونها أَلْبَتَّةَ . وهذا دليل قطعِىّ لا يجوز العفو عنهم . وعلى هـذا أجمع المسلمون الذين لا يجوز عليهم الخطأ أن الله سبحانه وتعالى لا يغفر لهم ولا لأحد منهـم . قال القاضى أبو بكر بن الطيّب : فإن قال قائل كيف يكون هذا إجماعا من الأمة ، وقد زعم قوم من المتكلمين بأن مُقلّدة اليهود والنصارى وغيرهم من أهل الكفر ليسوا فى النار. قيل له :هؤلاء قوم أنكروا أن يكون المقلّد كافرا لشبهة دخلت عليهم، ولم يزعموا أن المقلّد كافر وأنه مع ذلك ليس فى النار، والعلم بأن المقلّد كافر أو غير كافر طريقــه النظر دون التوقيف والخبر . وقرأ حمزة والكسائىّ « لا يُفَتّح » باليـاء مضمومة على تذكير الجمع . وقرأ الباقون بالتاء على تأنيث الجماعة ؛ كما قال : « مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ »[1] فأنّث . ولـما كان التأنيث فى الأبواب غير حقيقى جاز تذكير الجمع . وهى قراءة ابن عبـاس باليـاء . وخفّف أبو عمرو وحمزة والكسائىّ؛ على معنى أن التخفيف يكوْن للقليل والكثير، والتشديد للتكثير والتكرير مرة بعـد مرة لا غير . والتشديد هنا أولى لأنه على الكثير أدلّ . والجَمَلُ من الإبل . قال الفَرّاء : الجمل زوج الناقة . وكذا قال عبد الله بن مسعود لـما سئل عن الجمل فقال : هو زوج الناقة ؛ كأنه استجهل من سأله عمـا يعرفه الناس جميعا . والجمع

(١) آية ٥٠ سورة ص .

جِمال وأجمال وجمالات وجمائل . وإنما يُسَمَّى جملا إذا أربع . وفى قراءة عبد الله « حتى يلج الجمل الأصفر فى سم الخياط » . ذكره أبو بكر الأنبارى حدّثنا أبى حدّثنا نصر بن داود حدّثنا أبو عبيد حدّثنا حجاج عن ابن جُريج عن ابن كثير عن مجاهد قال فى قراءة عبد الله ... ؛ فذكره . وقرأ ابن عباس « الجُمَّل » بضم الجيم وفتح الميم وتشديدها ، وهو حبل السفينة الذى يقال له القَلْس، وهو حبال مجموعة ، جمع جُملة ؛ قاله أحمد بن يحيى ثعلب . وقيل : الحبل الغليظ من القِنَّب . وقيل : الحبل الذى يصعد به فى النخل . وروى عنه أيضا وعن سعيد بن جُبير: « الجُمَل » بضم الجيم وتخفيف الميم هو القلس أيضا والحبل، على ما ذكر آنفا . وروى عنه أيضا « الجُمُل » بضمتين جمع جَمَل ؛ كأسَد وأُسُد ، والجُمْل مثل أسَد وأسْد . وعن أبى السَّمَّال « الجَمْل » بفتح الجيم وسكون الميم ، تخفيف « جَمَل » . وسَمّ الخياط : ثقب الإبرة؛ عن ابن عباس وغيره . وكلّ ثقب لطيف فى البدن يُسمّى سَمًّا وسُمًّا وجمعه سُمُوم . وجمع السّمّ القاتل سِمَام . وقرأ ابن سِيرين « فى سُمّ » بضم السين . والخياط : ما يخاط به؛ يقال : خِياط ومِخْيَط ؛ مثل إزار ومئزر وقناع ومِقنع . والمِهاد : الفراش . وغَواش جمع غاشية ، أى نيران تغشاهم . ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ ﴾ يعنى الكفار . والله أعلم .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾

كلام معترض ، أى والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . ومعنى ﴿ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا ﴾ أى أنه لم يكلّف أحدا من نفقات الزوجات إلا ما وجد وتمكن منه ، دون ما لا تناله يده، ولم يرد إثبات الاستطاعة قبل الفعل؛ قاله ابن الطيب . نظيره « لا يُكلِّف الله نفسًا إلا ما آتاها »[1] .

(١) آية ٧ سورة الطلاق .

قوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) ﴾

ذكر الله عز وجل فيما يُنعم به على أهل الجنة نَزْعَ الغِلّ من صدورهم . والنَّزْع : الاستخراج . والغِلّ : الحقد الكامن فى الصدر . والجمع غِلال . أى أذهبنا فى الجنة ما كان فى قلوبهم من الغِل فى الدنيا . قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "الغِل على باب الجنة كمبارك الإبل قد نزعه الله من قلوب المؤمنين" . ورُوى عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم : « وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم من غِلٍّ » . وقيل : نزع الغل فى الجنة ألا يحسُد بعضهم بعضا فى تفاضل منازلهم . وقد قيل : إن ذلك يكون عن شراب الجنة ، ولهذا قال : « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا »(١) أى يطهر الأوضار من الصدور ؛ على ما يأتى بيانه فى سورة « الإنسان » و « الزمر »(٢) إن شاء الله تعالى . ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا ﴾ الثواب ؛ بأن أرشدنا وخلق لنا الهداية . وهذا ردّ على القدرية . ﴿ وَمَا كُنَّا ﴾ قراءة ابن عامر بإسقاط الواو . والباقون بإثباتها . ﴿ لِنَهْتَدِىَ ﴾ لام كَىْ . ﴿ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ فى موضع رفع . ﴿ وَنُودُوا ﴾ أصله . نودِيوا « أن » فى موضع نصب مخففة من الثقيلة ؛ أى بأنه تِلْكُمُ الجَنَّةَ . وقد تكون تفسيرا لما نودوا به ؛ لأن النداء قول ؛ فلا يكون لها موضع . أى قيل لهم : « تلكم الجنة » لأنهم وُعدوا بها فى الدنيا ؛ أى قيل لهم : هذه تلكم الجنة التى وعدتم بها ، أو يقال لهم ذلك قبل الدخول حين عاينوها من بُعْد . وقيل : « تلكم » بمعنى هذه . ومعنى ﴿ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى ورثتم منازلها بعملكم ، ودخولكم إياها برحمة الله وفضله . كما قال : « ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ »(٣) .

---

(١) آية ٢١ سورة الإنسان . (٢) فى قوله تعالى : « وسيق الذين اتقوا ربهم ... » آية ٧٣
(٣) آية ٧٠ سورة النساء .

وقال : « فسيدخلهم فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وفَضْلٍ »[1] . وفي صحيح مسلم : "لن يدخل أحدا منكم عَمَلُه الجنة" قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : "ولا أنا إلا أن يتغمّدني الله برحمة منه وفضل" . وفي غير الصحيح : ليس من كافر ولا مؤمن إلا وله في الجنة والنار منزل ؛ فإذا دخل أهل الجنة الجنةَ وأهلُ النار النارَ رُفعت الجنة لأهل النار فنظروا إلى منازلهم فيها ، فقيل لهم : هذه منازلكم لو عملتم بطاعة الله . ثم يقال : يأهل الجنة رِثُوهم بما كنتم تعملون ؛ فتقتسم بين أهل الجنة منازلهم .

قلت : وفي صحيح مسلم : "لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا" . فهذا أيضا ميراث؛ نَعّم بفضله من شاء وعذّب بعدله من شاء . وبالجملة فالجنة ومنازلها لا تُنال إلا برحمته ؛ فإذا دخلوها بأعمالهم فقد ورثوها برحمته ، ودخلوها برحمته ؛ إذ أعمالهم رحمة منه لهم وتفضّل عليهم . وقرئ «أورثتموها» من غير إدغام . وقرئ بإدغام التاء في الثاء .

قوله تعالى : وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ هذا سؤال تقريع وتعيير . ﴿ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا ﴾ مثل «أَنْ تِلْكُمُ الجَنَّةُ» أي أنه قد وجدنا . وقيل : هو نفس النداء . ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ ﴾ أي نادى وصوّت ؛ يعني من الملائكة . «بينهم» ظرف ؛ كما تقول : أَعْلَمَ وسطهم . وقرأ الأعمش والكسائي « نَعِم » بكسر العين . وتجوز على هذه اللغة بإسكان العين . قال مكّيّ : من قال « نَعِم » بكسر العين اراد أن يفرق بين « نَعَم » التي هي جواب وبين « نعم » التي هي اسم للإبل والبقر والغنم . وقد روى عن عمر إنكار «نَعم» بفتح العين في الجواب، وقال : قل

(١) آية ١٧٥ سورة النساء .

نَعِم . ونَعَم ونَعِم، لغتان بمعنى العِدَة والتصديق . فالعِدة إذا آستفهمت عن موجب نحو قولك أيقوم زيد، فيقول نعم . والتصديق إذا أخبرت عما وقع، تقول : قد كان كذا وكذا، فيقول نعم . فإذا آستفهمت عن منفيّ فالجواب على نحو قولك ألم أكرمك، فتقول بلى . فنعم، لجواب الاستفهام الداخل على الإيجاب كما فى هذه الآية . وبلى، لجواب الآستفهام الداخل على النفى؛ كما قال تعالى : «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى» . وقرأ البَزّى وابن عامر وحمزة والكِسائىّ «انّ لعنة الله» وهو الأصل . وقرأ البـاقون بتخفيف « أن » ورفع اللعنة على الابتـداء . ف « أن » فى موضع نصب على القراءتين على إسقاط الخافض . ويجوز فى المخففة ألا يكون لهـا موضع من الإعراب، وتكون مفسّرة كما تقـدّم . وحكى عن الأعمش أنه قرأ «إنّ لعنة الله» بكسر الهمزة؛ فهذا على إضمار القول كما قرأ الكوفيون « فناداه الملائكة وهو قائمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ إن الله »[1] ويُروى أن طاوسا دخل على هشام بن عبـد الملك فقال له : آتق الله وآحذر يوم الأذان . فقال : وما يوم الأذان ؟ قال : قوله تعـالى « فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» فصعِق هشام . فقال طاوس : هذا ذُلّ الصِّفة فكيف ذُلّ المعاينة .

قوله تعـالى : ٱلَّذِينَ يَصُـدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُـم بِٱلْءَاخِرَةِ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فى موضع خفض لـ«ـلظالمين» على النعت . ويجوز الرفع والنصب على إضمار هم أو أعنى . أى الذين كانوا يصدون فى الدنيا الناس عن الإسلام . فهو من الصدّ الذى هو المنع . أو يصدون بأنفسهم عن سبيل الله أى يعرضون . وهـذا من الصدود . ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ يطلبون اعوجاجها ويذمّونها فلا يؤمنون بها . وقد مضى هذا المعنى.[2] ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾ أى وكانوا بها كافرين ، فحذف وهـو كثير فى الكلام .

---

(١) آية ٣٩ سورة آل عمران . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٥٤ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ أى بين النار والجنة — لأنه جرى ذكرهما — حاجز؛ أى سور . وهو السور الذى ذكره الله فى قوله : «فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ»(1) . ﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾ أى على أعراف السور؛ وهى شُرَفُه . ومنه عُرف الفرس وعُرف الديك . روى عبد الله بن أبى يزيد عن ٱبن عباس أنه قال : الأعراف الشىء المُشْرِف . وروى مجاهد عن ٱبن عباس أنه قال : الأعراف سور له عُرْف كعُرْف الدِّيك . والأعراف فى اللغة : المكان المُشْرِف؛ جمع عُرْف . قال يحيى بن آدم : سألت الكسائىّ عن واحد الأعراف فسكت، فقلت : حدثنا إسرائيل عن جابر عن مجاهد عن ٱبن عباس قال : الأعراف سور له عُرف كعرف الدّيك . فقال : نعم والله، واحده يعنى، وجماعته أعراف، ياغلام، هاتِ القرطاس؛ فكتبه . وهذا الكلام خرج مخرج المدح؛ كما قال فيه : « رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ »(2) . وقد تكلّم العلماء فى أصحاب الأعراف على عشرة أقوال : فقال عبد الله ٱبن مسعود وحُذيفة بن اليمان وٱبن عباس والشعبىّ والضحاك وٱبن جُبير : هم قوم ٱستوت حسناتهم وسيئاتهم . قال ٱبن عطية : وفى مسند خيثمة بن سليمان (فى آخر الجزء الخامس عشر) حديثٌ عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تُوضع الموازين يوم القيامة فتُوزن الحسنات والسيئات فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقالَ صُؤابة(3) دخل الجنة ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقالَ صُؤابة دخل النار" . قيل : يارسول الله، فمن ٱستوت حسناته وسيئاته؟ قال : "أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون" . وقال مجاهد هم قوم صالحون فقهاء علماء . وقيل : هم الشهداء؛ ذكره المَهْدوىّ . وقال القشيرىّ : وقيل هم فضلاء المؤمنين والشهداء، فَرَغوا من شغل أنفسهم، وتفرّغوا لمطالعة حال الناس؛ فإذا

---

(1) آية ١٣ سورة الحديد .	(2) آية ٣٧ سورة النور .	(3) الصؤابة : بيضة القملة .

رأوا أصحاب النـار تعوّذوا بالله أن يُرَدّوا إلى النـار ، فإنّ فى قـدرة الله كلَّ شيء، وخلاف المعلوم مقدور . فإذا رأوا أهل الجنة وهم لم يدخلوها بعدُ يرجون لهم دخولهـا . وقال شَرَحْبيل ابن سعد : هم المستشهِدون فى سبيل الله الذين خرجوا عصاة لآبائهم . وذكر الطَّبرِىّ فى ذلك حديثا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، وأنه تعادل عقوقهم وٱستشهادهم. وذكر الثّعلبىّ بإسناده عن ابن عباس فى قوله عز وجل « وعلى الأعراف رِجَالٌ » قال : الأعراف موضع عالٍ على الصراط ، عليه العباس وحمزة وعلىّ بن أبى طالب وجعفر ذو الجناحين ، رضى الله عنهـم ، يعرفون محبِّيهم ببياض الوجوه ومُبْغضيهم بسواد الوجوه . وحكى الزَّهْرَاوِىّ أنهم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم ، وهم فى كل أمة . وٱختار هذا القول النحاس، وقال : وهو من أحسن ما قيل فيه ؛ فهم على السور بين الجنة والنـار . وقال الزجاج : هم قوم أنبياء . وقيـل : هم قوم كانت لهم صغائر لم تكفر عنهـم بالآلام والمصائب فى الدنيا وليست لهم كبائر فيُحبسون عن الجنـة لينالهم بذلك غَمّ فيقع فى مقابلة صغائرهم . وتمنَّى سالم مولى أبى حُذيفة أن يكون من أصحاب الأعراف؛ لأن مذهبه أنهم مذنبون . وقيل : هم أولاد الزنى؛ ذكره القُشَيرِىّ عن ابن عباس . وقيـل : هم ملائكة موكَّلُون بهذا السور، يميِّزون الكافرين من المؤمنين قبل إدخالهم الجنة والنـار ؛ ذكره أبو مِجْلَز . فقيل له : لا يقال للملائكة رجال ؟ فقال : إنهم ذكور وليسوا بإناث ، فلا يبعد إيقاع لفظ الرجال عليهم ؛ كما أوقـع على الجنّ فى قوله : « وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ »(1) . فهؤلاء الملائكة يعرفون المؤمنين بعلاماتهم والكفارَ بعلاماتهم ؛ فيبشّرون المؤمنين قبل دخولهم الجنة وهم لم يدخلوها بعـدُ فيطمعون فيهـا . وإذا رأوا أهل النـار دَعَوْا لأنفسهم بالسلامة من العـذاب . قال ابن عطيّة : واللازم من الآية أن على الأعراف رجالا من أهل الجنة يتأخّر دخولُهم ويقع لهم ما وُصف من الاعتبار فى الفريقين . و ﴿ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ﴾ أى بعلاماتهم، وهى بياض الوجوه وحسنُها فى أهـل الجنة، وسوادُها وقبحُها فى أهل النـار، إلى غير ذلك من معـرفة حَيّز هؤلاء وحَيّز هؤلاء .

(1) آية ٦ سورة الجن .

قلت : فوقف عن التعيين لاضطراب الأثر والتفصيل ، والله بحقائق الأمور عليم .
ثم قيل : الأعراف جمع عُرْف وهو كل عالٍ مرتفع؛ لأنه بظهوره أعرف من المنخفض .
قال ابن عباس : الأعراف شُرَف الصراط . وقيل : هو جبل أُحُد يوضع هناك . قال ابن عطية : وذكر الزَّهْرَاوِيّ حدّثنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن أُحُدًا جبل يحبنا ونُحبه وإنه يوم القيامة يمثّل بين الجنة والنار يُحبَس عليه أقوام يعرفون كلًّا بسيماهم هم إن شاء الله من أهل الجنة" . وذكر حديثا آخر عن صَفْوان بن سليم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن أُحُدًا على ركن من أركان الجنة" .

قلت : وذكر أبو عمر عن أنس بن مالك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "أُحُد جبل يحبّنا ونحبّه وإنه لعلى تُرْعة من تُرَع الجنة" .

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ أي نادى أصحابُ الأعراف أصحاب الجنة . ﴿ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي قالوا لهم سلام عليكم . وقيل : المعنى سَلِمتم من العقوبة . ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ أي لم يدخل الجنة أصحابُ الأعراف ، أي لم يدخلوها بعدُ . «وَهُمْ يَطْمَعُونَ» على هذا التأويل بمعنى وهم يعلمون أنهم يدخلونها . وذلك معروف في اللغة أن يكون طَمِعَ بمعنى عَلِم؛ ذكره النحاس . وهذا قول ابن مسعود وابن عباس وغيرهما ، أن المراد أصحاب الأعراف . وقال أبو مِجْلَز : هم أهل الجنة ، أي قال لهم أصحاب الأعراف سلامٌ عليكم وأهل الجنة لم يدخلوا الجنة بعد وهم يطمعون في دخولها للمؤمنين المارّين على أصحاب الأعراف . والوقف على قوله « سلام عليكم » . وعلى قوله «لم يدخلوها» . ثم يبتدئ « وَهُمْ يَطْمَعُونَ » على معنى وهم يطمعون في دخولها . ويجوز أن يكون «وهم يطمعون» حالًا ، ويكون المعنى : لم يدخلها المؤمنون المارّون على أصحاب الأعراف طامعين ، وإنما دخلوها غير طامعين في دخولها؛ فلا يوقف على «لم يدخلوها » .

قوله تعالى : وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّـارِ ﴾ أى جهة اللقاء وهى جهة المقابلة . ولم يأت مصدر على تِفعال غيرُ حرفين : تِلقاء وتِبيان . والباقى بالفتح ؛ مثل تَسيار وتَهمام وتَذكار . وأما الاسم بالكسر فيـه فكثير ؛ مثل تِقصار وتِمثال . ﴿ قَالُوا ﴾ أى قال أصحاب الأعراف . ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَـا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ سألوا الله ألّا يجعلهم معهم ؛ وقد علموا أنه لا يجعلهم معهم . فهذا على سبيل التذلّل؛ كما يقول أهل الجنة : «رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا»[1] ويقولون : الحمد لله . على سبيل الشكر لله عز وجل . ولهم فى ذلك لذّة .

قوله تعـالى : وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُـم بِسِيمَـٰهُمْ قَالُوا مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُـكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُـمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَـةٍ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْـكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ أى من أهل النار . ﴿ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْـتَكْبِرُونَ ﴾ أى للدنيـا واستـكبارُكم عن الإيمان . ﴿ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ ﴾ إشارة إلى قـوم من المؤمنين الفقراء ؛ كبلال وسَـلْمان وخَبّاب وغيرهم . ﴿ أَقْسَمْتُمْ ﴾ فى الدنيا . ﴿ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ ﴾ فى الآخرة . ﴿ بِرَحْمَةٍ ﴾ يوبّخونهم بذلك . وزِيدوا غمًّا وحسرة بأن قالوا لهم ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ . وقرأ عكرمة «دخلوا الجنة» بغير ألف والدال مفتوحة . وقرأ طَلْحة بن مُصَرِّف «أُدْخِلوا الجنة» بكسر الخاء على أنه فعل ماض .

ودلّت الآية على أن أصحاب الأعراف ملائكةٌ وأنبياء؛ فإن قولهم ذلك إخبار عن الله تعالى . ومن جعل أصحاب الأعراف المذنبين كان آخر قولهم لأصحاب النار « وما كنتم تستكبرون » ، ويكون «أهـؤلاء الذين» إلى آخر الاية من قـوله تعالى لأهل النـار توبيخا لهم على ما كان من قولهم فى الدنيا . ورُوى عن ابن عباس، والأوّل عن الحسن . وقيل : هو من الملائكة

(١) آية ٨ سورة التحريم .

الموكّلين بأصحاب الأعراف ؛ فإن أهل النار يحلفون أن أصحاب الأعراف يدخلون معهم النار فتقول الملائكة لأصحاب الأعراف : «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ» .

قوله تعالى : وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى ﴾ قيل : إذا صار أهل الأعراف إلى الجنة طمع أهل النار فقالوا : يا رَبَّنَا إن لنا قرابات فى الجنة فأْذن لنا حتى نراهم ونكلّمهم . وأهل الجنة لا يعرفونهم لسواد وجوههم ، فيقولون : «أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَو مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ» . فبيّن أن ٱبن آدم لا يستغنى عن الطعام والشراب وإن كان فى العذاب . ﴿ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ يعنى طعام الجنة وشرابها . والإفاضة التّوسعة ؛ يقال : أفاض عليه نِعَمه .

الثانية — فى هذه الآية دليل على أن سقى الماء من أفضل الأعمال . وقد سئل ابن عباس : أىُّ الصدقة أفضل؟ فقال : الماء، ألم تروْا إلى أهل النار حين ٱستغاثوا بأهل الجنة « أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ » . وروى أبو داود أن سعدًا أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " أىّ الصدقة أعجب إليك ؟ قال : "الماء" . وفى رواية : لحفر بئرا وقال " هذه لأمّ سعد " . وعن أنس قال قال سعد : يارسول الله ، إن أمّ سعد كانت تحبّ الصدقة ، أفينفعها أن أتصدّق عنها؟ قال : "نعم وعليك بالماء" . وفى رواية أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر سعد بن عُبادة أن يسقى عنها الماء . فدلّ على أن سَقْىَ الماء من أعظم القُرُبات عند الله تعالى . وقد قال بعض التابعين : من كثرت ذنوبه فعليه بسقى الماء . وقد غفر الله ذنوب الذى سقى الكلب ، فكيف بمن سقى رجلا مؤمنا مُوَحّدا وأحياه . روى

البخاري عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "بينا رجل يمشى بطريق آشتدّ عليه العطش فنزل بئرا فشرب منها ثم خرج فإذا كلب يأكل الثّرَى من العطش فقال لقد بلغ هـذا الكلبَ مثـلُ الذى بلغ بى فملأ خُفّه ثم أمسكه بفيه ثم رَقِىَ فسقى الكلبَ فشكر اللهُ[1] له فغفر له". قالوا : يارسول الله، وإن لنا فى البهائم لأجرا؟ قال : "فى كل ذات كبد رَطْبة أجرٌ". وعكس هـذا ما روى مسلم عن عبـد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "عُذّبت امرأة فى هِرّة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار لا هى أطعمتها وسقتها إذ هى حبستها ولا هى تركتها تأكل من خشاش[2] الأرض". وفى حديث عائشـة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "ومَن سَقَى مسلما شَرْبة من ماء حيث يوجد المـاء فكأنما أعتق رقبة ومن سقى مسلما شربة من ماء حيث لا يوجد المـاء فكأنما أحياها". خرّجه ابن ماجه فى السُّنَن.

الثالثـــة — وقد استدلّ بهذه الاية من قال : إن صاحب الحوض والقِرْبة أحقّ بمائه، وأن له منعه ممن أراده؛ لأن معنى قول أهل الجنة «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ» لا حقّ لكم فيها. وقد بوّب البخاريّ رحمه الله على هذا المعنى (باب من رأى أن صاحب الحوض والقِرْبة أحق بمـائه) وأدخل فى الباب عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال : "والذى نفسى بيـده لأذودنّ رجالا عن حوضى كما تُذاد الغريبة من الإبل عن الحوض". قال المُهَلّب : لا خلاف أن صاحب الحوض أحق بمـائه، لقوله عليه السلام : "لأذودنّ رجالا عن حوضى".

قوله تعـالى : ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾

«الذين» فى موضع خفض نعت للكافرين. وقـد يكون رفعا ونصبا بإضمار. قيل : هو من قول أهل الجـنة. ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾ أى نتركهم فى النار. ﴿كَمَا نَسُوا لِقَآءَ يَوْمِهِمْ

(١) أى أثنى عليه، أو قبل عمله ذلك، أو أظهر ما جازاه به عند ملائكته. (عن شرح القسطلانى).

(٢) خشاش الأرض (مثلثة الخاء) : هوامها وحشراتها.

هَذَا ﴾ أى تركوا العمل به وكذّبوا به . و « ما » مصدرية ، أى كنسيهم . ﴿ وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ عطف عليه ، أى وجحدهم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَاب ﴾ يعنى القرآن . ﴿ فَصَّلْنَاه ﴾ أى بيّنّاه حتى يعرفه من تدبره . وقيل : «فَصَّلْنَاهُ» أنزلناه متفرقا . ﴿ عَلَى عِلْمٍ ﴾ منّا به ، لم يقع فيه سهو ولا غلط . ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ قال الزجاج : أى هاديا وذا رحمة ، فجعله حالا من الهاء التى فى «فصلناه» . قال الزجاج : ويجوز هدًى ورحمةٌ ، بمعنى هو هدى ورحمة . وقيل : يجوز هدى ورحمةٍ بالخفض على البدل من كتاب . وقال الكسائىّ والفرّاء : ويجوز هدى ورحمةٍ بالخفض على النعت لكتاب . قال الفرّاء : مثل « وهذا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ[1] » . ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ خُصّ المؤمنون لأنهم المنتفعون به .

قوله تعالى : هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾ بالهمز ، من آل . وأهل المدينة يخفّفون الهمزة . والنظر : الانتظار ، أى هل ينتظرون إلا ما وُعدوا به فى القرآن من العقاب والحساب . وقيل : «ينظرون» من النظر إلى يوم القيامة . فالكناية فى « تأويله » ترجع إلى الكتاب . وعاقبة الكتاب ما وعد الله فيه من البعث والحساب . وقال مجاهد : «تأويله»

---

(١) آية ٩٢ سورة الأنعام .

جزاؤه ، أى جزاء تكذيبهم بالكتاب . قال قتـادة : « تأويله » عاقبته . والمعنى متقارب . ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ﴾ أى تبدو عواقبـه يوم القيامة . و « يوم » منصوب بيقول، أى يقول الذين نَسُوه من قبل يوم يأتى تأويله . ﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَـا مِنْ شُفَعَاءَ ﴾ استفهام فيـه معنى التمنى . ﴿ فَيَشْفَعُوا ﴾ نصب لأنه جواب الاسـتفهام . ﴿ لَنَـا أَوْ نُرَدُّ ﴾ قال الفرّاء : المعنى أوهـل نردّ . ﴿ فَنَعْمَـلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَـلُ ﴾ قال الزجاج : نردّ عطف على المعنى، أى هل يشفع لنا أحد أو نردّ . وقرأ ابن إسحاق « أو نردَّ فنعملَ » بالنصب فيهما . والمعنى إلا أن نردَّ؛ كما قال :

فقلتُ له لاتَبْكِ عينُك إنما ✽ نحاول مُلْكًا أو نموت فنُعْذَرَا

وقرأ الحسن « أو نردُّ فنعملُ » برفعهما جميعا . ﴿ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ أى فلم ينتفعوا بهـا ، وكل من لم ينتفع بنفسه فقد خسرها . وقيل : خسروا النِّعَم وحظّ أنفسهم منها . ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى بطل ما كانوا يقولون من أنّ مع الله إلهاً آخر .

قوله تعـالى : إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِـتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ بيّن أنه المنفرد بقدرة الإيجاد ، فهو الذى يجب أن يُعبد . وأصل « سـتّة » سدسة ، فأرادوا إدغام الدال فى السين فالتقيا عنـد مخرج التـاء فغلبت عليها . وإن شئت قلت : أبدل من إحدى السينين تاء وأدغم فى الدال؛ لأنك تقول فى تصغيرها : سديسة ، وفى الجمع أسداس، والجمع والتصغير يردّان الأسماء إلى أصولها . ويقولون : جاء فلان سادسا وسادتا وساتًّا؛ فمن قال : سادتا أبدل من السين تاء . واليوم : من طلوع الشمس إلى غروبهـا . فإن لم يكن شمس

فلا يوم؛ قاله القُشَيرِىّ . وقال : ومعنى « فى ستة أيام » أى من أيام الآخرة، كلّ يوم ألف سنة ؛ لتفخيم خلق السموات والأرض . وقيل : من أيام الدنيا . قال مجاهد وغيره : أولها الأحد وآخرها الجمعة . وذكر هذه المدة ولو أراد خلقها فى لحظة لفعل ؛ إذ هو القادر على أن يقول لها كونى فتكون . ولكنه أراد أن يعلّم العباد الرفق والتثبّت فى الأمور، ولتظهر قدرته للملائكة شيئا بعد شىء . وهذا عند من يقول : خلق الملائكة قبل خلق السموات والأرض. وحكمة أخرى — خلقها فى ستة أيام لأن لكل شىء عنده أجلا . وبيّن بهذا ترك معاجلة العصاة بالعقاب لأن لكل شىء عنده أجلا . وهذا كقوله : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ. فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ»[(١)] . بعد أن قال: « وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا » .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ هذه مسألة الاستواء؛ وللعلماء فيها كلام وإجراء. وقد بيّنا أقوال العلماء فيها فى (الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العلى) وذكرنا فيها هناك أربعة عشر قولا . والأكثر من المتقدّمين والمتأخرين أنه إذا وجب تنزيه البارى سبحانه عن الجهة والتميز فمن ضرورة ذلك ولواحقه اللازمة عليه عند عامة العلماء المتقدّمين وقادتهم من المتأخرين تنزيهُهُ تبارك وتعالى عن الجهة ، فليس بجهة فوق عندهم ؛ لأنه يلزم من ذلك عندهم متى اختص بجهة أن يكون فى مكان أو حيّز، ويلزم على المكان والحيّز الحركةُ والسكونُ للتحيّز، والتغيّر والحدوث . هذا قول المتكلمين . وقد كان السلف الأوّل رضى الله عنهم لا يقولون بنفى الجهة ولا ينطقون بذلك، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرت رسله . ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة . وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته ، وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تعلم حقيقته . قال مالك رحمه الله : الاستواء معلوم — يعنى فى اللغة — والكَيْف مجهول، والسؤال عن هذا بدعة . وكذا قالت أم سلمة رضى الله عنها . وهذا القدر كافٍ، ومن أراد

(١) آية ٣٨ سورة ق .

زيادة عليه فليقف عليه فى موضعه من كتب العلمـاء . والاستواء فى كلام العـرب هو العُلُوّ والاستقرار . قال الجوهرىّ : واستوى من اعوجاج ، واستوى على ظهر دابته؛ أى استقر. واستوى إلى السماء أى قصد . واستوى أى استولى وظهر . قال :

قد ٱسْـتَوَى بِشْرٌ على العِراق * من غير سَـيْف ودَمٍ مُهْراق

واستوى الرجل أى ٱنتهى شبابه . واسـتوى الشيء إذا اعتـدل . وحكى أبو عمـر بن عبـد البر عن أبى عبيدة فى قوله تعالى : « الرحمن على العرش اسـتوى » قال : علا . وقال الشـاعر :

فأوردتهـــم ماء بَفيفَاء قَفْـــرَةٍ * وقد حلّق النجم اليمانِىّ فاستوَى

أى علا وارتفع .

قلت : فعُلُوّ الله تعالى وٱرتفاعه عبارةٌ عن عُلُوّ مجـده وصفاته وملكوته . أى ليس فوقه فيما يجب له من معانى الجـلال أحد ، ولا معـه من يكون العُـلُوّ مشتركا بينه و بينه؛ لكنه العلىّ بالإطلاق سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ لفظ مشترك يُطلق على أكثر من واحد . قال الجوهرى وغيره : العرش سرير الملك . وفى التنزيل «نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا»(١) ، «وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ»(٢) . والعرش : سقف البيت . وعَرْش القَـدَم : ما نتأ فى ظهرها وفيـه الأصابع . وعرش السِّماك : أربعة كواكب صغار أسفل من العَوّاء(٣) ، يقال : إنها عَجُز الأسد . وعَرْش البئر : طَيّها بالخشب، بعد أن يُطْوَى أسفلها بالحجارة قدر قامة؛ فذلك الخشب هو العرش ، والجمع عروش . والعَرْش اسم لَمكّة . والعَـرْش المُلْك والسُّـلْطان . يقال : ثُلّ عرش فـلان إذا ذهب ملكه وسلطانه وعِزّه . قال زُهير :

تدارکتما عَبْسًا وقـد ثُلّ عَرْشُها * وذُبْيَانَ إذ ذَلّت بأقدامها النّعلُ

---

(١) آية ٤٠ سورة النمل . (٢) آية ١٠٠ سورة يوسف . (٣) العواء : خمسة كواكب على خط معقف الطرف . وقال ابن سـيده : العواء منزل من منازل القمر ، يمـد و يقصر ، والألف فى آخره للتأنيث .

وقد يُؤَوَّل العرش في الآية بمعنى المُلْك ، أي ما آستوى المُلْك إلّا له جلّ وعزّ . وهو قول حَسَن وفيه نظر، وقد بيّناه في جملة الأقوال في كتابنا، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ أي يجعله كالغِشاء ، أي يُذهب نور النهار ليتمّ قوام الحياة في الدنيا بمجيء الليل . فالليل للسكون ، والنهار للعاش . وقرئ « يغشى » بالتشديد؛ ومثله في « الرعد »(1) . وهي قراءة أبي بكر عن عاصم وحمزة والكسائيّ . وخفّف الباقون . وهما لغتان أغشى وغشّى . وقد أجمعوا على « فَغَشّاها ماغَشّى »(2) مشدّدا . وأجمعوا على «فأغْشَيْناهم»(3) فالقراءتان متساويتان . وفي التشديد معنى التكرير والتكثير . والتغشية والإغشاء : إلباس الشيء الشيء . ولم يذكر في هذه الآية دخول النهار على الليل، فآكتفى بأحدهما عن الآخر؛ مثل « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ »(4) . «بِيَدِكَ الخَيْرُ»(5) . وقرأ حُميد بن قيس «يَغْشَى الليلَ النهارُ » ومعناه أن النهار يغشى الليل . ﴿ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ أي يطلبه دائما من غير فتور . و « يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ » في موضع نصب على الحال . والتقدير : آستوى على العرش مُغشيا الليل النهار . وكذا « يطلبه حثيثا » حال من الليل؛ اى يُغشى الليل النهار طالبا له . ويحتمل أن تكون الجملة مسأنفة ليست بحال . « حَثِيثا » بدل من طالب المقدّر أو نعت له ، أو نعت لمصدر محذوف ؛ أي يطلبه طلبا سريعا . والحثّ : الإعجال والسرعة . ووَلّى حَثِيثا أي مسرعا . ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾ قال الأخفش : هي معطوفة على السموات؛ أي وخلق الشمس . ورُوي عن عبد الله بن عامر بالرفع فيها كلها على الابتداء والخبر .

قوله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — صدق الله في خبره، فله الخلق وله الأمر، خلقهم وأمرهم بما أحبّ . وهذا الأمر يقتضي النّهي . قال ابن عُيينة : فرّق بين الخلق والأمر ؛ فمن جمع بينهما فقد كفر .

---

(1) في قوله تعالى : « وهو الذي مد الأرض» آية ٣ . (2) آية ٥٤ سورة النجم .
(3) آية ٩ سورة يس . (4) آية ٨١ سورة النحل . (5) آية ٢٦ سورة آل عمران .

فالخلق المخلوق . والأمر كلامُـه الذى هو غير مخلوق وهـو قوله : « كن » . « إنمـا أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون »(١) . وفى تفرقته بين الخلق والأمر دليل بيّن على فساد قول من قال بخلق القرآن ؛ إذ لو كان كلامه الذى هـو أمر مخلوقا لكان قـد قال : أَلَا لَهُ الخلق والخلق . وذلك عِيّ من الكلام ومستهجَن ومُسْتَغَثّ . والله يتعالى عن التكلم بما لا فائدة فيه . ويدلّ عليـه قوله سبحانه : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُـومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ »(٢) . « وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ »(٣) . فأخبر سبحانه أن المخلوقات قائمة بأمره ؛ فلو كان الأمر مخلوقا لافتقر إلى أمر آخر يقوم به ، وذلك الأمر إلى أمر آخر إلى مالا نهاية له . وذلك محال . فثبت أن أمره الذى هو كلامه قديم أزلىّ غير مخلوق ؛ ليصح قيام المخلوقات به . ويدل عليه أيضا قوله تعالى : « وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ »(٤) . وأخبر تعالى أنه خلقهما بالحق ، يعنى القول وهو قوله للكوّنات « كن » . فلو كان الحق مخلوقا لمـا صح أن يخلق به المخلوقات ؛ لأن الخلق لايخلق بالمخلوق . يدلّ عليه «وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ»(٥) . « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ»(٦) . «وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي»(٧) . وهذا كله إشارة إلى السبق فى القول فى القِدم ، وذلك يوجب الأزل فى الوجود . وهذه النكتة كافية فى الرّد عليهم . ولهم آيات احتجوا بها على مذهبهم مثل قوله تعالى : « مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ»(٨) الآية . ومثل قوله تعالى : «وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا»(٩) . و «مفعولا»(١٠) وما كان مثله . قال القاضى أبو بكر : معنى « مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ » أى من وعظ النبىّ صلى الله عليه وسـلم ووعدٍ وتخويف «إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ» ؛ لأن وعظ الرسل عليهم السلام وتحذيرهم ذِكر . قال الله تعالى : «فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ»(١١) . ويقال . فلان فى مجلس الذّكر . ومعنى « وكان أمر الله قَدَرًا مَقْدُورا » و «مفعولا » : أراد سبحانه عقابه وانتقامه من الكافرين ،

(١) آية ٨٢ ســورة يس . (٢) آية ٢٥ سورة الروم . (٣) آية ١٢ سورة النحل .
(٤) آية ٨٥ سورة الحجر . (٥) آية ١٧١ سورة الصافات . (٦) آية ١٠١ ســورة الأنبياء .
(٧) آية ١٣ سورة السجدة . (٨) آية ٢ ســورة الأنبياء . (٩) آية ٣٨ سورة الأحزاب .
(١٠) آية ٤٧ سورة النساء . (١١) آية ٢١ سورة الغاشية .

ونصره للمؤمنين وما حكم به وقدّره من أفعاله . ومن ذلك قوله تعالى : «حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا»[1] وقال عز وجل : « وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ»[2] يعنى به شأنه وأفعاله وطرائقه . قال الشاعر :

لهـا أمْرُها حتى إذا ما تبوّأت * بأخفافها مَرْعًى تبـوّأ مضجَعا

الثانيـــة — وإذا تقرّر هذا فآعلم أن الأمر ليس من الإرادة فى شىء . والمعتزلة تقول : الأمر نفس الإرادة . وليس بصحيح، بل يأمر بما لا يريد وينهى عمـا يريد . ألا ترى أنه أمر إبراهيمَ بذبح ولده ولم يرده منه، وأمر نبيه أن يصلِّىَ مع أُمّته خمسين صلاة، ولم يرد منه إلا خمسَ صلوات . وقد أراد شهادة حمزة حيث يقول : « وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ»[3] . وقد نهى الكفار عن قتله ولم يأمرهم به . وهذا صحيح نفيس فى بابه؛ فتأمله .

قوله تعـالى : ﴿ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ « تبارك » تفاعل، من البركة وهى الكثرة والآتساع . يقال : بُورك الشىءُ وبُورك فيه؛ قاله ابن عرفة . وقال الأزهرىّ : «تبارك» تعـالى وتعاظم وآرتفع . وقيل : إن باسمه يُتبرّك ويُتيمّن . وقد مضى فى الفـاتحة معنى « رب العالمين»[4] .

قوله تعـالى : ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ ﴾ هذا أمر بالدعاء وتعبُّد به . ثم قَرَن جل وعز بالأمر صفاتٍ تحسُن معه . وهى الخشوع والاستكانة والتضرع . ومعنى « خفية » أى سِرًّا فى النَّفْس ليبعد عن الرياء؛ وبذلك أثنى على نبيّه زكريّا عليـه السلام إذ قال مخبرا عنـه : « إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا»[5] . ونحوه قولُ النبىّ صلى الله عليه وسلم : "خيرُ الذِّكْر الخفىُّ وخيرُ الرزق ما يكفِى" . والشريعة مقرّرة أن السر فيما لم يعترض من أعمال البر أعظم أجرا من الجهر.

---

(١) آية ٤٠ سـورة هود .　(٢) آية ٩٧ سورة هود .
(٣) آية ١٤٠ سورة آل عمران .　(٤) راجع جـ ١ ص ١٣٦ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٥) آية ٣ سورة مريم .

وقد تقدّم هذا المعنى فى « البقرة »(١) . قال الحسن بن أبى الحسن : لقد أدركنا أقواما ما كان على الأرض عمل يقدرون على أن يكون سرًّا فيكون جهرًا أبدا . ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء فلا يسمع لهم صوت، إن هو إلا الهمس بينهم وبين ربهم . وذلك أن الله تعالى يقول : « ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً » . وذكر عبدا صالحا رضى فعله فقال : « إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا » . وقد آستدلّ أصحاب أبى حنيفة بهذا على أن إخفاء «آمين» أولى من الجهر بها ؛ لأنه دعاء . وقد مضى القول فيه فى «الفاتحة»(٢) . وروى مسلم عن أبى موسى قال : كنّا مع النبىّ صلى الله عليه وسلم فى سفر — وفى رواية فى غَزاة — فجعل الناس يجهرون بالتكبير — وفى رواية فجعل رجل كلّما علا ثَنِيّة قال : لا إله إلا الله — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أيها الناس آرْبَعُوا(٣) على أنفسكم إنكم لستم تَدْعُون أصمّ ولا غائبا إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم" . الحديث .

الثانيـة — وآختلف العلماء فى رفع اليدين فى الدعاء؛ فكره طائفة منهم جُبير بن مُطْعِم وسعيد بن المسيِّب وسعيد بن جُبير . ورأى شُرَيح رجلا رافعا يديه فقال : من تتناول بهما، لا أمّ لك ! وقال مسروق لقوم رفعوا أيديهم : قطعها الله . واختاروا إذا دعا الله فى حاجة أن يشير بأصبعه السبابة . ويقولون : ذلك الإخلاص . وكان قتادة يشير بأصبعه ولا يرفع يديه . وكره رفع الأيدى عطاء وطاوس ومجاهد وغيرهم . ورُوى جواز الرفع عن جماعة من الصحابة والتابعين، ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ ذكره البُخارِىّ . قال أبو موسى الأشعرىّ . دعا النبىّ صلى الله عليه وسلم ثم رفع يديه ورأيت بياض إبطيه . ومثلُه عن أنس . وقال ابن عمر : رفع النبىّ صلى الله عليه وسلم يديه وقال : "اللّهُمّ إنى أبرأ إليك مما صنع خالد(٤)" . وفى صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٣٢ طبعة اولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ١٢٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٣) أى ارفقوا بها ولا تبالغوا فى الجهد . (٤) هو خالد بن الوليد ، بعثه النبى صلى الله عليه وسلم الى بنى جذيمة داعيا الى الاسلام ؛ فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فجعل خالد يقتل منهم و يأسر . فنقم النبى صلى الله عليه وسلم على خالد استعجاله فى شأنهم وترك التثبت فى أمرهم . راجع كتاب المغازى فى صحيح البخارى .

عليه وسلم إلى المشركين ، وهم ألف وأصحابه ثلثمائة وسبعة عشر رجلا ، فآستقبل نبيّ الله صلى الله عليه وسلم القبلة مادًّا يديه ، فجعل يهتف بربه ؛ وذكر الحديث . وروى الترمذيّ عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع يديه لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه . قال : هذا حديث صحيح غريب . وروى ابن ماجه عن سَلمان عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن ربكم حيّ كريم يستحيي من عبده أن يرفع يديه إليه فيردّهما صِفْرًا [أو قال] خائبتين "(١) .
احتج الأوّلون بما رواه مسلم عن عمارة بن رُوَيبة ورأى بشر بن مروان على المنبر رافعا يديه فقال : قبّح الله هاتين اليدين ، لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يزيد على أن يقول بيده هكذا ؛ وأشار بأصبعه المسبِّحة . وبما روى سعيد بن أبي عَروبة عن قَتادة أن أنس ابن مالك حدّثه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان لا يرفع يديه في شيء من الدعاء إلا عند الاستسقاء فإنه كان يرفعهما حتى يُرَى بياضُ إبطيه . والأوّل أصح طُرُقا وأثبت من حديث سعيد بن أبي عَروبة ؛ فإن سعيدا كان قد تغيّر عقله في آخر عمره . وقد خالفه شعبة في روايته عن قَتادة عن أنس فقال فيه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه . وقد قيل : إنه إذا نزلت بالمسلمين نازلة أن الرفع عندذلك جميل حسَن ؛ كما فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم في الاستسقاء ويوم بدر .

قلت : والدعاء حَسَن كيفما تيسّر ، وهو المطلوب من الإنسان لإظهار موضع الفقر والحاجة إلى الله عز وجل ، والتذلل له والخضوع . فإن شاء آستقبل القبلة ورفع يديه فحسن ، وإن شاء فلا ؛ فقد فعل ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم حسبما ورد في الأحاديث . وقد قال تعالى : « ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً » . ولم يرد صفةً من رفع يدين وغيرها . وقال « الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا »(٢) فمدحهم ولم يشترط حالة غير ما ذُكر . وقد دعا النبيّ صلى الله عليه وسلم في خطبته يوم الجمعة وهو غير مستقبل القبلة .

---

(١) الزيادة عن سنن ابن ماجه .	(٢) آية ١٩١ سورة آل عمران .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ يريد فى الدعاء و إن كان اللفظ عامّا [إلى هـذا هى الإشارة][1] . والمعتدى هو المجاوز للحدّ والمرتكب الحَظْر . وقد يتفاضل بحسب ما آعتدى فيه . ورُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "سيكون قوم يعتدون فى الدعاء" . أخرجه آبن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة . حدّثنا عفّان حدّثنا حماد بن سلمة أخبرنا سعيد الجُرَيْرِىّ عن أبى نعامة أن عبد الله بن مُغَفَّل سمع آبنه يقول : اللّهُمَّ إنى أسألك القَصْرَ الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتُها . فقال : أىْ بُنَىّ ، سَلِ الله الجنة وعُذْ به من النار؛ فإنى سمعت رسول الله صـلى الله عليه وسـلم يقول : "سيكون قوم يعتدون فى الدعاء" . والآعتداء فى الدعاء على وجوه : منهـا الجهر الكثير والصياح ؛ كما تقدم . ومنهـا أن يَدْعُوَ الإنسان فى أن تكون له منزلة نبىّ ، أو يدعُوَ فى محال ؛ ونحو هـذا من الشَّطَط . ومنها أن يدعُوَ طالبا معصيةً وغير ذلك . ومنها أن يدعُوَ بمـا ليس فى الكتاب والسنّة ؛ فيتخيّر ألفاظا مفقرة وكلمات مسجّعة قد وجدها فى كراريس لا أصل لها ولا معوّل عليها ، فيجعلها شعاره ويترك ما دعا به رسوله . وكل هذا يمنع من استجابة الدعاء؛ كما تقدم فى « البقرة »[2] بيانه .

قوله تعـالى : وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ فيه مسألة واحدة — وهو أنه سبحانه نَهى عن كل فساد قلّ أو كثُر بعد صلاحٍ قلّ أو كثُر . فهو على العموم على الصحيح من الأقوال . وقال الضحّاك : معنـاه لا تعوروا[3] المـاء المَعين ، ولا تقطعوا الشجر المُثْمِر ضِرارًا . وقد ورَد : قطعُ الدنانير من الفساد فى الأرض . وقد قيل : تجارة الحُكّام من الفساد فى الأرض . وقال القُشيرِىّ : المراد ولا تشركوا ؛ فهو نهى عن الشرك وسفك الدماء والهَرْج فى الأرض . وأمر بلزوم الشرائع بعد إصلاحها ، بعد أن أصلحها الله ببعثه الرسل ، وتقدير

(١) ما بين المربعات هكذا ورد فى نسخ الأصل ، ولعله زيادة من الناسخ .

(٢) راجع جـ ٢ ص ٣٠٨ طبعة ثانية . (٣) عوّرت عيون المياه : اذا دفنتها وسددتها .

الشرائع و وضوح ملة محمد صلى الله عليه وسلم . قال ابن عطية : وقائل هذه المقالة قصد إلى أكبر فساد بعد أعظم صلاح فخصه بالذكر .

قلت : وأما ما ذكره الضحاك فليس على عمومه ، وإنما ذلك إذا كان فيه ضرر على المؤمن ، وأما ما يعود ضرره على المشركين فذلك جائز؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد عوّر ماء قَلِيب[1] بَدْر وقطع شجر الكافرين . وسيأتي الكلام في قطع الدنانير في « هود »[2] إن شاء الله تعالى .

﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أمر بأن يكون الإنسان في حالة ترقّب وتخوّف وتأميل لله عز وجل، حتى يكون الرجاء والخوف للإنسان كالجناحين للطائر يحملانه في طريق استقامته ، وإن ٱنفرد أحدهما هلك الإنسان، قال الله تعالى : « نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ »[3] . فرجّى وخوّف. فيدعو الإنسان خوفا من عقابه وطمعا في ثوابه؛ قال الله تعالى : « وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا »[4] . وسيأتي القول فيه . والخوف : الانزعاج لما لا يؤمَن من المضار . والطمع : توقّع المحبوب؛ قاله القشيري . وقال بعض أهل العلم : ينبغي أن يغلب الخوف الرجاء طولَ الحياة، فإذا جاء الموت غلب الرجاء . قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” لا يموتنّ أحدُكم إلا وهو يحسن الظنّ بالله “ . صحيح أخرجه مسلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ولم يقل قريبة . فيه سبعة أوجه : أولها أن الرَّحْمة والرُّحْم واحد ، وهي بمعنى العفو والغفران ؛ قاله الزجاج وٱختاره النحاس . وقال النَّضْر بن شُمَيْل : الرحمة مصدر، وحقّ المصدر التذكير؛ كقوله : « فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ »[5] . وهذا قريب من قول الزجاج ؛ لأن الموعظة بمعنى الوعظ . وقيل : أراد بالرحمة الإحسان ،

---

(١) القليب (بفتح القاف) : البئر العاديّة القديمة التي لا يعلم لها رب ولا حافر ، تكون في البراري .

(٢) في قوله تعالى : « قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ... » آية ٨٨

(٣) آية ٤٩ سورة الحجر . (٤) آية ٩٠ سورة الأنبياء . (٥) آية ٢٧٥ سورة البقرة .

ولأن ما لا يكون تأنيثه حقيقيًّا جاز تذكيره؛ ذكره الجوهريّ . وقيـل : أراد بالرحمة هنا المطر؛ قاله الأخفش . قال : ويجوز أن يذكّر كما يذكّر بعض المؤنث . وأنشد :

فلا مُزْنَةٌ وَدَقتْ وَدْقها * ولا أرْضَ أَبْقَل إبقالها(١)

وقال أبو عبيدة : ذكّر « قريب » على تذكير المكان، أى مكانا قريبا . قال عليّ بن سليمان : وهذا خطأ، ولو كان كما قال لكان « قريب » منصوبا فى القرآن؛ كما تقول : إن زيدا قريبا منك . وقيل : ذكّر على النسب؛ كأنه قال : إن رحمـة الله ذات قُرْب؛ كما تقول : امرأة طالق وحائض . وقال الفـرّاء : إذا كان القريب فى معنى المسافة يذكّر ويؤنّث، وإن كان فى معنى النسب يؤنّث بلا آختلاف بينهـم . تقول : هـذه المرأة قريبتى ، أى ذات قرابتى؛ ذكره الجوهرى . وذكر غيره عن الفرّاء: يقال فى النسب قريبة فلان، وفى غير النسب يجوز التذكير والتأنيث؛ يقال : دارُك منا قريب، وفلانة منا قريب؛ قال الله تعالى : « وما يُدرِيكَ لَعلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا »(٢) . وقال من آحتج له : كذا كلام العرب؛ كما قال امرؤ القيس :

له الوَيْلُ إنْ أمسى ولا أمُّ هاشم * قرِيبٌ ولا البَسْبَاسَةُ آبنةُ يَشْـكُرَا

قال الزجاج : هذا خطأ؛ لأن سبيل المذكّر والمؤنث أن يجريا على أفعالها .

قوله تعـالى : وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾ عطف على قوله « يغشى اللَّيْلَ النَّهَار » . ذكر شيئا آخر من نعمه، ودلّ على وحدانيته وثبوت إلٰهيته . وقد مضى الكلام

(١) البيت لعامر بن جوين الطائى . وصف أرضا مخصبة لكثرة ما نزل بها من الغيث . والودق : المطر . والمزنة : السحابة . (عن شرح الشواهد) . (٢) آية ٦٣ سورة الأحزاب .

فى الريح فى « البقرة »[1] . ورياح جمع كثرة ، وأرواح جمع قِلّة . وأصل ريح رِوْح . وقد خُطِّئ من قال فى جمع القلة أرياح . ﴿ بُشْرًا ﴾ فيه سبع قراءات : قرأ أهل الحَرَمين وأبو عمرو « نُشُرًا » بضم النون والشين جمع ناشر على معنى النسب ، أى ذات نشر ؛ فهو مثل شاهد وشُهُد . ويجوز أن يكون جمع نَشُور كرسول ورُسُل . يقال : ريح النشور إذا أتت من هاهنا وهاهنا . والنَّشُور بمعنى المنشور ؛ كالرَّكوب بمعنى المركوب . أى وهو الذى يرسل الرياح منشرة . وقرأ الحسن وقَتادة « نُشْرا » بضم النون وإسكان الشين مخفَّفًا من نُشُر ؛ كما يقال : كُتْب ورُسْل . وقرأ الأعمش وحمزة « نَشْرًا » بفتح النون وإسكان الشين على المصدر ، أعمل فيه معنى ما قبله ؛ كأنه قال : وهو الذى ينشر الرياح نشرا . نشرت الشيء فانتشر ، فكأنها كانت مطوِيّة فتُنشر عند الهبوب . ويجوز أن يكون مصدرا فى موضع الحال من الرياح ؛ كأنه قال يرسل الرياح مُنْشرة ، أى مُحيِية ؛ من أنشر الله الميت فنَشَر ، كما تقول : أتانا ركضا ، أى راكضا . وقد قيل : إن نَشرا (بالفتح) من النَّشْر الذى هو خلاف الطَّىّ على ما ذكرنا . كأن الريح فى سكونها كالمطوية ثم تُرسل من طَيّها ذلك فتصير كالمنفتحة . وقد فسّره أبو عبيد بمعنى متفرقة فى وجوهها ، على معنى ينشرها هاهنا وهاهنا . وقرأ عاصم « بُشْرا » بالباء وإسكان الشين والتنوين جمع بشير ، أى الرياح تبشّر بالمطر . وشاهده قوله : « ومِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّراتٍ »[2] . وأصل الشين الضم ، لكن سكنت تخفيفا كرُسُل ورُسْل . وروى عنه « بَشْرا » بفتح الباء . قال النحاس : ويقرأ « بُشُرًا » و « بَشْرًا » مصدر بشَره يبشره بمعنى بشّره . فهذه خمس قراءات . وقرأ محمد اليَمانِىّ « بُشْرَى » على وزن حُبْلَى . وقراءة سابعة « بُشُرَى » بضم الباء والشين .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا ﴾ السحاب يذكّر ويؤنّث . وكذا كل جمع بينه وبين واحدته هاء . ويجوز نعته بواحد فتقول : سحاب ثقيل وثقيلة . والمعنى : حملت الريح سحابا ثقالا بالماء ، أى أثقلت بحمله . يقال : أقلّ فلان الشيء أى حمله . ﴿ سُقْنَاهُ ﴾

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩٧ طبعة ثانية .	(٢) آية ٤٦ سورة الروم .

أى السحاب . ﴿ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ ﴾ أى ليس فيه نبات . يقال : سُقْته لبـلد كذا وإلى بلد كذا .
وقيـل : لأجل بلد ميت؛ فاللام لام أجْل . والبـلد كل موضـع من الأرض عامر أو غير
عامر خالٍ أو مسكون . والبلدة والبـلد واحد البلاد والبُـلدان . والبَلَد الأثر وجمعه أبلاد .
قال الشاعر :

* مِن بعـد ما شَمِل البِـلَى أبلادَها[1] *

والبـلد : أُدْحِيّ[2] النعام . يقال : هو أذلّ من بَيْضة البلد، أى من بيضة النعام التى يتركها .
والبلدة الأرض؛ يقال : هذه بلدتنا كما يقال بَحْرَتنا . والبلدة من منازل القمر، وهى ستة أنجم
من القوس تنزلها الشمس فى أقصر يوم فى السنة . والبلدة الصّدر؛ يقال : فلان واسع البلدة
أى واسع الصدر . قال الشاعر :

أُنيخت فألقتْ بلدةً فَـوق[3] بلدة * قليلٍ بها الأصـوات إلا بُغامُها

يقول : بركت الناقة فألقت صدرها على الأرض . والبـلدة (بفتح الباء وضمها) : نقاوة
ما بين الحاجبين؛ فهما من الألفاظ المشـتركة . ﴿ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ ﴾ أى بالبـلد . وقيل :
أنزلنا بالسحاب المـاء؛ لأن السحاب آلة لإنزال المـاء . و يحتمل أن يكون المعنى فأنزلنا منه
المـاء؛ كقوله : « يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ[4] » أى منهـا . ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ
نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ الكاف فى موضع نصب . أى مثل ذلك الإخراج يحيي الموتى.
وخرّج البَيْهَقِيّ وغيره عن أبى رَزِين العقيلى قال : قلت يارسول الله، كيف يعيد الله الخلق،
وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال : "أمَا مررتَ بوَادِى قومك جَدْبًا ثم مررتَ به يهتز خَضِرا"
قال نعم، قال : "فتلك آية الله فى خلقه" . وقيـل : وجه التشبيه أن إحياءهم من قبورهم
يكون بمطر يبعثه الله على قبورهم، فتنشقّ عنهم القبور، ثم تعود إليهم الأرواح . وفى صحيح

(١) هذا عجز بيت لابن الرقاع . وصدره : * عرف الديار توهما فاعتادها * (٢) الأدحى (بضم الهمزة وكسرها) : مبيض النعام فى الرمل؛ لأن النعام تبيض فيه وليس للنعام عش . (٣) فى الأصول : «بعد» . والتصويب عن اللسان وديوان ذى الرمة . أراد بالبـلدة الأولى ما يقع على الأرض من صـدرها . و بالثانية الفلاة التى أناخ ناقته فيها . والبغام : صوت الناقة . وأصله للظبى فاستعاره للناقة . (٤) آية ٦ سورة الإنسان .

مسلم من حديث عبدالله بن عمرو عن النبيّ صلى الله عليه وسلم " ثم يرسل الله — أو قال ينزل الله — مطرا كأنه الطَّلُّ فتنبت منه أجساد الناس ثم يقال يأيها الناس هَلُمُّوا إلى ربّكم وقِفوهم إنهم مسئولون ". وذكر الحديث . وقد ذكرناه بكماله فى كتاب (التّذكرة) والحمد لله . فدلّ على البعث والنشور ؛ وإلى الله ترجع الأمور .

قوله تعالى : وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرج إلَّا نَكِدًا ﴾ أى التُّربة الطيبة . والخبيث الذى فى تربته حجارة أو شَوْك ؛ عن الحسن . وقيل : معناه التشبيه ، شبّه تعالى السريعَ الفهم بالبلد الطيب ، والبليدَ بالذى خَبُث ؛ عن النحاس . وقيل : هذا مثلٌ للقلوب ؛ فقلْب يقبل الوعظ والذّكرى ، وقلب فاسق يَنْبُو عن ذلك ؛ قاله الحسن أيضا . وقال قتادة : مثلُ المؤمن يعمل محتسبا متطوّعا والمنافق غير محتسب ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذى نفسى بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عظما سمينا أو مِرْمَاتين[1] حَسَنَتين لشهد العِشاء " . ﴿ نَكِدًا ﴾ نصب على الحال ، وهو العَسِر الممتنع من إعطاء الخير . وهذا تمثيل . قال مجاهد : يعنى أن فى بنى آدم الطيّب والخبيث . وقرأ طلحة « إلّا نَكْدا » حذف الكسرة لثقلها . وقرأ ابن القَعْقَاع « نَكَدا » بفتح الكاف، فهو مصدر بمعنى ذا نكد . كما قال :

* فإنما هى إقبال وإدبار *

وقيل : « نَكِدَا » بنصب الكاف وخفضها بمعنًى ؛ كالدّنَف والدّنِف ، لغتان . ﴿ كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ أى كما صرّفنا من الآيات ، وهى الحجج والدّلالات ، فى إبطال الشرك ؛ كذلك نصرف الايات فى كل ما يحتاج إليه الناس . ﴿ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ وخصّ الشاكرين لأنهم المنتفعون بذلك .

---

(١) المرماة (بكسر الميم وفتحها) : ظلف الشاة . وقيل ما بين ظلفيها .

قوله تعـالى : لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ لمـا بيّن أنه الخالق القادر على الكمال ذكر أقاصيص الأمم وما فيها من تحذير الكفار . واللام فى « لقد » للتأكيد المنبّه على القسم . والفاء دالة على أن الثانى بعـد الأوّل . ﴿ يَا قَوْمِ ﴾ نداء مضاف . ويجوز « يا قومى » على الأصل . ونوحٌ أوّل الرسل إلى الأرض بعد آدم عليهما السلام بتحريم البنات والأخوات والعمات والخالات . قال النحاس : وانصرف لأنه على ثلاثة أحرف . وقد يجوز أن يُشتقّ من ناح ينوح ؛ وقد تقدّم فى « آل عمران »(1) هذا المعنى وغيره فأغنى عن إعادته . قال ابن العربى : ومن قال إن إدريس كان قبله من المؤرّخين فقد وَهِم . والدليـل على صحة وهمه الحديث الصحيح فى الإسراء حين لقى النبىّ صلى الله عليه وسـلم آدم وإدريس فقال له آدم : "مَرْحَبًا بالنبىّ الصالح" . وقال له إدريس : "مَرْحَبًا بالنبىّ الصالح والأخ الصالح" . فلو كان إدريس أبًا لنوح لقال مرحبا بالنبىّ الصالح والابن الصالح . فلما قال له والأخ الصالح دلّ على أنه يجتمع معه فى نوح ، صلواتُ الله عليهم أجمعين . ولا كلام لمنصف بعد هذا . قال القاضى عِياض : وجاء جواب الآباء هاهنا كنوح وإبراهيم وآدم "مرحبا بالابن الصالح" . وقال عن إدريس "بالأخ الصالح" كما ذُكر عن موسى وعيسى ويوسف وهارون ويحيى ممن ليس بأب باتفاق للنبىّ صلى الله عليه وسـلم . وقال المـازَرِى : قـد ذكر المؤرّخون أن إدريس جدّ نوح عليهما السلام . فإن قام الدليل على أن إدريس بُعث أيضا لم يصح قول النّسابين أنه قبل نوح ؛ لمـا أخبر عليه السلام من قول آدم أن نوحا أوّل رسول بُعث ، وإن لم يقم دليل جازما قالوا ، وصح أن يحمل أن إدريس كان نبيّا غير مرسل . قال القاضى عِياض : قد يجمع بين هذا بأن يقال : اختصّ بعث نوح لأهل الأرض — كما قال فى الحديث — كافّةً كنبيّنا عليه السلام . ويكون إدريس لقومه كموسى وهود وصالح ولوط وغيرهم . وقد استدل

(1) راجع جـ ٤ ص ٦٢ طبعة أولى أو ثانية .

بعضهم على هذا بقوله تعالى: « وإنّ إلْيَاسَ لمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ »[1]. وقد قيل : إن إلياس هو إدريس . وقد قرئ « سَلَامٌ على إدْرَاسِينَ »[2] . قال القاضي عياض : وقد رأيت أبا الحسن بن بَطّال ذهب إلى أن آدم ليس برسول ؛ ليسلم من هذا الاعتراض . وحديثُ أبي ذَرٍّ الطويل يدل على أن آدم وإدريس رسولان . قال ابن عطيّة : ويجتمع ذلك بأن تكون بِعثة نوح مشهورة لإصلاح الناس وحملهم بالعذاب والإهلاك على الإيمان ؛ فالمراد أنه أوّل نبيّ بُعث على هذه الصفة . والله أعلم . ورُوِى عن ابن عباس أن نوحا عليه السلام بُعث وهو ابن أربعين سنة . قال الكَلْبِيّ : بعد آدم بثمانمائة سنة . وقال ابن عباس : وبقى في قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاما ؛ كما أخبر التنزيل . ثم عاش بعد الطوفان ستّين سنة حتى كَثُر الناس وفَشَوْا . وقال وهب : بُعث نوح وهو ابن خمسين سنة . وقال عَوْن ابن شداد : بُعث نوح وهو ابن ثلثمائة وخمسين سنة . وفي كثير من كتب الحديث : الترمذيّ وغيره أن جميع الخلق الآن من ذُرّية نوح عليه السلام . وذكر النقّاش عن سليمان بن أرْقَم عن الزُّهْرِيّ أن العرب وفارس والروم وأهل الشام وأهل اليمن من ولد سام بن نوح . والسِّنْد والهند والزَّنْج والحبشة والزُّطّ والنُّوبة ، وكلُّ جلد أسود من ولد حام بن نوح . والتّرك وبَرْبَر ووراء الصين ويأجوج ومأجوج والصّقالبة كلُّهم من ولد يافث بن نوح . والخلق كلهم ذرّية نوح .

قوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ برفع « غيرُه » قراءة نافع وأبي عمرو وعاصم وحمزة . أي ما لكم إلٰه غيره . نعت على الموضع . وقيل : « غير » بمعنى إلا ؛ أي ما لكم من إلٰه إلا الله . قال أبو عمرو: ما أعرف الجرّ ولا النصب . وقرأ الكِسَائيّ بالخفض على الموضع . ويجوز النصب على الاستثناء ، وليس بكثير ؛ غير أن الكسائيّ والفرّاء أجازا نصب « غير » في كل موضع يحسُن فيه « إلّا » تمّ الكلام أو لم يتم . فأجازا : ما جاءني غيرَك . قال الفرّاء : هي لغة بعض بني أسد وقضاعة . وأنشد :

(١) آية ١٢٣ سورة الصافات .
(٢) في قوله تعالى : « سلام على ال ياسين » آية ١٣٠ سورة الصافات .

لم يَمْنَع الشُّرْبَ منها غيرَ أن هتفَتْ * حمامــةٌ فى سُحُوق ذاتِ أوْ قالِ[1]

قال الكسائىّ : ولا يجوز جاءنى غيرك ، فى الإيجاب ؛ لأن إلّا لا تقع ها هنا . قال النحاس : لايجوز عند البصريين نصب «غير» إذا لم يتمّ الكلام . وذلك عندهم من أقبح اللّحن .

قوله تعـالى : قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢)

« الملأ » أشراف القوم ورؤساؤهم . وقد تقدّم بيانه فى «البقرة»[2] . والضّلال والضّلالة : العدول عن طريق الحق ، والذهاب عنه . أى إنا لنراك فى دعائنا إلى إلٰه واحد فى ضلال عن الحق . ﴿ أُبَلِّغُكُمْ ﴾ بالتشديد من التبليغ ، وبالتخفيف من الإبلاغ . وقيل : هما بمعنًى واحد لغتان ؛ مثل كرّمه وأكرمه . ﴿ وَأَنْصَحُ لَكُمْ ﴾ النُّصح : إخلاص النية من شوائب الفساد فى المعاملة ؛ بخلاف الغِشّ . يقال : نصحته ونصحت له نصيحةً ونَصاحة ونُصْحا . وهو باللام أفصح . قال الله تعالى : « وَأَنْصَحُ لَكُمْ » . والاسم النصيحة . والنصيحُ النـاصحُ ، وقوم نصحاء . ورجل ناصح الجَيْب أى تقىّ القلب . قال الأَصْمعىّ : الناصح الخالص من العسل وغيره . مثلُ الناصع . وكلّ شىء خَلَص فقد نَصَح . وٱنتصح فلان أقبل على النّصيحة . يقال : انتصِحْنِى إننى لك ناصح . والناصح الخياط . والنِّصاح السّلك يُخاط به . والنّصاحات أيضا الجلود . قال الأعْشى :

فـتَرَى الشَّرْب نَشاوَى كلّهــمْ * مثل ما مُدّتْ نِصاحاتُ الرُّبَحْ

الرُّبَح لغةٌ فى الرُّبَع ، وهو الفصيل . والرُّبَح أيضا طائر . وسيأتى لهذا زيادة معنًى فى « براءة »[3] إن شاء الله تعالى .

---

(١) السحوق : ما طال من الدّوم . وأوقاله ثماره . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢٤٣ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) فى قوله تعالى : « ليس على الضعفاء ... » آية ٩١

قوله تعالى : أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ ﴾ فُتحت الواو لأنها واو عطف ، دخلت عليها ألف الاستفهام للتقرير. وسبيل الواو أن تدخل على حروف الاستفهام إلا الألف لقوتها. ﴿ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ ﴾ أي وَعْظ من ربكم . ﴿ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ ﴾ أي على لسان رجل . وقيل : «على» بمعنى «مع» ، أي مع رجل . وقيل : المعنى أن جاءكم ذكر من ربكم منزَّل على رجل منكم ، أي تعرفون نسبه . أي على رجل من جنسكم ولو كان مَلَكا . فربما كان في اختلاف الجنس تنافر الطبع . « والفُلْك » يكون واحدا ويكون جمعا . وقد تقدّم في « البقرة » [1] . و«عمين» أي عن الحق ؛ قاله قَتادة . وقيل : عن معرفة الله تعالى وقدرته ؛ يقال : رجلٌ عَمٍ بكذا ، أي جاهل .

قوله تعالى : وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا . قال ابن عباس : أي ابن أبيهم . وقيل : أخاهم في القبيلة . وقيل : أي بشرا من بني أبيهم آدم .

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩٤ طبعة ثانية .

وفى مصنّف أبى داود أنـــ أخاهم هودا أى صاحبهم . وعادٌ من ولد سام بن نوح . قال ابن إسحاق : وعاد هو ٱبن عَوْص بن إرم بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام . وهود هو هود بن عبـــد الله بن رباح بن الجلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح . بعثه الله إلى عاد نبيًّا . وكان من أوسطهم نَسَبا وأفضلهم حَسَبا . و «عاد» من لم يصرفه جعله ٱسما للقبيلة ، ومن صرفه جعله ٱسما للحَىّ . قال أبو حاتم : وفى حرف أُبَىّ وٱبن مسعود «عادَ ٱلْأولى»(١) بغير ألف . و «هود» أعجمى ، وٱنصرف لخفّته ؛ لأنه على ثلاثة أحرف . وقد يجوز أن يكون عربيا مشتقّا من هاد يهود . والنصب على البـــدل . وكانـــ بين هود ونوح فيما ذكر المفسرون ســـبعة آباء . وكانت عاد فيما رُوى ثلاث عشرة قبيلة ، ينزلون الرمال ، رمل عالِج . وكانوا أهل بساتين وزروع وعمارة ، وكانت بلادهم أخصب البلاد ، فسخِط الله عليهم فجعلها مفاوز ، وكانت فيما رُوى بنواحى حضرموت إلى اليمن ، وكانوا يعبدون الأصنام . ولحق هود حين أهلك قومـــه بمن آمن معه بمكة ، فـــلم يزالوا بها حتى ماتوا . ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِى سَـــفَاهَةٍ ﴾ أى فى حُمْق وخفّة عقل . قال :

مَشَيْنَ كما اهتزّت رِياحٌ تسفّهتْ * أعالِيَهـــا مَرُّ الرياح النَّـــوَاسِم

وقد تقدّم هذا المعنى فى « البقرة »(٢) . والرؤية هنا وفى قصة نوح قيل : هى من رؤية البصر . وقيل : يجوز أن يراد بها الرأى الذى هو أغلب الظن .

قوله تعالى : ﴿وَٱذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ « خلفاء » جمع خليفة على التذكير والمعنى ، وخلائف على اللفظ . مَنّ عليهم بأن جعلهم سُكّان الأرض بعد قوم نوح . ﴿ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَسْـــطَةً ﴾ ويجوز « بصطة » بالصاد لأن بعدها طاء ؛ أى طولا فى الخلق وعظم الجسم . قال ٱبن عباس : كان أطولهم مائة ذراع ، وأقصرهم ســـتين ذراعا . وهـــذه الزيادة كانت على خلق آبائهم . وقيل : على خلق قوم نوح . قال وهب : كان رأس أحدهم

---

(١) فى قوله تعالى : « وأنه أهلك عادًا الأولى » آية ٥٠ سورة النجم .

(٢) راجع جـ ١ ص ٢٠٥ طبعة ثانية أو ثالثة .

مثل قبة عظيمة ، وكان عين الرجل يفرخ فيها السباع ، وكذلك مناخرهم . وروى شهر ابن حوشب عن أبي هريرة قال : أن كان الرجل من قوم عاد يتخذ المصراعين من حجارة لو اجتمع عليها خمسمائة رجل من هذه الأمة لم يطيقوه ، وأن كان أحدهم ليغمز برجله الأرض فتدخل فيها . ﴿ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ ﴾ أي نعم الله ، واحدها إِلًى وإِلَى وإِلْوٌ وأَلًى . كالآناء واحدها إِنًى وإِنَى وإِنْوٌ وأَنًى . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ تقدم[1] .

قوله تعالى : قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢)

طلبوا العذاب الذي خوفهم به وحذرهم منه فقال لهم ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ ﴾ . ومعنى وقع أي وجب . يقال : وقع القول والحكم أي وجب ، ومثله : « وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ »[2] . أي نزل بهم . « وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ »[3] . والرجس العذاب وقيل : عني بالرجس الرين على القلب بزيادة الكفر . ﴿ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ ﴾ يعني الأصنام التي عبدوها ، وكان لها أسماء مختلفة . ﴿ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي من حجة لكم في عبادتها . فالاسم هنا بمعنى المسمى . نظيره « مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا »[4] . وهذه الأسماء مثل العزى من العز والأعز واللات ، وليس لها من العز والإلهية شيء . ﴿ دَابِرَ ﴾ آخر . وقد تقدم[5] . أي لم يبق لهم بقية .

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٨١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ١٣٤ من هذه السورة .
(٣) آية ٨٢ سورة النمل . (٤) آية ٤٠ سورة يوسف . (٥) آية ٤٥ سورة الأنعام .

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

وهو ثمود بن عاد بن إرَم بن سام بن نوح . وهو أخو جَدِيس ، وكانوا فى سَعة من معايشهم ؛ فخالفوا أمر الله وعبدوا غيره ، وأفسدوا فى الأرض . فبعث الله إليهم صالحا نبيًّا ، وهو صالح بن عبيد بن آسف بن كاشح بن عبيد بن حاذر بن ثمود . وكانوا قوما عُرْبًا . وكان صالح من أوسطهم نَسَبًا وأفضلهم حَسَبًا فدعاهم إلى الله تعالى حتى شَمِط[1] ولا يتبعه منهم إلا قليل مستضعَفون . ولم ينصرف « ثمود » لأنه جُعل آسما للقبيلة . وقال أبو حاتم : لم ينصرف لأنه آسم أعجمىّ . قال النحاس : وهذا غلط ؛ لأنه مشتق من الثَّمَد وهو المال القليل . وقد قرأ القراء « أَلَآ إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهم »[2] على أنه آسم للحىّ . وكانت مساكن ثمود الحِجر بين الحجاز والشام إلى وادى القُرَى . وهم من ولد سام بن نوح . وسُمّيت ثمود لقلة مائها . وسيأتى بيانه فى « الحِجر »[3] إن شاء الله تعالى .

﴿ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ أخرج لهم الناقة حين سألوه من حجر صَلْد ؛ فكان لها يوم تشرب فيه ماء الوادى كلّه ، وتسقيهم مثله لبنا لم يُشرب قطُّ ألذ وأحلى منه . وكان بقدر حاجتهم على كثرتهم ؛ قال الله تعالى : « لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ »[4] . وأضيفت الناقة إلى الله عز وجل على جهة إضافة الخلق إلى الخالق . وفيه معنى التشريف والتخصيص .

﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فى أَرْضِ اللهِ ﴾ أى ليس عليكم رزقها ومؤونتها .

---

(١) الشمط ، (بفتح الميم) : شيب اللحية . وقيل : بياض شعر الرأس يخالط سواده .

(٢) آية ٦٨ سورة هود . (٣) فى قوله تعالى : « ولقد كذب أصحاب الحِجر المرسلين » آية ٨٠

(٤) آية ١٥٥ سورة الشعراء .

قوله تعـالى : وَٱذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فيه محذوف، أى وبوأكم فى الأرض منازل . ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا ﴾ أى تبنون القصور بكل موضع . ﴿ وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ اتخذوا البيوت فى الجبال لطول أعمارهم ؛ فإن السقوف والأبنية كانت تُبْلَى قبـل فناء أعمارهم . وقرأ الحسن بفتح الحاء ، وهى لغة . وفيه حرف من حروف الحلق ؛ فلذلك جاء على فَعَل يَفْعَل .

الثانيــة — استدل بهذه الآية من أجاز جواز البناء الرفيع كالقصور ونحوها ، وبقوله : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ »[(1)] . ذُكر أن ٱبنًا لمحمـد بن سيرين بَنَى دارا وأنفق فيها مالا كثيرا ؛ فذُكر ذلك لمحمد بن سـيرين فقال : ما أرى بأسا أن يبنى الرجل بنـاء ينفعه . ورُوى أنه عليـه السلام قال : " إذا أنعم الله على عبد أحبّ أن يُرى أثر النعمة عليه " . ومن آثار النعمة البناء الحسن ، والثياب الحسنة . ألا ترى أنه لو اشـترى جارية جميلة بمال عظيم فإنه يجوز وقد يكفيه دون ذلك ؛ فكذلك البناء . وكره ذلك آخرون ، منهم الحسن البصرى وغيره . واحتجّوا بقوله عليه السـلام : " إذا أراد الله بعبد شَرًّا أهلك ماله فى الطّين واللّبِن" . وفى خبر آخر عنه أنه عليه السلام قال : " من بَنَى فوق ما يكفيه جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه " .

قلت : بهذا أقول؛ لقوله عليه السلام : " وما أنفق المؤمن من نفقة فإن خلفها على الله عز وجل إلا ما كان فى بنيان أو معصية " . رواه جابر بن عبد الله وخرّجه الدّارَقُطْنِيّ . وقوله

(١) آية ٣٢ من هذه السورة .

عليـه السلام : " ليس لابن آدم حق فى ســوى هذه الخصال بيت يسكنه وثوب يوارى عورته وجلف[1] الخبز والمـاء " أخرجه الترمذى .

الثالثـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ فَٱذْكُرُوا آلَاءَ ٱللَّهِ ﴾ أى نعمه . وهذا يدل على أن الكفار منعم عليهم . وقـد مضى فى « آل عمران[2] » القول فيه . ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ تقـدم فى « البقرة[3] » . والعثى والعثو لغتان . وقرأ الأعمش « تعثوا » بكسر التاء أخذه من عثى يعثى لا من عثا يعثو .

قوله تعـالى : قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا ﴾ الثـانى بدل من الأول ، لأن المستضعفين هم المؤمنون . وهو بدل البعض من الكل .

قوله تعـالى : فَعَقَرُوا ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوا ٱلنَّاقَةَ ﴾ العقر الجرح . وقيل : قطع عضـو يؤثر فى النفس . وعقرت الفرس : إذا ضربت قوائمه بالسيف . وخيل عقرى . وعقرت ظهر الدابة : إذا أدبرته .

(١) الجلف (بالكسر) : الخبز وحده لا أدم معه . وقيل : الخبز الغليظ اليابس .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٣٢٠ طبعة أولى أو ثانية . (٣) راجع جـ ١ ص ٤٢١ طبعة ثانية أو ثالثة .

قال آمرؤ القيس :

تقول وقد مال الغَبِيط بنا معًا * عقَرْتَ بَعِيرى يا آمرأ القيس فآنزِلِ

أى جرحته وأدْبرته . قال القشيرى : العقر كشف عُرقوب البعير؛ ثم قيل للنَّحْر عَقر؛ لأن العَقْر سبب النحر فى الغالب . وقد آختُلف فى عاقر الناقة على أقوال . أصحّها ما فى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن زَمعة قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الناقة وذكر الذى عقرها فقال : " إذ آنبعث أشقاها آنبعث لها رجل عزيز عارم[1] منيع فى رهطه مثل أبى زَمْعة " وذكر الحديث . وقيل فى آسمه : قدار بن سالف . وقيل : إن ملكهم كان إلى آمرأة يقال لها ملكى، فحسدت صالحا لمّا مال إليه الناس ، وقالت لآمرأتين كان لهما خليلان يعشقانهما : لا تطيعاهما وآسألاهما عقر الناقة ؛ ففعلتا . وخرج الرجلان وألجآ الناقة إلى مَضِيق ورماها أحدهما بسهم وقتلاها . وجاء السَّقْب وهو ولدها إلى الصخرة التى خرجت الناقة منها فرغا ثلاثا وآنفجرت الصخرة فدخل فيها . ويقال : إنه الدّابة التى تخرج فى آخر الزمان على الناس، على ما يأتى بيانه فى «النمل»[2] . وقال آبن إسحاق : أتبع السَّقْبَ أربعة نفر ممن كان عقر الناقة ، مصدع وأخوه ذؤاب . فرماه مصدع بسهم فآنتظم قلبه[3] ، ثم جرّ برجله فألحقه بأمّه ، وأكلوه معها . والأوّل أصح ؛ فإنّ صالحا قال لهم : إنه بَقِيَ من عمركم ثلاثة أيام، ولهذا رَغَا ثلاثا . وقيل : عقرها عاقرها ومعه ثمانية رجال، وهم الذين قال الله فيهم : « وَكَانَ فِى الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ »[4] على ما يأتى بيانه فى « النمل » . وهو معنى قوله « فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ »[5] . وكانوا يشربون فأعوزهم الماء ليمزجوا شرابهم ، وكان يوم لبن الناقة ، فقام أحدهم وترصّد الناس وقال : لأرِيحَنّ الناس منها؛ فعقرها .

قوله تعالى : ﴿ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أى آستكبروا . عتَا يعتو عتوًّا آستكبر . وتَعَتَّى فلان إذا لم يُطِع . والليل العاتى : الشديد الظلمة؛ عن الخليل .

(١) عارم : أى خبيث شرير . (٢) فى قوله تعالى : « وإذا وقع القول عليهم » آية ٨٢

(٣) انتظم الصيد : اذا طعنه أو رماه حتى ينفذه . (٤) آية ٤٨ (٥) آية ٢٩ سورة القمر.

﴿ وَقَالُوا يَاصَالِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ أى من العذاب . ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ أى الزّلزلة الشديدة . وقيل : كانت صيحة شديدة خَلَعت قلوبهم ؛ كما فى سورة « هود »(١) فى قصة ثمود فأخذتهم الصيحة . يقال : رَجَف الشيء يَرْجُف رَجْفًا ورَجَفانًا . وأرجفت الريحُ الشجرَ حرّكته . وأصله حركة مع صوت؛ ومنه قوله تعالى : « يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ »(٢) قال الشاعر:

ولما رأيت الحج قد آن وَقْتُه * وظلّت مَطايَا القوم بالقوم تَرْجُفُ

﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ ﴾ أى بلدهم . وقيل : وحّد على طريق الجنس ، والمعنى : فى دُورهم . وقال فى موضع آخر . « فى ديارهم »(٣) أى فى منازلهم . ﴿ جَاثِمِينَ ﴾ أى لاصقين بالأرض على رُكَبهم ووجوههم ؛ كما يَجْثُم الطائر. أى صاروا خامدين من شدّة العذاب . وأصل الجُثُوم للأرنب وشبهها ، والموضع مَجْثَم . قال زهير :

بها العِينُ والآرامُ يمشين خِلْفَة * وأطلاؤها يَنْهَضْن مِن كلّ مَجْثَمِ(٤)

وقيل : احترقوا بالصاعقة فأصبحوا مَيّتين، إلا رجلا واحدا كان فى حرم الله؛ فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه . ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾ أى عند اليأس منهم . ﴿ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ يحتمل أنه قال ذلك قبل موتهم . ويحتمل أنه قاله بعد موتهم ؛ كقوله عليه السلام لقَتْلَى بَدْر : "هل وجدتم ما وعد ربكم حقا" ؟ فقيل : أتُكَلِّم هؤلاء الجِيَف ؟ فقال : "ما أنتم بأسمعَ منهم ولكنهم لا يقدرون على الجواب" . والأول أظهر . يدلّ عليه ﴿ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ أى لم تقبلوا نُصْحى .

قوله تعالى : وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾

فيها أربع مسائل :

---

(١) فى قوله تعالى : «وأخذ الذين ظلموا الصيحة ...» آيه ٦٧ (٢) آية ٦ سورة النازعات .
(٣) آية ٦٧ و ٩٤ سورة هود . (٤) العين (بكسر أوله) : البقر واحدها أعين وعيناء . والآرام : الظباء . والأطلاء : الأولاد؛ الواحد طَلًا . وخلفة : فوج بعد فوج . وقيل مختلفة ، هذه مقبلة وهذه مدبرة، وهذه صاعدة وهذه نازلة . (عن شرح المعلقات) .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ قال الفرّاء : لوط مشتق من قولهم : هـذا أَلْيَطُ بقلبي، أى ألصق . وقال النحاس : قال الزجاج زعم بعض النحويين — يعني الفرّاء — أن لوطا يجوز أن يكون مشتقا من لُطْتُ الحوض إذا ملسته بالطين . قال : وهذا غلط؛ لأن الأسماء الأعجمية لا تشتقّ كإسحاق، فلا يقال : إنه من السُّحق وهو البُعد . وإنما صُرف لوط لأنه على ثلاثة أحرف وهو ساكن الوسط . قال النقاش : لوط من الأسماء الأعجمية وليس من العربية . فأما لُطْت الحوض ، وهذا أَلْيَط بقلبي من هـذا ؛ فصحيح . ولكن الاسم أعجميّ كإبراهيم وإسحاق . قال سيبويه : نوح ولوط أسماء أعجمية، إلا أنها خفيفة فلذلك صَرفت . بعثه الله تعالى إلى أمّة تسمى سدوم، وكان ٱبن أخي إبراهيم . ونَصْبه إما بـ«أَرْسَلْنا» المتقدّمة فيكون معطوفا . ويجوز أن يكون منصوبا بمعنى وٱذكر .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ ﴾ يعني إتيان الذُّكور . ذكرها الله باسم الفاحشة ليبين أنها زِنًى؛ كما قال تعالى : « وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً »(١) .

وٱختلف العلماء فيما يجب على من فعل ذلك بعـد إجماعهم على تحريمه ؛ فقال مالك : يُرْجَم ؛ أَحصن أو لم يحصن . وكذلك يُرجم المفعول به إن كان محتلما . وروى عنه أيضا : يُرجم إن كان مُحْصنا ، ويُحبس ويؤدّب إن كان غير محصن . وهـو مذهب عطاء والنَّخَعيّ وٱبن المسيِّب وغيرهم . وقال أبو حنيفـة : يُعزّر المحصن وغيره ؛ وروى عن مالك . وقال الشافعيّ : يُحَدّ حَدّ الزنى قياسا عليه . احتج مالك بقوله تعالى : « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ »(٢) . فكان ذلك عقوبةً لهم وجزاءً على فعلهم . فإن قيل : لا حجة فيها لوجهين؛ أحدهما — أن قوم لوط إنما عُوقبوا على الكفر والتكذيب كسائر الأمم . الثـاني — أن صـغيرهم وكبيرهم دخل فيها ؛ فدلّ على خروجها من باب الحـدود . قيل : أمّا الأوّل فغلط ؛ فإن الله سبحانه أخبر عنهم أنهم كانوا على معاصي فأخذهم بها؛ منها هـذه . وأمّا الثـاني فكان منهم فاعل وكان منهم راضٍ، فعُوقب الجميع لسكوت الجماهير عليه . وهي حكمة الله وسنّته في عباده .

(١) آية ٣٢ سورة الإسراء . (٢) آية ٧٤ سورة الحجر .

وبَقِيَ أمر العقوبة على الفاعلين مستمرًّا . والله أعلم . وقد روى أبو داود وابن ماجه والترمذيّ والنّسائيّ والدّارَقُطْنِيّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فآقتلوا الفاعل والمفعول به" . لفظ أبي داود وابن ماجه . وعند التِّرمذيّ "أُحْصِنا أو لم يحصنا" . وروى أبو داود والدَّارَقُطْنِيّ عن ٱبن عباس في البِكْر يوجد على اللّوطيّة قال يرجم . وقد رُوِي عن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه أنه حرق رجلا يُسمَّى الفُجاءة حين عمل عمل قوم لوط بالنار . وهو رأى عليّ بن أبي طالب ؛ فإنه لما كتب خالد بن الوليد إلى أبي بكر في ذلك جمع أبو بكر أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وآستشارهم فيه ؛ فقال عليّ : إن هذا الذنب لم تَعْصِ به أمّة من الأمم إلا أمّة واحدة صنع الله بها ما علمتم ، أرى أن يُحرق بالنار . فآجتمع رأى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحرق بالنار . فكتب أبو بكر إلى خالد ابن الوليد أن يحرقه بالنار فأحرقه . ثم أحرقهم ابن الزبير في زمانه . ثم أحرقهم هشام بن الوليد . ثم أحرقهم خالد القَسْري بالعراق . ورُوِي أن سبعة أُخِذوا في زمن ابن الزُّبير في لِواط ؛ فسأل عنهم فوجد أربعة قد أُحْصِنوا فأمر بهم فخرجوا من الحَرَم فرُجِموا بالحجارة حتى ماتوا ، وحدّ الثلاثة ؛ وعنده ابن عباس وابن عمر فلم يُنكِرا عليه . وإلى هذا ذهب الشافعيّ . قال ابن العربيّ : والذى صار إليه مالك أحقّ ، فهو أصحّ سندًا وأقوى معتمَدًا . وتعلّق الحنفيّون بأن قالوا : عقوبة الزِّنَى معلومة ؛ فلما كانت هذه المعصية غيرها وجب ألّا يشاركها في حدّها . ويأثرون في هذا حديثا : "مَن وضع حدّا في غير حَدٍّ فقد تعدّى وظَلَم" . وأيضا فإنه وطء في فرج لا يتعلّق به إحلالٌ ولا إحصان ، ولا وجوبُ مهر ولا ثبوتُ نسب ؛ فلم يتعلق به حدّ .

الثالثة — فإن أتى بهيمة فقد قيل : لا يقتل هو ولا البهيمة . وقيل : يقتلان ؛ حكاه ابن المنذر عن أبي سلمة بن عبد الرحمن . وفي الباب حديث رواه أبو داود والدّارَقُطْنِيّ عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من وقع على بهيمة فآقتلوه وآقتلوا البهيمة معه" . فقلنا لآبن عباس : ما شأن البهيمة ؟ قال : ما أراه قال ذلك ، إلا أنه كره أن يؤكل لحمها وقد عُمِل بها ذلك العمل . قال آبن المنذر : إن يَكُ الحديث ثابتا فالقول به

يجب، وإن لم يثبت فليستغفر الله من فعل ذلك كثيرا، وإن عزّره الحاكم كان حسناً . والله أعلم. وقد قيل : إن قتل البهيمة لئلا تُلقِي خَلقا مشوَّهًا ؛ فيكون قتلها مصلحة لهذا المعنى مع ما جاء من السنة . والله أعلم . وقد روى أبو داود عن ابن عباس قال : ليس على الذى زَنَى بالبهيمة حَدٌّ . قال أبو داود : وكذا قال عطاء . وقال الحَكَم : أرى أن يُجلد ولا يبلغ به الحدّ . وقال الحسن : هو بمنزلة الزانى . وقال الزُّهْرِىّ : يُجلد مائةً أحصن أو لم يحصن . وقال مالك والثَّوْرِىّ وأحد أصحاب الرأى يُعَزَّر . ورُوِى عن عطاء والنَّخَعِىّ والحكم . واختلفت الرواية عن الشافعىّ ، وهذا أشبه على مذهبه فى هذا الباب. وقال جابر بن زيد: يقام عليه الحدّ، إلا أن تكون البهيمة له .

الرابعــة ــ قوله تعالى : ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ «مِن» لاستغراق الجنس، أى لم يكن اللّواط فى أمة قبل قوم لوط . والملحدون يزعمون أن ذلك كان قبلهم . والصِّدْق ماورد به القرآن . وحكى النقاش أن إبليس كان أصل عملهم بأن دعاهم إلى نفسه لعنه الله، فكان ينكح بعضهم بعضا . قال الحسن : كانوا يفعلون ذلك بالغُرَباء ، ولم يكن يفعله بعضهم ببعض . وروى ابن ماجه عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ أخْوَفَ ما أخاف على أمّتى عمل قوم لوط" . وقال محمد بن سِيرين : ليس شىء من الدواب يعملُ عمل قوم لوط إلا الخنزير والحمار .

قوله تعالى : إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى ﴿ إنكم ﴾ قرأ نافع وحفص على الخبر بهمزة واحدة مكسورة، تفسيرا للفاحشة المذكورة، فلم يحسن إدخال الاستفهام عليه لأنه يقطع مابعده مما قبله. وقرأ الباقون بهمزتين على لفظ الاستفهام الذى معناه التوبيخ، وحَسُن ذلك لأن مابعده وقبله كلام مستقل. واختار الأوّل أبو عبيد والكِسائىّ وغيرهما، واحتجّوا بقوله عزوجل : «أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ»(1) ولم يقل أفهم.

(1) آية ٣٤ سورة الأنبياء .

وقال : «أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَابِكُمْ»(١) ولم يقل أنقلبتم . وهذا من أقبح الغلط لأنهما شبّها شيئين بمالا يشتبهان ؛ لأن الشرط وجوابه بمنزلة شيء واحد كالمبتدأ والخبر ؛ فـلا يجوز أن يكون فيهما استفهامان . فلا يجوز : أفإن مِتّ أفهم ، كما لا يجوز أزيد أمنطلق . وقصة لوط عليـه السلام فيها جملتـان ، فلك أن تستفهم عن كل واحدة منهما . هـذا قول الخليل وسـيبويه ، وٱختاره النحاس ومكّيّ وغيرهما . ﴿ شَهْوَةً ﴾ نصب على المصـدر ، أى تشتهونهم شهوة . ويجوز أن يكون مصـدرا فى موضع الحال . ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ نظـيره « بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ » فى جمعكم إلى الشرك هذه الفاحشة .

قوله تعـالى : وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ ﴾ أى لوطا وأتباعه . ومعنى ﴿ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ عن الإتيان فى هـذا المـأتى . يقال : تطهّر الرجل أى تنزّه عن الإثم . قال قتادة : عابوهم والله بغـير عَيْب . ﴿ مِنَ الغـابِرِين ﴾ أى من الباقين فى عذاب الله ؛ قاله ٱبن عبـاس وقتـادة . غَبر الشيء إذا مضى . وغَبر إذا بَـقِيَ ، وهـو مـن الأضـداد . وقال قوم : المـاضى عابر بالعين غير معجمة . والبـاقى غابر بالغين معجمـة . حكاه ٱبن فارس . وقال الزجاج : « من الغابرين » أى من الغائبين عن النجاة . وقيـل : لطول عمرها . قال النحاس : وأبو عبيدة يذهب إلى أن المعنى من المعمّرين ؛ أى أنها قد هرِمت . والأكثر فى اللغة أن يكون الغابر البـاقى ؛ قال الراجز :

فمـا وَنَى محمدٌ مُذْ أن غَفَرْ * له الإلٰهُ ما مضى وما غَبَرْ

قوله تعـالى : وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

(١) آية ١٤٤ سورة آل عمران .

سَرَى لُوطٌ بأهله كما وصف الله « بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ »[1] ثم أمر جبريل عليه السلام فأدخل جناحه تحت مدائنهم فاقتلعها ورفعها حتى سمع أهل السماء صياح الدِّيَكة ونُباح الكلاب ، ثم جعل عاليَها سافلَها ، وأمطرت عليهم حجارة من سِجّيل ، قيل على من غاب منهم ، وأدرك آمرأة لوط ، وكانت معه حجر فقتلها . وكانت فيما ذُكر أربع قُرًى . وقيل : خمس فيها أربعمائة ألف . وسيأتي في سورة «هود» قصة لوط بأبينَ من هذا ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَٱصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

فيـه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ قيل في مَدْين : آسم بلد وقُطْر . وقيل اسم قَبيلة ؛ كما يقال : بَكْر وتَمِيم . وقيل : هم من ولد مَدْين بن إبراهيم الخليل عليه السلام . فمن رأى أن مَدْين آسم رجل لم يَصرفه لأنه معرفة أعجميّ . ومن رآه آسما للقبيلة أو الأرض فهو أحْرَى بألّا يصرفه . قال المهدَويّ : ويُروى أنه كان ابن بنت لوط . وقال مَكّيّ : كان زوج بنت لوط . وآختُلف في نسبه ؛ فقال عطاء وابن إسحاق وغيرهما : وشعيب هو آبن ميكيل بن يشجر بن

(١) آية ٨١ سورة هود .

مدين بن إبراهيم عليــه السلام . وكان ٱسمه بالسُّرْيانية بيروت . وأمه ميكائيل بنت لوط . وزعم الشَّرقِيّ بن القُطَـامِيّ أن شعيبا بن عيفـاء بن يَوْبَب بن مدين بن إبراهيم . وزعم ابن سمعان أن شـعيبا بن جزى بن يشجر بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم . وشـعيب تصغير شَعْب أو شِعْب[1] . وقال قتادة : هو شعيب بن يَوبب . وقيل : شعيب بن صفوان بن عيفـاء بن ثابت بن مـدين بن إبراهيم[2] . والله أعلم . وكان أعمى؛ فلذلك قال قومه : « وإنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا[3] » . وكان يقال له : خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه . وكان قومه أهل كفر بالله وبخسٍ للكيال والميزان .

﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَـةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أى بيـان ، وهو مجىء شـعيب بالرسالة . ولم يذكر له معجزة فى القرآن . وقيل : معجزته فيما ذكر الكسائى فى قصص الأنبياء .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ البخس : النقص . وهو يكون فى السِّلعة بالتعييب والترهيـد فيها ، أو المخادعة عن القِيمة ، والاحتيـال فى التزيّد فى الكيل والنقصان منه . وكلّ ذلك من أكل المـال بالباطل ، وذلك مَنْهِىٌّ عنه فى الأمم المتقدمة والسالفة على ألسنة الرسل وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْـدَ إِصْلَاحِهَـا ﴾ عطف على « ولا تبخسوا » . وهو لفظ يعمّ دقيق الفساد وجليله . قال ابن عباس : كانت الأرض قبل أن يبعث الله شعيبا رسـولا يُعمل فيها بالمعاصى وتُستحلّ فيها المحارم وتُسفك فيها الدماء . قال : فذلك فسادها . فلما بعث الله شعيبا ودعاهم إلى الله صَلَحت الأرض . وكل نبىّ بُعث إلى قومه فهو صلاحهم .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ ﴾ نهاهم عن القعود بالطرق والصَّدّ عن الطريق الذى يؤدّى إلى طاعة الله ، وكانوا يُوعِدون العذاب من آمن . واختلف العلمـاء فى معنى قعودهم على الطرق على ثلاثة معان ؛ فقال ٱبن عباس وقَتادة ومُجاهد والسُّدّى : كانوا

(١) فى شرح القاموس : « تصغير شعب أو أشعب ؛ كما قالوا فى تصغير أسود سويد » . (٢) وردت هذه الأسماء مضطربة فى نسخ الأصـل وفى المصادر التى بين أيدينا . ولم نوفق لضبطها . (٣) آية ٩١ سورة هود .

يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويصدونه ويقولون: إنه كذاب فلا تذهب إليه؛ كما كانت قريش تفعله مع النبيّ صلى الله عليه وسلم. وهذا ظاهر الآية. وقال أبو هريرة: هذا نَهْيٌ عن قطع الطريق، وأخذ السَّلَب؛ وكان ذلك من فعلهم. ورُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "رأيت ليلة أُسْرِىَ بِى خشبة على الطريق لا يمرّ بها ثوب إلا شقّته ولا شيء إلا خرقته فقلت ما هذا ياجبريل قال هذا مَثَلٌ لقوم من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه — ثم تلا — ولا تقعدوا بكل صراط توعدون" الآية. وقد مضى القول فى اللُّصُوص والمحاربين[1]، والحمد لله. وقال السُّدِّى أيضا: كانوا عشّارين متقبّلين. ومثلهم اليوم هؤلاء المكّاسون الذين يأخذون من الناس مالا يلزمهم شرعا من الوظائف المالية بالقهر والجبر؛ فضمنوا مالا يجوز ضمان أصله من الزكاة والمواريث والملاهى. والمترتبون فى الطرق إلى غير ذلك مما قد كثر فى الوجود وعُمِل به فى سائر البلاد. وهو من أعظم الذنوب وأكبرها وأفحشها؛ فإنه غَصْب وظُلْم وعَسْف على الناس وإذاعةٌ للنكر وعمل به ودوام له وإقرار له، وأعظمه تضمين الشرع والحكم للقضاء، فإنا لله وإنا إليه راجعون! لم يبق من الإسلام إلا رسمه، ولا من الدِّين إلا آسمه. يَعْضُد هذا التأويل ماتقدّم من النّهى فى شأن المال فى الموازين والأكيال والبخس.

قوله تعالى: ﴿ من آمن بِهِ ﴾ الضمير فى «به» يحتمل أن يعود إلى آسم الله، وأن يعود إلى شعيب فى قول من رأى القعود على الطريق للصّدّ، وأن يعود على السبيل. ﴿ عِوَجًا ﴾ قال أبو عبيدة والزجاج: كسر العين فى المعانى. وفتحها فى الأجرام.

قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ﴾ أى كثّر عددكم، أو كثّركم بالغنى بعد الفقر. أى كنتم فقراء فأغناكم. ﴿ فاصْبِرُوا ﴾ ليس هذا أمرا بالمقام على الكفر، ولكنه وعيد وتهديد. وقال: ﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ﴾ فذكّر على المعنى، ولو راعى اللفظ قال: كانت.

---

(١) فى قوله تعالى: «انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ...» آية ٣٣ سورة المائدة. راجع جـ ٦ ص ١٤٧ طبعة أولى أو ثانية.

قوله تعالى : قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ تقدّم معناه . ومعنى ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أى لتصيرنّ إلى ملتنا . وقيل : كان أتباع شعيب قبل الإيمان به على الكفر ، أى لتعودنّ إلينا كما كنتم من قبل . قال الزجاج : يجوز أن يكون العَوْد بمعنى الابتداء ؛ يقال : عاد إلىّ من فلان مكروه ، أى صار ، وإن لم يكن سبقه مكروه قبل ذلك ، أى لحقنى ذلك منه . فقال لهم شعيب : ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ أى ولو كنا كارهين تجبروننا عليه ، أى على الخروج من الوطن أو العَوْد فى ملتكم . أى إن فعلتم هذا أتيتم عظيما .

﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ إياس من العَوْد إلى مِلّتهم . ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ قال أبو إسحاق الزجاج : أى إلا بمشيئة الله عز وجل ، قال : وهذا قول أهل السُّنة ؛ أى وما يقع منا العَوْد إلى الكفر إلا أن يشاء الله ذلك . فالاستثناء منقطع . وقيل : الاستثناء هنا على جهة التسليم لله عز وجل ؛ كما قال : « وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ » . والدليل على هذا أن بعده « وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا » . وقيل : هو كقولك لا أكلمك حتى يبيضّ الغُرَاب ، وحتى يلج الجمل فى سَمّ الخياط . والغراب لا يبيضّ أبدا ، والجمل لا يلج .

قوله تعالى : ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ أى علِم ما كان وما يكون . «عِلْماً» نصب على التمييز.وقيل : المعنى «وما يكون لنـا أن نعود فِيها» أى فى القرية بعد أن كرهتم مجاورتنا، بل نخرج من قريتكم مهاجرين إلى غيرها . « إلا أن يشاء الله» ردّنا إليها . وفيه بُعْـد ، لأنه يقال : عاد للقرية ولا يقال عاد فى القرية .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أى اعتمدنا .وقد تقدّم فى غير موضع[1].﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾ قال قتـادة : بعثه الله إلى أُمّتين : أهل مَدْين ، وأصحاب الأَيْكة[2]. قال ابن عباس : وكان شعيب كثير الصـلاة ، فلما تمادى قومُـه فى كفرهم وغيّهم ، و يئس من صلاحهم، دعا عليهم فقال : « رَبَّنَا افتح بيننا و بين قومِنا بِالحقّ وأنت خير الفـاتِحين » . فاستجاب الله دعاءه فأهلكهم بالرجفة .

قوله تعـالى : وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾ أى وقالوا لِمَن دونَهم . ﴿ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾ أى هالكون . ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ أى الزّلزلة .وقيل: الصيحة . وأصحاب الأيكة أُهْلِكوا بالظُّلّة[3] ، على ما يأتى .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ قال الجُرْجانِىّ : قيل هـذا كلام مستأنف ؛ أى الذين كذبوا شعيبا صاروا كأنهم لم يزالوا مَوْتَى . و«يَغْنَوْا» يُقيموا ؛ يقال :

---

(١) راجع جـ ٤ ص ١٨٩ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) الأيكة : الشجر الكثير الملتف .

(٣) غيم تحته سموم .

غَنيت بالمكان إذا أقمت به . وغَنِي القوم فى دارهم أى طال مُقامهم فيها . والمَغْنَى : المنزل، والجمع المغانى . قال لَبِيد :

وغَنِيت سِتًّا قبل مَجْرَى داحِسٍ * لو كان للنفس اللَّجُوجِ خُلود

وقال حاتم طىّ :

غَنِينا زمانا بالتَّصعْلُك والغِـنَى * [كما الدّهرُ فى أيّامه العُسرُ واليسرُ] [1]

[كسبنا صروف الدهر لِينًا وغلظة] [1] * وكُلًّا سـقاناه بكأسيهما الدهر

فما زادنا بَغْيًا على ذى قـرابة * غِنَانَا ولا أزرى بأحسابنا الفقر

﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ ابتـداء خطاب، وهو مبالغة فى الذم والتوبيخ وإعادة لتعظيم الأمر وتفخيمه . ولما قالوا : من ٱتبع شـعيبا خاسر قال الله الخاسرون هم الذين قالوا هذا القول. ﴿فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أى أحزن. أَسِيت على الشيء أَسًى، وأنا آسٍ .

قوله تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَبِىٍّ ﴾ فيـه إضمار، وهو فكذّب أهلها إلا أخذناهم . ﴿ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ تقدّم القول فيـه [2] . ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ ﴾ أى أبدلناهم بالجَدْب خِصْبًا . ﴿حَتَّى عَفَوْا﴾ أى كَثُروا؛ عن ابن عباس . وقال ابن زيد : كَثُرت أموالُهم وأولادهم . وعَفَا : من الأضداد . عَفَا : كثر . وعَفَا : درس . أعلم اللهُ تعالى أنه أخذهم بالشدّة والرخاء فلم يَزْدَجِروا ولم يشكروا . ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ ﴾ فنحن مثلهم . ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾ أى فجأة ليكون أكثر حسرة .

(١) التكلة عن ديوان حاتم . (٢) راجع جـ ٢ ص ٢٤٣ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ﴾ يقال للمدينة قرية لاجتماع الناس فيها . من قريت الماء إذا جمعته . وقد مضى فى «البقرة» مستوفًى [(١)] . ﴿ آمَنُوا ﴾ أى صدقوا . ﴿ واتَّقَوْا ﴾ أى الشّرك . ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ ﴾ يعنى المطر والنبات . وهذا فى أقوام على الخصوص جَرَى ذكرهم . إذ قد يُمتحن المؤمنون بضيق العيش ويكون تكفيرا لذنوبهم . ألا ترى أنه أخبر عن نوح إذ قال لقومه «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا» [(٢)] . وعن هود «ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا» [(٣)] . فوعدهم المطرَ والخصْب على التخصيص . يدلّ عليه ﴿ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أى كذبوا الرسل . والمؤمنون صدّقوا ولم يكذبوا .

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى ﴾ الاستفهام للإنكار، والفاء للعطف . نظيره : «أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ» [(٤)] . والمراد بالقرى مكّة وما حولها ؛ لأنهم كذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم . وقيل : هو عام فى جميع القُرَى . ﴿ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ﴾ أى عذابنا . ﴿ بَيَاتًا ﴾ أى ليلا «وهم نائمون» . ﴿ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ﴾ قرأه الحَرَميّان وابن عامر بإسكان الواو للعطف ، على معنى الإباحة ؛ مثل «وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا» [(٥)] . جالس الحسن أو ابن سيرين . والمعنى : أو أمنوا هذه الضروب من العقوبات . أى إن أمنتم ضَرْبًا منها لم تأمنوا الآخر .

(١) راجع جـ ١ ص ٤٩ طبعة ثانية أو ثالثة .		(٢) آية ١٠ و ١١ سورة نوح .
(٣) آية ٥٢ سورة هود .		(٤) آية ٥٠ سورة المائدة .		(٥) آية ٢٤ سورة الإنسان .

ويجوز أن يكون « أو » لأحد الشيئين، كقولك : ضربت زيدا أو عمــرا . وقرأ البــاقون بفتحها بهمزة بعــدها . جعلها واو العطف دخلت عليها ألف الاســتفهام ؛ نظيره «أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا»(1) . ومعنى ﴿ ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أى وهم فيما لا يُجْدى عليهم؛ يقال لكل من كان فيما يضره ولا يجدى عليه لاعب ، ذكره النحاس . وفى الصحاح . اللَّعِب معروف ، واللَّعْب مثله . وقد لَعِب يَلْعَب . وتَلَعَّب : [لَعِب](2) مَرّة بعد أخرى . و رجل تِلْعَابة : كثير اللَّعِب ، والتَّلْعاب (بالفتح) المصدر . وجارية لَعوب .

قوله تعــالى : أَفَأَمِنُوا مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾

قوله تعــالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ﴾ أى عذابه وجزاءه على مكرهم . وقيل : مَكْرُه استدراجه بالنعمة والصحة .

قوله تعــالى : أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ ﴾ أى يُبَيِّن . ﴿ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ ﴾ يريد كفار مكة وَمَن حولهم . ﴿ أَصَبْنَاهُمْ ﴾ أى أخذناهم ﴿ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أى بكفرهم وتكذيبهم . ﴿ وَنَطْبَعُ ﴾ أى نحن نطبع ؛ فهو مستأنف . وقيــل : هو معطوف على أصبنا ، أى نصيبهــم ونطبع ؛ فوقع المــاضى موقع المستقبل .

قوله تعــالى : تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾

(1) آية ١٠٠ سورة البقرة . (2) زيادة عن كتب اللغة .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الْقُرَى ﴾ أى هذه القرى التى أهلكناها؛ وهى قُرَى نوح وعاد ولوط وهود وشعيب المتقدّمة الذكر . ﴿ نَقُصُّ ﴾ أى نتلو . ﴿ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا ﴾ أى من أخبارها . وهى تسلية للنبيّ عليه السلام والمسلمين . ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ أى فما كان أولئك الكفار ليؤمنوا بعد هلاكهم لو أحييناهم؛ قاله مجاهد . نظيره « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا »[1] . وقال ابن عباس والربيع : كان فى علم الله تعالى يوم أخذ عليهم الميثاق أنهم لا يؤمنون بالرسل . ﴿ بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ يريد يوم الميثاق حين أخرجهم من ظهر آدم فآمنوا كرها لا طَوْعا . قال السُّدّى : آمنوا يوم أخذ عليهم الميثاق كرها فلم يكونوا ليؤمنوا الآن حقيقة. وقيل : سألوا المعجزات ، فلما رأوها ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل رؤية المعجزة . نظيره « كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ »[2] . ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ أى مثل طبعه على قلوب هؤلاء المذكورين كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين بمحمد عليه السلام .

قوله تعالى : وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

« مِنْ » زائدة ، وهى تدلّ على معنى الجنس؛ ولولا « مِن » لجاز أن يتوهّم أنه واحد فى المعنى. قال ابن عباس : يريد العهد المأخوذ عليهم وقت الذَّر ، ومَن نقض العهد قيل له إنه لا عهد له ، أى كأنه لم يعهد . وقال الحسن : العهد الذى عهد إليهم مع الأنبياء أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا . وقيل : أراد أن الكفار منقسمون؛ فالأكثرون منهم مَن لا أمانة له ولا وفاء ، ومنهم من له أمانة مع كفره وإن قلّوا؛ رُوى عن أبى عبيدة .

قوله تعالى : ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾

---

(١) آية ٢٨ سورة الأنعام .	(٢) آية ١١٠ سورة الأنعام .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْـدِهِم ﴾ أى من بعـد نوح وثمود وصالح ولوط وشعيب . ﴿ مُوسَى ﴾ أى موسى بن عمران . ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ أى بمعجزاتنا . ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ أى كفروا ولم يصدّقوا بالآيات . والظلم : وَضْع الشيء فى غير موضعه .

قوله تعالى : ﴿ فَٱنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفسِدِينَ ﴾ أى آخر أمرهم .

قوله تعـالى : وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِـلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَـآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِـيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيـــمٍ ﴿١١٢﴾

﴿ حَقِيقٌ عَلَىَّ ﴾ أى واجب . ومن قرأ « عَلَى أَلَّا » فالمعنى حريص على ألا أقول . وفى قراءة عبد الله « حَقِيقٌ ألّا أقول » بإسقاط « على » . وقيل : « على » بمعنى البـاء ، أى حقيق بألّا أقول . وكذا فى قـراءة أُبَىّ والأعمش « بألّا أقول » . كما تقـول : رَمَيت بالقوس وعلى القوس . فـ«ـحقيق » على هذا بمعنى محقوق . ومعنى «فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِى إِسْرَائِيلَ » أى خلّهم . وكان يسـتعملهم فى الأعمـال الشاقة . ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ ﴾ يُسـتعمل فى الأجسام والمعـانى . وقد تقدّم[1] . والثُّعبان : الحَيَّـة الضخم الذَّكَر، وهو أعظم الحيات . ﴿ مُبِينٌ ﴾

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٣٢ طبعة أولى أو ثانية .

أى حيّة لا لبْس فيها . ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ أى أخرجها وأظهرها. قيل : من جيبه أو من جناحه؛ كما فى التنزيل « وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ »[1] أى من غير برَص. وكان موسى أسمر شديد السُّمرة، ثم أعاد يده إلى جيبه فعادت إلى لونها الأوّل . قال ابن عباس : كان لِيَدِه نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض . وقيل : كانت تخرج يده بيضاء كالثلج تلُوح ، فإذا ردّها عادت إلى مثل سائر بدنه . ومعنى ﴿ عَلِيم ﴾ أى بالسحر . ﴿ مِنْ أَرْضِكُمْ ﴾ أى من مُلْككم معاشِرَ القبط، بتقديمه بنى إسرائيل عليكم. ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ أى قال فرعون: فماذا تأمرون . وقيل : هو من قول الملأ؛ أى قالوا لفرعون وحده : فماذا تأمرون . كما يخاطَب الجبّارون والرؤساء : ما تَرَوْن فى كذا . ويجوز أن يكون قالوا له ولأصحابه . و « ما » فى موضع رفع، على أن «ذا» بمعنى الذى . وفى موضع نصب، على أن «ما» و«ذا» شيء واحد . ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ ﴾ قرأ أهل المدينة وعاصم والكسائىّ بغير همز؛ إلّا أن وَرْشًا والكسائىّ أشبعا كسرة الهاء . وقرأ أبو عمرو بهمزة ساكنة والهاء مضمومة . وهما لغتان ؛ يقال : أرجأته وأرجيته، أى أخّرته . وكذلك قرأ ابن كَثير وابن مُحَيْصن وهشام ؛ إلا أنهم أشبعوا ضمّة الهاء . وقرأ سائرأهل الكوفة «أرْجِهْ» بإسكان الهاء. قال الفرّاء : هى لغة للعرب، يقفون على الهاء المكنىّ عنها فى الوصل إذا تحرّك ما قبلها، وكذا هَـذِهْ طلحةُ قد أقبلت . وأنكر البصريون هذا . قال قتادة : معنى « أرجه » أحبسه . وقال ابن عباس : أخّره . وقيل : « أرجِه » مأخوذ من رجا يرجو؛ أى أطْمِعه ودَعْه يرجو؛ حكاه النحاس عن محمد ابن يزيد . وكسرُ الهاء على الإتباع[2] . ويجوز ضَمّها على الأصل . وإسكانها لحن لا يجوز إلا فى شذوذ من الشعر . ﴿ وَأَخَاهُ ﴾ عطف على الهاء . ﴿ حَاشِرِينَ ﴾ نصب على الحال . ﴿ يَأْتُوكَ ﴾ جزم؛ لأنه جواب الأمر، ولذلك حذفت منه النون . قرأ أهل الكوفة إلا عاصما «بِكل سَحّار» وقرأ سائر الناس « ساحِرٍ » وهما متقاربان ؛ إلا أنّ فعّالا أشدّ مبالغة .

---

(١) آية ١٢ سورة النمل .

(٢) كذا فى الأصول و إعراب القرآن للنحاس . و يلاحظ أنها قراءة أهل الكوفة .

قوله تعـالى : وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ وحُذف ذِكر الإرسال لعلم السامع . قال ابن عبد الحكم : كانوا اثنى عشر نَقِيبا ، مع كل نَقِيب عشرون عَرِيفا، تحت يدى كلّ عريف ألفُ ساحرٍ . وكان رئيسهم شمعون فى قول مقاتل بن سليمان . وقال ابن جُريج : كانوا تسعمائة من العَرِيش والفيّوم والإسكندرية أثلاثا . وقال ابن إسحاق : كانوا خمسة عشر ألف ساحر؛ وروى عن ابن وهب . وقيل : كانوا اثنى عشر ألفا . وقال ٱبن المنكدر: ثمانين ألفا . وقيل : أربعة عشر ألفا . وقيل : كانوا ثلثمائة ألف ساحر من الرِّيف ، وثلثمائة ألف ساحر من الصعيد ، وثلثمائة ألف ساحر من الفُيّوم وما والاها . وقيل : كانوا سبعين رجلا . وقيل : ثلاثةً وسبعين ؛ فٱلله أعلم . وكان معهم فيما رُوِى حِبالٌ وعِصِيّ يحملها ثلثمائة بعير ، فٱلتقمت الحيّة ذلك كلّه . قال ٱبن عباس والسُّدِّى : كانت إذا فتحت فَاهَا صار شِدْقُها ثمانين ذراعا ؛ واضعة فكّها الأسفل على الأرض، وفكّها الأعلى على سُور القَصْر . وقيل : كان سعة فَمِها ثمانين ذراعا ؛ فٱلله أعلم . فقصدت فرعونَ لتبتلعه ، فوثب من سريره فهرب منها واستغاث بموسى ؛ فأخذها فإذا هى عَصًا كما كانت . قال وهب : مات من خوف العَصَا خمسة وعشرون ألفا . ﴿ قَالُوا أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ أى جائزةً ومالا . ولم يقل فقالوا بالفاء؛ لأنه أراد لما جاءوا قالوا . وقرئ «إن لنا» على الخبر . وهى قراءة نافع وابن كَثير. ألزموا فرعونَ أن يجعل لهم مالا إن غَلَبُوا؛ فقال لهم فرعون : ﴿ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ أى لَمِن أهل المنزلة الرفيعة لدينا؛ فزادهم على ما طلبوا. وقيل : إنهم إنما قطعوا ذلك لأنفسهم فى حكمهم إن غَلَبُوا . أى قالوا : يجب لنا الأجر إن غَلَبنا . وقرأ الباقون بالٱستفهام على جهة الإخبار . استخبروا فرعون : هل يجعل لهم أجرا إن غَلبوا أولا ؛ فلم يقطعوا على فرعون بذلك، إنما استخبروه هل يفعل ذلك؛ فقال لهم « نعم » لكم الأجر والقُرْب إن غَلَبتم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

تأدّبوا مع موسى عليه السلام فكان ذلك سببَ إيمانهم . و« أنْ » فى موضع نصب عند الكسائىّ والفرّاء ، على معنى إما أن تفعل الإلقاء . ومثلُه قول الشاعر :

* قالوا الرُّكوبَ فقالوا تلك عادتنا (١) *

﴿ قَالَ أَلْقُوا ﴾ قال الفرّاء : فى الكلام حذف . والمعنى : قال لهم موسى إنكم لن تَغْلبوا ربّكم ولن تُبطلوا آياته . وهذا من معجز القرآن الذى لا يأتى مثله فى كلام الناس ، ولايقدرون عليه . يأتى اللفظ اليسير بجمع المعانى الكثيرة . وقيل : هو تهديد . أى ابتدئوا بالإلقاء، فسترون ما يحلّ بكم من الافتضاح ؛ إذ لا يجوز على موسى أن يأمرهم بالسحر . وقيل : أمرهم بذلك ليبيّن كذبهم وتمويههم . ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا ﴾ أى الحبال والعِصِىّ . ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ أى خيّلوا لهم وقلبوها عن صحة إدراكها ، بما يُتخيّل من التّمويه الذى جرى مجرى الشّعوذة وخفة اليد ؛ كما تقدّم فى « البقرة » (٢) بيانه . ومعنى ﴿ عَظِيمٍ ﴾ أى عندهم ؛ لأنه كان كثيرا وليس بعظيم على الحقيقة . قال ابن زيد : كان الاجتماع بالإسكندرية فبلغ ذَنَب الحيّة وراء البحيرة . وقال غيره : وفتحت فَاهَا فجعلت تلقف — أى تلتقم — ما ألقَوْا من حبالهم وعصيّهم . وقيل : كان ما ألقوا حبالا من أَدَم فيها زئبق فتحرّكت وقالوا هذه حيّات . وقرأ حَفْص « تَلْقف » بإسكان اللام والتخفيف . جعله مستقبل لَقِف يَلْقَف . قال النحاس : ويجوز على هذه القراءة «تِلْقف» لأنه من لَقِف . وقرأ الباقون بالتشديد وفتح اللام ، وجعلوه مستقبل تَلقّف ؛ فهى تَتَلَقّف . يقال لَقِفت الشىء وتلقّفته إذا أخذته أو بَلَعته . تَلْقَف وتَلَقّم

(١) هذا صدر بيت وتمامه : * أو النزول فانا معشر نزل *

(٢) راجع جـ ٢ ص ٤٣ طبعة أولى أو ثانية .

وتَلْهَم بمعنًى واحد . قال أبو حاتم : وبلغنى فى بعض القراءات « تَلَقَّم » بالميم والتشديد . قال الشاعر :

أنت عَصَا موسى التى لم تزل * تَلَقَّـم ما يأفِكه الساحر

ويروى : تلقف . ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أى ما يكذبون، لأنهم جاءوا بحبال وجعلوا فيها زِئْبقا حتى تحرّكت .

قوله تعالى : ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ ﴾ قال مجاهد : فظهر الحق . ﴿ وَٱنْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾ نصب على الحال . والفعل منه صَغِر يَصْغَر صَغَرًا وصِغَرًا وصَغارا[1] . أى انقلب قوم فرعونَ وفرعونُ معهم أذِلّاء مَقْهورين مغلوبين . فأمّا السحرة فقد آمنوا .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ إنكار منه عليهم . ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِى الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ﴾ أى جرت بينكم وبينه مُواطأة فى هذا لتستولوا على مصر، أى كان هـذا منكم فى مدينة مصر قبل أن تبرزوا إلى هذه الصحراء .

(١) هو من باب فرح وكرُم .

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تهديد لهم . قال ابن عباس : كان فرعون أوّل من صلَب، وقَطع الأيدى والأرجُل من خلاف، الرِّجل اليُمْنَى واليد اليسرى؛ واليد اليمنى والرجل اليسرى؛ عن الحسن .
﴿ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا ﴾ قرأ الحسن بفتح القاف . قال الأخفش : هى لغة ؛ يقال : نقَمت الأمر ونقَمته أنكرته ؛ أى لست تكره منا سوى أن آمنا بالله وهو الحق . ﴿ لَمَّا جَاءَتْنَا ﴾ آياته و بيناته . ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ الإفراغ الصَّبّ ؛ أى آصببه علينا عند القطع والصلب . ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ فقيل : إن فرعون أخذ السحرة وقطعهم على شاطئ النهر، وإنه آمن بموسى عند إيمان السحرة ستمائة ألف .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى بإيقاع الفرقة وتشتيت الشَّمل . ﴿ وَيَذَرَكَ ﴾ بنصب الراء جواب الآستفهام، والواو نائبة عن الفاء . ﴿وَآلِهَتَكَ﴾ قال الحسن : كان فرعون يعبد الأصنام؛ فكان يَعبُد و يُعبَد . قال سليمان التيمى : بلغنى أن فرعون كان يعبد البقر . قال التيمى : قلت للحسن هل كان فرعون يعبد شيئا ؟ قال نعم ، إنه كان يعبد شيئا كان قد جعله فى عنقه . وقيل : معنى « وآلهتك » أى وطاعتك ؛ كما قيل فى قوله تعالى : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ »[1] إنهم ما عبدوهم ولكن أطاعوهم ؛ فصار تمثيلا . وقرأ نُعيم بن ميسرة «وَيَذَرُكَ» بالرفع على تقدير وهو يَذَرُكَ . وقرأ الأشهب العقيلى « وَيَذَرْكَ » مجزوما مخفف يذرُك لثقل الضمة . وقرأ أنس

(١) آية ٣١ سورة التوبة .

ٱبن مالك « ونذَرك » بالرفع والنون . أخبروا عن أنفسهم أنهم يتركون عبادته إن ترك موسى حيًّا . وقرأ علىّ بن أبى طالب وابن عباس والضحّاك « وإلاهتك » ومعناه وعبادتك . وعلى هذه القراءة كان يُعْبَد ولا يَعْبُد ؛ أى ويترك عبادته لك . قال أبو بكر الأنبارِىّ : فمن مذهب أصحاب هذه القراءة أن فرعون لمّا قال « أنا ربُّكم الأعْلَى » . «وما علمتُ لكم من إلهٍ غَيْرِى » نفى أن يكون له رب وآلهة . فقيل له : ويذرك وإلاهتك؛ بمعنى ويتركك وعبادة الناس لك . وقراءة العامة « وآلهتك » كما تقدّم، وهى مبنية على أن فرعون ٱدّعَى الرُّبُوبيّة فى ظاهر أمره وكان يعلم أنه مَرْبُوب . ودليل هذا قولُه عند حضور الحِمام « آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ »(١) فلم يُقبل هذا القول منه بعد إغلاق التوبة . وكان قبل هذه الحال له إله يعبده سرًّا دون رب العالمين جل وعز؛ قاله الحسن وغيره . وفى حرف أُبَىّ « أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفسِدُوا فى الأرض وقد تَرَكُوكَ أن يَعْبُدوك» . وقيل : « وآلهتك » قيل كان يعبد بقرة، وكان إذا ٱستحسن بقرة أمر بعبادتها ، وقال : أنا ربكم وربّ هذه . ولهذا قال «فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا »(٢) . ذكره ابن عباس والسُّدِّى . قال الزّجاج : كان له أصنام صغار يعبدها قومه تقرُّبًا إليه فنُسبت إليه ؛ ولهذا قال « أنا رَبُّكم الأَعْلَى » . قال إسماعيل بن إسحاق : قول فرعون « أنا ربُّكم الأَعْلَى » . يدلّ على أنهم كانوا يعبدون شيئا غيره . وقد قيل : إن المراد بالإلاهة على قراءة ابن عباس البقرة التى كان يعبدها . وقيل : أرادوا بها الشمس وكانوا يعبدونها . قال الشاعر :

* وأَعْجَلْنا الإلاهةَ أن تَؤُوبَا *

ثم آنس قومه فقال ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ بالتخفيف، قراءة نافع وابن كَثير . والباقون بالتشديد على التكثير . ﴿ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ أى لاتخافوا جانبهم . ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ آنسهم بهذا الكلام . ولم يقل سَنقتل موسى لعلمه أنه لا يقدر عليه . وعن سعيد بن جُبير قال : كان فرعون قد مُلِئَ من موسى رُعْبًا ؛ فكان إذا رآه بال كما يبول الحمار . ولما بلغ قوم

(١) آية ٩٠ سورة يونس . (٢) آية ٨٨ سورة طه .

موسى من فرعون هـذا قال لهم موسى ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ ﴾ أطمعهم فى أن يورثهم الله أرض مصر . ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أى الجنة لمن آتقى . وعاقبــة كل شيء : آخره ، ولكنها إذا أُطْلقت فقيل العاقبــة لفلان فهم منه فى العُرْف الخير.

قوله تعالى : قَالُوٓا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا ﴾ أى فى ابتــداء ولادتك بقتل الأبناء وآسترقاق النساء . ﴿ وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ أى والآن أعيــد علينا ذلك؛ يعنون الوعيــد الذى كان من فرعون. وقيل الأذى من قبل : تسخيرهم لبنى إسرائيل فى أعمالهم إلى نصف النهار ، وإرسالهم بقيته ليكتسبوا لأنفسهم . والأذى من بعد : تسخيرهم جميــع النهار كله بلا طعام ولا شراب ؛ قاله جُوَيْبر . وقال الحسن : الأذى من قبلُ ومن بعدُ واحد، وهو أخذ الجزية . ﴿ قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ « عسى » من الله واجب ؛ جدّد لهم الوعد وحقّقه . وقد استُخلفوا فى مصر فى زمان داود وسليمان عليهما السلام، وفتحوا بيت المقدس مع يُوشَع بن نون؛ كما تقــدّم . ورُوى أنهم قالوا ذلك حين خرج بهــم موسى وتبعهم فرعون فكان وراءهم والبحر أمامهم ؛ فحقّق الله الوعد بأن غرّق فرعون وقومه وأنجاهم . ﴿ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ تقدّم نظائره . أى يرى ذلك العمل الذى يجب به الجزاء؛ لأن الله لا يجازيهم على ما يعلمه منهم، إنما يجازيهم على ما يقع منهم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَــدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّــنِينَ ﴾ يعنى الجُدوب . وهــذا معروف فى اللغة ؛ يقال : أصابتهم سَنَة ، أى جَدْب . وتقديره جَدْبُ سنة . وفى الحديث : "اللّهمّ

آجعلها عليهم سنين كسني يوسف " . ومن العرب من يعرب النون فى السنين ؛ وأنشد الفرّاء :

أرى مرّ السنين أخذن منّى * كما أخذ السّرار(1) من الهلال

قال النحاس : وأنشد سيبويه هذا البيت بفتح النون ؛ ولكن أنشد فى هذا ما لا يجوز غيره ، وهو قوله :

* وقد جاوزت رأس الأربعين *

وحكى الفرّاء عن بنى عامر أنهم يقولون : أقمتُ عنده سنيناً ياهذا ؛ مصروفا . قال : وبنو تميم لا يصرفون ويقولون : مضت له سنينُ يا هذا . وسنين جمع سنة، والسنة هنا بمعنى الجَدْب لا بمعنى الحَوْل . ومنه أسنَت القوم أى أجْدَبُوا . قال عبد الله بن الزِّبَعْرَى :

عَمْرُو العُلا(2) هَشَمَ الثَّريد لقومه * ورجالُ مكةَ مُسنِتُون عِجافُ

﴿ لعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أى ليتعظوا وترق قلوبهم .

قوله تعالى : فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَـٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١)

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ ﴾ أى الخصب والسّعة . ﴿ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ﴾ أى أعْطيناها بآستحقاق . ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أى قحْط ومرض ، وهى المسألة : —

الثانيـة — ﴿ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى ﴾ أى يتشاءموا به . نظيره « وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَـذِهِ مِنْ عِنْدِكَ(3) » . والأصل « يتطيروا » أدغمت التاء فى الطاء . وقرأ طلحة « تطيّروا » على أنه فعل ماض . والأصل فى هذا من الطِّيَرَة وزَجْر الطَّير ، ثم كثُر استعمالهم حتى قيل لكل

(1) السرار والسرر (بفتح السين وكسرها فيهما) : الليلة التى يستسر فيها القمر . (2) يريد به هاشم ابن عبد مناف أبا عبد المطلب جدّ النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان يسمى عمرا . (3) آية ٧٨ سورة النساء .

من تشاءم : تَطَيَّر . وكانت العرب تتيمّن بالسّانح، وهو الذى يأتى من ناحية اليمين . وتتشاءم بالبارح، وهو الذى يأتى من ناحية الشّمال . وكانوا يتطيّرون أيضا بصوت الغراب، ويتأوّلونه البَيْن . وكانوا يستدلون بمجاوبات الطيور بعضها بعضًا على أمور، وبأصواتها فى غير أوقاتها المعهودة على مثل ذلك . وهكذا الظِّباء إذا مضت سانحة أو بارحة، ويقولون إذا بَرَحت : « مَن لِى بالسّانح بعد البارح » (1) . إلّا أنّ أقوى ما عندهم كان يقع فى جميع الطير؛ فسمّوا الجميع تَطَيُّرًا من هذا الوجه . وتطيّر الأعاجمُ إذا رأوا صبيًّا يُذهب به إلى المُعَلِّم بالغداة، ويتيمّنون برؤية صبىّ يرجع من عند المعلم إلى بيته، ويتشاءمون برؤية السَّقاء على ظهره قربةٌ مملوءةٌ مشدودة، ويتيمّنون برؤية فارغ السِّقاء مفتوحه، ويتشاءمون بالحَمّال المثقَل بالحِمْل، والدابة المُوقَرة (2)، ويتيمّنون بالحَمّال الذى وضع حِمله، وبالدابة يُحَطّ عنها ثِقْلُها . فجاء الإسلام بالنّهى عن التّطيُّر والتشاؤم بما يُسمع من صوتِ طائرٍ ما كان، وعلى أىّ حال كان؛ فقال عليه السلام : "أقِرُّوا الطير على مَكِناتها" (3) . وذلك ان كثيرا من أهل الجاهلية كان إذا أراد الحاجة أتى الطير فى وَكْرها فنفّرها؛ فإن أخذت ذات اليمين مضى لحاجته، وهذا هو السانح عندهم . وإن أخذت ذات الشّمال رجع، وهذا هو البارح عندهم . فنَهى النبىّ صلى الله عليه وسلم عن هذا بقوله : "أقِرُّوا الطير على مَكِناتها" هكذا فى الحديث . وأهل العربية يقولون "وُكُناتها" قال ٱمرؤ القيس :

* وقد أغْتَدِى والطّيرُ فى وُكُناتها *

والوُكْنة : ٱسم لكلّ وَكْر وعُشّ . والوَكْن : موضع الطائر الذى يبيض فيه ويُفْرِخ، وهو الخرق فى الحيطان والشجر . ويقال : وَكَن الطائر يَكِن وُكونا إذا حضن بيضه . وكان أيضا من العرب من لا يرى التطيّر شيئا، ويمدحون من كذّب به . قال المُرَقِّش :

---

(1) هذا مثل يضرب للرجل يسىء الرجل؛ فيقال له : إنه سوف يحسن إليك . وأصل ذلك أن رجلا مرت به ظباء بارحة فقيل له سوف تسنح لك؛ فقال : من لى ... الخ .

(2) الدابة الموقرة : التى عليها حمل ثقيل؛ والموقرة أيضا : التى أصابتها الوقرة؛ وهى صدع فى الساق .

(3) مكناتها (بكسر الكاف وقد تفتح) : أى بيضها . وهى فى الأصل بيض الضباب . وقيل : على أمكنتها ومساكنها . قال شمر : والصحيح فى قوله « على مَكِناتها » أنها جمع المَكِنة، والمَكِنة التمكّن . وقال الزمخشرى : ويروى « مُكُناتها » جمع مُكُن، ومُكُن جمع مكان .

ولقــد غَدَوْتُ وكنتُ لا * أغــدُو على وَاقٍ وحاتم[1]

فإذا الأشـائِمُ كالأيا * مِنِ والأيامِنُ كالأشـائم

وقال عكرمة : كنت عند ٱبن عباس فمرّ طائر يصيح ؛ فقـال رجل من القوم : خير ، خير . فقـال ٱبن عباس : ما عند هـذا لا خير ولا شر . قال علمـاؤنا : وأما أقوال الطير فلا تعلّق لها بمـا يجعل دلالة عليـه . ولا لهـا علم بكائن فضـلًا عن مسـتقبل فتُخبِر به . ولا فى الناس من يعلم منطق الطير؛ إلا ما كان الله تعالى خصّ به سليمان عليـه السلام من ذلك . فٱلتحق التطيّر بجملة الباطل . والله أعلم . وقال عليـه السلام : "ليس مِنّا من تحلّم[2] أو تكهّن أو ردّه عن سـفره تطيّر" . وروى أبو داود عن عبـد الله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "الطِّيَرة شرك — ثلاثا — وما مِنا إلّا[3] ولكنّ الله يذهبه بالتوكّل" . وروى عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "مَن رجّعته الطِّيرة عن حاجته فقـد أشرك" . قيل : وما كفارة ذلك يا رسول الله ؟ قال : "أن يقول أحدهم اللّهُمَّ لَا طَيْرَ إلا طَيْرُكَ ولا خَيْرَ إلّا خَيْرُكَ ولا إله غيرُك ثم يمضى لحاجته" . وفى خبر آخر : "إذا وجد ذلك أحدكم فليقل اللّهُمّ لا يأتى بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت ولا حول ولا قُوّةَ إلا بك" . ثم يذهب متوكّلا على الله ؛ فإن الله يكفيه ما وجد فى نفسه من ذلك ، وكفاه الله تعالى ما يُهِمّه . وقد تقدّم فى « المـائدة » الفرق بين الفأل والطيرة[4] . ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ ﴾ وقرأ الحسن « طَيْرُهم » جمع طائر . أى ما قُدِّر لهم

---

(١) الواق (بكسر القاف) : الصُّرَد ، وهو طائر أبقع ضخم الرأس يكون فى الشجر ، نصفه أبيض ونصفه أسود . والحاتم : الغراب الأسود . (٢) تحلم : إذا ادعى الرؤيا كاذبا . (٣) كذا فى مسند أبى داود وبعض نسخ الأصل . قال ابن الأثير : « هكذا جاء فى الحـديث مقطوعا ، ولم يذكر المستثنى . أى إلا وقـد يعتريه التطير ، وتسبق إلى قلبه الكراهة ؛ فحذف اختصارا واعتمادا على فهم السامع ... وقوله : "ولكن الله يذهبه بالتوكل" معناه أنه إذا خطر له عارض التطير فتوكل على الله وسـلم إليه ولم يعمل بذلك الخاطر غفره الله له ولم يؤاخذه به » . وفى بعض نسخ الأصـل : « ... وما منا إلا من تطير ... » الخ . (٤) راجع المسألة التاسـعة عشرة فى قوله تعالى : « حرمت عليكم الميتة ... » جـ ٦ ص ٥٩ طبعة أولى أو ثانية .

وعليهم . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن ما لحقهم من القحط والشدائد إنما هو من عند الله عز وجل بذنوبهم لا من عند موسى وقومه .

قوله تعالى : وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ ﴾ أى قال قوم فرعون لموسى « مهما » . قال الخليل : الأصل ما ، ما ؛ الأولى للشرط ، والثانية زائدة توكيدا للجزاء ؛ كما تزاد فى سائر الحروف ، مثل إمّا وحيثما وأينما وكيفما . فكرهوا حرفين لفظهما واحد ؛ فأبدلوا من الألف الأولى هاء فقالوا مهما . وقال الكسائىّ : أصله مَهْ ؛ أى اكفف ، ما تأتنا به من آية . وقيل : هى كلمة مفردة ، يجازى بها ليجزم ما بعدها على تقدير إنْ . والجواب « فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ » ﴿ لِتَسْحَرَنَا ﴾ لتصرفنا عما نحن عليه . وقد مضى فى « البقرة »[(1)] بيان هذه اللفظة . قيل : بقِىَ موسى فى القبط بعد إلقاء السحرة سُجَّدًا عشرين سنة يُريهم الآيات إلى أن أغرق الله فرعون ، فكان هذا قولهم .

قوله تعالى : فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى ــ روى إسرائيل عن سِمَاك عن نَوْف الشامىّ قال : مكث موسى عليه السلام فى آل فرعون بعد ما غلب السحرةَ أربعين عاما . وقال محمد بن عثمان بن أبى شيبة عن مِنجاب : عشرين سنة ، يريهم الآيات : الجراد والقُمَّل والضفادع والدّم .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ الطُّوفَانَ ﴾ أى المطر الشديد حتى عامُوا فيه . وقال مجاهد وعطاء : الطوفان الموت . قال الأخفش : واحدته طوفانة . وقيل : هو مصدر كالرُّجْحان

(1) راجع جـ ٢ ص ٢٠٠ طبعة ثانية .

والنُّقصان ؛ فلا يطلب له واحد . قال النحاس : الطوفان فى اللغة ما كان مُهلكًا من موت أو سَيْل ؛ أى ما يُطيف بهم فيهلكهم . وقال السُّدِّى : ولم يُصب بنى إسرائيل قطرةٌ من ماء، بل دخل بيوتَ القبط حتى قاموا فى المـاء إلى تَراقيهم(١)، ودام عليهم سـبعةَ أيام . وقيـل : أربعين يوما . فقالوا : ادع لنـا ربك يكشف عنا فنؤمن بك؛ فدعا ربه فرفع عنهم الطوفان فلم يؤمنوا . فأنبت الله لهم فى تلك السنة مالم يُنبته قبـل ذلك من الكلأ والزرع . فقالوا : كان ذلك المـاء نعمة؛ فبعث الله عليهم الجراد وهو الحيوان المعروف ، جمع جرادة فى المذكر والمؤنث . فإن أردت الفصـل نعتَّ فقلت رأيت جرادة ذَكَرًا . فأكل زرعهـم وثمارهم حتى أنها كانت تأكل السقوف والأبواب حتى تهـدِم ديارهم . ولم يدخل دُورَ بنى إسرائيل منها شىء .

الثالثـة — وٱختلف العلمـاء فى قتل الجراد إذا حَلّ بأرض فأفسد؛ فقيل : لا يقتل . وقال أهل الفقه كلهم : يُقتل . ٱحتج الأوّلون بأنه خَلْق عظيم من خلق الله يأكل من رزق الله، ولا يَجْرِى عليه القلم . وبمـا روى "لا تقتلوا الجراد فإنه جند الله الأعظمُ" . وٱحتج الجمهور بأن فى تركها فساد الأموال ؛ وقد رخّص النبيّ صلى الله عليه وسلم بقتال المسلم إذا أراد أخذ ماله ؛ فالجراد إذا أرادت فساد الأموال كانت أوْلى أن يجوز قتلها . ألا ترى أنهـم اتفقوا على أنه يجوز قتل الحيـة والعقرب لأنهما يؤذيان النـاس فكذلك الجراد . روى ٱبن ماجه عن جابر وأنس بن مالك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا دَعا على الجراد قال : "اللّهُـمَّ أهلك كباره واقتل صغاره وأفسد بيضه وٱقطع دابره وخُذْ بأفواهه عن معايشنا وأرزاقنا إنك سميع الدعاء" . قال رجل : يارسول الله، كيف يدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره ؟ قال : "إن الجراد نَثْرة(٢) الحوت فى البحر" .

الرابعـة — ثبت فى صحيح مسلم عن عبد الله بن أبِى أوْفَى قال : غَزَوْنا مع رسول الله صلى الله عليه وسـلم سبع غزوات كنا نأكل الجراد معه . ولم يختلف العلماء فى أكله على الجملة،

---

(١) التراقى : جمع الترقوة ، وهى عظم وصل بين ثغرة النحر والعاتق من الجانبين . (٢) النثرة : شبه العطسة .

وأنه إذا أخذ حيًّا وقطعت رأسه أنه حلال باتفاق . وأن ذلك يتنزّل منه منزلة الذكاة فيه . وإنما اختلفوا هل يحتاج إلى سبب يموت به إذا صيد أم لا ؛ فعامّتهم على أنه لا يحتاج إلى ذلك، ويؤكل كيفما مات . وحكمه عندهم حكم الحيتان، وإليه ذهب ابن نافع ومُطَرِّف . وذهب مالك إلى أنه لا بُدّ له من سبب يموت به ؛ كقطع رءوسه أو أرجله أو أجنحته إذا مات من ذلك، أو يُصْلَق أو يطرح في النار؛ لأنه عنده من حيوان البر فَمَيْتَتُه محرّمة . وكان اللّيث يكره أكل ميّت الجراد، إلا ما أخذ حيًّا ثم مات فإن أخذه ذكاة . وإليه ذهب سعيد بن المُسَيِّب . روى الدَّارَقُطْنِيّ عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أُحِلّ لنا ميتتان الحُوت والجراد ودمان الكَبِد والطِّحال" . وقال ابن ماجه : حدّثنا أحمد ابن مَنيع حدّثنا سفيان بن عُيينة عن أبي سعيد سمع أنس بن مالك يقول : كُنّ أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم يتهادَيْن الجراد على الأطباق . ذكره ابن المنذر أيضا .

الخامسة — روى محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله تعالى خلق ألف أُمّة ستمائة منها في البحر وأربعمائة في البر وإن أوّل هلاك هذه الأمم الجراد فإذا هلكت الجراد تتابعت الأمم مثل نظام السِّلك إذا انقطع" . وذكره التِّرمذيّ الحكيم في (نوادر الأصول) قال : وإنما صار الجراد أوّل هذه الأمم هلاكا لأنه خُلق من الطينة التي فَضَلت من طينة آدم . وإنما تهلك الأمم لهلاك الآدميّين لأنها مسخرة لهم .

رجعنا إلى قصة القبط — فعاهدوا موسى أن يؤمنوا لو كُشف عنهم الجراد، فدعا فكُشف، وكان قد بَقِيَ من زروعهم شيء فقالوا : يكفينا ما بَقِيَ ؛ ولم يؤمنوا فبعث الله عليهم القُمّل، وهو صغار الدَّبَى؛ قاله قَتادة . والدَّبَى : الجراد قبل أن يطير، الواحدة دَباة . وأرض مَدْبِيّة إذا أكل الدَّبَى نباتها . وقال ابن عباس : القُمّل السُّوس الذي في الحنطة . وقال ابن زيد : البراغيث . وقال الحسن : دوابّ سود صغار . وقال أبو عبيدة : الحَمْنَان، وهو ضرب من القُرَاد، واحدها حَمْنانة . فأكلت دوابّهم وزروعهم، ولزمت جلودهم كأنها الجُدَرِيّ عليهم،

ومنعهم النومَ والقَرار . وقال حبيب بن ثابت : القُمّل الجِعلان[(١)] . والقُمّل عند أهـل اللغة ضرب من القِردان . قال أبو الحسن الأعرابيّ العـدويّ : القُمّل دوابّ صغار من جنس القردان؛ إلا أنها أصغر منها، واحدتها قُمّلة . قال النحاس : وليس هذا بناقض لمـا قاله أهل التفسير؛ لأنه يجوز أن تكون هـذه الأشياء كلّها أُرْسلت عليهم، وهى أنها كلها تجتمع فى أنها تؤذيهم . وذكر بعض المفسرين أنه كان بعَيْن شَمْس كَثِيب من رمل فضربه موسى بعصـاه فصار قُمَّـلا . واحد القَمْل قَمْلة . وقيل : القُمَّلُ القَمْلُ؛ قاله عطاء الخُراسانيّ . وفى قراءة الحسن « والقَمْل » بفتح القاف و إسكان الميم . فتضرّعوا فلما كُشف عنهم لم يؤمنوا؛ فأرسل الله عليهم الضفادع؛ جمع ضِفْدِع[(٢)] وهى المعروفة التى تكون فى الماء، وقد ورد النهى عن قتلها؛ أخرجه أبو داود وابن ماجه بإسناد صحيح . أخرجه أبو داود عن أحمد بن حنبل عن عبد الرزاق . وابن ماجه عن محمد بن يحيى النيسابورِىّ الذُّهْلىّ عن أبى هريرة قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسـلم عن قتل الصُّرَد والضِّفْـدع والنّملة والهُـدهد . وخرّج النَّسائِىّ عن عبد الرحمن آبن عثمان أن طبيبا ذكر ضِفْدعا فى دواء عند النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ فنهاه النبىّ صلى الله عليه وسلم عن قتله . صححه أبو محمد عبد الحق . وعن أبى هريرة قال : الصُّرَد أوّل طير صام . ولمّـا خرج إبراهيم عليه السلام من الشأم إلى الحَرَم فى بناء البيت كانت السَّكِينة[(٣)] معه والصرد؛ فكان الصُّرد دليلَه على الموضع ، والسَّكِينة مقداره . فلما صار إلى البقعة وقعت السَّكِينة على موضع البيت ونادت : اِبْنِ يا إبراهيم على مقدار ظِلّى؛ فنهى النبىّ صلى الله عليه وسلم عن قتل الصّرد لأنه كان دليل إبراهيم على البيت ، وعن الضفدع لأنها كانت تصبّ الماء على نار إبراهيم . ولمّـا تسلّطت على فرعون جاءت فأخذت الأمكنة كلها ، فلما صارت إلى التَّنُّور وَثَبَتْ فيهـا وهى نار تسعر ، طاعةً لله . فجُعل نَقِيقها تسبيحا . يقال : إنهـا أكثر الدواب تسبيحا . وقال عبد الله بن عمرو : لا تقتلوا الضّفدع فإن نقيقه الذى تسـمعون تسبيح . فرُوِى أنها ملأت

(١) الجعلان (بكسر الجيم جمع جُعَل كصرد) وهو دابة سوداء من دواب الأرض .

(٢) الضفدع : بفتح الضاد والدال وبكسرهما وسكون الفاء . (٣) السكينة : ريح خجوج ، أى سريعة المر.

فرشهم وأوعيتهم وطعامهم وشرابهم؛ فكان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع ، وإذا تكلّم وثب الضّفدع في فيه . فشكوا إلى موسى وقالوا : نتوب ؛ فكشف الله عنهم ذلك فعادوا إلى كفرهم؛ فأرسل الله عليهم الدم فسال النيل دمًا . وكان الإسرائيلىّ يغترف منه الماء، والقبطىُّ الدمَ . وكان الإسرائيلى يَصُبّ الماء في فِمِ القبطى فيصير دمًا ، والقبطىُّ يصب الدم في فم الإسرائيلى فيصير ماء زلالا . ﴿ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ ﴾ أى مبيّنات ظاهرات؛ عن مجاهد . قال الزجاج : « آيات مفصّلات » نصب على الحال . ويروى أنه كان بين الآية والآية ثمانية أيام . وقيل : أربعون يوما . وقيل : شهر ؛ فلهذا قال « مفصلات » . ﴿ فَٱسْتَكْبَرُوا ﴾ أى ترفّعوا عن الإيمان بالله تعالى .

قوله تعالى : وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ ﴾ أى العذاب . وقرئ بضم الراء، لغتان . قال ٱبن جبير : كان طاعونا مات به من القبط في يوم واحد سبعون ألفا . وقيل : المراد بالرجز ما تقدم ذكره من الآيات . ﴿ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ﴾ « ما » بمعنى الذى، أى بما ٱستودعك من العلم، أو بما ٱختصّك به فنبّأك . وقيل : هذا قسَم، أى بعهده عندك إلّا ما دعوت لنا ؛ فـ « ما »[1] صلة . ﴿ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ ﴾ أى بدعائك لإلٰهك حتى يكشف عنا . ﴿ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ﴾ أى نصدّقك بما جئت به . ﴿ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ وكانوا يستخدمونهم؛ على ما تقدم . ﴿ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ ﴾ يعنى أجلهم الذى ضُرب لهم في التفريق . ﴿ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ أى ينقضون ما عقدوه

(١) كذا في جميع نسخ الأصل ؛ وظاهر أنها مصدرية .

على أنفسهم . ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ والْيَمُّ البحر . ﴿ وَكَانُوا عَنْهَا ﴾ أى النقمة . دلّ عليها «فانتقمنا» . وقيل : عن الآيات إن لم يعتبروا بها حتى صاروا كالغافلين عنها .

قوله تعالى : وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ ﴾ يريد بنى إسرائيل . ﴿ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ ﴾ أى يُسْتَذَلّون بالخدمة . ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ زعم الكسائى والفرّاء أن الأصل « فى مشارق الأرض ومغاربها » ثم حذف « فى » فنصب . والظاهر أنهم وَرِثوا أرض القبط . فهما نصب على المفعول الصريح؛ يقال : ورِثت المال وأورثته المال؛ فلما تعدّى الفعل بالهمزة نصب مفعولين . والأرض هى أرض الشأم ومصر . ومشارقها ومغاربها جهاتُ الشرق والغرب بها ، فالأرض مخصوصة؛ عن الحسن وقتادة وغيرهما . وقيل : أراد جميع الأرض؛ لأن من بنى إسرائيل داود وسليمان وقد ملكا الأرض . ﴿ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ أى بإخراج الزروع والثمار والأنهار . ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ هى قوله « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ » (١) . ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أى بصبرهم على أذى فرعون، وعلى أمر الله بعد أن آمنوا بموسى . ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ يقال : عَرَش يَعْرِش إذا بَنَى . قال ابن عباس ومجاهد : أى ما كانوا يبنون من القصور وغيرها . وقال الحسن : هو تعريش الكَرْم . وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم « يَعْرُشون » بضم الراء . قال الكسائىّ : هى لغة تميم . وقرأ إبراهيم بن أبى عَبْلَة « يُعرِّشون » بتشديد الراء وضم الياء .

(١) آية ٥ سورة القصص .

قوله تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (١٣٨)

قوله تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ﴾ قرأ حمزة والكسائى بكسر الكاف ، والباقون بضمها . يقال : عَكَف يَعْكِف ويَعْكُف بمعنى أقام على الشيء ولزمه . والمصدر منهما على فُعول . قال قتادة : كان أولئك القوم من لَخْم ، وكانوا نزولا بالرَّقة . وقيل : كانت أصنامهم تماثيلَ بقر ؛ ولهذا أخرج لهم السامِرِىّ عجلا . ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ نظيره قول جُهّال الأعراب وقد رأوا شجرة خضراء للكفار تُسَمَّى ذاتَ أنواط[1] يعظّمونها فى كل سنة يوما : يا رسول الله ، اجعل لنا ذاتَ أنواط كما لهم ذاتُ أنواط . فقال عليه الصلاة والسلام : " الله أكبر . قلتم والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى اجعل لنا إلٰها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون لتركَبُنّ سَنن مَن قبلكم حَذْوَ القُذّة[2] بالقُذّة حتى إنهم لو دخلوا جحر ضَبٍّ لدخلتموه " . وكان هذا فى مَخْرَجه إلى حُنَين[3] ، على ما يأتى بيانه فى « براءة » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (١٣٩) ﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (١٤٠)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ ﴾ أى مُهْلَك . والتَّبار : الهلاك . وكل إناء منكسر مُتَبَّر . وأمر مُتَبَّر . أى أن العابد والمعبود مهلكان . وقوله : ﴿ وَبَاطِلٌ ﴾ أى ذاهب

---

(١) ينوطون بها سلاحهم ، أى يعلقونه .

(٢) القذة : ريش السهم . قال ابن الأثير : يضرب مثلا للشيئين يستويان ولا يتفاوتان .

(٣) فى قوله تعالى : « لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ... » آية ٢٥

ومُضْمَحِل . ﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ « كانوا » صلة زائدة . ﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا ﴾ أى أطلب لكم إلهًا غيرَ الله تعالى . يقال : بغيته وبغيت له . ﴿ وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ﴾ أى على عالِمى زمانكم . وقيل : فضّلهم بإهلاك عدوّهم ، وبما خصّهم به من الآيات .

قوله تعالى : وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

ذكّرهم منّته . وقيل : هو خطاب ليهود عصر النبيّ صلى الله عليه وسلم . أى واذكروا إذا أنجينا أسلافكم؛ حسب ما تقدّم بيانه فى سورة « البقرة »[1] .

قوله تعالى : وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً ﴾ ذكر أن مما كرّم به موسى عليه السلام هذا . فكان وعده المناجاة إكرامًا له . ﴿ وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد ومسروق رضى الله عنهم : هى ذو القَعدة وعشر من ذى الحجة . أمره أن يصوم الشهر وينفرد فيه بالعبادة؛ فلما صامه أنكر خُلوف فَمِه فاستاك . قيل : بعود خَرْنُوب؛ فقالت الملائكة : إنا كنا نستنشق من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسّواك . فزيد عليه عشرُ ليالٍ من ذى الحجة . وقيل : إن الله تعالى أوحى إليه لما استاك : " ياموسى لا أكلّمك حتى يعود

(١) راجع جـ ١ ص ٣٨١ طبعة ثانية أو ثالثة .

فُوك إلى ما كان عليه قبلُ . أمَا علمتَ أن رائحة الصائم أحبُّ إلىّ من ريح المسك " .
وأمره بصيام عشرة أيام . وكان كلام الله تعالى لموسى غداةَ النحر حين فَدَى إسماعيل من الذبح ، وأكمل لمحمد صلى الله عليه وسلم الحج . وحذفت الهاء من عشر لأن المعدود مؤنّث .
والفائدة فى قوله « فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبعِينَ لَيلَةً » وقد عُلم أن ثلاثين وعشرة أربعون ، لئلا يُتوهّم أن المراد أتممنا الثلاثين بعشر منها ؛ فبيّن أن العشر سوى الثلاثين . فإن قيل : فقد قال فى البقرة أربعين وقال هنا ثلاثين ؛ فيكون ذلك من البُداء . قيل : ليس كذلك ؛ فقد قال : « وأتممناها بعشر » والأربعون والثلاثون والعشرة قول واحد ليس بمختلف . وإنما قال القولين على تفصيل وتأليف ، قال أربعين فى قولٍ مؤلّف ، وقال ثلاثين ، يعنى شهرا متتابعا وعشرا . وكل ذلك أربعون ؛ كما قال الشاعر :

* عشر وأربع ... *

يعنى أربع عشرة ، ليلة البدر . وهذا جائز فى كلام العرب .

الثانية — قال علماؤنا : دلّت هذه الآية على أن ضَرْب الأجل للواعدة سُنَّةٌ ماضية ، ومعنًى قديمٌ أسّسه الله تعالى فى القضايا ، وحَكَم به للأمم ، وعرّفهم به مقادير التأنّى فى الأعمال .
وأول أجل ضربه الله تعالى الأيام السّتة التى خلق فيها جميع المخلوقات ، « وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ »(1) . وقد بيّنا معناه فيما تقدم فى هذه السورة من قوله : « إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ »(2) . قال ابن العربىّ : فإذا ضُرب الأجل لمعنًى يحاوَل فيه تحصيلُ المؤجَّل فجاء الأجل ولم يتيسّر زِيد فيه تبصرةً ومعذرة . وقد بيّن الله تعالى ذلك لموسى عليه السلام فضرب له أجلا ثلاثين ثم زاده عشرا تتمة أربعين . وأبطأ موسى عليه السلام فى هذه العشر على قومه ؛ فما عَقَلوا جواز التأنّى والتأخّر حتى قالوا : إن موسى ضَلّ أو نَسِىَ ، ونكثُوا عهده و بدّلوا بعده ، وعبدوا إلٰهًا غيرَ الله . وقال ابن عباس : إن موسى قال لقومه : إنّ رَبّى وعدنى ثلاثين ليلة أن ألقاه ، وأُخْلُف فيكم

---

(1) آية ٣٨ سورة ق .		(2) آية ٥٤

هارون، فلمـا فَصَل[1] موسى إلى ربّه زاده الله عشرا ؛ فكانت فتنتهم فى العشر الذى زاده الله بما فعلوه من عبادة العجل ؛ على ما يأتى بيانه . ثم الزيادة التى تكون على الأجل تكون مقدّرة؛ كما أن الأجل مقدّر . ولا يكون إلا بآجتهاد من الحاكم بعد النّظر إلى المعانى المتعلّقة بالأمر: من وقت وحال وعمل،فتكون مثل ثلث المدة السالفة؛ كما أجّل الله لموسى . فإن رأى الحاكم أن يجمع له الأصل فى الأجل والزيادة فى مدة واحدة جاز، ولكن لابُدّ من التربّص بعـدها لمـا يطرأ من العـذر على البشر ؛ قاله ابن العربى . روى البخارىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " أعْذَر الله إلى آمرئ أخّر أجله حتى بلّغه ستين سنة "[2] .

قلت : وهذا أيضا أصلٌ لأعذار الحُكّام إلى المحكوم عليه مرّة بعد أخرى . وكان هذا لُطْفًا بالخلق، ولينفّذ القُيّام عليهم بالحق . يقال . أعْذَر فى الأمر أى بالغ فيه؛ أى أعذر غاية الإعذار الذى لا إعذار بعده . وأكبر الإعذار إلى بنى آدم بعثة الرسـل إليهم لتتمّ حُجّته عليهم؛ « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا »[3] . وقال : «وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ»[4] قيل: هم الرسل. ابن عباس : هو الشّيب ، فإنه يأتى فى سِنّ الآكتمال، فهو علامة لمفارقة سِنّ الصّبا . وجعل الستين غاية الإعذار لأن الستّين قريب من معتَرك العبـاد ، وهو سن الإنابة والخشوع والآستسلام له ، وترقّب المنيّة ولقاء الله؛ ففيه إعذار بعد إعذار . الأوّل بالنبىّ عليه السلام، والثانى بالشّيب؛ وذلك عند كمال الأربعين ؛ قال الله تعالى : « وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَـنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ »[5] . فذكر عز وجل أن من بلغ أربعين فقد آن له أن يعلم مقدار نِعم الله عليه وعلى والديه و يشكرهما . قال مالك : أدركت أهـل العلم ببلدنا ، وهم يطلبون الدنيا و يخالطون النـاس حتى يأتى لاحدهم أربعون سنة؛ فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس .

الثالثـــة ــــ ودلّت الآية أيضـا على أن التاريخ يكون بالليالى دون الأيام ؛ لقوله : « ثَلَاثِينَ لَيْـلَةً » لأن الليالى أوائل الشهور . و بهـا كانت الصحابة رضى الله عنهم تخبر عن

---

(١) فصل : خرج . (٢) أى لم يبق فيه موضعا للاعتذار حيث أمهله طول هذه المدة ولم يعتذر .
(٣) آية ١٥ سورة الإسراء . (٤) آية ٣٧ سورة فاطر . (٥) آية ١٥ سورة الأحقاف .

الأيام؛ حتى رُوى عنها أنها كانت تقول : صمنا خمسا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . والعجم تخالف فى ذلك، فتحسُب بالأيام لأن معوّلها على الشمس . ابن العربيّ : وحسابُ الشمس للنافع، وحسابُ القمر للناسك؛ ولهذا قال: « وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً » . فيقال: أرّخت تاريخا، وورّخت توريخا؛ لغتان .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ ﴾ المعنى : وقال موسى حين أراد المُضِىّ للناجاة والمَغيب فيها لأخيه هارون : كُنْ خليفتى؛ فدلّ على النيابة . وفى صحيح مسلم عن سعد بن أبى وَقّاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعلىّ حين خلّفه فى بعض مغازيه : "أمَا تَرْضَى أن تكون منّى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبىّ بعدى" . فاستدلّ بهذا الروافضُ الإماميّة وسائرُ فِرقِ الشِّيعة على أن النبىّ صلى الله عليه وسلم استخلف عَلِيًّا على جميع الأمّة ؛ حتى كفّر الصحابةَ الإماميةُ — قبحهم الله — لأنهم عندهم تركوا العمل الذى هو النّص على استخلاف علىّ وآستخلفوا غيره بالآجتهاد منهم . ومنهم من كَفّر عَلِيًّا إذ لم يقم بطلب حقه . وهؤلاء لا شك فى كفرهم وكُفْر مَن تبعهم على مقالتهم، ولم يعلموا أن هذا آستخلافٌ فى حياةٍ، كالوَكالة التى تنقضى بعزل الموكِّل أو بموته، لا يقتضى أنه متمادٍ بعد وفاة ؛ فينحلّ على هذا ماتعلّق به الإمامية وغيرُهم . وقد آستخلف النبىّ صلى الله عليه وسلم على المدينة آبنَ أمّ مَكْتُوم وغيرَه . ولم يلزم من ذلك استخلافه دائما بالآتفاق . على أنه قد كان هارون شُرِّك مع موسى فى أصل الرسالة ، فلا يكون لهم فيه على ماراموه دِلالة . والله الموفق للهداية .

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْلِحْ ﴾ أمرٌ بالإصلاح . قال ابن جُريج : كان من الإصلاح أن يزجر السامرِىّ ويغيّر عليه . وقيل : أى آرفق بهم، وأصلح أمرهم، وأصلح نفسك؛ أى كن مصلحا . ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ لا تسلك سبيل العاصين، ولا تكن عونا للظالمين .

قوله تعـالى : وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا ﴾ أى فى الوقت الموعود . ﴿ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ أى أسمعه كلامه من غير واسطة . ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ سأل النّظر إليـه ؛ وٱشتاق إلى رؤيته لمّـا أسمعه كلامه . فـ ﴿ قَالَ لَنْ تَرَانِى ﴾ أى فى الدنيا . ولا يجوز الحَمْـل على أنه أراد : أرنى آية عظيمة لأنظر إلى قدرتك ؛ لأنه قال « إليك » و « قال لن ترانى » . ولو سأل آية لأعطاه الله ما سأل ، كما أعطاه سائر الآيات . وقـد كان لموسى عليـه السلام فيهـا مَقْنَع عن طلب آية أخرى ؛ فبطل هـذا التأويل . ﴿ وَلَكِنِ ٱنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى ﴾ ضَرب له مثالا مما هو أقوى من بنيته وأثبت . أى فإن ثبت الجبل وسكن فسوف ترانى، وإن لم يسكن فإنك لاتطيق رؤيتى، كما أن الجبـل لايطيق رؤيتى . وذكر القاضى عِياض عن القـاضى أبى بكر بن الطّيب ما معناه : أن موسى عليـه السلام رأى الله فلذلك خَرَّ صَعِقا ، وأن الجبـل رأى ربّه فصار دَكًّا بإدراكٍ خلقه الله له . وٱستَنْبط ذلك من قوله : « ولكن ٱنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى » . ثم قال ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ وتجلّى معناه ظهر ؛ من قولك : جَلَوْت العروس أى أبرزتها . وجَلَوْت السيف أبرزته من الصّدأ ؛ جِلاءً فيهما . وتجلّى الشيء ٱنكشف . وقيل : تجلّى أمره وقدرته ؛ قاله قُطْرُب وغيره . وقراءة أهل المدينـة وأهل البصرة « دَكًّا » . يدلّ على صحتها « دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا »(١) وأن الجبل مذكر . وقرأ أهل الكوفة « دَكّاء » أى جعله مثل أرض دكاء، وهى الناتئة لا تبلغ أن تكون جبلا . والمذكّر أدَكّ . وجمع دكاء دكّاوات ودُكّ ؛ مثل

(١) آية ٢١ سورة الفجر .

حَمْراوات وحُمْر . قال الكسائى : الدَّكّ من الجبال : العِراض، واحدها أدَكّ . غيره : والدّكّاوات جمع دَكّاء : روابٍ من طين ليست بالغلاظ . والدّكادك كذلك من الرمل : ما التبد بالأرض فلم يرتفع . وناقة دَكّاء لا سَنام لها . وفى التفسير : فساخ الجبل فى الأرض، فهو يذهب فيها حتى الآن . وقال ابن عبـاس : جعله ترابا . عَطِيّـة العَوْفى : رملا هائلا . ﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ أى مغشيًّا عليه؛ عن ابن عباس والحسن وقتادة . وقيل : ميتا؛ يقال : صَعِق الرجل فهو صَعِق . وصُعِق فهو مصعوق . وقال قتادة والكَلْبىّ : خرّ موسى صَعِقا يومَ الخميس يوم عَرَفة ، وأعطى التوراة يوم الجمعة يوم النّحر . ﴿ فَلَمَّـا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ قال مجاهد : من مسألة الرؤية فى الدنيا . وقيل : سأل من غير آستئذان ؛ فلذلك تاب . وقيل : قاله على جهة الإنابة إلى الله والخشوع له عند ظهور الآيات . وأجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية؛ فإن الأنبياء معصومون . وأيضا عند أهل السنة والجماعة الرؤيةُ جائزة . وعند المبتدعة سأل لأجل القوم ليبيّن لهم أنها غير جائزة، وهـذا لا يقتضى التوبة . فقيل : أى تبت إليك من قتل القبطى؛ ذكره القُشَيْرِى . وقد مضى فى « الأنعام »(1) بيان أن الرؤية جائزة . قال علىّ بن مهدِىّ الطبرى : لو كان سؤال موسى مستحيلا ما أقدم عليه مع معرفته بالله؛ كما لم يجز أن يقول له يارب ألك صاحبة وولد . وسيأتى فى « القيامة » مذهب المعتزلة والرّد عليهم، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قيل : من قومى . وقيل : من بنى إسرائيل فى هذا العصر . وقيل : بأنك لا تُرى فى الدنيا لوعدك السابق فى ذلك . وفى الحديث الصحيح من حديث أبى هريرة وغيره أن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم قال : " لا تُخَيِّروا بين الأنبياء فإن الناس يَصْعَقون يوم القيامة فأرفع رأسى فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أصعق فيمن صعق فأفاق قبلى أو حوسب بصعقته الأولى " . أو قال " كفته صعقته الأولى " . وذكر أبو بكر بن أبى شيبة عن كعب قال : إن الله تبارك وتعـالى قسم كلامه

(1) آية ١٠٣ ص ٥٤ من هذا الجزء .

ورؤيته بين محمد وموسى صلى الله عليهما؛ فكلّمه موسى مرّتين، ورآه محمد صلى الله عليه وسلم مرّتين .

قوله تعالى : ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (١٤٤)

قوله تعالى : ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِى وبِكَلَامِى﴾ الاصطفاء : الاجتباء ؛ أى فضّلتك . ولم يقل على الخلق لأن من هذا الاصطفاء أنه كلّمه وقد كلّم الملائكة، وأرسله وأرسل غيره . فالمراد « على الناس » المرسل إليهم . وقرأ « برسالتى » على الإفراد نافعٌ وٱبنُ كَثير . والباقون بالجمع . والرسالة مصدر، فيجوز إفرادها . ومن جمع على أنه أرسل بضروب من الرسالة فاختلفت أنواعها ، فجمع المصدر لاختلاف أنواعه ؛ كما قال : « إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ » (١) . فجمع لاختلاف أجناس الأصوات واختلاف المصوّتين . ووحّد فى قوله « لَصَوْتُ » لما أراد به جنسا واحدا من الأصوات . ودلّ هذا على أن قومه لم يشاركه فى التكليم ولا واحد من السبعين ؛ كما بيناه فى « البقرة » (٢) .

قوله تعالى : ﴿فَخُذْ ما آتَيْتُكَ﴾ إشارة إلى القناعة ؛ أى اقنع بما أعطيتك . ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أى من المظهرين لإحسانى إليك وفضلى عليك ؛ يقال : دابة شَكُور إذا ظَهر عليها من السِّمن فوق ما تُعْطَى من العَلَف . والشاكر معترض للزيد كما قال : « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » (٣) . ويروى أن موسى عليه السلام مكث بعد أن كلّمه الله تعالى أربعين ليلة لا يراه أحد إلا مات من نور الله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ (١٤٥)

(١) آية ١٩ سورة لقمان . (٢) راجع جـ ٢ ص ١ طبعة ثانية . (٣) آية ٧ سورة إبراهيم .

قوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يريد التوراة . ورُوى فى الخبر أنه قبض عليه جبريلُ عليه السلام بجناحه فمرّ به فى العُلَا حتى أدناه حتى سمِع صرِيف القلم حين كتب الله له الألواح ؛ ذكره الترمذيّ الحكيم . وقال مجاهد : كانت الألواح من زُمُرُّدة خضراء . ابن جُبير : من ياقوتة حمراء . أبو العالية : من زَبَرْجَد . الحسن : من خشب؛ نزلت من السماء . وقيل : من صخرة صمّاء ، ليّنها الله لموسى عليه السلام فقطعها بيده ثم شقّقها بأصابعه ؛ فأطاعته كالحديد لداود . قال مُقاتل : أى كتبنا فى الألواح كنقش الخاتم . ربيع بن أنس : نزلت التوراة وهى سبعون وِقْر(١) بعير . وأضاف الكتابة إلى نفسه على جهة التشريف ؛ إذ هى مكتوبة بأمره كتبها جبريل بالقلم الذى كتب به الذّكر . وٱستُمِدّ من نهر النور . وقيل : هى كتابة أظهرها الله وخلقها فى الألواح . وأصل اللّوح : اللَّوح (بفتح اللام) ؛ قال الله تعالى : « بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ(٢) » . فكأن اللّوح تلوح فيه المعانى . ويروى أنها لوحان، وجاء بالجمع لأن الآثنين جمع . ويقال : رجل عظيم الألواح إذا كان كبيرَ عظم اليدين والرجلين . ابن عباس : وتكسّرت الألواح حين ألقاها فرفعت إلا سُدْسَها . وقيل : بقى سُبُعُها ورفعت ستّة أسباعها . فكان فى الذى رفع تفصيل كل شىء ، وفى الذى بقِى الهدى والرحمة . وأسند أبو نعيم الحافظ عن عمرو بن دِينار قال : بلغنى أن موسى بن عِمران نبيّ الله صلى الله عليه وسلم صام أربعين ليلة ؛ فلما ألقى الألواح تكسّرت فصام مثلَها فردّت إليه . ومعنى ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ممـا يحتاج إليـه فى دينه من الأحكام وتبيين الحلال والحرام ؛ عن الثّوْرِىّ وغيره . وقيل : هو لفظ يُذكر تفخيما ولا يراد به التعميم ؛ تقول : دخلت السّوق فٱشتريت كل شىء . وعند فلان كلّ شىء . وتُدمِّر كلّ شىء . وأوتيت كل شىء . وقد تقدم . ﴿ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى لكل شىء أُمِروا به من الأحكام ؛ فإنه لم يكن عندهم اجتهاد ، وإنما خصّ بذلك أمة محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ فى الكلام حذف ، أى فقلنا له خذها

(١) الوقر (بكسر الواو) : الحمل الثقيل . وعم بعضهم به الثقيل والخفيف وما بينهما .

(٢) آخر سورة البروج .

بقوة؛ أى بجدّ ونشاط . نظيره « خُذُوا مَا آتَيْنَا كُمْ بِقُوَّةٍ »(١) وقد تقدّم . ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ أى يعملوا بالأوامر ويتركوا النواهى ، ويتدبّروا الأمثال والمواعظ . نظيره « وَٱتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ »(٢) . وقال : « فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ »(٣) . والعَفْوُ أحسنُ من الاقتصاص . والصبر أحسن من الانتصار . وقيل : أحسنها الفرائض والنوافل . وأدْوَنُها المباح . ﴿ سَأُرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَاسِقِينَ ﴾ قال الكلبي : « دار الفاسقين » ما مَرّوا عليه إذا سافروا من منازل عاد وثمود ، والقرون التى أهلكوا . وقيــل : هى جهنم؛ عن الحسن ومجاهــد . أى فلتكن منكم على ذُكْر ، فاحْذَرُوا أن تكونوا منهــا . وقيل : أراد به مصر؛ أى سأريكم ديار القِبط ومساكن فرعون خاليةً عنهم؛ عن ابن جُبير . قَتادة : المعنى سأريكم منازل الكفار التى سكنوها قبلكم من الجبابرة والعمالقة لتعتبروا بها ؛ يعنى الشأم . وهذان القولان يدل عليهما « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ »(٤) الآية . « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ »(٥) الاية ، وقد تقدّم . وقرأ ٱبن عباس وقَسَامة بن زهير « سأورّثكم » من ورّث . وهذا ظاهر . وقيل : الدار الهلاك ، وجمعه أدوار . وذلك أن الله تعــالى لمــا أغرق فرعون أوْحى إلى البحر أن ٱقذف بأجسادهم إلى الساحل ، قال ففعل؛ فنظر إليهم بنو إسرائيل فأراهم هلاك الفاسقين .

قوله تعــالى : سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

---

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٥٥ سورة الزمر .
(٣) آية ١٨ سورة الزمر . (٤) آية ١٣٧ من هذه السورة . (٥) آية ٥ سورة القصص .

قوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ قال قتادة : سأمنعهم فَهْمَ كتابي . وقاله سُفيان بن عُيينة . وقيل : سأصرفهم عن الإيمان بها . وقيل : سأصرفهم عن نفعها ؛ وذلك مجازاة على تكبّرهم . نظيره : « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ »[(1)] . والآيات على هذا المعجزاتُ أو الكتبُ المنزّلة . وقيل : خَلْقُ السموات والأرض . أى اصرفهم عن الاعتبار بها . ﴿ يَتَكَبَّرُونَ ﴾ يَرَوْن أنهم أفضل الخلق . وهذا ظنّ باطل ؛ فلهذا قال : ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ فَلا يتبعون نبيًّا ولا يَصْغون إليه لتكبّرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ يعنى هؤلاء المتكبرون . أخبر عنهم أنهم يتركون طريق الرشاد ويتّبعون سبيل الغَيّ والضلال ؛ أى الكفر يتخذوه دِينا . ثم علّل فقال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أى ذلك الفعل الذى فعلته بهم بتكذيبهم . ﴿ وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ أى كانوا فى تركهم تدبّر الحق كالغافلين . ويحتمل أن يكونوا غافلين عما يُجازون به ؛ كما يقال : ما أغفل فلان عما يراد به . وقرأ مالك بن دِينار « وإن يُروا » بضم الياء فى الحرفين ؛ أى يفعل ذلك بهم . وقرأ أهل المدينة وأهل البصرة « سَبِيل الرُّشْد » بضم الراء وإسكان الشين . وأهل الكوفة إلا عاصما « الرَّشَد » بفتح الراء والشين . قال أبو عبيد : فَرّق أبو عمرو بين الرُّشْد والرَّشَد فقال : الرُّشْد فى الصلاح . والرَّشَد فى الدِّين . قال النحاس : « سيبويه يذهب إلى أن الرُّشْد والرَّشَد مثل السُّخْط والسَّخَط ، وكذا قال الكسائى . والصحيح عن أبى عمرو غيرُ ما قال أبو عبيد . قال إسماعيل بن إسحاق : حدّثنا نصر بن علىّ عن أبيه عن أبى عمرو بن العلاء قال : إذا كان الرُّشْد وسط الآية فهو مسكّن ، وإذا كان رأس الآية فهو محرّك . قال النحاس : يعنى برأس الآية نحو « وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا »[(2)] فهما عنده لغتان بمعنًى واحد ؛ إلا أنه فتح هذا لتتفق الآيات . ويقال : رَشَد يَرْشُد ، ورَشُد يَرْشُد . وحكى سيبويه رَشِد يَرْشَد . وحقيقة الرُّشْد والرَّشَد فى اللغة أن يظفر الإنسان بما يريد ، وهو ضدّ الخيبة » .

---

(١) آية ٥ سورة الصف .　　(٢) آية ١٠ سورة الكهف .

قوله تعالى : وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨)

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى من بعد خروجه إلى الطُّور . ﴿ مِنْ حُلِيِّهِمْ ﴾ هذه قراءة أهل المدينة وأهل البصرة . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما « من حِلِيِّهِمْ » بكسر الحاء . وقرأ يعقوب « من حَلْيِهِمْ » بفتح الحاء والتخفيف . قال النحاس : جمع حَلْي حُلِيٌّ وحِلِيٌّ؛ مثل ثَدْى وثُدِيّ وثِدِيّ . والأصل « حلُوى » ثم أدغمت الواو فى الياء فانكسرت اللام لمجاورتها الياء ، وتكسر الحاء لكسرة اللام . وضمها على الأصل . ﴿ عِجْلًا ﴾ مفعول . ﴿ جَسَدًا ﴾ نعت أو بدل . ﴿ لَهُ خُوَارٌ ﴾ رفع بالابتداء . يقال : خار يخُور خُوارًا إذا صاح . وكذلك جَار يجأر جُؤارا . ويقال : خَوِر يخْوَر خَوَرا إذا جَبُن وضَعُف . ورُوِى فى قصص العجل : أن السّامِرِىّ ، واسمه موسى بن ظفر، ينسب إلى قرية تدعى سَامِرة . وُلد عام قَتْل الأبناء، وأخفته أمه فى كهف جبل فغذّاه جبريل فعرفه لذلك؛ فأخذ حين عبر البحر على فرس وَدِيق[1] ليتقدّم فرعونَ فى البحر قبضةً من أثر حافر الفرس . وهو معنى قوله « فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ[2] » . وكان موسى وعد قومه ثلاثين يوما، فلما أبطأ فى العشر الزائد ومضت ثلاثون ليلة قال لبنى إسرائيل وكان مطاعا فيهم : إن معكم حُليًّا من حُلِىّ آل فرعون ، وكان لهم عيد يتزيّنون فيه ويستعيرون من القبط الحُلِىّ فاستعاروا لذلك اليوم ؛ فلما أخرجهم الله من مصر وغرّق القبط بَقِىَ ذلك الحُلِىّ فى أيديهم ، فقال لهم السّامِرِىّ : إنه حرام عليكم ، فهاتوا ما عندكم فنحرقه . وقيل : هذا الحلىّ ما أخذه بنو إسرائيل من قوم فرعون بعد الغرق ، وأن هارون قال لهم : إن الحُلِىّ غنيمة ، وهى لا تَحِلّ لكم؛ فجمعها فى حُفْرة حَفَرها فأخذها السّامِرِىّ . وقيل : استعاروا الحلىّ ليلةَ أرادوا الخروج من مصر، وأوهموا القبط أن لهم عرسا أو مجتمَعًا،

---

(١) أى تشتهى الفحل . (٢) آية ٩٦ سورة طه .

وكان السّامرِىّ سمع قولهم « اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ » . وكانت تلك الآلهة على مثال البقر؛ فصاغ لهم عجلا جسدا ، أى مُصْمَتًا؛ غير أنهم كانوا يسمعون منه خُوارا . وقيــل : قَلَبه الله لحما ودما . وقيل : إنه لمــا ألقى تلك القبضة من التراب فى النار على الحُلِىّ صار عجلا له خُوار؛ فخار خَوْرة واحدة ولم يُثَنّ . ثم قال للقوم : « هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَى فَنَسِيَ »[1] . يقول : نَسِيَه ها هنا وذهب يطلبه فضلّ عنــه؛ فتعالَوْا نعبد هــذا العجل . فقال الله لموسى وهو يناجيه : « فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ »[2] . فقال موسى : يا ربّ، هذا السامرىّ أخرج لهم عجلا من حليهم، فمن جعل له جسدا ! يريد اللّحم والدّم ، ومن جعل له خوارا ! فقال الله : أنا . فقال : وعِزّتك وجلالك ما أضلّهم غيرُك . قال : صدقت يا حكيم الحكماء . وهو معنى قوله : « إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ »[3] . وقال القَفّال : كان السّامرِىّ احتال بأن جوّف العجل ، وكان قابل به الريح، حتى جاء من ذلك ما يُحاكى الخُوار، وأوهمهم أن ذلك إنمــا صار كذلك لمــا طرح فى الجسد من التراب الذى كان أخذه من تراب قوائم فرس جبريل . وهذا كلام متهافت؛ قاله القُشَيْرِىّ .

قوله تعــالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ ﴾ بيّن أن المعبود يجب أن يتّصف بالكلام . ﴿ وَلَا يَهْدِيهِــمْ سَبِيلًا ﴾ أى طريقا إلى حجة . ﴿ اتَّخَذُوهُ ﴾ أى إلهــا . ﴿ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ أى لأنفسهم فيما فعلوا من اتّخاذه . وقيل : وصاروا ظالمين أى مشركين لجعلهم العجل إلهًا .

قوله تعــالى : وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

قوله تعــالى : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ أى بعد عَوْد موسى من الميقات . يقال للنادم المتحيّر : قد سُقط فى يده . قال الأخفش : يقال سُقط فى يده، وأُسقط . ومن قال: سَقط فى أيديهم على بناء الفاعل؛ فالمعنى عنده : سَقط الندم؛ قاله الأزهرِىّ والنحاس وغيرهما .

---

(١) آية ٨٨ سورة طه . (٢) آية ٨٥ سورة طه . (٣) آية ١٥٥ من هذه السورة .

والندم يكون فى القلب، ولكنه ذكر اليد لأنه يقال لمن تحصّل على شىء : قد حَصل فى يده أمر كذا ؛ لأن مباشرة الأشياء فى الغالب باليد؛ قال الله تعالى : « ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ »[1] . وأيضا : الندم و إن حَلّ فى القلب فأثره يظهر فى البدن ؛ لأن النادم يعضّ يده، و يضرب إحدى يديه على الأخرى؛ قال الله تعالى : «فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا»[2] أى ندم . «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ»[3] أى من الندم . والنادم يضع ذقنه فى يده . وقيل : أصله من الاستئسار، وهو أن يضرب الرجلُ الرجلَ أو يصرَعه فيرمىَ به من يديه إلى الأرض ليأسره أو يكتّفه ؛ فالمرمىُّ به مسقوط فى يد الساقط . ﴿ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا ﴾ أى ٱبتلوا بمعصية الله . ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أخذوا فى الإقرار بالعبودية والاستغفار . وقرأ حمزة والكسائىّ « لئن لَمْ ترحمنا ربَّنا وتغفر لنا » بالتاء على الخطاب . وفيه معنى الاستغاثة والتضرّع والابتهال فى السؤال والدعاء . «ربَّنا» بالنصب على حذف النداء . وهو أيضا أبلغ فى الدعاء والخضوع . فقراءتهما أبلغ فى الاستكانة والتضرّع، فهى أوْلى .

قوله تعالى : وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ لم ينصرف « غَضْبَانَ » لأن مؤنّثه غَضْبَى ، ولأن الألف والنون فيه بمنزلة ألفى التأنيث فى قولك حمراء . وهو نصب على الحال . و « أَسِفًا » شديد الغضب . قال أبو الدَّرداء : الأسف منزلةٌ وراء الغضب أشد من ذلك . وهو أَسِف وأسِيف وأَسْفان وأَسُوف . والأسيف أيضا الحزين . ابن عباس

(١) آية ١٠ سورة الحج . (٢) آية ٤٢ سورة الكهف . (٣) آية ٢٧ سورة الفرقان .

والسُّدّى : رجع حزينا من صنيع قومه . وقال الطبريّ : أخبره الله عز وجل قبل رجوعه أنهم قد فُتِنوا بالعجل؛ فلذلك رجع وهو غضبان . ابن العربيّ : وكان موسى عليه السلام من أعظم الناس غضبا، لكنه كان سريعَ الفَيئة (١) ؛ فتلك بتلك . قال ابن القاسم : سمعت مالكا يقول : كان موسى عليه السلام إذا غَضِب طلع الدُّخَان من قَلَنْسُوَته، ورفع شعرُ بدنه جُبَّتَه . وذلك أن الغضب جَمْرة تتوقّد فى القلب . ولأجله أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم مَن غَضِب أن يضطجع ، فإن لم يذهب غضبُه اغتسل ؛ فيُخْمِدها اضطجاعُه ويطفئها اغتساله . وسُرْعةُ غضبه كان سببا لصَكّه مَلَكَ الموت ففقأ عينَه . وقد تقدّم فى « المائدة » (٢) ما للعلماء فى هذا . وقال الترمذيّ الحكيم : وإنما استجاز موسى عليه السلام ذلك لأنه كليم الله؛ كأنه رأى أن من اجترأ عليه أو مدّ إليه يدا بأذًى فقد عَظُم الخطب فيه . ألا ترى أنه احتجّ عليه فقال : من أين تنزِع روحى ؟ أمن فِمى وقد ناجيت به ربى! أمْ مِن سمعى وقد سمعتُ به كلام ربِّى ! أمْ مِن يدى وقد قبضْتُ منه الألواح ! أمْ مِن قدمى وقد قمتُ بين يديه أكلمه بالطُّور ! أمْ مِن عينى وقد أشرق وجهى لنوره . فرجع إلى ربّه مُفْحَمًا . وفى مُصَنَّف أبى داود عن أبى ذَرٍّ قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا : " إذا غَضِب أحدكم وهو قائم فلْيجلس فإن ذهب عنه الغضب وإلا فلْيضطجع " . وروى أيضا عن أبى وائل القاص قال : دخلنا على عروة بن محمد السّعدىّ فكلمه رجل فأغضبه ؛ فقام ثم رجع وقد توضأ ، فقال : حدّثنى أبى عن جدّى عطيّة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ الغضب من الشيطان وإنّ الشيطان خُلق من النار وإنما تُطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فلْيتوضأ " .

قوله تعالى : ﴿ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنْ بَعْدِى ﴾ ذَمٌّ منه لهم؛ أى بئس العملُ عمِلتم بعدى . يقال : خَلَفه ؛ بما يكره . ويقال فى الخير أيضا . يقال منه : خَلَفه بخير أو بشر فى أهله وقومه

(١) الفيئة (بفتح الفاء وكسرها) : الحالة من الرجوع عن الشىء الذى يكون قد لابسه الإنسان وباشره .

(٢) فى قوله تعالى : « قال فإنها محرّمة عليهم ... » آية ٢٦ جـ ٦ ص ١٢٢ طبعة أولى أو ثانية .

بعـد شخوصه . ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ أي سبقتموه . والعَجَلة : التقدّم بالشيء قبـل وقته، وهي مذمومة . والسرعة : عَمَل الشيء في أوّل أوقاته، وهي محمودة . قال يعقوب : يقال عجلت الشيء سبقته . وأعجلت الرجل ٱستعجلته، أي حملته على العجلة . ومعنى « أَمْرَ رَبِّكُمْ » أي ميعاد ربكم، أي وعد أربعين ليلة . وقيل : أي تعجّلتم سخط ربكم . وقيل : أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمرٌ من ربكم .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ ﴾ أي مما ٱعتراه من الغضب والأسف حين أشرف على قومه وهم عاكفون على عبادة العجل، وعلى أخيه في إهمال أمرهم؛ قاله سعيد بن جُبير . ولهذا قيل : ليس الخبر كالمعاينة . ولا التفات لمـا رُوي عن قَتادة إن صح عنه . ولا يصحّ أنّ إلقاءه الألواح إنما كان لِمـا رأى فيها من فضيلة أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولم يكن ذلك لأُمّته . وهذا قول رديء لا ينبغي أن يضاف إلى موسى عليه السلام . وقد تقدّم عن ٱبن عباس رضي الله عنه أن الألواح تكسّرت، وأنه رُفع منها التفصيل وبَقِيَ الهدى والرحمة .

الثانيـــة — وقـد ٱستدلّ بعض جُهّال المتصوّفة بهذا على جواز رَمْي الثياب إذا ٱشتد طربُهم على المَغْنَى . ثم منهم من يرمي بها صِحاحا، ومنهم من يُخَرِّقها ثم يرمي بها . قال : هؤلاء في غيبة فلا يُلامون؛ فإن موسى عليه السـلام لمـا غلب عليــه الغم بعبادة قومه العجلَ، رمى الألواح فكسرها، ولم يدر ما صنع . قال أبو الفرج الجَوْزِيّ : من يصحّح عن موسى عليه السلام أنه رماها رَمْيَ كاسر، والذي ذُكر في القرآن ألقاها فمن أين لنا أنها تكسرت . ثم لو قيل تكسرت فمن أين لنا أنه قصـد كسرها . ثم لو صححنا ذلك عنه قلنا كان في غيبة، حتى لو كان بين يديه بحر من نار لخـاضه . ومَن يصحّح لهؤلاء غيبتهم وهم يعرفون المغني من غيره، ويحذرون من بئر لو كانت عندهم . ثم كيف تقاس أحوال الأنبياء على أحوال هؤلا السفهاء . وقد سئل ابن عقيل عن تواجدهم وتخريق ثيابهم فقال : خطأ وحرام؛ وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن إضاعة المـال . فقال له قائل : فإنهم لا يعقلون ما يفعلون . فقال :

إن حضروا هذه الأمكنة مع علمهم أن الطَّرب يغلب عليهم فيزيل عقولهم أثموا بمـا أدخلوه على أنفسهم من التخريق وغيره مما أفسدوا، ولا يسقط عنهم خطاب الشرع؛ لأنهم مخاطبون قبل الحضور بتجنّب هـذا الموضع الذى يُفضِى إلى ذلك . كما هم منهيُّون عن شرب المسكر، كذلك هذا الطَّرَب الذى يسمّيه أهـل التصوف وَجْدًا إن صدقوا أن فيه سُـكْرَ طبع ، وإن كذبوا أفسدوا مع الصَّحْو، فلا سلامة فيه مع الحالين، وتجنّب مواضع الرِّيَب واجب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ أى بلحيته وذؤابته . وكان هارون أكبر من موسى بثلاث سنين، وأحبّ إلى بنى إسرائيل من موسى ؛ لأنه كان لَيّن الغضب .

وللعلماء فى أخذ موسى برأس أخيه أربع تأويلات :

الأوّل ــ أن ذلك كان متعارَفًا عندهم ؛ كما كانت العرب تفعله من قبض الرجل على لحية أخيه وصاحبه إكراما وتعظيما ، فلم يكن ذلك على طريق الإذلال .

الثـانى ــ أن ذلك إنما كان ليُسِرّ إليه نزول الألواح عليه ؛ لأنها نزلت عليه فى هــذه المناجاة وأراد أن يخفيها عن بنى إسرائيل قبل التوراة . فقـال له هارون : لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ؛ لئلا يشتبه سِرارُه على بنى إسرائيل بإذلاله .

الثـالث ــ إنما فعـل ذلك به لأنه وقع فى نفســه أن هارون مائلٌ مع بنى إسرائيــل فيما فعلوه من أمر العجل . ومثل هذا لا يجوز على الأنبياء .

الرابع ــ ضَمّ إليه أخاه ليعلم ما لديه؛ فكره ذلك هارون لئلا يظن بنو إسرائيل أنه أهانه؛ فبيّن له أخوه أنهم استضعفوه، يعنى عبدة العجل، وكادوا يقتلونه أى قاربوا. فلما سمع عذره قال : رب آغفرلى ولأخى؛أى آغفر لى ما كان من الغضب الذى ألقيت من أجله الألواح، ولأخى لأنه ظنّه مقصِّرا فى الإنكار عليهم وإن لم يقع منه تقصير ؛ أى آغفر لأخى أن قصّر. قال الحسن : عبد كلّهم العجل غير هارون، إذ لو كان ثَمَّ مؤمن غير موسى وهارون لمـا آقتصر على قوله آغفرلىْ ولأخى ، ولدَعَا لذلك المؤمن أيضا . وقيل : استغفر لنفسه من فعله بأخيه،

فعل ذلك لمَوْجدته عليه؛ إذ لم يلحق به فيعرّفه ماجرى ليرجع فيتلافاهم؛ ولهذا قال: «يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا . أَلَّا تَتَّبِعَنِ» (1) الآية . فبيّن هارون أنه إنما أقام خوفا على نفسه من القتل . فدلّت الآية على أن لمن خشي القتل على نفسه عند تغيير المنكر أن يسكت . وقد تقدّم بيان هذا في «آل عمران» (2) . ابنُ العربيّ: وفيها دليل على أن الغضب لا يغيّر الأحكام كما زعم بعض الناس؛ فإن موسى عليه السلام لم يغيّر غضبُه شيئا من أفعاله، بل اطردت على مجراها من إلقاء لوح وعتاب أخ وصكّ مَلَك . المَهْدَويّ: لأن غضبه كان لله عز وجل، وسكوته عن بني إسرائيل خوفا أن يتحاربوا ويتفرّقوا .

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ﴾ وكان ٱبنَ أمّه وأبيه . ولكنها كلمةُ لين وعطف . قال الزّجاج: قيل كان هارون أخا موسى لأمه لا لأبيه . وقُرِئ بفتح الميم وكسرها؛ فمن فتح جعل «ٱبن أم» ٱسما واحدا كخمسةَ عشر؛ فصار كقولك: يا خمسةَ عشرَ أقبلوا . ومن كسر الميم جعله مضافا إلى ضمير المتكلم ثم حذف ياء الإضافة؛ لأن مبنى النداء على الحذف، وأبقى الكسرة في الميم لتدُلّ على الإضافة؛ كقوله: «يا عبادِ» . يدلّ عليه قراءة ابن السَّمَيْقَع «يابنَ أمّي» بإثبات الياء على الأصل . وقال الكسائي والفَرّاء وأبو عبيد: «يابن أمَّ» بالفتح، تقديره يابن أمّاه . وقال البصريون: هذ القول خطأ؛ لأن الألف خفيفة لا تحذف، ولكن جعل الاسمين ٱسما واحدا . وقال الأخفش وأبو حاتم: «يابن أمِّ» بالكسر كما تقول: ياغلام غلامِ أقبل، وهي لغة شاذّة والقراءة بها بعيدة . وإنما هذا فيما يكون مضافا إليك؛ فأما المضاف إلى مضاف إليك فالوجه أن تقول: ياغلام غلامي، ويابن أخي . وجوّزوا يابن أمَّ، يابن عمَّ؛ لكثرتها في الكلام . قال الزجاج والنحاس: ولكن لها وجه حسن جيد، يجعل الابن مع الأم ومع العم ٱسما واحدا؛ بمنزلة قولك: ياخمسةَ عشر أقبلوا، فحذفت الياء كما حذفت من ياغلام .

﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي﴾ استذلّوني وعدّوني ضعيفا . ﴿وَكَادُوا﴾ أي قاربوا . ﴿يَقْتُلُونَنِي﴾ بنونين؛ لأنه فعل مستقبل . ويجوز الإدغام في غير القرآن . ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَاءَ﴾

---

(1) آية ٩٢ سورة طه . (2) راجع جـ٤ ص ٤٧ طبعة أولى أو ثانية .

أى لا تسرّهم . والشماتة : السرور بما يصيب أخاك من المصائب فى الدّين والدنيا . وهى محرّمة مَنْهِىٌّ عنها . وفى الحديث عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : " لا تُظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك " . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوّذ منها ويقول : " اللّهمّ إنى أعوذ بك من سوء القضاء ودَرْك الشقاء وشماتة الأعداء " . أخرجه البخارىّ وغيره . وقال الشاعر :

إذا ما الدّهر جرّ على أناس * كلاكله أناخ بآخرينا
فقل للشّامتين بنا أفيقوا * سيلقى الشامتون كما لقينا

وقرأ مجاهد ومالك بن دينار « تَشْمَتَ » بالنصب فى التاء وفتح الميم ، « الأعداءُ » بالرفع . والمعنى : لا تفعل بى ما تشمت من أجله الأعداء ، أى لا يكون ذلك منهم لفعل تفعله أنت بى . وعن مجاهد أيضا « تشمت » بالفتح فيهما « الأعداءَ » بالنصب . قال ابن جنّى : المعنى فلا تشمت بى أنت يارب . وجاز هذا كما قال : « الله يستهزئ بهم » ونحوه ، ثم عاد إلى المراد فأضمر فعلا نصب به الأعداء ؛ كأنه قال . ولا تشمت بى الأعداء ، قال أبو عبيد : وحكيت عن حُميد « فلا تَشمِت » بكسر الميم . قال النحاس : ولا وجه لهذه القراءة ؛ لأنه إن كان من شمِت وجب أن يقول تَشْمَت . وإن كان من أشمت وجب أن يقول تُشمت . وقوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ قال مجاهد : يعنى الذين عبدوا العجل . ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ تقدّم [1] .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ الغضب من الله العقوبة . ﴿ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ لأنهم أمروا بقتل بعضهم بعضا . وقيل : الذّلة الجزية .

(١) راجع جـ ٣ ص ٤٣١ طبعة أولى أو ثانية .

وفيه بُعْدٌ ؛ لأن الجزية لم تؤخذ منهم وإنما أخذت من ذرّيّاتهم . ثم قيل : هذا من تمام كلام موسى ، أخبر الله عز وجل به عنه ، وتم الكلام . ثم قال الله تعالى : « وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ » . وكان هذا القول من موسى عليه السلام قبل أن يتوب القوم بقتلهم أنفسهم، فإنهم لمّا تابوا وعفا الله عنهم بعد أن جرى القتل العظيم — كما تقدم بيانه في « البقرة »(١) — أخبرهم أن من مات منهم قتيلا فهو شهيد ، ومن بَقِيَ حيًّا فهو مغفور له . وقيل : كان ثَمَّ طائفة أُشْرِبوا في قلوبهم العجل ، أي حُبّه ، فلم يتوبوا ؛ فهم المعنيّون بقوله « إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ » . وقيل : أراد من مات منهم قبل رجوع موسى من الميقات . وقيل : أراد أولادهم . وهو ما جرى على قُرَيظة والنَّضير؛ أي سينال أولادهم . والله أعلم . ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ أي مثل ما فعلنا بهؤلاء نفعل بالمفترين . وقال مالك بن أنس رحمة الله عليه : ما من مُبْتَدِع إلا وتجد فوق رأسه ذِلّة ، ثم قرأ « إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ — حتى قال — وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ » أي المبتدعين . وقيل : إن موسى أمر بذبح العجل، فجرى منه دَمٌ وبَرَده بالمِبْرَد وألقاه مع الدم في اليَمّ وأمرهم بالشرب من ذلك الماء؛ فمن عَبَد ذلك العجلَ وأُشْرِبَه ظهر ذلك على أطراف فمه؛ فبذلك عرف عبدة العجل . وقد مضى هذا في « البقرة »(٢) .

ثم أخبر الله تعالى أن الله يقبل توبة التائب من الشرك وغيره . وقد مضى هذا في غير موضع . ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ أي الكفر والمعاصي . ﴿ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا ﴾ أي من بعد فعلها . ﴿ وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا ﴾ أي من بعد التوبة ﴿ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ ﴾ أي سكن . وكذلك قرأها معاوية ابن قُرّة « سكن » بالنون . وأصل السكوت السكون والإمساك؛ يقال : جرى الوادي ثلاثا

---

(١) راجع جـ ١ ص ٤٠١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٢ ص ٣١ طبعة ثانية .

ثم سكن، أى أمسك عن الجَرْى. وقال عكرمة: سكت موسى عن الغضب؛ فهو من المقلوب. كقولك: أدخلت الأصبع فى الخاتم، وأدخلت الخاتم فى الأصبع. وأدخلت القَلَنْسُوَة فى رأسى، وأدخلت رأسى فى القَلَنْسُوة. ﴿ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ﴾ التى ألقاها. ﴿ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ أى «هدى» من الضلالة، «ورحمة» أى من العذاب. والنسخ: نقل ما فى كتاب إلى كتاب آخر. ويقال للأصل الذى كتبتَ منه: نسخة، وللفرع نسخة. فقيل: لما تكسّرت الألواح صام موسى أربعين يوما، فرُدّت عليه وأعيدت له تلك الألواح فى لوحين، ولم يفقد منها شيئا؛ ذكره ابن عباس. قال القُشَيْرِىّ: فعلى هذا «وفى نسختها» أى وفيما نُسخ من الألواح المتكسّرة ونُقل إلى الألواح الجديدة هدى ورحمة. وقال عطاء: فيما بقى منها. وذلك أنه لم يبق منها إلا سبعها، وذهب ستّة أسباعها. ولكن لم يذهب من الحدود والأحكام شىء. وقيل: المعنى «وفى نسختها» أى وفيما نُسخ له منها من اللوح المحفوظ هدى. وقيل: المعنى وفيما كتب له فيها هدى ورحمة، فلا يحتاج إلى أصل ينقل عنه. وهذا كما يقال: انسخ ما يقول فلان، أى أثبته فى كتابك.

قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ أى يخافون. وفى اللام ثلاثة أقوال: قول الكوفيين هى زائدة. قال الكِسائىّ: حدّثنى من سمع الفرزدق يقول: نقدت لها مائة درهم، بمعنى نقدتها. وقيل: هى لام أجْل؛ المعنى: والذين هم من أجل ربّهم يرهبون لا رياء ولا سمعة؛ عن الأخفش. وقال محمد بن يزيد: هى متعلقة بمصدر؛ المعنى: للذين هم رهبتهم لربهم. وقيل: لما تقدّم المفعول حَسُن دخول اللام؛ كقوله: «إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ»[1]. فلما تقدّم المعمول وهو المفعول ضَعُف عملُ الفعل فصار بمنزلة مالا يتعدّى.

قوله تعالى: وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا

(١) آية ٤٣ سورة يوسف.

بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ﴾ مفعولان ، أحدهما حذفت منه من ؛ وأنشد سيبويه :

مِنّا الذى ٱختير الرجالَ سَماحةً * وبِرًّا إذا هَبّ الرِّياح الزّعازعُ (١)

وقال الراعى يمدح رجلا :

اخترتك الناسَ إذ رَثّت خلائقهم * وٱختل مَن كان يُرْجَى عنده السُّولُ (٢)

يريد : اخترتك من الناس . وأصل اختار ٱختير ؛ فلما تحركت اليـاء وقبلها فتحة قلبت ألفا ، نحو قال وباع .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ أى ماتوا . والرجفة فى اللغة الزّلزلة الشديدة . ويروى أنهم زُلزلوا حتى ماتوا .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ﴾ أى أمتّهم ؛ كما قال عز وجل : «إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ» (٣) . «وإيّاىَ» عطف . والمعنى : لو شئت أمتّنا من قبل أن نخرج إلى الميقات بمحضر بنى إسرائيل حتى لا يتهمونى . أبو بكر بن أبى شيبة : حدّثنا يحيى ابن سعيد القَطّان عن سـفيان عن أبى إسحاق عن عمارة بن عبد عن علىّ رضى الله عنه قال : ٱنطلق موسى وهارون صلى الله عليهما وٱنطلق شَبّر وشَبير — هما ابنا هارون — فانتهَوْا إلى جبل فيه سرير، فقام عليه هارون فقُبض روحه . فرجع موسى إلى قومه ، قالوا : أنت قتلته ، حسدتنا على لِينه وعلى خُلُقه ، أو كلمـة نحوها ، الشك من سفيان ، فقال : كيف أقتـله ومعى ٱبناه ! قال : فاختاروا من شئتم ؛ فاختاروا من كل سِبْط عشرة . قال : فذلك قوله «وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا» فانتهوا إليـه ؛ فقالوا : مَن قتلك يا هارون ؟ قال : ما قتلنى

---

(١) البيت للفرزدق ؛ كما فى شواهد سيبويه . (٢) اختل : افتقر . (٣) آية ١٧٦ سورة النساء .

أحد ولكن الله توفّاني . قالوا : يا موسى، ما تُعْصَى . فأخذتهـم الرجفة ، فجعلوا يترددون يمينا وشمالا، ويقول : « لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ » . قال : فدعا الله فأحياهم وجعلهم أنبياء كلَّهم . وقيــل : أخذتهم الرجفة لقولهم أرنا الله جهرة؛ كما قال الله تعــالى : « وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ » . على ما تقدّم بيانه في « البقرة »(١) . وقال ٱبن عباس : إنمـا أخذتهم الرجفة لأنهم لم ينهَوْا مَن عبد العجل ، ولم يرضَوْا عبادته . وقيــل : هؤلاء السبعون غيرُ من قالوا أرنا الله جهرة . وقال وهب : ما ماتوا، ولكن أخذتهـم الرجفة من الهَيْبة حتى كادت أن تَبِين مفاصلُهم ، وخاف موسى عليهـم الموت . وقد تقــدّم في «البقرة» عن وهب أنهم ماتوا يوما وليــلة . وقيل غير هــذا في معنى سبب أخذهم بالرجفة . والله أعلم بصحة ذلك . ومقصود الاستفهام في قــوله «أَتُهْلِكُنَا» الجَحْد؛ أي لست تفعــل ذلك . وهو كثير في كلام العرب . وإذا كان نَفْياً كان بمعنى الإيجاب؛ كما قال :

ألستمْ خير من ركب المطايا * وأندَى العــالمين بطُونَ راح(٢)

وقيــل : معناه الدعاء والطلب ، أي لا تهلكنا ؛ وأضاف إلى نفســه . والمراد القوم الذين ماتوا من الرجفة . وقال المبرّد : المراد بالاستفهام استفهامُ استعظام ؛ كأنه يقول : لا تهلكنا ، وقد علم موسى أن الله لا يهلك أحدا بذنب غيره ؛ ولكنــه كقول عيسى «إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ»(٣) . وقيل : المراد بالسفهاء السبعون . والمعنى : أتهلك بني إسرائيل بمـا فعل هؤلاء السفهاء في قولهم «أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً» . ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ أي ما هذا إلا ٱختبارك وٱمتحانك . وأضاف الفتنة إلى الله عز وجل ولم يضفها إلى نفســه ؛ كما قال إبراهيم : «وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ»(٤) فأضاف المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى . وقال يُوشع : «وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ»(٥) . وإنمـا ٱستفاد ذلك موسى عليــه السلام من قوله تعالى له : « فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا

---

(١) راجع جـ ١ ص ٤٠٣ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) الراح : جمع راحة ، وهي الكف .
(٣) آية ١١٨ سورة المائدة . (٤) آية ٨٠ سورة الشعراء . (٥) آية ٦٣ سورة الكهف .

قَوْمَكَ مِنْ بَعْـدِكَ»[1] . فلمـا رجع إلى قومه ورأى العجل منصوبا للعبادة وله خُوار قال : « إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَـا » أى بالفتنة . ﴿ مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِى مَنْ تَشَاءُ ﴾ وهذا ردٌّ على القــدرية .

قوله تعالى : وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَـا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أى وفّقنا للأعمال الصالحة التى تكتب لنا بها الحسنات . ﴿ وَفِى الْآخِرَةِ ﴾ أى جزاء عليها . ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى تُبْنا ؛ قاله مجاهد وأبو العالية وقتادة . والهَوْد : التوبة ؛ وقد تقدّم فى « البقرة »[2] .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ﴾ أى المستحقّين له ، أى هذه الرجفة والصاعقة عذاب مِنّى أصيب به من أشاء . وقيل : المعنى « من أشاء » أى من أشاء أن أضلّه .

قوله : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ عموم ، أى لا نهاية لها ، أى من دخل فيها لم تعجز عنه . وقيل : وسعت كل شيء من الخلق حتى إن البهيمة لها رحمة وعطف على ولدها . قال بعض المفسرين : طمِع فى هذه الآية كلُّ شىء حتى إبليس ، فقال : أنا شىء ؛ فقال الله تعالى : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ فقالت اليهود والنصـارى : نحن متقون ؛ فقال الله تعـالى : « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ » الآية . فخرجت الآية عن العموم ، والحمد لله . روى حماد بن سـلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال : كتبها الله عز وجل لهذه الأمة .

---

(١) آية ٨٥ سورة طه .

(٢) راجع جـ ١ ص ٤٣٢ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — روى يحيى بن أبي كثير عن نَوْف البِكَالِيّ الحِمْيَرِيّ : لما ٱختار موسى قومه سبعين رجلا لميقات ربّه قال الله تعالى لموسى : أن أجعل لكم الأرض مسجدا وطهورا تُصلّون حيث أدركتكم الصلاة إلا عند مِرْحاض أو حَمّام أو قبر ، وأجعل السَّكينة في قلوبكم ، وأجعلكم تقرءون التوراة عن ظهر قلوبكم ، يقرأها الرجل منكم والمرأةُ والحُرُّ والعبد والصغير والكبير . فقال ذلك موسى لقومه ، فقالوا : لا نريد أن نُصلّي إلا في الكنائس ، ولا نستطيع حمل السَّكينة في قلوبنا ، ونريد أن تكون كما كانت في التابوت ، ولا نستطيع أن نقرأ التوراة عن ظهر قلوبنا ، ولا نريد أن نقرأها إلا نَظَرًا . فقال الله تعالى : « فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ — إلى قوله — الْمُفْلِحُونَ » . فجعلها لهذه الأمة . فقال موسى : يارَبّ ، اجعلني نبيّهم . فقال : نبيّهم منهم . قال : رَبّ اجعلني منهم . قال : إنك لن تدركهم . فقال موسى : يارَبّ ، أتيتك بوفد بني إسرائيل ، فجعلت وفادتنا لغيرنا . فأنزل الله عز وجل : « وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ »[1] . فرضِيَ موسى . قال نَوْف : فٱحمدوا الله الذي جعل وفادة بني إسرائيل لكم . وذكر أبو نعيم أيضا هذه القصة من حديث الأوزاعيّ قال : حدّثنا يحيى بن أبي عمرو الشَّيْبانيّ قال حدّثني نَوْف البِكَالِيّ إذا افتتح موعظة قال : ألا تحمدون ربّكم الذي حفظ غيبتكم وأخذ لكم بعد سهمكم وجعل وفادة القوم لكم . وذلك أن موسى عليه السلام

(١) آية ١٥٩ من هذه السورة .

وفد بنى إسرائيـل فقال الله لهم : إنى قـد جعلت لكم الأرض مسـجدا حيثما صلّيتم فيهـا تقبّلتُ صلاتكم إلا فى ثلاثة مواطن من صلّى فيهن لم أقبل صلاته المقْبُرة والحمام والمرحاض . قالوا : لا، إلا فى الكنيسة . قال : وجعلت لكم التراب طهورا إذا لم تجدوا المـاء . قالوا : لا ، إلا بالمـاء . قال : وجعلت لكم حيثما صلى الرجل فكان وحده تقبّلت صـلاته . قالوا : لا، إلا فى جماعة .

الثانيـــة — قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾ هذه الألفاظ كما ذكرنا أخرجت اليهود والنصارى من الاشتراك الذى يظهر فى قوله : « فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ » وحصلت هـذه العِدة لأمة محمد صـلى الله عليه وسـلم ؛ قاله ابن عباس وابن جُبير وغيرهما . و ﴿ يَتَّبِعُونَ ﴾ يعنى فى شَرْعه ودِينه وما جاء به . والرسول والنبيّ آسمان لمعنيين؛ فإن الرسول أخصّ من النبيّ . وقدّم الرسول اهتماما لمعنى الرسالة ، وإلا فمعنى النبوّة هو المتقدّم ؛ ولذلك ردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على البَرَاء حين قال : و برسولك الذى أرسلت . فقال له : "قل بنبيِّك الذى أرسلت" خَرّجه فى الصحيح . وأيضـا فإن فى قوله « و برسـولك الذى أرسلت » تكرير الرسالة ؛ وهو معنًى واحد فيكون كالحَشْو الذى لا فائدة فيه . بخلاف قوله « و نَبيّك الذى أرسلت » فإنهما لا تكرار فيهما . وعلى هـذا فكل رسول نبيّ، وليس كل نبيّ رسـولا ؛ لأن الرسـول والنبيّ قـد آشتركا فى أمر عام وهى النبأ ، وآفترقا فى أمر وهى الرسالة . فإذا قلت : محمد رسول من عند الله تضمّن ذلك أنه نبيّ و رسول . وكذلك غيره من الأنبياء صلوات الله عليهم .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ الْأُمِّيَّ ﴾ هو منسوب إلى الأمّة الأُمّية، التى هى على أصل ولادتها ، لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها ؛ قاله ابن العربى . وقال ابن عبـاس رضى الله عنـه : كان نبيّكم صلى الله عليه وسلم أميا لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسُب ؛ قال الله تعالى : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ »[1] . ورُوِى فى الصحيح عن آبن عمـر عن النبيّ

(١) آية ٤٨ سورة العنكبوت .

صلى الله عليه وسلم قال : " إنّا أُمّةٌ أُمّيّة لا نكتب ولا نحسُب " . الحديث . وقيل : نسب النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى مَكّة أمّ القرى ؛ ذكره النحاس .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ روى البخاريّ قال : حدّثنا محمد بن سِنان قال حدّثنا فُلَيح قال حدّثنا هلال عن عطاء بن يَسار لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص قلت : أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة . فقال : أجَلْ ، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا » (1) وحِرْزًا للأمّيين ، أنت عبدي ورسولي ، سمّيتك المتوكل ، ليس بفَظّ ولا غليظ ولا صَخّاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئةَ ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به المِلّة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ، ويفتح بها أعْيُنًا عُمْيًا ، وآذانا صُمًّا ، وقلوبا غُلْفًا . قال عطاء : ثم لَقِيت كعبًا فسألته عن ذلك فما ٱختلفا حرفا ؛ إلا أن كعبا قال بِلُغَتِه : قلوبا غُلُوفيا وآذانا صموميا وأعينا عموميا . قال ابن عطية : وأظن هذا وَهْمًا أو عُجْمة . وقد روى عن كعب أنه قال : قلوبا غلوفا وآذانا صموما وأعينا عموما . قال الطبري : هي لغة حِمْيَرِيّة . وزاد كعب في صفة النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : مولده بمكة ، وهجرته بطابة ، وملكه بالشأم ، وأمّته الحامدون ، يحمدون الله على كل حال في كل منزل ، يُوضّئون أطرافهم ويأتزرون إلى أنصاف ساقهم ، رعاة الشمس ، يُصلّون الصلوات حيثما أدركتهم ولو على ظهر الكناسة ، صَفُّهم في القتال مثلُ صفّهم في الصلاة . ثم قرأ « إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ » (2) .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ قال عطاء : « يأمرهم بالمعروف » بخلع الأنداد ، ومكارم الأخلاق ، وصلة الأرحام . « وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ » عبادة الأصنام ، وقطع الأرحام .

---

(1) آية ٤٥ سورة الأحزاب .　(2) آية ٤ سورة الصف .

السادســـة — قوله تعـالى : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ﴾ مذهب مالك أن الطيبات هى المحلّلات ؛ فكأنه وصفها بالطِّيب ؛ إذ هى لفظة تتضمّن مَدْحًا وتشريفا . وبحسب هذا تقول فى الخبائث : إنها المحرّمات ؛ ولذلك قال ابن عباس : الخبائث هى لحم الخنزير والرِّبَا وغيره . وعلى هـذا حلّل مالك المتقذّرات كالحيّات والعقارب والخنافس ونحوها . ومذهب الشافعىّ رحمـه الله أن الطيبات هى من جهـة الطعم ؛ إلا أن اللفظة عنده ليست على عمومها ؛ لأن عمومَها بهذا الوجه من الطعم يقتضى تحليل الخمر والخنزير، بل يراها مختصّة فيما حلّله الشرع . ويرى الخبـائث لفظا عاما فى المحرّمات بالشرع وفى المتقذرات ؛ فيحرّم العقارب والخنافس والوَزَغ وما جرى هـذا المجرى . والنـاس على هـذين القولين ، وقـد تقدّم فى « البقرة »(1) هذا المعنى .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴾ الإِصْر : الثِّقل؛ قاله مجاهد وقَتادة وابن جُبير . والإِصْر أيضا : العهد ؛ قاله ابن عباس والضحّاك والحسن . وقد جمعت هذه الآية المعنيين، فإن بنى إسرائيل قد كان أُخِذ عليهم عهد أن يقوموا بأعمال ثِقال ؛ فوُضع عنهم بمحمد صـلى الله عليه وسـلم ذلك العهـدُ وثقلُ تلك الأعمال ؛ كغسل البول، وتحليل الغنائم، ومجالسة الحائض ومؤاكلتها ومضاجعتها ؛ فإنهم كانوا إذا أصاب ثوبَ أحدِهم بولٌ قَرَضه . وروى : جِلْدَ أحدهم . وإذا جمعوا الغنائم نزلت نار من السماء فأكلتها، وإذا حاضت المرأة لم يقربوها، إلى غير ذلك مما ثبت فى الصحيح وغيره .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ فالأغلال عبارة مستعارة لتلك الأثقال . ومن الأثقال تركُ الاشتغال يومَ السبت ؛ فإنه يُروى أن موسى عليـه السلام رأى يوم السبت رجلا يحمـل قصبا فضرب عنقه . هـذا قول جمهور المفسرين . ولم يكن فيهم الدِّيَة، وإنمـا كان القصاص . وأُمِروا بقتل أنفسهم علامةً لتوبتهم ، إلى غير ذلك . فشُبّه ذلك بالأغلال؛ كما قال الشاعر :

---

(1) راجع جـ ٢ ص ٢٠٧ طبعة ثانية .

فليس كعهد الدّار يا أمّ مالك * ولكن أحاطت بالرقاب السلاسلُ
وعاد الفتى كالكَهْل ليس بقائل * سوى العدل شيئا فآستراح العواذل

فشبّه حدود الإسلام وموانعه عن التخطّي إلى المحظورات بالسلاسل المحيطات بالرقاب . ومن هذا المعنى قول أبى أحمد بن جحش لأبى سفيان :

اِذهبْ بها اِذهبْ بها * طُوِّقتها طوقَ الحمامهْ

أى لزمك عارُها . يقال : طُوِّق فلان كذا إذا لزمه .

التاسعة — إن قيل : كيف عطف الأغلال وهو جمع على الإصْر وهو مفرد؛ فالجواب أن الإصر مصدر يقع على الكثرة . وقرأ ابن عامر « آصارهم » بالجمع؛ مثل أعمالهم . فجمعه لآختلاف ضروب المآثم . والباقون بالتوحيد؛ لأنه مصدر يقع على القليل والكثير من جنسه مع إفراد لفظه . وقد أجمعوا على التوحيد فى قوله : « وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا »[(1)] . وهكذا كلما يَرِد عليك من هذا المعنى؛ مثل « وعلى سمعِهِم »[(2)] . « لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ »[(3)] . و « مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ »[(4)] . كلّه بمعنى الجمع .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ ﴾ أى وقّروه ونصروه . قال الأخفش : وقرأ الجَحْدرِىّ وعيسى « وعَزَرُوه » بالتخفيف . وكذا « وعَزَرْتموهم »[(5)] . يقال : عزره يعزره ويعزره . و « النور » القرآن[(6)] و « الفلاح » الظَّفَر بالمطلوب . وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُۥ مُلْكُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الْأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١٥٨)

(١) آية ٢٨٦ سورة البقرة . (٢) آية ٧ سورة البقرة . (٣) آية ٤٣ سورة إبراهيم .
(٤) آية ٤٥ سورة الشورى . (٥) آية ١٢ سورة المائدة جـ ٦ ص ١١٤ .
(٦) راجع جـ ١ ص ١٨١ طبعة ثانية أو ثالثة .

ذكر أن موسى بشّر به، وأن عيسى بشّر به . ثم أمره أن يقول بنفسه إنى رسول الله إليكم جميعا . و « كلماته » كلماتُ الله تعالى كُتُبُهُ من التوراة والإنجيل والقرآن .

قوله تعالى : وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

أى يدعون الناس إلى الهداية . و ﴿ يَعْدِلُونَ ﴾ معناه فى الحكم . وفى التفسير إن هؤلاء قوم من وراء الصين، من وراء نهر الرمل، يعبدون الله بالحق والعدل، آمنوا بمحمد وتركوا السبت، يستقبلون قبلتنا، لا يَصل إلينا منهم أحد، ولا منّا إليهم أحد . فرُوى أنه لما وقع الاختلاف بعد موسى كانت منهم أمة يهدون بالحق، ولم يقدِروا أن يكونوا بين ظَهْرَانى بنى إسرائيل حتى أخرجهم الله إلى ناحية من أرضه فى عُزلة من الخلق، فصار لهم سَرَب فى الأرض، فمَشَوْا فيه سنةً ونصفَ سنة حتى خرجوا وراء الصين؛ فهم على الحق إلى الآن . وبين الناس وبينهم بحر لا يوصَل إليهم بسببه . ذهب جبريل بالنبيّ صلى الله عليه وسلم إليهم ليلة المعراج فآمنوا به وعلّمهم سُوَرًا من القرآن وقال لهم : هل لكم مكيال وميزان ؟ قالوا : لا، قال : فمن أين معاشكم ؟ قالوا : نخرج إلى البريّة فنزرع، فإذا حصدنا وضعناه هناك، فإذا احتاج أحدنا إليه يأخذ حاجته . قال : فأين نساؤكم ؟ قالوا : فى ناحية منّا، فإذا احتاج أحدنا لزوجته صار إليها فى وقت الحاجة . قال : فيكذِب أحدكم فى حديثه ؟ قالوا : لو فعل ذلك أحدُنا أخذته لَظًى، إن النار تنزل فتحرقه . قال : فما بال بيوتكم مستوية؟ قالوا : لئلا يعلُوَ بعضنا على بعض . قال : فما بال قبوركم على أبوابكم ؟ قالوا : لئلا نَغْفُل عن ذكر الموت . ثم لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الدنيا ليلة الإسراء أنزل عليه : « وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ »(١) يعنى أمة محمد عليه السلام . يُعْلمه أن الذى أعطيتُ موسى فى قومه أعطيتك فى أمّتك . وقيل : هم الذين آمنوا بنبيّنا محمد عليه السلام من أهل الكتاب . وقيل : هم قوم من بنى إسرائيل تمسّكوا بشرع موسى قبل نسخه، ولم يبدّلوا ولم يقتلوا الأنبياء .

---

(١) آية ١٨١ من هذه السورة .

قوله تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ (١٦٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ عدّد نعمه على بنى إسرائيل، وجعلهم أسباطًا ليكون أمرُ كلّ سبط معروفا من جهة رئيسهم؛ فيخفّ الأمر على موسى. وفى التنزيل « وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا » وقد تقدّم[1]. وقوله : « ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ » والسِّبط مذكّر لأن بعده « أممًا » فذهب التأنيث إلى الأمم. ولو قال : اثنى عشر لتذكير السبط جاز؛ عن الفرّاء. وقيل : أراد بالأسباط القبائل والفِرَق؛ فلذلك أنّث العدد. قال الشاعر :

وإن قريشا كلها عشر أبطن * وأنت برىء من قبائلها العَشْر

فذهب بالبَطْن إلى القَبيلة والفَصيلة؛ فلذلك أنّثها. والبَطْن مذكّر؛ كما أن الأسباط جمع مذكر. الزجاج : المعنى قطعناهم اثنتى عشرة فرقة. ﴿ أَسْبَاطًا ﴾ بدل من اثنتى عشرة ﴿ أُمَمًا ﴾ نعتٌ للأسباط. وروى المفضّل عن عاصم « وقطعناهم » مخففا. ﴿ أَسْبَاطًا ﴾ الأسباط فى ولد إسحاق بمنزلة القبائل فى ولد إسماعيل عليهما السلام. والأسباط مأخوذ من السَّبَط وهو شجر تعلفه الإبل. وقد مضى فى « البقرة » مستوفًى[2]. وروى مَعْمَر عن همّام بن منبّه

---

(١) آية ١٢ سورة المائدة ج ٦ ص ١١٢ . (٢) راجع ج ٢ ص ١٤٠ طبعة ثانية .

عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم فى قوله عز وجل : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ قالوا : حَبّة فى شعرة . وقيل لهم : « ٱدْخُلُوا البابَ سُجَّدًا » فدخلوا متورّكين على أستاههم . ﴿ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ مرفوع؛ لأنه فعل مستقبل وموضعه نصب . و « ما » بمعنى المصدر، أى بظلمهم . وقد مضى فى « البقرة » ما فى هذه الآية من المعانى والأحكام (١) . والحمد لله .

قوله تعـالى : وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱسْأَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ أى عن أهـل القرية؛ فعبّر عنهم بها لمـا كانت مستقرًّا لهم وسبب اجتماعهم . نظيره « وَٱسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا » (٢) . وقوله عليه السلام : "اهتز العرش لموت سعد بن معاذ" يعنى أهل العرش من الملائكة ، فرحا وٱستبشارا بقدومه، رضى الله عنه . أى وٱسأل اليهود الذين هم جيرانك عن أخبار أسلافهم وما مسخ الله منهم قِردة وخنازير . وهذا سؤال تقرير وتوبيخ . وكان ذلك علامة لصدق النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ إذ أطلعه الله على تلك الأمور من غير تعلّم . وكانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحبّاؤه، لإنّا من سِبط خليله إبراهيم ، ومن سِبْط إسرائيل وهو بكر الله (٣) ، ومن سبط موسى كليم الله، ومن سبط ولده عُزير، فنحن من أولادهم . فقال الله عز وجل لنبيّه : سَلْهم يا محمد عن القرية، أمَا عذّبتهم بذنوبهم ؛ وذلك بتغيير فرع من فروع الشريعة .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٤٠٩ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٨٢ سورة يوسف .

(٣) زعمت اليهود أن الله عز وجل أوحى الى إسرائيل أن ولدك بكرى من الولد . راجع جـ ٦ ص ١٢٠

وٱختُلف فى تعيين هذه القرية ؛ فقال ابن عباس وعِكرمة والسُّدِّى : هى أَيْلة . وعن ٱبن عباس أيضا أنها مَدْين بين أيلة والطور . الزُّهْرِىّ : طَبَرِيّة . قَتادة و زيد بن أسلم : هى ساحل من سواحل الشأم ، بين مَدْين وعَيْنون ، يقال لها : مقناة . وكان اليهود يكتمون هذه القصة لمـا فيها من السُّبَّة عليهـم . ﴿ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾ أى كانت بقرب البحر ؛ تقول : كنت بحضرة الدار أى بقربها . ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ أى يصيدون الحيتان ، وقد نهوا عنه ؛ يقال : سَبَت اليهودُ ؛ تركوا العمل فى سبتهم . وسُبِت الرجل للفعول سُبَاتا أخذه ذلك ؛ مثل الخـرس . وأسبت سكن فلم يتحـرك . والقوم صاروا فى السّبت . واليهود دخلوا فى السبت ، وهو اليوم المعروف ، وهو من الراحة والقَطْع . ويجمع أَسْبُت وسُبُوت وأسبات . وفى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " ومن ٱحتجم يوم السبت فأصابه بَرَص فلا يلومنّ إلا نفسه " . قال علماؤنا : وذلك لأن الدّم يجمد يوم السبت ، فإذا مددته لتستخرجه لم يجر وعاد بَرَصًا . وقراءة الجماعة « يَعْدُون » . وقرأ أبو نهيك « يُعِدّون » بضم الياء وكسر العين وشد الدال . الأولى من الاعتداء والثانية من الإعداد ؛ أى يهيئون الآلة لأخذها . وقرأ ابن السَّمَيْقع « فى الأسـبات » على جمـع السبت . ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُـمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ ﴾ وقرئ أسباتهم . ﴿ شُرَّعًا ﴾ أى شوارع ظاهرة على المـاء كثيرة . وقال اللّيث : حيتان شُرَّع رافعة رءوسها . وقيـل : معناه أن حيتان البحر كانت تَرِد يوم السبت عُنُقًا[1] من البحر فتزاحم أَيْلة . ألهمها الله تعالى أنها لا تُصاد يوم السبت ؛ لنهْيِه تعالى اليهودَ عن صيدها . وقيل : إنها كانت تشرع على أبوابهـم ؛ كالكِباش البيض رافعةً رءوسها ، حكاه بعض المتأخريـن ؛ فتعدّوا فأخذوها فى السبت ؛ قاله الحسن . وقيـل : يوم الأحد ، وهو الأصح على ما يأتى بيانه . ﴿ وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ﴾ أى لا يفعلون السبت ؛ يقال : سبت يسبِت إذا عظّم السبت . وقرأ الحسن « يُسْبِتون » بضم اليـاء ، أى يدخلون فى السـبت ؛ كما يقال : أجمعنا وأظهرنا وأشهرنا ، أى دخلنا فى الجمعة والظهر والشهر . ﴿ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾ أى حيتانهم . ﴿ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ ﴾ أى نشدّد

(١) أى طوائف ؛ يقال : جاء القوم عنقا عنقا ، أى قطيعا قطيعا .

عليهم فى العبادة ونختبرهم . والكاف فى موضع نصب . ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أى بفسقهم .
وسئل الحسين بن الفضل : هل تجد فى كتاب الله الحلال لا يأتيك إلا قوتا ، والحرام يأتيك جَزْفًا جَزْفًا ؟ قال : نعم ، فى قصة داود وأيلة « إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ » . ورُوى فى قصص هذه الآية أنها كانت فى زمن داود عليه السلام ، وأن إبليس أوْحَى إليهم فقال : إنما نُهيتم عن أخذها يوم السبت ، فآتخذوا الحياض ؛ فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة فتبقى فيها ، فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء ، فيأخذونها يوم الأحد . وروى أشهب عن مالك قال . زعم ابن رُومان أنهم كانوا يأخذ الرجل خيطا ويضع فيه وَهَقة[1] ، وألقاها فى ذنب الحوت ، وفى الطرف الآخر من الخيط وتِد وتركه كذلك إلى الأحد ، ثم تطرّق الناس حين رأوا من صنع هذا لا يُبْتَلَى حتى كثُر صيد الحوت ، ومُشى به فى الاسواق ، وأعلن الفسقة بصيده ؛ فقامت فرقة من بنى إسرائيل ونهت ، وجاهرت بالنهى واعتزلت . وقيل : إن الناهين قالوا : لا نسا كنكم ؛ فقسموا القرية بجدار . فأصبح الناهون ذات يوم فى مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد ، فقالوا : إن للناس لشأنا ؛ فعلَوْا على الجدار فنظروا فإذا هم قِردة ؛ ففتحوا الباب ودخلوا عليهم ، فعرفت القردة أنسابها من الإنس ، ولم تعرف الإنس أنسابهم من القِردة ؛ فجعلت القردة تأتى نسيبها من الإنس فتَشُمّ ثيابه وتبكى ؛ فيقول : ألم ننهكم ! فتقول برأسها نعم . قال قتادة : صار الشبان قردةً والشيوخُ خنازير ؛ فما نجا إلا الذين نَهَوْا وهلك سائرهم . فعلى هذا القول إن بنى إسرائيل لم تفترق إلا فرقتين . ويكون المعنى فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أى قال الفاعلون للواعظين حين وعظوهم : إذا علمتم أن الله مهلكنا فلم تعظوننا ؛ فمسخهم الله قردة . ﴿ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أى قال الواعظون : موعظتنا إياكم معذرة ؛ أى إنما يجب علينا أن نعظكم لعلكم تتقون . أسند

(١) الوهق (بالتحريك وتسكن الهاء) : الحبل فى طرفيه أنشوطة يطرح فى عنق الدابة والإنسان حتى تؤخذ .
والأنشوطة : عقدة يسهل انحلالها ، اذا أخذ بأحد طرفيها انفتحت كعقدة التكة .
وقد وردت هذه الكلمة محرفة فى الجزء الأول ص ٤٤٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

هذا القول الطّبرىّ عن ابن الكلبىّ . وقال جمهور المفسرين : إن بنى إسرائيل افترقت ثلاث فرق ، وهو الظاهر من الضمائر فى الآية . فرقة عَصَتْ وصادت ، وكانوا نحوًا من سبعين ألفا . وفرقة نَهَت واعتزلت ، وكانوا اثنَىْ عشر ألفــا . وفرقة اعتزلت ولم تَنْهَ ولم تَعْص ، وأن هذه الطائفة قالت للناهية : لِمَ تعظون قوما — تريد العاصية — اللهُ مهلكُهم أو معذّبهم على غلبة الظن ، وما عُهد من فعل الله تعالى حينئذ بالأمم العاصية . فقالت الناهية : موعظتنا معذرة إلى الله لعلّهم يتقون . ولو كانوا فرقتين لقالت الناهية للعاصية : ولعلـكم تتقون، بالكاف . ثم اختُلف بعد هذا ؛ فقالت فرقة : إن الطائفة التى لم تَنْه ولم تَعص هلكت مع العاصية عقوبةً على ترك النهى ؛ قاله ابن عباس . وقال أيضــا : ما أدرى ما فُعل بهم ؛ وهو الظــاهر من الآية . وقال عِكْرِمة : قلت لابن عباس لمّــا قال ما أدرى ما فُعــل بهم : ألا ترى أنهم قد كَرِهوا ما هم عليــه وخالفوهم فقــالوا : لِمَ تعظون قوما الله مهلكهم ؛ فلم أزل به حتى عرّفته أنهم قد نَجَوْا ؛ فكسَانى حُلّة . وهذا مذهب الحسن . وممــا يدل على أنه إنما هلكت الفرقة العادية لا غيرُ قولُه «وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا»[1] . وقولُه : «وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِى السَّبْتِ»[2] الآية . وقرأ عيسى وطلحة «معذِرة» بالنصب . ونصبُه عند الكسائىّ من وجهين : أحدهما على المصدر . والثانى على تقدير فقلنا ذلك معذرة . وهى قراءة حَفْص عن عاصم . والباقون بالرفع، وهو الاختيار ؛ لأنهم لم يريدوا أن يعتذروا اعتذارًا مستأنَفًا من أمر لِيموا عليه ، ولكنهم قيل لهم : لِمَ تعظون ؟ فقالوا : موعظتنا معذرة . ولو قال رجل لرجل : معذرةً إلى الله و إليك من كذا ، يريد اعتذارا ؛ لنصب . هذا قول سيبويه . ودلّت الآية على القول بسدّ الذّرائع . وقد مضى فى « البقرة »[3] . ومضى فيها الكلام فى الممسوخ هل ينْسُل أم لا ، مبينا . والحمد لله . ومضى فى «آل عمران» و «المــائدة»[4] الأمر بالمعروف والنهىُ عن المنكر. ومضى فى «النساء»[5] اعتزال أهل الفساد ومجانبتهم ، وأن من جالسهم كان مثلهم ؛ فلا معنى للإعادة .

(١) آية ١٦٥ من هذه السورة . (٢) آية ٦٥ سورة البقرة .
(٣) راجع جـ ١ ص ٤٤٠ طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) فى قوله تعالى : « إن الذين يكفرون بآيات الله ... » آية ٢١ سورة آل عمران . وفى قوله تعالى : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » آية ٧٩ سورة المــائدة .
(٥) فى قوله تعالى : « وقد نزل عليكم فى الكتاب ... » آية ١٤٠

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾

والنسيان يطلق على الساهى . والعامد: التارك؛ لقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ أى تركوه عن قصد؛ ومنه « نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ »[1] . ومعنى ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ أى شديد . وفيه إحدى عشرة قراءة : الأولى — قراءة أبى عمرو وحمزة والكسائى « بَئِيس » على وزن فَعيل . الثانية — قراءة أهـل مكة « بِئِيس » بكسر الباء والوزن واحد . الثالثة — قراءة أهل المدينة « بِيْسٍ » الباء مكسورة بعـدها ياء ساكنة بعدها سين مكسورة منوّنة ، وفيها قولان . قال الكسائى : الأصل فيه « بِيِيس » خفيفة الهمزة، فالتقت ياءان فحذفت إحداهما وكُسر أوّله ؛ كما يقال : رَغيف وشَهيد . وقيل : أراد « بَئِس » على وزن فَعِل ؛ فكسر أوله وخفف الهمزة وحذف الكسرة ؛ كما يقـال : رَحِم ورِحْم . الرابعة — قراءة الحسن ، البـاء مكسورة بعدها همزة ساكنة بعدها سين مفتوحة . الخامسة — قرأ أبو عبد الرحمن المقرئ « بَئِسٍ » الباء مفتوحة والهمزة مكسورة والسين مكسورة منوّنة . السادسة — قال يعقوب القارئ : وجاء عن بعض القراء « بعذاب بَئِسَ » البـاء مفتوحة والهمزة مكسورة والسين مفتوحة . السابعة — قراءة الأعمش « بَيْئِسٍ » على وزن فَيْعل . وروى عنـه « بَيْأَسٍ » على وزن فيعل . وروى عنه « بَئِّسٍ » بباء مفتوحة وهمزة مشددة مكسورة، والسين فى كله مكسورة منوّنة، أعنى قراءة الأعمش . العاشرة — قراءة نصر بن عاصم « بعذاب بَيَّسٍ » الباء مفتوحة والياء مشدّدة بغير همز . قال يعقوب القارئ : وجاء عن بعض القراء « بِئْيَسٍ » الباء مكسورة بعدها همزة ساكنة بعـدها ياء مفتوحة . فهذه إحدى عشرة قراءة ذكرها النحاس . قال علىّ بن سليمان : العرب تقول جاء ببنات بِيسٍ؛ أى بشىء ردىء . فمعنى « بعذاب بيس » بعذاب ردئ . وأما قراءة الحسن فزعم أبو حاتم أنه لا وجه لها، قال : لأنه لا يقال مررت برجل بِئْس، حتى يقال : بئس الرجل، أو بئس رجلا . قال النحاس : وهـذا مردود من

(١) آية ٦٧ سورة التوبة .

كلام أبي حاتم ، حكى النحويون : إن فعلت كذا وكذا فبِهاَ ونِعْمَتْ . يريدون فبها ونعمت الخصلة . والتقدير على قراءة الحسن : بعذاب بئس العذاب .

قوله تعالى : فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ ﴾ أي فلما تجاوزوا في معصية الله . ﴿ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ يقال : خسأته خسأ ؛ أي باعدته وطردته . وقد تقدّم في « البقرة »(١) . ودلّ على أن المعاصي سبب النقمة . وهذا لا خفاء به . فقيل : قال لهم ذلك بكلام يُسمع ، فكانوا كذلك . وقيل : المعنى كوّناهم قِردة .

قوله تعالى : وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾

أي أعلم أسلافهم أنهم إن غيّروا ولم يؤمنوا بالنبيّ الأمّيّ بعث الله عليهم من يعذّبهم . وقال أبو عليّ : « آذن » بالمدّ ، أعلم . و « أذّن » بالتشديد ، نادى . وقال قوم : آذن وأذّن بمعنى أعلم ؛ كما يقال أيقن وتيقّن . قال زُهير :

فقلتُ تَعَلَّمْ إن للصيد غِرّةً * فإلّا تُضَيِّعها فإنك قاتلُهْ

وقال آخر :

تعلّم إن شر الناس حيّ * يُنَادَى في شعارهمُ يَسار

أي اعلم . ومعنى ﴿ يَسُومُهُمْ ﴾ يذيقهم ؛ وقد تقدّم في « البقرة »(٢) . قيل : المراد بُخْتَنَصَّر . وقيل : العرب . وقيل : أمّة محمد صلى الله عليه وسلم . وهو أظهر ؛ فإنهم الباقون إلى يوم القيامة . والله أعلم . قال ابن عباس : « سوء العذاب » هنا أخذ الجِزْية . فإن قيل : فقد

(١) راجع جـ ١ ص ٤٤٣ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٨٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

مسخوا ، فكيف تؤخذ منهم الجزية ؟ فالجواب أنها تؤخذ من أبنائهم وأولادهم ، وهم أذل قوم ، وهم اليهود . وعن سعيد بن جُبير « سوء العذاب » قال : الخَراج ، ولم يجْب نبيّ قطّ الخَراج ، إلا موسى عليه السلام هو أوّل من وضع الخراج ، فجباه ثلاث عشرة سنة ، ثم أمسك ، ونبيّنا عليه السلام .

قوله تعالى : وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨)

قوله تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ﴾ أى فرقناهم فى البلاد . أراد به تشتيت أمرهم ، فلم تُجمع لهم كلمة . ﴿ مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ ﴾ رفع على الابتداء . والمراد من آمن بمحمد عليه السلام ، ومن لم يبدّل منهم ومات قبل نسخ شرع موسى . وهم الذين وراء الصين ؛ كما سبق . ﴿ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ﴾ منصوب على الظرف . قال النحاس : ولا نعلم أحدا رفعه . والمراد الكفار منهم . ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ ﴾ أى اختبرناهم . ﴿ بِالْحَسَنَاتِ ﴾ أى بالخصب والعافية . ﴿ وَالسَّيِّئَاتِ ﴾ أى الجدب والشدائد . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ليرجعوا عن كفرهم .

قوله تعالى : فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩)

قوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ يعنى أولاد الذين فرقهم فى الأرض . قال أبو حاتم : «الخَلْف» بسكون اللام : الأولاد ، الواحد والجمع فيه سواء . و «الخَلَف» بفتح اللام البَدَل ، وَلَدًا كان أو غريبًا . وقال ابن الأعرابيّ : «الخلف» بالفتح الصالح ، وبالجزم الطالح . قال لَبِيد :

ذهبَ الذين يُعاش فى أكنافهم * وبقيت فى خلف كجلد الأجْرَبِ

ومنه قيل للردئ من الكلام : خَلْف . ومنه المثل السائر « سَكَت أَلْفًا ونطق خَلْفًا » . فخَلْف فى الذم بالإسكان ، وخَلَف بالفتح فى المدح . هـذا هو المستعمل المشهور . قال صلى الله عليه وسلم : "يَحْمِل هذا العلمَ مِن كل خَلَف عدوله" . وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر . قال حسان بن ثابت :

لنا القدم الأولى إليك وخَلْفنا ＊ لأوّلنا فى طاعة الله تابع

وقال آخر :

إنا وجدنا خَلَفًا بئس الخَلَفْ ＊ أغلق عنا بابه ثم حَلَف (١)

لا يُدخل البوابُ إلا مَن عرفْ ＊ عبدا إذا ما ناء بالحمل وقف

ويروى : خَضَف ؛ أى رَدَم (٢) . والمقصود من الآية الذم . ﴿ وَرِثُوا الْكِتَابَ ﴾ قال المفسرون : هم اليهود ، ورثوا كتاب الله فقرءوه وعلموه ، وخالفوا حكمه وأتَوْا محارمه مع دراستهم له . فكان هذا توبيخا لهم وتقريعا . ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى ﴾ ثم أخبر عنهم أنهم يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا لشدّة حرصهم ونَهَمهم . ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ وهم لا يتوبون . ودلّ على أنهم لا يتوبون .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ والعَرَض : متاع الدنيا ؛ بفتح الراء . وبإسكانها ما كان من المال سوى الدراهم والدنانير . والإشارة فى هـذه الآية إلى الرُّشا والمكاسب الخبيثة . ثم ذمّهم باغترارهم فى قولهم « سيغفر لنا » وأنهم بحال إذا أمكنتهم ثانية ارتكبوها ، فقطعوا باغترارهم بالمغفرة وهم مصرون ، وإنما يقول سيغفر لنا من أقلع وندم .

قلت : وهذا الوصف الذى ذمّ الله تعالى به هؤلاء موجود فينا . أسند الدارمىّ أبو محمد : حدّثنا محمد بن المبارك حدّثنا صدقة بن خالد عن ابن جابر عن شيخ يُكْنَى أبا عمرو عن معاذ

(١) كذا وردت هذه الأبيات فى الأصول . والذى فى اللسان « مادة خضف » :

انا وجدنا خلفا بئس الخلف ＊ عبدا اذا ما ناء بالحمل خضف

أغلق عنا بابه ثم حلف ＊ لا يدخل البوّاب إلا من عرف

(٢) الردم : الضراط .

ابن جبل رضى الله عنه قال : سَيَبْلَى القرآنُ فى صدور أقوام كما يَبْلَى الثّوب فيتهافَت ، يقرءونه لا يجدون له شهوة ولا لذة ، يَلْبَسون جلود الضأن على قلوب الذئاب، أعمالُهم طمع لا يخالطه خوف، إن قصّروا قالوا سنبلغ، وإن أساءوا قالوا سيغفر لنا، إنا لا نشرك بالله شيئا . وقيل: إن الضمير فى «يأتهم» ليهود المدينة ؛ أى وإن يأت يهودَ يَثْرِبَ الذين كانوا على عهـد النبىّ صلى الله عليه وسلم عَرَض مثْلُه يأخذوه كما أخذه أسلافهم .

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ يريد التوراة . وهذا تشديد فى لزوم قول الحق فى الشرع والأحكام، وألّا يميل الحكام بالرُّشَا إلى الباطل .

قلت : وهذا الذى لزم هؤلاء وأُخذ عليهم به الميثاق فى قول الحق، لازم لنا على لسان نبيّنا صلى الله عليه وسلم وكتابِ ربّنا، على ما تقدّم بيانه فى «النساء»(١) . ولا خلاف فيه فى جميع الشرائع . والحمـــد لله .

والثانيـــة — قوله تعالى : ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ أى قرءوه، وهم قريبو عَهْد به . وقرأ أبو عبد الرحمن « وادّارسوا ما فيه » فأدغم التاء فى الدال . قال ابن زيد : كان يأتيهم المُحِقّ برِشوة فيُخرجون له كتاب الله فيحكمون له به، فإذا جاء المبطل أخذوا منه الرشوة وأخرجوا له كتابهم الذى كتبوه بأيديهم وحكموا له . وقال ابن عباس : «ألّا يقولوا على الله إلا الحقّ» وقد قالوا الباطل فى غُفران ذنوبهم الذى يوجبونه ويقطعون به . وقال ابن زيد : يعنى فى الأحكام التى يحكمون بها ؛ كما ذكرنا . وقال بعض العلماء : إن معنى «ودرسوا ما فيه» أى مَحَوْه بترك العمل به والفَهْم له ؛ من قولك : درستِ الريح الآثار، إذا مَحَتْها . وخط دارس ورَبْع دارس، إذا آمحى وعفا أثره . وهذا المعنى مواطئ — أى موافق — لقوله تعـالى : «نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ

(١) راجع آية ١٥٤ وما بعدها ج ٦ ص ٧

الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم (١) » الآية . وقوله : « فنبذوه وراء ظهورهم (٢) » حسب ما تقدّم بيانه في «البقرة» (٣) .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ ﴾ أي بالتوراة ، أي بالعمل بها؛ يقال : مسك به وتمسك به أي استمسك به . وقرأ أبو العالية وعاصم في رواية أبي بكر « يمسكون » بالتخفيف من أمسك يمسك . والقراءة الأولى أولى ؛ لأن فيها معنى التكرير والتكثير للتمسك بكتاب الله تعالى وبدينه فبذلك يُمدحون . فالتمسك بكتاب الله والدّين يحتاج إلى الملازمة والتكرير لفعل ذلك . وقال كعب بن زهير :

فما تمسّكُ بالعهد الذي زعمت * إلا كما تُمسك الماءَ الغرابيلُ

فجاء به على طبعه يذمّ بكثرة نقض العهد .

قوله تعالى : وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ ﴾ «نتقنا» معناه رفعنا، وقد تقدّم بيانه في « البقرة » (٤) . ﴿ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ أي كأنه لارتفاعه سحابة تُظلّ . ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾ أي بجدّ . وقد مضى في « البقرة » (٤) إلى آخر الآية .

قوله تعالى : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ

(١) آية ١٠١ سورة البقرة . (٢) آية ١٨٧ سورة آل عمران .

(٣) راجع جـ ٢ ص ٤١ طبعة ثانية . (٤) راجع جـ ١ ص ٤٣٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

فيه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ ﴾ أى وآذكر لهم مع ما سبق من تذكّر المواثيق فى كتابهم ما أخذتُ من المواثيق من العباد يوم الذّرّ . وهـذه آية مشكلة، وقد تكلم العلماء فى تأويلها وأحكامها، فنذكر ما ذكروه من ذلك حسب ما وقفنا عليـه . فقال قوم : معنى الآية أن الله تعالى أخرج من ظهور بنى آدم بعضهم من بعض . قالوا : ومعنى « أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ » دلّهم بخلقه على توحيده؛ لأن كل بالغ يعلم ضرورةً أن له ربًّا واحدا . ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ أى قال. فقـام ذلك مقام الإشهاد عليهم، والإقرار منهـم ؛ كما قال تعالى فى السموات والأرض : «قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ»(1) . ذهب إلى هذا القفّال وأطنب. وقيل : إنه سبحانه أخرج الأرواح قبـل خلق الأجساد، وأنه جعل فيها من المَعْرفة ما علمت به ما خاطبها .

قلت : وفى الحديث عن النبىّ صلى الله عليه وسلم غيرُ هذين القولين ، وأنه تعالى أخرج الأشباح فيهـا الأرواح من ظهر آدم عليه السلام . روى مالك فى موطّئه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سئل عن هذه الآية «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُـمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ » فقال عمر رضى الله عنه : سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يُسأل عنها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله تعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذُرّية فقال خلقتُ

(1) آية ١١ سورة فصلت .

هؤلاء للجنة و بعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذُرِّية فقال خلقتُ هؤلاء للنار و بعمل أهل النار يعملون " . فقال رجل : ففيم العمل ؟ قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله إذا خلق العبد للجنة ٱستعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيُدخلَه الجنة و إذا خلق العبد للنار ٱستعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخلَه الله النار " . قال أبو عمر : هذا حديث منقطع الإسناد؛ لأن مسلم بن يسار لم يَلْق عُمر . وقال فيه يحيى بن مَعين : مسلم بن يسار لا يُعرف ، بينه وبين عمر نعيمُ بن ربيعة ، ذكره النسائيّ ، ونعيم غير معروف بحمل العلم . لكن معنى هذا الحديث قد صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من وجوه ثابتة كثيرة من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وعبد الله بن مسعود وعليّ بن أبي طالب وأبي هريرة رضى الله عنهم أجمعين وغيرهم . روى الترمذيّ وصححه عن أبي هريرة قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لمّا خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كلُّ نَسَمة هو خالقها [من ذُرِّيته] (1) إلى يوم القيامة وجعل بين عَيْنَيْ كلِّ رجل منهم وَبِيصًا من نُور ثم عرضهم على آدم فقال يارب مَن هؤلاء قال هؤلاء ذُرِّيتك فرأى رجلا منهم فأعجبه وَبِيصُ ما بين عينيه فقال أىْ ربِّ مَن هذا فقال هذا رجل من آخر الأمم من ذُرِّيتك يقال له داود فقال ربِّ كم جعلت عُمُرَه قال ستّين سنة قال أىْ رَبّ زِدْه من عُمْرِى أربعين سنةً فلما ٱنقضى عمر آدم عليه السلام جاءه مَلَك الموت فقال أولم يبق من عمرى أربعون سنةً قال أوَلم تُعْطِها ٱبنَك داود قال فجَحَد آدمُ فجحدت ذرّيته ونسى آدم فنسيت ذرّيته " . فى غير الترمذيّ : فحينئذ أمر بالكُتّاب والشهود . فى رواية : فرأى فيهم الضعيف والغنيّ والفقير والمبتلى والصحيح . فقال آدم : يارب، ما هذا؟ ألا سوّيت بينهم ! قال : أردت أن أشكر . وروى عبد الله بن عمرو عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس " . وجعل الله لهم عقولا كنملة سليمان، وأخذ عليهم العهد بأنه ربّهم وأن لا إله غيره . فأقرّوا بذلك وٱلتزموه ، وأعلمهم

---

(1) الزيادة عن صحيح الترمذي .

بأنه سيبعث إليهم الرسـل ؛ فشهد بعضهـم على بعض . قال أُبَيّ بن كعب : وأشهد عليهـم السـموات السّبع ، فليس من أحد يُولد إلى يوم القيامة إلا وقـد أخِذ عليـه العهد .

وٱختُلف فى الموضع الذى أخذ فيه الميثاق حين أخرجوا على أربعة أقوال ؛ فقال ابن عباس : ببطن نَعْمان ، وادٍ إلى جنب عَرفة . وعنه أن ذلكَ برَهْبَا ـ أرض بالهند ـ الذى هبط فيه آدم عليه السـلام . وقال يحيى بن سـلام قال ابن عباس فى هـذه الآية : أهبط الله آدم بالهند ، ثم مسح على ظهره فأخرج منه كلّ نَسَمة هو خالقـها إلى يوم القيامة ، ثم قال : «أَلَسْتُ بِرَبِّكم قالوا بَلَى شَهِدْنَا » قال يحيى قال الحسن : ثم أعادهم فى صُلب آدم عليه السلام . وقال الكَلْبِيّ : بين مكة والطائف . وقال السُّدّىّ : فى السماء الدنيا حين أهبط من الجنة إليها مسح على ظهره فأخرج من صفحة ظهره اليمنى ذرّية بيضاء مثل اللّؤلؤ ، فقال لهم ادخلوا الجنة برحمتى . وأخرج من صفحة ظهره اليسرى ذرّية سـوداء وقال لهم ادخلوا النـار ولا أبَالِى . قال ابن جُريج : خرجت كلّ نفس مخلوقة للجنة بيضاء ، وكلّ نفس مخلوقة للنار سوداء .

الثانيـــة ــ قال ابن العربىّ : « فإن قيل فكيف يجوز أن يُعذّب الخلق وهم لم يُذنبوا ، أو يُعاقبهم على ما أراده منهـم وكتبه عليهم وساقهم إليـه . قلنا : ومن أين يمتنع ذلك ، أعقلا أم شرعا . فإن قيل : لأن الرحيم الحكيم منا لا يجوز أن يفعل ذلك . قلنا : لأن فوقه آمرا يأمره وناهيًا ينهاه ، ورَبنا تعالى لا يُسأل عما يفعل وهم يُسئلون ، ولا يجوز أن يقاس الخلق بالخالق ، ولا تُحمل أفعـال العباد على أفعـال الإله ، وبالحقيقة الأفعال كلّها لله جل جلاله ، والخلقُ بأجمعهم له ، صَرّفهم كيف شاء ، وحَكَم بينهم بما أراد ، وهذا الذى يجده الادمىّ إنما تبعث عليه رِقّة الجِبِلّة وشفقة الجنسيّة وحبُّ الثناء والمـدح ؛ لمـا يتوقّع فى ذلك من الانتفاع ، والبارى تعالى متقدّس عن ذلك كله ، فلا يجوز أن يعتبر به » .

الثالثـــة ــ واختُلف فى هذه الآية ، هل هى خاصّة أو عامّة . فقيل : الآية خاصة ؛ لأنه تعالى قال : « من بنى آدم من ظهورهم » فخرج من هذا من كان من ولد آدم لصُلبه . وقال جل وعز : « أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ » فخرج منها كلُّ مَن لم يكن له آباء مشركون .

وقيل : هى مخصوصة فيمن أخذ عليه العهد على ألسنة الأنبياء . وقيل : بل هى عامة لجميع الناس ؛ لأن كل أحد يعلم أنه كان طفلا فغُذِّى ورُبِّى ، وأن له مُدَبِّرا وخالقا . فهذا معنى «وأشهدهم على أنفسهم» . ومعنى ﴿قَالُوا بَلَى﴾ أى إن ذلك واجب عليهم . فلما ٱعترف الخلق لله سبحانه بأنه الربّ ثم ذَهلوا عنه ذكّرهم بأنبيائه وختم الذِّكر بأفضل أصفيائه لتقوم حجته عليهم فقال له : «فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ»[1].ثم مكّنه من الصيطرة، وأتاه السلطنة ، ومكّن له دينه فى الأرض . قال الطُّرْطوشى[2] : إن هذا العهد يلزم البشر وإن كانوا لا يذكرونه فى هذه الحياة، كما يلزم الطلاق مَن شُهد عليه به وقد نَسِيَه .

الرابعة — وقد استدلّ بهذه الآية من قال : إن من مات صغيرا دخل الجنة لإقراره فى الميثاق الأوّل . ومن بلغ العقل لم يغنه الميثاق الأوّل . وهذا القائل يقول : أطفال المشركين فى الجنة ، وهو الصحيح فى الباب . وهذه مسألة ٱختُلف فيها لاختلاف الآثار ، والصحيح ما ذكرناه . وسيأتى الكلام فى هذا فى «الرّوم»[3] إن شاء الله . وقد أتينا عليها فى كتاب «التّذكرة» والحمد لله .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ بدل ٱشتمال من قوله «مِن بنى آدم» . وألفاظ الآية تقتضى أن الأخذ إنما كان من بنى آدم، وليس لآدم فى الآية ذِكْر بحسب اللفظ . ووجه النظم على هذا : وإذ أخذ ربُّك من ظهور بنى آدم ذرّيتهم . وإنما لم يذكر ظهر آدم لأن المعلوم أنهم كلّهم بَنُوه ، وأنهم أخرجوا يوم الميثاق من ظهره . فاستغنى عن ذكره لقوله «من بنى آدم» . ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قرأ الكوفيون وابن كثير بالتوحيد وفتح التاء، وهى تقع للواحد والجمع ؛ قال الله تعالى : «هَبْ لِى مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً» فهذا للواحد ؛ لإنه إنما سأل هبة ولد فبُشِّر بيحيى . وأجمع القراء على التوحيد فى قوله : «مِن ذرية آدم»[4] ولا شىء أكثر من ذرية آدم . وقال : «وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ» فهذا للجمع . وقرأ الباقون

---

(١) آية ٢١ سورة الغاشية . (٢) فى بعض الأصول : «الطرطوسى» بالسين المعجمة .

(٣) فى قوله تعالى : «فأقم وجهك للدين حنيفا ...» آية ٣٠ (٤) آية ٥٨ سورة مريم .

«ذرياتهم» بالجمع؛ لأن الذرّية لما كانت تقع للواحد أتى بلفظ لا يقع للواحد بجمع لتخلص الكلمة إلى معناها المقصود إليه لا يَشْركها فيه شيء وهو الجمع؛ لأن ظهور بنى آدم استخرج منها ذريات كثيرة متناسبة، أعقاب بعد أعقاب، لا يعلم عددهم إلا الله؛ بجمع لهذا المعنى .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ بَلَى ﴾ تقدّم القول فيها فى « البقرة » عند قوله : « بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً » مُسْتَوْفًى (1) ، فتأمله هناك . ﴿ أَنْ يَقُولُوا ﴾ ﴿ أَوْ يَقُولُوا ﴾ قرأ أبو عمرو بالياء فيهما . ردّهما على لفظ الغَيْبة المتكرر قبله ، وهو قوله « من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم » . وقوله « قالوا بلى» أيضا لفظ غيبة . وكذا « وكُنَّا ذريةً مِن بعدِهِم » « ولعلهم » لحمله على ما قبله وما بعده من لفظ الغيبة . وقرأ الباقون بالتاء فيهما ؛ ردّوه على لفظ الخطاب المتقدّم فى قوله « أَلَسْتُ بربكم قالوا بلى » . ويكون «شهدنا» من قول الملائكة . لما قالوا «بلى» قالت الملائكة «شهدنا أن تقولوا» «أو تقولوا» أى لئلا تقولوا . وقيل : معنى ذلك أنهم لما قالوا بلى، فأقرّوا له بالرّبوبيّة، قال الله تعالى للملائكة : اشهدوا قالوا شهدنا بإقراركم لئلا تقولوا أو تقولوا . وهذا قول مجاهد والضحاك والسُّدّى . وقال ابن عباس وأُبَىّ بن كعب : قوله «شهدنا » هو من قول بنى آدم . والمعنى : شهدنا أنك ربُّنا وإلٰهُنَا . وقال ابن عباس : أشهد بعضهم على بعض ؛ فالمعنى على هذا قالوا بلى شهد بعضنا على بعض؛ فإذا كان ذلك من قول الملائكة فيوقف على «بلى» ولا يحسن الوقف عليه إذا كان من قول بنى آدم؛ لأن « أن » متعلقة بما قبل بلى، من قوله «وأشهدهم على أنفسهم» لئلا يقولوا . وقد روى مجاهد عن ابن عمر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم ألست بربكم قالوا بلى قالت الملائكة شهدنا أن تقولوا ". أى شهدنا عليكم بالإقرار بالرُّبوبية لئلا تقولوا . فهذا يدلّ على التاء . قال مَكِّيّ : وهو الاختيار لصحة معناه، ولأن الجماعة عليه . وقد قيل : إن قوله « شهدنا » من قول الله تعالى والملائكة . والمعنى : فشهدنا على إقراركم ؛ قاله أبو مالك ، وروى عن السُّدّى أيضا .

---

(1) راجع جـ ٢ ص ١١ طبعة ثانية .

﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أى اقتدينا بهم . ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ بمعنى : لست تفعل هذا ، ولا عذر للمقلِّد فى التوحيد .

قوله تعالى : وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾

ذكر أهل الكتاب قصة عرفوها فى التوارة . واختُلف فى تعيين الذى أوتى الآيات . فقال ابن مسعود وابن عباس : هو بلعام بن باعوراء، ويقال ناعم(١)، من بنى إسرائيل فى زمن موسى عليه السلام، وكان بحيث إذا نظر رأى العرش . وهو المعنِىّ بقوله « وَاتْلُ عليهم نَبَأَ الذى آتيناه آياتنا » ولم يقل آية، وكان فى مجلسه اثنتا عشرة ألف مِحْبَرة للمتعلمين الذين يكتبون عنه . ثم صار بحيث كان أوّل من صنّف كتابا « أن ليس للعالم صانع » . قال مالك بن دينار : بُعث بلعام بن باعوراء إلى مَلِك مَدْيَن ليدعوه إلى الإيمان ؛ فأعطاه وأقطعه فاتبع دينه وترك دين موسى ؛ ففيه نزلت هذه الآيات . المُعْتَمِر بن سليمان عن أبيه قال : كان بلعام قد أوتى النُّبوّة، وكان مجابَ الدّعوة ، فلما أقبل موسى فى بنى إسرائيل يريد قتال الجبّارين، سأل الجبارون بلعام بن باعوراء أن يدعُوَ على موسى فقام ليدعُوَ فتحوّل لسانه بالدعاء على أصحابه . فقيل له فى ذلك؛ فقال : لا أقدر على أكثر مما تسمعون؛ واندلع لسانه على صدره . فقال : قد ذهبَتْ منى الآن الدنيا والآخرة ؛ فلم يبق إلا المكر والخديعة والحيلة ، وسأمكر لكم، فإنى أرى أن تُخرجوا إليهم فتياتكم فإن الله يبغض الزِّنَى، فإن وقعوا فيه هلكوا ؛ ففعلوا فوقع بنو إسرائيل فى الزنى، فأرسل الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفا . وقد ذكر هذا الخبر بكماله الثّعْلَبىّ وغيره . ورُوِى أن بلعام بن باعوراء دعا ألّا يدخل موسى مدينة الجبارين، فاستُجيب له وبقى فى التِّيه(٢) . فقال موسى : يارَبّ ، بأىّ ذنب بقينا فى التِّيه . فقال : بدعاء بلعام . قال : فكما سمعت دعاءه علىّ فاسمع دعائى عليه . فدعا موسى أن ينزع الله عنه الاسم الأعظم؛ فسلخه

(١) فى بعض الأصول : « باعر » .	(٢) التيه : موضع بين مصر والعقبة .

الله ما كان عليــه . وقال أبو حامد فى كتاب منهاج العـارفين له : وسمعت بعض العـارفين يقول إن بعض الأنبياء سأل الله تعـالى عن أمر بلعام وطرده بعد تلك الآيات والكرامات ، فقال الله تعالى : لم يشكرنى يوما من الأيام على ما أعطيته ، ولو شكرنى على ذلك مرّة لمـا سلبته . وقال عِكرمة : كان بلعام نبيًّا وأوتى كتابا . وقال مجاهـد : إنه أوتى النبوّة ؛ فرشاه قومه على أن يسكت ففعل وتركهم على ما هم عليه . قال المـاوَرْدِىّ : وهذا غير صحيح ؛ لأن الله تعالى لا يصطفى لنبوّته إلا من علم أنه لا يخرج عن طاعته إلى معصيته . وقال عبـد الله آبن عمرو بن العاص وزيد بن أسـلم : نزلت فى أُمَيّة بن أبى الصَّلْت الثَّقَفِىّ ، وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسِل رسولا فى ذلك الوقت ، وتمنى أن يكون هو ذلك الرسول ؛ فلما أرسل الله محمدا صلى الله عليه وسـلم حسده وكفر به . وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "آمن شِعْره وكَفَر قلبه" . وقال سـعيد بن المُسَيِّب : نزلت فى أبى عامر بن صَيْفى ، وكان يلبَس المُسُوح فى الجاهلية ؛ فكفَر بالنبىّ صلى الله عليه وسلم . وذلك أنه دخل على النبىّ صلى الله عليــه وسلم المدينـة فقال : يامحمد ، ما هـذا الذى جئتَ به ؟ قال : "جئتُ بالحنيفيّة دينِ إبراهيم" . قال : فإنى عليها . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "لستَ عليهـا لأنك أدخلت فيها ما ليس منها" . فقال أبو عامر : أمات الله الكاذب منا طريدا وحيدا . فقال النبىّ صلى الله عليه وسـلم : "نعم أمات الله الكاذب منا كذلك" . وإنما قال هـذا يُعَرِّض برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث خرج من مكة . فخرج أبو عامر إلى الشأم ومَرّ إلى قَيْصر وكتب إلى المنافقين : استعدّوا فإنى آتيكم من عند قَيْصر بجند لنُخرج محمدا من المدينة ؛ فمات بالشأم وحيدا . وفيــه نزل : « وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ »(1) وسيأتى فى براءة . وقال ابن عباس فى رواية : نزلت فى رجل كان له ثلاث دعوات يُسـتجاب له فيها ، وكانت له آمرأة يقال لها « البَسُوس » فكان له منها ولد ؛ فقالت : اجعل لى منها دعوة واحدة . فقال : لكِ واحدة ، فما تأمرين ؟ قالت : آدع الله أن يجعلنى أجمـل آمرأة

(1) آية ١٠٧ سورة التوبة .

فى بنى إسرائيل . فلما علمت أنه ليس فيهم مثلها رغبت عنه؛ فدعا الله عليها أن يجعلها كلبة نبّاحة . فذهب فيها دعوتان؛ فجاء بنوها وقالوا : لا صبر لنا عن هذا، وقد صارت أمّنا كلبة يعيّرنا الناس بها، فادعُ الله أن يردّها كما كانت ؛ فدعا فعادت إلى ما كانت، وذهبت الدعوات فيها . والقول الأوّل أشهر وعليه الأكثر . قال عُبادة بن الصّامت : نزلت فى قريش ، آتاهم الله آياته التى أنزلها الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم فانسلخوا منها ولم يقبلوها . قال ابن عباس : كان بلعام من مدينة الجبّارين . وقيل : كان من اليمن . ﴿ فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴾ أى من معرفة الله تعالى؛ أى نزع منه العلم الذى كان يعلمه . وفى الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: "العلم علمان علمٌ فى القلب فذلك العلم النافع وعلمٌ على اللسان فذلك حُجّة الله تعالى على ابن آدم" . فهذا مثل علم بلعام وأشباهه ، نعوذ بالله منه ؛ ونسأله التوفيق والممات على التحقيق . والانسلاخ : الخروج ؛ يقال : انسلخت الحيّة من جلدها أى خرجت منه . وقيل : هذا من المقلوب، أى انسلخت الآيات منه . ﴿ فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ ﴾ أى لحق به؛ يقال : أتبعت القوم أى لحقتهم . وقيل : نزلت فى اليهود والنصارى، انتظروا خروج محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا به .

قوله تعالى : وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ ﴾ يريد بلعام . أى لو شئنا لأمتناه قبل أن يعصى فرفعناه إلى الجنة . ﴿ بِهَا ﴾ أى بالعمل بها . ﴿ وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ أى ركن إليها ؛ عن

ٱبن جُبير والسُّدّى . مُجاهد : سكن إليها ؛ أى سكن إلى لذّاتها . وأصل الإخلاد اللزوم . يقال : أخلد فلان بالمكان إذا أقام به ولزمه . قال زهير :

لمن الدّيارُ غَشيتَها بالغَرْقَد * كالوَحْى فى حَجَر المَسيل المُخْلِد (١)

يعنى المقيم ؛ فكأن المعنى لزم لذّات الأرض فعبّر عنها بالأرض ، لأن متاع الدنيا على وجه الأرض . ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ أى ما زيّن له الشيطان . وقيل : كان هواه مع الكفار . وقيل : اتّبع رِضا زوجته ، وكانت رغبت فى أموالٍ حتى حملته على الدعاء على موسى . ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ إِن تَحْمِلْ عَلَيْـهِ يَلْهَثْ ﴾ شرط وجوابه . وهو فى موضع الحال ، أى فمثله كمثل الكلب لاهثًا . والمعنى : أنه على شىء واحد لا يَرْعَوِى عن المعصية ؛ كَمَثل الكلب الذى هذه حالته . فالمعنى : أنه لاهثٌ على كل حال ، طردته أو لم تطرده . قال ابن جُريج : الكلب منقطع الفؤاد ، لا فؤاد له ، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ؛ كذلك الذى يترك الهُدَى لا فؤاد له ، وإنما فؤاده منقطع . قال القُتَبِىّ : كلّ شىء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش ، إلا الكلب فإنه يلهث فى حال الكَلال وحال الراحة وحال المرض وحال الصحة وحال الرِّىّ وحال العطش . فضربه الله مثلا لمن كذّب بآياته فقال : إن وعظتَه ضَلّ وإن تركته ضَلّ ؛ فهو كالكلب إن تركته لَهَث وإن طردته لَهَث ؛ كقوله تعالى : « وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُـدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَـوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ » (٢) . قال الجوهرى : لَهَث الكلب (بالفتح) يَلْهَث لَهْثًا وَلُهَاثًا (بالضم) إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش ؛ وكذلك الرجل إذا أعيي . وقـوله : « إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْـهِ يَلْهَثْ » لأنك إذا حملت على الكلب نَبَـح وولّى هاربا ، وإذا تركته شـدّ عليك ونَبَح ؛ فيُتعِب نفسَـه مُقْبِلًا عليك ومُدْبِرا عنك فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عنـد العطش من إخراج اللسان . قال الترمذىّ الحكيم : إنمـا شبهه

---

(١) الغرقد : هو بقيع الغرقد ، مقابر بالمدينـة . والذى فى ديوانه « بالفدفد » وهو الموضع الذى فيـه غلظ وارتفاع . الوحى : الكتاب ؛ وإنما جعله فى حجر المسيل لأنه أصلب . عن شرح الديوان .

(٢) آية ١٩٣ من هذه السورة .

بالكلب من بين السباع لأن الكلب ميّتُ الفؤاد ، وإنما لَهَاثه لموت فؤاده . وسائر السباع ليست كذلك فلذلك لا يلهثن . وإنما صار الكلب كذلك لأنه لما نزل آدم عليه السلام إلى الأرض شَمِت به العدو ، فذهب إلى السباع فأشلاهم على آدم ، فكان الكلب من أشدهم طلبا . فنزل جبريل بالعصا التى صُرفت إلى موسى بمَدْيَن وجعلها آية له إلى فرعون ومَلَئه ، وجعل فيها سلطانا عظيما وكانت من آس الجنة ؛ فأعطاها آدم عليه السلام ليطرد بها السباع عن نفسه ، وأمره فيما رُوِىَ أن يدنُوَ من الكلب ويضع يده على رأسه ، فمن ذلك ألِفه الكلب ومات الفؤاد منه لسلطان العصا ، وألِف به وبولده إلى يومنا هذا ، لوضع يده على رأسه ، وصار حارسا من حُرّاس ولده . وإذا أُدِّب وعُلِّم الاصطياد تأدّب وقبل التعليم ؛ وذلك قوله : « تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ »[2] . السُّدِّى : كان بلعام بعد ذلك يلهث كما يلهث الكلب . وهذا المَثل فى قول كثير من أهل العلم بالتأويل عامٌّ فى كل من أوتى القرآن فلم يعمل به . وقيل : هو فى كل منافق . والأوّل أصح . قال مجاهد فى قوله تعالى « فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ » : أى إن تحمل عليه بدابتك أو برجلك يَلْهث أو تتركه يَلهث . وكذلك من يقرأ الكتاب ولا يعمل بما فيه . وقال غيره : هذا شَرُّ تمثيل ؛ لأنه مثّله فى أنه قد غَلَب عليه هواه حتى صار لا يملك لنفسه ضَرًّا ولا نفعا بكلب لاهثٍ أبدا ، حُمِل عليه أو لم يُحمل عليه ؛ فهو لا يملك لنفسه ترك اللَّهَثان . وقيل : من أخلاق الكلب الوقوعُ بمن لم يخفه على جهة الابتداء بالجفاء ، ثم تهدأ طائشته بنيل كل عِوض خسيس . ضربه الله مثلا للذى قَبِل الرِّشوة فى الدِّين حتى انسلخ من آيات رَبّه . فدلت الآية لمن تدبّرها على ألّا يغتر أحد بعمله ولا بعلمه ؛ إذ لا يدرى بما يُختم له . ودلّت على منع أخذ الرّشوة لإبطال حَقٍّ أو تغييره . وقد مضى بيانه فى « المائدة »[3] . ودلت أيضا على منع التقليد لعالم إلا بحجة يبيّنها ؛ لأن الله تعالى أخبر أنه أعطى هذا آياته فانسلخ منها فوجب أن يخاف مثل هذا على غيره وألّا يقبل منه إلا بحجة .

(١) الإشلاء : الإغراء . (٢) آية ٤ سورة المائدة .
(٣) فى قوله تعالى : «سماعون للكذب أكالون للسحت» آية ٤٢

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ أى هو مثل جميع الكفار .

وقوله ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ﴾ يقال: ساء الشيءُ قَبُح، فهو لازم، وساءه يسوءه مَساءة، فهو متعدٍّ؛ أى قَبُح مَثَلُهم. وتقديره: ساء مَثَلًا مَثَلُ القوم؛ لحذف المضاف، ونصب «مثلا» على التمييز. قال الأخفش : فجُعِل المثلُ القومَ مجازا . والقوم مرفوع بالابتداء أو على إضمار مبتدأ . التقدير: ساء المثل مثلا هو مثل القوم . وقدّره أبو عليّ : ساء مَثَلًا مثلُ القوم . وقرأ عاصم الجَحْدَرِيّ والأعمش « ساء مثلُ القوم » رفع مَثَلًا بساء .

قوله تعالى : مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

تقدّم معناه فى غير موضع . وهذه الآية تردّ على القدرية كما سبق ، وتردّ على مَن قال إن الله تعالى هدى جميع المكلّفين ولا يجوز أن يُضلّ أحدا .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾

أخبر تعالى أنه خلق للنار أهلا بعدله، ثم وصفهم فقال : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ أى بمنزلة من لا يفقه؛ لأنهم لا ينتفعون بها، ولا يعقلون ثوابا ولا يخافون عقابا . و ﴿ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ الهُدَى . و ﴿ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ المواعظ . وليس الغرض نَفْيَ الإدراكات عن حواسهم جملةً كما بيناه فى «البقرة»[(١)]. ﴿ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ لأنهم لا يهتدون إلى ثوابٍ، فهم كالأنعام؛ أى هِمّتهم الأكل والشرب، وهم أضلُّ لأن الأنعام تُبصر منافعها

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

ومضارها وتتْبع مالكها، وهم بخلاف ذلك . وقال عطاء : الأنعام تعرف الله، والكافر لا يعرفه . وقيل : الأنعام مطيعة لله تعالى، والكافر غير مطيع . ﴿ أولئك هم الغافلون ﴾ أى تركوا التدبر وأعرضوا عن الجنة والنار .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ أمر بإخلاص العبادة لله، ومجانبة المشركين والملْحدين . قال مقاتل وغيره من المفسرين : نزلت الآية فى رجل من المسلمين ، كان يقول فى صلاته : يا رحمن يا رحيم . فقال رجل من مشركى مكة : أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون ربًّا واحدا، فما بالُ هذا يدعُو ربّين اثنين ! فأنزل الله سبحانه وتعالى « وَلِلَّهِ الأسماءُ الْحُسْنَى فَادْعُوه بِهَا » .

الثانية — جاء فى كتاب التّرمذىّ وسنن ابن ماجه وغيرهما حديثٌ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم نصّ فيه [أن لله] تسعة وتسعين اسما؛ فى أحدهما ماليس فى الآخر . وقد بينا ذلك فى (الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى) . قال ابن عطية — وذكر حديث الترمذىّ — : وذلك الحديث ليس بالمتواتر، و إن كان قد قال فيه أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح، وهو ثقة عند أهل الحديث . و إنما المتواتر منه قوله صلى الله عليه وسلم : "إن لله تسعة وتسعين آسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة" . ومعنى « أحصاها » عدّها وحَفِظها . وقيل غير هذا مما قد بيناه فى كتابنا . وذكرنا هناك تصحيح حديث الترمذىّ ، وذكرنا من الأسماء ما اجتُمِع عليه وما اختلف فيه مما وقفنا عليه فى كتب أئمتنا ما يُنَيِّف على مائتى اسم . وذكرنا قبل تعيينها فى مقدمة الكتاب اثنين وثلاثين فصلا فيما يتعلق بأحكامها ، فمن أراده وقف عليه هناك وفى غيره من الكتب الموضوعة فى هذا الباب . والله الموفق، لا ربَّ سواه .

الثالثـــة — واختلف العلماء من هذا الباب فى الآسم والمُسَمّى، وقد ذكرنا ما للعلماء من ذلك فى (الكتاب الأسنى) . قال ابن الحَصّار : وفى هـذه الآية وقوعُ الآسم على المُسَمّى ووقوعه على التسمية . فقوله « ولله » وقع على المُسَمّى، وقوله « الأسماء » وهو جمع آسم واقعٌ على التسميات . يدلّ على صحة ما قلناه قوله «فادعوه بها » ، والهاء فى قوله « فادعوه» تعود على المسمّى سبحانه وتعالى، فهو المدعُو. والهاء فى قوله «بها» تعود على الأسماء، وهى التّسميات التى يُدْعَى بها لا بغيرها . هـذا الذى يقتضيه لسـان العرب . ومثل ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لى خمسة أسماء أنا محمد وأحمد" الحديث . وقد تقدّم فى «البقرة» شىء من هذا[1] . والذى يذهب إليه أهلُ الحق أن الاسم هو المُسَمّى، أو صفة له تتعلق به، وأنه غير التسمية . قال ابن العربىّ عند كلامه على قوله تعـالى « ولله الأسماء الحسنى » : فيـه ثلاثة أقوال . قال بعض علمائنا : فى ذلك دليل على أن الآسم المسمى؛ لأنه لو كان غيره لوجب أن تكون الأسماء لغير الله تعالى . الثـانى — قال آخرون : المـراد به التسميات؛ لأنه سـبحانه واحد والأسمـاء جمع .

قلت — ذكر ابن عطية فى تفسيره أن الأسمـاء فى الآية بمعنى التّسميات إجماعا من المتأولين لا يجوز غيره . وقال القاضى أبو بكر فى كتاب التمهيد : وتأويل قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : "لله تسعة وتسعون آسمـا من أحصاها دخل الجنة" أى أن له تسعة وتسعين تسمية بلا خلاف، وهى عبارات عن كون الله تعالى على أوصاف شتّى ، منها مايستحقه لنفسه ومنها ما يسـتحقه لصفة تتعلّق به ، وأسمـاؤه العائدة إلى نفسه هى هو ، وما تعلّق بصفة له فهى أسماء له . ومنها صفات لذاته . ومنها صفات أفعال . وهذا هو تأويل قوله تعالى : «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » أى التسميات الحسنى . الثالث — قال آخرون منهم : ولله الصفات .

الرابعـــة — سَمّى الله سبحانه أسماءه بالحُسْنَى لأنها حسنة فى الأسماع والقلوب؛ فإنها تدل على توحيده وكرمه وجوده ورحمته وإفضاله . والحُسْنَى مصدرٌ وُصف به . ويجوز أن يقدّر

(١) راجع المسألة الثانية جـ ١ ص ٢٨١ طبعة ثانية أو ثالثة .

«الحسنى» فُعْلَى، مؤنّث الأحسن؛ كالكبرى تأنيث الأكبر، والجمع الكُبَر والحُسَن.وعلى الأوّل أفرد كما أفرد وصف ما لا يعقل؛ كما قال تعالى: «مآرِبُ أُخرى»[1] و«ياجبالُ أَوِّبِي معه»[2].

الخامســة — قوله تعالى: ﴿ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ أى ٱطلبوا منه بأسمائه؛ فيُطْلَب بكل ٱسم ما يليق به، تقول: يارحيم ارحمنى، ياحكيم ٱحكم لى، يارازق ٱرزقنى، ياهادى ٱهــدنى، يافتاح ٱفتح لى، ياتوّاب تُبْ علىّ؛ هكذا. فإن دعوت بٱسم عامٍّ قلت: يا مالك ٱرحمنى، ياعزيز ٱحكم لى، يالطيف ٱرزقنى. وإن دعوت بالأعمّ الأعظم فقلت: ياألله؛ فهو متضمن لكل ٱسم. ولا تقول: يارزاق ٱهدنى؛ إلا أن تريد يارزاق ٱرزقنى الخير. قال ابن العربىّ: وهكذا، رَتِّب دعاءك تكن من المخلصين. وقد تقدّم فى «البقرة»[3] شرائطُ الدعاء، وفى هذه السورة أيضاً[4]. والحمد لله.

السادســة — أدخل القــاضى أبو بكر بن العربىّ عدّةً من الأسماء فى أسمائه سبحانه، مثل مُتِمّ نوره، وخير الوارثين، وخير المــاكرين، ورابع ثلاثة، وسادس خمسة، والطيّب، والمعلم؛ وأمثال ذلك. قال ابن الحصار: واقتدَى فى ذلك بابن بَرّجان[5]، إذ ذكر فى الأسماء «النظيف» وغير ذلك ممــا لم يرد فى كتاب ولا سنة.

قلت: أمّا ما ذكر من قوله «مما لم يرد فى كتاب ولا سُنّة» فقــد جاء فى صحيح مســلم «الطيّب». وخرج الترمذىّ «النظيف». وخرج عن ابن عباس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يقول فى دعائه: "ربِّ أعِنّى ولا تُعِن علىّ وٱنصرنى ولا تنصر علىّ وٱمكُرْ لى ولا تَمْكُر علىّ" الحديث. وقال فيــه: حديث حسن صحيح. فعلى هــذا جائز أن يقال: ياخير المــاكرين ٱمْكُرْ لى ولا تمكر علىّ. والله أعلم. وقد ذكرنا «الطيب، والنظيف» فى كتابنا وغيره مما جاء

---

(١) آية ١٨ سورة طه. (٢) آية ١٠ سورة سبأ. (٣) راجع جـ ٢ ص ٣٠٨ طبعة ثانية.
(٤) فى قوله تعالى: «ادعوا ربكم ...» آية ٥٥ ص ٢٢٣ من هذا الجزء. (٥) برجان (بفتح الباء وتشديد الراء): هو عبد السلام بن عبد الرحمن بن أبى الرجال محمد بن عبد الرحمن أبو الحكم اللخمى الأفريقى ثم الأشبيلى الصوفى المفسر. مات بمراكش سنة ٥٣٦ (عن طبقات المفسرين).

ذكره فى الأخبار ، وعن السلف الأخيار ، وما يجوز أن يُسَمَّى به ويُدْعَى ، وما يجوز أن يُسَمَّى به ولا يُدْعَى ، وما لا يجوز ان يسمَّى به ولا يُدْعَى . حسب ما ذكره الشيخ أبو الحسن الأشعرىّ . وهنالك يتبين لك ذلك إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يُلْحِدُونَ ﴾ الإلحاد : الميل وترك القصد ؛ يقال : ألحد الرجل فى الدِّين . وألحد إذا مال . ومنه اللَّحْد فى القبر ؛ لأنه فى ناحيته . وقرئ « يَلْحَدُونَ » لغتان . والإلحاد يكون بثلاثة أوجه : أحدها بالتغيير فيها كما فعله المشركون ، وذلك أنهم عدلوا بها عما هى عليه فسَمَّوْا بها أوثانهم ؛ فاشتقوا اللات من الله ، والعُزَّى من العزيز ، ومناة من المنّان ؛ قاله ابن عباس وقتادة . الثانى — بالزيادة فيها . الثالث — بالنقصان منها ؛ كما يفعله الجُهّال الذين يخترعون أدعيةً يسمّون فيها الله تعالى بغير أسمائه ، ويذكرونه بغير ما يذكر من أفعاله ؛ إلى غير ذلك مما لا يليق به . قال ابن العربىّ : « فحذارِ منها ، ولا يدعُوَنّ أحدكم إلا بما فى كتاب الله والكتب الخمسة ؛ وهى البخارىّ ومسلم والترمذىّ وأبو داود والنَّسائىّ . فهذه الكتب التى يدور الإسلام عليها ، وقد دخل فيها ما فى المُوَطَّأ الذى هو أصل التصانيف ، وذروا ما سواها ، ولا يقولَنّ أحدكم أختار دعاء كذا وكذا ؛ فإن الله قد ٱختار له وأرسل بذلك إلى الخلق رسوله صلى الله عليه وسلم » .

الثانية — معنى الزيادة فى الأسماء التشبيه ، والنقصان التعطيلُ . فإن المشبِّهة وصفوه بما لم يأذن فيه ، والمعطِّلة سلبوه ما ٱتصف به ؛ ولذلك قال أهل الحق : إن ديننا طريق بين طريقين ، لا بتشبيه ولا بتعطيل . وسئل الشيخ أبو الحسن البُوشَنْجِىّ عن التوحيد فقال : إثبات ذات غير مشبَّهة بالذوات ، ولا معطَّلة من الصفات . وقد قيل فى قوله تعالى « وذَرُوا الذين يُلحِدون » : معناه اتركوهم ولا تحاجّوهم ولا تَعَرَّضوا لهم . فالآية على هذا منسوخةٌ بالقتال ؛ قاله ابن زيد . وقيل : معناه الوعيد ؛ كقوله تعالى : « ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ

وَحِيدًا[1] » وقوله « ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا[2] » . وهو الظاهر من الآية ؛ لقوله تعالى : « سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » . والله أعلم .

قوله تعالى : وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١)

في الخبر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " هم هذه الأمة " . ورُوى أنه قال : " هذه لكم وقد أعطى الله قوم موسى مثلها " . وقرأ هذه الآية وقال : " إنّ من أمتى قوما على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم " . فدلّت الآية على أن الله عز وجل لا يُخْلِي الدنيا في وقت من الأوقات من داعٍ يدعُو إلى الحق .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢)

أخبر تعالى عمن كذّب بآياته أنه سيستدرجهم . قال ابن عباس : هم أهل مكة . والاستدراج هو الأخذ بالتدريج ، منزلةً بعد منزلة . والدَّرج : لَفّ الشيء ؛ يقال : أدرجته ودرجته . ومنه أَدْرَجَ المَيّتَ في أكفانه . وقيل : هو من الدّرجة ؛ فالاستدراج أن يحطّ درجة بعد درجة إلى المقصود . قال الضحاك : كلما جدّدوا لنا معصية جدّدنا لهم نعمة . وقيل لذى النُّون : ما أقصى ما يُخْدَعُ به العبد ؟ قال : بالألطاف والكرامات ؛ لذلك قال سبحانه : « سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » نُسبغ عليهم النعم ونُنسيهم الشكر؛ وأنشدوا :

أحسنت ظنّك بالأيام إذ حَسُنَتْ * ولم تخف سوءَ ما يأتى به القَدَرُ
وسالمتْكَ الليالى فاغتررتَ بها * وعند صَفْوِ الليالى يحدث الكَدَرُ

قوله تعالى : وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)

قوله تعالى : ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾ أى أُطيل لهم المدة وأمهلهم وأؤخر عقوبتهم . ﴿ إِنَّ كَيْدِي ﴾ أى مكرى . ﴿ مَتِينٌ ﴾ أى شديد قوىّ . وأصله من المَتْن ، وهو اللّحم الغليظ الذى عن جانب

(١) آية ١١ سورة المدثر . (٢) آية ٣ سورة الحجر .

الصّلب . قيل : نزلت فى المستهزئين من قريش ، قتلهم الله فى ليـلة واحدة بعد أن أمهلهم مدّة . نظيره «حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً»(١) . وقد تقدّم .

قوله تعـالى : أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾

قوله تعـالى : ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ أى فيما جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم . والوقف على « يتفكروا » حسن . ثم قال : ﴿ما بِصاحِبِهِم مِن جِنةٍ﴾ ردّ لقولهم « يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون »(٢) . وقيل : نزلت بسبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام ليلة على الصفا يدعو قريشا ، فخذا فخـذا ؛ فيقول : "يا بنى فلان" . يحذّرهـم بأس الله وعقابه . فقال قائلهم : إن صاحبهم هذا لمجنون ، بات يصوّت حتى الصباح .

قوله تعـالى : أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾

قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيـه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ عجب من إعراضهـم عن النظر فى آياته ؛ ليعرفوا كمال قدرته ، حسب ما بيناه فى ســورة « البقرة »(٣) . والملكوت من أبنيـة المبالغة ، ومعناه الملك العظيم . وقد تقدّم(٤) .

الثانيـــة ــ استدلّ بهذه الآية ــ وما كان مثلها من قوله تعالى : « قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ »(٥) وقوله تعالى : « أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا »(٦) وقوله

---

(١) آية ٤٤ سورة الأنعام . (٢) آية ٦ سورة الحجر . (٣) راجع جـ ١ ص١٨٥ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٤) راجع ص ٢٣ من هذا الجزء . (٥) آية ١٠١ سورة يونس . (٦) آية ٦ سورة ق .

« أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ » [(١)] الآية . وقوله : « وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » [(٢)] — مَن قال بوجوب النظر فى آياته والاعتبار بمخلوقاته . قالوا : وقد ذم الله تعالى من لم ينظر ، وسلبهم الانتفاع بحواسهم فقال : « لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا » الآية .

وقد اختلف العلماء فى أوّل الواجبات ، هل هو النظر والاستدلال أو الإيمان الذى هو التصديق الحاصل فى القلب الذى ليس من شرط صحته المعرفة . فذهب القاضى وغيره إلى أن أوّل الواجبات النظر والاستدلال ؛ لأن الله تبارك وتعالى لا يُعلم ضرورة ، وإنما يُعلم بالنظر والاستدلال بالأدلة التى نصبها لمعرفته . وإلى هذا ذهب البُخارِىّ رحمه الله حيث بَوّب فى كتابه (باب العلم قبل القول والعمل لقول الله عز وجل « فاعلم أنه لا إله إلا الله ») . قال القاضى : من لم يكن عالما بالله فهو جاهل ، والجاهل به كافر . قال ابن رشد فى مقدماته : وليس هذا بالبَيِّن ؛ لأن الإيمان يصحّ باليقين الذى قد يحصل لمن هداه الله بالتقليد ، وبأوّل وهلة من الاعتبار بما أرشد الله إلى الاعتبار به فى غير ما آية . قال : وقد استدلّ الباجىّ على مَن قال إن النظر والاستدلال أوّلُ الواجبات بإجماع المسلمين فى جميع الأعصار على تسمية العامة والمقلّد مؤمنين . قال : فلو كان ما ذهبوا إليه صحيحا لما صح أن يسمَّى مؤمنا إلا مَن عنده علم بالنظر والاستدلال . قال : وأيضا فلو كان الإيمان لا يصحّ إلا بعد النظر والاستدلال لجاز للكفار إذا غلب عليهم المسلمون أن يقولوا لهم : لا يحل لكم قتلنا ؛ لأن من دينكم أن الإيمان لا يصح إلا بعد النظر والاستدلال فأخّرونا حتى ننظر ونستدل . قال : وهذا يؤدّى إلى تركهم على كفرهم ، وألّا يُقتلوا حتى ينظروا ويستدلّوا .

قلت : هذا هو الصحيح فى الباب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أُمِرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا اللهُ ويؤمنوا بى وبما جئتُ به فإذا فعلوا ذلك عصَموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله " . وترجم ابن المنذر فى كتاب الاشراف (ذكر صفة كمال الإيمان) أجمع كل من يُحفظ عنه من أهل العلم على أن الكافر إذا قال : أشهد أن

---

(١) آية ١٧ سورة الغاشية . (٢) آية ٢١ سورة الذاريات .

لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وأن كلّ ما جاء به محمد حق ، وأبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام — وهو بالغ صحيح العقل — أنه مسلم . وإن رجع بعد ذلك وأظهر الكفر كان مُرْتَدًّا يجب عليه ما يجب على المرتدّ . وقال أبو حفص الزَّنْجانِيّ وكان شيخنا القـاضى أبو جعفر أحمد بن محمد السِّمنانيّ يقول : أوّل الواجبات الإيمان بالله وبرسوله وبجميع ما جاء به ، ثم النظر والاستدلال المؤدّيان إلى معرفة الله تعالى ؛ فيتقدّم وجوب الإيمان بالله تعالى عنده على المعرفة بالله . قال : وهذا أقرب إلى الصواب وأرفق بالخلق ؛ لأن أكثرهم لا يعرفون حقيقة المعرفة والنظر والاستدلال . فلو قلنا : إن أوّل الواجبات المعرفة بالله لأدّى إلى تكفير الجَمّ الغفير والعدد الكثير، وألّا يدخل الجنة إلا آحاد الناس ، وذلك بعيد ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قطع بأن أكثر أهل الجنة أمّتُه ، وأن أمم الأنبياء كلّهم صف واحد وأمته ثمانون صفـا . وهذا بيّن لا إشكال فيه . والحمد لله .

الثالثـــة — ذهب بعض المتأخرين والمتقـدّمين من المتكلمين إلى أن مَن لم يعرف الله تعالى بالطرق التى طرقوها والأبحاث التى حرّروها لم يصح إيمـانه وهو كافر ؛ فيلزم على هذا تكفير أكثر المسلمين ، وأوّل من يُبدأ بتكفيره آباؤه وأسلافه وجيرانه . وقد أورد على بعضهم هذا فقال : لا تشنّع عليّ بكثرة أهل النار . وكما قال —

قلت : وهذا القول لا يصدر إلا من جاهل بكتاب الله وسنّة نبيّه ؛ لأنه ضيّق رحمة الله الواسعة على شِرذِمة يسيرة من المتكلّمين ، واقتحموا فى تكفير عامّة المسلمين . أين هـذا من قول الأعرابى الذى كشف عن فرجه ليبول ، وانتهره أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم : اللّهُمّ ارحمنى ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لقد حجّرت واسعا" . خرّجه البخاريّ والترمذيّ وغيرهما من الأئمة . أترى هذا الأعرابيّ عَرَف الله بالدليل والبرهان والحجة والبيان ، وأن رحمته وسعت كل شيء ، وكم من مثله محكوم له بالإيمـان . بل اكتفى صلى الله عليه وسلم من كثير ممن أسلم بالنطق بالشهادتين ، وحتى إنه اكتفى بالإشارة فى ذلك . ألا تراه لمـا قال للسّوداء : "أين الله" ؟ قالت : فى السماء . قال : "من أنا" ؟ قالت :

أنت رسول الله . قال : " أعتقها فإنها مؤمنة " . ولم يكن هناك نظر واستدلال، بل حكم بإيمانهم من أوّل وهلة، وإن كان هناك عن النظر والمعرفة غفلة . والله أعلم .

الرابعة — ولا يكون النظر أيضا والاعتبار فى الوجوه الحسان من المُرْد والنّسوان . قال أبو الفرج الجَوْزِىّ : قال أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطّبرِىّ بلغنى عن هذه الطائفة التى تسمع السماع أنها تضيف إليه النظر إلى وجه الأمرد، وربّما زيّنته بالحلى والمصبَغات من الثياب، وتزعم أنها تقصد به الازدياد فى الإيمان بالنظر والاعتبار والاستدلال بالصنعة على الصانع . وهذه النهاية فى متابعة الهوى ومخادعة العقل ومخالفة العلم . قال أبو الفرج : وقال الإمام أبو الوفاء بن عقيل لم يُحِلّ الله النظر إلا على صورة لا ميل للنفس إليها، ولا حظّ للهوى فيها؛ بل عبرةً لا يمازجها شهوة، ولا يقارنها لذّة . ولذلك ما بعث الله سبحانه امرأة بالرسالة، ولا جعلها قاضيا ولا إماما ولا مؤذّنا؛ كل ذلك لأنها محل شهوة وفتنة . فمن قال : أنا أجد من الصُّوَر المستحسنة عِبرًا كذّبناه . وكل من ميّز نفسه بطبيعة تخرجه عن طباعنا كذّبناه، وإنما هذه خُدَع الشيطان للمدّعين . وقال بعض الحكماء : كلّ شىء فى العالم الكبير له نظير فى العالم الصغير؛ ولذلك قال تعالى : «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ»[1] وقال : «وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ»[2] . وقد بينا وجه التمثيل فى أوّل «الأنعام» . فعلى العاقل أن ينظر إلى نفسه ويتفكّر فى خالقه من حين كونه ماءً دافقا إلى كونه خَلقًا سَوِيًّا، يُعان بالأغذية ويُربَّى بالرّفق، ويُحفظ باللّين حتى يكتسب القُوَى ويبلغ الأشُدّ . وإذا هو قد قال : أنا، وأنا، ونسى حين أتى عليه حِينٌ من الدهر لم يكن شيئا مذكورا، وسيعود مقبورا؛ فياوَيْحَه إن كان محسورا . قال الله تعالى : «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ — إلى قوله — تُبْعَثُونَ»[3] فينظر أنه عبد مَرْبُوب مكلّف، مُخَوَّف بالعذاب إن قصّر، مُرَجًّى بالثواب إن ائتمر، فيقبِل على عبادة مولاه [فإنه][4] وإن كان لا يراه يراه و[لا][4] يخشى الناس

---

(١) آية ٤ سورة التين . (٢) آية ٢١ سورة الذاريات . (٣) آية ١٢ وما بعدها سورة المؤمنون .

(٤) الزيادة عن ابن العربى .

والله أحقُّ أن يخشاه، ولا يتكبّر على أحد من عباد الله ؛ فإنه مؤلّف من أقـذار، [مشحون من أوضار](١)، صائر إلى جنة إن أطاع أو إلى نار . قال ابن العربيّ: وكان شيوخنا يستحبّون أن ينظر المرء فى الآيات الحكمية التى جمعت هذه الأوصاف العلمية :

كيف يَزْهو مَن رَجيعه(٢) * أبـدَ الدّهر ضَجِيعُـه

فهـو منـه وإليـه * وأخـوه ورضـيعه

وهو يدعـوه إلى الحشـ * ـش(٣) بصُـغْر فيُطيعـه

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَىْءٍ ﴾ معطوف على ما قبله ؛ أى وفيما خلق الله من الأشـياء . ﴿ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَـدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾ أى وفى آجالهم التى عسى أن تكون قد قَرُبت ؛ فهو فى موضع خفض معطوف على ما قبله . وقال ابن عباس : أراد بٱقتراب الأجل يومَ بدر ويوم أُحُد . ﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى بأىّ قرآن غير ما جاء به محمد يصدّقون . وقيل : الهاء للأجل ، على معنى بأىّ حديث بعـد الأجل يؤمنون حين لا ينفع الإيمـان؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف .

قوله تعـالى : مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُـمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

بيّن أن إعراضهم لأن الله أضلهم . وهـذا ردّ على القدريّة . ﴿ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ ﴾ بالرفع على الٱستئناف . وقُرِئ بالجزم حملا على موضع الفـاء وما بعدها . ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ أى يتحيّرون . وقيل : يترددون . وقد مضى فى أوّل « البقرة »(٤) مستوفًى .

---

(١) الزيادة عن ابن العربى . والأوضار : الأوساخ . (٢) الرجيع : العذرة والروث .

(٣) الحش : (بالتثليث) : النخل المجتمع ، ويكنى به عن بيت الخلاء ؛ لمـا كان من عادتهم التغوط فى البساتين .

(٤) راجع جـ ١ ص ٢٠٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَـٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ « أيّان » سؤال عن الزمان؛ مثل مَتَى . قال الرّاجز :

أيّانَ تقضى حاجتى أيان * أما ترى لنجحها أَوَانَــا

وكانت اليهود تقول للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إن كنت نبيًّا فأخبرنا عن الساعة متى تقوم . ورُوى أن المشركين قالوا ذلك لفَـرْط الإنكار . و﴿ مُرْسَاهَا ﴾ فى موضـع رفع بالابتداء عند سيبويه، والخبر « أيان » . وهو ظرف مَبْنِىٌّ على الفتح؛ بُنِى لأن فيه معنى الاستفهام . و « مُرْسَاها » بضم الميم ، من أرساها الله، أى أثبتهـا، أى متى مُثْبَتُها ، أى متى وقوعها . وبفتح الميم من رست، أى ثبتت ووقفت؛ ومنه «وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ»[1] . قال قَتادة : أى ثابتات . ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى ﴾ ابتداء وخبر، أى لم يبيِّنْها لأحد؛ حتى يكون العبد أبدا على حذر . ﴿لَا يُجَلِّيهَا﴾ أى لا يظهرها . ﴿ لِوَقْتِهَا ﴾ أى فى وقتها ﴿ إِلَّا هُوَ ﴾ . والتَّجْلِيَة : إظهار الشيء؛ يقال جَلَا لى فلان الخـبر إذا أظهره وأوضحـه . ومعنى ﴿ ثَقُلَتْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خَفِى علمها على أهل السموات والأرض . وكل ما خَفِى علمه فهو ثقيل على الفؤاد . وقيل : كَبر مجيئهـا على أهل السموات والأرض؛عن الحسن وغيره . ابن جُريج والسُّدّى : عَظُم وصفها على أهل السموات والأرض . وقال قَتادة وغيره : المعنى لا تطيقها السموات والأرض لعظمها؛ لأن السماء تنشق والنجوم تتناثر والبحار تَنْضُب . وقيل : المعنى ثقلت المسألة عنها . ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَـةً ﴾ أى فجأة ، مصدرٌ فى موضع الحال . ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ﴾

(١) آية ١٣ سورة سبأ .

أى عالم بها كثيرُ السؤال عنها . قال ابن فارس : الحَفِىّ العالِم بالشىء . والحَفِىّ : المستقصِى فى السؤال . قال الأعشى :

فإن تسألى عنّى فيــارُبَّ سائلٍ * حَفِىٍّ عن الأعشى به حيث أصْعَدَا

يقــال : أحْفَى فى المسألة وفى الطلب ، فهــو مُحْفٍ وحَفِىّ على التكثــير ، مثــلُ مُخْصِب وخصيب . قال محمد بن يزيد : المعنى يسئلونك كأنك حَفِىّ بالمسألة عنها ، أى مُلِحّ . يذهب إلى أنه ليس فى الكلام تقديم وتأخير . وقال ابن عباس وغيره : هو على التقــديم والتأخير ، والمعنى : يسئلونك عنها كأنك حَفِىّ بهم أى حفِىّ ببِرّهم وفرِحٌ بسؤالهم . وذلك لأنهم قالوا : بيننا و بينــك قرابةٌ فأَسِرّ إلينا بوقت الساعة . ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ليس هذا تكريرا، ولكن أحَدُ العِلْمَين لوقوعها والآخر لكُنْهها .

قوله تعــالى : ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾

قوله تعــالى : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ أى لا أملك أن أجلب إلى نفسى خيرا ولا أدفع عنها شرا؛ فكيف أملك عِلم الساعة . وقيل: لا أملك لنفسى الهُدَى والضلال . ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ ٱللَّهُ ﴾ فى موضع نصب بالاستثناء . والمعنى : إلا ما شاء الله أن يملكنى ويمكننى منه . وأنشد سيبويه :

* مهما شاء بالناس يفعل *

﴿ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ﴾ المعنى لو كنت أعلم مايريد الله عز وجل منى من قبل أن يعرفنيه لفعلته . وقيل : لو كنت أعلم متى يكون لى النصر فى الحرب لقاتلتُ فلم أُغْلَب . وقال ابن عباس : لو كنت أعلم سَنة الجَدْب لهيّأتُ لهــا فى زمن الخصْب ما يكفينى . وقيل : المعنى لو كنت أعلم التجارة التى تنفق لاشتريتها وقت كسادها . وقيل :

المعنى لو كنت أعلم متى أموت لاستكثرت من العمل الصالح ؛ عن الحسن وابن جريج . وقيل : المعنى لو كنت أعلم الغيب لأجَبْتُ عن كل ما أُسأل عنه . وكله مراد، والله أعلم . ﴿ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ هـذا استئناف كلام، أى ليس بى جنون؛ لأنهـم نسبوه إلى الجنون . وقيل : هو متّصل، والمعنى لو علمتُ الغيب لما مسّنى سوءٌ ولحذِرت .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ قال جمهور المفسرين : المراد بالنفس الواحدة آدم . ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ يعنى حوّاء . ﴿ لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ ليأنس بها ويطمئن، وكان هذا كله فى الجنة . ثم ابتدأ بحالة أخرى هى فى الدنيا بعد هبوطهما فقال : ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا ﴾ كناية عن الوِقاع . ﴿ حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا ﴾ كل ما كان فى بطن أو على رأس شجرة فهو حَمْل بالفتح. وإذا كان على ظهر أو على رأس فهو حِمل بالكسر. وقد حكى يعقوب فى حِمل النخلة الكَسْر . وقال أبو سعيد السِّيرافى: يقال فى حمل المرأة حَمْل وحِمْل، يُشَبَّه مرّة لاستبطانه بحَمْل المرأة ، ومرّة لبروزه وظهوره بحِمل الدابة . والحَمْل أيضا مصدر حَمَل عليه يحمِل حَملا إذا مال . ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ يعنى المنىّ؛ أى استمرّت بذلك الحَمْل الخفيف . يقول : تقوم وتقعد وتَقَلَّب، ولا تكترث بحمله إلى أن ثَقُل ؛ عن الحسن ومجاهد وغيرهما . وقيل : المعنى فاستمرّ بها الحمل ، فهو من المقلوب ؛ كما تقول : أدخلت القَلَنْسوة فى رأسى . وقرأ

عبد الله بن عمر « فمَارَتْ بِهِ » بألف والتخفيف؛ من مار يمُور إذا ذهب وجاء وتصرّف . وقــرأ ابن عباس ويحيى بن يَعْمر « فَمَرَت بِهِ » خفيفة من المِرْيَة ، أى شكّت فيما أصابها ؛ هل هو حمل أو مرض، أو نحو ذلك .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ ﴾ صـارت ذاتَ ثِقْـل ؛ كما تقول : أثمـر النخل . وقيل : دخلت فى الثّقل ؛ كما تقول : أصبح وأمسى . ﴿ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا ﴾ الضمير فى « دَعَوا » عائد على آدم وحوّاء . وعلى هذا القول ما رُوِى فى قصص هذه الآية أن حواء لمـا حملت أوّل حمل لم تَدْرِ ما هو . وهذا يقوّى قراءة من قرأ « فَمَرَت به » بالتخفيف . فجزِعت بذلك ؛ فوجد إبليسُ السبيلَ إليها . قال الكَلْبِيّ : إن إبليس أتى حواء فى صورة رجل لمـا أثقلت فى أوّل ما حملت فقال : ما هذا الذى فى بطنك ؟ قالت : ما أدرى ! قال : إنى أخاف أن يكون بهيمة . فقالت ذلك لآدم عليه السـلام . فلم يزالا فى هَمّ من ذلك . ثم عاد إليها فقال : هو من الله بمنزلةٍ، فإن دعوتُ اللهَ فولدتِ إنسانا أفتسمّينه[(1)] بى ؟ قالت نعم . قال : فإنى أدعو الله . فأتاها وقد وَلَدت فقال : سَمّيه باسمى . فقالت : وما اسمك ؟ قال : الحارث — ولو سَمّى لهـا نفسَه لعرفته — فسمّته عبد الحارث . ونحو هذا مذكور فى ضعيف الحديث ، فى الترمذىّ وغيره . وفى الإسرائيليات كثير ليس لهـا ثبات ؛ فلا يعوِّل عليها مَن له قلب ، فإن آدم وحواء عليهما السـلام وإن غرّهما بالله الغَرُورُ فلا يُلدغ المؤمن من جُحر مرّتين، على أنه قد سُطّر وكُتب . قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خدعهما مرّتين [خدعهما] فى الجنة وخدعهما فى الأرض" . وعُضِد هذا بقراءة السُّلَمِىّ « أتشركون » بالتاء . ومعنى ﴿ صَالِحًا ﴾ يريد ولدا سَوِيًّا . ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ واختلف العلماء فى تأويل الشِّرْك المضاف إلى آدم وحواء، وهى : —

الثالثـــة — قال المفسرون : كان شِركًا فى التسمية والصفة، لا فى العبودية والربوبية . وقال أهل المعانى : إنهما لم يذهبا إلى أن الحارث ربهما بتسميتهما ولدهمـا عبد الحارث ،

(1) فى نسخ الأصل : « فتسميه » .

لكنهما قصدا إلى أن الحارث كان سبب نجاة الولد فسمياه به كما يسمّى الرجل نفسه عبد ضيفه على جهة الخضوع له ، لا على أن الضيف ربّه ؛ كما قال حاتم :

وإنّى لعبــد الضيف ما دام ثاوياً * وما فىّ إلّا تيـك من شيمة العبـد

وقال قوم : إن هذا راجع إلى جنس الآدميين والتبيين عن حال المشركين من ذرية آدم عليه السلام، وهو الذى يُعوَّل عليــه . فقوله « جعلا له » يعنى الذكر والأنثى الكافرَيْن ، ويعنى به الجنسان . ودلّ على هذا « فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » ولم يقل يُشركان . وهذا قول حَسَن .

وقيل : المعنى « هو الذى خلقكم من نفس واحدة » من هيئة واحدة وشكل واحد « وجعل منها زوجها » أى من جنسها « فلما تغشاها » يعنى الجنسين . وعلى هذا القول لا يكون لآدم وحواء ذكر فى الآية ؛ فإذا آتاهما الولد صالحـا سليما سويًّا كما أراداه صرفاه عن الفِطرة إلى الشرك ، فهذا فعل المشركين . قال صلى الله عليه وسلم : " ما من مولود إلا يولد على الفطرة — فى رواية الملة — أبواه يُهَوِّدانه ويُنَصِّرانه ويُمَجِّسانه " . قال عكرمة : لم يخص بها آدم ، ولكن جعلها عامة لجميع الخلق بعــد آدم . وقال الحسين بن الفضل : وهذا أعجب إلى أهل النظر ؛ لمـا فى القول الأول من المضاف من العظائم بنبىّ الله آدم . وقرأ أهل المدينة وعاصم «شِرْكًا» على التوحيد . وأبو عمرو وسائر أهل الكوفة بالجمع ، على مثل فُعَلاء ، جمع شريك . وأنكر الأخفش سعيد القراءة الأولى ، وهى صحيحة على حذف المضاف ، أى جعلا له ذا شرك ؛ مثلُ « واسأل القرية » فيرجع المعنى على أنهم جعلوا له شركاء .

الرابعــة — ودلّت الآية على أن الحمل مرض من الأمراض . روى ابن القاسم ويحيى عن مالك قال : أوّل الحمل بشر وسرور ، وآخره مرض من الأمراض . وهذا الذى قاله مالك « إنه مرض من الأمراض » يعطيه ظاهر قوله « دَعَوَا الله ربَّهما » وهذه الحالة مشاهدة فى الحُمَّال ، ولأجل عظم الأمر وشدّة الخطب جعل موتها شهادة ؛ كما ورد فى الحديث[1] . وإذا

(١) فى قوله صلى الله عليه وسلم : " الشهداء سبعة سوى القتل فى سبيل الله : المطعون شهيد والغَرِق شهيد وصاحب ذات الجَنب شهيد والمبطون شهيد والحَرِق شهيد والذى يموت تحت الهدم شهيد والمرأة تموت بجُمْع شهيد" . أى تموت وفى بطنها ولد .

ثبت هذا من ظاهر الآية لحال الحامل حال المريض فى أفعاله . ولا خلاف بين علماء الأمصار أن فعل المريض فيما يَهَب ويُحابِى فى ثلثه . وقال أبو حنيفة والشافعىّ : إنما يكون ذلك فى الحامل بحال الطَّلْق ، فأما قبل ذلك فلا . وٱحتجّوا بأن الحمل عادةٌ والغالب فيه السـلامة . قلنا : كذلك أكثر الأمراض غالبه السلامة ، وقد يموت من لم يمرَض .

الخامســـة — قال مالك : إذا مضت للحامل ستة أشهر من يوم حملت لم يجز لها قضاءٌ فى مالها إلا فى الثلث . ومن طلّق زوجته وهى حامل طلاقا بائنا فلمـا أتى عليها ستة أشهر أراد ارتجاعها لم يكن له ذلك ؛ لأنها مريضة ونكاح المريض لا يصح .

السادســـة — قال يحيى : وسمعت مالكا يقول فى الرجل يحضر القتال : إنه إذا زحف فى الصف للقتال لم يجزله أن يقضى فى ماله شيئا إلا فى الثلث ، وإنه بمنزلة الحامل والمريض المَخُوف عليه ما كان بتلك الحال . ويلتحق بهذا المحبوسُ للقتل فى قصاص . وخالف فى هذا أبو حنيفة والشافعىّ وغيرهما . قال ابن العربىّ : وإذا استوعبت النظر لم تَرْتَب فى أن المحبوس على القتل أشـدّ حالا من المريض ، وإنكار ذلك غفلةٌ فى النظر ؛ فإن سبب الموت موجود عندهما ، كما أن المرض سبب الموت ، قال الله تعالى : « وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ [1] » . وقال رُوَيشد الطائىّ :

يأيُّهـا الراكب المُـزْجِى مَطِيَّتَـه * سائِلْ بنى أَسَدٍ ماهذه الصَّوْتُ [2]

وقل لهم بادروا بالعذر وٱلتمســوا * قـولًا يُبرِّئُـكم إنى أنا المَـوْتُ

وممـا يدلّ على هذا قوله تعالى : « إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْـفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُـلُوبُ الْحَنَاجِرَ [3] » . فكيف يقول الشافعىّ وأبو حنيفة : الحـال الشديدة إنمـا هى المبارزة ؛ وقد أخبر الله عز وجل عن مقاومة العـدوّ وتدانى الفريقين بهذه الحالة العظمى من بلوغ القلوب الحناجر ، ومن سـوء الظنون بالله ، ومن زلزلة القلوب واضطرابها ؛

(١) آية ١٤٣ سـورة آل عمران . (٢) الصوت : الجَرْس ؛ مذكر . وإنما أنثه هنا لأنه أراد به الضوضاء والجلبة ؛ على معنى الصيحة أو الاستغاثة . (٣) آية ١٠ سورة الأحزاب .

هل هذه حالة ترى على المريض أم لا . هذا ما لايشك فيه منصف ، وهذا لمن ثبت فى اعتقاده ، وجاهد فى الله حقّ جهاده ، وشاهد الرسول وآياته ؛ فكيف بنا .

السابعــة ـــ وقد اختلف علماؤنا فى راكب البحر وقت الهَوْل ؛ هل حكمه حكم الصحيح أو الحامل . فقال ٱبن القاسم : حكمه حكم الصحيح . وقال ابن وهب وأشهب : حكمه حكم الحامل إذا بلغت ستة أشهر . قال القاضى أبو محمد : وقولهما أقْيس ؛ لأنها حالة خوف على النفس كاثقال الحمــل . قال ٱبن العربيّ : وٱبن القاسم لم يركب البحر ، ولا رأى دودا على عود . ومن أراد أن يوقن بالله أنه الفاعل وحده لا فاعل معه ، وأن الأسباب ضعيفة لا تعلّق لموقن بها ، ويتحقّق التوكل والتفويض فليركب البحر .

قوله تعـالى : أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا ﴾ أى أيعبدون ما لا يقدر على خلق شيء . ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أى الأصـنام مخلوقة . وقال « يخلقون » بالواو والنون لأنهـم ٱعتقدوا أن الأصـنام تضر وتنفع ، فأُجريت مجرى النـاس ؛ كقوله : « فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ »(١) . وقوله : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْـلُ ٱدْخُلُوا مَسَـٰكِنَكُمْ »(٢) . ﴿ ولا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ أى الأصنام ، لا تنصر ولا تنتصر .

قوله تعـالى : وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُـدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُـدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ ﴾ قال الأخفش : أى وإن تدعو الأصنام إلى الهدى لا يتبعوكم . ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ قال أحمد بن يحيى :

---

(١) آية ٣٣ سورة الأنبياء .　　(٢) آية ١٨ سورة النمل .

لأنه رأس آية . يريد أنه قال : « أم أنتم صامتون » ولم يقــل أم صَمَتم . وصامتون وصَمَتم عند سيبويه واحد . وقيل : المراد مَن سبق فى علم الله أنه لا يؤمن . وقرئ « لا يتّبعوكم » مشدّدا ومخفّفا، لغتان بمعنًى . وقال بعض أهل اللغة : « أتبعه » — مخففا — إذا مضى خلفه ولم يدركه . و « اتّبعه » — مشدّدا — إذا مضى خلفه فأدركه .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ حاجّهم فى عبادة الأصنام. ﴿ تَدْعُونَ ﴾ تعبدون . وقيل : تدعونها آلهــة . ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى من غير الله . وسُمّيت الأوثان عِبادا لأنها مملوكة لله مسخّرة . الحسن : المعنى أن الأصنام مخلوقة أمثالكم . ولمّا اعتقد المشركون أن الأصنام تضر وتنفع أجراها مجرى الناس فقال : ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ ولم يقل فادعوهن . وقال « عِباد » ، وقال « إن الذين » ولم يقل إن التى . ومعنى « فادعوهم » فاطلبوا منهــم النفع والضر . ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أن عبادة الأصنــام تنفع . وقال ابن عباس : معنى فادعوهم فاعبدوهم . ثم وبّخهم الله تعالى وسفّه عقولهم فقال : ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ الآية . أى أنتم أفضل منهم فكيف تعبدونهم . والغرض بيان جهلهم؛ لأن المعبود يتّصف بالجوارح . وقرأ سعيد بن جُبير « إنِ الذين تدعون من دون الله عبادًا أمثالَكُمْ » بتخفيف « إن » وكسرها لالتقاء الساكنين ، ونصب « عبادًا » بالتنوين ، « أمثالكم » بالنصب . والمعنى : ما الذين تدعون من دون الله عبادا أمثالكم ، أى هى حجارة وخشب؛ فأنتم تعبدون ما أنتم أشرف منه .

قال النحاس : وهذه قراءة لا ينبغي أن يُقرأ بها من ثلاث جهات : أحدها — أنها مخالفة للسّواد . والثانية — أن سيبويه يختار الرفع فى خبر إنْ إذا كانت بمعنى ما ، فيقول : إنْ زيد منطلق ؛ لأن عمل « ما » ضعيف ، و « إنْ » بمعناها فهى أضعف منها . والثالثة — أن الكسائيّ زعم أن « إنْ » لا تكاد تأتى فى كلام العرب بمعنى « ما » ، إلا أن يكون بعدها إيجاب ؛ كما قال عز وجل : « إِنِ الكافرون إلا فِي غُرُورٍ »[1] . ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ الأصل أن تكون اللام مكسورة ، فحذفت الكسرة لثقلها . ثم قيل : فى الكلام حذف ، المعنى : فادعوهم إلى أن يتّبعوكم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين أنهم آلهة . وقرأ أبو جعفر وشَيْبة « أم لهم أيدٍ يَبْطُشون بها » بضم الطاء ، وهى لغة . واليد والرجل والأذن مؤنّثات يُصَغَّرن بالهاء . وتزاد فى اليد ياء فى التصغير ، تُرَدّ إلى أصلها فيقال يُدَيّة بالتشديد لاجتماع الياءين .

قوله تعالى : ﴿قُلِ ٱدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ أى الأصنام . ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ أنتم وهى . ﴿فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ أى فلا تؤخّرون . والأصل « كيدونى » حذفت الياء لأن الكسرة تدلّ عليها . وكذا « فَلا تنظرونِ » . والكيد المكر . والكيد الحرب ؛ يقال : غَزَا فلم يَلْقَ كَيْدًا . ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَابَ﴾ أى الذى يتولّى نصرى وحفظى الله . ووَلِيُّ الشيء : الذى يحفظه و يمنع عنه الضرر . والكتاب : القرآن . ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّالِحِينَ﴾ أى يحفظهم . وفى صحيح مسلم عن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جهارا غير سرّ يقول : "ألَا إنّ آل أبِي — يعنى فلانا —[2] ليسوا لى بأولياء إنما وَلِيِّيَ اللهُ وصالحُ المؤمنين" . وقال الأخفش : وقُرئ « إنّ وَلِيَّ اللهِ الذى نزّل الكتابَ » يعنى جبريل . النحاس : هى قراءة عاصم الجَحْدرِيّ . والقراءة الأولى أبْيَن ؛ لقوله : « وهو يتولى الصّالحين » .

---

(١) آية ٢٠ سورة الملك . (٢) فى شرح النووى على صحيح مسلم : « هذه الكناية بقوله : يعنى فلانا ، هى من بعض الرواة خشى أن يسميه فيترتّب عليه مفسدة وفتنة ؛ إما فى حق نفسه ، و إما فى حقه وحق غيره فكنى عنه ... قال القاضى عياض رضى الله عنه : قيل إن المكنى عنه ها هنا هو الحكم بن أبى العاص والله أعلم » .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ كرّره ليبيّن أن ما يعبدونه لا ينفع ولا يضر . ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى﴾ شرط، والجواب ﴿لَا يَسْمَعُوا﴾ . ﴿وَتَرَاهُمْ﴾ مستأنف . ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ في موضع الحال . يعني الأصنام . ومعنى النظر فتح العينين إلى المنظور إليه؛ أي وتراهم كالناظر إليك . وخَبّر عنهم بالواو وهي جماد لا تُبصر؛ لأن الخبر جَرَى على فعل مَن يعقل . وقيل : كانت لهم أعْيُن من جواهر مصنوعة فلذلك قال «وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ» . وقيل : المراد بذلك المشركون ؛ أخبر عنهم بأنهم لا يبصرون حين لم ينتفعوا بأبصارهم .

قوله تعالى : خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ هذه الاية من ثلاث كلمات ، تضمّنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيّات . فقوله ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين ، والرفق بالمؤمنين ، وغير ذلك من أخلاق المطيعين . ودخل في قوله ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ صلةُ الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام ، وغَضّ الأبصار، والاستعدادُ لدار القرار . وفي قوله : ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الحضّ على التخلّق بالعلم ، والإعراض عن أهل الظلم ، والتنزّه عن منازعة السفهاء ، ومساواة الجهلة الأغبياء ، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة .

قلت : هذه الخصال تحتاج إلى بسط، وقد جمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر بن سليم . قال جابر بن سليم أبو جُرَيّ : ركبت قَعودي ثم أتيت إلى مكة فطلبت رسول الله صلى

الله عليه وسلم، فأنخت قعودى بباب المسجد، فدلُّونى على رســول الله صلى الله عليــه وسلم، فإذا هو جالس عليه بُرْد من صوف فيه طرائقُ حُمر؛ فقلت : الســلام عليك يارســول الله . فقال : " وعليك السلام " . فقلت : إنّا معشر أهل البادية ، قوم فينا الجفاء؛ فعلّمنى كلماتٍ ينفعنى الله بها . قال : " آدْنُ " ثلاثا ، فدنَوْت فقال : " أعِد علىّ " فأعدتُ عليه فقال : " آتق الله ولا تحقرنّ من المعروف شــيئا وأن تلق أخاك بوجه منبسط وأن تُفرِغ من دَلْوك فى إناء المستسق وإن امرؤ سَبّك بمــا لا يعلم منك فلا تَسُبّه بمــا تعلم فيه فإنّ الله جاعل لك أجرا وعليه وِزْرًا ولا تسبّن شيئا ممــا خَوّلك الله تعالى " . قال أبو جُرَىّ : فوالذى نفسى بيده ، ما سَبَبْت بعده شاة ولا بعيرا . أخرجه أبو بكر البزّار فى مسنده بمعناه . وروى أبو سعيد المَقْبُرِىّ عن أبيه عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنكم لا تَسَعُون الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق " . وقال ابن الزبير : ما أنزل الله هذه الاية إلا فى أخلاق الناس . وروى البخارىّ من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله آبن الزبير فى قوله « خُذِ العفو وأْمُر بِالعُرْف » قال : ما أنزل الله هــذه الآية إلا فى أخلاق الناس . وروى ســفيان بن عُيَيْنَة عن الشّعْبِىّ أنه قال : إن جبريل نزل على النبىّ صلى الله عليه وسلم، فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : "ما هذا ياجبريل" ؟ فقال : "لا أدرى حتى أسأل العالِم" فى رواية "لا أدرى حتى أسأل ربى" فذهب فمكث ساعة ثم رجع فقال : " إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك وتصِل من قطعك " . فنظمه بعض الشعراء فقال :

مكارم الأخــلاق فى ثلاثة * من كَمُلت فيــه فذلك الغَنِى
إعطاء من تحرِمه ووصل من * تقطعه والعفو عمن آعتــدَى

وقال جعفر الصادق : أمر الله نبيّه بمكارم الأخلاق فى هذه الآية، وليس فى القرآن آية أجمــع لمكارم الأخلاق من هــذه الاية . وقال صلى الله عليه وسـلم : " بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق " . وقال الشاعر :

كل الأمور تزول عنك وتنقضى * إلا الثنـاء فإنـــه لك باقى
ولو أننى خُــيِّرت كلّ فضــيلة * ما آخترت غير مكارم الأخـلاق

وقال سهل بن عبـد الله : كلّم الله موسى بطُورسَيْناء . قيـل له : بأىّ شىء أوصاك ؟ قال : بتسعة أشياء، الخشية فى السر والعلانية، وكلمة الحق فى الرضا والغضب، والقصد فى الفقر والغِنى، وأمرنى أن أصل مَن قطعنى، وأعطى من حرمنى، وأعفو عمن ظلمنى، وأن يكون نطقى ذكرا، وصَمتِى فكْرا، ونظرى عبرة .

قلت : وقد روى عن نبيّنا محمد صلى الله عليه وسـلم أنه قال : "أمرنى ربى بتسع الإخلاص فى السر والعلانية والعدل فى الرضا والغضب والقصد فى الغنى والفقر وأن أعفو عمن ظلمنى وأصل من قطعنى وأعطى من حرمنى وأن يكون نطقى ذكرا وصمتى فكرا ونظرى عبرة" . وقيل : المراد بقوله « خذ العفو » أى الزكاة؛ لأنها يسير من كثير . وفيه بُعْد؛ لأنه من عَفَا إذا دَرَس . وقد يقال : خذ العفو منه، أى لا تنقص عليـه وسامحه . وسبب النزول يردّه، والله أعلم . فإنه لمـا أمره بمحاجّة المشركين دلّه على مكارم الأخلاق، فإنها سبب جرّ المشركين إلى الإيمان . أى آقبل من الناس ما عفا لك من أخلاقهم وتيسر؛ تقول : أخذت حقى عَفْوًا صَفْوًا، أى سهلا .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ أى بالمعروف . وقرأ عيسى بن عمـــر « العُرُف » بضمتين؛ مثل الحُلُم؛ وهما لغتان . والعرف والمعروف والعارفة : كل خصـلة حسنة ترتضيها العقول، وتطمئن إليها النفوس .

قال الشاعر :

من يفعل الخير لا يَعْدَم جَوازِيَه * لا يذهب العُرْف بين الله والناس

وقال عطاء : « وأمر بالْعُرْف » يعنى بلا إله إلا الله .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ أى إذا أقمت عليهم الحجة وأمرتهم بالمعروف فجهلوا عليك فأعرض عنهم؛ صيانة له عليهم ورفعًا لقدره عن مجاوبتهم . وهذا وإن

كان خطابا لنبيّه عليه السلام فهو تأديب لجميع خلقه . وقال ابن زيد وعطاء : هي منسوخة بآية السيف . وقال مجاهد وقتادة : هي مُحْكَمة ؛ وهو الصحيح لما رواه البُخارِيّ عن عبد الله ابن عباس قال : قدم عُيَيْنة بن حِصْن بن حذيفة بن بدر فنزل على ابن أخيه الحُرّ بن قيس ابن حِصن ، وكان من النفر الذين يُدنيهم عُمَــرُ ، وكان القراءُ أصحابَ مجالِس عُمَرَ ومشاورته ، كُهولًا كانوا أو شُبّانا . فقال عيينة لابن أخيه : يابن أخي ، هل لك وجه عند هذا الأمير ، فتستأذن لي عليه . قال : سأستأذن لك عليه ؛ فآستأذن لِعُيَينة . فلما دخل قال : يا بن الخطاب ، والله ما تعطينا الجَزْل ، ولا تحكم بيننا بالعدل ! قال : فغضب عمر حتى هَمّ بأن يقع به . فقال الحُرّ : يا أمير المؤمنين ، إن الله قال لنبيّه عليه السلام «خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْف وأعرض عن الجاهلين » وإن هذا من الجاهلين . فوالله ما جاوزها عُمَرُ حين تلاها عليه ، وكان وَقّافا[1] عند كتاب الله عز وجل .

قلت : فاستعمال عمر رضي الله عنه لهذه الآية واستدلالُ الحُرّ بها يدل على أنها مُحْكَمة لا منسوخة . وكذلك استعملها الحسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما ؛ على ما يأتي بيانه . وإذا كان الجفاء على السلطان تعمّدًا واستخفافا بحقه فله تعزيره . وإذا كان غير ذلك فالإعراض والصفح والعفو ؛ كما فعل الخليفة العدل .

قوله تعالى : وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠)

فيه مسألتان :

الأولى — لما نزل قوله تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ قال عليه السلام : " كيف يارب والغضب " ؟ فنزلت : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ ﴾ ونَزْغُ الشيطان : وساوسه . وفيه لغتان : نزغ ونغز ؛ يقال : إيّاك والنُّزّاغ والنُّغّاز ، وهم المُوَرّشون[2] . الزجاج : النَّزْغ أدْنى حركة تكون ، ومن الشيطان

---

(١) أي لا يتجاوز حكمه .	(٢) التوريش : التحريش ؛ يقال : ورش بين القوم وأرّش .

أدنى وسوسة . قال سعيد بن المُسيِّب : شهدت عثمان وعليًّا وكان بينهما نَزْغ من الشيطان فما أبقى واحد منهما لصاحبه شيئا ، ثم لم يبرحا حتى استغفر كلّ واحد منهما لصاحبه . ومعنى ﴿ يَنْزَغَنَّكَ ﴾ : يصيبنّك و يعرض لك عنـد الغضب وسوسة بما لا يحلّ . ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ أى اطلب النجاة من ذلك بالله . فأمر تعالى أن يدفع الوسوسة بالألتجاء إليه والاستعاذة به ؛ ولله المَثَل الأعلى . فلا يستعاذ من الكلاب إلا بربّ الكلاب . وقد حُكى عن بعض السلف أنه قال لتلميذه : ما تصنع بالشيطان إذا سوّل لك الخطايا ؟ قال : أجاهده . قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده . قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده . قال : هذا يطول ، أرأيت لو مررت بغنم فنبحك كلبها ومنع من العبور ما تصنع ؟ قال : أكابده وأردّه جهدى . قال : هذا يطول عليك ، ولكن استغث بصاحب الغنم يكفه عنك .

الثانيـــة ــ النَّغْز والنَّزْغ والهَمْز والوَسْوَسة سواء ؛ قال الله تعالى : «وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَـزَاتِ الشَّيَاطِينِ» (١) وقال : « مِنْ شَرِّ الوَسْـوَاسِ الخَنَّاسِ » (٢) . وأصل النَّزْغ الفساد؛ يقال : نزغ بيننا؛ أى أفسد . ومنه قوله : « نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي » (٣) أى أفسد . وقيل : النَّزْغ الإغواء والإغراء؛ والمعنى متقارب .

قلت : ونظير هذه الآية مافى صحيح مسـلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يأتى الشيطان أحدكم فيقول له من خلق كذا وكذا حتى يقول له من خلق ربّك فإذا بلغ ذلك فَلْيَستعذ بالله ولْيَنْتَهِ" . وفيه عن عبدالله قال : سُئل النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة قال : " تلك مَحْضُ الإيمـان " . وفى حديث أبى هريرة : " ذلك صَرِيح الإيمان " والصريح الخالص . وهذا ليس على ظاهره؛ إذ لا يصح أن تكون الوسوسة نفسها هى الإيمان ، لأن الإيمـان اليقين ، و إنما الإشارة إلى ما وجدوه من الخوف من الله تعـالى أن يعاقَبوا على ما وقع فى أنفسهم . فكأنه قال جَزَعكم من هذا هو محض الإيمان وخالصه ؛ لصحة إيمانكم ، وعلمكم بفسادها . فسمّى الوسوسة إيمانا لمـا كان دفعها والإعراض عنها والردّ لهـا وعَدم قبولهـا

(١) آية ٩٧ سورة المؤمنون . (٢) سورة النـاس . (٣) آية ١٠٠ سورة يوسف .

والجزعُ منها صادرا عن الإيمان . وأما أمره بالاستعاذة فلكون تلك الوساوس من آثار الشيطان. وأما الأمر بالانتهاء فعن الركون إليها والالتفات نحوها . فمن كان صحيحَ الإيمان واستعمل ما أمره به ربه ونبيه نفعه وانتفع به . وأما من خالجته الشبهة وغلب عليه الحِسّ ولم يقدر على الانفكاك عنها فلا بُدّ من مشافهته بالدليل العقليّ ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم للذى خالطته شبهة الإبل الجُرْب حين قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "لا عَدْوَى" . وقال أعرابى : فما بال الإبل تكون فى الرمل كأنها الظباء فإذا دخل فيها البعير الأجرب أجْرَبها ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : " فمن أعدى الأوّل" فاستأصل الشبهة من أصلها . فلما يئس الشيطان من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بالإغراء والإضلال أخذ يشوّش عليهم أوقاتهم بتلك الألقيات . والوَساوس : التُّرّهات ؛ فنفرت عنها قلوبهم وعظم عليهم وقوعها عندهم فجاءوا — كما فى الصحيح — فقالوا : يارسول الله ، إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدُنا أن يتكلّم به . قال : " أوَ قد وجدتموه " ؟ قالوا نعم . قال : " ذلك صريح الإيمان رَغْمًا للشيطان حسب ما نطق به القرآن فى قوله « إنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » " . فالخواطر التى ليست بمستقرة ولا اجتلبتها الشبهة فهى التى تُدفع بالإعراض عنها؛ وعلى مثلها يطلق اسم الوسوسة . والله أعلم . وقد مضى فى آخر « البقرة » هذا المعنى ، والحمد لله .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ يريد الشرك والمعاصى . ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ هذه قراءة أهل البصرة وأهل مكة . وقراءة أهلِ المدينة وأهلِ الكوفة « طائف » . وروى عن سعيد بن جُبير « طيّف » بتشديد الياء . قال النحاس : كلام العرب فى مثل هذا « طَيْف » بالتخفيف؛ على أنه مصدر من طاف يَطيف . قال الكسائيّ :

هو مخفّف من « طَيِّف » مثـل مَيْت ومَيِّت . قال النحاس : ومعنى « طَيْف » فى اللغـة ما يُتخيَّـل فى القلب أو يُرَى فى النوم؛ وكذا معنى طائف . وقال أبو حاتم : سألت الأَصْمَعِيّ عن طَيِّف؛ فقال : ليس فى المصادر فيعل . قال النحاس : ليس هو بمصدر ، ولكن يكون بمعنى طائف . والمعنى : إن الذين ٱتّقوا المعاصى إذا لحقهم شيء تفكّروا فى قدرة الله عز وجل وفى إنعامه عليهم فتركوا المعصية . وقيل : الطّيف والطائف معنيان مختلفان . فالأوّل — التخيُّل . والثانى — الشيطان نفسُه . فالأوّل مصدر طاف الخيال يَطوف طَيْفا ؛ ولم يقولوا من هذا طائف فى اسم الفاعل . قال السُّهَيْلِيّ : لأنه تخيُّلٌ لا حقيقةَ له . فأما قوله : «فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ » فلا يقال فيه : طيف؛ لأنه اسم فاعل حقيقة، ويقال إنه جبريل . قال الزجاج : طفت عليهم أطوف، وطاف الخيال يَطيف . وقال حسّان :

فدَعْ هذا ولكن مَنْ لِطَيفٍ * يؤرّقـنى إذا ذهب العِشـاء

مجاهد : الطيف الغضب . ويُسمَّى الجنون والغضب والوسوسـة طَيْفا ؛ لأنه لَمّـة من الشيطان تُشَبَّه بلَمّة الخيال . ﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ أى منتهون . وقيل : فإذا هم على بصيرة . وقرأ سـعيد بن جُبير : « تَذَكَّروا » بتشـديد الذال . ولا وجه له فى العربيـة ؛ ذكره النحاس .

الثانيـــة — قال عصام بن المُصْطلِق : دخلت المدينـة فرأيت الحسن بن علىّ عليهما السلام، فأعجبنى سَمْته وحُسْن رُوائه؛ فأثار منّى الحسد ما كان يُجنّه صدرى لأبيه من البُغْض، فقلت : أنت ٱبن أبى طالب ! قال نعم . فبالغت فى شتمــه وشتم أبيــه ؛ فنظر إلىّ نظـرة عاطفٍ رءوف، ثم قال : أعوذ بالله من الشـيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم «خُذِ الْعَفْــوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » فقــرأ إلى قوله : « فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ» ثم قال لى : خفّض عليك ، أسـتغفر الله لى ولك ، إنك لو اسـتعنتنا أعنّاك، ولو اسْـتَرْفَدْتَنَا أرفدناك ،

ولو استرشدتنا أرشدناك . فتوسّم فىّ الندمَ على ما فرط منّى فقال : «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين» (١) أمن أهل الشأم أنت؟ قلت نعم . فقال :

* شِنْشِنَةٌ أعْرِفها من أخزمِ (٢) *

حيّاكَ الله وبيّاك، وعافاك، وآداك (٣)؛ انبسط (٤) إلينا فى حوائجك وما يعرض لك، تجدنا عند أفضل ظنك، إن شاء الله . قال عصام : فضاقت علىّ الأرض بما رَحُبَت، ووَدِدت أنها ساخت بى؛ ثم تسلّلت منه لِواذًا (٥)، وما على وجه الأرض أحبّ إلىّ منه ومن أبيه .

قوله تعالى : ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قيل : المعنى وإخوان الشياطين وهم الفجار من ضُلّال الإنس تمدّهم الشياطين فى الغَىّ . وقيل للفُجّار إخوانُ الشياطين لأنهم يقبلون منهم . وقد سبق فى هذه الآية ذكر الشيطان . هذا أحسن ما قيل فيه؛ وهو قول قتادة والحسن والضّحاك . ومعنى ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾ أى لا يتوبون ولا يرجعون . وقال الزجاج : فى الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى : والذين تدعون من دونه لا يستطيعون لكم نصرا ولا أنفسهم ينصرون، وإخوانهم يمدونهم فى الغىّ؛ لأن الكفار إخوان الشياطين . ومعنى الآية : إن المؤمن إذا مسّه طَيْف من الشيطان تنبّه عن قُرب، فأما المشركون فيمدّهم الشيطان . و ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾ قيل : يرجع إلى الكفار على القولين جميعا . وقيل : يجوز أن يرجع إلى الشيطان . قال قتادة : المعنى ثم لا يُقصِرون عنهم ولا يرحمونهم . والإقصار : الانتهاء عن الشىء ، أى لا تقصر الشياطين فى مدهم الكفارَ بالغىّ . وقوله ﴿فِي الْغَيِّ﴾ يجوز أن يكون متّصلا بقوله

---

(١) آية ٩٢ سورة يوسف . (٢) الشنشنة (بكسر الشين) : العادة والطبيعة . قال الأصمعى : وهذا بيت رجز تمثل به لأبى أخزم الطائى وهو :

* إن بَنِىّ زَمَّلونى بالدم * شنشنة أعرفها من أخزم * من يلق آساد الرجال يكلم *

قال ابن برى : وكان أخزم عاقا لأبيه ، فات وترك بنين عقوا جدّهم وضربوه وأدموه، فقال ذلك . أى إنهم أشبهوا أباهم فى العقوق . (٣) قوله : حياك الله وبياك ، أى ملكك واعتمدك بالتحية . وبياك : معناه وبوّأك منزلا؛ إلا أنها لما جاءت مع حياك تركت همزتها وقلبت واوها ياء . وآداك : قوّاك وأعانك .

(٤) الانبساط : ترك الاحتشام . (٥) اللواذ : الاستتار .

« يَمُدُّونَهم » ويجوز أن يكون متصلا بالإخوان . والغَىّ : الجهل . وقرأ نافع « يُمِدونهم » بضم اليـاء وكسر الميم . والباقون بفتح اليـاء وضم الميم . وهما لغتان مدّ وأمدّ . ومدّ أكثر، بغير الألف؛ قاله مَكّىّ . النحاس: وجماعة من أهل العربية ينكرون قراءة أهل المدينة؛ منهم أبو حاتم وأبوعبيد، قال أبوحاتم: لا أعرف لها وجها، إلا أن يكون المعنى يزيدونهم فى الغَىّ . وحكى جماعة من أهل اللغة منهم أبو عبيد أنه يقال إذا كَثّر شىء شيئا بنفسه مدّه[1]، و إذا كثّره بغيره قيل أمدّه؛ نحو « يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ »[2]. وحُكى عن محمد ابن يزيد أنه احتج لقراءة أهل المدينة قال : يقال مددت له فى كذا أى زيّنته له واستدعيته أن يفعله. وأمددته فى كذا أى أعنته برأى أو غير ذلك . قال مكّىّ : والاختيار الفتح ؛ لأنه يقال: مددت فى الشر، وأمددت فى الخير؛ قال الله تعالى: «وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ»[3] . فهذا يدلّ على قوة الفتح فى هذا الحرف ؛ لأنه فى الشر، والغىّ هو الشر، ولأن الجماعة عليه . وقرأ عاصم الجَحْدَرِىّ « يُمَادُّونهم فى الغىّ » . وقرأ عيسى بن عمر « يَقْصُرون » بفتح الياء وضم الصاد وتخفيف القاف . الباقون « يُقْصِرون » بضده، وهما لغتان . قال امرؤ القيس :

* سَمَالك شوقٌ بعد ما كان أقصرَا *

قوله تعـالى : وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ ﴾ أى تقرؤها عليهم . ﴿ قَالُوا لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ﴾ لولا بمعنى هلّا، ولا يليها على هذا المعنى إلا الفعل ظاهرا أو مضمرا، وقد تقدّم القول فيها فى « البقرة » مستوفًى[4] . ومعنى ﴿ ٱجْتَبَيْتَهَا ﴾ اختلقتها من نفسـك . فأعلمهم أن الآيات من قبل الله

(١) فى الأصول : « مدّه » . (٢) آية ١٢٥ سورة آل عمران . (٣) آية ١٥ سورة البقرة .

(٤) راجع جـ ٢ ص ٩١ طبعة ثانية .

عز وجل، وأنه لا يقرأ عليهم إلا ما أنزله عليه . يقال : اجتبيت الكلام أى ٱرتجلته وٱختلقته وٱخترعته إذا جئت به من عند نفسك . ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ﴾ أى من عند الله لا من عند نفسى . ﴿ هَٰذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يعنى القرآن، جمع بصيرة، وهى الدلالة والعبرة . أى هذا الذى دللتكم به على أن الله عز وجل واحد بصائر، أى يُستبصر بها . وقال الزجاج : «بصائر» أى طرق . والبصائر طرق الدِّين . قال الجُعْفِيّ :

راحوا بصائرُهم على أكتافهم * وبَصيرتى يَعْدُو بها عَتِدٌ وَأَى (1)

﴿ وَهُدًى ﴾ رشد وبيان . ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ أى ونعمة .

قوله تعالى : وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ قيل : إن هذا نزل فى الصلاة ، رُوى عن ٱبن مسعود وأبى هريرة وجابر والزُّهْرِىّ وعبيد الله بن عمير وعطاء بن أبى رَبَاح وسعيد بن المسيِّب . قال سعيد : كان المشركون يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلَّى؛ فيقول بعضهم لبعض بمكة : « لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَٱلْغَوْا فِيهِ » (2) . فأنزل الله جل وعز جوابا لهم « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا » . وقيل : إنها نزلت فى الخطبة ؛ قاله سعيد بن جُبير ومجاهد وعطاء وعمرو بن دينار وزيد بن أسلم والقاسم بن مُخَيْمِرة ومسلم بن يسار وشَهْر بن حَوْشَب وعبد الله بن المبارك . وهذا ضعيف؛ لأن القرآن فيها قليل، والإنصات يجب فى جميعها؛ قاله ابن العربى . النقّاش : والآية مكية ، ولم يكن بمكة خطبة ولا جمعة . وذكر الطبرىّ عن سعيد بن جُبير أيضا أن هذا فى الإنصات يوم الأَضْحَى ويومَ الفطر ويوم الجمعة، وفيما يَجْهَر به الإمام فهو عامّ . وهو الصحيح ؛ لأنه

---

(1) راجع ص ٥٧ من هذا الجزء .　　(2) آية ٢٦ سورة فصلت .

يجمع جميع ما أوْجبته هــذه الآية وغيرها من السُّــنّة فى الإنصات . قال النقاش : أجمع أهل التفسير أن هذا الآستماع فى الصلاة المكتوبة وغير المكتوبة . النحاس : وفى اللغة يجب أن يكون فى كل شيء ، إلا أن يدل دليل على اختصاص شيء . وقال الزجاج : يجوز أن يكون « فآستمعوا له وأنصتوا » اعملوا بمـا فيــه ولا تُجاوِزُوه . والإنصات : السكوت للآستماع والإصغاء والمراعاة . أنصت ينصت إنصاتا ونصت أيضا؛ قال الشاعر :

قال الإمام عليكم أمْرَ سيّدكم * فـلم نُخالف وأنصتنا كما قالا

ويقال : أنصتوه وأنصتوا له؛ قال الشاعر :

إذا قالت حَذامِ فأنصتوها * فإنّ القول ما قالت حَذامِ

وقال بعضهم فى قوله « فاستمعوا له وأنصتوا » : كان هذا لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصا لِيَعِيَهُ عنه أصحابه .

قلت : هذا فيه بُعْدٌ، والصحيح القول بالعموم؛ لقوله : « لعلكم ترحمون » والتخصيص يحتاج إلى دليل . وقال عبد الجبار بن أحمد فى فوائد القرآن له : إن المشركين كانوا يكثرون اللغط والشغب تَعَنُّتاً وعنادا ، على ما حكاه الله عنهم : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ » . فأمر الله المسلمين حالة أداء الوَحْى أن يكونوا على خلاف هــذه الحالة وأن يستمعوا ، ومدح الجن على ذلك فقال : « وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ »(١) الآية . وقال محمد بن كعب القُرَظِىّ : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ فى الصلاة أجابه مَن وراءه ؛ إذا قال بسم الله الرحمن الرحيم ، قالوا مثلَ قوله ، حتى يقضىَ فاتحة الكتاب والسُّورة . فَلَبِث بذلك ما شاء الله أن يلبث ؛ فنزل « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » فأنْصَتُوا . وهذا يدلّ على أن المعنى بالإنصات تركُ الجهر على ما كانوا يفعلون من مجاوبة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال قتادة فى هذه الاية : كان الرجل يأتى وهُمْ فى الصــلاة فيسألهم كم صليتم ، كم بقِىَ ؛ فأنزل الله تعـالى : « وَإِذَا قُرِئَ القرآن فآستمعوا له

(١) آية ٢٩ سورة الأحقاف .

وأنصتوا » . وعن مجاهـد أيضا : كانوا يتكلمون فى الصلاة بحاجتهم ؛ فنزل قوله تعالى : « لعلكم ترحمون » . وقد مضى فى الفاتحة الاختلاف فى قراءة المأموم خلف الإمام . ويأتى فى « الجُمُعة » حكم الخطبة، إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ نظيره « ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً »(1) وقد تقدّم . قال أبو جعفر النحاس: ولم يُختلف فى معنى « وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ » أنه فى الدعاء .

قلت : قـد رُوى عن ابن عباس أنه يعنى بالذكر القراءةَ فى الصلاة . وقيـل : المعنى اقرأ القرآن بتأمّل وتدبّر . « تَضَرُّعًا » مصدر، وقد يكون فى موضع الحال . « وَخِيفَةً » معطوف عليه . وجمع خيفة خِوَف؛ لأنه بمعنى الخَوْف؛ ذكره النحاس. وأصل خِيفة خِوْفة، قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها . خاف الرجل يَخـاف خَوْفا وخِيفـة ومَخافة، فهو خائف، وقوم خُوّف على الأصـل، وخُيّف على اللفظ . وحكى الفراء أنه يقال أيضا فى جمـع خِيفة خِيف . قال الجوهرى : والخِيفة الخوف، والجمع خِيف، وأصله الواو . ﴿ وَدُونَ ٱلْجَهْرِ ﴾ أى دون الرفع من القول . أى أسمـع نفسك ؛ كما قال : « وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا »(2) أى بين الجهر والمخافتة . ودلّ هـذا على أن رفع الصوت بالذكر ممنوع؛ على ما تقدّم فى غير موضع . ﴿ بِٱلْغُـدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ قال قتادة وابن زيد : الآصال العَشِيّات . والغُدُوّ جمع غُدْوة . وقرأ أبو مِجْلَز « بالغُدُوّ والإيصال » وهو مصدر آصلنا، أى دخلنا فى العَشِىّ. والآصال جمع أُصُل؛ مثـل طُنُب وأطناب؛ فهو جمـع الجمع، والواحد أصيل، جُمـع على أُصُـل؛ عن الزجاج .

---

(1) آية ٥٥ من هذه السورة ص ٢٢٣ من هذا الجزء . (2) آية ١١٠ سورة الإسراء .

الأخفش : الآصال جمع أصيل؛ مثل يمين وأيمان . الفَراء: أُصُل جمع أصيل، وقد يكون أُصُل واحدا، كما قال الشاعر :

* ولا بأحسن منها إذ دنا الأُصُلُ *

الجوهري : الأصِيل الوقت بعد العصر إلى المغرب، وجمعه أُصُل وآصال وأصائل؛ كأنه جمع أصِيلة؛ قال الشاعر :

لعمرِي لأنت البيتُ أُكرِمُ أهلَه * وأقعد في أفيائه بالأصائل

ويجمع أيضا على أُصلان؛ مثل بعير وبُعران؛ ثم صغّروا الجمع فقالوا أُصَيْلان ، ثم أبدلوا من النون لاما فقالوا أُصيلال؛ ومنه قول النابغة :

وقفت فيها أُصَيْلالًا أسائلها * عيّتْ جوابا وما بالرَّبْع من أحدِ

وحكى اللِّحْيانِيّ لقيته أُصَيْلالا . ﴿ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ أي عن الذكر .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ يعني الملائكة بإجماع . وقال « عند ربك » والله تعالى بكل مكان لأنهم قريبون من رحمته، وكل قريب من رحمة الله عز وجل فهو عنده؛ عن الزجاج . وقال غيره : لأنهم في موضع لا ينفذ فيه إلا حكم الله . وقيل : لأنهم رسل الله؛ كما يقال : عند الخليفة جيش كثير. وقيل: هذا على جهة التشريف لهم، وأنهم بالمكان المكرم؛ فهو عبارة عن قربهم في الكرامة لا في المسافة . ﴿ وَيُسَبِّحُونَهُ ﴾ أي و يعظمونه وينزهونه عن كل سوء . ﴿ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ قيل يصلّون . وقيل يذلون، خلاف أهل المعاصي .

الثانيــة — والجمهور من العلماء فى أن هذا موضعُ سجود للقارئ. وقد اختلفوا فى عدد سجود القرآن؛ فأقصى ما قيل : خمس عشرة . أولها خاتمة الأعراف، وآخرها خاتمة العَلَق . وهو قول ٱبن حبيب وٱبن وهب — فى رواية — و إسحاق . ومن العلماء من زاد سجدة الحِجر، قوله تعـالى : « وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ » على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى . فعلى هذا تكون ست عشرة . وقيـل : أربع عشرة ؛ قاله ابن وهب فى الرواية الأخرى عنـه . فأسـقط ثانية الحج . وهو قول أصحاب الرأى، والصحيح سقوطها؛ لأن الحديث لم يصح بثبوتها. ورواه ابن ماجه وأبو داود فى سننهما عن عبد الله بن مُنَين من بنى عبد كُلال عن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأه خمس عشرة سجدة فى القرآن؛ منها ثلاث فى المفصّل ، وفى الحج سجدتان . وعبد الله بن مُنين لا يُحتج به؛ قاله أبو محمـد عبد الحق . وذكر أبو داود أيضا من حديث عقبة بن عامر قال قلت : يا رسول الله ، أفى سورة الحج سجدتان؟ . قال : "نعم ومن لم يسـجدهما فلا يقرأهما" . فى إسناده عبد الله بن لَهِيعة ، وهـو ضعيف جدا . وأثبتهما الشافعى وأسقط سجدة ص . وقيل : احدى عشرة سجدة ، وأسقط آخرة الحج وثلاث المفصّل . وهو مشهور مذهب مالك . وروى عن ابن عباس وابن عمر وغيرهم . وفى سنن ٱبن ماجه عن أبى الدرداء قال : سجدت مع النبى صلى الله عليه وسلم إحدى عشرة سجدة ليس فيهـا من المفصّل شىء، الأعراف والرعد والنحل و بنى إسرائيل ومريم والحج سجدة والفرقان وسليمان سورة النمل والسجدة وص وسجدة الحواميم . وقيل : عشر، وأسقط آخرة الحج وص وثلاث المفصل؛ ذُكر عن ابن عباس . وقيل : إنها أربع، سجدة الم تنزيل وحم تنزيل والنجم والعلق . وسبب الخلاف ٱختـلاف النقـل فى الأحاديث والعمل . واختلافهـم فى الأمر المجرّد بالسجود فى القرآن هل المراد به سجود التلاوة أو سجود الفرض فى الصلاة .

الثالثــة — واختلفوا فى وجوب سجود التلاوة؛ فقال مالك والشافعى : ليس بواجب . وقال أبو حنيفـة : هو واجب . وتعلّق بأن مطلق الأمر بالسـجود على الوجوب، و بقوله عليه السلام : "إذا قرأ ٱبن آدم سجدة فسجد ٱعتزل الشيطان يبكى يقول يا وَيْلَه" . وفى رواية

أبي كُريب "ياوَيْلي"، وبقوله عليه السلام إخبارا عن إبليس لعنه الله : "أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلى النـار" . أخرجه مسلم . ولأن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يحافظ عليه . وعوّل علماؤنا على حديث عمر الثابت ـ خرّجه البخاريّ ـ أنه قرأ آية سجدة على المِنْبر [فنزل] فسجد وسجد الناس معه، ثم قرأها فى الجمعة الأخرى فتهيأ الناس للسجود، فقال : أيها الناس على رِسْلكم ! إن الله لم يكتبها علينا إلا أن نشاء". وذلك بمحضر الصحابة أجمعين من الأنصار والمهاجرين . فلم ينكر عليـه أحد فثبت الإجماع به فى ذلك . وأما قوله : " أمِر ابن آدم بالسجود " فإخبار عن السجود الواجب . ومواظبة النبيّ صـلى الله عليه وسلم تدلّ على الاستحباب، والله أعلم .

الرابعـــة ـــ ولا خلاف فى أن سجود القرآن يحتاج إلى ما تحتاج إليه الصلاة من طهارة حدث ونجس ونيةٍ واستقبالِ قبلةٍ ووقت . إلا ما ذكر البخاريّ عن ابن عمر أنه كان يسجد على غير طهارة . وذكره ابن المنذر عن الشعبيّ . وعلى قول الجمهور هل يحتاج إلى تحريم ورفع يدين عنده وتكبير وتسليم . اختلفوا فى ذلك ؛ فذهب الشافعيّ وأحمد وإسحاق إلى أنه يكبر ويرفع للتكبير لهـا . وقد روى فى الأثر عن ابن عمـر أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم كان إذا سجد كبر، وكذلك إذا رفع كبر . ومشهور مـذهب مالك أنه يكبر لهـا فى الخفض والرفـع فى الصلاة . واختُلف عنه فى التكبير لهـا فى غير الصلاة؛ وبالتكبير لذلك قاله عامة الفقهاء، ولا سـلام لهـا عند الجمهور . وذهب جماعة من السلف وإسحاق إلى أنه يسلم منها . وعلى هـذا المذهب يتحقق أن التكبير فى أوّلهـا للإحرام . وعلى قول من لا يسـلم يكون للسـجود فحسب . والأوّل أولى؛ لقوله عليه السلام : "مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم" . وهـذه عبادة لهـا تكبير، فكان لهـا تحليل كصلاة الجنازة بل أولى ؛ لأنها فعـل وصلاة الجنازة قول . وهذا اختيار ابن العربيّ .

الخامســـة ـــ وأما وقته فقيل : يسجد فى سائر الأوقات مطلقا؛ لأنها صلاة لسبب . وهو قول الشافعيّ وجماعة . وقيل : ما لم يُسفِر الصبح [(١)]، أو ما لم تصفر الشمس بعد العصر .

(١) فى الأصول : «بعد الصبح» والتصويب من كتب المـالكية .

وقيل : لا يسجد بعــد الصبح ولا بعد العصر . وقيل : يسجد بعــد الصبح ولا يسجد بعد العصر . وهذه الثلاثة الأقوال فى مذهبنا . وسبب الخلاف معارضة ما يقتضيه سبب قراءة السجدة من السجود المرتّب عليها لعموم النّهى عن الصلاة بعد العصر وبعــد الصبح . وآختلافهم فى المعنى الذى لأجله نُهى عن الصلاة فى هذين الوقتين، والله أعلم .

السادســـة — فإذا سجد يقول فى سجوده : اللّهُمّ آحطط عنى بها وِزْراً، واكتب لى بها أجرا، واجعلها لى عندك ذُخْرا . ورواه ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ ذكره ابن ماجه .

السابعـــة — فإن قرأها فى صلاة، فإن كان فى نافلة سجــد إن كان منفردا أو فى جماعة وأمن التخليط فيها . وإن كان فى جماعة لا يأمن ذلك فيها فالمنصوص جوازه . وقيل : لا يسجد فيها . وأما فى الفريضة فالمشهور عن مالك النّهىُ عنه فيها ، سواء كانت صلاة سر أو جهر ، جماعة أو فرادى . وهو معلّل بكونها زيادة فى أعداد سجود الفريضة . وقيل : معلل بخوف التخليط على الجماعة ؛ وهذا أشبه . وعلى هــذا لا يمنع منه الفرادى ولا الجماعة التى يأمن فيها التخليط .

الثامنـــة — روى البخاريّ عن أبى رافــع قال : صلّيت مع ابى هريرة العَتَمة ، فقرأ « إذا السماء آنشقّت » فسجد؛ فقلت : ما هذه ؟ قال : سجدت بها خلف أبى القاسم صلى الله عليه وسلم ، فلا أزال أسجــد فيها حتى ألقاه . انفرد بإخراجه . وفيه « وقيل لعمران بن حُصين : الرجل يسمع السجدة ولم يجلس لها؟ قال : أرأيت لو قعد لها! كأنه لا يوجبه عليه . وقال سلمان : ما لهذا غدونا . وقال عثمان : إنما السجدة على من آستمعها . وقال الزُّهرى : لا يسجد إلا أن يكون طاهرا، فإذا سجدت وأنت فى حَضَر فاستقبل القبلة، فإن كنت راكبا فلا عليك حيث كان وجهك . وكان السائب لا يسجد لسجود القاصّ[1] » والله أعلم .

(١) القاص (بتشــديد الصاد المهملة) : الذى يقرأ القصص والأخبار والمواعظ ؛ لكونه ليس قاصدا لتلاوة القرآن .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ســـــورة الأنفـال

مدنيّـة بدريّة فى قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء . وقال ابن عباس : هى مدنية إلا سبع آيات، من قوله تعالى : « وإذ يمكر بك الذين كفروا[1] » إلى آخر السبع آيات .

قوله تعـالى : يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١)

فيه سـبع مسائل :

الأولى ـــ روى عُبادة بن الصّامت قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر فلَقُوا العدو ؛ فلما هزمهم الله اتّبعتهم طائفة من المسلمين يقتلونهم، وأحدقت طائفة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستولت طائفة على العسكر والنهب؛ فلما نفى الله العدو ورجع الذين طلبوهم قالوا: لنا النَّفَل، نحن الذين طلبنا العدوّ وبنا نفاهم الله وهزمهم . وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنتم بأحقّ به منا، بل هو لنا ، نحن أحدقنا برسول الله صلى الله عليه وسلم لئلا ينال العدوُّ منه غِرّة. وقال الذين استَلْوَوا [على] العسكر والنهب : ما أنتم بأحقّ منا، هو لنا، نحن حَوَيْناه واستولَينا عليه؛ فأنزل الله عز وجل : « يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» . فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فُوَاقٍ بينهم . قال أبو عمر: قال أهل العلم بلسان العرب : استَلْوَوا أطافوا وأحاطوا؛ يقال : الموت مُسْتَلْوٍ على العباد . وقوله « فقسـمه عن فُواق » يعنى عن سرعة . قالوا : والفُوَاق ما بين حَلْبَتَي الناقة . يقال : انتظره فُواقَ ناقة ، أى هذا

(١) آية ٣٠

المقدار . ويقولونها بالضم والفتح : فُواق وفَواق . وكانَ هذا قبل أن ينزل : « وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ» الآية . وكأن المعنى عند العلماء : أى إلى الله وإلى الرسول الحكم فيها والعملُ بها بما يقرب من الله تعالى . وذكر محمد ابن إسحاق قال : حدّثنى عبد الرحمن بن الحارث وغيره من أصحابنا عن سليمان بن موسى الأَشْدق عن مكحول عن أبى أُمامة الباهليّ قال : سألت عُبادة بن الصّامت عن الأنفال فقال : فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النّفَل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا وجعله إلى الرسول، فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بَواء . يقول : على السَّوَاء . فكان ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وصلاح ذات البَيْن . وروى الصحيح عن سعد بن أبى وَقّاص قال : أغتنم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غنيمة عظيمة ، فإذا فيها سيف ، فأخذتُه فأتيت به النبيّ صلى الله عليه وسلم فقلت : نفِّلْنى هذا السيف، فأنا من قد علمتَ حاله . قال : "ردّه من حيث أخذته" فانطلقت حتى أردت أن ألقيَه فى القَبَض(1) لامتنى نفسى فرجعت إليه فقلت : أعطنيه . قال : فشدّ لى صوته "ردّه من حيث أخذته" فانطلقت حتى أردت أن ألقيَه فى القبض لامتنى نفسى فرجعت إليه فقلت : أعطنيه، قال : فشدّ لى صوته "ردّه من حيث أخذته" فأنزل الله « يسئلونك عن الأنفال » . لفظ مسلم . والروايات كثيرة ، وفيما ذكرناه كفاية ، والله الموفق للهداية .

الثانيـة — الأنفال واحدها نَفَل بتحريك الفاء؛ قال(2) :

إنّ تَقْـوى رَبِّنا خـيرُ نَفَـلْ * وبإذن الله رَيْثِي والْعَجَـل

أى خير غنيمة . والنَّفْل : اليمين؛ ومنه الحديث "فتبرئكم يهود بنَفْل خمسين منهم" . والنّفْل الانتفاء؛ ومنه الحديث "فانتفل من ولدها" . والنَّفَل : نبت معروف . والنَّفْل : الزيادة على الواجب ، وهو التطوع . وولد الولد نافلة؛ لأنه زيادة على الولد . والغنيمة نافلة؛ لأنها

(1) القبض (بالتحريك) بمعنى المقبوض ، وهو ما جمع من الغنيمة قبل أن تقسم .

(2) القائل هو لبيد؛ كما فى اللسان (مادة نفل) .

زيادة فيما أحل الله لهذه الأمة مما كان محرّما على غيرها . قال صلى الله عليه وسلم : " فُضِّلت على الأنبياء بست — وفيها — وأحلّت لِيَ الغنائم ". والأنفال : الغنائم نفسها . قال عنترة :

إنّا إذا آحمر الوَغَى نُروِى القنا * ونَعِفّ عند مقاسم الأنفال

أى الغنائم .

الثالثة — وآختلف العلماء فى محل الأنفال على أربعة أقوال: الأوّل — محلها فيما شذ عن الكافرين إلى المسلمين وأخذ بغير حرب . الثانى — محلها الخمس . الثالث — خمس الخمس . الرابع — رأس الغنيمة ؛ حسب ما يراه الإمام . ومذهب مالك رحمه الله أن الأنفال مواهب الإمام من الخمس، على ما يرى من الاجتهاد، وليس فى الأربعة الأخماس نفل، وإنما لم ير النفل من رأس الغنيمة لأن أهلها معيَّنون وهم المُوجِفون، والخمس مردود قسمه إلى آجتهاد الإمام. وأهلُه غير معيّنين . قال صلى الله عليه وسلم: "مالى مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم " . فلم يمكن بعد هذا أن يكون النفل من حق أحد، وإنما يكون من حق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الخمس. هذا هو المعروف من مذهبه. وقد روى عنه أن ذلك من خمس الخمس . وهو قول ابن المسيِّب والشافعىّ وأبى حنيفة . وسبب الخلاف حديثُ ابن عمر، رواه مالك قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سَرِيّة قِبَل نَجْد فغَنِموا إبلا كثيرة ، وكانت سُهْمانهم آثنَىْ عشر بعيرا أو أحد عشر بعيرا ؛ ونُفِّلُوا بَعيرًا بعيرًا . هكذا رواه مالك على الشك فى رواية يحيى عنه، وتابعه على ذلك جماعة رواةِ الموطأ إلا الوليد بن مسلم فإنه رواه عن مالك عن نافع عن ابن عمر، فقال فيه : فكانت سُهْمانهم اثنى عشر بعيرا، ونُفِّلُوا بعيرا بعيرا . ولم يشُك . وذكر الوليد بن مسلم والحكم بن نافع عن شعيب بن أبى حمزة عن نافع عن آبن عمر قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جيش قبل نجد — فى رواية الوليد : أربعة آلاف — وآنبعثت سرية من الجيش — فى رواية الوليد : فكنت ممن خرج فيها — فكان سهمان الجيش آثنى عشر بعيرا، اثنى عشر بعيرا؛ ونفل أهل السرية بعيرا بعيرا؛ فكان سهمانهم ثلاثة عشر بعيرا؛ ذكره أبو داود . فاحتج بهذا من

يقول : إن النَّفل إنما يكون من جملة الخمس . وبيانه أن هذه السرية لو نُزّلت على أن أهلها كانوا عشرةً مثلا أصابوا فى غنيمتهم مائة وخمسين ، أخرج منها خمسها ثلاثين وصار لهم مائة وعشرون ، قُسِّمت على عشرة وجب لكل واحد آثنا عشر بعيرا، اثنا عشر بعيرا، ثم أعطى القوم من الخمس بعيرا بعيرا؛ لأن خمس الثلاثين لا يكون فيه عشرة أبعرة . فإذا عرفت ما للعشرة عرفت ماللمائة والألف وأزْيد . واحتج من قال : إن ذلك كان من خمس الخمس بأن قال: جائز أن يكون هناك ثياب تباع ومتاع غير الإبل ، فأعطى من لم يبلغه البعير قيمة البعير من تلك العُرُوض . ومما يَعضُد هذا ما روى مسلم فى بعض طرق هذا الحديث : فأصبنا إبلا وغنما؛ الحديث . وذكر محمد بن إسحاق فى هذا الحديث أن الأمير نفّلهم قبل القَسْم، وهذا يوجب أن يكون النفل من رأس الغنيمة، وهو خلاف قول مالك . وقول من روى خلافه أولى لأنهم حفاظ؛ قاله أبو عمر رحمه الله . وقال مكحول والأوزاعيّ : لا ينفَّل بأ كثر من الثلث؛ وهو قول الجمهور من العلماء . قال الأوزاعيّ : فإن زادهم فَلْيَفِ لهم ويجعل ذلك من الخمس . وقال الشافعيّ : ليس فى النَّفَل حدّ لا يتجاوزه الإمام .

الرابعة — ودلّ حديث ابن عمر على ما ذكره الوليد والحكم عن شعيب عن نافع أن السرية إذا خرجت من العسكر فغَنِمت أن العسكر شركاؤهم . وهذه مسألة وحُكْمٌ لم يذكره فى الحديث غير شعيب عن نافع، ولم يختلف العلماء فيه، والحمد لله .

الخامسة — واختلف العلماء فى الإمام يقول قبل القتال : من هدم كذا من الحِصْن فله كذا ، ومن بلغ إلى موضع كذا فله كذا ، ومن جاء برأسٍ فله كذا ، ومن جاء بأسير فله كذا ؛ يُضرّيهم[1] . فرُوِى عن مالك أنه كرهه . وقال : هو قتال على الدنيا . وكان لا يجيزه . وقال الثَّوْرِيّ : ذلك جائز ولا بأس به .

قلت : وقد جاء هذا المعنى مرفوعا من حديث ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "من قتل قتيلا فله كذا ومن أسر أسيرا فله كذا". الحديثَ بطوله.

(١) التضرية : الاغراء .

وفى رواية عكرمة عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من فعل كذا وكذا وأتى مكان كذا وكذا فله كذا" . فتسارع الشُّبان وثبت الشيوخ مع الرايات ؛ فلمـا فُتح لهم جاء الشبـان يطلبون ما جُعل لهم فقال لهم الأشـياخ : لا تذهبون به دوننا ، فقد كنا رِدْءاً لكم ؛ فأنزل الله تعالى : « وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ » ذكره إسماعيل بن إسحاق أيضـا . وروى عن عمر بن الخطاب أنه قال لجرير بن عبـد الله البَجَلِي لمـا قدم عليه فى قومه وهو يريد الشأم : هل لك أن تأتى الكوفة ولك الثلث بعد الخمس من كل أرض وسَبْى . وقال بهذا جماعة فقهاء الشأم : الأوزاعى ومكحول وابن حَيْوَة وغيرهم . ورأوا الخمس من جملة الغنيمة ، والنَّفَل بعد الخمس ثم الغنيمة بين أهل العسكر ؛ وبه قال إسحاق وأحمـد وأبو عبيد . قال أبو عبيد : والناس اليوم على أن لا نفل من جهـة الغنيمة حتى تخمس . وقال مالك : لا يجوز أن يقول الإمام لسَرِيّة : ما أخذتم فلكم ثلثه . قال سُحْنُون : يريد ابتداء . فإن نزل مضى ، ولهم أنصباؤهم فى الباقى . وقال سحنون : إذا قال الإمام لسَرِيّة ما أخذتم فلا خمس عليكم فيـه ؛ فهذا لا يجوز ، فإن نزل رددته ؛ لأن هذا حكم شاذّ لا يجوز ولا يمضى .

السادســـة — واستحب مالك رحمه الله ألا ينفّل الإمام إلا ما يظهر كالعمامة والفرس والسيف . ومنع بعض العلماء أن ينفّل الإمام ذهبا أو فضة أو لؤلؤا ونحوه . وقال بعضهم : النفل جائز من كل شىء . وهو الصحيح لقول عمر ومقتضى الآية ، والله أعلم .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أمر بالتقوى والإصلاح ، أى كونوا مجتمعين على أمر الله فى الدعاء : اللّهُمّ أصلح ذات البَيْن ، أى الحال التى يقع بهـا الاجتماع . فدلّ هـذا على التصريح بأنه شَجَر بينهم اختلاف ، أو مالت النفوس إلى التّشاحّ ؛ كما هو منصوص فى الحـديث . وتقدّم معنى التقوى[(1)] ، أى اتقوا الله فى أقوالكم وأفعالكم ، وأصلحوا ذات بينكم . ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فى الغنـائم ونحوها . ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى إن سبيل المؤمن أن يمتثل ما ذكرنا . وقيل : «إنْ» بمعنى « إذ » .

---

(1) راجع جـ ١ ص ١٦١ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) ﴾

قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قال العلماء : هــذه الآية تحريض على إلزام طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أمر به من قسمة تلك الغنيمة . والوجل : الخوف . وفى مستقبله أربع لغات : وَجِل يَوْجَل ويَاجَل ويَيْجَل ويِيجل ؛ حكاها سيبويه . والمصدر وَجِل وَجَلا ومَوْجلا ؛ بالفتح . وهذا مَوْجِله (بالكسر) للوضع والاسم . فمن قال : ياجَل فى المستقبَل جعل الواو ألفا لفتحة ما قبلها . ولغة القرآن الواو « قَالُوا لَا تَوْجَلْ »[1] . ومن قال : « يِيجل » بكسر الياء فهى على لغة بنى أسـد ، فإنهم يقولون : أنا إيجل ، ونحن نِيجل ، وأنت تِيجل ؛ كلها بالكسر . ومن قال : « يَيْجل » بناه على هذه اللغة ، ولكنه فتح الياء كما فتحوها فى يَعلم ، ولم تكسر الياء فى يعلم لاستثقالهم الكسر على اليـاء . وكسرت فى « يِيجل » لتقوّى إحدى الياءين بالأخرى . والأمر منه « إيجَلْ » صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها . وتقول : إنِّى منه لأَوْجَل . ولا يقال فى المؤنث : وَجْلاء ، ولكن وَجِلة . وروى سفيان عن السّدّى فى قوله جل وعز : « ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » قال : إذا أراد أن يظلم مظلمة قيل له : اتق الله ، كَفّ ووَجِل قلبه .

الثانيـــة ــ وصف الله تعالى المؤمنين فى هذه الآية بالخوف والوَجَل عند ذكره . وذلك لقوة إيمانهم ومراعاتهم لربّهم ، وكأنهم بين يديه . ونظير هذه الآية « وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ . ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ »[2] . وقال : « وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ »[3] . فهذا يرجع إلى كمال

---

(١) آية ٥٣ سورة الحجر . (٢) آية ٣٤ سورة الحج . (٣) آية ٢٨ سورة الرعد .

المعرفة وثقة القلب . والوَجَل: الفزع من عذاب الله؛ فلا تناقض . وقد جمع الله بين المعنيين في قوله: «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ»(١). أي تسكن نفوسهم من حيث اليقين إلى الله وإن كانوا يخافون الله . فهذه حالة العارفين بالله ، الخائفين من سطوته وعقوبته؛ لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطَّغَام(٢) من الزعيق والزئير ومن النُّهاق الذي يشبه نُهاق الحمير. فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وَجْد وخشوع : لم تبلغ أن تساوى حال الرسول ولا حال أصحابه في المعرفة بالله ، والخوف منه ، والتعظيم لجلاله؛ ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهمَ عن الله والبكاءَ خوفا من الله. ولذلك وصف الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال: «وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ»(٣). فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم . ومن لم يكن كذلك فليس على هَدْيهم ولا على طريقتهم؛ فمن كان مُسْتَنًّا فليستَنّ، ومن تعاطى أحوال المجانين والجُنون فهو من أخسّهم حالا ؛ والجنون فنون . روى مسلم عن أنس بن مالك أن الناس سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى أَحْفَوْه(٤) في المسألة، فخرج ذات يوم فصعد المِنْبر فقال : "سَلُونِي لا تسألوني عن شيء إلا بينته لكم ما دمتُ في مقامي هذا". فلما سمع ذلك القومُ أَرَمُّوا(٥) ورَهِبوا أن يكون بين [يَدَيْ(٦)] أمرٍ قد حضر . قال أنس : فجعلت ألتفت يمينا وشمالا فإذا كل إنسان لافٌّ رأسه في ثوبه يبكي . وذكر الحديث . وروى الترمذيّ وصححه عن العِرْباض بن سارِيَة قال : وَعَظَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة ذَرَفت منها العيون ، ووَجِلت منها القلوب . الحديث . ولم يقل : زَعَقْنا ولا رَقَصْنا ولا زَفَنَّا(٧) ولا قُمنا .

---

(١) آية ٢٣ سورة الزمر . (٢) الطغام والطغامة : أرذال الناس وأوغادهم .
(٣) آية ٨٣ سورة المائدة . (٤) أي أكثروا عليه . وأحفى في السؤال وألحف بمعنى ألح .
(٥) أرم الرجل إرماما : إذا سكت فهو مرمّ . (٦) زيادة عن صحيح مسلم .
(٧) زفن (من باب ضرب) : رقص ؛ وأصله الدفع الشديد والضرب بالرجل ، كما يفعل الراقص .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ أى تصديقا . فإن إيمان هذه الساعة زيادةٌ على إيمان أمس ؛ فمن صدّق ثانيا وثالثا فهو زيادة تصديق بالنسبة إلى ما تقدّم . وقيل : هو زيادة انشراح الصدر بكثرة الآيات والأدلة ؛ وقد مضى هذا المعنى فى « آل عمران »[1] . ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ تقدّم معنى التوكل فى « آل عمران »[2] أيضا . ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ تقدّم فى أوّل سورة « البقرة »[3] . ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ أى الذى آستوى فى الإيمان ظاهرُهم وباطنهم . ودلّ هذا على أن لكل حق حقيقة ؛ وقد قال عليه السلام لحارثة : "إنّ لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك" ؟ الحديث . وسأل رجل الحسن فقال : يا أبا سعيد ؛ أمؤمن أنت ؟ فقال له : الإيمان إيمانان ، فإن كنت تسألنى عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب فأنا به مؤمن . وإن كنت تسألنى عن قول الله تبارك تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ — إلى قوله — أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا » فوالله ما أدرى أنا منهم أم لا . وقال أبو بكر الواسطىّ : من قال أنا مؤمن بالله حقا ؛ قيل له : الحقيقة تشير إلى إشراف وآطلاع وإحاطة ؛ فمن فقده بطل دعواه فيها . يريد بذلك ما قاله أهل السنة : إنّ المؤمن الحقيق من كان محكوما له بالجنة ، فمن لم يعلم ذلك من سِرّ حكمته تعالى فدعواه بأنه مؤمن حقا غير صحيح .

قوله تعالى : كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ قال الزجاج : الكاف فى موضع نصب ؛ أى الأنفال ثابتة لك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق . أى مثل إخراجك ربّك من بيتك بالحق . والمعنى : امض لأمرك فى الغنائم ونفِّل من شئت وإن كرهوا ؛ لأن بعض

---

(١) راجع ج ٤ ص ٢٨٠ طبعة أولى أو ثانية .　(٢) راجع ج ٤ ص ١٨٩ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع ج ١ ص ١٦٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

الصحابة قال لرسول الله صلى الله عليه وسـلم حين جعل لكل من أتى بأسير شيئا قال : يبقى أكثر الناس بغـير شيء . فموضع الكاف فى «كما» نَصْبٌ كما ذكرنا . وقاله الفَرّاء أيضا . قال أبو عبيدة : هو قَسَم ، أى والذى أخرجك؛ فالكاف بمعنى الواو ، وما بمعنى الذى . وقال سعيد بن مَسْعَدة : المعنى أولئك هم المؤمنون حقا كما أخرجك ربك من بيتك بالحق . قال : وقال بعض العلمـاء «كما أخرجك ربك من بيتك بالحق» فاتقوا الله وأصلحوا ذات بَيْنِكم . وقال عكرمة : المعنى أطيعوا الله ورسوله كما أخرجك . وقيل : «كما أخرجك» متعلّق بقوله «لهم درجات» المعنى : لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم . أى هذا الوعد للؤمنين حقٌّ فى الآخرة كما أخرجك ربك من بيتك بالحق الواجب له؛ فأنجزك وَعْدَك وأظفرك بعدوّك وأَوْفَى لك؛ لأنه قال عز وجل: «وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ» . فكما أنجز هذا الوعد فى الدنيا كذا يُنْجِز ما وعدكم به فى الآخرة . وهذا قول حَسَن ذكره النحاس واختاره . وقيل : الكاف فى «كما» كافُ التشبيه ، ومخرجه على سبيل المجازاة؛ كقول القائل لعبده : كما وجّهتك إلى أعدائى فآستضعفوك وسألت مددا فأمددتك وقويتـك وأزحت علّتك ، فخذهم الآن فعاقبهم بكذا . وكما كسوتك وأجريت عليك الرزق فآعمل كذا وكذا . وكما أحسنت إليك فآشكرنى عليه . فقال : كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وغَشّاكم النُّعاس أَمَنَةً منه — يعنى به إياه ومن معـه — وأنزل من السماء ماء ليطهركم به ، وأنزل عليكم من السماء ملائكة مُرْدِفين ؛ فآضربوا فوق الأعناق وآضربوا منهم كل بنان . كأنه يقول : قد أزحت عِلَلَكم ، وأمددتكم بالملائكة فآضربوا منهم هذه المواضع ، وهو المَقْتَل ؛ لتبلغوا مراد الله فى إحقاق الحق وإبطال الباطل . والله أعلم . ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ أى لكارهـون ترك مكة وترك أموالهم وديارهم .

قوله تعـالى : يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَـا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ مجادلتهم : قولهم لما ندبهم إلى العير وفات العير وأمرهم بالقتال ولم يكن معهم كبير أُهْبة شقّ ذلك عليهم وقالوا : لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا العدّة . ومعنى ﴿ فِي الْحَقِّ ﴾ أى فى القتال . ﴿ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ لهم أنك لا تأمر بشيء إلا بإذن الله . وقيل : بعد ما تبيّن لهم أن الله وعدهم إمّا الظَّفَر بالعير أو بأهل مكة ، وإذ فات العير فلا بدّ من أهل مكة والظَّفَر بهم . فمعنى الكلام الإنكارُ لمجادلتهم . ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ ﴾ كراهة للقاء القوم . ﴿ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ أى يعلمون أن ذلك واقع بهم؛ قال الله تعالى : « يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ »[1] أى يعلم .

قوله تعالى : وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ (٨)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ «إحدى» فى موضع نصب مفعول ثان . «أنها لكم» فى موضع نصب أيضا بدل من «إحدى» . ﴿ وَتَوَدُّونَ ﴾ أى تحبون . ﴿ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ قال أبو عبيدة : أى غير ذات الحدّ . والشوكة : السلاح . والشوْك : النبت الذى له حَدٌّ؛ ومنه رجل شائك السلاح، أى حديد السلاح . ثم يقلب فيقال : شاكِى السلاح . أى تودّون أن تظفَروا بالطائفة التى ليس معها سلاح ولا فيها حرب؛ عن الزجاج . ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أى أن يظهر الإسلام . والحقُّ حَقٌّ أبدا ، ولكن إظهاره تحقيق له من حيث إنه إذا لم يظهر أشبه الباطل . ﴿ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أى بوعده؛ فإنه وعد نبيّه ذلك فى سورة «الدّخان» فقال : « يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ »[2] أى من أبى جَهْل وأصحابه . وقال : « لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ »[3] . وقيل : « بكلماته » أى

(١) آخر سورة النبأ . (٢) آية ١٦ (٣) آية ٣٣ سورة التوبة .

بأمره ؛ إياكم أن تجاهدوهم . ﴿ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى يستأصلهم بالهلاك . ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ أى يظهر دين الإسلام ويُعزّه . ﴿ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ ﴾ أى الكفر . و إبطاله إعدامه ؛ كما أن إحقاق الحق إظهاره « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ »(١) . ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

قوله تعالى : إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ الاستغاثة : طلب الغَوْث والنَّصر . غوّث الرجل قال : واغوثاه . والاسم الغَوْث والغُوَاث والغَوَاث . واستغاثنى فلان فأغثته ؛ والاسم الغِياث ؛ عن الجوهرى . وروى مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلثمائة وسبعة عشر(٢) رجلا ؛ فاستقبل نبىّ الله صلى الله عليه وسلم القِبلة ، ثم مدّ يديه ، فجعل يهتِف بربه : "اللهم أنجز لى ما وعدتنى . اللهم ائتنى ما وعدتنى . اللهم إن تهلِك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض" . فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه . فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه وقال : يا نبىّ الله ، كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك . فأنزل الله تعالى : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردِفين » فأمدّه الله بالملائكة . وذكر الحديث . ﴿ مردَفين ﴾ بفتح الدال قراءة نافع . والباقون بالكسر اسم فاعل ، أى متتابعين ، تأتى فرقة بعد فرقة ، وذلك أهيب فى العيون . و «مردَفين» بفتح الدال على مالم يسم فاعله ؛ لأن الناس الذين قاتلوا يوم بدر أردفوا بألف من الملائكة ، أى أنزلوا إليهم لمعونتهم على

---

(١) آية ١٨ سورة الأنبياء . (٢) الذى فى صحيح مسلم : «... تسعة عشر...» .

الكفار . فمردَفين بفتح الدال نعت لألف . وقيل : هو حال من الضمير المنصوب في « مُمِدُّكم » . أي ممدّكم في حال إردافكم بألف من الملائكة ؛ وهذا مذهب مجاهد . وحكى أبو عبيدة أنّ رَدِفني وأردفني واحد . وأنكر أبو عبيد أن يكون أردف بمعنى ردِف ؛ قال لقول الله عز وجل : « تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ »(1) ولم يقل المُرْدِفة . قال النحاس ومكّيّ وغيرهما : وقراءة كسر الدال أوْلى ؛ لأن أهل التأويل على هذه القراءة يفسرون . أي أردف بعضهم بعضا ، ولأن فيها معنى الفتح على ماحكى أبو عبيدة ، ولأن عليه أكثر القراء . قال سيبويه : وقرأ بعضهم « مُرَدِّفين » بفتح الراء وشدّ الدال . وبعضهم « مُرِدِّفين » بكسر الراء . وبعضهم « مُرُدِّفين » بضم الراء . والدال مكسورة مشدّدة في القراءات الثلاث . فالقراءة الأولى تقديرها عند سيبويه مرتدفين ، ثم أدغم التاء في الدال ، وألقى حركتها على الراء لئلا يلتقي ساكنان . والثانية كسرت فيها الراء لالتقاء الساكنين . وضُمّت الراء في الثالثة إتباعا لضمة الميم ؛ كما تقول : رُدُّ يا هذا . وقرأ جعفر بن محمد وعاصم الجَحْدَرِيّ « بآلُف » جمع ألف ؛ مثل فَلْس وأفلس . وعنهما أيضا « بألْف » . وقد مضى في « آل عمران » ذكر نزول الملائكة وسيماهم وقتالهم(2) . وتقدّم فيها القول في معنى قوله : « وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى »(3) . والمراد الإمداد . ويجوز أن يكون الإرداف . ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾ نبّه على أن النصر من عنده جل وعز لا من الملائكة ؛ أي لولا نصره لما انتفع بكثرة العدد بالملائكة . والنصر من عند الله يكون بالسيف ويكون بالحجة .

قوله تعالى : إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ ﴾ مفعولان . وهي قراءة أهل المدينة ، وهي حسنة لإضافة الفعل إلى الله عز وجل لتقدم ذكره في قوله : « وما النصر إلا من عند الله » .

(1) آية ٧ سورة النازعات . (2) راجع جـ ٤ ص ١٩٠ طبعة أولى أو ثانية . (3) جـ ٤ ص ١٩٨

ولأن بعــده « ويُنَزِّلُ عليكم » فأضاف الفعل إلى الله عز وجل . فكذلك الإغشاء يضاف إلى الله عز وجل ليتشاكل الكلام . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « يَغشاكم النعاسُ » بإضافة الفعل إلى النعاس . دليله « أَمَنَةً نُعاساً يَغْشَى »(١) فى قراءة من قرأ باليـاء أو بالتاء ؛ فأضاف الفعل الى النعاس أو إلى الأَمَنة . والأمنة هى النعاس ؛ فأخبر أن النعاس هـو الذى يغشى القوم . وقرأ الباقون « يُغَشِّيكم » بفتح الغين وشـد الشين . « النعاسَ » بالنصب على معنى قراءة نافع ، لغتان بمعنى غَشّى وأغشى؛ قال الله تعالى : « فأغشيناهم »(٢) . وقال : « فغَشّاها ما غَشّى »(٣) . وقال : « كأنما أُغْشِيَتْ وُجوهُهم »(٤) . قال مَكّىّ : والاختيار ضم الياء والتشديد ونصب النعاس؛ لأن بعده « أَمَنَةً منه » والهـاء فى « منه » لله، فهو الذى يغشيهم النعاس، ولأن الأكثر عليه . وقيل : أمنة من العـدوّ . و﴿ أَمَنَةً ﴾ مفعول من أجله أو مصـدر ؛ يقال : أمِن أَمَنة وأمْنا وأمانا ؛ كلها سواء . والنعاس حالة الأمن الذى لا يخاف . وكان هذا النعاس فى الليلة التى كان القتال من غدها؛ فكان النوم عجيبا مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهم، ولكن الله ربط جأشهم . وعن علىّ رضى الله عنه قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المِقْداد على فرس أبلق ، ولقـد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله صلى الله عليـه وسلم تحت شجرة يصـلى ويبكى حتى أصـبح ؛ ذكره البيهقى . المـاوردىّ : وفى امتنان الله عليهم بالنوم فى هـذه الليلة وجهان : أحدهمـا — أن قوّاهم بالاسـتراحة على القتال من الغـد . الثـانى — أن أمّنهم بزوال الرعب من قلوبهم ؛ كما يقال : الأمن مُنِيم ، والخوف مُسْهِر . وقيل : غشاهم فى حال التقاء الصفين . وقد مضى مثل هذا فى يوم أُحُد فى « آل عمران »(٥) .

قوله تعـالى : ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ ظاهر القرآن يدل على أن النعاس كان قبل المطر . وقال ابن أبى نَجِيح : كان المطر قبل النعاس . وحكى الزجاج أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر فنزلوا عليـه وبقى المؤمنون لا ماء لهم فوَجَسَت نفوسهم وعَطِشوا وأجنبوا وصلّوْا

(١) آية ١٥٤ سورة آل عمران . (٢) آية ٩ سورة يس . (٣) آية ٥٤ سورة النجم .
(٤) آية ٢٧ سورة يونس . (٥) راجع جـ ٤ ص ٢٤١ طبعة أولى أو ثانية .

بذلك؛ فقال بعضهم فى نفوسهم بإلقاء الشيطان إليهم : نزعم أنا أولياء الله وفينا رسوله وحالنا هـذه والمشركون على المـاء . فأنزل الله المطر ليلة بدر السابعة عشرة من رمضان حتى سالت الأودية؛ فشربوا وتطهروا وسقوا الظَّهْر[1] وتلبّدت السَّبَخَة[2] التى كانت بينهم وبين المشركين حتى ثبتت فيها أقدام المسلمين وقت القتال . وقد قيـل : إن هذه الأحوال كانت قبـل وصولهم إلى بدر؛ وهـو أصح ، وهو الذى ذكره ابن إسحـاق فى سيرته وغيره . وهـذا اختصاره : قال ابن عباس لمـا أُخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبى سفيان أنه مقبل من الشأم ندب المسلمين إليهم وقال : " هـذه عِير قريش فيها الأموال فاخرجوا إليهم لعـل الله يُنَفِّلكموها " قال : فانبعث معه من خفّ؛ وثقل قوم وكرِهوا الخروج، وأسرع رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يلوِى[3] على من تعذّر ، ولا ينتظر من غاب ظَهْره، فسار فى ثلثمائة وثلاثة عشر من أصحابه من مهاجرِىّ وأنصارىّ . فى البخارىّ عن البراء بن عازِب قال : كان المهـاجرون يوم بدر نَيِّفا وثمـانين، وكان الأنصار نيفا وأربعين ومائتين . وخرّج أيضا عنـه قال : كنا نتحـدّث أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا ثلثمائة وبضعة عشر ، على عدد أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر ، وما جاز معـه إلا مؤمن . وذكر البَيْهَقِىّ عن أبى أيوب الأنصارى قال : فخرجنا — يعنى إلى بدر — فلمـا سرنا يوما أو يومين أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتعادّ، ففعلنا فإذا نحن ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا ، فأخبرنا النبىّ صلى الله عليه وسلم بعدّتنا ، فسُرّ بذلك وحمِد الله وقال : " عِدّة أصحاب طالوت " . قال ابن إسحاق : وقد ظن الناس بأجمعهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يَلْقَى حَرْبًا فلم يكثر استعدادهم . وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار ويسأل من لقِى من الركبان تخوّفا على أموال الناس ، حتى أصاب خبرا من بعض الركبان أن محمدا رسول الله صلى الله عليـه وسلم قد استنفر لكم الناس ؛ فحذِر عنـد ذلك واستأجر ضَمْضَم بن عمرو الغِفارِىّ وبعثـه إلى مكة، وأمره أن يأتِى قريشا

---

(١) الظهر : الابل التى يحمل عليها ويركب . (٢) السبخة (محرّكة) : أرض ذات ملح ونزّ .
(٣) لوى عليه : عطف أو انتظر .

يستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد عَرَض لهــا فى أصحابه ؛ ففعل ضمضم . فخرج أهــل مكة فى ألف رجل أو نحو ذلك ، وخرج النبيّ صلى الله عليــه وسلم فى أصحابه ، وأتاه الخبر عن قريش بخروجهم ليمنعوا عِيرهم ؛ فاستشار النبيّ صلى الله عليه وسلم الناس، فقام أبو بكر فقال فأحسن ، وقام عمر فقال فأحسن ، ثم قام المِقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله، اِمض لمــا أمرك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول كما قالت بنــو إسرائيل « اِذهب أنت وربك فقاتِلا إنا هاهنا قاعِدون » ولكن آذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون ، والذى بعثك بالحق لو سِرْت إلى بَرْك الغِماد — يعنى مدينــة الحبشة — لجالدنا معك من دونه ؛ فسُرّ بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا له بخير . ثم قال : "أشيروا علىّ أيها الناس" يريد الأنصار . وذلك أنهم عدد الناس ، وكان حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رســول ، إنا برآء من ذِمامك حتى تصِــل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذِممنا ، نمنعك ممــا نمنع منــه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا . فكان رسول الله صلى الله عليــه وسلم يتخوّف ألا تكون الأنصار ترى أن عليها نصرته إلا بالمدينــة، وأنه ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوّ بغــير بلادهم . فلمــا قال ذلك رسول الله صلى الله عليــه وسلم كلمّه سعد بن معاذ — وقيل سعد بن عُبادة ، ويمكن أنهما تكلما جميعا فى ذلك اليوم — فقال : يارسول الله، كأنك تريدنا معشر الأنصار ؟ فقال رســول الله صلى الله عليه وســلم : "أجل" فقال : إنا قد آمنا بك وآتبعناك، فآمض لمــا أمرك الله، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضته لخضناه معك . فقال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : "اِمضــوا على بركة الله فكأنى أنظر إلى مصارع القوم" . فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسبق قريشا إلى ماء بدر . ومنع قريشا من السبق إليــه مطر عظيم انزله الله عليهم، ولم يصب منــه المسلمين إلا ما شــدّ لهم دَهْس الوادى وأعانهم على السير . والدّهْس : الرمل اللين الذى تسوخ فيه الأرجل . فنزل رســول الله صلى الله عليه وسلم على أدنى ماء من ميــاه بدر إلى المدينة ، فأشار عليه الحُبَاب

ابن المنذر بن عمرو بن الجَموح بغير ذلك وقال له : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدّمه أو نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فقال عليه السلام : "بل هو الرأى والحرب والمكيدة". فقال : يا رسول الله ، إن هذا ليس لك بمنزل ، فانهض بنا إلى أدنى ماء من القوم فننزله ونُعوِّر[1] ما وراءه من القُلُب[2] ، ثم نبنى عليه حوضا فنملأه فنشربَ ولا يشربوا . فآستحسن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك من رأيه ، وفَعَله . ثم التقوْا فنصر الله نبيّه والمسلمين ، فقتل من المشركين سبعين وأسر منهم سبعين ، وانتقم منهم للؤمنين ، وشفى الله صدر رسوله عليه السلام وصدور أصحابه من غيظهم . وفى ذلك يقول حسان :

عَرفتُ ديار زينب بالكثِيب * كخطّ الوَحْىِ فى الوَرق القَشِيب[3]

تَداوَلُها الرياح وكلُّ جَوْنٍ * من الوَسْمِىّ منهمرٍ سَكُوبِ[4]

فأمسى رَبْعُها خَلَقا وأمستْ * يَبَاباً بعد ساكنها الحبيب[5]

فدَعْ عنك التذكُّرَ كلّ يوم * ورُدّ حرارة الصّدر الكئيب

وخَبِّرْ بالذى لا عَيْب فيه * بصدق غيرِ إخبارِ الكذوبِ

بما صنع الإله غداةَ بدرٍ * لنا فى المشركين من النصيب

غداة كأنّ جَمْعَهم حِراءٌ * بدت أركانه جُنْحَ الغروب

فلاقيناهُمُ منا بجَمْع * كأسْد الغاب مُرْدانٍ وشِيبِ

أمام محمد قد وازَرُوه * على الأعداء فى لَفْح الحروب

بأيديهم صوارِمُ مُرْهفاتٌ * وكلّ مجربٍ خاظِى الكُعوب[6]

(١) عوّر عيون المياه : إذا دفنها وسدها . (٢) القلب : جمع قليب ، وهى البئر العادية القديمة التى لا يُعلم لها رب ولا حافر تكون فى البرارى . (٣) الوحى : الكتابة . والقشيب : الجديد . (٤) الجون : السحاب . والوسمى : المطر الذى يأتى فى الربيع . (٥) اليباب : الخراب . (٧) الخاظى : الكثير اللحم .

بنـــو الأوْس الغطارِفُ وازرَتْها * بنو النجار فى الدِّيـنِ الصليب (١)

فغـادَرْنا أبا جهـــل صـــرِيعا * وعتبـةَ قـــد تركنا بالجَبُـــوب (٢)

وشـــيبةَ قـــد تركنا فى رجال * ذوِى نَسَب إذا نُسِبوا حَسيبِ

يناديهـــم رســـول الله لمـا * قذفنـاهم كبَاكِب فى القَلِيب (٣)

ألم تجِـدوا كلامِى كان حقا * وأمرُ الله يأخـــذ بالقـــلوب

فمـا نطقوا ، ولو نطقوا لقـالوا * أصبتَ وكنتَ ذا رأى مصيب

وهنا ثلاث مسائل :

الأولى — قال مالك : بلغنى أن جبريل عليه الســـلام قال للنبيّ صلى الله عليـــه وسلم : "كيف أهل بدر فيكم" ؟ قال : "خيارنا" فقال : "إنهم كذلك فينا" . فدلّ هذا على أن شرف المخلوقات ليس بالذوات ، وإنما هو بالأفعال . فللملائكة أفعالها الشريفة من المواظبة على التسبيح الدائم . ولنـا أفعالنا بالإخلاص بالطاعة . وتتفاضل الطاعات بتفضيل الشرع لهـا ، وأفضلها الجهاد، وأفضل الجهاد يوم بدر؛ لأن بناء الإسلام كان عليه .

الثانيـــة — ودلّ خروج النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلقى العِير على جواز النَّفِير للغنيمة لأنها كسب حلال . وهو يردّ ما كرِه مالك من ذلك؛ إذ قال : ذلك قتـال على الدنيا ، وما جاء أن من قاتل لتكون كلمـة الله هى العليا فهو فى سبيل الله دون من يقاتل للغنيمة ، يراد به إذا كان قصده وحده وليس للدِّين فيـه حظّ . وروى عِكرمة عن ابن عباس قال : قالوا للنبيّ صلى الله عليه وســلم حين فرغ من بدر : عليك بالعِير، ليس دونها شيء . فناداه العباس وهو فى الأسرى : لا يصلح هـذا . فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ولِم" ؟ قال : لأن الله وعدك إحدى الطائفتيـن ، وقد أعطاك الله ما وعدك . فقال النبيّ صلى الله عليـه وسلم :

(١) الغطارف : جمع الغطريف ، وهو السيد الشريف السخى . (٢) الجبوب : وجه الأرض .

(٣) كباكب : جمع كبكبة وهى الجماعة الكثيرة .

" صدقت " . وعلم ذلك العباس بحديث أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وبما كان من شأن بدر، فسمع ذلك فى أثناء الحديث .

الثالثة — روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك قتلى بدر ثلاثا، ثم قام عليهم فناداهم فقال : "يا أبا جهل بنَ هشام يا أميةَ بنَ خلف يا عتبةَ بنَ ربيعة يا شيبةَ بنَ ربيعة أليس قد وجدتم ما وعد ربّكم حقا فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا " . فسمع عمر قول النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله، كيف يسمعون، وأنَّى يجيبون وقد جَيَّفوا ؟ قال : "والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرون أن يُجيبوا " . ثم أمر بهم فسُحِبوا فأُلقوا فى القليب ، قليب بدر . « جَيَّفوا » بفتح الجيم والياء ، ومعناه أنتنوا فصاروا جِيَفًا . وقول عمر : « يسمعون » استبعاد على ما جرت به العادة . فأجابه النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنهم يسمعون كسمع الأحياء . وفى هذا ما يدل على أن الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف ، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته، وحيلولة بينهما، وتبدّل حالٍ وانتقال من دار إلى دار. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الميت إذا وضع فى قبره وتولّى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم " الحديث . أخرجه الصحيح .

قوله تعالى : ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ الضمير فى « به » عائد على الماء الذى شدّ دهس الوادى، كما تقدّم. وقيل : هو عائد على ربط القلوب؛ فيكون تثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة فى موطن الحرب .

قوله تعالى : إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾ العـامل فى « إذ ، يثبت » أى يثبت به الأقدام ذلك الوقت . وقيل : العامل « لِيَرْبِطَ » أى وليربط إذ يوحى . وقد يكون التقدير : اذكر إذ يوحى ربك إلى الملائكة . « أنى معكم » فى موضع نصب ، والمعنى : بأنى معكم ، أى بالنصر والمعونة . « معكم » بفتح العين ظرف، ومن أسكنهـا فهى عنـده حرف . ﴿ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى بشروهم بالنصر أو القتال معهم أو الحضور معهم من غير قتال ؛ فكان الملك يسير أمام الصف فى صـورة الرجل و يقول : سـيروا فإن الله ناصركم . و يظن المسلمون أنه منهم ؛ وقـد تقدّم فى « آل عمران »[1] أن الملائكة قاتلت ذلك اليوم . فكانوا يرون رءوسا تَنْدُر[2] عن الأعناق من غير ضارب يرونه . وسمِـع بعضهم قائلا يُسمع قولُه ولا يُرى شخصُه : أَقْدِم حَيْزُوم[3] . وقيل : كان هذا التثبيت ذِكْرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم للؤمنين نزول الملائكة مددا .

قوله تعـالى : ﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ تقدّم فى « آل عمران »[4] بيانه . ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ﴾ هـذا أمر للملائكة . وقيـل : للؤمنين ، أى اضربوا الأعناق ، و « فوق » زائدة؛ قاله الأخفش والضحاك وعطية . وقد روى المسعودىّ قال قال رسول الله صـلى الله عليه وسلم : " إنى لم أبعث لأعذب بعذاب الله و إنما بعثت بضرب الرّقاب وشدّ الوَثاق " . وقال محمـد بن يزيد : هذا خطأ؛ لأن « فوق » تفيد معنًى فلا يجوز زيادتها ، ولكن المعنى أنهم أبيح لهم ضرب الوجوه وما قرب منهـا . وقال ابن عبـاس : كل هامٍ وجُمْجُمة . وقيل : أى ما فوق الأعناق، وهو الرءوس ؛ قاله عِكرمة . والضرب على الرأس أبلغ ؛ لأن أدنى شيء يؤثر فى الدماغ . وقـد مضى شيء من هـذا المعنى فى « النساء » وأن « فوق » ليست بزائدة، عند قوله : « فوق اثنتين »[5] . ﴿ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ قال الزجاج : واحد البنان بنانة ، وهى هنـا الأصابع وغيرها من الأعضـاء . والبنان مشتق من

(١) راجع جـ ٤ ص ١٩٠ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) ندر : سقط .
(٣) حيزوم : اسم فرس من خيل الملائكة .
(٤) راجع جـ ٤ ص ٢٣٢ طبعة أولى أو ثانية .
(٥) راجع جـ ٥ ص ٦٣ طبعة أولى أو ثانية .

قولهم : أبّن الرجل بالمكان إذا أقام به . فالبنان يُعْتمل به ما يكون للإقامة والحياة . وقيل: المراد بالبنان هنا أطراف الأصابع من اليدين والرّجلين . وهو عبارة عن الثبات فى الحرب وموضع الضرب ؛ فإذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال بخلاف سائر الأعضاء . قال عنترة :

وكان فَتَى الهيجاء يحمِى ذِمارها * ويضرب عنـد الكَرْب كلّ بنانِ

ومما جاء أن البنان الأصابع قول عنترة أيضا :

وأن المـوت طوْع يدى إذا ما * وصَـلْتُ بنانهـا بالهُنْـدُوانِى

وهو كثير فى أشعار العرب، البنان : الأصابع . قال ابن فارس : البنان الأصابع ، ويقال الأطراف . وذكر بعضهم أنها سُمّيت بنانا لأن بها صلاح الأحوال التى بها يستقرّ الإنسان ويبِن[1] . وقال الضحاك : البنان كل مَفْصل .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ ﴾ « ذلك » فى موضع رفع على الابتداء، والتقدير : ذلك الأمر ، أو الأمر ذلك . ﴿ شَاقُّوا ٱللَّهَ ﴾ أى أولياءه . والشّقاق : أن يصير كل واحد فى شِق . وقد تقدّم[2] . ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾ قال الزجاج : « ذلكم » رفع بإضمار الأمر أو القصة ، أى الأمر ذلكم فذوقوه . ويجوز أن يكون فى موضع نصب بذوقوا ؛ كقولك : زيدا فاضربه . ومعنى الكلام التوبيخ للكافرين . « وأنّ » فى موضع رفع عطف على ذلكم . قال الفرّاء : ويجوز أن يكون فى موضع نصب بمعنى وبأن للكافرين . قال : ويجوز أن يضمر واعلموا أن . الزجاج : لو جاز إضمار واعلموا لجاز زيد منطلق وعمرا

---

(١) بنّ بالمكان : أقام .

(٢) راجع جـ ٢ ص ١٤٣ طبعة ثانية .

جالسا ، بل كان يجوز فى الابتداء زيدا منطلقا ؛ لأن المخبر معلم ، وهـذا لا يقوله أحد من النحويين .

قوله تعـالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ زَحْفًا ﴾ الزّحف الدنو قليلا قليلا . وأصـله الآندفاع على الأَلْيَـة ؛ ثم سُمِّىَ كل ماشٍ فى الحرب إلى آخر زاحفا . والتزاحف : التـدانى والتقارب ؛ يقال : زحف إلى العـدوّ زحفا . وآزدحف القوم ، أى مشى بعضهـم إلى بعض . ومنه زِحاف الشِّعر ، وهو أن يسقط بين الحرفين حرف فيَزْحَف أحدهما إلى الآخر . يقول : إذا تدانيتم وتعاينتم فلا تفِرّوا عنهم ولا تعطوهم أدباركم . حرّم الله ذلك على المؤمنين حين فرض عليهم الجهاد وقتال الكفار . قال ابن عطية : والأدبار جمـع دُبُر . والعبارة بالدّبر فى هـذه الآية متمكنة الفصاحة ؛ لأنها بشيعة على الفارّ ، ذامّة له .

الثانيـــة — أمر الله عز وجل فى هذه الآية ألا يُوَلِّىَ المؤمنون أمام الكفار . وهــذا الأمر مقيّد بالشريطة المنصوصة فى مِثْلَى المؤمنين ؛ فإذا لَقِيتْ فئةٌ من المؤمنين فئةً هى ضِعف المؤمنين من المشركين فالفرض ألا يفِرّوا أمامهم . فمن فرّ من آثنين فهو فارّ من الزحف . ومن فرّ من ثلاثة فليس بفارّ من الزحف ، ولا يتوجّه عليــه الوعيد . والفرار كبيرة مُوبِقة بظاهر القرآن وإجماع الأكثر من الأئمة . وقالت فرقة منهم ابن المـاجِشون فى الواضحة : إنه يراعى الضِّعف والقوّة والعُدّة ؛ فيجوز على قولهم أن يفِرّ مائة فارس من مائة فارس إذا علموا أن ما عند المشركين من النّجدة والبسالة ضعفُ ما عندهم . وأما على قول الجمهور فلا يحل فِرار مائة إلا

ما زاد على المائتين ؛ فمهما كان فى مقابلة مسلم أكثر من آثنين فيجوز الآنهزام ، والصبر أحسن . وقد وقف جيش مُؤْتة وهم ثلاثة آلاف فى مقابلة مائتى ألف ، منهم مائة ألف من الروم ، ومائة ألف من المستعربة من لَخْم وجُذام .

قلت : ووقع فى تاريخ فتح الأندلس ، أن طارقا مَوْلَى موسى بن نصير سار فى ألف وسبعمائة رجل إلى الأندلس ، وذلك فى رجب سنة ثلاث وتسعين من الهجرة ؛ فآلتقى وملك الأندلس لذريق وكان فى سبعين ألف عِنان ؛ فزحف إليه طارق وصبر له فهزم الله الطاغية لذريق ، وكان الفتح . قال ابن وهب : سمعت مالكا يسأل عن القوم يَلْقَوْن العدوّ ويكونون فى مَحْرس يحرسون فيأتيهم العدوّ وهم يسير ، أيقاتلون أو ينصرفون فيؤذنون أصحابهم ؟ قال : إن كانوا يَقْوَون على قتالهم قاتلوهم ، وإلا انصرفوا إلى أصحابهم فآذنوهم .

الثالثة — واختلف الناس هل الفرار يوم الزّحف مخصوص بيوم بدر أم عام فى الزُّحوف كلها إلى يوم القيامة ؛ فروى عن أبى سعيد الخُدْرِىّ أن ذلك مخصوص بيوم بدر ، وبه قال نافع والحسن وقتادة ويزيد بن أبى حبيب والضحاك ، وبه قال أبو حنيفة . وأن ذلك خاص بأهل بدر فلم يكن لهم أن ينحازوا ، ولو آنحازوا لآنحازوا للشركين ، ولم يكن فى الأرض يومئذ مسلمون غيرهم ، ولا للسلمين فئة إلا النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ فأما بعد ذلك فإن بعضهم فئةٌ لبعض . قال الكِيَا : وهذا فيه نظر ؛ لأنه كان بالمدينة خلق كثير من الأنصار لم يأمرهم النبىّ صلى الله عليه وسلم بالخروج ولم يكونوا يرون أنه قتال ، وإنما ظنوا أنها العِير ؛ فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن خفّ معه . ويُروى عن ابن عباس وسائرِ العلماء أن الآية باقية الى يوم القيامة . اِحتج الأوّلون بما ذكرنا ، وبقوله تعالى : « يومئذ » فقالوا : هو إشارة إلى يوم بدر ، وأنه نسخ حكم الآية بآية الضِّعف . وبقى حكم الفِرار من الزحف ليس بكبيرة . وقد فرّ الناس يوم أُحُد فعفا الله عنهم ، وقال الله فيهم يوم حُنَين « ثم ولّيتم مُدْبِرين »(١) ولم يقع على ذلك تعنيف . وقال الجمهور من العلماء : إنما ذلك إشارة

(١) آية ٢٥ سورة التوبة .

الى يوم الزحف الذى يتضمنه قوله تعالى : « إذا لقيتم » . وحكم الآية باقٍ إلى يوم القيامة بشرط الضِّعف الذى بينه الله تعالى فى آية أخرى ، وليس فى الآية نسخ . والدليل عليــه أن الآية نزلت بعد القتال وانقضاء الحرب وذهاب اليوم بما فيه . وإلى هذا ذهب مالك والشافعىّ وأكثر العلمــاء . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وســلم قال : "اِجتنبوا السبع المو بِقات — وفيه — والتّولِّى يوم الزّحف" وهذا نصٌّ فى المسألة . وأما يوم أُحُد فإنمــا فرّ النــاس من أكثر من ضعفهم ومع ذلك عُنِّفُوا . وأما يوم حُنين فكذلك من فرّ إنمــا انكشف عن الكثرة ؛ على ما يأتى بيانه .

الرابعـــة — قال ابن القاسم : لا تجوز شهادة من فرّ من الزحف ، ولا يجوز لهم الفِرار وإن فرّ إمامهم ؛ لقوله عز وجل : « ومَن يُوَلِّهِم يومئذٍ دُبُرَهُ » الآية . قال : ويجوز الفِرار من أكثر من ضعفهم ، وهذا ما لم يبلغ عدد المسلمين آثنى عشر ألفا ؛ فإن بلغ اثنى عشر ألفا لم يحِل لهم الفِرار وإن زاد عدد المشركين على الضِّعف ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ولن يُغلب آثنا عشر ألفا من قِلّة" فإن أكثر أهل العلم خصّصوا هذا العدد بهذا الحديث من عموم الآية .

قلت — رواه أبو بشر وأبو ســلمة العاملىّ ، وهو الحكم بن عبــد الله بن خطــاف وهو متروك . قالا : حدّثنا الزُّهرِىّ عن أنس بن مالك عن رسول الله صــلى الله عليه وسلم قال : "يا أكثمَ بنَ الجَــوْن اَغْزُ مع غير قومك يحسن خلقك وتكرم على رفقائك . يا أكثم ابن الجون خير الرفقاء أربعة وخير الطلائع أربعون وخير السرايا أربعمائة وخير الجيوش أربعة آلاف ولن يُؤتَى آثنا عشر ألفا من قِلة" . وروى عن مالك ما يدل على ذلك من مذهبــه وهو قوله للعُمَرِىّ[1] العابد إذ سأله هل لك سَعة فى ترك مجاهدة مَن غيّر الأحكام وبدّلها ؟ فقال : إن كان معك آثنا عشر ألفا فلا سَعة لك فى ذلك .

---

(١) العُمَرى (بضم العين وفتح الميم) وهو عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، كان من أزهد زمانه . مات سنة ١٨٤ هـ (عن أنساب السمعانى) .

الخامسة — فإن فرّ فليستغفر الله عز وجل . روى الترمذيّ عن بلال بن يسار بن زيد قال : حدّثني أبي عن جدّي سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيّ القيوم وأتوب إليه غفر الله له وإن كان قد فرّ من الزحف " . قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ التحرّف : الزوال عن جهة الاستواء . فالمتحرف من جانب إلى جانب لمكايد الحرب غير منهزم؛ وكذلك المتحيز إذا نوى التحيز إلى فئة من المسلمين ليستعين بهم فيرجع إلى القتال غير منهزم أيضا . روى أبو داود عن عبد الله بن عمر أنه كان في سرِيّة من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فحاص الناس حَيْصة[1]، فكنت فيمن حاص ، قال : فلما برزنا قلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبُؤْنا بالغضب . فقلنا : ندخل المدينة فنتثبّت فيها ونذهب ولا يرانا أحد . قال : فدخلنا فقلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن كانت لنا توبة أقمنا ، وإن كان غير ذلك ذهبنا . قال : فجلسنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل صلاة الفجر، فلما خرج قمنا إليه فقلنا : نحن الفرّارون؛ فأقبل إلينا فقال: " لا بل أنتم العكارون " . قال : فدنونا فقبلنا يده . فقال : " أنا فئة المسلمين " . قال ثعلب : العكارون هم العطافون . وقال غيره : يقال للرجل الذي يُوَلّي عند الحرب ثم يكر راجعا : عكَر واعتكر . وروى جرير عن منصور عن إبراهيم قال : انهزم رجل من القادسية فأتى المدينة إلى عمر فقال : يا أمير المؤمنين ، هلكت ! فررت من الزحف . فقال عمر : أنا فئتك . وقال محمد بن سيرين : لما قتل أبو عبيدة جاء الخبر إلى عمر فقال: لو انحاز إليّ لكنت له فئة ، فأنا فئة كل مسلم . وعلى هذه الأحاديث لا يكون الفرار كبيرة ؛ لأن الفئة هنا المدينة والإمام وجماعة المسلمين حيث كانوا . وعلى القول الآخر يكون كبيرة؛ لأن الفئة هناك الجماعة من الناس الحاضرة للحرب . هذا على قول الجمهور أن الفرار من الزحف كبيرة . قالوا : وإنما كان ذلك القول

(١) حاص : جال؛ أي جالوا جولة يطلبون الفرار .

من النبيّ صلى الله عليه وسلم وعمر على جهة الحَيْطة على المؤمنين ، إذ كانوا فى ذلك الزمان يثبتون لأضعافهم مرارا . والله أعلم . وفى قوله "والتولّى يوم الزحف" ما يكفى .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللّٰهِ ﴾ أى استحق الغضب . وأصل « باء » رجع . وقـد تقدّم . ﴿ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ﴾ (1) أى مقامه . وهذا لا يدل على الخلود؛ كما تقدّم فى غير موضع . وقد قال عليه السلام : "من قال أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحىّ القيوم غُفر له وإن كان قد فرّ من الزحف" .

قوله تعـالى : فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللّٰهَ قَتَلَهُمْ ﴾ أى يوم بدر . رُوى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صدروا عن بدر ذكر كل واحد منهم ما فعل : قتلت كذا ، فعلت كذا ؛ فجاء من ذلك تفاخر ونحو ذلك . فنزلت الآية إعلاما بأن الله تعـالى هو المميت والمقدّر لجميع الأشياء ، وأن العبد إنما يشارك بتكسبه وقصده . وهذه الآية تردّ على من يقول بأن أفعال العباد خلق لهم . فقيل : المعنى فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم بسوقهم إليكم حتى أمكنكم منهم . وقيل : ولكن الله قتلهم بالملائكة الذين أمدكم بهم . ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ مثله ، ولكن الله رمى . واختلف العلماء فى هذا الرّمْى على أربعة أقوال :

الأوّل — إن هذا الرمى إنما كان فى حَصْب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حُنين ؛ رواه ابن وهب عن مالك . قال مالك : ولم يبق فى ذلك اليوم أحد إلا وقـد أصابه ذلك . وكذلك روى عنه ابن القاسم أيضا .

(1) راجع جـ ١ ص ٤٣٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

الثانى — أن هذا كان يوم أُحُد حين رمى أُبَىّ بن خلف بالحربة فى عنقه ؛ فكرّ أُبَىّ منهزما . فقال له المشركون : والله مابك من بأس . فقال : والله لو بصق علىّ لقتلنى . أليس قد قال : بل أنا أقتله . وكان قد أوْعد أُبَىٌّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالقتل بمكة؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بل أنا أقتلك" فمات عدوّ الله من ضربة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرجعه إلى مكة، بموضع يقال له « سَرِف » . قال موسى بن عقبة عن ابن شهاب : لما كان يوم أحد أقبل أُبَىّ مقنعا فى الحديد على فرسه يقول : لا نجوتُ إن نجا محمد؛ فحمل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد قتله . قال موسى بن عقبة قال سعيد بن المسيب : فاعترض له رجال من المؤمنين، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فخلّوْا طريقه؛ فاستقبله مصعب بن عمير يَقِي رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقُتل مصعب بن عمير؛ وأبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم تَرْقُوة أُبَىّ بن خلف من فُرجة بين سابغة البَيْضة والدّرع؛ فطعنه بحربته فوقع أُبَىّ عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم . قال سعيد : فكسر ضِلعا من أضلاعه؛ فقال : ففى ذلك نزل « وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ » . وهذا ضعيف؛ لأن الآية نزلت عقيب بدر .

الثالث — أن المراد السّهم الذى رمى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حِصن خَيْبر، فسار فى الهواء حتى أصاب ابن أبى الحُقَيق وهو على فراشه . وهذا أيضا فاسد ، وخَيْبرُ وفتحُها أبعد من أُحُد بكثير . والصحيح فى صورة قتل ابن أبى الحُقَيق غير هذا .

الرابع — أنها كانت يوم بدر؛ قاله ابن إسحاق . وهو أصح؛ لأن السورة بدرِية، وذلك أن جبريل عليه السلام قال للنبىّ صلى الله عليه وسلم : "خذ قبضة من التراب" فأخذ قبضة من التراب فرمى بها وجوههم فما من المشركين من أحد إلا وأصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة ؛ وقاله ابن عباس، وسيأتى . قال ثعلب : المعنى «وما رميت» الفزع والرعب فى قلوبهم «إذ رميت» بالحصباء فانهزموا «ولكن الله رمى» أى أعانك وأظفرك . والعرب تقول : رمى الله لك، أى أعانك وأظفرك وصنع لك. حكى هذا أبو عبيدة

فى كتاب المجاز . وقال محمد بن يزيد: وما رميت بقوتك إذ رميت، ولكنك بقوّة الله رميت .
﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاَءً حَسَنًا ﴾ البـلاء ها هنا النعمة . واللام تتعلق بمحذوف؛ أى وليبلى المؤمنين فعل ذلك . ﴿ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ﴾ قراءة أهل الحرمين وأبى عمرو. وقراءة أهل الكوفة « مُوهِنُ كَيدَ الكافِرِين » . وفى التشديد معنى المبالغة . وروى عن الحسن « مُوهِنُ كَيْدِ الكافرِين » بالإضافة والتخفيف . والمعنى : أن الله عز وجل يلقى فى قلوبهم الرعب حتى يتشتتوا ويتفرّق جمعهم فيضعفوا . والكيد : المكر . وقد تقدّم[1] .

قوله تعـالى : إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ ۚ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ شرطٌ وجوابه . وفيه ثلاثة أقوال : يكون خطابا للكفار؛ لأنهم استفتحوا فقالوا : اللَّهُمَّ أقطَعُنا للرّحِم وأظلَمُنا لصاحبه فآنصره عليه؛ قاله الحسن ومجاهـد وغيرهما . وكان هـذا القول منهم وقت خروجهم لنُصرة العِير . وقيل : قاله أبو جهل وقت القتال . وقال النّضر بن الحارث : اللهم إن كان هـذا هو الحق من عنـدك فأمطر علينا حجارة من السماء أو آئتنا بعـذاب أليم . وهو ممن قتل ببـدر . والاسـتفتاح : طلب النصر؛ أى قـد جاءكم الفتح ولكنه كان للسلمين عليكم . أى فقـد جاءكم ما بان به الأمر، وآنكشف لكم الحق . ﴿ وَإِنْ تَنْتَهُوا ﴾ عن الكفر ﴿ فهو خير لكم ﴾ . ﴿ وَإِنْ تَعُودُوا ﴾ أى إلى هـذا القول وقتال محمد . ﴿ نَعُدْ ﴾ إلى نصر المؤمنين . ﴿ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ ﴾ أى جماعتكم ﴿ شَيْئًا ﴾ . ﴿ وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ أى فى العدد .

الثـانى ــ يكون خطابا للؤمنين؛ أى إن تستنصروا فقد جاءكم النصر . وإن « تنتهوا » أى عن مثل ما فعلتموه من أخذ الغنائم والأسرى قبل الإذن؛ فهو خير لكم . « وإن تعودوا » أى إلى مثل ذلك نعد إلى توبيخكم . كما قال : « لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ »[2] الآية .

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٨٠ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) آية ٦٨ من هذه السورة .

والقول الثالث — أن يكون « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح » خطابا للمؤمنين ، وما بعده للكفار . أى وإن تعودوا إلى القتال نعد إلى مثل وقعة بدر . القشيرى : والصحيح أنه خطاب للكفار ؛ فإنهم لما نَفَروا إلى نصرة العير تعلّقوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهم انصر أهدى الطائفتين ، وأفضل الدِّينين . المهدوىّ : وروى أن المشركين خرجوا معهم بأستار الكعبة يستفتحون بها ، أى يستنصرون .

قلت : ولا تعارض لاحتمال أن يكونوا فعلوا الحالتين . ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بكسر الألف على الاستئناف ، وبفتحها عطف على قوله : « وأنّ الله مُوهِنُ كيد الكافرين » . أو على قوله : « أنى معكم » . والمعنى : ولأن الله ؛ والتقدير لكثرتها وأن الله . أى من كان الله فى نصره لم تغلبه فئة وإن كثرت .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الخطاب للمؤمنين المصدّقين . أفردهم بالخطاب دون المنافقين إجلالا لهم . جدّد الله عليهم الأمر بطاعة الله والرسول ، ونهاهم عن التولى عنه . هذا قول الجمهور . وقالت فرقة : الخطاب بهذه الآية إنما هو للمنافقين . والمعنى : يأيها الذين آمنوا بألسنتهم فقط . قال ابن عطية : وهذا وإن كان محتملا على بعد فهو ضعيف جدا ؛ لأن الله تعالى وصف من خاطب فى هذه الآية بالإيمان . والإيمان التصديق ، والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشىء . وأبعد من هذا من قال : إن الخطاب لبنى إسرائيل ، فإنه أجنبىّ من الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ التولّى الإعراض . وقال « عنه » ولم يقل عنهما لأن طاعة الرسول طاعته ؛ وهو كقوله تعالى : « وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ »[1] . ﴿ وَأَنْتُمْ

(١) آية ٦٢ سورة التوبة .

تَسْمَعُونَ ﴾ ابتـداء وخبر فى موضع الحـال . والمعنى : وأنتم تسمعون ما يتلى عليكم من الحجج والبراهين فى القرآن .

قوله تعالى : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا ﴾ أى كاليهود أو المنافقين أو المشركين . وهو من سماع الأذن . ﴿ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ أى لا يتدبّرون ماسمعوا ، ولا يفكّرون فيه ؛ فهم بمنزلة من لم يسمع وأعرض عن الحق . نهى المؤمنين أن يكونوا مثلهـم . فدلّت الآية على أن قول المؤمن : سمعت وأطعت ، لا فائدة فيـه مالم يظهر أثر ذلك عليـه بامتثال فعله . فإذا قصر فى الأوامر فلم يأتها ، وآعتمد النواهى فاقتحمها فأىّ سمع عنده وأى طاعة ! وإنما يكون حينئذ بمنزلة المنافق الذى يظهر الإيمان ، ويُسر الكفر ؛ وذلك هو المراد بقوله : « ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون » . يعنى بذلك المنافقين ، أو اليهود أو المشركين ؛ على ماتقدم . ثم أخبر تعـالى أن الكفار شرّ ما دبّ على الأرض . وفى البخارىّ عن ابن عباس « إنّ شرّ الدوابّ عِنـد اللهِ الصُّمّ البُكْمُ الذين لا يعقِلون » قال : هم نفر من بنى عبد الدار . والأصل أشرّ ، حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال . وكذا خير ؛ الأصل أخير .

قوله تعـالى : وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ قيل : الحجج والبراهين ؛ إسماعَ تَفَهُّم . ولكن سـبق علمه بشقاوتهم . ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾ أى لو أفهمهم لمـا آمنوا بعد علمـه الأزلىّ بكفرهم . وقيل : المعنى لأسمعهم كلام الموتى الذين طلبوا إحياءهم ؛ لأنهم طلبوا إحياء قُصَىّ ابن كلاب وغيره ليشهدوا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم . الزجاج : لأسمعهم جواب كل ماسألوا عنه . ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ إذ سبق فى علمه أنهم لا يؤمنون .

قوله تعـالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ هـذا الخطاب للؤمنين المصدّقين بلا خلاف . والاستجابة: الإجابة . و﴿ يُحْيِيكُمْ ﴾ أصله يحييكُمْ، حذفت الضمة من الياء لثقلها . ولا يجوز الإدغام . قال أبو عبيدة : معنى « استجيبوا » أجيبوا ؛ ولكن عُرْف الكلام أن يتعدّى استجاب بلام، ويتعدّى أجاب دون لام . قال الله تعالى: « يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ »[(1)] . وقد يتعدّى استجاب بغير لام؛ والشاهد له قول الشاعر[(2)] :

وداعٍ دعا يا من يُجيب إلى النَّـدَى ✽ فلم يسـتجبه عنــد ذاك مُجيبُ

تقول : أجابه وأجاب عن سؤاله . والمصدر الإجابة . والاسم الجابة ؛ بمنزلة الطاقة والطاعة . تقول : أساء سَمْعاً فأساء جابة[(3)] . هكذا يتكلم بهذا الحرف . والمجاوبة والتجاوب : التحاور . وتقول : إنه لحسَن الجِيبة (بالكسر) أى الجواب . ﴿ لِمَا يُحْيِيكُم ﴾ متعلق بقوله : « استجيبوا » . المعنى : استجيبوا لما يحييكم إذا دعاكم . وقيـل : اللام بمعنى إلى ؛ أى إلى ما يحييكم ، أى يُحيِي دينكم ويعلمكم . وقيـل : أى إلى ما يحيي به قلوبكم فتوحّدوه . وهذا إحياء مستعار ؛ لأنه من موت الكفر والجهل. وقال مجاهد والجمهور : المعنى استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهى ؛ ففيه الحيـاة الأبدية ، والنعمة السرمدية ، وقيل : المراد بقوله « لِما يحييكم » الجهاد ؛ فإنه سبب الحياة فى الظاهر، لأن العدوّ إذا لم

---

(1) آية ٣١ سورة الأحقاف .　　(2) هو كعب بن سعد الغنوى يرثى أخاه أبا المغوار .

(3) أصل هذا المثل على ما ذكر الزبير بن بكار أنه كان لسهل بن عمرو ابن مضعوف فقال له إنسان : أين أمك (بفتح الهمزة وتشديد الميم المضمومة) أى أين قصدك ؛ فظن أنه يقول له : أين أمك ؛ (بضم الهمزة والميم) فقال : ذهبت تشترى دقيقا . فقال أبوه : أساء سمعا ... الخ . (عن اللسان) .

يُغزَ غَزا ، وفى غزوه الموت ، والموت فى الجهاد الحياةُ الأبدية ؛ قال الله عز وجل : «ولا تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلوا فِي سبِيلِ اللهِ أمواتا بل أحياءٌ» (١) والصحيح العموم كما قال الجمهور .

الثانيــــة — روى البخاريّ عن أبى سـعيد بن المُعَلَّى قال : كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أُجبه ، ثم أتيته فقلت : يارسـول الله ، إنى كنت أصلى . فقال : " ألم يقل الله عز وجل « اِسْتَجِيبُوا لِلهِ وللرسول إذا دعاكم لمـا يُحييكم » " وذكر الحديث . وقد تقدّم فى الفاتحة (٢) . وقال الشافعىّ رحمه الله : هذا دليل على أن الفعل الفرضَ أو القول الفرضَ إذا أُتِى به فى الصلاة لا تبطل؛ لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإجابة وإن كان فى الصلاة .

قلت : وفيـه حجة لقول الأوزاعى : لو أن رجلا يصلى فأبصر غلاما يريد أن يسـقط فى بئر فصاح به وانصرف إليه وانتهره لم يكن بذلك بأس . والله أعلم .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ قيل : إنه يقتضى النص منه على خلقه تعالى الكفر والإيمان فيحول بين المرء الكافر وبين الإيمان الذى أمره به ، فلا يكتسبه إذ لم يُقدره عليـه بل أقدره على ضدّه وهو الكفر . وهكذا المؤمن يحول بينـه وبين الكفر . فبان بهذا النص أنه تعالى خالق لجميع اكتساب العباد خيرها وشرّها . وهـذا معنى قوله عليه السلام : " لا ، ومُقَلِّبِ القلوب " . وكان فعل الله تعـالى ذلك عدلا فيمن أضله وخذله ؛ إذ لم يمنعهم حقا وجب عليه فتزول صفة العدل ، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم . قال السُّدِّى : يحول بين المرء وقلبـه فلا يستطيع أن يؤمن إلا بإذنه ، ولا يكفر أيضا إلا بإذنه ؛ أى بمشيئته . والقلب موضع الفكر . وقد تقدّم فى « البقرة » (٣) بيانه . وهو بيد الله ، متى شاء حال بين العبد وبينه بمرض أو آفة كيلا يعقل . أى بادروا إلى الاستجابة قبل ألا تتمكنوا منها بزوال العقل . وقال مجاهد : المعنى يحول بين المرء

---

(١) آية ١٦٩ سورة آل عمران . (٢) راجع جـ ١ ص ١٠٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٣) راجع جـ ١ ص ١٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

وعقله حتى لا يدرى ما يصنع . وفى التنزيل : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ »[1] أى عقل . وقيل : يحول بينه و بينه بالموت ، فلا يمكنه استدراك ما فات . وقيل : خاف المسلمون يوم بدر كثرة العدوّ فأعلمهم الله أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبدلهم بعد الخوف أمنًا ، ويبدّل عدوّهم من الأمن خوفا . وقيل : المعنى يقلّب الأمور من حال إلى حال؛ وهذا جامع . واختيار الطبرى أن يكون ذلك إخبارا من الله عز وجل بأنه أملك لقلوب العباد منهم، وأنه يحول بينهم و بينها إذا شاء ؛ حتى لا يدرك الإنسان شيئا إلا بمشيئة الله عز وجل . ﴿ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ عطف . قال الفرّاء : ولو استأنفت فكسرت « وأنه » كان صوابا .

قوله تعالى : وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قال ابن عباس : أمر الله المؤمنين ألا يُقِرّوا المنكر بين أظهرهم فيعمّهم العذاب . وكذلك تأوّل فيها الزبير بن العوّام فإنه قال يوم الجمل ، وكان سنة ست وثلاثين : ما علمت أنا أُرِدنا بهذه الآية إلا اليوم ، وما كنت أظنها إلا فيمن خوطب ذلك الوقت . وكذلك تأوّل الحسن البصرى والسدّى وغيرهما . قال السدّى : نزلت فى أهل بدر خاصة ؛ فأصابتهم الفتنة يوم الجمل فاقتتلوا . وقال ابن عباس رضى الله عنه : نزلت هذه الآية فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال : أمر الله المؤمنين ألا يقرّوا المنكر فيما بينهم فيعمهم الله بالعذاب . وعن حُذيفة بن اليمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يكون بين ناس من أصحابى فتنة يغفرها الله لهم بصحبتهم إياى يستنّ بهم فيها ناس بعدهم يدخلهم الله بها النار".

قلت : وهذه التأويلات هى التى تَعْضُدها الأحاديث الصحيحة ؛ ففى صحيح مسلم عن زينب بنت جحش أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له : يارسول الله، أنهلك وفينا

(١) آية ٣٧ سورة ق .

الصالحون ؟ قال : "نعم إذا كثر الخبث". وفى صحيح الترمذى : "أن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده" وقد تقدمت هذه الأحاديث . وفى صحيح البخارى والترمذى عن النّعمان بن بشير عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "مَثَل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا(١) على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استقَوْا من الماء مرّوا على مَن فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ مَن فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعا" . ففى هذا الحديث تعذيب العامة بذنوب الخاصة . وفيه استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . قال علماؤنا : فالفتنة إذا عُملت هلك الكل . وذلك عند ظهور المعاصى وانتشار المنكر وعدم التغيير ، وإذا لم تُغيَّر وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هِجران تلك البلدة والهرب منها . وهكذا كان الحكم فيمن كان قبلنا من الأمم ؛ كما فى قصة السبت حين هجروا العاصين وقالوا لا نساكنكم . وبهذا قال السلف رضى الله عنهم . روى ابن وهب عن مالك أنه قال : تُهجر الأرض التى يصنع فيها المنكر جهارا ولا يستقر فيها . واحتج بصنيع أبى الدّرداء فى خروجه عن أرض معاوية حين أعلن بالربا ، فأجاز بيع سقاية الذهب بأكثر من وزنها . خرّجه الصحيح . وروى البخارى عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا أنزل الله بقوم عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ثم بُعثوا على أعمالهم" . فهذا يدل على أن الهلاك العامّ منه ما يكون طُهرة للمؤمنين ومنه مايكون نِقمة للفاسقين . وروى مسلم عن عبد الله بن الزبير أن عائشة رضى الله عنها قالت : عَبِث(٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه ، فقلت : يارسول الله ، صنعتَ شيئا فى منامك لم تكن تفعله ؟ فقال : "العجبُ ، إن ناسا من أمتى يؤمّون هذا البيت برجل من قريش قد لجأ بالبيت حتى إذا كانوا بالبيداء خُسف بهم" . فقلنا : يارسول الله ، إن الطريق

---

(١) استهموا : اقترعوا .

(٢) عبث : معناه اضطرب بجسمه . وقيل : حرك أطرافه كمن يأخذ شيئا أو يدفعه .

قد يجمع الناس . قال : " نعم . فيهم المستبصر والمجبور[1] وآبن السبيل يهلكون مهلكا واحدا ويصدرون مصادر شتى يبعثهم الله تعالى على نياتهم " . فإن قيل : فقد قال الله تعالى « ولا تزر وازرة وزر أخرى »[2] . « كل نفس بما كسبت رهينة »[3] . « لها ما كسبت وعليها ما آكتسبت »[4] . وهذا يوجب ألا يؤخذ أحد بذنب أحد ، وإنما تتعلق العقوبة بصاحب الذنب . فالجواب أن الناس إذا تظاهروا بالمنكر فمن الفرض على كل من رآه أن يغيره ، فإذا سكتوا عليه فكلهم عاص . هذا بفعله وهذا برضاه . وقد جعل الله فى حكمه وحكمته الراضى بمنزلة العامل ؛ فانتظم فى العقوبة[5] ؛ قاله آبن العربى . وهو مضمون الأحاديث كما ذكرنا . ومقصود الآية : وآتقوا فتنة تتعدى الظالم ، فتصيب الصالح والطالح .

الثانية — واختلف النحاة فى دخول النون فى « لا تصيبن » . قال الفراء : هو بمنزلة قولك : انزل عن الدابة لا تطرحنك ؛ فهو جواب الأمر بلفظ النهى ؛ أى إن تنزل عنها لا تطرحنك . ومثله قوله : « ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم »[6] . أى إن تدخلوا لا يحطمنكم ؛ فدخلت النون لما فيه من معنى الجزاء . وقيل : لأنه خرج مخرج القسم ، والنون لا تدخل إلا على فعل النهى أو جواب القسم . وقال أبو العباس المبرد : إنه نهى بعد أمر ، والمعنى النهى للظالمين ؛ أى لا تقربن الظلم . وحكى سيبويه : لا أرينك ها هنا ؛ أى لا تكن ها هنا ، فإنه من كان ها هنا رأيته . وقال الجرجانى : المعنى آتقوا فتنة تصيب الذين ظلموا خاصة . فقوله « لا تصيبن » نهى فى موضع وصف النكرة ؛ وتأويله الإخبار بإصابتها الذين ظلموا . وقرأ على وزيد بن ثابت وأبى وآبن مسعود « لتصيبن » بلا ألف . قال المهدوى : من قرأ «لتصيبن» جاز أن يكون مقصورا من « لا تصيبن » حذفت الألف كما حذفت من « ما » وهى أخت « لا » فى نحو أم والله لأفعلن ، وشبهه . ويجوز أن تكون مخالفة لقراءة الجماعة ؛ فيكون المعنى أنها تصيب الظالم خاصة .

---

(١) المستبصر : هو المستبين للأمر ، القاصد لذلك عمدا . والمجبور : المكره .

(٢) آية ١٥ سورة الإسراء . (٣) آية ٣٨ سورة المدثر . (٤) آخر سورة البقرة .

(٥) عبارة آبن العربى : « فانتظم الذنب بالعقوبة » . (٦) آية ١٨ سورة النمل .

قوله تعـالى : وَٱذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ ﴾ قال الكلبيّ : نزلت فى المهاجرين؛ يعنى وصف حالهم قبل الهجرة وفى ابتداء الإسلام . ﴿ مُسْتَضْعَفُون ﴾ نعت . ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى أرض مكة . ﴿ تَخَافُونَ ﴾ نعت . ﴿ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمْ ﴾ فى موضع نصب . والخطف : الأخذ بسرعة . ﴿ النّاسُ ﴾ رفع على الفاعل . قتادة وعكرمة : هم مشركو قريش . وهب بن منبّـه : فارس والروم . ﴿ فَآوَاكُمْ ﴾ قال ابن عباس : إلى الأنصار . السُّدّى : إلى المدينـة ؛ والمعنى واحد . آوى إليه (بالمـد) : ضمّ إليـه . وأوى إليه (بالقصر) : انضمّ إليـه . ﴿ وَأَيَّدَكُمْ ﴾ قوّاكم . ﴿ بِنَصْرِه ﴾ أى بعونه . وقيـل : بالأنصار . وقيل : بالملائكة يوم بدر . ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أى الغنائم . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ قد تقدّم معناه[1] .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾

رُوى أنها نزلت فى أبى لُبَـابة بن عبد المنـذر حين أشار إلى بنى قُريظة بالذبح . قال أبو لُبابة : والله ما زالت قدماى حتى علمت أنى قد خنت الله و رسوله ؛ فنزلت هذه الآية . فلما نزلت شدّ نفسه إلى سارية من سوارى المسجد، وقال : والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت، أو يتوب الله علىّ . الخبر مشهور . وعن عكرمة قال : لمـا كان شأن قريظة بعث النبىّ صلى الله عليه وسلم عليًّا رضى الله عنه فيمن كان عنده من الناس؛ فلما انتهى إليهم وقعُوا فى رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، وجاء جبريل عليه السـلام على فرس أبلق فقالت عائشة رضى الله عنها : فلكأنّى أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح الغبار عن وجه

(١) راجع جـ ١ ص ٣٩٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

جبريل عليهما السلام ؛ فقلت : هذا دِحية يارسول الله . فقال : "هذا جبريل عليه السلام" .
قال : "يارسول الله ما يمنعك من بنى قُريظة أن تأتيهم" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
" فكيف لى بحصنهم "؟ فقال جبريل : " فإنى أدخل فرسى هذا عليهم " . فركب رسول الله
صلى الله عليه وسلم فرسا مُعْرَوْرَى(1) ؛ فلما رآه علىّ رضى الله عنه قال : يارسول الله ، لا عليك
ألّا تأتيهم ، فإنهم يشتمونك . فقال : "كلا إنها ستكون تحيّة" . فأتاهم النبىّ صلى الله عليه وسلم
فقال : " يا إخوة القردة والخنازير" فقالو : يا أبا القاسم ، ماكنت فحاشا ! فقالوا : لا ننزل
على حكم محمد ، ولكنا ننزل على حكم سعد بن معاذ ؛ فنزل . فحكم فيهم أن تقتل مقاتِلتهم
وتُسْبَى ذراريهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بذلك طرقنى المَلَك سَحَرًا " فنزل
فيهم « يأيها الذين آمنوا لا تَخُونُوا اللهَ والرسولَ وتَخُونُوا أماناتِكم وأنتم تعلمون » . نزلت
فى أبى لُبابة ، أشار إلى بنى قُريظة حين قالوا : ننزل على حكم سعد بن معاذ ، لا تفعلوا فإنه
الذبح ، وأشار إلى حلقه . وقيل : نزلت الآية فى أنهم كانوا يسمعون الشىء من النبىّ صلى الله
عليه وسلم فيُلقونه إلى المشركين ويُفشونه . وقيل : المعنى بغلول الغنائم ونسبتها إلى الله ؛ لأنه الذى
أمر بقسمتها . وإلى الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه المؤدّى عن الله عز وجل والقيِّم بها .
والخيانة : الغدر وإخفاء الشىء ؛ ومنه : « يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ(2) » وكان عليه السلام يقول :
" اللهم إنى أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ومن الخيانة فإنها بئست البِطانة " .
خرّجه النَّسائى عن أبى هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ... ؛ فذكره .
﴿ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ ﴾ فى موضع جزم ، نسقا على الأول . وقد يكون على الجواب ؛ كما يقال :
لا تأكل السمك وتشرب اللبن . والأمانات : الأعمال التى آئتمن الله عليها العباد . وسميت
أمانة لأنها يؤمن معها من منع الحق ؛ مأخوذة من الأمن . وقد تقدّم فى « النساء » القول
فى أداء الأمانات والودائع وغير ذلك(3) . ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى ما فى الخيانة من القبح والعار .
وقيل : تعلمون أنها أمانة .

---

(1) عريانا .   (2) آية ١٩ سورة غافر .   (3) راجع جـ ٥ ص ٢٥٥ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ كان لأبى لُبابة أموال وأولاد فى بنى قُريظة، وهو الذى حمله على ملاينتهم؛ فهذا إشارة إلى ذلك . ﴿ فِتْنَةٌ ﴾ أى اختبار؛ امتحنهم بها . ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ فآثروا حقّه على حقكم .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

قد تقدّم معنى « التقوى » . وكان الله عالما بأنهم يتقون أم لا يتقون . فذكر بلفظ الشرط؛ لأنه خاطب العباد بما يخاطِب بعضهم بعضا . فإذا اتقى العبد ربّه — وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه — وترَكَ الشبهات مخافة الوقوع فى المحرّمات، وشحن قلبه بالنية الخالصة، وجوارحه بالأعمال الصالحة، وتحفّظ من شوائب الشرك الخفِيّ والظاهر بمراعاة غير الله فى الأعمال ، والركون إلى الدنيا بالعفة عن المال جعل له بين الحق والباطل فرقانا، ورزقه فيما يريد من الخير إمكانا . قال ابن وهب : سألت مالكا عن قوله « إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا » قال : مخرجا، ثم قرأ « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا »[1]. وحكى ابن القاسم وأشهب عن مالك مثله سواء، وقاله مجاهد قبله . وقال الشاعر :

مَالكَ من طُول الأَسَى فُرقان * بعد قَطِينٍ رَحلوا وبَانُوا

وقال آخر :

وكيف أُرَجّى الخلد والموت طالبى * ومالى من كأس المنية فرقان

ابن إسحاق : « فرقانا » فَصْلا بين الحق والباطل؛ وقاله ابن زيد . السّدىّ: نجاة . الفرّاء : فتحا ونصرا . وقيل : فى الآخرة، فيدخلكم الجنة ويدخل الكفار النار .

(١) آية ٢ سورة الطلاق .

قوله تعالى : وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ (٣٠)

هذا إخبار بما اجتمع عليه المشركون من المكر بالنبي صلى الله عليه وسلم في دار النَّدْوة؛ فاجتمع رأيهم على قتله فبيّتوه ، ورصدوه على باب منزله طول ليلتهم ليقتلوه إذا خرج؛ فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب أن ينام على فراشه، ودعا الله أن يُعمى عليهم أمره؛ فطمس الله على أبصارهم ، فخرج وقد غَشِيَهم النوم ، فوضع على رءوسهم ترابا ونهض . فلما أصبحوا خرج عليهم على فأخبرهم أن ليس في الدار أحد ، فعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فات ونجا . الخبر مشهور في السيرة وغيرها . ومعنى « لِيُثْبِتُوك » ليحبسوك ؛ يقال : أثبتّه اذا حبسته . وقال قتادة : « لِيُثبِتوك » وَثاقا . وعنه أيضا وعبد الله بن كَثير : ليسجنوك . وقال أبان بن تَغْلِب وأبو حاتم : ليثخنوك بالجراحات والضرب الشديد . قال الشاعر :

فقلت ويحكما ما في صحيفتكم * قالوا الخليفة أمسى مُثبتاً وجعا

﴿ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ عطف . ﴿ وَيَمْكُرُونَ ﴾ مستأنف . والمكر : التدبير في الأمر في خفية . ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِين ﴾ ابتداء وخبر. والمكر من الله هو جزاؤهم بالعذاب على مكرهم من حيث لا يشعرون .

قوله تعالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٣١)

نزلت في النَّضر بن الحارث ، كان خرج إلى الحيرة في التجارة فاشترى أحاديث كَلِيلة ودِمنة ، وكسرى وقيصر؛ فلما قص رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبار من مضى قال النضر : لو شئت لقلت مثل هذا . وكان هذا وَقاحة وكذبا . وقيل : إنهم توهموا أنهم

يأتون بمثله ، كما توهّمت سحرة موسى ، ثم راموا ذلك فعجزوا عنه وقالوا عنادا : إن هـذا إلا أساطير الأولين . وقد تقدّم (١) .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالُوا ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾

القراء على نصب « الحقّ » على خبر « كان » . ودخلت « هو » للفصل . ويجوز « هو الحق » بالرفع . ﴿ مِنْ عِندِكَ ﴾ قال الزجاج : ولا أعلم أحدا قرأ بها ، ولا اختلاف بين النحويين فى إجازتها ، ولكن القراءة سنة ، لا يقرأ فيها إلا بقراءة مرضية . واختلف فيمن قال هـذه المقالة ؛ فقال مجاهد وابن جُبير : قائل هـذا هو النضر بن الحارث . أنس ابن مالك : قائله أبو جهل ؛ رواه البخارىّ ومسلم . ثم يجوز أن يقال : قالوه لشبهة كانت فى صدورهم ، وعلى وجه العناد والإبهام على الناس أنهم على بصيرة ، ثم حلّ بهم يوم بدر ما سألوا . حُكى أن ٱبن عباس لقِيَه رجل من اليهود ؛ فقال اليهودىّ : ممن أنت ؟ قال : من قريش . فقال : أنت من القوم الذين قالوا : «اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عِندِك» الآية . فهلّا عليهم أن يقولوا : إن كان هذا هو الحق من عندك فٱهدنا له ! إنّ هؤلاء قوم يجهلون . قال ابن عباس : وأنت يا إسرائيلىّ ، من القوم الذين لم تَجِف أرجلهم من بلل البحر الذى أغرق فيه فرعون وقومه ، وأنجى موسى وقومه ؛ حتى قالوا : « اجعل لنا إلٰهًا كما لهم آلهة » (٢) فقال لهم موسى : « إنكم قوم تجهلون » فأطرق اليهودىّ مفحما . ﴿ فَأَمْطِر ﴾ أمطر فى العذاب . ومطر فى الرحمة ؛ عن أبى عبيدة . وقد تقدّم .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

---

(١) آية ٢٥ سورة الأنعام . (٢) آية ١٣٨ سورة الأعراف .

لما قال أبو جهل : «اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك » الآية، نزلت « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ » كذا فى صحيح مسلم . وقال ابن عباس : لم يعذب أهل قرية حتى يخرج النبيّ صلى الله عليه وسلم منها والمؤمنون، ويلحقوا بحيث أمروا . ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ابن عباس : كانوا يقولون فى الطواف : غفرانك . والاستغفار و إن وقع من الفجار يُدفع به ضرب من الشرور والإضرار . وقيل : إن الاستغفار راجع إلى المسلمين الذين هم بين أظهرهم . أى وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر من المسلمين؛ فلما خرجوا عذبهم الله يوم بدر وغيره؛ قاله الضحاك وغيره . وقيل : إن الاستغفار هنا يراد به الإسلام . أى « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » أى يسلمون؛ قاله مجاهد وعكرمة . وقيل : « وهم يستغفرون » أى فى أصلابهم مَن يستغفر الله . روى عن مجاهد أيضا . وقيل : معنى « يستغفرون » لو استغفروا . أى لو استغفروا لم يعذبوا . استدعاهم إلى الاستغفار ؛ قاله قتادة وابن زيد . وقال المدائنى عن بعض العلماء قال : كان رجل من العرب فى زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم مُسْرفا على نفسه، لم يكن يتحرج؛ فلما أن تُوُفّىَ النبيّ صلى الله عليه وسلم لبس الصوف ورجع عما كان عليه ، وأظهر الدّين والنّسك . فقيل له : لو فعلت هذا والنبيّ صلى الله عليه وسلم حىّ لفرح بك . قال : كان لى أمانان ، فمضى واحد وبقى الآخر؛ قال الله تُبارك وتعالى : « وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم » فهذا أمان . والثانى « وما كان اللهُ معذّبهم وهم يستغفرون » .

قوله تعالى : وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ ﴾ المعنى : وما يمنعهم من أن يعذّبوا . أى إنهم مستحقون العذاب لما ارتكبوا من القبائح والأسباب، ولكن لكل أجل كتاب ؛ فعذّبهم الله

بالسيف بعد خروج النبيّ صلى الله عليه وسلم . وفى ذلك نزلت : « سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ »[1] وقال الأخفش : إنّ « أنْ » زائدة . قال النحاس : لو كان كما قال لرفع « يعذبهم » . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى إن المتقين أولياؤه .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾

قال ابن عباس : كانت قريش تطوف بالبيت عُراة، يصفّقون ويَصفرون ؛ فكان ذلك عبادة فى ظنهم . والمُكَاء : الصّفير . والتصدية : التصفيق ؛ قاله مجاهد والسدّى وابن عمر رضى الله عنهم . ومنه قول عنترة :

وحَليلِ غانيـةٍ تركت مُجَـدَّلًا * تَمْكُو فريصتُه كشِدْق الأعْلَمِ[2]

أى تصوّت . ومنه مكَتِ آستُ الدابة إذا نَفخت بالريح . قال السُّدّى : المُكَاء الصفير ، على نحو طائر أبيض بالحجاز يقال له المكاء . قال الشاعر :

إذا غَرّد المُكّاء فى غير رَوْضة * فوَيْلٌ لأهل الشّاءِ والحُمُرات

قتادة : المُكاء ضرب بالأيدى ، والتّصدية صياح . وعلى التفسيرين ففيه ردّ على الجهال من الصوفية الذين يَرقُصون ويُصَفّقون . وذلك كله منكر يتنزّه عن مثله العقلاء، ويتشبّه فاعله بالمشركين فيما كانوا يفعلونه عند البيت . وروى ابن جُريج وآبن أبى نَجيح عن مجاهد أنه

(١) سورة المعارج . (٢) الحليل : الزوج . ويروى : وخليل بالخاء المعجمة . الفريصة : الموضع الذى يرعد من الدابة والانسان إذا خاف . والأعلم : المشقوق الشفة العليا .

قال : المُكاء إدخالهم أصابعهم فى أفواههم . والتّصدية : الصّفير ، يريدون أن يُشغلوا بذلك محمدا صلى الله عليه وسلم عن الصلاة . قال النحاس : المعروف فى اللغة ما روى عن ابن عمر. حكى أبو عبيد وغيره أنه يقال : مَكَا يَمْكُو مَكْوًا ومُكاء إذا صَفَر . وصَدّى يُصدّى تصدية إذا صفق؛ ومنه قول عمرو بن الإطنابة[1] :

وظلّوا جميعا لهم ضجة * مُكاء لدى البيت بالتّصدية

أى بالتصفيق . سعيد بن جُبير وابن زيد : معنى التّصدية صدّهم عن البيت؛ فالأصل على هذا تصددة، فأبدل من أحد الدالين ياء. ومعنى ﴿ لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ أى المؤمن من الكافر . وقيل : هو عام فى كل شىء، من الأعمال والنفقات وغير ذلك .

قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أمر النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يقول للكفار هذا المعنى، وسواء قاله بهذه العبارة أو غيرها . قال ابن عطية : ولو كان كما ذكر الكسائىّ أنه فى مصحف عبد الله بن مسعود « قل للذين كفروا إن تنتهوا يغفر لكم » لما تأدّت الرسالة إلا بتلك الألفاظ بعينها؛ هذا بحسب ما تقتضيه الألفاظ .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَنْتَهُوا ﴾ يريد عن الكفر . قال ابن عطية : ولا بُدّ؛ والحامل على ذلك جواب الشرط « يُغْفَرْ لهم ما قد سَلَفَ » ومغفرة ما قد سلف لا تكون إلا لمُنْتَهٍ عن الكفر . ولقد أحسن القائل أبو سعيد أحمد بن محمد الزبيرى :

يستوجب العفو الفتى إذا اعترف * ثم انتهى عما أتاه واقترف

لقوله سبحانه فى المعترف * إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

(١) فى القاموس وشرحه : « والإطنابة امرأة من بنى كنانة بن القيس بن جسر بن قضاعة ، وعمرو ابنها شاعر مشهور، واسم أبيه زيد مناة » .

روى مسلم عن أبى شُماسة المَهْرِىّ قال : حضرْنا عمرو بنَ العاص وهو فى سِياقةِ الموت يبكى طويلا . الحديث . وفيه : فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أما علمت أن الإسلام يَهدِم ما كان قبله وأن الهجرة تَهدِم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله " الحديث . قال ابن العربىّ : هذه لطيفة من الله سبحانه منّ بها على الخلق؛ وذلك أن الكفار يقتحمون الكفر والجرائم، ويرتكبون المعاصى والمآثم؛ فلو كان ذلك يوجب مؤاخذة لهم لما استدركوا أبدا توبة، ولا نالتهم مغفرة . فيسّر الله تعالى عليهم قبول التوبة عند الإنابة، وبذل المغفرة بالإسلام، وهدم جميع ما تقدم؛ ليكون ذلك أقربَ لدخولهم فى الدّين، وأدعى إلى قبولهم لكلمة المسلمين، ولو علموا أنهم يؤاخذون لما تابوا ولا أسلموا . وفى صحيح مسلم : أن رجلا فيمن كان قبلكم قتل تسعة وتسعين نفسا ثم سأل هل له من توبة فجاء عابدا فسأله هل له من توبة فقال لا توبة لك فقتله فكمّل به مائة؛ الحديث . فٱنظروا إلى قول العابد : لا توبة لك؛ فلما علم أنه قد أيئسه قتله، فِعْل الآيس من الرحمة . فالتنفير مفسدة للخليقة، والتيسير مصلحة لهم . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان إذا جاء اليه رجل لم يقتل فسأله : هل لقاتلٍ من توبة ؟ فيقول : لا توبة؛ تخويفا وتحذيرا . فإذا جاءه مَن قتل فسأله : هل لقاتل من توبة ؟ قال له : لك توبة؛ تيسيرا وتأليفا . وقد تقدم .

الثالثة — قال ابن القاسم وابن وهب عن مالك فيمن طلّق فى الشرك ثم أسلم : فلا طلاق له . وكذلك من حلف فأسلم فلا حنث عليه . وكذا من وجبت عليه هذه الأشياء؛ فذلك مغفور له . فأما من ٱفترى على مسلم ثم أسلم أو سَرَق ثم أسلم أقيم عليه الحدّ للفِرية والسرقة . ولو زنى وأسلم، أو ٱغتصب مسلمة ثم أسلم سقط عنه الحدّ . وروى أشهب عن مالك أنه قال : إنما يعنى الله عزوجل ما قد مضى قبل الإسلام، من مال أودم أو شىء . قال ابن العربىّ : وهذا هو الصواب؛ لما قدّمناه من عموم قوله تعالى : « قل لِلذين كفروا إن يَنْتَهُوا يغفر لهم ما قد سلف »، وقولِه : "الإسلام يهدِم ما قبله"، وما بيناه من المعنى من التيسير وعدم التنفير .

قلت : أما الكافر الحربىّ فلا خلاف فى إسقاط ما فعله فى حال كفره فى دار الحرب . وأما إن دخل إلينا بأمان فقذف مسلما فإنه يحدّ، وإن سرق قطع . وكذلك الذّمىّ إذا قذف

حدّ ثمانين، وإذا سرق قطع، وإن قتل قتل. ولا يُسقط الإسلام ذلك عنه لنقضه العهد حال كفره؛ على رواية ابن القاسم وغيره. قال ابن المنذر: واختلفوا فى النصرانى يزنى ثم يسلم، وقد شهدت عليه بينة من المسلمين؛ فحكى عن الشافعىّ رضى الله عنه إذ هو بالعراق لا حدّ عليه ولا تغريب؛ لقول الله عز وجل: « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ». قال ابن المنذر: وهذا موافق لما روى عن مالك. وقال أبو ثور: إذا أقرّ وهو مسلم أنه زنى وهو كافر أقيم عليه الحدّ. وحكى عن الكوفى أنه قال: لا يحدّ.

الرابعة — فأما المرتد إذا أسلم وقد فاتته صلوات، وأصاب جنايات وأتلف أموالا؛ فقيل: حكمه حكم الكافر الأصلى إذا أسلم؛ لا يؤخذ بشىء مما أحدثه فى حال ٱرتداده. وقال الشافعىّ فى أحد قوليه: يلزمه كل حق لله عز وجل وللآدمى؛ بدليل أن حقوق الآدميين تلزمه فوجب أن تلزمه حقوق الله تعالى. وقال أبو حنيفة: ما كان لله يسقط، وما كان للآدمى لا يسقط. قال ابن العربىّ: وهو قول علمائنا؛ لأن الله تعالى مستغنٍ عن حقه، والآدمىّ مفتقر إليه. ألا ترى أن حقوق الله عز وجل لا تجب على الصبى وتلزمه حقوق الآدميين. قالوا: وقوله تعالى « قل للذين كفروا إن يَنْتَهُوا يُغفر لهم ما قد سلف » عام فى الحقوق التى لله تعالى.

الخامسة — قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَعُودُوا ﴾ يريد إلى القتال؛ لأن لفظة « عاد » إذا جاءت مطلقة فإنما تتضمن الرجوع إلى حالة كان الإنسان عليها ثم انتقل عنها. قال ابن عطية: ولسنا نجد فى هذه الآية لهؤلاء الكفار حالة تشبه ما ذكرنا إلا القتال. ولا يجوز أن يتأول الى الكفر؛ لأنهم لم ينفصلوا عنه، وإنما قلنا ذلك فى «عاد» إذا كانت مطلقة لأنها قد تجىء فى كلام العرب داخلة على الابتداء والخبر، فيكون معناها معنى صار؛ كما تقول: عاد زيد ملِكا؛ يريد صار. ومنه قول [أمية بن] أبى الصلت: —

تلك المكارم لا قَعبانِ من لبن * شِيبا بماء فعادا بعدُ أبوالا

وهذه لا تتضمن الرجوع إلى حالة قد كان العائد عليها قبل. فهى مقيّدة بخبرها لا يجوز الاقتصار دونها؛ فحكمها حكم صار.

قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ عبارة تجمع الوعيد والتهديد والتمثيل بمن هلك من الأمم فى سالف الدهر بعذاب الله .

قوله تعالى : وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أى كفر . إلى آخر الآية تقدم معناها وتفسير ألفاظها فى « البقرة »[1] وغيرها والحمد لله .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٥٣ طبعة ثانية .

تم الجزء السابع من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثامن، وأوله قوله تعالى :

« واعلموا أنما غنمتم من شيء »

كَمُلَ طبع الجزء السابع من كتاب " الجامع لأحكام القرآن للقرطبي "
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الثلاثاء ١٤ شوال سنة ١٣٥٧
(٦ ديسمبر سنة ١٩٣٨ م)

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ٣٣/١٩٣٧/٢٠٠٠)



القســـم الأدبى





القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م

الطبعة الثانية بمطبعة دار الكتب المصرية

فهـــرس الجـزء الثـامن

تفسـير سـورة الأنفـال

صفحة

صفحة

سورة براءة

صفحة

صفحة

صفحة

تفسير ســـورة يونس عليـــه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير بقية سورة الأنفال

قوله تعالى : وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ . فيه ست وعشرون مسألة[1] :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَىْءٍ﴾ الغنيمة فى اللغة ما يناله الرجل أو الجماعة بسَعْى ؛ ومن ذلك قول الشاعر :

وقد طوّفت فى الآفاق حتى * رضيت من الغنيمة بالإياب

وقال آخر :

ومُطْعَم الغُنْم يومَ الغنم مُطْعَمُه * أنّى توجّه والمحروم محروم

والمغنم والغنيمة بمعنًى؛ يقال : غنِم القوم غُنْما . وٱعلم أن الاتفاق حاصل على أن المراد بقوله تعالى : « غَنِمْتُمْ مِنْ شَىْءٍ » مالُ الكفار إذا ظَفِر به المسلمون على وجه الغَلَبة والقَهْر . ولا تقتضى اللغة هذا التخصيص على ما بيّناه، ولكن عُرف الشرع قيّد اللفظ بهذا النوع . وسمّى الشرعُ الواصلَ من الكفار إلينا من الأموال بٱسمين : غَنيمة وفَيْئًا . فالشىء الذى يناله المسلمون من عدوّهم بالسّعى وإيجاف[2] الخيل والركاب يُسَمَّى غنيمة . ولزم هذا الاسم هذا

---

(١) يلاحظ أن المسائل خمس وعشرون مسألة .   (٢) الايجاف : سرعة السير؛ أى لم يعدّوا فى تحصيله خيلا ولا إبلا، بل حصل بلا قتال . والركاب : الابل التى يسافر عليها؛ لا واحد لها من لفظها .

المعنى حتى صار عُرفا . والفَىْء مأخوذ من فاء يفىء إذا رجع ، وهو كل مال دخل على المسلمين من غير حرب ولا إيجاف . كخَراج الأرضين وجزية الجماجم وخمس الغنائم . ونحو هـذا قال سفيان الثَّوْرِىّ وعطاء بن السائب . وقيل : إنهما واحد ، وفيهما الخمس ؛ قاله قتادة. وقيل : الفىء عبارة عن كل ما صار للسلمين من أموال بغير قهر . والمعنى متقارب .

الثانيـــة ــ هــذه الآية ناسخة لأوّل السورة ؛ عند الجمهور . وقد آدعى ابن عبد البر الإجمـاعَ على أن هــذه الآية نزلت بعد قوله « يسألونك عن الأنفال » وأن أربعــة أخماس الغنيمة مقسومةٌ على الغانمين ؛ على ما يأتى بيانه . وأن قوله « يسألونك عن الأنفال » نزلت فى حين تشاجر أهل بدر فى غنائم بدر؛ على ما تقدم أول السورة .

قلت : ومما يدل على صحة هــذا ما ذكره إسماعيل بن إسحاق قال : حدّثنا محمد بن كثير قال حدثنا سفيان قال حدثنى محمد بن السائب عن أبى صالح عن ابن عباس قال : لمـا كان يوم بدر قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "من قتل قتيلا فله كذا ومن أَسَر أسيرا فله كذا" وكانوا قتلوا سبعين، وأسروا سبعين، فجاء أبو اليَسَر بن عمرو بأسيرين؛ فقال : يا رسول الله، إنك وعدتنا مَن قتل قتيلا فله كذا، وقد جئتُ بأسيرين . فقام سعد فقال : يارسول الله، إنا لم يمنعنا زيادةٌ فى الأجر ولا جُبن عن العدو ولكنا قمنا هذا المَقام خشية أن يعطف المشركون؛ فإنك إن تُعطى هؤلاء لا يبقى لأصحابك شىء . قال : وجعــل هؤلاء يقولون وهؤلاء يقولون فنزلت « يســئلونك عنِ الأنفالِ قُلِ الأنفالُ للهِ والرسول فاتّقوا اللهَ وأصلِحُوا ذاتَ بينكم » فسلّموا الغنيمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم نزلت « واعلموا أنّمَا غَنِمتم مِنْ شَىْءٍ فأَنّ للهِ خُمُسَه » الآية . وقد قيل : إنها مُحْكَمة غيرُ منسوخة، وأن الغنيمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وليست مقسومة بين الغانمين ؛ وكذلك لمن بعــده من الأئمة . كذا حكاه المـازَرِىّ عن كثير من أصحابنا، رضى الله عنهم، وأن للإمام أن يخرجها عنهم . واحتجّوا بفتح مكة وقصة حُنين . وكان أبو عبيــد يقول : افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عَنْوَةً ومنّ على أهلها فردّها عليهم ولم يقسمها ولم يجعلها عليهم فَيْئًا . ورأى بعض الناس أن هذا جائز للأئمة بعده .

قلت : وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى : « وٱعلموا أنما غنمتم من شئ فأنّ لله خمسه » والأربعة الأخماس للإمام، إن شاء حبسها و إن شاء قسمها بين الغانمين . وهذا ليس بشيء؛ لما ذكرناه، ولأن الله سبحانه أضاف الغنيمة للغانمين فقال : «واعلموا أنما غنمتم من شيء» ثم عيّن الخمس لمن سمّى فى كتابه ، وسكت عن الأربعة الأخماس؛ كما سكت عن الثلثين فى قوله : « وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ »(١) فكان للأب الثلثان اتفاقا . وكذا الأربعة الأخماس للغانمين إجماعا؛ على ما ذكره ٱبن المنذر وابن عبد البر والدّاوُدِيّ والمازَرِيّ أيضا والقاضي عِياض وابن العربيّ . والأخبار بهذا المعنى متظاهرة، وسيأتى بعضها . ويكون معنى قوله : «يسئلونك عن الأنفال» الآية، ما ينفّله الإمام لمن شاء لما يراه من المصلحة قبل القسمة . وقال عطاء والحسن : هى مخصوصة بما شذّ من المشركين إلى المسلمين، من عبد أو أَمَة أو دابة؛ يقضى فيها الإمام بما أحبّ . وقيل : المراد بها أنفال السّرايا أى غنائمها، إن شاء خمسها الإمام، و إن شاء نفّلها كلها . وقال إبراهيم النّخعِيّ فى الإمام يبعث السّرِيّة فيصيبون المغنم : إن شاء الإمام نفّله كله، و إن شاء خمّسه . وحكاه أبو عمر عن مكحول وعطاء . قال عليّ بن ثابت : سألت مكحولا وعطاء عن الإمام ينفّل القوم ما أصابوا؛ قال : ذلك لهم . قال أبو عمر : من ذهب إلى هذا تأوّل قول الله عزّ وجل : « يسئلونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول» أن ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم يضعها حيث شاء . ولم ير أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه » . وقيل غير هذا مما قد أتينا عليه فى كتاب (القبس فى شرح مُوَطّأ مالك بن أنس) . ولم يقل أحد من العلماء فيما أعلم أن قوله تعالى «يسئلونك عن الأنفال» الآية، ناسخ لقوله «وٱعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه» بل قال الجمهور على ما ذكرنا : إن قوله « ما غنمتم » ناسخ، وهم الذين لا يجوز عليهم التحريف ولا التبديل لكتاب الله تعالى . وأما قصة فتح مكة فلا حجة فيها لاختلاف العلماء فى فتحها . وقد قال أبو عبيد : ولا نعلم مكة يشبهها شيء من البلدان من جهتين : إحداهما أن رسول

(١) آية ١١ سورة النساء .

الله صلى الله عليه وسـلم كان الله قد خصّه من الأنفال والغنائم ما لم يجعله لغيره ؛ وذلك لقوله «يسئلونك عن الأنفال» الآية؛ فنرى أن هذا كان خاصًّا له . والجهة الأخرى أنه سنّ لمكّة سُنَنًا ليست لشيء من البلاد . وأما قصة حُنين فقد عوّض الأنصار لمّـا قالوا : يعطِى الغنائم قريشا و يتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهـم! فقال لهم : " أما تَرضون أن يرجع الناس بالدنيـا وترجعون برسول الله صلى الله عليه وسلم الى بيوتكم " . خرّجه مسلم وغيره . وليس لغيره أن يقول هذا القول، مع أن ذلك خاص به على ما قاله بعض علمائنا . والله أعلم .

الثالثـــة ـــ لم يختلف العلماء أن قوله : «وٱعلموا أنما غنمتم من شيء» ليس على عمومه ، وأنه يدخله الخصوص ؛ فما خصّصوه بإجماع أنـ قالوا : سَلَبُ المقتول لقاتله إذا نادى به الإمام . وكذلك الرقاب؛ أعنى الأسارى، الخِيَرة فيها إلى الإمام بلا خلاف ، على ما يأتى بيانه . ومما خُصّ به أيضا الأرض . والمعنى: ما غنمتم من ذهب وفضة وسائر الأمتعة والسّبْى . وأما الأرض فغير داخلة فى عموم هـذه الآية ؛ لمـا روى أبو داود عن عمر بن الخطاب أنه قال : لولا آخر الناس ما فتحتُ قريةً إلا قسَمتها كما قسَم رسول الله صلى الله عليه وسلم خَيْبر . ومما يصحح هذا المذهب ما رواه الصحيح عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: " مَنعتِ العراقُ قفيزها ودرهمها ومَنعت الشام مُدْها ودينارها " الحديث . قال الطحاويّ : «منعت» بمعنى ستمنع ؛ فدلّ ذلك على أنها لا تكون للغانمين؛ لأن ما ملكه الغانمون لا يكون فيه قفيز ولا درهم، ولو كانت الأرض تقسم ما بقى لمن جاء بعد الغانمين شيء . والله تعالى يقول: « والذين جاءوا من بعـدهم »(1) بالعطف على قوله « للفقراء المهاجرين » . قال : وانما يقسم ما ينقل من موضع إلى موضع . وقال الشافعيّ : كل ما حصل من الغنائم من أهل دار الحرب من شيء قَلّ أو كَثُر من دار أو أرض أو متاع أو غير ذلك قسم ؛ إلا الرجالَ البالغين فإن الإمام فيهم مخيَّر أن يَمُنّ أو يقتل أو يَسْبِي . وسبيل ما أخذ مـنهم وسُـبِى سبيلُ الغنيمة . واحتج بعموم الآية . قال : والأرض مغنومة لا محالة ؛ فوجب أن تقسم كسائر الغنائم . وقـد قسم

(1) آية ١٠ سورة الحشر .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ٱفتتح عَنوة من خَيْبر . قالوا : ولو جاز أن يدّعى ٱلخصوص في الأرض جاز أن يدّعى فى غير الأرض فيبطل حكم الآية . وأما آية «الحشر»[1] فلا حجة فيها؛ لأن ذلك إنما هو فى الفىء لا فى الغنيمة . وقوله «والذين جاءوا من بعدهم» استئناف كلام بالدعاء لمن سبقهم بالإيمان لا لغير ذلك . قالوا : وليس يخلو فعل عمر فى توقيفه الأرض من أحد وجهين : إما أن تكون غنيمة استطاب أنفس أهلها ، وطابت بذلك فوقفها . وكذا روى جرير أن عمر استطاب أنفسَ أهلها . وكذلك صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سَبْى هوازن ، لما أتَوْه ٱستطابَ أنفسَ أصحابه عما كان فى أيديهم . وإما أن يكون ما وقفه عمر فَيْئًا فلم يحتج الى مُراضاة أحد . وذهب الكوفيون إلى تخيير الإمام فى قَسْمها أو إقرارها وتوظيف الخراج عليها ، وتصير ملكا لهم كأرض الصلح . قال شيخنا أبو العباس رضى الله عنه : وكأن هذا جمع بين الدليلين ووسط بين المذهبين ، وهو الذى فهمه عمر رضى الله عنه قطعا ؛ ولذلك قال : لولا آخر الناس ؛ فلم يخبر بنسخ فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم ولا بتخصيصه بهم ؛ غير أن الكوفيين زادوا على ما فعل عمر ، فإن عمر إنما وقفها على مصالح المسلمين ولم يملّكها لأهل الصلح ، وهم الذين قالوا للإمام أن يملّكها لأهل الصلح .

الرابعة — ذهب مالك وأبو حنيفة والثّورىّ إلى أن السلب ليس للقاتل ، وأن حكمه حكم الغنيمة ؛ إلا أن يقول الأمير : من قتل قتيلا فله سلبه ؛ فيكون حينئذ له . وقال الليث والأوزاعىّ والشافعىّ وإسحاق وأبو ثور وأبو عبيد والطبرىّ وابن المنذر : السلب للقاتل على كل حال ؛ قاله الإمام أو لم يقله . إلا أن الشافعىّ رضى الله عنه قال : إنما يكون السلب للقاتل إذا قتل قتيلا مقبلا عليه ، وأما إذا قتله مدبرا عنه فلا . قال أبو العباس بن سُريج من أصحاب الشافعىّ : ليس الحديث "من قتل قتيلا فله سلبه" على عمومه ؛ لإجماع العلماء على أن من قتل أسيرا أو امرأة أو شيخا أنه ليس له سلبُ واحدٍ منهم . وكذلك من ذَفَّف[2] على جريح ، ومن قَتَل من قُطعت يداه ورجلاه . قال : وكذلك المنهزم لا يمنع فى ٱنهزامه ؛ وهو

---

(١) آية ١٠ (٢) تذفيف الجريح : الاجهاز عليه .

كالمكتوف . قال : فعُلم بذلك أن الحديث إنمـا جعل السلب لمن لقتله معنًى زائد، أو لمن في قتـله فضيلة، وهو القاتل في الإقبال؛ لمـا في ذلك من المؤنة . وأما من أُثخن[1] فلا .
وقال الطبري : السلب للقاتل ، مقبلا قتله أو مدبرا، هاربا أو مبارزا إذا كان في المعركة .
وهذا يردّه ما ذكره عبد الرزاق ومحمد بن بكر عن ابن جُريج قال سمعت نافعا مولى ابن عمر يقول : لم نزل نسمع إذا التقى المسلمون والكفار فقتل رجل من المسلمين رجلا من الكفار فان سـلبه له ، إلا أن يكون في مَعْمعة القتال؛ لأنه حينئذ لا يُدْرَى من قتل قتيلا . فظاهر هذا يردّ قول الطبري لاشتراطه في السلب القتلَ في المعركة خاصة . وقال أبو ثَور وابن المنذر : السلب للقاتل في معركة كان أو غير معـركة ، في الإقبال والإدبار والهروب والانتهار على كل الوجوه؛ لعموم قوله صلى الله عليه وسلم : "من قتل قتيلا فله سلبه" .

قلت : روى مسلم عن سلمة بن الأَكْوَع قال : غَزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هوازن، فبينا نحن نَتَضحّى[2] مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء رجل على جمل أحمر فأناخه، ثم انتزع طَلَقًا من حَقَبِه[3] فقيّد به الجمل، ثم تقدّم يتغدّى مع القوم وجعل ينظر، وفينا ضَعْفة ورِقّة في الظَّهر[4]، وبعضنا مُشاة؛ إذ خرج يشتدّ[5]، فأتى جمله فأطلق قيده ثم أناخه وقعد عليه فأثاره فاشتدّ به الجمل؛ فاتّبعه رجل على ناقة وَرْقاء[6] . قال سلمة : وخرجت أشتدّ فكنت عند وَرِك الناقة، ثم تقدّمت حتى كنت عند ورك الجمل ، ثم تقدّمت حتى أخذت بخِطام الجمل فأنخته ، فلما وضع ركبته في الأرض اخترطتُ سيفي فضربت رأس الرجل فنَدَر[7] ، ثم جئت بالجمل أقوده ، عليه رحله وسلاحه ؛ فاستقبلني رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس معه فقال : "من قتل الرجل"؟ قالوا : ابن الأكوع . قال : "له سلبه أجمع" . فهذا سلمة قتله هاربا غير مقبل ، وأعطاه سلبه . وفيه حجة لمـالك من أن السلب لا يستحقه القـاتل

---

(١) أي أثقل بالجراح . (٢) أي نتغدّى . (٣) الطَلَق (بالتحريك) : قيـد من جلود . والحقب : الحبل المشدود على حقو البعير أو من حقيبته ، وهي الزيادة التي تجعل في مؤخر القتب ، والوعاء الذي يجعل الرجل فيه زاده . (عن ابن الأثير) . (٤) أي حالة ضعف وهزال في الابل . (٥) أي خرج مسرعا .
(٦) الأورق من الابل : الذي في لونه بياض الى سواد . (٧) ندر : سقط .

إلا بإذن الإمام، إذ لو كان واجبا له بنفس القتل لما احتاج الى تكرير هـذا القول .
ومن حجته أيضا ما ذكره أبو بكر بن أبي شيبة قال: حدّثنا أبو الأحوص عن الأسود بن قيس عن بشر بن علقمة قال : بارزت رجلا يوم القادسية فقتلته وأخذت سلبه، فأتيت سعدا فخطب سعد أصحابه ثم قال : هذا سلب بشر بن علقمة، فهو خير من اثنى عشر ألف درهم، وإنا قد نفّلناه إياه. فلو كان السلب للقاتل قضاءً من النبيّ صلى الله عليه وسلم ما احتاج الأمر أن يضيفوا ذلك إلى أنفسهم باجتهادهم، ولأخذه القاتل دون أمرهم. والله أعلم. وفي الصحيح أن معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء ضربا أبا جهل بسيفيهما حتى قتلاه، فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " أيّكما قتله "؟ فقال كل واحد منهما : أنا قتلته .
فنظر في السيفين فقال : " كلاكما قتله " وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح . وهذا نص على أن السلب ليس للقاتل، إذ لو كان له لقسمه النبيّ صلى الله عليه وسلم بينهما. وفي الصحيح أيضا عن عوف بن مالك قال : خرجت مع من خرج مع زيد بن حارثة في غزوة مُؤْتة، ورافقني مَدَدِيّ[1] من اليمن . وساق الحديث، وفيه : فقال عوف : يا خالد، أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بالسلب للقاتل؟ قال : بلى، ولكني استكثرته .
وأخرجه أبو بكر البَرْقانيّ بإسناده الذي أخرجه به مسلم، وزاد فيه بيانا أن عوف بن مالك قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يخمس السلب، وإن مَدَدِيًّا كان رفيقا لهم في غزوة مُؤْتة في طرف من الشام، قال : فجعل رُوميّ منهم يشتدّ على المسلمين وهو على فرس أشقر وسرج مذهب ومنطقة ملطخة وسيف محلًّى بذهب. قال: فيُغْرِي بهم، قال : فتلطف به المدديّ حتى مرّ به فضرب عُرقوب فرسه فوقع، وعلاه بالسيف فقتله وأخذ سلاحه .
قال : فأعطاه خالد بن الوليد وحبس منه، قال عوف : فقلت له أعطه كلّه، أليس قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " السلب للقاتل "! قال : بلى، ولكني استكثرته . قال عوف : وكان بيني وبينه كلام، فقلت له : لأُخبرن رسول الله صلى الله

---

(١) أي رجل من المدد الذين جاءوا يمدون جيش مؤتة ويساعدونهم .

عليه وسلم . قال عوف : فلما اجتمعنا عنـد رسول الله صلى الله عليه وسـلم ذكر عوف ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لخالد : "لِمَ لَمْ تعطه" ؟ قال فقال : استكثرته . قال : " فادفعه اليه " فقلت له : ألم أنجز لك ما وعـدتك ؟ قال : فغضب رسول الله صـلى الله عليه وسـلم وقال : "يا خالد لا تدفعه إليه هل أنتم تاركون لى أمرائى " . فهذا يدل دلالة واضحـة على أن السلب لا يستحقه القاتل بنفس القتل بل برأى الإمام ونظره . وقال أحمد ابن حنبل : لا يكون السلب للقاتل إلا فى المبارزة خاصة .

الخامســـة — اختلف العلمـاء فى تخميس السلب ؛ فقال الشافعىّ : لا يخمّس . وقال إسحاق : إن كان السلب يسيرا فهو للقاتل، و إن كان كثيرا خُمّس . وفعله عمر بن الخطاب مع البَرَاء بن مالك حين بارز المَرْزُبان فقتله، فكانت قيمة منطقته وسواريه ثلاثين ألفا فخمّس ذلك . أنس عن البراء بن مالك أنه قتل من المشركين مائة رجل إلا رجلا مبارزة؛ وأنهـم لمـا غَزَوا الزارة خرج دَهقان الزارة فقال : رجل و رجل ؛ فبرز البراء فاختلفا بسيفيهمـا ثم اعتنقا، فتوَرّكه البراء فقعد على كبده، ثم أخذ السيف فذبحه، وأخذ سلاحه ومنطقته وأتى به عمر، فنفّله السلاح وقوّم المنطقة بثلاثين ألفا فخمّسها ، وقال : إنها مال . وقال الأوزاعىّ ومكحول : السلب مَغْنم وفيـه الخمس . و روى نحوه عن عمر بن الخطاب . والحجة للشافعىّ ما رواه أبو داود عن عوف بن مالك الأشجعىّ وخالد بن الوليد أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قضى فى السلب للقاتل ولم يخمّس السلب .

السادســة — ذهب جمهور العلماء الى أن السلب لا يعطى للقاتل إلا أن يُقيم البيّنة على قتله . قال أكثرهم : ويجزئ شاهد واحد؛ على حديث أبى قَتادة . وقيل : شاهدان أو شاهد ويمين . وقال الأوزاعىّ : يُعطاه بمجرد دعواه، وليست البينة شرطا فى الاستحقاق ، بل إن اتفق ذلك فهو الأَوْلى دفعا للمنازعة . ألا ترى أن النبىّ صـلى الله عليه وسـلم أعطى أبا قتادة سلب مقتوله من غير شهادة ولا يمين . ولا تكفى شهادة واحد، ولا يُناط بها حكم بمجردها . و به قال الليث بن سعد .

قلت : سمعت شيخنا الحافظ المنذريّ الشافعيّ أبا محمد عبد العظيم يقول : إنما أعطاه النبيّ صلى الله عليه وسلم السلب بشهادة الأسود بن خزاعيّ وعبد الله بن أُنيس . وعلى هذا يندفع النزاع ويزول الإشكال ، ويطّرد الحكم . وأما المالكية فيخرّج على قولهم أنه لا يحتاج الإمام فيه إلى بينة؛ لأنه من الإمام ابتداءً عطيةٌ ، فإنْ شرط الشهادة كان له ، وإن لم يشترط جاز أن يعطيَه من غير شهادة .

السابعة — واختلفوا في السلب ما هو؛ فأما السلاح وكل ما يحتاج للقتال فلا خلاف أنه من السلب . وفرسه إن قاتل عليه وصُرع عنه . وقال أحمد في الفرس : ليس من السلب . وكذلك إن كان في هِميانه[1] وفي منطقته دنانير أو جواهر أو نحو هذا، فلا خلاف أنه ليس من السلب . واختلفوا فيما يتزيّن به للحرب؛ فقال الأوزاعيّ : ذلك كله من السلب . وقالت فرقة : ليس من السلب . وهذا مرويّ عن سُحنون رحمه الله ؛ الا المنطقة فإنها عنده من السلب . وقال ابن حبيب في الواضحة : والسّواران من السلب .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ قال أبو عبيد : هذا ناسخ لقوله عز وجل في أول السورة « قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ » ولم يخمّس رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم بدر، فنسخ حكمه في ترك التخميس بهذا . إلا أنه يظهر من قول عليّ رضي الله عنه في صحيح مسلم « كان لي شارفٌ[2] من نصيبي من المغنم يوم بدر، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاني شارفا من الخمس يومئذ» الحديث — أنه خمّس؛ فإن كان هذا فقول أبي عبيد مردود . قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون الخمس الذي ذكر عليّ من إحدى الغزوات التي كانت بين بدر وأُحُد؛ فقد كانت غزوة بني سُليم وغزوة بني المُصْطَلِق وغزوة ذي أَمَر وغزوة بُحران، ولم يُحفظ فيها قتال، ولكن يمكن أن غُنمت غنائم . والله أعلم .

قلت : وهذا التأويل يرده قول عليّ يومئذ، وذلك إشارة إلى يوم قسم غنائم بدر؛ إلا أنه يحتمل أن يكون من الخمس إن كان لم يقع في بدر تخميس ، من خمس سَرِيّة عبد الله بن

---

(١) الهميان : الذي تجعل فيه النفقة . وشداد السراويل . (٢) الشارف : الناقة المسنة .

جَحْش ، فإنها أول غنيمة غُنمت فى الإسلام ، وأول خمس كان فى الإســلام ؛ ثم نزل القرآن « واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خُمُسه » . وهذا أولى من التأويل الأول . والله أعلم .

التاســعة — « ما » فى قوله « ما غنمتم » بمعنى الذى ، والهــاء محذوفة ؛ أى الذى غنمتموه . ودخلت الفاء لأن فى الكلام معنى المجازاة . و « أنّ » الثانية توكيد للأولى ، ويجوز كسرها ، ورُوى عن أبى عمرو . قال الحسن : هذا مفتاح كلام(١) ، لله الدنيا والآخرة ؛ ذكره النَّسائى . واستفتح جل وعز الكلام فى الفيء والخمس بذكر نفسه ؛ لأنهما أشرف الكسب ، ولم ينسب الصدقة إليه لأنها أوساخ الناس .

العاشــرة — واختلف العلماء فى كيفية قسم الخمس على أقوال ستة :

الأول — قالت طائفة : يقسم الخمس على ستة ؛ فيُجعل السدس للكعبة ، وهو الذى لله . والثانى لرسول الله صلى الله عليه وسلم . والثالث لذوى القُرْبَى . والرابع لليتامى . والخامس للمساكين . والسادس لابن السبيل . وقال بعض أصحاب هــذا القول : يُرد السهم الذى لله على ذوى الحاجة .

الثــانى — قال أبو العالية والربيع : تقسم الغنيمة على خمسة ، فيعزل منها سهم واحد ، وتقسم الأربعة على الناس ، ثم يضرب بيده فى السهم الذى عزله فمــا قبض عليــه من شيء جعله للكعبة ، ثم يَقسم بقيّة السهم الذى عزله على خمسة ، سهم للنبىّ صلى الله عليــه وسلم ، وسهم لذوى القُرْبَى ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لابن السبيل .

الثــالث — قال المنهال بن عمرو : سألت عبد الله بن محمد بن علىّ وعلىّ بن الحسين عن الخمس فقال : هو لنا . قلت لعلىّ : إن الله تعالى يقول : «واليتامى والمساكين وابن السبيل» فقال : أيتامنا ومساكيننا .

الرابــع — قال الشافعىّ : يقسم على خمسة . ورأى أن سهم الله ورسوله واحد ، وأنه يصرف فى مصالح المؤمنين ، والأربعة الأخماس على الأربعة الأصناف المذكورين فى الآية .

(١) أى قوله تعالى : «فأن لله خمسه» راجع الحديث فى كتاب قسم الفيء فى سنن النسائى .

الخامس — قال أبو حنيفة : يقسم على ثلاثة : اليتامى والمساكين وابن السبيل . وارتفع عنده حكم قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بموته ؛ كما ارتفع حكم سهمه . قالوا : ويبدأ من الخمس بإصلاح القناطر، وبناء المساجد ، وأرزاق القضاة والجند . وروى نحو هذا عن الشافعي أيضا .

السادس — قال مالك : هو موكول الى نظر الإمام واجتهاده؛ فيأخذ منه من غير تقدير، ويعطى منه القرابة باجتهاد، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين . وبه قال الخلفاء الأربعة، وبه عملوا . وعليه يدلّ قوله صلى الله عليه وسلم : "مالى مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم" . فإنه لم يقسمه أخماسا ولا أثلاثا، وإنما ذكر في الآية من ذكر على وجه التنبيه عليهم ؛ لأنهم من أهمّ مَن يدفع إليه . قال الزجاج محتجًّا لمالك : قال الله عز وجل « يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ »[1] وللرجل جائز بإجماع أن ينفق في غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك . وذكر النّسائى عن عطاء قال : خُمُس الله وخمس رسوله واحد، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل منه ويعطى منه ويضعه حيث شاء ويصنع به ما شاء .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ ليست اللام لبيان الاستحقاق والملك، وإنما هي لبيان المَصْرف والمحل . والدليل عليه ما رواه مسلم أن الفضل بن عباس وربيعة ابن عبد المطلب أتيا النبيّ صلى الله عليه وسلم، فتكلم أحدهما فقال : يارسول الله، أنت أبرّ الناس، وأوصَل الناس، وقد بلغنا النكاحَ فجئنا لتؤمّرنا على بعض هذه الصدقات، فنؤدّيَ اليك كما يؤدّى الناس ، ونصيبَ كما يصيبون . فسكت طويلا حتى أردنا أن نكلمه، قال : وجعلت زينب تُلْمِع[2] إلينا من وراء الحجاب ألّا تكلّماه، قال : ثم قال : " إن الصدقة لا تحل لآل محمد إنما هي أوساخ الناس ادعُوا لي مَحْمِيَةَ[3] — وكان على الخُمُس — ونَوْفَلَ بنَ الحارث بن

(١) آية ٢١٥ سورة البقرة . (٢) يقال : ألمع ولمع، اذا أشار بثوبه أو بيده .
(٣) هو محمية بن جَزْء، رجل من بنى أسد .

عبد المطلب" قال : فجاءه فقال لَمَحْمِية : "أَنْكِحْ هذا الغلام ٱبنتك" ـــ للفضل بن عباس ـــ فأنكحه . وقال لنوفل بن الحارث: " أَنْكِح هذا الغلامَ ٱبنتك" يعنى ربيعة بن عبد المطلب . وقال لَمَحْمِيَة : "أَصْدِق عنهما من الخمس كذا وكذا" . وقال صلى الله عليه وسلم : "مالى مما أفاء الله عليكم الا الخمس والخمس مردود عليكم" . وقد أعطى جميعه وبعضه، وأعطى منه المؤلّفة قلوبهم، وليس ممن ذكرهم الله فى التقسيم؛ فدلّ على ما ذكرناه، والموفق الإله .

الثانية عشرة ـــ واختلف العلماء فى ذوى القربى على ثلاثة أقوال : قريش كلها ؛ قاله بعض السلف، لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما صعد الصّفا جعل يهتف : " يابنى فلان يا بنى عبد مناف يابنى عبد المطلب يابنى كعب يابنى مُرّة يابنى عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار " الحديث . وسيأتى فى « الشعراء »(1) . وقال الشافعيّ وأحمد وأبو ثَوْر ومجاهد وقتادة وابن جُرَيج ومسلم بن خالد : بنو هاشم وبنو عبد المطلب؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما قسم سهم ذوى القُرْبى بين بنى هاشم وبنى عبد المطلب قال : " إنهم لم يفارقونى فى جاهلية ولا إسلام إنما بنو هاشم وبنو المطّلب شيء واحد " وشبّك بين أصابعه؛ أخرجه النّسائى والبخاريّ . قال البخارى : قال الليث حدثنى يونس ، وزاد : ولم يَقْسِم النبيّ صلى الله عليه وسلم لبنى عبد شمس ولا لبنى نَوْفل شيئا . قال ابن اسحاق : وعبد شمس وهاشم والمطّلب إخوةٌ لأمّ، وأمّهم عاتكة بنت مُرّة . وكان نوفل أخاهم لأبيهم . قال النّسائيّ : وأسهم النبيّ صلى الله عليه وسلم لذوى القربى، وهم بنو هاشم وبنو المطلب، بينهم الغنى والفقير . وقد قيل : إنه للفقير منهم دون الغنيّ ؛ كاليتامى وابن السبيل . وهو أشبه القولين بالصواب عندى . والله أعلم . والصغير والكبير والذكر والأنثى سواء؛ لأن الله تعالى جعل ذلك لهم ، وقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم . وليس فى الحديث أنه فضّل بعضهم على بعض .

الثالث ـــ بنوهاشم خاصة؛ قاله مجاهد وعليّ بن الحسين . وهو قول مالك والثّوريّ والأوزاعيّ وغيرهم .

(1) فى قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » آية ٢١٤ .

الثالثة عشرة — لما بيّن الله عز وجل حكم الخمس وسكت عن الأربعة الأخماس، دلّ ذلك على أنها ملك للغانمين. وبيّن النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله: "وأيّما قرية عصت الله ورسوله فإن خمسها لله ورسوله ثم هي لكم". وهذا مالا خلاف فيه بين الأمة ولا بين الأئمة؛ على ما حكاه ابن العربى فى (أحكامه) وغيره. بَيْدَ أن الإمام إن رأى أن يَمُنّ على الأسارى بالإطلاق فعل، وبطلت حقوق الغانمين فيهم؛ كما فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم بثُمامة بن أُثال وغيره، وقال: "لو كان المُطْعِم بن عدىّ حيًّا ثم كلّمنى فى هؤلاء النَّتْنَى (١) — يعنى أسارى بدر — لتركتهم له" أخرجه البخارىّ. مكافأةً له لقيامه فى شأن [نَقْض] الصحيفة (٢). وله أن يقتل جميعهم؛ وقد قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم عُقبة بن أبى مُعَيط من بين الأسرى صَبْرًا (٣)، وكذلك النضر بن الحارث قتله بالصفراء صَبْرًا؛ وهذا ما لاخلاف فيه. وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم سهم كسهم الغانمين، حضر أو غاب. وسهم الصَّفِىّ، يصطفى سيفا أو سهما أو خادما أو دابة. وكانت صَفِيّة بنت حُيَىّ من الصَّفِىّ من غنائم خَيْبر. وكذلك ذو الفقار (٤) كان من الصَّفِىّ. وقد انقطع بموته؛ إلا عند أبى ثَوْر فإنه رآه باقيا للإمام يجعله مجعل سهم النبىّ صلى الله عليه وسلم. وكانت الحكمة فى ذلك أن أهل الجاهلية كانوا يرون الرئيس ربع الغنيمة. قال شاعرهم:

لك المِرْباع منها والصّفايا ✽ وحُكْمُك والنَّشيطةُ والفُضول (٥)

وقال آخـر:

منا الذى رَبَع الجيوش، لصُلبه ✽ عشرون، وهو يُعَدّ فى الأحياء

---

(١) النتنى: جمع نتن؛ كزمنى وزمن. (٢) أى الصحيفة التى كتبتها قريش فى ألا يبايعوا الهاشمية ولا المطلبية ولا يناكحوهم. وهو مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف؛ مات كافرا فى صفر قبل وقعة بدر بنحو سبعة أشهر. (عن شرح القسطلانى). (٣) صبر الإنسان وغيره على القتل: حبسه ورماه حتى يموت.

(٤) ذو الفقار: اسم سيف النبىّ عليه السلام، وسمى به لأنه كانت فيه حفر صغار حسان؛ ويقال للحفرة فقرة.

(٥) البيت لعبد الله بن عنمة الضبى، يخاطب بسطام بن قيس. والنشيطة: ما أصاب الرئيس فى الطريق قبل أن يصير الى مجتمع الحى. والفضول: ما فضل من القسمة مما لاتصح قسمته على عدد الغزاة؛ كالبعير والفرس ونحوهما (عن اللسان).

يقال : رَبَع الجيشَ يَرْبَعه رَباعة إذا أخذ رُبع الغنيمة. قال الأصمعيّ: ربع في الجاهلية وخمس في الإسلام ؛ فكان يأخذ بغير شرع ولا دِين الربع من الغنيمة، ويصطفى منها، ثم يتحكّم بعدَ الصَّفِيّ في أي شيء أراد، وكان ماشذ منها وما فضل من خرثيّ[1] ومتاع له. فأحكم الله سبحانه الدِّين بقوله : « واعلموا أنما غنِمتم من شيء فأن لله خُمُسه » . وأبقى سهم الصَّفِيّ لنبيّه صلى الله عليه وسلم وأسقط حكم الجاهلية . وقال عامر الشَّعْبيّ : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم سهم يُدعَى الصَّفِيّ إن شاء عبدا أو أَمة أو فرسا يختاره قبل الخمس ؛ أخرجه أبو داود . وفي حديث أبي هريرة قال : فيلقى العبد فيقول : " أَيْ فُلْ[2] ألم أُكرِمْكَ وأُسَوِّدْك وأزوّجْك وأُسخِّرْ لك الخيل والإبل وأَذَرْك تَرْأَس وتَرْبَع " الحديث . أخرجه مسلم . « تربع » بالباء الموحّدة من تحتها : تأخذ المِرباع، أي الربع مما يحصل لقومك من الغنائم والكسب . وقد ذهب بعض أصحاب الشافعيّ رضي الله عنه إلى أن خمس الخمس كان للنبيّ صلى الله عليه وسلم يصرفه في كفاية أولاده ونسائه ، ويدخّر من ذلك قوت سنته ، ويصرف الباقي في الكُراع[3] والسلاح . وهذا يردّه ما رواه عمر قال : كانت أموال بني النَّضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يُوجِف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب ، فكانت للنبيّ صلى الله عليه وسلم خاصّة ، فكان ينفق على نفسه[4] منها قوت سنة ، وما بقي جعله في الكُراع والسلاح عدّة في سبيل الله . أخرجه مسلم . وقال : " والخمس مردود عليكم " .

الرابعة عشرة — ليس في كتاب الله تعالى دلالة على تفضيل الفارس على الراجل ، بل فيه أنهم سواء ؛ لأن الله تعالى جعل الأربعة أخماس لهم ولم يَخُص راجلا من فارس . ولولا الأخبار الواردة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم لكان الفارس كالراجل ، والعبد كالحر، والصبيّ كالبالغ . وقد اختلف العلماء في قسمة الأربعة الأخماس؛ فالذى عليه عامة أهل

---

(١) الخرثى (بالضم) : أثاث البيت أو أردأ المتاع والغنائم . (٢) الحديث أورده مسلم فى كتاب الزهد . قال النووى : بضم الفاء وسكون اللام؛ ومعناه يا فلان ، وهو ترخيم على خلاف القياس . وقيل هى لغة بمعنى فلان وقال صاحب المرقاة بسكون اللام وتفتح وتضم . (٢) الكراع (بالضم) : الخيل .

(٤) الذى فى صحيح مسلم : « ... فكان ينفق على أهله نفقة سنة ... » الخ .

العلم فيما ذكر ابن المنذر أنه يُسْهم للفارس سهمان، وللراجل سهم . وممن قال ذلك مالك ابن أنس ومن تبعه من أهل المدينة. وكذلك قال الأوزاعيّ ومن وافقه من أهل الشام . وكذلك قال الثّوريّ ومن وافقه من أهل العِراق . وهو قول اللّيث بن سعد ومن تبعه من أهل مصر . وكذلك قال الشافعيّ رضي الله عنه وأصحابه . وبه قال أحمد بن حنبل وإسحاق وأبو ثور ويعقوب ومحمد . قال ابن المنذر : ولا نعلم أحدا خالف ذلك إلا النعمان فإنه خالف فيه السنن وما عليه جُلّ أهل العلم في القديم والحديث . قال : لا يُسْهَم للفارس إلا سهم واحد .

قلت : ولعله شُبِّه عليه بحديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل للفارس سهمين ، وللراجل سهما . خرّجه الدّارَقُطْنِيّ وقال : قال الرماديّ كذا يقول ابن نمير قال لنا النيسابوري : هذا عندي وَهَم من ابن أبي شيبة أو من الرمادي ؛ لأن أحمد بن حنبل وعبد الرحمن بن بشر وغيرهما رَوَوه عن ابن عمر(1) بخلاف هذا ، وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسهم للرجل ولفرسه ثلاثة أسهم ، سهما له وسهمين لفرسه ؛ هكذا رواه عبد الرحمن ابن بشر عن عبد الله بن نمير عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر ؛ وذكر الحديث . وفي صحيح البخاريّ عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل للفرس سهمين ولصاحبه سهما . وهذا نَصٌّ . وقد روى الدّارَقُطْنِيّ عن الزبير قال : أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أسهم يوم بدر ، سهمين لفرسي وسهما لي وسهما لأمّي من ذوي القرابة . وفي رواية : وسهما لأمّه سهمَ ذوي القربى . وخرّج عن بشير بن عمرو بن محصن قال : أسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لفرسيّ أربعة أسهم، ولي سهما ؛ فأخذت خمسة أسهم . وقيل : إن ذلك راجع إلى اجتهاد الإمام، فينفذ ما رأى . والله أعلم .

الخامسة عشرة — لا يفاضل بين الفارس والراجل بأكثر من فرس واحد ؛ وبه قال الشافعيّ . وقال أبو حنيفة : يُسْهم لأكثر من فرس واحد ؛ لأنه أكثر غناء وأعظم منفعة ؛

---

(1) الذي في نسخة الدارقطني : « عن ابن نمير » .

وبه قال ٱبن الجَهْم من أصحابنا ، ورواه سُحنون عن ٱبن وهب . ودليلنا أنه لم ترد رواية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يُسهم لأكثر من فرس واحد، وكذلك الأئمة بعده ، ولأن العدوّ لا يمكن أن يقاتل إلا على فرس واحد ، وما زاد على ذلك فرفاهية وزيادة عُدّة ؛ وذلك لا يؤثّر فى زيادة السُّهمان ؛ كالذى معه زيادة سيوف أو رماح ، واعتبارا بالثـالث والرابع . وقد روى عن سليمان بن موسى أنه يُسهم لمن كان عنده أفراس، لكلّ فرس سهم .

السادسة عشرة — لا يسهـم إلا لِلعتاق من الخيل؛ لمـا فيها من الكرّ والفرّ، وما كان من البَراذين والهُجن بمنابتهـا فى ذلك . وما لم يكن كذلك لم يسهم له . وقيل : إن أجازها الإمام أسهم لها؛ لأن الانتفاع بها يختلف بحسب الموضع . فالهجن والبراذين تصلح للواضع المتوعّرة كالشعاب والجبال ، والعِتاق تصلح للواضع التى يتأتّى فيهـا الكر والفرّ ؛ فكان ذلك متعلقا برأى الإمام . والعتاق : خيل العرب ، والهجن والبراذين : خيل الروم .

السابعة عشرة — واختلف علمـاؤنا فى الفرس الضعيف ؛ فقال أشهب وٱبن نافـع : لا يُسْهم له ؛ لأنه لا يمكن القتال عليه فأشـبه الكسير . وقيل : يسهم له لأنه يرجى برؤه . ولا يسهم للأعجف إذا كان فى حيّز مالا يُنتفع به ، كما لا يسهم للكسير . فأمّا المريض مرضا خفيفا مثل الرّهيص[1]، وما يجرى مجراه ممـا لا يمنعه المرض عن حصول المنفعة المقصودة منه فإنه يسهم له . ويعطى الفرس المستعار والمستأجَر ، وكذلك المغصوب ، وسهمه لصاحبه . ويستحق السهم للخيل وإن كانت فى السفن ووقعت الغنيمة فى البحر ؛ لأنهـا معدّة للنزول إلى الـبر .

الثامنة عشرة — لا حق فى الغنـائم لِلحُشْوة[2] كالأجراء والصناع الذين يصحبون الجيش للعاش ؛ لأنهم لم يقصِدوا قتالا ولا خرجوا مجاهدين . وقيـل : يُسهم لهم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "الغنيمة لمن شهد الوقعة" . أخرجه البخاريّ . وهذا لا حجة فيه لإنه جاء بيانا

(١) الرهيص : الذى أصابته الرهصة ، وهى وقرة تصيب باطن حافر الفرس .

(٢) الحشوة (بضم الحاء وكسرها) : رذالة الناس .

لمن باشر الحرب وخرج إليه، وكفى ببيان الله عز وجل المقاتلين وأهل المعاش من المسلمين حيث جعلهم فرقتين متميّزتين ، لكل واحدة حالها فى حكمها، فقال : « عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ »(١) . إلا أن هؤلاء إذا قاتلوا لا يضرهم كونهم على معاشهم؛ لأن سبب الاستحقاق قد وُجد منهم. وقال أشهب : لا يستحق أحد منهم وإن قاتل، وبه قال ابن القصّار فى الأجير: لا يسهم له وإن قاتل . وهذا يردّه حديث سلمة بن الأكوع قال : "كنت تَبِيعا لطلحة بن عبيد الله أسقى فرسه وأحُسُّه(٢) وأخدمه وآكل من طعامه، الحديث . وفيه : ثم أعطانى رسول الله صلى الله عليه وسلم سهمين ، سهمَ الفارس وسهمَ الراجل ، فجمعهما لى . خرّجه مسلم . واحتج ابن القصار ومن قال بقوله بحديث عبد الرحمن بن عوف، ذكره عبد الرزاق ؛ وفيه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن : " هذه الثلاثة الدنانير حظه ونصيبه من غزوته فى أمر دنياه وآخرته " .

التاسعة عشرة — فأما العبيد والنساء فمذهب الكتاب أنه لا يُسْهم لهم ولا يُرْضَخ(٣) . وقيل يرضخ لهم؛ وبه قال جمهور العلماء . وقال الأوزاعيّ : إن قاتلت المرأة أسهم لها . وزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسهم للنساء يوم خَيْبر . قال : وأخذ المسلمون بذلك عندنا . وإلى هذا القول مال ابن حبيب من أصحابنا. خرّج مسلم عن ابن عباس أنه كان فى كتابه إلى نَجْدة(٤) : تسألنى هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو بالنساء؟ وقد كان يغزو بهن فيُداوين الجرحى ويُحْذَيْن(٥) من الغنيمة ، وأما بسهم فلم يَضرب لهن . وأما الصبيان فإن كان مطيقا للقتال ففيه عندنا ثلاثة أقوال : الإسهام ونَفْيه حتى يبلغ؛ لحديث ابن عمر ، وبه قال أبو حنيفة والشافعيّ . والتفرقة بين أن يقاتل فيُسهم له أو لا يقاتل فلا يسهم له . والصحيح

---

(١) آخر سورة المزمل . (٢) أحسه : أزيل التراب عنه بالمحسة .
(٣) الرضخ : العطاء ليس بالكثير . (٤) هو نجدة بن عامر الحنفى؛ كان من رؤساء الخوارج .
(٥) يحذين : يعطين الحذوة (بكسر الحاء وضمها) وهى العطية .

الأوّل؛ لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى قريظة أن يقتل منهم من أنبت ويُخْلَى منهم من لم ينبت . وهذه مراعاة لإطاقة القتال لا للبلوغ . وقد روى أبو عمر فى الاستيعاب عن سَمُرة بن جُنْدُب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعرض عليه الغلمان من الأنصار فيلحق من أدرك منهم؛ فعُرضت عليه عامًا فألحق غلاما وردّنى؛ فقلت : يارسول الله، ألحقتَه ورددتنى، ولو صارعنى صرعته . قال : فصارعنى فصرعته فألحقنى . وأما العبيد فلا يُسْهم لهم أيضا ويُرْضخ لهم .

الموفية عشرين — الكافر إذا حضر بإذن الإمام وقاتل ففى الإسهام له عندنا ثلاثة أقوال : الإسهام ونفيه؛ وبه قال مالك وآبن القاسم . زاد آبن حبيب : ولا نصيب لهم . ويفرق فى الثالث — وهو لسُحْنون — بين أن يستقل المسلمون بأنفسهم فلا يُسهم له، أو لا يستقلوا ويفتقروا إلى معونته فيسهم له . فان لم يقاتل فلا يستحق شيئا . وكذلك العبيد مع الأحرار . وقال الثّورىّ والأوزاعىّ : إذا آستُعين بأهل الذمة أسهم لهم . وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا يسهم لهم، ولكن يُرضخ لهم . وقال الشافعىّ رضى الله عنه : يستأجرهم الإمام من مال لا مالك له بعينه . فان لم يفعل أعطاهم سهم النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقال فى موضع آخر : يُرضخ للشركين إذا قاتلوا مع المسلمين . قال أبو عمر : اتفق الجميع أن العبد، وهو ممن يجوز أمانه، إذا قاتل لم يسهم له ولكن يرضخ؛ فالكافر بذلك أولى ألّا يسهم له .

الحادية والعشرون — لو خرج العبد وأهل الذمة لصوصا وأخذوا مال أهل الحرب فهو لهم ولا يخمس؛ لأنه لم يدخل فى عموم قوله عز وجل : « وآعْلَمُوا أنّما غَنِمتم من شىء » أحد منهم ولا من النساء . فأما الكفار فلا مدخل لهم من غير خلاف . وقال سُحنون : لا يخمس ما ينوب العبد . وقال آبن القاسم : يخمس ؛ لأنه يجوز أن يأذن له سيّده فى القتال ويقاتل على الدّين؛ بخلاف الكافر . وقال أشهب فى كتاب محمد : إذا خرج العبد والذمىّ من الجيش وغنما فالغنيمة للجيش دونهم .

الثانية والعشرون — سبب استحقاق السهم شهود الوقعة لنصر المسلمين، على ما تقدم. فلو شهد آخر الوقعة آستحق. ولو حضر بعد آنقضاء القتال فلا. ولو غاب بانهزام فكذلك. فان كان قصد التحيز إلى فئة فلا يسقط استحقاقه. روى البخاري وأبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبان بن سعيد على سَرِيّة من المدينة قِبل نَجْد؛ فقدم أبان بن سعيد وأصحابه على رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر بعد أن فتحها، وإن حُزُم خيلهم لِيف، فقال أبان: أقسم لنا يا رسول الله. قال أبو هريرة: لا تقسم لهم يا رسول الله. فقال أبان: أنت بها يا وَبْرُ(1) تَحَدَّر علينا من رأس ضَالٍ(1). فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اجلس يا أبان" ولم يقسم لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الثالثة والعشرون — واختلف العلماء فيمن خرج لشهود الوقعة فمنعه العذر منه كمرض؛ ففي ثبوت الإسهام له ونفيه ثلاثة أقوال: يفرق في الثالث، وهو المشهور، فيثبته إن كان الضلال قبل القتال و بعد الإدراب(2)، وهو الأصح؛ قاله آبن العربي. وينفيه إن كان قبله. وكمن بعثه الأمير من الجيش في أمر من مصلحة الجيش فشغله ذلك عن شهود الوقعة فانه يسهم له؛ قاله آبن المَوّاز، ورواه آبن وهب وآبن نافع عن مالك. وروى لا يسهم له بل يُرْضَخ له لعدم السبب الذي يستحق به السّهم، والله أعلم. وقال أشهب: يُسْهم للأسير وإن كان في الحديد. والصحيح أنه لا يُسهم له؛ لأنه ملك مستحَقّ بالقتال؛ فمن غاب أو حضر مريضا كمن لم يحضر.

الرابعة والعشرون — الغائب المطلق لا يُسْهم له، ولم يُسهِم رسول الله صلى الله عليه وسلم لغائب قطّ إلا يوم خيبر؛ فانه أسهم لأهل الحُدَيْبِية من حضر منهم ومن غاب؛ لقول الله عز وجل: «وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا»(3)؛ قاله موسى بن عقبة. ورُوى ذلك عن جماعة من السلف. وقسم يوم بدر لعثمان ولسعيد بن زيد وطلحة، وكانوا غائبين؛ فهم كمن

---

(1) الوبر: دويبة على قدر السنور غبراء أو بيضاء حسنة العينين شديدة الحياء. والضال: شجر السدر من شجر الشوك. (2) أدرب القوم: إذا دخلوا أرض العدو. (3) آية ٢٠ سورة الفتح.

حضرها إن شاء الله تعالى . فأما عثمان فإنه تخلّف على رُقَية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمره من أجل مرضها . فضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره؛ فكان كمن شهدها . وأما طلحة بن عبيد الله فكان بالشام فى تجارة فضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره ؛ فيعدّ كذلك فى أهل بدر . وأما سعيد بن زيد فكان غائبا بالشام أيضا فضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره . فهو معدود فى البدريّين . قال آبن العربيّ : أما أهل الحديبية فكان ميعادا من الله آختص به أولئك النفر فلا يشاركهم فيه غيرهم . وأما عثمان وسعيد وطلحة فيحتمل أن يكون أسهم لهم من الخمس ؛ لأن الأمة مجمعة على أن من بقى لعذر فلا يُسهم له .

قلت : الظاهر أن ذلك مخصوص بعثمان وطلحة وسعيد فلا يقاس عليهم غيرهم . وأن سهمهم كان من صلب الغنيمة كسائر من حضرها لا من الخمس . هذا الظاهر من الأحاديث والله أعلم . وقد روى البخاريّ عن آبن عمر قال : لما تغيّب عثمان عن بدر فانه كان تحته آبنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت مريضة ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن لك أجر رجل ممن شهد بدرا وسهمه " .

الخامسة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ ﴾ قال الزجاج عن فرقة : المعنى فاعلموا أن الله مولاكم إن كنتم ؛ فـ « إن » متعلقة بهذا الوعد . وقالت فرقة : إنّ « إنْ » متعلقة بقوله « وآعلموا أنما غنمتم » . قال آبن عطية : وهذا هو الصحيح ؛ لأن قوله « وآعلموا » يتضمّن الأمر بالآنقياد والتسليم لأمر الله فى الغنائم ؛ فعلّق « إنْ » بقوله « وآعلموا » على هذا المعنى ؛ أى إن كنتم مؤمنين بالله فانقادوا وسلموا لأمر الله فيما أعلمكم به من حال قسمة الغنيمة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ « ما » فى موضع خفض عطف على آسم الله . ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ أى اليوم الذى فرقت فيه بين الحق والباطل ، وهو يوم بدر . ﴿ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ حزب الله وحزب الشيطان . ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

قوله تعالى : إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى ﴾ أى أنزلنا إذ أنتم على هـذه الصفة . أو يكون المعنى : واذكروا إذ أنتم . والعُدْوة : جانب الوادى . وقرئ بضم العين وكسرها ؛ فعلى الضم يكون الجمع عُدًى، وعلى الكسر عِدًى، مثل لحيـة ولِحًى، وفرية وفِرًى . والدنيا : تأنيث الأدنى . والقصوى : تأنيث الأقصى . من دنا يدنو، وقَصَا يقصو . ويقال : القصيا، والأصل الواو، وهى لغة أهل الحجاز قصوى . فالدّنيا كانت ممـا يلى المدينـة، والقصوى ممـا يلى مكة . أى إذ أنتم نزول بشفير الوادى بالجانب الأدنى إلى المدينة، وعدوّكم بالجانب الأقصى . ﴿ والرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ يعنى ركب أبى سفيان وغيره . كانوا فى موضع أسفل منهم إلى سـاحل البحر فيه الأمتعـة . وقيل : هى الإبل التى كانت تحمل أمتعتهم، وكانت فى موضع يأمنون عليها توفيقـا من الله عز وجل لهم ، فذكّرهم نعمـه عليهم . « الركب » ابتداء « أسفل منكم » ظرف فى موضع الخبر . أى مكانا أسفل منكم . وأجاز الأخفش والكسائى والفراء « والركبُ أسفلُ منكم » أى أشد تسفلا منكم . والركب جمع راكب . ولا تقول العرب : رَكْب إلا للجماعة الراكبى الإبل . وحكى ٱبن السِّكِّيت وأكثر أهل اللغة أنه لا يقـال : راكب وركب إلا للذى على الإبل، ولا يقال لمن كان على فرس أو غيرها راكب . والرَّكْب والأَرْكُب والرُّكبان والراكبون لا يكونون إلا على جمال ؛ عن ٱبن فارس . ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِى الْمِيعَادِ ﴾ أى لم يكن يقع الاتفاق لكثرتهم وقلتكم ؛ فانكم لو عرفتم كثرتهم لتأخرتم . فوفق الله عز وجل لكم . ﴿ لِيَقْضِىَ اللّٰهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ من نصر المؤمنين وإظهار الدِّين . واللام فى «ليقضى» متعلقة بمحذوف . والمعنى : جمعهم ليقضى،

ثم كررها فقال : ﴿ لِيَهْلِكَ ﴾ أى جمعهم هنالك ليقضى أمرا . ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ ﴾ « مَن » فى موضع رفع . « ويَحْيا » فى موضع نصب عطف على ليهلك . والبينة إقامة الحجة والبرهان . أى ليموت من يموت عن بينة رآها وعبرة عاينها، فقامت عليه الحجة . وكذلك حياة من يحيا . وقال ابن اسحاق : ليكفر من كفر بعد حجة قامت عليه وقطعت عذره، ويؤمن من آمن على ذلك . وقرئ « من حيي » بيائين على الأصل . وبيـاء واحدة مشدّدة ، الأولى قراءة أهل المدينة والبَزّى وأبى بكر . والثانية قراءة الباقين، وهى اختيار أبى عبيد ؛ لأنها كذلك وقعت فى المصحف .

قوله تعـالى : إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾

قال مجاهـد : رآهم النبىّ صلى الله عليه وسـلم فى منامه قليلا، فقص ذلك على أصحابه؛ فثبّتهم الله بذلك . وقيل : عنى بالمنام محل النوم وهو العين؛ أى فى موضع منامك، فحذف؛ عن الحسن . قال الزجاج : وهذا مذهب حسن ، ولكن الأولى أسْـوَغ فى العربية ؛ لأنه قد جاء « وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ » فدلّ بهـذا على أن هـذه رؤية الالتقاء ، وأن تلك رؤية النوم . ومعنى ﴿ لَفَشِلْتُمْ ﴾ لجبُنتم عن الحـرب . ﴿ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ ﴾ اختلفتم . ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ﴾ أى سلّمكم من المخالفة . آبن عباس : من الفشل . ويحتمل منهما . وقيل : سلم أى أتم أمر المسلمين بالظفر .

قوله تعـالى : وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾ هذا فى اليقظة . ويجوز حمل الأولى على اليقظة أيضا إذا قلت : المنام موضع النوم، وهو العين؛ فتكون الأولى على هـذا خاصةً بالنبىّ صلى الله عليه وسلم، وهذه للجميع . قال آبن مسعود : قلت لإنسان كان بجانبى

يوم بدر : أتراهم سبعين؟ فقال : هم نحو المائة . فأسرنا رجلا فقلنا : كم كنتم؟ فقال : كنا ألفا . ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾ كان هذا في ابتداء القتال حتى قال أبو جهل في ذلك اليوم : إنما هم أَكَلَة جَزُور[1]، خذوهم أخذًا وآربطوهم بالحبال . فلما أخذوا في القتال عظم المسلمون في أعينهم فكثروا؛ كما قال : « يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ » حسب ما تقدم في « آل عمران »[2] بيانه . ﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ تكرر هذا؛ لأن المعنى في الأول من اللقاء، وفي الثاني من قتل المشركين وإعزاز الدين ، وهو إتمام النعمة على المسلمين . ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أي مصيرها ومردّها اليه .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٤٥)

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً ﴾ أي جماعة ﴿ فَاثْبُتُوا ﴾ أمر بالثبات عند قتال الكفار، كما في الآية قبلها النهيُ عن الفرار عنهم، فالتقى الأمر والنهي على سواء . وهذا تأكيد على الوقوف للعدوّ والتجلد له .

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ للعلماء في هذا الذكر ثلاثة أقوال : الأوّل — اذكروا الله عند جزع قلوبكم؛ فإن ذكره يُعين على الثبات في الشدائد . الثاني — اثبتوا بقلوبكم، واذكروه بألسنتكم؛ فإن القلب لا يسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان؛ فأمر بالذكر حتى يثبت القلب على اليقين ، ويثبت اللسان على الذكر ، ويقول ما قاله أصحاب طالوت : « رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ »[3] . وهذه الحالة لا تكون إلا عن قوة المعرفة، واتّقاد البصيرة، وهي الشجاعة المحمودة في الناس . الثالث — اذكروا ما عندكم من وعد الله لكم في ابتياعه أنفسكم ومُثامنته لكم .

---

(١) أي هم قليل ، يشبعهم لحم ناقة . (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٥ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) آية ٢٥٠ سورة البقرة .

قلت : والأظهر أنه ذكرُ اللسان الموافقُ للجنان . قال محمد بن كعب القُرَظِيّ : لو رُخّص لأحد فى ترك الذكر لرُخّص لزكريّا؛ يقول الله عز وجل: «أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا»[1] . ولَرُخّص للرجل يكون فى الحرب؛ يقول الله عز وجل : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا » . وقال قتادة: افترض الله جل وعز ذكَره على عباده، أشغل ما يكونون عند الضّراب بالسيوف . وحكم هـذا الذكر أن يكون خفيا ؛ لأن رفع الصوت فى مواطن القتال رديء مكروه إذا كان الذاكر واحدا[2] . فأما إذا كان من الجميع عنـد الحملة فحسن؛ لأنه يَفُتّ فى أعضاد العدوّ . وروى أبو داود عن قيس بن عُباد قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرهون الصوت عند القتال . وروى أبو بُرْدة عن أبيـه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم مثلَ ذلك. وقال ٱبن عباس : يكره التلثّم عند القتال . قال ٱبن عطية : وبهذا والله أعلم تيمّن[3] المرابطون بطَرْحه عند القتال على صيانتهم به .

قوله تعـالى : وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا﴾ هذا ٱستمرار على الوصية لهم، والأخذ على أيديهم فى اختلافهم فى أمر بَدْر وتنازعهم . ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ نصب بالفاء فى جواب النهى. ولا يُجيز سيبويه حذف الفاء والجزم . وأجازه الكسائيّ . وقرئ « تَفْشِلوا » بكسر الشين . وهو غير معروف . ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أى قوتكم ونصركم ؛ كما تقول : الريح لفلان ، إذا كان غالبا فى الأمر . قال الشاعر :

إذا هبّت رياحك فاغتنمـها * فإن لكل خافقة سكون[4]

---

(١) آية ٤١ سورة آل عمران . (٢) اضطربت الأصول فى هذه الجملة ؛ ففى بعضها : «... اذا كان العايط واحدا ...» وفى البعض الآخر: «... اذا كان القاظا فأما ...» . (٣) فى الأصول : «استن» . والتصويب عن تفسير ابن عطية . والظاهر أنه يريد أن المرابطين آثروا التبرك بطرح التلثم عملا بما ورد عن ابن عباس على الصيانة به .
(٤) القافية مرفوعة ؛ واسم «إنّ» هاهنا ضمير الشان . وقوله «لكل خافقة سكون» خبرها . ومن هذه القصيدة :

ولا تغفل عن الاحسان فيها * فما تدرى السكون متى يكون

وقال قتادة وابن زيد : إنه لم يكن نصر قطّ إلا بريح تهبّ فتضرب في وجوه الكفار. ومنه قوله عليه السلام : "نُصرتُ بالصَّبا وأهلكت عاد بالدَّبور"(١) . قال الحكم : « وتذهب ريحكم » يعني الصَّبا ؛ إذ بها نصر محمد عليه الصلاة والسلام وأمّته . وقال مجاهد : وذهبت ريح أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حين نازعوه يوم أُحد .

قوله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرُوا إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ ﴾ أمر بالصبر، وهو محمود في كل المواطن وخاصّة موطن الحرب؛ كما قال : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا » .

قوله تعالى : وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾

يعني أبا جهل وأصحابه الخارجين يوم بدر لنُصرة العير . خرجوا بالقِيان(٢) والمغنيات والمعازف؛ فلما وردوا الجُحفة بعث خُفافُ الكنانيّ — وكان صديقا لأبي جهل — بهدايا إليه مع ابن له ، وقال : إن شئت أمددتك بالرجال ، وإن شئت أمددتك بنفسي مع من خفّ من قومي . فقال أبو جهل : إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد، فوالله ما لنا بالله من طاقة . وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوّة، والله لا نرجع عن قتال محمد حتى نَرِد بدرا فنشربَ فيها الخمور ، وتعزف علينا القِيان ؛ فإن بدرا موسم من مواسم العرب ، وسوق من أسواقهم، حتى تسمع العرب بخروجنا فتهابنا آخر الأبد . فوَرَدُوا بدرا، وجرى ما جرى من هلاكهم . والبَطَر في اللغة : التقوية بنعم الله عز وجل وما ألبسه من العافية على المعاصي . وهو مصدر في موضع الحال . أي خرجوا بَطِرين مُراءين صادّين . وصدُّهم إضلالُ الناس .

(١) الصبا (بالفتح) : الريح الشرقية . والدّبور : الريح الغربية .

(٢) القيان : جمع قينة ، وهي الأمة مغنية كانت أو غير مغنية .

قوله تعالى : وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾

روى أن الشيطان تمثّل لهم يومئذ فى صورة سُراقة بن مالك بن جُعْشم ، وهو من بنى بكر بن كنانة ، وكانت قريش تخاف من بنى بكر ان يأتوهم من ورائهم ؛ لأنهم قتلوا رجلا منهم . فلما تمثّل لهم قال ما أخبر الله به عنه . وقال الضحاك : جاءهم إبليس يوم بدر برايتـه وجنوده ، وألقى فى قلوبهم أنهم لن يهزموا وهم يقاتلون على دين آبائهم . وعن ابن عباس قال : أمدّ الله نبيّه محمدا صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بألف من الملائكة ؛ فكان جبريل عليه السلام فى خمسمائة من الملائكة مُجنِّبة[1] ، وميكائيل فى خمسمائة من الملائكة مُجنِّبة . وجاء إبليس فى جند من الشياطين ومعه راية فى صورة رجال من بنى مُدْلِج ، والشيطان فى صورة سراقة بن مالك بن جُعْشم . فقال الشيطان للشركين : لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم ؛ فلما اصطفّ القوم قال أبو جهل : اللّهُـمّ أَوْلانا بالحق فانصره . ورفع رسـول الله صلى الله عليه وسلم يده فقال : " يارَبّ إنك إن تُهلك هـذه العصابةُ فلن تُعبد فى الأرض أبدا " . فقال جبريل : " خذ قبضة من التراب " فأخذ قبضة من التراب فرمى بهـا وجوههم ؛ فمـا من المشركين من أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه . فولّوا مدبرين ، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس فلما رآه كانت يده فى يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده ثم ولى مدبرا وشيعته ؛ فقال له الرجل : يا سُراقة ، ألم تزعم أنك لنا جارٌ ؛ قال : انى برىء منكم إنى أرى مالا ترون ذكره البيهق وغيره . وفى مُوَطّأ مالك عن إبراهيم بن أبى عَبْلة عن طلحة بن عبيد الله بن كَرِيز أنّ رسول الله صلى الله

(١) مجنبة الجيش : هى التى تكون فى الميمنة والميسرة ، وهما مجنبتان والنون مكسورة . وقيل : هى الكتيبة التى تأخذ إحدى ناحيتى الطريق .

عليه وسلم قال : " ما رأى الشيطان نفسه يوما هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ منه فى يوم عرفة وما ذاك إلا لما رأى من تنزّل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رأى يوم بدر ". قيل : وما رأى يوم بدر يا رسول الله؟ قال : " أمَا إنه رأى جبريل يزع الملائكة[1] " . ومعنى نكص : رجع بلغة سليم؛ عن مؤرّج[2] وغيره . وقال الشاعر :

ليس النكوص على الأدبار مكرمة * إن المكارم إقدام على الأَسَل[3]

وقال آخر :

وما ينفع المستأخرين نكوصُهم * ولا ضرّ أهل السابقات التقدم

وليس هاهنا قهقرى بل هو فرار؛ كما قال : " اذا سَمِع الأذانَ أدبر وله ضراط " . ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ﴾ قيل : خاف إبليس أن يكون يوم بدر اليوم الذى أُنظِر اليه . وقيل : كذب إبليس فى قوله « إنى أخاف الله » ولكن علم أنه لا قوة له . ويجمع جار على أجوار وجيران، وفى القليل جيرة .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٤٩)

قيل : المنافقون : الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر . والذين فى قلوبهم مرض : الشاكّون، وهم دون المنافقين؛ لأنهم حديثو عهد بالإسلام، وفيهم بعض ضعف نية . قالوا عند الخروج إلى القتال وعند التقاء الصفّين : غرّ هؤلاء دينهم . وقيل هما واحد؛ وهو أَولى . ألا ترى إلى قوله عز وجل : « ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ » ثم قال « وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ[4] » وهما لواحد .

---

(١) يزع الملائكة : أى يرتبهم ويسوّيهم ويصفهم للحرب .

(٢) هو مؤرج بن عمرو السدوسى يكنى أبا فيد، مات سنة ١٩٥ هـ .

(٣) الأسل : الرماح والنبل .

(٤) آية ٣ سورة البقرة .

قوله تعـالى : وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾

قيـــل : أراد من بقِي ولم يُقتل يوم بدر . وقيل : هى فيمن قُتل ببدر . وجواب «لو» محـذوف ، تقديره : لرأيت أمرا عظيما . ﴿ يَضْرِبُونَ ﴾ فى موضع الحـال . ﴿ وُجُوهَهُـمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ أى أسـتاههم ، كنى عنها بالأدبار ؛ قاله مجاهد وسـعيد بن جُبير . الحسـن : ظهورهم ، وقال : إن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يارسول الله ، إنى رأيت بظهر أبى جهل مثل الشِّراك[(١)] ؟ قال : " ذلك ضرب الملائكة " . وقيل : هذا الضرب يكون عند الموت . وقد يكون يوم القيامة حين يصيرون بهـم الى النار . ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ قال الفرّاء : المعنى ويقولون ذوقوا ؛ فحذف . وقال الحسن : هذا يوم القيامة ، تقول لهم خزنة جهنم : ذوقوا عذاب الحريق . ورُوى أن فى بعض التفاسير أنه كان مع الملائكة مقامـعُ من حديد ، كلما ضربوا التهبت النار فى الجراحات ؛ فذلك قوله : « وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ » . والذوق يكون محسوسا ومعنًى . وقد يوضع موضع الآبتلاء والآختبار ؛ تقول : اِركب هـذا الفرس فذقه . وآنظر فلانا فذق ما عنده . قال الشّمّاخ يصف فرسا :

فذاق فأعطتْه مرــ اللين جانبـا * كفَى ولهـا أن يغرق السهم حاجزُ

وأصله من الذّوق بالفم . ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ فى موضع رفع ؛ أى الأمر ذلك . أو « ذلك » جزاؤكم . ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أى اكتسبتم من الاثام . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ إذ قد أوضح السبيل وبعث الرسـل ، فلم خالفتم ؟ . « وأنّ » فى موضـع خفض عطف على « ما » وإن شئت نصبت ، بمعنى وبأنّ ، وحذفت الباء . أو بمعنى : وذلك ان الله . ويجوز أن يكون فى موضع رفع نسقا على ذلك .

(١) الشراك : سير النعل .

قوله تعالى : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾

الدأب العادة . وقد تقدّم فى «آل عمران»(١) . أى العادة فى تعذيبهم عند قبض الأرواح وفى القبور كعادة آل فرعون . وقيل : المعنى جُوزى هؤلاء بالقتل والسبى كما جُوزى آل فرعون بالغرق . أى دأبهم كدأب آل فرعون .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

تعليل . أى هذا العقاب؛ لأنهم غيّروا و بدّلوا، ونعمة الله على قريش الخصب والسّعة، والأمن والعافيــة . «أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ»(٢) الآية . وقال السدّى : نعمة الله عليهم محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا به ، فنُقل إلى المدينـة وحلّ بالمشركين العقاب .

قوله تعالى : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

ليس هــذا بتكرير؛ لأن الأوّل للعادة فى التكذيب ، والثــانى للعادة فى التغيير ، وباقى الآية بيّن .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٢ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٦٧ سورة العنكبوت .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى من يدبّ على وجه الأرض فى علم الله وحكمه . ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ نظيره «الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ(١)» . ثم وصفهم فقال : ﴿ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ أى لا يخافون الانتقام . « ومن » فى قوله « منهـم » للتبعيض؛ لأن العهد إنمـا كان يجرى مع أشرافهم ثم ينقضونه . والمعنىُّ بهـم قُريظة والنضير؛ فى قول مجاهد وغيره . نقضوا العهـد فأعانوا مشركى مكة بالسلاح ، ثم اعتذروا فقالوا : نسينا؛ فعاهدهم عليه السلام ثانيـة فنقضوا يوم الخنـــدق .

قوله تعـالى : فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

شرطٌ وجوابه . ودخلت النون توكيدا لمّـا دخلت ما ؛ هذا قول البصريين . وقال الكوفيون : تدخل النون الثقيلة والخفيفة مع « إمّا » فى المجازاة للفرق بين المجازاة والتخيير . ومعنى « تثقفنّهم » تأسرهم وتجعلهـم فى ثِقاف ، أو تلقاهم بحال ضعف ، تقدر عليهم فيهـا وتغلبهم . وهذا لازم من اللفظ؛ لقوله «فى الحرب» . وقال بعض الناس : تصادفهم وتلقاهم . يقـال : ثقِفته أثقفه ثَقْفا ، أى وجدته . وفلان ثَقِف لَقِف أى سريع الوجود لمـا يحاوله ويطلبه . وثَقْف لَقْف . وآمرأة ثَقَاف . والقول الأوّل أوْلى؛ لارتبـاطه بالآية كما بينا . والمصادف قد يغلب فيمكن التشريد به ، وقد لا يغلب . والثقاف فى اللغة : ما يُشدّ به القناة ونحوها . ومنه قول النابغة :

تدعو قُعَينا وقد عَضّ الحديد بها * عَضّ الثِّقـاف على صُمّ الأنابيبِ(٢)

﴿ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ ﴾ قال سعيد بن جُبير : المعنى أنذر بهم مَن خلفهم . قال أبو عبيد : هى لغة قريش ، شرّد بهم سَمّع بهم . وقال الضحاك : نَكِّل بهم . الزجاج : إفعل بهم فعلا

---

(١) آية ٢٢ من هذه السورة . (٢) القعن (بالتحريك) : قصر فى الأنف فاحش . وقعين : حى مشتق منه ؛ وهما قعينان : قعين فى بنى أسد وقعين فى قيس عيلان . والأنابيب : جمع أنبوبة ، وهى كعب القصبة والرمح .

من القتل تفرق به من خلفهم . والتشريد فى اللغة : التبديد والتفريق؛ يقال : شرّدت بنى فلان قلعتهم عن مواضعهم وطردتهم عنها حتى فارقوها . وكذلك الواحد، تقول : تركته شريدا عن وطنه وأهله . قال الشاعر من هُذيل :

أُطَوِّف فى الأباطح كل يوم * مخافةَ أن يشرد بى حكيم

ومنه شرد البعير والدابة إذا فارق صاحبه . و «مَن» بمعنى الذى؛ قاله الكسائىّ . وروى عن آبن مسعود «فشرذ» بالذال المعجمة، وهما لغتان . وقال قُطْرُب : التشريذ (بالذال المعجمة) التنكيل . وبالدال المهملة التفريق؛ حكاه الثعلبىّ . وقال المَهْدوىّ : الذال لا وجه لها ، إلا أن تكون بدلا من الدال المهملة لتقاربهما، ولا يعرف فى اللغة « فشرذ » . وقرئ « مِن خلفهم » بكسر الميم والفاء . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أى يتذكرون بوعدك إياهم . وقيل : هذا يرجع إلى من خلفهم، مَن عمل بمثل عملهم .

قوله تعالى : وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾ أى غِشًّا ونقضا للعهد . ﴿ فَٱنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ وهذه الاية نزلت فى بنى قُرَيظة وبنى النَّضير . وحكاه الطبرى عن مجاهد . قال آبن عطية : والذى يظهر من ألفاظ القرآن أن أمر بنى قريظة انقضى عند قوله « فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ » ثم ابتدأ تبارك وتعالى فى هذه الآية بأمره فيما يصنعه فى المستقبل مع من يخاف منه خيانة؛ فتترتب فيهم هذه الآية . [وبنو قريظة لم يكونوا فى حدّ من تخاف خيانته]؛ وإنما كانت خيانتهم ظاهرة [مشهورة](1) .

الثانيــة — قال آبن العربىّ : فإن قيل كيف يجوز نقض العهد مع خوف الخيانة ، والخوف ظنّ لا يقين معه ، فكيف يسقط يقين العهد مع ظن الخيانة . فالجواب من وجهين : أحدهما — أن الخوف قد يأتى بمعنى اليقين، كما قد يأتى الرجاء بمعنى العلم؛ قال الله تعالى :

(1) التكملة عن تفسير ابن عطية .

« مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا »(١) . الثانى — إذا ظهرت آثار الخيانة وثبتت دلائلها، وجب نبذ العهد لئلا يوقع التمادى عليه فى الهلكة، وجاز إسقاط اليقين هنا ضرورة . وأما إذا عُلم اليقين فيستغنى عن نبذ العهد إليهم، وقد سار النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة عام الفتح؛ لما اشتهر منهم نقض العهد من غير أن ينبِذ إليهم عهدهم . والنبذ : الرمى والرفض . وقال الأزهرى : معناه إذا عاهدت قوما فعلمت منهم النقض بالعهد فلا تُوقع بهم سابقا إلى النقض حتى تلق إليهم أنك قد نقضت العهد والموادعة ؛ فيكونوا فى علم النقض مستويين ؛ ثم أوقع بهم . قال النحاس : هذا من معجز ما جاء فى القرآن مما لا يوجد فى الكلام مثله على اختصاره وكثرة معانيه . والمعنى : وإما تخافنّ من قوم بينك وبينهم عهدٌ خيانةً فآنبذ إليهم العهد، أى قل لهم قد نبذت إليكم عهدكم ، وأنا مقاتلكم؛ ليعلموا ذلك فيكونوا معك فى العلم سواء، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد وهم يثقون بك؛ فيكون ذلك خيانة وغدرا . ثم بيّن هذا بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ .

قلت : ما ذكره الأزهرىّ والنحاس من إنباذ العهد مع العلم بنقضه يردّه فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم فى فتح مكة ؛ فإنهم لما نقضوا لم يوجِّه إليهم بل قال : "اللّهُمَّ اقطع خبرنا عنهم" وغزاهم . وهو أيضا معنى الآية؛ لأن فى قطع العهد منهم ونكثه مع العلم به حصول نقض عهدهم والاستواء معهم . فأما مع غير العلم بنقض العهد منهم فلا يحل ولا يجوز . روى الترمذىّ وأبو داود عن سليم بن عامر قال : كان بين معاوية والروم عهد وكان يسير نحو بلادهم ليقرُب حتى إذا انقضى العهد غزاهم ؛ فجاءه رجل على فرس أو برذون وهو يقول : الله أكبر، الله أكبر، [وفاء لا غدر](٢)؛ فنظروا فإذا هو عمرو بن عنبسة، فأرسل إليه معاوية فسأله فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشدّ عقدة ولا يحلّها حتى ينقضى أمدُها أو ينبِذ إليهم على سواء" فرجع معاوية بالناس . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . والسواء : المساواة والاعتدال .

---

(١) آية ١٣ سورة نوح . (٢) زيادة عن سنن الترمذى وأبى داود .

وقال الراجز :

فاضرب وجوه الغُدّر الأعداء * حتى يجيبوك إلى السواء

وقال الكسائيّ : السواء العَدل . وقد يكون بمعنى الوسط؛ ومنه قوله تعالى : « فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ »[1] . ومنه قول حسان :

يا وَيْحَ أصحابِ النبيّ ورهطِه * بعد المغيَّبِ فى سواء المُلْحَدِ

الفَرّاء : ويقال « فَانْبِذ إليهم على سواء » جهرًا لا سِرًّا .

الثالثة — روى مسلم عن أبى سعيد الخُدرِيّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لكل غادر لواءٌ يوم القيامة يُرفع له بقدر غَدْره، ألَا ولا غادرَ أعظم غدرا من أمير عامّة " . قال علماؤنا رحمة الله عليهم : إنما كان الغدر فى حق الإمام أعظم وأفحش منه فى غيره لما فى ذلك من المفسدة؛ فإنهم إذا غَدَروا وعُلم ذلك منهم ولم ينبِذوا بالعهد لم يأمنهم العدوّ على عهد ولا صلح ، فتشتد شوكته ويعظم ضرره ، ويكون ذلك منفّرا عن الدخول فى الدِّين، وموجبا لذمّ أئمة المسلمين . فأما إذا لم يكن للعدوّ عهد فينبغى أن يُتحيّل عليه بكل حيلة، وتدار عليه كل خديعة . وعليه يحمل قوله صلى الله عليه وسلم : " الحرب خَدعة " . وقد ٱختلف العلماء هل يجاهَد مع الإمام الغادر؛ على قولين . فذهب أكثرهم أنه لا يقاتل معه، بخلاف الخائن والفاسق . وذهب بعضهم إلى الجهاد معه . والقولان فى مذهبنا .

قوله تعالى : وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوٓا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ﴾ أى من أفلت من وقعة بدر سبق إلى الحياة . ثم استأنف فقال : ﴿ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ أى فى الدنيا حتى يظفرك الله بهم . وقيل : يعنى فى الآخرة . وهو قول الحسن . وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة « يحسبن » بالياء . والباقون بالتاء، على أن يكون فى الفعل ضمير الفاعل . و﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ مفعول أوّل . و﴿ سَبَقُوا ﴾ مفعول ثان . وأما قراءة الياء فزعم جماعة من النحويين منهم أبو حاتم

(١) آية ٥٥ سورة الصافات .

أن هذا لحن لا تحل القراءة به ، ولا تسع لمن عَرَف الإعراب أو عُرِّفه . قال أبو حاتم : لأنه لم يأت لـ « يحسبن » بمفعول وهو يحتاج إلى مفعولين . قال النحاس : وهــذا تحامل شديد ، والقراءة تجوز ويكون المعنى : ولا يحسبن مَن خلفهم الذين كفروا سبقوا ؛ فيكون الضمير يعود على ما تقدّم ، إلا أن القراءة بالتـاء أبين . المَهْدوِيّ : ومن قرأ بالياء احتمل أن يكون فى الفعل ضمير النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ويكون « الذين كفروا سبقوا » المفعولين . ويجوز أنـ يكون « الذين كفروا » فاعلا ، والمفعول الأوّل محذوف؛ المعنى : ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقوا . مَكِّيّ : ويجوز أن يضمر مع سبقوا أن ؛ فيسد مسد المفعولين والتقدير : ولا يحســبن الذين كفروا أن سبقوا ؛ فهو مثل « أَحَسِبَ النَّـاسُ أَنْ يُتْرَكُوا »[1] فى سد أنْ مســدّ المفعولين . وقرأ ابن عامر « أَنَّهــم لا يُعجزون » بفتح الهمزة . واستبعد هذه القراءةَ أبو حاتم وأبو عُبيد . قال أبو عبيد : وإنما يجوز على أن يكون المعنى: ولاتحسبن الذين كفروا أنهم لا يعجزون . قال النحاس : الذى ذكره أبو عبيد لا يجوز عند النحو يين البصريينـــ ، [لا يجوز][2] حسبت زيدا أنه خارج ، إلا بكسر الألف ، وإنمـا لم يجز لأنه فى موضع المبتدأ ؛ كما تقول : حسبت زيدا [أبوه خارج ، ولو فتحت لصار المعنى حسبت زيدا][2] خروجَه . وهــذا محال ، وفيه أيضـا من البعد أنه لا وجه لـمـا قاله يصحّ به معنًى ؛ إلا أن يجعل « لا » زائدة ، ولا وجه لتوجيه حرف فى كتاب الله عز وجل الى التطوّل بغـير حجة يجب التسليم لها . والقراءة جيدة على أن يكون المعنى : لأنهم لايعجزون . مَكِّيّ : فالمعنى لا يحسبن الكفار أنفسهم فاتوا لأنهم لا يعجزون ، أى لا يفوتون . فـ « أنّ » فى موضــع نصب بحذف اللام ، أو فى موضع خفض على إعمال اللام لكثرة حذفها مع « أنّ » ، وهو يُروَى عن الخليل والكسائيّ . وقرأ الباقون بكسر « إن » على الاستئناف والقطع مما قبله ، وهو الاختيار ؛ لـمـا فيه من معنى التأكيد ، ولأن الجماعة عليه . ورُوى عن ابن مُحَيْصن أنه قرأ « لا يعجّزونِ » بالتشديد وكسر النون . النحاس : وهذا خطأ من وجهين : أحدهما —

(١) أول سورة العنكبوت .

(٢) زيادة عن إعراب القرآن للنحاس يقتضيها السياق .

أن معنى عجّزه ضعّفه وضعّف أمره . والآخر — أنه كان يجب أن يكون بنونين . ومعنى أعجزه سبقه وفاته حتى لم يقدر عليه .

قوله تعالى : وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠)

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ ﴾ أمر الله سبحانه المؤمنين بإعداد القوة للاعداء بعد أن أكّد تقدمة التقوى . فإن الله سبحانه لو شاء لهزمهم بالكلام والتّفل فى وجوههم و بحَفْنة من تراب، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكنه أراد أن يبتلِي بعض الناس ببعض بعلمه السابق وقضائه النافذ . وكلما تعدّه لصديقك من خير أو لعدوّك من شر فهو داخل فى عدّتك . قال ابن عباس : القوة هاهنا السلاح والقِسِيّ . وفى صحيح مسلم عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول : " وأعِدّوا لهم ما استطعتم من قوة ألَا إن القوة الرّمىُ ألَا إن القوة الرّمىُ ألا إن القوة الرّمى " . وهذا نصّ رواه عن عقبة أبو علىّ ثمامةُ بن شُفَىٍّ الهَمْدانىّ، وليس له فى الصحيح غيره . وحديث آخر فى الرّمى عن عقبة أيضا قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ستفتح عليكم أرَضُون ويكفيكهم الله فلا يَعْجَزْ أحدكم أن يَلْهُوَ بأسهمه " . وقال صلى الله عليه وسلم : " كُلّ شىء يَلْهُو به الرجل باطل إلا رَمْيَه بقوسه وتأديبَه فرسَه وملاعبته أهلَه فانه من الحق " . ومعنى هذا والله أعلم : أن كل مايتلهى به الرجل مما لايفيده فى العاجل ولا فى الآجل فائدةً فهو باطل، والإعراض عنه أَولى . وهذه الأمور الثلاثة فانه و إن كان يفعلها على أنه يتلهّى بها و يَنْشَط، فإنها حق لاتصالها بما قد يفيد . فإن الرمى بالقوس وتأديب الفرس جميعا من تعاون القتال . وملاعبة

الأهل قد تؤدّى الى مايكون عنه ولد يوحّد الله و يعبده؛ فلهذا كانت هذه الثلاثة من الحق . وفى سنن أبى داود والترمذى والنّسائى عن عقبة بن عامر عن النبى صلى الله عليه وسـلم : "إن الله يدخل ثلاثة نفر الجنة بسهم واحد صانعه يحتسب فى صنعته الخير والرّامى ومُنْبِلَه" . وفضل الرمى عظيم ومنفعته عظيمة للسلمين، ونكايته شـديدة على الكافرين . قال صلى الله عليه وسلم : "يابنى إسماعيل آرْمُوا فإن أباكم كان راميا" . وتعلّم الفروسيّة وآستعمالُ الأسلحة فرض كفاية . وقد يتعيّن .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ وقرأ الحسن وعمرو بن دِينار وأبو حَيْوَة « ومن رُبُط الخيل » بضم الراء والباء، جمع رباط؛ ككتاب وكتب . قال أبو حاتم عن آبن زيد : الرباط من الخيل الخمس فما فوقها، وجماعته رُبُط . وهى التى ترتبط؛ يقال منه: رَبط يَرْبُط رَبْطا . وارتبط يرتبط آرتباطا . ومربط الخيل ومرابطها وهى ارتباطها بإزاء العدو . قال الشاعر :

أمر الإله بربطهـا لعـــدوه * فى الحرب إن الله خير موفِّق

وقال مكحول بن عبد الله :

تلوم على ربط الجياد وحبسها * وقد أوصى بها اللهُ النبىَّ محمدا

ورباط الخيل فضل عظيم ومنزلة شريفة . وكان لعُروة البارِقى سـبعون فرسا معَدّة للجهاد . والمستحب منهـا الإناث؛ قاله عكرمة وجماعة . وهو صحيح؛ فان الأنثى بطنهـا كنز وظهرها عِزّ . وفرس جبريل كان أنثى . وروى الأئمـة عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "الخيل ثلاثة لرجل أجر ولرجل ســتر ولرجل وِزْر" الحديث . ولم يخص ذكرا من أنثى . وأجودها أعظمها أجرا وأكثرها نفعا . وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أىّ الرقاب أفضـلُ ؟ فقال : "أغلاها ثمنـا وأنفسها عنـد أهلها" . وروى النّسائى عن أبى وهب الجُشَمِى — وكانت له صحبة — قال قال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم : "تسمّوا بأسماء الأنبياء وأحبُّ الأسماء الى الله عز وجل عبد الله وعبد الرحمن وآرتبطوا الخيل

وآمسحوا بنواصيها وأكفالها وقلدوها ولا تقلدوها الأوتار(١) وعليكم بكل كميت(٢) أغر محجل أو أشقر أغر محجل أو أدهم أغر محجل ". وروى الترمذي عن أبي قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " خير الخيل الأدهم الأقرح(٣) الأرثم(٤) [ثم الأقرح المحجل] طلق اليمين(٥) فإن لم يكن أدهم فكميت على هذه الشية ". ورواه الدارمي عن أبي قتادة أيضا، أن رجلا قال : يارسول الله، إني أريد أن أشتري فرسا، فأيها أشتري؟ قال : " اشتر أدهم أرثم محجلا طلق اليد اليمنى أو من الكميت على هذه الشية تغنم وتسلم ". وكان صلى الله عليه وسلم يكره الشكال من الخيل . والشكال : أن يكون الفرس في رجله اليمنى بياض وفي يده اليسرى ، أو في يده اليمنى ورجله اليسرى . خرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه . ويذكر أن الفرس الذي قتل عليه الحسين بن علي رضي الله عنهما كان أشكل .

الثالثة — فإن قيل : إن قوله « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » كان يكفي ؛ فلم خص الرمي والخيل بالذكر؟ قيل له : إن الخيل لما كانت أصل الحروب وأوزارها(٦) التي عقد الخير في نواصيها ، وهي أقوى القوة وأشد العدة وحصون الفرسان ، وبها يجال في الميدان ، خصها بالذكر تشريفا ، وأقسم بغبارها تكريما . فقال : « والعاديات ضبحا » الآية . ولما كانت السهام من أنجع ما يتعاطى في الحروب والنكاية في العدو وأقربها تناولا للارواح، خصها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذكر لها والتنبيه عليها . ونظير هذا في التنزيل : « وجبريل وميكال(٧) » ومثله كثير .

الرابعة — وقد آستدل بعض علمائنا بهذه الآية على جواز وقف الخيل والسلاح ، واتخاذ الخزائن والخزان لها عدة للأعداء . وقد آختلف العلماء في جواز وقف الحيوان

(١) الأوتار: جمع وتر (بالكسر) وهو الدم . والمعنى : لا تطالبوا عليها الأوتار والذحول التي وترتم بها في الجاهلية . وقيل : جمع وتر القوس ؛ فانهم كانوا يعلقونها بأعناق الدواب لدفع العين . وهو من شعار الجاهلية ؛ فكره ذلك .

(٢) كميت (بالتصغير) : هو الذي لونه بين السواد والحمرة ؛ يستوي فيه المذكر والمؤنث . والأغر : هو الذي في وجهه بياض . والمحجل : هو الذي في قوائمه بياض .

(٣) الأرثم : الذي أنفه أبيض وشفته العليا . (٤) الأقرح : هو ما كان في جبهته قرحة ، وهي بياض يسير في وجه الفرس دون الغرة . (٥) أي مطلقها ليس فيها تحجيل . (٦) أوزار الحرب : أثقالها من آلة حرب وسلاح وغيره . (٧) آية ٩٨ سورة البقرة .

كالخيــل والإبل على قولين : المنع ، وبه قال أبو حنيفة . والصحة ، وبه قال الشـافعىّ رضى الله عنــه . وهو أصحّ ؛ لهــذه الآية ، ولحديث ٱبن عمر فى الفرس الذى حمل عليــه فى سبيل الله . وقوله عليه السلام فى حق خالد : " وأما خالد فإنكم تظلمون خالدا فإنه قــد احتبس أدراعه وأعتاده[1] فى سبيل الله " الحديث . وما رُوى أن ٱمرأة جعلت بعيرا فى سبيل الله، فأراد زوجها الحج، فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " ادفعيه إليه ليحُج عليه فإن الحج من سبيل الله " . ولأنه مال يُنتفع به فى وجه قُربة ؛ فجاز أن يوقف كالرِّباع . وقد ذكر السُّهيلىّ فى هــذه الآية تسمية خيل النبىّ صلى الله عليه وسلم، وآلة حربه . من أرادها وجدها فى كتاب الأعلام[2] .

الخامســـة ـــ قوله تعالى : ﴿ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ يعنى تُخيفون به عدوّكم من اليهود وقريش وكفار العرب . ﴿ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ ﴾ يعنى فارس والروم ؛ قاله السُّــدّى . وقيل : الجنّ . وهو ٱختيار الطبرى . وقيل : المراد بذلك كلُّ من لا تُعرف عداوته . قال السُّهيلىّ : قيل هم قُريظة . وقيــل : هم من الجنّ . وقيــل غير ذلك . ولا ينبغى أن يقال فيهم شىء ؛ لأن الله سبحانه قال : « وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ » ؛ فكيف يَدّعى أحد علما بهم ، إلا أن يصح حديث جاء فى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو قوله فى هذه الآية : " هم الجنّ " . ثم قال رسول ٱلله صلى الله عليه وسلم : " إن الشيطان لا يَخْبِل أحدا فى دار فيها فرس عتيق " وإنما سُمّىَ عتيقا لأنه قد تخلّص من الهجانة . وهذا الحديث أسنده الحارث بن أبى أسامة عن ٱبن المُلَيْكى عن أبيه عن جدّه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى : أن الجنّ لا تقرب دارا فيها فرس، وأنها تنفر من صَهيل الخيل .

السادســـة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى تتصدّقوا . وقيل : تنفقوه على أنفسكم أو خيلكم . ﴿ فِى سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ فى الآخرة، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة، إلى أضعاف كثيرة . ﴿ وأنتم لا تظلمون ﴾ .

(١) الأعتاد : آلات الحرب من السلاح والدواب وغيرها . راجع الحديث وشرحه فى صحيح مسلم ، كتاب الزكاة .

(٢) هو كتاب التعريف والإعلام فيما أبهم فى القرآن من الأسماء الأعلام . وهو كتاب مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٣٢ و ٤٣٩ تفسير .

قوله تعـالى : وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٦١)

فيـه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾ إنما قال « لها » لأن السلم مؤنثة . ويجوز أن يكون التأنيث للفعلة . والجنوح الميل . يقول : إن مالوا — يعنى الذين نبذ إليهم عهدهم — إلى المسالمة ؛ أى الصلح ، فمل إليها . وجنح الرجل إلى الآخر : مال إليه ؛ ومنه قيـل للأضلاع جوانح ؛ لأنها مالت على الحُشوة[1] . وجنحت الإبل : إذا مالت أعناقها فى السير . وقال ذو الرُّمّة : —

إذا مات فوق الرَّحْل أحييتُ روحَه * بذكراكِ والعِيسُ المراسِيل[2] جُنَّحُ

وقال النابغة[3] :

جوانحُ قـد أيقنّ أن قَبِيـله * إذا ما التقى الجمعان أولُ غالبِ

يعنى الطير . وجنح الليل إذا أقبل وأمال أطنابه على الأرض . والسَّلم والسلام هو الصلح . وقرأ الاعمش وأبو بكر وابن مُحَيْصِن والمفضَّل « لِلسِّلْمِ » بكسر السين . الباقون بالفتح . وقد تقـدّم معنى ذلك فى « البقرة »[4] مستوفًى . وقد يكون السلام من التسليم . وقرأ الجمهور «فَٱجنَح» بفتح النون، وهى لغة تميم . وقرأ الأشهب العقيلى «فَٱجنُح» بضم النون، وهى لغة قيس . قال ٱبن جنى : وهذه اللغة هى القياس .

الثانيــة — وٱختُلف فى هذه الآية ، هل هى منسوخة أم لا . فقال قتادة وعِكرمة : نسخها « فَٱقتلوا المشركين حيث وجدتموهم »[5] . « وقَاتِلوا المشركين كافّةً »[6] وقالا : نسخت براءة كلَّ موادعة ، حتى يقولوا لا إله إلا الله . ٱبن عباس : الناسخ لها «فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى

---

(١) الحشوة (بالضم والكسر) : الأمعاء .   (٢) العيس : الإبل البيض . والمراسيل : سهلة السير ، وهى التى تعطيك ما عندها عفوا . وجنح : مائلة صدورها الى الأرض . وقيل : مائلة فى سيرها من النشاط .

(٣) فى الأصول : « وقال عنترة » والتصويب عن كتاب البحر لأبى حيان وديوان النابغة .

(٤) راجع ج ٣ ص ٢٢ طبعة أولى أو ثانية .   (٥) آية ٥ سورة التوبة .

(٦) آية ٣٦ سورة التوبة .

السَّلْمِ»[1] . وقيل : ليست بمنسوخة ، بل أراد قبول الجِزْية من أهل الجزية . وقد صالح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومَن بعده من الأئمة كثيرا من بلاد العجم؛ على ما أخذوه منهم، وتركوهم على ما هم فيه ، وهم قادرون على استئصالهم . وكذلك صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا من أهل البلاد على مال يؤدونه؛ من ذلك خَيْبر ، ردّ أهلَها إليها بعد الغلبة على أن يعملوا و يؤدّوا النّصف . قال ٱبن إسحاق : قال مجاهد عنى بهذه الآية قريظة؛ لأن الجزية تقبل منهم، فأما المشركون فلا يقبل منهم شيء . وقال السُّدّىّ وابن زيد : معنى الآية إن دعوك إلى الصلح فأجبهم . ولا نسخ فيها . قال ابن العربىّ : وبهذا يختلف الجواب عنه ؛ وقد قال الله عز وجل : « فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ»[1] . فإذا كان المسلمون على عِزة وقُوة ومَنَعة، وجماعة عديدة، وشدّة شديدة فلا صلح؛ كما قال :

فلا صلح حتى تُطعن الخيل بالقنا * وتُضرب بالبِيض الرقاق الجماجم

وإن كان للسلمين مصلحة فى الصلح ، لنفع يجتلبونه ، أو ضرر يدفعونه، فلا بأس أن يبتدئ المسلمون إذا احتاجوا إليه . وقد صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل خيبر على شروط نقضوها فنقض صلحهم . وقد صالح الضَّمْرِىّ[2] وأُكَيْدِرَ دُومَة وأهلَ نجران، وقد هادن قريشا لعشرة أعوام حتى نقضوا عهده . وما زالت الخلفاء والصحابة على هذه السبيل التى شرعناها سالكةً، وبالوجوه التى شرحناها عاملة . قال القُشَيرىّ : إذا كانت القوة للسلمين فينبغى ألّا تبلغ الهُدْنة سنة . وإذا كانت القوة للكفار جاز مهادنتهم عشر سنين، ولا تجوز الزيادة. وقد هادن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة عشر سنين . قال ٱبن المنذر : اختلف العلماء فى المدة التى كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أهل مكة عامَ الحُدَيْبية؛ فقال عروة : كانت أربع سنين . وقال ٱبن جُريج : كانت ثلاث سنين . وقال ٱبن إسحاق : كانت

---

(١) آية ٣٥ سورة محمد . (٢) الضمرى : هو مخشى بن عمرو الضمرى؛ من بنى ضمرة بن بكر . وكان هذا فى غزوة الأبواء . وأكيدر : هو أكيدر بن عبد الملك ، رجل من كندة . ودومة : هى دومة الجندل ، مدينة قريبة من دمشق .

عشر سنين . وقال الشافعي رحمه الله : لا تجوز مهادنة المشركين أكثر من عشر سنين ، على ما فعل النبي صلى الله عليه وسلم عام الحديبية ؛ فإن هودن المشركون أكثر من ذلك فهي منتقضة ، لأن الأصل فرض قتال المشركين حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية . وقال ابن حبيب عن مالك رضي الله عنه : تجوز مهادنة المشركين السنة والسنتين والثلاث ، وإلى غير مدة . قال المهلّب : إنما قاضاهم النبي صلى الله عليه وسلم هذه القضية التي ظاهرها الوهْن على المسلمين ؛ لسبب حبس الله ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مكة ، حين توجه إليها فبركت . وقال : "حبسها حابس الفيل" . على ما خرّجه البخاري من حديث المِسْوَر بن مَخْرَمة . ودلّ على جواز صلح المشركين ومهادنتهم دون مالٍ يؤخذ منهم ، إذا رأى ذلك الإمام وجهًا . ويجوز عند الحاجة للمسلمين عقد الصلح بمالٍ يبذلونه للعدوّ ، لموادعة النبي صلى الله عليه وسلم عُيينة بن حِصْن الفَزَاري ، والحارث بن عوف المُرِّي [(1)] يوم الأحزاب ، على أن يعطيهما ثلث ثمر المدينة ، وينصرفا بمن معهما من غطفان ويخذلا قريشا ، ويرجعا بقومهما عنهم . وكانت هذه المقالة مراوضة [(2)] ولم تكن عقدا . فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهما أنهما قد أنابا ورضيا استشار سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ؛ فقالا : يا رسول الله ، هذا أمر تحبه فنصنعه لك ، أو شيء أمرك الله به فنسمع له ونطيع ، أو أمر تصنعه لنا ؟ فقال : "بل أمر أصنعه لكم فإن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة" ؛ فقال له سعد بن معاذ : يارسول الله ، والله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وما طمعوا قطُّ أن ينالوا منا ثمرة ، إلا شراء أو قِرًى ؛ فحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له وأعزنا بك ، نعطيهم أموالنا ! والله لا نعطيهم إلا السيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم . فسُرّ بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : "أنتم وذاك" . وقال لعيينة والحارث : "انصرفا فليس لكما عندنا إلا السيف" . وتناول سعد الصحيفة ، وليس فيها شهادة فمحاها .

(١) في الأصول : « ... بن نوفل » والتصويب عن كتب السيرة .

(٢) المراوضة : المداراة والمخاتلة .

قوله تعـالى : وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ ﴾ أى بأن يُظهروا لك السلم ، ويُبطنوا الغدر والخيانة ، فاجنح وما عليك من نياتهم الفاسدة . ﴿ فإنّ حَسْبَكَ اللهُ ﴾ كافيك الله ؛ أى يتولّى كفايتك وحياطتك . قال الشاعر :

إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا * فحسبُكَ والضّحاكَ سيفٌ مُهَنّدُ

أى كافيك وكافى الضحاك سيف .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ ﴾ أى قوّاك بنصره ، يريد يوم بدر ، ﴿ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال النعمان بن بشير : نزلت فى الأنصار . ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ أى جمع بين قلوب الأَوْس والخَزْرج . وكان تألّف القلوب مع العَصبية الشّديدة فى العرب من آيات النبيّ صلى الله عليه وسلم ومعجزاته ؛ لأن أحدهم كان يُلطَم اللطمة فيقاتل عنهـا حتى يستقيدها . وكانوا أشـدّ خلق الله حَمِيّة ، فألّف الله بالإيمان بينهم، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدِّين . وقيل : أراد التأليف بين المهاجرين والأنصار . والمعنى متقارب .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾

ليس هذا تكريرا ، فإنه قال فيما سبق : «وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ» وهذه كفاية خاصة . وفى قوله : « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ » أراد التعميم ؛ أى حسبك الله فى كل حال . وقال ٱبن عباس : نزلت فى إسلام عمر ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان أسلم معه ثلاثة وثلاثون رجلا وستُّ نسوة ؛ فأسـلم عمر وصاروا أربعين . والآية مكيّة ، كُتبت بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سورةٍ مدنيّة ؛ ذكره القُشيريّ .

قلت : ما ذكره من إسلام عمر رضي الله عنه عن ابن عباس ؛ فقد وقع في السيرة خلافه . عن عبد الله بن مسعود قال : ما كنا نقدر على أن نُصلِّيَ عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه . وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة . قال ابن إسحاق : وكان جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين ، سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغارا أو ولدوا بها ، ثلاثة وثمانين رجلا ، إن كان عمّار بن ياسر منهم . وهو يُشكّ فيه . وقال الكلبيّ : نزلت الآية بالبَيْداء في غزوة بدر قبل القتال .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قيل : المعنى حسبك الله ، وحسبك المهاجرون والأنصار . وقيل : المعنى كافيك الله ، وكافي من تبعك ؛ قاله الشَّعْبيّ وابن زيد . والأوّل عن الحسن . واختاره النحاس وغيره . فـ « مَن » على القول الأوّل في موضع رفع ، عطفا على اسم الله تعالى . على معنى : فإن حسبك الله وأتباعك من المؤمنين . وعلى الثاني على إضمار . ومثلُه قوله صلى الله عليه وسلم : " يَكْفِينِيه اللهُ وأبناء قَيْلة "[1] . وقيل : يجوز أن يكون « ومَن اتبعك من المؤمنين » حسبهم الله ؛ فيضمر الخبر . ويجوز أن يكون « مَن » في موضع نصب ، على معنى : يكفيك الله ويكفي من اتبعك[2] .

(١) يريد الأوس والخزرج ، قبيلتي الأنصار . وقيلة اسم أمّ لهم قديمة ، وهي قيلة بنت كاهل .

(٢) اضطربت عبارة الأصول هنا . والذي في إعراب القرآن للنحاس : « يأيها النبيّ حسبك الله . ابتداء وخبر ؛ أي كافيك الله . ويقال : أحسبه إذا كفاه . « ومن اتبعك » في موضع نصب معطوف على الكاف في التأويل ؛ أي يكفيك الله عز وجل ويكفي من اتبعك ؛ كما قال :

إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا ❊ فحسبك والضحاك سيف مهند

ويجوز أن « من اتبعك » في موضع رفع . وللنحويين فيه ثلاثة أقوال : قال أبو جعفر : سمعت علي بن سليمان يقول : يكون عطفا على اسم الله جل وعز ؛ أي حسبك الله ومن اتبعك . قال : ومثله قول النبي عليه السلام : « يكفينيه الله عز وجل وأبناء قيلة » .

والقول الثاني — أن يكون التقدير : ومن اتبعك من المؤمنين كذلك ؛ على الابتداء والخبر ؛ كما قال الفرزدق :

وعض زمان يابن مروان لم يدع ❊ من المال الا مُسحَتًا أو مُجلَّفُ

والقول الثالث أحسنها — أنه يكون على إضمار ، بمعنى وحسبك من اتبعك . وهكذا الحديث على إضمار . وتركنا القول الأول ؛ لأنه قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى أن يقال : ما شاء الله وشئت . والثاني — فالشاعر مضطر ؛ إذ كانت القصيدة مرفوعة . وإن كان فيه غير هذا » .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوٓا أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾ أى حُثّهم وحُضّهم. يقال : حارض على الأمر وواظب وواصب وأكبّ بمعنًى واحد . والحارض : الذى قد قارب الهلاك؛ ومنه قوله عز وجل : « حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا (١) » أى تذوب غماً، فتقارب الهلاك فتكون من الهالكين . ﴿ إن يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ لفظ خبر ، ضمنه وعد بشرط؛ لأن معناه إن يصبر منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . وعشرون وثلاثون وأربعون كلّ واحد منها آسم موضوع على صورة الجمع لهذا العدد . ويجرى هذا الاسم مجرى فِلسطين . فإن قال قائل : لم كُسر أوّل عشرين وفُتح أوّل ثلاثين وما بعده إلى الثمانين إلا سِتّين؟ فالجواب عند سيبويه أن عشرين من عشرة بمنزلة اثنين من واحد؛ فكسر أوّل عشرين كما كسر اثنان . والدليل على هذا قولهم : ستون وتسعون؛ كما قيل : ستة وتسعة . وروى أبو داود عن آبن عباس قال : نزلت « إن يكن منكم عِشرون صابِرون يغلِبوا مائتين» فشقّ ذلك على المسلمين، حين فرض الله عليهم ألّا يفِرّ واحد من عشرة، ثم إنه جاء التخفيف فقال : ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ . قال : فلما خفف الله تعالى عنهم من العدد نقص من الصبر بقدر ماخفّف عنهم . وقال ابن العربى : قال قوم إن هذا كان يوم بدر ونُسخ . وهذا خطأ من قائله . ولم يُنقل قطّ أن المشركين صافّوا المسلمين عليها، ولكن البارى جل وعز

(١) آية ٨٥ سورة يوسف .

فرض ذلك عليهم أوّلا، وعلّق[1] ذلك بأنكم تفقهون ماتقاتلون عليه، وهو الثواب . وهم لايعلمون ما يقاتلون عليه .

قلت : وحديث ابن عباس يدل على أن ذلك فرض . ثم لما شقّ ذلك عليهم حطّ الفرض إلى ثبوت الواحد للاثنين؛ فخفّف عنهم وكتب عليهم ألّا يفرّ مائة من مائتين؛ فهو على هذا القول تخفيف لا نسخ . وهذا حسن . وقد ذكر القاضى ابن الطيّب أن الحكم إذا نُسخ بعضُه أو بعضُ أوصافه، أو غُيّر عدده فجائز أن يقال إنه نسخ؛ لأنه حينئذ ليس بالأول، بل هو غيره . وذكر فى ذلك خلافا .

قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَسْرَى ﴾ جمع أَسِير، مثلُ قتيل وقَتْلَى وجَرِيح وجَرْحَى . ويقال فى جمع أسير أيضا : أسارَى (بضم الهمزة) وأَسارَى (بفتحها) وليست بالعالية . وكانوا يَشُدّون الأسير بالقِدّ وهو الإسار؛ فسُمِّيَ كل أخِيذ وإن لم يُؤسر أسيرا . قال الأعشى :

وقَيَّدنِى الشّعر فى بيتِه * كما قَيّد الآسِراتُ الحِمارا

وقد مضى هذا فى سورة « البقرة »[2] . وقال أبو عمرو بن العلاء : الأسرى هم غير الموثَقين عند ما يؤخذون، والأسارى هم الموثقون رَبْطًا . وحكى أبو حاتم أنه سمع هذا من العرب .

الثانيــة — هذه الآية نزلت يوم بدر، عتابا من الله عز وجل لأصحاب نبيّه صلى الله عليه وسلم . والمعنى : ما كان ينبغى لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذى أوجب أن يكون للنبىّ

---

(١) هكذا فى نسخ الأصل، والذى فى ابن العربى : « وعلله بأنكم ... الخ » .

(٢) راجع جـ ٢ ص ٢١ طبعة ثانية .

صلى الله عليه وسلم أسرى قبل الإثخان[1] . ولهم هذا الإخبارُ بقوله « تريدون عرض الدنيا » .
والنبيّ صلى الله عليه وسلم لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب، ولا أراد قطّ عرض الدنيا،
وإنما فعله جمهور مباشرى الحرب؛ فالتوبيخ والعتاب انما كان متوجها بسبب من أشار على
النبيّ صلى الله عليه وسلم بأخذ الفِدية . هذا قول أكثر المفسرين، وهو الذى لا يصح غيره.
وجاء ذكر النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الآية حين لم ينْهَ عنه حين رآه من العَرِيش وإذ كره سعد
ابن معاذ وعمر بن الخطاب وعبد الله بن رواحة، ولكنه عليه السلام شغَله بَغْتُ الأمر ونزولُ
النصر فترك النّهى عن الاستبقاء؛ ولذلك بكى هو وأبو بكر حين نزلت الآيات . والله أعلم .
روى مسـلم من حديث عمر بن الخطاب، وقد تقدم أوّله فى « آل عمران »[2] وهذا تمـامه .
قال أبو زُمَيـل : قال ابن عباس فلما أسروا الأُسارى قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم
لأبى بكر وعمر : "ما ترون فى هؤلاء الأسارى"؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله، هم بنو العمّ
والعشيرة، أرى أن تأخذ منهـم فِديةً، فتكون لنـا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهـديهم
للإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ماترى يابن الخطاب"؟ قلت : لا والله
يا رسـول الله، ما أرى الذى رأى أبو بكر، ولكنى أرى أن تمكِّنا فنضرب أعناقهم، فتُمَكِّن
عَلِيًّا من عَقِيل فيضرِبَ عنقه، وتمكِّنّى من فلان (نَسيباً لعمر) فأضربَ عنقه؛ فإن هؤلاء أئمة
الكفر وصناديدُها . فهَوِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يَهْوَ ما قلتُ؛ فلما
كان من الغد جئت فإذا رسـول الله صلى الله عليه وسـلم وأبو بكرٍ قاعِدَيْن يبكيان؛ فقلت :
يارسول الله، أخبرنى من أىّ شىء تبكى أنت وصاحبُك؛ فإن وجدتُ بكاء بكيتُ، وإن لم أجد
بكاء تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أَبْكى للذى عَرض علىّ أصحابُك
من أخذهم الفداء لقد عُرِض علىّ عذابُهم أدنى من هذه الشجرة" (شجرةٍ قريبةٍ من نبىّ الله
صلى الله عليه وسلم) وأنزل الله عز وجل «ما كان لِنبِيٍّ أن يكون له أَسْرَى حتى يُثْخِنَ فِى الأرض»
إلى قوله تعالى : «فكُلُوا مِمّا غَنِمتم حلالا طيِّباً» فأحلّ الله الغنيمة لهم . وروى يزيد بن هارون

(١) الاثخان فى الشىء : المبالغة فيه والإكثار منه، والمراد به هنا : المبالغة فى قتل الكفار .
(٢) راجع جـ ٤ ص ١٩٣ طبعة أولى أو ثانية .

قال : أخبرنا يحيى قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمرو بن مُرة عن أبي عبيدة عن عبد الله قال : لما كان يوم بدر جيء بالأسارى وفيهم العباس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما ترون في هؤلاء الأسارى " فقال أبو بكر : يارسول الله قومُك وأهلُك، استبقهم لعلّ الله أن يتوب عليهم . وقال عمر : كذّبوك وأخرجوك وقاتلوك ، قدّمهم فاضرب أعناقهم . وقال عبد الله بن رواحة : أُنظر واديا كثير الحطب فأضرمه عليهم . فقال العباس وهو يسمع : قطعتَ رحمك . قال : فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يردّ عليهم شيئا . فقال أناس : يأخذ بقول أبي بكر رضي الله عنه . وقال أناس : يأخذ بقول عمر . وقال أناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة . فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " إن الله لَيُلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ويُشدّد قلوب رجال حتى تكون أشدّ من الحجارة . مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال « فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فإنك غَفُورٌ رَحِيمٌ » ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى إذ قال « إِنْ تُعَذِّبْهم فإنهم عِبادُكَ وإن تَغْفِرْ لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » . ومثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام إذ قال « رَبِّ لا تَذَرْ على الأرض من الكافرين دَيَّارًا » . ومثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام إذ قال « رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِم فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ » أنتم عالة فلا ينفلتنّ أحد إلا بفداء أو ضربة عنق . فقال عبد الله : إلا سُهيل بن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلام . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فما رأيتني أخوف أن تقع عليّ الحجارة من السماء مني في ذلك اليوم . فأنزل الله عز وجل : « ما كان لنبيٍّ أن يكون له أَسْرَى حتى يُثْخِن في الأرض » إلى آخر الآيتين . في رواية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنْ كاد ليصيبنا في خلاف ٱبن الخطاب عذاب ولو نزل عذاب ما أفلت إلا عمر " . وروى أبو داود عن عمر قال : لما كان يوم بدر وأخذ — يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم — الفداء ، أنزل الله عز وجل « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حتى يُثْخِن في الأرض » إلى قوله « لمسكم فيما أخذتم — من الفداء — عَذَابٌ عَظِيمٌ » . ثم أحلّ الغنائم . وذكر القُشيريّ أن سعد بن معاذ قال : يا رسول الله ، إنه أوّل وقعة لنا مع المشركين

فكان الإثخان أحبّ إلىّ . والإثخان : كثرة القتل؛ عن مجاهد وغيره . أى يبالغ فى قتل المشركين . تقول العرب : أثخن فلان فى هـذا الأمر أى بالغ . وقال بعضهم : حتى يُقهِر ويَقْتُل . وأنشد المفضّل :

تصـلّى الضحى ما دهرها بتعبّـد * وقـد أثخنت فرعون فى كفره كفرا

وقيل : « حتّى يُثخِن » يتمكّن . وقيل : الإثخان القوة والشدّة . فأعلم الله سبحانه وتعـالى أن قتل الأسرى الذين فُودُوا ببـدر كان أولى من فداهم . وقال آبن عباس رضى الله عنه : كان هذا يوم بدر والمسلمون يومئذ قليـل، فلما كثروا وآشتدّ سلطانهم أنزل الله عز وجل بعد هـذا فى الأسارى : « فإمّا مَنًّا بَعْـدُ وإمّا فِداءً » على ما يأتى بيانه فى سورة « القتال » إن شاء الله تعالى . وقد قيل : إنمـا عُوتبوا لأن قضية بدر كانت عظيمة الموقع والتصريف فى صناديد قريش وأشرافهم وساداتهم وأموالهم بالقتل والاسترقاق والتملّك . ذلك كلّه عظيم الموقع، فكان حقهم أن ينتظروا الوَحْىَ ولا يستعجلوا؛ فلما استعجلوا ولم ينتظروا توجّه عليهم ما توجّه . والله أعلم .

الثالثـــة ـــ أسند الطبرىّ وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للناس : "إن شئتم أخذتم فداء الأسارى ويُقتل منكم فى الحرب سبعون على عددهم وإن شئتم قُتلوا وسَلِمتم" . فقالوا : نأخذ الفداء ويستشهد منا سبعون . وذكر عبد بن حُميد بسنده أن جبريل عليه السلام نزل على النبىّ صـلى الله عليه وسـلم بتخيير الناس هكذا . وقد مضى فى « آل عمران » القول فى هـذا . وقال عَبيدة السَّلْمانىّ : طلبوا الخيرتين كلتيهما؛ فقتل منهم يوم أُحُد سـبعون . وينشأ هنا إشكال وهى : ـــ

الرابعـــة ـــ وهو أن يقال : اذا كان التخيير فكيف وقع التوبيخ بقوله « لَمَسَّكُمْ » . فالجواب ـــ أن التوبيخ وقع أوّلا لحرصهم على أخذ الفداء، ثم وقع التخيير بعد ذلك . وممـا يدل على ذلك أن المِقداد قال حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل عُقبة بن أبى مُعَيط : أسيرى يا رسول الله . وقال مُصعب بن عُمير للذى أسر أخاه : شُـدّ عليه يدك، فإن له أمًّا

موسرة . إلى غير ذلك من قصصهم وحرصهم على أخذ الفداء . فلما تحصّل الأسارى وسيقوا إلى المدينة وأنفذ رسول الله صلى الله عليه وسلم القتلَ فى النّضر وعقبةَ وغيرِهما وجعل يرتئى فى سائرهم نزل التخيير من الله عز وجل ؛ فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابَه حينئذ ، فمرّ عمر على أوّل رأيه فى القتل ، ورأى أبو بكر المصلحة فى قوة المسلمين بمال الفداء . ومال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رأى أبى بكر . وكلا الرأيين اجتهاد بعد تخيير . فلم ينزل بعدُ على هذا شىء من تعنيته . والله أعلم .

الخامسة — قال ابن وهب : قال مالك كان ببدر أسارى مشركون فأنزل الله «ما كان لنبىٍّ أن يكون له أَسْرَى حتى يُثْخِن فى الأرض» . وكانوا يومئذ مشركين وفادَوْا ورجعوا ، ولو كانوا مسلمين لأقاموا ولم يرجعوا . وكان عِدّة من قُتل منهم أربعة وأربعين رجلا ؛ ومثلهم أُسِروا . وكان الشهداء قليلا . وقال عمرو بن العلاء : إن القتلى كانوا سبعين ، والأسرى كذلك . وكذلك قال ابن عباس وابن المسيِّب وغيرهم . وهو الصحيح كما فى صحيح مسلم ؛ فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين . وذكر البَيْهَقِىّ قالوا : فجىء بالأسارى وعليهم شُقْران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم تسعة وأربعون رجلا الذين أُحصوا ، وهم سبعون فى الأصل ، مُجْتَمع عليه لاشك فيه . قال ابن العربىّ : إنما قال مالك «وكانوا مشركين» لأن المفسرين رووا أن العباس قال للنبىّ صلى الله عليه وسلم : إنى مسلم . وفى رواية أن الأسارى قالوا للنبىّ صلى الله عليه وسلم : آمنا بك . وهذا كله ضعّفه مالك ، واحتج على إبطاله بما ذكر من رجوعهم وزيادة عليه أنهم غَزَوه فى أُحُد . قال أبو عمر بن عبد البر : اختلفوا فى وقت إسلام العباس ؛ فقيل : أسلم قبل بدر ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : "من لَقِىَ العباس فلا يقتله فإنما أُخرج كرها" . وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر: "إن أناسا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقى منكم أحدا من بنى هاشم فلا يقتله ومن لقِىَ أبا البَخْتَرِىّ فلا يقتله ومن لقى العباس فلا يقتله فإنه إنما أخرج مستكرها" . وذكر الحديث . وذكر أنه أسلم حين أسر يوم بدر . وذكر أنه أسلم عام خيبر ؛ وكان يكتب

لرسول الله صلى الله عليـه وسلم بأخبار المشركين، وكان يحب أن يهاجر فكتب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : " امكث بمكة فمقامك بها أنفع لنا ".

قوله تعـالى : لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾

فيـــه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ ﴾ فى أنه لا يعذّب قوما حتى يبيّن لهم مايتقون . وٱختلف الناس فى كتاب الله السابق على أقوال؛ أصحها ماسبق من إحلال الغنائم؛ فإنها كانت محرمة على من قبلنا . فلما كان يوم بدر، أسرع الناس إلى الغنائم فأنزل الله عزّ وجلّ « لَوْلَا كِتَابٌ مِن اللهِ سَبَقَ » أى بتحليل الغنائم . وروى أبو داود الطّيالِسىّ فى مسنده حدثنا سلام عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : لما كان يوم بدر تعجّل الناس إلى الغنائم فأصابوها؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الغنيمة لاتحِلّ لأحد سود الرءوس غيركم". فكان النبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه إذا غنموا الغنيمة جمعوها ونزلت نار من السماء فأ كلتها؛ فأنزل الله تعالى : «لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ» إلى آخر الآيتين . وأخرجه التّرمذىّ وقال : حديث حسن صحيح، وقاله مجاهد والحسن . وعنهما أيضا وسعيد بن جبير : الكتاب السابق هو مغفرة الله لأهل بدر، ماتقدم أو تأخر من ذنوبهم . وقالت فرقة : الكتاب السابق هو عفو الله عنهم فى هذا الذنب، معيَّنا . والعموم أصح؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر فى أهل بدر : "وما يُدْريك لعلّ الله ٱطّلَع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم". خرّجه مسلم . وقيل : الكتاب السابق هو ألّا يعذبهم ومحمد عليه السلام فيهم . وقيـل : الكتاب السابق هو ألا يعذب أحدا بذنب أتاه جاهلا حتى يتقدّم اليه . وقالت فرقة : الكتاب السابق هو مما قضى الله من مَحْوِ الصغائر باجتناب الكبائر . وذهب الطبرىّ إلى أن هذه المعانى كلّها داخلة تحت اللفظ وأنه يعمّها ، ونَكّب عن تخصيص معنًى دون معنًى .

الثانيــة — ابن العربي: وفي الآية دليل على أن العبد إذا اقتحم ما يعتقده حراما مما هو في علم الله حلال له لا عقوبة عليه؛ كالصائم إذا قال: هذا يوم نوبي[1] فأفطر الآن. وتقول المرأة: هذا يوم حيضتي فأفطر، ففعلا ذلك، وكان النوب والحيض الموجبان للفطر، ففي المشهور من المذهب فيه الكفارة، وبه قال الشافعي. وقال أبو حنيفة: لا كفارة عليه، وهي الرواية الأخرى. وجه الرواية الأولى أن طرو الإباحة لا يثبت عذرا في عقوبة التحريم عند الهتك؛ كما لو وطئ امرأة ثم نكحها. وجه الرواية الثانيــة أن حرمة اليوم ساقطة عند الله عز وجل فصادف الهتك محلا لا حرمة له في علم الله؛ فكان بمنزلة ما لو قصد وطء امرأة قد زُفّت إليه وهو يعتقدها أنها ليست بزوجته فإذا هي زوجته. وهذا أصح. والتعليل الأول لا يلزم؛ لأن علم الله سبحانه وتعالى مع علمنا قد استوى في مسئلة التحريم، وفي مسئلتنا اختلف فيها علمنا وعلم الله فكان المعوّل على علم الله. كما قال: «لولا كتاب من الله سبق لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم».

قوله تعالى: فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

يقتضي ظاهره أن تكون الغنيمة كلّها للغانمين، وأن يكونوا مشتركين فيهـا على السواء؛ إلّا أن قوله تعالى: «واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه» بيّن وجوب إخراج الخمس منه وصرفه إلى الوجوه المذكورة. وقد تقدّم القول في هذا مستوفًى.

قوله تعالى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

فيه ثلاث مسائل:

(١) النوب: ما كان منك مسيرة يوم وليلة. وقيل: على ثلاثة أيام. وقيل: ما كان على فرسخين أو ثلاثة.

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ ﴾ قيل : الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه . وقيل : له وحده . وقال آبن عباس رضى الله عنه : الأسرى فى هذه الآية عباس وأصحابه . قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : آمنا بما جئت به ، ونشهد أنك رسولُ الله، لننصحَنّ لك على قومك؛ فنزلت هذه الآية . وقد تقدّم بطلان هذا من قول مالك . وفى مصنَّف أبى داود عن آبن عباس رضى الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم جعل فداء أهـل الجاهلية يوم بدر أربعمائة . وعن آبن إسحاق : بعثت قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى فداء أسراهم ؛ فَفَدَى كلّ قوم أسيرهم بمـا رضوا . وقال العباس . يا رسول الله ، إنى قد كنت مسلما . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . "الله أعلم بإسلامك فإن يكن كما تقول فالله يَجزيك بذلك فأمّا ظاهر أمرك فكان علينا فآفد نفسك وآبنى أخويك نوفلَ بن الحارث بن عبد المطلب وعَقيل بنَ أبى طالب وحليفَك عتبة بن عمرو أخا بنى الحارث بن فهر" . وقال : ما ذاك عندى يا رسول الله . قال : "فأين المـال الذى دفنته أنت وأم الفضل فقلتَ لها إن أصبتُ فى سفرى هذا فهذا المـال لبنى الفضل وعبد الله وقُثَم "؟ فقال : يا رسول الله، إنى لأعلم أنك رسول الله، إن هذا لشىء ما علمه غيرى وغير أمّ الفضل ، فآحْسُب لى يا رسول الله ما أصبتم منّى عشرين أوقية من مال كان معى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا . ذاك شىء أعطانا الله منك" . ففدى نفسه وآبنى أخويه وحليفه، وأنزل الله فيه : « يأيّها النّبِيُّ قل لِمنْ فِى أيديكم مِن الأَسْرَى» الآية . قال آبن إسحاق: وكان أكثر الأسارى فداءً العبـاس بن عبد المطلب ؛ لأنه كان رجلا موسرا ، فآفتدى نفسه بمائة أوقيّة من ذهب . وفى البخاريّ : وقال موسى بن عقبة قال آبن شهاب : حدّثنى أنس ابن مالك أن رجالا من الأنصار استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله، ائذن لنا فلْنترك لابن أختنا عباس فداءه . فقال : "لا والله لا تذرون درهما" . وذكر النقاش وغيره أن فداء كلّ واحد من الأسارى كان أربعين أوقية ، إلا العباس فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "أضعفوا الفداء على العباس" وكلّف أن يَفدى آبنى أخويه عقيل بن أبى طالب

ونوفل بن الحارث فأدّى عنهما ثمانين أوقية، وعن نفسه ثمانين أوقيّة وأخذ منه عشرون وقت الحرب . وذلك أنه كان أحدَ العشرة الذين ضَمِنوا الإطعام لأهل بدر، فبلغت النَّوبة إليه يوم بدر فٱقتتلوا قبل أن يُطعم، وبقيت العشرون معه فأخذت منه وقت الحرب ؛ فأخذ منه يومئذ مائة أوقيّة وثمانون أوقية. فقال العباس للنبيّ صلى الله عليه وسلم: لقد تركتني ما حييتُ أسأل قريشا بكَفِّي . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أين الذهب الذي تركته عند ٱمرأتك أمّ الفضل" ؟ فقال العباس : أيّ ذهب ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنك قلتَ لها لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا فإن حدث بي حدث فهو لك ولولدك" : فقال : يا ٱبن أخي ، من أخبرك بهذا ؟ قال : "الله أخبرني" . قال العباس : أشهد أنك صادق ، وما علمت أنك رسول الله قطّ الا اليوم ، وقد علمت أنه لم يطلعك عليه إلا عالم السرائر، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله ، وكفَرتُ بما سواه، وأمر ٱبني أخويه فأسلما ؛ ففيهما نزلت « يأيها النَّبِيُّ قل لمن في أيديكم من الأَسْرَى » . وكان الذي أسر العباسَ أبا اليَسَر كعبَ بن عمرو أخا بني سلمة ، وكان رجلا قصيرا ، وكان العباس ضخما طويلا ؛ فلما جاء به الى النبيّ صلى الله عليه وسلم قال له : "لقد أعانك عليه مَلَك" .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً ﴾ أي إسلاما . ﴿ يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ ﴾ أي من الفِدية . قيل في الدنيا . وقيل في الآخرة . وفي صحيح مسلم أنه لما قدِم على النبيّ صلى الله عليه وسلم مال من البحرين قال له العباس : إني فاديت نفسي وفاديتُ عقيلا . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خذ" فبسط ثوبه وأخذ ما استطاع أن يحمله . مختصر . في غير الصحيح : فقال له العباس هذا خير مما أخِذ منّي، وأنا بعدُ أرجو أن يغفر الله لي . قال العباس : وأعطاني زمزم، وما أُحِبُّ أن لي بها جميعَ أموال أهل مكة . وأسند الطبريّ إلى العباس أنه قال : فيّ نزلت حين أعلمت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بإسلامي ، وسألته أن يحاسبني بالعشرين أوقيّه التي أخِذت منّي قبل المفاداة فأبى . وقال : "ذلك فَيْءٌ" فأبدلني الله من ذلك عشرين عبدا كلّهم تاجرٌ بمالي . وفي مصنَّف أبي داود عن

عائشة رضى الله عنها قالت : لمـا بعث أهل مكة فى فداء أسراهم بعثتْ زينب فى فداء أبى العاص بمال، وبعثتْ فيه بقلادة لها كانت عند خديجة أدخلتها بها على أبى العاص. قالت : فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم رَقّ لها رِقّةً شديدة وقال: "إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها وتردّوا عليها الذى لها "؟ فقالوا نعم، وكان النبىّ صلى الله عليه وسلم أخذ عليه أوْ وعده أن يُخلّىَ سبيل زينب إليه . وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار فقال: "كونا ببطن يأجِج[1] حتى تمرّ بكما زينب فتصحباها حتى تأتيا بهـا . قال آبن اسحاق : وذلك بعد بدر بشهر . قال عبد الله بن أبى بكر: حُدّثت عن زينب بنت رسـول الله صلى الله عليه وسلم أنها قالت : لمـا قدم أبو العاص مكة قال لى: تجهّزى، فآلحقى بأبيك. قالت: فخرجت أتجهز فلقيتنى هند بنت عتبة فقالت: يابنت محمد، ألم يبلغنى أنك تريدين اللّحوق بأبيك؟ فقلت لها : ما أردت ذلك . فقالت : أىْ بنت عمّ، لا تفعلى، إنى آمرأة مُوسرة وعندى سِلَع من حاجتك ، فان أردتِ سلْعة بعتُكَهَا ، أو قرْضا من نفقة أقرضتك ؛ فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال . قالت : فوالله ما أُراها قالت ذلك إلا لتفعل؛ فخفتها فكتمتها وقلت: ما أريد ذلك. فلما فرغت زينب من جهازها آرتحلت وخرج بها حَمُوها يقود بها نهارا كِنانةُ بن الربيع. وتسامع بذلك أهل مكة، وخرج فى طلبها هَبّار بن الأسود ونافع بن عبدالقيس الفهرى، وكان أوّل من سبق إليها هبّار فروّعها بالرمح وهى فى هَوْدجها . وبرك كِنانةُ ونثر نَبله ، ثم أخذ قوسه وقال : والله لا يدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهما . وأقبل أبو سفيان فى أشراف قريش فقال : يا هذا، أَمسك عنّا نَبْلك حتى نكلمك؛ فوقف عليه أبو سفيان وقال : إنك لم تصنع شـيئا ، خرجت بالمرأة على رءوس الناس ، وقد عرفتَ مصيبتنا التى أصابتنا ببـدر فتظن العرب وتتحدث أن هـذا وَهْن منا وضعف خروجك إليه بآبنتـه على رءوس الناس من بين أظهرنا . ارجع بالمرأة فأقم بها أياما، ثم سُلّها سَلّا رفيقا فى الليل فألحقها بأبيها ؛ فلعمرى ما لنا

---

(١) يأجج (كيسمع وينصر ويضرب) : موضع بمكة .

بحبسها عن أبيها من حاجة ، وما لنا فى ذلك الآن من ثُؤْرة[1] فيما أصاب منا ؛ ففعل . فلما مر به يومان أو ثلاثة سلها ؛ فانطلقت حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فذكروا أنها قد كانت ألقت — للروعة التى أصابتها حين روعها هَبّار بن أم درهم — ما فى بطنها .

الثالثة — قال ابن العربى : «لما أُسِر مَن أُسر من المشركين تكلم قوم منهم بالإسلام ولم يمضوا فيه عزيمة ولا اعترفوا به اعترافا جازما . ويشبه أنهم أرادوا أن يَقربوا من المسلمين ولا يبعدوا من المشركين . قال علماؤنا : إن تكلم الكافر بالإيمان فى قلبه و بلسانه ولم يمض فيه عزيمة لم يكن مؤمنا . و إذا وُجد مثل ذلك من المؤمن كان كافرا ؛ إلا ما كان من الوسوسة التى لا يقدر على دفعها فإن الله قد عفا عنها وأسقطها . وقد بيّن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم الحقيقة فقال : « وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ » أى إن كان هذا القول منهم خيانة ومكرا « فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ » بكفرهم ومكرهم بك وقتالهم لك . وإن كان هذا القول منهم خيرا ويعلمه الله فيقبل منهم ذلك ويعوضهم خيرا مما خرج عنهم ويغفر لهم ما تقدّم من كفرهم وخيانتهم ومكرهم » . وجمع خيانة خيائن ، وكان يجب أن يقال : خوائن لأنه من ذوات الواو ، إلا أنهم فرقوا بينه وبين جمع خائنة . ويقال : خائن وخُوّان وخَوَنة وخانة .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ

(١) الثؤرة (بالضم) : الثأر .

إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

فيـه سـبع مسـائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ختم السورة بذكر الموالاة ليعلم كل فريق وليَّه الذى يستعين به . وقد تقدّم معنى الهجرة والجهاد لغةً ومعنًى[1] . ﴿وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا﴾ معطوف عليه . وهم الأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم، وأنضوى اليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم والمهاجرون . ﴿أُولَئِكَ﴾ رفع بالابتداء . ﴿بَعْضُهُمْ﴾ ابتداء ثان ﴿أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ خبره، والجميع خبر « إنّ » . قال ابن عباس : «أولياء بعض» فى الميراث؛ فكانوا يتوارثون بالهجرة، وكان لا يرث من آمن ولم يهاجر مَن هاجر فنسخ الله ذلك بقوله : «وأولوا الأرحام» الآية . أخرجه أبو داود . وصار الميراث لذوى الأرحام من المؤمنين . ولا يتوارث أهـل ملّتين شيئا . ثم جاء قوله عليه السلام : ” ألحقوا الفرائض بأهلها “ على ما تقدّم بيانه فى آية المواريث . وقيل : ليس هنا نسخ، وإنما معناه فى النصرة والمعونة؛ كما تقدّم فى «النساء»[2] . ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ابتداء والخبر ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقرأ يحيى بن وثّاب والأعمش وحمزة « من وِلايتهم» بكسر الواو . وقيل هى لغة . وقيل : هى من وليت الشىء؛ يقال : ولِىٌّ بيّن الوَلاية . ووالٍ بيّن الوِلاية . والفتح فى هـذا بيّن وأحسن ؛ لأنه بمعنى النصرة والنسب . وقد تطلق الوِلاية والوَلاية بمعنى الإمارة .

---

(١) راجع ج ٣ ص ٤٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٥ ص ٩٥ طبعة أولى أو ثانية .

الثانية — قوله تعالى . ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ يريد إن دعوا هؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا من أرض الحرب عونكم بنفير أو مال لآستنقاذهم فأعينوهم ، فذلك فرض عليكم فلا تخذلوهم . إلا أن يستنصروكم على قوم كفار بينكم وبينهم ميثاق فلا تنصروهم عليهم، ولا تنقضوا العهد حتى تتم مدّته . آبن العربي : إلا أن يكونوا [أسراء][1] مستضعفين فإن الولاية معهم قائمة والنصرة لهم واجبة ؛ حتى لا تبقى منا عين تطرف حتى تخرج إلى استنقاذهم إن كان عددنا يحتمل ذلك، أو نبذل جميع أموالنا في آستخراجهم حتى لا يبقى لأحد درهم . كذلك قال مالك وجميع العلماء ؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون ، على ما حلّ بالخلق في تركهم إخوانهم في أسر العدوّ وبأيديهم خزائن الأموال ، وفضول الأحوال والقدرة والعدد والقوة والجَلَد . الزجاج : ويجوز « فعليكم النصر» بالنصب على الإغراء .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ قطع الله الولاية بين الكفار والمؤمنين ؛ فجعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض ، والكفار بعضهم أولياء بعض ، يتناصرون بدينهم ويتعاملون باعتقادهم . قال علماؤنا في الكافرة يكون لها الأخ المسلم : لا يزوّجها؛ إذ لا ولاية بينهما، ويزوّجها أهل ملّتها . فكما لا يزوّج المسلمةَ إلا مسلم فكذلك الكافرة لا يزوّجها إلا كافر قريب لها ، أو أسْقُف ، ولو من مسلم ؛ إلا أن تكون معتقة؛ فإن عُقد على غير المعتَقة فُسخ إن كان لمسلم، ولا يعرض للنّصرانيّ . وقال أَصْبَغ : لا يفسخ، عقد المسلم أولى وأفضل .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ ﴾ الضمير عائد على الموارثة والتزامها . المعنى : إلا تتركوهم يتوارثون كما كانوا يتوارثون؛ قاله آبن زيد . وقيل : هي عائدة على التناصر والمؤازرة والمعاونة وآتصال الأيدي . آبن جُريج وغيره : وهذا إن لم يفعل تقع الفتنة عنه عن قريب ؛ فهو آكد من الأوّل . وذكر الترمذيّ عن عبد الله بن مسلم بن هُرْمز عن محمد وسعد آبني عبيد عن أبي حاتم المزني قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا جاءكم من ترضون

(١) زيادة عن آبن العربي .

دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير" . قالوا : يا رسول الله ، وإن كان فيه؟ قال : " إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه" ثلاث مرات . قال : حديث غريب . وقيل : يعود على حفظ العهد والميثاق الذى تضمّنه قوله : « إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ » . وهذا وإن لم يفعل فهو الفتنة نفسها . وقيل : يعود على النصر للسلمين فى الدين . وهو معنى القول الثانى . قال ٱبن إسحاق : جعل الله المهاجرين والأنصار أهل ولايته فى الدّين دون من سواهم، وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض . ثم قال : ﴿ إِلَّا تفعلوه ﴾ وهو أن يتولّى المؤمنُ الكافرَ دون المؤمنين. ﴿ تَكُنْ فِتْنَةٌ ﴾ أى محنة بالحرب، وما ٱنجرّ معها من الغارات والجلاء والأسر . والفسادُ الكبير : ظهور الشرك . قال الكسائىّ : ويجوز النصب فى قوله «تكن فتنة» على معنى تكن فعلتكم فتنة وفسادا كبيرا . ﴿ حَقًّا ﴾ مصدر، أى حَقّقوا إيمانهم بالهجرة والنّصرة . وحقّق الله إيمانهم بالبشارة فى قوله : « لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » أى ثواب عظيم فى الجنة .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا ﴾ يريد من بعد الحُدَيْبِية وبيعة الرضوان. وذلك أن الهجرة من بعد ذلك كانت أقلّ رتبة من الهجرة الأولى . والهجرة الثانية هى التى وقع فيها الصلح، ووضعت الحرب أوزارها نحو عامين ثم كان فتح مكة . ولهذا قال عليه السلام : " لا هجرة بعد الفتح " . فبيّن أن من آمن وهاجر من بعدُ يُلحق بهم . ومعنى « منكم » أى مثلكم فى النّصر والموالاة .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ ﴾ ابتداء . والواحد ذو، والرّحِم مؤنّثة، والجمع أرحام . والمراد بها ها هنا العصبات دون المولود بالرحم . ومما يبيّن أن المراد بالرحم العصبات قول العرب : وَصَلَتْك رَحِم . لا يريدون قرابة الأم . قالت قُتَيلة بنت الحارث أخت النضر بن الحارث — كذا قال ٱبن هشام . قال السُّهَيْلىّ : الصحيح أنها بنت النضر لا أخته، كذا وقع فى كتاب الدلائل — ترثى أباها حين قتله النبىّ صلى الله عليه وسلم صَبْرًا — بالصّفْراء :

يا راكبًا إن الأُثَيل مظِنّةٌ * من صُبح خامسةٍ وأنت مُوَفَّقُ
أبلغ بها ميْتاً بأن تحيّة * ما إن تزال بها النجائب تخفِقُ
منّى إليك وعبرةٌ مسفوحةٌ * جادت بوا كفها وأخرى تخنُق
هل يسمعَنّى النّضرُ إن ناديتُه * أم كيف يسمع ميّت لا ينطق
أمحمدٌ يا خيرَ ضِنْءِ(١) كريمةٍ * فى قومها والفحلُ فحلٌ مُعرِق
ما كان ضرّك لو مننْتَ وربّما * مَنّ الفتى وهو المَغيظ المُحْنَق
لو كنتَ قابلَ فدية لفديتُه * بأعزّ ما يفْدَى به ما يُنْفِق
فالنّضرُ أقربُ مَن أسَرْتَ قرابةً * وأحقُّهم إن كان عتق يُعتَق
ظلّت سيوفُ بنو أبيه تَنوشُه * لله أرحام هنالك تُشَقَّق
صَبْراً يُقاد إلى المنيّة مُتْعَبًا * رَسْفَ المُقَيَّد وهو عانٍ مُوثَق

السابعة — وآختلف السلف ومَن بعدهم فى توريث ذوى الأرحام — وهو من لا سهم له فى الكتاب — من قرابة الميت وليس بعصبة؛ كأولاد البنات، وأولاد الأخوات، وبنات الأخ، والعمة والخالة، والعمّ أخ الأب للأم، والجدّ أبى الأم، والجدّة أمّ الأم، ومن أدْلَى بهم. فقال قوم: لا يرث من لا فرض له من ذوى الأرحام. ورُوِى عن أبى بكر الصديق وزيد بن ثابت وآبن عمر، ورواية عن علىّ، وهو قول أهل المدينة، ورُوِى عن مكحول والأوزاعى، وبه قال الشافعىّ رضى الله عنه. وقال بتوريثهم: عمر بن الخطاب وابن مسعود ومعاذ وأبو الدَّرْداء وعائشة وعلىّ فى رواية عنه، وهو قول الكوفيين وأحمد وإسحاق. واحتجّوا بالآية، وقالوا: وقد آجتمع فى ذوى الأرحام سببان القرابة والإسلام؛ فهو أوْلى ممن له سبب واحد وهو الإسلام. أجاب الأوّلون فقالوا: هذه آية مجملة جامعة، والظاهر بكل رحم قَرُب أو بَعُد، وآيات المواريث مفسِّرة والمفسّر قاضٍ على المجمل ومبيّن. قالوا: وقد جعل النبىّ صلى الله عليه وسلم الوَلاء سببا ثابتا، أقام المَوْلَى فيه مُقام العصبة فقال: "الولاء لمن

(١) الضنء (بالكسر): الأصل.

أعتق ". ونهى عن بيع الولاء وعن هبته . احتجّ الآخرون بما روى أبو داود والدّارَقُطْنِيّ عن المِقدام قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من ترك كَلًّا فإليّ — وربما قال فإلى الله وإلى رسوله — ومن ترك مالًا فلورثته فأنا وارث من لا وارث له أعقِل عنه وأرثه والخال وارث من لا وارث له يَعقِل عنه ويرثه " . وروى الدّارَقُطْنِيّ عن طاوس قال قالت عائشة رضي الله عنها : " الله مَوْلَى من لا مَوْلَى له ، والخال وارث من لا وارث له " . موقوفٌ . وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "الخال وارث" . ورُوى عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ميراث العمة والخالة فقال " لا أدري حتى يأتيني جبريل" ثم قال : " أين السائل عن ميراث العمة والخالة " ؟ قال : فأتى الرجل فقال : " سارّني جبريل أنه لا شيء لهما ". قال الدّارقطنيّ : لم يسنده غير مَسعدة عن محمد بن عمرو وهو ضعيف ، والصواب مرسل . ورُوى عن الشعبي قال قال زياد بن أبي سفيان لجليسه : هل تدرى كيف قضى عمر في العمة والخالة؟ قال لا . قال : إني لأعلم خلقِ الله كيف قضى فيهما عمر، جعل الخالة بمنزلة الأم، والعمة بمنزلة الأب .

تفســـير ســــورة براءة

مدنيـــــة باتفاق

قوله تعالى : ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (١)

فيه خمس مسائل :

الأولى — فى أسمائها . قال سعيد بن جُبير: سألت آبن عباس رضى الله عنه عن سورة براءة فقال : تلك الفاضحة، ما زال ينزل : ومنهم ومنهم، حتى خِفنا ألّا تدع أحدا . قال القُشيرى أبو نصر عبد الرحيم : هذه السورة نزلت فى غزوة تَبُوك، ونزلت بعدها . وفى أوّلها نبذُ عهودِ الكفار إليهم . وفى السورة كشف أسرار المنافقين . وتسمّى الفاضحة والبحُوث؛ لأنها تبحث عن أسرار المنافقين . وتسمّى المبعثرة . والبعثرة : البحث .

الثانيـــة — وآختلف العلماء فى سبب سقوط البسملة من أوّل هذه السورة على أقوال خمسة : الأوّل — أنه قيل كان من شأن العرب فى زمانها فى الجاهلية ، إذا كان بينهم وبين قوم عهد فأرادوا نقضه كتبوا إليهم كتابا ولم يكتبوا فيه بسملة؛ فلما نزلت سورة براءة بنقض العهد الذى كان بين النبىّ صلى الله عليه وسلم والمشركين بعث بها النبىّ صلى الله عليه وسلم علىّ آبن أبى طالب رضى الله عنه ؛ فقرأها عليهـم فى الموسم، ولم يُبسمل فى ذلك على ما جرت به عادتهم فى نقض العهد من ترك البسملة . وقول ثان — روى النَّسائىّ قال حدّثنا أحمد قال حدّثنا محمد بن المثنّى عن يحيى بن سعيد قال حدّثنا عوف قال حدّثنا يزيد الرّقاشى[1] قال قال

---

(١) فى بعض الأصول : « الرواسى » . والذى فى صحيح الترمذى : « الفارسى » . قال الترمذى تعقيبا عليه : « ... حسن صحيح ، لا نعرفه الا من حديث عوف عن يزيد الفارسى عن آبن عباس . ويزيد الفارسى قـد روى عن آبن عباس غير حديث . ويقال : هو يزيد بن هرمز، ويزيد الرقاشى هو يزيد بن أبان الرقاشى، ولم يدرك آبن عباس، إنما روى عن أنس بن مالك، وكلاهما من البصرة . ويزيد الفارسى أقدم من يزيد الرقاشى » .

لنا آبن عباس : قلت لعثمان ما حملكم إلى أن عمدتم إلى « الأنفال » وهى من المثانى، وإلى « براءة » وهى من المِئين فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها فى السبع الطُّوَل[1] ؛ فما حملكم على ذلك ؟ قال عثمان : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده فيقول : "ضعوا هذا فى السورة التى فيها كذا وكذا". وتنزل عليه الآيات فيقول: "ضعوا هذه الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا". وكانت « الأنفال » من أوائل ما أنزل، و « براءة » من آخر القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، وقُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبيّن لنا أنها منها فظننت أنها منها ؛ فمن ثَمّ قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم . وخرّجه أبو عيسى الترمذىّ وقال: هذا حديث حَسَن. وقول ثالث — رُوى عن عثمان أيضا . وقال مالك فيما رواه آبن وهب وابن القاسم وابن عبد الحكم : إنه لما سقط أوّلها سقط بسم الله الرحمن الرحيم معه . ورُوى ذلك عن آبن عجلان أنه بلغه أن سورة « براءة » كانت تعدل البقرة أو قربها، فذهب منها ؛ فلذلك لم يُكتب بينهما بسم الله الرحمن الرحيم. وقال سعيد بن جُبير : كانت مثل سورة البقرة. وقول رابع — قاله خارجة وأبو عصمة وغيرهما . قالوا : لما كتبوا المصحف فى خلافة عثمان اختلف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال بعضهم : براءة والأنفال سورة واحدة . وقال بعضهم : هما سورتان . فتُركت بينهما فرجة لقول من قال إنهما سورتان، وتركت بسم الله الرحمن الرحيم لقول من قال هما سورة واحدة ؛ فرضِىَ الفريقان معاً، وثبتت حجتاهما فى المصحف . وقول خامس — قال عبد الله بن عباس . سألت علىّ بن أبى طالب لِمَ لَمْ يُكتب فى براءة بسم الله الرحمن الرحيم ؟ قال : لأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان، وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان . وروى معناه عن المبرد قال : ولذلك لم يجمع بينهما ؛ فإن بسم الله الرحمن الرحيم رحمة، وبراءة نزلت سخطة . ومثله عن سفيان . قال سفيان بن عُيينة : إنما لم

(١) السبع الطول: سبع سور، وهى سورة البقرة، وآل عمران ، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف فهذه ست سور متواليات . واختلفوا فى السابعة ؛ فنهم من قال : السابعة الأنفال وبراءة ؛ وعدهما سورة واحدة . ومنهم من جعل السابعة سورة يونس .

تكتب فى صدر هذه السورة بسم الله الرحمن الرحيم لأن التسمية رحمة، والرحمة أمان ، وهذه السورة نزلت فى المنافقين و بالسيف ، ولا أمان للنافقين . والصحيح أن التسمية لم تكتب ؛ لأن جبريل عليه السلام ما نزل بها فى هذه السورة؛ قاله القُشيرىّ . وفى قول عثمان : قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبيّن لنا أنها منها ، دليل على أن السور كلها انتظمت بقوله وتبيينه ، وأن براءة وحدها ضُمّت إلى الأنفال من غير عهدٍ من النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ لمـا عاجله من الحِمام قبل تبيينه ذلك . وكانتا تُدعيان القرينتين ، فوجب أن تُجمعا وتضم إحداهما إلى الأخرى ؛ للوصف الذى لزمهما من الاقتران ورسول الله صلى الله عليه وسلم حىّ .

الثالثـــة ــ قال ٱبن العربىّ: هذا دليل على أن القياس أصلٌ فى الدين، ألا ترى إلى عثمان وأعيانِ الصحابة كيف لجئوا إلى قياس الشّبه عند عدم النص، ورأوا أن قصة «براءة» شبيهة بقصة « الأنفال » فألحقوها بها؛ فإذا كان الله تعالى قد بيّن دخول القياس فى تأليف القرآن فما ظنّك بسائر الأحكام .

الرابعـــة ــ قوله تعالى: ﴿ بَرَاءَةٌ ﴾ تقول: برئت من الشيء أبرأ براءة فأنا منه برئ، إذا أزلته عن نفسك، وقطعت سبب ما بينك و بينه . و«براءة» رفع على خبر ابتداء مضمر، تقديره هــذه براءة . ويصح أن ترفع بالابتــداء . والخبر فى قوله : « إِلَى الَّذِين » . وجاز الابتداء بالنكرة لأنها موصوفة فتعرّفت تعريفا ما وجاز الإخبار عنهـا . وقرأ عيسى بن عمر « براءةً » بالنصب ، على تقدير الزموا براءة ، ففيها معنى الإغراء . وهى مصــدر على فَعالة ؛ كالشّناءة والدّناءة .

الخامســـة ــ قوله تعالى: ﴿ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ يعنى إلى الذين عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه كان المتولّى للعقود، وأصحابُه بذلك كلهم راضون؛ فكأنهم عاقدوا وعاهدوا فنُسب العقد إليهم . وكذلك ما عقده أئمة الكفر على قومهم منسوبٌ إليهم محسوبٌ عليهم يؤاخَذون به ، إذ لا يمكن غير ذلك ؛ فإن تحصيل الرضا من الجميع متعــذر . فإذا عقد الإمام لمـا يراه من المصلحة أمرًا لزم جميع الرعايا .

قوله تعـالى : فَسِيحُوا فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِي ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢﴾

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ فَسِيحُوا ﴾ رجع من الخبر إلى الخطاب، أى قُلْ لهم سِيحُوا أى سيروا فى الأرض مقبلين ومدبرين، آمنين غير خائفين أحدا من المسلمين بحرب ولا سلب ولا قتل ولا أسر . يقال: ساح فلان فى الأرض يَسيح سِياحة وسُيُوحا وسَيَحانا ؛ ومنه السَّيْح فى المـاء الجارى المنبسط؛ ومنه قول طَرَفَة بن العبد :

لو خفتُ هذا منك ما نِلْتَنِي * حتى ترى خيـلا أمامى تَسِيح

الثانيـــة ــ وآختلف العلمـاء فى كيفية هذا التأجيل ، وفى هؤلاء الذين بَرِئَ الله منهم ورسولُه . فقال محمد بن إسحاق وغيره : هما صِنفان من المشركين ، أحدهما كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر فأُمهل تمـام أربعة أشهر، والآخر كانت مدة عهده بغير أجل محدود فقُصِر به على أربعة أشهر ليرتاد لنفسه . ثم هو حَرْب بعـد ذلك لله ولرسوله وللؤمنين، يُقتل حيث ما أُدرك ويُؤسر إلا أن يتوب . وابتداء هذا الأجل يوم الج الأكبر، وانقضاؤه إلى عشر من شهر ربيع الآخر . فأما من لم يكن له عهد فإنمـا أجله انسلاخ الأربعة الأشهر الحُرُم . وذلك خمسون يوما : عشرون من ذى الحجـة والمحرّم . وقال الكَلْبِيّ : إنمـا كانت الأربعـة الأشهر لمن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسـلم عهد دون أربعة أشهر ، ومَن كان عهده أكثر من أربعة أشهر فهو الذى أمر الله أن يُتم له عهده بقوله «فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ» وهذا آختيار الطبرى وغيره . وذكر محمد بن إسحاق ومجاهد وغيرهما : أن هذه الآية نزلت فى أهل مكة . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح قريشا عام الحُدَيْبِيَة، على أن يضعوا الحرب عشر سنين ، يأمن فيها الناس ويكفّ بعضهم عن بعض، فدخلت خُزاعة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودخل بنو بكر فى عهد قريش، فعَدَت

بنو بكر على خزاعة ونقضوا عهدهم . وكان سبب ذلك دَمًا كان لبنى بكر عند خزاعة قبل الإسلام بمدة ؛ فلما كانت الهُدْنة المنعقدة يوم الحديبية، أمِن الناس بعضهم بعضا؛ فاغتنم بنو الدِّيل من بنى بكر — وهم الذين كان الدم لهم — تلك الفرصةَ وغفلةَ خزاعة ، وأرادوا إدراكَ ثأر بنى الأسود بن رزن،(1) الذين قتلهم خزاعة ، فخرج نوفل بن معاوية الدِّيلى فيمن أطاعه من بنى بكر بن عبد مَناة، حتى بيّتوا(2) خزاعة واقتتلوا، وأعانت قريش بنى بكر بالسلاح، وقوم من قريش أعانوهم بأنفسهم ؛ فانهزمت خزاعة إلى الحَرَم على ما هو مشهور مسطور؛(3) فكان ذلك نقضا للصلح الواقع يوم الحديبية، فخرج عمرو بن سالم الخزاعى وبُديل بن ورْقاء الخزاعىّ وقوم من خزاعة، فقدِموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم مستغيثين به فيما أصابهم به بنو بكر وقريش، وأنشده عمرو بن سالم فقال :

يا ربِّ إنى ناشــدٌ محمدَا * حِلْفَ أبينا وأبيــه الأَتْلَدَا

كنتَ لنــا أبًا وكنّــا وَلَدَا * ثُمّتَ أسلمنــا ولم نَنزِع يَدَا

فانْصر هداكَ الله نصرًا عَتَدَا * وادْعُ عبــادَ الله يأتوا مَــدَدَا

فيهم رسول الله قـــد تجرّدَا * أبيضَ مثلَ الشمس يَنْمُو صُعُدَا

إن سِيمَ خَسْفًا وجهُه تَربّــدَا * فى فَيْلَق كالبحر يجرى مُزْبِدَا

إنّ قريشــا أخلفوك الموعِدَا * ونقضوا ميثاقــك المؤكّدَا

وزعموا أن لستَ تدعو أحدًا * وهـــم أذلُّ وأقلُّ عـــددَا

هم بيّتــونا بالوَتير(4) هُجّــدَا * وقتَــلونا ركّعًا وسُجّـــدَا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا نُصرتُ إن لم أنصر بنى كعب" . ثم نظر إلى سحابة فقال : " إنهــا لتستهِلّ لنصر بنى كعب " يعنى خزاعة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(1) فى هامش تاريخ الطبرى طبع أوربا قسم ١ ص ١٦١٩ : « رزين » .

(2) بيت القوم والعدوّ أوقع بهم ليلا . (3) راجع تاريخ الطبرى وسيرة ابن هشام فى فتح مكة .

(4) فى الأصول : « الحطيم » . والتصويب عن سيرة ابن هشام وتاريخ الطبرى ومعجم ياقوت وكتب الصحابة فى ترجمة «عمرو بن سالم الخزاعى» . والوتير : اسم ماء بأسفل مكة لخزاعة .

لبُديل بن وَرْقاء ومن معه : " إن أبا سفيان سيأتى ليَشُدّ العقد و يزيدَ فى الصلح[1] وسينصرف بغير حاجة". فندمت قريش على ما فعلت، فخرج أبو سفيان إلى المدينة ليستديم العقد و يزيد فى الصلح، فرجع بغير حاجة كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، على ما هو معروف من خبره . وتجهّز رسول الله صلى الله عليـــه وسلم إلى مكة ففتحها الله، وذلك فى سنة ثمان من الهجرة . فلما بلغ هوازنَ فتحُ مكة جمعهم مالك بن عَوْف النَّصْرى، على ما هو معروف مشهور من غَزاة حُنين . وسيأتى بعضهـا . وكان الظَّفَر والنصر للسلمين على الكافرين . وكانت وقعة هوازن يوم حنين فى أوّل شوال من السنة الثامنة من الهجرة . وترك رسول الله صلى الله عليه وســلم قَسْم الغنائم من الأموال والنساء، فلم يقسمها حتى أتى الطائف، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعا وعشرين ليلة . وقيل غير ذلك. ونصب عليهم المَنْجَنِيق ورماهم به، على ما هو معروف من تلك الغَزاة . ثم آنصرف رسول الله صلى الله عليه وســلم إلى الجِعرانة ، وقسّم غنائم حُنين، على ما هو مشهور من أمرها وخبرها. ثم آنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرّقوا، وأقام الحج للناس عَتّاب بن أَسِيد فى تلك السنة.وهو أوّل أمير أقام الحج فى الإسلام. وحج المشركون على مشاعرهم . وكان عتّاب بن أَسِيد خيّرا فاضلا ورِعا . وقدم كعب بن زُهير ابن أبى سُلْمَى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمتدحه، وأقام على رأسه بقصيدته التى أوّلها :

* بانت سُعاد فقلبى اليوم متبول *

وأنشدها إلى آخرها ، وذكر فيها المهاجرين فأثنى عليهـم — وكان قبل ذلك قد حُفظ له هجاء فى النبىّ صلى الله عليه وسلم — فعاب عليه الأنصار إذ لم يذكرهم؛ فغدا على النبىّ صلى الله عليه وسلم بقصيدة يمتدح فيها الأنصار فقال :

مَن سَرّه كرم الحياة فلا يزل * فى مِقْنَبٍ[2] من صالحى الأنصارِ
وَرِثوا المكارم كابِرًا عن كابرٍ * إنّ الخيار هُمُ بنُو الأخيار
المكْرِهين السَّمهرِىّ[3] بأذرعٍ * كسَوافل الهِنْـدِى غيرِ قِصار

(١) فى ابن هشام : « فى المدّة » . (٢) المقنب : الجماعة من الفوارس .
(٣) السمهرى : الرمح . وسافلة القناة : أعظمها وأقصرها كعوبا . والهندى : الرماح .

والناظرين بأعينٍ محمَرّةٍ * كالجمر غيرِ كَليلة الأبصار

والبائعين نفوسَهم لنبيّهم * للموت يوم تعانُقٍ وكِرار

يتطهّرون يرونه نُسكًا لهم * بدماءِ مَن عَلِقوا من الكفّار

دَرِبوا كما دَرِبت ببطنِ خَفيّةٍ * غُلْبُ الرّقاب من الأسود ضَوارِ (١)

وإذا حَللت ليمنعوك إليهمُ * أصبحتَ عند معاقل الأغفار (٢)

ضربوا عليًّا يوم بدرٍ ضربةً * دانت لوقعتها جميعُ نِزار (٣)

لو يعلم الأقوامُ عِلْمِيَ كلَّه * فيهم لصَدّقنى الذين أُمارِى

قومٌ إذا خَوَت النجوم فإنهم * للطارقين النازلين مَقَارِى (٤)

ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد انصرافه من الطائف ذا الحِجة والمُحَرّم وصفر وربيع الأوّل وربيع الآخر وجمادى الأولى وجمادى الآخرة، وخرج في رجب من سنة تسع بالمسلمين إلى غزوة الروم، غزوةِ تَبُوك . وهي آخر غزوة غزاها . قال ٱبن جريج عن مجاهد : لما ٱنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من تَبُوك أراد الحج ثم قال : "إنه يحضر البيتَ عُراةٌ مشركون يطوفون بالبيت فلا أُحبّ أن أحج حتى لا يكون ذلك". فأرسل أبا بكر أميرا على الحج، وبعث معه أربعين آية من صدر «براءة» ليقرأها على أهل المَوْسِم . فلما خرج دعا النبيّ صلى الله عليه وسلم عليًّا وقال : "اخرج بهذه القصة من صدر براءة فأذّن بذلك في الناس إذا اجتمعوا" . فخرج عليّ على ناقة النبيّ صلى الله عليه وسلم العَضْباء حتى أدرك أبا بكر الصديق رضي الله عنهما بذي الحُلَيفة . فقال له أبو بكر لما رآه: أَميرٌ أو مأمور؟ فقال: بل مأمور ثم نهضا، فأقام أبو بكر للناس الحج على منازلهم التي كانوا عليها في الجاهلية . في كتاب النَّسائيّ عن جابر : وأنّ عليًّا قرأ على الناس « براءة » حتى ختمها قبل يوم التَّرْوِية بيوم .

---

(١) دربوا : اعتادوا . وخفية : موضع كثير الأسد . والغلب : الغلاظ الرقاب . والضوارى : اللواتى قد ضرين بأكل لحوم الناس؛ الواحد ضار . (٢) المعاقل : الحصون . والأغفار : أولاد الأروية (الوعل) واحدها غفر .

(٣) على : هو على بن بكر بن وائل . ويقال : هو على أخوه عبد مناة بن خزيمة من أمه . وقالوا : هو على بن مسعود بن مازن . (٤) خوت : اذا لم يكن لها مطر . والمقارى : جمع مقرى ؛ الذى يقرى الضيف .

وفى يوم عرفة وفى يوم النّحر عند انقضاء خطبة أبى بكر فى الثلاثة الأيام . فلما كان يوم النَّفْر الأوّل قام أبو بكر فخطب الناس ، فحدّثهم كيف يَنفِرون وكيف يَرْمُون، يعلّمهم مناسكهم . فلما فرغ قام علىّ فقرأ على الناس «براءة» حتى ختمها . وقال سليمان بن موسى : لمـا خطب أبو بكر بعرفة قال : قُمْ يا علىّ فأدّ رسالة رسولِ الله صـلى الله عليه وسـلم، فقام علىّ ففعل . قال : ثم وقع فى نفسى أن جميع النـاس لم يشاهدوا خطبة أبى بكر، فجعلت أتّتبع الفساطيط يوم النحر . وروى التّرمـذىّ عن زيد بن يُثَيْع قال : سألت عليّـا بأىّ شىء بُعثت فى الحج؟ قال : بعثت بأربع : ألّا يطوف بالبيت عُريان، ومن كان بينه وبين النبىّ صـلى الله عليـه وسلم عهد فهو إلى مدّته ، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم هذا . قال : هذا حديث حسن صحيح . وأخرجه النَّسـائىّ وقال : فكنت أنادى حتى صَحِل[1] صوتى . قال أبو عمر : بُعث علىّ ليَنبِذ إلى كل ذى عهد عهده، ويَعْهَد إليهم ألّا يحجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. وأقام الحجَّ فى ذلك العام سنة تسع أبو بكر . ثم حجّ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قابلَ حَجّته التى لم يحج غيرها من المدينة، فوقعت حَجّته فى ذى الحجة . فقال : " إن الزمان قد ٱستدار" الحديث ، على ما يأتى فى آية النَّسِىء[2] بيانه . وثبت الحج فى ذى الحجة إلى يوم القيامة . وذكر مجاهد : أن أبا بكر حج فى ذى القَعدة من ســنة تسع . ٱبن العرَبِىّ : وكانت الحكمة فى إعطاء «براءة» لعلىّ أن براءة تضمّنت نقض العهد الذى كان عقده النبىّ صلى الله عليه وسلم، وكانت سيرة العرب ألّا يَحُلّ العقد إلا الذى عقده، أو رجل من أهل بيته؛ فأراد النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يقطع ألسنة العرب بالحجة ، ويرسل ٱبن عمه الهـاشمىّ من بيته ينقض العهد، حتى لا يبقى لهم متكلّم . قال معناه الزجاج .

الثالثــة — قال العلمـاء : وتضمّنت الآية جواز قطع العهد بيننا وبين المشركين . ولذلك حالتان : حالة تنقضى المدّةُ بيننا وبينهـم فنؤذنهم بالحرب . والإيذان اختيار .

(١) الصحل : حدة الصوت مع بحح .

(٢) فى قوله تعالى : « إنما النسىء زيادة فى الكفر ... » آية ٣٧ من هذه السورة .

والثانية — أن نخاف منهم غدرا، فننبذ إليهم عهدهم كما سبق . ٱبن عباس : والآية منسوخة، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم عاهد ثم نبذ العهد لمّا أمر بالقتال .

قوله تعالى : ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٣)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَذَانٌ ﴾ الأذان : الإعلام لغةً من غير خلاف . وهو عطف على «براءة» . ﴿ إِلَى النَّاسِ ﴾ الناسُ هنا جميع الخلق . ﴿ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ ﴾ ظرف، والعامل فيه « أذان » . وإن كان قد وصفه بقوله : « مِنَ اللهِ »؛ فإن رائحة الفعل فيه باقية ، وهى عاملة فى الظروف . وقيل : العامل فيه « مُخْزِى » . ولا يصح عمل « أذان » ؛ لأنه قد وصف فخرج عن حكم الفعل .

الثانيـة — وٱختلف العلماء فى الحج الأكبر؛ فقيل يوم عرفة . رُوى عن عمر وعثمان وابن عباس وطاوس ومجاهد . وهو مذهب أبى حنيفة، وبه قال الشافعيّ . وعن علىّ وابن عباس أيضا وابن مسعود وٱبن أبى أَوْفَى والمُغيرة بن شعبة أنه يوم النَّحر . واختاره الطبرى . وروى ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر فى الحَجّة التى حج فيها فقال : "أىّ يوم هذا" فقالوا : يوم النحر . فقال : "هذا يوم الحج الأكبر" . أخرجه أبو داود . وخرّج البخاريّ عن أبى هريرة قال : بعثنى أبو بكر الصديقُ رضى الله عنه فيمن يؤذّن يوم النحر بمِنًى : لا يحجُّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . ويومُ الحج الأكبر يومُ النحر . وإنما قيل الأكبر من أجل قول الناس : الحج الأصغر . فنبذ أبو بكر إلى النـاس فى ذلك العام؛ فلم يحج عامَ حَجّة الوداع الذى حج فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم مشرك . وقال ٱبن أبى أَوْفَى : يومُ النحر يوم الحج الأكبر، يهراق فيه الدم، ويوضع فيه الشّعْر، ويلْقى فيه التّفث ،

وتحِلّ فيه الحُرَم . وهــذا مذهب مالك ؛ لأن يوم النحر فيه الحج كله؛ لأن الوقوف إنمـا هو في ليلتــه ، والرَّمْيُ والنحرُ والحَلْق والطوافُ في صبيحته . احتجّ الأولون بحــديث مَخْرَمة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " يومُ الحج الأكبر يومُ عرفة " . رواه إسمـاعيل القاضي . وقال الثَّوريّ وابن جُريج : الحج الأكبر أيامُ مِنًى كلُّها . وهــذا كما يقال : يوم صِفِّين ويوم الجَمَل ويوم بُعاث (١) ؛ فيراد به الحِين والزمان لا نفس اليوم . وروى عن مجاهد : الحج الأكبر القِران (٢) ، والأصغر الإفراد . وهــذا ليس من الآية في شيء . وعنه وعن عَطاء : الحج الأكبر الذي فيه الوقوف بعرفة ، والأصغر العُمْرة . وعن مجاهد أيضا : أيامُ الحج كلُّها . وقال الحسن وعبد الله بن الحارث بن نَوفل : إنما سُمِّيَ يومُ الحج الأكبر لأنه حج ذلك العامَ المسلمون والمشركون ، وآتفقت فيه يومئذ أعياد المِلَل : اليهودِ والنصارى والمجوس . قال آبن عطية : وهذا ضعيف أن يصفه الله عز وجل في كتابه بالأكبر لهذا . وعن الحسن أيضا : إنمـا سُمِّيَ الأكبر لأنه حجّ فيه أبو بكر ونُبِذت فيه العهود . وهو الذي يشبه نظر الحسن . وقال آبن سيرين : يوم الحج الأكبر العامُ الذي حج فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم حَجة الوداع ، وحجّت معه فيه الأمم .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ « أن » بالفتح في موضع نصب . والتقدير بأن الله . ومن قرأ بالكسر قدّره بمعنى قال إن الله . « برىء » خبر أنّ . « ورسوله » عطف على الموضع ، وإن شئت على المضمر المرفوع في « برىء » . كلاهما حسن ؛ لأنه قد طال الكلام . وإن شئت على الابتداء والخبر محذوف ؛ التقدير: ورسوله برىء منهم . ومن قرأ « ورسولَه » بالنصب — وهو الحسن وغيره — عطف على اسم الله عز وجل

(١) صفين (بكسرتين وتشديد الفاء) : موضع بقرب الرّقة على شاطىء الفرات . كان فيه وقعة بين على رضى الله عنه ومعاوية في سنة ٣٧ هـ .

ويوم الجمل كان فيـــه وقعة بين على وعائشة أم المؤمنين رضى الله عنهما ؛ قتل فيـــه عدة من الصحابة وغيرهم . وكان في سنة ٣٦ هـ .

يوم بعاث (بضم أوله والعين المهملة ، وحكاه بعضهم بالغين المعجمة) : موضع من المدينـــة على ليلتين . كانت به وقائع بين الأوس والخزرج في الجاهلية .

(٢) القران (بالكسر) : الجمع بين الحج والعمرة . والإفراد : هو أن يحرم بالحج وحده .

على اللفظ . وفى الشــواذ « ورسولِهِ » بالخفض على القسم ، أى وحقّ رسوله ؛ ورُويت عن الحسن . وقد تقدمت قصــة عمر فيها أوّل الكتاب . ﴿ فَإِنْ تُبْتُمْ ﴾ أى عن الشرك . ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أى أنفع لكم . ﴿ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أى عن الإيمان . ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴾ أى فائتيه ؛ فإنه محيط بكم ومنزل عقابه عليكم .

قوله تعــالى : إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ فى موضع نصب بالاستثناء المتصل؛ المعنى : أن الله برىء من المشركين إلا من المعاهدين فى مدة عهدهم . وقيل : الاستثناء منقطع ؛ أى أن الله برئٌ منهــم ولكن الذين عاهدتم فثبتوا على العهد فأتمّوا إليهــم عهدهم . وقوله : « ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ » يدلّ على أنه كان من أهل العهد من خاس[1] بعهده ومنهم من ثبت على الوفاء؛ فأذن الله سبحانه لنبيّه صلى الله عليه وسلم فى نقض عهد من خاس، وأمر بالوفاء لمن بقى على عهده إلى مدّته . ومعنى «لَمْ يَنْقُصُوكُمْ» أى من شروط العهد شيئا . ﴿ وَلَمْ يُظَاهِرُوا ﴾ لم يعاونوا . وقرأ عِكرمة وعطاء بن يَسار « ثم لم ينقضوكم » بالضاد معجمة على حذف مضاف؛ التقدير ثم لم ينقضوا عهدهم . يقال : إن هذا مخصوص يراد به بنو ضَمْرة خاصّةً . ثم قال : ﴿ فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ ﴾ أى وإن كانت أكثر من أربعة أشهر .

قوله تعــالى : فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

فيه ست مسائل :

---

(١) خاس عهده وبعهده : نقضه .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ ﴾ أى خرج . وسلختُ الشهرَ إذا صرت فى أواخر أيامه ، تَسْلَخه سلخا وسلوخا بمعنى خرجت منه . وقال الشاعر :

إذا ما سلختُ الشهـرَ أهللتُ قبله[1] * كفى قاتلا سلخى الشهور و إهلالى

وآنسلخ الشهر وآنسلخ النهـار من الليل المقبل . وسلخت المرأة درعها نزعته . وفى التـنزيل «وَآيَةٌ لَهُـمُ ٱللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ»[2] . ونخلة مِسلاخ، وهى التى ينتثر بُسْرها أخضر .

والأشهر الحرم فيها للعلماء قولان : قيل هى الأشهر المعروفة ، ثلاثةٌ سَرْدٌ وواحد فَرْد . قال الأصم : أريد به من لا عَقد له من المشركين؛ فأوجب أن يمسَك عن قتالهم حتى ينسلخ الحُرُم ؛ وهو مدة خمسين يوما على ما ذكره آبن عبـاس ؛ لأن النداء كان بذلك يوم النحر . وقد تقدم هذا . وقيل : شهور العهد أربعة ؛ قاله مجاهد وابن إسحـاق وابن زيد وعمرو بن شعيب . وقيل لهـا حُرُم لأن الله حرّم على المؤمنين فيهـا دماءَ المشركين والتعرُّض لهم إلا على سبيل الخير .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عامٌّ فى كل مشرك، لكن السُّنّة خصّت منه ما تقدم بيانه فى سورة « البقرة »[3] من آمرأة وراهب وصبىّ وغيرهم . وقال الله تعـالى فى أهل الكتاب : «حَتَّى يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ»[4] . إلا أنه يجوز أن يكون لفظ المشركين لا يتناول أهل الكتاب، ويقتضى ذلك منعَ أخذ الجزية من عبدة الأوثان وغيرهم ، على ما يأتى بيانه. وآعلم أن مطلق قوله : « اقتلوا المشركين » يقتضى جواز قتلهم بأىّ وجه كانـ ؛ إلا أن الأخبـار وردت بالنَّهى عن المُثْلة . ومع هذا فيجوز أن يكون الصدّيق رضى الله عنه حين قتل أهل الرّدة بالإحراق بالنار ، و بالحجارة و بالرمى من رءوس الجبال ، والتنكيس فى الابار ، تعلّق بعموم الآية . وكذلك إحراق علىّ رضى الله عنه قوما من أهل الرّدة يجوز أن يكون ميلا إلى هذا المذهب، واعتمادا على عموم اللفظ . والله أعلم .

---

(١) فى اللسان والبحر المحيط : « أهللت مثله » . (٢) آية ٣٧ سورة يس .
(٣) راجع جـ ٢ ص ٣٤٨ طبعة ثانية . (٤) آية ٢٩ من هذه السورة .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ عامٌّ فى كل موضع . وخصَّ أبو حنيفة رضى الله عنه المسجد الحرام؛ كما سبق فى سورة « البقرة »(١) . ثم اختلفوا ؛ فقال الحسين بن الفضل : نسخت هـذه كلَّ آية فى القرآن فيها ذكر الإعراض والصبر على أذى الأعداء . وقال الضحاك والسدّى وعطاء : هى منسوخة بقوله : « فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً »(٢) . وأنه لا يُقتل أسير صَبْرا ؛ إما أن يُمَنّ عليه وإما أن يُفادى . وقال مجاهد وقتادة : بل هى ناسخة لقوله تعالى : «فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً» وأنه لا يجوز فى الأسارى من المشركين إلا القتل . وقال ابن زيد : الآيتان محكمتان . وهو الصحيح ؛ لأن المنّ والقتل والفداء لم يزل من حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم من أوّل حرب حاربهم ، وهو يوم بدر كما سبق . وقوله : ﴿ وَخُذُوهُمْ ﴾ يدلّ عليه . والأخذ هو الأسر . والأسر إنما يكون للقتل أو الفداء أو المنّ على ما يراه الإمام . ومعنى ﴿ احْصُرُوهُمْ ﴾ يريد عن التصرف إلى بلادكم والدخول إليكم ؛ إلا أن تأذنوا لهم فيدخلوا إليكم بأمان .

الرابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ المرصد : الموضع الذى يُرقب فيه العدوّ ؛ يقال : رصدت فلانا أرْصُده ، أى رَقَبْته . أى اقعدوا لهم فى مواضع الغِرّة حيث يُرصَدون . قال عامر بن الطُّفَيل :

ولقد علمت وما إخالك ناسيا * أن المنيّة للفتى بالمَرْصَـد

وقال عدِىّ(٣) :

أعاذلَ إن الجهل من لذّة الفتَى * وإن المنـايا للنفوس بمَرْصَـد

وفى هذا دليل على جواز اغتيالهم قبل الدعوة . ونصب « كلّ » على الظرف ، وهو اختيـار الزجاج ؛ ويقال : ذهبت طريقا وذهبت كلَّ طريق . أو بإسقـاط الخافض ؛ التقـدير : فى كل مَرْصـد وعلى كلّ مرصَد ؛ فيُجعل المرصد اسمـا للطريق . وخطّأ أبو علىّ الزجاجَ

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٥١ طبعة ثانية . (٢) آية ٤ سورة محمد .
(٣) فى الأصول : « النابغة » والتصويب عن اللسان .

فى جعله الطريق ظرفا وقال : الطريق مكان مخصوص كالبيت والمسجد ؛ فلا يجوز حذف حرف الجر منه إلا فيما ورد فيه الحذف سماعا؛ كما حكى سيبويه : دخلت الشام ودخلت البيت؛ وكما قيل :

* كما عَسَل الطريقَ الثعلب (1) *

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ أى من الشرك . ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُم﴾ هذه الآية فيها تأمل ؛ وذلك أن الله تعـالى علّق القتل على الشرك، ثم قال : « فإن تابوا » . والأصل أن القتل متى كان للشرك يزول بزواله ؛ وذلك يقتضى زوال القتل بمجرّد التوبة، من غير اعتبـار إقامة الصلاة وإيتـاء الزكاة؛ ولذلك سقط القتل بمجرد التوبة قبل وقت الصلاة والزكاة . وهـذا بيّن فى هذا المعنى؛ غير أن الله تعـالى ذكر التوبة وذكر معها شرطين آخرين؛ فلا سبيل إلى إلغائهما . نظيره قوله صلى الله عليه وسلم : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عَصَموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله" . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : والله لأقاتلنّ من فرّق بين الصــلاة والزكاة؛ فإن الزكاة حق المـال . وقال ابن عبـاس : رحم الله أبا بكر ما كان أفقهه . وقال ابن العربىّ : فانتظم القرآن والسنة واطّردا . ولا خلاف بين المسلمين أن من ترك الصلاة وسائر الفرائض مستحِلاً كفر، ومن ترك السُّـنَن متهاونا فسَق، ومن ترك النوافل لم يَحْرج؛ إلا أن يجحد فضلها فيكفر، لأنه يصير رادّا على الرسول عليه السلام ما جاء به وأخبر عنـه . واختلفوا فيمن ترك الصلاة من غير جَحْد لهـا ولا استحلال ؛ فروى يونس ابن عبد الأعلى قال : سمعت ابن وهب يقول قال مالك : من آمن بالله وصدّق المرسلين وأبى أن يصلّى قُتل؛ وبه قال أبو ثَور وجميع أصحاب الشافعىّ . وهو قول حماد بن زيد ومكحول ووَكيع . وقال أبو حنيفة : يسجن ويضرب ولا يقتل؛ وهو قول ابن شهاب وبه يقول داود ابن علىّ . ومن حجتهم قوله صلى الله عليه وسلم : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله

(1) القائل هو ساعدة بن جُؤَيّة، وتمامه كما فى اللسان وكتاب سيبويه :

لدن بهز الكف يعسل متنه * فيه كما عســل ... ...

إلا الله فإذا قالوا ذلك عَصَموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقّها" . وقالوا : حقّها الثلاث التى قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا يحلّ دمَ امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث كُفْرٌ بعد إيمـان أو زِنًى بعد إحصان أو قتـل نفس بغير نفس" . وذهبت جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن من ترك صـلاة واحدة متعمِّدا حتى يخرج وقتُها لغـير عذر، وأبى من أدائها وقضائها وقال لا أصـلى فإنه كافر، ودَمُه ومالُه حلالان ، ولا يرثه ورثته من المسلمين، ويستتاب ؛ فإن تاب وإلا قُتل، وحُكْمُ ماله كحكم مال المرتدّ ؛ وهو قول إسحاق . قال إسحاق : وكذلك كان رأى أهل العلم من لَدُن النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى زماننا هذا.وقال ابن خُوَيْزِمَنْداد : واختلف أصحابنا متى يُقتل تارك الصلاة ؛ فقال بعضهم فى آخر الوقت المختار ، وقال بعضهم آخر وقتِ الضرورة، وهو الصحيح من ذلك . وذلك أن يبقى من وقت العصر أربع ركعات إلى مغيب الشمس، ومن الليل أربع ركعات لوقت العشاء، ومن الصبح ركعتان قبل طلوع الشمس . وقال إسحـاق : وذهاب الوقت أن يؤخر الظُّهر إلى غروب الشمس، والمغرب إلى طلوع الفجر .

السادســة — هـذه الآية دالّة على أن من قال : قد تُبت أنه لا يجتزأ بقوله حتى ينضاف إلى ذلك أفعاله المحقِّقة للتوبة ؛ لأن الله عز وجل شرط هنا مع التوبة إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ليحقّق بهما التوبة . وقال فى آية الربا : « وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ »[1] . وقال : « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا »[2] وقد تقدّم معنى هذا فى سورة البقرة .

قوله تعـالى : وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى من الذين أمرتُك بقتالهم. ﴿ اسْتَجَارَكَ ﴾ أى سأل جِوارك؛ أى أمانك وذِمامك، فأعطه إيّاه ليسمع القرآن؛ أى يفهم

(١) آية ٢٧٩ سورة البقرة . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٨٧ طبعة ثانية .

أحكامه وأوامره ونواهيه . فإن قَبِل أمرا فحَسَن ، وإن أَبَى فردّه إلى مَأْمنه . وهـذا ما لا خلاف فيه، والله أعلم . قال مالك : إذا وُجد الحربِيّ فى طريق بلاد المسلمين فقال : جئت أطلب الأمان . قال مالك : هذه أمور مشتبهة، وأرى أن يُرَدّ إلى مأمنه . وقال ابن القاسم : وكذلك الذى يوجد وقد نزل تاجرا بساحلنا فيقول : ظننت ألاّ تَعرِضـوا لمن جاء تاجرا حتى يبيع . وظاهر الآية إنمـا هى فيمن يريد سماع القرآن والنظر فى الإسلام ؛ فأما الإجارة لغير ذلك فانما هى لمصلحة المسلمين والنّظر فيما تعود عليهم به منفعته .

الثانيـــة — ولا خلاف بين كافة العلماء أن أمان السلطان جائز؛ لأنه مقدَّم للنظر والمصلحة ، نائبٌ عن الجميـع فى جلب المنافع ودفع المضار . وآختلفوا فى أمان غير الخليفة ؛ فالحـرّ يُمْضَى أمانُه عند كافة العلماء . إلا أن آبن حبيب قال : ينظر الإمام فيه . وأما العبد فله الأمان فى مشهور المذهب؛ وبه قال الشافعيّ وأصحابه وأحمد وإسحاق والأوزاعيّ والثّوريّ وأبو ثور وداود ومحمد بن الحسن . وقال أبو حنيفة : لا أمان له ؛ وهو القول الثانى لعلمائنا . والأول أصح؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم" . قالوا : فلما قال "أدناهم" جاز أمان العبد، وكانت المرأة الحُرّة أحْرَى بذلك، ولا اعتبار بعلّة "لا يسهم له" . وقال عبد الملك بن المـاجِشُون : لا يجوز أمان المرأة إلا أن يجيزه الإمام، فشذّ بقوله عن الجمهور . وأما الصبيّ فإذا أطاق القتال جاز أمانه؛ لأنه من جمـلة المقاتلة ، ودخل فى الفِئة الحامية . وقد ذهب الضّحاك والسُّـدّى إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله : « فآقتـلوا المشرِكين » . وقال الحسن : هى مُحْكَمَة سُـنّة[1] إلى يوم القيامة ؛ وقاله مجاهد . وقيل : هذه الآية إنمـا كان حكمها باقيا مدّة الأربعة الأشهر التى ضُربت لهم أجلا ، وليس بشيء . وقال سعيد بن جُبـير : جاء رجل من المشركين إلى علىّ بن أبى طالب فقال : إن أراد الرجل منا أن يأتى محمدا بعد انقضاء الأربعة الأشهر فيسمع كلام الله أو يأتيه بحاجة قُتل!

(١) كذا فى أكثر نسخ الأصل وتفسير ابن عطية . وفى نسخة من الأصل : « منبة » وهى غير واضحة المعنى، ولم نوفق لتصويبها ؛ لأن هذه الكلمة غير موجودة فى قول الحسن بالمصادر التى بين أيدينا على كثرتها .

فقال علىّ بن أبى طالب : لا ، لأن الله تبـارك وتعالى يقول : « وَإن أَحَدٌ من المشركين استجارك فأجِره حتى يسمَع كلامَ الله » . وهذا هو الصحيح . والآية مُحْكَمَة .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ ﴾ « أحد » مرفوع بإضمار فعل كالذى بعده. وهذا حَسَن فى « إنْ » وقبيح فى أخواتها . ومذهب سيبويه فى الفرق بين « إن » وأخواتها، أنها لمـا كانت أمّ حروف الشرط خُصّت بهـذا ، ولأنها لا تكون فى غيره . وقال محمـد بن يزيد : أما قوله « لأنها لا تكون فى غيره » فغلط؛ لأنها تكون بمعنى (ما) ومخففة من الثقيلة ولكنها مبهمة، وليس كذا غيرها . وأنشد سيبويه :

لا تَجْـزِعى إن مُنْفِسًا أهلكْتُه * وإذا هلكتُ فعند ذلك فآجْزَعى[(١)]

الرابعــة — قال العلماء : فى قوله تعالى ﴿ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ﴾ دليلٌ على أن كلام الله عز وجل مسموع عند قراءة القارئ؛ قاله الشيخ أبو الحسن والقاضى أبو بكر وأبو العباس القلانسى وابن مجاهد وأبو إسحاق الإسْفراينى وغيرهم؛ لقوله تعالى : «حتّى يسمعَ كلام الله». فنصّ على أن كلامه مسموع عند قراءة القارئ لكلامه . ويدلّ عليه إجماع المسلمين على أن القارئ إذا قرأ فاتحة الكتاب أو سورة قالوا : سمعنا كلام الله . وفرّقوا بين أن يُقرأ كلام الله تعالى وبين أن يُقرأ شعر آمرئ القيس . وقد مضى فى سورة «البقرة»[(٢)] معنى كلام الله تعالى، وأنه ليس بحرف ولا صوت، والحمد لله .

قوله تعـالى : كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾

(١) البيت للنمر بن تولب . وصف أن امرأته لامته على إتلاف ماله جزعا من الفقر ؛ فقال لها : لا تجزعى من اهلاكى لنفيس المـال، فانى كفيل بإخلافه بعـد التلف ؛ وإذا هلكت فاجزعى فلا خلف لك منى . (عن شرح الشواهد) .

(٢) راجع ج ٢ ص ١ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ كيف هنا للتعجب ؛ كما تقول : كيف يسبقنى فلان ! أى لا ينبغى أن يسبقنى . و «عهد» اسم يكون . وفى الآية إضمار، أى كيف يكون للشركين عهد مع إضمار الغدر، كما قال :

وخبّرتمانى أنما الموت بالقُرَى * فكيف وهاتا هَضْبةٌ وكَثِيبُ [(١)]

التقدير : فكيف مات ؛ عن الزجاج . وقيل : المعنى كيف يكون للشركين عهد عند الله يأمنون به عذابه غدا، وكيف يكون لهم عند رسوله عهد يأمنون به عذاب الدنيا . ثم استثنى فقال : « إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » . قال محمد بن إسحاق : هم بنو بكر؛ أى ليس العهد إلا لهؤلاء لذين لم ينقضوا ولم ينكثوا .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ﴾ أى فما أقاموا على الوفاء بعهدكم فأقيموا لهم على مثل ذلك . ابن زيد : فلم يستقيموا فضرب لهم أجلا أربعة أشهر . فأما من لا عهد له فقاتلوه حيث وجدتموه إلا أن يتوب .

قوله تعالى : كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ أعاد التعجب من أن يكون لهم عهد مع خُبث أعمالهم؛ أى كيف يكون لهم عهد وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلًّا ولاذمّة . يقال: ظهرتُ على فلان أى غلبته، وظهرت البيت علوته ؛ ومنه « فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ » [(٢)] أى يعلو عليه .

---

(١) كذا فى الأصول والبحر . والذى فى شواهد سيبويه وجمهرة أشعار العرب : «وقليب» قال الشنتمرى : «وأراد بالقليب القبر؛ وأصله البئر . كأنه حذر من وباء الأمصار وهى القرى، فخرج الى البادية فرأى قبرا فعلم أن الموت لا ينجى منه، فقال هذا منكرا على من حذره من الاقامة بالقرى» .

(٢) آية ٩٧ سورة الكهف .

قوله تعالى : ﴿ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ « يرقبوا » يحافظوا . والرقيب الحافظ . وقد تقدم[1] . « إِلًّا » عهدا؛ عن مجاهد وابن زيد . وعن مجاهد أيضا : هو ٱسم من أسماء الله عز وجل . ابن عباس والضحاك : قرابة . الحسن : جِوارا . قتادة : حِلفًا، و « ذِمَّةً » عهدا . أبو عبيدة : يمينا . وعنه أيضا : إِلًّا العهد، والذمة التذمم . الأزهرى : ٱسم الله بالعبرانية؛ وأصله من الأليل وهو البريق؛ يقال : ألّ لونه يَؤُل أَلًّا، أى صَفَا ولَمَع . وقيل: أصله من الحدّة؛ ومنه الأَلَّة للحربة؛ ومنه أُذُن مُؤَلَّلة أى محدّدة . ومنه قول طَرَفَة بن العبد يصف أذنى ناقته بالحدّة والانتصاب :

مُؤَلَّلتان تعرف العِتْق فيهما * كسامِعَتَىْ شاةٍ بحَوْمَل مُفْرَدِ[2]

فإذا قيل للعهد والجِوار والقرابة « إِلّ » فمعناه أن الأُذُن تُصرف إلى تلك الجهة؛ أى تحدّد لها . والعهد يسمّى « إِلًّا » لصفائه وظهوره . ويجمع فى القلة آلال، وفى الكثرة إلال . وقال الجوهرى وغيره : الإِلّ بالكسر هو الله عز وجل، والإِلّ أيضا العهد والقرابة . قال حسان :

لعمرُك إنّ إِلَّكِ من قريش * كإِلّ السَّقْب من رَأْل النَّعام[3]

قوله تعالى : ﴿ وَلَا ذِمَّةً ﴾ أى عهدا . وهى كلّ حُرمة يلزمك إذا ضيّعتها ذنب . قال ابن عباس والضحاك وابن زيد : الذِّمة العهد . ومن جعل الإِلّ العهد فالتكرير لاختلاف اللفظين . وقال أبو عبيدة مَعْمَر : الذمة التذمّم . وقال أبو عبيد : الذمة الأمان فى قوله عليه السلام : "ويسعى بذمتهم أدناهم" . وجمع ذِمّة ذِمم . وبئر ذَمّة (بفتح الذال) قليلة الماء؛ وجمعها ذِمام . قال ذو الرُّمّة :

(١) راجع جـ ٥ ص ٨ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) السامعتان : الأذنان . والمراد بالشاة هنا : الثور الوحشى . وحومل : اسم رملة . شبه أذنيها بأذنى ثور وحشى لتحديدهما وصدق سمعهما؛ وأذن الوحشى أصدق من عينيه . وجعله « مفردا » لأنه أشدّ لسمعه وارتياعه . (عن شرح الديوان) .
(٣) السقب : ولد الناقة . والرأل : ولد النعام .

على حِمْـيَرِيَّات كأنّ عيونهـا * ذِمام الرّكايا أنكزتهـا المَوَاتِحُ (١)

أنكزتها أذهبت ماءها . وأهل الذمة أهل العقد .

قوله تعـالى : ﴿ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ أى يقولون بألسنتهم ما يُرضى (٢) ظاهره . ﴿ وَتَأْبَى قُلُوبُهُـمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أى ناقضون العهـد . وكلّ كافر فاسـق ، ولكنه أراد هاهنا المجاهرين بالقبائح ونقض العهد .

قوله تعـالى : ٱشْـتَرَوْا بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَـبِيلِهِۦٓ ج إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾

يعنى المشركين فى نقضهم العهود بأكلة أطعمهم إياها أبو سفيان؛ قاله مجاهد . وقيل : إنهم استبدلوا بالقرآن متاع الدنيا . ﴿ فَصَـدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أى أعرضوا ؛ من الصدود . أو منعوا عن سبيل الله؛ من الصّدّ .

قوله تعـالى : لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّـةً ج وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُـمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾

قال النحاس : ليس هذا تكريرا ، ولكن الأوّل لجميع المشركين والثـانى لليهود خاصّة . والدليل على هذا « ٱشتروا بآيات الله ثمنا قليلا » يعنى اليهود؛ باعُوا حجج الله عز وجل و بيانه بطلب الرياسة وطمعٍ فى شئ . ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ أى المجـاوزون الحلال إلى الحرام بنقض العهد .

قوله تعـالى : فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ قلى وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

---

(١) الحميريات : ابل منسوبة الى حمير ، وهى قبيلة من اليمن . الركايا : جمع ركية ، وهى البئر . والمواتح : جمع ماتح ، وهو الذى يسق من البئر . وصف إبلا غارت عيونها من الكلال .

(٢) فى الأصول : « ما لا يرضى » وهو تحريف .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا ﴾ أى عن الشرك والتزموا أحكام الإسلام . ﴿ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ أى فهم إخوانكم فى الدّين . قال ٱبن عباس : حرّمت هذه دماءَ أهل القبلة . وقد تقدّم هـذا المعنى . وقال ٱبن زيد : ٱفترض الله الصلاة والزكاة وأبى أن يفرّق بينهما ، وأبى أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة . وقال ٱبن مسعود : أمرتم بالصلاة والزكاة فمن لم يزك فلا صلاة له . وفى حديث أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من فرّق بين ثلاث فرّق الله بينه وبين رحمته يوم القيامة من قال أطيع الله ولا أطيع الرسول والله تعالى يقول : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول» ومن قال أقيم الصلاة ولا أوتى الزكاة والله تعالى يقول: « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » ومن فرّق بين شكر الله وشكر والديه والله عز وجل يقول : « أن ٱشْكُرْ لِي ولوالدَيْك » " .

قوله تعالى : ﴿ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ أى نبيّنها . ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ خصّهم لأنهم هم المنتفعون بها . والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِن نَّكَثُوٓا أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ نَكَثُوا ﴾ النّكث النقض، وأصله فى كل ما فُتِل ثم حُلّ. فهى فى الأيمان والعهود مستعارة . قال :

وإن حلَفتْ لا ينقض النّأْىُ عهدها * فليس لمخضوب البَنَان يمين

أى عهد . وقوله : ﴿ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ أى بالآستنقاص والحرب وغير ذلك مما يفعله المشرك . يقال : طعَنه بالرمح وطعن بالقول السيئ فيه يطْعُن ، بضم العين فيهما . وقيل : يَطْعُن بالرمح (بالضم) ويَطْعَن بالقول (بالفتح) . وهى هنا ٱستعارة ؛ ومنه قوله صلى الله عليه

وسلم حين أَمَّر أسامة : " إن تَطْعنوا فى إمارته فقد طَعنتم فى إمارة أبيه من قبلُ وَأيْمُ الله إن كان لخليقا للإمارة "[1]. خرّجه الصحيح .

الثانيـــة — استدلّ بعض العلماء بهذه الآية على وجوب قتل كلّ من طعن فى الدِّين ؛ إذ هو كافر . والطعن أن ينسب إليـه ما لا يليق به ، أو يعترض بالاستخفاف على ما هو من الدين ؛ لمـا ثبت من الدليل القطعى على صحة أصوله وٱستقامة فروعه . وقال ٱبن المنـذر : أجمع عامّة أهل العلم على أن من سبّ النبيّ صلى الله عليـه وسلم عليه القتل . وممن قال ذلك مالك والليث وأحمد وإسحاق ، وهـو مذهب الشافعىّ . وقـد حُكى عن النعمان أنه قال : لا يُقتل مَن سبّ النبيّ صلى الله عليه وسلم من أهل الذِّمة ؛ على ما يأتى . وروى أن رجلا قال فى مجلس علىّ : ما قُتـل كعب بن الأشرف إلا غدرا ؛ فأمر علىّ بضرب عنقه . وقاله آخر فى مجلس معاوية فقام محمد بن مسـلمة فقال : أيقال هـذا فى مجلسك وتسكت ! والله لا أساكنك تحت سقف أبدا ، ولئن خلوتُ به لأقتلنّـه . قال علمـاؤنا : هـذا يقتل ولا يستتاب إن نسب الغدر للنبيّ صلى الله عليـه وسلم . وهو الذى فهمه علىّ ومحمد بن مسـلمة رضوان الله عليهما مِن قائل ذلك ؛ لأن ذلك زندقة . فأمّا إن نسبه للباشرين لقتـله بحيث يقول : إنهم أمّنوه ثم غدروه لكانت هذه النسبة كذبا محضا ؛ فإنه ليس فى كلامهم معه ما يدل على أنهم أمّنوه ولا صرّحوا له بذلك ، ولو فعلوا ذلك لمـا كان أمانا ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم إنمـا وجّههم لقتله لا لتأمينه ، وأذن لمحمد بن مسلمة فى أن يقـول . وعلى هذا فيكون فى قتل من نسب ذلك لهم نظر وتردّد . وسببه هل يلزم من نسبة الغدر لهم نسبتُه للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه قد صوّب فعلهم ورضى به فيلزم منه أنه قد رضى بالغدر ومن صرّح بذلك قتل ، أو لا يلزم من نسبة الغـدر لهم نسبته للنبيّ صلى الله عليه وسلم فلا يُقتـل . وإذا قلنا لا يقتل ، فلا بُدّ من تنكيل ذلك القائل وعقوبتـه بالسجن ، والضرب الشـديد والإهانة العظيمـــة .

---

(1) راجع صحيح مسلم (كتاب الفضائل) .

الثالثـــة ـــ فأما الذِّمىّ إذا طعن فى الدين ٱنتقض عهده فى المشهور من مذهب مالك؛ لقوله : « وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَـانَهم » الآية . فأمر بقتلهم وقتالهم . وهو مذهب الشافعىّ رحمه الله . وقال أبو حنيفة فى هذا : إنه يستتاب ، و إنّ مجرّد الطعن لا ينقض به العهد إلا مع وجود النَّكْث؛ لأن الله عز وجل إنما أمر بقتلهم بشرطين: أحدهما نقضهم العهد، والثانى طعنهم فى الدين . قلنا : إن عَمِلوا بما يخالف العهد ٱنتقض عهدهم، وذِكر الأمرين لا يقتضى توقّف قتاله على وجودهما ؛ فإن النكث يبيح لهم ذلك بانفراده عقلا وشرعا . وتقـدير الآية عنـدنا : فإن نكثوا عهدهم حلّ قتالهم ، و إن لم ينكثوا بل طعنوا فى الدِّين مع الوفاء بالعهد حل قتالهم . وقد رُوى أن عمر رُفع إليه : ذِمّىّ نَخس دابة عليها ٱمرأة مسلمة فرَمَحت فأسقطتها فانكشف بعض عورتها ؛ فأمر بصلبه فى الموضع .

الرابعـــة ـــ إذا حارب الذمّى نُقض عهده وكان ماله وولده فَيْئاً معه . وقال محمد ابن مسلمة: لا يؤاخذ ولده به ؛ لأنه نقض وحده . وقال : أمّا مالُه فيؤخذ . وهذا تعارض لا يشبه منصب محمد بن مسلمة ؛ لأن عهده هو الذى حمى ماله وولده ؛ فإذا ذهب عنه ماله ذهب عنه ولده . وقال أشهب: إذا نقض الذّمى العهد فهو على عهده ولا يعود فى الرق أبدا . وهذا من العجب؛ وكأنه رأى العهد معنًى محسوسا . و إنما العهد حكم اقتضاه النظر، والتزمه المسلمون له ؛ فإذا نقضه انتقض كسائر العقود .

الخامســـة ـــ أكثر العلماء على أن مَن سبّ النبىّ صلى الله عليه وسلم من أهل الذمة ، أو عَرّض أو استخفّ بقدره أو وصفه بغير الوجه الذى كفر به فإنه يقتل؛ فإنا لم نعطه الذِّمة أو العهد على هذا . إلا أبا حنيفة والثّورىّ وأتباعَهما من أهل الكوفة فإنهم قالوا : لا يقتل، ما هو عليه من الشرك أعظم، ولكن يؤدَّب ويُعَزَّر. والحجة عليه قوله تعالى: « و إِنْ نَكَثُوا » الآية . واستدلّ عليه بعضهم بأمره صلى الله عليه وسلم بقتل كعب بن الأشرف وكان معاهَدا . وتغيّظ أبو بكر على رجل من أصحابه فقال أبو بَرْزة : ألَا أضرب عنقه . فقال : ما كانت لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى الدّارَقُطْنِىّ عن ابن عباس : أن رجلا أعمى كانت له

أم ولد، له منها ابنان مثل اللؤلؤتين، فكانت تشتُم النبيّ صلى الله عليه وسلم وتقع فيه، فينهاها فلم تنته ، ويزجرها فلم تنزجر، فلما كان ذات ليلة ذكرت النبيّ صـلى الله عليه وسلم فما صَبَر سـيّدها أن قام إلى مِعْول فوضعه في بطنها ، ثم ٱتّكأ عليها حتى أنفذه . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم. "ألاَ ٱشهدوا إن دمها هدر" . وفي رواية عن ابن عباس : فقتلها، فلما أصبح قيل ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم، فقام الأعمى فقال : يا رسول الله ، أنا صاحبها ، كانت تشتمك وتقع فيك فأنهاها فلا تنتهي، وأزجرها فلا تنزجر، ولي منها ابنان مثل اللؤلؤتين ، وتقع فيك وكانت بي رفيقة، فلما كان البارحة جعلتْ تشتمك وتقع فيك فقتلتها ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ألاَ اشهدوا إن دمها هدر" .

السادســـة — واختلفوا إذا سبّه ثم أسلم تَقِيّة من القتل ؛ فقيل: يُسقط إسلامُه قتلَه؛ وهو المشهور من المذهب؛ لأن الإسلام يَجُبّ ما قبله . بخلاف المسلم إذا سَـبّه ثم تاب ؛ قال الله عز وجل : « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ »(1) . وقيل: لا يُسقط الإسـلامُ قتلَه؛ قاله في العُتْبِية ؛ لأنه حقٌّ للنبيّ صلى الله عليه وسـلم وجب لانتهاكه حرمته وقصـده إلحاق النقيصة والمعرّة به، فلم يكن رجوعه إلى الإسلام بالذي يسقطه، ولا يكون أحسنَ حالا من المسلم .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ﴾ « أئمة » جمع إمام، والمراد صناديد قريش — في قول بعض العلماء — كأبي جهل وعتبة وشيبة وأُمية بن خلف . وهذا بعيد؛ فإن الآية في سورة « براءة » وحين نزلت وقُرِئت على الناس كان الله قد ٱستأصل شأْفة قريش فلم يبق إلا مسلم أو مسالم؛ فيحتمل أن يكون المراد « فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ » . أي من أقدم على نكث العهـد والطعنِ في الدين يكون أصلا ورأسا في الكفر؛ فهو من أئمة الكفر على هذا . ويحتمل أن يعني به المقْدِمون والرؤساء منهم، وأن قتالهم قتالٌ لأتباعهم وأنهم لا حُرْمة لهم . والأصل أَأْمِمَة كمثال وأمثلة، ثم أدغمت الميم في الميم وقُلبت الحركة على الهمزة فاجتمعت

(1) آية ٣٨ سورة الأنفال .

همزتان، فأبدلت من الثانية ياء . وزعم الأخفش أنك تقول : هــذا أيَمّ من هذا، بالياء . وقال المــازنيّ : أوَمّ من هذا، بالواو . وقرأ حمزة « أئمة » . وأكثر النحويين يذهب إلى أن هــذا لحن[١]؛ لأنه جمع بين همزتين في كلمة واحدة . ﴿ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ ﴾ أي لا عهود لهم؛ أي ليست عهودهم صادقةً يُوفون بهــا . وقرأ ابن عامر « لا إيمــان لهم » بكسر الهمزة من الإيمان ؛ أي لا إسلام لهم . ويحتمل أن يكون مصدر آمنته إيمانا، من الأمن الذي ضــدّه الخوف، أي لا يؤمنون ؛ من آمنته إيمانا أي أجرته؛ فلهذا قال : « فقاتِلوا أئمة الكفر » . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ أي عن الشرك . قال الكَلْبيّ : كان النبيّ صلى الله عليــه وسلم وادع أهل مكة سنةً وهو بالحُدَيْبِيَة فحبسوه عن البيت ، ثم صالحوه على أن يرجع فمكثوا ما شاء الله، ثم قاتل حلفاءُ رسول الله صلى الله عليه وسلم من خزاعة حلفاءَ بني أميّة من كنانة، فأمدّت بنو أمية حلفاءهم بالسلاح والطعام، فاستعانت خزاعة برسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فنزلت هذه الآية، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعين حلفاءه كما سبق . وفي البخاريّ عن زيد بن وهب قال : كنا عند حُذيفة فقال ما بقي من أصحاب هــذه الآية — يعني « فقاتِلوا أئمة الكفرِ إنهم لا أيمان لهم » — إلا ثلاثة ، ولا بقي من المنافقين إلا أربعة . فقال أعرابيّ : إنكم أصحابَ محمد تخبرون أخبارا لا ندري ما هي! تزعمون ألّا منافق إلا أربعة، فما بال هؤلاء الذين يبقرون بيوتنا ويسرقون أعلاقنا[٢] . قال : أولئك الفسّاق . أجل ، لم يبق منهم إلا أربعة ؛ أحدهم شيخ كبير لو شرب المــاء البارد لمــا وجد برده[٣] .

---

(١) قال الزمخشري في كشافه : « فإن قلت كيف لفظ أئمة ؟ قلت : همزة بعدها همزة بين بين ؛ أي بين مخرج الهمزة والياء، وتحقيق الهمزتين قراءة مشهورة وإن لم تكن مقبولة عند البصريين . وأما التصريح بالياء فليس بقراءة، ولا يجوز أن تكون قراءة ، ومن صرح بها فهو لاحن محرّف » .

وعقّب على هــذا أبو حيان في البحر بقوله : « وذلك دأبه في تلحين المقرئين، وكيف يكون ذلك لحنا وقد قرأ به رأس البصريين النحاة أبو عمرو بن العلاء، وقارئ مكة ابن كثير، وقارئ مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم نافع» . وقال الألوسي في روح المعــاني : « ... وقرأ نافع وابن كثــير وأبو عمرو (أئمة) بهمزتين ثانيتهما بين بين ؛ أي بين مخرج الهمزة والياء، والألف بينهما . والكوفيون وابن ذكوان عن ابن عامر بتحقيقهما من غير إدخال ألف، وهشــام كذلك إلا أنه أدخل بينهما الألف . هذا هو المشهور عن القراء السبعة ... » .

(٢) الأعلاق : نفائس الأموال .   (٣) قال القسطلاني : « لذهاب شهوته وفساد معــدته بسبب عقوبة الله له في الدنيا، فلا يفرق بين الأشياء » .

قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ أى عن كفرهم و باطلهم وأذيتهم للسلمين . وذلك يقتضى أن يكون الغرض من قتالهم دفع ضررهم لينتهوا عن مقاتلتنا و يدخلوا فى ديننا .

قوله تعـالى : أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَـانَهُمْ ﴾ تو بيخ وفيه معنى التحضيض . نزلت فى كفار مكة كما ذكرنا آنفا . ﴿ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ ﴾ أى كان منهم سبب الخروج ، فأضيف الإخراج إليهم . وقيل : أخرجوا الرسول عليه السلام من المدينة لقتال أهل مكة للنكث الذى كان منهم ؛ عن الحسن . ﴿ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ ﴾ بالقتال . ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أى نقضوا العهد وأعانوا بنو بكر على خزاعة . وقيل : بدءوكم بالقتال يوم بدر ؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم خرج للعير ولمـا أحرزوا عيرهم كان يمكنهم الانصراف ، فأبَوْا إلّا الوصـول إلى بدر وشُرْبَ الخمر بهـا ؛ كما تقدّم . ﴿ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ ﴾ أى تخافوا عقابه فى ترك قتالهم ، من أن تخافوا أن ينالكم فى قتالهم مكروه . وقيـل : إخراجهم الرسـول منعُهم إيّاه من الحج والعُمْرة والطّواف ، وهـو ابتداؤهم . والله أعلم .

قوله تعـالى : قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَـآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ ﴾ أمْرٌ . ﴿ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ ﴾ جوابه . وهـو جزم بمعنى المجـازاة . والتقـدير : إن تقاتلوهم يعـذبهم الله بأيديكم و يخزهم و ينصركم عليهم ويَشْفِ صـدور قوم مؤمنين . ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ دليل على أن غيظهم كان قد اشتدّ . وقال مجاهـد :

يعني خزاعة حلفاءَ رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكلّه عطف ، ويجوز فيه كله الرفع على القطع من الأوّل . ويجوز النصب على إضمار (أن) وهو الصرف عند الكوفيين ؛ كما قال :

فإن يَهْلِك أبو قابوس يَهلِكْ * ربيعُ الناس والشهرُ الحرامُ
ونأخذ بعده بِذِناب عيش * أَجَبِّ الظهر ليس له سَنام (١)

وإن شئت رفعت (ونأخذ) وإن شئت نصبته . والمراد بقوله : ﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ بنو خزاعة ؛ على ما ذكرنا عن مجاهد . فإن قريشا أعانت بني بكر عليهم ، وكانت خزاعة حلفاء النبيّ صلى الله عليه وسلم . فأنشد رجل من بني بكر هجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له بعض خزاعة : لئن أعدته لأكسرنّ فمك ؛ فأعاده فكسرفاه وثار بينهم قتال ؛ فقتلوا من الخزاعيّين أقواما ، فخرج عمرو بن سالم الخزاعيّ في نفر إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وأخبره به ، فدخل منزل ميمونة وقال : "اسكبوا إليّ ماء" فجعل يغتسل وهو يقول : "لا نُصرتُ إن لم أَنْصر بني كعب (٢)" . ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتجهّز والخروج إلى مكة فكان الفتح .

قوله تعالى : ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ القراءة بالرفع على الاستئناف ؛ لأنه ليس من جنس الأوّل . ولهذا لم يقل «ويَتُبْ» بالجزم ؛ لأن القتال غير موجب لهم التوبة من الله جل وعز . وهو موجب لهم العذاب والخزى ، وشفاء صدور المؤمنين وذهاب غيظ قلوبهم . ونظيره « فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ » تمّ الكلام . ثم قال : « وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ (٣) » . والذين تاب الله عليهم مثل أبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسليم بن أبي عمرو ؛ فإنهم أسلموا . وقرأ ابن أبي إسحاق «ويتوبَ» بالنصب . وكذا رُوى عن عيسى الثّقفي والأعرج ، وعليه فتكون التوبة داخلة في جواب الشرط ؛ لأن المعنى : إن تقاتلوهم يعذبهم الله .

---

(١) الذِناب (بكسر الذال) : عقب كل شيء ومؤخره . والأجب : الجمل المقطوع السنام . والبيتان للنابغة الذبياني . وصف مرض النعمان بن المنذر ، وأنه إن هلك صار الناس بعده في أسوأ حال وأضيق عيش وتمسكوا منه بمثل ذنب بعير أجب . وفي البيت شاهد آخر . راجع خزانة الأدب للبغدادي في الشاهد السادس والخمسين بعد السبعمائة . وشواهد سيبويه ج ١ ص ١٠٠ طبع بولاق . (٢) بنو كعب في خزاعة وهم قوم عمرو . (٣) آية ٢٤ سورة الشورى .

وكذلك ما عطف عليـه . ثم قال : « ويتوب الله » أى إن تقاتلوهم . فجمع بين تعـذيبهم بأيديكم وشـفاء صدوركم وإذهاب غيظ قلوبكم والتوبة عليكم . والرفع أحسن؛ لأن التوبة لا يكون سببها القتال؛ إذ قد توجد بغير قتال لمن شاء الله أن يتوب عليه فى كل حال .

قوله تعـالى : أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦)

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ خروجٌ من شىء إلى شىء . ﴿ أَنْ تُتْرَكُوا ﴾ فى موضـع المفعولين على قول سيبويه . وعند المبرّد أنه قد حذف الثانى . ومعنى الكلام : أم حسبتم أن تتركوا من غير أن تُبْتَلوا بمـا يظهر به المؤمن والمنافق الظهور الذى يستحق به الثواب والعقاب . وقد تقدّم هـذا المعنى فى غير موضع . ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمَ ﴾ جزم بلمّـا وإن كانت ما زائدة ؛ فإنها تكون عنـد سيبويه جوابا لقولك : قد فعل؛ كما تقدّم[1] . وكسرت الميم لالتقاء الساكنين . ﴿ وَلِيجَةً ﴾ بطانة ومداخلة ؛ من الولوج وهو الدخول؛ ومنه سُمِّىَ الكِنَاسُ الذى تلج فيـه الوحوش تَوْلَجاً . ولج يَلِج وُلُوجا إذا دخل . والمعنى : دخيلةَ مودّةٍ من دون الله ورسوله . وقال أبو عبيدة : كل شىء أدخلته فى شىء ليس منه فهو وَلِيجة ، والرجل يكون فى القوم وليس منهم وَلِيجة . وقال ابن زيد : الوليجة الدخيلة ، والوُلَجَاء الدُّخلاء ؛ فوَلِيجة الرجل من يختص بدُخْلَةِ أمره دون الناس . تقول : هو وليجتى وهم وليجتى؛ الواحد والجمع فيه سواء . قال أبَان بن تَغْلِب رحمه الله :

فبئس الوليجة للهاربيـن * والمعتديـن وأهل الرِّيَب

وقيل : وليجة بطانة؛ والمعنى واحد؛ نظيره « لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ »[2] . وقال الفرّاء : وليجة بطانةً من المشركين يتخذونهم ويُفشون إليهم أسرارهم ويُعلمونهم أمورهم .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٢٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ١١٨ سورة آل عمران .

قوله تعـالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ ﴾ الجمـلة من «أن يعمروا» فى موضع رفع آسم كان . « شاهِدِين » على الحال . واختلف العلماء فى تأويل هـذه الآية ؛ فقيل : أراد ليس لهم الحج بعـد ما نُودى فيهم بالمنع عن المسجد الحرام ، وكانت أمور البيت كالسِّدانة والسِّقاية والرِّفادة إلى المشركين ؛ فبيّن أنهم ليسوا أهلا لذلك ، بل أهله المؤمنون . وقيل : إن العباس لمـا أسر وعُيِّر بالكفر وقطيعة الرحم قال : تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا . فقال علىّ : ألكم محاسن ؟ قال : نعم ، إنا لنَعْمُر المسجد الحرام ، ونَحْجُب الكعبة ، ونَسْقِي الحاج ، ونَفُكّ العانِي . فنزلت هـذه الآية ردًّا عليـه . فيجب إذًا على المسلمين تولّى أحكام المساجد ومنع المشركين من دخولها . وقراءة العامة « يَعْمُر » بفتح الياء وضم الميم ؛ من عَمَر يَعْمُر . وقرأ ابن السَّمَيْقَع بضم الياء وكسر الميم ؛ أى يجعلوه عامرا أو يعينوا على عمارته . وقرئ « مسجد الله » على التوحيد ؛ أى المسجد الحرام . وهى قراءة ابن عباس وسعيد بن جُبير وعطاء بن أبى رباح ومجاهد وابن كثير وأبى عمـرو وابن مُحَيْصن ويعقوب . والبـاقون « مساجد » على التعميم . وهو اختيار أبى عبيد ؛ لأنه أعم والخاص يدخل تحت العام . وقد يحتمل أن يراد بقراءة الجمع المسجد الحرام خاصّة . وهذا جائز فيما كان من أسماء الجنس ؛ كما يقال : فلان يركب الخيل وإن لم يركب إلا فرسا . والقراءة «مساجد» أصوب ؛ لأنه يحتمل المعنيين . وقد أجمعوا على قراءة قوله : « إنمـا يعمر مساجِد اللهِ » على الجمع ؛ قاله النحاس . وقال الحسن : إنمـا قال مساجد وهو المسجد الحرام ؛ لأنه قِبلة المساجد كلّها وإمامُها

قوله تعـالى : ﴿ شَاهِدِينَ ﴾ قيل : أراد وهم شاهدون فلما طرح (وهم) نصب . قال ابن عباس : شهادتهم على أنفسهم بالكفر سجودُهم لأصنامهم ، وإقرارهم أنها مخلوقة . وقال

السُّدِّى : شهادتهم بالكفر هو أن النّصرانىّ تقول له مادينك ؟ فيقول نصرانىّ ، واليهودىّ فيقول يهودى والصّـابئ فيقول صابئ . ويقال للشرك ما دينـك فيقول مشرك . ﴿ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ تقدّم معناه .

قوله تعـالى : إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُولَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ ﴾ دليل على أن الشهادة لعُمّار المساجد بالإيمان صحيحة ؛ لأن الله سبحانه ربطه بها وأخبر عنه بملازمتها . وقد قال بعض السلف : إذا رأيتم الرجل يعمر المسـجد فحسّنوا به الظن . وروى الترمذىّ عن أبى سـعيد الخُدْرِىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان قال الله تعالى : « إنمـا يَعْمُرُ مساجدَ اللهِ من آمن بالله واليوم الآخر » " . فى رواية : "يتعاهد المسجد" . قال : حديث حسن غريب . قال ابن العربىّ : وهذا فى ظاهر الصلاح ليس فى مقاطع الشهادات؛ فإن الشهادات لهـا أحوال عند العارفين بهـا ؛ فإن منهم الذكىّ الفَطِن المحصل لمـا يعلم اعتقادا وإخبارا ، ومنهم المغفّل ، وكل واحد ينزّل على منزلته ويقدّر على صفته .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ ﴾ إن قيل : ما من مؤمن إلا وقد خشِىَ غيرَ الله ، وما زال المؤمنون والأنبيـاء يخشون الأعداء من غيرهم . قيـل له : المعنى ولم يخش إلا الله مما يعبد ؛ فإن المشركين كانوا يعبدون الأوثان ويخشَونها ويرجونها . جواب ثان — أى لم يخف فى باب الدين إلا الله .

الثالثـــة — فإن قيل : فقد أثبت الإيمان فى الآية لمن عمر المساجد بالصلاة فيها ، وتنظيفها وإصلاح ما وَهَى منها ، وآمن بالله . ولم يذكر الإيمـان بالرسول فيها ولا الإيمان لمن لم يؤمن

بالرسول . قيل له : دلّ على الرسول ما ذُكر من إقامة الصلاة وغيرها لأنه مما جاء به؛ فإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة إنمـا يصح من المؤمن بالرسول ، فلهذا لم يُفرده بالذكر . و « عسى » من الله واجبة؛ عن ابن عباس وغيره . وقيــل : عسى بمعنى خليق؛ أى فخليق ﴿ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ .

قوله تعـالى : أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَـارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَـٰهَدَ فِى سَـبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنـدَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾

فيـــه مسألتـان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ﴾ التقدير فى العربية : أجعلتم أصحاب سقاية الحاج ، أو أهل سقاية الحاج، مثلَ من آمن بالله وجاهد فى سبيله . ويصح أن يقدّر الحذف فى « من آمن » أى أجعلتم عمل سقى الحاج كعمل من آمن . وقيل : التقدير كإيمان من آمن . والسِّـقاية مصدر كالسِّعاية والحِماية . فجعل الاسم بموضـع المصدر إذ علم معناه؛ مثل إنمـا السخاء حاتم، و إنمـا الشِّعر زُهير . وعمارة المسجد الحرام مثل «واسألِ القَرْيَةَ» . وقرأ أبو وَجْزة[1] « أجعلتم سُقاةَ الحاج وعَمَرة المسجدِ الحرامِ » . سُقاة جمع ساقٍ والأصل سُقَيَة على فُعَلَةٍ ؛ كذا يجمع المعتلّ من هذا، نحو قاض وقُضاة وناسٍ ونُسَاة . فإن لم يكن معتلاّ جمع على فَعَلَة نحو ناسئ ونَسَأة، للذين كانوا ينسئون الشهور . وكذا قرأ ابن الزبير وسعيد بن جبير « سُقاة، وعَمَرة » ، إلا أن ابن جُبير نصب « المسجد » على إرادة التنوين فى « عَمَرة » . وقال الضحاك : سُقاية بضم السين، وهى لغة . والحاج اسم جنس الحُجّاج . وعمارة المسجد الحرام: معاهدته والقيام بمصالحه . وظاهر هذه الآية أنها مبطلة قول من افتخر من المشركين بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام؛ كما ذكره السُّدّى . قال : افتخر عباس بالسقاية، وشيبة بالعمارة، وعلىٌّ بالإسلام والجهاد ؛ فصدّق الله علياً وكذبهما، وأخبر أن العمارة لا تكون بالكفر، و إنما

(١) فى نسخ الأصل : « ابن أبى وجزة » وهو تحريف .

تكون بالإيمان والعبادة وأداء الطاعة . وهذا بيّن لا غُبار عليه . ويقال : إن المشركين سألوا اليهود وقالوا : نحن سُقاة الحاج وعمّار المسجد الحرام، أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه ؟ فقالت لهم اليهود عنادا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنتم أفضل . وقد اعترض هنا إشكال، وهو ما جاء في صحيح مسلم عن النُّعمان بن بَشير قال : كنت عند مِنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل : ما أبالي ألاّ أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج . وقال آخر : ما أبالي ألّا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام . وقال آخر : الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم . فزجرهم عمر وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو يوم الجمعة — ولكن إذا صُلّيت الجمعة دخلتُ واستفتيتهُ فيما اختلفتم فيه . فأنزل الله عز وجل «أجعلتم سِقاية الحاج وعِمارة المسجِدِ الحرامِ كمن آمن بِاللهِ واليومِ الآخِرِ» إلى آخر الآية . وهذا المساق يقتضي أنها إنما نزلت عند اختلاف المسلمين في الأفضل من هذه الأعمال . وحينئذ لا يليق أن يقال لهم في آخر الآية : « واللهُ لا يَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمين» فتعين الإشكال . وإزالته بأن يقال : إن بعض الرواة تسامح في قوله، فأنزل الله الآية . وإنما قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم الآية على عمر حين سأله فظن الراوي أنها نزلت حينئذ . واستدلّ بها النبيّ صلى الله عليه وسلم على أن الجهاد أفضل مما قال أولئك الذين سمعهم عمر، فاستفتى لهم فتلا عليه ما قد كان أنزل عليه، لا أنها نزلت في هؤلاء . والله أعلم . فإن قيل : فعلى هذا يجوز الاستدلال على المسلمين بما أنزل في الكافرين، ومعلوم أن أحكامهم مختلفة . قيل له : لا يُستبعد أن يُنتزع مما أنزل الله في المشركين أحكام تليق بالمسلمين . وقال عمر : إنا لو شئنا لاتخذنا سلائق وشواء وتُوضع صحفة وتُرفع أخرى، ولكنا سمعنا قول الله تعالى : « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا » (١) . وهذه الآية نص في الكفار، ومع ذلك ففهم منها عمرُ الزجر عما يناسب أحوالهم بعض المناسبة، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة . فيمكن أن تكون هذه الآية من هذا النوع . وهذا نفيس وبه يزول الاشكال ويرتفع الإبهام، والله أعلم .

---

(١) آية ٢٠ سورة الأحقاف .

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ في موضع رفع بالابتداء . وخبره ﴿ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ﴾ . و « درجةً » نصب على البيان ؛ أي من الذين افتخروا بالسّقي والعمارة . وليس للكافرين درجة عند الله حتى يقال : المؤمن أعظم درجة . والمراد أنهم قدّروا لأنفسهم الدرجة بالعمارة والسّقي ؛ فخاطبهم على ما قدّروه في أنفسهم وإن كان التقدير خطأ ؛ كقوله تعالى : « أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا »[(١)] . وقيل . « أعظم درجة » من كل ذى درجة ؛ أي لهم المزية والمرتبة العلية . ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ بذلك .

قوله تعـالى : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أي يعلمهم في الدنيا ما لهم في الآخرة من الثواب الجزيل والنعيم المقيم . والنعيم : لين العيش ورغده . ﴿ خَالِدِينَ ﴾ نصب على الحال . والخلود الإقامة . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أي أعدّ لهم في دار كرامته ذلك الثواب .

قوله تعـالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوٓا ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

ظاهر هـذه الآية أنها خطاب لجميع المؤمنين كافّةً ، وهي باقيـة الحكم إلى يوم القيامة في قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين . وروَت فرقة أن هذه الآية إنمـا نزلت في الحض على الهجرة ورفض بلاد الكفرة . فالمخاطبة على هذا إنما هي للمؤمنين الذين كانوا بمكة وغيرها

(١) آية ٢٤ سورة الفرقان .

من بلاد العرب؛ خُوطبوا بألا يوالوا الآباء والإخوة فيكونوا لهم تبعا فى سكنى بلاد الكفر . ﴿ إن ٱسْتَحَبُّوا ﴾ أى أحبُّوا؛ كما يقال: استجاب بمعنى أجاب . أى لا تطيعوهم ولا تخصوهم. وخصّ الله سبحانه الآباء والإخوة إذ لا قرابة أقرب منها . فنفى الموالاة بينهم كما نفاها بين الناس بقوله تعالى : « يأيُّها الذين آمنوا لا تَتّخِذُوا اليهودَ والنَّصارَى أولياءَ »(١) ليبيّن أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان . وفى مثله تنشد الصوفية :

يقولون لى دار الأحبة قد دنتْ * وأنت كئيب إن ذا لعجيب

فقلت وما تغنى ديار قريبة * إذا لم يكن بين القلوب قريب

فكم من بعيد الدار نال مراده * وآخر جار الجنْب مات كئيب

ولم يذكر الأبناء فى هذه الآية ؛ إذ الأغلب من البشر أن الأبناء هم التَّبع للآباء . والإحسان والهبة مستثناة من الولاية. قالت أسماء : يارسول الله، إن أُمّى قدمت على راغبة وهى مشركة أفأصلها ؟ قال : " صِلِى أُمَّك " خرّجه البخارى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ قال ابن عباس : هو مشرك مثلهم ؛ لأن مَن رضى بالشرك فهو مشرك .

قوله تعالى : قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾

لما أمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة من مكة الى المدينة جعل الرجل يقول لأبيه والأبُ لابنه والأخُ لأخيه والرجل لزوجته : إنا قد أُمِرنا بالهجرة ؛ فمنهم من سارع

(١) آية ٥١ سورة المائدة .

لذلك، ومنهم من أبى أن يهاجر، فيقول : والله لئن لم تخرجوا إلى دار الهجرة لا أنفعكم ولا أنفق عليكم شيئا أبدا. ومنهم من تتعلّق به آمرأته وولده ويقولون له : أنشدك بالله ألّا تخرج فنضيع بعدك؛ فمنهم من يرق فيدَع الهجرة ويقيم معهم؛ فنزلت « يأيّها الذين آمنوا لا تتّخذوا آباءكم وإخوانكم أولياءَ إن استحبّوا الكفرَ على الإيمانِ » . يقول : [إن استحبوا] الإقامة على الكفر بمكة على الإيمان بالله والهجرة إلى المدينة . « ومَنْ يتولّهم منكم » بعد نزول الآية « فأولئك هم الظالمون » . ثم نزل فى الذين تخلّفوا ولم يهاجروا : ﴿ قُلْ إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ﴾ وهى الجماعة التى ترجع إلى عَقْد واحد كعقد العشرة فما زاد؛ ومنه المعاشرة وهى الاجتماع على الشيء . ﴿ وأموالٌ اقترفتموها ﴾ يقول : اكتسبتموها بمكة . وأصل الاقتراف اقتطاع الشيء من مكانه إلى غيره . ﴿ وتجارةٌ تخشونَ كسادَها ﴾ قال ابن المبارك : هى البنات والأخوات إذا كسدن فى البيت لا يجدن لهن خاطبا . قال الشاعر :

كسَدْنَ من الفقر فى قومهنّ * وقد زادهنّ مقامى كسودا

﴿ ومساكنُ ترضَونها ﴾ يقول : ومنازل تعجبكم الإقامة فيها . ﴿ أَحَبَّ إليكُمْ ﴾ من أن تهاجروا إلى الله ورسوله بالمدينة . « وأحبَّ » خبر كان . ويجوز فى غير القرآن رفع «أحب» على الابتداء والخبر، واسم كان مضمر فيها . وأنشد سيبويه :

إذا متّ كان الناسِ صِنفانِ: شامتٌ * وآخرُ مُثنٍ بالذى كنتُ أصنعُ [1]

وأنشد :

هى الشفاء لدائى لو ظفِرتُ بها * وليس منها شفاءُ الداءِ مبذول [2]

وفى الآية دليل على وجوب حبّ الله ورسوله، ولا خلاف فى ذلك بين الأمة ، وأن ذلك مقدّم على كل محبوب. وقد مضى فى «آل عمران» [3] معنى محبة الله تعالى ومحبة رسوله . ﴿ وجهادٍ فى سبيلهِ فتربّصوا ﴾ صيغته صيغة أمرٍ ومعناه التهديد . يقول : انتظروا . ﴿ حتّى يأتِىَ اللهُ

---

(١) البيت للعُجَير السلولى . (٢) البيت لهشام أخى ذى الرمة . (عن كتاب سيبويه) .

(٣) راجع جـ ٤ ص ٥٩ طبعة أولى أو ثانية .

بِأَمْرِهِ ﴾ يعنى بالقتال وفتح مكة ؛ عن مجاهد . الحسن : بعقوبة آجلة أو عاجلة . وفى قوله : « وجِهادٍ فِي سبِيلِهِ » دليلٌ على فضـل الجهاد ، و إيثاره على راحة النفس وعلائقها بالأهل والمـال . وسيأتى فضل الجهاد فى آخر السورة . وقد مضى من أحكام الهجرة فى « النساء »[1] ما فيه كفاية ، والحمد لله . وفى الحديث الصحيح " إن الشيطان قَعَد لابن آدم ثلاثَ مقاعد قعد له فى طريق الإسلام فقال لِمَ تَذَر دينَك ودينَ آبائك فخالَفه وأسلم وقعد له فى طريق الهجرة فقال له أتذر مالَك وأهلك فخالَفه وهاجر ثم قعـد له فى طريق الجهاد فقال له تجاهـد فتُقتل فينْكح أهلك ويُقسم مالك فخالفه وجاهد فحقّ على الله أن يدخله الجنة " . وأخرجه النّسائىّ من حديث سبرة بن أبى فاكه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسـلم يقول : " إن الشيطان..." فذكره . قال البخارىّ : «ابن الفاكه» ولم يذكر فيه اختلافا . وقال ابن أبى عَدِىّ : يقال ابن الفاكه وابن أبى الفاكه . انتهى .

قوله تعـالى : لَقَـدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾

فيه ثمـان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ لمـا بلغ هوازنَ فتحُ مكة جمعهم مالك بن عَوف النّصرىّ من بنى نصر بن مالك ، وكانت الرياسة فى جميع العسكر إليه ،

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٠٨ ، ٣٥٠ طبعه أولى أو ثانية .

وساق مع الكفار أموالهم ومواشيهم ونساءهم وأولادهم، وزعم أن ذلك يحمى به نفوسهم وتشتد في القتال عند ذلك شوكتهم . وكانوا ثمانية آلاف في قول الحسن ومجاهد . وقيل : أربعة آلاف من هوازن وثقيف . وعلى هوازن مالك بن عوف، وعلى ثقيف كنانة بن عبد؛ فنزلوا بأوطاس[1] . وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي عينًا ، فأتاه وأخبره بما شاهد منهم؛ فعزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على قصدهم، واستعار من صفوان ابن أمية بن خلف الجمحي دروعا . قيل : مائة درع . وقيل : أربعمائة درع . واستسلف من ربيعة المخزومي ثلاثين ألفا أو أربعين ألفا؛ فلما قدم قضاه إياها. ثم قال له النبي صلى الله عليه وسلم : " بارك الله لك في أهلك ومالك إنما جزاء السلف الوفاء والحمد " خرّجه ابن ماجه في السنن . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في اثني عشر ألفا من المسلمين ؛ منهم عشرة آلاف صحبوه من المدينة، وألفان من مسلمة الفتح وهم الطلقاء إلى من انضاف إليه من الأعراب ؛ من سليم وبني كلاب وعبس وذبيان . واستعمل على مكة عتّاب بن أسيد . وفي مخرجه هذا رأى جهال الأعراب شجرة خضراء، وكان لهم في الجاهلية شجرة معروفة تسمى ذات أنواط، يخرج إليها الكفار يوما معلوما في السنة يعظمونها؛ فقالوا : يارسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال عليه السلام : " الله أكبر، قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى " اجعل لنا إلٰها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون " لتركبن سنن من قبلكم حذو القذة بالقذة حتى أنهم لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه " . فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى وادي حنين ، وهو من أودية تهامة ، وكانت هوازن قد كمنت في جنبتي الوادي وذلك في غبش الصبح فحملت على المسلمين حملة رجل واحد ، فانهزم جمهور المسلمين ولم يلو[2] أحد على أحد، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت معه أبو بكر وعمر ، ومن أهل بيته علي والعباس وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وابنه جعفر ، وأسامة بن زيد ، وأيمن بن عبيد — وهو أيمن بن أم أيمن قتل يومئذ بحنين — وربيعة

---

(١) أوطاس : واد في ديار هوازن ، فيه كانت وقعة حنين .

(٢) أي لم يلتفت ولم يعطف .

ابن الحارث، والفضل بن عباس ، وقيل فى موضع جعفر بن أبى سفيان : قُثَم بن العباس .
فهؤلاء عشرة رجال؛ ولهذا قال العباس :

نصرْنا رسـولَ الله فى الحرب تسعةً * وقـد فرّ مَن قد فرّ عنه وأقشـعوا (١)

وعاشرُنا لاقَى الحِمـامَ بنفسـه * بما مَسّـه فى الله لا يتـوجّع

وثبتت أمّ سُليم فى جملة من ثبت، مُحْتَزِمةً ممسكة بعيرا لأبى طلحة وفى يدها خَنْجر. ولم ينهزم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحد من هؤلاء، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته الشهباء واسمها دُلْدُل . وفى صحيح مسلم عن أنس قال عباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم أَكُفُّها إرادةَ ألّا تسرع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " أىْ عباسُ نادِ أصحابَ السَّمُرة (٢) " . فقال عباس — وكان رجلا صَيّتا . ويروى من شدّة صوته أنه أُغِير يوما على مكة فنادى واصباحاه! فأسقطت كلُّ حامل سمعت صوته جَنِينَها — : فقلت بأعلى صوتى : أين أصحاب السَّمُرة ؟ قال : فوالله لكأنّ عَطْفتهم حين سمعوا صوتى عَطْفـةُ البقر على أولادها . فقالوا : يالَبَّيْكَ يالبيكَ . قال : فاقتتلوا والكفارَ ... الحديث . وفيه : « قال ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسـلم حَصَياتٍ فرمَى بهنّ وجـوه الكفار » . ثم قال : " انهزَموا وربِّ محمد " . قال : فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى . قال : فوالله ما هـو إلا أن رماهم بحَصَـياته ؛ فما زلت أرى حَدَّهم كَليلا وأمْرَهم مدْبِرا . قال أبو عمر : رَوينا من وجوه عن بعض من أسلم من المشركين ممن شهد حُنينا أنه قال — وقد سئل عن يوم حُنين — : لقينا المسلمين فما لبثنا أن هزمناهم وأتبعناهم حتى انتهينا إلى رجل راكب على بغلة بيضاء، فلما رآنا زجرنا زجْرة وانتهرنا ، وأخذ بكفه حَصًى وترابا فرمَى به وقال : " شاهت الوجوه " . فلم تبق عين إلا دخلها من ذلك ، وما ملكنا أنفسنا أن رجعنا على أعقابنا . وقال سعيد بن جُبير : حدّثنا

(١) فى الأصول : « منهم » والتصويب عن المواهب اللدنية .

(٢) أى أصحاب الشجرة المسماة بالسمرة ، وهى الشجرة التى كانت عندها بيعة الرضوان عام الحديبية .

رجل من المشركين يوم حُنين قال : لما التقينا مع أصحاب رسـول الله صلى الله عليـه وسلم لم يقفوا لنا حَلْب شاة، حتى إذا انتهينا إلى صاحب البغلة الشّهباء — يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم — تلقّانا رجال بيض الوجوه حِسان؛ فقالوا لنا : شاهت الوجوه، ارجعوا؛ فرجعنا وركبوا أكتافنا فكانت إياها . يعنى الملائكة .

قلت : ولا تعارض؛ فانه يحتمل أن يكون شاهت الوجوه من قوله صلى الله عليه وسلم ومن قول الملائكة معًا، ويدلّ على أن الملائكة قاتلت يوم حنين . والله أعلم . وقَتَـل علىّ رضى الله عنه يوم حنين أربعين رجلا بيده . وسَبَى رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة آلاف رأس . وقيل : ستة آلاف واثنى عشرة ألف ناقة سوى ما لا يعلم من الغنائم .

الثانيـــة — قال العلماء فى هذه الغَزاة : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "من قتل قتيلا له عليه بيّنة فله سَلَبه" . وقد مضى فى « الأنفال » بيانه (1) . قال ابن العربىّ : ولهذه النكتة وغيرها أدخل الأحكاميُّون هذه الآيةَ فى الأحكام .

قلت : وفيه أيضا جواز استعارة السلاح وجواز الاستمتاع بما اسْتُعير إذا كان على المعهود مما يستعار له مثله، وجواز استلاف الإمام المـالَ عند الحاجة إلى ذلك وردّه إلى صاحبه . وحديث صَفْوان أصلٌ فى هـذا الباب . وفى هذه الغَزاة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تُوطأ حامل حتى تَضَع، ولا حائل حتى تحيض حيضة . وهو يدلّ على أن السَّبْىَ يقطع العصمة . وقد مضى بيانه فى سورة « النساء » مستوفًى (2) . وفى حديث مالك أن صفوان خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كافر، فشهد حُنينا والطائف وامرأتُه مسلمة . الحديث . قال مالك : ولم يكن ذلك بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أرى أن يُستعان بالمشركين على المشركين إلا أن يكونوا خَدَمًا أو نَواتيّة . وقال أبو حنيفة والشافعىّ والثّورىّ والأوزاعىّ :

---

(1) راجع المسألة الخامسة جـ ٧ ص ٣٦٣ طبعة أولى أو ثانية .

(2) راجع جـ ٥ ص ١٢١ طبعة أولى أو ثانية .

لا بأس بذلك إذا كان حكم الإسلام هو الغالب، وإنما تكره الاستعانة بهم إذا كان حكم الشرك هو الظاهر . وقد مضى القول فى الإسهام لهم فى « الأنفال »(١) .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ « حُنين » وادٍ بين مكة والطائف، وٱنصرف لأنه ٱسم مذكّر، وهى لغة القرآن . ومن العرب من لا يصرفه، يجعله ٱسما للبُقْعة . وأنشد :

نصُروا نبيَّهـم وشدّوا أزره * بحنينَ يومَ تواكُلِ الأبطال(٢)

« ويوم » ظرف، وٱنتصب هنا على معنى : ونصركم يوم حنين . وقال الفرّاء : لم تنصرف « مواطن » لأنه ليس لهـا نظير فى المفرد وليس لهـا جِماع ؛ إلا أن الشاعر ربمـا اضطرّ لجمع . وليس يجوز فى الكلام كما يجوز فى الشعر . وأنشد :

* فهنّ يَعْلُكْنَ حَدائدا تها *

وقال النحاس : رأيت أبا إسحاق يتعجب من هذا قال : أخذ قول الخليل وأخطأ فيه؛ لأن الخليل يقول فيـه : لم ينصرف لأنه جَمْعٌ لا نظير له فى الواحد، ولا يجمع جمع التكسير، وأما بالألف والتاء فلا يمتنع .

الرابعـة — قوله تعـالى : ﴿ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ قيـل : كانوا اثنى عشر ألفـا . وقيل : أحد عشر ألفا وخمسمائة . وقيل : ستة عشر ألفا . فقال بعضهم : لن نُغلب اليوم عن قِلّة . فوُكِلُوا إلى هذه الكلمة؛ فكان ما ذكرناه من الهزيمة فى الابتداء إلى أن تراجعوا، فكان النصر والظفر للسلمين ببركة سـيد المرسلين صـلى الله عليه وسـلم . فبيّن الله عز وجل فى هـذه الآية أن الغلبة إنمـا تكون بنصر الله لا بالكثرة . وقد قال : « وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُمْ مِن بعدِهِ »(٣) .

الخامسـة — قوله تعالى : ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَـا رَحُبَتْ ﴾ أى من الخوف؛ كما قال :

كأن بلاد الله وهى عريضة * على الخـائف المطلوب كِفّة حابِلِ(٤)

(١) راجع المسألة الموفية العشرين ص ١٨ من هذا الجزء . (٢) البيت لحسان بن ثابت .

(٣) آية ١٦٠ سورة آل عمران . (٤) الكفة (بالكسر) : حبالة الصائد . والحابل : الذى ينصب الحبالة .

والرُّحب (بضم الراء) السَّعة . تقول منه : فلان رُحْب الصدر . والرَّحْب (بالفتح) : الواسع . تقول منه : بلد رَحْب ، وأرض رَحْبة . وقد رَحُبت ترحُب رُحبا ورَحابة . وقيل : الباء بمعنى مع ؛ أى مع رحبها . وقيل : بمعنى على ، أى على رحبها . وقيل : المعنى برحبها ؛ فـ « ما » مصدرية .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴾ روى مسلم عن أبى إسحاق قال : جاء رجل إلى البراء فقال : أكنتم ولّيتم يوم حُنين يا أبا عُمارة . فقال : أشهد على نبىّ الله صلى الله عليه وسلم ما ولّى ، ولكنه انطلق أخِفاءُ[1] من الناس ، وحُسَّرٌ إلى هـذا الحىّ من هوازن . وهم قوم رُماة فرمَوْهم برِشْق من نَبل كأنها رِجْل من جراد فانكشفوا ؛ فأقبل القوم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو سفيان يقود به بغلته ، فنزل ودعا واستنصر وهو يقول : " أنا النبىّ لا كَذِب . أنا ابن عبد المطلب . اللّهُمَّ نزّل نصرك " . قال البراء : كنا والله إذا احمرّ البأس نتّقى به ، وإن الشجاع منا للّذى يُحاذِى به ؛ يعنى النبىّ صلى الله عليه وسلم .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى أنزل عليهم ما يسكنهم ويُذهب خوفهم ، حتى اجترءوا على قتال المشركين بعد أن ولوا . ﴿ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ وهم الملائكة ؛ يقوّون المؤمنين بما يلقون فى قلوبهم من الخواطر والتثبيت ، ويُضعفون الكافرين بالتّجبين لهم من حيث لا يرونهم ومن غير قتال ؛ لأن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر . وروى أن رجلا من بنى نصر قال للمؤمنين بعد القتال : أين الخيل البُلْق ، والرجالُ الذين كانوا عليها بيض ، ما كنا فيهم إلا كهيئة الشّامَة ، وما كان قتلنا إلا بأيديهم . أخبروا النبىّ صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : " تلك الملائكة " . ﴿ وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

---

(١) أخفاء : جمع خفيف كطبيب وأطباء . وأراد بهم المتعجلين . والحسر : جمع حاسر ؛ كساجد وسجد . وهو من لا درع له ولا مغفر . أى ليس عليهم سلاح . والرشق (بالكسر) : اسم للسهام التى ترميها الجماعة دفعة واحدة . والرجل (بالكسر) : القطعة . وقوله « احمرّ البأس » أى اشتد الحرب . (راجع شرح النووى على صحيح مسلم كتاب المغازى) .

أى بأسيافكم . ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ أى على من آنهزم فيهديه إلى الإسلام . كمالك بن عوف النّصْرىّ رئيس حُنين ومن أسلم معه من قومه .

الثامنــة — ولمـا قسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم حُنين بالجعرانة ، أتاه وفد هوازن مسلمين راغبين فى العطف عليهم والإحسان إليهـم ، وقالوا : يارسول الله ، إنك خير الناس وأبرّ الناس ، قد أخذت أبناءنا ونساءنا وأموالنا . فقال لهم : " إنى قد كنت آستأنيت بكم وقد وقعت المقاسم وعندى من ترون وإنّ خير القول أصدقُه فاختاروا إما ذراريكم وإما أموالكم " . فقالوا : لا نعدل بالأنساب شيئا . فقام خطيبا وقال : "هؤلاء جاءونا مسلمين وخيرناهم فلم يعدلوا بالأنساب فرضـوا بردّ الذرّية وما كان لى ولبنى عبـد المطلب وبنى هاشم فهو لهم " . وقال المهاجرون والأنصار : أمّا ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وآمتنع الأقرع بن حابس وعُيينة بن حِصْن فى قومهما من أن يردّوا عليهم شيئـا ممـا وقع لهم فى سهامهم . وآمتنع العباس بن مِرْدَاس السُّلَمِى كذلك ، وطمـع أن يساعده قومُه كما ساعد الأقرعَ وعُيينةَ قومُهما . فأبت بنو سُليم وقالوا : بل ما كان لنـا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَنْ ضَنّ منكم بما فى يديه فإنا نعوّضه منه " . فردّ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسـلم نساءهم وأولادهم ، وعوّض من لم تَطِب نفسُه بترك نصيبه أعواضا رضوا بها . وقال قتادة : ذكر لنا أن ظئر النبىّ صلى الله عليه وسلم التى أرضعته من بنى سعد ، أتته يوم حنين فسألته سبايا حنين . فقال صلى الله عليه وسلم : "إنى لا أملك إلا ما يصيبنى منهم ولكـن إيتينى غدًا فاسألينى والناس عندى فإذا أعطيتك حصّتى أعطاك الناس " . فجاءت الغد فبسط لها ثوبه فأقعدها عليه . ثم سألته فأعطاها نصيبه ؛ فلمـا رأى ذلك الناس أعطَوْها أنصباءهم . وكان عدد سَبْى هوازن فى قول سعيد بن المسيِّب ستة آلاف رأس . وقيل : أربعة آلاف . قال أبو عمر : فيهنّ الشّيماء أخت النبىّ صـلى الله عليه وسلم من الرّضـاعة ، وهى بنت الحـارث بن عبـد العُزّى من بنى سـعد بن بكر [وبنت] حليمة السعدِيّة ؛ فأكرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطاها وأحسن إليها ، ورجعت مسرورة

إلى بلادها بدينها و بما أفاء الله عليها . قال آبن عباس : رأى رسول الله صلى الله عليـه وسلم يوم أوطاس آمرأة تَعْدُو وتصيح ولا تستقر، فسأل عنها فقيل : فقدت بُنَيًّا لها . ثم رآها وقد وجدت آبنها وهى تقبّله وتدنيه، فدعاها وقال لأصحابه : " أطارحة هـذه ولدها فى النار" ؟ قالوا لا . قال : " لِمَ " ؟ قالوا : لشفقتها . قال : " الله أرحم بكم منها " . وخرّجه مسلم بمعناه، والحمد لله .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨)

فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ ابتداء وخبر . واختلف العلماء فى معنى وصف المشرك بالنّجس ؛ فقال قَتادة ومَعْمر بن راشد وغيرهما : لأنه جُنُب ؛ إذ غسله من الجنابة ليس بغسـل . وقال ابن عباس وغيره : بل معنى الشرك هو الذى نجسـه . قال الحسن البصرىّ : من صافح مشركا فليتوضأ . والمـذهب كله على إيجاب الغسل على الكافر إذا أسـلم ؛ الا آبن عبـد الحكم فإنه قال : ليس بواجب ؛ لأن الإسلام يهدم ما كان قبله . و بوجوب الغسل عليه قال أبو ثور وأحمد . وأسقطه الشافعىّ وقال : أحبّ إلىّ أن يغتسل . ونحوه لآبن القاسم . ولمـالك قول : إنه لا يعرف الغسل؛ رواه عنه ابن وهب وابن أبى أُوَيس . وحديث ثُمـامة وقيس بن عاصم يردّ هذه الأقوال . رواهما أبو حاتم البستىّ فى صحيح مسنده . وأن النبىّ صلى الله عليه وسلم مرّ بثمامة يوما فأسلم، فبعث به إلى حائط(١) أبى طلحة فأمره أن يغتسل، فاغتسل وصـلّى ركعتين . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد حَسُن إسلامُ صاحبكم " وأخرجه مسلم بمعناه . وفيه : أن ثمامة

(١) الحائط : البستان .

لما منّ عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم انطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل. وأمر قيس ابن عاصم أن يغتسل بماء وسدر . فإن كان إسلامه قُبيل احتلامه فغسله مستحب . ومتى أسلم بعد بلوغه لزمه أن ينوى بغسله الجنابة . هذا قول علمائنا، وهو تحصيل المذهب . وقد أجاز ابن القاسم للكافر أن يغتسل قبل إظهاره للشهادة بلسانه، إذا اعتقد الإسلام بقلبه؛ وهو قول ضعيف فى النظر مخالف للاثر. وذلك أن أحدا لا يكون بالنيّة مسلما دون القول. هذا قول جماعة أهل السنة فى الإيمان : إنه قول باللسان وتصديق بالقلب، ويزكو بالعمل. قال الله تعالى : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ »[1] .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ « فلا يقربوا » نهى؛ ولذلك حذفت منه النون . «المسجد الحرام» هذا اللفظ يطلق على جميع الحرم، وهو مذهب عطاء؛ فإذًا يحرُم تمكين المشرك من دخول الحَرَم أجمع. فإذا جاءنا رسول منهم خرج الإمام إلى الحل ليسمع ما يقول. ولو دخل مشرك الحَرَم مستورا ومات نُبش قبره وأخرجت عظامه. فليس لهم الاستيطان ولا الاجتياز. وأما جزيرة العرب، وهى مكة والمدينة واليمامة واليمن ومخالِيفها[2]؛ فقال مالك : يخرج من هذه المواضع كلّ من كان على غير الإسلام، ولا يمنعون من التردد بها مسافرين . وكذلك قال الشافعيّ رحمه الله؛ غير أنه استثنى من ذلك اليمنَ . ويُضرب لهم أجل ثلاثة أيام كما ضَربه لهم عمر رضى الله عنه حين أجلاهم . ولا يدفنون فيها ويلجئون إلى الحل.

الثالثــة — واختلف العلماء فى دخول الكفار المساجد والمسجد الحرام على خمسة أقوال؛ فقال أهل المدينة : الآية عامّة فى سائر المشركين وسائر المساجد . وبذلك كتب عمر ابن عبد العزيز الى عُمّاله ونزع فى كتابه بهذه الاية . ويؤيّد ذلك قوله تعالى : « فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ »[3]. ودخول الكفار فيها مناقض لترفيعها . وفى صحيح مسلم وغيره : أن هذه المساجد لا تصلح لشىء من البول والقذر . الحديث . والكافر لا يخلو عن

(١) آية ١٠ سورة فاطر .
(٢) مخاليف جمع مخلاف، وهى قرى اليمن .
(٣) آية ٣٦ سورة النور .

ذلك . وقال صلى الله عليه وسلم: " لا أحلّ المسجد لحائض ولا لجُنُب " والكافر جُنُب .
وقوله تعالى : « إنّما المشركون نَجَس » فسمّاه الله تعالى نجسا . فلا يخلو أن يكون نجس العين أو مبعدا من طريق الحكم . وأيّ ذلك كان فمنعه من المسجد واجب؛ لأن العلة وهى النجاسة موجودة فيهم، والحرمة موجودة فى المسجد . يقال : رجل نَجَس، وامرأة نَجَس، ورجلان نَجَس ، وامرأتان نَجَس ، ورجال نَجَس ، ونساء نَجَس ؛ لا يُثَنَّى ولا يُجمع لأنه مصدر . فأما النِّجْس (بكسر النون وجزم الجيم) فلا يقال إلا إذا قيل معه رجْس . فاذا أفرد قيل نَجِس (بفتح النون وكسر الجيم) ونَجُس (بضم الجيم) . وقال الشافعيّ رحمه الله : الآية عامةٌ فى سائر المشركين، خاصّةٌ فى المسجد الحرام، ولا يمنعون من دخول غيره؛ فأباح دخول اليهوديّ والنصرانيّ فى سائر المساجد . قال ابن العربيّ : وهذا جمود منه على الظاهر؛ لأن قوله عز وجل : « إنما المشركون نَجَس» تنبيه على العلة بالشرك والنجاسة . فان قيل : فقد ربط النبيّ صلى الله عليه وسلم ثُمامة فى المسجد وهو مشرك . قيل له : أجاب علماؤنا عن هذا الحديث — وإن كان صحيحا — بأجوبة : أحدها — أنه كان متقدما على نزول الآية .

الثانى — أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان قد علم بإسلامه فلذلك ربطه .

الثالث — أن ذلك قضيّة فى عَيْن فلا ينبغى أن تُدفع بها الأدلة التى ذكرناها؛ لكونها مقيِّدة حكم القاعدة الكلية . وقد يمكن أن يقال : إنما ربطه فى المسجد لينظر حُسْن صلاة المسلمين واجتماعهم عليها، وحسنَ آدابهم فى جلوسهم فى المسجد؛ فيستأنس بذلك ويُسلم؛ وكذلك كان . ويمكن أن يقال : إنهم لم يكن لهم موضع يربطونه فيه إلا فى المسجد ، والله أعلم . وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا يُمنع اليهود والنصارى من دخول المسجد الحرام ولا غيره ، ولا يُمنع دخول المسجد الحرام إلا المشركون وأهل الأوثان . وهذا قول يردّه كل ماذكرناه من الآية وغيرها . قال الكِيَا الطبريّ : ويجوز للذميّ دخول سائر المساجد عند أبى حنيفة من غير حاجة . وقال الشافعيّ : تعتبر الحاجة، ومع الحاجة لا يجوز دخول المسجد الحرام . وقال عطاء بن أبى رَباح : الحَرَم كله قِبلة ومسجد ، فينبغى أن يمنعوا من دخول

الحَرَم؛ لقوله تعالى : «سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ المسجِدِ الحَرَامِ» . وإنما رفع من بيت أمّ هانئ . وقال قتادة : لايقرب المسجد الحرام مشرك؛ إلا أن يكون صاحب جزْية، أو عبدا كافرا لمسلم . وروى إسماعيل بن إسحاق حدثنا يحيى بن عبد الحميد قال حدثنا شُريك عن أشعث عن الحسن عن جابر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لايقرب المسجد مشرك إلا أن يكون عبدا أو أَمَة فيدخله لحاجة" . وبهذا قال جابر بن عبد الله؛ فإنه قال : العموم يمنع المشرك عن قربان المسجد الحرام، وهو مخصوص فى العبد والأمة .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ فيه قولان : أحدهما — أنه سنة تسع التى حجّ فيها أبو بكر . الثانى — سنة عشر؛ قاله قتادة . ابن العربىّ : «وهو الصحيح الذى يعطيه مقتضى اللفظ ، وإن من العجب أن يقال : إنه سنة تسع ، وهو العامُ الذى وقع فيه الأذان . ولو دخل غلامٌ رجلٍ داره يوما فقال له مولاه : لا تدخل هذه الدار بعد يومك ، لم يكن المراد اليوم الذى دخل فيه » .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْـلَةً ﴾ قال عمـرو بن فائد : المعنى وإذ خفتم . وهذه عُجمة، والمعنى بارع بـ « إن » . وكان المسلمون لمـا منعوا المشركين من الموسم، وهم كانوا يجلبون الأطعمة والتجارات ، قذف الشيطان فى قلوبهم الخوف من الفقر وقالوا : من أين نعيش . فوعدهم الله أن يغنيهم من فضله . قال الضحاك : ففتح الله عليهم باب الجـزية من أهـل الذّمة بقـوله عز وجل : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ» الآية . وقال عِكْرِمة : أغناهم الله بإدرار المطر والنبات وخصب الأرض . فأخصبت تَبَالة وجُرَش ، وحملوا إلى مكة الطعام والوَدَك[(١)] وكثر الخير . وأسـلمت العرب : أهل نجـد وصنعاء وغيرهم ؛ فتمادى حجهم وتَجْرهم . وأغنى الله من فضله بالجهـاد والظّهور على الأمم . والعَيْلة : الفقر . يقال : عال الرجل يعيل إذا افتقر[(٢)] . قال الشاعر :

وما يَدرى الفقير متى غَنـاه * وما يدرى الغنىّ متى يَعيـلُ

(١) الودك : هو دسم اللحم ودهنه الذى يستخرج منه . (٢) هو أحيحة ؛ كما فى اللسان .

وقرأ علقمة وغيره من أصحاب ابن مسعود « عائلة » وهو مصدر؛ كالقائلة من قال يقيل ، وكالعافية . ويحتمل أن يكون نعتا لمحذوف تقديره : حالا عائلة ، ومعناه خصلة شاقة . يقال منه : عالني الأمر يعولني؛ أى شق على واشتد . وحكى الطبرى أنه يقال : عال يعول إذا افتقر .

السادسة — فى هذه الآية دليل على أن تعلق القلب بالأسباب فى الرزق جائز وليس ذلك بمنافٍ للتوكل؛ وإن كان الرزق مقدرا، وأمر الله وقسمه مفعولا، ولكنه علقه بالأسباب حكمةً؛ لتعلم القلوب التى تتعلق بالأسباب من القلوب التى تتوكل على رب الأرباب . وقد تقدم أن السبب لا ينافى التوكل . قال صلى الله عليه وسلم : " لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا "(١) . أخرجه البخارى . فأخبر أن التوكل الحقيقى لا يضاده الغدو والرواح فى طلب الرزق . ابن العربى : « ولكن شيوخ الصوفية قالوا : إنما يغدو ويروح فى الطاعات؛ فهو [السبب](٢) الذى يجلب الرزق » . قالوا : والدليل عليه أمران : أحدهما — قوله تعالى : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ »(٣) . الثانى — قوله تعالى : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ »(٤) . فليس ينزل الرزق من محله وهو السماء، إلا ما يصعد وهو الذكر الطيب والعمل الصالح، وليس بالسعى فى الأرض؛ فإنه ليس فيها رزق . والصحيح ما أحكمته السنة عند فقهاء الظاهر، وهو العمل بالأسباب الدنيوية؛ من الحرث والتجارة فى الأسواق، والعمارة للأموال وغرس الثمار . وقد كانت الصحابة تفعل ذلك والنبى صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم » . قال أبو الحسن بن بطال : أمر الله سبحانه عباده بالإنفاق من طيبات ما كسبوا، إلى غير ذلك من الآى . وقال : « فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ »(٥) . فأحل للمضطر

---

(١) الخمص والمخمصة : الجوع . والبطنة : امتلاء البطن من الطعام . أى تغدو بكرة وهى جياع، وتروح عشاء وهى ممتلئة الأجواف .　(٢) زيادة عن ابن العربى .　(٣) آية ١٣٢ سورة طه .

(٤) آية ١٠ سورة فاطر .　(٥) آية ١٧٣ سورة البقرة .

ما كان حُرِّم عليه عند عدمه للغذاء الذى أمره باكتسابه والاغتذاء به ،ولم يأمره بانتظار طعام يتزل عيلـه من السماء ، ولو ترك السعى فى ترك ما يتغذّى به لكان لنفسه قاتلا . وقـد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلوّى من الجوع ما يجد ما يأكله،ولم يتزل عليه طعام من السماء، وكان يدّخر لأهله قوت سنته حتى فتح الله عليه الفتوح . وقد روى أنس بن مالك أن رجلا أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم ببعير فقال : يا رسول الله ، أعقله وأتوكّل أو أطلقه وأتوكّل ؟ قال : " اعقله وتوكّل " .

قلت : ولا حجـة لهم فى أهل الصُّفَّـة؛ فإنهم كانوا فقراء يقعدون فى المسجد ما يحرثون ولا يتّجرون، ليس لهم كسب ولا مال، إنما هم أضياف الإسلام عند ضيق البلدان، ومع ذلك فانهم كانوا يحتطبون بالنهار ويسوقون المـاء إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقرءون القرآن بالليل ويصلّون . هكذا وصفهم البخارى وغيره . فكانوا يتسبّبون . وكان صـلى الله عليـه وسلم إذا جاءته هدية أكلها معهم، وإن كانت صدقـة خصهم بهـا، فلما كثر الفتح وانتشر الإسلام خرجوا وتأمّروا — كأبى هريرة وغيره — وما قعدوا . ثم قيل : الأسباب التى يُطلب بها الرزق ستة أنواع :

أعلاها كسب نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ قال : " جعل رزقى تحت ظل رمحى وجعل الذلة والصّغار على من خالف أمرى". خرّجه الترمذىّ وصححه . فجعل الله رزق نبيّه صلى الله عليه وسلم فى كسبه لفضله ، وخصّه بأفضل أنواع الكسب؛ وهو أخذ الغلبة والقهر لشرفه .

الثـانى — أكل الرجل من عمل يده ؛ قال صلى الله عليـه وسلم: "إنّ أطيب ما أكل الرجل من عمل يده وإن نبيّ الله داود كان يأكل من عمل يده" خرّجه البخارى . وفى التنزيل « وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ »[(١)] ، ورُوى أن عيسى عليـه السلام كان يأكل من غزل أمه .

الثـالث — التجارة ، وهى كانت عمـل جُلّ الصحابة رضوان الله عليهـم ، وخاصّـة المهاجرين؛ وقد دلّ عليها التنزيل فى غير موضع .

(١) آية ٨٠ سورة الأنبياء .

الرابـــع — الحرث والغرس . وقد بيناه فى سورة « البقرة » [١] .

الخامس — إقراء القرآن وتعليمه والرقية، وقد مضى فى الفاتحة .

السادس — يأخذ بنيّة الأداء إذا ٱحتاج ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه ومن أخذها يريد إتلافها أتلفــه الله " . خرجه البخاريّ . رواه أبو هريرة رضى الله عنه .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿إِنْ شَاءَ﴾ دليل على أن الرزق ليس بالاجتهاد، وإنمـا هو من فضل الله تولّى قسمته بين عباده؛ وذلك بيّن فى قوله تعالى : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا [٢] » الآية .

قوله تعـالى : قَـٰتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾

فيه خمس عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لمـا حرّم الله تعالى على الكفار أن يقربوا المسجد الحرام، وجد المسلمون فى أنفسهم بما قُطع عنهـم من التجارة التى كان المشركون يوافون بها؛ قال الله عز وجل : « وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً » الآية . على ما تقدّم . ثم أحل فى هــذه الآية الجزْية وكانت لم تؤخذ قبل ذلك؛ فجعلها عوضا مما منعهم من موافاة المشركين بتجارتهم . فقال الله عز وجل : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ » الآية . فأمر سبحانه وتعالى بمقاتلة جميع الكفار لإصفاقهم [٣] على هذا الوصف، وخص أهل الكتاب بالذكر إكراما لكتابهم، ولكونهم عالمين بالتوحيد والرسل والشرائع والملل، وخصوصا

(١) راجع ج ٣ ص ١٧ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٣٢ سورة الزخرف .

(٣) أصفق القوم على أمر واحد : أجمعوا عليه .

ذكر محمد صلى الله عليه وسلم وملّته وأمّته . فلما أنكروه تأكدت عليهم الحجـة وعظُمت منهـم الجريمة؛ فنبّه على محلهم ثم جعـل للقتال غاية، وهى إعطاء الجزية بدلًا عن القتـل . وهو الصحيح . قال ابن العربىّ : سمعت أبا الوفاء علىّ بن عقيل فى مجالس النظر يتلوها و يحتجّ بها . فقال : « قاتِلُوا » وذلك أمر بالعقوبة . ثم قال : « الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » وذلك بيان للذنب الذى أوجب العقوبة . وقوله : « وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ » تأكيد للذنب فى جانب الاعتقـاد . ثم قال : ﴿ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ زيادة للذنب فى مخالفـة الأعمال . ثم قال : ﴿ وَلَا يَدِينُـونَ دِينَ الْحَقِّ ﴾ إشارة إلى تأكيـد المعصية بالآنحـراف والمعاندة والأَنَفـة عن الآستسلام . ثم قال : ﴿ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ تأكيد للحجة؛ لأنهم كانوا يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل . ثم قال : ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ ﴾ فبيّن الغـاية التى تمتدّ إليها العقوبة، وعيّن البدل الذى ترتفع به .

الثانيـة — وقـد آختلف العلماء فيمن تؤخذ منه الجزية؛ فقال الشافعىّ رحمه الله : لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب خاصّةً، عربا كانوا أو عجما لهذه الآية؛ فإنهم هم الذين خُصّوا بالذكر فتوجّه الحكم إليهـم دون من سواهم؛ لقوله عز وجل : « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ »[1] . ولم يقل : حتى يعطوا الجزية كما قال فى أهل الكتاب . وقال : وتقبل من المَجُوس بالسُّنّة؛ و به قال أحمد وأبو ثَوْر . وهو مذهب الثَّورىّ وأبى حنيفة وأصحابه . وقال الأَوْزاعىّ : تؤخذ الجزية من كل عابد وَثَن أو نار أو جاحدٍ أو مكذّب . وكذلك مذهب مالك؛ فإنه رأى أن الجزية تؤخذ من جميع أجناس الشرك والجحد، عربيا أو عجميا، تَغْلبيًّا أو قرشيا، كائنا من كان؛ إلا المرتد . وقال ابن القاسم وأشهب وسُحْنون : تؤخذ الجزية من مجوس العـرب والأمم كلّها . وأما عَبَدة الأوثان من العرب فلم يستنّ الله فيهم جزيةً، ولا يبقى على الأرض منهم أحد، و إنما لهم القتال أو الإسلام . ويوجد لابن القاسم : أن الجزية تؤخذ منهم؛ كما يقوله مالك . وذلك فى التفريع لآبن الجَلّاب، وهو احتمال لا نصّ . وقال ابن وهب :

(١) آية ٥ من هذه السورة .

لا تقبـل الجزية من مجوس العرب وتقبـل من غيرهم . قال : لأنه ليس فى العرب مجوسىّ إلا وجميعهم أسلم، فمن وُجد منهم بخلاف الإسلام فهو مرتد، يقتل بكل حال إن لم يسلم، ولا تقبـل منهم جزية . وقال ابن الجَهْـم : تقبل الجزية من كل مَن دان بغـير الإسلام؛ إلا ما أجمِـع عليه من كفار قريش . وذكر فى تعليل ذلك أنه إكرام لهم عن الذلة والصغار؛ لمكانهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال غيره : إنما ذلك لأن جميعهم أسلم يوم فتح مكة . والله اعلم .

الثالثـــة — وأما المجوس فقال ابن المنـذر : لا أعلم خلافا أن الجزية تؤخذ منهـم . وفى الموطّأ : مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذُكر أمرُ المجوس فقال : ما أدرى كيف أصنع فى أمرهم . فقال عبـد الرحمن بن عَوف : أشهدُ لسمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " سُنُّوا بهم سُنّة أهل الكتاب " . قال أبو عمر : يعنى فى الجزية خاصّة . وفى قول رسول الله صـلى الله عليه وسلم : " سُنُّوا بهـم سنة أهل الكتاب " دليل على أنهم ليسوا أهل كتاب . وعلى هـذا جمهور الفقهاء . وقـد رُوى عن الشافعى أنهم كانوا أهـل كتاب فبدّلوا . وأظنه ذهب فى ذلك إلى شيء رُوى عن علىّ بن أبى طالب من وجه فيه ضعف، يدور على أبى سعيد البَقّال؛ ذكره عبد الرزاق وغيره . قال ابن عطية : وروى أنه قد كان بُعث فى المجوس نبىّ اسمه زرادشت . والله أعلم .

الرابعـــة — لم يذكر الله سبحانه وتعالى فى كتابه مقدارا للجزية المأخوذة منهـم . وقد اختلف العلماء فى مقدار الجزية المأخوذة منهم؛ فقال عطاء بن أبى رَباح : لا توقيت فيها، وإنما هو على ما صُولحوا عليه . وكذلك قال يحيى بن آدم وأبو عبيد والطبرىّ؛ إلا أن الطبرى قال : أقلّه دينار وأكثره لا حدّ له . واحتجوا بما رواه أهل الصحيح عن عمرو بن عوف : أن رسول الله صـلى الله عليه وسلم صالح أهل البَحرَين على الجزية . وقال الشافعىّ : دينار على الغنى والفقير من الأحرار البالغين لا يُنقص منـه شىء؛ واحتج بمـا رواه أبو داود وغيره عن معاذ : أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم بعثه إلى اليمن، وأمره أن يأخذ من كل حالم

دينارا فى الجزية . قال الشافعىّ : وهو المبيِّن عن الله تعالى مراده . وهو قول أبى ثَور . قال الشافعىّ : و إن صولحوا على أكثر من دينار جاز ، وإن زادوا وطابت بذلك أنفسهــم قُبل منهم . و إن صولحوا على ضيافــة ثلاثة أيام جاز، إذا كانت الضيافة معلومة فى الخبز والشعير والتّبن والإدام، وذَكر ما على الوسط من ذلك وما على المُوسر، وذكر موضع النزول والكِنّ من البرد والحر . وقال مالك فيما رواه عنه ابن القاسم وأشهب ومحمد بن الحارث ابن زَنْجويه : إنها أربعة دنانير على أهل الذهب وأربعون درهما على أهل الورِق، الغنى والفقير سواء ولو كان مجوسيا . لا يُزاد ولا يُنقص على ما فرض عمر،لا يؤخذ منهم غيره . وقد قيل: إن الضعيف يُخفَّف عنه بقدر ما يراه الإمام. وقال ابن القاسم :لا يُنقص من فرض عمر لعسر ولا يزاد عليه لغِنًى . قال أبو عمر : و يؤخذ من فقرائهم بقدر ما يحتملون ولو درهما . و إلى هذا رجع مالك. وقال أبو حنيفة وأصحابه ومحمــد بن الحسن وأحمد بن حنبل : اثنا عشر، وأربعة وعشرون، وأربعون . قال الثّورىّ : جاء عن عمر بن الخطاب فى ذلك ضرائب مختلفة،فللوالى أن يأخذ بأيها شاء ، إذا كانوا أهل ذِمّة . وأما أهل الصلح فمــا صُولحوا عليه لا غير .

الخامســـة ــ قال علماؤنا رحمة الله عليهــم : والذى دلّ عليه القرآن أن الجزية تؤخذ من الرجال المقاتلين ؛ لأنه تعالى قال : « قَاتِلُوا الذِينَ » إلى قوله ــ « حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ» فيقتضى ذلك وجوبها على من يقاتل . ويدلّ على أنه ليس على العبد وإن كان مقاتلا ؛ لأنه لا مال له ، ولأنه تعالى قال : « حتى يُعْطُوا » . ولا يقال لمن لا يملك حتى يُعطِى . وهذا إجماع من العلماء على أن الجزية إنمــا توضع على جماجم الرجال الأحرار البالغين ، وهم الذين يقاتلون دون النساء والذّرّية والعبيد والمجانين المغلوبين على عقولهم والشيخ الفانى . واختُلف فى الرهبان؛ فروى ابن وهب عن مالك أنها لا تؤخذ منهم . قال مُطَرِّف وابن المــاجِشُون : هذا إذا لم يترهّب بعد فرضها ، فإن فرضت ثم ترهّب لم يسقطها ترهّبه .

السادســـة ــ إذا أعطى أهلُ الجزية الجزية لم يؤخذ منهم شىء من ثمارهم ولا تجارتهم ولا زروعهم ، إلا أن يتّجروا فى بلاد غير بلادهم التى أقِرّوا فيها وصُولحوا عليها . فإن خرجوا

تجارا عن بلادهم التى أقرّوا فيها إلى غيرها أخذ منهم العشر إذا باعوا ونضّ[1] ثمن ذلك بأيديهم، ولو كان ذلك فى السنة مرارا؛ إلا فى حملهم الطعام الحنطةَ والزيتَ إلى المدينة ومكة خاصة، فانه يؤخذ منهم نصف العُشر على ما فعل عمر. ومن أهل المدينة من لا يرى أن يؤخذ من أهل الذمة العشر فى تجارتهم الّامرّة فى الحول، مثل ما يؤخذ من المسلمين. وهو مذهب عمر بن عبد العزيز وجماعةٍ من أئمة الفقهاء. والأوّل قول مالك وأصحابه.

السابعـــة — إذا أدّى أهل الجزية جزيتهم التى ضُربت عليهم أو صُولحوا عليها خُلّىَ بينهم وبين أموالهم كلها، وبين كرومهـم وعصرها ما ستروا خمورهم ولم يُعلنوا بيعها من مسلم، ومُنعوا من إظهار الخمر والخنزير فى أسواق المسلمين؛ فان أظهروا شيئا من ذلك أريقت الخمر عليهم، وأدّب من أظهر الخنزير. وإن أراقها مسلم من غير إظهارها فقد تعدّى، ويجب عليه الضمان. وقيل: لا يجب، ولو غصبها وجب عليـه ردّها. ولا يُعترَض لهم فى أحكامهـم ولا متاجرتهم فيما بينهم بالربا. فإن تحاكموا إلينا فالحاكم مخيّر، إن شاء حكم بينهم بمـا أنزل الله وإن شاء أعرض. وقيل: يحكم بينهم فى المظالم على كل حال، ويؤخذ من قويّهم لضعيفهم؛ لأنه من باب الدفع عنهم. وعلى الامام أن يقاتل عنهم عدّوهم ويستعين بهم فى قتالهم. ولا حظّ لهم فى الفَىْء، وما صولحوا عليه من الكنائس لم يزيدوا عليها، ولم يمنعوا من إصلاح ما وَهَى منها، ولا سبيل لهم إلى إحداث غيرها. ويأخذون من اللباس والهيئة بما يبيّنون به من المسلمين، ويُمنعون من التشبه بأهل الاسلام. ولا بأس باشتراء أولاد العدوّ منهم إذا لم تكن لهم ذِمّة. ومن لَدّ فى أداء جزيته أدّب على لَدَدِه[2] وأخذت منه صاغرا.

الثامنـــة — اختلف العلماء فيما وجبت الجزية عنـه؛ فقال علماء المـالكية: وجبت بدلا عن القتل بسبب الكفر. وقال الشافعىّ: وجبت بدلا عن الدم وسكنى الدار. وفائدة الخلاف أنا إذا قلنا وجبت بدلا عن القتل فأسلم سقطت عنـه الجزية لمـا مضى، ولو أسلم قبل تمام الحول بيوم أو بعده عند مالك. وعند الشافعىّ أنها دَين مستقرّ فى الذمة فلا يسقطه

(١) نض المـال: صار عَيْناً بعد أن كان متاعا.		(٢) اللدد: الخصومة الشديدة.

الإسلام كأجرة الدار . وقال بعض الحنفية بقولنا . وقال بعضهم : إنما وجبت بدلا عن النصر والجهاد . واختاره القـاضى أبو زيد وزعم أنه سرّ الله فى المسألة . وقول مالك أصح؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "ليس على مسلم جزية" . قال سفيان : معناه إذا أسلم الذمىّ بعد ما وجبت الجزية عليه بطلت عنـه . أخرجه الترمذىّ وأبو داود . قال علماؤنا : وعليـه يدل قوله : « حتى يُعْطُوا الجِزيَةَ عن يَدٍ وهم صاغِرون » لأن بالإسلام يزول هذا المعنى . ولا خلاف أنهم إذا أسلموا فلا يؤدّون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون . والشافعىّ لا يأخذ بعد الإسلام على الوجه الذى قاله الله تعالى . وإنما يقول : إن الجزية دَين، وجبت عليه بسبب سابق وهو السكنى أو توقّى شر القتل، فصارت كالديون كلها .

التاســـعة — لو عاهـد الإمام أهل بلد أو حصن ثم نقضوا عهدهم وٱمتنعوا من أداء ما يلزمهم من الجـزية وغيرها، وامتنعوا من حكم الإســلام من غير أن يظلموا، وكان الإمام غير جائر عليهم؛ وجب على المسلمين غَزْوُهم وقتالهم مع إمامهم . فإن قاتلوا وغلِبوا حكم فيهم بالحكم فى دار الحرب سواء . وقد قيل : هم ونساؤهم فَىْء ولا خُمْس فيهم؛ وهو مذهب .

العـاشرة — فإن خرجوا متلصّصين قاطعين الطريق فهم بمنزلة المحاربين المسـلمين إذا لم يمنعوا الجزية . ولو خرجوا متظلّمين نُظِر فى أمرهم ورُدّوا إلى الذمّة وأنصِفوا من ظالمهم، ولا يُسترقّ منهم أحد وهم أحرار . فإن نقض بعضهم دون بعض فمن لم ينقض على عهده، ولا يؤخذ بنقض غيره، وتُعرف إقامتهم على العهد بإنكارهم على الناقضين .

الحـادية عشرة — الجزية وزنهـا فِعلة؛ من جزى يَجْزِى إذا كافأ عما أسـدِى إليه؛ فكأنهـم أعْطَوْها جزاءَ ما مُنِحوا من الأمن؛ وهى كالقعـدة والجلسـة . ومن هـذا المعنى قول الشاعر :

يجزيك أو يُثْنِى عليـك وإن من * أثنى عليك بمـا فعلتَ كمن جَزَى

الثـانية عشرة — روى مسلم عن هشام بن حكيم بن حِزام ومرّ على ناس من الأنباط[1] بالشأم قد أقيموا فى الشمس — فى رواية : وصُبّ على رءوسهم الزيت — فقال : ماشأنهم؟ فقال يحبسون فى الجزية . فقال هشام: أشهدُ لسمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله يعذب الذين يعذبون الناس فى الدنيا " . فى رواية : وأميرهم يومئذ عمير بن سعد على فلسطين ، فدخل عليه فحدّثه فأمر بهم فخلُّوا . قال علماؤنا : أما عقوبتهم إذا امتنعوا من أدائها مع التمكن فجائز، فأما مع تبيّن عجزهم فلا تحلّ عقوبتهم ؛ لأن من عجز عن الجـزية سـقطت عنه . ولا يكلف الأغنياء أداءها عن الفقراء . وروى أبو داود عن صـفوان بن سليم عن عدّة من أبناء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم عن آبائهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : " من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلّفه فوق طاقته أو أخذ شيئا منه بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة " .

الثالثة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ عَن يَدٍ ﴾ قال ابن عباس : يدفعها بنفسه غير مستنيب فيها أحدا . روى أبو البختريّ عن سلمان قال : مذمومين . وروى معمر عن قتادة قال : عن قهر . وقيـل : « عن يد » عن إنعام منكم عليهـم؛ لأنهم إذا أخذت منهم الجزية فقد أنعم عليهم بذلك. عكرمة : يدفعها وهو قائم والآخذ جالس؛ وقاله سعيد بن جبير . ابن العربيّ : وهذا ليس من قوله : « عن يد » وإنمـا هو من قوله : « وهم صاغرون » .

الرابعة عشرة — روى الأئمة عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " اليد العليا خير من اليد السـفلى واليد العليا المنفقة والسفلى السائلة " وروى " واليـد العُليا هى المعطية " . فجعل يد المعطى فى الصدقة عليا، وجعل يد المعطى فى الجزية سفلى . ويد الآخذ عليا؛ ذلك بأنه الرافع الخافض، يرفع من يشاء ويخفض من يشاء، لا إله غيره .

الخـامسة عشرة — عن حبيب بن أبى ثابت قال : جاء رجل إلى ابن عبـاس فقال : إن أرض الخراج يعجز عنهـا أهلها أفأعمّرها وأزرعها وأؤدّى خراجها؟ فقال لا . وجاءه آخر

---

(١) الأنباط : فلاحو العجم .

فقال له ذلك ؛ فقال لا، وتلا قوله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » إلى قوله « وهم صاغرون » أيعمد أحدكم إلى الصَّغار فى عنق أحدهم فينتزعه فيجعله فى عنقه ! وقال كليب بن وائل : قلت لابن عمر اشتريت أرضا ؛ قال : الشراء حسن . قلت : فإنى أعطى عن كل جَريب[1] أرض درهما وقفيزَ طعام . قال : لا تجعل فى عنقك صغارا . وروى مَيمون بن مِهْران عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : ما يسرنى أن لىَ الأرض كلّها بجزية خمسة دراهم أُقِرّ فيها بالصَّغار على نفسى .

قوله تعالى : وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قرأ عاصم والكسائى «عزيرٌ ٱبن الله» بتنوين عزير . والمعنى أن «ٱبنا» على هذا خبر ابتداء عن عزير، و « عزير» ينصرف عجميا كان أو عربيا . وقرأ ابن كَثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر « عزير بن » بترك التنوين لاجتماع الساكنين ؛ ومنه قراءة من قرأ « قل هو الله أحدُ الله الصمد » . قال أبو علىّ : وهو كثير فى الشعر . وأنشد الطبرىّ فى ذلك :

لَتجِدَنِّى بالأمير بَرًّا * وبالقناة مِدْعَسا[2] مِكَرًّا
* إذ غُطَيْفُ السُّلمِىُّ فَرَّا *

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ ﴾ هـذا لفظ خرج على العموم ومعناه الخصوص ؛ لأن ليس كل اليهود قالوا ذلك . وهـذا مثلُ قوله تعالى : « الّذين قَال لهم

(١) الجريب من الأرض : مقدار معلوم الذراع والمساحة . والقفيز : مكيال .
(٢) رجل مدعس (بالسين والصاد) : طعّان .

النّـاس[1] » ولم يقل ذلك كل الناس . وقيل : إن قائل ما حكى عن اليهود سـلّام بن مِشْكم ونعمان بن أبى أوْفَى وشاس بن قيس ومالك بن الصّيف؛قالوه للنبيّ صلى الله عليه وسلم . قال النقاش : لم يبق يهودىّ يقولها، بل انقرضوا؛ فإذا قالها واحد فيتوجّه أن تلزم الجماعة شُنْعةُ المقاله؛ لأجل نباهــة القائل فيهم . وأقوال النبهاء أبدا مشهورة فى الناس يُحتجّ بهـا . فمن ها هنا صح أن تقول الجماعة قول نَبِيهها . والله أعلم . ورُوى أن سبب ذلك القول أن اليهود قتلوا الأنبياء بعــد موسى عليه السلام، فرفع الله عنهم التوراة ومحاها من قلوبهم، فخرج عُزير يسيح فى الأرض؛ فأتاه جبريل فقال : "أين تذهب"؟ قال : أطلب العلم؛ فعلمه التوراة كلها فجاء عزير بالتوراة إلى بنى إسرائيل فعلمهم . وقيل : بل حفّظها الله عُزيرا كرامة منه له؛ فقال لبنى إسرائيل : إن الله قــد حفّظنى التوراة، فجعلوا يدرسونها من عنــده . وكانت التوراة مدفونة، كان دفنها علماؤهم حين أصابهم من الفتن والجلاء والمرض ما أصاب، وقتْل بُخْتَنَصّر إياهم . ثم إن التــوراة المدفونة وُجدت فإذا هى متساوية لمـا كان عُزير يدرس؛ فضلّوا عند ذلك وقالوا : إن هــذا لم يتهيأ لعزير إلا وهو ٱبن الله؛ حكاه الطبرىّ . وظاهر قول النصــارى أن المسيح بن الله، إنمـا أرادوا بنوّة النَّسل، كما قالت العرب فى الملائكة . وكذلك يقتضى قول الضحاك والطبرى وغيرهما . وهذا أشنع الكفر . قال أبو المعالى : أطبقت النصارى على أن المسيح إله وأنه ٱبن إله . قال ابن عطيــة : ويقــال إن بعضهم يعتقدها بنوّة حنو و رحمة . وهذا المعنى أيضا لايحل أن تطلق البنوّة عليه، وهو كفر .

الثالثــة ــ قال ٱبن العربىّ : فى هذا دليل من قول ربّنـا تبارك وتعالى على أن من أخبر عن كفر غيره الذى لا يجوز لأحد أن يبتدئ به لا حرج عليه؛ لأنه إنما ينطق به على معنى الآستعظام له والردّ عليه، ولو شاء ربّنا ما تكلّم به أحد، فإذا مكّن من إطلاق الألسن به فقد أذن بالإخبار عنه، على معنى إنكاره بالقلب واللسان، والرد عليه بالحجة والبرهان .

(١) آية ١٧٣ سورة آل عمران .

الرابعـة — قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ قيل : معناه التأكيد؛ كما قال تعالى : « يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ » (١) وقوله : « وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ » (٢) وقوله : « فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ » (٣) ومثله كثير . وقيل : المعنى أنه لما كان قولٌ ساذَج ليس فيه بيان ولا برهان ، وإنما هو قول بالفَم مجرّد نَفَس دعوَى لا معنى تحته صحيح ؛ لأنهم معترفون بأن الله سبحانه لم يتخذ صاحبة فكيف يزعمون أن له ولدا ؛ فهو كذب وقولٌ لسانيٌّ فقط، بخلاف الأقوال الصحيحة التي تَعْضُدها الأدلة و يقوم عليها البرهان . قال أهل المعاني : إن الله سبحانه لم يذكر قولا مقرونا بذكر الأفواه والألسن إلا وكان قولا زورا، كقوله : « يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ » (٤) و « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا » (٥) و « يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ » (٦) .

الخامسـة — قوله تعالى : ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ « يضاهئون » يشابهون ؛ ومنه قول العرب : آمرأةٌ ضَهْيَاءُ للتي لا تحيض أو التي لا تَثْدَى لها؛ كأنها أشبهت الرجال . وللعلماء في « قول الذين كفروا » ثلاثة أقوال : الأوّل — قولُ عَبَدة الأوثان : اللّات والعُزّى ومَناة الثالثة الأخرى . الثاني — قول الكفرة : الملائكة بنات الله. الثالث — قول أسلافهم . فقلّدوهم في الباطل وآتبعوهم على الكفر؛ كما أخبر عنهم بقوله : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ » (٧) .

السادسـة — اختلف العلماء في «ضهيأ» هل يُمَدّ أم لا ؛ فقال ابن وَلّاد : آمرأة ضَهْيَأ ؛ وهي التي لا تحيض ؛ مهموز غير ممدود . ومنهم من يمدّ وهو سيبويه فيجعلها على فعلاء بالمدّ، والهمزة فيها زائدة؛ لأنهم يقولون نساء ضُهْي ، فيحذفون الهمزة . قال أبو الحسن قال لي

(١) آية ٧٩ سورة البقرة . (٢) آية ٣٨ سورة الأنعام . (٣) آية ١٣ سورة الحاقة .
(٤) آية ١٦٧ سورة آل عمران . (٥) آية ٥ سورة الكهف . (٦) آية ١١ سورة الفتح .
(٧) آية ٢٢ و ٢٣ سورة الزخرف .

النَّجِيرَمِيّ : ضهياة بالمد والهـاء . جمع بين علامتي تأنيث ؛ حكاه عن أبي عمرو الشَّيباني في النوادر . وأنشد :

* ضهياة أو عاقر جمَاد[1] *

ٱبن عطية : من قال «يضاهئون» مأخوذ من قولهم : امرأة ضهياء فقوله خطأ؛ قاله أبوعليّ، لأن الهمزة في « ضاهأ » أصلية، وفي « ضهياء » زائدة كحمراء .

السابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أي لعنهم الله، يعني اليهود والنصارى، لأن الملعون كالمقتول . قال ٱبن جُرَيج : «قاتلهم الله » هو بمعنى التعجب . وقال ٱبن عباس : كل شيء في القرآن قَتْل فهو لعن؛ ومنه قول أَبَان بن تَغْلِب :

قاتلها الله تَلْحاني وقـــد علمَتْ * أنّي لنفسي إفسادي و إصلاحي

وحكى النقاش أن أصل « قاتل الله » الدعاء، ثم كثر في استعمالهم حتى قالوه على التعجب في الخير والشر، وهم لا يريدون الدعاء . وأنشد الأصمعيّ :

ياقاتل الله لَيْـــلَى كيف تعجبني * وأخبر النـاس أني لا أباليهـا

قوله تعـالى : ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

قوله تعـالى : ﴿ ٱتَّخَذُوا أَحْبَـارَهُمْ وَرُهْبَانَهُـمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ والمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ ﴾ الأحبـار جمع حبر، وهو الذي يحسن القول وينظِّمه ويتقنه بحسن البيان عنه . ومنه ثوب محبّر أي جمع الزينة . وقد قيل في واحد الأحبار : حبر بكسر الحاء . والمفسرون على فتحها . وأهل اللغة على كسرها . قال يونس : لم أسمعه إلا بكسر الحاء، والدليل على ذلك أنهم قالوا : حِبر يريدون مداد عالم، ثم كثر الاستعمال حتى قالوا للمـداد حِبر . قال الفرّاء : الكسر والفتح

(١) في الأصول « جناد » بالنون، وهو تحريف . والجماد : الناقة التي لا لبن بها .

لغتان . وقال ابن السِّكيت : الحِبر بالكسر المداد، والحَبر بالفتح العالِم. والرّهبان جمع راهب مأخوذ من الرّهبـة، وهو الذى حمله خوف الله تعـالى على أن يخلص له النية دون الناس، ويجعـل زمانه له وعمله معه وأنسه به .

قوله تعـالى : ﴿ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ قال أهل المعـانى : جعلوا أحبارهم و رُهْبانهـم كالأرباب حيث أطاعوهم فى كل شىء ؛ ومنه قوله تعالى: «قَالَ ٱنْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا»[1] أى كالنار . قال عبد الله بن المبارك :

وهل أفســد الدّينَ إلا الملوكُ * وأحبـارُ ســوء ورُهبـانها

روى الأعمش وسفيان عن حبيب بن أبى ثابت عن أبى البَخْتَرِىّ قال: سئل حذيفة عن قول الله عز وجل : « ٱتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ » هل عبدوهم ؟ فقال لا ، ولكن أحَلّوا لهم الحرام فاسـتحلّوه، وحرّموا عليهم الحلال فحرّموه. و روى الترمذىّ عن عدِىّ بن حاتم قال : أتيت النبىّ صلى الله عليه وسلم و فى عنق صليب من ذهب . فقال : " ماهذا يا عدىّ اِطرح عنك هذا الوثن " وسمعته يقرأ فى سورة براءة « ٱتَّخَذُوا أَحبـارَهم ورُهبانهم أَرْبَابًا مِن دُونِ اللهِ والْمَسِيحَ بنَ مَرْيَمَ » ثم قال : " أما إنهـم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلّوا لهم شيئا استحلّوه وإذا حرّموا عليهم شيئا حرّموه". قال: هذا حديث غريب لا يُعرف إلا من حديث عبد السلام بن حرب . وغُطيف بن أَعْيَن ليس بمعروف فى الحديث .

قوله تعالى : ﴿ وَالْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ ﴾ مضى الكلام فى اشتقاقه فى «آل عمران»[2] . والمسيح : العَرَق يسيل من الجبين . ولقد أحسن بعض المتأخرين فقال :

افرح فسوف تألف الأحزانا * إذا شهدت الحشر والميزانا
وسال من جبينك المسـيح * كأنه جـداول تسـيح

ومضى فى « النساء »[3] معنى إضافته إلى مريم أمّه .

(١) آية ٩٦ سورة الكهف . (٢) راجع جـ ٤ ص ٨٨ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ٦ ص ٢١ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ ﴾ أى دِلالتـه وحججه على توحيده . جعل البراهين بمنزلة النور لمـا فيها من البيان . وقيل : المعنى نور الإسلام؛ أى أن يُخمِدوا دين الله بتكذيبهم . ﴿ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ جمع فُوه على الأصـل ؛ لأن الأصـل فى فَمٍ فَوْهٌ ، مثـل حوض وأحواض . ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ ﴾ يقال : كيف دخلت « إلا » وليس فى الكلام حرف نفى، ولا يجوز ضربت إلا زيدا . فزعم الفراء أن « إلا » إنمـا دخلت لأن فى الكلام طَرَفا من الجَحْد. قال الزجاج: الجحد والتحقيق ليسا بذوى أطراف . وأدوات الجحد : ما، ولا، وإنْ، وليست : وهذه لا أطراف لهـا يُنطق بها، ولو كان الأمر كما أراد لجاز كرهت إلا زيدا ؛ ولكن الجواب أن العرب تحذف مع أَبَى . والتقدير : ويأبى الله كل شىء إلا أن يتم نوره . وقال علىّ بن سليمان : إنمـا جاز هذا فى « أَبَى » لأنها منع أو آمتناع ، فضارعت النفى . قال النحاس : فهذا حسن؛ كما قال الشاعر :

وهل لِىَ أُمٌّ غيرُها إنْ تركتها * أبى الله إلا أن أكون لها آبْنَمَا

قوله تعـالى : هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ ﴾ يريد محمدا صلى الله عليـه وسلم . ﴿ بِالْهُدَى ﴾ أى بالفرقان . ﴿ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ أى بالحجة والبراهين . وقد أظهره على شرائع الدين حتى لا يخفى عليـه شىء منها ؛ عن آبن عباس وغيره . وقيـل : « ليظهره » أى ليظهر الدّين دين الإسلام على كل دين. قال أبو هريرة والضحاك : هذا عند نزول عيسى عليه السلام . وقال السُّدِّى : ذاك عند خروج المهدىّ؛ لايبقى أحد إلا دخل فى الإسـلام وأدّى الجزية . وقيل : المهدىّ هو عيسى فقط، وهو غير صحيح؛ لأن الأخبار الصحاح قد

تواترت على أن المهدىّ من عِترة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلا يجوز حمله على عيسى . والحـديث الذى ورد فى أنه لا مهـدىّ إلا عيسى غير صحيح . قال البَيْهَقِىّ فى كتاب البعث والنشور : لأن راويه محمـد بن خالد الجَنَدِىّ وهو مجهول ، يروى عن أبان بن أبى عيّـاش ــ وهو متروك ــ عن الحسن عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، وهو منقطع . والأحاديث التى قبـله فى التنصيص على خروج المهدِىّ، وفيها بيان كون المهدِىّ من عِترة رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحّ إسنادا .

قلت : قد ذكرنا هـذا وزدناه بيانا فى كتابنا (كتاب التذكرة) وذكرنا أخبـار المهدِىّ مستوفاة والحمد لله . وقيل : أراد « لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ » فى جزيرة العرب، وقد فعل .

قوله تعـالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّـاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُـدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّـةَ وَلَا يُنفِقُونَهَـا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُـم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الاولى ــ قوله تعـالى : ﴿ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ دخلت اللام على يَفعل، ولا تدخل على فَعَل؛ لمضارعة يَفْعل الأسماء . والأحبار علماء اليهود . والرُّهبان مجتهدو النصارى فى العبادة . ﴿ بِالْبَاطِلِ ﴾ قيل : إنهم كانوا يأخذون من اموال أتباعهم ضرائب وفروضا باسم الكنائس والبِيَع وغيرِ ذلك؛ ممـا يوهمونهم أن النفقة فيه من الشرع والتزلّف إلى الله تعالى، وهم خلال ذلك يحجبون تلك الأموال ؛ كالذى ذكره سَلْمـان الفارسىّ عن الراهب الذى استخرج كنزه؛ ذكره ابن إسحاق فى السـير . وقيل : كانوا يأخذون من غَلّاتهم وأموالهم ضرائب باسم حماية الدِّين والقيام بالشرع . وقيل : كانوا يرتشون فى الأحكام؛ كما يفعله اليوم

كثير من الولاة والحُكّام . وقوله : ﴿بِالباطِلِ﴾ يجمع ذلك كله . ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أى يمنعون أهل دينهم عن الدخول فى دين الإسلام، واتباع محمد عليه السلام .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والْفِضَّةَ﴾ الكنز أصله فى اللغة الضم والجمع ، ولا يختص ذلك بالذهب والفضة . ألا ترى قوله عليه السلام : " ألا أخبركم بخير ما يكنز المرءُ المرأة الصالحة " . أى يضمه لنفسه ويجمعه . قال :

ولم تزوّد من جميع الكنز ＊ غير خيوط ورَثِيث بَزّ [(١)]

وقال آخر :

لا دَرّ درّى إن أطعمتُ جائعَهم ＊ قِرْف الحَتِيّ وعندى البُرُّ مكنوز

قرف الحتِيّ هو سَوِيق المُقْل [(٢)] . يقول : إنه نزل بقوم فكان قِراه عندهم سويق المقل، وهو الحَتِيّ ، فلما نزلوا به قال هو : لا دَرّ دَرِّى ... البيت . وخص الذهب والفضة بالذكر لأنه مما لا يُطّلَع عليه ، بخلاف سائر الأموال . قال الطبرى : الكنز كل شيء مجموع بعضه إلى بعض ، فى بطن الأرض كان أو على ظهرها . وسمى الذهب ذهبا لأنه يذهب، والفضة لأنها تنفض فتتفرق ، ومنه قوله تعالى : « لَٱنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ » وقد مضى هذا المعنى فى آل عمران [(٣)] .

الثالثــة — واختلفت الصحابة مَن المراد بهذه الآية ؛ فذهب معاوية إلى أن المراد بها أهل الكتاب ، وإليه ذهب الأَصَمّ ؛ لأن قوله : « والذين يكنزون » مذكور بعد قوله : « إنّ كثيرًا مِن الأحْبارِ والرُّهْبانِ ليأكُلُون أموالَ الناسِ بالباطِلِ » . وقال أبو ذر وغيره : المراد بها أهل الكتاب وغيرهم من المسلمين . وهو الصحيح ؛ لأنه لو أراد أهل الكتاب خاصة لقال : ويكنزون، بغير والذين . فلما قال : « والذين » فقد استأنف معنًى آخر يبيِّن أنه عطف جملة على جملة . فالذين يكنزون كلام مستأنف، وهو رفع على الابتداء. قال السُّدّى : عنى أهل القبلة . فهذه ثلاثة أقوال . وعلى قول الصحابة فيه دليل على أن الكفار عندهم

(١) الرثيث : البالى، والبز : نوع من الثياب .　(٢) المقل ثمر شجر الدوم ينضج ويؤكل .

(٣) راجع جـ ٤ ص ٢٤٩ طبعة أولى أو ثانية .

مخاطبون بفروع الشريعة . روى البخارىّ عن زيد بن وهب قال : مررت بالرَّبَذَة[١] فاذا أنا بأبى ذَرّ فقلت له : ما أنزلك منزلك هـذا ؟ قال : كنت بالشأم فاختلفت أنا ومعاوية فى «الذين يَكْنِزُون الذّهب والفضة ولا يُنفقونها فى سبيل الله » ؛ فقال معاوية : نزلت فى أهل الكتاب . فقلت : نزلت فينا وفيهم ؛ وكان بينى و بينه فى ذلك . فكتب إلى عثمان يشكونى ، فكتب إلىّ عثمان أن أقْدَم المدينة ، فقدمتها فكثر علىّ الناس حتى كأنهم لم يرونى قبل ذلك ؛ فذكرت ذلك لعثمان فقال : إن شئت تنحّيتَ فكنتَ قريبا ؛ فذاك الذى أنزلنى هذا المنزل ، ولو أمّروا علىّ حبشيًّا لسمعت وأطعت .

الرابعة — قال ابن خُوَيْزِمَنْداد : تضمنت هذه الآية زكاة العين ، وهى تجب بأربعة شروط : حرية ، و إسلام ، وحول ، ونصاب سليم من الدين . والنصاب مائتا درهم أو عشرون دينارا . أو يكمّل نصاب أحدهما من الاخر وأخرج ربع العشر من هذا وربع العشر من هذا . و إنما قلنا إن الحرية شرط ؛ فلأن العبد ناقص الملك . و إنما قلنا إن الاسلام شرط ؛ فلأن الزكاة طهرة والكافر لا تلحقه طهرة ، ولأن الله تعالى قال : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » فخوطب بالزكاة من خوطب بالصلاة . و إنما قلنا إن الحول شرط ؛ فلأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " ليس فى مالٍ زكاةٌ حتى يَحُول عليه الحول " . و إنما قلنا إن النصاب شرط ؛ فلأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " ليس فى أقلّ من مائتى درهم زكاة وليس فى أقل من عشرين دينارا زكاة " . ولا يُراعَى كمال النصاب فى أول الحَوْل ، و إنما يراعى عند آخر الحول ؛ لاتفاقهم أن الربح فى حكم الأصل . يدلّ على هـذا أن من كانت معه مائتا درهم فتَجَر فيها فصارت آخر الحول ألفا أنه يؤدّى زكاة الألف ، ولا يستأنف للربح حولا . فاذا كان كذلك لم يختلف حكم الربح ، كان صادرا عن نصاب أو دونه . وكذلك اتفقوا أنه لو كان له أربعون من الغنم ، فتوالدت له رأس الحول ثم ماتت الأمهات إلّا واحدة منها ، وكانت السّخال تتمة النصاب فإن الزكاة تخرج عنها .

---

(١) الربذة : موضع قريب من المدينة .

الخامســـة — وآختلف العلماء فى المـال الذى أُديت زكاتُه هـل يسمى كنزا أم لا؟ فقال قوم نعم . ورواه أبو الضُّحَا عن جعْدة بن هُبيرة عن علىّ رضى الله عنه، قال علىّ : أربعة آلاف فما دونها نفقة، وما كثر فهو كنز وإن أُدِّيت زكاته . ولا يصح . وقال قوم : ما أدّيت زكاته منه او من غيره عنه فليس بكنز . قال ابن عمر : ما أُدِّى زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سـبع أرضين، وكل ما لم تؤدّ زكاته فهـو كنز وإن كانـ فوق الأرض . ومثـله عن جابر، وهو الصحيح . وروى البخارىّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من آتاه الله مالًا فلم يؤدّ زكاته مُثِّل له يوم القيامة شُجاعا أقْرَعَ له زَبِيبتان يُطَوَّقه يوم القيامة ثم يأخذ بِلِهْزِمَتَيْه يعنى شِدْقَيْه ثم يقول أنا مالُك أنا كنزك — ثم تلا — « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ »(١) " الآية . وفيه أيضا عن أبى ذرّ، قال : انتهيت إليه — يعنى النبىّ صلى الله عليـه وسلم — قال : "والذى نفسى بيده — أو والذى لا إله غيره أو كما حلف — ما من رجل تكون له إبل أو بقر أو غنم لا يؤدّى حقها إلّا أُتِى بها يوم القيامة أعظمَ ما تكون وأسْمَنَهَ تَطَؤُه بأخفافها وتنطَحه بقرونها كلما جازت أخراها رُدّت عليـه أولاها حتى يُقْضَى بين الناس ". فدلّ دليل خطاب هذين الحديثين على صحة ما ذكرنا . وقد بيّن ابن عمر فى صحيح البخارىّ هذا المعنى . قال له أعرابىّ : أخبرنى عن قول الله تعـالى : « والذين يكنِزون الذّهبَ والفِضة » قال ابن عمر : من كنزها فلم يؤدّ زكاتها فوَيْل له، إنمـا كان هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما أنزلت جعلها الله طُهرا للأموال . وقيل : الكنز ما فضـل عن الحاجة . روى عن أبى ذرّ، وهو مما نقل من مذهبه، وهو من شدائده ومما آنفرد به رضى الله عنه .

قلت : ويحتمل أن يكون مجمل ما رُوى عن أبى ذرّ فى هـذا، ما روى أن الآية نزلت فى وقت شدّة الحاجة وضعف المهاجرين وقِصَر يد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كفايتهم، ولم يكن فى بيت المـال ما يشبعهم، وكانت السُّنون الجوائح هاجمة عليهم، فنُهُوا عن إمساك شىء من المـال إلا على قدر الحاجة، ولا يجوز آدّخار الذهب والفضة فى مثل ذلك الوقت.

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٩٠ طبعة أولى أو ثانية .

فلما فتح الله على المسلمين ووسّع عليهم أوْجب صلى الله عليه وسلم فى مائتى درهم خمسةَ دراهم، وفى عشرين دينارا نصفَ دينار ؛ ولم يوجب الكل، وإعتبر مدة الاستنماء؛ فكان ذلك منه بيانا صلى الله عليــه وسلم . وقيل : الكنز ما لم تؤدّ منه الحقوق العارضـــة ؛ كفكّ الأسـير وإطعام الجائع وغير ذلك. وقيل : الكنز لغةً المجموع من النقدين، وغيرهما من المـال محمول عليهما بالقياس . وقيل: المجموع منهما ما لم يكن حلياً؛ لأن الحلىّ مأذون فى آتخاذه ولا حَقّ فيه . والصحيح ما بدأنا بذكره، وأن ذلك كله يسمّى كنزا لغةً وشرعا . والله أعلم .

السادســـة ـــ واختلف العلماء فى زكاة الحلىّ؛ فذهب مالك وأصحابه وأحمد و إسحاق وأبو ثَور وأبو عبيد إلى أن لا زكاة فيه . وهو قول الشافعىّ بالعراق، ووقف فيه بعد ذلك بمصر وقال : أستخير الله فيه . وقال الثّورىّ وأبو حنيفة وأصحابه والأوزاعىّ : فى ذلك كله الزكاة . احتج الأولون فقالوا : قصـدُ النّماء يوجب الزكاة فى العروض وهى ليست بمحل لإيجاب الزكاة ، كذلك قطع النماء فى الذهب والفضــة بآتخاذهما حلياً للقِنْية يسقط الزكاة . احتجّ أبو حنيفة بعموم الألفاظ فى إيجاب الزكاة فى النقدين،ولم يفرّق بين حلى وغيره . وفرّق الليث بن سعد فأوجب الزكاة فيما صُنع حلياً لِيفرّ به من الزكاة، وأسقطها فيما كان منه يلبَس ويُعار . وفى المذهب فى الحلىّ تفصيل، بيانه فى كتب الفروع .

السابعـــة ـــ روى أبو داود عن ابن عبـاس قال : لمـا نزلت هــذه الآية « والذين يكنزون الذهب والفِضة » قال : كَبُر ذلك على المسلمين،فقال عمر : أنا أفرّج عنكم؛ فانطلق فقال : يا نبىّ الله، إنه كَبُر على أصحابك هــذه الآية . فقال : " إنّ الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب ما بقى من أموالكم و إنمـا فرض المواريث ـــ وذكر كلمة[1] ـــ لتكون لمن بعدكم" قال : فكبر عمر . ثم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألَا أخبرك بخير ما يكنز المرء المرأةُ الصالحة إذا نظر إليها سَرّته وإذا أمرها أطاعتــه وإذا غاب عنهـا حفظته " . وروى

(١) ما بين الخطين موجود فى نسخ الأصل، غير موجود فى سنن أبى داود . والذى فى كتاب الدر المنثور للسيوطى : « ... وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم » .

الترمذيّ وغيره عن ثوبان أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : قد ذمّ الله سبحانه الذهب والفضة، فلو علمنا أيّ المـال خير حتى نكسبه. فقال عمر : أنا أسأل لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فسأله فقال : "لسانٌ ذاكر وقلب شاكر وزوجة تعين المرء على دينه" . قال حديث حسن .

الثامنــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ولم يقل ينفقونهما ؛ ففيه أجوبة ستة : الأوّل — قال ابن الأنباريّ : قصـد الأغلب والأعمّ وهى الفضة ؛ ومثـله قوله : « وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ »[1] ردّ الكناية إلى الصلاة لأنها أعمّ . ومثله « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا »[2] فأعاد الهاء إلى التجارة لأنها الأهم، وترك اللهو؛ قاله كثير من المفسرين . وأبى بعضهم وقال: لا يشبهها؛ لأن «أو» قد فصلت التجارة من اللهو فحسُن عَوْد الضمير على أحدهما . الثـانى — العكس ، وهو أن يكون « ينفقونهـا » للذهب والثانى معطوفا عليه . والذهب تؤنثه العرب تقول : هى الذهب الحمراء . وقد تذكّر والتأنيث أشهر . الثـالث — أن يكون الضمير للكنوز . الرابع — للأموال المكنوزة . الخـامس — للزكاة؛ التقدير ولا ينفقون زكاة الأموال المكنوزة . السادس — الاكتفاء بضمير الواحد عن ضمير الآخر اذا فُهم المعنى، وهذا كثير فى كلام العرب . أنشد سيبويه :

نحن بمـا عندنا وأنت بمـا * عندك راضٍ والرأى مختلف[3]

ولم يقل راضون .

وقال آخر[4] :

رَمانى بأمر كنتُ منه ووالدى * بريئا ومن أجْل الطَّوِىّ رمانى

ولم يقل بريئين . ونحوه قول حسان بن ثابت رضى الله عنه :

---

(١) آية ٤٥ سورة البقرة .   (٢) آخر سورة الجمعة .   (٣) البيت لقيس بن الخطيم .

(٤) هو ابن أحمر، واسمه عمرو . وصف فى البيت رجلا كان بينه و بينه مشاجرة فى بئر — وهو الطـوى — فذكر أنه رماه بأمر يكرهه ورمى أباه بمثله على براءتهما منه من أجل المشاجرة التى كانت بينهما . (عن شرح الشواهد) .

إن شرخ الشباب والشّعر الأسـ * ـود ما لم يُعـاص كان جنونًا

ولم يقل يعاصيا .

التاســعة — إن قيل : من لم يكنز ولم ينفق فى سبيل الله وأنفق فى المعاصى، هل يكون حكمه فى الوعيد حكمَ من كنز ولم ينفق فى سبيل الله . قيل له : إن ذلك أشدّ ؛ فإن من بذّر ماله فى المعاصى عصى من جهتين : بالإنفاق والتناول؛ كشراء الخمر وشربها . بل من جهات إذا كانت المعصية مما تتعدّى؛ كمن أعان على ظلم مسلم مِن قتله أو أخذ ماله إلى غير ذلك . والكانز عصى من جهتين، وهما منع الزكاة وحبس المـال لا غير . وقد لا يراعى حبس المـال، والله أعلم .

العاشــرة — قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قد تقدّم معناه . وقد فسّر النبيّ صلى الله عليه وسلم هذا العذاب بقوله : " بَشّر الكنّازين بكَيّ فى ظهورهم يخرج من جنوبهم وبكَيّ من قِبل أقفائهم يخرج من جباههم " الحديث . أخرجه مسلم . رواه أبو ذرّ فى رواية : " بشر الكنّازين بِرَضْف[1] يُحْمَى عليه فى نار جهنم فيوضع على حَلَمَة ثَدْيِ أحدهم حتى يخرج من نُغْض[2] كَتِفيه و يوضع على نُغْض كتِفيه حتى يخرج من حلمة ثَدْييه فيتزلزل " الحـديث . قال علماؤنا : فخروج الرَّضْف من حلمة ثَدْيه إلى نُغْض كتفه لتعذيب قلبـه و باطنه حين آمتلا بالفرح بالكثرة فى المـال والسرور فى الدنيا؛ فعوقب فى الآخرة بالهمّ والعذاب .

الحادية عشرة — قال علماؤنا : ظاهر الآية تعليق الوعيد على من كنز ولا ينفق فى سبيل الله، و يتعرّض للواجب وغيره؛ غير أن صفة الكنز لا ينبغى أن تكون معتبرة؛ فإن من لم يكنز ومنع الإنفاق فى سبيل الله فلابدّ وأن يكون كذلك؛ إلا أن الذى يخبأ تحت الأرض هو الذى يُمنع إنفاقه فى الواجبات عُرْفًا، فلذلك خُص الوعيد به . والله أعلم .

---

(١) الرضف : الحجارة المحماة .

(٢) النغض (بالضم والفتح) : أعلى الكتف، وقيل : هو العظم الرقيق الذى على طرفه .

قوله تعـالى : ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ (٣٥)

فيـــه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ « يوم » ظرف، والتقدير يعذبون يوم يُحمى . ولا يصح أن يكون على تقـدير : فبشّرهم يوم يحمى عليها؛ لأن البشارة لا تكون حينئذ . يقال : أحميت الحديدة في النار؛ أي أوقدت عليها . ويقال : أحميته؛ ولا يقال : أحميت عليه . وهاهنا قال عليها ؛ لأنه جعل « على » من صلة معنى الإحماء، ومعنى الإحماء الإيقاد . أي يوقد عليها فتكوى . الكيّ : إلصاق الحارّ من الحديد والنار بالعضو حتى يحترق الجلد . والجباه جمع الجبهة، وهو مستوى ما بين الحاجب إلى الناصية . وجبهت فلانا بكذا؛ أي استقبلته به وضربت جبهته . والجُنوب جمع الجنب . والكيّ في الوجه أشهر وأشنع ، وفي الجنب والظهر آلم وأوجع؛ فلذلك خصّها بالذكر من بين سائر الأعضاء . وقال علماء الصوفيـة : لما طلبوا المال والجاه شان الله وجوههم ، ولما طوَوْا كشحا[1] عن الفقير إذا جالسهم كُويت جنوبهم ، ولما أسندوا ظهورهم إلى أموالهم ثقةً بها واعتمادا عليها كُويت ظهورهم . وقال علماء الظاهر : إنما خص هـذه الأعضاء لأن الغنيّ إذا رأى الفقير زوى[2] ما بين عينيه وقبض وجهه . كما قال[3] :

يَزِيد يَغُضّ الطـرف عنى كأنما * زوى بين عينيـه علىّ المحاجمُ

فلا ينبسطْ من بين عينيكَ ما انزوى * ولا تلقَـنى إلا وأنفُـك راغمُ

وإذا سأله طوى كشحه، وإذا زاده في السؤال وأكثر عليه ولّاه ظهره . فرتّب الله العقوبة على حال المعصية .

---

(١) طوى كشحه عنه : اذا أعرض عنه . (٢) جمعه وقبضه .

(٣) القائل هو الأعشى؛ كما في اللسان .

الثانيـــة ـــ واختلفت الآثار فى كيفية الكىّ بذلك؛ ففى صحيح مسلم من حديث أبى ذرّ ما ذكرنا من ذكر الرَّضْف . وفيه من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما مِن صاحب ذهبٍ ولا فِضة لا يؤدّى منها حقّها إلا إذا كان يومُ القيامة صُفّحت له صفائح من نارٍ فأحمى عليها فى نار جهنم فيُكْوَى بها جنبه وجبينه وظهره كلما بَرَدت أعيدت له فى يومٍ كان مقـداره خمسين ألف سـنة حتى يُقْضَى بين العبـاد فيرى سبيله إمّا إلى الجنـة وإمّا إلى النار" . الحـديث . وفى البخارىّ : أنه يمثَّل له كنزه شجاعا أقرع . وقـد تقدّم فى غير الصحيح عن عبد الله بن مسعود أنه قال : من كان له مال فلم يؤدّ زكاته طُوِّقه يوم القيامة شجاعا أقرع ينقُر رأسه .

قلت : ولعلّ هـذا يكون فى مواطن : موطن يمثَّل المـال فيـه ثعبانا، وموطن يكون صفائح ، وموطن يكون رَضْفا . فتتغيّر الصفات والجسمية واحدة؛ فالشجاع جسم والمـال جسم . وهذا التمثيل حقيقة؛ بخلاف قوله : "يؤتى بالموت كأنه كبش أملح" فإن تلك طريقة أخرى، ولله أن يفعـل ما يشاء . وخُصّ الشجاع بالذكر لأنه العدوّ الثانى للخلق . والشجاع من الحيات هو الحية الذكر الذى يواثب الفارس والراجل، ويقوم على ذنبه وربما بلغ الفارس، ويكون فى الصّحارِى . وقيل : هو الثعبان . قال اللَّحيانىّ : يقال للحية شجاع، وثلاثة أشجعة، ثم شجعـان . والأقرع من الحيـات هو الذى تمعّط رأسـه وأبيض من السمّ . فى الموطّأ : له زبيبتان؛ أى نقطتان منتفختان فى شِدْقيه كالرغوتين . ويكون ذلك فى شِـدقى الإنسـان إذ غضب وأكثر من الكلام . قالت [أمّ] غَيْلان بنت جرير : ربّما أنشدت أبى حتى يتزبّب شِدقاى . ضُرِب مثلا للشجاع الذى كثر سمّه فيُمَثَّل المـالُ بهذا الحيوان فيلقى صاحبه غضبان . وقال ابن دُريد : نقطتان سَوْداوان فوق عينيه . فى رواية : مُثِّـل له شجاع يتبعه فيضطره فيُعطيه يده فيقضَمها كما يقضَم الفحل . وقال ابن مسعود : والله لا يعـذّب الله أحدا بكنز فيمسّ درهم درهمـا ولا دينار دينارا ، ولكن يوسع جلده حتى يوضع كل درهم ودينار على حدته . وهذا إنما يصح فى الكافر ــ كما ورد فى الحديث ــ لا فى المؤمن . والله أعلم .

الثالثـــة ــ أسند الطبرى إلى أبى أمامة الباهلى قال : مات رجل من أهل الصُّـفَّة فوُجد فى بردته دينار . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كَيَّة" . ثم مات آخر فوجد له ديناران . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كَيَّتان" . وهذا إمّا لأنهما كانا يعيشان من الصــدقة وعندهما التِّبر ، وإمّا لأن هذا كان فى صــدر الإسلام ، ثم قرر الشرع ضبط المـال وأداء حقه . ولو كان ضبط المـال ممنوعا لكان حقه أن يُخرج كلّه ، وليس فى الأمة من يلزم هذا . وحسبك حال الصحابة وأموالُهم رضوان الله عليهم . وأما ما ذكر عن أبى ذَرّ فهو مذهب له ؛ رضى الله عنــه . وقد روى موسى بن عُبيــدة عن عمران بن أبى أنس عن مالك بن أوس بن الحَدَثان عن أبى ذرّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من جمع دينارا أو درهما أو تبرا أو فضة ولا يُعدّه لغريم ولا ينفقه فى سبيل الله فهو كنز يُكوَى به يوم القيامـــة" .

قلت : هذا الذى يليق بأبى ذرّ رضى الله عنه أن يقول به ، وأن ما فضــل عن الحاجة فليس بكنز إذا كان معدّا لسبيل الله . وقال أبو أمامة : من خلّف بيضا أو صُفراً كُوِى بها مغفورا له أو غير مغفور له ؛ ألَا إن حلية السـيف من ذلك . وروى ثَوْبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ما من رجل يموت وعنده أحمرُ أو أبيض إلا جعل الله له بكل قيراط صفيحة يكوَى بها من فرْقه(١) إلى قدمه مغفوراً له بعد ذلك أو معذّبا" .

قلت : وهــذا محمول على ما لم تؤدّ زكاته بدليل ما ذكرنا فى الآية قبل هــذا . فيكون التقدير : وعنــده أحمر أو أبيض لم يؤدّ زكاته . وكذلك ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه : من ترك عشرة آلاف جُعلت صفائح يعذّب بها صاحبها يوم القيامة . أى لم يؤد زكاتها ، لئلا تتناقض الأحاديث . والله أعلم .

الرابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ أى يقال لهم هــذا ما كنزتم ؛ فحذف . ﴿ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ أى عذاب ما كنتم تكنزون .

---

(١) الفرق : الطريق فى شعر الرأس .

قوله تعالى : إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ (٣٦)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ فيه سبع (١) مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ ﴾ جمع شهر . فإذا قال الرجل لأخيه : لا أكلمك الشهور، وحلف على ذلك فلا يكلمه حولا؛ قاله بعض العلماء . وقيل : لا يكلمه أبدا . ابن العربي : وأرى إن لم تكن له نية أن يقتضى ذلك ثلاثة أشهر؛ لأنه أقل الجمع الذى يقتضيه صيغة فُعول فى جمع فَعْل . ومعنى ﴿ عِنْدَ اللهِ ﴾ أى فى حكم الله وفيما كتب فى اللوح المحفوظ . ﴿ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾ أعربت « اثنا عشر شهرا » دون نظائرها ؛ لأن فيها حرف الإعراب ودليله . وقرأ العامة « عشر » بفتح العين والشين . وقرأ أبو جعفر « عَشْر » بجزم الشين . ﴿ فِي كِتَابِ اللهِ ﴾ يريد اللوح المحفوظ . وأعاده بعد أن قال « عند الله » لأن كثيرا من الأشياء يوصف بأنه عند الله، ولا يقال إنه مكتوب فى كتاب الله؛ كقوله : « إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ » (٢) .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ إنما قال « يوم خلق السموات والأرض » ليبين أن قضاءه وقدره كان قبل ذلك، وأنه سبحانه وضع هذه الشهور وسماها بأسمائها على ما رتبها عليه يوم خلق السموات والأرض، وأنزل ذلك على أنبيائه فى كتبه المنزلة . وهو معنى قوله تعالى : « إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا » . وحكمها باقٍ

(١) يلاحظ أن المسائل ثمان، لا سبع . (٢) آخر سورة لقمان .

على ما كانت عليه لم يُزِلها عن ترتيبها تغييرُ المشركين لأسمائها، وتقديمُ المقـدّم فى الاسم منها . والمقصود من ذلك اتباعُ أمر الله فيها ورفضُ ما كان عليـه أهل الجاهلية من تأخير أسمـاء الشهور وتقـديمها ، وتعلّقُ الأحكام على الأسماء التى رتّبوها عليـه ؛ ولذلك قال عليه السلام فى خطبته فى حَجّة الوداع : " أيها الناس إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض" على ما يأتى بيانه . وأن الذى فعل أهل الجاهلية من جعل المحرّم صفرًا وصفر محرّما ليس يتغيّر به ما وصفه الله تعالى . والعامل فى « يوم » المصدر الذى هو « فى كتاب الله » ، وليس يعنى به واحد الكُتُب؛ لأن الأعيان لا تعمل فى الظروف . والتقدير : فيما كتب الله يوم خلق السموات والأرض . و «عند» متعلق بالمصدر الذى هو العِدّة، وهو العامل فيه . و « فى » من قوله : « فِى كِتَابِ اللهِ » متعلقة بمحذوف، هو صفة لقوله : « اثنا عشر » . والتقدير : اثنا عشر شهرا معدودةً أو مكتوبة فى كتاب الله . ولا يجوز أن تتعلق بعِدّة لما فيه من التفرقة بين الصلة والموصول بخبر إنّ .

الثالثـــة ــ هذه الآية تدلّ على أن الواجب تعليق الأحكام من العبادات وغيرها إنمـا يكون بالشهور والسنين التى تعرفها العرب ، دون الشهور التى تعتـبرها العجم والروم والقبط و إن لم تزد على اثنىْ عشر شهرا ؛ لأنها مختلفة الأعداد، منها ما يزيد على ثلاثين ومنها ما ينقص، وشهور العرب لا تزيد على ثلاثين و إن كان منهـا ما ينقص، والذى ينقص ليس يتعيّن له شهر ، و إنمـا تفاوتها فى النقصان والتمام على حسب اختلاف سير القمر فى البروج .

الرابعـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ الأشهر الحُرُم المذكورة فى هذه الآية ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم ورجب الذى بين جمادىَ الآخرة وشعبان، وهو رجب مُضَر، وقيل له رجب مضر لأن ربيعة بن نزار كانوا يحرمون شهر رمضان ويسمّونه رجبا . وكانت مضر تحرّم رجبا نفسَه ؛ فلذلك قال النبيّ صلى الله عليـه وسلم فيه : " الذى بين جمادى وشعبان " ورفع ما وقع فى اسمـه من الاختلال بالبيان . وكانت العرب أيضا تسميه مُنْصِـل الأسِنّة (١) ؛

(١) منصل الأسنة : مخرجها من أماكنها . كانوا اذا دخل رجب نزعوا أسـنة الرماح ونصال السهام إبطالا للقتال فيه ، وقطعا لأسباب الفتن لحرمته .

روى البخاريّ عن أبي رَجاء العُطارِديّ — واسمه عمران بن مَلْحان وقيل عمران بن تَيْم — قال : كنّا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرا هو خير منــه ألقيناه وأخذنا الآخر، فاذا لم نجــد حجرا جمعنا حثوة من تراب ثم جئنا بالشاء فحلبنا عليه ثم طُفنا به ، فاذا دخل شهر رجب قلنا مُنْصِل الأسنّة؛ فلم نَدَعْ رُمْحًا فيه حديدة ولا سهما فيه حديدة إلا نزعناها فألقيناه .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أى الحساب الصحيح والعدد المستوفَى . وروى علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس : « ذلك الدِّين » أى ذلك القضـاء . مُقاتل : الحق . ابن عطيــة : والأصوب عندى أن يكون الدِّين هاهنا على أشهر وجوهه ؛ أى ذلك الشرع والطاعة . ﴿ الْقَيِّمُ ﴾ أى القائم المستقيم؛ من قام يقوم . بمنزلة سيد؛ من ساد يسود . أصله قَيْوِم .

السادســـة — قوله تعـالى : ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ على قول ابن عباس راجع إلى جميع الشهور . وعلى قول بعضهم إلى الأشهر الحُرُم خاصّةً ؛ لأنه إليها أقرب ولها مزية فى تعظيم الظلم؛ لقوله تعالى : « فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ »(١) لأن الظلم فى غير هذه الأيام جائز على ما نبيّنه . ثم قيــل : فى الظلم قولان : أحدهما لا تظلموا فيهن أنفسكم بالقتال، ثم نسخ بإباحة القتال فى جميع الشهور؛ قاله قتَادة وعطاء الخُراسانى والزُّهرىّ وسفيان الثورى . وقال ابن جُريج : حلف بالله عطاء بن أبى رَباح أنه ما يحل للناس أن يغزوا فى الحَرَم ولا فى الأشهر الحُرُم إلا أن يقاتلوا فيهـا ، وما نُسخت . والصحيح الأوّل ؛ لأن النبيّ صلى الله عليــه وسلم غزا هوازن بحُنين وثقيفا بالطّائف ، وحاصرهم فى شــوّال وبعض ذى القَعدة . وقد تقدّم هــذا المعنى فى البقرة(٢) . الثانى — لا تظلموا فيهنّ أنفسكم بارتكاب الذنوب؛ لأن الله سبحانه إذا عظّم شيئا من جهة واحدة صارت له حُرمة واحدة، وإذا عظّمه من جهتين أو جهات صارت حرمته متعدّدة ؛ فيضاعف فيــه العقاب بالعمل السيّئ كما يضاعف الثواب بالعمل الصالح . فانّ من أطاع الله فى الشهر الحرام فى البلد الحرام ليس

(١) آية ١٩٧ سورة البقرة . (٢) راجع جـ ٣ ص ٤٣ طبعة أولى أو ثانية .

ثوابه ثوابَ من أطاعه فى الشهر الحلال فى البلد الحرام . ومن أطاعه فى الشهر الحلال فى البلد الحرام ليس ثوابه ثوابَ من أطاعه فى شهر حلال فى بلد حلال . وقد أشار تعالى إلى هـذا بقوله تعالى : « يَا نِسَاءَ النَّبِي مَنْ يَأْتِ مِنْكُن بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ(١) » .

السابعـــة — وقد ٱختلف العلماء من هذا المعنى فيمن قتل فى الشهر الحرام خطأً، هل تغلّظ عليـه الدِّية أم لا ؛ فقال الأوزاعىّ : القتل فى الشهر الحرام تغلظ فيـه الدية فيما بلغنا وفى الحَرَم، فتجعل دية وثلثا . ويزاد فى شبه العمد فى أسنان الإبل . قال الشافعىّ : تغلّظ الدية فى النفس وفى الجراح فى الشهر الحرام وفى البلد الحرام وذوى الرحم . ورُوِي عن القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وابن شهاب وأَبَان بن عثمان : من قتـل فى الشهر الحرام أو فى الحرم زيد على دِيته مثـلُ ثلثها . وروى ذلك عن عثمان بن عفان أيضا . وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما وابن أبى لَيْلَى : القتل فى الحِلّ والحَرَم سواء، وفى الشهر الحرام وغيره سواء؛ وهو قول جماعة من التابعين . وهو الصحيح؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم سنّ الديات ولم يذكر فيها الحرم ولا الشهر الحرام . وأجمعوا أن الكفارة على من قتـل خطأً فى الشهر الحرام وغيره سواء . فالقياس أن تكون الدية كذلك . والله أعلم .

الثامنـــة — خصّ الله تعـالى الأربعة الأشهر الحُـرُم بالذكر، ونهى عن الظـلم فيها تشريفا لها، وإن كان منهيًّا عنه فى كل الزمان . كما قال : « فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ » على هذا أكثر أهل التأويل . أى لا تظلموا فى الأربعة الأشهر أنفسكم . وروى حماد بن سَلَمة عن علىّ بن زيد عن يوسف بن مِهْران عن ابن عباس قال : « فلا تظلموا فِيهِن أنفسكم » فى الاثنى عشر . وروى قيس بن مسلم عن الحسن عن محمد بن الحنفية قال : فيهنّ كلهن . فإن قيـل على القول الأوّل : لِم قال فيهنّ ولم يقل فيها ؟ وذلك أن العرب يقولون لمـا بين الثلاثة إلى العشرة : هنّ وهؤلاء، فإذا جاوزوا العشرة قالوا : هى وهذه، إرادةَ أن تعـرف تسمية القليل من الكثير . وروى عن الكِسائى أنه قال : إنى لأتعجّب من فعـل

(١) آية ٣٠ سورة الأحزاب .

العرب هــذا . وكذلك يقــولون فيما دون العشرة من الليــالى : خَلَوْن . وفيما فوقها خَلَت .
لا يقال : كيف جُعِــل بعض الأزمنة أعظم حُرْمة من بعض؛ فإنا نقول : للبارئ تعالى أن يفعل ما يشاء، ويخص بالفضيلة ما يشاء، ليس لعمله عِلّة ولا عليه حجر ، بل يفعل ما يريد بحكمته، وقد تظهر فيه الحكمة وقد تخفى .

قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ فيه مسألة واحدة :

قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا ﴾ أمر بالقتال . و ﴿ كَافَّةً ﴾ معناه جميعا، وهو مصدر فى موضع الحال : أى محيطين بهم ومجتمعين . قال الزجاج : مثل هذا من المصادر عافاه الله عافية وعاقبه عاقبة . ولا يثنّى ولا يجمع، وكذا عامّة وخاصّة . قال بعض العلماء : كان الغرض بهذه الآية قد توجّه على الأعيان ثم نسخ ذلك وجعل فرض كفاية . قال ابن عطية : وهذا الذى قاله لم يُعلم قطُّ من شرع النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه ألزم الأمة جميعا النَّفْر، وإنما معنى هذه الآية الحض على قتالهم والتحزب عليهم وجمــع الكلمة . ثم قيدها بقوله : « كما يُقَاتِلونكم كَافَّةً » فبحسب قتالهم واجتماعهم لنا يكون فرض اجتماعنا لهم . والله أعلم .

قوله تعــالى : إِنَّمَا النَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ هكذا يقرأ أكثر الأئمة . قال النحاس : ولم يرو أحد عن نافع فيما علمناه «إنما النَّسِيُّ» بلا همز إلا ورش وحده . وهو مشتق من نسأه وأنسأه إذا أخره ؛ حكى اللغتين الكسائى . الجوهرىّ : النّسيء فعيــل بمعنى مفعول ؛ من قولك : نسأت الشيء فهو منسوء إذا أخرته . ثم يحوّل منسوء إلى نسيء كما يحوّل مقتول إلى قتيل . ورجل ناسئ وقوم نَسَأة، مثل فاسق وفسقة . قال الطبرىّ : النسيء بالهمزة معناه الزيادة؛ يقال : نسأ ينسأ إذا زاد . قال : ولا يكون بترك الهمز إلا من النسيان؛ كما قال تعالى :

«نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ»(١)، وردّ على نافع قراءته، واحتجّ بأن قال : إنه يتعدّى بحرف الجر؛ يقال : نسأ الله فى أجلك كما تقول زاد الله فى أجلك؛ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : "من سَرَّه أن يُبْسَط له فى رزقه ويُنْسأ له فى أَثَره(٢) فليصل رَحِمَه" . قال الأزهرى : أنسأت الشىء إنساء ونسيئا ؛ اسم وضع موضع المصدر الحقيقى . وكانوا يحرّمون القتال فى المحرّم ، فإذا احتاجوا إلى ذلك حرّموا صفرًا بدله وقاتلوا فى المحرّم . وسبب ذلك أن العرب كانت أصحاب حروب وغارات، فكان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يُغيرون فيها؛ وقالوا : لئن توالت علينا ثلاثة أشهر لا نُصيب فيها شيئا لنهلكنّ . فكانوا إذا صدروا عن مِنًى يقوم من بنى كنانة، ثم من بنى فُقَيم منهم رجل يقال له القَلَمَّس ؛ فيقول أنا الذى لا يُرَدّ لى قضاء . فيقولون : أنسئنا شهرا، أى أخّرعنا حُرمة المحرّم واجعلها فى صفر؛ فيحلّ لهم المحرّم . فكانوا كذلك شهرا فشهرا حتى استدار التحريم على السُّنة كلها . فقام الإسلام وقد رجع المحرّم إلى موضعه الذى وضعه الله فيه . وهذا معنى قوله عليه السلام : "إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض" . وقال مجاهد : كان المشركون يحجّون فى كل شهر عامين؛ فحجّوا فى ذى الحجة عامين، ثم حجوا فى المحرّم عامين، ثم حجوا فى صفر عامين، وكذلك فى الشهور كلها حتى وافقت حجّة أبى بكر التى حجها قبل حجّة الوداع ذا القعدة من السنة التاسعة . ثم حج النبىّ صلى الله عليه وسلم فى العام المقبل حجة الوداع فوافقت ذا الحجة؛ فذلك قوله فى خطبته : "إن الزمان قد استدار" الحديث . أراد بذلك أن أشهر الحج رجعت إلى مواضعها، وعاد الحج إلى ذى الحجة وبطل النسىء . وقول ثالث — قال إياس بن معاوية : كان المشركون يحسُبون السنة اثنى عشر شهرا وخمسة عشر يوما؛ فكان الحج يكون فى رمضان وفى ذى القعدة، وفى كل شهر من السنة بحكم استدارة الشهر بزيادة الخمسة عشر يوما . فحج أبو بكر سنة تسع فى ذى القعدة بحكم الاستدارة، ولم يحج النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ فلما كان فى العام المقبل وافق الحج ذا الحجة

---

(١) آية ٦٧ من هـذه السورة . (٢) الأثر : الأجل؛ وسمى به لأنه يتبع العمر، وأصله من أثر مشيه فى الأرض، فان من مات لا تبقى له حركة فلا يبقى لأقدامه فى الأرض أثر . (عن شرح القسطلانى) .

فى العشر ، ووافق ذلك الأهلة . وهـذا القول أشبه بقول النبىّ صـلى الله عليه وسـلم : " إن الزمان قد استدار " . أى زمان الحج عاد إلى وقته الأصلىّ الذى عينه الله يوم خلق السموات والأرض بأصل المشروعية التى سبق بها علمه ، ونفذ بها حكمه . ثم قال : السنة اثنا عشر شهرا . يَنْفى بذلك الزيادة التى زادوها فى السنة — وهى الخمسة عشر يوما — بتحكمهم ؛ فتعين الوقت الأصلى وبطل التحكم الجهلىّ . وحكى الإمام المـازَرِىّ عن الخَوَارَزْمىّ أنه قال : أوّل ما خلق الله الشمس أجراها فى بُرْج الحَمَل ، وكان الزمان الذى أشار به النبىّ صلى الله عليه وسلم صادف حلول الشمس برج الحمل . وهذا يحتاج إلى توقيف ؛ فإنه لا يُتوصّل إليه إلا بالنقل عن الأنبياء ، ولا نقل صحيحا عنهم بذلك ، ومن ادّعاه فلْيُسنده . ثم إن العقل يجوّز خلاف ما قال ، وهو أن يخلق الله الشمس قبل البروج ، ويجوّز أن يخلق ذلك كلّه دَفعة واحدة . ثم إن علماء التعديل قد اختبروا ذلك فوجدوا الشمس فى برج الحوت وقت قوله عليه السلام : " إن الزمان قد استدار " بينها وبين الحَمَل عشرون درجة . ومنهم من قال عشر درجات . والله أعلم . واختلف أهل التأويل فى أول من نسأ ؛ فقال ابن عباس وقَتادة والضحاك : بنو مالك بن كنانة ، وكانوا ثلاثة . وروى جُوَيْبِر[1] عن الضحاك عن ابن عباس أن أوّل من فعل ذلك عمرو بن لُحَىّ بن قَمَعة بن خِنْدف . وقال الكلبىّ : أول من فعل ذلك رجل من بنى كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة ، ثم كان بعده رجل يقال له : جُنادة بن عوف ، وهو الذى أدركه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الزُّهرىّ : حىّ من بنى كنانة ثم من بنى فُقَيم منهم رجل يقال له القَلَمّس ، واسمه حذيفة بن عبيد . وفى رواية : مالك بن كنانة . وكان الذى يلى النّسىء يظفر بالرياسة لتريّس العرب إياه . وفى ذلك يقول شاعرهم :

* ومنّا ناسىء الشهر القَلَمّس *

وقال الكُمَيْت :

ألسنا الناسئين على مَعَـدٍّ * شهورَ الحِلّ نجعلها حرامَا

(١) فى نسخ الأصل « جرير » وهو تحريف .

قوله تعالى : ﴿ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ بيان لما فعلته العرب من جمعها من أنواع الكفر ؛ فإنها أنكرت وجود البارئ تعالى فقالت : « وما الرَّحْمَنُ »[1] فى أصح الوجوه . وأنكرت البعث فقالت : « مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ »[2] . وأنكرت بعثة الرسل فقالوا : « أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ »[3] . وزعمت أن التحليل والتحريم إليها ، فابتدعته من ذاتها مقتفيـة لشهواتها ، فأحلّت ما حرّم الله . ولا مبدّل لكلماته ولو كره المشركون .

قوله تعالى : ﴿ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ فيه ثلاث قراءات . قرأ أهل الحرمين وأبو عمرو « يَضِل » وقرأ الكوفيون « يُضَل » على الفعل المجهول . وقرأ الحسن وأبو رجاء « يُضِل » . والقراءات الثلاث كل واحدة منها تؤدى عن معنى ؛ إلا أن القراءة الثالثة حذف منها المفعول . والتقـدير : ويضـل به الذين كفروا مَن يقبل منهم . و﴿ الذين ﴾ فى محل رفع . ويجوز أن يكون الضمير راجعا إلى الله عز وجل . التقـدير : يضـل الله به الذين كفروا ؛ كقوله تعالى : « يُضِـلُّ من يشاء » ، وكقوله فى آخر الآية : « والله لا يهدى القوم الكافرين » . والقراءة الثانية « يُضَلّ به الذين كفروا » يعنى المحسوب لهم ؛ واختار هذه القراءة أبو عبيد ؛ لقوله تعالى : « زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ » . والقراءة الأولى اختارها أبو حاتم ؛ لأنهم كانوا ضالين به ، أى بالنسىء ؛ لأنهم كانوا يحسُبونه فيضـلون به . والهاء فى « يحلّونه » ترجع إلى النسىء . وروى عن أبى رجاء « يَضَل » بفتح الياء والضاد . وهى لغة ؛ يقال : ضَلِلت أضَل ، وضَلَلت أضِل . ﴿ لِيُوَاطِئُوا ﴾ نصب بلام كَىْ ؛ أى ليوافقوا . تواطأ القوم على كذا أى اجتمعوا عليه ؛ أى لم يُحِلّوا شهرا إلا حرّموا شهرا لتبقى الأشهر الحرم أربعة . وهذا هو الصحيح ، لا ما يذكر أنهم جعلوا الأشهر خمسة . قال قتادة : إنهم عمدوا إلى صفر فزادوه فى الأشهر الحُرُم ، وقرنوه بالمحرم فى التحريم ؛ وقاله عنه قُطْرُب والطبرى . وعليه يكون النسىء بمعنى الزيادة . والله أعلم .

---

(١) آية ٦٠ سورة الفرقان .	(٢) آية ٧٨ سورة يس .	(٣) آية ٢٤ سورة القمر .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (٣٨)

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ ﴾ « ما » حرف استفهام معنـاه التقرير والتوبيـخ؛ التقدير : أيّ شيء يمنعكم عن كذا؛ كما تقول : مالك عن فلان مُعْرِضًا . ولا خلاف أن هذه الآية نزلت عتابا على تخلّف من تخلّف عن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم فى غزوة تبوك ، وكانت سـنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام ، وسيأتى ذكرها فى آخر السورة إن شاء الله . والنَّفْر : هو التنقل بسرعة من مكان إلى مكان لأمر يحدث ؛ يقـال فى ابن آدم : نَفَر إلى الأمر يَنْفِر نفورا . وقوم نفور؛ ومنـه قوله تعالى : « وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِم نُفُوراً »[1] . ويقـال فى الدابة : نَفَرت تَنْفُر (بضم الفاء وكسرها) نفارا ونفورا . يقال : فى الدابة نِفار، وهو اسم مثل الحِران . ونفر الحاج من مِنًى نَفْرًا .

الثانيــة — قوله تعـالى : ﴿ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ﴾ قال المفسرون : معناه آثاقلتم إلى نعيم الأرض، أو إلى الإقامة بالأرض . وهو توبيخ على ترك الجهاد وعتابٌ على التقـاعد عن المبادرة إلى الخروج . وهو نحو من أخلد إلى الأرض . وأصله تثاقلتم، أدغمت التاء فى الثاء لقربها منهـا، واحتاجت إلى ألف الوصل لتصل إلى النطق بالساكن ؛ ومثله « ادّاركوا » و « آدّارأتم » و « آطيرنا » و « آزّيّنَتْ » . وأنشد الكسائىّ :

تُولِى الضَّجيعَ إذا ما آستافها خَصِرًا * عَذْبَ المَـــذاق إذا ما آتّابع القُبَـلُ[2]

(١) آية ٤٦ سورة الإسراء .

(٢) ساف الشيء يسوفه ويسافه سوفا وساوفه واستافه ؛ كله شمه . والخصر : البارد من كل شيء .

وقرأ الأعمش « تثاقلتم » على الأصل ، حكاه المهدوى . وكانت تبوك — ودعا الناس إليها [1] — في حرارة القَيْظ وطيب الثمار وبرد الظلال — كما جاء في الحديث الصحيح على مايأتى — فاستولى على الناس الكسل، فتقاعدوا وتثاقلوا ؛ فوبّخهم الله بقوله هذا، وعاب عليهم الإيثار للدنيا على الآخرة . ومعنى ﴿ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ﴾ أى بدلا ؛ التقدير : أرضيتم بنعيم الدنيا بدلا من نعيم الآخرة . فـ « من » تتضمن معنى البدل؛ كقوله تعالى : « وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ [2] » أى بدلا منكم .

وقال الشاعر [3] :

فليت لنا من ماء زمزم شربةً * مُبرّدة باتت على طَهَيانِ

ويروى : من ماء حَمْنانٍ [4] . أراد : ليت لنا بدلا من ماء زمزم شربة مبرّدة . والطَّهَيان : عود ينصب فى ناحية الدار للهواء ، يعلّق عليه الماء حتى يَبْرُد . عاتبهم الله على إيثار الراحة فى الدنيا على الراحة فى الآخرة ؛ إذ لا تنال راحة الآخرة إلا بنصَب الدنيا . قال صلى الله عليه وسلم لعائشة وقد طافت راكبة : " أجْرُك على قدر نَصَبِك " . خرجه البخارى .

قوله تعالى : إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)

فيه مسألة واحدة — وهو أن قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنْفِرُوا ﴾ شرط ؛ فلذلك حذفت منه النون . والجواب « يُعَذِّبْكُمْ » ، « وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ » وهذا تهديد شديد ووعيد مؤكّد فى ترك النفير . قال ابن العربى : ومن محققات الأصول أن الأمر إذا ورد فليس فى وروده أكثر من اقتضاء الفعل . فأما العقاب عند الترك فلا يؤخذ من نفس الأمر ولا يقتضيه،

(١) قوله : « ودعا الناس اليها » قال ابن اسحاق : ... وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يخرج فى غزوة الا كنى عنها وأخبر أنه يريد غير الوجه الذى يصمد له ، الا ما كان من غزوة تبوك فانها بينها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان ... الخ . (٢) آية ٦٠ سورة الزخرف . (٣) هو يعلى بن مسلم بن قيس الشكرى ؛ كما فى اللسان . وقيل أنه الأحول الكندى . (٤) حمنان : مكة .

الاقتضاء، وإنما يكون العقاب بالخبر عنه ؛ كقوله : إن لم تفعل كذا عذبتك بكذا ؛ كما ورد في هــذه الآية . فوجب بمقتضاها النفير للجهاد والخروج إلى الكفار لمقاتلتهــم على أن تكون كلمة الله هي العليا . روى أبو داود عن ابن عباس قال : « إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما » و« ما كان لأهل المدينــة — إلى قوله — يعملون » [1] نسختها الآية التي تليهـا : « وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً » . وهو قول الضحاك والحسن وعكرمة . ﴿ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ قال ابن عباس : هو حبس المطر عنهــم . قال ابن العربي : فإن صحّ ذلك عنه فهو أعلم من أين قاله ، وإلا فالعذاب الأليم هو في الدنيا باستيلاء العدوّ وبالنار في الآخرة .

قلت : قول ابن عباس خرّجه الإمام أبو داود في سننه عن ابن نُفَيع قال : سألت ابن عباس عن هــذه الآية « إلّا تَنْفِروا يعذّبْكُمْ عذابا أليمًا » قال : فأمسك عنهــم المطر فكان عذابَهم . وذكره الإمام أبو محمد بن عطية مرفوعا عن ابن عباس قال : استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبيلةً من القبائل فقعدت ، فأمسك الله عنهم المطر وعذبها به . و« أليم » بمعنى مؤلم ؛ أي موجع . وقد تقدم [2] . ﴿ وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ توعّدٌ بأن يبدّل لرسوله قوما لا يقعدون عند استنفاره إياهم . قيل : أبناء فارس . وقيل: أهل اليمن . ﴿ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ﴾ عطف . والهاء قيل لله تعالى ، وقيل للنبيّ صلى الله عليه وسلم . والتثاقل عن الجهاد مع إظهار الكراهة حرام على كل أحد . فأما من غير كراهة فمَن عيّنه النبيّ صلى الله عليه وسلم حُرِم عليه التثاقل وإن أمن منهما فالفرض فرض كفاية ؛ ذكره القشيريّ . وقد قيــل : إن المراد بهــذه الآية وجوب النفير عند الحاجة وظهور الكفرة واشتداد شوكتهم . وظاهر الآية يدل على أن ذلك على وجه الاســتدعاء فعلى هــذا لا يتّجه الحمل على وقت ظهور المشركين ؛ فإن وجوب ذلك لا يختص بالاستدعاء، لأنه متعيّن . وإذا ثبت ذلك فالاستدعاء والاستنفار يبعد أن يكون موجبا شيئا لم يجب من قبــل ؛ إلا أن الإمام إذا عين قوما وندبهم إلى الجهاد لم يكن لهم أن يتثاقلوا عند التعيين ، ويصير بتعيينه فرضا على من عيّنه لا لمكان الجهاد ولكن لطاعة الإمام . والله أعلم .

(١) آية ١٢٠ و ١٢١ من هذه السورة . (٢) راجع جـ ١ ص ١٩٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ ﴾ يقول : تُعينوه بالنّفر معه فى غزوة تَبُوك . عاتبهم الله بعد انصراف نبيه عليه السلام من تبوك . قال النقاش : هذه أول آية نزلت من سورة براءة . والمعنى : إن تركتم نَصْره فالله يتكفل به ؛ إذ قد نصره الله فى مواطن القلّة وأظهره على عدوّه بالغلبة والعزة . وقيل : فقد نصره الله بصاحبه فى الغار بتأنيسه له وحمله على عنقه ، و بوفائه ووقايته له بنفسه ومواساته له بماله . قال الليث بن سعد : ماصحب الأنبياء عليهم السلام مثلُ أبى بكر الصديق . وقال سفيان بن عُيينة : خرج أبو بكر بهذه الآية من المعاتبة التى فى قوله : « إلّا تنصروه » .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وهو خرج بنفسه فارًّا ، لكن بإلجائهم إلى ذلك حتى فعله ، فنسب الفعل إليهم ورتّب الحكم فيه عليهم ؛ فلهذا يقتل المكرِه على القتل و يضمن المال المتلَف بالإكراه ؛ لإلجائه القاتل والمتلِف إلى القتل والإتلاف .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ ﴾ أى أحد اثنين . وهذا كثالث ثلاثة ورابع أربعة . فإذا اختلف اللفظ فقلت : رابع ثلاثة وخامس أربعة ؛ فالمعنى صير الثلاثة أربعة بنفسه والأربعة خمسة . وهو منصوب على الحال ؛ أى أخرجوه منفردا من جميع الناس إلا من أبى بكر . والعامل فيها « نصره الله » أى نصره منفردا ونصره أحد اثنين . وقال علىّ بن سليمان : التقدير فخرج ثانى اثنين ؛ مثل « وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا »[1] . وقرأ جمهور الناس

(١) آية ١٧ سورة نوح .

« ثانِيَ » بنصب الياء . قال أبو حاتم : لا يعرف غير هذا . وقرأت فرقة « ثانِى » بسكون الياء .
قال ابن جِنِّي : حكاها أبو عمرو بن العلاء، ووجهه أنه سكن الياء تشبيها لها بالألف .
قال ابن عطية : فهى كقراءة الحسن « مَا بَقِى مِنَ الرِّبَا » وكقول جرير :

هـو الخليفة فارْضَـوْا ما رضِى لكُمُ * ماضِى العـزيمةِ ما فى حُكْمِه جَنَفُ (١)

الرابعـة — قوله تعالى: ﴿ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ﴾ الغار: ثقب فى الجبل، يعنى غار ثَوْر. ولما رأت قريش أن المسلمين قد صاروا إلى المدينة قالوا : هذا شر شاغل لا يطاق ؛ فأجمعوا أمرهم على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبيّتوه ورصدوه على باب منزله طول ليلتهم ليقتلوه إذا خرج؛ فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم عليّ بن أبى طالب أن ينام على فراشه، ودعا الله أن يعمّى عليهم أثره، فطمس الله على أبصارهم فخرج وقد غشّيهم النوم ، فوضع على رءوسهم ترابا ونهض ، فلما أصبحوا خرج عليهم عليّ رضى الله عنه وأخبرهم أن ليس فى الدار أحد ، فعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فات ونجا . وتواعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبى بكر الصديق للهجرة ، فدفعا راحلتيهما إلى عبد الله بن أُرَقط . ويقال ابن أريقط، وكان كافرا لكنهما وثقا به، وكان دليلا بالطرق فاستأجراه ليدل بهما الى المدينة . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من خَوْخة فى ظهر دار أبى بكر التى فى بنى جُمَح ونهضا نحو الغار فى جبل ثور، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يستمع ما يقول الناس ، وأمر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه ويريحها (٢) عليهما ليلا فيأخذ منها حاجتهما . ثم نهضا فدخلا الغار . وكانت أسماء بنت أبى بكر الصديق تأتيهما بالطعام ويأتيهما عبد الله بن أبى بكر بالأخبار، ثم يتلوهما عامر بن فهيرة بالغنم فيُعَفّى آثارهما . فلما فقدته قريش جعلت تطلبه بقائف معروف بقفاء الأثر، حتى وقف على الغار فقال : هنا انقطع الأثر . فنظروا فاذا بالعنكبوت قد نسج على فم الغار من ساعته؛ ولهذا نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن قتله . فلما رأوا نسج العنكبوت أيقنوا أن لا أحد فيه، فرجعوا وجعلوا فى النبيّ صلى الله عليه وسلم مائة ناقة لمن ردّه عليهم .

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٦٩ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) يريحها : يردّها .

الخبر مشهور، وقصــة سراقة بن مالك بن جُعْشُم فى ذلك مذكورة . وقد رُوى من حديث أبى الدّرداء وثَوْبان : أن الله عز وجل أمر حمامــة فباضت على نسج العنكبوت، وجعلت ترقد على بيضها، فلما نظر الكفار إليها ردّهم ذلك عن الغــار .

الخامســـة — روى البخارىّ عن عائشة قالت : استأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلا من بنى الدِّيل هاديا خِرِّيتاً [1] ، وهو على دين كفار قريش، فدفعا إليــه راحلتيهما وواعداه غارَ ثَوْر بعد ثلاث ليــال، فأتاهما براحلتيهما صبيحة ثلاث ، فارتحلا وارتحل معهما عامر بن فُهيرة والدليلُ الدِّيلى، فأخذ بهم طريق الساحل [2] .

قال المهلب : فيه من الفقه ائتمان أهل الشرك على السر والمــال إذا عُلم منهم وفاء ومروءة كما ائتمن النبىّ صلى الله عليه وسلم هــذا المشرك على سِرّه فى الخروج من مكة وعلى الناقتين . وقال ابن المنذر: فيه استئجار المسلمين الكفار على هداية الطريق. وقال البخارىّ فى ترجمته : (باب استئجار المشركين عند الضرورة أو إذا لم يوجد أهل الإســلام) . قال ابن بَطّال : إنما قال البخارىّ فى ترجمتــه (أو إذا لم يوجد أهــل الإسلام) مــن أجل أن النــبىّ صلى الله عليه وسلم إنمــا عامل أهل خيبر على العمل فى أرضها إذ لم يوجد من المســلمين من ينوب منابَهم فى عمل الأرض، حتى قوِى الإسلام وٱستُغْنِى عنهم أجلاهم عمر . وعامة الفقهاء يجيزون استئجارهم عند الضرورة وغيرها . وفيه : استئجار الرجلين الرجل الواحد على عمل واحد لهما . وفيه : دليل على جواز الفِرار بالدِّين خوفا من العدو، والاســتخفاء فى الغِيران وغيرها، وألّا يُلقِى الإنسان بيده إلى العدوّ توكّلا على الله واستسلاما له . ولو شاء ربكم لعصَمه مع كونه معهم ، ولكنها سنة الله فى الأنبياء وغيرهم، ولن تجد لسنة الله تبديلا . وهذا أدل دليل على فساد من منع ذلك وقال : من خاف مع الله سواه كان ذلك نقصا فى توكّله،ولم يؤمن بالقدَر. وهذا كلّه فى معنى الآية ، ولله الحمد والهداية .

---

(١) الخرّيت : الدليل الحاذق . (٢) الساحل : موضع بعينه ؛ ولم يرد به ساحل البحر .

السادســـة ــ قوله تعـالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ هـذه الآية تضمنت فضائل الصـديق رضى الله عنه . روى أَصْبغ وٱبن زيد عن ابن القاسم عن مالك « ثانِيَ ٱثنينِ إذ هُمَا فِي الغارِ إذ يقول لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إنّ الله معنا » هو الصدّيق . فحقق تعـالى قوله له بكلامه ووصف الصحبة فى كتابه . قال بعض العلمـاء : من أنكر أن يكون عمر وعثمان أو أحد من الصحابة صاحبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كذاب مبتدع . ومن أنكر أن يكون أبو بكر رضى الله عنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسـلم فهو كافر؛ لأنه أنكر نص القرآن . ومعنى ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ أى بالنّصر والرعاية والحفظ والكلاءة . روى الترمذىّ والحارث بن أبى أسامة قالا : حدّثنا عفـان قال حدّثنا همام قال أخبرنا ثابت عن أنس أن أبا بكر حدثه قال قلت للنبىّ صلى الله عليه وسلم ونحن فى الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميـه لأبصرنا تحت قدميه ؛ فقـال : " يا أبا بكر ما ظنّك باثنين الله ثالثهما " . قال المُحاسِبىّ : يعنى معهما بالنصر والدفاع؛ لا على معنى ما عمّ به الخلائق . فقال : « ما يكون مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ »[1] . فمعناه العموم أنه يسمع ويرى من الكفار والمؤمنين .

السابعـــة ــ قال ابن العربىّ : قالت الإمامية قبّحها الله : حزنُ أبى بكر فى الغار دليل على جهله ونقصـه، وضعف قلبه وخرقه[2] . وأجاب علماؤنا عن ذلك بأن إضـافة الحزن إليه ليس بنقص ؛ كما لم ينقص إبراهيم حين قال عنـه : « نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَـةً قَالُوا لَا تَخَفْ »[3] . ولم ينقص موسى قوله : « فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى . قُلْنَا لَا تَخَفْ »[4] . وفى لوط « وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ »[5] . فهؤلاء العظماء صـلوات الله عليهم قد وجدت عندهم التَّقِيّة نصًّا، ولم يكن ذلك طعنا عليهم ووصـفا لهم بالنقص؛ وكذلك فى أبى بكر . ثم هى عند الصـدّيق احتمال ؛ فإنه قال : لو أن أحدهم نظر تحت قدميـه لأبصرنا . جواب ثانٍ ــ إن حُزن الصدّيق إنمـا كان خوفا على النبىّ صـلى الله عليه وسلم أن يصل إليه ضرر،

(١) آية ٧ سورة المجادلة . (٢) الخرق (بالضم) : الحمق وضعف الرأى .
(٣) آية ٧٠ سورة هود . (٤) آية ٦٧ سورة طه . (٥) آية ٣٣ سورة العنكبوت .

ولم يكن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى ذلك الوقت معصوما، وإنمـا نزل عليه « وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ »(١) .

الثامنـــة — قال ابن العربيّ : قال لنـا أبو الفضائل العـدل(٢) قال لنا جمال الإسـلام أبو القاسم قال موسى صلى الله عليه وسلم : « كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ »(٣) وقال فى محمد صلى الله عليه وسلم : « لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا » لا جرم لمـا كان الله مع موسى وحده ارتدّ أصحابه بعده، فرجع من عند ربه ووجدهم يعبدون العجل . ولمـا قال فى محمد صلى الله عليه وسلم « إن الله معنا » بقى أبو بكر مهتديا موحّدا عالمـا جازما قائمـا بالأمر ولم يتطرق إليه اختلال .

التاســعة — خرّج الترمذى من حديث نُبيط بن شُريط عن سالم بن عبيد — له صحبة — قال : أغمى على رسول الله صلى الله عليه وسـلم ... ؛ الحديث . وفيه : واجتمع المهاجرون يتشاورون فقالوا : انطلقوا بنا إلى إخواننا من الأنصار ندخلهم معنا فى هذا الأمر . فقالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير . فقال عمر رضى الله عنه : من له مثل هذه الثلاث « ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » من « هما » ؟ قال : ثم بسط يده فبايعه و بايعه الناس بيعة حسنة جميلة .

قلت : ولهـذا قال بعض العلمـاء : فى قوله تعـالى « ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَـا فِي ٱلْغَارِ » ما يدل على أن الخليفة بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق؛ لأن الخليفة لا يكون أبدا إلا ثانيا . وسمعتُ شيخنا الإمام أبا العباس أحمد بن عمر يقول : إنما استحق الصديق أن يقال له ثانى اثنين لقيامه بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم بالأمر ؛ كقيام النبيّ صلى الله عليه وسلم به أوّلا . وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لمـا مات ارتدّت العرب كلها، ولم يبق الإسـلام إلا بالمدينة ومكة وجُوَاثا(٤) ؛ فقام أبو بكر يدعو الناس إلى الإسـلام و يقاتلهم على

---

(١) آية ٦٧ سورة المـائدة . (٢) اضطربت نسخ الأصل فى هذا الاسم . والذى فى كتاب أحكام القرآن لابن العربى المطبوع : « أبو الفضاء بن المعدل » وفى النسخة المخطوطة منه « أبو الفضائل المعدل » .

(٣) آية ٦٢ سورة الشعراء . (٤) موضع بالبحرين .

الدخول فى الدين كما فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فاستحق من هذه الجهة أن يقال فى حقه ثانى اثنين .

قلت — وقد جاء فى السنة أحاديث صحيحة ، يدل ظاهرها على أنه الخليفة بعده ، وقد انعقد الإجماع على ذلك ولم يبق منهم مخالف . والقادح فى خلافته مقطوع بخطئه وتفسيقه . وهل يكفر أم لا ؛ يُختلف فيـه، والأظهر تكفيره . وسيأتى لهذا المعنى مزيد بيان فى سورة « الفتح » [1] إن شاء الله . والذى يقطع به من الكتاب والسنة وأقوال علماء الأمة ويجب أن تؤمن به القلوب والأفئدة فضل الصديق على جميع الصحابة . ولا مبالاة بأقوال أهل الشّيع ولا أهل البدع ؛ فإنهم بين مكفر تضرب رقبته، وبين مبتدع مفسّق لا تقبل كلمته . ثم بعد الصديق عمر الفاروق ، ثم بعده عثمان . روى البخاريّ عن ابن عمر قال : كنا نخيّر بين الناس فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخيّر أبا بكر ثم عمر ثم عثمان . واختلف أئمة أهل السلف فى عثمان وعليّ ؛ فالجمهور منهم على تقديم عثمان . ورُوى عن مالك أنه توقّف فى ذلك . ورُوى عنه أنه رجع إلى ما عليـه الجمهور . وهو الأصح إن شاء الله .

العاشـــرة — قوله تعالى : ﴿ فَأَنْزَلَ اللّٰهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾ فيه قولان : أحدهما — على النبيّ صلى الله عليه وسلم . والثانى — على أبى بكر . ابن العربيّ : قال علماؤنا وهو الأقوى ؛ لأنه خاف على النبيّ صلى الله عليه وسلم من القوم؛ فأنزل الله سكينته عليه بتأمين النبيّ صلى الله عليه وسـلم، فسكن جأشه وذهب رَوْعه وحصل الأمن ، وأنبت الله سبحانه ثُمامة [2] ، وألهم الوكْرَ هناك حمامة؛ وأرسل العنكبوت فنسجت بيتا عليه . فما أضعف هذه الجنود فى ظاهر الحس وما أقواها فى باطن المعنى ! ولهـذا المعنى قال النبيّ صلى الله عليه وسـلم لعمر حين تغامر [3] مع الصديق : "هل أنتم تاركو لى صاحبى إن الناس كلّهم قالوا كذبت وقال أبو بكر صـدقت" رواه أبو الدرداء .

---

(١) فى المسألة الخامسة من قوله تعالى : « محمد رسول الله والذين معه ... » آخر السورة .

(٢) الثمام : نبت معروف فى البادية .

(٣) المغامرة المخاصمة . راجع الحديث بطوله فى صحيح البخارى فى باب مناقب أبى بكر رضى الله عنه .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ أي من الملائكة . والكناية في قوله « وأيده » ترجع إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم . والضميران يختلفان ، وهذا كثير في القرآن وفي كلام العرب . ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ﴾ اى كلمة الشرك . ﴿ وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ قيل : لا إله إلا الله . وقيل : وعْد النصر . وقرأ الأعمش ويعقوب « وكلمةَ اللهِ » بالنصب حملا على « جعل » . والباقون بالرفع على الاستئناف . وزعم الفراء أن قراءة النصب بعيدة؛ قال : لأنك تقول أعتق فلان غلام أبيه، ولا تقول غلام أبي فلان . وقال أبو حاتم : نحواً من هذا . قال : كان يجب أن يقال وكلمته هي العليا . قال النحاس : الذي ذكره الفرّاء لا يشبه الآية، ولكن يشبهها ما أنشد سيبويه :

لا أرى الموتَ يسبِق الموتَ شيءٌ * نغّص الموت ذا الغِنَى والفقيرَا

فهذا حسن جيّد لا إشكال فيه، بل يقول النحويون الحذاق : في إعادة الذكر في مثل هذا فائدة، وهي أن فيه معنى التعظيم؛ قال الله تعالى : « إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا» فهذا لا إشكال فيه . وجمع الكلمة كَلِم . وتميم تقول : هي كِلمة بكسر الكاف . وحكى الفرّاء فيها ثلاث لغات : كَلِمة وكِلْمة وكَلْمة مثل كَبِد وكِبْد وكَبْد، ووَرِق ووِرْق ووَرْق . والكَلِمة أيضا القصيدة بطولها؛ قاله الجوهري .

قوله تعالى : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٤١)

فيه سبع مسائل :

الأولى — روى سفيان عن حُصين بن عبد الرحمن عن أبي مالك الغفاريّ قال : أوّل ما نزل من سورة براءة « انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا » . وقال أبو الضُّحا كذلك أيضا . قال : ثم نزل أوّلها وآخرها .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ اِنْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَـالاً ﴾ نصب على الحال ، وفيـه عشرة أقوال : الأول — يذكر عن ابن عباس « اِنْفِرُوا ثُبَاتٍ »(١) : سَرَايَا متفرّقين. الثانى — روى عن ابن عباس أيضا وقتادة : نشاطا وغير نشاط . الثالث — الخفيفُ : الغنىُّ ، والثقيلُ : الفقير؛ قاله مجاهد . الرابع — الخفيف : الشاب ، والثقيل : الشيخ؛ قاله الحسن . الخامس — مشاغيل وغير مشاغيل ؛ قاله زيد بن علىّ والحكم بن عُيينة . السادس — الثقيل : الذى له عيال ، والخفيف : الذى لا عيال له ؛ قاله زيد بن أسلم . السابع — الثقيل : الذى له ضَيْعة يكره أن يدعها ، والخفيف : الذى لا ضيعة له ؛ قاله ابن زيد . الثامن — الخِفاف : الرجال ، والثقال : الفرسان؛ قاله الأوزاعىّ . التاسع — الخفاف : الذين يسبقون إلى الحرب كالطليعة وهو مقدم الجيش ، والثقال : الجيش بأسْره . العاشر — الخفيف : الشجاع ، والثقيل : الجبان؛ حكاه النقاش . والصحيح فى معنى الآية أن الناس أُمِروا جُملةً ؛ أى انفروا خفّت عليكم الحـركة أو ثقلت . ورُوى أن ابن أمّ مكتوم جاء إلى رسـول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : أعلىّ أن أنفر؟ فقال : " نعم " حتى أنزل الله تعالى « ليس على الأعمى حرج »(٢) . وهذه الأقوال إنما هى على معنى المثال فى الثقل والخفة .

الثالثــة — واختلف فى هــذه الآية؛ فقيل إنها منسوخة بقوله تعـالى : « لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى »(٣) . وقيل : الناسخ لها قوله « فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ »(٤) ، والصحيح أنها ليست بمنسوخة . روى ابن عباس عن أبى طلحة فى قوله تعالى : « اِنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا » قال شبانا وكهولا ، ماسمع الله عُذْر أحد . فخرج إلى الشام فجاهد حتى مات رضى الله عنه . وروى حماد عن ثابت وعلىّ بن زيد عن أنس أن أبا طلحة قرأ سورة « براءة » فأتى على هــذه الآية « انفروا خِفافا وثِقالا » فقال : أى بنىّ ، جَهِّزُونى جهزونى . فقال بنوه : يرحمك الله! قد غزوتَ مع النبىّ صـلى الله عليه وسـلم حتى مات ، ومع أبى بكر حتى

(١) كذا فى جميع الأصول . ويلاحظ أن المؤلف رحمه الله عرض لآية النساء ، وهى قوله تعـالى : « انفروا ثبات أو انفروا جميعا » آية ٧١ . وثبات : جمع ثبة ، وهى الجماعة من الناس .

(٢) آية ٦١ سورة النور . (٣) آية ٩١ من هذه السورة . (٤) آية ١٢٢ من هذه السورة .

مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك . قال : لا ، جهّزونى . فغزا فى البحر فمات فى البحر، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام فدفنوه فيها، ولم يتغيّر رضى الله عنه. وأسند الطبرى عمن رأى المقداد بن الأسود بحمص على تابوت صرّاف، وقد فضل على التابوت من سِمَنه وهو يتجهّز للغَزْو . فقيل له : لقد عذرك الله . فقال : أتت علينا سورة البعوث « انفِرُوا خِفافا وثِقالا » . وقال الزهرى : خرج سعيد بن المسيّب إلى الغَزْو وقد ذهبت إحدى عينيه . فقيل له : إنك عليل . فقال : استنفر الله الخفيف والثقيل ، فإن لم يمكنى الحرب كثّرت السواد وحفظت المتاع . ورُوى أن بعض الناس رأى فى غزوات الشأم رجلا قد سقط حاجباه على عينيه من الكِبر، فقال له : ياعمّ ، إن الله قد عذرك . فقال : يابن أخى ، قد أُمِرنا بالنّفْر خِفَافا وثِقالا . ولقد قال آبن أمّ مكتوم رضى الله عنه — واسمه عمرو — يوم أُحُد : أنا رجل أعمى، فسلّموا لى اللواء؛ فإنه إذا انهزم حامل اللواء انهزم الجيش، وأنا ما أدرى من يقصدنى بسيفه فما أبرح . فأخذ اللّواء يومئذ مصعبُ بن عُمير على ماتقدم فى « آل عمران » بيانه . فلهذا وما كان مثله ممـا رُوى عن الصحابة والتابعين. قلنا : إن النسخ لا يصح . وقد تكون حالة يجب فيها نفير الكل، وهى :

الرابعـــة — وذلك إذا تعيّن الجهاد بغَلبة العدوّ على قطر من الأقطار، أو بحلوله بالعُقْر، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خِفافا وثِقالا، شبابا وشيوخا، كلٌّ على قدر طاقته ، من كان له أب بغير إذنه ومن لا أب له ، ولا يتخلّف أحد يقدر على الخروج، من مقاتل أو مكثِر . فإن عجز أهل تلك البلدة عن القيام بعدوّهم كان على من قاربهم وجاورهم أن يخرجوا على حسب مالزم أهل تلك البلدة؛ حتى يعلموا أن فيهم طاقة على القيام بهم ومدافعتهم . وكذلك كل من علم بضعفهم عن عدوّهم وعلم أنه يدركهم ويمكنه غياثهم لزمه أيضا الخروج إليهم؛ فالمسلمون كلّهم يَدٌ على من سواهم، حتى إذا قام بدفع العدو أهل الناحية التى نزل العدوّ عليها واحتلّ بها سقط الفرض عن الآخرين . ولو قارب العدو

دار الإسلام ولم يدخلوها لزمهم أيضا الخروج إليه؛ حتى يظهر دين الله وتُحمَى البَيْضة وتُحفظ الحَوْزة ويُخْزَى العـدو . ولا خلاف فى هذا .

وقسم ثان من واجب الجهـاد — فرض أيضا على الإمام إغزاء طائفة إلى العـدو كلّ سـنة مرة ، يخرج معهم بنفسـه ، أو يُخرج مَن يثق به ليدعوَهم إلى الإسـلام ويرغّبهم ، ويكف أذاهم ويظهر دين الله عليهم، حتى يدخلوا فى الإسلام أو يُعطوا الجزية عن يَدٍ .

ومن الجهاد أيضا ما هو نافلة ، وهو إخراج الإمام طائفةً بعـد طائفة ، وبَعْثُ السّرايا فى أوقات الغِرّة وعند إمكان الفرصـة ، والإرصاد لهم بالرِّباط فى موضع الخوف ، و إظهـار القوّة . فإن قيل : كيف يصنع الواحد إذا قصّر الجميع، وهى : —

الخامســة — قيل له : يعمِد إلى أسير واحد فيفديه ؛ فإنه إذا فدى الواحدَ فقد أدّى فى الواحد أكثر مما كان يلزمه فى الجماعة ؛ فإن الأغنياء لو اقتسموا فداء الأسارى ما أدّى كل واحد منهم إلا أقلّ من درهم . ويغزو بنفسه إن قدر وإلّا جهّز غازيا . قال صلى الله عليـه وسلم : " من جهّز غازيا فقد غزا ومن خَلَفه فى أهـله بخير فقد غزا " أخرجه الصحيح . وذلك لأن مكانه لا يغنى وماله لا يكفى .

السادســة — روى أن بعض الملوك عاهدَ كفارا على ألا يحبسوا أسيرا، فدخل رجل من المسلمين جهة بلادهم فمرّ على بيت مغلق، فنادته امرأة أنى أسيرة ، فأبلغ صاحبك خبرى ، فلما اجتمع به واستطعمه عنده وتجاذبا ذيل الحديث ، انتهى الخبر إلى هذه المعذّبة، فما أكمل حديثه حتى قام الأمير على قدميه وخرج غازيا من فوره ، ومشى إلى الثّغْر حتى أخرج الأسيرة واستولى على الموضع ؛ رضى الله عنه . ذكره ابن العربى وقال : «ولقد نزل بنا العدو — قصمه الله — سـنة سبع وعشرين وخمسمائة ، فجاس ديارنا وأسر خيرتنا وتوسط بلادنا فى عدد هال الناسَ عددُه ، وكان كثيرا وإن لم يبلغ ما حدّدوه . فقلت للوالى والمولى عليه : هذا عدوّ الله قد حصل فى الشَّرَك والشبكة، فلتكن عندكم بركة، ولتظهر منكم إلى نُصرة الدين المتعيّنة عليكم حركة ، فليخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد فى جميع الأقطار فيحاط

به ؛ فإنه هالك لا محـالة إن يسركم الله له . فغلبت الذنوب و رجفت القلوب بالمعـاصى ، وصار كل أحد من الناس ثعلبا يأوى إلى وِجاره و إن رأى المكيدة بجاره . فإنا لله و إنا إليـه راجعون . وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

السابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا ﴾ أمر بالجهاد، وهومشتق من الجهد ﴿ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ روى أبو داود عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم" . وهذا وصف لأكمل ما يكون من الجهاد وأنفعه عند الله تعالى . فحضّ على كمال الأوصاف، وقدّم الأموال فى الذكر إذ هى أوّل مصرف وقت التجهيز . فرتّب الأمر كما هو فى نفسه .

قوله تعـالى : لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾

لمـا رجع النبيّ صلى الله عليـه وسلم من غزوة تبوك أظهر الله نفاق قوم . والعَرَض : ما يعرض من منافع الدنيـا . والمعنى : غنيمة قريبـة . أخبر عنهم أنهم لو دُعُوا إلى غنيمة لاتبعوه . ﴿ عَرَضًا ﴾ خبر كان . ﴿ قَرِيبًا ﴾ نعته . ﴿ وَسَفَرًا قَاصِدًا ﴾ عطف عليه . وحذف آسم كان لدلالة الكلام عليـه . التقدير : لو كان المدعوّ إليه عَرَضًا قريبا وسفرا قاصـدا ــ أى سهلا معلوم الطُّرُق ــ لاتبعوك . وهـذه الكناية للنافقين كما ذكرنا؛ لأنهم داخلون فى جملة من خوطب بالنفير . وهذا موجود فى كلام العرب، يذكرون الجملة ثم يأتون بالإضمار عائدا على بعضها ؛ كما قيل فى قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » أنها القيامـة . ثم قال جل وعز : « ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا »[1] يعنى جل وعز جهنم . ونظير هـذه الآية من السُّنة فى المعنى قولُه عليه السلام : "لو يعلم أحدهم أنه يجد عَظْمًا سمينا

(١) آية ٧١ و ٧٢ سورة مريم .

أو مِرْماتين[1] حسنتين لشَهِد العِشاء" . يقـول : لو علم أحدهم أنه يجـد شيئا حاضرا معجّلا يأخذه لأتى المسجد من أجله . ﴿ وَلَٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّـقَّةُ ﴾ حكى أبو عبيدة وغيره أن الشـقة السفر إلى أرض بعيدة . يقال : منه شُقّة شاقة . والمراد بذلك كلّه غزوة تبوك . وحكى الكسـائى أنه يقال شُقة وشِقة . قال الجوهرى : الشّقة بالضم من الثياب، والشّقة أيضا السفر البعيد وربمـا قالوه بالكسر . والشّـقة شَظِيّة تُشْظَى من لوح أو خشبة . يقال للغضبان : احتدّ فطارت منه شِقة، بالكسر . ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا ﴾ أى لو كان لنا سَعة فى الظَّهْر والمـال . ﴿ لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ نظيره « ولله على الناس حِجُّ البيت مَن استطاع إليه سبيلاً » فسرها النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " زادٌ وراحلة "[2] وقد تقدم . ﴿ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ أى بالكذب والنفاق . ﴿ وَاللَّهُ يَعْـلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فى الاعتلال .

قوله تعـالى : عَفَا ٱللَّهُ عَنـكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُـمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ (٤٣)

قوله تعـالى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْـكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ قيـل : هو افتتـاح كلام ؛ كما تقول : أصلحك الله وأعزك ورحمك ! كان كذا وكذا . وعلى هذا التأويل يحسن الوقف على قوله : « عفا الله عنك » ؛ حكاه مَكّيّ والمهـدوىّ والنحاس . وأخبره بالعفو قبل الذنب لئلا يطير قلبه فَرَقا[3] . وقيل : المعنى عفا الله عنك ما كان من ذنبك فى أن أذِنت لهم؛ فلا يحسن الوقف على قوله : « عفا الله عنك » على هذا التقدير؛ حكاه المهدِوىّ واختاره النحاس . ثم قيل : فى الإذن قولان : الأول — « لِمَ أذِنت لهم » فى الخروج معك، وفى خروجهم بلا عُدّة ونية صادقة فسادٌ . الثانى — « لِمَ أذِنت لهم » فى القعود لمـا اعتلّوا بأعذار؛ ذكرهما القشـيرىّ قال : وهذا عتاب تلطف ؛ إذ قال : « عفا الله عنك » . وكان عليـه السلام أذن من غير وَحْى نزل فيه . قال قتادة وعمرو بن ميمون : ثنتان فعلهما النبيّ صلى الله عليه وسـلم لم يؤمر

(١) مرماتين (بكسر الميم) وقد تفتح ، تثنية مرماة ؛ وهى ظلف الشاة ، أو ما بين ظلفها من اللحم .

(٢) راجع جـ ٤ ص ١٥٣ طبعة أولى أو ثانية . (٣) الفرق بالتحريك : الخوف والجزع .

بهما : إذنُه لطائفة من المنافقين فى التخلف عنه ولم يكن له أن يمضىَ شيئا إلا بوَحى، وأخذُه من الأسارى الفِدية؛ فعاتبه الله كما تسمعون . قال بعض العلماء : إنما بدر منه ترك الأوْلى، فقدّم الله له العفو على الخطاب الذى هو فى صورة العتاب .

قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ أى ليتبيّن لك مَن صَدق ممن نافق . قال ابن عباس : وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يومئذ يعرف المنافقين، وإنما عرفهم بعد نزول سورة التوبة . وقال مجاهد : هؤلاء قوم قالوا : نستأذن فى الجلوس، فإن أذِن لنا جلسنا، وإن لم يؤذن لنا جلسنا . وقال قتادة : نسخ هذه الآية بقوله فى سورة النور : «فإذا استأذنوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِم فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنهم»(1) . ذكره النحاس فى معانى القرآن له .

قوله تعالى : لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أى فى القعود ولا فى الخروج ، بل إذا أمرت بشىء ابتدروه ؛ فكان الاستئذان فى ذلك الوقت من علامات النفاق لغير عذر؛ ولذلك قال : ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ . روى أبو داود عن ابن عباس قال : « لايستأذنك الذين يؤمنون بالله » نسختها التى فى النور « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله — إلى قوله — غفور رحيم »(2) . ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ فى موضع نصب بإضمار فى؛ عن الزجاج . وقيل : التقدير

(1) آية ٦٢　　(2) آية ٦٢

كراهية أن يجاهدوا ؛ كقوله : « يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا »[1] . ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ شكّت في الدّين . ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ أى فى شكهم يذهبون و يرجعون .

قوله تعالى : وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ﴾ أى لو أرادوا الجهاد لتأهبوا أُهْبة السفر . فتركُهم الاستعداد دليل على إرادتهم التخلف . ﴿ وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ ﴾ أى خروجهم معك . ﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ أى حبسهم عنك وخذلهم؛ لأنهم قالوا : إن لم يؤذن لنا فى الجلوس أفسدنا وحرّضنا على المؤمنين . ويدلّ على هذا أن بعده « لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا » . ﴿ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ قيل : هو من قول بعضهم لبعض . وقيل : هو من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم، ويكون هذا هو الإذن الذى تقدم ذكره . قيل : قاله النبيّ صلى الله عليه وسلم غضبا، فأخذوا بظاهر لفظه وقالوا : قد أذن لنا . وقيل : هو عبارة عن الخذلان ؛ أى أوقع الله فى قلوبهم القعود . ومعنى ﴿ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ أى مع أولى الضرر والعميان والزَّمْنَى والنسوان والصبيان .

قوله تعالى : لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ هو تسلية للمؤمنين فى تخلف المنافقين عنهم . والخبال : الفساد والنميمة و إيقاع الاختلاف والأراجيف . وهذا استثناء منقطع؛ أى ما زادوكم قوة ولكن طلبوا الخبال . وقيل : المعنى لا يزيدونكم فيما يترددون من الرأى إلا خبالا ؛ فلا يكون الاستثناء منقطعا .

---

(١) آخر سورة النساء .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ ﴾ المعنى لأسرعوا فيما بينكم بالإفساد . والإيضاع: سرعة السير . وقال الراجز (١) :

يا ليتني فيها جَذَعْ * أَخُبُّ فيها وأَضَعْ

يقال : وَضع البعيرُ إذا عدا ، يضع وضـعا ووضوعا (٢) إذا أسرع السير . وأوضعته حملته على العَدْو . وقيل : الإيضاع سير مثلُ الخَبَب . والخلل الفرجة بين الشيئين، والجمع الخلال، أى الفُرَج التى تكون بين الصفوف . أى لأوضـعوا خلالكم بالنميمة و إفساد ذات البين . ﴿ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ مفعول ثان . والمعنى يطلبون لكم الفتنة؛ أى الإفساد والتحريض . و يقال: أبغيته كذا أعنتــه على طلبه ، وبَغَيتــه كذا طلبته له . وقيل : الفتنــة هنا الشرك . ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ أى عيون لهم ينقلون إليهم الأخبار منكم . قتادة : وفيكم من يقبل منهم قولهم و يطيعهم . النحاس : والقول الأول أولى ؛ لأنه الأغلب من معنييه أن معنى سَمّـاع يسمع الكلام : ومثله « سَمّـاعون لِلكَذِب (٣) » . والقول الثانى — لا يكاد يقال فيه إلا سـامع ؛ مثل قائل .

قوله تعـالى : لَقَدِ ٱبْتَغَوُا ٱلْفِتْنَـةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى لقد طلبوا الإفساد والخبـال من قبل أن يظهر أمرهم، و ينزل الوحى بما أسرّوه و بما سيفعلونه . وقال ٱبن جُريج : أراد اثنى عشر رجلا من المنافقين، وقفوا على ثَنِية (٤) الوداع ليلة العقبة ليفتِكوا بالنبيّ صـلى الله عليه وسـلم . ﴿ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ ﴾ أى صرفوها وأجالوا الرأى فى إبطال ما جئت به . ﴿ حَتَّى جَاءَ الْحَـقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ ﴾ أى دينه ﴿ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ .

(١) هو دريد بن الصمة ؛ كما فى اللسان . (٢) الذى فى كتب اللغة أنه يقـال : وضع البعير وضـعا وموضوعا . أما الوضوع فهو من مصادر قولهم : وضع الرجل نفسه وضعا ووضوعا، وضعة (بفتح الضاد وكسرها) اذا أذلها .
(٣) آية ٤٢ سورة المـائدة . (٤) الثنية : الطريقة فى الجبل كالنقب ؛ وقيل الطريق العالى فيه . والوداع : واد بمكة ؛ وثنية الوداع منسوبة اليه .

قوله تعالى : وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٞ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي ﴾ من أذِن يأذَن . وإذا أمرت زدت همزة مكسورة و بعدها همزة هى فاء الفعل، ولا يجتمع همزتان؛ فأبدلت من الثانية ياء لكسرة ما قبلها فقلت إيذن . فإذا وصلت زالت العلة فى الجمع بين همزتين، ثم همزت فقلت : « ومنهم من يقول ائذن لى » . وروى ورش عن نافع « ومنهم من يقولُ اوذَنْ لِي » خفف الهمزة[1] . قال النحاس : يقال إيذن لفلان ثم إيذن له ، هجاء الأولى والثانية واحد بألف و ياء قبل الذال فى الخط . فإن قلت : إيذن لفلان وأْذن لغيره كان الثانى بغير ياء؛ وكذا الفاء . والفرق بين ثُمّ والواو أن ثم يوقف عليها وتنفصل ، والواو والفاء لا يوقف عليهما ولاينفصلان. قال محمد بن إسحاق : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للجدّ بن قيس أخى بنى سلمة لما أراد الخروج إلى تبوك : " يا جدّ، هل لك فى جلاد بنى الأصفر تتخذ منهم سرارى ووُصَفاء " فقال الجد : قد عرف قومى أنى مغرم بالنساء ، وإنى أخشى إن رأيت بنى الأصفر ألّا أصبر عنهن ، فلا تَفْتِنّى وأذن لى فى القعود وأعينك بما لى ؛ فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " قد أذنت لك " فنزلت هذه الآية . أى لا تفتنّى بصباحة وجوههم ، ولم يكن به علة إلا النفاق . قال المهدوىّ : والأصفر رجل من الحبشة، كانت له بنات لم يكن فى وقتهن أجمل منهن، وكان ببلاد الروم . وقيل : سُمُّوا بذلك لأن الحبشة غلبت على الروم، وولدت لهم بنات فأخذن من بياض الروم وسواد الحبشة، فكنّ صُفرًا لُعْسًا[2] . قال ابن عطية : فى قول ابن إسحاق فتور . وأسند الطبرىّ أن رسول الله

(١) أى أبدلها واوا لضمه اللام قبلها؛ فينطق باللام كأنها متصلة بواو الجماعة . (٢) اللعس : سواد اللثة والشفة . وقيل : اللعس واللعسة : سواد يعلو شفة المرأة البيضاء . وقيل : هو سواد فى حمرة .

صـلى الله عليه وسـلم قال : " اغزوا تغنموا بنات الأصفر " فقـال له الجـد : إيذن لنـا ولا تفتنّا بالنساء . وهـذا منزع غير الأوّل ، وهو أشـبه بالنفاق والمحادّة . ولـما نزلت قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لبنى سلمة — وكان الجدّ بن قيس منهم : "من سيدكم يابنى سلمة"؟ قالوا : جدّ بن قيس، غير أنه بخيل جبان . فقال النبيّ صـلى الله عليه وسلم : " وأىّ داء أدوى[1] من البخل بل سيدكم الفتى الأبيض بشر بن البراء بن معرور " . فقال حسان بن ثابت الأنصارىّ فيه :

وسـوّد بشر بن الـبراء لجوده ✻ وحقّ لبشر بن البرا أن يسوّدا
اذا ما أتاه الوفـد أذهب ماله ✻ وقال خـــذوه إننى عائد غدا

﴿ أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَــقَطُوا ﴾ أى فى الإثم والمعصـية وقعوا . وهى النفاق والتخلف عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ أى مسـيرهم إلى النار، فهى تحدق بهم .

قوله تعـالى : ﴿ إِنْ تُصِـبْكَ حَسَنَةٌ تَسُـؤْهُمْ ﴾ شرط ومجازاة ؛ وكذا ﴿ وَإِنْ تُصِـبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا ﴾ عطف عليه . والحسنة : الغنيمة والظفر. والمصيبة الانهزام . ومعنى قولهـم : « أخذنا أمرنا مـن قبل » أى احتطنا لأنفسنا ، وأخذنا بالحزم فلم نخـرج إلى القتـال . ﴿ وَيَتَوَلَّوْا ﴾ أى عن الإيمـان . ﴿ وَهُمْ فَرِحُونَ ﴾ أى معجبون بذلك .

قوله تعـالى : قُـلْ لَنْ يُصِـيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَـا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَـا ﴾ قيـل : فى اللوح المحفوظ . وقيل : ما أخبرنا به فى كتابه من أنا إمّا أن نظفر فيكون الظفر حسنى لنـا، وإما أن نقتـل

---

(١) أى أى عيب أقبح منه . قال ابن الأثير : « والصواب أدوأ بالهمز، وموضعه أول الباب، ولكن هكذا يروى ، الا أن يجعل من باب دوى يدوى دوا فهو دو إذا هلك بمرض باطن » .

فتكون الشهادة أعظم حسنى لنا . والمعنى كل شيء بقضاء وقدر . وقد تقدم فى « الأعراف » أن العِلم والقدر والكتّاب سواء .[1] ﴿ هُوَ مَوْلَانَا ﴾ أى ناصرنا . والتوكّل تفويض الأمر إليه. وقراءة الجمهور « يصيبَنا » نصب بلن . وحكى أبو عبيدة أن من العرب من يجزم بها . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « هل يصيبنا » . وحُكى عن أَعْيَن قاضى الرّىّ أنه قرأ « قل لن يصيبنّا » بنون مشـدّدة . وهـذا لحن ؛ لا يؤكّد بالنون ما كان خبرا ، ولو كان هـذا فى قراءة طلحة لجاز . قال الله تعالى : « هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ »[2] .

قوله تعـالى : قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا ﴾ والكوفيون يدغمون اللام فى التـاء . فأما لام المعرفة فلا يجوز إلا الإدغام؛ كما قال جل وعز : « التائبون » لكثرة لام المعرفة فى كلامهم . ولا يجوز الإدغام فى قوله : « قل تعالوا » لأن « قل » معتـل ، فلم يجمعوا عليـه علتين . والتربص الانتظار . يقـال تربص بالطعام أى انتظر به إلى حين الغلاء . والحسنى تأنيث الأحسـن . وواحد الحسنيين حسنى، والجمـع الحُسَن . ولا يجوز أن ينطق به إلا معرّفا . لا يقال : رأيت امرأة حسنى . والمراد بالحُسْـنيين الغنيمة والشهـادة ؛ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما . واللفظ اسـتفهام والمعنى توبيخ . ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ ﴾ أى عقوبة تهلككم ؛ كما أصاب الأمم الخالية من قبلكم . ﴿ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ أى يؤذن لنـا فى قتالكم . ﴿ فَتَرَبَّصُوا ﴾ تهديد ووعيـد . أى انتظروا مواعد الشـيطان إنا منتظرون مواعد الله .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠٣ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ١٥ سورة الحج .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قال ابن عباس : نزلت فى الجدّ بن قيس إذ قال ائذن لى فى القعود وهذا مالى أعينُك به . ولفظ ﴿ أنفقوا ﴾ أمرٌ، ومعناه الشرط والجزاء . وهكذا تستعمل العرب فى مثل هذا، تأتى بأو؛ كما قال الشاعر[1] :

أسيئى بنا أو أحْسنى لا ملومةٌ * لدينا ولا مَقْلِيّةٌ إن تَقَلّت

والمعنى إن أسأتِ أو أحسنتِ فنحن على ما تعرفين . ومعنى الآية : إن أنفقتم طائعين أو مكرهين فلن يقبل منكم . ثم بيّن جل وعز لم لا يقبل منهم فقال : « وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ » فكان فى هذا أدلّ دليل وهى : —

الثانيـــة — على أن أفعال الكافر إذا كانت برًّا كصلة القرابة وجبر الكسير وإغاثة الملهوف لا يثاب عليها ولا ينتفع بها فى الآخرة ؛ بَيْدَ أنه يُطْعَم بها فى الدنيا . دليلُه ما رواه مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت قلت : يارسول الله ، ابن جُدعان كان فى الجاهلية يَصِل الرحم ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه ؟ قال : " لا ينفعه، إنه لم يقل يوما ربِّ اغفر لى خطيئتى يوم الدين " . وروى عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة يُعْطَى بها فى الدنيا ويُجْزَى بها فى الآخرة وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل لله بها فى الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها " . وهذا نصٌّ . ثم قيل : هل بحكم هذا الوعد الصادق لا بد أن يطعم الكافر ويعطى بحسناته فى الدنيا، أو ذلك مقيّد بمشيئة الله المذكورة فى قوله : « عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ »[2] وهذا هو الصحيح من القولين ، والله أعلم . وتسمية ما يصدر عن الكافر حسنة إنما هو بحسب

(١) هو كثيّر عزّة، كما فى كتاب الأمالى لأبى على القالى . (٢) آية ١٨ سورة الإسراء .

ظن الكافر، وإلا فلا يصح منه قُرْبة؛ لعدم شرطها المصحّح لها وهو الإيمان . أو سُمّيت حسنة لأنها تشبه صورة حسنة المؤمن ظاهرا . قولان أيضا .

الثالثـــة — فإن قيل : فقد روى مسـلم عن حكيم بن حِزام أنه قال لرسول الله صـلى الله عليه وسـلم : أىْ رسولَ الله ، أرأيتَ أمورا كنتُ أتحنّث بهـا (١) فى الجاهلية من صـدقة أو عَتاقة أو صِـلةِ رَحِم أفيها أجر؟ فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : "أسـلمتَ على ما أسلفت من خير" . قلنا قوله "أسلمت على ما أسلفت من خير" مخالف ظاهره للأصول؛ لأن الكافر لا يصـح منه التقرب لله تعالى فيكون مثابا على طاعته؛ لأن من شرط المتقرِّب أن يكون عارفا بالمتقرَّب إليه، فإذا عدم الشرط انتفى صحة المشروط . فكان المعنى فى الحديث : إنك اكتسبت طباعا جميلة فى الجاهلية أكسبتك عادة جميلة فى الإســلام . وذلك أن حكيما رضى الله عنــه عاش مائة وعشرين ســنة؛ ستّين فى الإســلام وستين فى الجاهليــة ، فأعتق فى الجاهلية مائة رقبــة وحمل على مائة بعير؛ وكذلك فعل فى الإســلام . وهذا واضح . وقد قيل : لا يبعد فى كرم الله أن يثيبه على فعله ذلك بالإسلام ، كما يسقط عنه ما ارتكبه فى حال كفره من الآثام . وإنما لا يثاب من لم يسلم ولا تاب ومات كافرا . وهذا ظاهر الحديث . وهو الصحيح إن شاء الله . وليس عدم شرط الإيمـان فى عدم ثواب ما يفعـله من الخير ثم أسلم ومات مسلما بشرط عقلىّ لا يتبدّل . والله أكرم من أن يضيع عمله إذا حسن إسلامه . وقد تأوّل الحربى الحديث على هذا المعنى فقال : "أسلمت على ما أسلفت"؛ أى ما تقدم لك من خير عملته فذلك لك . كما تقول : أسلمت على ألف درهم؛ أى على أن أحرَزَها لنفسه . والله أعـــلم .

الرابعـــة — فإن قيل : فقد روى مسـلم عن العباس قال : قلت يارسول الله [إن] ابا طالب كان يحوطك وينصرك؛ فهل نفعــه ذلك ؟ قال : "نعم، وجدته فى غمرات من النار فأخرجته إلى ضَحْضاح (٢)" . قيل له : لا يبعد أن يخفف عن الكافر بعض العذاب بما عمل

(١) التحنث : التعبد .

(٢) الضحضاح فى الأصل : مارق من المـاء على وجه الأرض ، ما يبلغ الكعبين . فاستعاره للنار .

من الخير، لكن مع انضمام شفاعة؛ كما جاء فى أبى طالب . فأما غيره فقد أخبر التنزيل بقوله : « فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ »(١) . وقال مخبرا عن الكافرين : « فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ »(٢) . وقد روى مسلم عن أبى سعيد الخُدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذُكِر عنده عمه أبو طالب فقال : " لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة فيُجعل فى ضَحْضاح من النار يبلغ كعبيه يَغْلِي منه دماغه " . من حديث العباس : " ولولا أنا لكان فى الدَّرك الأسفل من النار " .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ أى كافرين .

قوله تعالى : وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ ﴾ « أنْ » الأولى فى موضع نصب، والثانية فى موضع رفع . والمعنى : وما منعهم من أن تقبل منهم نفقاتهم إلا كفرهم. وقرأ الكوفيون « أن يُقبل مِنهم » بالياء؛ لأن النفقات والإنفاق واحد .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى ﴾ قال ابن عباس : إن كان فى جماعة صلى وإن انفرد لم يصلّ ، وهو الذى لا يرجو على الصلاة ثوابا ولا يخشى فى تركها عقابا . فالنفاق يورث الكسل فى العبادة لا محالة . وقد تقدم فى « النساء »(٣) القول فى هذا كله . وقد ذكرنا هناك حديث العلاء مُوعَبا(٤) . والحمد لله .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ لأنهم يعدونها مَغْرما ومنعها مَغْنما . و إذا كان الأمر كذلك فهى غير متقبَّلة ولا مثاب عليها حسب ما تقدم .

(١) آية ٤٨ سورة المدثر .		(٢) آية ١٠٠ سورة الشعراء .
(٣) راجع ج ٥ صفحة ٤٢٢ طبعة أولى أو ثانية .		(٤) لعل صوابه : حديث الأعرابى .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾

أى لاتستحسن ما أعطيناهم ولا تَمِل إليه فإنه استدراج . ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا ﴾ قال الحسن : المعنى بإخراج الزكاة والإنفاق فى سبيل الله . وهــذا اختيار الطـبرى . وقال ابن عبـاس وقتادة : فى الكلام تقــديم وتأخير ؛ والمعنى فلا تعجبـك أموالهم ولا أولادهم فى الحياة الدنيا إنمـا يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة . وهذا قول أكثر أهل العربية ؛ ذكره النحاس . وقيل : يعذبهم بالتعب فى الجمع . وعلى هذا التأويل وقول الحسن لا تقــديم فيها ولا تأخير ؛ وهو حسن . وقيــل : المعنى فلا تعجبـك أموالهم ولا أولادهم إنمـا يريد الله ليعذبهم بها فى الدنيا لأنهم منافقون، فهم ينفقون كارهين فيعذَّبون بمـا ينفقون . ﴿ وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ نصٌّ فى أن الله يريد أن يموتوا كافرين ؛ سبق بذلك القضـاء . ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ ﴾ بيّن أن من أخلاق المنافقين الحلَف بأنهم مؤمنون . نظيره «إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ»(١) الآية . والفَرَق الخوف؛ أى يخافون أن يظهروا ما هم عليه فيُقتلوا .

قوله تعـالى : ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ لَوْ يَجِــدُونَ مَلْجَأً ﴾ كذا الوقف عليــه . وفى الخط بألفَين : الأولى همزة، والثانية عوض من التنوين؛ وكذا [رأيت] جزءا . والملجأ الحصن؛ عن قتادة وغيره . ابن عباس : الحرز؛ وهما سواء . يقال : لجأت إليه لجأ (بالتحريك)(٢) وملجأ والتجأت إليه

(١) أول سورة المنافقون . (٢) هــذه عبارة الجوهرى فى صحاحه . والذى فى اللسان والقاموس أنه يقال لَجَأَ لَجْأً، مثل منع منعا . ولجئ لجأ مثل فرح فرحا .

بمعنًى . والموضع أيضـا لَجَأ ومَلْجأ . والتّلجئة الإكراه . وألجأته إلى الشيء اضطررته إليه . وألجأت أمرى إلى الله أسندته . وعمر بن لَجَأ التيميّ (١) الشاعر؛ عن الجوهرىّ . ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ جمع مَغارة؛ من غار يَغير . قال الأخفش : و يجوز أن يكون من أغار يُغير؛ كما قال الشاعر:

* الحمد لله مُسانا ومُصْبَحنا (٢) *

قال ابن عباس : المغارات الغِيران والسراديب، وهى المواضع التى يستتر فيها؛ ومنه غار المـاء وغارت العين . ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ مفتعل من الدخول؛ أى مسلكا نختفى بالدخول فيه، وأعاده لاختلاف اللفظ . قال النحاس : الأصـل فيه مدتخل، قلبت التاء دالا؛ لأن الدال مجهورة والتاء مهموسـة وهما من مخرج واحد . وقيل : الأصل فيه مُتَدَخّل على مُتَفَعّل؛ كما فى قراءة أُبَىّ « أو مُتَدَخَّلا » ومعناه دخول بعد دخول، أى قوما يدخلون معهم . المهدَوىّ : متدخّلا من تدخّل مثل تفعّل إذا تكلّف الدخول . وعن أُبَىّ أيضا مُنْـدَخلا من اندخَل ، وهو شاذ ، لأنـ ثلاثيه غير متعدّ عنـد سيبويه وأصحابه . وقرأ الحسن وابن أبى إسحاق وابن مُحَيْصن « أو مَدْخلا » بفتح الميم و إسكان الدال . قال الزجاج : و يقرأ « أو مُدْخلا » بضم الميم و إسكان الدال . الأول من دخل يدخل . والثانى من أدخل يُدخل . كذا المصدر والمكان والزمان كما أنشد سيبو يه :

* مُغَارَ ابنِ همّامٍ على حىّ خَثْعَمَا (٣) *

ورُوى عن قتـادة وعيسى والأعمش « أو مدّخّلا » بتشـديد الدال والخاء . والجمهور بتشديد الدال وحدها؛ أى مكانا يدخلون فيه أنفسهم . فهذه ست قراءات . ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾

---

(١) كذا فى الصحاح للجوهرى «التيمى» . والصواب أنه «التيمى» . لأنه من تيم بن عبد مناة بن أدّ بن طابخة . ومات عمر بن لجأ بالأهواز، وكان يهاجى جريرا . (عن الشعر والشعراء) . (٢) هذا صدر بيت لأمية بن أبى الصلت . وعجزه : * بالخير صبحنا ربى ومسانا *

(٣) هذا عجز بيت لحميد بن ثور . وصدره : * وما هى إلا فى إزار وعلقة *

وصف امرأة كانت صغيرة السن كانت تلبس العلقة وهى من لباس الجوارى ، وهى ثوب قصـير بلا كمين تلبسه الصبية تلعب فيـه ، و يقال له الأتب والبقيرة ، وكانت تلبسه وقت اغارة ابن همام على هـذا الحىّ . وخثعم قبيلة من اليمن . (عن شرح الشواهد) .

أى لرجعوا إليه . ﴿ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ أى يسرعون ، لا يردّ وجوههم شيء . من جمح الفرس إذا لم يرده اللجام . قال الشاعر :

سَبُوحًا جَمُوحا وإحضـارها * كَمَعمعـة السَّعَف المُوقَـد (١)

والمعنى: لو وجدوا شيئا من هذه الأشياء المذكورة لولّوا إليه مسرعين هربا من المسلمين.

قوله تعـالى : وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَاتِ ﴾ أى يطعن عليك؛ عن قتـادة . الحسن : يعيبك . وقال مجاهد : أى يَرُوزك (٢) ويَسألك . النحاس : والقول عند أهل اللغة قول قتـادة والحسن . يقـال : لَمَزه يلمِزه إذا عابه . واللَّمْز فى اللغـة العيب فى السر . قال الجوهرىّ : اللمز العيب، وأصـله الإشارة بالعين ونحوها، وقد لمزه يلمِزه ويلمُزه وقرئ بهما «ومنهم من يلمُزك فى الصدقات» . ورجل لمـاز ولُمَزة أى عيّاب . و يقال أيضا : لمزه يلمزه إذا دفعه وضربه . والهَمْز مثل اللّمز . والهامز والهماز العيّاب، والهُمَزة مثله . يقال: رجل هُمَزة وآمرأة هُمَزة أيضا . وهَمَزه أى دفعه وضربه . ثم قيل: اللمز فى الوجه، والهمز بظَهْر الغَيْب . وصف الله قوما من المنافقين بأنهم عابوا النبىّ صلى الله عليه وسـلم فى تفريق الصـدقات ، وزعموا أنهم فقراء ليعطيهم . قال أبو سعيد الخُدْرىّ : بينا رسول الله صلى الله عليه وسـلم يُقسم مالا إذ جاءه حُرْقُوص بن زهير أصلُ الخوارج، و يقال له ذو الخُوَيصرة التّميمىّ؛ فقال: اعدل يارسول الله . فقال : "وَيْلَك ومَن يعدل إذا لم أعدل" فنزلت الآية . حديث صحيح أخرجه مسلم بمعناه . وعندها قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : دعنى يارسول الله فأقتلَ هذا المنافق . فقال : "معاذ الله أن يتحدّث الناس أنى أقتل أصحابى إنّ هذا وأصحابَه يقرءون القرآن لا يُجاوز حناجرهم يَمْرُقون منه كما يَمْرُق السّهم من الرّمِيّة" .

---

(١) البيت لامرئ القيس . والإحضار : العدو . (٢) الروز : الامتحان والتقدير .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ ﴾ جواب « لو » محذوف ، التقدير لكان خيرا لهـــم .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

فيه ثلاثون مسألة :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ خصّ الله سبحانه بعض الناس بالأموال دون بعض نعمــة منه عليهم ، وجعل شـكر ذلك منهم إخراجَ سهم يؤدّونه إلى من لا مال له ، نيابة عنه سبحانه فيما ضمِنه بقوله : «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا»[1] .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ تبيين لمصارف الصدقات والمحلّ؛ حتى لا تخرج عنهم . ثم الاختيار إلى مَن يقسم؛ هذا قول مالك وأبي حنيفة وأصحابهما . كما يقال : السّرج للدابة والباب للدار . وقال الشافعيّ : اللام لام التمليك؛ كقولك : المـال لزيد وعمرو و بكر ، فلا بدّ من التسوية بين المذكورين . قال الشافعيّ وأصحابه : وهذا كما لو أوصَى لأصناف معينين أو لقوم معيّنين . واحتجوا بلفظة « إنمـا » وأنها تقتضي الحصر في وقوف الصدقات على الثمانية الأصناف ، وعَضَدُوا هذا بحديث زياد بن الحارث الصُّدائيّ قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبعث إلى قومي جيشا فقلت : يا رسول الله ، احبس جيشك فأنا لك بإسلامهم وطاعتهم ، وكتبتُ إلى قومي فجاء إسلامهم وطاعتهم . فقال رسول الله صلى الله عليه

(١) آية ٦ سورة هود .

وسلم : " يا أخا صُداء المطاعُ فى قومه ". قال : قلت بل مَنّ الله عليهم وهداهم؛ قال : ثم جاءه رجل يسأله عن الصدقات ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لم يرض فى الصدقات بحكم نبيّ ولا غيره حتى جزّأها ثمانية أجزاء فإن كنت من أهل تلك الأجزاء أعطيتك " رواه أبو داود والدَّارَقُطْنِي . واللفظ للدارقطنى . وحُكى عن زين العابدين أنه قال : إنه تعالى علّم قدر ما يدفع من الزكاة وما تقع به الكفاية لهذه الأصناف ، وجعله حقا لجميعهم ، فمن منعهم ذلك فهو الظالم لهم رزقهم . وتمسّك علماؤنا بقوله تعالى : « إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ[1] » . والصدقة متى أطلقت فى القرآن فهى صدقة الفرض . وقال صلى الله عليه وسلم : " أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردّها على فقرائكم " . وهذا نص فى ذكر أحد الأصناف الثمانية قرآنا وسنة؛ وهو قول عمر بن الخطاب وعليّ وآبن عباس وحذيفة . وقال به من التابعين جماعة . قالوا : جائز أن يدفعها إلى الأصناف الثمانية ، وإلى أى صنف منها دفعتَ جاز . روى المِنْهال بن عمرو عن زِرّ بن حُبيش عن حُذيفة فى قوله : « إنما الصدقاتُ لِلفقراءِ والمساكينِ » قال : إنما ذكر الله هذه الصدقات لتُعرف ، وأيّ صنف منها أعطيتَ أجزأك . وروى سعيد آبن جُبير عن آبن عباس « إنما الصدقات لِلفقراءِ والمساكينِ » قال : فى أيها وضعت أجزأ عنك . وهو قول الحسن وإبراهيم وغيرهما . قال الكِيَا الطبريّ : حتى آدعى مالك الإجماع على ذلك .

قلت : يريد إجماع الصحابة؛ فإنه لا يُعلم لهم مخالف منهم على ماقال أبو عمر، والله أعلم . آبن العربيّ : والذى جعلناه فَيْصلا بيننا وبينهم أن الأمة آتفقت على أنه لو أُعطى كلُّ صنف حظّه لم يجب تعميمه ، فكذلك تعميم الأصناف مثله . والله أعلم .

الثالثة — واختلف علماء اللغة وأهل الفقه فى الفرق بين الفقير والمسكين على تسعة أقوال : فذهب يعقوب بن السِّكِّيت والقُتَبى ويونس بن حبيب إلى أن الفقير أحسن حالا من

(١) آية ٢٧١ سورة البقرة .

المسكين . قالوا : الفقير هو الذى له بعض ما يكفيه ويقيمه، والمسكين الذى لا شيء له؛ واحتجّوا بقول الراعى :

أما الفقــير الذى كانت حَلُوبَتُــه * وَفْقَ العِيَــال فـلم يُترك له سَــبَدُ (١)

وذهب الى هــذا قوم من أهل اللغة والحــديث منهم أبو حنيفة والقــاضى عبد الوهاب ، والوَفق من الموافقة بين الشيئين كالالتحام؛ يقال : حلوبته وفق عياله أى لها لبن قدر كفايتهم لافضل فيه؛ عن الجوهرى . وقال آخرون بالعكس؛ فجعلوا المسكين أحسنَ حالا من الفقير. واحتجوا بقوله تعالى : « أَمّا السَّفِينَةُ فكَانَتْ لِمساكِينَ يَعْمَلُونَ فِى البحرِ » (٢) . فأخبر أن لهم سفينة من سفن البحر . وربما ساوت جملةً من المــال . وعَضَدوه بما رُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه تعوّذ من الفقر . وروى عنه أنه قال : "اللَّهُمّ أَحْيِنِى مسكينا وأمتنى مسكينا" . فلو كان المسكين أسوأَ حالا من الفقير لتناقض الخبران؛ إذ يستحيل أن يتعوّذ من الفقر ثم يسأل ماهو أسوأ حالا منه، وقد استجاب الله دعاءه وقَبَضَه وله مال ممــا أفاء الله عليه، ولكن لم يكن معه تمــام الكفاية؛ ولذلك رَهَن دِرعه . قالوا : وأما بيت الرّاعى فلا حجة فيه؛ لأنه إنمــا ذكر أن الفقــير كانت له حَلُوبة فى حال . قالوا : والفقير معناه فى كلام العرب المفقور الذى نُزعت فِقَره (٣) من ظهره من شدة الفقر فلا حال أشدّ من هذه . وقد أخبر الله عنهم بقوله « لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى الْأَرْضِ » (٤) . وآستشهدوا بقول الشاعر :

لمــا رأى لُبَــدُ النُّسورَ تطايرت * رفعَ القــوادمَ كالفقــير الأعْزَلِ (٥)

أى لم يطق الطيران فصار بمنزلة من آنقطع صلبه ولصق بالأرض . ذهب الى هذا الأصمعىّ وغيره، وحكاه الطحاوىّ عن الكوفيين . وهو أحد قولى الشافعىّ وأكثر أصحابه . وللشافعىّ

---

(١) السبد : الوبر . وقيل الشعر . والعرب تقول : ماله سبد ولا لبد؛ أى ماله ذو وبر ولا صوف متلبد؛ و يكنى بهما عن الإبل والغنم . (٢) آية ٧٩ سورة الكهف . (٣) الفقرة (بالكسر) والفقرة والفقارة (بفتحهما) : ما انتضد من عظام الصلب من لدن الكاهل الى العجب . (٤) آية ٢٧٣ ســورة البقرة .

(٥) البيت للبيد . ولبد : اسم آخر نسور لقمان بن عاد؛ سماه بذلك لأنه لبد فبق لا يذهب ولا يموت . والقوادم : أربع أو عشر ريشات فى مقدّم الجناح؛ الواحدة قادمة .

قول آخر : أن الفقير والمسكين سواء، لافرق بينهما فى المعنى و إن افترقا فى الآسم ؛ وهو القول الثالث . والى هذا ذهب ابن القاسم وسائر أصحاب مالك، و به قال أبو يوسف .

قلت : ظاهر اللفظ يدل على أن المسكين غير الفقير، وأنهما صنفان، إلا أن أحد الصّنفين أشدّ حاجة من الآخر؛ فمن هذا الوجه يقرب قول من جعلهما صنفا واحدا، والله أعلم . ولا حجة فى قول من احتج بقوله تعالى : «أمّا السفينةُ فكانت لمساكين» . لأنه يحتمل تكون مستأجرة لهم؛ كما يقال : هذه دار فلان إذا كان ساكنَها و إن كانت لغيره . وقد قال تعالى فى وصف أهل النار : « وَلَهُمْ مَقَامِـعُ مِنْ حَدِيدٍ » (١) فأضافها اليهم . وقال تعالى : « وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أموالكم » (٢) . وقال صلى الله عليه وسلم : " من باع عبدا وله مال " . وهو كثير جدا يضاف الشيء اليه وليس له . ومنه قولهم : باب الدار . وجُلّ الدابة، وسرج الفرس، وشبهه . ويجوز أن يُسمّوا مساكين على جهة الرحمة والآستعطاف؛ كما يقال لمن آمتُحن بنكبة أو دفع الى بلية مِسكين . وفى الحديث " مساكين أهل النار " وقال الشاعر :

مساكين أهل الحب حتى قبورهم * عليهـا تراب الذل بيـن المقـابر

وأما ما تأوّلوه من قوله عليه السلام : " اللهم أحيِنِي مسكينا " الحديث . رواه أنس، فليس كذلك؛ و إنمـا المعنى ها هنا : التواضع لله الذى لا جبروت فيه ولا نخوة، ولا كبر ولا بطر، ولا تكبّر ولا أشر . ولقد أحسن أبو العتاهية حيث قال :

إذا أردت شريف القوم كلّهم * فآنظر إلى ملِك فى زِىّ مِسكين
ذاك الذى عظُمت فى الله رغبته * وذاك يصلح للدنيـا وللديـن

وليس بالسائل ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قد كره السؤال ونهى عنـه، وقال فى آمرأة سـوداء أبت أن تزول عن الطريق : " دَعُوها فإنها جبّارة " (٣) . وأما قوله تعالى : « لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ » فلا يمتنع أن يكون لهم شىء . والله أعلم . وما ذهب إليه أصحاب مالك والشافعىّ فى أنهما سواء حسن . ويقرب منه ماقاله

(١) آية ٢١ سورة الحج . (٢) آية ٥ سورة النساء . (٣) أى مستكبرة عاتية .

مالك فى كتاب ابن سُحْنون ، قال : الفقير المحتاج المتعفف ، والمسكين السائل؛ وروى عن ابن عباس وقاله الزُّهْرِىّ ، واختاره ابن سفيان وهو القول الرابع . وقول خامس — قال محمد ابن مسلمة : الفقير الذى له المسكن والخادم الى من هو أسـفل من ذلك . والمسكين الذى لا مال له .

قلت : وهذا القول عكس ماثبت فى صحيح مسـلم عن عبد الله بن عمرو، وسأله رجل فقال : ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبـد الله : ألك امرأة تأوى اليهـا ؟ قال نعم . قال : ألك مسكن تسكنه ؟ قال نعم . قال : فأنت من الأغنيـاء . قال : فإن لى خادما ؛ قال: فأنت من الملوك . وقول سادس — روى عن ابن عباس قال : الفقراء من المهاجرين، والمسـاكين من الأعراب الذين لم يهـاجروا ؛ وقاله الضحاك . وقول سـابع — وهو أن المسكين الذى يخشع ويسـتكنّ وإن لم يسأل . والفقـير الذى يتحمـل ويقبل الشىء سرّا ولا يخشع؛ قاله عبيد الله بن الحسن . وقول ثامن قاله مجاهد وعِكْرِمة والزُّهرِىّ — المساكين الطوّافون، والفقراء فقراء المسلمين . وقول تاسع قاله عكرمة أيضا — أن الفقراء فقراء المسلمين، والمساكين فقراء أهل الكتاب . وسيأتى .

الرابعـــة — وهى فائدة الخلاف فى الفقراء والمساكين، هل هما صنف واحد أو أكثر، تظهر فيمن أوصى بثلث ماله لفلان وللفقراء والمساكين ؛ فمن قال هما صنف واحد قال : يكون لفلان نصف الثلث وللفقراء والمساكين نصفُ الثلث الثـانى . ومن قال هما صنفان يقسم الثلث بينهم أثلاثا .

الخامســـة — وقد اختلف العلماء فى حدّ الفقر الذى يجوز معه الأخذ — بعد إجماع أكثر مَن يحفظ عنه من أهل العلم — أن من له دارا وخادما لايستغنى عنهما أن له أن يأخذ من الزكاة ، وللمعطى أن يعطيه . وكان مالك يقول : إن لم يكن فى ثمن الدار والخادم فضلة عما يحتاج اليه منهما جاز له الأخذ وإلا لم يجز؛ ذكره ابن المنذر . وبقول مالك قال النَّخَعِىّ والثورىّ . وقال أبو حنيفة : من معه عشرون دينارا أو مائتـا درهم فلا يأخذ من الزكاة .

فاعتبر النصاب لقوله عليه السلام : " أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردّها فى فقرائكم ". وهذا واضح، ورواه المغيرة عن مالك . وقال الثورى وأحمد وإسحاق وغيرهم : لا يأخذ من له خمسون درهما أو قدرها من الذهب، ولا يعطَى منها أكثر من خمسين درهما إلا أن يكون غارما ؛ قاله أحمد وإسحاق . وحجة هذا القول ما رواه الدّارَقُطْنِيّ عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لا تحل الصدقة لرجل له خمسون درهما " . فى إسناده عبد الرحمن بن إسحاق ضعيف ، وعنه بكر بن خنيس ضعيف أيضا . ورواه حكيم ابن جبير عن محمد بن عبد الرحمن بن يزيد عن أبيه عن عبد الله عن النبيّ صلى الله عليه وسلم نحوه ، وقال : خمسون درهما . وحكيم بن جبير ضعيف تركه شعبة وغيره ؛ قاله الدّارقطنيّ رحمه الله . وقال أبو عمر : هذا الحديث يدور على حكيم بن جبير وهو متروك . وعن علىّ وعبدالله قالا : لا تحل الصدقة لمن له خمسون درهما أو قيمتها من الذهب ؛ ذكره الدّارَقُطْنِيّ . وقال الحسن البصرىّ : لا يأخذ من له أربعون درهما . ورواه الواقدىّ عن مالك . وحجة هذا القول ما رواه الدّارقطنِيّ عن عبد الله بن مسعود قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " من سأل الناس وهو غَنِيّ جاء يوم القيامة وفى وجهه كدوح وخدوش ". فقيل : يا رسول الله وما غناؤه ؟ قال : " أربعون درهما ". وفى حديث مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يَسار عن رجل من بنى أسد فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من سأل منكم وله أوقية فقد سأل إلحافا والأوقية أربعون درهما ". والمشهور عن مالك ما رواه ابن القاسم عنه أنه سئل : هل يعطَى من الزكاة من له أربعون درهما؟ قال نعم. قال أبو عمر : يحتمل أن يكون الأول قويّا على الاكتساب حَسن التصرف . والثانى ضعيفا عن الاكتساب ، أو من له عيال . والله أعلم . وقال الشافعىّ وأبو ثَوْر . من كان قويا على الكسب والتحرّف مع قوة البدن وحسن التصرف حتى يغنيه ذلك عن الناس فالصدقة عليه حرام. واحتج بحديث النبيّ صلى الله عليه وسلم "لا تحلّ الصدقة لغنِيّ ولا لذى مِرّة[1] سَوِىّ " رواه عبد الله بن عمر،

---

(١) المرة (بالكسر) : القوة والشدّة . والسوىّ : الصحيح الأعضاء .

وأخرجه أبو داود والترمذىّ والدّارَقُطْنِىّ . وروى جابر قال : جاءت رسول الله صـلى الله عليه وسلم صـدقة فركبه الناس؛ فقال : " إنها لا تصـلح لغنِىّ ولا لصـحيح ولا لعامل " أخرجه الدّارقطنِىّ . وروى أبو داود عن عبيد الله بن عَدِىّ بن الخيار قال . أخبرنى رجلان أنهما أتيا النبىّ صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع وهو يَقسم الصدقة فسألاه منها ، فرفع فينا النظر وخفضـه ، فرآنا جَلْدَين فقال : " إن شـئتما أعطيتكما ولاحظ فيهـا لغنِىّ ولا لقوِىّ مكتسب " . ولأنه قد صار غنيًّا بكسـبه كغِنى غيره بمـاله فصار كل واحد منهما غنيًّا عن المسئلة . وقاله ابن خويزِمنداد، وحكاه عن المذهب . وهذا لا ينبغى أن يعوّل عليه ؛ فإن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يعطيها الفقراء ووقوفها على الزَّمِن باطل . قال أبو عيسى الترمذِىّ فى جامعه : اذا كان الرجل قويا محتاجا ولم يكن عنده شىء فتُصدِّق عليه أجزأ عن المتصدّق عند أهل العلم . ووجه الحديث عند بعض أهل العلم على المسئلة . وقال الكِيَا الطبرِىّ : والظاهر يقتضى جواز ذلك ؛ لأنه فقـير مع قوّته وصحـةِ بدنه . وبه قال أبو حنيفة وأصحابه . وقال عبيـد الله بن الحسن : من لا يكون له ما يكفيه ويقيمه سَـنةً فإنه يعطى الزكاة . وحجته ما رواه ابن شهاب عن مالك بن أوس بن الحَدَثان عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صـلى الله عليه وسلم كان يدّخر مما أفاء الله عليه قوت سنة، ثم يجعل ما سوى ذلك فى الكُراع[1] والسلاح مع قوله تعـالى : « وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى » . وقال بعض أهل العلم : لكل واحد أن يأخذ من الصدقة فيما لا بدّ له منه . وقال قوم : من عنده عشاء ليلة فهو غنِىّ؛ وروى عن علىّ . واحتجوا بحديث علىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من سأل مسألة عن ظَهر غِنًى آستكثر بها من رَضْف جهنم " قالوا : يارسول الله، وما ظهر الغنى؟ قال : " عشاء ليلة " . أخرجه الدّارَقُطْنِى وقال : فى إسـناده عمرو بن خالد وهو متروك . وأخرجـه أبو داود عن سهل بن الحَنْظَلية عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم ، وفيه : " من سأل وعنده ما يُغنيه فإنمـا يستكثر من النار " . وقال النفيلى فى موضع آخر " من جمر جهنم " . فقالوا : يا رسول الله

(١) الكراع (بالضم) : اسم يجمع الخيل . وقيل : هو اسم يجمع الخيل والسلاح .

وما يغنيــه ؟ وقال النُّفَيلي فى موضـع آخر : وما الغنى الذى لا تنبغى معه المسـئلة ؟ قال : " قدر ما يغدّيه و يعشّـيه " . وقال النّفيلي فى موضع آخر : " أن يكون له شـبع يوم وليلة أو ليلة و يوم " .

قلت : فهذا ما جاء فى بيان الفقر الذى يجوز معه الأخذ. ومطلق لفظ الفقراء لا يقتضى الاختصاص بالمسلمين دون أهل الذمة، ولكن تظاهرت الأخبار فى أن الصـدقات تؤخذ من أغنياء المسلمين فتُردّ فى فقرائهم . وقال عكرمة : الفقراء فقراء المسلمين، والمساكين فقراء أهل الكتاب . وقال أبو بكر العبسى : رأى عمر بن الخطاب ذِمّيًّا مكفوفا مطروحا على باب المدينة فقال له عمر : مالَك ؟ قال : استكرونى فى هذه الجزية، حتى إذا كُفّ بصرى تركونى وليس لى أحد يعود علىّ بشىء . فقال عمر : ما أُنصِفتَ إذًا ؛ فأمر له بقُوته وما يصلحه . ثم قال : هذا من الذين قال الله تعالى : « إنمـا الصدقات للفقراء والمساكين » الآية . وهم زَمْنَى أهل الكتاب. ولمـا قال تعالى : « إنمـا الصدقات للفقراء والمساكين » الآية، وقابل الجملة بالجملة وهى جملة الصدقة بجملة المصرف بين النبىّ صلى الله عليه وسلم ذلك، فقال لمعاذ حين أرسـله إلى اليمن : " أخـبرهم أن الله افترض عليهم صـدقة تؤخذ من أغنيائهـم فتردّ فى فقرائهم ". فآختص أهل كل بلد بزكاة بلده . وروى أبو داود أن زيادا أو بعض الأمراء بعث عمران بن حُصين على الصـدقة، فلما رجع قال لعمران : أين المـال ؟ قال : وللمـال أرسلتنى ! أخذناها من حيث كنّا نأخذها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسـلم ووضعناها حيث كنّا نضعها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى الدّارَقُطنِي والترمذىّ عن عَوْن بن أبى جُحيفة [عن أبيه](1) قال : قدم علينا مصـدّق النبىّ صـلى الله عليه وسـلم فأخذ الصدقه من أغنيائنا فجعلها فى فقرائنا فكنت غلاما يتيما فأعطانى منها قَلُوصا. قال الترمذىّ : وفى الباب عن ابن عباس حديث آبن أبى جحيفة حديث حسن .

---

(1) زيادة عن سنن الدارقطنى والترمذى .

السادســـة — وقد اختلفت العلمــاء فى نقل الزكاة عن موضــعها على ثلاثة أقوال : لاتنقل؛ قاله سُحْنون وآبن القاسم، وهو الصحيح لمــا ذكرناه. قال ابن القاسم أيضا: وإن نُقل بعضها لضرورة رأيته صوابا. ورُوى عن سُحْنون أنه قال: ولو بلغ الإمام أن ببعض البلاد حاجة شديدة جاز له نقل بعض الصدقة المستحَقة لغيره اليه؛ فان الحاجة إذا نزلت وجب تقديمها على من ليس بمحتاج "والمسلم أخو المسلم لا يُسْلِمه ولا يَظْلمه"(١). والقول الثانى تنقل. وقاله مالك أيضا. وحجة هذا القول ماروى أن معاذا قال لأهل اليمن: ايتونى بخَمِيس أو لَبِيس آخذه منكم مكان الذرة والشعير فى الصــدقة فإنه أيسر عليكم وأنفع للهاجرين بالمدينــة . أخرجه الدّارقطنىّ وغيره . والخميس لفظ مشترك ، وهو هنا الثوب طوله خمس أذرع . ويقال : سُمّىَ بذلك لأن أول من عمِله الخِمْس مَلِك من ملوك اليمن؛ذكره ابن فارس فى المجْمَل والجوهرىّ أيضا. وفى هذا الحديث دليلان : أحدهما — ما ذكرناه من نقل الزكاة من اليمن الى المدينــة؛ فيتولّى النبىّ صلى الله عليه وسلم قسمتها. ويَعْضُد هذا قوله تعالى: «إنما الصدقاتُ للفقراء» ولم يفصّل بين فقــير بلد وفقير آخر. والله أعلم. الثانى — أخذ القيمة فى الزكاة. وقد اختلفت الرواية عن مالك فى إخراج القِيَم فى الزكاة؛ فأجاز ذلك مَرّة ومنع منــه أخرى، فوُجِد الجواز. وقال أبو حنيفة بهذا الحديث. وثبت فى صحيح البخارِىّ من حديث أنس عن النبىّ صلى الله عليــه وسلم "من بلغت عنده [من الإبل](٢) صدقة الجَذَعة وليست عنده [جذعة](٢) وعنده حِقّة فإنه تؤخذ(٣) منه وما آستيسرتا من شاتين أو عشرين درهما". الحديث. وقال صلى الله عليه وسلم: "أغنوهم عن سؤال هذا اليوم" يعنى يوم الفِطْر. وإنمــا أراد أن يُغنوا بمــا يسدّ حاجتهم، فأىّ شىء سدّ حاجتهم جاز. وقد قال تعالى: «خُذْ مِنْ أَمْوالِهِم صَدَقَةً»(٤) ولم يخص شيئا من شىء. ولا يُدفع عند أبى حنيفة سُكْنَى دار بدل الزكاة؛ مثل أن يجب عليــه خمسة دراهم فأسكن فيها فقيرا شهرا فانه لا يجوز. قال: لأن السكنى ليس بمــال.

(١) أى لا يتركه مع من يؤذيه بل يحميه . (٢) الزيادة عن صحيح البخارىّ .
(٣) فى البخارىّ : « فانها تقبل من الحقة ويجعل معها شاتين إن استيسرتا له أو عشرين درهما » .
(٤) آية ١٠٣ من هذه السورة .

ووجه قوله « لا تجزى القيم » — وهو ظاهر المذهب — فلان النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " فى خمْسٍ من الإبل شاةٌ وفى أربعين شاةً شاةٌ " فنص على الشاة ، فإذا لم يأت بها لم يأت بمأمور به، واذا لم يأت بالمأمور به فالأمر باقٍ عليه .

القول الثالث — وهو أن سهم الفقراء والمساكين يقسم فى الموضع، وسائر السهام تنقل باجتهاد الإمام . والقول الأوّل أصح . والله أعلم .

السابعـــة — وهل المعتبر مكان المـال وقت تمام الحول فتفرّق الصدقة فيه، أو مكان المـالك إذ هو المخاطب؛ قولان . واختار الثانى أبو عبد الله محمد بن خُوَيْزِمَنْداد فى أحكامه قال : لأن الإنسان هو المخاطب بإخراجها فصار المـال تبعا له ؛ فيجب أن يكون الحكم فيه بحيث المخاطبة . كابن السبيل فانه يكون غنيّا فى بلده فقيرا فى بلد آخر؛ فيكون الحكم له حيث هو .

مســئلة — وآختلفت الرواية عن مالك فيمن أعطى فقيرا مسلما فآنكشف فى ثانى حال أنه أعطى عبدا أو كافرا أو غنياًّ؛ فقال مرة : تجزيه ومرّة لا تجزيه . وجه الجواز — وهو الأصح — ما رواه مسلم عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " قال رجل لأتصدّقنّ الليلة بصدقة فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية فأصبحوا يتحدّثون تُصدِّق الليلة على زانية قال اللّهُمّ لك الحمد على زانية لأتصدقنّ بصدقة فخرج بصدقته فوضعها فى يد غنيّ فأصبحوا يتحدّثون تُصَدِّق على غنيّ قال اللّهُمّ لك الحمد على غنيّ لأتصدّقنّ بصدقة فخرج بصدقته فوضعها فى يد سارق فأصبحوا يتحدّثون تُصدّق على سارق فقال اللّهُمّ لك الحمد على زانيــة وعلى غنيّ وعلى سارق فأُتِى فقيل له أمّا صدقتك فقد قُبلت أما الزانية فلعلّها تَستعِف بها عن زناها ولعلّ الغنيّ يعتبر فينفق ممـا أعطاه الله ولعل السارق يستعِفّ بها عن سرقته " . و روى أن رجلا أخرج زكاة ماله فأعطاها أباه ، فلمـا أصبح علم بذلك ؛ فسأل النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال له : " قـد كُتب لك أجر زكاتك وأجر صلة الرحم فلك أجران " . ومن جهة المعنى أنه سوّغ له الاجتهاد فى المعطى، فإذا اجتهد وأعطى من يظنه من أهلها فقد أتى بالواجب عليه .

ووجه قوله « لا يجزى » أنه لم يضعها فى مستحقّها؛ فأشبه العمد، ولأن العمد والخطأ فى ضمان الأموال واحد فوجب أن يضمن ما أتلف على المساكين حتى يوصّله إليهم .

الثامنــة — فإن أخرج الزكاة عند محلّها فهلكت من غير تفريط لم يضمن؛ لأنه وكيل للفقراء . فإن أخرجها بعد ذلك بمدة فهلكت ضَمِن؛ لتأخيرها عن محلها فتعلّقت بذمته فلذلك ضمن . والله أعلم .

التاســعة — وإذا كان الإمام يعدل فى الأخذ والصرف لم يَسُغ للمالك أن يتولّى الصرف بنفسه فى الناضّ (١) ولا فى غيره . وقد قيل : إن زكاة الناضّ على أربابه . وقال ابن الماجشون : ذلك اذا كان الصرف للفقراء والمساكين خاصــة؛ فإن احتيج الى صرفها لغــيرهما من الأصناف فلا يفرّق عليهم إلا الإمام . وفروع هذا الباب كثيرة، هذه أمّهاتها .

العاشــرة — قوله تعالى : ﴿ وَٱلْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ يعنى السُّعاة والجُبَاة الذين يبعثهم الإمام لتحصيل الزكاة بالتوكّل على ذلك . روى البخارىّ عن أبى حُميد الساعدىّ قال : استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من الأسْد على صدقات بنى سُلَيم يُدْعَى ابنَ اللّتبية (٢)، فلمــا جاء حاســبه . وٱختلف العلمــاء فى المقــدار الذى يأخذونه على ثلاثة أقوال : قال مجاهــد والشافعىّ : هو الثُّمن . ابن عمر ومالك : يُعطوْن قــدر عملهم من الأجرة ؛ وهو قول أبى حنيفة وأصحابه . قالوا : لأنه عطّل نفســه لمصلحة الفقراء ، فكانت كفايته وكفاية أعوانه فى مالهم ؛ كالمرأة لمــا عطّلت نفسهــا لحقّ الزوج كانت نفقتهــا ونفقة أتبــاعها من خادم أو خادمين على زوجها . ولا تقــدّر بالثّمن ، بل تعتبر الكفاية ثُمُنــا كان أو أكثر؛ كرزق القاضى . ولا تعتبر كفاية الأعوان فى زمننا لأنه إسراف محض . القول الثالث — يُعطون من بيت المــال . قال ابن العربىّ : وهذا قول صحيح عن مالك بن أنس من رواية ابن

(١) الناض من المــال : هو الدرهم والدينار؛ وإنمــا يسمى ناضا اذا تحوّل نقدا بعد أن كان متاعا .

(٢) اختلف فى ضبطه ؛ فقيل بضم اللام وسكون التاء، وحكى فتحها . وقيل بفتح اللام المثناة . واسمه عبد الله، وكان من بنى تولب حىّ من الازد . وقيل : اللتبية أمّه .

أبى أويس وداود بن سعيد بن زنبوعة ، وهو ضعيف دليلا ؛ فإن الله سبحانه قد أخبر بسهمهم فيها نصًّا فكيف يخلفون عنه استقراء وسَبْرا . والصحيح الاجتهاد فى قدر الأجرة ؛ لأن البيان فى تعديد الأصناف إنما كان للحل لا للمستحقّ ، على ما تقدم .

وٱختلفوا فى العامل إذا كان هاشميًّا ؛ فمنعه أبو حنيفة لقوله عليه السلام : " إن الصدقة لا تحل لآل محمد إنما هى أوساخ الناس " . وهذه صدقة من وجه ؛ لأنها جزء من الصدقة فتُلحق بالصدقة من كل وجه كرامةً وتنزيها لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن غُسالة الناس . وأجاز عمله مالك والشافعِىّ ، ويُعطَى أجر عُمالته ؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم بعث علىّ بن أبى طالب مصدّقا ، وبعثه عاملا الى اليمن على الزكاة ، ووَلّى جماعةً من بنى هاشم وولّى الخلفاء بعده كذلك . ولأنه أَجير على عمل مباح فوجب أن يستوى فيه الهاشمىّ وغيره اعتبارا بسائر الصناعات . قالت الحنفية : حديث علىّ ليس فيه أنه فرض له من الصدقة ، فإن فرض له من غيرها جاز . وروى عن مالك .

الحادية عشرة — ودل قوله تعالى : ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ على أن كل ما كان من فروض الكفايات كالساعى والكاتب والقَسّام والعاشر وغيرهم فالقائم به يجوز له أخذ الأجرة عليه . ومن ذلك الإمامة ؛ فإن الصلاة وإن كانت متوجِّهة على جميع الخلق فإن تقدّم بعضهم بهم من فروض الكفاية ، فلا جَرَم يجوز أخذ الأجرة عليها . وهذا أصل الباب ، وإليه أشار النبىّ صلى الله عليه وسلم بقوله : " ماتركت بعد نفقة نسائى (١) ومؤنة عاملى فهو صدقة " قاله ابن العربىّ .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ لا ذكر للمؤلفة قلوبهم فى التنزيل فى غير قَسْم الصدقات ؛ وهم قوم كانوا فى صدر الإسلام ممن يظهر الإسلام ، يتألّفون بدفع سهم من الصدقة إليهم لضعف يقينهم . قال الزهرىّ : المؤلّفة مَن أسلم مِن يهودىّ أو نصرانىّ وإن كان غنيًّا . وقال بعض المتاخرين : ٱختلف فى صفتهم ؛ فقيل : هم صِنف من الكفار

(١) فى ابن العربى : « عيالى » .

يعطون ليتألفوا على الإســلام، وكانوا لا يُسلمون بالقهر والســيف ، ولكن يسلمون بالعطاء والإحسان. وقيل : هم قوم أسلموا فى الظاهر ولم تَستيقن قلوبهم، فيُعطَوْن ليتمكن الإسلام فى صدورهم . وقيل: هم قوم من عظماء المشركين لهم أتباع يُعطون ليتألفوا أتباعهم على الإسلام. قال: وهذه الأقوال متقاربة، والقصد بجميعها الإعطاءُ لمن لا يتمكّن إسلامه حقيقةً إلا بالعطاء؛ فكأنه ضربٌ من الجهاد . والمشركون ثلاثة أصناف : صِنف يرجع بإقامة البرهان . وصنف بالقهر . وصنف بالإحسان . والإمام الناظر للمســلمين يستعمل مع كل صِنف ما يراه سببا لنجاته وتخليصه من الكفر . وفى صحيح مسلم من حديث أنس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم — أعني للأنصار — : " فإنى أُعطِى رجالا حديثى عَهْدٍ بكفر أتألّفهم " الحديث . قال ابن إسحاق : أعطاهم يتألّفهم ويتألف بهم قومهم . وكانوا أشرافا؛ فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير، وأعطى ابنه مائة بعير، وأعطى حَكيم بن حِزام مائة بعير، وأعطى الحارث بن هشام مائة بعير، وأعطى سُهيل بن عمرو مائة بعير، وأعطى حُويطب بن عبد العُزّى مائة بعير، وأعطى صفوانَ بن أمية مائة بعير . وكذلك أعطى مالك بن عوف والعــلاء بن جارية . قال : فهؤلاء أصحــاب المِئين . وأعطى رجالا من قريش دون المــائة منهم مخــرمة بن نوفل الزهرى ، وعمير بن وَهْب الجُمَحىّ ، وهشام بن عمرو العامرى . قال ابن اسحاق : فهؤلاء لا أعرف ما أعطاهم . وأعطى ســعيد بن يَرْبُوع خمسين بعيرا ، وأعطى عباس بن مِرداس السُّلَمِىّ أباعِرَ قليلة فسخطها . فقال فى ذلك :

كانت نِهــابًا تَــلافَيْتُهــا * بكَرّى على المُهْــرِ فى الأَجْرَع[(١)]

وإيقاظِىَ القــومَ أن يرقدوا * إذا هَجَع النــاس لم أهجــع

فأصــبحَ نَهْــبِى ونَهْبُ العُبَيْــد بين عُيَيْنَــة والأقرع[(٢)]

وقد كنتُ فى الحرب ذا تُدْرَإٍ[(٣)] * فلم أُعْــطَ شيئا ولم أُمْنَــع

(١) الأجرع : المكان الواسـع الذى فيه حزونة وخشونة . (٢) العبيد (مصغر) : اسم فرس العباس ابن مرداس . (٣) ذو تدرأ (بضم التاء) : أى ذو هجوم لا يتوقّى ولا يهاب؛ ففيه قوة على دفع أعدائه .

إلّا أفائـلَ أُعطِيتُهـا (١) * عـديدَ قوائمـه الأربـع
وما كان حِصْنٌ ولا حابِسٌ * يفـوقان مِرْداسَ فى المَجْمع
وما كنتُ دون آمرئ منهما * ومن تَضـع اليومَ لا يُرْفَـع

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اذهبوا فآقطعوا عنى لسانه " . فأعطَوْه حتى رَضِىَ؛ فكان ذلك قَطْع لسانه . قال أبو عمر: وقد ذُكر فى المؤلفة قلوبهم النُّضير بن الحارث بن علقمة ابن كَلَدة ، أخو النضر بن الحارث المقتول ببـدر صَبْرًا . وذكر آخرون أنه فيمن هاجر إلى الحبشة ؛ فإن كان منهم فمحال أن يكون من المؤلفـة قلوبهم؛ ومن هاجر الى أرض الحبشة فهو من المهاجرين الأولين ممن رسخ الإيمـان فى قلبه وقاتل دونه، وليس ممن يؤلّف عليـه . قال أبو عمر : واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن عوف بن سـعد النّصْرى على من أسلم من قومه من قبائل قيس ، وأمره بمغاورة ثقيف ففعل وضيّق عليهم ، وحسُن إسلامه وإسلام المؤلّفة قلوبهم، حاشا عُيينة بن حِصن فلم يزل مَغْموزا (٢) عليه . وسائر المؤلفة متفاضلون ، منهم الخَيّر الفاضـل المجتمَع على فضله ، كالحارث بن هشام، وحكِيم بن حِزام، وعكرمة بن أبى جهل، وسهيل بن عمرو ، ومنهم دون هؤلاء . وقد فضل الله النبيين وسائر عباده المؤمنين بعضهم على بعض وهو أعلم بهم . قال مالك : بلغنى أن حكيم بن حِزام أخرج ما كان أعطاه النبىّ صلى الله عليه وسلم فى المؤلفة قلوبهم فتصدّق به بعد ذلك .

قلت : حكيم بن حزام وحُويطب بن عبـد العُزّى عاش كل واحد منهما مائة وعشرين سنة، ستين فى الإسلام وستين فى الجاهلية . وسمعت شيخنا الحافظ أبا محمد عبد العظيم يقول: شخصان من الصحابة عاشا فى الجاهلية ستين سنة وفى الإسلام ستين سنة، وماتا بالمدينة سنة أربع وخمسين؛ أحدهما حكيم بن حزام، وكان مولده فى جوف الكعبة قبل عام الفِيل بثلاث عشرة سنة . والثانى حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام الأنصارىّ . وذكر هذا أيضا أبو عمر وعثمان الشّهرزُورِىّ فى كتاب معرفة أنواع علم الحديث له ، لم يذكرا غيرهما . وحويطب ذكره

(١) الأفائل : صغار الإبل . (٢) المغموز : المتهم .

أبو الفرج الجَوْزِىّ فى كتاب الوفا فى شرف المصطفى . وذكره أبو عمر فى كتاب الصحابة أنه أدرك الإسلام وهو ابن ستين سنة، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة . وذكر أيضا حَمَّن بن عوف أخو عبد الرحمن بن عوف، أنه عاش فى الإسلام ستين سنة وفى الجاهلية ستين سنة . وقد عُدّ فى المؤلفة قلوبهم معاوية وأبوه أبو سفيان بن حرب. أما معاوية فبعيد أن يكون منهم؛ فكيف يكون منهم وقد ائتمنه النبىّ صلى الله عليه وسلم على وَحْى الله وقراءته وخَلَطه بنفسه . وأما حاله فى أيام أبى بكر فأشهر من هـذا وأظهر . وأما أبوه فلا كلام فيه أنه كان منهـم . وفى عددهم اختلاف، وبالجملة فكلهم مؤمن ولم يكن فيهم كافر على ما تقدم، والله أعلم وأحكم.

الثالثة عشرة — واختلف العلماء فى بقائهم؛ فقال عمر والحسن والشّعبِىّ وغيرهم: انقطع هذا الصِّنف بعز الإسلام وظهوره . وهذا مشهور من مذهب مالك وأصحاب الرأى . قال بعض علماء الحنفية : لمـا أعز الله الإسـلام وأهله وقطع دابر الكافرين — لعنهم الله — اجتمعت الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه على سقوط سهمهم. وقال جماعة من العلماء : هم باقون ؛ لأن الإمام ربمـا احتاج أن يستألف على الإسـلام . وإنمـا قطعهم عمر لمـا رأى من إعزاز الدِّين . قال يونس : سألت الزُّهْرِىّ عنهم فقال : لا أعلم نسخا فى ذلك . قال أبو جعفر النحاس : فعلى هذا الحكمُ فيهم ثابت، فإن كان أحد يحتاج الى تألّفه ويخاف أن تلحق المسلمين منه آفة، أو يرجى أن يحسن إسلامه بعدُ دُفع إليه . قال القاضى عبد الوهاب : إن احتِيج إليهـم فى بعض الأوقات أعطوا من الصدقة . وقال ابن العربى: الذى عندى أنه إن قوِى الإسلام زالوا، وان احتيج اليهم أُعطوا سهمهم كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم؛ فإن فى الصحيح: "بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ".

الرابعة عشرة — فإذا فرّعنا على أنه لا يُرَدّ إليهم سهمهم فإنه يرجع الى سائر الأصناف أو ما يراه الإمام. وقال الزهرِىّ: يُعطَى نصفُ سهمهم لعُمّار المساجد. وهذا مما يدلّك على أن الأصناف الثمانية محلّ لا مستحقون تسويةً؛ ولو كانوا مستحقين لسقط سهمهم بسقوطهم ولم يرجع إلى غيرهم؛ كما لو أوصى لقوم معينين فمـات أحدهم لم يرجع نصيبه إلى من بَقى منهم . والله أعلم.

الخامسة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ أى فى فَكّ الرقاب ؛ قاله ابن عباس وابن عمر، وهو مذهب مالك وغيره . فيجوز للإمام أن يشترى رِقابًا من مال الصدقة يعتقها عن المسلمين، ويكون وِلاؤهم لجماعة المسلمين . وإن اشتراهم صاحب الزكاة وأعتقهم جاز. هذا تحصيل مذهب مالك، وروى عن ابن عباس والحسن، وبه قال أحمد و إسحاق وأبو عبيد. وقال أبو ثَوْر : لا يبتاع منهـا صاحب الزكاة نَسَمة يعتقها بجَـرّ ولاء . وهو قول الشافعيّ وأصحاب الرأى ورواية عن مالك. والصحيح الأوّل؛ لأن الله عز وجل قال : «وفِي الرقابِ» فاذا كان للرقاب سهم من الصدقات كان له أن يشترى رقبة فيعتقها . ولا خلاف بين أهل العلم أن للرجل أن يشترى الفرس فيحمل عليه فى سـبيل الله . فاذا كان له أن يشترى فرسا بالكمال من الزكاة جاز أن يشترى رقبة بالكمال؛ لا فرق بين ذلك . والله أعلم .

السادسة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ وفِي الرِّقابِ ﴾ الأصل فى الولاء ؛ قال مالك : هى الرقبة تعتق وولاؤها للسلمين ، وكذلك ان أعتقها الإمام . وقد نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن بيع الولاء وعن هبته . وقال عليـه السلام : " الولاء لُحْمَـةٌ كلُحْمة النسب لا يباع ولا يوهب". وقال عليه السلام: "الولاء لمن أعتق". ولا ترث النساء من الولاء شيئا؛ لقوله عليه السلام : " لا ترث النساء من الولاء شيئا الا ما أعتقن أو أعتق من أعتقن " وقد ورّث النبي صلى الله عليه وسلم ٱبنة حمزة من مولًى لها النصفَ ولابنتـه النصف . فإذا ترك المعتِق أولادا ذكورا و إناثا فالولاء للذكور من ولده دون الإناث . وهو إجماع الصحابة رضى الله عنهم . والولاء إنمـا يورث بالتعصيب المحض، والنساءُ لا تعصيب فيهن فلم يرثن من الولاء شيئا . فافهم تصب .

السابعة عشرة — وٱختلف هل يُعان منها المكاتب؛ فقيل لا . روى ذلك عن مالك ؛ لأن الله عز وجل لمـا ذكر الرّقبـة دلّ على أنه أراد العتق الكامل، وأما المكاتب فإنمـا هو داخل فى كلمة الغارمين بمـا عليه من دَين الكتابة، فلا يدخل فى الرّقاب . والله أعلم . وقـد روى عن مالك من رواية المدنيّين وزيادٍ عنه: أنه يُعان منها المكاتَب فى آخر كتابته بما يَعتق .

وعلى هذا جمهور العلماء فى تأويل قول الله تعـالى : « وفِى الرِّقاب » . و به قال ابن وهب والشافعيّ واللّيث والنَّخَعِيّ وغيرهم . وحكى علىّ بن موسى القُمِّى الحنفى فى أحكامه : أنهم أجمعوا على أن المكاتب مراد . واختلفوا فى عتق الرقاب؛ قال الكِيَا الطبرىّ:[1] « وذَكر وجها[2] بيِّنه فى منع ذلك فقال : إن العتق إبطال مِلْك وليس بتمليك، وما يدفع إلى المكاتب تمليك، ومن حق الصدقة ألّا تجزى إلا إذا جرى فيها التمليك . وقوّى ذلك بأنه لو دفع من الزكاة عن الغارم فى دينه بغير أمره لم يَجزه من حيث لم يملك فلَان لايجزى ذلك فى العتق أَوْلى . وذكر أن فى العتق جَرّ الولاء إلى نفسه وذلك لا يحصل فى دفعه للمكاتب . وذكر أن ثمن العبد إذا دفعه إلى العبد لم يملكه العبد، وإن دفعه إلى سيده فقد ملّكه العتق . وإن دفعه بعد الشراء والعتق فهو قاضٍ ديناً، وذلك لا يَجزِى فى الزكاة » .

قلت : قد ورد حديث ينصّ على معنى ما ذكرنا من جواز عتق الرقبة وإعانة المكاتب معًا ، أخرجه الدّارَقُطْنِيّ عن البراء قال : جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : دُلَّنى على عمل يقرّبنى من الجنــة ويباعدنى من النار . قال : " لئن كنت أقصرتَ الخطبة لقــد أعرضتَ المسألة[3] أَعْتِق النسمة وفكّ الرقبة " . فقال : يارسول الله، أو ليستا واحدا؟ قال: " لا، عِتق النسمة أن تنفرد بعتقها وفكّ الرقبة أن تُعين فى ثمنها " وذكر الحديث .

الثامنة عشرة — وآختلفوا فى فكّ الأُســارى منها؛ فقال أَصْبَغ : لا يجوز . وهو قول ابن القاسم . وقال ابن حبيب : يجوز؛ لأنها رقبة مُلِكت بملك الرِّق فهى تخرج من رِقّ إلى عتق، وكان ذلك أحقّ وأَوْلى من فكاك الرقاب الذى بأيدينا؛ لأنه إذا كان فكّ المســلم عن رِق المسلم عبادةً وجائزا من الصــدقة، فأحْرَى وأَوْلَى أن يكون ذلك فى فكّ المســلم عن رِق الـكافر وذُلّه .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَالْغَارِمِينَ ﴾ هم الذين ركبهم الدَّين ولا وفاء عندهم به، ولا خلاف فيه . اللّهُمّ إلا من آدّان فى سفاهة فإنه لا يعطى منها ولا من غيرها إلا أن يتوب .

(١) أى القمى .
(٢) الذى فى أحكام القرآن للكيا : « وذكر وجوها بينــة فى منع ذلك ، منهـا أنه العتق ... » الخ .
(٣) أى جئت بالخطبة قصيرة وبالمسألة واسعة كثيرة .

ويُعْطَى منها مَن له مال وعليه دَين محيط به ما يقضي به دينه ، فإن لم يكن له مال وعليه دين فهو فقير وغارم فيُعْطَى بالوصفين . روى مسلم عن أبي سعيد الخُدْريّ قال : أصيب رجل في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثمار ٱبتاعها فكثر دينه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تصدّقوا عليه ". فتصدق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لغرمائه : " خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك " .

الموفية عشرين — ويجوز للمتحمِّل في صلاح وبِرٍّ أن يُعطى من الصدقة ما يؤدّي ما تحمّل به إذا وجب عليه وإن كان غنياً ، إذا كان ذلك يُجْحف بماله كالغريم . وهو قول الشافعيّ وأصحابه وأحمد بن حنبل وغيرهم . وٱحتج مَن ذهب هذا المذهبَ بحديث قَبِيصة بن مُخَارِق قال : تحمّلت حَمَالة[1] فأتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم أسأله فيها فقال : " أقم حتى تأتينا الصدقةُ فنأمرَ لك بها — ثم قال — ياقَبِيصةُ إن المسألة لا تحِلّ إلا لأحدِ ثلاثةٍ رجل تحمّل حَمَالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يُمسك ورجل أصابته جائحة ٱجتاحت ماله فحلّت له المسألة حتى يصيب قِواما من عيش — أو قال سِدادا من عيش — ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحِجَا من قومه لقد أصابت فلانا فاقةٌ فحلّت له المسألة حتى يصيب قِواما من عيش — أو قال سِدادا من عيش — فما سواهنّ من المسأله ياقَبِيصةُ سُحْتاً[3] يأكلها صاحبها سُحْتاً " . فقوله : " ثم يُمسك " دليل على أنه غنيّ ؛ لأن الفقير ليس عليه أن يمسك . والله أعلم . وروى عنه عليه السلام أنه قال : " إن المسألة لا تحلّ إلا لأحدِ ثلاثةٍ ذوي فقر مُدْقِع[4] أو لذي غُرْم مُفْظِع[5] أو لذي دم مُوجِع[6] " . وروى عنه عليه السلام : " لا تحلّ الصدقة لغنيّ إلا لخمسة " الحديث . وسيأتي .

(١) الحمالة (بالفتح) : ما يحمله الإنسان عن غيره من دية أو غرامة ؛ مثل أن تقع حرب بين فريقين تسفك فيها الدماء ، فيدخل بينهم رجل يتحمل ديات القتلى ليصلح ذات البين . والتحمل : أن يحملها عنهم على نفسه . (عن النهاية لابن الأثير) . (٢) أي حتى يقوموا على رءوس الأشهاد قائلين : إن فلانا أصابته فاقة الخ .

(٣) كذا رواية مسلم ؛ أي اعتقده سحتا ، أو يؤكل سحتا . وفي غير مسلم بالرفع . (٤) المدقع : الشديد ؛ يفضي بصاحبه الى الدقعاء ، وهي التراب . وقيل : هو سوء احتمال الفقر . (٥) المفظع : الشديد الشنيع .

(٦) هو أن يتحمل دية فيسعى فيها حتى يؤديها الى أولياء المقتول ؛ فان لم يؤدها قتل المتحمل عنه فيوجعه قتله .

الحادية والعشرون — واختلفوا، هل يُقضى منها دينُ الميت أم لا ؛ فقال أبو حنيفة : لا يؤدّى من الصدقة دين ميتٍ . وهو قول ابن المَوّاز . قال أبو حنيفة : ولا يعطى منها من عليه كفارة ونحو ذلك من حقوق الله تعالى ، وإنما الغارم مَن عليه دين يُسجن فيه . وقال علماؤنا وغيرهم : يقضى منها دين الميت لأنه من الغارمين ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " أنا أَوْلى بكل مؤمن من نفسه مَن ترك مالا فلأهله ومن ترك دَينا أو ضَياعا (١) فإلىّ وعلىّ " .

الثانية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ هم الغُزاة وموضع الرِّباط ، يُعطون ما ينفقون فى غزوهم كانوا أغنياء أو فقراء . وهذا قول أكثر العلماء ، وهو تحصيل مذهب مالك رحمه الله . وقال ابن عمر : الحجاج والعُمّار . ويُؤثَر عن أحمد وإسحاق رحمهما الله أنهما قالا : سبيل الله الحج . وفى البخارىّ : ويذكر عن أبى لاس : حملنا النبىّ صلى الله عليه وسلم على إبل الصدقة للحج، ويذكر عن ابن عباس : يُعتِق من [زكاة] (٢) ماله ويُعطِى فى الحج . خرّج أبو محمد عبد الغنى الحافظ حدّثنا محمد بن محمد الخياش حدّثنا أبو غسان مالك بن يحيى حدّثنا يزيد بن هارون أخبرنا مهدى بن ميمون عن محمد بن أبى يعقوب عن عبد الرحمن ابن أبى نُعْم ويُكْنَى أبا الحكم قال : كنت جالسا مع عبد الله بن عمر فأتته امرأة فقالت له : يا أبا عبد الرحمن ، إن زوجى أوصى بماله فى سبيل الله . قال ابن عمر : فهو كما قال فى سبيل الله . فقلت : أما زدتها فيما سألت عنه إلا غَمًّا . قال : فما تأمرنى يابن أبى نُعْم ، آمرها أن تدفعه إلى هؤلاء الجيوش الذين يخرجون فيعتدون فى الأرض ويقطعون السبيل ! قال : قلت فما تأمرها . قال: آمرها أن تدفعه إلى قوم صالحين ، إلى حجاج بيت الله الحرام ، أولئك وفد الرحمن ، أولئك وفد الرحمن ، أولئك وفد الرحمن ، ليسوا كوفد الشيطان ؛ ثلاثا يقولها . قلت : يا أبا عبد الرحمن ، وما وفد الشيطان؟ قال : قوم يدخلون على هؤلاء الأمراء فينَمُّون إليهم الحديث ، ويسعون فى المسلمين بالكذب ؛ فيجازَوْن الجوائز ويُعطَوْن عليه العطايا .

---

(١) الضياع (بالفتح) : العيال وأصله مصدر ضاع يضيع ضياعا ، فسمى العيال بالمصدر ؛ كما تقول : من مات وترك فقرا ؛ أى فقراء .　　(٢) الزيادة عن صحيح البخارى .

وقال محمد بن عبد الحكم : ويعطى من الصدقة فى الكُرَاع والسلاح وما يحتاج إليه من آلات الحرب ، وكف العـدو عن الحَوْزة ؛ لأنه كلَّه من سبيل الغَزْو ومنفعته . وقد أعطى النبى صلى الله عليه وسلم مائة ناقةٍ فى نازلة سهل بن أبى حَثْمة إطفاءً للثائرة .

قلت : أخرج هذا الحديث أبو داود عن بشـير بن يسار ، أن رجلا من الأنصار يقال له سهل بن أبى حَثْمة أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم وَداه مائة من إبل الصدقة ، يعنى دية الأنصارىّ الذى قُتل بخَيْبَر . وقال عيسى بن دِينار : تحل الصدقة لغاز فى سبيل الله ، قد احتاج فى غزوته وغاب عنه غَنَاؤه ووَفْرُه . قال : ولا تحلّ لمن كان معه ماله من الغزاة ، إنما تحل لمن كان ماله غائبا عنه منهم . وهذا مذهب الشافعىّ وأحمد وإسحاق وجمهور أهل العلم . وقال أبو حنيفة وصاحباه : لا يُعْطَى الغـازى إلا إذا كان فقيرا منقطَعًا به . وهـذه زيادة على النص ، والزيادة عنده على النص نسخ ، والنسخ لا يكون إلا بقرآن أو خبر متواتر ، وذلك معدوم هنا ، بل فى صحيح السنة خلاف ذلك من قوله عليه السلام : "لا تحل الصدقة لغنىّ إلا لخمسة لغازٍ فى سبيل الله أو لعامل عليها أو لغارم أو لرجل اشتراها بماله أو لرجل له جار مسكين فتصدّق على المسكين فأهدى المسكين للغنى" . رواه مالك مرسلا عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار . ورفعه معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى عن النبىّ صـلى الله عليه وسـلم . فكان هـذا الحديث مفسِّرا لمعنى الآية ، وأنه يجوز لبعض الأغنياء أخذها ، ومفسِّرا لقوله عليه السلام : "لا تحل الصدقة لغنِىّ ولا لذى مِرّة سَوِىّ" لأن قوله هـذا مجمل ليس على عمومه بدليل الخمســة الأغنياء المذكورين . وكان ابن القاسم يقول : لا يجوز لغنىّ أن يأخذ من الصـدقة ما يستعين به على الجهاد وينفقه فى سبيل الله ، وإنما يجوز ذلك لفقير . قال : وكذلك الغارم لا يجوز له أن يأخذ من الصدقة ما يقى به ماله ويؤدّى منها دينه وهو عنها غنِىّ . قال : وإذا احتاج الغازى فى غزوته وهو غنىّ له مال غاب عنه لم يأخذ من الصدقة شيئا ويستقرض ، فاذا بلغ بلده أدّى ذلك من ماله . هذا كله ذكره ٱبن حبيب عن ٱبن القاسم ، وزعم أن ابن نافع وغيره خالفوه فى ذلك . وروى أبو زيد وغيره

عن ابن القاسم أنه قال : يُعطَى من الزكاة الغازى وان كان معه فى غَزاته ما يكفيه من ماله وهو غنىّ فى بلده . وهذا هو الصحيح؛ لظاهر الحديث : "لا تحل الصدقة لغنى الا لخمسة". وروى ابن وهب عن مالك أنه يعطى منها الغزاة ومواضع الرّباط فقراء كانوا أو أغنياء .

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَٱبْنِ السَّبِيلِ ﴾ السبيل الطريق ؛ ونُسب المسافر اليها لملازمته اياها ومروره عليها ؛ كما قال الشاعر :

إن تسألونى عن الهوى فأنا الهَوَى * وٱبن الهَوَى وأخو الهَـوَى وأبوهُ

والمراد الذى انقطعت به الأسباب فى سـفره عن بلده ومستقَرّه وماله ؛ فإنه يُعْطَى منهـا وان كان غنيًّا فى بلده ، ولا يلزمه أن يشـغل ذمّته بالسّلف . وقال مالك فى كتاب ابن سُحنون : اذا وجد من يسـلفه فلا يعطَى . والأوّل أصح؛ فانه لا يلزمه أن يدخل تحت مِنّـة أحد وقد وجد مِنّة الله تعالى . فان كان له ما يغنيه ففى جواز الأخذ له لكونه ابن السبيل روايتان : المشهور أنه لا يعطى؛ فان أخذ فلا يلزمه ردّه اذا صار إلى بلده ولا إخراجه .

الرابعة والعشرون — فان جاء وٱدّعى وصفًا من الأوصاف ، هل يقبل قوله أم لا ويقال له أثبت ما تقول . فأما الدين فلا بدّ أن يثبته ، وأما سائر الصفات فظاهر الحال يشهـد له ويُكتفى به فيها . والدليل على ذلك حديثان صحيحان أخرجهما أهل الصحيح ، وهو ظاهر القرآن . روى مسلم عن جرير [عن أبيـه][1] قال : كنا عند النبىّ صلى الله عليه وسـلم فى صدر النهار ، قال : فجاءه قوم حُفاةٌ عُراةٌ مُجْتَابِى النِّمار[2] أو العَبَاء متقلّدِى السيوف ، عامّتُهم من مُضَر بل كلهم من مُضَر ، فتمعّر[3] وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لمـا رأى بهم من الفاقة ، فدخل ثم خرج فأمر بلالا فأذّن وأقام فصلى ، ثم خطب فقال : " يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم — الاية الى قوله — رقيبا » والآية التى فى الحشر «ولتنظر نفس ما قدمت لِغَدٍ» تصدّق رجل من ديناره من درهمه من ثوبه من صاعُ بره — حتى قال — ولو بشق تمرة" قال : فجاء رجل

(١) زيادة عن صحيح مسلم . (٢) اجتاب القميص : لبسه . والنمار (بكسر النون) : كل شملة مخططة من مآزر الأعراب ؛ كأنها أخذت من لون النمر لما فيها من السواد والبياض . (٣) تمعر : تغيّر .

من الأنصار بصُرّة كادت كفُّه تَعْجز عنها بل قد عجزت ، قال : ثم تتابع الناس حتى رأيت كَوْمَين من طعام وثياب ، حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلّل كأنه مُذْهَبة (١) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من سَنّ فى الإسـلام سُنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن يُنقص من أجورهم شىء ومن سَنّ فى الإسلام سُنّة سيئة كان عليه وِزْرها ووِزْر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء" . فاكتفى صلى الله عليه وسلم بظاهر حالهم وحَثّ على الصدقة، ولم يطلب منهم بيِّنـة، ولا استقصى هل عندهم مال أم لا . ومثله حديث أَبْرَص وأقرع وأعمى أخرجه مسلم وغيره . وهذا لفظه : عن أبى هريرة أنه سمع رسـول الله صلى الله عليه وسـلم يقول : " ان فى بنى إسرائيـل أبْرَص وأقرع وأعمى فأراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم مَلَكًا فأتى الأبرَص فقال أىُّ شىء أحبُّ اليك فقال لَوْن حَسَن وجِلد حَسَن ويذهب عنى الذى قد قَذِرنى الناسُ قال فمسحه فذهب عنه قذره وأُعْطى لونا حسنا وجلدا حسنا قال فأىّ المـال أحبُّ اليك قال الإبل — أو قال البقر، شك إسحاق، إلا أن الأبرص أو الأقرع قال أحدهمـا الإبل وقال آخر البقر — (٢) قال فأعطى ناقة عُشَراء قال بارك الله لك فيهـا قال فأتى الأقرعَ فقال أىُّ شىء أحبُّ اليك قال شَـعر حَسَن ويذهب عنى هذا الذى قد قَذِرَنِى الناسُ قال فمسحه فذهب عنه قال فأُعْطِىَ شعرا حسنا قال فأىّ المـال أحبُّ اليك قال البقر فأعطِىَ بقرة حاملا قال بارك الله لك فيها قال فأتى الأعمى فقال أىّ شىء أحبّ اليك قال أن يَرُدَّ الله إلىّ بصرى فأُبصر به الناسَ قال فمسحه فردّ الله اليه بصره قال فأىّ المـال أحبُّ اليـك قال الغنم فأعطِى شاة والدا فأُنتِج هذان (٣) وولّد هـذا قال فكان لهذا وادٍ من الإبل ولهذا وادٍ من البقر ولهذا وادٍ من الغنم قال ثم إنه أتى الأبرَص فى صورته وهيئته فقال رجل مسكين قد انقطعت بى الحِبال (٤) فى سفرى فلا بلاغَ لِى اليومَ إلا بالله وبك أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمـال بعيرا أتبلّغ عليه فى سفرى

(١) أى فضة مموّهة بذهب فى إشراقه . (٢) كذا فى الأصول وصحيح مسلم . ورواية البخارى : « شك إسحاق فى ذلك أن الأبرص » بغير لفظ « إلا » . (٣) أى صاحبا الإبل والبقر .
(٤) الحبال : جمع حبل . والمراد الأسباب التى يقطعها فى طلب الرزق .

فقال له الحقوق كثيرة فقال له كأنى أعرفك ألم تكن أبرص يَقْـذَرُك الناسُ فقيرا فأعطاك الله فقال إنمـا وَرِثتُ هـذا المـال كابِرًا عن كابر فقال إن كنتَ كاذبا فصيّرك الله الى ما كنتَ فقال وأتى الأقرعَ فى صـورته فقال له مثلَ ما قال لهـذا وردّ عليه مثلَ ما ردّ على هـذا فقال إن كنتَ كاذبا فصيّرك الله الى ما كنت قال وأتى الأعمى فى صورته وهيئته فقال رجل مسكين وابنُ سبيل انقطعت بى الحِبال فى سفرى فلا بلاغ لِىَ اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذى ردّ عليك بصرَك شاةً أتبلّغ بها فى سفرى فقال قد كنتُ أعمى فردّ الله الىّ بصرى فخذ ما شـئتَ ودَعْ ما شئتَ فوالله لا أَجْهَدُك اليومَ شيئا أخذتَه لله فقال أَمْسِك مالَكَ فإنما ٱبتُلِيتم فقد رُضِىَ عنك وسُخِط على صاحِبيك " . وفى هذا أدل دليل على أن من آدعى زيادةً على فقره من عيال أو غيره لا يكشف عنه خلافا لمن قال يُكشف عنه إن قدر ؛ فإنّ فى الحديث "فقال رجل مسكين وابنُ سبيل أسألك شاة" ولم يكلفه إثبات السفر . فأما المكاتب فإنه يكلَّف إثباتَ الكتابة لأن الرّق هو الأصل حتى تثبت الحرية .

الخامسة والعشرون — ولا يجوز أن يُعطِىَ من الزكاة مَن تلزمه نفقته وهم الوالدان والولد والزوجة . وإن أعطى الإمام صدقة الرجل لولده ووالده وزوجته جاز . وأما أن يتناول ذلك هو بنفسه فلا ؛ لأنه يسـقط بها عن نفسه فرضا . قال أبو حنيفة : ولا يعطِى منها ولد ابنه ولا ولد ابنته ، ولا يعطى منها مكاتَبه ولا مدبَّره ولا أمّ ولده ولا عبدا أعتق نصفه ؛ لأنه مأمور بالإيتـاء والإخراج الى الله تعالى بواسـطة كَفّ الفقير ، ومنافع الأملاك مشتركة بينه وبين هؤلاء ؛ ولهذا لاتقبل شهادة بعضهم لبعض . قال : والمكاتب عبد ما بَقِىَ عليه درهم وربمـا يعجز فيصير الكسب له . ومعتَق البعض عند أبى حنيفة بمنزلة المكاتب . وعند صاحبيه أبى يوسف ومحمد بمنزلة حُرّ عليه دَين فيجوز أداؤها إليه .

السادسة والعشرون — فإن أعطاها لمن لا تلزمه نفقتهم فقد اختلف فيـه ؛ فمنهم من جوّزه ومنهـم من كَرِهه . قال مالك : خوف المحـمدة . وحكى مُطَرِّف أنه قال : رأيت مالكا يعطى زكاته لأقاربه . وقال الواقدىّ قال مالك : أفضـل مَن وَضعتَ فيه زكاتك

قرابتُك الذين لا تَعُول . وقال صلى الله عليه وسلم لزوجة عبد الله بن مسعود : " لك أجران أجر القرابة وأجر الصدقة " . واختلفو فى إعطاء المرأة زكاتها لزوجها، فذُكر عن ابن حبيب أنه كان يستعين بالنفقة عليها بما تعطيه . وقال أبو حنيفة : لا يجوز، وخالفه صاحباه فقالا : يجوز . وهو الأصح لمـا ثبت أن زينب ٱمرأة عبد الله أتت رسول الله صلى الله عليه وسـلم فقالت : إنى أريد أن أتصدّق على زوجى أيجزينى ؟ فقال عليه السلام : " لك أجران أجر الصدقة وأجر القرابة " . والصدقه المطلقة هى الزكاة ، ولأنه لا نفقـة للزوج عليها ؛ فكان بمنزلة الأجنبى . اِعتلّ أبو حنيفة فقال : منافع الأملاك بينهما مشتركة ، حتى لا تقبل شهادة أحدهما لصاحبه . والحـديث محمول على التطوّع . وذهب الشافعىّ وأبو ثَوْر وأشْهَب إلى إجازة ذلك، اذا لم يصرفه اليها فيما يلزمه لها ، وإنمـا يصرف ما يأخذه منها فى نفقته وكسوته على نفسه وينفق عليها من ماله .

السابعة والعشرون — واختلفوا أيضا فى قدر المُعْطَى؛ فالغارم يُعْطَى قدر دَيْنه، والفقير والمسكين يعطيان كفايتهما وكفاية عيالهما . وفى جواز إعطاء النصاب أو أقلّ منـه خلافٌ ينبنى على الخلاف المتقدم فى حدّ الفقر الذى يجوز معـه الأخذ . وروى علىّ بن زياد وابن نافع : ليس فى ذلك حدّ، وإنمـا هو على اجتهاد الوالِى . وقد تقِلّ المساكين وتكثر الصدقة فيعطَى الفقير قوت سَـنة . وروى المُغيرة : يعطَى دون النصاب ولا يبلغـه . وقال بعض المتأخرين : إن كان فى البلد زكاتان نقد وحَرْث أخذ ما يبلّغه الى الأخرىٰ . قال ابن العربى : الذى أراه أن يعطى نصابا، وإن كان فى البلد زكاتان أو أكثر؛ فإن الغرض إغناء الفقير حتى يصير غنيا . فإذا أخذ ذلك فإن حضرت الزكاة الأخرى وعنده ما يكفيه أخذها غيره .

قلت : هـذا مذهب أصحاب الرأى فى إعطاء النصاب . وقد كره ذلك أبو حنيفـة مع الجواز ، وأجازه أبو يوسـف؛ قال : لأن بعضه لحاجته مشغول للحال، فكان الفاضـل عن حاجته للحال دون المـائتين، واذا أعطاه أكثر من مائتى درهم جملةً كان الفاضل عن حاجته للحال قدر المـائتين فلا يجوز . ومن متأخّرى الحنفية من قال : هـذا اذا لم يكن له عيـال

ولم يكن عليه دَين، فإن كان عليــه دين فلا بأس أن يعطيَــه مائتى درهم أو أكثر، مقــدار مالو قضى به دَينه يبقى له دون المـائتين. وإن كان مُعيلا لا بأس بأن يعطيَه مقدار ما لو وَزّع على عياله أصاب كلّ واحد منهم دون المـائتين؛ لأن التصدّق عليه فى المعنى تصدّق عليه وعلى عياله . وهذا قول حسَن .

الثامنة والعشرون — اِعلم أن قوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ مطلقٌ ليس فيه شرط وتقييد، بل فيه دلالة على جواز الصرف إلى جملة الفقراء كانوا من بنى هاشم أو غيرهم؛ إلا أن السنة وردت باعتبار شروط : منها ألا يكونوا من بنى هاشم، وألّا يكونوا ممن لا تلزم المتصدّق نفقته. وهذا لا خلاف فيه . وشرط ثالث ألا يكون قوِيًّا على الاكتساب؛ لأنه عليه السلام قال : "لا تحل الصدقة لِغنىّ ولا لذى مِرّة سَوِىّ". وقد تقدم القول فيه . ولا خلاف بين علماء المسلمين أن الصدقة المفروضة لا تحلّ للنبىّ صلى الله عليه وسلم، ولا لبنى هاشم ولا لمواليهم . وقــد رُوى عن أبى يوسف جوازُ صرف صــدقة الهاشمىّ للهاشمىّ؛ حكاه الكيا الطبرىّ . وشذ بعض أهل العلم فقال : إن موالى بنى هاشم لا يحرم عليهم شىء من الصدقات. وهذا خلاف الثابت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فإنه قال لأبى رافع مولاه : "وإن مَوْلَى القوم منهم" .

التاسعة والعشرون — واختلفوا فى جواز صدقة التطوّع لبنى هاشم؛ فالذى عليه جمهور أهل العلم — وهو الصحيح — أن صدقة التطوّع لا بأس بها لبنى هاشم ومواليهم؛ لأن عليًّا والعباس وفاطمة رضوان الله عليهم تصدّقوا وأوقفوا أوقافا على جماعة من بنى هاشم، وصدقاتُهم الموقوفة معروفة مشهورة . وقال ابن المـاجِشون ومُطَرِّف وأَصْبَغ وابن حبيب : لا يعطى بنو هاشم من الصــدقة المفروضــة ولا من التطوع . وقال ابن القاسم : يعطى بنو هاشم من صــدقة التطوع . قال ابن القاسم : والحــديث الذى جاء : "لا تحلّ الصدقة لآل محمد" إنمـا ذلك فى الزكاة لا فى التطوع . واختار هــذا القول ابن خُوَيْزِمَنْداد، وبه قال أبو يوسف ومحمد . قال ابن القاسم : ويُعْطَى مواليهم من الصدقتين . وقال مالك فى الواضحة : لا يعطى لآل محمد من التطوع . قال ابن القاسم : — قيل له يعنى مالكا — فمواليهم؟ قال : لا أدرى ما الموالى .

فاحتججت عليه بقوله عليه السلام : " مَوْلَى القوم منهم " . فقال قـد قال : " ابن أخت القوم منهم " . قال أَصْبَغ : وذلك فى البرّ والحُرْمة .

الموفية ثلاثين — قوله تعالى : ﴿ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ ﴾ بالنصب على المصدر عند سيبويه . أى فرض الله الصدقات فريضةً . ويجوز الرفع على القطع فى قول الكسائى؛ أى هن فريضة . قال الزجاج : ولا أعلم [أنه] قرئ به .

قلت : قرأ بها ابراهيم بن أبى عَبْلة، جعلها خبرا، كما تقول : إنما زيد خارج .

قوله تعـالى : وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١)

بيّن تعالى أن فى المنافقين من كان يبسط لسانه بالوقيعة فى أذيّة النبيّ صلى الله عليه وسلم ويقول : إن عاتبنى حلفتُ له بأنى ما قلت هذا فيقبله؛ فإنه أُذُنٌ سامعة . قال الجوهرى : يقال رجل أذن إذا كان يسمع مقال كل أحد؛ يستوى فيـه الواحد والجمع . وروى علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعـالى « هو أذن » قال : مستمع وقابل . وهـذه الآية نزلت فى عَتّاب بن قُشير، قال: إنما محمد أذن يقبل كل ما قيل له . وقيل: هو نَبْتَل بن الحارث؛ قاله ابن اسحاق . وكان نبتل رجلا جسيما ثائرَ شـعر الرأس واللحية، آدمَ أحمر العينين أسـفعَ الخدّين مشوّه الخِلْقة، وهو الذى قال فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من أراد أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نَبْتَل بن الحارث" . السُّـفعة (بالضم) : سـواد مُشْرَب بحمرة . والرجل أسـفع؛ عند الجوهرى . وقرئ « أذن » بضم الذال وسـكونها . ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ ﴾ أى هو أذن خير لا أذن شر؛ أى يسـمع الخير ولا يسمع الشر . وقرأ « قل أذنٌ خيرٌ لكم » بالرفع والتنوين، الحسنُ وعاصم فى رواية أبى بكر . والباقون بالإضافة . وقرأ حمزة « ورحمةٍ » بالخفض . والبـاقون بالرفع عطف على « أذن »، والتقدير : قل هو أذن خير وهو رحمة ،

أى هو مستمع خير لامستمع شر، أى هو مستمع مايحب استماعه، وهو رحمة. ومن خفض فعلى العطف على « خيرٍ » . قال النحاس : وهــذا عند أهل العربيــة بعيد؛ لأنه قد تباعد ما بين الاسمين، وهذا يقبح فى المخفوض. المهدوى: ومن جر الرحمة فعلى العطف على « خير » والمعنى مستمعُ خير ومستمع رحمــة ؛ لأن الرحمــة من الخير . ولا يصح عطف الرحمــة على المؤمنين ؛ لأن المعنى يصدّق بالله و يصدّق المؤمنين ؛ فاللام زائدة فى قول الكوفيين . ومثله « لِرَبِّهِم يَرْهَبُونَ » أى يرهبون ربهم . وقال أبو علىّ : هو كقوله « رَدِفَ لَكُم »(١) وهى عند المبرّد متعلقة بمصدر دل عليه الفعل، التقدير: إيمانه للمؤمنين؛ أى تصديقه للمؤمنين لا للكفار. أو يكون محمولا على المعنى ؛ فإن معنى يؤمن يصدّق ، فعُدّى باللام كما عُدّى فى قوله تعالى : « مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ » .

قوله تعــالى : يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى — روى أن قوما من المنافقين اجتمعوا، فيهم الجُلَاس بن سُويد ووديعة بن ثابت ، وفيهــم غلام من الأنصار يُدْعَى عامر بن قيس ، فحقّروه فتكلموا وقالوا : إن كان ما يقول محمد حقا لنحن شرّ من الحمير . فغضب الغلام وقال : والله إنما يقول حق وأنتم شر من الحمير؛ فأخبر النبيَّ صلى الله عليه وسلم بقولهم، فحلفوا أن عامرا كاذب ؛ فقال عامر : هم الكَذَبة، وحلف على ذلك وقال : اللّهُــمّ لا تفرّق بيننا حتى يتبيّن صدقُ الصادق وكَذب الكاذب . فأنزل الله هذه الآية وفيها « يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ » .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾ ابتــداء وخبر . ومذهب سيبويه أن التقدير : والله أحقّ أن يرضوه و رسولُه أحقّ أن يرضوه، ثم حذف، كما قال :

نحن بمــا عندنا وأنت بمــا ∗ عندك راضٍ والرأىُ مختلفُ

(١) آية ٧٢ سورة النمل .

وقال محمد بن يزيد : ليس فى الكلام محذوف، والتقدير : والله أحق أن يرضوه ورسوله، على التقديم والتأخير . وقال الفرّاء : المعنى ورسوله أحق أن يرضوه، والله آفتتاح كلام؛ كما تقول : ما شاء الله وشئتَ . قال النحاس : قول سيبويه أَوْلاها؛ لأنه قد صح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم النهيُ عن أن يقال : ما شاء الله وشئت، ولا يقدَّر فى شيء تقديم ولا تأخير، ومعناه صحيح .

قلت : وقيل إن الله سبحانه جعل رضاه فى رضاه؛ ألا ترى أنه قال : « مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ »[1] . وكان الرّبيع بن خُثَيْم إذا مرّ بهذه الآية وقف، ثم يقول : حَرْفٌ وأيُّما حرف، فوّض اليه فلا يأمرنا الا بخير .

الثالثــة ــ قال علماؤنا : تضمنت هذه الآية قبولَ يمين الحالف وإن لم يلزم المحلوف له الرضا . واليمين حقّ للمدّعى . وتضمّنت أن يكون اليمين بالله عز وجل حَسْبُ . وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من حلف فلْيحلِفْ بالله أو لِيَصْمُتْ ومن حُلف له فليصدّق" . وقد مضى القول فى الأيمان والاستثناء فيها مستوفًى فى المائدة[2] .

قوله تعالى : أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ يعنى المنافقين . وقرأ ابن هُرْمُز والحسن « تعلموا » بالتاء على الخطاب . ﴿ أنّه ﴾ فى موضع نصب بيعلموا، والهاء كناية عن الحديث . ﴿ مَنْ يُحَادِدِ اللهَ ﴾ فى موضع رفع بالابتداء . والمحادّة : وقوع هذا فى حَدّ وذاك فى حَدّ؛ كالمشاقّة . يقال : حادّ فلان فلانا أى صار فى حَدّ غير حدّه . ﴿ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ يقال : ما بعد الفاء فى الشرط مبتدأ؛ فكان يجب أن يكون « فإنّ » بكسر الهمزة . وقد أجاز الخليل وسيبويه « فإن له نار جهنم » بالكسر . قال سيبويه : وهو جيّد وأنشد :

(١) آية ٨٠ سورة النساء . (٢) راجع ج ٦ ص ٢٦٤ طبعة أولى أو ثانية .

وعِلْمِى بأسْـــدام المياه فـــلم تَزَل * قَلائِصُ تَخْدِى فى طريقٍ طـــلائحُ
وأنى إذا مَلّتْ رِكـابى مُناخَهـا * فإنى على حَظّى من الأمر جامِحُ (١)

إلا أن قراءة العامة «فأن» بفتح الهمزة. فقال الخليل أيضا وسيبويه: إن «أنّ» الثانية مبدلة من الأولى. وزعم المبرّد أن هذا القول مردود، وأن الصحيح ما قاله الجَرْمىّ، قال: إن الثانية مكررة للتوكيد لمـا طال الكلام؛ ونظيره «وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ» (٢). وكذا «فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا» (٣). وقال الأخفش: المعنى فوجوب النار له. وأنكره المبرّد وقال: هذا خطأ من أجل إنّ «أن» المفتوحة المشدّدة لا يبتدأ بهـا ويضمر الخبر. وقال علىّ بن سليمان: المعنى فالواجب أن له نار جهنم؛ فان الثانية خبر ابتـداء محذوف. وقيـل: التقدير فله أن له نار جهنم. فأن مرفوعةٌ بالاستقرار على إضمار المجرور بين الفـاء وأن.

قوله تعـالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

فيــه ثلاث مسائل:

الأولى ــ قوله تعـالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾ خبر وليس بأمر. ويدل على أنه خبر أن ما بعده «إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ» لأنهـم كفروا عِنادا. وقال السُّدّىّ: قال بعض المنـافقين والله وددت لو أنى قدّمت فجُـلدت مائة ولا ينزل فينـا شىء يفضحنا؛ فنزلت الآية. يحـذر: أى يتحرّز. وقال الزجاج: معناه ليَحْذَر؛ فهو أمر؛ كما يقال: يفعلُ ذلك.

---

(١) البيتان لابن مقبل. والشاهد فيهما كسر «إن» الثانية. والأسدام: المياه المتغيرة لقلة الوارد، واحدها سدم. وتخـدى: تسرع. والطلائح: المعيية لطول السفر. ومعنى «ملت ركابى مناخها»: توالى سـفرها وأناختها فيه وارتحالها. والجامح: الماضى على وجهه. أى لا يكسرنى طول السفر ولكنى أمضى قُدُما لمـا أرجوه من الحظ فى أمرى. (عن شرح الشواهد).   (٢) آية ٥ سورة النمل.   (٣) آية ١٧ سورة الحشر.

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِـمْ ﴾ « أنْ » فى موضع نصب ، أى من أن تنزّل . ويجوز على قول سيبويه أن تكون فى موضع خفض على حذف من . ويجوز أن تكون فى موضع نصب مفعولة ليحذر؛ لأن سيبويه أجاز : حذِرت زيدا؛ وأنشد :

حَذِرٌ أمورا لا تَضِـيرُ وآمِنٌ * ما ليس مُنْجِيَـه من الأقدار

ولم يُجِزْه المُبَرّد؛ لأن الحذر شىء فى الهيئة . ومعنى ﴿عليهم﴾ أى على المؤمنين ﴿ سورة ﴾ فى شأن المنافقين تخبرهم بمخازيهم ومساويهم ومثالبهم؛ ولهذا سُمِّيت الفاضحة والمثيرة والمبعثرة ، كما تقـدم أول السورة . وقال الحسن : كان المسلمون يسمّون هذه السورة الحفّارة لأنهـا حفرت ما فى قلوب المنافقين فأظهرته .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱسْتَهْزِئُوا ﴾ هذا أمرُ وعيدٍ وتهديد . ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ﴾ أى مظهر ﴿ مَا تَحْذَرُونَ ﴾ ظهوره . قال ابن عباس : أنزل الله أسماء المنافقين وكانوا سبعين رجلا، ثم نَسخ تلك الأسماء من القرآن رأفة منه ورحمة؛ لأن أولادهم كانوا مسلمين والناس يعيّر بعضهم بعضـا . فعلى هـذا قد أنجز الله وعده بإظهاره ذلك إذ قال : « إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ » . وقيل : إخراج الله أنه عرّف نبيّه عليـه السلام أحوالهم وأسمـاءهم لا أنها نزلت فى القرآن، ولقد قال الله تعالى : « وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ »[1] وهو نوع إلهام . وكان من المنافقين من يتردّد ولا يقطع بتكذيب محمد عليه السلام ولا بصدقه . وكان فيهم من يعرف صدقه ويعاند .

قوله تعـالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى — هذه الآية نزلت فى غَزوة تَبُوك . قال الطبرى وغيره عن قَتادة : بينا النبىّ صـلى الله عليه وسلم يسـير فى غزوة تبوك ورَكْبٌ من المنافقين يسـيرون بين يديه فقالوا :

(١) آية ٣٠ سورة محمد .

انظروا ، هذا يفتح قصور الشام ويأخذ حصون بنى الأصفر ! فأطلعه الله سبحانه على ما فى قلوبهم وما يتحدّثون به ، فقال : " احبسوا علىّ الركب — ثم أتاهم فقال — قلتم كذا وكذا " فحلفوا : ما كنا إلا نخوض ونلعب ؛ يريدون كنا غير مجدّين . وذكر الطبرى عن عبدالله بن عمر قال : رأيت قائل هذه المقالة وديعةَ بن ثابت متعلّقا بحَقَب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم يماشيها والحجارة تنكبه وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب. والنبىّ صلى الله عليه وسلم يقول « أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ » . وذكر النقاش أن هذا المتعلّق كان عبد الله بن أُبَىّ بن سَلُول. وكذا ذكر القُشيرى عن ابن عمر . قال ابن عطية : وذلك خطأ ؛ لأنه لم يشهد تَبُوك . قال القشيرى : وقيل إنما قال عليه السلام هذا لوديعة بن ثابت وكان من المنافقين وكان فى غزوة تبوك . والخوض : الدخول فى الماء، ثم استعمل فى كل دخول فيه تلويث وأذًى .

الثانيــة — قال القاضى أبو بكر بن العربىّ : لا يخلو أن يكون ما قالوه من ذلك جدّا أو هزلا، وهو كيفما كان كفر، فإن الهزل بالكفر كفر لاخلاف فيه بين الأمة. فإن التحقيق أخو العلم والحق، والهزل أخو الباطل والجهل . قال علماؤنا : انظر إلى قوله « أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » .

الثالثــة — واختلف العلماء فى الهزل فى سائر الأحكام كالبيع والنكاح والطلاق على ثلاثة أقوال : لايلزم مطلقا . يلزم مطلقا . التفرقة بين البيع وغيره . فيلزم فى النكاح والطلاق ؛ وهو قول الشافعىّ فى الطلاق قولا واحدا . ولا يلزم فى البيع . قال مالك فى كتاب محمد : يلزم نكاح الهازل . وقال أبو زيد عن ابن القاسم فى العتبية : لا يلزم . وقال علىّ بن زياد : يُفسخ قبلُ و بعدُ . وللشافعىّ فى بيع الهازل قولان . وكذلك يخرّج من قول علمائنا القولان . وحكى ابن المنذر الإجماع فى أن جِدّ الطلاق وهزلَه سواء. وقال بعض المتأخرين من أصحابنا: إن اتفقا على الهزل فى النكاح والبيع لم يلزم، وإن آختلفا غلب الجد الهزل . وروى أبو داود والترمذىّ والدّارَقُطْنِىّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاث جِدّهن

جِدّ وهَزْلُهنّ جِدّ النــكاحُ والطلاق والرَّجْعــة " . قال الترمــذى : حديث حسن غـريب ، والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وغيرهم .

قلت : كذا فى الحديث " والرَّجعة " . وفى موطأ مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيَّب قال : ثلاث ليس فيهن لعِب النكاح والطلاق والعتــق . وكذا روى عن علىّ بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود وأبى الدَّرْداء ، كلهــم قال : ثلاث لا لعِب فيهن واللاعب فيهن جادٌّ النكاح والطلاق والعتق . وعن سعيد بن المسيِّب عن عمر قال : أربع جائزات على كل أحد العتق والطلاق والنكاح والنذور. وعن الضحاك قال : ثلاث لا لعب فيهن النكاح والطلاق والنذور .

قوله تعـالى : ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَـانِكُمْ ﴾ على جهة التوبيخ ؛ كأنه يقول : لا تفعلوا مالا ينفع، ثم حكم عليهم بالكفر وعدم الاعتذار من الذنب . واعتذر بمعنى أعذر، أى صار ذا عذر . قال لَبِيد :

* ومَنْ يَبْكِ حَولًا كاملا فقــد اعتذر *[1]

والاعتــذار : مَحْوُ أثر المَوْجِدة ؛ يقال : اعتذرتِ المنــازلُ دَرَست . والاعتذار الدُّروس . قال الشاعر[2] :

أم كنتَ تعرف آياتٍ فقد جعلتْ * أطــلالُ إلْفِك بالودْكاءِ تَعتـــذِرُ

وقال ابن الأعرابى : أصله القطع . واعتذرت إليه قطعت ما فى قلبه من المَوْجِدة . ومنــه عُذرة الغلام وهو ما يُقطع منه عند الختان . ومنــه عُذرة الجارية لأنه يقطع خاتم عُذرتها .

---

(١) هذا عجز بيت ، وصدره : * الى الحول ثم اسم السلام عليكما *

(٢) هو ابن أحمر الباهلى ؛ كما فى اللسان مادة « عذر » .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ قيل : كانوا ثلاثة نفر؛ هَزِئَ اثنان وضحك واحد؛ فالمعفوُّ عنه هو الذى ضحك ولم يتكلم . والطائفة الجماعة، ويقال للواحد على معنى نفس طائفة . وقال ابن الأنبارىّ : يطلق لفظ الجمع على الواحد؛ كقولك : خرج فلان على البغال . قال : ويجوز أن تكون الطائفة إذا أريد بها الواحد طائفا، والهاء للمبالغة . واختُلف فى اسم هذا الرجل الذى عُفِىَ عنه على أقوال . فقيل : مَخْشِىّ بن حُمَيِّر؛ قاله ابن إسحاق . وقال ابن هشام : ويقال فيه ابن مخشى . وقال خليفة ابن خياط فى تاريخه : اسمه مخاشن بن حُمَيِّر . وذكر ابن عبد البر مخاشن الحميرى . وذكر جميعهم أنه استُشهد باليمامة، وكان تاب وسُمّى عبد الرحمن، فدعا الله أن يُقتل شهيدا ولا يُعلم بقبره . واختلف هل كان منافقا أو مسلما . فقيل : كان منافقا ثم تاب توبة نَصُوحا . وقيل : كان مسلما، إلا أنه سمع المنافقين فضحك لهم ولم يُنكر عليهم .

قوله تعالى : ﴿ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ الْمُنَافِقُونَ والْمُنَافِقَاتُ ﴾ ابتداء . ﴿ بَعْضُهُمْ ﴾ ابتداء ثان . ويجوز أن يكون بدلا ، ويكون الخبر « من بعض » . ومعنى ﴿ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ أى هم كالشىء الواحد فى الخروج عن الدِّين . وقال الزجاج : هذا متصل بقوله : « يحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم » أى ليسوا من المؤمنين، ولكن بعضهم من بعض ، أى متشابهون فى الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف . وقَبْضُ أيديهم عبارة عن [ترك] الجهاد، وفيما يجب عليهم من حق . والنسيان : الترك هنا؛ أى تركوا ما أمرهم الله به فتركهم فى الشك . وقيل : إنهم تركوا أمره حتى صار كالمَنْسِىّ فصيّرهم بمنزلة المنسِىّ من ثوابه . وقال قتادة : « نَسِيَهم » أى من الخير؛ فأما من الشر فلم يَنْسَهم[1] . والفسق : الخروج عن الطاعة والدِّين . وقد تقدم .

(١) راجع جـ ١ ص ٢٤٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ ﴾ يقال : وعد الله بالخير وَعْدًا . ووعد بالشر وَعِيدا . ﴿ خَالِدِينَ ﴾ نصب على الحال والعامل محذوف ؛ أى يصلَوْنها خالدين . ﴿ هِىَ حَسْبُهُمْ ﴾ ابتداء وخبر، أى هى كفاية ووفاء لجزاء أعمالهم . واللّعن : البعد، أى من رحمة الله، وقد تقدّم[1] . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ أى واصب دائم .

قوله تعالى : كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ قال الزجاج : الكاف فى موضع نصب، أى وعد الله الكفار نار جهنم وعدًا كما وَعَدَ الذين من قبلهم . وقيل : المعنى فعلتم كأفعال الذين من قبلكم فى الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف؛ فحذف المضاف . وقيل : أى أنتم كالذين من قبلكم؛ فالكاف فى محل رفع لأنه خبر ابتداء محذوف . ولم ينصرف « أشدّ » لأنه أفعل صفة . والأصل فيه أَشْدَد ، أى كانوا أشد منكم قوة فلم يتهيأ لهم ولا أمكنهم رفع عذاب الله عز وجل .

الثانيـــة — روى سعيد عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "تأخذون كما أخذت الأمم قبلكم ذراعا بذراع وشبرا بشبر و باعًا بباع حتى لو أن أحدا من أولئك دخل

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٥ طبعة ثانية .

جحر ضبّ لدخلتموه " . قال أبو هريرة : وإن شئتم فاقرءوا القرآن : « كالذين من قبلكم كانوا أشدَّ منكم قُوَّةً وأكثرَ أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم — قال أبو هريرة : والخلاق الدِّين — فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم » حتى فرغ من الآية . قالوا : يا نبيّ الله، فما صنعت اليهود والنصارى؟ قال : " وما الناس إلّا هم " . وفى الصحيح عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم لتتّبِعنّ سَنَن مَن قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه " قالوا : يارسول الله، اليهود والنصارى ؟ قال : " فمن " ؟ وقال ابن عباس : ما أشبه الليلةَ بالبارحة، هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم . ونحوه عن ابن مسعود.

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ ﴾ أى انتفعوا بنصيبهم من الدِّين كما فعل الذين من قبلهم . ﴿ وَخُضْتُمْ ﴾ خروج من الغيبة إلى الخطاب . ﴿ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ أى كخوضهم . فالكاف فى موضع نصب نعت لمصدر محذوف؛ أى وخضتم خوضا كالذين خاضوا . و « الذى » اسم ناقص مثلُ مَن، يعبّر به عن الواحد والجمع . وقد مضى فى «البقرة»[1] . ويقال : خُضْت المـاء أخوضه خَوْضا وخِياضا . والموضع مخاضَة؛ وهو ما جاز الناسُ فيها مُشاةً ورُكبانا . وجمعها المَخاض والمَخاوِض أيضا؛ عن أبى زيد . وأخضت دابتى فى المـاء . وأخاض القوم، أى خاضت خيلهم . وخضت الغَمرات : اقتحمتها . ويقال : خاضه بالسيف، أى حرّك سيفه فى المضروب . وخوّض فى نَجيعه[2] شدّد للمبالغة . والمِخْوَض للشّراب كالمِجْدح[3] للسّويق؛ يقال منه : خضت الشراب . وخاض القوم فى الحديث وتخاوضوا أى تفاوضوا فيه؛ فالمعنى : خضتم فى أسباب الدنيا باللّهو واللعب . وقيل : فى أمر محمد بالتكذيب . ﴿ أُولَئِكَ حَبِطَتْ ﴾ بطلت . وقد تقدّم[4] . ﴿ أَعْمَالُهُمْ ﴾ حسناتهم . ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[5] وقد تقدّم أيضا .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٢ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) النجيع : الدم . وقيل دم الجوف خاصة .

(٣) المجدح : خشبة فى رأسها خشبتان معترضتان . (٤) راجع جـ ٣ ص ٤٦ طبعة أولى أو ثانية .

(٥) راجع جـ ١ ص ٢٤٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعـالى : أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِم نَبَأُ ﴾ أى خبر ﴿ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ . والألف لمعنى التقرير والتحذير؛ أى ألم يسمعوا إهلاكنا الكفارَ من قبل . ﴿ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ بدل من الذين . ﴿ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أى نُمرود بن كنعان وقومه . ﴿ وَأَصْحَـابِ مَدْيَنَ ﴾ اسم للبلد الذى كان فيه شعيب، أهلكوا بعذاب يوم الظُّلّة . ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾ قيل : يراد به قوم لوط؛ لأن أرضهم ائتفكت بهـم ، أى انقلبت؛ قاله قتادة . وقيـل : المؤتفكات كل من أهلك؛ كما يقال : انقلبت عليهم الدنيا . ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ يعنى جميع الأنبياء . وقيل : أتت أصحابَ المؤتفكات رسلُهم؛ فعلى هذا رسولهم لوط وحده؛ ولكنه بعث فى كل قرية رسولا ، وكانت ثلاث قَرْيات ، وقيل أربع . وقوله تعالى فى موضع آخر : «والمؤتفكةَ»(١) على طريق الجنس . وقيل : أراد بالرسل الواحد؛ كقوله «يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ»(٢) ولم يكن فى عصره غيره .

قلت — وهـذا فيه نظر؛ للحديث الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " إن الله خاطب المؤمنين بما أمر به المرسلين" الحديث . وقد تقدّم فى «البقرة» . والمراد جميع الرسل ، والله أعلم . ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أى ليهلكهم حتى يبعث إليهم الأنبياء . ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ولكن ظلموا أنفسهم بعد قيام الحجة عليهم .

قوله تعـالى : وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

(١) فى آية ٥٣ سورة النجم . (٢) آية ٥١ سورة المؤمنون .

فيــــه أربع مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ أى قلوبهم متّحدة فى التوادّ والتحابّ والتعاطف . وقال فى المنافقين «بعضهم من بعض» لأن قلوبهم مختلفــة ولكن يضم بعضهم إلى بعض فى الحكم .

الثانيـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أى بعبادة الله تعالى وتوحيده، وكل ما أتبع ذلك . ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ عن عبادة الأوثان وكل ما أتبع ذلك . وذكر الطبرى عن أبى العاليـــة أنه قال : كل ما ذُكر فى القرآن من الأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر فهو النهى عن عبادة الأوثان والشياطين . وقد مضى القول فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى سورة المـائدة (١) وآل عمران (٢)، والحمد لله .

الثالثـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ تقدّم فى أوّل « البقرة » (٣) القول فيه . وقال ابن عباس : هى الصلوات الخمس، وبحسب هــذا تكون الزكاة هنا المفروضــة . ابن عطيّة : والمدح عندى بالنوافل أبلغ؛ إذ من يقيم النوافل أحْرَى بإقامة الفرائض .

الرابعـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ ﴾ فى الفرائض ﴿ وَرَسُولَهُ ﴾ فيما سنّ لهم . والسين فى قوله « سيرحمهم الله » مُدْخِلةٌ فى الوعد مُهْلةً لتكون النفوس تتنعم برجائه؛ وفضلُه تعالى زعيم بالإنجاز .

قوله تعـالى : وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

---

(١) راجــع جـ ٦ ص ٣٤٢ وما بعــدها .　　(٢) راجــع جـ ٤ ص ٤٧ طبعــة أولى أو ثانيــة .

(٣) راجع جـ ١ ص ١٦٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ والْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ ﴾ أى بساتين ﴿ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ من تحت أشجارها وغرفها الأنهار . وقد تقدّم فى « البقرة » أنها تجرى منضبطة بالقدرة فى غير أُخدود[1] . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ﴾ قصور من الزبرجد والدّر والياقوت يفوح طِيبها من مسيرة خمسمائة عام . ﴿ فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ أى فى دار إقامة . يقال : عَدَن بالمكان إذا أقام به ؛ ومنه المَعْدِن . وقال عطاء الخُرَاسانىّ : « جنات عدن » هى قصبة الجنة ، وسقفُها عرش الرحمن جل وعز . وقال ابن مسعود : هى بُطْنان الجنة ؛ أى وسطها . وقال الحسن : هى قصر من ذهب لا يدخلها إلا نبىّ أو صدّيق أو شهيد أو حَكَمٌ عَدْل ؛ ونحوه عن الضحاك . وقال مُقاتل والكلْبىّ : عدن أعلى درجة فى الجنة ، وفيها عين التسنيم ، والجنان حولها محفوفة بها ، وهى مغطاة من يوم خلقها الله حتى ينزلها الأنبياء والصدّيقون والشهداء والصالحون ومن يشاء الله . ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ ٱللهِ أَكْبَرُ ﴾ أى أكبر من ذلك . ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِىُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ ﴾ الخطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم وتدخل فيه أمّته من بعده . قيل : المراد جاهد بالمؤمنين الكفارَ . وقال ابن عباس : أمر بالجهاد مع الكفار بالسيف ، ومع المنافقين باللسان وشدّة الزجر والتغليظ . وروى عن ابن مسعود أنه قال : جاهد المنافقين بيدك ، فإن لم تستطع فبلسانك ، فان لم تستطع فاكْفَهِرّ[2] فى وجوههم . وقال الحسن : جاهد المنافقين بإقامة الحدود عليهم وباللسان — واختاره قتادة — وكانوا أكثر من يصيب الحدود . ابن العربىّ : « أما إقامة الحجة باللسان فكانت دائمة ، وأما بالحدود لأن أكثر إصابة الحدود كانت عندهم فدعوى لا برهان عليها ،

(١) راجع جـ ١ ص ٢٣٩ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) اكفهر الرجل : اذاعبس .

وليس العاصي بمنافق، إنما المنافق بما يكون في قلبه من النفاق كامناً، لا بما تتلبس به الجوارح ظاهرا، وأخبار المحدودين يشهد سياقها أنهم لم يكونوا منافقين .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ الغلظ : نقيض الرأفة، وهي شدّة القلب على إحلال الأمر بصاحبه . وليس ذلك في اللسان؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "اذا زنت أَمَة أحدكم فليجلدها الحدّ ولا يُثرِّب عليها"[1] . ومنه قوله تعالى : « وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ»[2] . ومنه قول النّسوة لعمر : أنت أفظّ وأغلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] . ومعنى الغلظ خشونة الجانب . فهي ضدّ قوله تعالى: « وَٱخْفِضْ جناحَكَ لِمَنِ ٱتّبعك مِن المؤمِنين »[4] . « وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ »[5] . وهذه الآية نسخت كل شيء من العفو والصلح والصفح .

قوله تعـالى : يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ج وَمَا نَقَمُوا إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ج فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ صلى وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ج وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

---

(١) أي لا يوبخها ولا يقرعها بالزنى بعد الضرب . وقيل : أراد لا يقنع في عقوبتها بالتثريب، بل يضربها الحد؛ فان زنى الاماء لم يكن عند العرب مكروها ولا منكرا ، فأمرهم بحد الإماء كما أمرهم بحد الحرائر . (نهاية ابن الأثير) .

(٢) آية ١٥٩ سورة آل عمران .

(٣) روى البخاري ومسلم هذا الحديث في «باب مناقب عمر رضي الله عنه» قالا : «استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته؛ فلما استأذن عمر قمن فبادرن الحجاب ، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك ، فقال عمر : أضحك الله سنك يا رسول الله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب" فقال عمر : أنت أحق أن يهبن يا رسول الله . ثم قال عمر : يا عدوات أنفسهن ، أتهبنني ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم! فقلن : نعم ! أنت أفظ وأغلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إيهاً يابن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجّاً إلا سلك فجا غير فجك " .

(٤) آية ٢١٥ سورة الشعراء .

(٥) آية ٢٤ سورة الاسراء .

فيـــه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا ﴾ رُوى أن هذه الآية نزلت فى الجُلَاس ابن سُويد بن الصامت ، ووديعة بن ثابت؛ وقعوا فى النبيّ صلى الله عليه وسلم وقالوا : والله لئن كان محمد صادقا على إخواننا الذين هم ساداتنا وخيارنا لنحن شر من الحمير . فقال له عامر ابن قيس : أجل! والله إن محمدا لصادق مصدَّق ؛ و إنك لشر من حمار . وأخبر عامر بذلك النبيَّ صلى الله عليه وسـلم . وجاء الجُلَاس فحلف بالله عنـد منبر النبيّ صلى الله عليه وسلم إن عامرا لكاذب . وحلف عامر لقـد قال ، وقال : اللّهُـمَّ أنزل على نبيّك الصادق شيئا ، فنزلت . وقيل : إن الذى سمعه عاصم بن عَدِىّ . وقيـل حذيفة . وقيـل : بل سمعه ولد امرأته واسمه عمير بن سعد؛ فيما قال ابن اسحاق . وقال غيره : اسمه مصعب . فهمّ الجلاس بقتله لئلا يخبر بخبره؛ ففيه نزل : « وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا » . قال مجاهد : وكان الجلاس لمـا قال له صاحبه إنى سأخبر رسول الله صلى الله عليه وسـلم بقولك همّ بقتله ، ثم لم يفعل ، عجز عن ذلك . قال : ذلك هى الإشارة بقوله : « وهَمُّوا بمـا لم ينالوا » . وقيـل : إنهـا نزلت فى عبـد الله بن أُبَىّ ، رأى رجلا من غِفار يتقاتل مع رجل من جُهينة ، وكانت جُهينة حلفاء الأنصار ، فعلا الغِفارىُّ الجُهَنِىّ . فقال ٱبن أُبىّ : يا بنى الأَوْس والخزرج ، انصروا أخا كم! فوالله ما مَثَلُنا ومثلُ محمد إلا كما قال القائل : « سَمِّن كَلْبَك يأكلك » ، ولئن رجعنا إلى المدينة ليُخرِجنّ الأعزُّ منها الأذَلَّ . فأخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك ، فجاءه عبد الله بن أُبَىّ فحلف أنه لم يقله ؛ قاله قتادة . وقول ثالث أنه قول جميع المنافقين ؛ قاله الحسن . ٱبن العربىّ : وهو الصحيح ؛ لعموم القول ووجود المعنى فيه وفيهم ، وجملة ذلك اعتقادهم فيه أنه ليس بنبىّ .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَـدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ﴾ قال النقاش : تكذيبهم بمـا وعد الله من الفتح . وقيل : « كلمة الكفر » قول الجُلَاس : إن كان ما جاء به محمد حقا لنحن أشر من الحمير . وقول عبد الله بن أبىّ : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل . قال القشيرى : كلمة الكفر سبُّ النبيّ صلى الله عليه وسلم والطعنُ فى الإسلام . ﴿ وَكَفَرُوا

بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾ أى بعد الحكم بإسلامهم . فدلّ هـذا على أن المنافقين كفار . وفى قوله تعالى : « ذَلِكَ بأنّهم آمنوا ثم كفروا »(١) دليل قاطع .

ودلّت الآية أيضا على أن الكفر يكون بكل مايناقض التصديق والمعرفة ؛ وإن كان الإيمان لا يكون إلا بلا إله إلا الله دون غيره من الأقوال والأفعال إلا فى الصلاة . قال إسحاق بن رَاهْوَيه : ولقد أجمعوا فى الصلاة على شىء لم يجمعوا عليه فى سائر الشرائع ؛ لأنهم بأجمعهم قالوا : من عُرِف بالكفر ثم رأوه يصلى الصلاة فى وقتها حتى صلى صلوات كثيرةً، ولم يعلموا منه إقرارا باللسان أنه يحكم له بالإيمان، ولم يحكموا له فى الصوم والزكاة بمثل ذلك .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ يعنى المنافقين من قتل النبىّ صلى الله عليه وسلم ليلة العَقَبة فى غزوة تَبُوك ، وكانوا اثنى عشر رجلا . قال حذيفة : سمّاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عدهم كلَّهم . فقلت : ألَا تبعثُ إليهم فتقتلَهم ؟ فقال : " أكره أن تقول العرب لمّا ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم بل يكفيهم الله بالدُّبَيْلة " . قيل : يا رسول الله وما الدُّبيلة ؟ قال : " شهاب من جهنم يجعله على نِياط فؤاد أحدهم حتى تزهق نفسه " . فكان كذلك . خرّجه مسلم بمعناه . وقيل همّوا بعقد التاج على رأس ابن أُبَىّ ليجمعوا عليه . وقد تقدّم قول مجاهد فى هذا .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى ليس ينقمون شيئا؛ كما قال النابغة :

ولا عَيْبَ فيهم غير أن سيوفهم * بهنّ فُلول من قِراع الكتائب

ويقال نَقَم ينقِم، ونَقِم ينقَم؛ قال الشاعر :

ما نقِموا من بنى أميّة إلا * أنهم يحلُمون إن غضبوا

وقال زهير :

يؤخَّر فيوضع فى كتاب فيُدَّخَر * ليوم الحساب أو يُعَجَّل فينقَم

(١) آية ٣ سورة المنافقون .

ينشد بكسر القاف وفتحها. قال الشعبيّ: كانوا يطلبون دِيةً فيقضى لهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستغنوْا. ذكر عكرمة انها كانت اثنى عشر ألفا. و يقال: إن القتيل كان مَوْلَى الجُلَاس. وقال الكلبيّ: كانوا قبل قدوم النبيّ صلى الله عليه وسلم فى ضنك من العيش، لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة، فلما قدم عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم آستغنَوْا بالغنائم. وهذا المثل مشهور (آتق شرّ من أحسنت اليه). قال القشيريّ أبو نصر: قيل للبَجَلِيّ أتجد فى كتاب الله تعالى اتق شر من أحسنت إليه ؟ قال نعم، « وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ».

الخامسة — قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ﴾ روى أن الجلاس قام حين نزلت الآية فاستغفر وتاب. فدل هذا على توبة الكافر الذى يسر الكفر و يظهر الإيمان؛ وهو الذى يسميه الفقهاء الزنديق. وقد اختلف فى ذلك العلماء؛ فقال الشافعيّ: تقبل توبته. وقال مالك: توبة الزنديق لا تعرف؛ لأنه كان يُظهر الإيمان و يسرّ الكفر، ولا يعلم إيمانه إلا بقوله. وكذلك يُفعل الآن فى كل حين، يقول: أنا مؤمن وهو يضمر خلاف ما يظهر؛ فاذا عثر عليه وقال: تبت، لم يتغيّر حاله عما كان عليه. فإذا جاءنا تائبا من قِبل نفسه قَبْل أن يعثر عليه قُبلت توبته؛ وهو المراد بالاية. والله أعلم.

السادسة — قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾ أى يُعرضوا عن الإيمان والتوبة ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فِى الدنيا بالقتل، وفى الآخرة بالنار. ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ أى مانع يمنعهم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ أى معين. وقد تقدّم (1).

قوله تعالى: وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا بِهِۦ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾

(1) راجع جـ ١ ص ٣٨٠ طبعة ثانية أو ثالثة.

فيـــه ثمـــان مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ ﴾ قال قتادة : هو رجل من الأنصار قال : لئن رزقني الله شـيئا لأؤدّين فيه حقّه ولأتصدقنّ ؛ فلمـا آتاه الله ذلك فعـل ما نُصّ عليكم ، فاحذروا الكذب فانه يؤدّى الى الفجور . وروى عليّ بن زيد عن القاسم عن أبي أمامة الباهليّ أن ثعلبة بن حاطب الأنصارى (فسماه) قال للنبيّ صلى الله عليـه وسلم : أُدْعُ الله أن يرزقني مالًا . فقال عليه السـلام : "وَيْحَك يا ثعلبـة قليل تؤدّى شكره خير من كثير لا تطيقـه" . ثم عاد ثانيـا فقال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : "أمَا ترضى أن تكون مثل نبيّ الله لو شئتُ أن تسير معي الجبال ذهبا لسارت" . فقال : والذى بعثك بالحق لئن دعوتَ الله فرزقني مالا لأعطينّ كلّ ذِى حقّ حقَّه . فدعا له النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فاتخذ غنما فنَمَت كما تَنْمِي الدود ، فضاقت عليه المدينة فتنحّى عنها ونزل واديا من أوديتها حتى جعل يصـلي الظهر والعصر في جمـاعة ، وترك ما سـواهما . ثم نمت وكثرت حتى ترك الصلوات إلا الجمعة ، وهي تَنْمِي حتى ترك الجمعة أيضا ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا وَيْحَ ثعلبة" ثلاثا . ثم نزل «خُذْ مِن أموالِهِم صَدَقَةً» . فبعث صلى الله عليه وسـلم رجلين على الصدقة ، وقال لهما : "مُرًّا بثعلبة وبفلان — رجل من بني سُلَيم — فخذا صدقاتهما" . فأتيـا ثعلبة وأقرآه كتاب رسولِ الله صلى الله عليه وسـلم ، فقال : ما هـذه إلا أخت الجزية ! انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا . الحديث ، وهو مشهور . وقيـل : سبب غناء ثعلبة أنه ورِث ابن عم له . قال ابن عبد البر : قيـل إن ثعلبة بن حاطب هو الذى نزل فيه «ومنهم من عاهد الله» الآية ؛ إذ منـع الزكاة ، فالله أعلم . وما جاء فيمن شاهـد بدرا يعارضه قوله تعالى فى الآية « فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قلوبِهِم » الآية .

قلت : وذُكر عن ابن عباس فى سبب نزول الآية أن حاطب بن أبي بَلْتَعة أبطأ عنه ماله بالشام ، فحلف فى مجلس من مجالس الأنصار : إن سَـلِم ذلك لأتصدقن منه ولأصِلن منه . فلما سَلِم بَخِل بذلك فنزلت .

قلت : وثعلبة بَدْرِى أنصارى وممن شهد الله له و رسوله بالإيمان؛ حسب ما يأتى بيانه فى أوّل الممتحنة[1]؛ فما روى عنه غير صحيح . قال أبو عمر : ولعـل قول من قال فى ثعلبة أنه مانع الزكاة الذى نزلت فيـه الآية غير صحيح ، والله أعـلم . وقال الضحاك : إن الآية نزلت فى رجل من المنافقين نَبْتَل بن الحارث وجَدّ بن قيس ومُعَتِّب بن قشير .

قلت : وهـذا أشبه بنزول الآية فيهم؛ إلا أن قوله «فأعقبهم نِفاقا» يدل على أن الذى عاهد لم يكن منافقا من قبـل ، إلا أن يكون المعنى : زادهم نفاقا ثبتوا عليـه إلى الممـات ، وهو قوله : « إلى يَوْمِ يَلْقَوْنَه » على ما يأتى .

الثانيـــة ـــ قال علماؤنا : لمـا قال تعالى « ومنهـم من عاهد الله » احتمل أن يكون عاهد الله بلسانه ولم يعتقده بقلبه . واحتمل أن يكون عاهد الله بهما ثم أدركته سوء الخاتمة؛ فإن الأعمـال بخواتيمها والأيام بعواقبها . و « مَن » رفع بالابتـداء والخبر فى المجرور . ولفظ اليمين ورد فى الحـديث وليس فى ظـاهر القرآن يمين إلا بمجرد الارتباط والالتزام ، أما إنه فى صيغة القسم فى المعـنى فإن اللام تدل عليه، وقـد أتى بلامين الأولى للقسم والثانيـة لام الجواب ، وكلاهمـا للتأكيد . ومنهم من قال : إنهما لاما القسم ؛ والأول أظهر ، والله أعلم .

الثالثـــة ـــ العهد والطلاق وكل حكم ينفرد به المـرء ولا يفتقر إلى غيره فيه فإنه يلزمه منه ما يلتزمه بقصـده وإن لم يلفظ به؛ قاله علمـاؤنا . وقال الشافعىّ وأبو حنيفة : لا يلزم أحدا حكمٌ إلا بعد أن يلفظ به ؛ وهو القول الآخر لعلمائنا . ابن العربىّ : والدليل على صحة ما ذهبنا اليه ما رواه أشهب عن مالك، وقـد سئل : إذا نوى الرجل الطلاق بقلبه ولم يلفظ به بلسانه فقال : يلزمه؛ كما يكون مؤمنا بقلبه، وكافرا بقلبه . قال ابن العربىّ : وهذا أصل بديع، وتحريره أن يقال : عَقْدٌ لا يفتقر فيه المرء إلى غيره فى التزامه فانعقد عليه بنيةّ . أصله الإيمان والكفر .

(١) يلاحظ أن الذى سيذكره المؤلف فى أول سورة الممتحنة إنما هو حاطب بن أبى بلتعة ، لا ثعلبة بن حاطب .

قلت : وحجة القول الثانى ما رواه مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به" . ورواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح، والعمل على هـذا عند أهل العـلم أن الرجل إذا حدث نفسه بالطلاق لم يكن شيئا حتى يتكلم به . قال أبو عمر : ومن اعتقد بقلبه الطلاق ولم ينطق به لسانه فليس بشيء . هـذا هو الأشهر عن مالك . وقد روى عنه أنه يلزمه الطلاق إذا نواه بقلبه؛ كما يكفر بقلبه وإن لم ينطق به لسـانه . والأول أصح فى النظر وطريق الأثر، لقول رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " تجاوز الله لأمتى عما وسـوست به نفوسها ما لم ينطق به لسان أو تعمله يد" .

الرابعــة — إن كان نذرا فالوفاء بالنذر واجب من غير خلاف وتركه معصية . وإن كانت يمينا فليس الوفاء باليمين واجبا باتفاق . بيد أن المعنى فيه إن كان الرجل فقيرا لا يتعين عليه فرض الزكاة؛ فسأل الله مالا تلزمه فيه الزكاة ويؤدى ما تعين عليه من فرضه، فلما آتاه الله ما شـاء من ذلك ترك ما التزم ممـا كان يلزمه فى أصـل الدين لو لم يلتزمه، لكن التعاطى بطلب المـال لأداء الحقوق هو الذى أورطه إذ كان طلبه من الله تعـالى بغير نية خالصة ، أو نية لكن سبقت فيه البداية المكتوب عليه فيها الشقاوة . نعوذ بالله من ذلك .

قلت : ومن هـذا المعنى قوله عليه السـلام : " إذا تمـنى أحدكم فلينظر ما يتمنى فإنه لا يدرى ما كتب له فى غيب الله عز وجل من أمنيته " . أى من عاقبتها، فرب أمنية يفتتن بها أو يطغى فتكون سببا للهلاك دنيا وأخرى، لأن أمور الدنيا مبهمة عواقبها خطرة غائلتها. وأما تمنى أمور الدين والأخرى فتمنيها محمود العاقبة محضوض عليها مندوب اليها .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ دليل على أن من قال : إن ملكت كذا وكذا فهو صدقة فإنه يلزمه؛ وبه قال أبو حنيفة . وقال الشـافعى : لا يلزمه . والخلاف فى الطلاق مثـله، وكذلك فى العتق . وقال أحمد بن حنبل : يلزمه ذلك فى العتق ولا يلزمه فى الطـلاق؛ لأن العتق قربة وهى تثبت فى الذمة بالنـذر؛ بخلاف الطـلاق فانه

تصرّف فى محل، وهو لا يثبت فى الذّمة . احتجّ الشافعىّ بما رواه أبو داود والترمذىّ وغيرهما عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "لا نَذْرَ لابن آدم فيما لا يملك ولا عتق له فيما لا يملك ولا طـلاق له فيما لا يملك" لفظ الـترمذىّ . وقال : وفى الباب عن علىّ ومعاذ وجابر وابن عباس وعائشـة حديثُ عبدِ الله بن عمرو حديثٌ حسن، وهو أحسن شىء رُوى فى هذا الباب . وهو قول أكثر أهل العلم من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسـلم وغيرهم . ابن العربىّ : وسرد أصحاب الشافعىّ فى هذا الباب أحاديث كثيرة لم يصحّ منها شىء فلا يعوَّل عليها، ولم يبق إلا ظاهر الآية .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّـا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى أعطاهم . ﴿ بَخِـلُوا بِهِ ﴾ أى بإعطاء الصـدقة وبإنفاق المـال فى الخير، وبالوفاء بما ضَمِنوا والتزموا . وقد مضى البخل فى «آل عمران»[(1)] . ﴿ وَتَوَلَّوْا ﴾ أى عن طاعة الله . ﴿ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ أى عن الإسـلام، أى مظهرون للإعراض عنه .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا ﴾ مفعولان ؛ أى أعقبهـم الله تعالى نفاقا فى قلوبهم . وقيل : أى أعقبهم البخل نفاقا؛ ولهذا قال : «بخلوا به» . ﴿ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ فى موضع خفض؛ أى يلقون بخلهم، أى جزاء بخلهم؛ كما يقال: أنت تلق غدًا عملك . وقيل: «الى يوم يلقونه» أى يلقون الله . وفى هذا دليل على أنه مات منافقا . وهو يبعد أن يكون المنزَّل فيه ثعلبة أو حاطب ؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال لعمر : "وما يدريك لعلّ الله اطلّع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم" . وثعلبة وحاطب ممن حضر بدرا وشهدها . ﴿ بِمَـا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَـا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ كذبهم نقضهم العهد وتركهم الوفاء بمـا التزموه من ذلك .

الثامنــة — قوله تعالى: ﴿ نِفَاقًا ﴾ النفاق إذا كان فى القلب فهو الكفر. فأما إذا كان فى الأعمال فهو معصية . قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أربع من كن فيه كان منافقا خالصا

(1) راجع جـ ٤ ص ٢٩٠ طبعة أولى أو ثانية .

ومن كانت فيه خَصْلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يَدَعَها : إذا ٱئتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر " . خرّجه البخاريّ . وقد مضى فى «البقرة» اشتقاق هذه الكلمة[1] ، فلا معنى لإعادتها . واختلف الناس فى تأويل هـذا الحديث ؛ فقالت طائفة : إنمـا ذلك لمن يحدّث بحديث يعلم أنه كذب ، ويعهد عهدا لايعتقد الوفاء به ، وينتظر الأمانة للخيانة فيهـا . وتعلقوا بحديث ضعيف الإسناد ، وأن عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه لقى أبا بكر وعمر رضى الله عنهما خارجَيْن من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما ثقيلان فقال عليّ : مالى اراكما ثقيلين؟ قالا : حديثا سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال المنافقين "إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا ائتمن خان وإذا وعد أخلف". فقال عليّ : أفلا سألتماه ؟ فقالا : هِبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : لكنى سأسأله ؛ فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، خرج أبو بكر وعمر وهما ثقيلان ، ثم ذكر ماقالاه ، فقال : "قد حدثتهما ولم أَضَعْه على الوضع الذى وضعاه ولكن المنافق إذا حدّث وهو يحدث نفسه أنه يكذب وإذا وعد وهو يحدّث نفســه أنه يُخلف وإذا ائتمن وهو يحدّث نفسه أنه يخون " . ٱبن العربيّ : قد قام الدليل الواضح على أن متعمد هذه الخصال لا يكون كافرا ، وإنما يكون كافرا باعتقاد يعود إلى الجهل بالله وصفاته أو التكذيب له . وقالت طائفة : ذلك مخصوص بالمنافقين زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتعلّقوا بمـا رواه مقاتل بن حيّان عن سعيد بن جُبير عن ابن عمر وابن عباس قالا : أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أناس من أصحابه فقلنا : يارسول الله ، إنك قلت "ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مؤمن إذا حدّث كذب وإذاوعد أخلف واذا ٱئتمن خان ومن كانت فيه خَصْلة منهن ففيه ثلث النفاق " فظننا أنا لم نَسلم منهن أو من بعضهن ولم يَسلم منهن كثير من الناس ؛ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : "مالكم ولهن إنما خصصت بهن المنافقين كما خصهم الله فى كتابه أما قولى إذا حدث كذب فذلك قوله عز وجل «إذا جاءك المنافقون» — الآية — أفأنتم

(١) راجع جـ ١ ص ١٧٨ ، ١٩٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

كذلك" ؟قلنا لا . قال: "لا عليكم أنتم من ذلك براء وأما قولى إذا وعد أخلف فذلك فيما أنزل الله علىّ « ومنهم من عاهدَ اللهَ لئن آتانا مِن فضلِهِ » — الآيات الثلاث — "أفأنتم كذلك" ؟ قلنـا لا ، والله لو عاهـدْنا الله على شيء أوفينا به . قال : " لا عليكم أنتم من ذلك برآء وأما قولى و إذا ائتمن خان فذلك فيما أنزل الله علىّ « إِنَّا عَرَضْـنَا الْأَمانة على السمواتِ والأرضِ والجبـالِ » — الآية — فكلّ إنسان مؤتمن على دينـه فالمؤمن يغتسل من الجنابة فى السر والعلانية [والمنافق لا يفعل ذلك إلا فى العلانية] أفأنتم كذلك" ؟ قلنا لا . قال : " لا عليكم أنتم من ذلك بُرآء" . وإلى هذا صار كثير من التابعين والأئمة . قالت طائفة : هذا فيمن كان الغالب عليه هذه الخصال . ويظهر من مذهب البخارىّ وغيره من أهل العلم أن هذه الخلال الذميمة منافق من اتصف بها إلى يوم القيامة . قال ابن العربىّ : والذى عندى أنه لو غلبت عليه المعاصى ما كان بها كافرا مالم تؤثر فى الاعتقاد . قال علماؤنا : إن إخوة يوسف عليه السلام عاهـدوا أباهم فأخلفوه ، وحدّثوه فكذبوه ، وائتمنهم على يوسف فخانوه وما كانوا منافقين . قال عطاء بن أبى رَباح : قد فَعل هـذه الخلال إخوةُ يوسف ولم يكونوا منافقين بل كانوا أنبياء . وقال الحسن بن أبى الحسن البصرىّ : النفاق نفاقان ، نفاق الكذب ونفاق العمل ؛ فأما نفاق الكذب فكان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، وأما نفاق العمل فلا ينقطع إلى يوم القيامـة . وروى البخارىّ عن حذيفة أن النفـاق كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما اليوم فإنمـا هو الكفر بعد الإيمـان .

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ هذا توبيخ ، و إن كان عالمـا فإنه سيجازيهم .

قوله تعـالى : ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِى الصَّدَقَاتِ ﴾ هذا أيضـا من صفات المنافقين . قال قتادة : « يلمزون » يعيبون . قال : وذلك أن عبد الرحمن بن عوف تصـدّق بنصف ماله ، وكان مالُه ثمانية آلاف فتصـدّق منها بأربعة آلاف . فقال قوم : ما أعظم رياءه ؛ فأنزل الله « الذين يَلْمِزُون المطوِّعين من المؤمنين في الصـدقات » . وجاء رجل من الأنصار بنصف صُبرة[1] من تمره فقالوا : ما أغنى الله عن هذا؛ فأنزل الله عزوجل ﴿ والَّذين لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ . وخرج مسـلم عن أبي مسعود قال : أُمِرنا بالصـدقة — قال : كنا نحامل[2]، في رواية : على ظهورنا — قال : فتصدّق أبو عَقيل بنصف صاع . قال : وجاء إنسان بشيء أكثر منه فقال المنافقون : إنّ الله لغنيّ عن صدقة هذا ، وما فعل هـذا الاخر إلا رياء ؛ فنزلت « الذين يلمزون المطَّوِّعين من المؤمنين في الصـدقاتِ والذين لَا يَجِدون إلا جهدهم » . يعني أبا عقيل ، واسمه الحَبْحاب . والجُهْد : شيء قليل يعيش به المُقِلّ . والجُهْد والجَهْد بمعنًى واحد . وقد تقـدم[3] . و« يلمزون » يعيبون . وقد تقـدم . و « المطوعين » أصله المتطوعين أدغمت التاء في الطاء ؛ وهم الذين يفعلون الشيء تبرّعا من غير أن يجب عليهم . « والذين » في موضـع خفض عطف على « المؤمنين » . ولا يجوز أن يكون عطفا على الاسم قبل تمامه . و «فيسخرون» عطف على « يلمزون » . ﴿ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ خبر الابتداء ، وهو دعاء عليهم . وقال ابن عباس : هو خبر؛ أي سَخِر منهم حيث صاروا إلى النار . ومعنى سخر الله مجازاتهم على سخريتهم . وقد تقدم في « البقرة »[4] .

قوله تعـالى : ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾

---

(١) الصبرة (بالضم) : ماجمع من الطعام بلا كيل ولا وزن بعضه فوق بعض . (٢) معناه : نحمل الحمل على ظهورنا بالأجرة ونتصدق من تلك الأجرة أو نتصدق بها كلها . (٣) راجع جـ ٧ ص ٦٢ طبعة أولى أو ثانية .
(٤) راجع جـ ٣ ص ٢٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ يأتى بيانه عند قوله تعالى : « ولا تُصَلِّ على أحدٍ منهم مات أبدا » [1] .

قوله تعـالى : فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ ﴾ أى بقعودهم . قعد قعودا ومقعدا؛ أى جلس. وأقعده غيره؛ عن الجوهرى . والمخلّف المتروك؛ أى خلّفهم الله وثبّطهم، أو خلفهم رســول الله والمؤمنون لمّـا علموا تثاقلهم عن الجهاد؛ قولان . وكان هذا فى غزوة تبوك . ﴿ خِلَافَ رَسُـولِ اللهِ ﴾ مفعول من أجله ، و إن شئت كان مصدرا . والخـلاف المخالفة . ومن قرأ « خَلْفَ رسولِ اللهِ » أراد التأخر عن الجهاد . ﴿ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِى الْحَرِّ ﴾ أى قال بعضهم لبعض ذلك . ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ أى قل لهم يا محمـد نار جهنم . ﴿ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ ابتداء وخبر . « حرا » نصب على البيان؛ أى من ترك أمر الله تعرّض لتلك النار .

قوله تعـالى : فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

فيـــه مسألتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا ﴾ أمرٌ، معناه معنى التهـديد وليس أمرا بالضحك . والأصل أن تكون اللام مكسورة فحذفت الكسرة لثقلهـا . قال الحسن : « فليضحكوا قليلا » فى الدنيا « وليبكوا كثيرا » فى جهنم . وقيـل : هو أمر بمعنى الخبر . إنهم سيضحكون قليلا و يبكون كثيرا . ﴿ جَزَاءً ﴾ مفعول من أجله ؛ أى للجزاء .

(١) آية ٨٤ من هذه السورة .

الثانيـــة — من الناس من كان لا يضحك اهتماما بنفســه وفساد حاله فى اعتقاده من شدّة الخوف، و إن كان عبدا صالحا . قال صلى الله عليه وسـلم : " والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم إلى الصُّعُدات[1] تجأرون الى الله تعالى لوددت[2] أنى كنت شجرة تُعْضَد" خرجه الترمذى . وكان الحسن البصرىّ رضى الله عنه ممن قد غلب عليه الحزن فكان لا يضحك . وكان ابن سيرين يضحك ويحتجّ على الحسن و يقول : الله أضحك وأبكى. وكان الصحابة يضحكون ؛ إلا أن الإكثار منه وملازمتـه حتى يغلب على صاحبـه مذموم منهىّ عنه، وهو من فعل السفهاء والبَطَالة . وفى الخبر : " أن كثرته تميت القلب " . وأما البكاء من خوف الله وعقابه فمحمود ؛ قال عليه السلام : " ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا فإن أهل النار يبكون حتى تسـيل دموعهم فى وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون فلو أن سُفُنًا أجريت فيها لجرت " . خرّجه ابن المبارك من حديث أنس، وابن ماجه أيضا .

قوله تعـالى : فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ ﴾ أى المنافقين . و إنمـا قال : « إلى طائفة » لأن جميع من أقام بالمدينـة ما كانوا منافقين، بل كان فيهم معذورون ومن لا عذر له، ثم عفا عنهم وتاب عليهم ؛ كالثلاثة الذين خُلِّفوا . وسيأتى . ﴿ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا ﴾ أى عاقبهم بألا تصحبهم أبدا . وهو كما قال فى سـورة الفتح : « قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا »[3] . و ﴿ الخَـالِفِينَ ﴾ جمع خالف ؛ كأنهم خلفوا الخارجين . قال ابن عباس :

(١) الصعدات : هى الطرق، وهى جمع صعد . وصعد جمع صعيد ؛ كطريق وطرق وطرقات . وقيل : هى جمع صعدة كظلمة، وهى فناء باب الدار وممر الناس بين يديه . (٢) قال الترمذى : ويروى من غير هـذا الوجه أن أبا ذر قال لوددت أنى كنت شجرة تعضد . (٣) آية ١٥

« الخـالِفِين » من تخلف من المنـافقين . وقال الحسن : مع النساء والضعفاء من الرجال، فغلّب المذكر . وقيـل : المعنى فاقعدوا مع الفاسدين؛ من قولهم فلان خالِفةُ أهـل بيته اذا كان فاسدا فيهم؛ من خُلوف فَم الصائم . ومن قولك : خلف اللبنُ؛ أى فسد بطول المكث فى السِّقاء؛ فعلى هذا يعنى فاقعدوا مع الفاسدين . وهـذا يدلّ على أنّ استصحاب المخذِّل فى الغزوات لا يجوز .

قوله تعـالى : وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — روى أن هذه الآية نزلت فى شأن عبد الله بن أبَىّ بن سَلُول وصلاةِ النبىّ صلى الله عليه وسلم عليه . ثبت ذلك فى الصحيحين وغيرهما . وتظاهرت الروايات بأن النبىّ صلى الله عليه وسلم صلّى عليه، وأن الآية نزلت بعد ذلك . ورُوى عن أنس بن مالك ان النبىّ صلى الله عليه وسلم لمـا تقدّم ليصلّىَ عليه جاءه جبريل فجَبَذ ثوبه وتلا عليـه « ولاَ تُصَلِّ على أحدٍ منهم مات أبدا » الآيةَ؛ فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يصلّ عليه . والروايات الثابتة على خلاف هـذا؛ ففى البخارى عن ابن عباس قال : فصلّى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة « ولا تُصلّ على أحدٍ منهم مات أبدا » . ونحوه عن ابن عمر؛ خرّجه مسلم . قال ابن عمر : لمـا تُوُفِّىَ عبد الله بن أُبَىّ بن سَلول جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يكفّن فيه فأعطاه ثم سأله أن يصلّى عليه، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلّى عليه، فقام عمر وأخذ بثوب رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فقال : يا رسـول الله ، أتصـلّى عليه وقـد نهاك الله أن تصلّى عليه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إنما خيّرنى الله تعالى فقال : « اسْتغفِر لهم أوْ لَا تستغفِرْ لهم إن تستغفِر لهم سبعِين مرة » وسأزيد على سبعين “ قال : إنه

منافق. فصلّى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل «ولا تُصَلِّ على أحدٍ منهم مات أبدا ولا تَقُمْ على قَبْرِه» فترك الصلاة عليهم. وقال بعض العلماء: إنما صلّى النبيّ صلى الله عليه وسلم على عبد الله بن أُبيّ بناء على الظاهر من لفظ إسلامه. ثم لم يكن يفعل ذلك لمّا نُهي عنـــه.

الثانيـــة — إن قال قائل فكيف قال عمر: أتصلّى عليه وقد نهاك الله أن تصلى عليه؛ ولم يكن تقدّم نهى عن الصلاة عليهم. قيل له: يحتمل أن يكون ذلك وقع له فى خاطره، ويكون من قبيل الإلهام والتحدّث الذى شهد له به النبيّ صلى الله عليه وسلم، وقد كان القرآن ينزل على مراده، كما قال: وافقتُ ربِّى فى ثلاث[1]. وجاء: فى أربع. وقد تقدم فى البقرة. فيكون هـذا من ذلك. ويحتمل أن يكون فَهِم ذلك من قوله تعالى: «استغفر لهم أَوْ لا تستغفر لهم» الآية. لا أنه كان تقدّم نهى على ما دلّ عليه حديث البخاريّ ومسلم. والله أعلم.

قلت: ويحتمل أن يكون فهمه من قوله تعالى: «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ»[2] لأنها نزلت بمكة. وسيأتى القول فيها.

الثالثـــة — قوله تعـالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الآية. بين تعالى أنه وإن اســتغفر لهم لم ينفعهم ذلك وإن أكثر من الاســتغفار. قال القُشَـيرىّ: ولم يثبت ما يروى أنه قال: "لأزيدنّ على السبعين".

قلت: وهـذا خلاف ما ثبت فى حديث ابن عمر "وسأزيد على سبعين" وفى حديث ابن عباس "لو أعلم أنى إن زدت على السبعين يغفر لهم لزدت عليها". قال: فصـلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. خرجه البخارى.

الرابعـــة — واختلف العلماء فى تأويل قوله: ﴿استغفر لهم﴾ هل هو إياس أو تخيير؛ فقالت طائفة: المقصود به اليأس بدليل قوله تعالى: «فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ». وذِكْر السبعين وفاقٌ جرى، أو هو عادتهم فى العبارة عن الكثرة والإعياء. فإذا قال قائلهم: لا أكلمه

(١) راجع ج ٢ ص ١١٢ طبعة ثانية.　　(٢) آية ١١٣ من هذه السورة.

سبعين سنة صار عندهم بمنزلة قوله : لا أكلمه أبدا. ومثله فى الإعياء قوله تعالى : «فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا »[1] ، وقوله عليه السلام : " من صام يوما فى سبيل الله باعد الله وجهه عن النار ســبعين خريفا " . وقالت طائفة : هو تخيير — منهم الحسن وقتـادة وعُروة — إن شئت استغفر لهم و إن شئت لا تستغفر. ولهذا لمـا أراد أن يصلى على ابن أُبَىّ قال عمر : لا تصلّ على عدوّ الله، القائل يوم كذا كذا وكذا . فقال : " إنى خُيِّرت فاخترت ". قالوا : ثم نسخ هذا لمـا نزل « سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ »[2] . « ذلك بأنهم كفروا » أى لا يغفر الله لهم بكفرهم .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية . وهـذه الآية نزلت بمكة عند موت أبى طالب ، على ما يأتى بيانه . وهذا يفهم منه النهى عن الاستغفار لمن مات كافرا . وهو متقدم على هذه الاية التى فهم منها التخيير بقوله : " إنما خيّرنى الله " وهذا مشكل . فقيل : إن اســتغفاره لعمه إنما كان مقصوده استغفارا مرجوّ الإجابة حتى تحصل له المغفرة. وفى هذا الاستغفار استأذن عليه السلام ربّه فى أن يأذن له فيــه لأمّه فلم يأذن له فيه . وأما الاســتغفار للمنافقين الذى خُيِّر فيه فهو استغفار لسانِىّ لا ينفع، وغايته تطييب قلوب بعض الأحياء من قرابات المستغفَر له . والله أعلم .

السادســـة — وٱختلف فى إعطاء النبىّ صلى الله عليه وسلم قميصه لعبد الله ؛ فقيل : إنما أعطاه لأن عبد الله كان قد أعطى العباس عمّ النبىّ صلى الله عليه وسلم قميصه يوم بدر . وذلك أن العباس لمـا أُسر يوم بدر — على ما تقدم — وسُلب ثوبه رآه النبىّ صلى الله عليه وسلم كذلك فأشفق عليه ، فطلب له قميصا فمـا وُجد له قميص يقادره إلا قميص عبد الله ، لتقاربهما فى طول القامة ؛ فأراد النبىّ صلى الله عليه وسلم بإعطاء القميص أن يرفع اليد عنه فى الدنيـا ، حتى لا يلقاه فى الاخرة وله عليه يد يكافئه بهـا . وقيل : إنما أعطاه القميص إكراما لٱبنه وإســعافا له فى طِلبته وتطييبا لقلبه . والأوّل أصح ؛ خرّجه البخارىّ عن جابر

---

(١) آية ٣٢ سورة الحاقة . (٢) آية ٦ سورة المنافقون .

ابن عبد الله قال : لمـا كان يوم بدر أُتى بأُسارى وأُتِى بالعباس ولم يكن عليه ثوب ، فطلب[1] النبيّ صلى الله عليه وسلم له قميصـا فوجدوا قميص عبد الله بن أُبَيّ يَقدِر عليه ، فكساه النبيّ صلى الله عليه وسلم إياه ؛ فلذلك نزع النبيّ صلى الله عليه وسلم قميصه الذى ألبسه . وفى الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن قميصى لا يغنى عنه من الله شيئا و إنى لأرجو أن يسلم بفعلى هذا ألف رجل من قومى " . كذا فى بعض الروايات "من قومى" يريد من منافقى العرب . والصحيح أنه قال : " رجال من قومه " . ووقع فى مغازى ابن إسحـاق وفى بعض كتب التفسير : فأسلم وتاب لهذه الفعلة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف رجل من الخزرج .

السـابعـة ــ لمـا قال تعالى : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ﴾ قال علماؤنا : هذا نص فى الامتناع من الصـلاة على الكفار ، وليس فيه دليل على الصلاة على المؤمنين . واختلف هل يؤخذ من مفهومه وجوب الصـلاة على المؤمنين على قولين . يؤخذ لأنه علل المنع من الصلاة على الكفار لكفرهم لقوله تعالى : « إِنَّهم كفروا بِاللهِ ورسولِهِ » ؛ فإذا زال الكفر وجبت الصلاة . و يكون هذا نحو قوله تعالى : « كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ »[2] يعنى الكفار ؛ فدل على أن غير الكفار يرونه وهم المؤمنون ؛ فذلك مثله . والله أعلم . أو تؤخذ الصلاة من دليل خارج عن الآية ، وهى الأحاديث الواردة فى البـاب ، والإجماع . ومنشأ الخلاف القول بدليل الخطاب وتركه . روى مسـلم عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن أخًا لكم قد مات فقوموا فصلُّوا عليه" قال : فقمنا فصفنا صفين ؛ يعنى النجاشى . وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى للناس النجاشىّ فى اليوم الذى مات فيه ، فخرج بهم إلى المصلّى وكبر أربع تكبيرات . وأجمع المسـلمون على أنه لا يجوز ترك الصلاة على جنائز المسلمين ، من أهل الكبائر كانوا أو صالحين ؛ وراثةً عن نبيهم صلى الله عليه وسلم قولا وعملا . والحمد لله . واتفق العلماء على ذلك إلا فى الشهيد كما تقدّم ، و إلا فى أهل البدع والبغاة .

---

(١) فى نسخ الأصل : « فنظر » .
(٢) آية ١٥ سورة المطففين .

الثامنـــة — والجمهور من العلماء على أن التكبير أربع . قال ابن سِيرين : كان التكبير ثلاثا فزادوا واحدة . وقالت طائفة : يكبر خمسا؛ وروى عن ابن مســعود وزيد بن أرْقم . وعن علىّ: ست تكبيرات . وعن ابن عباس وأنس بن مالك وجابر بن زيد : ثلاث تكبيرات والمعوّل عليه أربع . روى الدَّارَقُطْنِيّ عن أُبَىّ بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الملائكة صلت على آدم فكبّرت عليه أربعا وقالوا هذه سنتكم يا بنى آدم " .

التاســـعة — ولا قراءة فى هذه الصلاة فى المشهور من مذهب مالك، وكذلك أبو حنيفة والثّورىّ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "إذا صلّيتم على الميت فأخلصوا له الدعاء" رواه أبو داود من حديث أبى هريرة . وذهب الشافعىّ وأحمد و إسحاق ومحمد بن مسلمة وأشهب من علمائنا وداود إلى أنه يقـرأ بالفاتحة؛ لقوله عليه الســلام : " لا صـلاة إلا بفاتحة الكتاب " حملا على عمومه . وبما خرّجه البخارىّ عن ابن عباس وصلّى على جنازة فقرأ بفاتحة الكتاب وقال: لتعلموا أنها سنة . وخرّج النسائىّ من حديث أبى أمامة قال : الســنة فى الصلاة على الجنائز أن يقرأ فى التكبيرة الأولى بأم القرآن مخافتة، ثم يكبر ثلاثا، والتسليم عند الآخرة . وذكر محمد ابن نصر المَرْوَزِىّ عن أبى أمامة أيضا قال : السنة فى الصلاة على الجنائز أن تكبر، ثم تقرأ بأم القرآن، ثم تصلى على النبىّ صلى الله عليه وسلم، ثم تخلص الدعاء للميت . ولا يقرأ الا فى التكبيرة الأولى ثم يســلم . قال شيخنا أبو العباس : وهــذان الحديثان صحيحان ، وهما ملحقان عند الأصوليين بالمسند . والعمل على حديث أبى أمامة أولى؛ إذ فيه جمعٌ بين قوله عليه السلام: "لا صلاة" وبين إخلاص الدعاء للميت . وقراءة الفاتحة فيها إنما هى استفتاح للدعاء . والله أعلم .

العــاشرة — وسنة الإمام أن يقوم عند رأس الرجل وعجيزة المرأة ؛ لمـا رواه أبو داود عن أنس وصلّى على جنازة فقال له العــلاء بن زياد : يا أبا حمزة، هكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى على الجنائز كصلاتك، يكبر أربعا ويقوم عند رأس الرجل وعجيزة المرأة؟ قال نعم . ورواه مسلم عن سَمُرة بن جُنْدُب قال: صلّيت خلف النبىّ صلى الله عليه وسلم وصلى على أمّ كعب ماتت وهى نُفَساء، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليها وسَطها .

الحـادية عشرة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾ كان رسـول الله صلى الله عليه وسلم إذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له بالتثبت، على ما بيناه (فى التذكرة) والحمد لله .

قوله تعـالى : وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

كرره تأكيدا . وقد تقدّم الكلام فيه .

قوله تعـالى : وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُولُوا ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾

انتدب (١) المؤمنون إلى الإجابة وتعلّل المنافقون . فالأمر للؤمنين باستدامة الإيمان وللمنافقين بابتداء الإيمان . و ﴿ أَنْ ﴾ فى موضع نصب؛ أى بأن آمنوا . و ﴿ الطَّول ﴾ الغنى؛ وقد تقدّم (٢) . وخصهم بالذكر لأن من لا طَوْل له لا يحتـاج إلى إذن لأنه معـذور . ﴿ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ أى العاجزين عن الخروج .

قوله تعـالى : رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ جَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ « الخوالف » جمع خالفة؛ أى مع النسـاء والصبيان وأصحاب الأعذار من الرجال . وقـد يقال للرجل : خالفة وخالف أيضـا إذا كان غير نجيب؛ على ما تقدّم . يقال : فلانٌ خالفةُ أهله إذا كان دونهم . قال النحاس :

---

(١) انتدب : أسرع . (٢) راجع ج ٥ ص ١٣٦ طبعة أولى أو ثانية .

وأصله من خَلَفَ اللبنُ يخلف إذا حَمُض من طول مكثه . وخَلَف فمُ الصائم إذا تغيّر ريحه ؛ ومنه فلان خَلَف سَـوء ؛ إلا أن فواعل جمع فاعلة . ولا يجمع « فاعل » صـفة على فواعل إلا فى الشعر؛ الا فى حرفين، وهما فارس وهالك.وقوله تعالى فى وصف المجاهدين: ﴿ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ﴾ قيل : النساء الحسان؛ عن الحسن . دليله قوله عز وجل : « فِيهِنّ خَيْرَاتٌ حِسانٌ » [1] . ويقال: هى خَيْرة النّساء. والأصل خيِّرة نخفّف؛ مثل هَيّنة وهَيْنة. وقيل جمع خَيْر. فالمعنى لهم منافع الدارين . وقد تقدّم معنى الفلاح [2] . والجنات : البساتين . وقد تقدّم [3] أيضا .

قوله تعـالى : وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ قرأ الأعرج والضحاك « المُعْذِرون » مخففا . ورواها أبو كريب عن أبى بكر عن عاصم، ورواها أصحاب القراءات عن ابن عباس . قال الجوهرى : وكان ابن عباس يقرأ « وجاء المُعْذِرُون » مخففة ، من أعذر . ويقول : والله لهكذا أنزلت . قال النحاس : إلا أن مدارها على الكَلْبىّ، وهى من أعذر؛ ومنه قد أعذر من أنذر؛ أى قد بالغ فى العذر من تقدّم إليك فأنذرك . وأما « المعذّرون » بالتشديد ففيه قولان : أحدهما أنه يكون المحقّ؛ فهو فى المعنى المعتذر، لأن له عذرا. فيكون « المعذرون » على هذه أصله المعتذرون ، ولكن التاء قلبت ذالا فأدغمت فيها وجعلت حركتها على العين ؛ كما قرئ « يَخَصِّمون » [4] بفتح الخـاء. ويجوز « المعِذّرون » بكسر العين لاجتماع الساكنين . ويجوز ضمها اتباعا للميم . ذكره الجوهرى والنحاس . إلا أن النحاس حكاه عن الأخفش والفراء وأبى حاتم وأبى عبيد. ويجوز أن يكون الأصل المعتذرون، ثم أدغمت التاء فى الذال؛ ويكونون الذين لهم عذر . قال لَبِيد :

إلى الحَـــوْل ثم آسم السلام عليكما * ومن يَبْك حَوْلًا كاملا فقـد اعتذر

(١) آية ٧٠ سورة الرحمن . (٢) راجع ج ١ ص ١٨٢ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٣) راجع جـ ١ ص ٢٣٩ طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) آية ٤٩ سورة يس .

والقول الآخر أن المعذِّر قد يكون غير محق، وهو الذى يعتذر ولا عذر له. قال الجوهرى: فهو المعَذِّر على جهة المُفَعِّل؛ لأنه المُمَرِّض والمقصِّر يعتذر بغير عذر. قال غيره: يقال عذّر فلان فى أمر كذا تعذيرا؛ أى قصّر ولم يبالغ فيه. والمعنى أنهم اعتذروا بالكذب. قال الجوهرى: وكان ابن عباس يقول: لعن الله المعذِّرين. كأن الأمر عنده أن المعذّر بالتشديد هو المظهر للعذر، اعتلالا من غير حقيقة له فى العذر. النحاس: قال أبو العباس محمد بن يزيد ولا يجوز أن يكون الأصل فيه المعتذرين، ولا يجوز الادغام فيقع اللبس. ذكر إسماعيل بن إسحاق أن الإدغام مجتنَب على قول الخليل وسيبويه، وأن سياق الكلام يدل على أنهم مذمومون لا عذر لهم، قال: لأنهم جاءوا ليؤذن لهم، ولو كانوا من الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون لم يحتاجوا أن يستأذنوا. قال النحاس: وأصل المعذرة والاعذار والتعذير من شىء واحد وهو مما يصعب ويتعذر. وقول العرب: مَن عَذِيرى من فلان، معناه قد أتى أمرا عظيما يستحق أن أعاقبه عليه ولم يعلم الناس به؛ [فمن يَعذِرُنى] إن عاقبته. فعلى قراءة التخفيف قال ابن عباس: هم الذين تخلفوا بعذر فأذن لهم النبىّ صلى الله عليه وسلم. وقيل: هم رهط عامر بن الطُّفَيل قالوا: يا رسول الله، لو غزونا معك أغارت أعراب طَيِّئ على حلائلنا وأولادنا ومواشينا؛ فعذرهم النبىّ صلى الله عليه وسلم. وعلى قراءة التشديد فى القول الثانى، هم قوم من غِفَار اعتذروا فلم يعذرهم النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ لعلمه أنهم غير محقين، والله أعلم. وقعد قوم بغير عذر أظهروه جرأة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم الذين اخبر الله تعالى عنهم فقال: ﴿ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ والمراد بكذبهم قولهم: إنا مؤمنون. و﴿ لِيُؤْذَنَ ﴾ نصب بلام كَىْ.

قوله تعالى: لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾

فيـــه ست مســائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ على الضُّعَفَاءِ ﴾ الآية . أصل فى سقوط التكليف عن العاجز ؛ فكل من عجز عن شىء سقط عنـه ، فتارة إلى بدل هـو فعل ، وتارة إلى بدل هو عزم ، ولا فرق بين العجز من جهة القوة أو العجز من جهة المـال ؛ ونظير هذه الآية قوله : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » (١) وقوله : « لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ » (٢) . وروى أبو داود عن أنس أن رســول الله صلى الله عليه وسـلم قال : "لقد تركتم بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه". قالوا : يا رسول الله ، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال : "حبسهم العذر". فبيّنت هـذه الآية مع ما ذكرنا من نظائرها أنه لا حرج على المعـذورين ، وهم قـوم عرف عذرهم كأرباب الزّمانة والهرم والعمى والعرج ، وأقوام لم يجدوا ما ينفقون ؛ فقال : ليس على هؤلاء حرج . ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ إذا عرفوا الحق وأحبوا أولياءه وأبغضوا أعداءه . قال العلماء : فعذر الحق سبحانه أصحاب الأعذار ، وما صبرت القلوب ؛ فخرج ابن أم مكتوم إلى أُحُد وطلب أن يعطى اللواء فأخذه مصعب بن عمير ، فجاء رجل من الكفار فضرب يده التى فيهـا اللواء فقطعها ، فأمسكه باليد الأخرى فضرب اليد الأخرى فأمسكه بصـدره وقرأ « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ » (٣) . هذه عزائم القوم . والحق يقول : « لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ » وهو فى الأوّل . « وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ » وعمرو بن الجَمُوح من نقباء الأنصار أعرج وهو فى أوّل الجيش . قال له الرسول عليه السلام : " إن الله قـد عذرك " فقال : والله لأحفرنّ (٤) بعرجتى هـذه فى الجنة ؛ إلى أمثالهم حسب ما تقدّم فى هـذه السورة من ذكرهم رضى الله عنهم . وقال عبد الله بن مسعود : ولقد كان الرجل يؤتى به يُهادَى (٥) بين الرجلين حتى يقام فى الصف .

---

(١) آخر سورة البقرة . (٢) آية ٦١ سورة النور . (٣) آية ١٤٤ سورة آل عمران .

(٤) يقال : حفر الطريق اذا أثرفيها بمشيه عليها . (٥) أى يمشى بينهما معتمدا عليهما من ضعفه وتمايله .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ إِذَا نَصَحُوا ﴾ النصح إخلاص العمل من الغش . ومنه التوبة النَّصُوح . قال نَفْطَوَيْه : نصح الشيء إذا خَلَص . ونصح له القول أى أخلصه له . وفى صحيح مسلم عن تميم الدّارىّ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "الدين النصيحة" ثلاثا . قلنا لمن ؟ قال : "لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامّتهم" . قال العلماء : النصيحة لله إخلاص الاعتقاد فى الوحدانية، ووصفُه بصفات الألوهية، وتنزيهه عن النقائص، والرغبة فى محابّه والبعد من مساخطه . والنصيحة لرسوله : التصديق بنبوّته ، والتزام طاعته فى أمره ونهيه، وموالاة من والاه ومعاداة من عاداه، وتوقيره ، ومحبته ومحبة آل بيته ، وتعظيمُه وتعظيم سنته، وإحياؤها بعد موته بالبحث عنها، والتفقه فيها والذبّ عنها ونشرها والدعاء إليها، والتخلّق بأخلاقه الكريمة صلى الله عليه وسلم . وكذا النصح لكتاب الله: قراءته والتفقه فيه ، والذب عنه وتعليمه وإكرامه والتخلق به . والنصح لأئمة المسلمين : ترك الخروج عليهم، وإرشادهم إلى الحق وتنبيههم فيما أغفلوه من أمور المسلمين، ولزوم طاعتهم والقيام بواجب حقهم . والنصح للعامة : ترك معاداتهم ، وإرشادهم وحب الصالحين منهم ، والدعاء لجميعهم وإرادة الخير لكافتهم . وفى الحديث الصحيح "مثل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمّى" .

الثالثة — قوله تعالى :﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ « من سبيل » فى موضع رفع اسم « ما » أى من طريق إلى العقوبة . وهذه الآية أصل فى رفع العقاب عن كل محسن . ولهذا قال علماؤنا فى الذى يقتص من قاطع يده فيفضى ذلك فى السراية إلى إتلاف نفسه : إنه لا دية له؛ لأنه محسن فى اقتصاصه من المعتدِى عليه . وقال أبو حنيفة : تلزمه الدّية . وكذلك إذا صال فَحْل على رجل فقتله فى دفعه عن نفسه فلا ضمان عليه؛ وبه قال الشافعىّ . وقال أبو حنيفة : تلزمه لمالكه القيمة . قال ابن العربىّ : وكذلك القول فى مسائل الشريعة كلها .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ رُوى أن الآية نزلت فى عِرباض بن سارِيَة . وقيل : نزلت فى عائذ بن عمرو . وقيل : نزلت فى بنى مُقَرِّن — وعلى هـذا جمهور المفسرين — وكانوا سـبعة إخوة ، كلّهم صحبوا النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وليس فى الصحابة سـبعة إخوة غيرهم ، وهم النعمان ومَعْقِل وعَقيـل وسُويد وسنان وسابع لم يُسمَّ(١) . بنو مقرّن المُزنيّون سبعة إخوة هاجروا وصحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يشاركهم — فيما ذكره ابن عبد البر وجماعة — فى هـذه المكرمة غيرهم . وقد قيل إنهم شهدوا الخندق كلُّهم . وقيل : نزلت فى سبعة نفر من بطون شَتَّى ، وهم البكّاءون أتَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ليحملهم ، فلم يجد ما يحملهم عليه ؛ فتولّوْا وأعينهم تَفيض من الدّمع حَزَنًا ألا يجـدوا ما ينفقون ؛ فسُمُّوا البكائين . وهم سالم بن عمير من بنى عمرو بن عوف وعُلْبة بن زيد أخو بنى حارثة . وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب من بنى مازن بن النجار . وعمرو بن الحُمَام من بنى سلمة . وعبد الله بن المغَفَّل المزنىّ ، وقيل : بل هو عبد الله بن عمرو المزنىّ . وهَرَمِىّ بن عبد الله أخو بنى واقف ، وعِرْباض بن سارية الفزارى ، هكذا سماهم أبو عمر فى كتاب الدرر له . وفيهم اختلاف . قال القشيرىّ : مَعْقِل بن يَسار وصخر بن خنساء ، وعبد الله بن كعب الأنصارى ، وسالم بن عمير ، وثعلبة بن غَنَمة ، وعبد الله بن معقل وآخر . قالوا : يانبى الله ، قـد ندبتنا للخروج معك ، فاحملنـا على الخفاف المرفوعة والنعال المخصوفة نَغْزُ معك . فقال : " لا أجد ما أحملكم عليه " فتولّوا وهم يبكون . وقال ابن عباس : سألوه أن يحملهم على الدواب ، وكان الرجل يحتاج الى بعـيرين ، بعير يركبه وبعير يحمـل ماءه وزاده لبعد الطـريق . وقال الحسن : نزلت فى أبى موسى وأصحابه أتوا النبىّ صـلى الله عليه وسلم ليستحملوه ، ووافق ذلك منه غضبا فقـال : " والله لا أحملكم ولا أجد ما أحملكم عليـه " فتولوا يبكون ؛ فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسـلم وأعطاهم ذَوْدًا(٢) . فقـال أبو موسى :

(١) لم يذكر المؤلف غير خمسة . والذى فى القاموس (مادة قرن) : « وعبد الله وعبد الرحمن وعقيـل ومعقل والنعمان وسويد وسنان ؛ أولاد مقرن كمحدّث صحابيون » .

(٢) الذود من الابل : ما بين الثلاث الى العشر؛ وهى مؤنثة لا واحد لها من لفظها ، والكثير أزواد .

ألستَ حلفتَ يارسول الله ؟ فقال : "إنى إن شاء الله لا أحلف على يمـين فأرى غيرها خيرا منها إلا أتيت الذى هو خير وكفّرت عن يمينى" .

قلت : وهذا حديث صحيح أخرجه البخارىّ ومسلم بلفظه ومعناه . وفى مسلم : فدعا بنا فأمر لنا بخمس ذَوْدٍ غُرِّ الذُّرى(١) ... الحديث . وفى آخره : "فانطلقوا فإنمـا حملكم الله" . وقال الحسن أيضا وبكر بن عبد الله : نزلت فى عبد الله بن مُغَفَّل المُزَنِىّ ، أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم يستحمله . قال الجُرْجانِىّ : التقدير أى ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم وقلت لا أجد . فهو مبتـدأ معطوف على ما قبله بغـير واو ، والجواب « تولّوا » . ﴿ وَأَعْيُنُهُـمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾ الجملة فى موضع نصب على الحال . ﴿ حَزَنًا ﴾ مصدر . ﴿ أَلَّا يَجِدُوا ﴾ نصب بأن . وقال النحاس : قال الفراء يجوز أن لا يجدون ؛ يجعل لا بمعنى ليس . وهو عنـد البصريين بمعنى أنهم لا يجدون .

الخامســـة — والجمهور من العلمـاء على أن من لا يجد ما ينفقه فى غَزْوه أنه لا يجب عليـه . وقال علماؤنا : اذا كانت عادته المســألة لزمه كالحج وخرج على العادة لأن حاله إذا لم تتغير يتوجّه الفرض عليه كتوجّهه على الواجد . والله أعلم .

السادســـة — فى قوله تعالى : ﴿ وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾ ما يستدلّ به على قرائن الأحوال . ثم منها ما يفيد العلم الضرورىّ ، ومنها ما يحتمل الترديد . فالأوّل كمن يمر على دار قد علا فيهـا النّعى وخُمشت الخدود وحُلقت الشعور وسُـلِقت(٢) الأصوات وخرقت الجيوب ونادوا على صـاحب الدار بالثُّبور ؛ فيُعـلم أنه قد مات . وأما الثانى فكدموع الأيتـام على أبواب الحُكّام ؛ قال الله تعالى مخبرا عن إخوة يوسف عليهم السلام : « وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ » . وهم الكاذبون ؛ قال الله تعـالى مخبرا عنهم : « وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ » .

---

(١) أى بيض الأسنمة ؛ فإن «الغرّ» جمع الأغر وهو الأبيض . والذرى : جمع ذروة ، وذروة كل شىء أعلاه .

(٢) السلق : شدة الصوت .

ومع هذا فإنها قرائن يستدلّ بها فى الغالب فتُبْنَى عليها الشهادات بنـاء على ظواهر الأحوال وغالبها . وقال الشاعر :

إذا ٱشتبكتْ دموع فى خدود * تبيّن من بكَى ممن تباكَى

وسيأتى هذا المعنى فى « يوسف » مستوفًى إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ ﴾ أى العقوبة والمـأثم . ﴿ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ﴾ والمراد المنافقون . كرر ذكرهم للتأكيد فى التحذير من سوء أفعالهم .

قوله تعـالى : يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾

قوله تعالى : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ ﴾ يعنى المنافقين . ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ أى لن نصدقكم . ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ أى أخبرنا بسرائركم . ﴿ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾ فيما تستأنفون . ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى يجازيكم بعملكم . وقـد مضى هذا كله مستوفًى .

قوله تعـالى : سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ أى من تبوك . والمحلوف عليه محذوف؛ أى يحلفون أنهم ما قدروا على الخروج . ﴿ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ أى لتصـفحوا عن

لومهم . وقال ابن عباس : أى لا تكلموهم . وفى الخبر أنه قال عليـه السلام لمـا قدم من تَبُوك : "ولا تجالسوهم ولا تكلموهم" . ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ أى عملهم رجس ؛ والتقدير : إنهم ذو رجس ؛ أى عملهم قبيح . ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أى منزلهم ومكانهم . قال الجوهرى: المـأوى كل مكان يأوِى إليه شيء ليلا أو نهارا . وقد أوى فلان إلى منزله يأوِى أوِيًّا ، على فعول ، و إواء . ومنه قوله تعـالى : « سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ »(١) . وآويته أنا إيواء . وأويته إذا أنزلته بك ؛ فعلت وأفعلت ، بمعنًى ؛ عن أبى زيد . ومأوِى الإبل (بكسر الواو) لغة فى مأوَى الإبل خاصّةً ، وهو شاذ .

قوله تعـالى : يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾

حلف عبد الله بن أُبَىّ ألا يتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم بعد ذلك وطلب أن يرضى عنه .

قوله تعـالى : ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى ــ لمـا ذكر جل وعز أحوال المنافقين بالمدينة ذكر من كان خارجا منها ونائيا عنها من الأعراب ؛ فقال كفرهم أشد . قال قتادة : لأنهم أبعد عن معرفة السنن . وقيل : لأنهـم أقسى قلبا وأجفى قولا وأغلظ طبعا وأبعـد عن سماع التنزيل ؛ ولذلك قال الله تعالى فى حقهم : ﴿ وَأَجْدَرُ ﴾ أى أخلق . ﴿ أَلَّا يَعْلَمُوا ﴾ « أن » فى موضع نصب بحذف الباء ؛ تقول : أنت جدير بأن تفعل وأن تفعل ؛ فإذا حذفت الباء لم يصلح إلا بـ « أن » ، وإن أتيت بالباء صلح بـ « أن » وغيره ؛ تقول : أنت جدير أن تقوم ، وجدير بالقيـام .

(١) آية ٤٣ سورة هود .

ولو قلت : أنت جدير القيام كان خطأ . وإنما صلح مع « أن » لأن أن يدل على الاستقبال فكأنهـا عوض من المحذوف . ﴿ حُدُودَ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أى فرائض الشرع . وقيل : حجج الله فى الربوبية و بعثة الرسل لقلة نظرهم .

الثانيـــة — ولمـا كان ذلك ودلّ على نقصهم وحطهم عن المرتبــة الكاملة عن سواهم ترتبت على ذلك أحكام ثلاثة :

أوّلهـا — لا حق لهم فى الفَىْء والغنيمـــة ؛ كما قال النبيّ صـلى الله عليه وسـلم فى صحيح مسلم من حديث بُريدة ، وفيه : "ثم آدعهم الى التحوّل من دارهم الى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للهاجرين وعليهم ما على المهاجرين فإن أبوْا أن يتحوّلوا عنها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين" .

وثانيهـا — إسقاط شهادة أهل البادية عن الحاضرة؛ لمـا فى ذلك من تحقق التُّهَمــة . وأجازها أبو حنيفة قال : لأنها لاتراعى كل تُهَمة ، والمسلمون كلهم عنده على العدالة . وأجازها الشافعىّ إذا كان عدلا مرضِيًّا؛ وهو الصحيح لمـا بيناه فى « البقرة »(١) . وقد وصف الله تعالى الأعراب هنا أوصافا ثلاثة : أحدها — بالكفر والنفـاق . والثانى — بأنه يتخذ ما ينفق مَغْرَمًا و يتربص بكم الدوائر . والثالث — بالإيمان بالله و باليوم الآخر و يتخذ ما ينفق قُرُبات عند الله وصلوات الرسول؛ فمن كانت هــذه صفته فبعيد ألا تقبل شهادته فيلحق بالثانى والأول ، وذلك باطل . وقد مضى الكلام فى هذا فى « النساء » .

وثالثهـا — أن إمامتهـم بأهل الحاضرة ممنــوعة لجهلهم بالسنة وتركهم الجمعــة . وكره أبو مِجْلَز إمامــة الأعرابى . وقال مالك : لا يؤم وان كان أقرأهم . وقال ســفيان الثورىّ والشافعىّ و إسحاق وأصحاب الرأى : الصلاة خلف الأعرابى جائزة . واختاره ابن المنذر إذا أقام حدود الصلاة .

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٩٦ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى: ﴿ أَشَدُّ ﴾ أصله أشْدَد، وقد تقدّم. ﴿ كُفْرًا ﴾ نصب على البيان. ﴿ وَنِفَاقًا ﴾ عطف عليه . ﴿ وَأَجْدَرُ ﴾ عطفٌ على أشـدّ، ومعناه أخلق؛ يقال : فلان جدير بكذا أى خليق به ، وأنت جدير أن تفعل كذا، والجمع جدراء وجديرون . وأصله من جَدْر الحائط وهو رفعه بالبناء . فقوله : هو أجدر بكذا أى أقرب إليه وأحق به . ﴿ أَلَّا يَعْلَمُوا ﴾ أى بألا يعلموا . والعرب : جيل من الناس، والنسبة إليهم عَربِيّ بيّن العُروبة ، وهم أهل الأمصار . والأعراب منهم سكان البادِية خاصّة . وجاء فى الشعر الفصيح أعاريب . والنسبة إلى الأعراب أعرابىّ لأنه لا واحد له، وليس الأعراب جمعا للعرب كما كان الأنباط جمعا لنَبَط ؛ وإنما العرب اسم جنس . والعرب العاربة هم الخُلّص منهم، وأخذ من لفظه وأكّده؛ كقولك : لَيْل لائل . وربما قالوا : العرب العَرْباء . وتعرّب تشبّه بالعرب . وتعرّب بعد هجرته أى صار أعرابيا . والعرب المُسْتَعرِبة هم الذين ليسوا بخلّص، وكذلك المتعرِّبة، والعربية هى هذه اللغة . ويَعْرُب بن قَحْطان أوّل من تكلم بالعربية، وهو أبو اليمن كلّهم . والعُرْب والعَرَب واحد؛ مثل العُجْم والعَجَم . والعُرَيْب تصغير العرب؛ قال الشاعر:

ومَكْن الضِّباب طعام العُرَيْبِ * ولا تشتهيه نفوسُ العَجَمْ[1]

إنما صغرهم تعظيما؛ كما قال : أنا جُذَيْلُها المُحَكَّكُ، وعُذَيْقُها المُرَجَّبُ[2] كلّه عن الجوهرىّ . وحكى القشيرىّ وجمع العَرَبِى العَرَب ، وجمع الأعرابى أعراب وأعاريب . والأعرابى إذا قيل له يا عَرَبِىّ فرِح ، والعَرَبِىّ إذا قيل له يا أعرابى غضب . والمهاجرون والأنصار عرب لا أعراب . وسميت العرب عَرَبًا لأن ولد إسماعيل نشئوا من عَرَبة وهى من تهامة فنسبوا إليها . وأقامت قريش بعَرَبة وهى مكة، وانتشر سائر العرب فى جزيرتها .

---

(١) البيت لعبد المؤمن بن عبد القدوس . والمكن : بيض الضبة والجرادة ونحوها . (٢) الجذيل تصغير الجذل ، وهو أصل الشجرة . والمحكك : الذى تحكك به الإبل الجربى، وهو عود ينصب فى مبارك الابل لذلك . والعذيق : تصغير العذق، وهو النخلة . والمرجب : الذى جعل له رجبة ، وهى دعامة تبنى حولها من الحجارة . وهو من قول الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصارى يوم السقيفة عند بيعة أبى بكر رضى الله عنه . يريد أنه قد جربته الأمور، وله رأى وعلم يشتفى بهما كما تشتفى الابل الجربى باحتكاكها بالجذل .

قوله تعـالى : وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ ﴾ «من» فى موضع رفع بالابتداء . ﴿ مَا يُنْفِقُ مَغْـرَمًا ﴾ مفعولان؛ والتقـدير ينفقه، لحذفت الهـاء لطول الاسم . ﴿ مَغْرَمًا ﴾ معناه غُرْما وخسرانا؛ وأصله لزوم الشيء؛ ومنـه : « إِنَّ عَذَابَهَـا كَانَ غَرَامًا » أى لازما، أى يرون ما ينفقونه فى جهاد وصدقة غُرما ولا يرجون عليه ثوابا . ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ﴾ التربص الانتظار؛ وقد تقدّم[1] . والدوائر جمـع دائرة، وهى الحالة المنقلبة عن النعـمة الى البلية، أى يجمعون الى الجهـل بالإنفاق سـوء الدُّخْلة وخبث القلب . ﴿ عَلَيْهِـمْ دَائِرَةُ السَّـوْءِ ﴾ قرأه ابن كثير وأبو عمرو بضم السـين هنا وفى الفتح، وفتحها الباقون . وأجمعوا على فتح السـين فى قوله : « مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ »[2] . والفرق بينهما أن السُّـوء بالضم المكروه . قال الأخفش : أى عليهم دائرة الهزيمة والشر . وقال الفرّاء : أى عليهم دائرة العذاب والبلاء . قالا : ولا يجوز امرأ سُوء بالضم ؛ كما لا يقال : هو امْرُؤ عذاب ولا شر . وحكى عن محمد ابن يزيد قال : السَّوء بالفتح الرداءة . قال سيبويه : مررت برجل صـدقٍ، ومعناه برجل صلاحٍ . وليس من صـدق اللسان، ولو كان من صدق اللسان لـمـا قلت : مررت بثوب صدقٍ . ومررت برجل سَوْء ليس هو من سُؤْته ، وإنمـا معناه مررت برجل فسادٍ . وقال الفراء : السَّوء بالفتح مصـدر سُؤْته سَوْءًا ومساءة وسوائيـة . قال غيره : والفعل منـه ساء يسوء . والسُّوء بالضم اسم لا مصدر؛ وهو كقولك : عليهم دائرة البلاء والمكروه .

قوله تعـالى : وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

(١) راجع جـ ٣ ص ١٠٨ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٢٨ سورة مريم .

قوله تعـالى : ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ ﴾ أى صـدق . والمراد بنو مُقَرِّن من مُزَينة ؛ ذكره المهدوىّ . ﴿ قُرُبَاتٍ ﴾ جمع قُرْبة ، وهى ما يتقرب به الى الله تعالى ؛ والجمع قُرَب وقُرُبات وقُرَبات وقُرْبات ؛ حكاه النحاس . والقربات (بالضم) ما تُقـترب به إلى الله تعالى ؛ تقول منه : قربت لله قُربانا . والقِرْبة بكسر القاف ما يستقى فيه الماء ؛ والجمع فى أدنى العدد قِرْبات وقِرِبات وقِرَبات ، والكثير قِرَب . وكذلك جمع كل ما كان على فِعْلة ؛ مثل سِـدْرة وفِقرة ، لك أن تفتح العـين وتكسر وتسـكّن ؛ حكاها الجوهرى . وقرأ نافع فى رواية وَرْش « قُرُبة » بضم الراء وهى الأصـل . والباقون بسكونهـا تخفيفا ؛ مثل كُتْب ورُسْـل ، ولا خلاف فى قربات . وحكى ابن سـعدان أن يزيد بن القَعْقاع قرأ « ألاَ إنَّهَا قُرُبة لهم » . ومعنى ﴿ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ﴾ استغفاره ودعاؤه . والصـلاة تقع على ضروب ؛ فالصـلاة من الله جل وعز الرحمة والخير والبركة ؛ قال الله تعالى : « هُوَ الَّذِى يُصَـلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ » . والصلاة من الملائكة الدعاء ، وكذلك هى من النبيّ صلى الله عليه وسـلم ؛ كما قال : « وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ » أى دعاؤك تثبيت لهم وطمأنينة . ﴿ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ ﴾ أى تقربهم من رحمة الله ؛ يعنى نفقاتهم .

قوله تعـالى : وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَـا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

فيــه سـبع مسائل :

الأولى ـــ لمـا ذكر أصـناف الأعراب ذكر المهـاجرين والأنصار ، وبيّن أن منهـم السابقين إلى الهجرة وأن منهم التابعين ، وأثنى عليهم . وقد اختلف فى عدد طبقاتهم وأصنافهم . ونحن نذكر من ذلك طرفا نبيّن الغرض فيه إن شاء الله تعالى . وروى عن عمر بن الخطاب أنه قرأ « والأنصـارُ » رفعا عطفا على السابقـين . قال الأخفش : الخفض فى الأنصـار

الوجه؛ لأن السابقين منهما . والأنصار آسم إسـلامى . قيل لأنس بن مالك : أرأيت قول النـاس لكم : الأنصار، اسم سماكم الله به أم كنتم تُدْعَوْنَ به فى الجاهليـة ؟ قال : بل آسم سمانا الله به فى القرآن؛ ذكره أبو عمر فى الاستذكار .

الثانيـــة — نص القرآن على تفضـيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصـار وهم الذين صـلّوا الى القبلتين؛ فى قول سـعيد بن المسيِّب وطائفـة . وفى قول أصحاب الشافعىّ هم الذين شهدوا بيعـة الرضوان، وهى بيعـة الحُدَيْبِيَة؛ وقاله الشعبى . وعن محمد بن كعب وعطاء بن يسار : هم أهل بدر . واتفقوا على أن من هاجر قبل تحويل القبلة فهو من الأولين من غير خلاف بينهم . وأما أفضلهم وهى :

الثالثـــة — فقال أبو منصور البغـدادىّ التميمى : أصحابنا مجمعون على أن أفضـلهم الخلفاء الأربعة، ثم الستة الباقون إلى تمام العشرة، ثم البدريون ثم أصحاب أُحُد ثم أهل بيعة الرضوان بالحُدَيْبِيَة .

الرابعـــة — وأما أولهم إسـلاما فروى مجالد عن الشعبى قال : سألت آبن عباس من أوّل الناس إسلاما ؟ قال أبو بكر، أو ما سمعت قول حسان :

إذا تذكّرتَ شَجْوًا من أخى ثقـة * فآذكر أخاك أبا بكر بمـا فعـلَا
خيرَ البرية أتقـاها وأعدلهـا * بعـد النبىّ وأوفاها بمـا حَمـلَا
الثانِىَ التـالِىَ المحمودَ مشهـدُه * وأوّلَ الناس منهم صدّق الرسلَا

وذكر أبو الفرج الجَوْزى عن يوسف بن يعقوب بن المـاجشون قال : أدركت أبى وشيخنا محمد بن المنكدر وربيعةَ بن أبى عبد الرحمن وصالح بن كَيْسان وسعد بن إبراهيم وعثمان بن محمد الأَخْنَسِىّ وهم لا يشكّون أن أول القوم إسلاما أبو بكر؛ وهو قول آبن عباس وحسان وأسماء بنت أبى بكر، وبه قال ابراهيم النَّخَعِىّ . وقيل : أوّل من أسـلم علىّ؛ رُوِى ذلك عن زيد آبن أرْقم وأبى ذرّ والمِقْـداد وغيرهم . قال الحاكم أبو عبـد الله : لا أعلم خلافا بين أصحاب التواريخ أن عليًّا أوّلهم إسـلاما . وقيل : أوّل من أسـلم زيد بن حارثة . وذكر معمر نحو

ذلك عن الزُّهْرِيّ . وهو قول سليمان بن يَسار وعروة بن الزبير وعمران بن أبي أنس .
وقيل . أول من أسلم خديجة أم المؤمنين ؛ روى ذلك من وجوه عن الزهري، وهو قول
قتادة ومحمد بن إسحاق بن يَسار وجماعة، وروى أيضا عن ٱبن عباس . وٱدّعى الثَّعلبيّ المفسّر
إتفاق العلماء على أن أوّل من أسلم خديجة، وأن اختلافهم إنما هو فيمن أسلم بعدها .
وكان إسحاق بن إبراهيم بن رَاهْوَيْهِ الحنظَلِيّ يجمع بين هذه الأخبار، فكان يقول : أول من أسلم
من الرجال أبو بكر، ومن النساء خديجة، ومن الصبيان عليّ، ومن الموالي زيد بن حارثة، ومن
العبيد بلال . والله أعلم . وذكر محمد بن سعد قال : أخبرني مصعب بن ثابت قال حدّثني
أبو الأسود محمد بن عبد الرحمن بن نوفل قال : كان إسلام الزبير بعد أبي بكر وكان رابعا
أو خامسا . قال الليث بن سعد وحدّثني أبو الأسود قال : أسلم الزبير وهو ٱبن ثمان سنين .
وروى أن عليًّا أسلم ابن سبع سنين . وقيل ابن عشر .

الخامســـة — والمعروف من طريقة أهل الحديث أن كل مسلم رأى رسول الله صلى الله
عليه وسلم فهو من أصحابه . قال البخاري في صحيحه : من صحب النبيّ صلى الله عليه وسلم أو رآه
من المسلمين فهو من أصحابه . وروى عن سعيد بن المسيّب أنه كان لا يُعُدّ الصحابيّ إلا من
أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة أو سنتين، وغزا معه غزوة أو غزوتين . وهذا
القول إن صح عن سعيد بن المسيب يوجب ألا يعد من الصحابة جَرِير بن عبد الله البَجَلِيّ
أو من شاركه في فقد ظاهر ما اشترطه فيهم مما لا نعرف خلافا في عدّه من الصحابة .

السادســـة — لا خلاف أن أول السابقين من المهاجرين أبو بكر الصدّيق . قال
ٱبن العربي : السبق يكون بثلاثة أشياء : الصفة وهو الإيمان، والزمان، والمكان . وأفضل
هذه الوجوه سبق الصفات ؛ والدليل عليه قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيح : "نحن الآخرون
الأوّلون بَيْدَ أنهم أوتوا الكتاب مِن قَبلنا وأُوتِيناه من بعدهم فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه فهدانا
الله له فاليهود غدًا والنصارى بعد غد" . فأخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن من سبقنا من الأمم
بالزمان سبقناهم بالإيمان والامتثال لأمر الله تعالى والانقياد إليه ، والاستسلام لأمره والرضا

بتكليفه والاحتمال لوظائفه، لا نعترض عليه ولا نختار معه، ولا نبدّل بالرأى شريعته كما فعل أهل الكتاب؛ وذلك بتوفيق الله لمـا قضاه، وبتيسيره لمـا يرضاه؛ وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

السابعـــة — قال ٱبن خُوَيْزِمَنْداد : تضمّنت هـذه الآية تفضـيل السابقين إلى كل منقبة من مناقب الشريعة، فى علم أو دين أو شجاعة أو غير ذلك، فى العطاء فى المـال والرتبة فى الإكرام . وفى هذه المسألة خلاف بين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما . واختلف العلمـاء فى تفضـيل السابقين بالعطاء على غيرهم؛ فروى عن أبى بكر الصـديق رضى الله عنه أنه كان لا يفضـل بين الناس فى العطاء بعضَهم على بعض بحسب السابقـة . وكان عمر يقول له : أتجعل ذا السابقة كمن لا سابقة له ؟ فقال أبو بكر : إنمـا عملوا لله وأجرهم عليـه . وكان عمر يفضـل فى خلافته ؛ ثم قال عند وفاته : لئن عشت إلى غد لألحقنّ أسفل الناس بأعلاهم ؛ فمـات من ليلته . والخلاف إلى يومنا هذا على هذا الخلاف .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قرأ عمر « والأنصارُ » رفعا . « الذين » بإسقاط الواو نعتا للأنصار؛ فراجَعه زيد بن ثابت ، فسأل عمرُ أُبَىَّ بن كعب فصدّق زيدا ؛ فرجع إليه عمر وقال : ما كنا نرى إلا أنا رفعنا رفعة لا ينالها معنا أحد . فقال أُبَىّ : مصداق ذلك فى كتاب الله فى أول سورة الجمعة : « وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ » [1] وفى سـورة الحشر : « وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْـدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَـا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَـانِ » [2] . وفى سـورة الأنفال بقوله : « وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْـدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ » [3] . فثبتت القراءة بالواو . وبيّن تعالى بقوله : ﴿ بِإِحْسَانٍ ﴾ ما يتبعون فيـه من أفعالهم وأقوالهم، لا فيما صـدر عنهم من الهفوات والزلات؛ إذ لم يكونوا معصومين رضى الله عنهم .

الثانيـــة — واختلف العلمـاء فى التابعين ومراتبهم؛ فقال الخطيب الحافظ : التابعىّ من صحب الصحابى؛ ويقال للواحد منهم : تابع وتابعىّ . وكلام الحاكم أبى عبـد الله وغيره

(١) آية ٣ (٢) آية ١٠ (٣) آخر السورة .

مُشْعر بأنه يكفى فيه أن يسمع من الصحابى أو يلقاه وإن لم توجد الصحبة العرفية . وقد قيل : إن آسم التابعين ينطلق على من أسلم بعد الحُدَيْبِيَة؛ كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومن داناهم من مُسْلمة الفتح ؛ لما ثبت أن عبد الرحمن بن عَوف شكا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لخالد : "دَعُوا لى أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم كل يوم مثل أُحُد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصفه" . ومن العجب عَدّ الحاكم أبى عبد الله النعمانَ وسويدا ابنى مُقَرِّن المزنىّ فى التابعين عند ما ذكر الإخوة من التابعين ، وهما صحابيان معروفان مذكوران فى الصحابة ، وقد شهدا الخَنْدَق كما تقدم . والله أعلم . وأكبر التابعين الفقهاء السبعة من أهل المدينة ، وهم سعيد بن المسيب ، والقاسم بن محمد ، وعروة بن الزبير، وخارجة بن زيد، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وعبد الله آبن عتبة بن مسعود ، وسليمان بن يسار . وقد نظمهم بعض الأجلة فى بيت واحد فقال :

فخذهم عبيدُ الله (١) عروةُ قاسمٌ * سعيدٌ أبو بكر (٢) سليمانُ خارجة

وقال أحمد بن حنبل : أفضل التابعين سعيد بن المسيب؛ فقيل له : فعلقمة والأسود . فقال : سعيد بن المسيب وعلقمة والأسود . وعنه أيضا أنه قال : أفضل التابعين قِيس وأبو عثمان وعلقمة ومسروق ، هؤلاء كانوا فاضلين ومن عِلْية التابعين . وقال أيضا : كان عطاء مفتى مكة والحسن مفتى البصرة ، فهذان أكثر الناسُ عنهم ؛ وأَبْهَمَ . وروى عن أبى بكر بن أبى داود قال : سيدتا التابعين من النساء حفصة بنت سِيرين وعمرة بنت عبد الرحمن ، وثالثتهما — وليست كهما — أم الدَّرْداء . وروى عن الحاكم أبى عبد الله قال : طبقة تعدّ فى التابعين ولم يصح سماع أحد منهم من الصحابة ؛ منهم إبراهيم بن سويد النَّخَعِىّ وليس بإبراهيم بن يزيد النخعىّ الفقيه ، وبكير بن أبى السميط (٣) ، وبكير بن عبد الله الأشج . وذكر غيرَهم قال : وطبقة عدادهم عند الناس فى أتباع التابعين ، وقد لقوا الصحابةَ منهم أبو الزناد عبد الله بن ذَكْوان ، لَقِىَ عبد الله بن عمر وأنسا . وهشامُ بن عروة ، وقد أدخل على عبد الله بن عمر،

(١) هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة .	(٢) هو أبو بكر بن عبد الرحمن .

(٣) فى التقريب : « السميط بفتح المهملة ، ويقال بالضم » .

وجابرُ بن عبد الله وموسى بن عقبة، وقد أدرك أنس بن مالك . وأمّ خالد بنتُ خالد بن سعيد .
وفى التابعين طبقة تسمّى بالمُخَضْرَمين ، وهم الذين أدركوا الجاهلية وحياةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلموا ولا صحبة لهم . واحدهم مخضرم (بفتح الراء) كأنه خُضْرِم، أى قطع عن نظرائه الذين أدركوا الصحبة وغيرها . وذكرهم مسلم فبلغ بهم عشرين نفسا، منهم أبو عمرو الشيبانىّ ، وسُويد بن غَفَلة الكندىّ، وعمرو بن ميمون الأوْدىّ، وأبو عثمان النّهْدىّ، وعبد خير بن يزيد الخيرانى (بفتح الخاء) ، بطن من هَمْدان، وعبد الرحمن بن مُلّ . وأبو الحَلَال العَتَكى ربيعةُ بن زُرَارة . وممن لم يذكره مسلم؛ منهم أبو مسلم الخَوْلانىّ عبدُ الله بن ثُوَب، والأحنف بن قيس . فهذه نبـذة من معرفة الصحابة والتابعين الذين نطق بفضلهم القرآن الكريم، رضوان الله عليهم أجمعين. وكفانا نحن قوله جل وعز: «كنتم خير أمّة أخرجت للناس»(١) على ما تقدّم . وقوله عز وجل : «وكذلك جعلناكم أمّة وسطا»(٢) الآية . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وددت أنا قد رأينا إخواننا ..." . الحديث . فجعلنا إخوانه؛ إن اتقينا الله واقتفينا آثاره حشرنا الله فى زمرته ولا حاد بنا عن طريقته وملته بحق محمد وآله .

قوله تعـالى : وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١)

قوله تعالى : ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ ابتداء وخبر . أى قوم منافقون؛ يعنى مُزَينة وجُهَينة وأسْلم وغِفَار وأشْجع . ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ أى قوم مردوا على النفاق . وقيل : «مردوا» من نعت المنافقين؛ فيكون فى الكلام تقديم وتأخير، المعنى . وممن حولكم من الأعراب منافقون مردوا على النفاق، ومن أهل المدينة مثل ذلك . ومعنى : «مردوا» أقاموا ولم يتوبوا ؛ عن ابن زيد . وقال غيره : لجّوا فيه وأبَوْا غيره؛

(١) راجع ج ٤ ص ١٧٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ٢ ص ١٥٣ طبعة ثانية .

والمعنى متقارب . وأصل الكلمة من اللين والملامسة والتجرّد؛ فكأنهم تجرّدوا للنفاق . ومنه رملة مرداء لا نبت فيها . وغُصن أمْرَدُ لا ورق عليه . وفرس أمْرَدُ لا شعر على ثُنَّته[1] . وغلام أمرد بيّن المَرَد ؛ ولا يقال جارية مرداء . وتمريد البناء تمليسه؛ ومنه قوله : « صَرْحٌ مُمَرَّد[2] » . وتمريد الغصن تجريده من الورق ؛ يقال مَرَد[3] يمرد مرودا ومرادة .

قوله تعالى : ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ هو مثل قوله « لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ[4] » على ما تقدّم . وقيل : المعنى لا تعلم يا محمد عاقبةَ أمورهم وإنما نختص نحن بعلمها ؛ وهذا يمنع أن يحكم على أحد بجنة أو نار .

قوله تعالى : ﴿ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ قال ابن عباس : بالأمراض فى الدنيا وعذاب الآخرة . فمرض المؤمن كفارة ، ومرض الكافر عقوبة . وقيل : العذاب الأوّل الفضيحة باطلاع النبيّ صلى الله عليه وسلم عليهم ؛ على ما يأتى بيانه فى المنافقين . والعذاب الثانى عذاب القبر . الحسن وقتادة : عذاب الدنيا وعذاب القبر . ابن زيد : الأوّل بالمصائب فى أموالهم وأولادهم ، والثانى عذاب القبر . مجاهد : الجوع والقتل . الفراء : القتل وعذاب القبر . وقيل : السِّباء والقتل . وقيل : الأوّل أخذ الزكاة من أموالهم وإجراء الحدود عليهم ، والثانى عذاب القبر . وقيل : أحد العذابين ما قال تعالى : « فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ — إلى قوله — إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا[5] » . والغرض من الآية اتباع العذاب ، أو تضعيف العذاب عليهم .

قوله تعالى : وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

أى ومن أهل المدينة وممن حولكم قوم أقرّوا بذنوبهم ، وآخرون مُرْجَوْن لأمر الله يحكم فيهم بما يريد . فالصنف الأوّل يحتمل أنهم كانوا منافقين وما مَرَدُوا على النفاق ، ويحتمل

(١) الثنة : مؤخر الرسغ ، وهى شعرات مدلاة مشرفات من خلف . (٢) آية ٤٤ سورة النمل .
(٣) من باب نصر وكرم . (٤) آية ٦٠ سورة الأنفال . (٥) آية ٥٥ من هذه السورة .

أنهم كانوا مؤمنين . وقال ٱبن عباس : نزلت في عشرة تخلّفوا عن غزوة تبوك؛ فأوثق سبعة منهم أنفسَهم في سوارى المسجد . وقال بنحوه قتادة وقال : وفيهم نزل « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً »؛ ذكره المهدوىّ . وقال زيد بن أسلم : كانوا ثمانية . وقيل كانوا ستة . وقيل خمسة . وقال مجاهد : نزلت الآية في أبي لُبابة الأنصارىّ خاصّةً في شأنه مع بني قُريظة؛ وذلك أنهم كلّموه في النزول على حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فأشار لهم إلى حَلقه . يريد أن النبيّ صلى الله عليه وسلم يذبحهم إن نزلوا، فلما افتضح تاب وندم وربط نفسه في سارية من سوارى المسجد، وأقسم ألا يطعم ولا يشرب حتى يعفو الله عنه أو يموت؛ فمكث كذلك حتى عفا الله عنه، ونزلت هذه الآية، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحلّه؛ ذكره الطبرى عن مجاهد، وذكره ابن اسحاق في السيرة أَوْعَبَ من هذا . وقال أشهب عن مالك : نزلت « وآخرون » في شأن أبي لبابة وأصحابه، وقال حين أصاب الذنبَ : يارسول الله، أجاورك وأنخلع من مالي؟ فقال : "يجزيك من ذلك الثلث وقد قال تعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا »" ورواه ٱبن القاسم وٱبن وهب عن مالك . والجمهور أن الآية نزلت في شأن المتخلّفين عن غزوة تبوك، وكانوا ربطوا أنفسهم كما فعل أبو لُبابة، وعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلقهم ويرضى عنهم، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أومر بإطلاقهم رَغبوا عنّي وتخلّفوا عن الغزو مع المسلمين" فأنزل الله هذه الآية؛ فلما نزلت أرسل اليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم فأطلقهم وعذرهم . فلما أطلقوا قالوا : يا رسول الله، هذه أموالنا التي خلّفَتْنا عنك، فتصدّق بها عنا وطهرنا وٱستغفر لنا . فقال : "ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا" فأنزل الله تعالى « خذ من أموالهم صدقة » . قال ٱبن عباس : كانوا عشرة أنفس منهم أبولبابة؛ فأخذ ثلث أموالهم وكانت كفارةَ الذنوب التي أصابوها . فكان عملهم السيئ التخلفَ بإجماع من أهل هذه المقالة . واختلفوا في الصلاح؛ فقال الطبرى وغيره : الاعتراف والتوبة والندم . وقيل : عملهم الصالح الذى عملوه أنهم لحقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم، وربطوا

أنفسهم بسوارى المسجد وقالوا : لا نقرب أهلا ولا ولدا حتى ينزل الله عذرنا . وقالت فرقة : بل العمل الصالح غزْوُهم فيما سلف من غزو النبيّ صلى الله عليه وسلم . وهذه الآية و إن كانت نزلت فى أعرابٍ فهى عامّــة إلى يوم القيــامة فيمن له أعمال صالحة وسيئة ؛ فهى ترجى . ذكر الطبرى عن حجاج بن أبى زينب قال : سمعت أبا عثمان يقول : ما فى القرآن آية أرجى عندى لهذه الأمة من قوله تعالى « وَآخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِم خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وآخَرَ سَيِّئًا » . وفى البخارى عن سُمرة بن جُنْدُب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لنـا : "أتانى الليلة آتيان فابتعثـانى فانتهينا إلى مدينة مبنية بلَبِنِ ذهبٍ ولَبِنِ فضّة فتلقانا رجال شَطْرٌ من خلقهم كأحسن ما أنت راءٍ وشَــطْرٌ كأقبح ما أنت راءٍ قالا لهم ٱذهبوا فقعوا فى ذلك النهــر فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السُّوء عنهم فصاروا فى أحسن صورة قالا لى هذه جنة عَدْن وهــذاك منزلك قالا أمّا القوم الذى كانوا شَطْر منهم حَسَن وشــطر منهم قبيح فإنهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا تجاوز الله عنهم". وذكر البيهقىّ من حديث الرّبيع بن أنس عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم حديث الإسراء وفيه قال : "ثم صعد بى إلى السماء ..." ثم ذكر الحديث إلى أن ذكر صعوده إلى السماء السابعة فقالوا : "حيّاه الله من أخ وخليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفــة ونعم المجئ جاء فإذا برجل أشْمط[1] جالسٍ على كرسى عنــد باب الجنة وعنده قوم بيض الوجوه وقوم سود الوجوه وفى ألوانهم شيء فأتوا نهرا فاغتسلوا فيه فخرجوا منــه وقد خَلَص من ألوانهم شيء ثم إنهم أتوا نهرا آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا منه وقد خلص من ألوانهم شيء ثم دخلوا النهر الثالث فخرجوا منه وقــد خلصت ألوانهم مثلَ ألوان أصحابهم فجلسوا إلى أصحابهم فقــال ياجبريل مَن هؤلاء بيض الوجوه وهؤلاء الذين فى ألوانهم شيء فدخلوا النهر وقد خلصت ألوانهم فقال هــذا أبوك إبراهيم هو أوّل رجل شَمِطَ على الأرض وهؤلاء بيض الوجوه قوم لم يلبسوا إيمــانهم بظلم — قال — وأما هؤلاء الذين فى ألوانهم شيء خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فتابوا فتاب الله عليهم . فأما النهر الأول فرحمة الله وأما النهر الثانى فنعمة الله .

---

(١) الشمط : بياض شعر الرأس يخالط سواده .

وأما النهر الثالث فسقاهم ربهم شرابا طهورا " وذكر الحديث . والواو فى « وآخر سيئا » قيل هى بمعنى الباء، وقيل بمعنى مع؛ كقولك استوى الماء والخشبة. وانكر ذلك الكوفيون وقالوا : لأن الخشبة لا يجوز تقديمها على المـاء، و « آخر » فى الآية يجوز تقـديمه على الأول ؛ فهو بمنزلة خلطت المـاء باللبن .

قوله تعـالى : خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾

فيـــه ســـبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ آختلف فى هذه الصدقة المأمور بها؛ فقيل : هى صدقة الفرض؛ قاله جُويبر عن ابن عباس، وهو قول عكرمة فيما ذكر القشيرى. وقيل : هو مخصوص بمن نزلت فيه ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم آخذ منهم ثلث أموالهم، وليس هذا من الزكاة المفروضة فى شيء؛ ولهذا قال مالك: إذا تصدّق الرجل بجميع ماله أجزأه إخراج الثلث؛ متمسّكا بحديث أبى لُبابة . وعلى القول الأول فهو خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم يقتضى بظاهره اقتصارَه عليه فلا يأخذ الصدقة سواه، ويلزم على هذا سقوطها بسقوطه وزوالها بموته . وبهذا تعلق مانعو الزكاة على أبى بكر الصديق وقالوا : إنه كان يعطينا عوضا منها التطهيرُ والتزكية والصلاة علينا وقد عدمناها من غيره . ونظم فى ذلك شاعرهم فقال : —

أطعنا رســول الله ما كان بيننــا * فيا عجبــا ما بال مُلْك أ بى بكر

وان الذى سالوكمُ فمنعـــتمُ * لكالتَّمر أو أحْلَى لديهم من التمـــر

سَنمنعهـــم ما دام فينـــا بقيّـــة * كرامٌ على الضّراء فى العسر واليسر

وهذا صنف من القائمين على أبى بكر أمثلهم طريقــة، وفى حقهم قال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة. ابن العربيّ : أما قولهم إن هذا خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم فلا يلتحق به غيره فهو كلام جاهل بالقرآن غافل عن مأخذ الشريعــة متلاعبٍ بالدِّين؛ فإن الخطاب فى القرآن لم يرد بابا واحدا ولكن اختلفت موارده على وجوه؛ فمنها خطاب توجه إلى

جميع الأمة كقوله : « يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة »(١) وقوله « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام »(٢) ونحوه . ومنها خطاب خُصّ به ولم يَشركه فيه غيره لفظا ولا معنى كقوله : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ »(٣) وقوله : « خَالِصَةً لَكَ » . ومنها خطاب خُصّ به لفظا وشَرَكه جميع الأمة معنًى وفعلا؛ كقوله : « أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ »(٣) الآية . وقوله : «فاذا قرأتَ القرآن فآستعذْ بالله»(٤) وقوله : «وإذا كنت فيهم فأقمتَ لهم الصلاة»(٥) . فكل من دَلَكَتْ عليه الشمس مخاطب بالصلاة . وكذلك كل من قرأ القرآن مخاطب بالآستعاذة . وكذلك من خاف يقيم الصلاة [بتلك الصفة] . ومن هذا القبيل قوله تعالى : «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها» . وعلى هذا المعنى جاء قوله تعالى : «يأيها النبيّ آتقِ الله»(٦) و «يأيها النبيّ إذا طلقتم النساء »(٧) .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ ذهب بعض العرب وهي دوس : إلى أن المـال الثيابُ والمتاع والعُروض . ولا تسمِّي العين مالا . وقد جاء هذا المعنى في السنة الثابتة من رواية مالك عن ثَوْر بن زيد الدِّيلي عن أبي الغيث سالم مولى آبن مطيع عن أبي هريرة قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عامَ خيبر فلم نغنم ذهبا ولا وَرِقا إلا الأموال الثياب والمتاع . الحديث . وذهب غيرهم إلى أن المـال الصامتُ من الذهب والورق . وقيل : الإبل خاصّة؛ ومنه قولهم : المـال الإبل . وقيل جميع المـاشية . وذكر ابن الأنباري عن أحمد بن يحيى النحوي قال : ما قصر عن بلوغ ما تجب فيه الزكاة من الذهب والوَرِق فليس بمـال؛ وأنشـد :

والله ما بلغتْ لي قــطُّ ماشــيةٌ * حدّ الزكاة ولا إبل ولا مال

قال أبو عمر : والمعروف من كلام العرب أن كل ما تُمُوِّل وتُمُلِّك هو مال؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " يقول ابن آدم مالي مالي وإنمـا له من ماله ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى أو تصدّق

---

(١) آية ٦ سورة المـائدة . (٢) آية ١٨٣ سورة البقرة . (٣) آية ٧٨ سورة الاسراء .
(٤) آية ٩٨ سورة النحل . (٥) آية ١٠٢ سورة النساء . (٦) أول سورة الأحزاب .
(٧) أول سورة الطلاق .

فأمضي " . وقال أبو قتادة : فأعطاني الدرع فابتعت به مَخْرَفًا (١) في بني سَلِمة؛ فإنه لأوّل مال تأثّلته (٢) في الإسلام . فمن حلف بصدقة ماله كله فذلك على كل نوع من ماله ، سواء كان مما تجب فيه الزكاة أو لم يكن؛ إلا أن ينوى شيئا بعينه فيكون على مانواه . وقد قيل : إن ذلك على أموال الزكاة . والعلم محيط واللسان شاهد بأن ما تملّك يسمّى مالا . والله أعلم .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صدقة ﴾ مطلق غير مقيّد بشرط في المأخوذ والمأخوذ منه ، ولا تبيين مقدار المأخوذ ولا المأخوذ منه ؛ وإنما بيان ذلك في السنة والإجماع، حسب ما نذكره . فتؤخذ الزكاة من جميع الأموال . وقد أوجب النبيّ صلى الله عليه وسلم الزكاة في المواشي والحبوب والعين، وهذا مالا خلاف فيه . واختلفوا فيما سوى ذلك كالخيل وسائر العُروض . وسيأتي ذكر الخيل والعسل في « النّحل » إن شاء الله . روى الأئمة عن أبي سعيد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ليس فيما دون خمسة أوسُق من التمر صدقة وليس فيما دون خمس أواق من الورِق صدقة وليس فيما دون خمس ذَوْد من الإبل صدقة " . وقد مضى الكلام في « الأنعام » (٣) في زكاة الحبوب وما تنبته الأرض مستوفًى . وفي المعادن في «البقرة» (٤) وفي الحلي في هذه السورة . وأجمع العلماء على أن الأوقيّة أربعون درهما؛ فاذا ملك الحر المسلم مائتي درهم من فضة مضروبة — وهي الخمس أواق المنصوصة في الحديث — حولا كاملا فقد وجبت عليه صدقتها، وذلك ربع عشرها خمسة دراهم . وإنما اشترط الحول لقوله عليه السلام : " ليس في مال زكاةٌ حتى يحول عليه الحول " . أخرجه الترمذي . وما زاد على المائتي درهم من الورق فبحساب ذلك في كل شيء منه ربع عشره قلّ أو كثر ؛ هذا قول مالك والليث والشافعي وأكثر أصحاب أبي حنيفة وابن أبي لَيْلَى والثّوري والأوزاعي وأحمد بن حنبل وأبي ثور وإسحاق وأبي عبيد . وروى ذلك عن علي وابن عمر . وقالت طائفة : لا شيء فيما زاد على المائتي درهم حتى تبلغ الزيادة أربعين درهما ؛ فإذا بلغتها

(١) المخرف (بالفتح) : القطعة الصغيرة من النخل ، ست أو سبع يشتريها الرجل للخرفة (للجنى) . وقيل : هي جماعة النخل ما بلغت . (٢) تأثل مالا : اكتسبه واتخذه وثمره . (٣) راجع جـ ٧ ص ٩٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع جـ ٣ ص ٣٢١ وما بعدها .

كان فيهــا درهم وذلك ربع عشرها . هــذا قول سعيد بن المسيب والحسن وعطاء وطاوس والشعبي والزهرى ومكحول وعمرو بن دينار وأبى حنيفة .

الرابعــة — وأما زكاة الذهب فالجمهور من العلمــاء على أن الذهب إذا كان عشرين دينارا قيمتها مائتا درهم فمــا زاد أن الزكاة فيها واجبة؛ على حديث علىّ، أخرجه الترمذى عن ضَمْرة والحارث عن علىّ . قال الترمذى : سألت محمــد بن اسماعيل عن هذا الحــديث فقال كلاهما عندى صحيح عن أبى اسحاق، يحتمل أن يكون عنهما جميعا. وقال الباجى فى المنتقَى : وهذا الحديث ليس إسناده هناك، غير أن اتفاق العلماء على الأخذ به دليل على صحة حكمه، والله أعلم. وروى عن الحسن والثورى، وإليه مال بعض أصحاب داود بن علىّ على أن الذهب لا زكاة فيه حتى يبلغ أربعين دينارا. وهذا يردّه حديث علىّ وحديث ابن عمر وعائشة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يأخــذ من كل عشرين دينــارا نصف دينار، ومن الأربعــين دينارا دينارا؛ على هذا جماعة أهل العلم إلا من ذُكر .

الخامســـة — اتفقت الأمة على أن ما كان دون خمس ذَودٍ من الإبل فلا زكاة فيه . فإذا بلغت خمسا ففيها شاة. والشاة تقع على واحدة من الغنم، والغنم الضأن والمعز جميعا. وهذا أيضا اتفاق من العلماء أنه ليس فى خمس إلا شاة واحدة؛ وهى فريضتها . وصدقة المواشى مبيّنــة فى الكتاب الذى كتبه الصدّيق لأنس لمــا وجّهه إلى البحرين ؛ أخرجه البخارى وأبو داود والدّارَقُطْنى والنّسائى وابن ماجه وغيرهم، وكله متّفق عليه. والخلاف فيه فى موضعين؛ أحدهما فى زكاة الإبل، وهى إذا بلغت إحدى وعشرين ومائة فقال مالك : المصدِّق بالخيار إن شاء أخذ ثلاث بنات لَبُون، وإن شاء أخذ حِقّتين[1] . وقال ابن القاسم : وقال ابن شهاب فيها ثلاث بنات لبون إلى أن تبلغ ثلاثين ومائة فيكون فيها حِقة وٱبنتا لبون. قال ٱبن القاسم : ورأيى على قول ابن شهاب. وذكر ابن حبيب أن عبد العزيز بن أبى سلمة وعبد العزيز بن أبى

---

(١) ابن لبون : ولد الناقة إذا استكمل السنة الثانية، ودخل فى الثالثة . والحق (بالكسر) : الذى استكمل ثلاث سنين ودخل فى الرابعة .

حازم وابن دينار يقولون بقول مالك. وأما الموضع الثانى فهو فى صدقة الغنم، وهى إذا زادت على ثلثمائة شاة وشاة؛ فإن الحسن بن صالح بن حَىّ قال : فيها أربع شياه . وإذا كانت أربعمائة شاة وشاة ففيها خمس شياه؛ وهكذا كلما زادت، فى كل مائة شاة شاةٌ . وروى عن إبراهيم النخعىّ مثله . وقال الجمهور: فى مائتى شاة وشاة ثلاث شياه، ثم لا شىء فيها إلى أربعمائة فيكون فيها أربع شياه، ثم كلما زادت مائة ففيها شاة؛ إجماعا واتفاقا . قال ابن عبد البر : وهذه مسألة وهِم فيها ابن المنذر، وحكى فيها عن العلماء الخطأ، وخلط وأكثر الغلط .

السادسة — لم يذكر البخارى ولا مسلم فى صحيحهما تفصيل زكاة البقر . وخرّجه أبو داود والترمذىّ والنّسائى والدّارَقُطْنِىّ ومالك فى مُوَطَّئه وهى مرسلة ومقطوعة وموقوفة . قال ابن عمر : وقد رواه قوم عن طاوس عن معاذ ، إلا أن الذين أرسلوه أثبت من الذين أسندوه . وممن أسنده بَقِيّة عن المسعودى عن الحكم عن طاوس . وقد اختلفوا فيما ينفرد به بَقِيّة عن الثقات . ورواه الحسن بن عُمارة عن الحكم كما رواه بَقِيّة عن المسعودى عن الحكم، والحسن مجتمَع على ضعفه . وقد روى هذا الخبر باسناد متّصل صحيح ثابت من غير رواية طاوس؛ ذكره عبد الرزاق قال: أخبرنا معمر والثورى عن الأعمش عن أبى وائل عن مسروق عن معاذ بن جبل قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن؛ فأمره أن يأخذ من كل ثلاثين بقرة تَبِيعا[1] أو تبيعة، ومن أربعين مُسِنّةً[2] [، ومن كل حالم دينارا] أو عِدْله مَعافر[3]؛ ذكره الدارقطنى وأبو عيسى الترمذى وصححه . قال أبو عمر . ولا خلاف بين العلماء أن الزكاة فى زكاة البقر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما قال معاذ بن جبل: فى ثلاثين بقرة تَبِيع، وفى أربعين مُسِنّةٌ؛ إلا شىء رُوى عن سعيد بن المسيِّب وأبى قِلابة والزُّهرِىّ وقَتادة، فانهم يوجبون فى كل خَمس من البقر شاةً إلى ثلاثين . فهذه جملة من تفصيل الزكاة بإصولها وفروعها فى كتب الفقه . ويأتى ذكر الخُلْطة[4] فى سورة « ص » إن شاء الله تعالى .

(١) التبيع : ولد البقرة فى أول سنة . والمسن : ما أوفى سنتين ودخل فى الثالثة . (٢) زيادة عن صحيح الدارقطنى والترمذى . (٣) المعافر : برود باليمن منسوبة الى معافر، وهى قبيلة باليمن .

(٤) فى قوله تعالى : « وان كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض » آية ٢٤ .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ صَــدَقَةً ﴾ مأخوذ من الصّــدق؛ إذ هي دليل على صحة إيمانه وصدق باطنه مع ظاهره، وأنه ليس من المنافقين الذين يَلْمِزون المطوِّعين من المؤمنين في الصدقات . ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ حالين للخاطب؛ التقدير : خذها مطهِّرًا لهم وَمُزَكِّيًا لهم بهـا . ويجوز أن يجعلهما صفتين للصدقة؛ أي صــدقة مطهرةً لهم مُزَكِّية، ويكون فاعل تزكيهم المخاطب، ويعود الضــمير الذي في « بهـا » على الموصوف المنكّر . وحكى النحاس وَمَكِّيّ أنّ « تطهرهم » من صفة الصدقة « وتزكيهم بها » حال من الضمير في « خُذْ » وهو النبيّ صلى الله عليه وسلم . ويحتمل أن تكون حالا من الصــدقة، وذلك ضعيف لأنها حال من نكرة . قال الزجاج : والأجود أن تكون المخاطبــة للنبيّ صلى الله عليه وســلم؛ أي فإنك تطهرهم وتزكيهم بهـا، على القطع والاستئناف . ويجوز الجزم على جواب الأمر، والمعنى : إن تأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم؛ ومنه قول امرئ القيس :

* قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل *

وقرأ الحسن تُطْهِرهم (بسكون الطاء) وهو منقول بالهمزة من طَهَر وأطهرته، مثــل ظهر وأظهرته .

الثامنـــة — قوله تعــالى : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أصــلٌ في فعل كلّ إمام يأخذ الصــدقة أن يدعو للتصدّق بالبركة . روى مسلم عن عبد الله بن أبي أوْفَى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : "اللَّهُم صلّ عليهم" فأتاه ابن أبي أوْفَى بصدقته فقال : "اللهم صلّ على آل أبي أوْفَى" . ذهب قوم إلى هذا، وذهب آخرون إلى أن هذا منسوخ بقوله تعالى : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا » . قالوا : فلا يجوز أن يصلَّى على أحد إلا على النبيّ صلى الله عليه وسلم وحده خاصّة؛ لأنه خُصّ بذلك . واستدلوا بقوله تعالى : « لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا » الآية . وبأنّ عبد الله بن عباس كان يقول : لا يصلّى على أحد إلا على النبيّ صلى الله عليه وسلم . والأول أصح؛ فإن الخطاب ليس مقصورا عليه كما تقدم؛ ويأتي في الآية بعد هذا . فيجب الاقتداء برسول الله صلى الله

عليه وسلم، والتأسّى به؛ لأنه كان يمتثل قوله : « وصَلّ عليهم إن صـلاتك سَكَنٌ لهم » أى إذا دعوت لهم حين يأتون بصدقاتهم سكّن ذلك قلوبهـم وفرحوا به . وقـد روى جابر آبن عبد الله قال : أتانى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقلت لامرأتى : لا تسألى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا؛ فقالت : يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندنا ولا نسأله شيئا ! فقالت : يارسول الله، صلّ على زوجى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "صلى الله عليك وعلى زوجك" . والصلاة هنا الرحمة والترحم . قال النحاس : وحكى أهل اللغة جميعا فيما علمناه أن الصلاة فى كلام العرب الدعاء؛ ومنه الصلاة على الجنائز . وقرأ حفص وحمزة والكسائىّ « إن صلاتك » بالتوحيد . وجمع الباقون . وكذلك الاختلاف فى « أصلاتك تأمُرُكَ[1] » وقرئ « سكْن » بسكون الكاف . قال قتادة : معناه وقار لهم . والسّكن : ما تسكن به النفوس وتطمئن به القلوب .

قوله تعـالى : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

فيـــه مسألتان :

الأولى — قيــل : قال الذين لم يتوبوا من المتخلفــين : هؤلاء كانوا معــنا بالأمس، لا يُكلّمون ولا يجالسون، فما لهم الآن ؟ وما هــذه الخاصّة التى خُصُّوا بهـا دوننا؛ فنزلت : « ألم يعلموا »؛ فالضمير فى « يعلموا » عائد إلى الذين لم يتوبوا من المتخلفين . قال معـناه آبن زيد . ويحتمل أن يعود إلى الذين تابوا وربطوا أنفسهم . وقوله تعالى « هو » تأكيد لانفراد الله سـبحانه وتعالى بهــذه الأمور . وتحقيق ذلك أنه لو قال : أن الله يقبل التوبة لاحتمل أن يكون قبولُ رسـوله قبولا منــه؛ فثبتت الآية أن ذلك ممـا لا يصل إليــه نبىّ ولا ملك .

---

(١) آية ٨٧ سورة هود .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ هذا نصّ صريح فى أن الله تعالى هو الآخذ لها والمثيب عليها وأن الحق له جل وعز، والنبيّ صلى الله عليه وسلم واسطة، فان تُوُفّى فعامله هو الواسطة بعده، والله عز وجل حىّ لا يموت . وهذا يبيّن أن قوله سبحانه وتعالى « خُذْ من أموالهم صدقةً » ليس مقصورا على النبيّ صلى الله عليه وسلم . روى الترمذيّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيُرْبيها لأحدكم كما يربى أحدكم مُهْره حتى أن اللقمة لتصير مثلَ أُحُد وتصديق ذلك فى كتاب الله وهو الذى يقبل التوبةَ عن عباده ويأخذ الصدقات ويمحق الله الربا ويُرْبِى الصدقات ". قال : هذا حديث حسن صحيح . وفى صحيح مسلم : " لا يتصدق أحد بتمرة من كسبٍ طيّب إلا أخذها الله بيمينه — فى رواية — فتربُو فى كفّ الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل " الحديث . وروى " إن الصدقة لتقع فى كف الرحمن قبل أن تقع فى كف السائل فيربيها كما يربى أحدُكم فَلُوَّه (١) أو فَصِـيله والله يضاعف لمن يشـاء " . قال علماؤنا رحمـة الله عليهـم فى تأويل هذه الأحاديث : إن هــذا كناية عن القبول والجزاء عليها؛ كما كنى بنفسه الكريمة المقدسة عن المريض تعطفا عليه بقوله : " يابن آدم مَرِضت فلم تَعُدْنِى " الحديث . وقد تقدم هذا المعنى فى « البقرة » . وخصّ اليمين والكف إذ كل قابل لشىء إنمـا يأخذه بكفه وبيمينه أو يوضـع له فيه؛ فخرج على ما يعرفونه ، والله جل وعز منزّه عن الجارحة . وقــد جاءت اليمين فى كلام العرب بغير معنى الجارحة؛ كما قال الشاعر :

إذا ما رايةٌ رفعت لمجْدٍ * تلقّــاها عَرابة باليمينِ

أى هو مؤهّل للجد والشرف ، ولم يُرد بهـا يمين الجارحة ؛ لأن المجد معنًى فاليمـين التى تتلقى به رايته معنى. وكذلك اليمين فى حق الله تعالى . وقد قيل : إن معنى "تربو فى كف الرحمن" عبارة عن كفة المـيزان التى توزن فيها الأعمال ، فيكون من باب حذف المضاف؛ كأنه قال: فتربو فى كفّة ميزان الرحمن . وروى عن مالك والثّورى وابن المبارك أنهم قالوا فى تأويل هذه

(١) الفلو : ولد الفرس .

الأحاديث وما شابهها : أَمِرُّوها بلا كَيْف ؛ قاله الترمذى وغيره . وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا ﴾ خطاب للجميع . ﴿ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أى باطلاعه إياهم على أعمالكم . وفى الخبر : " لو أن رجلا عمل فى صخرة لا باب لها ولا كُوّة لخرج عمله إلى الناس كائنا ما كان " .

قوله تعالى : ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

نزلت فى الثلاثة الذين تِيب عليهم : كعب بن مالك وهلال بن أميّة من بنى واقف ومُرارة آبن الربيع ؛ وقيل آبن رِبْعِى العَمْرِى ؛ ذكره المهدوِىّ . كانوا قد تخلفوا عن تبوك وكانوا مياسر ؛ على ما يأتى من ذكرهم . والتقدير : ومنهم آخرون مُرْجَوْن ؛ من أرجأته أى أخرته . ومنه قيل : مُرْجِئة ؛ لأنهم أخّروا العمل . وقرأ حمزة والكسائى « مُرْجَوْن » بغير همز ؛ فقيل : هو من أرجيته أى أخرته . وقال المبرد : لا يقال أرجيته بمعنى أخرته ، ولكن يكون من الرجاء . ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ « إمّا » فى العربية لأحد أمرين ، والله عز وجل عالم بمصير الأشياء ، ولكن المخاطبة للعباد على ما يعرفون ؛ أى ليكن أمرهم عندكم على الرجاء لأنه ليس للعباد أكثر من هذا .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مَسْجِدًا ﴾ معطوف، أى ومنهم الذين اتخذوا مســجدا ؛ عطف جمــلة على جملة . ويجوز أن يكون رفعا بالابتــداء والخبر محذوف كأنه « يعذّبون » أو نحوه . ومن قــرأ « الذين » بغير واو وهى قراءة المدنيين فهو عنــده رفع بالابتــداء ، والخبر « لا تقم » التقدير : الذين اتخذوا مسجدا لا تقم فيــه أبدا ؛ أى لا تقم فى مسجدهم ؛ قاله الكسائى . وقال النحاس : يكون خبر الابتداء « لا يزال بُنْيانهم الذى بَنَوْا رِيبةً فى قلوبهم » . وقيل : الخبر « يعذبون » كما تقدّم . ونزلت الآية فيما روى فى أبى عامر الراهب ؛ لأنه كان خرج إلى قَيْصر وتنصّر ووعدهم قيصر أنه سيأتيهم ، فَبَنَوْا مسجد الضّرار يرصدون مجيئه فيه ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم ، وقد تقدّمت قصته فى الأعراف (1) . وقال أهل التفسير : إن بنى عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قُبَاء وبعثوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم فأتاهم فصلّى فيه ، فحسدهم إخوانهم بنو غُنْم بن عوف وقالو : نبنى مسجدا ونبعث الى النبيّ صلى الله عليه وسلم يأتينا فيصلى لنا كما صلى فى مسجد إخواننا ، ويصلّى فيه أبو عامر إذا قدم من الشام ؛ فأتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا : يارسول الله ، قد بنينا مسجدا لذى الحاجة ، والعِلّة والليلة المطيرة ، ونحبّ أن تصلّى لنا فيه وتدعو بالبركة ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إنى على سفر وحالِ شغل فلو قدِمنا لأتيناكم وصلّينا لكم فيه" . فلما انصرف النبيّ صلى الله عليه وسلم من تبوك أتوه وقد فرغوا منه وصلّوا فيه الجمعة والسبت والأحد ، فدعا بقميصــه ليلبسه ويأتيهم فنزل عليه القرآن بخبر مسجد الضِّرار ؛ فدعا النبيّ صلى الله عليه وسلم مالكَ بن الدُّخْشُم ومعن بن عَدّى وعامر بن السَّكَن ووحْشِيًّا قاتلَ حمزة ، فقال : " انطلقوا إلى هــذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه " فخرجوا مسرعيــن ، وأخرج مالك بن الدُّخْشُم من مــنزله شــعلة نار ، ونهضوا فأحرقوا المسجد وهــدموه ، وكان الذين بنوه اثنى عشر رجلا : خِذام بن خالد من بنى عبيــد بن زيد أحد بنى عمرو بن عوف

---

(1) راجع جـ ٧ ص ٣٢٠ طبعة أولى أو ثانية .

ومن داره أخرج مسـجد الضرار ، ومعتّب بن قُشـير، وأبو حبيبـة بن الأذعر ، وعَبّـاد ابن حُنيف أخو سهل بن حنيف من بنى عمرو بن عوف . وجارية بن عامر، وابناه مُجمِّع وزيد بن جارية ، ونَبْتَل بن الحارث، وبَحْزَج، وبِجَاد بن عثمان، ووديعـة بن ثابت؛ وثعلبة ابن حاطب مذكور فيهم . قال أبو عمر بن عبـد البر : وفيه نظر؛ لأنه شهد بدرا . وقال عكرمة : سأل عمر بن الخطاب رجلا منهم بمـاذا أعنت فى هـذا المسجد ؟ فقال : أعنت فيه بسارية . فقال : أبشر بها ! سارية فى عنقك من نار جهنم .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ضِرَارًا﴾ مصدر مفعول من أجله . ﴿وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا﴾ عطف كلّه . وقال أهل التأويل: ضرارا بالمسجد، وليس للسجد ضرار، إنمـا هو لأهله . وروى الدّارَقُطْنىّ عن أبى سعيد الخُدْرىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا ضَرَر ولا ضِرار مَن ضارّ ضَرّ الله به ومن شاقّ شاق الله عليه". قال بعض العلماء: الضرر : الذى لك به منفعة وعلى جارك فيه مضرة . والضِّرار : الذى ليس لك فيـه منفعة وعلى جارك فيه المضرة . وقد قيل هما بمعنًى واحد، تكلّم بهما جميعا على جهة التأكيد .

الثالثـــة — قال علماؤنا : لا يجوز أن يُبنى مسجد إلى جنب مسجد، ويجب هدمه ؛ والمنع من بنائه لئـلا ينصرف أهل المسجد الأوّل فيبقى شاغرا ، إلا أن تكون المحـلّة كبيرة فلا يكفى أهلَها مسجدٌ واحد فيبنى حينئذ . وكذلك قالوا : لا ينبغى أن يبنى فى المصر الواحد جامعان وثلاثة، ويجب منع الثانى؛ ومن صلّى فيه الجمعة لم تُجْزه . وقد أحرق النبىّ صلى الله عليـه وسلم مسجد الضّرار وهدمه . وأسـند الطبرى عن شقيق أنه جاء ليصـلّى فى مسجد بنى غاضرة (١) فوجد الصلاة قد فاتته؛ فقيل له : إن مسجد بنى فلان لم يصلّ فيه بعدُ؛ فقال : لا أحبّ أن أصلى فيه؛ لأنه بُنى على ضرار . قال علماؤنا: وكل مسجد بنى على ضرار أو رياء وسُمعة فهو فى حكم مسجد الضرار لا تجوز الصلاة فيه . وقال النقاش : يلزم من هذا ألّا يصلى فى كنيسة ونحوها؛ لأنها بنيت على شرّ .

(١) كذا فى بعض الأصول، وفى البعض الآخر : « بنى عامرة » . والذى فى الطبرى : « بنى عامر » .

قلت : هذا لا يلزم؛ لأن الكنيسة لم يقصد ببنائها الضّرر بالغير، وإن كان أصل بنائها على شر، وإنما اتخذ النصارى الكنيسة واليهودُ البيعة موضعا يتعبدون فيه بزعمهم كالمسجد لنا فافترقا . وقد أجمع العلماء على أن من صلى فى كنيسة أو بَيعة على موضع طاهر أن صلاته ماضية جائزة . وذكر البخارى أن ابن عباس كان يصلى فى البيعة إذا لم يكن فيها تماثيل . وذكر أبو داود عن عثمان بن أبى العاص أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كانت طواغيتهم .

الرابعـــة ــ قال العلماء : إن من كان إماما لظالم لا يصلَّى وراءه، إلا أن يظهر عذره أو يتوب؛ فإن بنى عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قُباء سألوا عمر بن الخطاب فى خلافته ليأذن لمجمِّع بن جارية أن يصلّى بهـم فى مسجدهم؛ فقال : لا ولا نعْمَـة عين ! أليس بإمام مسـجد الضرار ! فقال له مُجَمِّـع : يا أمير المؤمنين ، لا تعجل علىّ ، فوالله لقـد صلّيت فيه وأنا لا أعلم ما قد أضمروا عليه ، ولو علمت ما صليت بهم فيه ، كنت غلاما قارئا للقرآن ، وكانوا شيوخا قـد عاشوا على جاهليتهم ، وكانوا لا يقرءون من القرآن شيئا ، فصـليت ولا أحسِب ما صنعتُ إثمـا ، ولا أعلم بمـا فى أنفسهم؛ فعذره عمر وصدّقه وأمره بالصلاة فى مسجد قُباء .

الخامســـة ــ قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وإذا كان المسجد الذى يُتّخذ للعبادة وحضّ الشرع على بنـائه فقال : " من بنى لله مسـجدا ولو كَمَفْحَص[1] قَطاة بنى الله له بيتـا فى الجنة " يُهـدَم وينزع إذا كان فيه ضرر بغيره، فمـا ظنك بسواه ! بل هو أحْرَى أن يزال ويهـدم حتى لا يدخل ضرر على الأقـدم . وذلك كمن بنى فُرْنًا أو رَحًى أو حفر بئرا أو غير ذلك ممـا يُدخل به الضرر على الغير . وضابط هـذا الباب : أن من أدخل على أخيه ضررا مُنع . فإن أدخل على أخيه ضررا بفعل ما كان له فعله فى ماله فأضر ذلك بجاره أو غير جاره نُظر إلى ذلك الفعل؛ فان كان تركُه أكبرَ ضررا من الضرر الداخل على الفاعل قُطع أكبر

(١) الموضع الذى تجثم فيه وتبيض .

الضرر ين وأعظمهما حرمة فى الأصول . مثال ذلك : رجل فتح كُوّة فى منزله يَطّلع منها على دار أخيــه وفيها العيال والأهل، ومن شأن النساء فى بيوتهن إلقــاء بعض ثيابهن والانتشار فى حوائجهن، ومعلوم أن الاطلاع على العورات محرّم وقد ورد النهى فيه؛ فلحرمة الاطلاع على العورات رأى العلماء أن يغلقوا على فاتح الباب والكوّة ما فتح ممــا له فيه منفعة وراحة وفى غلقه عليه ضرر؛ لأنهم قصدوا إلى قطع أعظم الضرر ين، إذ لم يكن بُدٌّ من قطع أحدهما. وهكذا الحكم فى هذا الباب، خلافا للشافعىّ ومن قال بقوله . قال أصحاب الشافعىّ : لو حفر رجل فى ملكه بئرا وحفر آخر فى ملكه بئرا يسرق منهــا ماء البئر الأوّلة جاز ؛ لأن كل واحد منهما حفر فى ملكه فلا يُمنع من ذلك . ومثله عندهم : لو حفر إلى جنب بئر جاره كنيفا يُفسده عليه لم يكن له منعه؛ لأنه تصرف فى ملكه . والقرآن والسنة يردّان هذا القول . وبالله التوفيق .

ومن هــذا الباب وجه آخر من الضرر منع العلماء منه ، كدخان الفرن والحمّام وغبارِ الأندر[1] والدودِ المتولّد من الزّبل المبســوط فى الرّحاب ؛ وما كان مثل هــذا فإنه يقطع منه ما بان ضرره وخشى تمــاديه . وأما ما كان ساعة خفيفــة مثل نفض الثياب والحصر عنــد الأبواب ؛ فإن هذا مما لا غِنًى بالناس عنه، وليس ممــا يستحق به شىء؛ فنفْىُ الضرر فى منع مثل هــذا أعظمُ وأكبر من الصبر على ذلك ساعةً خفيفة . وللجار على جاره فى أدب السُّنّة أن يصبر على أذاه على ما يقدر، كما عليه ألا يؤذيه وأن يحسن إليه .

السادســـة — وممــا يدخل فى هــذا الباب مسألة ذكرها إسماعيل بن أبى أويس عن مالك أنه سـئل عن آمرأة عَرَض لهــا ، يعنى مَسًّا من الجن، فكانت إذا أصابهــا زوجُها وأجنبت أو دنا منها يشتدّ ذلك بها . فقال مالك : لا أرى أن يقربها، وأرى للسلطان أن يحول بينه وبينها .

---

(١) الأندر : البيدر، وهو الموضع الذى يداس فيه الطعام .

السابعـــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَكُفْرًا ﴾ لمـا كان اعتقادهم أنه لا حرمة لمسجد قُبـاء ولا لمسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم كفروا بهذا الاعتقاد؛ قاله آبن العربي. وقيل: «وكفرا» أى بالنبيّ صلى الله عليه وسلم و بمـا جاء به؛ قاله القشيريّ وغيره .

الثامنـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى يفرّقون به جماعتهم ليتخلف أقوام عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. وهذا يدلك على أن المقصد الأكبر والغرض الأظهر من وضع الجماعة تأليفُ القلوب والكلمة على الطاعة، وعقدُ الذّمام والحرمة بفعل الدّيانة حتى يقع الأنس بالمخالطة، وتصفو القلوب من وضر الأحقاد .

التاســـعة ـــ تفطّن مالك رحمه الله من هذه الآية فقال : لا يصلّى جماعتان فى مسجد واحد بإمامين؛ خلافا لسائر العلماء . وقد رُوى عن الشافعيّ المنع؛ حيث كان تشتيتا للكلمة وإبطالا لهذه الحكمة وذريعة إلى أن نقول : من يريد الانفراد عن الجماعة كان له عذر فيقيم جماعته ويقدم إمامته فيقع الخلاف و يبطل النظام ، وخفى ذلك عليهم . قال آبن العربى : وهذا كان شأنه معهم، وهو أثبت قدما منهم فى الحكمة وأعلم بمقاطع الشريعة .

العـاشرة ـــ قوله تعالى: ﴿ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ يعنى أبا عامر الراهب؛ وسُمِّىَ بذلك لأنه كان يتعبّـد ويلتمس العلم فمات كافرا بقِنَّسْرِين (١) بدعوة النبيّ صـلى الله عليه وسلم؛ فانه كان قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : لا أجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك معهم؛ فلم يزل يقاتله إلى يوم حُنين. فلما انهزمت هوازن خرج إلى الروم يستنصر، وأرسل إلى المنافقين وقال: استعدّوا بما استطعتم من قوّة وسلاح، وآبنوا مسجدا فانى ذاهب إلى قيصر فآت بجند من الروم لأخرج محمدا من المدينة؛ فبنوا مسجد الضرار . وأبو عامر هـذا هو والد حنظلة غَسيل الملائكة (٢) . والإرصاد : الانتظار، تقول: أرصدت كذا إذا أعددته مرتقبا له به . قال أبو زيد : يقال رصدته وأرصدته فى الخير، وأرصدت له فى الشر . وقال آبن الأعرابى :

---

(١) قنسرين (بكسر أوله وفتح ثانيه وتشديده و يكسر) : كورة بالشام . (٢) سمى غسيل الملائكة لأنه استشهد يوم أحد وغسلته الملائكة؛ وذلك أنه كان قد ألمّ بأهله فى حين خروجه الى أحد، ثم هجم عليه من الخروج فى النفير ما أنساه الغسل وأعجله عنه؛ فلما قتل شهيدا أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الملائكة غسلته . (عن الاستيعاب) .

لا يقال إلا أرصدت، ومعناه ارتقبت . وقوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل بناء مسجد الضرار . ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى ﴾ أى ما أردنا ببنائه إلا الفعلة الحسنى، وهى الرفق بالمسلمين كما ذكروا لذى العلة والحاجة . وهـذا يدّل على أن الأفعـال تختلف بالمقصـود والإرادات ؛ ولذلك قال وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى . ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى يعلم خُبث ضمائرهم وكذبَهم فيما يحلفون عليه .

قوله تعـالى : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) ﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ يعنى مسجـد الضِّرار؛ أى لا تقم فيـه للصلاة . وقد يعبّر عن الصلاة بالقيام؛ يقـال : فلان يقوم الليل أى يصلى؛ ومنه الحديث الصحيح : "من قام رمضان إيمانا وآحتسابا غُفر له ما تقدم من ذنبه" . أخرجه البخارىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم قال : ...؛ فذكره . وقـد رُوى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمـا نزلت هذه الآية كان لا يمرّ بالطريق التى فيها المسجد، وأمر بموضعه أن يُتخذ كُناسة تلقى فيها الجيف والأقذار والقُمامات .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ أَبَدًا ﴾ « أبدا » ظرف زمان . وظرف الزمان على قسمين : ظرف مقدّر كاليوم، وظرف مُبْهم كالحين والوقت؛ والأبد من هذا القسم، وكذلك الدهر .

وتنشأ هنا مسألة أصولية ، وهى أن « أبدا » وإن كانت ظرفا مبهما لا عموم فيه ولكنه إذا اتصل بلا النافية أفاد العموم ، فلو قال : لا تقم، لكفى فى الانكفاف المطلق . فاذا قال : « أبدا » فكأنه قال فى وقت من الأوقات ولا فى حين من الأحيان . فأما النكرة فى الإثبات إذا كانت خبرا عن واقع لم تعمّ، وقد فَهِم ذلك أهل اللسان وقضى به فقهاء الإسلام فقالوا : لو قال رجل لامرأته أنت طالق أبدا طَلُقت طلقة واحدة .

الثالثـــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ﴾ أى بُنيت جُدُره ورُفعت قواعده . والأُسّ أصل البنـاء ؛ وكذلك الأساس . والأَسَس مقصور منه . وجمع الأُسّ إساس؛ مثلُ عُسّ وعِساس . وجمع الأساس أُسُس ؛ مثـل قَذال وقُذُل . وجمع الأَسَس آساس ؛ مثل سبب وأسباب . وقد أسّست البناء تأسيسا . وقولهم : كان ذلك على أُسِّ الدهر ، وأَسّ الدهر ، وإِسّ الدهر ؛ ثلاث لغات ؛ أى على قِـدم الدّهر ووجه الدهر . واللام فى قوله « لمسجد » لام قَسَم . وقيـل لام الابتداء؛ كما تقول : لزيد أحسن الناس فعلا ؛ وهى مقتضية تأكيدا . ﴿ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ﴾ نعت لمسجد . ﴿ أَحَقُّ ﴾ خبر الابتـداء الذى هو « لَمَسْجِدٌ » . ومعنى التقوى هنا الخصال التى تُتّقَى بهـا العقوبة ، وهى فَعلى من وَقيت ؛ وقد تقدّم(1) .

الرابعـــة ـــ واختلف العلمـاء فى المسجد الذى أُسّس على التقوى ؛ فقالت طائفة : هو مسجد قباء؛ يروى عن ابن عباس والضحاك والحسن . وتعلقوا بقوله : «من أول يوم» ، ومسجد قباء كان أسس بالمدينة أوّل يوم؛ فإنه بُنى قبل مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم؛قاله ابن عمر وابن المسيب ، ومالك فيما رواه عنه ابن وهب وأشهب وابن القاسم . وروى الترمذىّ عن أبى سعيد الخُدْرِىّ : قال تَمـارَى(2) رجلان فى المسجد الذى أُسِّس على التّقـوَى من أوّل يوم ؛ فقال رجل هو مسجد قُبَـاء ، وقال آخر هو مسجد النبيّ صـلى الله عليه وسـلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " هو مسجدى هـذا " . حديث صحيح . والقول الأوّل أَلْيَق بالقصة ؛ لقوله «فيـه» وضمير الظرف يقتضى الرجال المتطهرين؛ فهـو مسجد قُباء . والدليل على ذلك حديث أبى هريرة قال : نزلت هذه الآية فى أهل قباء « فيه رجال يحبّون أن يَتَطَهَّرُوا والله يحب المُطَّهِّرِينَ » قال : كانوا يستنجون بالمـاء فنزلت فيهم هـذه الآية . قال الشّعبىّ : هم أهل مسجد قُباء ، أنزل الله فيهم هذا . وقال قتادة : لمـا نزلت هـذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل قباء: "إن الله سبحانه قد أحسن عليكم الثناء فى التطهر

---

(1) راجع جـ ١ ص ١٦١ طبعة ثانية أو ثالثة . (2) المماراة : المجادلة .

فما تصنعون"؟ قالوا : إنا نغسل أثر الغائط والبول بالمـاء؛ رواه أبو داود . وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن طلحة بن نافع قال : حدثنى أبو أيوب وجابر بن عبـد الله وأنس بن مالك الأنصاريون عن رسول الله صـلى الله عليه وسلم فى هـذه الآية « فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين» فقال:"يا معشر الأنصار إن الله قد أثنى عليكم خيرا فى الطُّهور فما طُهوركم هذا"؟ قالوا : يا رسول الله، نتوضأ للصـلاة ونغتسل من الجنابة . فقال رسول الله صلى الله عليـه وسـلم : " فهل مـع ذلك من غيره " ؟ فقـالوا : لا غير، إن أحدنا إذا خرج من الغائط أحبّ أن يستنجى بالمـاء . قال : "هو ذلك فَعَلَيْكُمُوه" . وهذا الحديث يقتضى أن المسجد المذكور فى الآية هو مسجد قباء، إلا أن حديث أبى سعيد الخُدْرِيّ نصّ فيه النبيّ صلى الله عليه وسـلم على أنه مسجده فلا نظر معه . وقد روى أبو كُرَيب قال : حدّثنا أبو أسامة قال حدّثنا صالح بن حيان قال حدّثنا عبـد الله بن بريدة فى قوله عز وجل « فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُـهُ » قال : إنمـا هى أربعة مساجد لم يَبْنِهِنّ إلا نبِيّ : الكعبة بناها إبراهيم وإسمـاعيل عليهما السلام ، وبيت أَرِيحَا بيتُ المقـدس بناه داود وسـليمان عليهما السلام ، ومسجد المدينـة ومسجد قُباء اللّذَين أُسِّسا على التقوى ، بناهما رسول الله صلى الله عليه وســلم .

الخامســـة — ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ « من » عند النحويين مقابلة منذ؛ فمنذ فى الزمان بمنزلة من فى المكان . فقيل : إن معناها هنا معنى منذ ؛ والتقدير : منـذ أولِ يوم ٱبتُدِئَ بنيانه . وقيل : المعنى من تأسيس أوّل الأيام، فدخلت على مصدر الفعل الذى هو أسس؛ كما قال :

لمن الديار بقُنّـــة الحِجْـــرِ * أَقْوَيْنَ من حِجَـجٍ ومن دَهْـــرِ (١)

(١) هذا البيت مطلع قصيدة لزهير بن أبى سلمى مدح بها هرم بن سنان . والقنة (بالضم) : أعلى الجبل ، وأراد بها هنا ما أشرف من الأرض . والحجر (بكسر الحاء) : منازل ثمود بناحية الشام عنـد وادى القرى . وأقوين : خلون وأقفرن . والحجج : السنون . (راجع هذا البيت والكلام عليه فى الشاهد الرابع والسبعين بعد السبعمائة من خزانة الأدب للبغدادى) .

أى من مَرّ حجج ومن مَرّ دهر . وإنمـا دعا إلى هذا أن من أصول النحويين أن « مِن » لا يُجَرّ بها الأزمان ، وإنمـا تُجَرّ الأزمان بمنـذ؛ تقول ما رأيته منذ شهر أو سـنةٍ أو يوم ، ولا تقول : من شهر ولا من سنة ولا من يوم . فاذا وقعت فى الكلام وهى يليها زمن فيقدّر مضمر يليق أن يُجَرّ بمن؛ كما ذكرنا فى تقدير البيت . ابن عطية . ويحسن عندى أن يستغنى فى هـذه الآية عن تقدير، وأن تكون « مِن » تجر لفظة « أوّل » لأنها بمعنى البداءة ؛ كأنه قال : من مبتدأ الأيام .

السادســـة ــ قوله تعـالى : ﴿ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾ أى بأن تقوم ؛ فهو فى موضـع نصب . «وأحق» هو أفعل من الحق، وأفعل لا يدخل إلا بين شيئين مشتركين، لأحدهما فى المعنى الذى اشتركا فيه مَزِيّة على الآخر؛ فمسجد الضّرار وإن كان باطلا لا حقّ فيه ، فقد اشـتركا فى الحق من جهة اعتقاد بانيه ، أو من جهة اعتقاد من كان يظن أن القيام فيه جائز للسجدية؛ لكن أحد الاعتقادين باطل باطنا عنـد الله، والآخر حق باطنا وظاهرا ؛ ومثل هذا قوله تعـالى : « أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا » ومعلوم أن الخيريّة من النار مبعودة، ولكنه جرى على اعتقاد كل فرقة أنها على خير وأن مصيرها إليه خير؛ إذ كل حزب بمـا لديهم فرحون . وليس هذا من قبيل : العسل أحلى من الخل؛ فان العسل وإن كان حلوا فكل شيء ملائم فهو حلو؛ ألا ترى أن من الناس من يقدم الخل على العسل مفردا بمفرد ومضافا إلى غيره بمضاف .

السابعـــة ــ قوله تعالى : (فِيهِ) من قال : إن المسجد يراد به مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم فالهاء فى « أحقّ أن تقوم فيه » عائد إليه، و « فيه رجال » له أيضا . ومن قال : إنه مسجد قباء ، فالضمير فى « فيه » عائد إليه على الخلاف المتقدم .

الثامنـــة ــ أثنى الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية على من أحبّ الطهارة وآثر النظافة، وهى مُروءة آدمية ووظيفة شرعية؛ وفى الترمذيّ عن عائشة أنها قالت : مُرْنَ أزواجكنّ أن يستطيبوا بالمـاء فإنى أستحييهم . قال : حديث صحيح . وثبت أن النبيّ صلى الله عليه وسلم

كان يحمل المـاء معه فى الاستنجاء، فكان يستعمل الحجارة تخفيفا والمـاء تطهيرا. ٱبن العربى : وقد كان علماء القيروان يتخذون فى متوضآتهم أحجارا فى تراب ينقون بها ثم يستنجون بالمـاء.

التاســـعة ـــ اللازم من نجـاسة المخرج التخفيف ، وفى نجاسة سائر البـدن والثوب التطهير . وذلك رخصة من الله لعباده فى حالتى وجود المـاء وعدمه؛ وبه قال عامّة العلماء . وشذّ ابن حبيب فقـال : لا يستجمر بالأحجار إلا عند عدم المـاء . والأخبار الثابتـة فى الاستجمار بالأحجار مع وجود المـاء تردّه .

العاشـــرة ـــ واختلف العلماء من هـذا الباب فى إزالة النجاسة من الأبدان والثياب، بعد إجماعهم على التجاوز والعفو عن دم البراغيث مالم يتفاحش على ثلاثة أقوال : الأول ـــ أنه واجب فرض، ولا تجوز صلاة من صلّى بثوب نجس عالمـا كان بذلك أو ساهيا؛ روى عن ٱبن عباس والحسن وابن سيرين، وهو قول الشافعى وأحمد وأبى ثور، ورواه ٱبن وهب عن مالك، وهو قول أبى الفرج المـالكى والطبرى؛ إلا أن الطبرى قال : إن كانت النجاسة قدر الدرهم أعاد الصلاة. وهو قول أبى حنيفة وأبى يوسف فى مراعاة قدر الدرهم قياسا على حلقة الدبر . وقالت طائفة : إزالة النجاسة واجبة بالسنة من الثياب والأبدان، وجوبَ سنة وليس بفرض . قالوا : ومن صلى بثوب نجس أعاد الصلاة فى الوقت فإن خرج الوقت فلا شىء عليه ؛ هـذا قول مالك وأصحابه إلا أبا الفرج، ورواية ٱبن وهب عنـه . وقال مالك فى يسير الدم : لا تعاد منه الصلاة فى وقت ولا بعده، وتعاد من يسير البول والغائط ؛ ونحو هذا كله من مذهب مالك قولُ اللّيث . وقال ٱبن القاسم عنه : تجب إزالتها فى حالة الذكر دون النسيان؛ وهى من مفرداته . والقول الأوّل أصح إن شاء الله ؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم مرّ على قبرين فقال : "إنهما ليعذّبان وما يعذّبان فى كبير أمّا أحدهما فكان يمشى بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله". الحديث، خرّجه البخارىّ ومسلم، وحَسْبُك . وسيأتى فى سورة « سبحان »(1) . قالوا : ولا يعـذّب الإنسان إلا على ترك واجب؛ وهـذا ظاهر .

(١) فى قوله تعالى : « وإن من شىء الا يسبح بحمده ... » آية ٤٤

وروى أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "أكثر عذاب القبر في البول" . احتج الآخرون بخلع النبيّ صلى الله عليه وسلم نعليه في الصلاة لما أعلمه جبريل عليه السلام أن فيهما قذرا وأذًى ... الحديث . خرّجه أبو داود وغيره من حديث أبي سعيد الخُدْريّ، وسيأتي في سورة « طه » (١) إن شاء الله تعالى . قالوا : ولمّا لم يُعِد ما صلى دل على أن إزالتها سنة وصلاته صحيحة، ويعيد ما دام في الوقت طلبا للكمال . والله أعلم .

الحادية عشرة — قال القاضي أبو بكر بن العربي : وأما الفرق بين القليل والكثير بقدر الدرهم البغليّ (٢) ؛ [يعني كبار الدراهم التي هي على قدر استدارة الدينار] (٣) قياسا على المَسْرُبة (٤) ففاسد من وجهين ؛ أحدهما — أن المقدرات لا تثبت قياسا فلا يقبل هذا التقدير . الثاني — أن هذا الذي خُفف عنه في المَسْرُبة رخصة للضرورة، والحاجة والرخص لا يقاس عليها ؛ لأنها خارجة عن القياس فلا تُرَدّ إليه .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (١٠٩)

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ﴾ أي أصّل، وهو استفهام معناه التقرير . و« مَن » بمعنى الذي، وهي في موضع رفع بالابتداء، وخبره « خير » . وقرأ نافع وابن عامر وجماعة « أُسِّسَ بُنْيَانُه » على بناء أسّس للفعول ورفع بنيان فيهما . وقرأ ابن كَثير وأبو عمرو وحمزة والكسائيّ « أَسَّس بنيانَه » على بناء الفعل للفاعل ونصب بنيانه فيهما، وهي اختيار أبي عبيد لكثرة من قرأ به ، وأن الفاعل سمّي فيه . وقرأ نصر بن عاصم وابن عليّ « أفمن

(١) في المسألة الثانية من قوله تعالى : « فاخلع نعليك انك بالوادي المقدس طوى » آية ١٢

(٢) دراهم ضربها رأس البغل لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه . (٣) زيادة عن ابن العربي .

(٤) المسربة (بفتح الراء وضمها) : مجرى الحدث من الدبر، يريد أعلى الحلقة .

أَسَسُ» بالرفع «بُنيانِه» بالخفض . وعنه أيضا « أساس بنيانه » وعنه أيضا « أُسُّ بنيانِه » بالخفض . والمراد أصول البناء كما تقـدم . وحكى أبو حاتم قراءة سادسة وهى « أفمن آساس بنيانه » . قال النحاس : وهذا جمع أُسّ؛ كما يقال : خف وأخفاف، والكثير « إساس » مثل خِفاف . قال الشاعر :

أصبح المُلْك ثابت الآساس * فى البَهاليــل من بنى العَبّاس[1]

الثانيــة — قوله تعـالى : ﴿ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ ﴾ قراءة عيسى بن عمـر — فيما حكى سيبويه — بالتنوين، والألف ألف إلحاق كألف تَتْرًى فيما نُوِّن، وقال الشاعر[2] :

* يَسْـتَنُّ فى عَلْقًى وفى مُكُورِ[2] *

وأنكر سيبويه التنوين، وقال : لا أدرى ما وجهه . ﴿ عَلَى شَفَا ﴾ الشفا : الحرف والحدّ، وقد مضى فى « آل عمران »[3] مستوفًى . و ﴿ جُرُف ﴾ قرئ برفع الراء، وأبو بكر وحمزة بإسكانها؛ مثل الشُّغُل والشُّغْل ، والرُّسُل والرُّسْل، يعنى جُرُفًا ليس له أصل. والجُرُف : ما يُتجرّف بالسيول من الأودية، وهو جوانبه التى تنحفر بالمـاء، وأصله من الجَـرْف والاجتراف؛ وهو اقتــلاع الشىء من أصله . ﴿ هَارٍ ﴾ ساقط ؛ يقال : تهوّر البناء إذا سقط ، وأصله هائر، فهو من المقلوب يقلب وتؤخر ياؤها ، فيقال : هارٍ وهائر، قاله الزجاج . ومثله لاثَ الشىءُ به إذا دار؛ فهو لاثٍ أى لائث . وكما قالوا : شاكى السلاح وشائك . قال العجاج :

* لاثٍ به الأشاء والعُـبْرِىّ *

الأشاء النخل ، والعُبْرِىّ السِّدْر الذى على شاطىء الأنهار . ومعنى لاث به مُطيف به . وزعم أبو حاتم أن الأصل فيــه هاور، ثم يقال هائر مثل صائم، ثم يقلب فيقال هارٍ . وزعم الكسائى أنه من ذوات الواو ومن ذوات الياء، وأنه يقال : تهور وتهير .

قلت : ولهذا يمـال و يفتح .

---

(١) راجع هذا البيت وشرحه فى الأغانى جـ ٤ ص ٣٤٤ طبع دار الكتب المصرية . (٢) هو العجاج . وصف ثورا يرتعى فى ضروب من الشجر؛ والعلق والمكور: ضربان من الشجر . ومعنى يستن: يرتعى ، وستّ الماشية رعيها . (عن شرح الشواهد) . (٣) راجع جـ ٤ ص ١٦٤ طبعة أولى أو ثانية .

الثالثــة — قوله تعـالى . ﴿ فَٱنْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ فاعل آنهار الجُرُف؛ كأنه قال : فانهار الجرف بالبنيان فى النار؛ لأن الجرف مذكر . ويجوز أن يكون الضـمير فى به يعود على مَن وهو البانى؛ والتقدير : فانهار من أسس بنيانه على غير تقوى . وهـذه الآية ضربُ مثـلٍ لهم، أى من أسس بنيانه على الإســلام خير أمْ منّ أسس بنيانه على الشرك والنفاق . وبيّن أن بناء الكافر كبناء على جُرُف جهنم يتهوّر بأهله فيها . والشَّفا : الشفير . وأشفى على كذا أى دنا منه .

الرابعــة — فى هذه الآية دليل على أن كل شىء ابتدئ بنيّة تقوى الله تعالى والقصــد لوجهه الكريم فهو الذى يبقى ويَسْـعَد به صاحبه ويصـعد إلى الله ويرفع إليه، ويخبر عنه بقوله : « وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَـلَالِ والْإِكْرَامِ » على أحد الوجهين . ويخبر عنه أيضا بقوله : « وَٱلْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ » على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

الخامســة — واختلف العلمـاء فى قوله تعالى : ﴿ فَٱنْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ هل ذلك حقيقة أو مجاز على قولين ؛ الأوّل — أن ذلك حقيقة وأن النبىّ صلى الله عليه وسلم إذ أرسل إليه فهدم رؤى الدّخان يخرج منه ؛ من رواية سعيد بن جُبير . وقال بعضهم : كان الرجل يُدخل فيه سعفة من سعف النخل فيخرجها سوداء محترقة . وذكر أهل التفسير أنه كان يُحفر ذلك الموضع الذى انهار فيخرج منه دخان . وروى عاصم بن أبى النَّجُود عن زِرّ بن حُبيش عن آبن مسعود أنه قال : جهنم فى الأرض ، ثم تلا « فآنهار به فى نار جهنم » . وقال جابر ابن عبدالله : أنا رأيت الدخان يخرج منه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . والثانى — أن ذلك مجاز ، والمعنى : صار البناء فى نار جهنم ، فكأنه انهـار إليه وهَوَى فيه؛ وهـذا كقوله تعالى : « فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ » . والظاهر الأوّل ، إذ لا إحالة فى ذلك . والله أعلم .

قوله تعـالى : لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا ﴾ يعنى مسجد الضّرار . ﴿ رِيبَةً ﴾ أى شــكا فى قلوبهم ونفاقا؛ قاله ٱبن عباس وقتادة والضحاك . وقال النابغة :

حلفتُ فلم أترك لنفسك رِيبــةً * وليس وراء الله للمرء مَـــذْهَبُ

وقال الكلبي : حسرة وندامة؛ لأنهــم ندموا على بنيانه . وقال السُّــدِّى وحبيب والمبّرد : « رِيبــة » أى حزازة وغيظا . ﴿ إِلَّا أَنْ تَقَطَّع قُلُوبُهُــمْ ﴾ قال ٱبن عباس : اى تنصــدع قلوبهــم فيموتوا؛ كقوله : « لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ »(١) لأن الحياة تنقطع بانقطاع الوتين؛ وقاله قتــادة والضحاك ومجاهد . وقال سفيان : إلا أن يتوبوا . عِكرمة : إلا أن تقطع قلوبهــم فى قبورهم، وكان أصحاب عبد الله بن مسعود يقرءونها : ريبة فى قلوبهم ولو قطعت قلوبهم. وقرأ الحسن ويعقوب وأبو حاتم « إلى أن تقطع » على الغاية ، أى لا يزالون فى شــك منه إلى أن يموتوا فيستيقنوا ويتبّينوا. واختلف القراء فى قوله « تَقَطّع » فالجمهور« تُقَطّع » بضم التاء وفتح القاف وشــد الطاء على الفعل المجهول . وقرأ ٱبن عامر وحمزة وحفص ويعقوب كذلك إلا أنهــم فتحوا التاء . وروى عن يعقوب وأبى عبــد الرحمن « تُقْطَع » على الفعل المجهول مخفّف القاف . وروى عن شــبْل وٱبن كَثير « تَقْطع » خفيفة القاف « قلوبَهم » نصبا ، أى أنت تفعل ذلك بهم . وقد ذكرنا قراءة أصحاب عبــد الله . ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ تقـــدم(٢) .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

---

(١) آية ٤٦ سورة الحـاقة . (٢) راجع جـ١ ص ٢٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

فيـــه ثمـــان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ قيل : هذا تمثيل؛ مثل قوله تعالى : « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ »[1] . ونزلت الآية فى البيعة الثانية، وهى بيعة العقبة الكبرى، وهى التى أناف فيهـا رجال الأنصار على السبعين، وكان أصغرَهم سِنًّا عُقبة بن عمرو؛ وذلك أنهم اجتمعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة، فقال عبد الله بن رَوَاحة للنبيّ صلى الله عليه وسلم : اشترط لربك ولنفسك ما شئت؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " أشترِطُ لربّى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم " . قالوا : فإذا فعلنا ذلك فمـا لنا ؟ قال : "الجنة" قالوا : رَبِح البيع ، لا نُقيل ولا نستقيل؛ فنزلت : «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » الآية . ثم هى بعـد ذلك عامّة فى كل مجاهد فى سبيل الله من أمـة محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة .

الثانيـــة — هذه الآية دليل على جواز معاملة السيد مع عبده، وإن كان الكل للسيد لكن إذا ملّكه عامله فيما جعل إليه . وجائز بين السيد وعبده مالا يجوز بينه وبين غيره؛ لأن ماله له وله انتزاعه .

الثالثـــة — أصل الشراء بين الخلق أن يعوّضوا عما خرج من أيديهم ما كان أنفع لهم أو مثل ما خرج عنهم فى النفع ؛ فاشترى الله سبحانه من العبـاد إتلاف أنفسهم وأموالهم فى طاعته، وإهلاكها فى مرضاته، وأعطاهم سبحانه الجنة عوضا عنها إذا فعلوا ذلك . وهو عوض عظيم لا يدانيـه المعوّض ولا يقاس به، فأجرى ذلك على مجاز ما يتعارفونه فى البيع والشراء، فمن العبـد تسليم النفس والمـال، ومن الله الثواب والنوال؛ فسمى هـذا شراء . وروى الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن فوق كل بِرٍّ بِرٌّ حتى يبذُل العبد دمه فاذا فعل ذلك فلا بِرّ فوق ذلك " . وقال الشاعر :

الجود بالمـال جود فيـه مكرمة * والجود بالنفس أقصى غاية الجود

---

(١) آية ١٦ سورة البقرة .

وأنشد الأصمعى لجعفر الصادق رضى الله عنه :

أُثَامِنُ بالنفس النفيسة ربَّها * وليس لها فى الخلق كلِّهِمُ ثَمَنْ

بها تُشترى الجناتُ ، إن أنا بعتها * بشىء سواها إن ذلكُمُ غَبَنْ

لئن ذهبتْ نفسى بدنيا أصبتُها * لقد ذهبتْ نفسى وقد ذهب الثمن

قال الحسن : ومرّ أعرابىّ على النبىّ صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم » فقال : كلام مَن هذا ؟ قال : "كلام الله" قال : بَيْعٌ والله مُرْبِح لا نُقيله ولا نستقيله . فخرج إلى الغَزْو واستُشْهِد .

الرابعة — قال العلماء : كما اشترى من المؤمنين البالغين المكلَّفين كذلك اشترى من الأطفال فآلمهم وأسقمهم ؛ لما فى ذلك من المصلحة وما فيه من الاعتبار للبالغين ، فإنهم لا يكونون عند شىء أكثر صلاحا وأقلَّ فسادا منهم عند ألم الأطفال ، وما يحصل للوالدين الكافلين من الثواب فيما ينالهم من الهَمّ ويتعلق بهم من التربية والكفالة . ثم هو عز وجل يعوّض هؤلاء الأطفال عِوَضا إذا صاروا إليه . ونظير هذا فى الشاهد أنك تكترى الأجير لِيَبْنِىَ وينقل التراب وفى كل ذلك له ألم وأذًى ، ولكن ذلك جائز لما فى عمله من المصلحة ولما يصل إليه من الأجر .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ بيان لما يقاتَل له وعليه ؛ وقد تقدم . ﴿ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ قرأ النَّخَعِىّ والأعمش وحمزة والكِسائى وخَلَف بتقديم المفعول على الفاعل ؛ ومنه قول آمرئ القيس :

* فإن تَقتلونا نُقَتِّلكم ... *

أى إن تقتلوا بعضنا يقتلكم بعضنا . وقرأ الباقون بتقديم الفاعل على المفعول .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ إخبار من الله تعالى أن هذا كان فى هذه الكتب ، وأن الجهاد ومقاومة الأعداء أصله من عهد موسى عليه السلام . و « وعْدًا » و « حَقًّا » مصدران مؤكِّدان .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْـدِهِ مِنَ اللهِ ﴾ أى لا أحدَ أوفى بعهده من الله . وهو يتضمّن الوفاء بالوعد والوعيـد ، ولا يتضمن وفاء البـارئ بالكل ؛ فأما وعده فللجميع ، وأما وعيده فمخصوص ببعض المـذنبين وببعض الذنوب وفى بعض الأحوال . وقد تقدّم هذا المعنى مستوفًى .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ ﴾ أى أظهروا السرور بذلك . والبشارةُ إظهارُ السرور فى البَشَرة . وقد تقـدم[1] . وقال الحسن : واللهِ ما على الأرض مؤمن إلا يدخل فى هذه البيعة . ﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أى الظفر بالجنة والخلود فيها .

قوله تعـالى : ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْأَـٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّـٰاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ ﴾ التائبون هم الراجعون عن الحالة المذمومة فى معصية الله إلى الحالة المحمودة فى طاعة الله . والتائب هو الراجع . والراجع إلى الطاعة هو أفضل من الراجع عن المعصية لجمعه بين الأمرين . ﴿ الْعَابِدُونَ ﴾ أى المطيعون الذين قصدوا بطاعتهم الله سبحانه . ﴿ الْحَامِدُونَ ﴾ أى الراضون بقضائه المصرفون نعمته فى طاعته ، الذين يحمدون الله على كل حال . ﴿ السَّائِحُونَ ﴾ الصائمون ؛ عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما . ومنه قوله تعـالى : « عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ »[2] . وقال سفيان بن عُيينة : إنمـا قيل للصائم سائح لأنه يترك اللذات كلّها من المطعم والمشرب والنكاح . وقال أبو طالب :

وبالسائحين لا يذوقون قطرة * لربّهـم والذاكرات العوامل

(١) راجع جـ ١ ص ٢٣٨ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٥ سورة التحريم .

وقال آخـــر :

برًّا يصـــلّى ليـــله ونهـــاره * يَظَلّ كثيرَ الذكر لله سائحا

وروى عن عائشة أنها قالت : سياحة هذه الأمة الصيامُ؛ أسنده الطبرى . ورواه أبو هريرة مرفوعا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سياحة أمتى الصيام " . قال الزجاج : ومذهب الحسن أنهم الذين يصومون الفرض . وقد قيل : إنهم الذين يديمون الصيام . وقال عطاء : السائحون المجاهدون . وروى أبو أُمامة أن رجلا آستأذن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى السياحة فقال : " إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله " . صححه أبو محمد عبد الحق . وقيل : السائحون المهاجرون ؛ قاله عبد الرحمن بن زيد . وقيل : هم الذين يسافرون لطلب الحديث والعلم؛ قاله عكرمة . وقيل : هم الجائلون بأفكارهم فى توحيد ربهم وملكوته ، وما خلق من العبر والعلامات الدالة على توحيده وتعظيمه ؛ حكاه النقاش . وحُكى أن بعض العُبّاد أخذ القدح ليتوضأ لصلاة الليل فأدخل أصبعه فى أذن القدح وقعد يتفكر حتى طلع الفجر؛ فقيل له فى ذلك فقال : أدخلت أصبعى فى أذن القدح فتذكرت قول الله تعالى : « إذ الأغْلَالُ فى أَعْنَاقِهِمْ والسَّلاسِلُ »[1] وذكرت كيف أتلقى الغُلّ وبقيت ليلى فى ذلك أجمع .

قلت : لفظ «سَيح» يدل على صحة هذه الأقوال؛ فإن السياحة أصلها الذهاب على وجه الأرض كما يسيح الماء ؛ فالصائم مستمر على الطاعة فى ترك ما يتركه من الطعام وغيره، فهو بمنزلة السائح . والمتفكرون تجول قلوبهم فيما ذُكر . وفى الحديث : " إن لله ملائكة سياحين مشّائين فى الآفاق يبلغوننى صلاة أمتى " ويروى " صياحين " بالصاد، من الصياح . ﴿ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ ﴾ يعنى فى الصلاة المكتوبة وغيرها . ﴿ الآمِرُونَ بالمَعْرُوفِ ﴾ أى بالسُّنّة، وقيل بالإيمان. ﴿ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ قيل عن البِدْعة. وقيل عن الكفر. وقيل : هو عموم فى كل معروف ومنكر . ﴿ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ ﴾ أى القائمون لما أمر به والمنتهون عما نهى عنه .

(١) آية ٧١ سورة غافر .

الثانيـــة — واختلف أهل التأويل فى هذه الاية، هل هى متصلة بمـا قبلُ أومنفصلة ؛ فقال جماعة : الآية الأولى مستقلة بنفسها ؛ يقع تحت تلك المبايعة كلُّ موحِّد قاتل فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا، و إن لم يتصف بهذه الصفات فى هذه الآية الثانية أو بأكثرها. وقالت فرقة : هـذه الأوصاف جاءت على جهـة الشرط، والآيتان مرتبطتان؛ فلا يدخل تحت المبايعة الا المؤمنون الذين هم على هـذه الأوصاف و يبذلون أنفسهم فى سبيل الله؛ قاله الضحاك . قال ابن عطية : وهذا القول تحريج وتضييق ، ومعنى الآية على ما تقتضيه أقوال العلمـاء والشرع أنها أوصاف الكَمَلَة من المؤمنين، ذكرها الله ليستبق إليها أهل التوحيد حتى يكونوا فى أعلى مرتبـة . وقال الزجاج : الذى عنـدى أن قوله « التائبون العابدون » رفع بالابتـداء وخبره مضمر؛ أى التائبون العابدون — إلى آخر الآية — لهم الجنـة أيضا و إن لم يجاهدوا ، إذا لم يكن منهم عناد وقصـد إلى ترك الجهاد ؛ لأن بعض المسلمين يَجزى عن بعض فى الجهاد . واختار هذا القول القشيرىّ وقال : وهذا حسن؛ إذ لو كان صفة للؤمنين المذكورين فى قوله : « اشترى من المؤمنين » لكان الوعد خاصا للجاهدين . وفى مصحف عبـد الله « التائبـين العابدين » إلى آخرها ؛ ولذلك وجهان : أحدهما الصـفة للؤمنين على الإتباع . والثانى النصب على المدح .

الثالثـــة — واختلف العلماء فى الواو فى قوله : ﴿ وَالنَّاهُونَ عنِ الْمُنكرِ ﴾ فقيل: دخلت فى صفة الناهين كما دخلت فى قوله تعالى : « حـــمٓ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ العزِيزِ الْعلِيمِ . غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ» فذكر بعضها بالواو والبعض بغيرها . وهذا سائغ معتاد فى الكلام ولا يُطلب لمثله حكمة ولا علّة . وقيل : دخلت لمصاحبة الناهى عن المنكر الآمر بالمعروف فلا يكاد يذكر واحد منهما مفردا . وكذلك «ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكاراً»(1) . ودخلت فى «والحافِظُونَ» لقربه من المعطوف . وقد قيل : إنها زائدة، وهـذا ضعيف لا معنى له . وقيل : هى واو الثمانية، لأن السبعة عند العرب عدد كامل صحيح . وكذلك قالوا فى قوله : «ثَيِّبَاتٍ وأبكارا»

---

(1) آية ٥ سورة التحريم .

وقوله فى أبواب الجنـة : « وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا »[1] وقوله : « ويقولون سَبْعَةٌ وثامِنُهُم كلبهم »[2] وقـد ذكرها ابن خَالَوَيْه فى مناظرته لأبى على الفارسى فى معنى قوله : « وفتحت أبوابها » وأنكرها أبو على . قال ابن عطيـة : وحدثنى أبى رضى الله عنـه عن الأسـتاذ النحوى أبى عبـد الله الكفيف المـالِقِىّ، وكان ممن استوطن غَرْناطة وأقرأ فيها فى مدّة ابن حَبُوس أنه قال : هى لغة فصيحة لبعض العرب؛ من شأنهم أن يقولوا إذا عَدّوا : واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة وثمـانية تسعة عشرة؛ وهكذا هى لغتهم . ومتى جاء فى كلامهم أمر ثمـانية أدخلوا الواو . قلت : هى لغة قريش . وسيأتى بيانه ونقضه فى سورة « الكهف »[3] إن شاء الله تعـالى وفى الزمر[4] .

قوله تعـالى : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ روى مسلم عن سـعيد بن المسيِّب عن أبيه قال : لمـا حضرت أبا طالب الوفاةُ جاءه رسول الله صـلى الله عليه وسلم فوجد عنـده أبا جهل وعـبدَ الله بن أبى أميّـة ابن المغيرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا عَمِّ، قل لا إله إلا الله كلمةً أشهد لك بها عند الله" فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : ياأبا طالب، أترغب عن ملّة عبد المطلب . فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعرضها عليه ويعيـد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخرما كلّمهم : هو على ملة عبـد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " أمَا واللهِ لأسـتغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك " فأنزل الله عز وجل « مَا كَانَ للنَّبِىّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أُولِى قُرْبَى من بعد ما تبيّن لهم أنهم أصحاب الجحيم » . وأنزل الله فى أبى طالب فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّك

---

(١) آية ٧٣ سورة الزمر . (٢) آية ٢٢ سورة الكهف . (٣) فى قوله تعالى : «سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ... » آية ٢٢ (٤) فى قوله تعالى : « وسيق الذين اتقوا ربهم ... » آية ٧٣

لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » (١) . فالآية على هذا ناسخة لاستغفار النبيّ صلى الله عليه وسلم لعمه؛ فإنه استغفر له بعد موته على ماروِى فى غير الصحيح . وقال الحسين بن الفضل : وهــذا بعيد ؛ لأن السورة من آخر ما نزل من القرآن، ومات أبو طالب فى عنفوان الإسلام والنبيّ صلى الله عليه وسلم بمكة .

الثانيــة — هذه الآية تضمّنت قطع موالاة الكفار حيّهم وميتهم؛ فان الله لم يجعل للؤمنين أن يستغفروا للشركين؛ فطلبُ الغفران للشرك ممـا لايجوز . فان قيل : فقد صح أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال يوم أُحُد حين كسروا رَبَاعِيَته وشَجّوا وجهه : "اللّهُمّ آغفر لقومى فانهم لا يعلمون" فكيف يجتمع هــذا مع منع الله تعالى رسولَه والمؤمنين من طلب المغفرة للشركين . قيل له : إن ذلك القول من النبيّ صلى الله عليه وسلم إنمـا كان على سبيل الحكاية عمّن تقدمه من الأنبيـاء، والدليل عليه ما رواه مسلم عن عبد الله قال : كأنى أنظر إلى النبيّ صلى الله عليــه وسلم يحكى نبيّا من الأنبيــاء ضربه قومُه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : "رب اغفر لقومى فانهم لا يعلمون" . وفى البخارىّ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ذكر نبيّا قبله شَجّه قومــه فجعل النبيّ صلى الله عليه وسلم يخـبر عنه بأنه قال : "اللّهُمّ اغفــر لقومى فانهم لا يعلمون" .

قلت : وهذا صريح فى الحكاية عمن قبله ، لا أنه قاله ابتداء عن نفسه كما ظنه بعضهم . والله أعلم . والنبيّ الذى حكاه هو نوح عليه السلام؛ على ما يأتى بيانه فى سورة « هود » إن شاء الله . وقيل : إن المراد بالاستغفار فى الآية الصلاةُ . قال بعضهم : ما كنت لأدَعَ الصلاة على أحد من أهل القبـلة ولو كانت حبشيّة حُبلى من الزنى ؛ لأنى لم أسمع الله حجب الصلاة إلا عن المشركين بقوله : « ما كان للنبيّ والذين آمنوا أن يستغفِروا للشركين » الآية . قال عطاء بن أبى رَبَاح : الآية فى النهى عن الصــلاة على المشركين ، والاستغفارُ هنـا يراد به الصلاة . جواب ثالث — وهو أن الاستغفار للأحيـاء جائز؛ لأنه مرجوّ إيمانهم، ويمكن

(١) آية ٥٦ سورة القصص .

تألفهم بالقول الجميل وترغيبهم فى الدّين . وقد قال كثير من العلماء : لا بأس أن يدعُوَ الرجل لأبويه الكافرين ويستغفر لهما ماداما حيين. فأما من مات فقد انقطع عنه الرجاء فلا يُدْعَى له . قال ابن عباس : كانوا يستغفرون لموتاهم فنزلت، فأمسكوا عن الاستغفار ولم ينههم أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا .

الثالثـــة ــ قال أهل المعانى : « ما كان » فى القرآن يأتى على وجهين : على النفى نحو قوله : « مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا »[1] ، « وما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ »[2] . والآخر بمعنى النهى كقوله : « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ »[3] ، و « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين » .

قوله تعـالى : وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى ــ روى النَّسائىّ عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنـــه قال : سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت: أتستغفر لهما وهما مشركان؟ فقال: أو لم يستغفر إبراهيم عليه السلام لأبويه . فأتيت النبىّ صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك فنزلت ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيهِ إلا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾. والمعنى لا حجة لكم أيها المؤمنون فى استغفار إبراهيم الخليل عليه السلام لأبيه؛ فان ذلك لم يكن إلا عن عِدَة . قال ابن عباس : كان أبو إبراهيم وعدَ إبراهيم الخليلَ أن يؤمن بالله ويخلع الأنداد، فلما مات على الكفر علم أنه عدوّ الله، فترك الدعاء له ؛ فالكناية فى قوله : « إياه » ترجع إلى إبراهيم، والواعد أبوه . وقيل : الواعد إبراهيم ؛ أى وعد إبراهيم أباه أن يستغفر له ، فلما مات مشركا تبرّأ منه . ودلّ على هذا الوعد قوله : « سأَسْتَغْفِرُ لك رَبى »[4] . قال القاضى أبو بكر بن العربىّ : تعلق النبىّ صلى الله عليه

---

(١) آية ٦٠ سورة النمل . (٢) آية ١٤٥ سورة آل عمران . (٣) آية ٥٣ سورة الأحزاب .
(٤) آية ٤٧ سورة مريم .

وسلم فى الاستغفار لأبى طالب بقوله تعالى : « سأستغفر لك ربّى » فأخبره الله تعـالى أن استغفار إبراهيم لأبيه كان وعدا قبل أن يتبيّن الكفر منه، فلما تبيّن له الكفر منه تبرأ منه، فكيف تستغفر أنت لعمك يا محمد وقد شاهدت موته كافرا .

الثانيـــة — ظاهر حالة المرء عند الموت يُحكم عليه بها، فان مات على الإيمان حكم له به، وإن مات على الكفر حُكم له به؛ وربّك أعلم بباطن حاله؛ بَيْدَ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال له العباس : يارسول الله، هل نفعت عمّك بشئ ؟ قال : "نعم" . وهذه شفاعة فى تخفيف العذاب لا فى الخروج من النار؛ على ما بيناه فى كتاب « التذكرة » .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ اختلف العلماء فى الأوّاه على خمسة عشر قولا : الأول — أنه الدّعّاء الذى يكثر الدُّعاء؛ قاله ٱبن مسعود وعبيد بن عمـير . الثـانى — أنه الرحيم بعباد الله؛ قاله الحسن وقتادة ، وروى عن ٱبن مسعود . والأول أصح إسنادا عن ٱبن مسعود؛ قاله النحاس . الثـالث — أنه الموقن؛ قاله عطاء وعكرمة، ورواه أبو ظَبيان عن ٱبن عباس . الرابع — أنه المؤمن بلغـة الحبشة ؛ قاله ابن عبـاس أيضا . الخامس — أنه المسـبح الذى يذكر الله فى الأرض القفر الموحشـة؛ قاله الكلبيّ وسـعيد ابن المسيّب. السادس — أنه الكثير الذكر لله تعالى؛ قاله عقبة بن عامر، وذُكر عند النبيّ صلى الله عليه وسلم رجلا يكثر ذكر الله ويسبح فقال : "إنه لأوّاه" . السابع — أنه الذى يكثر تلاوة القرآن . وهذا مروى عن ابن عباس .

قلت : وهذه الأقوال متداخلة وتلاوة القرآن يجمعها . الثامن — أنه المتأوّه؛ قاله أبو ذرّ. وكان إبراهيم عليه السـلام يقول : "آه من النار قبل ألّا تنفـع آه" . وقال أبو ذرّ : كان رجل يكثر الطواف بالبيت ويقول فى دعائه : أَوْهِ أَوْه ؛ فشكاه أبو ذَرّ إلى النبيّ صـلى الله عليه وسـلم فقال : "دعه فإنه أوّاه" فخرجت ذات ليلة فإذا النبيّ صلى الله عليه وسلم يدفن ذلك الرجل ليلا ومعه المصباح . التاسع — أنه الفقيه؛ قاله مجاهد والنَّخَعيّ . العاشر — أنه المتضرع الخاشع؛ رواه عبد الله بن شدّاد بن الهاد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال أنس : تكلمت ٱمرأة عند النبيّ صلى الله عليه وسلم بشىء كرهه فنهاها عمر فقال النبيّ صلى الله عليه

وسلم : " دَعُوها فإنها أوّاهة " قيل : يا رسول الله، وما الأوّاهة ؟ قال : " الخاشعة " .
الحادى عشر — أنه الذى إذا ذكر خطاياه ٱستغفر منها؛ قاله أبو أيوب . الثانى عشر —
أنه الكثير التأوّه من الذنوب؛ قاله الفرّاء . الثالث عشر — أنه المعلّم(١) للخير؛ قاله سعيد
ابن جبير . الرابع عشر — أنه الشفيق؛ قاله عبد العزيز بن يحيى . وكان أبو بكر الصديق
رضى الله عنه يُسمَّى الأوّاه لشفقته ورأفته . الخامس عشر — أنه الراجع عن كل ما يكره الله
تعالى؛ قاله عطاء . وأصله من التأوّه، وهو أن يُسمع للصدر صوت من تنفّس الصُّعَداء .
قال كعب : كان إبراهيم عليه السلام إذا ذكر النار تأوّه . قال الجوهرى : قولهم عند الشكاية
أَوْهِ من كذا (ساكنة الواو) إنما هو توجّع . قال الشاعر :

فأَوْهِ لذكراها إذا ما ذكرتها * ومِن بُعد أرضٍ بيننا وسماء

وربما قلبوا الواو ألفا فقالوا : آهِ من كذا . وربما شدّدوا الواو وكسروها وسكنوا الهاء
فقالوا : أَوِّهْ من كذا . وربما حذفوا مع التشديد الهاء فقالوا : أَوِّ من كذا؛ بلا مد .
وبعضهم يقول : آوَّهْ، بالمد والتشديد وفتح الواو ساكنة الهاء لتطويل الصوت بالشكاية .
وربما أدخلوا فيها التاء فقالوا : أوّتاه؛ يمدّ ولا يمدّ . وقد أوّه الرجل تأويها وتأوّه تأوّها إذا
قال أَوِّهْ . والاسم منه الآهة بالمد . قال المثقّب العبْدِىّ :

إذا ما قمتُ أرحَلُها بليلٍ * تأوّهُ آهةَ الرجلِ الحزينِ

والحليم : الكثير الحلم، وهو الذى يصفح عن الذنوب ويصبر على الأذى . وقيل : الذى لم
يعاقِب أحدا قطُّ إلا فى الله ولم ينتصر لأحد إلا لله . وكان ابراهيم عليه السلام كذلك،
وكان إذا قام يصلى سُمع وجِيبُ(٢) قلبه على ميلين .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

(١) معلم كل شىء : مظنته . (٢) وجيب القلب : خفقانه واضطرابه .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ ﴾ أى ما كان الله ليوقع الضلالة فى قلوبهم بعـد الهُدَى حتى يُبيّن لهم ما يتّقون فلا يتقوه، فعند ذلك يستحقون الإضلال .

قلت : ففى هـذا أدل دليل على أن المعاصى إذا ارتكبت وانتهك حجابهـا كانت سـببا إلى الضلالة والردى، وسُلّما إلى ترك الرشاد والهدى . نسأل الله السداد والتوفيق والرشاد بمنّه . وقال أبو عمرو بن العلاء رحمه الله فى قوله « حتى يبيّن لهم » : أى حتى يحتج عليهم بأمره؛ كما قال : « وإذا أردنا أن نُهلِك قريةً أمَرْنا مُترَفيها ففسقوا فيها »[(١)] وقال مجاهـد : « حتى يبيّن لهم» أى أمر إبراهيم؛ أى لا يستغفروا للشركين خاصّة ويبين لهم الطاعة والمعصية عامّة . وروى أنه لمـا نزل تحريم الخمر وشُدّد فيها سألوا النبيّ صـلى الله عليه وسـلم عمن مات وهو يشربها ، فأنزل الله تعالى « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قوما بعد إذ هداهم حتى يُبيِّنَ لهم ما يتقون » وهذه الآية رد على المعتزلة وغيرهم الذين يقولون بخلق هداهم وإيمـانهم؛ كما تقدّم[(٢)] .

قوله تعـالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[(٣)] تقـدّم معناه غير مرة .

قوله تعـالى : لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

روى الترمـذى حدّثنا عبـد بن حميد حدّثنا عبـد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهرى عن عبـد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيـه قال : لم أتخلف عن النبيّ صـلى الله عليه وسـلم فى غزوة غزاها حتى كانت غزوة تبوك إلا بدرا ، ولم يعاتب النبيّ صلى الله عليه وسلم أحدا تخلّف عن بدر، إنمـا خرج يريد العير فخرجت قريش مُغوِثين لعيرهم، فالتقَوْا عن غير موعدٍ؛

(١) آية ١٦ سورة الاسراء .　　(٢) راجع جـ ١ ص ١٤٩ ، ١٨٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٣) راجع جـ ١ ص ٢٤٩ ، ٢٦١ . و جـ ٢ ص ٦٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

كما قال الله تعالى ؛ ولعمرى إن أشرف مشاهدِ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس لبَدْر، وما أحبّ أنى كنت شهدتُها مكان بيعتى ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، ثم لم أتخلف بعدُ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى كانت غزوة تبوك، وهى آخر غزوة غزاها ، وآذن النبيّ صلى الله عليه وسلم بالرحيل؛ فذكر الحديث بطوله قال : فانطلقت إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فإذا هو جالس فى المسجد وحوله المسلمون ، وهو يستنير كاستنارة القمر، وكان إذا سُرّ بالأمر استنار؛ فجئت فجلست بين يديه فقال : " أبشر يا كعب بن مالك بخير يوم أتى عليك منذ ولدتك أمك" فقلت : يا نبيّ الله، أمن عند الله أم من عندك؟ قال : "بل من عند الله — ثم تلا هذه الآية — " لقد تاب الله على النبيّ والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العُسْرة — حتى بلغ — إن الله هو التواب الرحيم " قال : وفينا أنزلت أيضا « اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » وذكر الحديث . وسيأتى مكمَّلا فى صحيح مسلم فى قصة الثلاثة إن شاء الله تعالى .

واختلف العلماء فى هذه التوبة التى تابها الله على النبيّ والمهاجرين والأنصار على أقوال ؛ فقال ابن عباس : كانت التوبة على النبيّ لأجل إذنه للمنافقين فى القعود؛ دليله قوله : «عفا الله عنك لِمَ أذِنْتَ لهم »(1) وعلى المؤمنين من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عنه . وقيل : توبة الله عليهم استنقاذهم من شدة العسرة . وقيل : خلاصهم من نكاية العدوّ، وعبر عن ذلك بالتوبة وإن خرج عن عرفها لوجود معنى التوبة فيه ، وهو الرجوع إلى الحالة الأولى . وقال أهل المعانى : إنما ذُكر النبيّ صلى الله عليه وسلم فى التوبة لأنه لما كان سبب توبتهم ذُكر معهم؛ كقوله « فأن لله خُمُسَه وللرسولِ » .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ أى فى وقت العسرة، والمراد جميع أوقات تلك الغزاة ولم يرِد ساعة بعينها . وقيل : ساعة العسرة أشدّ الساعات التى مرت بهم فى تلك الغزاة . والعسرة صعوبة الأمر . قال جابر : اجتمع عليهم عسرة الظَّهْر وعسرة الزاد

(1) آية ٤٣ من هذه السورة .

وعسرة المـاء . قال الحسن : كانت العسرة من المسلمين يخرجون على بعـير يعتقبونه بينهم، وكان زادهم التمر المتسوس والشـعير المتغير والإهالة المنتِنـة[1]، وكان النَّفَر يخرجون ما معهم إلا التمرات بينهم، فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ، ثم يعطيها صاحبه حتى يشرب عليهـا جُرْعة من ماء كذلك حتى تأتى على آخرهم، فلا يبقى على التمـرة إلا النواة ؛ فمضَوْا مع النبيّ صلى الله عليه وسـلم على صدقهم ويقينهم رضى الله عنهم . وقال عمر وقد سـئل عن ساعة العسرة : خرجنا فى قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنـا ستنقطع من العطش ، وحتى أن الرجل لينحر بعيره فيعصر فَرْثه[2] فيشربه ويجعل ما بقى على كبده . فقال أبو بكر : يا رسول الله، إن الله قد عوّدك فى الدعاء خيرا فادع لنا . قال : "أتحب ذلك"؟ قال نعم؛ فرفع يديه فلم يُرجعهما حتى أظلت السماء ثم سكبت فملئـوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جازت العسكر. وروى أبو هريرة وأبو سعيد قالا : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسـلم فى غزوة تبوك فأصاب الناسَ مجاعةٌ وقالوا : يارسول الله، لو أذنت لنـا فنحرنا نواضحنا[3] فأكلنـا وادّهنا . [فقال : رسول الله صـلى الله عليه وسـلم "افعلوا"][4] فجاء عمر وقال : يارسول الله إن فعلوا قلّ الظَّهر، ولكن ٱدْعُهم بفضل أزوادهم فادع الله عليها بالبركة لعل الله أن يجعل فى ذلك . قال "نعم" ثم دعا بنطع[5] فبُسط، ثم دعا بفضـل الأزواد؛ فجعـل الرجل يجىء بكف ذرة، ويجىء الآخر بكف تمر ، ويجىء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شىء يسير . قال أبو هريرة : فحزَرته فإذا هو قـدر رُبضة[6] العنز؛ فدعا رسول الله صلى الله عليه وسـلم بالبركة : ثم قال : "خذوا فى أوعيتكم" فأخذوا فى أوعيتهم حتى والذى لا إله إلا هو ما بقى فى العسكر وعاء إلا ملئوه ، وأكل القوم حتى شبِعوا، وفضلت فضلة فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسولُ الله لا يَلْقَى اللهَ بهما عبدٌ غير شاكٍّ فيهما فيُحجب عن الجنة" . خرّجه مسلم فى صحيحه

(١) الإهالة : الشحم . (٢) الفرث : السرجين (الزبل) ما دام فى الكرش .
(٣) الناضح : البعير يستقى عليه ثم استعمل فى كل بعير وإن لم يحمل المـاء . (٤) زيادة عن صحيح مسلم .
(٥) النطع : بساط من الأديم . (٦) ربضة العنز (بضم الراء وتكسر) : جثتها اذا بركت .

بلفظه ومعناه، والحمد لله . وقال ٱبن عرفة : سُمّى جيشُ تبوك جيشَ العُسرة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نَدَب الناس إلى الغزو فى حَمَارّة القيظ، فغلُظ عليهم وعَسُر، وكان إبّان ابتياع الثمرة . قال : وإنمـا ضُرب المثل بجيش العسرة لأن رسول الله صلى الله عليه وسـلم لم يغز قبله فى عدد مثله؛ لأن أصحابه يوم بدر كانوا ثلثمائة و بضعة عشر، و يوم أُحُد سبعمائة، و يوم خيبر ألفا وخمسمائة، و يوم الفتح عشرة آلاف، و يوم حُنين اثنى عشر ألفا؛ وكان جيشه فى غزوة تبوك ثلاثين ألفا وزيادة، وهى آخر مغازيه . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رجب وأقام بتبوك شـعبان وأياما من رمضان، و بَثّ سراياه وصالح أقواما على الجزية . وفى هـذه الغزاة خلّف عليًّا على المدينـة فقال المنافقون : خلّفـه بُغضا له؛ فخرج خلف النبيّ صـلى الله عليه وسـلم وأخبره، فقال عليه السلام : " أما ترضى ان تكون منى بمنزلة هارون من موسى"؛ وبيّن أن قعوده بأمره عليه السلام يوازى فى الأجر خروجه معه؛ لأن المـدار على أمر الشـارع . وإنمـا قيل لها غزوة تبوك لأن النبيّ صـلى الله عليه وسـلم رأى قوما من أصحابه يَبُوكُون حِسْىَ تبوك، أى يدخلون فيـه القدح ويحركونه ليخرج المـاء، فقال : " ما زلتم تَبُوكُونها بَوْكًا " فسمّيت تلك الغزوة غزوة تبوك . الحسى (بالكسر) ما تنشّـفه الأرض من الرمل، فإذا صار إلى صلابة أمسكتْه، فتحفر عنـه الرملَ فتستخرجه، وهو الاحتساء؛ قاله الجوهرى .

قوله تعـالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ﴾ « قلوب » رفع بيزيغ، عند سيبويه . و يضمر فى « كاد» الحديث تشبيها بكان؛ لأن الخبر يلزمها كما يلزم كان . و إن شئت رفعتها بكاد، ويكون التقدير : من بعد ما كاد قلوب فريق منهم تزيغ . وقرأ الأعمش وحمزة وحفص «يزيغ» بالياء، وزعم أبو حاتم أن من قرأ «يزيغ» بالياء فلا يجوز له أن يرفع القلوب بكاد . قال النحاس : والذى لم يجزه جائز عند غيره على تذكير الجميع . حكى الفرّاء : رَحُب البـلاد وأرحبت، ورَحُبت لغة أهل الحجاز . واختلف فى معنى تزيغ، فقيل : تتلف بالجهد والمشقة والشدة . وقال ٱبن عباس : تعدل — أى تميل — عن الحق فى الممـانعة والنصرة .

وقيـل : من بعد ما هَمّ فريق منهم بالتخلف والعصيان ثم لحِقوا به . وقيل : هموا بالقفول فتاب الله عليهم وأمرهم به .

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ قيل : توبته عليهم أن تدارك قلوبهم حتى لم تزِغ، وذلك سُنّة الحق مع أوليائه إذا أشرفوا على العطب، ووطّنوا أنفسهم على الهلاك أمطر عليهم سحائب الجود فأحيا قلوبهم . وينشد :

منـك أرجو ولستُ أعرف ربًّا * يُرْتَجى منـه بعضُ ما منك أرجو

وإذا اشـتدت الشـدائد في الأر * ض على الخلق فاستغاثوا وعَجُّـوا

وابتليتَ العبـاد بالخوف والجـو * ع وصَرّوا(١) على الذنوب ولَجُّـوا

لم يكن لى سـواك ربِّى ملاذ * فتيقّنتُ أنني بـك أنْجُـو

وقال في حق الثلاثة « ثم تاب عليهم ليتوبوا » فقيل : معنى « ثم تاب عليهـم » أى وفقهم للتوبة ليتوبوا . وقيل : المعنى تاب عليهم؛ أى فسّح لهم ولم يعجل عقابهم ليتوبوا . وقيل : تاب عليهم ليثبتوا على التوبة . وقيل : المعنى تاب عليهم ليرجعوا إلى حال الرضا عنهم . وبالجملة فلولا ما سبق لهم في علمه أنه قضى لهم بالتوبة ما تابوا؛ دليله قوله عليه السلام : " اعمـلوا فكلٌّ مُيَسَّر لمـا خلق له " .

قوله تعـالى : وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَـةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِـمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ قيل : عن التوبة؛ عن مجاهد وأبى مالك . وقال قتادة: عن غزوة تبوك . وحُكى عن محمد بن زيد معنى « خُلِّفوا » تُركوا؛ لأن معنى خلّفت فلانا تركته وفارقته قاعدا عما نهضت فيه . وقرأ عكرمة بن خالد « خَلَفوا » أى أقاموا بعقب

(١) يريد « أصروا » .

رسول الله صلى الله عليه وسلم. ورُوى عن جعفر بن محمد أنه قرأ «خالفوا» . وقيل. «خلفوا» أى أرجئوا وأُخّروا عن المنافقين فلم يُقض فيهم بشىء . وذلك أن المنافقين لم تقبل توبتهم، واعتذر أقوام فقُبل عذرهم، وأخّر النبيّ صلى الله عليه وسلم هؤلاء الثلاثة حتى نزل فيهم القرآن. وهذا هو الصحيح لما رواه مسلم والبخاريّ وغيرهما . واللفظ لمسلم قال كعب : كنا خلفنا أيها الثلاثةُ عن أمر أولئك الذين قَبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له فبايعهم وآستغفر لهم، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى اللهُ فيه؛ فبذلك قال الله عز وجل : « وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا » وليس الذى ذكر الله مما خُلِّفنا تَخَلُّفَنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له وآعتذر إليه فقَبِل منه . وهذا الحديث فيه طول ، هذا آخره(1) .

والثلاثة الذين خُلِّفوا هم : كعب بن مالك ، ومُرارة بن ربيعة العامرِىّ ، وهلال آبن أميّة الوَاقِفِىّ، وكلّهم من الأنصار . وقد خرّج البخارىّ ومسلم حديثَهم؛ فقال مسلم عن كعب بن مالك قال : لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها قطُّ إلا فى غزوة تبوك ، غير أنى قد تخلفت فى غزوة بدر ولم يعاتب أحدا تخلّف عنه، إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يريدون عِير قريش؛ حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أُحِبّ أنّ لى بها مشهدَ بدر، وإن كانت بدرٌ أذْكَرَ فى الناس منها، وكان من خبرى حين تخلّفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك : أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسرَ منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ، واللهِ ما جمعتُ قبلها راحلتين قطّ حتى جمعتهما فى تلك الغزوة؛ فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حر شديد، واستقبل سفرا بعيدا ومفازا ، واستقبل عدوًّا كثيرا؛ فجَلَا للسلمين أمرهم ليتأهّبوا أُهْبَةَ غَزْوهم فأخبرهم بوجهه الذى يريد ، والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير، ولا يجمعهم كتابُ حافظٍ

---

(1) راجع صحيح مسلم كتاب التوبة .

— يريدّ بذلك الدّيوان — قال كعب : فقلّ رجل يريد أن يتغّيب ، يظن أن ذلك سيَخْفَى له مالم ينزل فيه وحى من الله تعالى ، وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمــار والظّلال ؛ فأنا إليها أَصْعر[(١)] ، فتجهز إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ، وطفقت أغدو لكى أتجهز معهــم فأرجع ولم أقض شــيئا ، وأقول فى نفسى : أنا قادر على ذلك إذا أردت ! فلم يزل ذلك يتمــادى بى حتى استمر بالناس الجدّ ، فأصبــح رســول الله صلى الله عليه وســلم غازيا والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شــيئا ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شــيئا ، فلم يزل كذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو ؛ فهَمَمْت أن أرتحل فأُدركَهم ، فياليتنى فعلتُ ! ثم لم يقــدّر ذلك لى فطفِقت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزُنُنِى أنّى لا أرى لى أسوةً إلا رجلا مغْمُوصا[(٢)] عليه فى النفاق ، أو رجلا ممن عَذَر اللهُ من الضعفاء ، ولم يذكرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : "ما فعل كعب بن مالك" ؟ فقال رجل من بنى سَلِمة : يا رسول الله ، حبســه برداه والنظر فى عطْفيــه[(٣)] . فقال له معاذ بن جبل : بئس ما قلت ! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا . فسكت رسول الله صلى الله عليه وســلم ؛ فبينما هو على ذلك رأى رجلا مُبيِّضًا[(٤)] يزول به السّراب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وســلم : "كن أبا خَيْثمــة" ؛ فإذا هو أبو خيثمة الأنصارىّ ، وهو الذى تصــدق بصاع التمر حتى لمَزَه المنافقون . فقال كعب بن مالك : فلمــا بلغنى أن رسول الله صــلى الله عليه وسلم قد توجه قافلا من تبوك حضرنى بَثّى ، فطفِقت أتذكر الكذب وأقول : بم أخرج من سَخطــه غدا ، وأستعين على ذلك كلَّ ذى رأى من أهلى ؛ فلمــا قيل لى : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظلّ قادما زاح عنى الباطل حتى عرفت أنى لن أنجو منه بشىء أبدا ، فأجمعت صِدْقه ، وصبّح رسول الله صلى الله عليه وســلم قادما ، وكان إذا قدِم من ســفر بدأ بالمسجد فركع فيه

---

(١) أى أميل . (٢) أى مطعونا عليه فى دينه ، متهما بالنفاق . (٣) هذا كناية عن كونه معجبا بنفسه ، ذا زهو وتكبر . (٤) المبيض (بكسر الياء) : لابس البياض . والسراب : ما يظهر فى الهواجر فى البرارى كأنه المــاء . و يزول أى يتحرك .

ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلا ، فقبِل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووَكَل سرائرهم إلى الله ، حتى جئت فلما سلّمت تبسم تبسُّم المُغْضَب ، ثم قال : "تعال" فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لى : "ما خلّفك ألم تكن قد ٱبتعت ظهرك" ؟ قال : قلت يارسول الله ، إنى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سَخَطه بعذر ، ولقد أُعطِيتُ جَدَلا (١) ، ولكنى والله لقد علمت لئن حدّثتك اليومَ حديثَ كذب تَرْضَى به عنى لَيُوشِكَنّ اللهُ أن يسخطك علىّ ، ولئن حدّثتك حديث صدق تجِد علىّ (٢) فيه إنّى لأرجو فيه عُقْبَى الله ، والله ما كان لى عذر ، والله ما كنت قطُّ أقْوَى ولا أيسرَ منّى حين تخلّفت عنك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أمّا هذا فقد صدق فقُمْ حتى يقضِيَ اللهُ فيك" . فقمت وثار (٣) رجال من بنى سَلِمة فاتبعونى فقالوا لى : والله ما علمناك أذنبت ذنبا قبل هذا ! لقد عَجَزْت فى ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به إليه المتخلّفون ، فقد كان كافيك ذنبَك استغفارُ رسول الله صلى الله عليه وسلم لك ! . قال : فوالله ما زالوا يؤنّبونى حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكذّب نفسى . قال : ثم قلت لهم هل لَقِيَ هذا معِى من أحد ؟ قالوا : نعم ! لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك . قال قلت : من هما ؟ قالوا : مُرارة بن ربيعة العامرىّ وهلال بن أمية الواقفىّ . قال : فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة ؛ قال : فمضيت حين ذكروهما لى . قال : ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيّها الثلاثةُ من بين من تخلّف عنه . قال فاجتنبَنا الناسُ ، وقال : تغيّروا لنا ، حتى تنكّرت لى فى نفسى الأرضُ ، فما هى بالأرض التى أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ؛ فأمّا صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشَبَّ القومِ وأجْلَدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد ، وآتى

(١) أى فصاحة وقوة كلام بحيث اخرج من عهدة ما ينسب إلىّ بما يقبل ولا يرد . (٢) تجد : تغضب .
(٣) أى وثبوا على .

رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فأسلّم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة، فأقول فى نفسى : هل حرّك شفتيه برد السلام أم لا ! ثم أصلى قريبا منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلىّ وإذا التفت نحوه أعرض عنى ، حتى إذا طال ذلك علىّ من جَفْوة المسلمين مَشَيْتُ حتى تسوّرت جدار حائط أبى قتادة ، وهو ابن عمّى وأحبّ الناس إلىّ فسلّمت عليه ، فوالله ما ردّ علىّ السلام ، فقلت له : يا أبا قتادة أنْشُدُك بالله ! هل تعلَمَنّ أنى أحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت ، فعُدت فناشدته فسكت ، فعدت فناشدته فقال : الله ورسوله أعلم ! ففاضت عيناى ، وتولّيت حتى تسوّرت الجدار ، فبينا أنا أمشى فى سوق المدينة إذا نَبَطىٌّ من نَبَط أهل الشام ممن قَدِم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك؟ قال : فطفِق الناس يُشيرون له إلىّ حتى جاءنى فدفع إلىّ كتابا من مَلِك غَسّانَ ، وكنت كاتبا فقرأته فإذا فيه : أما بعد ! فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هَوَانٍ ولا مَضْيَعَة فالْحَقْ بنا نُواسِك . قال فقلت حين قرأتها : وهذه أيضا من البلاء ! فتيامَمت بها التنُّورَ فَسَجَرْتُه بها(١) ، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوَحْىُ إذا رسول(٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتينى فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك . قال فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال : لا ، بل اعتزِلها فلا تقربَنّها . قال : فأرسل إلى صاحِبَىّ بمثل ذلك . قال فقلت لامرأتى : الْحَقِى بأهلك ، فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر . قال : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالت له : يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخْدُمَه ؟ قال : " لا ولكن لا يقربَنّك " فقالت : إنه والله ما به حركة إلى شىء ! ووالله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . قال : فقال بعض أهلى لو استأذنتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى امرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدُمَه . قال فقلت : لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يُدرينى ماذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا

(١) أى أوقدته بالصحيفة . (٢) قال الواقدى : هذا الرسول هو خزيمة بن ثابت .

استأذنته فيها وأنا رجل شاب ! قال : فلبثت بذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نُهِيَ عن كلامنا . قال : ثم صلّيت صلاة الفجر صباحَ خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله منا قد ضاقت عليّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رَحُبت سمعت صوت صارخ أوفَى على سَلْعٍ(١) يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبْشِر . قال : فخَرَرْت ساجدا، وعرفت أن قد جاء فرج . قال : فآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناسَ بتوبة الله علينا حين صلّى صلاة الفجر؛ فذهب الناس يبشروننا، فذهب قِبل صاحبَيّ مُبَشِّرون، وركض رجل إليّ فرسا، وسعَى ساعٍ من أسْلَم قِبَلي وأوْفَى الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس؛ فلما جاءني الذي سمعتُ صوته يبشّرني نزعت له ثوبيّ فكسوته إياهما ببشارته، واللهِ ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما؛ فانطلقت أتأمّم رسول الله صلى الله عليــه وسلم؛ فتلقانى الناس فوجا فوجا، يهنئوننى بالتوبة ويقولون : لِتَهْنِئْكَ توبةُ الله عليك، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحوله الناس؛ فقام طلحة بن عبيد الله يُهرول حتى صافحني وهنأني، واللهِ ما قام رجل من المهاجرين غيرُه . قال : فكان كعبٌ لا ينساها لطلحة . قال كعب : فلما سلّمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يَبْرُق وجهه من السرور ويقول : "أبشِر بخيرِ يومٍ مرّ عليك منذ ولدتك أمّك" . قال : فقلت أمن عند الله يا رسول الله أم من عندك؟ قال : "لا بل من عند الله" . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سُرّ استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعةُ قمر . قال : وكنا نعرف ذلك . قال : فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله، إن من توبة الله عليّ أن أنخلع من مالى صدقةً إلى الله وإلى رسوله؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أمسك عليك بعضَ مالك فهو خير لك" . قال فقلت : فإنى أمسك سَهْمِيَ الذي بخَيْبر . قال وقلت : يا رسول الله، إن الله إنما أنجانى بالصدق، وإن من توبتي ألا أحَدِّث إلا صدقا ما بَقِيت . قال : فوالله ما علمت أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرتُ

---

(١) أى أشرف على جبل سلع . قال الواقدى : هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا أحسنَ ممـا أبلانى الله به، والله ما تعمّدت كَذِبة منذ قلتُ ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا، وإنى لأرجو الله أن يَحفظنى فيما بَقِىَ؛ فأنزل الله عز وجل : « لقد تاب الله على النبيّ والمهاجِرين والأنصارِ الذين ٱتبعوه فى ساعةِ العُسْرةِ — حتى بلغ — إنه بِهم رءوف رحِيم . وعلى الثلاثةِ الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بِمـا رَحُبَت وضاقت عليهم أنفسهم — حتى بلغ — اتقوا ٱلله وكونوا مع الصادِقِين » . قال كعب : واللهِ ما أنعم الله علىّ من نعمة قطُّ بعد إذ هدانى الله للإسلام أعظمَ فى نفسى من صدق رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ألّا أكون كَذَبْتُه فأهْلِكَ كما هلك الذين كذبوا ، إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوَحْىَ شَرّ ما قال لأحد، وقال الله تعـالى : «سَيحْلِفُونَ بِاللهِ لكم إذا ٱنقلبتم إليهم لِتُعْرِضوا عنهم فأعْرِضوا عنهم إنهم رِجْسٌ ومأواهم جهنم جزاء بِمـا كانوا يكسِبون . يحلِفون لكم لِتَرْضَوْا عنهم فإن تَرْضَوْا عنهـم فإن الله لا يرضى عنِ القــومِ الفاسِقِين » . قال كعب : كنا خَلِّفْنا أيهـا الثلاثةُ عن أمرِ أولئك الذين قَبِل منهـم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حَلَفُوا له فبايَعهم وٱستغفرَ لهم ، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسـلم أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله عز وجل : « وعلى الثلاثة » ، وليس الذى ذكر الله ممـا خُلِّفْنا تَخَلُّفَنا عن الغزو، وإنمـا هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له وٱعتذر إليه فقَبِل منه .

قوله تعـالى : ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَـا رَحُبَتْ ﴾ أى بمـا ٱتسعت؛ يقال : منزل رَحْب ورحِيب ورُحاب . و « ما » مصدرية ؛ أى ضاقت عليهم الأرض برَحْبهـا، لأنهم كانوا مهجورين لا يعامَلون ولا يكلَّمون . وفى هذا دليل على هِجران أهل المعاصى حتى يتوبوا .

قوله تعالى : ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ أى ضاقت صدورهم بالهمّ والوحشة ، وبمـا لقوه من الصحابة من الجَفْوة . ﴿ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْـهِ ﴾ أى تيقّنوا أن لا ملجأ يلجئون إليه فى الصفح عنهم وقبول التوبة منهم إلا إليه . قال أبو بكر الورّاق : التوبة النصوح أن تضيق على التائب الأرض بمـا رَحُبت ، وتضيق عليه نفســه ؛ كتوبة كعب وصاحبيه .

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ فبدأ بالتوبة منه . قال أبو زيد : غَلِطت فى أربعـة أشياء : فى الابتداء مع الله تعـالى، ظننت أنى أحبّه فإذا هو أحبّنى؛ قال الله تعـالى: « يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ » . وظننت أنى أرضى عنه فإذا هو قد رضِىَ عنى؛ قال الله تعالى : « رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ » . وظننت أنى أذكره فإذا هو يذكرنى؛ قال الله تعـالى : « وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ » . وظننت أنى أتوب فإذا هو قد تاب علىّ؛ قال الله تعالى : « ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا » . وقيل : المعنى ثم تاب عليهم ليثبتوا على التوبة؛ كما قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا آمِنوا »[1] . وقيل : أى فسح لهم ولم يعجل عقابهم كما فعل بغيرهم؛ قال جل وعز : « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ»[2] .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾

فيــه مسألتان :

الأولى ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ هذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذُهب بهم عن منازل المنافقين . قال مُطَرِّف : سمعت مالك بن أنس يقـول : قلما كان رجـل صادقا لا يكذب إلا مُتِّع بعقـله ولم يصبه ما يصيب غيره من الهرم والخرف .

واختلف فى المراد هنا بالمؤمنين والصادقين على أقوال؛ فقيل : هو خطاب لمن آمن من أهل الكتاب . وقيل : هو خطاب لجميع المؤمنين؛ أى اتقوا مخالفة أمر الله . ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصادِقِين ﴾ أى مع الذين خرجوا مع النبيّ صـلى الله عليه وسـلم لا مع المنافقين . أى كونوا على مذهب الصادقين وسبيلهم. وقيل: هم الأنبياء؛ أى كونوا معهم بالأعمال الصالحة فى الجنة. وقيل : هم المراد بقوله : « ليس البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجوهَكُمْ[3] ـــ الآية إلى قوله ـــ أولئك الذين صدقوا» . وقيل : هم الموفون بمـا عاهدوا؛ وذلك لقوله تعالى : « رجالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا

(١) آية ١٣٦ سورة النساء . (٢) آية ١٦٠ سورة النساء . (٣) راجع جـ ٢ ص ٢٣٧ طبعة ثانية .

الله عليه» (١) . وقيل : هم المهاجرون؛ لقول أبي بكر يوم السّقيفة : إن الله سمّانا الصادقين فقال : « للفقراء المهاجرين » الآية (٢) ، ثم سماكم بالمفلحين فقال : « والذين تبوّءوا الدّارَ والإيمانَ » الآية . وقيل هم الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم . قال ابن العربي : وهذا القول هو الحقيقة والغاية التي إليها المنتهى؛ فإن هذه الصفة يرتفع بها النفاق في العقيدة والمخالفةُ في الفعل، وصاحبها يقال له الصديق كأبي بكر وعمر وعثمان ومن دونهم على منازلهم وأزمانهم . وأما من قال إنهم المراد بآية البقرة فهو معظم الصدق ويتبعه الأقل وهو معنى آية الأحزاب . وأما تفسير أبي بكر الصديق فهو الذي يعمّ الأقوال كلها؛ فإن جميع الصفات فيهم موجودة .

الثانيــة — حقّ مَن فهم عن الله وعَقَل عنه أن يلازم الصّدق في الأقوال، والإخلاص في الأعمال، والصفات (٣) في الأحوال؛ فمن كان كذلك لحق بالأبرار ووصل إلى رضا الغفار؛ قال صلى الله عليه وسلم : "عليكم بالصّدق فإن الصّدق يَهدي إلى البرّ وإن البرّ يهدي إلى الجنة وما يزال الرجل يصْدُق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدّيقا" . والكذب على الضد من ذلك؛ قال صلى الله عليه وسلم : "إياكم والكذبَ فإن الكذب يَهْدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا" . خرّجه مسلم . فالكذب عار وأهله مسلوبو الشهادة؛ وقد ردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادة رجل في كذبة كذبها . قال معمر : لا أدري أكذب على الله أو كذب على رسوله أو كذب على أحد من الناس . وسئل شُريك بن عبد الله فقيل له : يا أبا عبد الله، رجل سمعتُه يكذب متعمّدا أؤصلّي خلفه؟ قال لا . وعن ابن مسعود قال : إن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، ولا أن يَعد أحدكم شيئا ثم لا ينجزه ، اقرءوا إن شئتم « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » هل ترون في الكذب رخصة ؟ وقال مالك : لا يُقبل خبر الكاذب في حديث الناس وإن صدق في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال غيره : يُقبل حديثه . والصحيح أن الكاذب لا تقبل شهادته ولا خبره لما ذكرناه؛ فإن القبول مرتبة عظيمة وولاية شريفة لا تكون إلا لمن كَمُلت خصاله ولا خَصلة هي أشرّ من الكذب فهي تعزل الولايات وتبطل الشهادات .

(١) آية ٢٣ سورة الأحزاب . (٢) آية ٨ سورة الحشر . (٣) لعلها « الصفاء » بالمد .

قوله تعالى : مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ المَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﴾ ظاهره خبر ومعناه أمر ؛ كقوله : « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ » وقد تقدم . ﴿ أَنْ يَتَخَلَّفُوا ﴾ في موضع رفع اسم كان . وهـذه معاتبة للؤمنين من أهل يَثْرِب وقبائل العرب المجاورة لها ؛ كمُزَيْنَة وجُهينة وأَشْجع وغِفَار وأَسْلم على التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تَبُوك . والمعنى : ما كان لهؤلاء المذكورين أن يتخلفوا ؛ فإن النفير كان فيهم ، بخلاف غيرهم فإنهم لم يُستنفَروا ؛ في قول بعضهم . ويحتمل أن يكون الاستنفار في كل مسلم ، وخصّ هؤلاء بالعتاب لقربهم وجوارهم ، وأنهم أحقُّ بذلك من غيرهم .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ أي لا يرضوا لأنفسهم بالخفض والدّعة ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم في المشقة . يقال رغِبت عن كذا أي ترفّعت عنه .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ أي عطش . وقرأ عبيد ابن عمير « ظَمَاء » بالمد . وهما لغتان مثل خطأ وخطاء . ﴿ وَلَا نَصَبٌ ﴾ عطف ، أي تعب ، ولا زائدة للتوكيد . وكذا ﴿ وَلَا مَخْمَصَةٌ ﴾ أي مجاعة . وأصله ضمور البطن ؛ ومنه رجل خميص

وآمرأة مُحصانة . وقد تقدم[1] . ﴿ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أى فى طاعتــه . ﴿ وَلَا يَطَـٔـُونَ مَوْطِئًا ﴾ أى أرضا . ﴿ يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ أى بوطئهم إياها، وهو فى موضع نصب لأنه نعت للمَوْطئ، أى غائظا . ﴿ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا ﴾ أى قتلا وهزيمة . وأصــله من نِلْت الشيء أنال أى أصبت . قال الكسائى : هو من قولهم أمرٌ مَنيل منــه ؛ وليس هو من التناول، إنمـا التناول من نُلْته العطية . قال غيره : نُلت أنول من العطية، من الواو والنيلُ من الياء، تقول: نِلته فأنا نائل، أدركته . ﴿ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا ﴾ العرب تقول : وادٍ وأودية، على غير قياس. قال النحاس : ولا يُعرف فيما علمت فاعل وأفعلة سواه، والقياس أن يجمع ووادِى؛ فآستثقلوا الجمع بين واوين وهم يستثقلون واحدة، حتى قالوا : اقّتتْ فى وُقّتت . وحكى الخليل وسيبويه فى تصغير واصل اسم رجل أُوَيْصل فلا يقولون غيره . وحكى الفراء فى جمع واد أوداء .

قلت : وقد جمع أوداه؛ قال جرير :

عرفت ببُرْقَة الأوداهِ رَسْمـًا * مُحيلا طال عَهْدُك مِن رُسومِ[2]

﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ قال آبن عباس : بكل روعة تنالهم فى سبيل الله ســبعون ألف حسنة . وفى الصحيح : "الخيل ثلاثة ... — وفيه — وأما التى هى له أجر فرجل ربطها فى سبيل الله لأهل الإســلام فى مَرْجٍ[3] أو روضة فمـا أكلت من ذلك المرج أو الروضة إلا كُتب له عدد ما أكلت حســنات وكتب له عدد أرواثها وأبوالها حســنات" . الحديث . هــذا وهى فى مواضعها فكيف إذا أُدْرِب[4] بها .

الرابعـــة — استدلّ بعض العلماء بهذه الآية على أن الغنيمة تُستحق بالإدراب والكون فى بلاد العدوّ، فإن مات بعــد ذلك فله سهمه ؛ وهو قول أشهب وعبد الملك ، وأحد قولى الشافعى . وقال مالك وآبن القاسم : لا شىء له ؛ لأن الله عز وجل إنمـا ذكر فى هذه الآية الأجر ولم يذكر السهم .

---

(١) راجع ج ٦ ص ٦٤ طبعة أولى أو ثانية .　(٢) فى ديوانه ومعجم البلدان لياقوت : «ببرقة الوداء» والوداء : واد أعلاه لبنى العدوية والتيم ، وأسفله لبنى كليب وضبة .　(٣) المرج : مرعى الدواب .
(٤) أدرب القوم : دخلوا أرض العدوّ .

قلت — الأوّل أصح لأن الله تعـالى جعل وطء ديار الكفار بمثـابة النَّيل من أموالهم وإخراجهم من ديارهم ، وهو الذى يغيظهم ويدخل الذلّ عليهـم ، فهو بمنزلة نَيْـل الغنيمة والقتل والأسر؛ وإذا كان كذلك فالغنيمة تُستحق بالإدراب لا بالحيازة، ولذلك قال علىّ رضى الله عنه : ما وُطِئ قوم فى عُقر دارهم إلا ذَلّوا . والله أعلم .

الخامســـة — هذه الآية منسوخة بقوله تعـالى : « وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً » وأن حكمها كان حين كان المسلمون فى قلّة، فلما كثروا نُسخت وأباح الله التخلف لمن شاء؛ قاله ٱبن زيد . وقال مجاهد : بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم قوما إلى البوادى ليعلّموا الناس فلما نزلت هـذه الآية خافوا ورجعوا؛ فأنزل الله « وما كان المؤمنون لينفِرُوا كافّة » . وقال قتادة : كان هـذا خاصّا بالنبيّ صلى الله عليه وسـلم، إذا غزا بنفسه فليس لأحد أن يتخلف عنه إلا بعذر؛ فأما غيره من الأئمة والولاة فلمن شاء أن يتخلف خَلْفَه من المسلمين إذا لم يكن بالناس حاجة إليه ولا ضرورة . وقول ثالث — أنها محكمة؛ قال الوليد بن مسـلم : سمعت الاوزاعيّ وٱبن المبارك والفَزَارِيّ والسَّبِيعى وسعيد بن عبد العزيز يقولون فى هـذه الآية إنها لأوّل هذه الأمة وآخرها .

قلت — قول قتادة حسن؛ بدليل غَزاة تبوك، والله أعلم .

السادســة — روى أبو داود عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لقد تركتم بالمدينة أقواما ما سِرْتم مَسِيرًا ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم واديًا من وادٍ إلا وهم معكم فيــه" قالوا : يارسول الله ، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينـة . ؟ قال : "حبسهم العذر" . خرّجه مسلم من حديث جابر قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزاة فقال : "إن بالمدينة لرجالا ما سِرتم مسيرا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم حبسهم المرض" . فأعطى صلى الله عليه وسـلم للعذور من الأجر مثلَ ما أعطى للقوىّ العامل . وقد قال بعض الناس : إنمـا يكون الأجر للعـذور غير مضاعف ، ويضـاعف للعامل المبـاشر . قال ٱبن العربىّ : وهذا تحكّم على الله تعالى وتضييق لسَعة رحمته، وقد عاب بعض الناس فقال :

إنهم يُعطون الثواب مضاعفا قطعا، ونحن لا نقطع بالتضعيف فى موضع فإنه مبنىّ على مقدار النيات، وهذا أمر مُغَيَّب، والذى يُقطع به أن هناك تضعيفا وربّك أعلم بمن يستحقه .

قلت : الظاهر من الأحاديث والآى المساواةُ فى الأجر؛ منها قوله عليه السلام : "من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله" وقوله : "من توضأ وخرج إلى الصلاة فوجد الناس قد صلّوْا أعطاه الله مثل أجر من صلاها وحضرها" . وهو ظاهر قوله تعالى : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ » . وبدليل أن النية الصادقة هى أصــل الأعمال، فإذا صحت فى فعــل طاعة فعجز عنها صاحبها لمــانع منع منها فلا بُعْــد فى مساواة أجر ذلك العاجز لأجر القادر الفاعل ويزيد عليــه؛ لقوله عليــه السلام : "نيــة المؤمن خير من عمله" . والله أعلم .

قوله تعـالى : وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

فيه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وهى أن الجهاد ليس على الأعيان وأنه فرض كفاية كما تقــدم؛ إذ لو نفر الكل لضاع مَن وراءهم من العيال، فليخرج فريق منهــم للجهاد ولْيُقِم فريق يتفقّهون فى الدين ويحفظون الحريم، حتى إذا عاد النافرون أعلمهم المقيمون ما تعلّموه من أحكام الشرع، وما تجدّد نزوله على النبىّ صلى الله عليه وسلم . وهذه الآية ناسخة لقوله تعالى . « إلّا تنفروا » وللآية التى قبلها؛ على قول مجاهد وآبن زيد .

الثانيــــة ــ هذه الآية أصــل فى وجوب طلب العلم؛ لأن المعنى : وما كان المؤمنون لينفروا كافّةً والنبىُّ صلى الله عليه وسلم مقيم لا ينْفر فيتركوه وحده . ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ ﴾ بعد ما علموا أن النفير لا يسع جميعهم . ﴿ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ وتبقى بقيّتها مع النبىّ صلى الله عليه

وسلم ليتحملوا عنـه الدين ويتفقهوا؛ فإذا رجع النافرون إليهم أخبروهم بمـا سمعوا وعلموه . وفى هذا إيجاب التفقه فى الكتاب والسنة، وأنه على الكفاية دون الأعيان . و يدلّ عليه أيضا قوله تعالى : « فَٱسألوا أَهْلَ الذِّكرِ إن كنتم لاتعلمون (١) » . فدخل فى هذا من لا يعلم الكتاب والســـنن .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ ﴾ قال الأخفش : أى فهلّا نفر . ﴿ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَـةٌ ﴾ الطائفة فى اللغــة الجماعة، وقد تقع على أقل من ذلك حتى تبلغ الرجلين، وللواحد على معنى نفس طائفة . وقد تقـدّم أن المراد بقوله تعالى : « إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنكم نُعَـذِّبْ طائِفةً (٢) » رجل واحد . ولا شك أن المراد هنا جماعةٌ لوجهين؛ أحدهما عقلا ، والآخر لغة . أما العقل فلا ن العلم لا يتحصّل بواحد فى الغالب ، وأما اللغة فقوله « ليتفقّهُوا فى الدِّين ولِيُنْذِرُوا قومَهم » فجاء بضمير الجماعة . قال آبن العربيّ : والقاضى أبو بكر والشيخ أبو الحسن قبله يرون أن الطائفــة ها هنا واحد، و يعتَضِدون (٣) فيه بالدليل على وجوب العمل بخبر الواحد، وهو صحيح لا من جهة أن الطائفة تنطلق على الواحد ولكن من جهــة أن خبر الشخص الواحد أو الأشخاص خبرُ واحد، وأن مقابله وهو التواتر لا ينحصر .

قلت : أنصّ ما يُستدلّ به على أن الواحد يقال له طائفة قولُه تعالى : « وإن طائِفتانِ من المؤمنين آقتتلوا (٤) » يعنى نَفْسين . دليله قوله تعالى : « فأصلِحوا بين أَخَوَيكم » فجاء بلفظ التثنية ، والضـــمير فى « اقتتلوا » وإن كان ضمــير جماعة فأقلّ الجماعة اثنان فى أحد القولين للعلمــاء .

الرابعـــة — قوله تعـــالى : ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا ﴾ الضمير فى « ليتفقّهُوا، وَلِيُنْذِرُوا » للقيمين مع النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ قاله قتادة ومجاهد . وقال الحسن : هما للفرقة النافرة؛ واختاره الطبرى . ومعنى ﴿ ليتفَقّهوا فى الدين ﴾ أى يتبصّروا و يتيقّنوا بمـا يُريهم الله من الظهور على

(١) آية ٤٣ سورة النحل . (٢) آية ٦٦ من هذه السورة . (٣) فى الأصول : «و يقضون به على وجوب العمل» الخ . والتصويب عن ابن العربى . (٤) آية ٩ سورة الحجرات .

المشركين ونُصرة الدين . ﴿ وليُنْذروا قومَهم ﴾ من الكفار . ﴿ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾ من الجهاد فيخبرونهم بنصرة الله تعـالى نبيّه والمؤمنين ، وأنهم لا يَدانِ[1] لهم بقتالهم وقتالِ النبيّ صـلى الله عليه وسلم؛ فينزل بهم ما نزل بأصحابهم من الكفار .

قلت : قول مجاهد وقتادة أبْيَن، أى لتتفقّه الطائفة المتأخّرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النفور فى السّرايا . وهذا يقتضى الحثّ على طلب العلم والندب إليه دون الوجوب والإلزام؛ إذ ليس ذلك فى قوة الكلام، وإنمـا لزم طلب العلم بأدلّته؛ قاله أبو بكر بن العربى.

الخامســـة — طلب العلم ينقسم قسمين : فرضٌ على الأعيان؛ كالصلاة والزكاة والصيام.

قلت — وفى هــذا المعنى جاء الحــديث المروِىّ " إن طلب العــلم فريضة " . روى عبــد القدوس بن حبيب أبو ســعيد الوُحَاظىّ عن حماد بن أبى سليمان عن ابراهيم النَّخَعِىّ قال سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " طلب العلم فريضة على كل مسلم " . قال إبراهيم : لم أسمع من أنس بن مالك إلا هذا الحديث .

وفرضٌ على الكفاية؛ كتحصين الحصون[2] وإقامة الحدود والفصل بين الخصوم ونحوه؛ إذ لا يصلح أن يتعلّمه جميع الناس فتضيع أحوالهم وأحوال سواهم وتنقص وتبطل معايشهم؛ فتعيّن بين الحالين أن يقــوم به البعض من غير تعيــين، وذلك بحسب ما يسّره الله لعبــاده وقسّمه بينهم من رحمته وحكمته بسابق قدرته وكلمته .

السادســـة — طلب العلم فضيلة عظيمة ومرتبة شريفة لا يوازيها عمل؛ روى الترمذىّ من حديث أبى الدّرْداء قال : سمعت رسول الله صــلى الله عليه وســلم يقول : " من سلك طريقا يلتمس فيــه علما ســلك الله به طريقا إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض والحيتان فى جوف المــاء وإن فضــل العالم على العابد كفضل القمر ليــلة البدر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثةُ الأنبيــاء وإن الأنبياء لم يُوَرِّثوا دينارا ولا درهما إنمــا وَرَّثُو العلم فمن أخذ به أخــذ بحظ

(١) يقال : مالى بفلان يدان، أى طاقة .		(٢) فى الأصول : « كتحصيل الحقوق » .

وافر". وروى الدّارمىّ أبو محمد فى مسنده قال: حدّثنا أبو المغيرة حدّثنا الأوزاعىّ عن الحسن قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجلين كانا فى بنى إسرائيل، أحدهما كان عالما يصلّى المكتوبة ثم يجلس فيعلّم الناس الخير . والآخر يصوم النهار ويقوم الليل، أيّهما أفضل؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فضل هذا العالم الذى يصلّى المكتوبة ثم يجلس فيعلم الناس الخير على العابد الذى يصوم النهار ويقوم الليل كفضلى على أدناكم " . أسنده أبو عمر فى كتاب (بيان العلم) عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فضل العالم على العابد كفضلى على أمّتى " . وقال ٱبن عباس : أفضل الجهاد من بنَى مسجدا يعلّم فيه القرآن والفقه والسنة " . رواه شُريك عن ليث بن أبى سليم عن يحيى بن أبى كثير عن علىّ الأزدى قال : أردت الجهاد فقال لى ابن عباس : ألا أدلّك على ما هو خير لك من الجهاد، تأتى مسجدا فتقرئ فيه القرآن وتعلم فيه الفقه. وقال الربيع سمعت الشافعى يقول: طلب العلم أوجب من الصلاة النافلة . وقوله عليه السلام : " إن الملائكة لتضع أجنحتها " الحديث يحتمل وجهين : أحدهما — أنها تعطف عليه وترحمه؛ كما قال الله تعالى فيما وصّى به الأولاد من الإحسان إلى الوالدين بقوله « وٱخْفِضْ لهما جَناحَ الذُّلِّ من الرحمة » أى تواضع لهما . والوجه الآخر — أن يكون المراد بوضع الأجنحة فرشها ؛ لأن فى بعض الروايات " وإن الملائكة تفرش أجنحتها " أى إن الملائكة إذا رأت طالب العلم يطلبه من وجهه ابتغاء مرضات الله وكانت سائر أحواله مشاكلة لطلب العلم فرشت له أجنحتها فى رحلته وحملته عليها؛ فمن هناك يَسْلَم فلا يَحْفَى إن كان ماشيا ولا يَعْيَا ، وتقرُب عليه الطريق البعيدة، ولا يصيبه ما يصيب المسافر من أنواع الضرر كالمرض وذهاب المال وضلال الطريق . وقد مضى شىء من هذا المعنى فى « آل عمران » عند قوله تعالى : « شهد الله » الآية[1] . روى عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة" . قال يزيد بن هارون : إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدرى من هم .

---

(١) راجع ج ٤ ص ٤٠ طبعة أولى أو ثانية .

قلت : وهذا قول عبد الرزاق فى تأويله الاية ، إنهم أصحاب الحديث؛ ذكره الثعلبىّ . سمعت شيخنا الاستاذ المقرئ النحوى المحدّث أبا جعفر أحمد بن محمد بن محمد القيسى القرطبى المعروف بآبن أبى حجة رحمه الله يقول فى تأويل قوله عليــه السلام : " لا يزال أهل الغَرْب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة" : إنهم العلماء؛ قال : وذلك أن الغرب لفظ مشترك يطلق على الدّلو الكبيرة وعلى مغرب الشمس، ويطلق على فَيْضة من الدمع . فمعنى " لا يزال أهل الغَــرب " أى لا يزال أهــل فيض الدمع من خشــية الله عن علم به وبأحكامه ظاهرين ؛ الحديث . قال الله تعــالى : « إنمــا يَخْشَى اللهَ مِن عبادِه العلماءُ » (1) .

قلت : وهــذا التأويل يَعْضُده قولُه عليه السلام فى صحيح مسلم : " من يُرِد الله به خيرا يفقهــه فى الدين ولا تزال عصابة من المســلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة " . وظاهر هذا المساق أن أوله مرتبط بآخره . والله أعلم .

قوله تعــالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ (١٢٣)

فيــه مسألة واحدة — وهو أنه ســبحانه عرّفهم كيفية الجهاد وأن الابتــداء بالأقرب فالأقرب من العدوّ؛ ولهذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعرب، فلما فرغ قصد الروم وكانوا بالشام . وقال الحسن : نزلت قبل أن يؤمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بقتال المشركين؛ فهى من التدريج الذى كان قبل الإسلام . وقال آبن زيد : المراد بهذه الآية وقتَ نزولها العربُ، فلما فرغ منهم نزلت فى الروم وغيرهم : « قاتِلوا الذين لا يؤمنون بالله » (2) . وقد روى عن آبن عمر أن المراد بذلك الدّيْلم . ورُوى عنه أنه سئل بمن يُبدأ بالروم أو بالديلم ؟ فقال بالروم . وقال الحسن : هو قتال الدّيلم والترك والروم . وقال قتادة : الآية على العموم فى قتال الأقرب فالأقرب، والأدنى فالأدنى .

---

(١) آية ٢٨ سورة فاطر . (٢) آية ٢٩ من هذه السورة .

قلت : قول قتادة هو ظاهر الآية، واختار ٱبن العربىّ أن يُبدأ بالروم قبل الدّيلم؛ على ما قاله ابن عمر لثـلاثة أوجه . أحدها — أنهم أهـل كتاب ؛ فالحجة عليهم أكثر وآكد . الثانى — أنهم إلينا أقرب ، أعنى أهل المدينة . الثالث — أن بلاد الأنبياء فى بلادهم أكثر فاستنقاذها منهم أوجب . والله أعلم .

﴿ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ أى شـدّة وقوّة وحَمِيّة . وروى الفضـل عن الأعمش وعاصم « غَلْظة » بفتح الغين وإسكان اللام . قال الفرّاء : لغة أهل الحجاز وبنى أسـد بكسر الغين، ولغة بنى تميم « غُلظة » بضم الغين .

قوله تعـالى : وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾

« ما » صلة، والمراد المنافقون . ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ﴾ قد تقدّم القول فى زيادة الإيمـان ونقصانه فى سورة « آل عمران »[1] . وقد تقـدّم معنى السورة فى مقدّمة الكتاب[2] ، فلا معنى للإعادة . وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز[3] « إن للإيمـان سننا وفرائض من استكملها فقد استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان » . قال عمر بن عبد العزيز : فإن أعِشْ فسأبيّنها لكم، وإن أمت فمـا أنا على صُحبتكم بحريص » . ذكره البخارىّ . وقال ٱبن المبارك : لم أجد بُدًّا من أن أقول بزيادة الإيمـان، وإلّا رددت القرآن .

قوله تعـالى : وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٨٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ٦٥ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٣) الذى فى البخارى : « وكتب عمر بن عبـد العزيز الى عدى بن عدى ... » الخ ؛ فراجعـه فى كتاب الإيمـان .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أى شـك وريب ونفاق . وقد تقدّم[1] . ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ أى شـكًّا إلى شكهم وكفرا إلى كفرهم . وقال مقاتل : إثمـا إلى إثمهم؛ والمعنى متقارب .

قوله تعـالى : أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾ قراءة العامة بالياء، خبرا عن المنافقين . وقرأ حمزة ويعقوب بالتـاء خبرا عنهم وخطابا للؤمنين . وقرأ الأعمش «أو لم يروا» . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف «أوَلَا ترى» وهى قراءة ابن مسعود، خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم . ﴿ يُفْتَنُونَ ﴾ قال الطبرى : يختبرون . قال مجاهد : بالقحط والشدّة . وقال عطيـة : بالأمراض والأوجاع؛ وهى روائد الموت . وقال قتادة والحسن ومجاهد : بالغزو والجهاد مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ويرون ما وعد الله من النصر ﴿ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ ﴾ لذلك ﴿ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .

قوله تعـالى : وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ «ما» صلة، والمراد المنافقون؛ أى إذا حضروا الرسول وهو يتلو قرآنا أنزل فيه فضيحتهم أو فضيحة أحد منهم جعل ينظر بعضهم إلى بعض نظر الرّعب على جهة التقرير؛ يقول: هل يراكم من أحد إذا تكلمتم بهذا فينقله إلى محمد؛ وذلك جهل منهم بنبوّته ، وأن الله يطلعه على ما يشاء من غيبه . وقيل : إن « نَظَرَ » فى هذه الآية بمعنى أنبأ . وحكى الطبرى عن بعضهم أنه قال: «نظر» فى هذه الاية موضع قال .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ انصَرَفُوا ﴾ أى انصرفوا عن طريق الاهتداء . وذلك أنهـم حينما بيّن لهم كشف أسرارهم والإعلام بمغيّبات أمورهم يقـع لهم لا محالة تعجّبٌ وتوقّف ونظر ، فلو

(١) راجع جـ ١ ص ١٩٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

اهتدَوْا (١) لكان ذلك الوقت مَظِنة لإيمـانهم؛ فهم إذ يصممون على الكفر و يرتبكون فيه كأنهم انصرفوا عن تلك الحال التى كانت مَظِنة النظر الصحيح والاهتـداء ، ولم يسمعوا قراءة النبىّ صلى الله عليه وسلم سَماعَ من يتدبره وينظر فى آياته ؛ « إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الذِين لا يعقلون » (٢) . « أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ أَمْ على قلوبٍ أَقْفَالُهَا » (٣) .

قوله تعالى : ﴿ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ دعاء عليهم؛ أى قولوا لهم هذا . ويجوز أن يكون خبرا عن صرفها عن الخـير مجازاةً على فعلهـم . وهى كلمة يدعى بهـا ؛ كقوله : « قاتلهم الله » . والباء فى قوله : « بِأَنهم » صلة لـ « صرف » .

الثانيـــة — قال ٱبن عباس : يكره أن يقال انصرفنا من الصـلاة؛ لأن قوما انصرفوا فصرف الله قلوبهم، ولكن قولوا قضينا الصلاة؛ أسـنده الطبرى عنه . قال ٱبن العربىّ : وهذا فيه نظر وما أظنه بصحيح؛ فإن نظام الكلام أن يقال : لا يقل أحد انصرفنا من الصلاة؛ فإن قوما قيل فيهم : « ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم » . أخبرنا محمد بن عبد الملك القَيْسىّ الواعظ حدّثنا أبو الفضل الجوهرىّ سَماعا منه يقول : كنا فى جنازة فقال المنذر بها : انصرفوا رحمكم الله ! فقال : لا يقل أحد انصرفوا فإن الله تعـالى قال فى قوم ذمّهم : « ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم » ولكن قولوا : انقلبوا رحمكم الله ؛ فإن الله تعالى قال فى قوم مدحهم : « فَٱنقلَبُوا بِنِعمةٍ مِن اللهِ وفضلٍ لم يمسسهم سوء » (٤) .

الثالثـــة — أخبر الله سبحانه تعالى فى هـذه الآية أنه صارف القلوب ومصرفها وقالبها ومقلّبها؛ ردّا على القدرية فى اعتقادهم أن قلوب الخلق بأيديهم وجوارحهم بحُكمهم، يتصرّفون بمشيئتهم و يحكمون بإرادتهم واختيارهم؛ ولذلك قال مالك فيما رواه عنه أشهب : ما أبين هذا فى الردّ على القدرية «لا يزالُ بُنْيانُهُمُ الّذِى بَنَوْا ريبةً فِى قلوبِهِم إلّا أن تَقَطّع قلوبُهم» . وقوله عز وجل لنُوح : «أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قومِك إلّا مَن قد آمن» (٥) فهذا لا يكون أبدا ولا يرجع ولا يزول .

(١) ارتبك فى الأمر إذا وقع فيه ونشب ولم يتخلص . (٢) آية ٢٢ سورة الأنفال .
(٣) آية ٢٤ سورة محمد . (٤) آية ١٧٤ سورة آل عمران . (٥) آية ٣٦ سورة هود .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

هاتان الآيتان فى قول أُبَىٍّ أقربُ القرآن بالسماء عهدا . وفى قول سعيد بن جبير : آخر ما نزل من القرآن « وٱتقوا يوماً تُرجعون فيه إلى الله » (١) على ما تقدم . فيحتمل أن يكون قول أُبَىٍّ أقرب القرآن بالسماء عهدًا بعد قوله : « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله » . والله أعلم . والخطاب للعــرب فى قول الجمهور، وهــذا على جهة تعــديد النعمة عليهم فى ذلك ؛ إذ جاء بلسانهم وبمــا يفهمونه ، وشُرِّفوا به غابرالأيام . وقال الزجاج : هى مخاطبــة لجميع العالم ؛ والمعنى : لقد جاءكم رسول من البشر ؛ والأول أصوب . قال ٱبن عباس : ما من قبيلة من العرب إلا ولدت النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فكأنه قال : يا معشر العرب، لقد جاءكم رسول من بنى إسماعيل . والقول الثانى أوكد للحجة ؛ أى هو بشر مثلكم لتفهموا عنه وتأتمّوا به .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ يقتضى مدحا لنسب النبيّ صلى الله عليه وسلم وأنه من صميم العرب وخالصها . وفى صحيح مســلم عن واثلة بن الأسْقع قال : سمعت رســول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله اصطفى كِنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم" . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إنى من نكاح ولست من سفاح" . معناه أن نسبه صلى الله عليه وسلم إلى آدم عليه السلام لم يكن النّســل فيه إلا من نكاح ، ولم يكن فيــه زِنًى . وقرأ عبــد الله بن قسيط المكى من « أنْفَسِكم » بفتح الفاء من النفاسة ؛ ورويت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وعن فاطمة رضى الله عنها ؛ أى جاءكم رسول من أشرفكم وأفضلكم ؛ من قولك : شىء نفيس إذا كان مرغوبا فيه . وقيل : من أنفسكم ؛ أى أكثركم طاعة .

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٥٠ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْـهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أى يعزّ عليـه مشقتكم . والعَنَت : المشقة ؛ من قولهم : أَكَمَة عَنُوت إذا كانت شاقة مهلكة . وقال ابن الأنبارىّ : أصل التعنت التشديد؛ فإذا قالت العرب : فلان يتعنّت فلانا ويُعنته فمرادهم يشدّد عليـه و يلزمه بمـا يصعب عليه أداؤه . وقد تقدم فى « البقرة » (١) . « وما » فى « عنتم » مصدرية، وهى ابتداء و « عزيز » خبر مقدم . ويجوز أن يكون « ما عنتم » فاعلا بعزيز، و « عزيز » صـفة للرسول ، وهو أصوب . وكذا « حَرِيص عليكم » وكذا « رءوف رحيم » رفع على الصفة . قال الفراء : ولو قرئ عزيزا عليه ما عنتم حريصا رءوفا رحيما، نصبا على الحال جاز . قال أبو جعفر النحاس : وأحسن ما قيل فى معناه ممـا يوافق كلام العرب ما حدّثنا أحمد بن محمد الأزدىّ قال حدّثنا عبد الله بن محمد الخزاعىّ قال سمعت عمرو بن علىّ يقول : سمعت عبد الله بن داود الخُرَيْبِى يقول فى قوله عز وجل « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم » قال : أن تدخلوا النـار ، « حريص عليكم » قال : أن تدخلوا الجنـة . وقيل : حريص عليكم أن تؤمنوا . وقال الفراء : شحيح بأن تدخلوا النار . والحرص على الشىء : الشُّحّ عليه أن يضيع ويتلف . ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ الرءوف : المبالغ فى الرأفة والشفقة . وقد تقدم فى « البقرة » (٢) معنى « رءوف رحيم » مستوفًى . وقال الحسين بن الفضـل : لم يجمع الله لأحد من الأنبياء آسمين من أسمائه إلا للنبىّ محمد صلى الله عليـه وسلم؛ فإنه قال : « بالمؤمنين رءوف رحيم » وقال : « إن الله بالناس لرءوف رحيم » (٣) . وقال عبـد العزيز بن يحيى : نظم الآية لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز حريص بالمؤمنين رءوف رحيم، عزيز عليه ما عنتم لا يهمّه إلا شأنكم، وهو قائم بالشفاعة لكم فلا تهتموا بمـا عنتم ما أقمتم على سُنته؛ فإنه لا يرضـيه إلا دخولكم الجنة .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُـلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ أى إن أعرض الكفار يا محمد بعد هـذه النّعم التى مَنّ الله عليهم بها فقل حسبى الله؛ أى كافىّ الله تعالى . ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أى اعتمدت ، وإليه فوّضت جميـع أمورى . ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَـرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ خصّ العرش

(١) راجع جـ ٣ ص ٦٦ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) راجع جـ ٢ ص ١٥٨ طبعة ثانيـة ، وجـ ١ ص ١٠٣ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٣) آية ١٤٣ سورة البقرة .

لأنه أعظم المخلوقات فيدخل فيــه ما دونه إذا ذكره . وقراءة العامة بخفض « العظيم » نعتا للعرش . وقرئ بالرفع صفة للرب، رُويت عن ابن كثير، وهي قراءة ابن مُحَيْصن . وفي كتاب أبي داود عن أبي الدرداء قال : من قال إذا أصبح وإذا أمسى حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات ، كفاه الله ما أهمه صادقا كان بها أو كاذبا .
وفي نوادر الأصول عن بُريدة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قال عشر كلمات عند دبر كل صلاة وجد الله عندهن مَكْفِيًّا مَجْزِيًّا خمسٌ للدنيا وخمس للآخرة حسبي الله لديني حسبي الله لدنياي حسبي الله لما أهمني حسبي الله لمن بغى عليّ حسبي الله لمن حسدني حسبي الله لمن كادني بسوء حسبي الله عند الموت حسبي الله عند المساءلة في القبر حسبي الله عند الميزان حسبي الله عند الصراط حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه أنيب " . وحكى النقاش عن أُبيّ بن كعب قال : أقرب القرآن عهدا بالله تعالى هاتان الآيتان « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » إلى آخر السورة؛ وقد بيناه . وروى يوسف بن مِهران عن ابن عباس أن آخر ما نزل من القرآن « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » وهذه الآية؛ ذكره الماوردي . وقد ذكرنا عن ابن عباس خلافه؛ على ما ذكرناه في البقرة، وهو أصح . وقال مقاتل : تقدم نزولها بمكة . وهذا فيه بعد؛ لأن السورة مدنية، والله أعلم .
وقال يحيى بن جعدة : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يثبت آية في المصحف حتى يشهد عليها رجلان؛ فجاءه رجل من الأنصار بالآيتين من آخر سورة براءة « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » فقال عمر : والله لا أسألك عليهما بينة، كذلك كان النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فأثبتهما . قال علماؤنا : الرجل هو خزيمة بن ثابت ، وإنما أثبتهما عمر رضي الله عنه بشهادته وحده لقيام الدليل على صحتها في صفة النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فهي قرينة تغني عن طلب شاهد آخر، بخلاف آية الأحزاب « رِجالٌ صدَقُوا ما عاهدوا الله عليه »[1] فإن تلك ثبتت بشهادة زيد وخزيمة لسماعهما إياها من النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقد تقدم هذا المعنى في مقدمة الكتاب . والحمد لله .

(١) آية ٢٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سـورة يونس عليـه السـلام

سورة يونس عليه السلام مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ٱبن عباس : إلا ثلاث آيات من قوله تعالى : «فإن كنتَ فى شك»(1) إلى آخرهن . وقال مقاتل : إلا آيتين وهى قوله : « فإن كنت فى شـك » نزلت(2) بالمدينـة . وقال الكلبىّ : مكية إلا قوله : « ومنهم من يُؤمن به ومنهم من لا يؤمن به »(3) نزلت بالمدينة فى اليهود . وقالت فرقة : نزل من أوّلها نحوٌ من أربعين آية بمكة وباقيها بالمدينة .

قوله تعـالى : الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ (1)

قوله تعـالى : ﴿ الٓر ﴾ قال النحاس : قرئَ على أبى جعفر أحمـد بن شعيب بن على بن الحسين بن حريث قال : أخبرنا على بن الحسين عن أبيـه عن يزيد أن عكرمة حدّثه عن ٱبن عباس : الر، وحم، ونون [حروف] الرحمن مفرّقة؛ فحدّثت به الأعمش فقال : عندك أشباه هـذا ولا تخبرنى به . وعن ٱبن عباس أيضـا قال : معنى « الر » أنا الله أرى . قال النحاس : ورأيت أبا إسحاق يميل إلى هذا القول؛ لأن سيبويه قد حكى مثله عن العرب وأنشد :

بالخـير خيراتٍ وإن شَرًّا فَا * ولا أريد الشـرّ إلا أنْ تَا(4)

وقال الحسن وعكرمة : « الر » قَسَم . وقال سعيد عن قتادة : « الر » اسم السورة ؛ قال : وكذلك كل هجاء فى القرآن . وقال مجاهد : هى فواتح السُّوَر . وقال محمد بن يزيد : هى تنبيه، وكذا حروف التهجى . وقـرئَ « الر » من غير إمالة . وقرئَ بالإمالة لئلا تُشـبه ما ولا من الحـروف .

---

(1) آية ٩٤ (2) كذا فى نسخ الأصل وتفسير ٱبن عطية . (3) آية ٤٠

(4) أجزيك بالخير خيرات وان كان منك شركان منى مثله، ولا أريد الشر الا أن تشاء . (عن شرح الشواهد).

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ ابتداء وخبر؛ أى تلك التى جرى ذكرها آيات الكتاب الحكيم . قال مجاهد وقتادة : أراد التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة ؛ فإن « تلك » إشارة إلى غائب مؤنّث . وقيل : « تلك » بمعنى هـذه؛ أى هذه آيات الكتاب الحكيم . ومنه قول الأعشى :

تلك خَيْلِي منه وتلك رِكابى * هنّ صُفْرٌ أولادها كالزَّبيب

أى هذه خيلى . والمراد القرآن وهو أولى بالصواب؛ لأنه لم يجر للكتب المتقدمة ذكر، ولأن « الحكيم » من نعت القرآن . دليله قوله تعالى : « الر كتاب أحكمت آياته »[1] وقد تقدم هذا المعنى فى أول سورة «البقرة»[2] . والحكيم : المُحْكَم بالحلال والحرام والحدود والأحكام؛ قاله أبو عبيدة وغيره . وقيل : الحكيم بمعنى الحاكم؛ أى أنه حاكم بالحلال والحرام، وحاكم بين الناس بالحق؛ فعيل بمعنى فاعل . دليله قوله : « وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالحقّ لِيَحْكُمَ بين الناسِ فيما اختلفوا فِيه »[3] . وقيل : الحكيم بمعنى المحكوم فيه ؛ أى حكم الله فيه بالعدل والإحسان و إيتاء ذى القربى، وحكم فيه بالنهى عن الفحشاء والمنكر، وبالجنة لمن أطاعه و بالنار لمن عصاه؛ فهو فعيل بمعنى المفعول؛ قاله الحسن وغيره . وقال مقاتل : الحكيم بمعنى المُحْكَم من الباطل لا كذب فيه ولا اختلاف؛ فعيل بمعنى مفعَل، كقول الأعشى يذكر قصيدته التى قالها :

وغريبةٍ تأتى الملوكَ حكيمةٍ * قد قلتها ليقال من ذا قالها

قوله تعالى : أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

(١) أول سورة هود .　(٢) راجع جـ ١ ص ١٥٧ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .
(٣) آية ٢١٣ سورة البقرة .

قوله تعالى : ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ استفهام معناه التقرير والتوبيخ . و « عجبا » خبر كان، واسمها ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾ وهو فى موضـع رفع ؛ أى كان إيحاؤنا عجبا للناس . وفى قراءة عبد الله «عجب» على أنه آسم كان . والخبر «أنْ أوحينا» . ﴿إِلَى رَجُلٍ مِنهم﴾ قرئ «رَجْل» باسكان الجـيم . وسبب النزول فيما روى عن ابن عبـاس أن الكفار قالوا لمـا بُعث محمد : إن الله أعظمُ من أن يكون رسوله بشرا . وقالوا : ما وجد الله من يرسله إلا يتيمَ أبى طالب ؛ فنزلت : «أكان لِلناسِ» يعنى أهل مكة «عجبا» . وقيل : إنمـا تعجبوا من ذكر البعث .

قوله تعالى : ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فى موضع نصب بإسقاط الخافض؛ أى بأن أنذر الناس ؛ وكذا ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ . وقد تقدم معنى النّذارة والبشارة وغير ذلك[1] من ألفاظ الآية . واختلف فى معنى « قَدَمَ صِـدْقٍ » فقال آبن عباس : قدم صـدق منزلَ صدق؛ دليله قوله تعالى : « وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ »[2] . وعنه أيضا : أجرا حسنا بمـا قدّموا من أعمالهم . وعنه أيضا « قدم صـدق » سَبْقَ السعادة فى الذكر الأوّل ؛ وقاله مجاهد . الزجاج : درجة عالية . قال ذو الرُّمّة :

لكم قـدمٌ لا ينكـر الناس أنهـا * مع الحسب العالى طَمّت[3] على البحر

قتادة : سلف صـدق . الربيع : ثواب صـدق . عطاء : مقام صدق . يَمَـانٍ : إيمـان صدق . وقيل : دعوة الملائكة . وقيل : وَلَدٌ صالحٌ قدّموه . المـاوردىّ : أن يوافق صدق الطاعة صـدق الجزاء . وقال الحسن وقتادة أيضا : هو محمد صلى الله عليه وسـلم ؛ فإنه شفيع مطاع يتقدّمهم ؛ كما قال : "أنا فَرَطُكم[4] على الحوض" . وقد سئل صلى الله عليه وسلم فقال: "هى شفاعتى توسّـلون بى إلى ربكم" . وقال الترمذىّ الحكيم : قدمه صلى الله عليه وسلم فى المقام المحمود . وعن الحسن أيضا : مصيبتهم فى النبىّ صـلى الله عليه وسـلم . وقال

(١) راجع جـ ١ ص ١٨٤ وص ٢٣٨ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٢) آية ٨٠ سورة الإسراء .
(٣) فى ديوانه وتفسير الطبرى « العادى » .
(٤) أى متقدمكم اليه .

عبد العزيز بن يحيى : « قدمَ صدق » قولُه تعالى : « إنَّ الَّذينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الحُسْنَى أولَئكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ »[(١)] . وقال مقاتل : أعمالا قدّموها؛ واختاره الطبرىّ . قال الوضّاح :

صلِّ لذى العرش وٱتَّخذ قَدَمًا * تُنْجِيك يومَ العِثار والزَّلَل

وقيل : هو تقديم الله هذه الأمة فى الحشر من القبر وفى إدخال الجنة . كما قال : "نحن الآخرون السابقون يوم القيامة المقضىّ لهم قبل الخلائق". وحقيقته أنه كناية عن السعى فى العمل الصالح ؛ فكنّى عنه بالقَدَم كما يُكَنَى عن الإنعام باليد وعن الثناء باللسان . وأنشد حسان :

لنا القَدم العليا إليك وخَلْفُنا * لأوّلنا فى طاعة الله تابع

يريد السابقة بإخلاص الطاعة، والله أعلم . وقال أبو عبيدة والكسائى : كل سابق من خير أو شر فهو عند العرب قَدَم؛ يقال : لفلان قَدَم فى الإسلام، وله عندى قَدَم صدقٍ وقدم شر وقدم خير . وهو مؤنث وقد يذكر ؛ يقال : قَدَم حَسَن وقدم صالحة . وقال ابن الأعرابى : القدم التقدّم فى الشرف؛ قال العجّاج :

زلّ بنو العوّام عن آل الحَكَمْ * وتركوا المُلْكَ لملك ذى قَدَم

وفى الصحاح عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لى خمسة أسماء . أنا محمد وأحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر وأنا الحاشر الذى يُحشر الناسُ على قدمى وأنا العاقب" يريد آخر الأنبياء؛ كما قال تعالى : « وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ »[(٢)] .

قوله تعالى : ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ قرأ ابن مُحَيْصن وٱبن كثير والكوفيون عاصم وحمزة والكسائى وخلف والأعمش « لساحر » نعتا لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقرأ الباقون « لسحر » نعتا للقرآن . وقد تقدّم معنى السحر فى «البقرة»[(٣)] .

قوله تعالى : إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

(١) آية ١٠١ سورة الأنبياء. (٢) آية ٤٠ سورة الأحزاب. (٣) راجع ج ٢ ص ٤٣ طبعة ثانية.

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ تقدّم فى الأعراف(١) . ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾ قال مجاهـد : يقضيه ويقدّره وحدّه . ابن عباس : لا يَشركه فى تدبير خلقه أحد . وقيل : يبعث بالأمر . وقيل : ينزل به . وقيل : يأمر به ويمضيه؛ والمعنى متقارب . فجبريل للوحى ، وميكائيل للقَطْر، وإسرافيل للصُّور، وعزرائيـل للقبض . وحقيقتـه تنزيل الأمور فى مراتبها على أحكام عواقبها ، وٱشـتقاقه من الدُّبُر . والأمر اسم لجنس الأمور . ﴿ مَا مِنْ شَـفِيعٍ ﴾ فى موضع رفع، والمعنى ما شفيع ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ وقد تقدم فى « البقرة »(٢) معنى الشفاعة . فلا يشـفع أحد نبيٌّ ولا غيره إلا بإذنه سبحانه . وهذا ردّ على الكفار فى قولهم فيما عبدوه من دون الله : « هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ »(٣) فأعلمهم الله أن أحدا لا يشفع لأحد إلا بإذنه، فكيف بشفاعة أصنام لا تعقل .

قوله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ أى ذلكم الذى فعـل هذه الأشياء من خلق السـموات والأرض هو ربكم لا رب لكم غيره . ﴿ فَاعْبُـدُوهُ ﴾ أى وحّدوه وأخلصـوا له العبادة . ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أى بمخلوقاته فتستدلوا بها عليه .

قوله تعـالى : إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيـدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ بِٱلْقِسْـطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَـا كَانُوا يَـكْفُرُونَ ﴿٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ رفع بالابتداء . ﴿ جَمِيعًا ﴾ نصب على الحال . ومعنى الرجوع إلى الله الرجوع إلى جزائه . ﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ﴾ مصـدران؛ أى وعد الله ذلك وعدا وحققـه « حقا » صـدقا لا خلف فيه . وقرأ إبراهيم بن أبى عَبْـلَة « وَعْدُ اللهِ حقّ » على الاسـتئناف .

(١) راجع جـ ٧ ص ٢١٨ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢٧٣ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) آية ١٨ من هذه السورة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ﴾ أى من التراب . ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ إليه . مجاهد : ينشئه ثم يميته ثم يحييــه للبعث ؛ أو ينشــئه من المــاء ثم يعيــده من حال إلى حال . وقــرأ يزيد ابن القَعْقَاع « أنه يبــدأ الخلق » تكون « أن » فى موضــع نصب ؛ أى وعدكم أنه يبــدأ الخلق . ويجوز أن يكون التقدير لأنه يبدأ الخلق؛ كما يقال : لَبَّيْكَ أنّ الحمــد والنعمة لك؛ والكسر أجــود . وأجاز الفــراء أن تكون «أن» فى موضع رفع فتكون ٱسمــا . قال أحمد ابن يحيى : يكون التقدير حقا إبداؤه الخلق .

قوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ﴾ أى بالعدل . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ أى ماء حار قد انتهى حرّه ، والحميمة مثله . يقال : حَمَمْتُ المــاء أُحُمّه فهو حميم ، أى محموم؛ فعيل بمعنى مفعول . وكلُّ مُسَخَّن عند العرب فهو حميم . ﴿ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى موجع ، يخلص وجعه إلى قلوبهم . ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ أى بكفرهم ، وكان معظم قريش يعترفون بأن الله خالقهم؛ فٱحتج عليهم بهذا فقال : من قدر على الابتداء قدر على الإعادة بعد الإفناء أو بعد تفريق الأجزاء .

قوله تعــالى : هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

قوله تعــالى : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً ﴾ مفعولان ، أى مضيئة ، ولم يؤنث لأنه مصــدر ؛ أو ذات ضــياء . ﴿ وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ عطف ، أى منيرا ، أوذا نور . فالضياء ما يضيء الأشياء ، والنور ما يبين فيخفى؛ لأنه من النار من أصل واحد . والضياء جمع ضوء؛ كالسِّياط والحياض جمع سَوط وحَوض . وقرأ قُنْبُل عن ٱبن كثير « ضــئاء » بهمز اليــاء ولا وجه له؛ لأن ياءه كانت واوا مفتوحة وهى عين الفعل ، أصلها ضواء فقلبت وجعلت ياء كما جعلت فى الصيام والقيام . قال المهدوىّ : ومن قرأ ضــئاء بالهمز فهو مقلوب ، قدّمت

الهمزة التى بعـد الالف فصارت قبل الألف فصار ضئايا، ثم قلبت الياء همزة لوقوعها بعد ألف زائدة . وكذلك إن قدرت أن الياء حين تأخرت رجعت إلى الواو التى انقلبت عنهـا فإنهـا تقلب همزة أيضا فوزنه فلاع مقلوب من فعال . ويقال : إن الشمس والقمر تضىء وجوههما لأهل السموات السبع وظهورهما لأهل الأرضين السبع .

قوله تعـالى : ﴿ وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ﴾ أى ذا منازل، أو قدّر له منازل . ثم قيـل : المعنى وقدّرهما، فوحّد إيجازا واختصارا، كما قال : « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَـا »[1] . وكما قال :

نحن بمـا عنـــدنا وأنت بمـا * عنـدك راضٍ والرأى مختلفُ

وقيل : إن الإخبار عن القمر وحده؛ إذ به تحصى الشهور التى عليهـا العمل فى المعاملات ونحوها، كما تقـدم فى « البقـرة »[2] . وفى سورة يس « وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ »[3] أى على عدد الشهر، وهو ثمـانية وعشرون منزلا . ويومان للنقصان والمحاق[4]، وهناك يأتى بيانه .

قوله تعـالى : ﴿ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ قال ابن عباس : لو جعـل شمسين، شمسا بالنهار وشمسا بالليل ليس فيهما ظلمة ولا ليل ، لم يُعلم عدد السنين وحسابُ الشهور . وواحد « السِّنين » سنة، ومن العـرب من يقول : سـنوات فى الجمع . ومنهم من يقول : سنهات . والتصغير سُنَيّة وسُنَيْهة .

قوله تعـالى : ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أى ما أراد الله عز وجل بخـلق ذلك إلا الحكمةَ والصواب، وإظهارا لصـنعته وحكمته، ودلالةً على قدرته وعلمه، ولتجزى كل نفس بمـا كسبت؛ فهذا هو الحق .

قوله تعـالى : ﴿ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ تفصيل الآيات تبيينها ليُستدلّ بها على قدرته تعالى، لاختصاص الليل بظلامه والنهار بضـيائه من غير استحقاق لهما ولا إيجاب؛

(١) آخر سورة الجمعة . (٢) راجع ج ٢ ص ٣٤١ وما بعدها طبعة ثانية . (٣) آية ٣٩ .
(٤) المحاق (مثلثة) : آخر الشهر اذا امحق الهلال فلم ير .

فيكون هذا لهم دليلا على أن ذلك بإرادة مريد . وقرأ ٱبن كَثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب « يفصل » بالياء، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله من قبله : « مَا خَلَقَ اللهُ ذلِكَ إلا بِالحق » وبعده « وما خلق الله فى السموات والأرض » فيكون متبعا له . وقرأ ٱبن السَّمَيْقَع « تُفَصَّل » بضم التاء وفتح الصاد على الفعل المجهول، و « الآيات » رفعا . الباقون « نفصل » بالنون على التعظيم .

قوله تعالى : إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

تقدم فى « البقرة » وغيرها معناه[1]، والحمد لله. وقد قيل : إن سبب نزولها أن أهل مكة سألوا آية فردّهم إلى تأمل مصنوعاته والنظر فيها ؛ قاله ٱبن عباس . ﴿ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ أى الشرك؛ فأما من أشرك ولم يستدلّ فليست الاية له آية .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ « يرجون » يخافون؛ ومنه قول الشاعر :

إذا لسعته النحل لم يَرْجُ لَسْعَها * وخالفها فى بَيْت نُوبٍ عَواسل[2]

وقيل يرجون يطمعون؛ ومنه قول الآخر :

أيرجو بنو مروان سمعى وطاعتى * وقومى تميمٌ والفلاةُ ورائيا

---

(١) راجع جـ٢ ص ١٩١ طبعة ثانية . (٢) البيت لأبى ذؤيب . وقوله : «وخالفها» بالخاء المعجمة : جاء الى عسلها وهى غائبة ترعى . ويروى « وحالفها » بالمهملة ، أى لازمها . والنوب : النحل : لأنها ترعى ثم تنوب الى موضعها . ويروى : «عوامل» بدل «عواسل» وهى التى تعمل العسل والشمع . (عن شرح ديوان أبى ذؤيب) .

فالرجاء يكون بمعنى الخوف والطمع؛ أى لايخافون عقابا ولا يرجون ثوابا. وجعل لقاء العذاب والثواب لقاء لله تفخيما لها . وقيل : يجرى اللقاء على ظاهره ، وهو الرؤية؛ أى لا يطمعون فى رؤيتنا . وقال بعض العلماء : لا يقع الرجاء بمعنى الخوف إلا مع الجَحْد؛ كقوله تعـالى : « مَالَكُمْ لا تَرجُون لِلهِ وَقَاراً »(١) . وقال بعضهم : بل يقع بمعناه فى كل موضع دل عليه المعنى .

قوله تعـالى : ﴿ وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى رَضُوا بها عوضا من الآخرة فعملوا لهـا . ﴿ وَٱطْمَأَنُّوا بِهَا ﴾ أى فرحوا بها وسكنوا إليها، وأصل آطمأن طأمن طُمأنينة، فقدّمت ميمه وزيدت نون وألف وصـل؛ ذكره الغَزْنوِىّ . ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا ﴾ أى عن أدلتنا ﴿ غَافِلُونَ ﴾ لايعتبرون ولا يتفكرون. ﴿ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ ﴾ أى مثواهم ومُقامهم . ﴿ النَّارُ بِمَـا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أى من الكفر والتكذيب .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الَّذِين آمَنُـوا ﴾ أى صـدّقوا . ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَـانِهِمْ ﴾ أى يزيدهم هـداية؛ كقوله : « وَالَّذِينَ آهْتَـدَوْا زَادَهُمْ هُدًى »(٢) . وقيـل : « يهديهم ربهم بإيمـانهم» إلى مكان تجرى من تحتهم الأنهار . وقال أبو رَوْق : يهديهم ربهم بإيمـانهم إلى الجنة . وقال عطية : « يهديهم » يثيبهم ويجزيهم . وقال مجاهد : « يهديهم ربهم » بالنور على الصراط إلى الجنة؛ يجعل لهم نورا يمشون به . ويُروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ما يقوّى هـذا أنه قال : " يتلقّى المؤمنَ عمـلُه فى أحسن صورة فيؤنسـه ويهديه ويتلقّى الكافرَ عملُه فى أقبح صورة فيوحشه ويضله ". هذا معنى الحديث . وقال آبن جريج : يجعل عملهم هاديا لهم . الحسن : « يهديهم » يرحمهم .

قوله تعـالى : ﴿ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾ قيل : فى الكلام واو محذوفة، أى وتجرى من تحتهم، أى من تحت بساتينهم . وقيل : من تحت أسِرّتهم؛ وهذا أحسن فى النزهة والفرجة .

(١) آية ١٣ سورة نوح . (٢) آية ١٧ سورة محمد .

قوله تعالى : دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ دعواهم : دعاؤهم ؛ والدعوى مصدر دعا يدعو ، كالشَّكْوَى مصدر شكا يشكو ؛ أى دعاؤهم فى الجنة أن يقولوا سبحانك اللهم . وقيل : إذا أرادوا أن يسألوا شيئا أخرجوا السؤال بلفظ التسبيح ويختمون بالحمد . وقيل : نداؤهم الخدم ليأتوهم بما شاءوا ثم سبّحوا . وقيل : إن الدعاء هنا بمعنى التمنّى ؛ قال الله تعالى : « وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ »(١) أى ما تتمنون . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أى تحية الله لهم أو تحية المَلَك أو تحيّة بعضهم لبعض : سلام . وقد مضى فى « النساء » معنى التحية مستوفًى(٢) . والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قيل : إن أهل الجنة إذا مرّ بهم الطير واشتهوه قالوا : سبحانك اللهم ؛ فيأتيهم المَلَك بما اشتهوا ، فإذا أكلوا حمدوا الله ؛ فسؤالهم بلفظ التسبيح والختم بلفظ الحمد . ولم يحك أبو عبيد إلا تخفيف « أن » ورفع ما بعدها ؛ قال : وإنما نراهم اختاروا هذا وفرقوا بينها وبين قوله عز وجل « أنّ لعنة الله » و « أنّ غضب الله » لأنهم أرادوا الحكاية حين يقال : الحمد لله . قال النحاس : مذهب الخليل وسيبويه أن « أنْ » هذه مخففة من الثقيلة ، والمعنى أنه الحمد لله . قال محمد بن يزيد : ويجوز «أنَّ الحمدَ لله» يعملها خفيفة عملها ثقيلة ؛ والرفع أقيس . قال النحاس : وحكى أبو حاتم أن بلال بن أبى بردة قرأ « وآخر دعواهم أنَّ الحمدَ لله ربِّ العالمين » .

قلت : وهى قراءة ابن مُحَيْصِن ، حكاها الغَزْنَوىّ لأنه يحكى عنه .

---

(١) آية ٣١ سورة فصلت . (٢) راجع ج ٥ ص ٢٩٧ طبعة أولى أو ثانية .

الثانيـــة — التسبيح والحمـد والتهليل قد يُسـمَّى دعاء؛ روى مسلم والبخارىّ عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب : "لا إله إلا اللهُ العظيمُ الحليمُ . لا إله إلا اللهُ ربُّ العرش العظيم . لا إله إلا الله ربّ السموات وربُّ الأرض وربّ العرش الكريم" . قال الطبرىّ : كان السلف يدعون بهذا الدعاء ويسمُّونه دعاء الكرب . وقال ابن عُيينة وقد سئل عن هذا فقال : أمَا علمتَ ان الله تعالى يقول "إذا شَغل عبدى ثناؤه عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين" . والذى يقطع النزاع وأن هذا يسمَّى دعاء وإن لم يكن فيه من معنى الدعاء شيء وإنما هو تعظيم لله تعالى وثناءٌ عليه ما رواه النَّسائى عن سعد ابن أبى وَقَّاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "دعوة ذى النُّون إذ دعا بها فى بطن الحـوت لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فانه لن يدعُوَ بهـا مسلم فى شيء إلا استجيب له" .

الثالثـــة — من السُّنَّة لمن بدأ بالأكل أن يسمِّىَ الله عنـد أكله وشربه ويحمَده عند فراغه اقتداء بأهل الجنة ؛ وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله ليرضى عن العبـد أن يأكل الأكلة فيحمَده عليهـا أو يشرب الشَّربة فيحمَده عليها" .

الرابعـــة — يستحبّ للداعى أن يقول فى آخر دعائه كما قال أهل الجنة : وآخر دعواهم أن الحمـد لله رب العالمين؛ وحَسَن أن يقرأ آخر الصافات[1] فانهـا جمعت تنزيه البارئ تعـالى عما نسب إليه، والتسليم على المرسلين، والختم بالحمد لله رب العالمين .

قوله تعـالى : وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١)

---

(١) هو قوله تعالى : «سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين» .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ ﴾ قيل : معناه ولو عجل الله للناس العقوبة كما يستعجلون الثواب والخير لماتوا، لأنهم خلقوا فى الدنيا خلقا ضعيفا، وليس هم كذا يوم القيامة؛ لأنهم يوم القيامة يخلقون للبقاء . وقيل : المعنى لو فعل الله مع الناس فى إجابته إلى المكروه مثل ما يريدون فعله معهم فى إجابته الى الخير لأهلكهم؛ وهو معنى «لَقُضِيَ إليهم أجلُهم» . وقيل : إنه خاص بالكافر؛ أى ولو يعجل الله للكافر العذاب على كفره كما عجل له خير الدنيا من المال والولد لعجّل له قضاء أجله ليتعجل عذاب الآخرة؛ قاله ابن اسحاق . مقاتل : هو قول النضر بن الحارث : اللَّهُمَّ إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء؛ فلو عجل لهم هذا لهلكوا . وقال مجاهد : نزلت فى الرجل يدعو على نفسه أو ماله أو ولده إذا غضب : اللهم أهلكه، اللهم لا تبارك له فيه والعنه، أو نحو هذا ؛ فلو استجيب ذلك منه كما يستجاب الخير لَقُضِيَ إليهم أجلهم . فالآية نزلت ذامّة لخُلُق ذميم هو فى بعض الناس يدعون فى الخير فيريدون تعجيل الإجابة ثم يحملهم أحيانا سوء الخلق على الدعاء فى الشر؛ فلو عجّل لهم لهلكوا .

الثانية — واختُلف فى إجابة هذا الدعاء؛ فرُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إنى سألت الله عز وجل ألّا يستجيب دعاء حبيب على حبيبه" . وقال شَهْر ابن حَوْشَب : قرأت فى بعض الكتب أن الله تعالى يقول للملائكة الموكّلين بالعبد : لا تكتبوا على عبدى فى حال ضجره شيئا؛ لطفا من الله تعالى عليه . قال بعضهم : وقد يستجاب ذلك الدعاء ؛ واحتج بحديث جابر الذى رواه مسلم فى صحيحه آخر الكتاب، قال جابر : سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بَطْنِ بُوَاطٍ [1] وهو يطلب المَجْدِيّ بن عمرو الجُهَنِيّ

(١) بواط (بضم أوله) : جبل من جبال جهينة بناحية رضوى (جبل بالمدينة عند ينبع) ، غزاه النبي صلى الله عليه وسلم فى شهر ربيع الأول فى السنة الثانية من الهجرة يريد قريشا .

وكان النـاضح يَعْتَقِبه[1] منا الخمسة والستة والسبعة ، فدارت عُقبة رجلٍ من الأنصار على ناضح له فأناخه فركب، ثم بعثـه فتلدّن[2] عليه بعض التلدّن؛ فقال له : شَأْ، لعنك الله! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن هذا اللاعنُ بعيرَه"؟ قال : أنا يا رسول الله؛ قال : "آنزِل عنه فلا تصحبنا بملعون لا تدعوا على أنفسكم ولا تدعوا على أولادكم ولا تدعوا على أموالكم لا توافقوا من الله ساعةً يُسأل فيها عطاءً فيستجيب لكم" .

فى غير مسلم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان فى سفر فلعن رجل ناقته فقال: "أين الذى لعن ناقته" ؟ فقال الرجل : أنا هذا يا رسول الله؛ فقال : "أخّرها عنك فقد أُجبت فيها" . ذكره الحَلِيمِىّ فى منهاج الدين . « شأ » يروى بالسين والشين، وهو زجر للبعير بمعنى سِر .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ ﴾ قال العلمـاء : التعجيل من الله ، والاستعجال من العبد . وقال أبو علىّ : همـا من الله ، وفى الكلام حذف؛ أى ولو يعجل الله للنـاس الشر تعجيلا مثـل استعجالهم بالخير ، ثم حذف تعجيلا وأقام صـفته مقامه ، ثم حذف صفته وأقام المضاف اليه مقامه؛ هذا مذهب الخليل وسيبويه . وعلى قول الأخفش والفراء كاستعجالهم، ثم حذف الكاف ونصب . قال الفراء: كما تقول ضربت زيدا ضربك، أى كضربك . وقـرأ ابن عامر « لَقَضَى إِلَيهم أجلَهـم » . وهى قراءة حسنة ؛ لأنه متصل بقوله « ولو يعجل الله للناس الشر » .

قوله تعالى : ﴿ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ أى لا يعجل لهم الشر فربمـا يتوب منهم تائب ، أو يخرج من أصلابهم مؤمن . ﴿ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أى يتحيرون . والطغيان : العلو والارتفاع ؛ وقد تقدّم فى « البقرة »[3] . وقد قيل: إن المراد بهذه الآية أهل مكة، وإنها نزلت حين قالوا : « اللَّهُمَّ إن كان هذا هو الحقَّ من عندك » الآية، على ما تقدّم[4] والله أعلم .

---

(١) أى يتعاقبونه فى الركوب واحد بعد واحد . والعقبة : النوبة . (٢) تلدّن : تلكأ وتوقف ولم ينبعث .

(٣) راجع جـ ١ ص ٢٠٩ طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) جـ ٧ ص ٣٩٨ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ ﴾ قيل : المراد بالإنسان هنا الكافر، قيل : هو أبو حذيفة بن المغيرة المشرك ، تصيبه البأساء والشدّة والجهد . ﴿ دَعَانَا لِجَنْبِهِ ﴾ أى على جنبه مضطجعا . ﴿ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾ و إنما أراد جميع حالاته ؛ لأن الإنسان لا يعدو إحدى هذه الحالات الثلاثة . قال بعضهم : إنما بدأ بالمضطجع لأنه بالضرّ أشدّ فى غالب الأمر، فهو يدعو أكثر، واجتهاده أشدّ، ثم القاعد ثم القائم . ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ ﴾ أى استمرّ على كفره ولم يشكر ولم يتعظ .

قلت : وهذه صفة كثير من المخلصين الموحدين ، إذا أصابته العافية مرّ على ما كان عليه من المعاصى؛ فالآية تعمّ الكافر وغيره . ﴿ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا ﴾ قال الأخفش : هى « كأنّ » الثقيلة خُفّفت ، والمعنى كأنه ؛ وأنشد :

وَیْ كأنْ مَن يكن له نَشَبٌ يُحْـ * ـبَبْ ومن يفتقر يعش عيش ضُرّ (١)

﴿ كَذَلِكَ زُيِّنَ ﴾ أى كما زين لهذا الدعاء عند البلاء والإعراض عند الرخاء ﴿ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ أى للشركين أعمالهم من الكفر والمعاصى . وهذا التزيين يجوز أن يكون من الله ، ويجوز أن يكون من الشيطان ، وإضلاله دعاؤه إلى الكفر .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾ يعنى الأمم الماضية من قبل أهل مكة أهلكناهم ﴿ لمّا ظلموا ﴾ أى كفروا وأشركوا . ﴿ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾

(١) البيت لزيد بن عمرو بن نفيل ؛ فراجعه فى خزانة الأدب فى الشاهد الثامن والسبعين بعد الأربعمائة .

أى بالمعجزات الواضحات والبراهين النيّرات . ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أى أهلكناهم لعلمنا أنهم لا يؤمنون . يخوّف كفار مكة عذاب الأمم الماضية ؛ أى نحن قادرون على إهلاك هؤلاء بتكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم، ولكن نمهلهم لعلمنا بأن فيهم مَن يؤمن ، أو يخرج من أصلابهم من يؤمن . وهـذه الآية تردّ على أهل الضلال القائلين بخلق الهُدَى والإيمان . وقيل : معنى « وما كانوا ليؤمنوا » أى جازاهم على كفرهم بأن طبع على قلوبهم ؛ ويدلّ على هذا أنه قال : ﴿كذلك نجزى القوم المجرمين﴾ .

قوله تعالى : ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ﴾ مفعولان . والخلائف جمع خليفة، وقد تقدّم آخر « الأنعام »[1] أى جعلناكم سكانا فى الأرض ﴿مِن بَعْدِهِمْ﴾ أى من بعد القرون المهلكة . ﴿لِنَنْظُرَ﴾ نصب بلام كَىْ، وقد تقدّم نظائره وأمثاله ؛ أى ليقع منكم ما تستحقون به الثواب والعقاب ، ولم يزل يعلمه غَيْبًا . وقيل : يعاملكم معاملة المختبر إظهارا للعدل . وقيل : النظر راجع إلى الرسل؛ أى لينظر رسلنا وأولياؤنا كيف أعمالكم . و« كيف » نصب بقوله تعملون؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام فلا يعمل فيه ما قبله .

قوله تعالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٨ طبعة أولى أو ثانية .

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴾ « تتلى » تقرأ، و « بينات» نصب على الحـال ؛ أى واضحات لا لبس فيهـا ولا إشكال . ﴿ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ يعنى لا يخافون يوم البعث والحساب ولا يرجون الثواب . قال قتادة : يعنى مشركى أهل مكة . ﴿ ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ والفرق بين تبـديله والإتيان بغيره أن تبديله لا يجوز أن يكون معه، والإتيان بغيره قد يجوز أن يكون معه؛ وفى قولهم ذلك ثلاثة أوجه :

أحدها ــ أنهـم سألوه أن يحوّل الوعد وعيـدا والوعيد وعدا ، والحلال حراما والحرام حلالا؛ قاله ابن جرير الطبرى .

الثـانى ــ سألوه أن يسقط ما فى القرآن من عيب آلهتهم وتسـفيه أحلامهم ؛ قاله ابن عيسى .

الثـالث ــ أنهم سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور؛ قاله الزجاج .

الثانيـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي ﴾ أى قل يا محمد ما كان لى ﴿ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ﴾ ومن عندى، كما ليس لى أن ألقاه بالردّ والتكذيب . ﴿ إِنْ أَتَّبِـعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ أى لا أتبع إلا ما أتلوه عليكم من وعد ووعيـد ، وتحريم وتحليل، وأمر ونهى . وقد يستدلّ بهـذا من يمنع نسخ الكتاب بالسنة؛ لأنه تعـالى قال : « قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى » وهـذا فيه بعد ؛ فإن الآية وردت فى طلب المشركين مثـل القرآن نظما ، ولم يكن الرسول صلى الله عليـه وسلم قادرا على ذلك ، ولم يسألوه تبـديل الحكم دون اللفظ ؛ ولأن الذى يقوله الرسول صلى الله عليـه وسلم إذا كان وحياً لم يكن من تلقاء نفسه ، بل كان من عند الله تعالى .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ أى إن خالفت فى تبديله وتغييره أو فى ترك العمل به ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يعنى يوم القيامة .

قوله تعـالى : ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾ أى لو شاء الله ما أرسلنى اليكم فتلوت عليكم القرآن ، ولا أعلمكم الله ولا أخبركم به ؛ يقال : دَرَيْتُ الشيءَ وأدرانى الله به، ودرَيته ودرَيت به . وفى الدراية معنى الختل ؛ ومنـه دريت الرجل أى ختلته ، ولهـذا لا يطلق الدارى فى حق الله تعالى وأيضا عُدم فيه التوقيف . وقرأ ابن كثير « ولأدراكم به » بغير ألف بين اللام والهمزة ؛ والمعنى : لو شاء الله لأعلمكم به من غير أن أتلوه عليـكم ؛ فهى لام التأكيد دخلت على ألف أفعل . وقرأ ابن عباس والحسن « ولا أدراتكم به » بتحويل الياء ألفا،(1) على لغة بنى عقيل؛ قال الشاعر :

لعمرك ما أخشى التَّصـعلك ما بَقِى * على الأرض قَيْسِيّ يسوق الأباعرا

وقال آخـــر :

ألا آذنتْ أهـلَ اليمـامة طيِّئٌ * بحرب كناصات الأغرّ المشهّرِ

قال أبو حاتم : سمعت الأصمعيّ يقول سألت أبا عمرو بن العلاء : هل لقراءة الحسن « ولا أدراتكم به » وجه ؟ فقال لا . وقال أبو عبيـد : لا وجه لقراءة الحسن « ولا أدراتكم به » إلا الغلط . قال النحاس : معنى قول أبى عبيد «لا وجه» إن شاء الله على الغلط ؛ لأنه يقال: دريت أى علمت ، وأدريت غيرى ، ويقال : درأت أى دفعت ؛ فيقع الغلط بين دريت ودرأت . قال أبو حاتم : يريد الحسن فيما أحسب «ولا أدريتكم به» فأبدل من الياء ألفا على لغة بنى الحارث بن كعب ، يبدلون من الياء ألفا إذا انفتح ما قبلها ؛ مثل «إنّ هذان لساحران»(2) . قال المهدوىّ : ومن قرأ « أدرأتكم » فوجهه أن أصـل الهمزة ياء، فأصـله « أدريتكم » فقلبت الياء ألفا وإن كانت ساكنة ؛ كما قال : يايس فى يبِّس وطايئ فى طيئ، ثم قلبت الألف

---

(1) أى أن الأصل : « أدريتكم » . (2) آية ٦٣ سورة طه .

همزة على لغـة من قال فى العالم العألم وفى الخاتم الخأتم . قال النحاس : وهذا غلط، والرواية عن الحسن « ولا أدرأتكم » بالهمزة، وأبو حاتم وغيره تكلّم أنه بغير همز، ويجوز أن يكون من درأت أى دفعت؛ أى ولا أمرتكم أن تدفعوا فتتركوا الكفر بالقرآن .

قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا ﴾ ظرف، أى مقدارا من الزمان وهو أربعون سنة. ﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ أى من قبل القرآن، تعرفوننى بالصدق والأمانة، لا أقرأ ولا أكتب، ثم جئتكم بالمعجزات . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أن هذا لا يكون إلا من عند الله لا من قِبلى . وقيل : معنى « لبثت فيكم عمرا » أى لبثت فيكم مدّة شبابى لم أعص الله، أفتريدون منى الآن وقد بلغت أربعين سنة أن أخالف أمر الله، وأغيّر ما ينزله علىّ . قال قتادة : لبث فيهم أربعين سنة ، وأقام سنتين يرى رؤيا الأنبياء، وتُوُفّى صلى الله عليه وسلم وهو ابن اثنتين وستين سنة .

قوله تعـالى : فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

هـذا استفهام بمعنى الجَحْد؛ أى لا أحدَ أظلمُ ممن افترى على الله الكذب، وبدّل كلامه وأضاف شيئا إليه ممـا لم ينزله . وكذلك لا أحدَ أظلمُ منكم إذا أنكرتم القرآن وافتريتم على الله الكذب، وقلتم ليس هـذا كلامه . وهذا ممـا أُمِر به الرسول صلى الله عليـه وسلم أن يقول لهم . وقيل : هو من قول الله ابتداء . وقيل : المُفْتَرِى المشركُ ، والمكذّب بالآيات أهلُ الكتاب . ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

قوله تعـالى : وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ يريد الأصـنام . ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ وهـذه غاية الجهالة منهم؛ حيث ينتظرون الشـفاعة فى المـآل ممن لا يوجد منه نفع ولا ضر فى الحال . وقيـل : « شفعاؤنا » أى تشفع لنا عند الله فى إصلاح معاشنا فى الدنيا . ﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ قراءة العامة « تنبّئون » بالتشديد . وقرأ أبو السَّمَّال العَدَوِى « أتنبِئون الله » مخففا، من أنبأ ينبئ . وقراءة العامة من نبّأ ينبئ تنبئة؛ وهما بمعنًى واحد، جمعهما قولُه تعالى : « من أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ »[1] أى أتخبرون الله أن له شريكا فى ملكه أو شفيعا بغير إذنه، والله لا يعلم لنفسه شريكا فى السموات ولا فى الأرض؛ لأنه لا شريك له فلذلك لا يعلمه . نظيره قوله : « أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ »[2] ثم نزّه نفسه وقدسها عن الشرك فقال : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أى هو أعظم من أن يكون له شريك . وقيل : المعنى أى يعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يميّز « ويقولون هؤلاءِ شفعاؤنا عِند الله » فيكذبون؛ وهل يتهيأ لكم أن تنبئوه بمـا لا يعلم، سبحانه وتعالى عما يشركون! . وقرأ حمزة والكسـائى « تشركون » بالتاء، وهو اختيار أبى عبيد . الباقون بالياء .

قوله تعـالى : وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

تقدّم فى «البقرة»[3] معناه فلا معنى للإعادة . وقال الزجاج : هم العرب كانوا على الشرك . وقيل : كل مولود يولد على الفطرة، فاختلفوا عنـد البلوغ . ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ إشارة إلى القضاء والقدر؛ أى لولا ما سبق فى حكمه أنه لا يقضى بينهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب دون القيامة لقضى بينهم فى الدنيـا، فأدخل المؤمنين الجنة بأعمالهم والكافرين النار بكفرهم ، ولكنه سبق من الله الأجل مع علمه بصنيعهم فجعل

---

(١) آية ٣ سورة التحريم . (٢) آية ٣٣ سورة الرعد . (٣) راجع ج ٣ ص ٣٠ طبعة أولى أو ثانية .

موعدهم القيامة؛ قاله الحسن . وقال أبو رَوْق: « لقُضِى بينهم » لأقام عليهم الساعة . وقيل: لفرغ من هلاكهم . وقال الكلبي : « الكلمة » أن الله أخّر هذه الأمة فلا يهلكهم بالعذاب فى الدنيا إلى يوم القيامة ، فلولا هذا التأخير لقضى بينهم بنزول العذاب أو بإقامة الساعة . والآية تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم فى تأخير العذاب عمن كفر به . وقيل : الكلمة السابقة أنه لا يأخذ أحدا إلا بحجة وهو إرسال الرسل؛ كما قال : « وما كنّا مُعَذِّبين حتى نَبعثَ رسولا »(1) وقيل : الكلمة قوله : " سبقت رحمتى غضبى " ولولا ذلك لما أخر العصاة إلى التوبة . وقرأ عيسى « لقَضى » بالفتح .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ (٢٠)

يريد أهل مكة؛ أى هلّا أنزل عليه آية ، أى معجزة غير هذه المعجزة، فيجعل لنا الجبال ذهبا ويكون له بيت من زُخْرف، ويحيى لنا من مات من آبائنا . وقال الضحاك : عصا كعصا موسى . ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ أى قل يا محمد إن نزول الآية غيب . ﴿ فَٱنْتَظِرُوا ﴾ أى تربصوا . ﴿ إِنِّى معكم مِن المنتظِرينَ ﴾ لنزولها . وقيل : انتظروا قضاء الله بيننا بإظهار المحق على المبطل .

قوله تعالى : وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١)

يريد كفار مكة . ﴿ رَحْمَةً منْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ ﴾ قيل : رخاء بعد شدّة، وخصب بعد جَدْب . ﴿ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِى آياتِنا ﴾ أى استهزاء وتكذيب . وجواب قوله « وإذا أذقنا » : « إذا لهم » على قول الخليل وسيبويه . ﴿ قُلِ اللهُ أَسْرَعُ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ مَكْرًا ﴾ على البيان ، أى

(1) آية ١٥ سورة الإسراء .

أعجل عقوبة على جزاء مكرهم، أى أن ما يأتيهم من العــذاب أسرع فى إهلاكهم مما أتوه من المكر. ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ يعنى بالرسل الحفظة . وقراءة العـامة « تمكرون » بالتاء خطابا . وقرأ يعقوب فى رواية رُوَيْس وأبو عمرو فى رواية هارون العَتَكى « يمكرون » بالياء، لقوله : « إذا لهم مكر فى آياتنا » قيل : قال أبو سفيان قُحِطنا بدعائك فإن سقيتنا صدقناك؛ فسُقُوا بآستسقائه صلى الله عليه وسلم فلم يؤمنوا، فهذا مكرهم .

قوله تعـالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾ أى يحملكم فى البر على الدواب وفى البحر على الفُلْك . وقال الكلبى : يحفظكم فى السير . والآية تتضمن تعـديد النِّعم فيما هى الحـال بسبيله من ركوب النـاس الدوابَّ والبحر . وقد مضى الكلام فى ركوب البحر فى « البقرة »(١) . وَ﴿ يُسَيِّرُكُمْ ﴾ قراءة العامة . آبن عامر « ينشركم » بالنون والشين، أى يبثّكم و يفرّقكم . والفُلْك يقع على الواحد والجمع، ويذكر و يؤنث، وقد تقدّم القول فيــه(١) . وقوله ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾ خروج من الخطاب الى الغيبــة، وهو فى القرآن وأشعار العرب كثير؛ قال النابغة :

يادار ميّــة بالعلْيـاء فالسَّــنَد * أقْوَتْ وطال عليها سالف الأَمَد

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩٤ طبعة ثانية .

قال ابن الأنبارى : وجائز فى اللغة أن يرجع من خطاب الغيبة إلى لفظ المواجهة بالخطاب ؛ قال الله تعالى : « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا »[1] فأبدل الكاف من الهاء .

قوله تعالى : ﴿ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا ﴾ تقدّم الكلام فيها[2] فى البقرة . ﴿ جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ الضمير فى « جاءتها » للسفينة . وقيل للريح الطيبة . والعاصف الشديدة؛ يقال: عصفت الريح وأعصفت، فهى عاصف ومُعْصِف ومُعْصِفة أى شديدة، قال الشاعر :

حتى إذا أعصفت ريح مُزَعزِعة * فيها قطار ورعد صوته زَجِل

وقال « عاصف » بالتذكير لأن لفظ الريح مذكر، وهى القاصف أيضا. والطيبة غير عاصف ولا بطيئة . ﴿ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ والموج ما ارتفع من الماء . ﴿ وَظَنُّوا ﴾ أى أيقنوا ﴿ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ أى أحاط بهم البلاء؛ يقال لمن وقع فى بلية : قد أحيط به، كأن البلاء قد أحاط به؛ وأصل هذا أن العدوّ إذا أحاط بموضع فقد هلك أهله . ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أى دعوه وحده وتركوا ما كانوا يعبدون . وفى هذا دليل على أن الخلق جُبِلوا على الرجوع الى الله فى الشدائد ، وأن المضطر يجاب دعاؤه وإن كان كافرا ؛ لانقطاع الأسباب ورجوعه إلى الواحد رب الأرباب؛ على ما يأتى بيانه فى «النمل»[3] ان شاء الله تعالى. وقال بعض المفسرين. إنهم قالوا فى دعائهم أهيا شراهيا؛ أى يا حى ياقيوم؛ وهى لغة العجم.

مسألة — هذه الآية تدل على ركوب البحر مطلقا ، ومن السنّة حديثُ أبى هريرة وفيه : إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء... الحديث . وحديث أنس فى قصة أمّ حرام يدل على جواز ركوبه فى الغَزْو، وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة »[4] مستوفى والحمد لله . وقد تقدم فى آخر « الأعراف » حكم راكب البحر فى حال ارتجاجه وغليانه، هل حكمه حكم الصحيح أو المريض المحجور عليه؛ فتأمله هناك[5] .

---

(١) آية ٢١ سورة الإنسان. (٢) راجع جـ ٢ ص ١٩٧ طبعة ثانية. (٣) فى قوله تعالى: أمن يجيب المضطر اذا دعاه ...» آية ٦٢ (٤) راجع جـ ٢ ص ١٩٥ طبعة ثانية. (٥) راجع جـ ٧ ص ٣٤١ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ ﴾ أى من هذه الشدائد والأهوال . وقال الكلبى : من هـذه الريح . ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أى من العاملين بطاعتك على نعمة الخلاص . ﴿ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ ﴾ أى خلّصهم وأنقذهم . ﴿ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أى يعملون فى الأرض بالفساد و بالمعاصى . والبغى : الفساد والشرك ؛ من بَغَى الجرحُ إذا فسد ؛ وأصله الطلب ، أى يطلبون الاستعلاء بالفساد . ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أى بالتكذيب ؛ ومنه بَغَت المرأةُ طلبت غير زوجها .

قوله تعالى : ﴿ يَٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أى و باله عائد عليكم ؛ وتمّ الكلام ، ثم ابتـدأ فقال : ﴿ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى هو متاع الحياة الدنيا ؛ ولا بقاء له . قال النحاس : « بَغْيُكُمْ » رفع بالابتداء وخبره « متاع الحياة الدنيا » . و « على أنفسكم » مفعول معنى فعـل البَغْى . ويجوز أن يكون خبره « على أنفسكم » وتضمر مبتـدأ ، أى ذلك متاع الحياة الدنيا ، أو هو متاع الحياة الدنيا ؛ و بين المعنيين فرق لطيف ، إذا رفعت متاعا على أنه خبر « بغيكم » فالمعنى إنمـا بَغْى بعضكم على بعض ؛ مثل « فسلّموا على أنفسكم » وكذا « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » . و إذا كان الخبر « على أنفسكم » فالمعنى إنمـا فسادكم راجع عليكم ؛ مثل « وإنْ أسأتم فلها » . وروى عن سفيان بن عيينة أنه قال : أراد أن البغى متاع الحياة الدنيا ، أى عقو بته تعجّل لصاحبه فى الدنيا ؛ كما يقال : البَغْىُ مَصْرعةٌ . وقرأ ٱبن أبى إسحاق « متاعَ » بالنصب على أنه مصدر ؛ أى تُمتعون متاع الحياة الدنيا . أو بنزع الخافض ، أى لمتاع . أو مصدر بمعنى المفعول على الحال ، أى متمتعين . أو هو نصب على الظرف ، أى فى متاع الحياة الدنيا . ومتعلق الظرف والجار والحال معنى الفعل فى البغى . و «على أنفسكم» مفعول ذلك المعنى .

قوله تعـالى : إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ معنى الآية التشبيه والتمثيل، أى صفة الحياة الدنيا فى فنائها وزوالها وقلة خطرها والملاذ بها كماء؛ أى مثل ماء، فالكاف فى موضع رفع. وسيأتى لهذا التشبيه مزيد بيان فى «الكهف»(١) إن شاء الله تعالى. ﴿أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ نعت لماء. ﴿فَاخْتَلَطَ﴾ روى عن نافع أنه وقف على «فاختلط» أى فاختلط الماء بالأرض، ثم ابتدأ « به نبات الأرض » أى بالماء نبات الأرض؛ فأخرجت ألوانا من النبات، فنبات على هذا ابتداء، وعلى مذهب من لم يقف على « فاختلط » مرفوع باختلط؛ أى اختلط النبات بالمطر، أى شرب منه فتندّى وحَسُن وٱخضرّ. والاختلاط تداخل الشيء بعضه فى بعض.

قوله تعالى : ﴿ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ ﴾ من الحبوب والثمار والبقول. ﴿ وَالأَنْعَامُ ﴾ من الكلإ والتبن والشعير. ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ أى حسنها وزينتها. والزخرف كمال حسن الشيء؛ ومنه قيل للذهب زُخْرف. ﴿ وَٱزَّيَّنَتْ ﴾ أى بالحبوب والثمار والأزهار؛ والأصل تزينت أدغمت التاء فى الزاى وجىء بألف الوصل؛ لأن الحرف المدغم مقام حرفين الأوّل منهما ساكن والساكن لا يمكن الابتداء به . وقرأ ٱبن مسعود وأبيّ ابن كعب « وتزينت » على الأصل. وقرأ الحسن والأعرج وأبو العالية « وأَزْيَنَت » أى أتت بالزينة عليها، أى الغَلّة والزرع؛ وجاء بالفعل على أصله ولو أعلّه لقال وٱزّانت . وقال عوف ابن أبى جميلة الأعرابى : قرأ أشياخنا « وٱزيانّت » وزنه اسوادّت . وفى رواية المُقَدَّمِي « وٱزّاينت » والأصل فيه تزاينت، وزنه تقاعست ثم أدغم. وقرأ الشعبيّ وقتادة « وأَزْيَنت » مثل أفْعلت . وقرأ أبو عثمان النَّهدِيّ « وٱزْيَنّت » مثل ٱفعلّت، وعنه أيضا « وٱزيانت » مثل افعالت، وروى عنه « ٱزيأنت » بالهمزة ؛ ثلاث قراءات .

قوله تعالى : ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا ﴾ أى أيقن . ﴿ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ﴾ أى على حصادها والانتفاع بها؛ أخبر عن الأرض والمعنِيّ النبات إذ كان مفهوما وهو منها . وقيل : ردّ

---

(١) آية ٤٥

إلى الغلة، وقيل إلى الزينة . ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا﴾ أى عذابنا، أو أمرنا بهلاكها . ﴿لَيْلاً أَوْ نَهَاراً﴾ ظرفان. ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ مفعولان، أى محصودة مقطوعة لاشيء فيها. وقال «حصيدا» ولم يؤنّث لأنه فعيـل بمعنى مفعول . قال أبو عبيد : الحصـيد المستأصَل . ﴿كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ أى لم تكن عامرة ؛ من غَنِيَ إذا أقام فيـه وعمَره . والمغانى فى اللغـة : المنازل التى يعمرها الناس . وقال قتادة : كأن لم تنعم . قال لبيد :

وغَنِيتُ سَبْتًا قبـل مَجْرَى داحِسٍ * لو كان للنفس اللَّجُوج خـلودُ[1]

وقراءة العـامة « تغن » بالتاء لتأنيث الأرض . وقرأ قتادة « يغن » باليـاء ، يذهب به الى الزخرف ؛ يعنى فكما يهلك هـذا الزرع هكذا كذلك الدنيا . ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أى نبينّها . ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فى آيات الله .

قوله تعـالى : وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

قوله تعـالى : ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ لمـا ذكر وصف هـذه الدار وهى دار الدنيا وصف الآخرة فقال : ان الله لا يدعوكم إلى جمع الدنيا بل يدعوكم الى الطاعة لتصيروا الى دار السلام، أى الى الجنة . قال قتادة والحسن : السلام هو الله، وداره الجنة؛ وسميت الجنة دار السلام لأن من دخلها سـلم من الآفات . ومن أسمائه سبحانه السـلام، وقد بيناه فى (الكتاب الأسنى فى شرح أسمـاء الله الحسنى) . ويأتى فى سورة « الحشر »[2] إن شاء الله . وقيـل : المعنى والله يدعو إلى دار السلامة . والسـلام والسلامة بمعنًى كالرَّضاع والرَّضاعة ؛ قاله الزجاج . قال الشاعر :

تُحَيِّي بالسـلامة أمُّ بكـرٍ * وهل لكِ بعد قومكِ من سلام

(١) السبت : البرهة من الدهر . وداحس : اسم الفرس . (٢) فى قوله تعالى : « هو الله الذى لا إله إلا هو ... » آية ٢٣

وقيل : أراد والله يدعو إلى دار التحية ؛ لأن أهلها ينالون من الله التحية والسلام، وكذلك من الملائكة . قال الحسن : إن السلام لا ينقطع عن أهل الجنة، وهو تحيتهم؛ كما قال : « وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ » . وقال يحيى بن معاذ : يابن آدم ، دعاك الله إلى دار السلام فانظر من أين تجيبه، فإن أجبتَه من دنياك دخلتها، و إن أجبته من قبرك مُنعتها . وقال ابن عباس : الجنان سبع؛ دار الجلال، ودار السلام ، وجنة عدن، وجنة المأوى، وجنة الخلد ، وجنة الفردوس، وجنة النعيم .

قوله تعالى : ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ عمّ بالدعوة إظهارا لحجته، وخصّ بالهداية استغناء عن خلقه . والصراط المستقيم ، قيل : كتاب الله ؛ رواه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الصراط المستقيم كتاب الله تعالى " . وقيل الإسلام؛ رواه النوّاس بن سمعان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل الحق ؛ قاله قتادة ومجاهد . وقيل : رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه من بعده أبو بكر وعمر رضي الله عنهما . وروى جابر بن عبد الله قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال " رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي فقال أحدهما لصاحبه اضرب له مثلا فقال له اسمع سمعتْ أذناك واعْقِل عَقَل قلبك إنما مثَلُك ومثَلُ أمتك كمثل ملك اتخذ دارا ثم بنى فيها بيتا ثم جعل فيها مأدُبة ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من تركه فالله الملِكُ والدارُ الإسلامُ والبيتُ الجنةُ وأنت يا محمد الرسول فمن أجابك دخل في الإسلام ومن دخل في الإسلام دخل الجنة ومن دخل الجنة أكل ما فيها — ثم تلا يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم — « ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم » " . وقال قتادة ومجاهد : « والله يدعو الى دار السلام » . وهذه الآية بيّنةُ الحجة والردّ على القدرية ؛ لأنهم قالوا : هدى الله الخلق كلَّهم إلى صراط مستقيم ، والله قال : « ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم » فردّوا على الله نصوص القرآن .

قوله تعالى : لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ رُوى من حديث أنس قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى «وزيادة» ، قال : "للذين أحسنوا العمل فى الدنيا لهم الحسنى وهى الجنــة والزيادة النظر الى وجه الله الكريم " . وهو قول أبى بكر الصديق وعلىّ ابن أبى طالب فى رواية، وحذيفة وعُبادة بن الصامت وكعب بن عُجْرة وأبى موسى وصُهيب وابن عباس فى رواية، وهو قول جماعة من التابعين؛ وهو الصحيح فى الباب . و روى مسلم فى صحيحه عن صُهيب عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "اذا دخل أهلُ الجنة الجنةَ قال الله تبارك وتعالى تريدون شيئا أزيدكم فيقولون ألم تبيّض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال فيكشِف الحجابَ فما أُعْطُوا شيئا أحبَّ اليهم من النظر الى ربهم عز وجل — وفى رواية ثم تلا — للذين أحسنوا الحسنى و زيادة " . وخرّجه النَّسائى أيضا عن صهيب قال قيــل لرســول الله صلى الله عليه وسلم : هذه الآية « للذين أحسنوا الحسنى و زيادة » قال : "اذا دخل أهلُ الجنة الجنةَ وأهلُ النــار النارَ نادى منادٍ ياأهل الجنة إن لكم موعدا عنــد الله يريد أن يُنجِزكُموه قالوا ألم يبيّض الله وجوهنا ويُثقّل موازيننا ويُجِرْنا من النار قال فيكشِف الحجابَ فينظرون اليه فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحبَّ اليهم من النظر ولا أقرّ لأعينهم " . وخرجه ٱبن المبارك فى دقائقه عن أبى موسى الأشعرى موقوفا، وقد كتبناه فى كتاب التذكرة، وذكرنا هناك معنى كشف الحجاب، والحمد لله . وخرّج الترمذى الحكيم أبو عبد الله رحمه الله : حدثنا على بن حجر حدّثنا الوليد بن مســلم عن زُهير عن أبى العالية عن أُبَىّ بن كعب قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزيادتين فى كتاب الله؛ فى قوله «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة» قال : "النظر إلى وجه الرحمن " . وعن قوله « وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون »[1] قال :

(١) آية ١٤٧ سورة الصافات .

" عشرون ألفا " . وقد قيل : إن الزيادة أن تضاعف الحسنة عشر حسنات إلى أكثر من ذلك؛ روى عن ٱبن عباس . وروى عن علىّ رضى الله عنه : الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة آلاف باب . وقال مجاهد : الحسنى حسنة مثل حسنة، والزيادة مغفرة من الله ورضوان . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الحسنى الجنة، والزيادة ما أعطاهم الله فى الدنيا من فضله لا يحاسبهم به يوم القيامة . وقال عبد الرحمن بن سابط : الحسنى البشرى، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم؛ قال الله تعالى : «وجوهٌ يومئذٍ ناضِرةٌ إلى ربها ناظرة»(١) . وقال يزيد بن شجرة : الزيادة أن تمر السحابة بأهل الجنة فتُمطرهم من كل الفواكه التى لم يروها، وتقول : يأهل الجنة، ما تريدون أن أمطركم؟ فلا يريدون شيئا إلا أمطرتهم إياه . وقيل : الزيادة انه ما يمرّ عليهم مقدار يوم من أيام الدنيا إلا حتى يطيف بمنزل أحدهم سبعون ألف مَلَك، مع كل ملك هدايا من عند الله ليست مع صاحبه، ما رأوا مثل تلك الهدايا قطّ؛ فسبحان من لا تتناهى مقدوراته . وقيل : « أحسنوا » أى معاملة الناس . والحسنى : شفاعتهم . والزيادة : إذن الله تعالى فيها وقبوله .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَرْهَقُ ﴾ قيل : معناه يلحق؛ ومنه قيل : غلام مراهق إذا لحق بالرجال . وقيل يعلو . وقيل يغشى؛ والمعنى متقارب . ﴿ قَتَرٌ ﴾ غبار . ﴿ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾ أى مذلة؛ كما يلحق أهل النار؛ أى لا يلحقهم غبار فى محشرهم إلى الله ولا تغشاهم ذِلة . وأنشد أبو عبيدة للفرزدق :

مُتَوَّجٌ برداء الملك يتبعه * مَوْج ترى فوقه الراياتِ والقَترا

وقرأ الحسن « قَتْر » بإسكان التاء . والقَتَر والقَتَرة والقَتْرة بمعنًى واحد؛ قاله النحاس . وواحد القَتَر قَتَرة؛ ومنه قوله : « تَرْهَقُهَا قَتَرَة »(٢) أى تعلوها غَبرة . وقيل : قَتَرٌ كَآبةٌ وكسوف . ٱبن عباس : القتر سواد الوجوه . ٱبن بحر : دخان النار؛ ومنه قُتار القِدْر . وقال ٱبن أبى ليلى : هو بُعْدُ نظرهم إلى ربهم عزّ وجل .

---

(١) آية ٢٢ سورة القيامة . (٢) آية ٤١ سورة عبس .

قلت : هـذا فيه نظر ؛ فإن الله عزّ وجل يقول : « إنّ الذين سبقت لهم منّا الحُسْنَى أولئك عنها مبعدون » — إلى قوله — لَا يَحْزُنُهُـمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ »[1] وقال فى غير آية : « ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وقال : « إن الذين قالوا ربُّنا اللهُ ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألّا تخافوا ولا تحزنوا »[2] . وهذا عام فلا يتغير بفضل الله فى موطن من المواطن لا قبل النظر ولا بعده وجْهُ المحسن بسواد من كآبة ولا حزن ، ولا يعلوه شىء من دخان جهنم ولا غيره ؛ « وأما الذين ابيضّت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون »[3] .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ أى عملوا المعاصى . وقيل الشرك . ﴿ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ جزاء مرفوع بالابتداء ، وخبره بمثلها . قال ابن كَيْسان : الباء زائدة ؛ والمعنى جزاء سيئة مثلها . وقيل : الباء مع مابعدها الخبر ، وهى متعلقة بمحذوف قامت مقامه ، والمعنى : جزاء سيئة كائن بمثلها ؛ كقولك : إنما أنا بك ؛ أى إنما أنا كائن بك . ويجوز أن تتعلق بجزاء ، التقدير : جزاء سيئة بمثلها كائن ؛ فحذف خبر المبتدأ . ويجوز أن يكون « جزاء » مرفوعا على تقدير فلهم جزاء سيئة ؛ فيكون مثل قوله « فعِدّة من أيام أُخَر » أى فعليه عدة ، وشبهه ؛ والباء على هذا التقدير تتعلق بمحذوف ، كأنه قال لهم جزاء سيئة ثابت بمثلها ، أو تكون مؤكدة أو زائدة .

ومعنى هذه المِثْليّة أن ذلك الجزاء مما يعدّ مماثلا لذنوبهم ، أى هم غير مظلومين ، وفعْلُ الربّ غير معلّل بعلة . ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أى يغشاهم هوان وخزى . ﴿ مَا لَهُمْ مِنَ اللهِ ﴾ أى من عذاب الله . ﴿ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أى مانع يمنعهم منه . ﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ ﴾ أى ألبست .

(١) آية ١٠١ سورة الأنبياء . (٢) آية ٣٠ سورة فصلت . (٣) آية ١٠٧ سورة آل عمران .

﴿ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا ﴾ جمع قطعة، وعلى هذا يكون « مظلما » حال من الليل؛ أى أغشيت وجوههم قطعا من الليل فى حال ظلمته . وقرأ الكسائى وابن كثير « قطْعا » بإسكان الطاء؛ ف « مظلما » على هذا نعت، ويجوز أن يكون حالا من الليل . والقِطْع اسم ما قُطع فسقط. وقال ابن السِّكيت : القِطْع طائفة من الليل؛ وسيأتى فى « هود »(١) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾ أى نجمعهم، والحشر الجمع . ﴿ جَمِيعًا ﴾ حال. ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ أى اتخذوا مع الله شريكا . ﴿ مَكَانَكُمْ ﴾ أى الزموا وأثبتو مكانكم، وقفوا مواضعكم . ﴿ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾ وهذا وعيد . ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ أى فرّقنا وقطعنا ما كان بينهم من التواصل فى الدنيا؛ يقال : زيّلته فتزيّل، أى فرّقته فتفرق، وهو فعّلت ؛ لأنك تقول فى مصدره تزييلا، ولو كان فَيْعَلْت لقلت زَيّلَةً . والمزايلة المفارقة؛ يقال : زايله الله مزايلة وزِيالا إذا فارقه . والتزايل التباين . قال الفراء : وقرأ بعضهم « فزايلنا بينهم » ؛ يقال : لا أزايل فلانا، أى لا أفارقه؛ فإن قلت : لا أزاوله فهو بمعنى آخر، معناه لا أخاتله . ﴿ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم ﴾ عنى بالشركاء الملائكة . وقيل الشياطين ، وقيل الأصنام؛ فينطقها الله تعالى فتكون بينهم هذه المحاورة . وذلك أنهم ادعوا على الشياطين الذين أطاعوهم والأصنام التى عبدوها أنهم أمروهم بعبادتهم ويقولون ما عبدناكم حتى أمرتمونا . قال مجاهد : ينطق الله الأوثان فتقول ما كنا نشعر بأنكم إيانا تعبدون، وما أمرناكم بعبادتنا . وإن حُمل الشركاء على الشياطين فالمعنى أنهم يقولون ذلك دهَشا، أو يقولون كذبا واحتيالا للخلاص ، وقد يجرى مثل هذا غدا؛ وإن صارت المعارف ضرورية .

قوله تعالى : فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾

(١) فى قوله تعالى : « فأسر بأهلك بقطع من الليل » آية ٨١

قوله تعالى : ﴿ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ «شهيدا» مفعول، أى كفى الله شهيدا، أو تمييز، أى اكتف به شهيدا بيننا وبينكم إن كنا أمرناكم بهذا أو رضيناه منكم . ﴿ إِنْ كُنَّا ﴾ أى ما كنا ﴿ عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ إلا غافلين لا نسمع ولا نبصر ولا نعقل؛ لأنا كنا جمادا لاروح فينا .

قوله تعـالى : هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)

قوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ ﴾ فى موضع نصب على الظرف . ﴿ تَبْلُو ﴾ أى فى ذلك الوقت . «تبلو» أى تذوق. وقال الكلبي : تعلم. مجاهد : تختبر . ﴿ كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ﴾ أى جزاء ما عملت وقدّمت . وقيل : تسلم، أى تسلم ما عليها من الحقوق إلى أربابها بغير اختيارها . وقرأ حمزة والكسائى « تتلو » أى تقرأ كل نفس كتابها الذى كُتب عليها . وقيل « تتـلو » تتبع؛ أى تتبع كل نفس ما قدمت فى الدنيا؛ قاله السدّى . ومنه قول الشاعر :

إن المُرِيبَ يتبــع المُرِيبَـا * كما رأيت الذّيب يتـلو الذّيبا

قوله تعـالى : ﴿ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ بالخفض على البدل أو الصفة . ويجوز نصب الحق من ثلاث جهات؛ يكون التقدير : وردوا حقا، ثم جىء بالألف واللام . ويجوز أن يكون التقدير : مولاهم حقا لا ما يعبدون من دونه . والوجه الثالث أن يكون مدحا؛ أى أعنى الحق . ويجوز أن يرفع « الحق »، ويكون المعنى مولاهم الحق — على الابتداء والخبر، والقطع ممـا قبل — لا ما يشركون من دونه . ووصف نفسه سبحانه بالحق لأن الحق منـه كما وصف نفسه بالعدل لأن العدل منه؛ أى كل عدل وحق فمن قبله . وقال ابن عباس : « مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ » أى الذى يجازيهم بالحق . ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أى بطل . ﴿ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ « يفترون » فى موضع رفع وهو بمعنى المصدر، أى افتراؤهم . فإن قيـل كيف قال : وردوا إلى الله مولاهم الحق وقد أخبر بأن الكافرين لامولى لهم . قيـل : ليس بمولاهم فى النصرة والمعونة، وهو مولى لهم فى الرزق وإدرار النعم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٣١)

المراد بمساق هـذا الكلام الردُّ على المشركين وتقريرُ الحجة عليهم ؛ فمن اعترف منهم فالحجة ظاهرة عليهم ، ومن لم يعترف فيقرّر عليه أن هـذه السموات والأرض لابدّ لها من خالق ؛ ولا يتمارى فى هذا عاقل . وهذا قريب من مرتبة الضرورة . ﴿ مِنَ السَّماءِ ﴾ أى بالمطر . ﴿ والأَرْضِ ﴾ بالنبات . ﴿ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ أى مَن جعلهما وخلقهما لكم . ﴿ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ أى النباتَ من الأرض، والإنسانَ من النطفة، والسُّنْبُلَةَ من الحبة، والطيرَ من البيضة، والمؤمنَ من الكافر . ﴿ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾ أى يقدّره ويقضيه . ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ لأنهم كانوا يعتقـدون أن الخالق هو الله ؛ أو فسيقولون هو الله إن فكروا وأنصفوا فقل لهم يا محمد ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أى أفلا تخافون عقابه ونِقْمَته فى الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ (٣٢)

قوله تعالى : ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ فيه ثمان مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ﴾ أى هـذا الذى يفعل هذه الأشياء هو ربكم الحق ، لا ما أشركتم معه . ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ ﴾ « ذا » صلة ، أى ما بعـد عبادة الإلٰه الحق إذا تركت عبادته إلا الضلال . وقال بعض المتقدّمين : ظاهر هـذه الآية يدل على أن ما بعـد الله هو الضـلال ؛ لأن أولها « فذلكم الله ربكم الحق » وآخرها « فـماذا بعد الحق إلا الضلال » فهذا فى الإيمـان والكفر، ليس فى الأعمال . وقال بعضهم : ان الكفر تغطية الحق، وكل ما كان غير الحق جرى هذا المجرى ؛ فالحرام ضلال والمباح هُدًى ؛ فإن الله

هو المبيح والمحرم. والصحيح الأول؛ لأن قبل « قُل من يرزقكم من السماء والأرض » ثم قال «فذلكم الله ربكم الحق» أى هذا الذى رزقكم، وهذا كله فعله هو. ﴿ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ﴾ أى الذى تحق له الألوهية ويستوجب العبادة، وإذا كان ذلك فتشريك غيره ضلال وغيرُ حق.

الثانيــــة — قال علماؤنا : حكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والباطل منزلة ثالثـة فى هذه المسألة التى هى توحيد الله تعالى، وكذلك هو الأمر فى نظائرها، وهى مسائل الأصول التى الحق فيها فى طرف واحد؛ لأن الكلام فيها إنمـا هو فى تعديد وجود ذات كيف هى، وذلك بخلاف مسائل الفروع التى قال الله تعالى فيها : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وِمِنْهَاجًا »[1]، وقوله عليه السـلام : " الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهمـا أمور متشابهات ". والكلام فى الفروع إنمـا هو فى أحكام طارئة على وجود ذات مقررة لا يختلفُ فيها وإنمـا يختلف فى الأحكام المتعلقة بها.

الثالثـــة — ثبت عن عائشة رضى الله عنها أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا قام إلى الصلاة من جَوْف الليل قال : " اللهم لك الحمد " الحديث. وفيه " أنت الحق ووَعْدُك الحق وقولك الحق ولقاؤك الحق والجنة حق والنار حق والساعة حق والنبيون حق ومحمـد حق " الحديث. فقـوله " أنت الحق " أى الواجب الوجود؛ وأصـله من حَقّ الشىء أى ثبت ووجب. وهذا الوصف لله تعالى بالحقيقة إذ وجوده بنفسه لم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم، وما عداه ممـا يقال عليه هذا الاسم مسبوق بعدم، ويجوز عليه لحاق العدم، ووجوده من موجِده لا من نفسه. وباعتبار هذا المعنى كان أصدق كلمة قالها الشاعر، كلمة لبيد :

* أَلَا كُلُّ شىءٍ ما خـلا اللهَ باطلُ *

وإليه الإشارة بقوله تعالى : « كُلُّ شَىْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »[2].

الرابعـــة — مقابلة الحق بالضلال عرف لغة وشرعا، كما فى هذه الآية. وكذلك أيضا مقابلة الحق بالبـاطل عرف لغـة وشرعا؛ قال الله تعـالى : « ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ

(١) آية ٤٨ سورة المـائدة. (٢) آخر سورة القصص.

ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ »(١) . والضلال حقيقته الذهاب عن الحق ؛ أخذ من ضلال الطريق ، وهو العدول عن سَمْته . قال ابن عرفة : الضلالة عند العرب سلوك غير سبيل القصد؛ يقال : ضل عن الطريق وأضل الشيءَ إذا أضاعه . وخُصّ فى الشرع بالعبارة عن السداد فى الاعتقاد دون الأعمال؛ ومن غريب أمره أنه يعبر به عن عدم المعرفة بالحق سبحانه إذا قابله غفلة ولم يقترن بعدمه جهل أوشك ، وعليه حمل العلماء قولَه تعالى : « وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى » أى غافلا ، فى أحد التأويلات ، يحققه قوله تعالى : « مَا كُنْتَ تَدرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الإيمَانُ »(٢) .

الخامسة — روى عبد الله بن عبد الحكم وأشهب عن مالك فى قوله تعالى . « فماذا بعد الحق إلا الضلال » قال : اللِّعب بالشِّطْرَنْج والنَّرْدِ من الضلال . وروى يونس عن ابن وهب أنه سئل عن الرجل يلعب فى بيته مع امرأته بأربع عشرة؛ فقال مالك : ما يعجبنى ! وليس من شأن المؤمنين، يقول الله تعالى : « فماذا بعد الحق الا الضلال » . وروى يونس عن أشهب قال : سئل — يعنى مالكا — عن اللعب بالشطرنج فقال : لا خير فيه ، وليس بشىء وهو من الباطل ، واللعب كله من الباطل ، وإنه لينبغى لذى العقل أن تنهاه اللحية والشيب عن الباطل . وقال الزهرى لما سئل عن الشطرنج : هى من الباطل ولا أحبها .

السادسة — اختلف العلماء فى جواز اللِّعب بالشِّطرنج وغيره إذا لم يكن على وجه القمار ؛ فتحصيل مذهب مالك وجمهورِ الفقهاء فى الشطرنج أن من لم يقامر بها ولعب مع أهله فى بيته مستترا به مرة فى الشهر أو العام ، لا يُطَّلَع عليه ولا يُعلم به أنه مَعفوٌّ عنه غير محرم عليه ولا مكروه له ، وأنه إن تَخلَّع(٣) به واشتهر فيه سقطت مروءته وعدالته ورُدّت شهادته . وأما الشافعىّ فلا تسقط فى مذهب أصحابه شهادةُ اللاعب بالنّرد والشِّطرنج ، إذا

(١) آية ٦٢ سورة الحج . (٢) آية ٥٢ سورة شورى . (٣) تخلع فى الشراب : انهمك فيه ولازمه ليلا ونهارا .

كان عدلا فى جميع أصحابه، ولم يظهر منه سفه ولا ريبـة ولا كبيرة الا أن يلعب به قمـارا، فان لعب بهـا قمارا وكان بذلك معروفا سقطت عدالته وسفّه نفسه لأكله المـال بالباطل .
وقال أبو حنيفة : يكره اللعب بالشطرنج والنرد والأربعة عشر وكلّ اللهـو؛ فإن لم تظهر من اللاعب بها كبيرة وكانت محاسنه أكثر من مساويه قبلت شهادته عندهم . قال ابن العربى : قالت الشافعية إن الشطرنج يخالف النرد لأن فيه إكداد الفهم واستعمال القريحة . والنرد قمار غَرَر لا يعلم ما يخرج له فيه كالاستقسام بالأزلام .

السابعـــة — قال علماؤنا : النرد قطع مملوءة من خشب البقس ومن عظم الفيل، وكذا هو الشطرنج إذ هو أخوه غُذّى بلبانه . والنرد هو الذى يعرف بالطبل ويعرف بالكعاب ويعرف فى الجاهلية أيضا بالأرز ويعرف أيضا بالنردشير[1] . وفى صحيح مسلم عن سليمان بن بُريدة عن أبيه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: "من لعب بالنردشير فكأنما غمس يده فى لحم خنزير ودمه". قال علماؤنا : ومعنى هذا أى هو كمن غمس يده فى لحم الخنزير يهيئه لأن يأكله، وهذا الفعل فى الخنزير حرام لا يجوز؛ يبينه قوله صلى الله عليـه وسلم : " من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله " رواه مالك وغيره من حديث أبى موسى الأشعرى وهو حديث صحيح، وهو يحرّم اللعب بالنرد جملة واحدة، وكذلك الشطرنج، لم يستثن وقتا من وقت ولا حالا من حال، وأخبر أن فاعل ذلك عاصٍ لله ورسـوله ؛ إلا أنه يحتمل أن يكون المراد باللعب بالنرد المنهىّ عنه أن يكون على وجه القمار؛ لمـا رُوى من إجازة اللعب بالشطرنج عن التابعين على غير قمـار . وحَمْلُ ذلك على العموم قمارا وغير قمار أولى وأحوط إن شاء الله . قال أبو عبد الله الحَلِيْمِىّ فى كتاب منهاج الدين : ومما جاء فى الشِّطرنج حديث يروى فيه كما يروى فى النرد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من لعب بالشطرنج فقد عصى الله ورسوله" . وعن علىّ رضى الله عنه أنه مَرّ على مجالس من بنى تميم وهم يلعبون بالشـــطرنج فوقف عليهم فقال : " أمَا والله لغيرَ هذا خلقتم ! أمَا والله لولا أن تكون سُنّة لضربت به وجوهكم " . وعنه رضى الله عنه أنه مَرّ بقوم يلعبون بالشطرنج فقال : ما هذه التمـاثيل التى أنتم لها عاكفون ؛ لأن يَمَسّ أحدكم

(١) اضطربت الأصول فى كتابة هذه الأسماء؛ ولم نهتد الى وجه الصواب فيها .

جمرا حتى يطفأ خير من أن يمسها . وسئل ابن عمر عن الشطرنج فقال : هى شر من النرد . وقال أبو موسى الأشعرى : لا يلعب بالشطرنج إلا خاطئ . وسئل أبو جعفر عن الشطرنج فقال : دعونا من هذه المجوسية . وفى حديث طويل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " وأن من لعب بالنرد والشطرنج والجوز والكِعاب مقته الله ومن جلس إلى من يلعب بالنرد والشطرنج لينظر إليهم مُحيت عنه حسناته كلها وصار ممن مقته الله " . وهذه الآثار كلها تدل على تحريم اللعب بها بلا قِمار، والله أعلم . وقد ذكرنا فى «المائدة» بيان تحريمها(1) وأنها كالخمر فى التحريم لاقترانها به، والله أعلم . قال ابن العربى فى قبسه : وقد جوّزه الشافعى، وانتهى حال بعضهم إلى أن يقول : هو مندوب إليه، حتى اتخذوه فى المدرسة؛ فإذا أعيا الطالب من القراءة لعب به فى المسجد . وأسندوا إلى قوم من الصحابة والتابعين أنهم لعبوا بها؛ وما كان ذلك قطّ ! وتالله ما مستها يدُ تقِيّ . ويقولون إنها تَشْحَذ الذهن، والعِيان يكذبهم، ما تبحّر فيها قطُّ رجل له ذهن . سمعت الإمام أبا الفضل عطاء المقدسى يقول بالمسجد الأقصى فى المناظرة : إنها تعلّم الحرب . فقال له الطُّرْطُوشيّ : بل تفسد تدبير الحرب؛ لأن الحرب المقصود منها الملك واغتياله، وفى الشِّطرنج تقول : شاهْ إياك : الملك نَحِّه عن طريقى؛ فاستضحك الحاضرين . وتارة شدّد فيها مالك وحرّمها وقال فيها : « فماذا بعد الحق إلا الضلال » . وتارة استهان بالقليل منها والأهون؛ والقول الأوّل أصح والله أعلم . فإن قال قائل : رُوى عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه أنه سئل عن الشطرنج فقال : وما الشطرنج ؟ فقيل له : إن امرأة كان لها ابن وكان ملِكا فأصيب فى حرب دون أصحابه؛ فقالت : كيف يكون هذا أَرُونِيه عِيانا؛ فعُمِل لها الشطرنج، فلما رأته تسلت بذلك . ووصفوا الشطرنج لعمر رضى الله عنه فقال : لا بأس بما كان من آلة الحرب؛ قيل له : هذا لا حجّة فيه لأنه لم يقل لا بأس بالشطرنج وإنما قال لا بأس بما كان من آلة الحرب . وإنما قال هذا لأنه شُبّه عليه أن اللعب بالشطرنج مما يستعان به على معرفة أسباب الحرب، فلما قيل له ذلك ولم يحط به علمه قال :

---

(1) راجع المسألة الثانية عشرة جـ ٦ ص ٢٩١ .

لا بأس بمـا كان من آلة الحرب، إن كان كما تقولون فلا بأس به، وكذلك من روى عنه من الصحابة أنه لم ينه عنه، فإن ذلك محمول منه على أنه ظنّ أن ذلك ليس يُتلَهّى به، وإنما يراد به التسبب إلى علم القتال والمضاربة فيه، أو على أن الخبر المسنَد لم يبلغهم . قال الحَلِيْمِيّ : وإذا صح الخبر فلا حجة لأحد معه، وإنما الحجة فيه على الكافّة .

الثامنــة — ذكر ابن وهب بإسناده أن عبد الله بن عمر مَرّ بغلمان يلعبون بالكُجّة، وهي حفر فيها حصًى يلعبون بها، قال فسدّها ابن عمر ونهاهم عنها . وذكر الهروىّ في باب (الكاف مع الجيم) فى حديث ابن عباس : فى كل شيء قِمار حتى فى لعب الصبيان بالكُجّة ؛ قال ابن الأعرابى : هو أن يأخذ الصبى خرقة فيدوّرها كأنها كرة، ثم يتقامرون بها . وكج اذا لعب بالكُجّة .

قوله تعالى : ﴿فأنّى تُصْرَفُونَ﴾ أى كيف تَصرفون عقولكم إلى عبادة ما لا يرزق ولا يحيي ولا يميت .

قوله تعـالى : كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أى حكمه وقضاؤه وعلمه السابق . ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أى خرجوا عن الطاعة وكفروا وكذبوا . ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى لا يصدقون . وفى هذا أَوْفَى دليل على القدرية . وقرأ نافع وابن عامر هنا وفى آخرها «كذلك حقّت كلمات ربك» وفى سورة غافر بالجمع فى الثلاثة . الباقون بالإفراد . و «أنّ» فى موضع نصب؛ أى بأنهم أو لأنهم . قال الزجاج : ويجوز أن تكون فى موضع رفع على البدل من كلمات . قال الفراء : يجوز «إنهم» بالكسر على الاستئناف .

قوله تعـالى : قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ ﴾ أى آلهتكم ومعبوداتكم . ﴿ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أى قل لهم يا محمد ذلك على جهة التوبيخ والتقرير؛ فإن أجابوك وإلا فـ ﴿ قُلِ اللّٰهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيـدُهُ ﴾ وليس غيره يفعل ذلك . ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ أى فكيف تنقلبون وتنصرفون عن الحق إلى الباطل .

قوله تعـالى : قُلْ هَـلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ ﴾ يقال : هداه الطريق وإلى الطريق بمعنًى واحد؛ وقد تقدم (١) . أى هل من شركائكم من يُرشد إلى دين الإسـلام؛ فإذا قالوا لا ولا بدّ منه فقل لهم ﴿ اللّٰهُ يَهْـدِى لِلْحَقِّ ﴾ ثم قل لهم موبّخا ومقررا ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِى ﴾ أى يرشد ﴿ إِلَى الْحَقِّ ﴾ وهو الله سبحانه وتعالى . ﴿ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّى إِلَّا أَنْ يُهْدَى ﴾ يريد الأصنام التى لا تهـدى أحدا ، ولا تمشى إلا أن تُحمـل ، ولا تنتقل عن مكانها إلا أن تنقل . قال الشاعر (٢) :

للفـتى عقـــل يَعيش به * حيث تَهْدِى سـاقَه قَدَمُهْ

وقيل : المراد الرؤساء والمضلون الذين لا يرشدون أنفسهم إلى هُدًى إلا أن يُرْشَدوا .

وفى « يَهِدِّى » قراءات ست :

الأولى — قرأ أهل المدينة إلا وَرْشًا «يَهْدِّى» بفتح الياء وإسكان الهاء وتشديد الدال؛ فجمعوا فى قراءتهم بين ساكنين كما فعلوا فى قوله « لَا تَعْدُّوا (٣) » وفى قوله « يَخْصمون » . قال النحاس : والجمع بين الساكنين لا يقـدر أحد أن ينطق به . قال محمد بن يزيد : لا بد لمن رام مثل هذا أن يحرك حركة خفية إلى الكسر، وسيبويه يسمى هذا اختلاس الحركة .

(١) راجع جـ ١ ص ١٦٠ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) هو طرفة؛ كما فى اللسان .
(٣) راجع جـ ٦ ص ٧ طبعة أولى أو ثانية .

الثانيـــة — قرأ أبو عمرو وقالون فى روايةٍ بين الفتح والإسكان، على مذهبه فى الاختفاء والاختلاس .

الثالثـــة — قرأ ابن عامر وابن كثير وورش وابن مُحَيْصِن « يَهَدِّى » بفتح الياء والهـاء وتشديد الدال . قال النحاس : هذه القراءة بيّنة فى العربية، والأصل فيها يهتدى أدغمت التاء فى الدال وقلبت حركتها على الهاء .

الرابعـــة — قرأ حفص و يعقوب والأعمش عن أبى بكر مثل قراءة ابن كثير، إلا أنهم كسروا الهاء، قالوا : لأن الجزم إذا اضْـطُرّ إلى حركته حُرّك إلى الكسر . قال أبو حاتم : هى لغة سُفْلَى مضر .

الخامسة — قرأ أبو بكر عن عاصم «يِهِدِّى» بكسر الياء والهاء وتشديد الدال، كل ذلك لإتباع الكسر الكسر كما تقدم فى البقرة فى «يخطِف»[1] . وقيل : هى لغة من قرأ «نستعين»[2] و « لن تمسنا النـار » ونحوه . وسيبويه لا يجـيز «يِهِـدِّى» ويجيز «تِهِدِّى» و « نِهِـدِّى» و «إهدى» قال : لأن الكسرة فى الياء تثقل .

السادســـة — قرأ حمزة والكسائى وخلف ويحيى بن وَثّاب والأعمش « يَهْدِى » بفتح الياء و إسكان الهاء وتخفيف الدال؛ من هَدَى يهدى . قال النحاس : وهذه القراءة لها وجهان فى العربية وإن كانت بعيدة، وأحد الوجهين أن الكسائى والفراء قالا : «يهدى» بمعنى يهتدى . قال أبو العباس : لا يعرف هـذا، ولكن التقدير أمن لا يهدى غيره، تمّ الكلام، ثم قال : « إلا أن يهدى » استأنف من الأوّل، أى لكنه يحتاج أن يهدى؛ فهو استثناء منقطع، كما تقول : فلان لا يُسمِع غيره إلا أن يُسمع، أى لكنه يحتاج أن يُسْمَع . وقال أبو إسحاق : « فمـا لكم » كلام تام، والمعنى : فأى شىء لكم فى عبادة الأوثان . ثم قيل لهم : ﴿ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أى لأنفسكم وتقضون بهذا الباطل الصراح، تعبدون آلهة لا تغنى عن أنفسها شيئا إلا أن يُفعل بها، والله يفعل ما يشاء فتتركون عبادته؛ فموضع «كيف» نصب بـ«تحكمون» .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٢٢ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ١ ص ١٤٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (٣٦)

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ﴾ يريد الرؤساء منهم؛ أى ما يتبعون إلا حدسا وتخريصا فى أنها آلهة وأنها تشفع، ولا حجة معهم . وأما أتباعهم فيتبعونهم تقليدا . ﴿ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ أى من عذاب الله؛ فالحق هو الله . وقيل « الحق » هنا اليقين ؛ أى ليس الظن كاليقين . وفى هذه الآية دليل على أنه لا يُكْتَفَى بالظن فى العقائد . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ من الكفر والتكذيب، خرجت مخرج التهديد .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٣٧)

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ « أنْ » مع « يفترى » مصدر، والمعنى : وما كان هذا القرآن افتراء؛ كما تقول : فلان يحب أن يركب، أى يحب الركوب؛ قاله الكسائى . وقال الفراء : المعنى وما ينبغى لهذا القرآن أن يفترى؛ كقوله « وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ »(١) « وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً »(٢) . وقيل : « أنْ » بمعنى اللام؛ تقديره : وما كان هذا القرآن ليفترى . وقيل : بمعنى لا، أى لا يفترى . وقيل : المعنى ما كان يتهيأ لأحد أن يأتى بمثل هذا القرآن من عند غير الله ثم ينسبه إلى الله تعالى لإعجازه؛ لوصفه ومعانيه وتأليفه . ﴿ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ قال الكسائى والفراء ومحمد ابن سعدان : التقدير ولكن كان تصديقَ؛ ويجوز عندهم الرفع بمعنى : ولكن هو تصديق . ﴿ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى من التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب، فإنها قد بشّرت به فجاء

(١) آية ١٦١ سورة آل عمران .　(٢) آية ١٢٢ سورة التوبة .

مصدّقا لها فى تلك البشارة، وفى الدعاء إلى التوحيد والإيمان بالقيامة . وقيل : المعنى ولكن تصديق النبيّ الذى بين يدى القرآن وهو محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم شاهدوه قبل أن سمعوا منه القرآن . «وتفصيلُ» بالنصب والرفع على الوجهين المذكورين فى تصديق . والتفصيل : التبيين، أى يبيّن ما فى كتب الله المتقدمة . والكتاب آسم الجنس . وقيل : أراد بتفصيل الكتاب ما بُيِّنَ فى القرآن من الأحكام . ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ الهاء عائدة للقرآن، أى لا شك فيه أى فى نزوله من قبل الله تعالى .

قوله تعالى : أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ ﴾ أم هاهنا فى موضع ألف الاستفهام لأنها اتصلت بما قبلها . وقيل : هى أم المنقطعة التى تقدّر بمعنى بل والهمزة؛ كقوله تعالى: « الم تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه » أى بل أيقولون افتراه . وقال أبو عبيدة : أم بمعنى الواو، مجازه : ويقولون افتراه . وقيل : الميم صلة، والتقدير : أيقولون افتراه، أى اختلق محمد القرآن من قِبَل نفسه ، فهو استفهام معناه التقريع . ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ ومعنى الكلام الاحتجاج، فإن الآية الأولى دلت على كون القرآن من عند الله ؛ لأنه مصدّق الذى بين يديه من الكتب وموافق لها من غير أن يتكلم محمد عليه السلام عن أحد . وهذه الآية إلزام بأن يأتوا بسورة مثله إن كان مفترًى . وقد مضى القول فى إعجاز القرآن ، وأنه معجز فى مقدّمة الكتاب(١)، والحمد لله .

قوله تعالى : بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾

---

(١) راجع جـ ١ ص ٦٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ﴾ أى كذبوا بالقرآن وهم جاهلون بمعانيه وتفسيره، وعليهم أن يعلموا ذلك بالسؤال؛ فهذا يدل على أنه يجب أن يُنظر فى التأويل . وقوله : ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ أى ولم يأتهم حقيقة عاقبة التكذيب من نزول العذاب بهم . أو كذبوا بما فى القرآن من ذكر البعث والجنة والنار، ولم يأتهم تأويله أى حقيقة ما وعدوا فى الكتاب؛ قاله الضحاك . وقيل للحسين بن الفضل : هل تجد فى القرآن (من جهل شيئا عاداه) قال نعم، فى موضعين : « بل كذبوا بما لم يُحيطوا بعلمه » وقوله « وإذْ لَمْ يهتدوا بِهِ فسيقولون هذا إفْكٌ قديم »(١) . ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يريد الأمم الخالية، أى كذا كانت سبيلهم . والكاف فى موضع نصب . ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ أى أخذهم بالهلاك والعذاب .

قوله تعالى : وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ قيل : المراد أهل مكة، أى ومنهم من يؤمن به فى المستقبل وإن طال تكذيبه؛ لعلمه تعالى السابق فيهم أنهم من أهل السعادة . و « مَن » رفع بالابتداء والخبر فى المجرور . وكذا ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ والمعنى ومنهم من يُصر على كفره حتى يموت؛ كأبى طالب وأبى لهب ونحوهما . وقيل : المراد أهل الكتاب . وقيل : هو عام فى جميع الكفار؛ وهو الصحيح . وقيل : إن الضمير فى «به» يرجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم؛ فأعلم الله سبحانه أنه إنما أخر العقوبة لأن منهم من سيؤمن . ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ أى من يُصرّ على كفره؛ وهذا تهديد لهم .

قوله تعالى : وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾

(١) آية ١١ سورة الأحقاف .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي ﴾ رفع بالابتداء، والمعنى : لى ثواب عملى فى التبليغ والإنذار والطاعة لله تعالى . ﴿ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ أى جزاؤه من الشرك . ﴿ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ مثله ؛ أى لا يؤاخذ أحد بذنب الآخر . وهذه الآية منسوخة بآية السيف ؛ فى قول مجاهد والكلبي ومقاتل وابن زيد .

قوله تعالى : وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ يريد بظواهرهم ، وقلوبهم لا تعى شيئا مما يقوله من الحق ويتلوه من القرآن؛ ولهذا قال : ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أى لا تُسمع؛ فظاهره الاستفهام ومعناه النفى، وجعلهم كالصم للختم على قلوبهم والطبع عليها، أى لا تقدر على هداية من أصمه الله عن سماع الهدى . وكذا المعنى فى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾ أخبر تعالى أن أحدا لا يؤمن إلا بتوفيقه وهدايته . وهذا وما كان مثله يردّ على القدرية قولهم؛ كما تقدّم فى غير موضع . وقال : «يستمعون» على معنى « مَن » و « ينظر » على اللفظ؛ والمراد تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ أى كما لا تقدر أن تسمع من سُلب السمع ولا تقدر أن تخلُق للاعمى بصرا يهتدى به، فكذلك لا تقدر أن توفّق هؤلاء للإيمان وقد حكم الله عليهم ألا يؤمنوا . ومعنى : ﴿ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ﴾ أى يديم النظر إليك؛ كما قال : « يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ »[(1)] . قيل : إنها نزلت فى المستهزئين، والله أعلم .

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

(١) آية ١٩ سورة الأحزاب .

لما ذكر أهل الشقاء ذكر أنه لا يظلمهم، وأن تقدير الشقاء عليهم وسلبَه سمع القلب وبصرَه ليس ظلما منه؛ لأنه تصرّف فى ملكه بما شاء، وهو فى جميع أفعاله عادل. ﴿ وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالكفر والمعصية ومخالفة أمر خالقهم . وقرأ حمزة والكسائى « ولكِنْ » مخففا « الناس » رفعا . قال النحاس : زعم جماعة من النحويين منهم الفراء أن العرب إذا قالت « ولكن » بالواو آثرت التشديد، وإذا حذفوا الواو آثرت التخفيف، واعتلّ فى ذلك فقال: لأنها اذا كانت بغير واو أشبهت بل فخففوها ليكون مابعدها كما بعد بل؛ وإذا جاءوا بالواو خالفت بل فشدّدوها ونصبوا بها، لأنها « إنّ » زيدت عليها لام وكاف وصُيِّرت حرفا واحدا؛ وأنشد :

* ولكنني من حبّها لعَميد *

فجاء باللام لأنها « إنّ » .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥)

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا ﴾ بمعنى كأنهم خففت، أى كأنهم لم يلبثوا فى قبورهم . ﴿ إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ ﴾ أى قدر ساعة؛ يعنى أنهم استقصروا طول مقامهم فى القبور لهول ما يرون من البعث ؛ دليله قولهم : « لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ »(١) . وقيل : إنما قَصُرت مدّة لَبثهم فى الدنيا من هول ما استقبلوا لا مدة كونهم فى القبر . ابن عباس : رأوا أن طول أعمارهم فى مقابلة الخلود كساعة . ﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ فى موضع نصب على الحال من الهاء والميم فى « يحشرهم » . ويجوز أن يكون منقطعا، فكأنه قال فهم يتعارفون . قال الكلبيّ : يعرف بعضهم بعضا كمعرفتهم فى الدنيا إذا خرجوا من قبورهم؛ وهذا التعارف تعارف توبيخ وافتضاح؛ يقول بعضهم لبعض : أنت أضللتنى وأغويتنى وحملتنى على الكفر؛ وليس

(١) آية ١٩ سورة الكهف .

تعارف شـفقة و رأفة وعطف . ثم تنقطع المعـرفة إذا عاينوا أهـوال يوم القيامة كما قال : « وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً » (١) . وقيل : يبقى تعارف التوبيخ؛ وهو الصحيح لقوله تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ — إلى قوله — وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا » (٢) ، وقوله : « كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا » (٣) الآية ، وقوله : « رَبَّنَـا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا » (٤) الآية . فأما قوله « ولا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً » وقوله « فإذا نُفِخَ فِي الصُّـورِ فَلَا أَنْسَابَ بينهـم » (٥) فمعناه لايسأله سؤال رحمة وشفقة، والله أعلم . وقيل : القيامة مواطن . وقيل : معنى «يتعارفون» يتساءلون، أي يتساءلون كم لبثتم؛ كما قال «وأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بعضٍ يتساءلون» (٦) وهذا حسن . وقال الضـحاك : ذلك تعـارُفُ تعاطفِ المؤمنين؛ والكافرون لا تعاطف عليهـم؛ كما قال « فلا أنساب بينهم » . والأوّل أظهر، والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَـاءِ اللهِ ﴾ أي بالعرض على الله . ثم قيل : يجوز أن يكون هـذا إخبارا من الله عز وجل بعد أن دلّ على البعث والنشور، أي خسروا ثواب الجنـة . وقيل خسروا في حال لقـاء الله؛ لأن الخسران إنمـا هو في تلك الحالة التي لا يرجى فيها إقالة ولا تنفع توبة . قال النحاس : ويجوز أن يكون المعنى يتعارفون بينهم، يقولون هذا . ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ يريد في علم الله .

قوله تعـالى : وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦)

قوله تعـالى : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ شرط . ﴿ بَعْضَ الَّذِي نَعِـدُهُمْ ﴾ أي من إظهار دينك في حياتك . وقال المفسرون : كان البعض الذي وعدهم قتلَ من قُتل وأَسْرَ من أسر ببدر . ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ عطف على «نرينك» أي أو نتوفينك قبل ذلك . ﴿ فإلينا مَرْجِعُهُمْ ﴾ جواب

(١) آية ١٠ سورة المعارج. (٢) آية ٣١ وما بعدها سورة سبأ. (٣) آية ٣٨ سورة الأعراف.
(٤) آية ٦٧ سورة الأحزاب. (٥) آية ١٠١ سورة المؤمنون. (٦) آية ٢٧ سورة الصافات.

« إمّا » . والمقصود إن لم ننتقم منهم عاجلا انتقمنا منهم آجلا . ﴿ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ ﴾ أى شاهد لا يحتاج إلى شاهد ﴿ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ من محاربتك وتكذيبك . ولو قيل : « ثمّ الله شهيد » بمعنى هناك، جاز .

قوله تعالى : وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾ يكون المعنى : ولكل أمة رسول شاهد عليهم، فإذا جاء رسولهم يوم القيامة قضى بينهم ؛ مثل « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ » . وقال ابن عباس : تُنكر الكفار غدا مجيء الرسل اليهم ، فيؤتى بالرسول فيقول قد أبلغتكم الرسالة؛ فحينئذ يقضى عليهم بالعذاب . دليله قوله : « وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا »(١) . ويجوز أن يكون المعنى أنهم لا يعذبون فى الدنيا حتى يرسل اليهم؛ فمن آمن فاز ونجا ، ومن لم يؤمن هلك وعُذّب . دليله قوله تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا »(٢) . والقسط : العدل . ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أى لا يعذبون بغير ذنب ولا يؤاخذون بغير حجة .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾

يريد كفار مكة لفرط إنكارهم واستعجالهم العذاب ؛ أى متى العقاب أو متى القيامة التى يعدنا محمد . وقيل : هو عام فى كل أمة كذبت رسولها .

قوله تعالى : قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾

---

(١) آية ١٤٣ سورة البقرة .	(١) آية ١٥ سورة الإسراء .

قوله تعالى : ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ لمـا استعجلوا النبيّ صلى الله عليه وسلم بالعذاب قال الله له قل لهم يا محمد لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا ؛ أى ليس ذلك لى ولا لغيرى . ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن أملكه وأقدر عليه ، فكيف أقدر أن أملك ما استعجلتم فلا تستعجلوا . ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أى لهلاكهم وعذابهم وقت معلوم فى علمه سبحانه . ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ أى وقت انقضاء أجلهم . ﴿فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أى لا يمكنهم أن يستأخروا ساعة باقين فى الدنيا ولا يتقدّمون فيؤخرون .

قوله تعـالى : قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَـٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا﴾ ظرفان ، وهو جواب لقولهم : « متى هذا الوعد » وتسفيهٌ لآرائهم فى استعجالهم العذاب ؛ أى إن أتاكم العذاب فما نفعُكم فيــه ، ولا ينفعكم الإيمــان حينئذ . ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ استفهام معناه التهويل والتعظيم ؛ أى ما أعظم ما يستعجلون به ؛ كما يقال لمن يطلب أمرا يستوخم عاقبتــه : ماذا تجنى على نفسك ! والضمير فى « منه » قيــل يعود على العذاب ، وقيل يعود على الله سبحانه وتعالى . قال النحاس : إن جعلت الهاء فى « منه » تعود على العذاب كان لك فى « ماذا » تقديران : أحدهما أن يكون « ما » فى موضع رفع بالابتداء ، و «ذا» بمعنى الذى ، وهو خبر «ما» والعائد محذوف . والتقدير الآخر أن يكون «ماذا» اسما واحدا فى موضع رفع بالابتداء ، والخبر فى الجملة ؛ قاله الزجاج . وإن جعلت الهاء فى « منه » تعود على اسم الله تعالى جعلت «ما» ، و « ذا » شيئا واحدا ، وكانت فى موضع نصب بـ « يستعجل » ؛ والمعنى : أىّ شىء يستعجل منه المجرمون من الله عز وجل .

قوله تعـالى : أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ ﴾ فى الكلام حذف ، والتقدير : أتأمنون أن ينزل بكم العذاب ثم يقال لكم إذا حل : آلآن آمنتم به ؟ قيل : هو من قول الملائكة استهزاء بهم . وقيل : هو من قول الله تعالى ، ودخلت ألف الاستفهام على « ثم » والمعنى التقرير والتوبيخ ، وليدل على أن معنى الجملة الثانية بعد الأولى . وقيل : إن « ثم » ها هنا بمعنى « ثَمّ » بفتح الثاء ، فتكون ظرفا ، والمعنى أهنالك ، وهو مذهب الطبرى ، وحينئذ لا يكون فيه معنى الاستفهام . و « الآن » قيل : أصله فعل مبنى مثل حان ، والألف واللام لتحويله إلى الاسم . الخليل : بنيت لالتقاء الساكنين ، والألف واللام للعهد والإشارة إلى الوقت ، وهو حدّ الزمانين . ﴿ وَقَدْ كُنتُم بِهِ ﴾ أى بالعذاب ﴿ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى تقول لهم خزنة جهنم . ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴾ أى الذى لا ينقطع . ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أى جزاء كفركم .

قوله تعالى : وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ ﴾ أى يستخبرونك يا محمد عن كون العذاب وقيام الساعة . ﴿ أَحَقٌّ ﴾ ابتداء . ﴿ هُوَ ﴾ سدّ مسدّ الخبر ، وهذا قول سيبويه . ويجوز أن يكون « هو » مبتدأ ، و « أحقٌّ » خبره . ﴿ قُلْ إِى ﴾ « إى » كلمة تحقيق وإيجاب وتأكيد بمعنى نعم . ﴿ وَرَبِّى ﴾ قسم . ﴿ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ جوابه ، أى كائن لا شك فيه . ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى فائتين عن عذابه ومجازاته .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ﴾ أى أشركت وكفرت . ﴿ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى ملكا ﴿ لَافْتَدَتْ بِهِ ﴾ أى من عذاب الله ، يعني ولا يقبل منها ؛ كما قال : « إنّ الذين كفروا وماتوا وهم كُفّارٌ فلن يُقْبَلَ من أحدهم مِلءُ الأرض ذَهَبًا ولو ٱفْتَدَى بِهِ »[1] . وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ ﴾ أى أخفَوْها ؛ يعني رؤساءهم ، أى أخفوا ندامتهم عن أتباعهم . ﴿ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ وهذا قبل الإحراق بالنار ، فاذا وقعوا فى النار ألْهتهم النار عن التصنع ؛ بدليل قولهم « رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا »[2] . فبيّن أنهم لا يكتمون ما بهم . وقيل : « أسَرُّوا » أظهروا ، الكلمة من الأضداد ؛ ويدل عليه أن الآخرة ليست دار تجلّد وتصبّر . وقيل : وجدوا ألم الحسرة فى قلوبهم؛ لأن الندامة لا يمكن إظهارها . قال كُثَيِّر :

فأسررتُ الندامة يوم نادى * بردّ جمال غاضرة المنادى

وذكر المبرّد فيه وجها ثالثا — أنه بدت بالندامة أَسِرّة وجوههم ، وهى تكاسير الجبهة ، واحدها سِرَار . والندامة : الحسرة لوقوع شىء أو فوت شىء ، وأصلها اللزوم ؛ ومنه النديم لأنه يلازم المجالس . وفلان نادم سادم . والسَّدَم اللَّهَج بالشىء . ونَدِم وتندّم بالشىء أى اهتمّ به . قال الجوهرى : السَّدَم (بالتحريك) الندم والحزن ؛ وقد سَدِم بالكسر أى اهتم وحَزِن . ورجل نادمٌ سادم ، وندمانُ سَدْمانُ ؛ وقيل هو إتباع . وماله هَمٌّ ولا سَدَم إلا ذلك . وقيل : الندم مقلوب الدمن ، والدَّمْن اللزوم؛ ومنه فلان مدمن الخمر . والدِّمْن : ما اجتمع فى الدار وتلبّد من الأبوال والأبعار ؛ سُمِّيَ به للزومه . والدّمنة : الحقد الملازم للصدر ، والجمع دِمَن . وقد دَمِنت قلوبهم بالكسر ؛ يقال : دَمِنت على فلان أى ضَغِنت . ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ﴾ أى بين الرؤساء والسُّفّل بالعدل ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ١٣١ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ١٠٦ سورة المؤمنون .

قوله تعالى : أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾

« أَلَآ » كلمة تنبيه للسامع تزاد فى أول الكلام ؛ أى انتبهوا لما أقول لكم : إن لله ما فى السموات والأرض ألا إن وعد الله حق ، له ملك السموات والأرض فلا مانع يمنعه من إنفاذ وعده . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

قوله تعالى : هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

بيّن المعنى ، وقد تقدم .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ يعنى قريشا . ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ ﴾ أى وعظ . ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يعنى القرآن ، فيه مواعظ وحكم . ﴿ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ أى من الشك والنفاق والخلاف والشقاق . ﴿ وَهُدًى ﴾ أى ورشدا لمن اتبعه . ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ أى نعمة . ﴿ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ خصهم لأنهم المنتفعون بالإيمان ؛ والكل صفات القرآن ، والعطف لتأكيد المدح . قال الشاعر :

إلى المَلِك القَرْم وابنِ الهُمام * وليثِ الكَتيبة فى المُزْدَحَمْ

قوله تعالى : قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ ﴾ قال أبو سعيد الخدرى وابن عباس رضى الله عنهما : فضل الله القرآن ، ورحمته الإسلام . وعنهما أيضا : فضل الله القرآن ، ورحمته أن جعلكم من أهله . وعن الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة : فضل الله الإيمان ، ورحمته القرآن ؛ على العكس من القول الأول . وقيل غير هذا . ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ إشارة إلى الفضل والرحمة . والعرب تأتى « بذلك » للواحد والاثنين والجمع . وروى عن النبى صلى

الله عليه وسلم أنه قرأ « فبذلك فليفرحوا » بالتاء ؛ وهى قراءة يزيد بن القعقاع ويعقوب وغيرهما ؛ وفى الحديث "لتأخذوا مصافّكم" . والفرح لذة فى القلب بإدراك المحبوب . وقد ذمّ الفرح فى مواضع؛ كقوله : « لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ »(١) وقوله : « إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ »(٢) ولكنه مطلق . فإذا قُيّد الفرح لم يكن ذما؛ لقوله : «فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ»(٣) وهاهنا قال تبارك وتعالى : «فبذلك فليفرحوا» أى بالقرآن والإسلام فليفرحوا؛ فقيد . قال هارون : وفى حرف أُبَىّ « فبذلك فافرحوا » . قال النحاس : سبيل الأمر أن يكون باللام ليكون معه حرف جازم كما أن مع النهى حرفا ؛ إلا أنهم يحذفون من الأمر للمخاطَب استغناء بمخاطبته، وربما جاءوا به على الأصل؛ منه « فبذلك فلتفرحوا » . ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يعنى فى الدنيا . وقراءة العامة بالياء فى الفعلين؛ وروى عن ابن عامر أنه قرأ «فليفرحوا» بالياء «تجمعون» بالتاء؛ خطابا للكافرين . وروى عن الحسن أنه قرأ بالتاء فى الأوّل، و«يجمعون» بالياء على العكس . وروى أبان عن أنس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "من هداه الله للإسلام وعلمه القرآن ثم شكا الفاقة كتب الله الفقر بين عينيه إلى يوم يلقاه — ثم تلا — « قُلْ بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون »" .

قوله تعالى : قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ يخاطب كفار مكة . ﴿مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ « ما » فى موضع نصب بأرأيتم . وقال الزجاج : فى موضع نصب بأنزل . ﴿وأنزل﴾ بمعنى خلق؛ كما قال : « وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ »(٤) . « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ

(١) آية ٧٦ سورة القصص . (٢) آية ١٠ سورة هود . (٣) آية ١٧٠ سوة آل عمران .
(٤) آية ٦ سورة الزمر .

بَأْسٌ شَــدِيدٌ (١) » . فيجوز أن يعبر عن الخلق بالإنزال ؛ لأن الذى فى الأرض من الرزق إنما هو بما ينزل من السماء من المطر . ﴿ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وحَلَالًا ﴾ قال مجاهد : هو ما حكموا به من تحريم البَحيرة والسائبة والوَصيلة والحام (٢) . وقال الضحاك : هو قول الله تعالى : « وجعلوا لله ممّــا ذَرَأَ مِن الحَرْثِ والأنعامِ نصيبا (٣) » . ﴿ قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ أى فى التحليل والتحريم . ﴿ أَمْ عَلَى اللهِ ﴾ « أم » بمعنى بل . ﴿ تَفْتَرُونَ ﴾ هو قولهم إن الله أمرنا بها .

الثانيـــة — استدل بهذه الآية من نفى القياس ، وهذا بعيد ؛ فانّ القياس دليل الله تعالى ، فيكون التحليل والتحريم من الله تعالى عنــد وجود دلالة نصبها الله تعالى على الحكم ، فان خالف فى كون القياس دليلا لله تعالى فهو خروج عن هذا الغرض ورجوع إلى غيره .

قوله تعـالى : وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعـالى : ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ « يوم » منصوب على الظرف ، أو بالظن ؛ نحــو ما ظنك زيدا ؛ والمعنى : أيحسبون أن الله لا يؤاخذهم به . ﴿ إِنّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ أى فى التأخير والإمهال . وقيل : أراد أهل مكة حين جعلهــم فى حَرَم آمن . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾ يعنى الكفار . ﴿ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ الله على نعمه ولا فى تأخير العذاب عنهم . وقيل : « لا يشكرون » أى لا يوحّدون .

قوله تعـالى : وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

(١) آية ٢٥ ســورة الحديد . (٢) راجع جـ ٦ ص ٣٣٥ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٨٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ « ما » للجحد ؛ أى است فى شأن ، يعنى من عبـادة أو غيرها إلا والربّ مطلع عليك . والشأن الخطب، والأمر، و جمعـه شؤون . قال الأخفش : تقول العرب ما شأنْتُ شأْنَه ، أى ما عملت عمله . ﴿ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ ﴾ قال الفراء والزجاج : الهاء فى « منه » تعود على الشأن، أى تحدث شأنا فيتلى من أجله القرآن فيعلم كيف حكمه ، أو ينزل فيه قرآن فيتلى . وقال الطبرى : « منــه » أى من كتاب الله تعـالى . ﴿ مِنْ قرآنٍ ﴾ أعاد تفخيما؛ كقوله : « إِنِّي أَنَا اللّٰهُ » . ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ يخاطب النبيّ صلى الله عليه وسلم والأمة . وقوله : « وما تكون فى شأنٍ » خطاب له والمراد هو وأمته ؛ وقد يخاطَب الرسول والمراد هو وأتباعه . وقيل : المراد كفار قريش . ﴿ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ﴾ أى نعلمه؛ ونظيره « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُم »(1) . ﴿ إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أى تأخذون فيه ، والهاء عائدة على العمل ؛ يقال : أفاض فلان فى الحديث والعمل إذا اندفع فيه . قال الراعى :

فأَفَضْن بعـــد كُظومِهِـنّ بجِرّة ‏ * ‏ من ذى الأباطح إذرَعَيْن حَقِيلَا

ابن عباس : « تُفيضون فيه » تفعـلونه . الأخفش : تتكلمون . ابن زيد : تخوضون . ابن كَيسان : تنشرون القول . وقال الضحاك : الهاء عائدة على القرآن؛ المعنى : إذ تشيعون فى القرآن الـكذب . ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ ﴾ قال ابن عباس : يغيب . وقال أبو رَوق : يبعـد . وقال ابن كَيسان : يذهب . وقرأ الكسائىّ « يعزِب » بكسر الزاى حيث وقع ؛ وضم الباقون، وهما لغتان فصيحتان؛ نحو يعرِش و يعرُش . ﴿ مِنْ مِثْقَالِ ﴾ « من » صلة ؛ أى وما يعزب عن ربك مثقال ذرة؛ أى وزن ذرّة؛ أى نملة حمراء صـغيرة، وقد تقدم فى « النســاء »(2) . ﴿ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ ﴾ عطف على لفـظ مثقال، وإن شئت على ذرّة . وقرأ يعقوب وحمـزة برفع الراء فيهـما عطفا على موضع مثقال لأن من زائدة للتأكيد . وقال الزجاج : ويجوز الرفع على الابتـداء ، وخبره ﴿ إِلَّا

---

(1) آية ٧ سورة المجادله . (2) راجع جـ ٥ ص ١٩٥ طبعة أولى أو ثانية.

في كتاب مبين ﴾ يعني اللوح المحفوظ مع علم الله تعالى به . قال الجرجاني : « إلا » بمعنى واو النسق ، أي وهو في كتاب مبين ؛ كقوله تعالى : « إني لا يخاف لدي المرسلون . إلا من ظلم »(١) أي ومن ظلم . وقوله : « لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم »(٢) أي والذين ظلموا منهم ؛ فـ « إلا » بمعنى واو النسق، وأضمر هو بعده، كقوله : « وقولوا حطة »(٣) أي هي حطة . وقوله : « ولا تقولوا ثلاثة »(٤) أي هم ثلاثة . ونظير ما نحن فيه : « وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين »(٥) وهو في كتاب مبين .

قوله تعالى : أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ﴾ أي في الآخرة . ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ لفقد الدنيا . وقيل : « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » أي من تولاه الله تعالى وتولى حفظه وحياطته ورضي عنه فلا يخاف يوم القيامة ولا يحزن ؛ قال الله تعالى : « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها — أي عن جهنم — مبعدون — الى قوله — لا يحزنهم الفزع الأكبر »(٦) . وروى سعيد بن جبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : من أولياء الله؟ فقال : " الذين يذكر الله برؤيتهم " . وقال عمر بن الخطاب في هذه الآية : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن من عباد الله عبادا ما هم بأنبياء ولا شهداء تغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى " . قيل : يارسول الله، خبرنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نحبهم . قال : " هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطون بها فوالله إن وجوههم لنور وإنهم على منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس — ثم قرأ — ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون " . وقال

(١) آية ١٠ سورة النمل . (٢) آية ١٥٠ سورة البقرة . (٣) آية ٥٨ سورة البقرة .
(٤) آية ١٧١ سورة النساء . (٥) آية ٥٩ سورة الأنعام . (٦) آية ١٠١ وما بعدها سورة الأنبياء .

علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : أولياء الله قوم صفر الوجوه من السّهر، عُمْش العيون من العبر، خُمْص البطون من الجوع، يُبْس الشفاه من الذَّوِىّ [1] . وقيل : « لا خوف عليهــم » فى ذريتهم، لأن الله يتولاهم . ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على دنياهم لتعويض الله إياهم فى أولاهم وأخراهم لأنه وليّهم ومولاهم .

قوله تعـالى : ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾

هذه صفة أولياء الله تعالى؛ فيكون « الذين » فى موضع نصب على البدل من اسم « إنّ » وهو « أولياء » . و إن شئت على أعنى . وقيل : هو ابتداء، وخبره « لهم البُشْرَى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة »؛ فيكون مقطوعا مما قبله . أى يتقون الشرك والمعاصى .

قوله تعـالى : لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَـا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ عن أبى الدّرداء قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال : " ما سألنى أحد عنها غيرك منــذ أنزلت هى الرؤيا الصالحة يراها المســلم أو تُرَى له " خرجه الترمذى فى جامعــه . وقال الزهرىّ وعطاء وقتادة : هى البشارة التى تبشّر بها الملائكة المؤمنَ فى الدنيا عنــد الموت . وعن محمــد بن كعب القُرَظِىّ قال : إذا استنقعت [2] نفس العبد المؤمن جاءه ملك الموت فقال : " السلام عليك ولىَّ الله الله يقرئك السلام " . ثم نزع بهذه الآية « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم [3] » ذكره ابن المبارك . وقال قتادة والضحاك : هى أن يعـلم أين هو من قبل أن يموت . وقال الحسن : هى ما يبشرهم الله تعـالى فى كتابه من جنته وكريم ثوابه؛ لقوله : « يُبَشِّرهم ربّهم

(١) ذوى العود والبقل يذوى ذَيًّا وذُويًّا ، كلاهما ذبل ، فهو ذاو؛ وهو ألا يصيبه ريّه أو يضربه الحرّ فيذبل و يضعف .
(٢) أى إذا اجتمعت فيه تريد الخروج كما يستنقع الماء فى قراره؛ وأراد بالنفس الروح . (ابن الأثير) .
(٣) آية ٣٢ سورة النحل .

برحمةٍ منه ورضوانٍ »[1]، وقوله : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنّ لهم جناتٍ »[2] ، وقوله : « وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون »[3] ولهذا قال : « لا تبديلَ لكلماتِ الله » أي لا خلف لمواعيده، وذلك لأن مواعيده بكلماته . ﴿ وفي الآخرةِ ﴾ قيل : بالجنة اذا خرجوا من قبورهم . وقيل : اذا خرجت الروح بُشِّرت برضوان الله . وذكر أبو اسحاق الثعلبي : سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله الجَوْزَقيّ[4] يقول : رأيت أبا عبد الله الحافظ في المنام راكبا بِرْذَوْناً عليه طَيْلسان وعمامة، فسلّمت عليه وقلت له : أهلاً بك، إنا لانزال نذكرك ونذكر محاسنك ؛ فقال : ونحن لانزال نذكرك ونذكر محاسنك، قال الله تعالى : « لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة » الثناء الحسن ؛ وأشار بيده . ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ﴾ أي لا خلف لوعده . وقيل : لا تبديل لأخباره، أي لا ينسخها بشيء، ولا تكون إلا كما قال . ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أي ما يصير إليه أولياؤه فهو الفوز العظيم .

قوله تعالى : وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٦٥)

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ﴾ تمّ الكلام، أي لا يحزنك افتراؤهم وتكذيبهم لك، ثم ابتدأ فقال ﴿ إنّ العزّةَ للهِ ﴾ أي القوة الكاملة والغلبة الشاملة والقدرة التامة لله وحده ؛ فهو ناصرك ومعينك ومانعك . ﴿ جَميعًا ﴾ نصب على الحال، ولا يعارض هذا قوله : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين »[5] فإن كل عزة بالله فهي كلها لله؛ قال الله سبحانه : « سبحان ربك ربّ العزة عما يصفون »[6] . ﴿ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ السميع لأقوالهم وأصواتهم ، العليم بأعمالهم وأفعالهم وجميع حركاتهم .

---

(١) آية ٢١ سورة التوبة .	(٢) آية ٢٥ سورة البقرة .	(٣) آية ٣٠ سورة فصلت .
(٤) هذه النسبة الى جوزق (كجعفر) بلدة بنيسابور .	(٥) آية ٨ سورة المنافقون .
(٦) آية ١٨٠ سورة الصافات .

قوله تعـالى : أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَلَا إِنَّ لِلّهِ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى يحكم فيهم بما يريد، ويفعل فيهم ما يشاء، سبحانه ! .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ ﴾ « ما » للنـفى ، أى لا يتبعون شركاء على الحقيقة ، بل يظنون أنها تشفع أو تنفع . وقيل: « ما » استفهام، أى أى شيء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء تقبيحا لفعلهم ، ثم أجاب فقـال : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أى يحدسون و يكذبون، وقد تقدّم[1] .

قوله تعـالى : هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ بيّن أن الواجب عبادةُ من يقدر على خلق الليـل والنهار لا عبادة من لا يقدر على شيء . ﴿ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ أى مع أزواجكم وأولادكم ليزول التعب والكَلال بكم . والسكون : الهدوء عن اضطراب .

قوله تعـالى : ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أى مضيئا لتهتدوا به فى حوائجكم . والمبصر : الذى يبصر، والنهار يُبْصَر فيه . وقال : « مُبْصِرا » تجوّزا وتوسّعا على عادة العرب فى قولهم « ليل قائم، ونهار صائم » . وقال جرير :

لقد لُمْتِنَا يا أمَّ غَيْلان فى السُّرَى ＊ ونمتِ وما ليـلُ المَطِىّ بنـائم

وقال قُطْرُب: يقال أظلم الليل أى صار ذا ظلمة، وأضاء النهار وأبصر أى صار ذا ضياء و بصر.

(١) راجع جـ ٧ ص ٧١ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أى علامات ودلالات . ﴿ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أى سماع اعتبار .

قوله تعالى : قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ٱتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا ﴾ يعنى الكفار . وقد تقدّم[1] . ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ نزّه نفسه عن الصاحبة والأولاد وعن الشركاء والأنداد . ﴿هُوَ الْغَنِىُّ لَهُ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ﴾ ثم أخبر بغناه المطلق ، وأن له ما فى السموات والأرض ملكا وخلقا وعبدا ؛ « إِنْ كُلُّ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِى الرَّحْمٰنِ عَبْدًا »[2] . ﴿ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ﴾ أى ما عندكم من حجة بهذا . ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ ﴾ من إثبات الولد له ، والولد يقتضى المجانسة والمشابهة والله تعالى لا يجانس شيئا ولا يشابه شيئا .

قوله تعالى : قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ ﴾ أى يختلقون . ﴿عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ أى لا يفوزون ولا يأمنون؛ وتم الكلام . ﴿ مَتَاعٌ فِى الدُّنْيَا ﴾ أى ذلك متاع ، أو هو متاع فى الدنيا؛ قاله الكسائى . وقال الأخفش : لهم متاع فى الدنيا . قال أبو إسحاق : ويجوز النصب فى غير القرآن على معنى يتمتعون متاعا . ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أى رجوعهم . ﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ ﴾ أى الغليظ ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ أى بكفرهم .

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٥ طبعة ثانية . (٢) آية ٩٣ سورة مريم .

قوله تعـالى : وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ أمره عليه السلام أن يذكرهم أقاصيص المتقدمين، ويخوفهم العـذاب الأليم على كفرهم . وحذفت الواو من « اتل » لأنه أمر؛ أى ٱقرأ عليهم خبر نوح . ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ « إذ » فى موضع نصب . ﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ ﴾ أى عظم وثقل عليكم . ﴿ مَقَامِى ﴾ المقام (بفتح الميم) : الموضع الذى يقوم فيه . والمُقام (بالضم) الإقامة . ولم يُقرأ به فيما علمت ؛ أى إن طال عليكم لُبْثِى فيكم، ﴿ وَتَذْكِيرِى ﴾ إيا كم، وتخويفى لكم ﴿ بِآيَاتِ اللهِ ﴾ وعزمتم على قتلى وطردى ﴿ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أى اعتمدت . وهذا هو جواب الشرط، ولم يزل عليه السـلام متوكلا على الله فى كل حال، ولكن بيّن أنه متوكل فى هـذا على الخصوص ليعرف قومه أن الله يكفيه أمرهم ؛ أى إن لم تنصرونى فإنى أتوكّل على من ينصرنى .

قوله تعـالى : ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ قراءة العـامة « فأجمعـوا » بقطع الألف « شُرَكَاءَكُمْ » بالنصب . وقرأ عاصم الجَحْـدَرِىّ « فَٱجْمَعُوا » بوصل الألف وفتح الميم؛ من جَمع يجمع . « شركاءكم » بالنصب . وقرأ الحسن وابن أبى إسحاق ويعقوب « فأجمعوا » بقطع الألف « شركاؤكم » بالرفع . فأما القراءة الأولى من أجمع على الشىء إذا عزم عليـه . وقال الفـراء : أجمع الشىء أعدّه . وقال المؤرّج : أجمعت الأمر أفصح من أجمعت عليه . وأنشـــد :

يا ليت شـعرى والمُنَى لا تنفع * هل أَغْدُوَنْ يوما وأمرى مُجْمَعُ

قال النحاس : وفى نصب الشركاء على هذه القراءة ثلاثة أوجه ؛ قال الكسائى والفراء : هو بمعنى وادعوا شركاءكم لنصرتكم ؛ وهو منصوب عندهما على إضمار هذا الفعل . وقال محمد بن يزيد : هو معطوف على المعنى؛ كما قال :

يا ليت زوجَك فى الوَغَى * متقـــلّدا سَـــيْفًا ورُمحَا

والرمح لا يُتقلّد، إلا أنه محمول كالسيف . وقال أبو إسحـاق الزجاج : المعنى مع شركائكم على تناصركم؛ كما يقال : التقى المـاء والخشبةَ . والقراءة الثانيـة من الجمع ، اعتبارا بقوله تعالى : « فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى »(١) . قال أبو معـاذ : ويجوز أن يكون معنى جمـع وأجمع بمعنًى واحد ، « وشركاءكم » على هـذه القراءة عطف على « أمركم » ، أو على معنى فأجمعوا أمركم وأجمعوا شركاءكم ، وان شئت بمعنى مع . قال أبو جعفر النحاس : وسمعت أبا إسحاق يجـيز قام زيد وعمرا . والقراءة الثالثة على أن يعطف الشركاء على المضمر المرفوع فى أجمعوا ، وحسن ذلك لأن الكلام قد طال . قال النحاس وغيره : وهذه القراءة تبعد؛ لأنه لو كان مرفوعا لوجب أن تكتب بالواو ، ولم يُرَ فى المصاحف واو فى قوله « وشركاءكم » ، وأيضـا فإن شركاءهم الأصنام، والأصنام لا تصنع شيئا ولا فعل لها حتى تُجْمِـع . قال المهدوىّ : ويجوز أن يرتفع الشركاء بالابتداء والخبر محذوف ، أى وشركاؤكم ليجمعوا أمرهم، ونسب ذلك إلى الشركاء وهى لا تسمع ولا تبصر ولا تميز على جهة التوبيخ لمن عبدها .

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّـةً ﴾ اسم يكن وخبرها . وغُمّة وغَمّ سواء، ومعناه التغطية؛ من قولهم : غُمّ الهلال إذا استتر؛ أى ليكن أمركم ظاهرا منكشفا تتمكنون فيه مما شئتم؛ لا كمن يخفَى أمرُه فلا يقدر على ما يريد . قال طرَفة :

لعمرك ما أمرى علىّ بغُمّة * نهـارى ولا ليلى علىّ بسَرْمَد

---

(١) آية ٦٠ سورة طه .

الزجاج : غُمّــة ذا غم، والغم والغُمّة كالكَرْب والكُرْبة . وقيل : إن الغمة ضيق الأمر الذى يوجب الغم فلا يتبين صاحبــه لأمره مصدرا ليتفرج عنه ما يغُمّه . وفى الصحاح : والغمة الكربة . قال العجاج :

لو شهدت الناس إذ تُكُمُّوا[1] * بغُمّة لو لم تُفَرَّج غُمّـــوا

يقال : أمرٌ غُمّة، أى مُبْهَم ملتبس؛ قال تعالى : « ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّــةً » . قال أبو عبيدة : مجازها ظلمة وضيق . والغمة أيضا : قعر النِّحْى[2] وغيره . قال غيره : وأصل هذا كله مشتق من الغمامة .

قوله تعــالى : ﴿ ثُمَّ ٱقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴾ ألف «ٱقضوا» ألف وصل، من قضى يقضى . قال الأخفش والكسائى : هو مثل « وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ[3] » أى أنهيناه اليــه وأبلغناه إياه . وروى عن ابن عباس « ثم ٱقضوا إلى ولا تنظرونــ » قال : ٱمضوا إلى ولا تؤخرون . قال النحاس : هــذا قول صحيح فى اللغــة؛ ومنه : قَضَى الميت أى مضى . وأعلمهم بهذا أنهم لا يصلون إليه، وهذا من دلائل النبوّات . وحكى الفراء عن بعض القراء « ثم أفضوا إلىّ » بالفاء وقطع الألف، أى توجهوا؛ يقال : أفضت الخــلافة إلى فلان ، وأفضى الىّ الوجع . وهذا إخبار من الله تعــالى عن نبيه نوح عليه السلام أنه كان بنصر الله واثقا، ومن كيدهم غير خائف؛ علما منه بأنهم وآلهتهم لا ينفعون ولا يضرون . وتعزيةٌ لنبيه صلى الله عليه وسلم وتقويةٌ لقلبه .

قوله تعــالى : فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾

---

(١) تكموا : غطوا بالغم . (٢) النحى (بالكسر) : زق للسمن . (٣) آية ٦٦ سورة الحجر .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أى فإن أعرضتم عما جئتكم به فليس ذلك لأنى سألتكم أجرا فيثقل عليكم مكافأتى . ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ فى تبليغ رسالته . ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أى الموحّدين لله تعالى . فتح أهل المدينة وأبو عمرو وابن عامر وحفص ياء « أجرِيَ » حيث وقع، وأسكن الباقون .

قوله تعالى : فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ يعنى نوحا . ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ ﴾ أى من المؤمنين . ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ أى السفينة ، وسيأتى ذكرها . ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ أى سكان الأرض وخلفا ممن غرق .﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ يعنى آخر أمر الذين أنذرهم الرسل فلم يؤمنوا.

قوله تعالى : ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى من بعد نوح . ﴿ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ ﴾ كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وغيرهم . ﴿فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى بالمعجزات . ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ التقدير: بما كذب به قوم نوح من قبل. وقيل : « بما كذبوا به من قبل» أى من قبل يوم الذّر، فإنه كان فيهم من كذب بقلبه وإن قال الجميع بلى . قال النحاس : ومن أحسن ما قيل فى هذا أنه لقوم بأعيانهم ؛ مثل « أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون »[1] . ﴿ كَذَلِكَ نَطْبَعُ ﴾ أى نختم . ﴿ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ أى المجاوزين الحدّ فى الكفر والتكذيب فلا يؤمنوا . وهذا ردّ على القدرية قولهم كما تقدم .

(١) آية ٦ سورة البقرة .

قوله تعـالى : ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْـدِهِمْ ﴾ أى من بعـد الرسل والأمم . ﴿ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ أى أشراف قومه . ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ يريد الآيات التسع، وقد تقدم ذكرها (١) . ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾ أى عن الحق . ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ أى مشركين .

قوله تعـالى : فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا ﴾ يريد فرعون وقومه . ﴿ قَالُوا إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ حملوا المعجزات على السحر . قال لهم موسى ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا ﴾ قيل : فى الكلام حذف، المعنى: أتقولون للحق هذا سحر . فـ«أتقولون» إنكار وقولهم محذوف أى هذا سحر، ثم آستأنف انكارا آخر من قِبَله فقال أسحر هذا! . فحذف قولهم الأوّل اكتفاء بالثانى من قولهم، منكرا على فرعون وملئه . وقال الأخفش : هو من قولهم، ودخلت الألف حكايةً لقولهم؛ لأنهـم قالوا أسحر هـذا . فقيل لهم : أتقولون للحق لمـا جاءكم أسحر هذا؛ وروى عن الحسن . ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ أى لا يفلح من أتى به .

قوله تعـالى : قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٠ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا ﴾ أى تصرفنا وتلوينا، يقال : لفته يلفته لَفْتًا إذا لواه وصرفه . قال الشاعر :

تلفَّتُّ نحـو الحَيِّ حتى رأيتُنِي * وجِعْتُ من الإصغاء لِيتًا وأخْدَعا[1]

ومن هـذا ٱلتفتَ إنمـا هو عدل عن الجهة التى بين يديه . ﴿ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ يريد من عبادة الأصنام . ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ ﴾ أى العظمة والملك والسلطان . ﴿ فِى الْأَرْضِ ﴾ يريد أرض مصر . ويقال للمُلْك الكبرياء لأنه أعظم ما يطلب فى الدنيـا . ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ وقرأ ٱبن مسعود والحسن وغيرهما « ويكون » باليـاء لأنه تانيث غير حقيقى وقد فصل بينهما . وحكى سيبويه : حضر القاضى اليوم ٱمرأتان .

قوله تعـالى : وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾

إنمـا قاله لمّـا رأى العصا واليد البيضاء واعتقد أنهما سحر . وقرأ حمزة والكسائىّ وابن وثّاب والأعمش « سحار » . وقد تقدم فى الأعراف القول فيهما[2] .

قوله تعـالى : فَلَمَّا جَاءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾

أى اطرحوا على الأرض ما معكم من حبالكم وعِصِيّكم . وقد تقدم فى الأعراف القول فى هذا مستوفًى[2] .

قوله تعـالى : فَلَمَّآ أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾

---

(١) البيت للصمة القشيرى . والاصغاء الميل . والليت (بالكسر) صفحة العنق . والأخدع : عرق فى صفحة العنق .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٥٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ﴾ تكون « ما » فى موضـع رفع بالابتداء ، والخبر « جئتم به » والتقدير : أى شىء جئتم به ، على التوبيخ والتصغير لمـا جاءوا به من السحر . وقراءة أبى عمرو « آلسحر » على الاستفهام على إضمار مبتدأ والتقدير أهو السحر . ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوف، التقدير : السحر جئتم به . ولا تكون «ما » على قراءة من استفهم بمعنى الذى، إذ لا خبر لها . وقرأ الباقون « السحر » على الخبر، ودليل هذه القراءة قراءة ابن مسعود « ما جئتم به سحر » . وقراءة أُبَىّ « ما أتيتم به سحر » ؛ فـ«ـما» بمعنى الذى، و « جئتم به » الصـلة ، وموضع « ما » رفع بالابتداء ، والسحر خبر الابتداء . ولا تكون « ما » إذا جعلتها بمعنى الذى نصبا لأن الصلة لا تعمل فى الموصول . وأجاز الفراء نصب السحر بجئتم ، وتكون ما للشرط ،وجئتم فى موضع جزم بما والفاء محذوفة؛ التقدير : فإن الله سيبطله . ويجوز أن ينصب السحر على المصـدر ، أى ما جئتم به سحرا ، ثم دخلت الألف واللام زائدتين، فلا يحتاج على هـذا التقدير إلى حذف الفاء . واختار هذا القـول النحاس ، وقال : حذف الفاء فى المجازاة لا يجيزه كثير من النحويين إلا فى ضرورة الشعر؛ كما قال :

* من يفعل الحسنات الله يشكرها *

بل ربما قال بعضهم : إنه لا يجوز ألْبَتَّةَ . وسمعت علىّ بن سـليمان يقول : حدثنى محمد ابن يزيد قال حدثنى المـازنىّ قال سمعت الأصمعىّ يقول : غيّر النحويون هذا البيت ، وإنما الرواية

* من يفعل الخير فالرحمن يشكره *

وسمعت علىّ بن سـليمان يقول : حذف الفاء فى المجازاة جائز . قال : والدليل على ذلك «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ»[1] . « وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم » قراءتان مشهورتان معروفتان . ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ يعنى السحر. قال ابن عباس : من أخذ مضْجَعه من الليل ثم تلا هـذه الآية « ما جئتم به السحر إن الله سـيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين» لم يضره كيد ساحر. ولا تكتب على مسحور إلا دفع الله عنه السحر.

(١) آية ٣٠ سورة الشورى .

قوله تعالى : وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ (٨٢)

قوله تعالى : ﴿ وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ ﴾ أى يبيّنه ويوضحه . ﴿ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أى بكلامه وحججه وبراهينه . وقيل : بعداته بالنصر . ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ من آل فرعون .

قوله تعالى : فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ (٨٣)

قوله تعالى : ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ الهاء عائدة على موسى . قال مجاهد : أى لم يؤمن منهم أحد، وإنما آمن أولاد من أرسل موسى إليهم من بنى اسرائيل ، لطول الزمان هلك الآباء وبقى الأبناء فآمنوا ؛ وهذا اختيار الطبرى . والذرية أعقاب الإنسان ، وقد تكثر . وقيل : أراد بالذرية مؤمنى بنى اسرائيل . قال ابن عباس : كانوا ستمائة ألف ، وذلك أن يعقوب عليه السلام دخل مصر فى اثنين وسبعين إنسانا فتوالدوا بمصر حتى بلغوا ستمائة ألف . وقال ابن عباس أيضا : « من قومه » يعنى من قوم فرعون ؛ منهم مؤمنُ آل فرعون وخازنُ فرعون وآمرأته وماشطة آبنته وامرأة خازنه . وقيل : هم أقوامٌ آباؤهم من القبط ، وأمهاتهم من بنى إسرائيل فسُمّوا ذرية كما يسمى أولاد الفُرس الذين توالدوا باليمن وبلاد العرب الأبناء؛لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم ؛ قاله الفراء . وعلى هذا فالكناية فى « قومه » ترجع إلى موسى للقرابة من جهة الأمهات ، وإلى فرعون إذا كانوا من القبط .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ ﴾ لأنه كان مسلّطا عليهم عاتيا . ﴿ وَمَلَئِهِمْ ﴾ ولم يقل وملئه ؛ وعنه ستة أجوبة : أحدها — أن فرعون لما كان جبارا أخبر عنه بفعل الجميع . الثانى — أن فرعون لما ذكر علم أن معه غيره ، فعاد الضمير عليه وعليهم ؛ وهذا أحد قولى الفرّاء . الثالث — أن تكون الجماعة سميت بفرعون مثل ثمود . الرابع — أن يكون التقدير : على خوف من آل فرعون ؛ فيكون من باب حذف المضاف مثل « واسئل القرية » ،

وهو القول الثاني للفراء . وهذا الجواب على مذهب سيبويه والخليل خطأ، لايجوز عندهما قامت هند ، وأنت تريد غلامها . الخامس - مذهب الأخفش سعيد أن يكون الضمير يعود على الذرية ، أى ملأ الذرية ؛ وهو اختيار الطبرى . السادس - أن يكون الضمير يعود على قومه . قال النحاس : وهذا الجواب كأنه أبلغها . ﴿ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ﴾ وحّد « يفتنهم » على الإخبار عن فرعون ، أى يصرفهم عن دينهم بالعقوبات ، وهو فى موضع خفض على أنه بدل اشتمال . ويجوز أن يكون فى موضع نصب بـ « خَوْف » . ولم ينصرف فرعون لأنه اسم أعجمى وهو معرفة . ﴿ وإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى عاتٍ متكبر . ﴿ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ أى المجاوزين الحدّ فى الكفر ؛ لأنه كان عبدا فآدّعى الربوبية .

قوله تعالى : وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ ﴾ أى صدّقتم . ﴿ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ﴾ أى اعتمدوا . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ كرر الشرط تأكيدا ، وبيّن أن كمال الإيمان بتفويض الأمر إلى الله . ﴿ فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أى أسلمنا أمورنا إليه ، ورضينا بقضائه وقدره ، وانتهينا إلى أمره . ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى لا تنصرهم علينا ، فيكون ذلك فتنة لنا عن الدين ، أولا تمتحنّا بأن تعذّبنا على أيديهم . وقال مجاهد : المعنى لا تهلكنا بأيدى أعدائنا ، ولا تعذبنا بعذاب من عندك ، فيقول أعداؤنا لو كانوا على حق لم نسلّط عليهم ؛ فيُفتنوا . وقال أبو مِجْلَز وأبو الضحا : يعنى لا تظهرهم علينا فيروْا أنهم خير منا فيزدادوا طغيانا .

قوله تعالى : وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ ﴾ أى خلّصنا ﴿ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ أى من فرعون وقومه ؛ لأنهم كانوا يأخذونهم بالأعمال الشاقة .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا ﴾ أى آتخذا . ﴿ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ يقال : بوّأت زيدا مكانا، وبوّأت لزيد مكانا . والمبوّأ المنزل الملزوم؛ ومنه بوّأه الله منزلا ، أى ألزمه إياه وأسكنه؛ ومنه الحديث : " من كذب علىّ متعمدا فليتبوّأ مقعده من النار " قال الراجز :

نحن بنو عدنان ليس شك * تبوّأ المجـــد بنـا والملك

ومصر فى هـذه الآية هى الإسكندرية ؛ فى قول مجاهد . وقال الضحاك : إنه البلد المسمى مصر، ومصر ما بين البحر إلى أُسوان، والإسكندرية من أرض مصر .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَٱجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ قال أكثر المفسريـــن : كان بنو اسرائيل لا يصلّون إلا فى مساجدهم وكنائسهم وكانت ظاهرة، فلما أرسل موسى أمر فرعونُ بمساجد بنى إسرائيـــل فخرّبت كلها ومنعوا من الصـــلاة؛ فأوحى الله إلى موسى وهارون أن آتخـذا وتخيّرا لبنى إسرائيل بيوتا بمصر، أى مساجد، ولم يرد المنازل المسكونة . هـــذا قول ابراهيم وآبن زيد والرّبيع وأبى مالك وابن عباس وغيرهم . وروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير أن المعنى : واجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضا . والقول الأوّل أصح؛ أى اجعلوا مساجدكم إلى القِبلة؛ قيل : بيت المقدس، وهى قبلة اليهود إلى اليوم؛ قاله ابن بحر . وقيل الكعبة . عن ابن عباس قال : وكانت الكعبة قِبـــلة موسى ومن معه ، وهـــذا يدل على أن القبـــلة فى الصلاة كانت شرعا لموسى عليه السلام، ولم تخل الصلاة عن شرط الطهارة وســـتر العورة واستقبال القبلة؛ فإن ذلك أبلغ فى التكليف وأوفر للعبادة . وقيل : المراد صلّوا فى بيوتكم سرا لتأمنوا ؛ وذلك حين أخافهـــم فرعون فأمِروا بالصبر واتخاذ المساجد فى البيوت ، والإقـــدام

على الصلاة ، والدعاء إلى أن ينجز الله وعده، وهو المراد بقوله : « قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوا[1] » الآية . وكان من دينهم أنهم لا يصلون إلا في البِيَع والكنائس ما داموا على أمن ، فاذا خافوا فقد أذن لهم أن يصلوا في بيوتهم . قال ابن العربي : والأول أظهر القولين ؛ لأن الثـاني دعوى .

قلت : قوله « دعوى » صحيح ؛ فإن في الصحيح قوله عليه السلام : " جعلت لي الأرض مسجدا وطَهورا " وهذا مما خُصّ به دون الأنبياء ؛ فنحن بحمد الله نصلّي في المساجد والبيوت ، وحيث أدركتنا الصلاة ؛ إلا أن النافلة في المنازل أفضل منها في المساجد، حتى الركوع قبل الجمعـة و بعدها . وقبـل الصلوات المفروضات وبعدها ؛ إذ النوافل يحصل فيهـا الرياء ، والفرائض لا يحصل فيها ذلك، وكلما خَلَص العمـل من الرياء كان أوزن وأزلف عنـد الله سبحانه وتعالى . روى مسلم عن عبد الله بن شقيق قال : سألت عائشة عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تطوّعه قالت : كان يصلي في بيتي قبل الظهر أربعا ، ثم يخرج فيصلي بالناس ، ثم يدخل فيصلي ركعتين ، وكان يصلي بالناس المغرب ، ثم يدخل فيصلي ركعتـين، ثم يصلي بالناس العشاء ، ويدخل بيتي فيصلي ركعتين ... " الحـديث . وعن ابن عمر قال : صليت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم قبل الظهر سجدتين و بعدها سجدتين و بعد المغرب سجدتين ؛ فأما المغرب والعشاء والجمعة فصليت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في بيته . وروى أبو داود عن كعب بن عُجْرة أن النبيّ صلى الله عليـه وسلم أتى مسجد بني الأشهل فصلى فيه المغرب ؛ فلما قضوْا صلاتهم رآهم يسبحون بعدها فقال : " هذه صلاة البيوت " .

الثالثـــة ــ واختلف العلماء من هـذا الباب في قيام رمضان، هـل إيقاعه في البيت أفضل أو في المسجد؟ فذهب مالك إلى أنه في البيت أفضل لمن قويَ عليه، و به قال أبو يوسف و بعض أصحاب الشافعي . وذهب ابن عبـد الحكم وأحمـد و بعض أصحاب الشافعي إلى أن حضورها في الجماعة أفضل . وقال الليث : لو قام الناس في بيوتهـم ولم يقم أحد في المسجد

---

(١) آية ١٢٨ سورة الاعراف .

لا ينبغى أن يخرجوا إليه . والحجة لمالك ومن قال بقوله قولُه صلى الله عليه وسلم فى حديث زيد بن ثابت : " فعليكم بالصلاة فى بيوتكم فإن خير صلاة المرء فى بيته إلا المكتوبة " خرجه البخاريّ . احتج المخالف بأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد صلاها فى الجماعة فى المسجد، ثم أخبر بالمانع الذى منع منه على الدوام على ذلك ، وهو خشية أن تفرض عليهم فلذلك قال لهم : " فعليكم بالصلاة فى بيوتكم " . ثم إن الصحابة كانوا يصلونها فى المسجد أوزاعا متفرقين ، إلى أن جمعهم عمر على قارئ واحد فآستقر الأمر على ذلك وثبت سُنّة .

الرابعة — وإذا تنزلنا على أنه كان أبيح لهم أن يصلوا فى بيوتهم إذا خافوا على أنفسهم فيستدلّ به على أن المعذور بالخوف وغيره يجوز له ترك الجماعة والجمعة . والعذر الذى يبيح له ذلك المرض الحابس، أو خوف زيادته، أو خوف جور السلطان فى مال أو بدن دون القضاء عليه بحق . والمطرُ الوابل مع الوحل عذر إن لم ينقطع، ومن له وليّ حميم قد حضرته الوفاة ولم يكن عنده من يمرّضه ؛ وقد فعل ذلك ابن عمر .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قيل : الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم . وقيل لموسى عليه السلام ، وهو أظهر ، أى بشر بنى إسرائيل بأن الله سيظهرهم على عدوهم .

قوله تعالى : وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ ﴾ « آتيت » أى أعطيت . ﴿ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى مال الدنيا ، وكان لهم من فُسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن الذهب والفضة والزّبرجد والزّمرد والياقوت .

قوله تعـالى : ﴿ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ﴾ اختلف فى هـذه اللام ، وأصح ما قيل فيها — وهو قول الخليل وسيبويه — أنها لام العاقبة والصيرورة ؛ وفى الخبر "إن لله تعالى مَلَكا ينـادى كلّ يوم لِدُوا للوت وابنوا للخراب" . أى لمـا كان عاقبة أمرهم إلى الضـلال صار كأنه أعطاهم ليضلوا . وقيل : هى لام كَىْ ، أى أعطيتهم لكى يضلوا ويَبْطَروا ويتكبّروا . وقيل : هى لام أَجْل ، أى أعطيتهم لأجل إعراضهم عنك فلم يخافوا أن تعرض عنهم . وزعم قوم أن المعنى : أعطيتهم ذلك لئلا يضلوا ، فحذفت لا كما قال عز وجل : «يُبَيِّنُ اللهُ لكم أنْ تَضِلوا»(1) . والمعنى : لئلا تضلوا . قال النحاس : ظاهر هذا الجواب حسن ، إلا أن العرب لا تحذف « لا » إلا مع أن ؛ فموّه صاحب هـذا الجواب بقوله عز وجل « أن تضلوا » . وقيل : اللام للدعاء ، أى ٱبتلهم بالضـلال عن سبيلك ؛ لأن بعده و « ٱطمِس على أموالهم وٱشدد » . وقيل : الفعل معنى المصدر أى إضلالهم ؛ كقوله عز وجل « لِتُعرضوا عنهم » . قرأ الكوفيون « ليُضلوا » بضم الياء من الإضلال ، وفتحها الباقون .

قوله تعـالى : ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ ﴾ أى عاقبهم على كفرهم بإهـلاك أموالهم . قال الزجاج : طُمُوس الشيء إذهابه عن صورته . قال ابن عباس ومحمد بن كعب : صارت أموالهم ودراهمهم حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأثلاثا وأنصافا ، ولم يبق لهم معدن إلا طمس الله عليـه فلم ينتفع به أحد بعدُ . وقال قتادة : بلغنا أن أموالهم وزروعهم صارت حجارة . وقال مجاهد وعطيـة : أهلكها حتى لا تُرَى ؛ يقال : عين مطموسـة ، وطُمس الموضع إذا عفا ودرَس . وقال ابن زيد : صارت دنانيرهم ودراهمهم وفرشهم وكل شيء لهم حجارة . محمد ٱبن كعب : وكان الرجل منهم يكون مع أهله فى فراشه وقد صارا حجرين ؛ قال : وسألنى عمر بن عبد العزيز فذكرت ذلك له فدعا بخريطة أصيبت بمصر فأخرج منها الفوا كه والدراهم والدنانير وإنها لحجارة . وقال السدّى : وكانت إحدى الآيات التسع « وٱشـدد على قلوبهم » . قال ٱبن عباس : أى امنعهم الإيمان . وقيل : قسّها وٱطبع عليها حتى لا تنشرح للإيمان ؛ والمعنى

(1) آخر سورة النساء .

واحد . ﴿ فَلَا يُؤْمِنُوا ﴾ قيل : هو عطف على قوله « ليضلوا » أى آتيتهم النعم ليضلوا ولا يؤمنوا ؛ قاله الزجاج والمبرد . وعلى هذا لا يكون فيه من معنى الدعاء شيء . وقوله « ربنا اطمس ، واشدد » كلام معترض . وقال الفراء والكسائى وأبو عبيدة : هو دعاء ، فهو فى موضع جزم عندهم ؛ أى اللهم فلا يؤمنوا ، أى فلا آمنوا . ومنه قول الأعشى :

فلا ينبسط من بين عينيك ما آنزوى * ولا تَلْقَنِى إلا وأنفك راغم

أى لا آنبسط . ومن قال « ليضلوا » دعاء — أى ابتلهم بالضلال — قال : عطف عليه « فلا يؤمنوا » . وقيل : هو فى موضع نصب لأنه جواب الأمر ؛ أى واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا . وهذا قول الأخفش والفراء أيضا ، وأنشد الفراء :

يا ناق سيرى عَنَقًا فسيحا * إلى سليمان فنستريحا

فعلى هذا حذفت النون لأنه منصوب . ﴿ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ قال ابن عباس : هو الغرق . وقد آستشكل بعض الناس هذه الاية فقال : كيف دعا عليهم وحُكم الرسل استدعاء إيمان قومهم ؛ فالجواب أنه لا يجوز أن يدعو نبيّ على قومه إلا بإذن من الله ، وإعلام أنه ليس فيهم من يؤمن ولا يخرج من أصلابهم من يؤمن ؛ دليله قوله لنوح عليه السلام : « أنه لن يؤمن من قومك إلّا من قد آمن »(1) وعند ذلك قال : « رَبِّ لا تَذَرْ على الأرض من الكافرين ديّارا »(2) . والله أعلم .

قوله تعالى : قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾ قال أبو العالية : دعا موسى وأمّن هارون ؛ وقد أمّن على الدعاء داعيا . التأمين على الدعاء أن يقول آمين ؛ فقولك آمين دعاء ، أى رب

---

(1) آية ٣٦ سورة هود . (2) آية ٢٦ سورة نوح .

استجب لى . وقيل : دعا هارون مع موسى أيضا . وقال أهل المعانى : ربما خاطبت العرب الواحد بخطاب الاثنين ؛ قال الشاعر :

فقلت لصاحبي لا تُعجلانا * بنزع أصوله فاْجتز شِيحا

وهذا على أن آمين ليس بدعاء ، وأن هارون لم يدع . قال النحاس : سمعت عليّ بن سليمان يقول : الدليل على أن الدعاء لهما قول موسى عليه السلام « ربنا » ولم يقل رب . وقرأ عليّ والسُّلَمِيّ «دعواتكما» بالجمع . وقرأ ابن السَّمَيْقَع «أجبت دعوتكما» خبرا عن الله تعالى، ونصب دعوة بعده . وتقدم القول فى « آمين » فى آخر الفاتحة مستوفًى . وهو مما خُصّ به نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم وهارون وموسى عليهما السلام . روى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله قد أعطى أمّتى ثلاثا لم تُعْط أحدا قبلهم السلام وهى تحية أهل الجنة وصفوف الملائكة وآمين إلا ما كان من موسى وهارون" ذكره الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول . وقد تقدّم فى الفاتحة[1] .

قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَقِيمَا ﴾ قال الفرّاء وغيره : أمر بالاستقامة على أمرهما والثبات عليه من دعاء فرعون وقومه إلى الإيمان، إلى أن يأتيهما تأويل الإجابة . قال محمد بن عليّ وابن جريج : مكث فرعون وقومه بعد هذه الإجابة أربعين سنة ثم أهلكوا . وقيل : « استقيما » أى على الدعاء ؛ والاستقامة فى الدعاء ترك الاستعجال فى حصول المقصود، ولا يسقط الاستعجال من القلب إلا باستقامة السكينة فيه ، ولا تكون تلك السكينة إلا بالرضا الحسن لجميع ما يبدو من الغيب . ﴿ وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ بتشديد النون فى موضع جزم على النهى ، والنون للتوكيد وحركت لالتقاء الساكنين واختير لها الكسر لأنها أشبهت نون الاثنين . وقرأ ابن ذَكْوَان بتخفيف النون على النفى . وقيل : هو حال من استقيما؛ أى استقيما غير متّبِعَيْن ، والمعنى : لا تسلكا طريق من لا يعلم حقيقة وعدى ووعيدى .

(١) راجع جـ ١ ص ١٢٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾ تقدم القول فيه في « البقرة » في قوله « وَ إِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ »[(1)] . وقرأ الحسن «وجوّزنا» وهما لغتان . ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ ﴾ يقال : تبِع وأتبع بمعنًى واحد ، اذا لحقه وأدركه . واتّبع (بالتشديد) إذا سار خلفه . وقال الأصمعي : أتبعه (بقطع الألف) إذا لحقه وأدركه ، واتبعه (بوصل الألف) إذا اتبع أثره ، أدركه أو لم يدركه . وكذلك قال أبو زيد . وقرأ قتادة « فاتّبعهم » بوصل الألف . وقيل: « اتّبعه » (بوصل الألف) في الأمر اقتدى به . وأتبعه (بقطع الألف) خيرا أو شرا ؛ هذا قول أبي عمرو . وقد قيل هما بمعنًى واحد . فخرج موسى ببني إسرائيل وهم ستمائة ألف وعشرون ألفا ، وتبعه فرعون مُصْبِحًا في ألفي ألف وستمائة ألف . وقد تقدّم[(2)] . ﴿ بَغْيًا ﴾ نصب على الحال . ﴿ وَعَدْوًا ﴾ معطوف عليه ؛ أي في حال بَغْيٍ واعتداء وظلم ؛ يقال : عدا يعدو عَدْوًا ؛ مثل غزا يغزو غَزْوًا . وقرأ الحسن « وعُدُوًّا » بضم العين والدال وتشديد الواو ؛ مثلُ علا يعلو عُلُوًّا . وقال المفسرون : « بغيا » طلبا للاستعلاء بغير حق في القول ، « وعدوا » في الفعل ؛ فهما نصب على المفعول له . ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ ﴾ أي ناله ووصله . ﴿ قَالَ آمَنْتُ ﴾ أي صدّقت . ﴿ أَنَّهُ ﴾ أي بأنه . ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾ فلما حذف الخافض تعدّى الفعل فنصب . وقرئ بالكسر ؛ أي صرت مؤمنا ثم استأنف . وزعم أبو حاتم أن القول محذوف ، أي آمنت فقلت إنه ، والإيمان لا ينفع حينئذ ؛ والتوبة مقبولة قبل رؤية البأس ، وأما بعدها وبعد المخالطة فلا تقبل ، حسب ما تقدّم في « النساء »[(3)] بيانه . ويقال : إن فرعون هاب دخول

(1) راجع جـ ١ ص ٣٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (2) راجع جـ ١ ص ٣٨٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

(3) راجع جـ ٥ ص ٩٠ طبعة أولى أو ثانية .

البحر وكان على حصان أدهمَ ولم يكن فى خيل فرعون فرس أنثى؛ فجاء جبريل على فرس وَدِيق — أى شَهِيّ (١) — فى صورة هامان وقال له : تقدّم، ثم خاض البحر فتبعها حصان فرعون ، وميكائيل يسوقهم لا يشـذّ منهم أحد ، فلما صار آخرهم فى البحر وهمّ أوّلهم أن يخرج انطبق عليهم البحر، وألجم فرعونَ الغرقُ فقال : آمنت بالذى آمنت به بنو إسرائيل؛ فدس جبريل فى فمه حال البحر . وروى الترمذى عن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لمـا أغرق الله فرعون قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل قال جبريل يا محمد فلو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر فأدسّه فى فيـه مخافة أن تدركه الرحمة " . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن . حال البحر : الطين الأسود الذى يكون فى أرضه ؛ قاله أهل اللغة . وعن ابن عباس عن النبىّ صـلى الله عليـه وسلم أنه ذكر : " أن جبريل جعل يدسّ فى فى فرعون الطين خشية أن يقول لا إله إلا الله فيرحمه الله أو خشية أن يرحمه " . قال : هذا حديث حسن غريب صحيح . وقال عَون بن عبد الله : بلغنى أن جبريل قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم ما ولد إبليسُ أبغضَ إلىّ من فرعون ، فإنه لمـا أدركه الغرق قال « آمنت » الآية ، فخشيت أن يقولها فيرحم ، فأخذت تربة أو طينة فحشوتها فى فيه . وقيل : إنما فُعل هذا به عقوبةً له على عظيم ما كان يأتى . وقال كعب الأحبار : أمسك الله نيـل مصر عن الجَرْى فى زمانه ، فقالت له القبط : إن كنت ربنـا فأجْرِ لنا المـاء ؛ فركب وأمر بجنوده قائدا قائدا وجعلوا يقفون على درجاتهم وقفز حيث لا يرونه ونزل عن دابته ولبس ثيابا له أخرى وسجد وتضرّع لله تعـالى فأجرى الله له المـاء ، فأتاه جبريل وهو وحده فى هيئة مُسْتَفْتٍ وقال : ما يقول الأمـير فى رجل له عبد قد نشأ فى نعمته لا سندله غيره ، فكفر نعَمه وجحد حقّه وآدعى السيادة دونه؛ فكتب فرعون : يقول أبو العباس الوليـد بن مصعب بن الريّان جزاؤه أن يغرق فى البحر ؛ فأخذه جبريل ومرّ فلمـا أدركه الغرق ناوله جبريل عليه السـلام خطّه . وقد مضى هـذا فى «البقرة» عن عبد الله بن عمرو بن العاص وابن عباس مسندا ؛ وكان هذا فى يوم عاشوراء على ما تقدّم بيانه فى « البقرة » أيضا فلا معنى للإعادة .

(١) أى تشتهى الفحل .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أى من الموحّدين المستسلمين بالانقياد والطاعة .

قوله تعالى : ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾

قيل : هو من قول الله تعالى . وقيل هو من قول جبريل . وقيل ميكائيل، صلوات الله عليهما، أو غيرهما من الملائكة صلوات الله عليهم . وقيل : هو من قول فرعون فى نفسه ، ولم يكن ثَمّ قول باللسان بل وقع ذلك فى قلبه فقال فى نفسه ما قال حيث لم تنفعه الندامة؛ ونظيره « إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ » أثنى عليهم الرب بما فى ضميرهم لا أنهم قالوا ذلك بلفظهم ، والكلام الحقيق كلام القلب .

قوله تعالى : فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ أى نلقيك على نَجْوة من الأرض . وذلك أن بنى إسرائيل لم يصدّقوا أن فرعون غَرِق، وقالوا : هو أعظم شأنا من ذلك، فألقاه الله على نَجْوة من الأرض، أى مكان مرتفع من البحر حتى شاهدوه . قال أوْس بن حَجَر يصف مطرا :

فمَن بعَقْوَته[1] كمن بنَجْوَته * والمُسْتكِنّ كمَنْ يَمْشِى بِقِرْواحِ

وقرأ اليزيدىّ وابن السَّمَيْقَع «نُنَحِّيك» بالحاء من التنحية، وحكاها علقمة عن ابن مسعود ؛ أى تكون على ناحية من البحر . قال ابن جريج : فرمى به على ساحل البحر حتى رآه بنو إسرائيل، وكان قصيرا أحمر كأنه ثور . وحكى علقمة عن عبدالله أنه قرأ «بندائك» من النداء . قال أبو بكر الأنبارىّ : وليس بمخالف لهجاء مصحفنا، إذ سبيله أن يكتب بياء وكاف بعد الدال ؛ لأن الألف تسقط من ندائك فى ترتيب خط المصحف كما سقطت من الظلمات والسموات ، فإذا وقع بها الحذف استوى هجاء بدنك وندائك، على أن هذه القراءة مرغوب عنها لشذوذها وخلافها ما عليه عامّة المسلمين ؛ والقراءة سُنّة يأخذها آخر عن أوّل، وفى معناها نقص عن

(١) العقوة والعقاة : الساحة وما حول الدار والمحلة ؛ وجمعها عقاء . والقرواح : الأرض البارزة للشمس .

تأويل قـراءتنا، إذ ليس فيها للـدرع ذكر ، الذى تتابعت الآثار بأن بنى إسرائيـل اختلفوا فى غرق فرعون ، وسألوا الله تعالى أن يريهم إياه غريقا فألقوه على نجوة من الأرض ببـدنه وهو درعه التى يلبسها فى الحروب . قال ابن عباس ومحمـد بن كعب القُرَظى : وكانت درعه من لؤلؤ منظوم . وقيل من الذهب وكان يعرف بها . وقيل من حديد؛ قاله أبو صخر . والبدن الدرع القصيرة . وأنشد أبو عبيدة للأعشى :

وبيضـاء كالنِّهْى مَوْضُونة * لها قَوْنَسٌ فوق جَيْب البَدَنْ (١)

وأنشد أيضا لعمرو بن معد يكرب :

ومضى نساؤهمُ بكل مُفاضةٍ * جَدْلَاء سـابغةٍ وبالأبدانِ (٢)

وقال كعب بن مالك :

ترى الأبدان فيهـا مسبَغات * على الأبطال واليَلَبَ الحصينا

أراد بالأبدان الدروع، واليلب الدروع اليمانية، كانت تتخذ من الجلود يخرز بعضها إلى بعض؛ وهو اسم جنس الواحد يلبة . قال عمرو بن كلثوم :

علينا البيضُ واليَلَبُ اليمانِىّ * وأسـيافٌ يَقُمن وينْحَنِينـا

وقيل : « ببدنك » بجسـد لا روح فيه ؛ قاله مجاهـد . قال الأخفش : وأما قول من قال بدرعك فليس بشىء . قال أبو بكر : لأنهم لمـا ضرعوا إلى الله يسألونه مشاهدة فرعون غريقا أبرزه لهم فرأوا جسدا لا روح فيه، فلما رأته بنو إسرائيل قالوا نعم ! ياموسى هذا فرعون وقد غَرِق ؛ فخرج الشك من قلوبهم وابتلع البحر فرعون كما كان . فعـلى هذا « ننجيك ببدنك » احتمل معنيين : أحدهما — نلقيك على نَجْوة من الأرض . والثانى — نظهر جسدك الذى لا روح فيـه . والقراءة الشاذة « بندائك » يرجع معناها الى معنى قراءة الجماعة ؛ لأن النداء يفسر تفسيرين ، أحدهما — نلقيك بصياحك كلمة التوبة ، وقولك بعد أن أغلق بابها ومضى

(١) البيضاء : الدرع والنهى (بالفتح والكسر) : الغدير وكل موضـع يجتمع فيه الماء . والموضونة : الدرع المنسوجة . والقونس : أعلى بيضة فى الحديد . (٢) المفاضـة (بضم أوله) : الدرع الواسعة . والجدلاء : الدرع المحكمة النسيج .

وقت قبولها «آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين» على موضع رفيع . والآخر — فاليوم نَعزِلك عن غامض البحر بندائك لما قلت أنا ربكم الأعلى ؛ فكانت تنجيته بالبدن معاقبةً من رب العالمين له على ما فَرَط من كفره الذى منه نداؤه الذى ٱفترى فيه وبُهت ، وٱدّعى القدرة والأمر الذى يعلم أنه كاذب فيه وعاجز عنه وغير مستحق له . قال أبو بكر الأنبارىّ : فقراءتنا تتضمن ما فى القراءة الشاذة من المعانى وتزيد عليها .

قوله تعالى : ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ أى لبنى اسرائيل ولمن بقى من قوم فرعون ممن لم يدركه الغرق ولم ينته اليه هذا الخبر . ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ أى معرضون عن تأمّل آياتنا والتفكر فيها . وقرئ « لمن خَلَفك » (بفتح اللام) ؛ أى لمن بقى بعدك يخلفك فى أرضك . وقرأ علىّ بن أبى طالب « لمن خلقك » بالقاف ؛ أى تكون آية لخالقك .

قوله تعالى : وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ أى منزل صدق محمود مختار ، يعنى مصر . وقيل الأُرْدُنّ وفلسطين . وقال الضحاك : هى مصر والشام . ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أى من الثمار وغيرها . وقال ابن عباس : يعنى قُرَيظة والنَّضير وأهل عصر النبىّ صلى الله عليه وسلم من بنى اسرائيل؛ فانهم كانوا يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم وينتظرون خروجه ، ثم لما خرج حسدوه؛ ولهذا قال : ﴿ فَمَا ٱخْتَلَفُوا ﴾ أى فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أى القرآن ومحمد صلى الله عليه وسلم . والعلم بمعنى المعلوم؛ لأنهم كانوا يعلمونه قبل خروجه؛ قاله ابن جرير الطبرى . ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ﴾ أى يحكم بينهم ويفصل . ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فى الدنيا ، فيثيب الطائع ويعاقب العاصى.

قوله تعـالى : فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾

قوله تعـالى : ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد غيره ، أى لست فى شك ولكنّ غيرك شك . قال أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد: سمعت الإمامين ثعلباً والمبرد يقولان : معنى « فإن كنت فى شـك » أى قل يا محمـد للكافر فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك . ﴿ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ أى ياعابد الوثن إن كنت فى شك من القرآن فاسأل من أسلم من اليهود، يعنى عبد الله بن سَلَام وأمثالَه ؛ لأن عبدة الأوثان كانوا يقرّون لليهود أنهـم أعلم منهم من أجل أنهم أصحاب كتاب ؛ فدعاهم الرسول صلى الله عليه وسـلم الى أن يسألوا من يقرّون بأنهم أعلم منهم، هل يبعث الله برسول من بعد موسى . وقال القُتَبِيّ : هذا خطاب لمن كان لا يقطع بتكذيب محمـد ولا بتصديقه صلى الله عليه وسلم، بل كان فى شك. وقيل: المراد بالخطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم لا غيره، والمعنى: لو كنت ممن يلحقك الشك فيما أخبرناك به فسألت أهل الكتاب لأزالوا عنك الشك. وقيل : الشك ضيق الصـدر ؛ أى إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر ، وآسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك يخبروك صَبْرَ الأنبيـاءِ من قبلك على أذى قومهم وكيف عاقبـة أمرهم . والشك فى اللغة أصـله الضيق ؛ يقال : شك الثوبَ أى ضمه بخـلال حتى يصير كالوعاء . وكذلك السّفرة تُمـدّ[(١)] علائقها حتى تنقبض؛ فالشك يقبض الصـدر و يضمه حتى يضيق . وقال الحسين بن الفضل : الفاء مع حروف الشرط لا توجب الفعل ولا تثبتـه ، والدليل عليه ما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم أنه قال لمـا نزلت هذه الآية : ” والله لا

(١) كذا فى الأصول . والظاهر أنها « تشك » .

أشك — ثم استأنف الكلام فقال — لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين " أى الشاكين المرتابين . ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ والخطاب فى هاتين الآيتين للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد غيره .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ تقدّم القول فيه فى هذه السورة[1] . قال قتادة : أى الذين حق عليهم غضبُ الله وسخطُه بمعصيتهم لا يؤمنون . ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ أنّث « كلّا » على المعنى؛ أى ولو جاءتهم الآيات ﴿ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ فحينئذ يؤمنون ولا ينفعهم .

قوله تعالى : فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ ﴾ قال الأخفش والكسائى : أى فهلّا . وفى مصحف أُبَيّ وابن مسعود « فهلا » وأصل لولا فى الكلام التحضيض أو الدلالة على منع أمر لوجود غيره . ومفهومٌ من معنى الآية نفى إيمان أهل القرى ثم استثنى قوم يونس؛ فهو بحسب اللفظ استثناء منقطع ، وهو بحسب المعنى متصل ؛ لأن تقديره ما آمن أهل قرية إلا قوم يونس . والنصب فى « قوم » هو الوجه ، وكذلك أدخله سيبويه فى (باب مالا يكون إلّا منصوبا) . قال النحاس : « إلا قوم يونس » نصب لأنه استثناء ليس من الأول ؛ أى لكن قوم يونس ؛ هذا قول الكسائى والأخفش والفراء . ويجوز « إلا قومُ يونس »

(١) آية ٣٣ ص ٣٤٠ من هذا الجزء .

بالرفـع ، ومن أحسن ما قيـل فى الرفع ما قاله أبو إسحـاق الزجاج قال : يكون المعنى غيرُ قومِ يونس، فلما جاء بإلّا أعرب الاسم الذى بعدها بإعراب غير؛ كما قال :

وكُلُّ أخٍ مفارِقه أخـوه * لَعَمْرُ أبيك إلا الفَرْقدانِ

وروى فى قصة قوم يونس عن جماعة من المفسرين : أن قوم يونس كانوا بنِينَوَى من أرض المَوْصل وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسـل الله إليهم يونس عليه السلام يدعوهم الى الإسلام وترك ماهم عليـه فأبَوْا؛ فقيل : إنه أقام يدعوهم تسع سنين فيئس من إيمـانهم؛ فقيل له : أخبرهم أن العـذاب مصبحهم إلى ثلاثٍ ففعـل، وقالوا : هو رجل لا يكذب فارقبوه فإن أقام معكم و بين أظهركم فلا عليكم، و إن آرتحل عنكم فهو نزول العـذاب لا شك ؛ فلما كان الليل تزوّد يونس وخرج عنهـم فأصبحوا فلم يجدوه فتابوا ودعوا الله ولبسوا المُسوح وفرّقوا بين الأمهات والأولاد من الناس والبهائم، و ردّوا المظالم فى تلك الحالة . وقال ابن مسعود : وكان الرجل يأتى الحجر قد وضع عليه أساس بنيانه فيقتلعه فيردّه ؛ والعذاب منهم فيما روى عن ابن عباس على ثلثى مِيـل . ورُوى على ميـل . وعن ابن عباس أنهم غشيتهم ظُلّة وفيها حمرة فلم تزل تدنو حتى وجدوا حرّها بين أكتافهم . وقال ابن جبير : غشيهم العـذاب كما يغشى الثوب القبر، فلما صحت توبتهم رفع الله عنهم العذاب . وقال الطبرى : خص قوم يونس من بين سائر الأمم بأن تِيب عليهم بعد معاينة العذاب ؛ وذكر ذلك عن جمـاعة من المفسرين . وقال الزجاج : إنهم لم يقع بهم العذاب، و إنما رأوا العلامة التى تدل على العذاب، ولو رأوا عين العذاب لمـا نفعهم الإيمان .

قلت : قول الزجاج حسن؛ فإن المعاينة التى لا تنفع التوبة معها هى التلبس بالعذاب كقصة فرعون ، ولهـذا جاء بقصة قوم يونس على إثر قصة فرعون لأنه آمن حين رأى العذاب فلم ينفعه ذلك، وقوم يونس تابوا قبل ذلك . ويَعْضُد هذا قولُه عليه السلام : " إن الله يقبل توبة العبد مالم يُغَرْغِر" . والغرغرة الحشرجة، وذلك هو حال التلبس بالموت ، وأما قبل ذلك فلا . والله أعلم . وقد روى معنى ماقلناه عن ابن مسعود، وأن يونس لمـا وعدهم العذاب إلى ثلاثة

أيام خرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه فتابوا وفرقوا بين الأمهات والأولاد ؛ وهذا يدل على توبتهم قبل رؤية علامة العذاب . وسيأتى مسندا مبينا فى سورة «الصافات» إن شاء الله تعالى . ويكون معنى ﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ ﴾ أى العذاب الذى وعدهم به يونس أنه ينزل بهم ، لا أنهم رأوه عيانا ولا مخايلة ؛ وعلى هـذا الإشكال لا تعارض ولا خصوص ، والله أعلم . وبالجملة فكان أهل نينوى فى سابق العلم من السعداء . وروى عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : إن الحذر لا يرد القدر ، وإن الدعاء ليرد القدر . وذلك أن الله تعالى يقول : «إلا قَوْمَ يُونُسَ لمـا آمنوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فى الحياة الدنيا » . قال على رضى الله عنه : وذلك يوم عاشوراء .

قوله تعالى : ﴿ وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ قيل إلى أجلهم ؛ قاله السُّدّى . وقيل : إلى أن يصيروا إلى الجنة أو النار ؛ قاله ابن عباس .

قوله تعـالى : وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ أى لاضطرهم إليه . «كُلُّهم» تأكيد لمن . «جميعا» عند سيبويه نصب على الحال . وقال الأخفش : جاء بقوله جميعا بعد كل تأكيدا ؛ كقوله : «لَا تَتَّخِذُوا إِلٰهَيْنِ اثْنَيْنِ[1] » .

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ قال ابن عباس : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم حريصا على إيمان جميع الناس ؛ فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة فى الذِّكر الأوّل ، ولا يضلّ إلا من سبقت له الشقاوة فى الذكر الأوّل . وقيل : المراد بالناس هنا أبو طالب ؛ وهو عن ابن عباس أيضا .

قوله تعـالى : وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾

(١) آية ٥١ سورة النحل .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ «ما» نفى؛ أى ما ينبغى أن تؤمن نفس إلا بقضائه وقدره ومشيئته وإرادته . ﴿ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ ﴾ وقرأ الحسن وأبو بكر والمفضّل «ونجعل» بالنون على التعظيم . والرِّجس : العذاب ؛ بضم الراء وكسرها لغتان . ﴿ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أمرَ اللهِ عز وجل ونهيه .

قوله تعالى : قُلِ ٱنظُرُوا مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أمرٌ للكفار بالاعتبار والنظر فى المصنوعات الدّالة على الصانع والقادر على الكمال . وقد تقدّم القول فى هذا المعنى فى غير موضع مستوفًى[1] . ﴿ وَمَا تُغْنِي ﴾ « ما » نفى؛ أى ولن تغنى . وقيل استفهامية؛ التقدير أىّ شىء تغنى . ﴿ الْآيَاتُ ﴾ أى الدّلالات . ﴿ وَالنُّذُرُ ﴾ أى الرسل؛ جمع نذير، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم . ﴿ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى عمن سبق له فى علم الله أنه لا يؤمن .

قوله تعالى : فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ الأيام هنا بمعنى الوقائع؛ يقال : فلان عالم بأيام العرب أى بوقائعهم . قال قتادة : يعنى وقائع الله فى قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم . والعرب تسمى العذاب أياما والنِّعم أياما؛ كقوله تعالى : «وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ»[2] . وكل ما مضى لك من خير أو شر فهو أيام . ﴿ فَانْتَظِرُوا ﴾ أى تربصوا؛ وهذا تهديد ووعيد . ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ أى المتربصين لموعد ربى .

---

(١) راجع ج ٧ ص ٣٣٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٥ سورة ابراهيم .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى من سنتنا إذا أنزلنا بقوم عذابا أخرجنا من بينهم الرسل والمؤمنين، و « ثُمَّ » معناه ثم اعلموا أنا ننجى رسلنا . ﴿ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا ﴾ أى واجبا علينا ؛ لأنه أخبر ولا خُلف فى خبره . وقرأ يعقوب « ثم نُنْجِى » مخففا . وقرأ الكسائى وحفص ويعقوب « ننجى المؤمنين » مخففا ؛ وشدد الباقون ؛ وهما لغتان فصيحتان : أنجى يُنْجِى إنجاء، ونَجَّى يُنَجِّى تنجية بمعنًى واحد .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ يريد كفار مكة . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي ﴾ أى فى ريب من دين الإسلام الذى أدعوكم إليه . ﴿ فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ من الأوثان التى لا تعقل . ﴿ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ أى يميتكم ويقبض أرواحكم . ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى المصدقين بآيات ربهم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ « أن » عطف على « أن أكون » أى قيل لى كن من المؤمنين وأقم وجهك . قال ابن عباس : عملك ، وقيل نفسك ؛ أى استقم بإقبالك على ما

أمرت به من الدين . ﴿حَنِيفًا﴾ أى قويما به مائلا عن كل دين . قال حمزة بن عبد المطلب :

حمدت الله حين هدى فؤادى * من الإشراك للدين الحنيف

وقد مضى فى « الأنعام »[1] اشتقاقه والحمد لله . ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أى وقيل لى لا تشرك؛ والخطاب له والمراد غيره؛ وكذلك قوله : ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ أى لا تعبد . ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ﴾ إن عبدته ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إن عصيته ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ أى عبدت غير الله ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أى الواضعين العبادة فى غير موضعها .

قوله تعالى : وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أى يصبك به ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾ أى لا دافع ﴿لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ أى يصبك برخاء ونعمة ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ﴾ أى بكل ما أراد من الخير والشر ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ لذنوب عباده وخطاياهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ بأوليائه فى الآخرة .

قوله تعالى : قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾

قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ﴾ أى القرآن . وقيل الرسول صلى الله عليه وسلم . ﴿مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى﴾ أى صدّق محمدا وآمن بما جاء به ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٨ . وقد تكلم عنه المؤلف فى البقرة مستوفى فراجعه فى جـ ٢ ص ١٣٩ طبعة ثانية .

أى الخلاص نفسه ﴿ وَمَنْ ضَلَّ ﴾ أى ترك الرسول والقرآن واتبع الأصنام والأوثان ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أى وبال ذلك على نفسه ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أى بحفيظ أحفظ أعمالكم إنما أنا رسول . قال ابن عباس : نسخها آية السيف .

قوله تعالى : وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ ﴾ قيل : نسخ بآية القتال . وقيل : ليس منسوخا ، ومعناه اصبر على الطاعة وعن المعصية . وقال ابن عباس : لما نزلت جمع النبيّ صلى الله عليه وسلم الأنصار ولم يجمع معهم غيرهم فقال : " إنكم ستجدون بعدى أَثَرَةً (١) فاصبروا حتى تلقونى على الحوض " . وعن أنس بمثل ذلك ، ثم قال أنس : فلم يصبروا فأمرهم بالصبر كما أمره الله تعالى ؛ وفى ذلك يقول عبد الرحمن بن حسان :

ألا أبلغ معاوية بن حرب * أمير المؤمنين نَثَا (٢) كلامى
بأنا صابرون ومنظروكم * إلى يوم التغابن والخصام

﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ابتداء وخبر ؛ لأنه عز وجل لا يحكم إلا بالحق .

تمت سورة يونس ، والحمد لله وحده

---

(١) أى يستأثر عليكم فيفضل غيركم فى نصيبه من الفىء .　　(٢) النثا فى الكلام يطلق على القبيح والحسن .

* * *

تم الجزء الثامن من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء التاسع ، وأوله :

" سورة هود "

* * *

كَمُلَ طبع الجزء الثامن من كتاب "الجامع لأحكام القرآن للقرطبى"
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الأحد ٥ رجب سنة ١٣٥٨
(٢٠ أغسطس سنة ١٩٣٩) م

محمد نديم

ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٨/٧١/٥٠٠٠)

